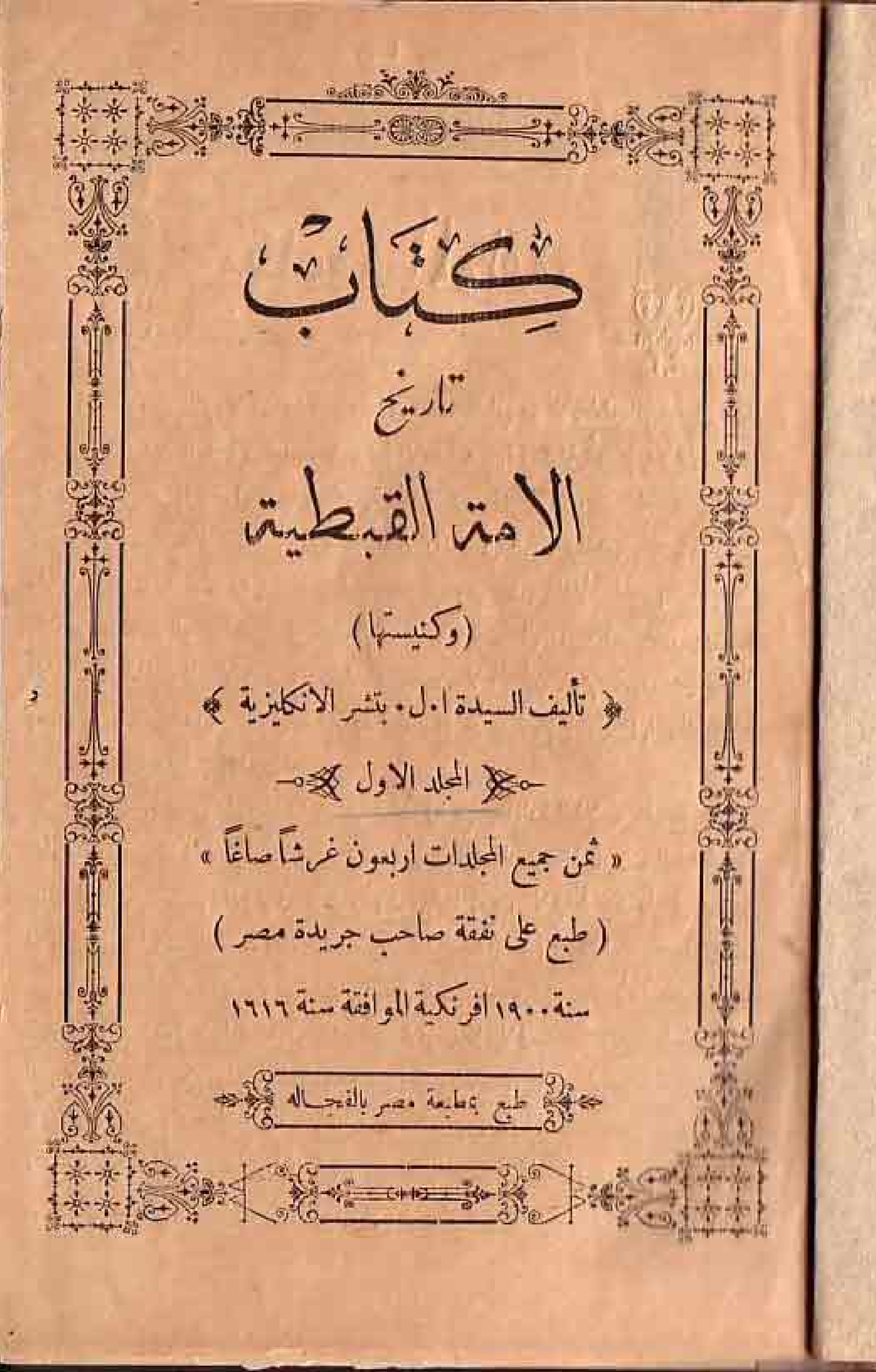

shero4jesus@gmail.com



كتاب

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

« تأليف السيدة ا٠ل٠ بتشر الانكليزية »

المجلد الاول

« ثمن جميع المجلدات اربعون غرشاً صاغاً »

(طبع على نفقة صاحب جريدة مصر)

سنة ١٩٠٠ افرنكية الموافقة سنة ١٦١٦

طبع بمطبعة مصر بالفجاله



مقدمة المؤلفة

ان الغرض الذي لاجله وضعت هذا الكتاب التالي هو الابحاث التي وصل اليها جمهور المؤرخين والباحثين فيما يتعلق ببقية الامة المصرية القديمة أو هم الاقباط وهو يبتدئ من تاريخ دخول الديانة المسيحية هذه البلاد لحد الآن . وتاريخ هذه الامة ممتزج من اوله لآخره باقوام كثيرة مختلفة اغارت على البلاد وملكتها من رومان واروام وعرب واكراد وشراكسة واتراك وغيرهم وهم الذين اذلوا المصريين وجعلوا بلادهم مستباحة لهم . ولقد اسفر بحث الباحثين المدققين على ان اعقاب المصريين الاصليين الباقين الى الآن هم الاقباط المسيحيين لا المسلمين وهم الذين عنيت انا بعد عناء كثير وشغل متواصل بوضع هذا التاريخ الوافي عنهم ليسهل على القراء معرفة اصلهم ونسبهم ودياناتهم بدون تعب

والذي حدى بي الى هذا العمل هو اولاً رغبتي في افادة الطلاب بتاريخ هذه الامة القديمة وثانياً اقامتي مدة عشرين سنة في القطر المصري اذ قدرت ان اطوف جائلة في اكثر القرى والكفور حيث رأيت فيها المسيحيين الاقباط لازالوا على عهدهم الاول من التمسك بالعقائد والتقاليد القديمة المنقولة عن الآباء الاولين حيث سمعت من افواه البسطاء حكايات وروايات عما كان للمصريين من المجد والسؤدد مما اثبته البحث واكده العلم . ولقد تعبت كثيراً في الوقوف على الازمنة الصحيحة ولست اقول انني في عصمة في عملي هذا ولكنه يمكن ان يكون اكثر من غيره ضبطاً واتقاناً . فاذا قام احد غيري وكتب تاريخاً اصح من هذا فلا ريب ان معظم الفضل ينسب اليّ لانني السابقة في حلبة هذا الميدان وكنت قد وضعت جدولاً يحتوي اسم كل ملك او وزير او امير او خليفه او سلطان او بطريرك له علاقة بمصر او ملك عليها ولكنني

رايت نشره لا يفيد القراء كثيراً لطوله فاقتصرت على نشر جدول البطاركة فقط .

ولا ريب في ان القراء سيجدون اختصاراً كثيراً في الاربعة القرون الاولى فيما يختص بالامور اللاهوتية ولكنهم سيشكرونني كثيراً لانني توسعت لهم في ذكر حوادث نحو ١٩٠٠ سنة تبتدئ من حكم البطالسة لحد الآن

ولست اخفي عن القارئ الحيرة التي وقعت فيها في اختبار بعض الحقائق التاريخية التي كنت اشك في صحتها لانها كتبت بايدي اناس لا اشك في تحيزهم ووجود ضلع لهم مع الذين كتبوا عنهم كتاريخ القرن السابع مثلاً الذي كتب اكثره جماعة المسلمين عن المسلمين انفسهم ولكن على اي حال فان تاريخ الكنيسة القبطية اجمالياً لا يقل في الفخر والمجد عن تاريخ كنيسة اخرى غربية بل قد يفوق باكثرها . فانه اذا كان الانكليزي مثلاً يفتخر بمجد كنيسته وقديسيها فيجب عليه ان يتذكر انه في المسيح لا فرق بين اليهودي واليوناني ولا تمييز بين العبد والحر . كذا لا يعرف المسيح يونانياً او رومياً انكليزياً او مصرياً بل الجميع سيقفون امامه يوم الدينونة ويقدمون حساباً عما جنته ايديهم . اذاً فالعبرة ليست بالكنيسة او بالجنسية بل بالايمان والاعمال

اما تاريخ الكنيسة القبطية وحدها فقد كتبه كثيرون من اعاظم رجالها الاولين بداءة بكتابته سويرس اسقف الاشمونين (بمركز ملوي بمديرية اسيوط) في النصف الثاني من القرن العاشر واتمه ميخائيل اسقف طانيس لحد سنة ١٢٤٣ وقد بقيت نسخة واحدة من هذا التاريخ هي الآن موجودة في باريس ولم يعتن احد بترجمتها الى احدى اللغات الاوروبية وقد اخذت هذا التاريخ من عدة مؤلفات كثيرة بينها كتابان قبطيان عظيما القيمة اعتمدت عليهما في اكثر الحقائق التي نقلتها

هذا ولا يسعني الا الثناء الكثير على حضرات مرقص بك سميكه الذي ساعدني كثيراً في وضع هذا الكتاب والاستاذ فولر بالكتبخانة الخديوية واقربني الذي اخذ بيدي ومهد لي سبل الصعوبات الجمة التي اعترضتني في طريقي ولا زلت مديونة له في كل عمل من الاعمال

(الامضاء)

تحريراً بكنيسة القاهرة سنة ١٨٩٧ (مسز) ا . ل . بتشر

فهرست المجلد الاول



مقدمة

صاحب جريدة مصر
(الذي وقف على طبع الكتاب)

اذا قرأ القارئ تاريخ الامة القبطية التي عنت بوضعه هذه السيدة الانكليزية الفاضلة يرى انها أمة لم ير لها نظير بين أمم الارض في المصائب التي تراكمت عليها من سيف ونار واضطهاد وعذاب وحروب داخلية وخارجية وثورات اهلية وغارات دينية وغير هذه البلايا التي لو حاقت واحدة منها بأقوى أمم الزمان لما بقي لها في عالم الوجود وجود. ان القارىء الفطن اذا انعم نظره في هذه النكبات التي حلت بهذه الامة الاسيفة مدة عشرين قرناً لابد وان يشفق عليها ويرثي لتضعضع حالها الحاضر ويرى انها قاومت الدهر بقوة تخالف القوة المحدودة في الناموس الطبيعي

ولا مراء في ان الامة القبطية الحاضرة بما عرف عنها من الذكاء الخارق والفطنة الموروثة تستفيد من تاريخها هذا فائدة لا تجدها في غيره اذ تقف على حقيقة ما فيها باجلى بيان ويتجلى لها مجدها القديم الذي انهار وضاع فتعمل على استرجاعه وتعرف قوة آبائها وسؤددهم فتسعى في اعادته وازاحة الستار عنه

ومعلوم للقراء ان هذا التاريخ يمتاز عن غيره من التواريخ الاخرى التي كتبت عن الامة القبطية في انه صحيح دقيق لم يترك شاردة إلا وسجلها في باطنه فضلاً عن انه كتب بروح خالية من الغرض أو الجبن الذي اضاع أكثر الحقائق التاريخية في التواريخ الاخرى التي لها علاقة بالقرن السابع كما شهد بذلك كل من قرأ التواريخ التي ظهرت مؤخراً بشأن هذه الامة فانه يجد روح الخوف من لا شيء يرف على كل صفحة من صفحاتها

هذا وكنا قد عزمنا على اصدار هذا التاريخ في مجلدين ولكن لطوله وكبر حجمه وتشوق الناس الى قراءته اصدرناهذا المجلد بعد تقسيم الاصل الانكليزي الى اربعة مجلدات سيبرز الثاني والثالث والرابع منها بالتوالي عن قريب

ونحن واثقون في ان اقبال الادباء عليه يكون بموازاة اهميته وفائدته

هذا ولا يسعنا إلا امتداح غيرة وهمة حضرة النشيط اسكندر أفندي تادرس احد موظفي نظارة الداخليه الذي عني بترجمة هذا الكتاب بالدقة التامة واحكم تطبيق الترجمة على الاصل كما شهد بذلك النابغون في اللغة الانكليزية من ابناء أمتنا القبطية الذين راجعوا الترجمة بامعان وحكموا بصحتها نفع الله بمثله وامثالهم الامة والوطن

﴿ تادرس شنوده المنقبادي ﴾



جدول بطاركة الكنيسة القبطية

	اسماء البطاركة	سني جلوسهم				اسماء البطاركة	سني جلوسهم		
١	مار مرقس	سنة	٤٥	ب . م	٣٥	دميان	سنة	٥٧٠	ب . م
٢	انيانوس	«	٦٢	«	٣٦	انسطاسيوس	.	٦٠٣	.
٣	ابيليوس	«	٨٢	«	٣٧	اندرونيكس	.	٦١٤	.
٤	سردو	«	٩٥	«	٣٨	بنيامين الاول	.	٦٢٠	.
٥	بيريموس	«	١٠٦	«	٣٩	أغاثو	.	٦٥٩	.
٦	يسطس	«	١١٨	«	٤٠	يوحنا الثالث	.	٦٧٧	.
٧	يومينوس	«	١٢٩	«	٤١	أسحق	.	٦٨٦	.
٨	مرشيون	«	١٤١	«	٤٢	سمعان الاول	.	٦٨٩	.
٩	سيلاديون	«	١٥٢	«	٤٣	اسكندر الثاني	.	٧٠٣	.
١٠	اغريبينوس	«	١٦٦	«	٤٤	قصماس الاول	.	٧٢٦	.
١١	بوليانوس	«	١٧٨	«	٤٥	ثاوضروس	.	٧٢٧	.
١٢	دمتريوس الاول	«	١٨٨	«	٤٦	مخائيل الاول	.	٧٤٣	.
١٣	هراكلاس	«	٢٣٢	«	٤٧	مينا الاول	.	٧٦٧	.
١٤	ديونيوس	«	٢٤٦	«	٤٨	يوحنا الرابع	.	٧٧٦	.
١٥	مكسيموس	«	٢٦٤	«	٤٩	مرقس الثاني	.	٧٩٩	.
١٦	ثيوناس	.	٢٨٢	«	٥٠	يعقوب	.	٨١٩	.
١٧	بطرس الاول	.	٣٠٠	«	٥١	سمعان الثاني	.	٨٣٦	.
١٨	اخيلاس	.	٣١١	«	٥٢	يوسف	.	٨٣٧	.
١٩	اسكندر الاول	.	٣١٣	«	٥٣	مخائيل الثاني	.	٨٤٩	.
٢٠	اثناسيوس الاول	.	٣٢٦	«	٥٤	قصماس الثاني	.	٨٥١	.
٢١	بطرس الثاني	.	٣٧٣	«	٥٥	شنوده الاول	.	٨٥٩	.
٢٢	تيموثاوس الاول	.	٣٨٠	«	٥٦	مخائيل الثالث	.	٨٦٩	.
٢٣	توفيلس	.	٣٨٤	«	٥٧	غبريال الاول	.	٩١٠	.
٢٤	كيرلس الاول	.	٤١٢	«	٥٨	قصماس الثالث	.	٩٢١	.
٢٥	ديسقورس الاول	.	٤٤٤	«	٥٩	مكاريوس الاول	.	٩٣٣	.
٢٦	تيموثاوس الثاني	.	٤٥٧	«	٦٠	طومانيوس	.	٩٥٣	.
٢٧	بطرس الثالث	.	٤٧٧	«	٦١	مينا الثاني	.	٩٥٦	.
٢٨	اثناسيوس الثاني	.	٤٩٠	«	٦٢	افرايم	.	٩٧٥	.
٢٩	يوحنا الاول	.	٤٩٧	«	٦٣	فيلوثاوس	.	٩٧٩	.
٣٠	يوحنا الثاني	.	٥٠٧	«	٦٤	زخارياس	.	١٠٠٤	.
٣١	ديسقورس الثاني	.	٥١٧	«	٦٥	شنوده الثاني	.	١٠٣٢	.
٣٢	تيموثاوس الثالث	.	٥٢٠	«	٦٦	خريستودلوس	.	١٠٤٧	.
٣٣	تيودوسيوس ١	.	٥٣٦	«	٦٧	كيرلس الثاني	.	١٠٧٨	.
٣٤	بطرس الرابع	.	٥٦٨	«	٦٨	مخائيل الرابع	.	١٠٩٢	.

	اسماء البطاركة	سني جلوسهم
٦٩	مكاريوس الثاني	سنة ١١٠٢ ب.م
٧٠	غبريال الثاني	١١٣١
٧١	مخائيل الخامس	١١٤٥
٧٢	يوحنا الخامس	١١٤٦
٧٣	مرقس الثالث	١١٦٦
٧٤	يوحنا السادس	١١٨٩
٧٥	كيرلس الثالث	١٢٣٥
٧٦	اثناسيوس الثالث	١٢٥٠
٧٧	غبريال الثالث	١٢٦٩
٧٨	يوحنا السابع	١٢٧١
٧٩	تودسيوس الثاني	١٢٩٤
٨٠	يوحنا الثامن	١٣١١
٨١	يوحنا التاسع	١٣٢١
٨٢	بنيامين الثاني	١٣٢٧
٨٣	بطرس الخامس	١٣٤٠
٨٤	مرقس الرابع	١٣٤٨
٨٥	يوحنا العاشر	١٣٦٣
٨٦	غبريال الرابع	١٣٧١
٨٧	متى الاول	١٣٧٥
٨٨	غبريال الخامس	١٤٠٩
٨٩	يوحنا الحادي عشر	١٤٢٧
٩٠	متى الثاني	١٤٥٣
٩١	غبريال السادس	١٤٦٧
٩٢	مخائيل السادس	سنة ١٤٧٥ ب.م
٩٣	يوحنا الثاني عشر	١٤٨١
٩٤	يوحنا الثالث عشر	١٥٢١
٩٥	غبريال السابع	١٥٢٦
٩٦	يوحنا الرابع عشر	١٥٧٠
٩٧	غبريال الثامن	١٥٨٥
٩٨	مرقس الخامس	١٦٠٢
٩٩	يوحنا الخامس عشر	١٦١٩
١٠٠	متى الثالث	١٦٢٩
١٠١	مرقس السادس	١٦٤٦
١٠٢	متى الرابع	١٦٦٠
١٠٣	يوحنا السادس عشر	١٦٧٦
١٠٤	بطرس السادس	١٧١٨
١٠٥	يوحنا السابع عشر	١٧٢٧
١٠٦	مرقس السابع	١٧٤٥
١٠٧	يوحنا الثامن عشر	١٧٧٠
١٠٨	مرقس الثامن	١٧٩٧
١٠٩	بطرس السابع	١٨٠٩
١١٠	كيرلس الرابع	١٨٥٤
١١١	دمتريوس الثاني	١٨٦٢
١١٢	كيرلس الخامس (وهو البطريرك الحالي)	١٨٧٥



الجزء الاول

الفصل الاول

﴿ مجيء قيصر الى مصر ﴾

قد يتوهم المرء ان تاريخ قرن واحد مما لا يعتد به كثيراً في حياة امة يقدّر عمرها بالقرون لا بالسنين ويقتضي لتشييد معبدها الاعظم اكثر من الفي سنة ولتداعي دعائمه الى السقوط نحو مثل هذا الامد ايضاً من الزمان ولكن الحقيقة ان في ظرف مائة سنه فقط زار مصر ثلاثة زائرين تغيرت فيها كافة احوالها ومظاهر حياتها الملية تغيراً كلياً مدة اجيال مديدة . وبيان ذلك انه فيما بين السنة الثلاثين قبل الميلاد والسنة الستين بعده شهدت مصر مجيء اوغسطس قيصر أولاً ثم مجيء السيد المسيح ثم مجيء مار مرقس الانجيلي

أما القيصر الذي في عهده ضمت مصر القديمة الى المملكة الرومانية فهو أوغسطس قيصر الذي جاء عنه في العهد الجديد بانه «امر بان تكتتب جميع المسكونة» وكان وقوع مصر في قبضة يده في السنة الثلاثين قبل

التاريخ المسيحي فجعلها ولاية رومانية ولو لم يكن الرومان منذ بداية امرهم الى نهايته الا طائفة أجنبية يحتقرها المصري ويبغضها ولكنه يخافها ويخشى بأسها على عكس ما كان بينه وبين اليونان الذين سبقوا الرومان اليها . على ان مصر لم تعتبر قط اقليماً رومانياً بحصر اللفظ بل كانت اشبه شيء بمرتزق خصوصي للامبراطور القابض على زمام السلطنة الرومانية بحيث كان لا يجوز لاحد ما من اعضاء مجلس شيوخ الدولة ان يطأ أرضها أو يقيم بها

ولاجل الاحاطة باطراف موضوع تاريخنا سنبسط في هذا الفصل بالايجاز حالة مصر التي كانت عليها قبل الفتح الروماني أي قبيل دخول النصرانية اليها بزمن قليل فنقول :

كان سكان مصر لذلك العهد يؤلفون على الاجمال من ثلاث طوائف : اليونان واليهود والمصريين ومن هؤلاء يؤلف العدد الاكبر والسواد الاعظم أما الآن فلا يبلغ عدد الاقباط في نفس بلادهم (ونعني بالاقباط المصريين الذين لا تشوب جنسيتهم شائبة الاختلاط) نصف ما بلغ عدد اليهود المستوطنين بديار مصر وقت الفتح الروماني . والسبب في زيادة هذين العنصرين الاجنبيين هو استمرار مهاجرة اليونان واليهود الى هذا القطر مدة حكم البطالسة عليه الى درجة اصبح فيها كل فريق منهما حينئذ عبارة عن امة اجنبية مستقرة في البلاد ممتازة بلغتها وشريعتها عن سواها

أما اليونان فكانوا مع طول عهدهم بمصر وتناسلهم ونموهم بين مائها وسمائها اجيالاً عديدة لا يزالون يضعون انفسهم في منزلة النزلاء والفاتحين ولا يرضخون لسيادة الرومان وقياصرتهم الا ظاهرياً غير ان البأس والحمية الحربية التي كانت شعاراً لاجدادهم اصبحت لهذا العهد فيها اثراً بعد عين ولم يبق لهم ما يشغلهم من الشؤون الا المتاجر والاشغال الادبية وكانوا يقيمون في مدنهم الخاصة بهم وهي في الغالب عبارة عن مراكز تجارية محصنة يعيشون فيها احراراً هازئين بحكامهم من الرومان كأنهم لم يرضخوا لنيرهم الا لان ذلك أقرب الطرق للوصول الى ما يبتغونه من الثروة واليسار وبهذه الحالة كان القليل من الجنود الرومانية يكفي لابقاء المملكة المصرية برمتها في حالة الطاعة والخضوع

وكانت الاسكندرية أم المدائن اليونانية في مصر أو هي باريس العالم القديم باسره . وكانت بطليموسة وهي مدينتهم الاخرى في هذا القطر اكبر مدن الصعيد وقت افتتاح الرومان لمصر ولا تكاد تقل في الاهمية عن مدينة ممفيس المصرية . اما هليوبوليس مدينة العلم القديمة ومدرسة مصر الجامعة ومقصد الطلاب من قدماء فلاسفة اليونان فكانت قد اصبحت في ذلك الحين قاعاً صفصفاً لا ترى فيها سوى بعض أطلال بالية يقال انها بقايا الدور التي سكنها افلاطون وغيره من فلاسفة اليونان

وكان على الضد من ذلك مدينة بابليون مفتاح الجنوب التي وضع الفرس اساسها واخذت في الاتساع والنمو حتى بلغت من الاهمية مبلغاً عظيماً

الى أن جاء الرومان فزادوا في عظمتها بتشييد الحصون والمعاقل وانشاء المباني الواسعة بها

ومن اقدم مواطن اليونان في الديار المصرية مدينة نوكراتيس وكان فيها مدرسة جامعة شهيرة بقيت ابوابها مفتوحة الى اواخر القرن الثاني بعد الميلاد

اما مدينتا طيبة وابيدوس فكانتا كلتاهما قد انحطتا الى درجة قرية بسيطة . واما قورينة وهي مستعمرة يونانية تابعة لمصر منذ اكثر من مائتي سنة ومعتبرة جزءاً منها فكانت لا تزال زاهية بمدرستها الجامعة عامرة بتجارتها الواسعة وقد استمرت كذلك الى نهاية القرن الرابع بعد المسيح

الحالة الدينية — كانت الطوائف الثلاث متمسكة كل بدينها الاصلي غير ان اليهود والمصريين كانوا اشد تمسكاً وتعصباً من اليونان الذين شاع بينهم وقتئذ نكران الالوهية ونبذ معتقداتهم الدينية وعدم الاكتراث سواء بامر معبوداتهم او امبراطرتهم . وكان الملك بطليموس سوتير قد حاول ايجاد معبود يشترك رعاياه من مصريين ويونانيين في عبادته فابتنى في اسكندرية هيكل سيرابيس العظيم واقام فيه تمثالاً هائلاً من صنع مدينة سينوب باقليم بافليجونيا اتخذه اليونان والمصريون كناية عن الآله هادس واطلق عليه اولئك اسم (پلوتون) وهولاء اسم (اساراپي) اي اوزيرس المخفي ثم لم يمض عليه قرن بعد ذلك حتى غلبت كلمة سيرابيس التي هي تحريف (اساراپي)

فصارت علماً عليه . وهذه العبادة كانت الجامعة الوحيدة بين اليونان والمصريين غير انها مع كل ذلك لم تتعدَّ اسوار اسكندريه حتى زمن دخول النصرانية الى بلاد مصر

اما ديانة المصريين القديمة فكانت قد اندرست منذ عهد طويل وحل محلها مجرد عبادة الحيوانات . وكأنما تلك المعاني الروحية والاصول الادبية التي كان لها اشد تأثير على عقول الملوك وفلاسفة الازمنة الغابرة قد فارقها ولم يبق منها أثر الا ما كان مستتراً طيَّ حكاية لا تعقل او خرافة لا تصدق واصبحت البهائم والطيور التي لم تكن في الاصل على ما يظهر سوى علائم على الاقاليم المختلفة او شعاراً متخذاً للدلالة على كل منها موضوع عبادتهم الآن كآلهة في السر والعلن وكانت سبباً لمنازعات ومنافسات شديدة كثيراً ما أدت لاصلاء نار حرب داخلية بين اقليم وآخر وكان هذا من اقوى عوامل تشتيت شمل الامة وعجزها عن الاتحاد والوقوف في وجه اي عدو كان ولو اجنبياً عنها . وكان المعبود الاعظم في مدينة ممفيس الثور أبيس وفي أومبوس التمساح وفي اوكسيرينكون نوع مخصوص من سمك النيل وفي مدينة سيوط الذئب وفي سينوبوليس الكلب وهلمَّ جرا مما يطول شرحه . نعم ان كثيرين من الكهنة والخواص كانوا لا يزالون يعتقدون بآله واحد في ثلاثة اقانيم وانه الفاعل لكل خير وان بقية الآلهة ليست الا عبارة (رمز) عن مظاهره وتجلياته المتعددة غير ان هؤلاء

كانوا يترفعون على العامة والسوقة ويعتبرونهم احقر من ان يتداخلوا في منافساتهم بشأن الطيور والحيوانات التي حلت محل الدين عندهم . وكان لهم مثل يضربونه في هذه الاحوال يظهر منه انه كان لا يزال في المصريين لذلك العهد من لا يعتد بظواهر التدين ولا يعتبر التمسك بشعائر وتقاليد الدين الخارجية شيئاً بالنسبة للايمان الصحيح مع عيشة التقوى وهذا هو المثل « ليس بالكتان الابيض وقص الشعر تكون تقوى ايزس »

وكان المصريون يمارسون كثيراً شكلاً مخصوصاً من الرياضة الروحية يظهر انه يلازم في الغالب حالة الامة اذا صارت الى درجة سافلة في معتقدها فمن ذلك مزاولتهم استحضار ارواح الموتى في نظير جعل يأخذونه من الطالب واستجواب تلك الارواح على ما يلقى عليها من الاسئلة وكذلك استعمال التكلم من الباطن واستخدام ذلك في مثل ما ذكر من الاغراض ولا يخفى ان هذا الفن بقي معروفاً في مصر على الدوام

اما فيما يتعلق بالصناعات فلنذكر اولاً ان المصريين في ذلك الوقت كانوا قد عادوا لضرب العملة في بلادهم واستمروا على ذلك عدة قرون حتى قبيل تولي كلوديوس قيصر وتعتبر المجموعة الكاملة من هذه النقود من اثمن الآثار لدى المؤرخين . ثم انهم كانوا يستخدمون العبيد والمجرمين والاشقياء في استخراج الكميات الوافرة من محاجر البرفير ومعادن الزمرد التي اندثر اثرها بعد ذلك حتى لم يخطر على البال وجودها اصالة الى أن اكتشفت ثانية في ايامنا هذه . وكانت في مصر ايضاً معامل

ومصانع طائرة الصيت في جميع انحاء العالم المتمدن وقتئذ . فمنها ما كان خاصاً بتركيب الادوية والعقاقير وانواع الاصبغة . ومنها معامل الورق والحرير والزجاج هذا فضلاً عن شهرتها في المحاصل الزراعية . وكفى دليلاً عليها ان مصر كانت تقدم الى سادتها الرومان منذ توليهم عليها مقادير جسيمة جداً من الحنطة في كل عام . وكان المصريون لذلك الحين يصطنعون من الورق ثمانية انواع مختلفة ثم اخترعوا نوعاً تاسعاً منه في عهد كلوديوس قيصر فسموه باسمه اكراماً وتعظيماً له . وكانت تصنع الكميات الوافرة ايضاً من منسوجات الكتان والقطن وكذلك من نبيذ العنب ولكنه كان لا يضاهي انبذة اليونان وايطاليا في جودته . وكانت تستخرج ايضاً بمصر الجعة (البيرا) ويشرب المصريون منها مقادير وافرة ولا تزال تصنع الى يومنا هذا غير ان زراعة الكروم قد بطلت برمتها تقريباً لهذا العهد لاسباب سنأتي على ذكرها بعد

اما عن سودان مصر الذي كان في عهد الفراعنة وبعض ملوك البطالسة محتوياً على اقاليم تعتبر من اهم اجزاء المملكة المصرية فلم يكن لمصر منه قيد شبر باقياً حينما افتتحها الرومان بل لم يكن وقتئذ يرد الى اصوان مما يليها جنوباً اي شيء كان من بضائع ذلك السودان ومحاصيله عن طريق النيل واصبحت حاصلات افريقيا الجنوبية تأتي بها السفن الى ميناء بيرنيس بحراً فقط . ثم بعد ان تم فتح الرومان لمصر لم يتيسر لهم مطلقاً توسيع نطاق فتوحاتهم الى ما يجاوز وادي حلفا بل كثيراً

ما التزموا ان يعتبروا حدهم الجنوبي الى الشمال من حلفا . وزد على ذلك انه في عهد اوغسطس قيصر ارسلت كنداكة ملكة الحبشة جيشاً مؤلفاً من ثلاثين الف مقاتل الى مصر لشن الغارة عليها فظفر هولاء الاحباش بالجنود الرومانية في جزيرة الفتين (أنس الوجود) واصوان وجزيرة اصوان (فيلا) ولكنهم تقهقروا بعد ذلك من امام القائد الروماني جالوس فاقتفى أثرهم الى ان دخل مدينة بناطة عاصمة مملكتهم ظافراً منصوراً ومن ثم قفل راجعاً الى مصر

ولنرجع الى الكلام عن شعوب مصر فنقول : لا شك ان عدد اليهود كان يبلغ مليوناً من النفوس تقريباً وقت افتتاح الرومان لمصر فان مهاجرتهم اليها استمرت عدة قرون منذ قام يوحنا بن قاريح واخذ بقية يهوذا مع ارميا النبي وباروخ بن نيريا وأتى بهم رغماً عن معارضة ارميا الى ارض مصر الى تحفنحيس ومجدل ونوف وارض بثروس فحلت عليهم بمصر مصائب كثيرة كما تنبأ عن ذلك ارميا . غير ان ذلك لم يكن ليوقف تيار المهاجرة بدليل انه بعد ثلاثمائة سنة من ذلك التاريخ اي عقيب اغارة الفرس على مصر وانتقالها لليونان من بعدهم كان عدد اليهود فقط الذين عتقهم من الرق بطليموس فيلادلفوس يبلغ في مصر مائة وعشرين الفاً وهؤلاء طبعاً هم الذين كانوا أخذوا اليها رغم انفسهم في اثناء حروب ابيه مع ملك سوريا ولكن لا شك انه كان يوجد بمصر الوف غيرهم من اليهود الاحرار الذين قصدوها طوعاً واختياراً منجذبين اليها بما

اشتهر عنها من وفرة خيراتها وحسن نظام حكومتها بحيث لا يصح لنا مطلقاً الحكم بان المائة وعشرين الفاً المذكورة آنفاً كانت عبارة عن جميع اليهود القاطنين بمصر في زمن بطليموس فيلادلفوس . وفضلاً عما تقدم فانه في عهد بطليموس فيلومتر التجاء اونياس بن حنانيا رئيس الكهنة الى مصر وأذن له الملك بتشييد الهيكل الذي اشتهر بعد ذلك باسم هيكل أونياس بمدينة ليونتوبوليس بقسم عين شمس باقليم بوباستس فزادت بذلك اسباب الرغبة من اليهود في المجيء الى مصر والتوطن فيها حتى انه في زمن الفتح الروماني كان موطن السواد الاعظم من يهود مصر بقسم عين شمس (هليوبوليس) أو بمدينة الاسكندرية حيث اختصوا منها بقسمين كاملين من اقسامها الخمسة

وكان افراد كل من طائفتي اليونان واليهود الاجنبيتين متمتعين بجميع الحقوق المدنية والسياسية اما المصريون ابناء البلاد فكانت محرمة عليهم هذه المزايا فلا يتقاضى اليهودي مثلاً او اليوناني الا امام قضاة من ابناء جلدته اما المصري فيحاكمه الاجنبي . وقد سعى يونان اسكندرية في سلب الحقوق المذكورة من اليهود ايضاً مدة وجود اوغسطس قيصر بالديار المصرية فردهم خائبين غير انه لم يجد حيلة في ما رآه من احتقار اليونان والمصريين كليهما لتلك الطائفة وازدرائهما بها ولم يسعه الا الصمت على ما تعوده اليونان من اهتضام حقوق ابنائها ومنازعتهم في مالهم

وفي عهد الامبراطور كاليغولا كانت اسكندرية عبارة عن ميدان

حرب متسع الارجاء بين اليونان واليهود اذا ضر اليونان التشفي والانتقام من هؤلاء بان أخذوا على انفسهم اكراه اليهود على العمل بموجب امر اصدره هذا الامبراطور يقضي باقامة تمثاله في جميع المعابد الموجودة بالمملكة واداء العبادة له . ولم ير اليونان طريقة لالزام اعدائهم بالرضوخ لهذا الامر الا بمحاربتهم ومناصبتهم الشر والعداء على الدوام وكان فلاكوس الوالي الروماني اذ ذاك معضداً لليونان فترتب على ذلك اضطهاد اليهود اضطهاداً شنيعاً جداً واتفق حينئذ ان اغريبا ملك اليهود قدم الى الاسكندرية وشاهد تلك الحالة المريعة فابلغ الامر الى كاليغولا وتلطف معه حتى نال منه امراً بعزل الوالي وأذن في حضور وفد من اليونان وآخر من اليهود ليعرضوا الامر عليه في رومية وكان زعيم الوفد اليهودي فيلو الشهير بعلمه وآدابه ونادرة عصره في الفضل والكمال وكان رئيس الوفد الثاني أبيون احد ابناء الاشراف من اليونان وهو اسكندري الاصل والمحتد وكان من فطنة اليونان انهم قصروا شكواهم على امر واحد وهو ان اليهود امتنعوا عن اداء العبادة لتمثال الامبراطور . فلما مثلوا امامه وسألهم كاليغولا في ذلك لم يسع اليهود ان ينكروا فغضب وأبى ان يسمع منهم قولاً بعد ذلك فعادوا يتعثرون باذيالهم غير انه لحسن الحظ لم تطل حياة الامبراطور كاليغولا اذ مات عقيب ذلك بزمن قليل وتولى الملك بعده كلوديوس قيصر وفي عهده التزمت الطائفتان المهادنة والسلم

اما اسباب هذا العداء بينهما فلا ريب انه من اهمها فوز اليهود

مع حقارتهم على اليونان في معظم الامور التي كان هؤلاء يفتخرون بنسبتها اليهم واختصاصهم بها . فقد كان اشهر علماء الاسكندرية وكتابها لذلك العهد من اليهود وكانت مدارس الاسكندرية ولو انحطت منزلتها عما كانت عليه في عهد البطالسة لا تزال مشهورة في جميع انحاء المسكونة غير ان اسماء كبار فلاسفتها ومعلميها اصبحت عبرانية لا يونانية وناهيك بفيلو اليهودي فخر العلم والعلماء بتلك المدينة في القرن الاول للميلاد وكانت عائلة فيلو هذا في الطبقة العليا بالاسكندرية من حيث مركزها الادبي والمالي . اما الرجل فكانت ولادته بمصر عقب الفتح الروماني بمدة وجيزة والظاهر ان هذا البيت كان مقرباً بالمعاملات المالية من أولئك الامبراطرة الظافرين منذ نشأته . فان الاسكندر اخا فيلو ورأس تلك العائلة كان رئيساً لاحدى المصالح بالاسكندرية وموكلاً على اشغال انطونيا اخت امرأة طيباريوس قيصر وكان يقرض اموالاً طائلة للملك اغريبا اليهودي وقيل انه صاهره بان زوج ابنيه بابنتي الملك . وكان للاسكندر ابن ثالث يدعى طيباريوس ترك الديانة الموسوية ونصب بعد ذلك والياً على مصر

وكان فيلو في اثناء هذه المشاغل الهامة العائدة على بيتهم بالارباح الطائلة والجاه العريض منكباً على مزاولة العلوم الفلسفية والدينية والادبية مشتغلا بها عن كل ما سواها فاذا مست الحاجة يوماً الى تداخله في شؤون المدينة او دعته الاحوال الى التقدم للدفاع عن ابناء جلدته

نهض نهضة الشهم الهمام وقام بالواجب عليه خير قيام مودعاً بطون الاوراق عبارات اسفه على مفارقة المحابر والاقلام واستبدال لذة العزلة بخوض بحر السياسة العجاج . والظاهر انه كان في زمن شيخوخته قد اعتاد الخلوة في أوقات معلومة مع جماعة المتوحدين الذين ابقى لنا عنهم ذلك التعبير البديع في مؤلفه المسمى (الحياة الفكرية)

اما مدينة الاسكندرية فبدأت بالانحطاط مذ سرى الفساد في ملك البطالسة . ولو جرى قياصرة الرومان بعد ذلك على خطة الثلاثة ملوك الاول من الدولة البطليموسية لكانت قد عادت بذلك الاسكندرية الى مجدها الاول ولكن تغيير الدولة جاءها ضغثاً على ابالة وذلك ان اوغسطس قيصر تعمد خرابها بانشائه عاصمة جديدة دعاها نيكوبوليس كان موقعها الى شرقي الاسكندرية على مسافة ثلاثة اميال ونقل اليها كهنة المدينة الاصلية بالقهر والاكراه ولكن ارادة اليونان وطبيعة الاحوال كانتا اقوى من ارادته اذ لم تكد تتم تلك العاصمة الجديدة حتى خيم عليها عنكبوت الخراب وتداعت اركانها للسقوط وهكذا بقيت الاسكندريه بعد الفتح الروماني واستمرت زمناً بعد المسيح ايضاً وهي المدينة الاولى في العالم باسره بدون استثناء رومية او اثينا وما على الذي يبغي التحقق من ذلك سوى ان يلتفت الى خريطة الاسكندرية القديمة كما هي مرسومة باحد الكتب الافرنكية الحديثة المسماة « دليل مصر » ثم يقارن بينها وبين المسافة التي تشغلها الان المدينة الحالية المتخذة لنفسها ذلك الاسم

الشهير . وكانت القصور الباذخة والهياكل الفخيمة تشغل ربع مساحة الاسكندرية في السنة الاولى من التاريخ المسيحي وكانت ميناتاها الشهيرتان تشتملان على ما لم تسعه اية مينا اخرى في العالم من السفن وتجارتها الخارجية تفوق على صادرات ايطاليا كلها . وكانت دار التحف والآثار قد شيدت بعد ان احرقها جيش يوليوس قيصر ثم بني بها متحف آخر في عهد كلوديوس قيصر وسمي باسمه . وانشيء بها ايضاً قصر بهي لاقامة القياصرة الرومانيين وسمي (سيزاريوم) اي مسكن القياصرة . وكانت مكتبة هيكل سيرابيس الحصين تحوي زهاء ٧٠٠ الف مجلد كلها مشحونة بغرر حكمة المصريين وعلومهم . وكما كان لليونان المتحف وللمصريين الهيكل كذلك كان يتفاخر اليهود بكنيسهم الاعظم الذي يعتبر من اجمل المباني وافخمها

هذه بوجه الايجاز كانت حالة البلاد والناس الذين اتى ليملك عليهم القيصر الروماني . فهلا عرف يا ترى انه قبل موته يدخل مصر ملك آخر يخضع لسلطته اليوناني والروماني واليهودي والمصري على السواء وان اسمه يذيع ويشيع في كل زمان ومكان حيثما لم تصل السطوة الرومانية ولم يتردد صدى نفوذها

الفصل الثاني

« مجيء المسيح الى مصر »

ان الذي يزور مدينة لندن ويتفقد عادياتها يجد بين آثارها صورة تسمى « سنة الرب » وهذه الصورة تمثل الاحتفال العظيم الذي كان يقيمه المصريون لآلهتهم في السنة الاولى من التاريخ المسيحي مما كان شائعاً في مصر شيوعاً واسعاً . وكان ترتيب هذا الاحتفال كما يلي : يسير اولاً المغنون ثم يتبعهم الضاربون على الاعواد وبين هذين فتيات حسنات يضربن بالطبول والدفوف وتتقدم هذا الموكب السامي الالاهة ايزيس محمولة على أكف الشرف والفخار ومعها ابنها هورس جالساً على ركبتيها وحين مرور الآلهة في هذا الموكب يأتي الناس بمرضاهم على جانب الطريق كي ينالوا الشفاء والعافية . وكانت تباع صور الالهة ليستعملها الناس كتعاويذ وطلاسم واقية من كل سوء وضر . وفي وسط الصورة الممثلة هذا الاحتفال يرى الناظر ركباً حقيراً قد انزوى جانباً ليفتح الطريق لموكب الآلهة الحافل وهذا الركب مؤلف من امرأة وطفلها راكبين حماراً انهكه التعب وخلفهما زوج هذه الامرأة وهو رجل ريفي يسير راجلاً وقد اضناه الكلال وطول الشقة

اما هاتيك الآلهة وتلك الابهة والعظمة والجلالة الملازمة لها فقد اندرست وبادت الان مع كل آثارها واصبح الكل نسياً منسياً وأمست هيا كلها اطلالاً بالية واما اسم ذلك الطفل فلم يزل ولن يزل مكرماً مشرفاً في جميع انحاء المعمورة وهو يسوع المسيح مخلص العالم

وانا لا نرى في تمثيل الحادثة السالف ذكرها ما يوجب الريب في صحتها البتة . فان يوسف لا يأتي طبعاً بولده وامرأته من بيت لحم الى مصر الا عن طريق الصحراء مجتازاً القنطرة ومنها الى عين شمس ثم بابيلون التي يرجح انه قطنها مدة اقامته بالديار المصرية . وقد كان هيكل اليهود الاعظم الذي شاده اونياس بالقرب من عين شمس الى الشمال الشرقي من بابيلون لا يزال قائماً لذلك العهد غير انه لا يوجد ما يدل على ان يوسف وعائلته اقاموا به ولعل السبب ان يوسف كان له اقارب او اصحاب ببابيلون فسكن حيث كانوا . ومما يؤيد هذا القول انفال ذكر هيكل اونياس في جميع الروايات المصرية القديمة المشحونة باخبار الآيات والعجائب التي حصلت في كل مكان وطأه قدم السيد له المجد في ارض مصر مثل خبر سقوط الاصنام في عين شمس حالما أوتي بالصبي يسوع الى هيكلها على ما ورد في معظم النسخ القديمة من كتب الاناجيل المعروفة بالابوكريفا (اي التي لا تعتمدها الكنيسة المسيحية) كذكر النبع الذي لا يزال يشاهد الى هذا العهد بقرية المطرية الى جنوب اطلال عين شمس القديمة وقد جاء عنه في اقدم الاحاديث

ان العذراء غسلت فيه ثياب الصبي ابنها حينما جلست لتستريح بجانب الطريق وقد اضناها التعب في آخر ايام السفر ثم انها بعد ذلك واصلت المسير حتى وصلت بابيلون فالقت بها عصا الترحال واستراحت من مشاق السفر

اما مدينة بابيلون هذه فانما هي بابل المصرية ولكن شهرة سميتها بابل الاسيوية وماكان لها من الصيت الطائر والسمعة الفائقة قد قضى عليها بما لا تستحقه من خمول الذكر وانطفاء الخبر حتى ان كثيرين من علماء التاريخ الاوروبيين لا يدرون عنها شيئاً على الاطلاق . وقد الف احد أئمة الانكليز (دين فرار) في هذه الاثناء مؤلفاً حديثاً لم يرد فيه عنها اكثر من هذه العبارة « بابيلون مدينة حقيرة في شمال افريقيا » كأن لم تكن دعواها بزيارة بطرس الرسول اياها داعياً لزيادة الالتفات اليها والاعتناء بامرها اكثر مما ابداه هذا الكاتب . على ان من يمعن النظر في مؤلفات الاوائل قبل ان تسدل السلطة الاسلامية حجاب ظلمتها بين مصر واعين اوروبا تبين له من اهمية تلك المدينة ما ينافي عدم اكتراث المؤلفين الحديثين بامرها الى هذا الحد (١)

هذا وقد اختلف المؤرخون في امر منشاء بابيلون . فقال ديودورس المؤرخ ان الاسرى البابليين الذين اخذهم من آسيا رعمسيس الثاني

(١) انه في نفس مدة حكم الاسلام كان مؤرخو الاوروبيين كلما تمكنوا من معرفة شيء عن مصر سواء كان باسباب الحروب الصليبية او غيرها وذكروه بمؤلفاتهم لا يذكرون ملكها الا باسم « سلطان بابيلون » دون ممفيس او القاهرة

(سيزوستريس) ملك مصر واستعبدهم فيما بعد شقوا عصا الطاعة اخيراً واحتلوا قلعة هابنين (١) على شاطىء النهر تجاه مدينة ممفيس الى الشمال منها — وشنوا غارة شعواء على البلاد المجاورة لهم فدوخوها ولم ينكفوا عن القتال حتى عفى رعمسيس عنهم وامنهم فخضعوا له واخلدوا الى السكينة باباحته لهم امتلاك الجهة التي احتلوها لتكون مستعمرة خاصة بهم فشيدوا هنالك مدينة دعوها بابيلون (او بابل) على اسم عاصمة بلادهم الاصلية (٢)

وكتب يوحنا اليهودي من نكيوس في القرن السابع بعد المسيح في عرض كلامه عن القلعة التي انشأها الامبراطور تراجان في بابيلون ما يأتي :

« وكان نبوخذ نصر قد بنى بهذا المكان قلعة قديمة دعاها قلعة بابيلون وذلك حين استيلائه على مصر بعد ان نفى اليهود اليها عقب هدمه اورشليم وكانوا قد رجموا نبي الرب في طيبة بارض مصر وبذلك ارتكبوا اثماً على اثم . وقد قدم نبوخذ نصر الى مصر بجيش جرار وحاربها لان اليهود الساكنين فيها عصوا عليه وسمى القلعة بابيلون على اسم عاصمة بلاده اشور » (انظر ارميا ٤٦ : ١٣ — ٢٧)

ولا شك ان هذه القلعة القديمة هي التي ذكرها سترابون الجغرافي

(١) قد سمى الاستاذ سايس الشهير هذه القلعة (اكريا هو) وليذكر القارىء ان اكثر المدن المصرية القديمة لها اسمان

(٢) ان العلامة سمث في قاموسه عن جغرافية اليونان والرومان يقول ان بابيلون المصرية هي الى شمالي الفسطاط وهذا خطاء كما لا يخفى على اللبيب

الروماني في أثناء وصفه لرحلته الى مصر عقب افتتاح الرومان اياها بوقت قصير . والى شمالي هذه القلعة على بعد بضع مئات من الاذرع بنيت قلعة الامبراطور تراجان التي لا تزل اسوارها المتهدمة ظاهرة الى هذا اليوم وكان بدؤها بين سنة ١٠٠ و ١١٧ ب . م

ومما يتشوق القاري لمعرفته ما يتناقله القوم من الروايات عن اقدمية سكنى اليهود في بابيلون هذه . فان بين آثارها الان كنيساً لهم يتصل تاريخه بعهد مجيء المسيح بصرف النظر عن توالي ترميمه وتجديده المرات العديدة بل قد زعم بعضهم ان اصل بنائه كان في ايام ارميا النبي . وهناك ما ذكره عنه المقريزي في خططه قال : « ان موقع كنيس السوريين (او اليهود) بقصر الشمع (بمصر العتيقة (١)) وهو قديم جداً وقد نقش على عارضة بابه كتابة قديمة بالعبرانية جاء فيها ان انشاءه كان في سنة ٣٣٦ للاسكندر اي قبل خراب هيكل اوشليم للمرة الثانية على يد تيطس بخمس واربعين سنة او بنحو ٦٠٠ سنة قبل الهجرة (٢) . وتوجد في ذلك الكنيس نسخة من التوراة اجمع كل اليهود بان عزرا النبي كتبها برمتها » اه

(١) ان مصر القديمة او العتيقة هو الاسم الذي يطلق الآن على المدينة التي بنيت على اطلال بابيلون القديمة بعد ان دمرتها النيران في القرن الثاني عشر ولم يبق لهذا العهد من بقايا بابيلون سوى سور تراجان والجزء الذي سكنه المسيحيون واليهود من تلك المدينة ويحيط به ذلك السور الى الآن

(٢) لا ريب في ان المقريزي نقل التاريخ المنقوش على ذلك الباب بصحته وهو سنة ٣٣٦ للاسكندر لكنه ابهم في حسابه اذ المعلوم ان خراب اورشليم كان في سنة ٦٩ ــ ٧٠ بعد المسيح وهو يوافق سنة ٦٢٢ قبل الهجرة .

هذا وقد بقيت نسخة التوراة التي ذكرها المقريزي محفوظة في المحل الى خمس عشرة سنة مضت من عهدنا هذا وكانت مخبؤة في موضع مقدس بالكنيس المذكور وكتبت اللعنات على كل من يمد يده اليها ولكن بعض اليهود أفشى ذلك السر لغير ابناء الملة فكان من ذلك انه في غيبة الموكلين بحراسته دخل اثنان من المغرمين بالآثار القديمة الى الكنيس وكسرا الخباء الذي كان الدرج داخله ولم يعبأ باللعنات وتهديدات المرأة التي كانت تنوب عن الحراس واجتهدا ان يفتحا ذلك الدرج . غير انه مع تقادم العهد به على تلك الحالة من الانفراد كان قد توصل اليه ثعبان دخل من صدع في الخشب فعش في الخباء المحفوظ في الدرج كما دل على ذلك ما وجد من بقايا جلد الثعبان فيه . وقد التصقت اطراف الدرج بعضها ببعض التصاقاً متيناً بما كان يفرزه ذلك الثعبان من لعابه في تلك المدة بحيث ان صاحبينا الاثريين المذكورين لم يجدا طريقة لفتح هذا الدرج ما لم يمزقاه ارباً فعدلا عن ذلك وعادا مقتنعين بعظم قدميته وفي نيتهما ان يعودا مرة اخرى ويبذلا جهدهما في فتحه . فلما عادا الى الكنيس المرة الثالثة وجد ان الحراس قد تنبهوا الى ما حصل فبادروا بنقل الدرج الى مكان امين بالقاهرة وقد وضعوا في محله نسخة حديثة يعرضونها الآن على الزائرين بدعوي انها النسخة الاصلية . ثم عقب ذلك ان هدم الكنيس القديم برمته وبني في موضعه مجمع جديد بيد انه مع كل ما طرأ على ذلك المحل من التغيير والهدم والبناء

كان اليهود يحافظون اشد المحافظة على بقعة يزعمون أن فيها القبر الذي يضم عظام ارميا النبي

وعلى كل حال فقد ثبت بادلة عديدة انه كان في مصر مستعمرة من اليهود قبل ميلاد المسيح وفي وقت ميلاده وانهم كانوا يعتبرون تلك البقعة من بابيلون المصرية اعتبارا خصوصياً ويميزونها على غيرها من الاماكن . ثم ان السواد الاعظم من تلك المستعمرة قد اعتنق الديانة المسيحية في اوائل ظهورها وأبدل المجمع بكنيسة من ذلك العهد فلما حدث الانشقاق بين الكنيسة اليونانية والكنيسة المصرية في سنة ٤٥١ ب . م تبعت كنيسة اليهود للملكيين اي الروم فلما تقاص ظلهم هجرت تلك الكنيسة واهملت وتداعت الى الخراب فاخذها المصريون وهي على تلك الحالة وبقيت من ثمت بايديهم الى ان التجأ اليها ميخائيل الثالث (بطريرك الكنيسة الملكية) في النصف الاخير من القرن التاسع بعد الميلاد بعد ان قبض عليه الحاكم الاسلامي واشترط عليه اموالاً طائلة يدفعها اليه في مهلة اربعة شهور والا امر بقتله واثارة الاضطهاد على ابناء كنيسته

ولما رأى يهود بابيلون البطريرك ميخائيل في هذه الضيقة وكانوا يرغبون كثيرا في اعادة تلك البقعة الى يدهم انتهزوا هذه الفرصة وطلبوا منه ان يبيعهم اياها فرضي بالصفقة وقبض الثمن ودفعه في الجزية المطلوبة فداءً عنه وعن كنيسته. اما اليهود فظلوا من ذلك العهد الى الآن واضعين

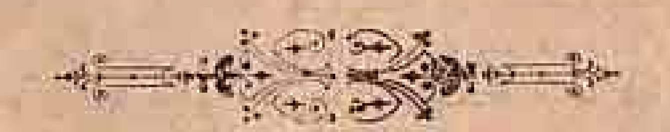
يدهم على ذلك المكان وسواء كان القبر الذي به هو قبر ارميا حقيقة ام لا فلا ريب انهم يكرمون تلك البقعة ويعتبرونها اعتباراً عظيما

وعلى مقربة من كنيس اليهود الآنف الذكر توجد داخل اسوار القلعة الرومانية ايضاً كنيسة تكاد تكون الوحيدة في القطر من حيث كثرة رغبة السائحين فيها واقبالهم عليها من كل فج نظراً لما اشتهر عنها من الانباء والروايات القديمة وهي في الحقيقة عبارة عن كنيستين سفلى وعليا فالكنيسة العليا مكرسة على اسم القديس ابا (١) - أو ابو سرجه ولم تشيد الا في القرن السابع للميلاد بعد ان هجرت القلعة عساكر الروم وخلت منهم كلية وربما لم يكن ذلك حتى أوائل القرن الثامن . اما الكنيسة السفلى القائمة على سطح الارض الاصلي قبل ان يرتفع ارتفاعه الحالي بعد بناء القلعة فهي على صغرها قديمة العهد جداً وقد اصبحت الآن كسرداب للكنيسة العليا. وقد جاء في الروايات القديمة عن هذه الكنيسة انها بنت في عصر الرسل لتكون علامة على البقعة التي كانت قائمة فيها الدار التي سكنها المسيح مع ابويه مدة اقامتهم في بابيلون . ويغلب على الظن ان طبقة الطلاء الحالية التي على حيطان المكان والاعمدة الصغيرة المرتكن عليها السقف غير قديمة العهد جداً ولكن الكنيسة عينها يصح

(١) « ابا » كلمة مصرية قديمة معناها « أب » وتحرفت « ابا » في اللغة القبطية الحديثة وقد حلت محلها الآن كلمة « ابو » العربية وعم استعمالها . اما كلمة « مار » التي يستعملها الاقباط لقديسيهم فهي كلدانية الاصل ومعناها « رب » — اصلها ماري اي ربي والكنيسة التي نحن بصددها قد كرست باسم القديسين سرجيوس وباخوس وهما شهيدان عظيمان . ولم يرد ذكر باخوس مطلقا لانه اسم آله الخمر عند اليونانيين القدماء .

بلا شك اعتبارها اقدم واصغر كنيسة في الوجود . وقد لا يتسنى للانسان
معرفة مساحة الكنيسة بالضبط نظراً لانهيال الردم على جانبيها الغربي والشرقي
ولكن طول الكنيسة بحالتها الراهنة يبلغ نحو ٢٠ قدماً وعرضها ١٥ قدماً.
ولا تزال معمودية الكنيسة بالجانب الايمن مستعملة الى هذا العهد ومما
يذكر مع الاسف الشديد ان الجهلاء من الاقباط الذين في يدهم هذا
الاثر الجليل يملأون عقول السائحين الذين يذهبون افواجاً لرؤيته بخرافات
وحكايات عقيمة عن يوسف ومريم العذراء . وقد تعرف هذه الكنيسة
بكنيسة العذراء

واعلم انه في ايام مجيء المسيح له المجد الى هذا المكان كان موقع
هذه النقطة على شاطىء النيل تقريباً ولم يكن السور العظيم المتداعي للسقوط
الآن قد انشيء بعد بل كان ذلك القسم برمته من بابيلون عبارة عن
حارة اليهود بها ولا وجه للريب مطلقاً في صحة الرواية القائلة بسكنى يوسف
ومريم في ذلك المكان مدة اقامتهما في بلاد مصر أو معظم تلك المدة . ولكن
اختلف الباحثون من شرقيين وغربيين في تقدير مدة بقاء السيد في ارض
مصر فذهب بعضهم الى انها ستة اشهر فقط وقال آخرون انها ما بين
سنتين واربع سنين الى ست



الفصل الثالث

كرازة مرقس الانجيلي

سنة ٤٥ ب.م

قد ثبت بالاجماع ان مؤسس كنيسة مصر هو القديس مرقس
الانجيلي غير ان السنة التى جاء فيها الى مصر لاول مرة لم يتفق على
تعيينها اتفاقاً تاماً . والظاهر ان مار بطرس الرسول رافقه الى بابيلون
وهنالك كتب رسالته الاولى للامم كما اشار الى ذلك في آخر تلك الرسالة.
ثم ان الباحث لا يستطيع ان يأتي بدليل قاطع على ان بابل المذكورة في
رسالة بطرس هي بابيلون المصرية فضلاً عن ان مؤرخي الغربيين كثيراً
ما حاولوا ان يثبتوا أن المدينة التى اشار اليها بطرس هي بابل اشور او
انه استعمل هذا الاسم مجازاً للدلالة على مدينة رومية . غير ان العدالة
توجب علينا ترجيح القول الاول بدليل كون الاقرب الى الصواب هو
ان بطرس الرسول كتب رسالته من مدينة مشهورة مأهولة باليهود وكانت
ملجاء لسيده كبابيلون المصرية لا انه كتبها من مدينة مقفرة لا داعي
يدعوه الى التوجه اليها بنوع مخصوص كبابل اشور الخارجة عن دائرة
حدود المملكة الرومانية . ثم انه من الجهة الاخرى يبعد علينا التصديق

بان بطرس الرسول استعمل كلمة بابيلون مجازاً للدلالة على رومية متشبهاً في ذلك بمؤلف سفر الرؤيا المشهور بغموض عباراته . على انه في الاعصر الاولى من التاريخ المسيحي قلما كانت الكنائس الغربية تعرف شيئاً عن بابيلون المصرية (١) اذ كانت بلاد مصر ممثلة في عينيها بلفظة كنيسة الاسكندرية. وعلى هذه الكيفية نسي لاهوتيو الغرب كل شيء عن بابيلون المصرية او غيرها من مدن مصر عقيب انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة اليونانية سنة ٤٥١ ب . م حتى ان كل ما صادفهم عن بابيلون المصرية في التواريخ المسيحية القديمة كانوا يسندونه بلا تردد الى بابل الاسيوية. وسبب هذا الخلط بين المدينتين تأصل فيهم الاعتقاد بصدور الرسالة السالف ذكرها من بابل اشور كما سبق القول

اما مار مرقس نفسه فقد ذكر في التواريخ المصرية انه ولد باقليم الخمس مدن الغربية (بنتابوليس) (٢) الواقع على حدود القطر المصري من الجهة الشمالية الغربية وكان يعتبر جزءاً من مصر وقطعة من املاكها منذ

(١) بل ان المدينتين ايضاً من مؤلفي الغرب لا يزالون يجهلونها . فقد ورد ذكر بابيلون في كتاب « قاموس السير المسيحية » للعلامة سميث نقلا عن مؤرخ قديم ولكن الناقل سرد الحكاية وهو يخال فيما يظهر ان الكلام يختص ببابل الاشورية مع ان مراجعة العبارة الاصلية تجزم بانه يعني بابيلون المصرية وهاك النص المشار اليه « ان هيلاريون بارح بيت لحم ومعه اربعون راهبا فساروا اربعة ايام متوالية لا يذوقون طعاماً الا في المساء وفي اليوم الخامس وصلوا الى (بيلوزيوم) وهي مدينة على فم الفرع الشرقي للنيل فقابلوا ادراكو نتيوس ومنها توجهوا الى بابيلون لمشاهدة فيلو »

(٢) ان هذا الاقليم يحتوي على خمس مستعمرات يونانية — وهي المعروفة عند الاقباط بالخمس مدن الغربية — وهي سيرين (القيروان) وبتولمايس (المرقة) وارسينو (اوتيوخيا) وبيرنيس (هسبيريدس) وابولونيا ولذا أطلق عليه اسم الخمس مدن واستمرت خاضعة لمصر بعد حكم الرومان بمدة طويلة

عهد بطليموس الاول . ويقال ان مار مرقس من عائلة كانت ذات ثروة ويسار بذلك الاقليم فسطت عليها بعض قبائل البدو الرحل ونهبت اموالها وامتعتها حتى اصبحت فقيرة حقيرة وكان ذلك قبل ولادة مار مرقس او في زمن طفوليته وكان ابوه يدعى كريستوبوليس وكان سلفاً لبرنابا وقد هاجر الى فلسطين واستوطن بقانا بالقرب من مدينة اورشليم ثم تمت الصلة بين هذه العائلة وبطرس الرسول بواسطة النسب وهكذا أرضع مار مرقس لبان التعليم المسيحي منذ نعومة اظفاره. ويرجح ان زيارته الاولى لمصر كانت في سنه ٤٥ ب . م (١) والظاهر ان بطرس الرسول كان مرافقاً له في هذه الزيارة كما اسلفنا

وكان مجيئهما الى مصر في قافلة كما هي طريقة السفر في تلك الايام فسارا من سوريا عن طريق الصحراء الى هليوبوليس (عين شمس) ومنها الى بابيلون . وبعد ان مكثا فيها مدة افترقا فعاد مار بطرس الى فلسطين من حيث أتى وانفذ مار مرقس الى الاسكندرية والخمس مدن الغربية كاروزاً ومبشراً ولا يبعد ان قسماً كبيراً من انجيل مار مرقس كتب مدة اقامتهما معاً ببابيلون للاستعانة على عمل التبشير في مصر بواسطة مرقس

ويروى ان اول من اعتنق الديانة المسيحية في مصر على يد مار

(١) قال يوسيفوس المؤرخ ان مار مرقس اتى الاسكندرية في السنة الثانية من حكم اقلوديوس قيصر اي سنة ٤٣ ب . م . وفي تاريخ الاسكندرية انه جاءها سنة ٤٠ ب . م . والذي يراجع الحوادث المذكورة في سفر اعمال الرسل يجد ان جعل سنة ٤٥ تاريخاً لمجيء مرقس الى مصر اقرب الى الحقيقة من سواها .

مرقس رجل اسكاف من الاسكندرية اسمه انيانوس (١) . والذي رأى اسواق الاسكافية في مصر وحوانيتهم الرطبة المظلمة من الداخل وقد علقت على ابوابها صفوف الاحذية من حمراء وصفراء وتحتها تلك المقاعد الضيقة وحولها العمال يتشاغلون بمحادثة المارة — لا يصعب عليه ان يتصور حالة مارمرقس في بدء كرازته وما اعقبها من البحث والمناقشة مع بائعي الاحذية. وقد جاء في الرواية التي نحن بصددها أن مار مرقس صنع آية مع اونيانوس ويرجح انه شفاه من مرض عضال كان لا يرجى شفاؤه منه فاكرمه انيانوس على هذا الصنع الجميل وأخذه الى منزله ضيفاً مدة من الزمن ثم اعتنق الديانة المسيحية على يده فاقتدى به في ذلك خلق كثير . ولما رجع مارمرقس الى فلسطين وكان ذلك في الغالب قبل نهاية سنة ٤٩ ب.م وسم انيانوس اسقفاً على الكنيسة الجديدة ومعه ثلاثة قسوس وسبعة شمامسة

وفي سنة ٥٠ ب.م اجتمع بطرس ومرقس في فلسطين ليحضرا مجمع أورشليم . وبعد ذلك بقليل قصد برنابا وبولس ان يجولا للتبشير والكرازة فطلب برنابا من مرقس ان يرافقه في رحلتهما وكانت نتيجة ذلك ما نعلمه من افتراق الرسولين وتوجه برنابا مع مرقس الى قبرس والى هنا لا يذكر عنهما شيء في سفر اعمال الرسل ولكن يرجح كثيراً انمار مرقس ذهب حينئذ الى القورينة (سيرين) ثم عاد ماراً بالخمس

(١) قد يصعب ضبط هذا الاسم لاختلاف هجائه في عدة نسخ

مدن الغربية الى الاسكندرية ويؤيد هذا الرأي بعض تلميحات وردت عرضياً في العهد الجديد وكذلك ما ورد في التواريخ المصرية من ان مار مرقس أسس خمس كنائس اخرى بين زيارته الاولى والثانية الى الاسكندرية ومن ضمنها كنيستي القرينة وليبيا

هذا ولا ندري اذا كان مار مرقس بارح الديار المصرية مرة اخرى بعد ذلك ام لا . اما كونه توجه الى روميا مع مار بطرس فهذا اذا صح لا يمكن ان يكون الا في اواخر ايام ذلك الرسول . على ان المؤرخين القدماء باجمعهم لا يؤخذ من كلامهم عن مارمرقس سوى انه بقي في الاسكندرية منذ عودته اليها الى آخر حياته

ويقال انه في هذه الاثناء شيدت الكنيسة الاولى في الاسكندريه بمكان يقال له بوكاليا واقع على شاطيء البحر وان بوكاليا هذه قد صارت فيما بعد ابروشية آريوس الهرطوقي الاكبر . ولكن يبعد كثيراً ان تكون الكنيسة التي استحوذ عليها آريوس هي التي بنيت في ايام مارمرقس لانه يصعب التصديق ببقائها بعد ان توالى الاضطهاد على المسيحيين مع هدم الكنائس وتخريب اماكن عبادتهم مدة الثلاثة قرون الاولى . اما سبب تسمية ذلك الموضع ببوكاليا او بوكاليس فهو على ما ذكره استرابو المؤرخ ان البقعة المذكورة كانت قبلا مرعى للماشية ومن ذلك اشتق اسم المكان

هذا ويوجد بين المؤرخين القدماء اختلاف في نحو سنتين او ثلاث

فيما يختص بحوادث مارمرقس وقد تسبب عن ذلك اختلافهم ايضاً في
في تاريخ نياحته ولكن الاقرب الى الحقيقة والارجح ان وفاته كانت
في السنة الثانية من ملك نيرون اعني في اوائل سنة ٦٢ ب . م ودليل
ذلك ان عيد الآلهة سيرابيس كان يقع يوم ٢٥ ابريل من السنة وكان
من اكبر الاعياد عند وثنيي مصر . فاتفق انه في سنة ٦٢ ب. م وقع
هذا العيد في يوم أحد ويقال ان مارمرقس جاهر وقتئذ بتقبيح هذه
العبادة وتحريم الاحتفال بالعيد باعتبار انه عبادة وثنية فاهاج بذلك سخط
الوثنيين في مدينة الاسكندرية وكان قد شق عليهم ما رأوا من سرعة
انتشار الديانة المسيحية حينئذ وابتدأت الفتنة بين المسيحيين والوثنيين
في يوم السبت الذي يتلوه العيد فلم يأت مساء اليوم حتى قبض الوثنيون
على مار مرقس وربطوه في عنقه بحبل وجروه وطافوا به في اعظم
شوارع المدينة الى ان جاء الليل وخيم الظلام فاوصدوه في السجن وهناك
ظهر له ملاك الرب في رؤيا فقواه وشدد عزائمه . ولما اصبح يوم
الاحد عاد الوثنيون الى السجن فاخذوه مكتوفاً وطافوا به حول المدينة
في موكب الآلهة سيرابيس الى ان اسلم الروح وبموته انتهت آلامه
ودفن في كنيسة بوكاليا ومن ذلك العهد كانت لا تنتخب بطاركة الاسكندرية
الا على قبره المجيد واستمرت هذه العادة متبعة قروناً عديدة بعد ذلك

اما الكنيسة القبطية المصرية التي هكذا اسسها مارمرقس فقد حافظت
الى الان على نظاماتها وطقوسها الاصلية اكثر مما حافظت آية كنيسة

اخرى من عهد مؤسسها الى هذا اليوم فهي اذاً اقل الكنائس اختلافاً
عما كانت عليه حين نشأتها . وفيها بقيت سلسلة المراتب الكهنوتية الثلاث
متصلة بغير انقطاع الى يومنا هذا وهي الاسقفية والقسوسية والشموسية
غير انها لسوء الحظ قد وقعت في الفخ الذي هوت فيه بقية الكنائس
المسيحية وذلك انها بعد بضعة قرون من عهد تاسيسها فرضت العزوبة
على بطاركها واساقفتها بطريق الالزام ولكنها لم تشط مع ذلك عن
القاعدة الاصلية الى درجة تعميم هذا الالزام على طبقات الاكليروس
الصغرى كما فعل غيرها بل جعلت الزواج لهم سنة لا تزال مباحة الى
اليوم كما هي عند الاكليروس اليوناني ايضاً على عكس ما جرى عليه
كهنة الكنيسة الغربية واكليروسها على وجه العموم

ثم ان الكنيسة القبطية قد حافظت ايضاً من عهد نشأتها على الاسرار
السبعة الكنائسية ولكنها تعتبر ان اثنين منها فقط ضروريان للخلاص
وهما المعمودية والعشاء الرباني . على انها في القرنين الثالث والرابع كانت
على الدوام تؤجل عماد الاشخاص الى الساعة الاخيرة من حياتهم . وتوجد
الى هذا اليوم عادات كثيرة في الكنائس الغربية منقولة في الاصل عن
قدماء المصريين في عهد نشأة الكنيسة القبطية . فمن ذلك مثلاً الحلة
البيضاء (التونية) التي تلبس وقت الخدمة الكنائسية فانما هي عبارة
عن جبة الكتان البيضاء التي كان يلبسها كاهن ايزيس . ومنها جز
الشعر من وسط الرأس فقد كان ايضاً العلامة المميزة لكهنة المصريين

القدماء. ومنها استعمال الخاتم في اكليل الزواج وكان المصريون القدماء يستعملون حلقاً من معادن مختلفة بدلاً من العملة قبل صك النقود عندهم . فكان اذا عقد للرجل على امرأة البسها ساعة العقد خاتماً من الذهب علامة على انه من تلك الساعة جعلها شريكة له في ثروته فاستمرت هذه العادة عند المصريين بعد اعتناقهم الديانة المسيحية ثم نقلتها عنهم الكنيسة المسيحية برمتها

والظاهر ان الصيامات دون غيرها من موضوعات الكنيسة القبطية هي التي كثر فيها التغيير عن الحالة الاصلية بيد ان هذا التغيير لم يطرا الا من حيث الزيادة في عدد الاصوام وفي صرامتها وشدتها اما القاعدة الاصلية بغض الطرف عن تنوعاتها فكانت تقضي ان رجال الكنيسة بأسرها يصومون اربعين ساعة متوالية من يوم الجمعة الحزينة الى يوم احد القيامة وذلك عبارة عن الزمن الذي يظنون ان السيد المسيح نزل فيه الى الجحيم . ولكن في اواخر القرن الثاني كان صوم الاربعين ساعة قد بدل باربعين يوماً في معظم الكنائس النصرانية ويقال ان الذي جعل الصوم الكبير في مصر اربعين يوماً هو انبا ديمتريوس الذي رسم بطريكاً للاسكندرية سنة ١٨٩ ب.م. على ان الكنيسة المصرية قد توسعت في اصوامها تدريجياً بعد ذلك حتى اصبحت وهي تصوم الان اكثر من نصف السنة تقريباً واليك البيان : اربعون يوماً قبل عيد الميلاد وخمسة واربعين يوماً وهو الصوم الكبير قبل عيد الفصح وكثير

من الناس يصومون ايام الآحاد من تلك المدة فتبلغ بذلك خمسين يوماً . ثم أربعين يوماً بعد الخمسين وهو المسمى بصوم الرسل ثم ثلاثة ايام في فصل الربيع وهي المعروفة بصيام نينوى او يونان وخمسة عشر يوماً في شهر اغسطس وهو صيام العذراء ثم يوم الجمعة من كل اسبوع لغاية الساعه التاسعة . هذا على ان الصيام عند المصريين ليس في الحقيقة بالامر الهين الذي يستخف به فانهم لا يقتصرون فيه على الامتناع عن اللحم والسمك بجميع انواعهما فقط بل يمتنعون ايضاً عن اللبن والبيض والسمن والزبدة وكل ما يعتبر ذو حياة حيوانية من الكائنات عموماً ولذا تكون أغذيتهم مدة صومهم قاصرة على انواع الفاكهة والبقول النيئة او المطبوخة بالماء او بالزيت والارز والخبز البسيط وباقي الاطعمة النشوية . وبعض العائلات لا تأكل شيئاً الا الساعة الثالثة بعد الظهر في ايام الصيامات . وفي بعض اقاليم مصر يخبز البعض منهم الخبز في اول الصيام دفعة واحدة فقط فيبلغ من الجفاف والصلابة مبلغاً بحيث لو وضعت شيئاً منه في اللبن الساخن مسافة نصف ساعة لما لان بعض اللين . وكثيراً ما خارت قوى الشعب واضناهم الهزال لطول مدة الصوم حتى لقد يعسر على الواحد منهم ان يقوم حينئذ بجميع اعماله المعتادة . على ان القبطي فضلا عما ذكر لا يحل له ان يأكل في المساء ما لذ من الطعام كما يفعل المسلم الذي لا يصوم من سنته كلها سوى ٢٨ يوماً يقضي فيها نهاره على الاغلب نائماً وليله آكلا شارباً ولذا لا يبعد ان

تكون نتيجة هذه الصيامات الطويلة القاسية من جملة الاسباب التي اضعفت عزم الاقباط وحطت من قواهم حتى لقد مضت عليهم الى الآن قرون عديدة لم يشنوا فيها غارة واحدة دفاعاً عن حريتهم واستقلالهم !!!

ثم انه من المؤكد بعد البحث ودقة التحري انه في القرن الاول لم يكن بين المسيحيين في مصر رهبان ولا راهبات . غير انه في منتصف القرن الثاني اقتبست من الديانة الوثنية المصرية عادة العيشة الانفرادية والخلوة لاجل التنسك والتضرع والصوم والصلاة عوضاً عن اتمام مواجب الحياة الطبيعية ثم انتشرت هذه العادة من مصر الى العالم المسيحي باسره

تلك هي حالة الكنيسة القبطية التي اسسها مارمرقس وظلت عليها في البأساء والضراء تقاسي الشدائد والضيقات وتحمل المظالم والاضطهادات حتى يومنا هذا حيث يمر بها الوافدون الى مصر من الغربيين لهذا العهد فيتجاهلون وجودها تارة او يهزأون بها طوراً نظراً لما آلت اليه من الهوان والذل . ولكن مهلاً فسترى فيما يلي من صفحات هذا الكتاب تاريخاً يزري بتواريخ اعظم الكنائس المسيحية مقاماً وشأناً وسيأتي يوم فيه يجلس رأس الكنيسة للقضاء بحسب عدله لا بحسب فكر الانسان وفي ذلك اليوم يسمع قوله «ويكونون لي قال رب الجنود كل الذين يخافون اسمي في اليوم الذي اجمع فيه جواهري»

الفصل الرابع

﴿ بطريرك واحد وسبعة قياصرة . سنة ٦٢ ب . م ﴾

هذا هو الثاني من بطاركة الكرسي الاسكندري واسمه انيانوس وغاية ما ينبئنا عنه التاريخ انه اخلف مار مرقس على كرسي الاسكندرية سنة ٦٢ ب م وساس الكنيسة بحكمة وفطنة مدة ٢٢ سنة وفي اثناء رئاسته تولى على العرش الامبراطوري الروماني سبعة امبراطرة على التتابع وهم نيرون الظالم (وكانت وفاته بعد ست سنوات من تاريخ تولي انيانوس كرسي البطريركية) ثم جالبا واوثو وفيتليوس وفسباسيان وتيطس ودومتيان وكان الوالي الروماني على مصر في سنة ٦٢ ب.م بابيليوس الذي اخلف طيباريوس اسكندر منذ سنة ٥٦ ب.م والظاهر انه كان ذا عناية واهتمام بامر البلاد التي عين حاكماً عليها من قبل المملكة الرومانية . فانه ألف تاريخاً للديار المصرية ولكن عبثت به ايدي الضياع ولم يبق منه الآن لسوء الحظ شيء . وقد اتخذ ديونيسوس المؤلف الشهير الذي كان مديراً لدار الآثار المصرية وزيراً له . ولكن يظهر ان بابيليوس لم يكن مع ذلك محبوباً من المصريين بدليل ان الامبراطور جالبا الذي تولى الامبراطورية بعد نيرون عزله على الفور وعين مكانه طيباريوس يوليوس اسكندر ابن

اسكندر الوالي الاسبق وابن اخ فيلو اليهودي (انظر الفصل الاول)
فكان طيباريوس وانيانوس متحدين من حيث الجنسية والوطن غير ان
الاول كان على ما يظهر قليل التمسك بدينه اليهودي كما كان ابوه من
قبله . ويوجد لهذا العهد بالواحة الكبرى نقوش خلدت ذكرى المنشور
الذي اصدره طيباريوس هذا لرفع ما كان يثقل كاهل المصريين من
المظالم والمغارم التي كان قد فرضها عليهم نيرون . فمن ذلك تأكيد هذا
الوالي لرعاياه المصريين بعدم اكراه احد منهم في المستقبل على قبول وظيفة
التزام الخراج في الاقاليم وعدم الغاء البيوع بحجة مديونية المشتري للحكومة
الامبراطورية وابطال عادة سجن الاحرار من الرعية بسبب عدم الوفاء بدين
على احدهم لآخر ما لم يكن المداين هو الحكومة او الخزينة الاميرية

اما لغة هذا المنشور فكانت كغيره من الاوامر والمنشورات اللغة
اليونانية وهو امر يدل دلالة واضحة على انه بالرغم عن تسلط الرومان
على مصر كل هذا الزمن لم يعتر احوالها ادنى تغيير عما كانت عليه قبلهم
فلم تكتسب اللغة اللاتينية ادنى شيوع بين المصريين ولا اقتبسوا هم
شيئاً من العوائد الرومانية ولا يخفى ان هذا من الغرابة بمكان . غير انا
اذا دققنا النظر في ذلك نجد ان تلك المملكة الرومانية العظيمة التابعة
لها مصر لم تكن رومانية الا بالاسم فان القياصرة الاول الذين كانوا
رومانيين حقيقة لم يهمهم من امر مصر سوى ما يتعلق بتوسيع نطاق
خراجها ثم ان عرش المملكة اصبح من بعد القرن الثاني هدفاً لاطماع

ذوي البأس من اخلاط مختلفي الجنس من يونان وافريقيين وبربر
وسوريين لا يعنيهم طبعاً شأن رومية الا باعتبار كونها مظهراً خارجياً
لرونق ملكهم وشوكة اقتدارهم . هذا وسيظهر لك فيما يلي ما كان لتغيير
عاصمة المملكة الرومانية من التأثير على المملكة عموماً والقطر المصري
وبلاد الشرق خصوصاً

اما اوثو وفيتليوس اللذان تعاقبا على كرسي القياصرة بعد جالبا فلم
يتركا اثراً يذكر لهما في مصر لقصر مدة حكمهما . وكان فسباسيانوس
الذي خلفهما يحارب حينئذ كقائد في فلسطين فصمم على ان يكون قيصراً
وكتب اولاً الى طيباريوس اسكندر والي مصر يقول له ان الجيش
هنا قد بايعني الامبراطورية فهل لي ان اعتمد على عضدك في هذا
الامر وعلى بيعة الجند الذي في مصر . فلبى طيباريوس الطلب على الفور
واقرت مصر بالامبراطورية لفسباسيانوس بالاجماع مع علم اليهود فيها
بالحرب العوان التي كانت قائمة وقتئذ بينه وبين ابناء جلدتهم في فلسطين
وتنكيله بهم اشد تنكيل ولعل في ذلك ما يوجب الاستغراب . على ان
يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير الذي دافع عن يوباطا (احدى مدن
فلسطين) دفاع الابطال حين محاصرة الرومان اياها — كان قد اصبح
بعد سقوطها في يدهم من اخص اتباع فسباسيانوس واعظمهم تمسكاً
بعروة الاخلاص والولاء له

وبقي فسباسيانوس مدة في بيروت استراحت في اثنائها فلسطين

من اوضار الحرب والجهاد حتى ورد اليه النباء المبشر بان القائد الذي ارسله الى رومية لكي يستلم زمامها بالنيابة عنه قد تم له الامر على ما يشتهي ويختار . فبارح اذ ذاك بيروت قاصداً مدينة الاسكندرية للاقامة بها بعض الزمن صارفاً نظره عن رومية موقتاً اعتماداً ولا شك على وجود ابنه دوميتيان بها وقيامه مقامه في ادارة الاحكام . فلما قدم فسباسيانوس الى الاسكندرية هرع علماؤها وحكامها لمقابلته بكل مظاهر التعظيم والاجلال وكان بالاسكندرية يومئذ ثلاثة من مشاهير الفلاسفة وهم يوفراتيس الافلاطوني وديون الملقب بفم الذهب وابولونيوس الفيثاغورسي الشهير الذى وضعه فيلوستراتس في مصاف الانبياء والمرسلين في الرسالة التي كتبها تاريخاً لحياته بعد موته وشبهه فيها ظاهرياً بفيثاغورس الفيلسوف ومراده في الحقيقة تشبيهه بالسيد المسيح نفسه كما لا يخفى على من امعن النظر فيها ولاحظ الغرض من تأليفها على نسق الاناجيل المقدسة

وكان ابولونيوس ملازماً للقيصر فسباسيانوس طول مدة اقامته في الاسكندرية وخدمه خدمات جليلة باستمالة قلوب الاسكندريين اليه الى درجة انهم اصبحوا يعتقدون فيه القدرة على شفاء الامراض بمجرد لمس المريض كما كان الجاهلية يعتقدون في ملوكهم قديماً . فقد روى تاسيتوس المؤرخ ان رجلين احدهما كفيف البصر والآخر اكتع اليد طرحا نفسيهما تحت قدمي فسباسيانوس وهو سائر في احد شوارع الاسكندرية متوسلين اليه ان يلمسهما حتى ينالا منه الشفاء . فسخر

القيصر بهما أولاً غير أن ما رآه من تظاهر اطباء الاسكندرية حينئذ من مشاركتهم العامة في هذا الاعتقاد حمله على اجابة الطلب والظاهر ان عمليته لم تخب اذ قد شهد اصدقاء الامبراطور ان الرجلين شفيا بهذه الوسيلة

وكان فسباسيانوس يتظاهر بشدة الميل الى ديانة المصريين فلم يتأخر عن زيارة هيكل معبودهم سيرابيس واستطلاع ابنائه عن مستقبله ومستقبل مملكته وعلق كثيراً بالاسكندرية فمكث بها بضعة شهور بعد ما انفذ ابنه تيطس الى فلسطين ثانية لانهاء الحرب مع اليهود ولكن اهل الاسكندرية كانوا سريعي التقلب فلم تدم محبتهم لفسباسيانوس طويلاً لا سيما وقد أثقل الرجل كاهلهم بالضرائب عوضاً عن ان يغدق عليهم الانعامات كما كانوا يأملون منه . ومما زاد الطين بلة انه مرة طالب صاحباً له بدين كان قد وفاه به فذاع خبر ذلك في المدينة حتى بلغ من بعض الدوام ان اتخذوا الامر موضوعاً للتهكم والسخرية به فلما علم فسباسيانوس بما كان من ذلك استشاط غيظاً وحنقاً وامر في الحال بضرب جزية قدرها ستة افلاس (وهو مقدار الدين الذي كان له) على كل فرد من اهل المدينة تأديباً لهم على هذه الجرأة . بيد انه لم يلبث ان صفح عنهم اجابة لتوسلات ابنه تيطس الذي كان احسن منه سياسة وتدبيرا ولكن هيهات ان تعود بذلك محبة الشعب الى ما كانت عليه أولا فرحل فسباسيانوس عقب ذلك الى رومية ولم ينتظر نهاية الحرب في فلسطين كما كان ينوي

فلما كان فصل الخريف من سنة ٧ ب.م وردت الاخبار بعد
طول الانتظار منبئة بسقوط مدينة اورشليم . وقد بلغ عدد الاسرى
الذين اخذوا من اليهود بسقوطها ٩٧ الف نسمة سيقوا جميعهم ارقاء
ليعملوا في معادن مصر بالاخص . وكان لمسير هذا الجيش الكئيب
وراء تيطس الظافر منظر تنفطر له الاكباد لا سيما وقد تبعهم العدد الغفير
من سكان أورشليم التعيسة حيارى اذلاء بلا مأوى ولا زاد يبتغون
ملجأ وملاذا بارض مصر آملين أن يتفيأوا هنالك في ظل اخوانهم
الاغنياء ومن ذلك العهد أخذ اليهود في المهاجرة من بلادهم الى مصر
افواجاً افواجاً ولكنهم لم يلبثوا ان اقلقوا بافعالهم خواطر يهود الاسكندرية
الذين باتوا في خوف على انفسهم منهم بما اثاروا من الشغب والهياج
على الحكومة الرومانية والمجاهرة بتعنيف اخوانهم المصريين على خضوعهم
لها واستسلامهم الى سلطة القيصر صاغرين وحضهم اياهم على القيام للحرب
والكفاح دفاعاً عن حريتهم ووطنهم الذي اصبح قاعا صفصفاً . ولا بدع
اذا كانت الدعوى الى هذا الجهاد لم ترق في اعين يهود مصر الاغنياء
المترهفين لما يعلمون من انهم يكونون هم الخاسرين على كل حال
بلا محالة اذا اشهروا راية العصيان ولذلك لما رأوا تفاقم الشر من اولئك
المهاجرين (وكانوا يلقبونهم بالاشقياء) عقدوا جمعية من اكابر يهود
الاسكندرية قرروا فيها ان راحتهم وسلامتهم تتوقفان على القاء القبض
على هولاء المحرضين وتسليمهم ليد الحكومة حتى بذلك ينفوا عن انفسهم

شبهة الاتحاد معهم على ما ينوون من العصيان والثورة . وبناء على هذا
القرار قبض على نحو ٦٠٠ نفس دفعة واحدة من هؤلاء المتفانين في
حب وطنهم بعد ان هرب منهم خلق كثير الى الارياف أمسك معظمهم
في ما بعد وأعيدوا الى الاسكندرية حيث اذيق الجميع انواع العذاب
لكي يحلفوا يمين الطاعة والولاء للامبراطور فسباسيانوس ولكنهم
رفضوا ذلك باجمعهم حتى الاطفال منهم مفضلين الموت على فقد الاستقلال
والحرية وهكذا قتلوا عن بكرة ابيهم . والظاهر ان هذا هو السبب
فيما يشير اليه المؤرخون المسيحيون الاول بقولهم أن مدة رئاسة البطريرك
انيانوس لم تكن مدة سلام وأمان وان كان هؤلاء المؤرخون لم يذكروا
ادنى تفصيل عما كان له من الشأن في أثناء تلك الاضطرابات والقلاقل
على ان لهيب الثورة بين اليهود اندلع وقتئذ بسرعة حتى وصل ايضاً الى
التوربة حيث قام رجل حائك يدعى يوناثان منادياً فيها بالحرب لانقاذ
الوطن محرضاً على ذلك الطبقة الوسطى من ابناء جلدته دون الاغنياء على
ما قاله يوسيفوس المؤرخ . فلبى كثير منهم دعوته وسار في جيش منهم
كثير العدد ولكنه قليل المدد قاصداً ديار مصر معتمداً على معونة
سماوية تأتيهم فتساعدهم على الفوز في مشروعهم . غير انهم لم يكادوا
يبرحون حدود القورينة حتى افشى اخوانهم الاغنياء سرهم الى كاتلوس
والي هذه المقاطعة غدراً وخيانة منهم فاقتفى هذا أثرهم على الفور الى ان
ادركهم فهزمهم شر هزيمة وفرقهم ايدي سبا . وقد عني الوالي عن قتل

يوناثان المذكور زعيم هؤلاء الثائرين ولكن على شرط ان يبوح
له باسماء اليهود الذين وعدوه بالانضمام اليه حينما يتم له الامر .
فكاشفه يوناثان باسماء عدد كبير من اغنى وأقوى رجال اليهود
في القورينة والاسكندرية ورومية . ولا ندري اذا كان فعل ذلك
وفاء بالشرط على ما تقتضيه الذمة او رغبة منه في الانتقام لنفسه
ممن خانوه وغدروا به من ابناء ملته وعلى الحالتين كانت النتيجة ان ثلاثة
الاف رجل من اغنياء اليهود في القورينة فقط سيقوا للذبح بلا تحقيق
ولا بحث باسباب هذه الحادثة وصودروا في املاكهم واموالهم حسبما
رواه يوسيفوس اما بقية من اباح باسمائهم يوناثان من يهود الاسكندرية
ورومية فقد رفع كاتلوس امرهم الى الامبراطور وكانت عاقبة ذلك انه امر
للحال بقفل هيكل اليهود في مصر وان لا يسمح لهم باقامة العبادة العلنية
فيه وبذلك كسرت شوكتهم وخفضت كبرياؤهم الى الحضيض

وقد كان هذا الهيكل اشارة الفخر والاعجاب لديهم مدة ٣٤٣ سنة
ينافسون به هيكل اورشليم القديم الذي خرب بخرابها . فمد الدهر اليه
يده بالاذى فاباد فخرهم بمصر كما انه تناول باليد الاخرى بقية مجد اخوانهم
يهود فلسطين حتى اصبح الفريقان سواء في الذل والهوان . ومن هذا الحين
تجرد اليهود عن امتيازاتهم الوطنية فعلاً وان لم يجردوا منها شرعاً
فصاروا مثل المصريين الاصليين في معاملة الحكومة لهم . وكما ان
هيكل اورشليم قد صيره تيطس بحيث لم يبق فيه حجر على حجر كذلك

هيكل اونياس قد اصبح ومكانه الان اقفر مما كان يوم قال الملك بطليموس
فيلومتر لاونياس نفسه : عليك بازالة تلك الاطلال الباقية من هيكل
ليونتوبوليس حتى تبني هنالك ما تريده . يعني يبني هيكلا لليهود وهو
الذي نحن بصدده . ولم يبق من آثار هذا الهيكل للآن سوى آكام
من التراب قائمة في وسط تلك الاراضي المخصبة تشوه نضارة وجهها
وجمال منظرها وهي محاطة بجدران سوره المزدوج لم تزل قائمة على ارتفاع
قليل من سطح الارض المجاورة لها وبها من قدمين الى خمسة اقدام عمقاً
من الشقافة وقطع الخزف اما الاحجار فقد اخذها المسلمون على مرور
الايام والسنين حتى لم يبق منها حجر واحد وانما بقي اثر ذلك الهيكل
المصري القديم الذي كان بناؤه من عهد رعمسيس الثالث وهو عبارة
عن كتلة كبيرة جدا من الصوان مع قطع من المرمر الابيض شوهدت
في ذلك المكان سنة ١٨٩٣ ب . م . غير انك اذا ذهبت الآن الى
ذلك الكثيب القائم في تلك الاراضي الزراعية حيث يتطاير الهدهد بين
الاثلام والحزون وحيث اللقلق الناصع البياض يتبختر بين الخضرة الزاخرة
— لرأيت مركبات النقل التي حلت الآن محل الجمال تغدوا وتروح
مشحونة بنفس تلك الشقافة الباقية ذاهبة بها الى حيث تسحق لتستخدم
في بناء اماكن ودور جديدة بحيث لا يبقى بعد قليل من الزمن ادنى
اشارة أو علامة على هيكل اونياس المار ذكره

اما حالة المصريين الاصليين في عهد فسباسيانوس وتيطس فصارت

الى احسن مما كانت عليه قبلها وذلك بحسن ادارتها وعنايتها بشؤون اهالي المملكة . فقد ذهب تيطس بنفسه الى ممفيس في موكبه الرسمي لحضور الاحتفال بتكريس الثور ابيس لما عزم المصريون على اقامته معبوداً بعد سلفه المتوفي . وقد تم في اثناء ملك فسباسيانوس بناء هيكل نيف الفخيم بمدينة لاتوبوليس (اسنا) بعد ان عمل فيه العاملون مدة مئتين من السنين كما هي العادة في بناء الهياكل المصرية . وقد جاء هذا الاثر الجميل محاكياً بفخامته وحسن زخرفه افضل المباني التي شيدها المصريون في عهد وصول فني العمارة والهندسه قمة الكمال عندهم وقد نقر اسم فسباسيانوس في المحل المخصص لذكر المعبود الذي بني الهيكل على اسمه فوق واجهة الباب

وبعد وفاة تيطس تولى الامبراطورية الرومانية دومتيانوس قيصر وفي عهده أرسل جوفنال الشاعر الروماني المشهور لقيادة فرقة عسكرية من الجيش في مصر وكان قد بلغ من الكبر عتياً فمات عقيب وصوله اليها بعد ان سئمت نفسه البقاء فيها بعيداً عن الاهل والاوطان . وقد كتب في غضون هذه الرحلة رسالة عن المصريين اكثر فيها من الانتقاد على اهل الريف منهم ولا سيما ما يتعلق بحيواناتهم المقدسة

وفي اثناء حكم دومتيانوس هذا تنيح البطريرك انيانوس وخلفه ابيليوس على كرسي البطريركية . ثم انه في عهد الامبراطور نيرفا الذي اخلف دومتيانوس رفعت عن يهود مصر الضريبة الشخصية التي كانوا يؤدونها

منذ ايام البطالسة ومقدارها نصف شاقل عن كل فرد غير ان الضريبة عادت ففرضت عليهم ثانية في عهد احد القياصرة الآتي ذكرهم فيما بعد . اما حالة الكنيسة المصرية مدة حكم هؤلاء الامبراطرة فكانت على ما يرام من الامن والسلم عاملة نامية آخذة في الامتداد والانتشار بسرعة عظمى

الفصل الخامس

رواد النيل في القرن الثاني ـ سنة ٩٨ ب . م

تولى الحكم بعد دومتيانوس الامبراطور تراجان وكان في اوائل حكمه مشغولاً جداً باحوال اوروبا ومع ذلك تم في عهده مشروعان خطيران في مصر اولهما تجديد الخليج البطليموسي الذي يصل النيل بالبحر الاحمر وكان قد اهمل وانهارت جوانبه فرممه تراجان وزاد في طوله كثيراً حتى اوصله الى بابليون بعد مروره بمدينة عين شمس . ولا ريب في انه هو الخليج الحالي بعينه وانما رمم مرة ثانية وزيد في طوله قليلاً (نظراً لتحول النهر عن مجراه) في عهد الفتح الاسلامي . والمشروع الثاني بناء قلعة بابليون العظيمة وهي المعروفة بقاياها الان باسم « قصر الشمع » وهو لهذا العهد يشتمل على ست من اقدم الكنائس المسيحية بالقاهرة .

اما عند انشاء القلعة فلم يكن داخل اسوارها الا كنيسة واحدة وهي المعروفة الآن بابي سرجة . هذا وليلاحظ القاريء ان قلعة تراجان هذه هي غير القلعة القديمة التي ذكرها استرابو المؤرخ وكان موقعها الى الجنوب من قصر الشمع بالقرب من دير بابيلون الحالي

ولا حاجة بنا هنا الى ذكر الرسائل التي دارت بين بليني الاديب الروماني والامبراطور تراجان عن احوال المسيحيين في ذلك العصر اذ لامساس لها بمسيحيي مصر فضلاً عن ان شهرتها تغني عن الذكر. اما سياسة تراجان مع المسيحيين فكانت غالباً سياسة تساهل وتسامح غير ان استشهاد القديس اغناطيوس اسقف انطاكية في ايامه يعتبر نقطة سوداء في تاريخه . وفي السنة الثامنة عشرة من ملك تراجان عادت المنازعات والمنافسات بين اليونان واليهود في الاسكندرية وتفاقم الخطب حتى آل الامر الى قيام اليهود عموماً على الدولة الرومانية واشهارهم راية العصيان عليها في مصر وقورينة فحاول لوبوس الوالي الروماني ان يقمع ثورتهم فلم يتغلب على الثائرين وكانوا تحت قيادة رجل يدعى لوكاس من يهود قورينة فبقي بهذا الاقليم مدة سنتين يحارب الرومان ويعثو في الارض فساداً حتى اصبحت هذه المقاطعة الاسيفة تئن من اهوال تلك الحرب الداخلية الى أن انفذ الامبراطور اخيراً القائد مارسيوس توربو بجيش جرار الى مصر لمحاربتهم وبعد قتال عنيف جرى في عدة مواقع انهزم اليهود شر هزيمة وقتل الوف منهم وجردوا عقيب ذلك من امتيازاتهم الوطنية تجريداً

شرعياً وبذلك ضاعت آمالهم وخابت احلامهم فيما كانوا ينتظرون من عودة الملك اليهم ومن ذلك العهد اصبحوا يعتنقون الديانة المسيحية افواجاً افواجاً

وبعد هذه الحرب الاهلية بمدة وجيزة مات الامبراطور تراجان وخلفه ادريانوس الذي شرع في السنة الرابعة من ملكه يطوف الولايات الرومانية متفقداً بنفسه جميع انحاء مملكته . فلما حل ركابه الامبراطوري القطر المصري سار صعداً في النيل ومعه انطينوس صديقه الحميم وهو غلام اوربي ذو جمال باهر . واتفق ان انطينوس لاقى منيته في اثناء هذه السياحة النيلية ولم تعرف الى الآن اسباب وفاته الحقيقية غير ان الرواة يزعمون انه قدم نفسه باختياره ضحية عن سيده ومولاه الامبراطور وتفصيل ذلك انه في اثناء عودة الموكب الامبراطوري من الوجه القبلي راكباً تلك القوارب النيلية مزدانة بالزخارف والاعلام وفيها اجواق الموسيقى تعزف بنغماتها الشجية المطربة وبها من دواعي الحظ والانس ما يشرح الخاطر ويسر الناظر — كما حصل في احتفالات الملوك والعظماء في النيل قبل ادريانوس وبعده بالآف من السنين — تخالج الامبراطور شيء من الخوف والكآبة وهو محاط باسباب السرور والحبور الآنف ذكرها كأنما حدثته نفسه ان سروره وغبطته قد بلغا درجة عظيمة قد تستوجب حسد الآلهة له عليها وانه لا بد لتسكين ثائرها من تقديم ضحية مهمة ترضيها والا حل به الخراب والدمار عاجلاً . ففكر انطينوس الذي كان

يحب مولاه حباً يرخص معه كل غال وفطن بفراسته الى سبب حزن
سيده مما رآه من خوفه واضطرابه فسار في الحال الى اتمام ما خطر بباله
بان القى بنفسه في النيل معلناً انه لما كان على يقين من ان منزلته عند مولاه
فوق كل شيء هانت عليه الحياة حباً بدوام سعادة ذلك المولى . هذا ومعلوم
عند قراء التاريخ ما اصاب ادريانوس من الحزن المفرط لموت حبيبه وكيف
انه اصدر اوامره بوجوب اعتباره بمنزلة الآلهة وقد اسس مدينة في
المكان الذي بذل انطينوس نفسه فيه لاجله وسماها مدينة انطينوس
تذكاراً له وهي التي صارت بعدئذ عاصمة لصعيد مصر اما الآن فحلت
محلها قرية صغيرة تدعى البرشا (بمديرية المنيا) . وقد اطلق ايضاً اسم
انطينوس على نوع من زهر البردي المصري اكتشفه وقتئذ الشاعر
بنكراتيس الاسكندري وقدمه للامبراطور عند رجوعه من سياحته
وهو يمتاز عن الزهر المعروف لهذا النبات بكونه وردي اللون ليس
بالازرق ولا بالابيض . وممن كان بالاسكندرية من مشاهير الكتاب
في ذلك الوقت غير بنكراتيس السالف الذكر ابو لونيوس ديسكولوس
النحوي وكانت له مؤلفات عديدة ضاعت كلها تقريباً ولم يبق منها
سوى مجموعة في آداب المصريين واخرى تشتمل على حكايات خرافية
ومنهم ابيان المتشرع الروماني الشهير وكان قد صرف عدة سنوات
في رومية ثم كتب تاريخاً رومانياً بعد عودته لوطنه

وفي سنتي ١٣١ و ١٣٢ ظهر يهودي آخر اشتهر باسم البار كوشبا

(ومعناه ابن النجم أو كما فسره بعضهم ابن الكذب) ورفع راية العصيان
على الحكومة الرومانية في فلسطين وصادف عمله بعض النجاح في اول
الامر فسار للانضمام اليه جيش من يهود مصر وليبيا ثم اشتبك القتال
بينه وبين تينيوس روفوس الروماني والي اليهود واستظهر عليه العصاة
فاستدعت الحكومة الرومانية القائد سفيروس من بريطانيا لمحاربته
وجرت بينهما حروب دموية استمرت نحو اربع سنين وانجلت اخيراً
عن انهزام العصاة وتبديد شملهم

وفي سنة ١٣١ ايضاً زار ادريانوس مصر مرة ثانية ورافقته في هذه
الزيارة امرأته الملكة سابينا ومعها زمرة من نساء الامراء وعقيلات
الكبراء والاعيان وركب النيل معهن مرة اخرى اجابة لالتماس الملكة
سابينا منه الفرجة على تمثال ممنون الشهير بصوته الموسيقي وهو احد التماثيل
الهائلة التي بصحراء ثيبة شيده الملك امونحوتب الثالث في هيكل خاص
لم يبق شيء من آثاره الان لعظم قدمه . فلما زارت الملكة ذلك المكان
رأت التمثال في حالة اردء مما هو عليه الان نصفه الاعلى ساقطاً ملقى على
الارض قطعاً ولم تسمع ذلك الصوت يخرج من شفتيه اذ وقفت بجانبه
يحف بها اعضاء معيتها منتظرة حدوث هذه العجيبة وقت شروق الشمس
على التمثال . غير ان مجرد اظهار استياء الامبراطور من الكهنة بهذا الشأن
كان كافياً لصدور تلك النغمات الموسيقية الرخيمة من التمثال في صباح
اليوم الثاني وتشنيف آذان الملكة واترابها بسماعها . وقد نقش عدة ممن

في معية الملكة اسماءهن على قاعدة التمثال كما يفعل السياح اليوم . وكتبت احداهن هي جوليا باليلا (ابنة كلوديوس باليبلوس الذي ولي مصر في عهد نيرون وألف تاريخاً لها) ابياتاً من الشعر على اسفل التمثال ذكرت فيها نسبها الذي يتصل بانطيوخوس ملك كوماجين (احدى مقاطعات سوريا) وزيارتها الثانية مع الامبراطور وقرينته . ومكث ادريانوس هذه المرة بمصر نحو اربع سنوات كانت اكثر اقامته فيها بالاسكندرية . وفي اثناء زيارته المرة الاولى لمصر (سنة ١٢٢) توفي البطريرك بريموس واخلفه يسطس الذي قيل انه احد الذين عمدهم مارمرقس وكانت نياحته قبل زيارة ادريانوس الثانية لمصر بسنة واحدة وخلفه على كرسي البطريركية يومينيس وقلما يعرف عنه شيء

ومن الاشاعات المتواترة ان المسيحيين في الاسكندرية ذاقوا عذاب الاضطهاد مدة حكم تراجان ثم في عهد ادريانوس ايضاً غير اننا لم نعثر على ما يؤيد ذلك في التواريخ التي يوثق بصحتها ولكن من المحتمل كثيراً ان من المسيحيين من اضطهدوا باعتبار كونهم يهوداً في ايام العصيان الذي حصل مدة هذين الامبراطورين حيث كان ينظر اليهم غالباً في القرن الاول والثاني كانهم شيعة يهودية متطرفة يخشى شرها . وفضلاً عما تقدم فقد كانت مصر على الدوام مصدراً للهراطقة من ذوي العقول المضطربة حتى انه في مدة زيارة ادريانوس لمصر المرة الثانية كانت انقسامات المسيحيين وتعدد مدارسهم بالاسكندرية قد وصلت الى درجة

يلتمس معها العذر لذلك الامبراطور فيما وقع فيه من الابهام وسوء الفهم بشأن حقيقة امر المسيحيين والدين المسيحي . فقد كان كربوكراتيس وباسيليدس وفالنتينيان وجميعهم مصريو الجنس يتفننون وقتئذ في الباس القواعد الدينية ثوب المجاز والرمز مجتهدين في اذاعة تعليمهم ومذهبهم بالاسكندرية . ثم قد عد هؤلاء الثلاثة بعد موتهم من الهراطقة ولكن لا يوجد برهان صريح على ان الكنيسة حكمت على أي منهم بالهرطقة في اثناء حياته وربما كان ذلك لانهم كانوا يؤمنون بالحقائق الجوهرية في الديانة المسيحية وانما أثموا لانهم كانوا يحاولون مزج اسرار الديانة الوثنية المصرية وغوامض رموزها بقواعد الايمان المسيحي البسيطة . ولا ريب في انه قد كان الاولى بهم عدم التعرض للخوض في مباحث التوحيد والتثليث وامر خلق العالم وتركيبه وما اشبه من المطالب العويصة بل حبذا لو امكن تخصيص الاشتغال بمثل هذه المسائل بمن تدربوا على مزاولتها فقط من ذوي الفكر السليم الذين حصلوا على التربية المؤهلة لذلك كما كانت العادة عند كهنة المصريين القدماء على ما ارشدتهم اليه حكمتهم ونجابتهم . على اننا لا نخال ما بلغ ادريانوس من امر الدين المسيحي لذلك العهد الا نتيجة افكار هؤلاء المتطفلين كما يظهر من الخطاب التالى وهو بنصه (١) : —

« من ادريانوس قيصر الى سرفيانوس القنصل — سلام

(١) يعزي بعضهم هذا الخطاب لغير ادريانوس ويقولون انه كتب قبل هذا الاوان بقليل

«اما بعد فان مصر التي اطنبت لي في مدحها ايها العزيز قد وجدت اهلها على درجة عظيمة من الخفة والطياشة وقلة الحزم يصدقون كل ما يقال ويطيرون مع كل ريح تهب . فالذين يعبدون سيرابيس مسيحيون والذين يدعون انفسهم اساقفة (١) المسيح عبيد لسيرابيس . وانك لا ترى رئيساً لليهود او سامرياً او شيخاً للمسيحيين الا كان رياضياً وعرافاً ومشعوذاً . بل ان البطريرك نفسه لما جاء الى مصر (٢) قال عنه بعضهم انه يعبد الاله سيرابيس وقال آخرون انه يعبد المسيح . اما المصري من حيث طباعه فهو ميال الى المشاغبات والفتن غير حقود اما من حيث مجموع افراده فهو شعب وافر الثروة آخذ باسباب النجاح فلما ترى فيه رجلاً عطلاً عن عمل يرتزق منه ما يقوم بحاجة معاشه . فبعضهم يصب الزجاج وبعضهم يصنع الورق وبعضهم ينسج الكتان وهلم جراً بحيث انك ترى الاعرج والاعمى حتى الاكتع منهم يشغلون اوقاتهم فيما يلائم احوالهم من الاعمال الصناعية هرباً من الكسل والبطالة . اما الههم فهو « لا شيء » . وهو الذي يعبده المسيحيون واليهود وكل الامم على السواء . واني لا تمنى لو كان هذا الشعب أطيب اخلاقاً مما أرى كما هو شأن الافراد في امة كبيرة كثيرة العدد كالامة المصرية يجدر بها ان تكون صاحبة المقام الاول في بلادها . اما انا فقد منحتهم كل شيء ورددت

(١) لم يكن في مصر اساقفة غير البطريرك الى زمن ديمتريوس اما الذين كانوا تحت يد البطريرك فكانوا كهنة وشمامسة فقط ولكن لفيف الكهنة الذين كانوا مع البطريرك في الاسكندرية كان لهم امتيازات خصوصية كما هي عادة الذين يخدمون في الكنائس الكبرى .

(٢) يعني لما ذهب الى مصر قاطبة تمييزاً لها عن مدينة الاسكندرية

اليهم امتيازاتهم القديمة بل زدتهم عليها زيادة تذكر بالشكر » اهـ

على ان ادريانوس قد صار فيما بعد أعرف كثيراً بحقيقة الدين المسيحي مما كان وقت كتابة خطابه هذا وكان ذلك عقيب مطالعته رسالتين قدمتا له في اواخر عمره من تاليف بعض الائمة المتقدمين في ايضاح حقيقة النصرانية واصول الديانة المسيحية . قيل وكان صاحب احدى الرسالتين ومهديها قوادراتوس وتنسب الثانية لارستيدس . غير انه يبعد عن الظن ان الاول منهما عاش الى زمن ادريانوس بدليل قوله في رسالته المذكورة (حسبما رواه يوسيبيوس الذي قراها بنفسه) ما نصه « ان بعض الاشخاص الذين صنع فيهم ربنا يسوع المسيح آيات الشفاء لا يزالون احياء » ولذا يكون الارجح ان مقدم الرسالة لادريانوس كان احد اعضاء الكنيسة المسيحية باثينا او الاسكندرية او رومية . واذا ثبت ذلك فلا يلزم الجمع بين قوادراتوس هذا واسقف اثينا المسمى بهذا الاسم المعاصر لادريانوس . أما ارستيدس مؤلف الرسالة الثانية فكان فيلسوفاً مسيحياً من مدينة اثينا وقد امكن العثور على رسالته في احد المدافن المصرية من عهد قريب بعد ان ظلت مفقودة عدة قرون

ثم ان آثار المذهب الاغنوسطي كانت ظاهرة وقتئذ حتى على بعض المسكوكات المستعملة في عهد الامبراطور ادريانوس حيث تنوعت اشكالها وكثر عددها الى درجة لم يسبق لها مثيل في عهد غيره . فكان لكل مركز واقليم في القطر المصري نقود خاصة به منها ما كان منقوشاً عليه بعض

رموز المذهب الاغنوسطي ومنها ما رسم عليه بعض التماثيل المصرية ومنها ما يمثل رأس انطينوس المتأله (الذي افتدى مولاه) . هذا وقد اشاع بعضهم ان ادريانوس شيد في أواخر عمره هياكل بدون اصنام او تماثيل على نية تكريسها لعبادة المسيح فيما بعد . وقد لا يخلو هذا القول من صحة فيما يتعلق بتشييد تلك المعابد ولكن لا دليل يعول عليه في اثبات تلك النية لادريانوس . وقد توفى هذا الامبراطور بعد مبارحته الديار المصرية بثلاث سنوات وبموته كانت نهاية ملكه ونهاية مدة الالف واربعمائة وستين سنة الثابتة المقدرة لدورة الشعرى اليمانية وفي نهايتها توافق افتتاح السنة المدنية مع السنة الدينية عند المصريين

الفصل السادس

المدرسة اللاهوتية الاولى . سنة ١٣٨ ب . م

كانت فاتحة حكم انطونينوس في مصر اعادة مساحة جميع السكك العسكرية في هذه البلاد فعرفت من ذلك الوقت بخطط انطونينوس وكان عدد هذه الطرق ستاً — ثنتان منها تمران ببابليون الاولى آتية من بلاد النوبة (اونوبيا) وهي التي بعد اجتيازها ببابليون تمر في وسط الاقاليم التي يقطنها اليهود حتى تصل الى كليسما . والثانية التي تمر من

ممفيس الى بيلوزيوم مجتازة النيل عند بابليون . وقد انشأ انطونينوس ايضاً ميداناً لسباق الخيل بمدينة الاسكندرية وزاد على عدد ابوابها اثنين جديدين هما باب الشمس وباب القمر . ثم مما يدلنا على ان الديانة الوثنية القديمة كان بها لذلك العهد بقية من الحياة ما تم في مدة حكم هذا الامبراطور ايضاً من انشاء هيكل جديد في الواحات الكبرى باسم (امون نف) المعبود المصري . وهنالك رواية لا نرى موجباً للارتياب في صحتها ولذا نثبتها هنا وهي انه في عهد الامبراطور انطونينوس ايضاً — اي نحو سنة ١٥١ ب . م — عزم القديس فرونتونيوس على ترك العالم زهداً في الدنيا وملاذها فجمع اليه جماعة من الاخوة وسار بهم الى وادي الطرون (في مديرية البحيرة) وهنالك قضوا بقية حياتهم بالنسك والتعبد في بعض الكهوف الصخرية فكان ذلك عبارة عن تأسيس اول دير مسيحي

وفي سنة ١٦١ ب . م توفي الامبراطور انطونينوس وخلفه مرقس اوريليوس الذي كان قد تبناه في حياته . وكان هذا الامبراطور قد ربي على مبادىء الفلسفة الرواقية بواسطة استاذه ديوغنيطوس فبقي شديد التمسك بها واشتهر خصوصاً بانكاره المعجزات والاحلام . وفي مدة حكمه كان القتل أمراً محتوماً على كل من اعترف بالدين المسيحي او أتهم به فكان المسيحيون في اوقات الاضطهاد يساقون للمحاكمة كمجرمين لامتناعهم عن عبادة الآلهة الكاذبة او بحجة انهم كفرة ملحدون لا يؤمنون بآله . وقد كتبت حينئذ عدة رسائل دفاعاً عن الدين المسيحي

والمسيحيين منها رسالة ثانية للقديس يوستينوس مارتيروس ومنها رسالة
الى ديوغنيطوس مهذب مرقس اوريليوس اجمع الناقدون على استحسانها
والاعجاب بها بل احلها الجم الغفير من المسيحيين المنزلة الثانية من
الاعتبار بعد رسائل العهد الجديد القانونية . وقد بقي الناس عدة قرون
معتقدين بصحة نسبة هذه الرسالة الى يوستينوس ايضاً غير ان ابحاث
العلامة كورتون الحديثة اسفرت عن الحقيقة في هذا الشأن وهي ان
كاتبها رجل اسمه ابروسيوس من اكابر بلاد اليونان كان قد اعتنق
الدين المسيحي فهاج ذلك عليه ذويه ووجوه وطنه . على ان اتعاب
يوستينوس وامبروسيوس هذه لم تأت بفائدة تذكر فان الاول مات
شهيداً في رومية بين سنتي ١٦٦ و ١٦٧ وكان قد استشهد قبله ببضع
سنين مار بوليكاربوس في ازمير وبعده في سنة ١٧٧ أهلكت بلاندينا
ورفيقاتها في مدينة ليونس . هذا والظاهر ان يوستينوس لم يأت مصر
الا مرة في حياته كعابر طريق غير ان مدينة الاسكندرية لم تكن حينئذ
في حاجة الى المزيد من مشاهير الاساتذة والعلماء المسيحيين سواء كانوا
هراطقة او من ابناء الكنيسة الجامعة بدليل ما ظهر من ثمرة اعمالهم
في ذلك الحين بانضمام كثيرين من اشراف الوثنيين واكابرهم الى احضان
الكنيسة المسيحية . فمن هؤلاء أثناغوراس الفيلسوف الاثنوي وكان
يشغل وظيفة عالية مهمة بالمتحف الاسكندري ويعتبر من اساطين الديانة
الوثنية بالاسكندرية وكان كغيره من الفلاسفة الافلاطونيين كثير البحث

في امر الديانة المسيحية طمعاً في كشف اغلاطها واظهار فسادها فانكب
على درسها باجتهاد عظيم وكانت النتيجة الطبيعية انه اعتنق الديانة المسيحية
وقد استمر بعد ذلك على لبس رداء الفلاسفة ولم يمتنع عن وظيفة
التدريس بيد انه اصبح من اعظم انصار النصرانية واكبر المدافعين عنها .
ومما كتبه لهذا الغرض رسالة عنونها الى مرقس اوريليوس وكومودس
ويظن ان تاريخها بين سنتي ١٧٦ و١٧٧ ب . م

ومن معاصري أثناغوراس في ذلك الوقت كلوديوس بطليموس
العالم الجيوغرافي الشهير وكان ايضاً فلكياً ماهراً تخرج من مدرسة
الاسكندرية الرياضية ومن تآليفه كتاب في الالحان الموسيقية وجدول
يحتوي على ارصاد فلكية عن الكسوف والخسوف لمدة ثمانمائة سنة
سابقة لعهده . وقد اتم معظم هذه الارصاد في بابل اشور واكمل باقيها
في بابليون المصرية كما يظهر من اسماء اماكن خطوط الطول والعرض
التي ذكرها

وبعد قمع ثورة اليهود التي حدثت سنة ١٣٥ ب . م استتب السلم وساد
الهدو فاخذت الديانة المسيحية تمتد في مصر امتداداً عظيماً حتى كان من
ذلك انه في اواخر هذا القرن تأسست المدرسة المسيحية الشهيرة المعروفة
بمدرسة الاسكندرية اللاهوتيه وان كان تاريخ افتتاحها واسم مديرها الاول
لم يزالا غير معروفين حق المعرفة . على انه من سوء الحظ ايضاً اننا
لا نعلم شيئاً كثيراً عن تاريخ حكم مرقس اوريليوس في مصر بل غاية

ما اتصل الينا انه في سنة ١٧٢ ب.م جاهرت الجنود المصرية بالعصيان على القائد الروماني فحاربتهم الجنود الرومانية تحت قيادة افيدوس كاسيوس وبعد عدة وقائع عنيفة استظهر عليهم . ثم ان افيدوس هذا طمحت انظاره بعد ذلك الى الامبراطورية فنادى بنفسه امبراطوراً سنة ١٧٥ فتأهب مرقس اوريليوس الى قتاله وسار اليه بجيش اخر ولكن قبل وصوله الى مصر وردت اليه البشائر بان الجند الروماني فيها قام على القائد المذكور وذبحه هو وابنه معلناً بذلك عودته للطاعة والولاء . فاستمر مرقس في سيره الى ان بلغ الاسكندرية فمكث بها زمناً نال فيه من رضاء اهلها وثناء فلاسفتها وعلمائها ما لم ينله امبراطور قبله وذلك بحلمه ودماثة اخلاقه . والظاهر انه في اثناء هذه الرحلة قدم اثناغوراس الى الامبراطور رسالته السالفة الذكر اما في اثينا او بالاسكندرية ولم نسمع بعد ذلك بحصول اضطهاد بمصر في مدته مع ان الاضطهاد وقع في ليونس في السنة التالية

ثم انا في السنة الاولى او الثانية من حكم الامبراطور كومودس الذي اخلف مرقس اوريليوس على المملكة الرومانية نرى بنتينوس متقلداً رئاسة المدرسة اللاهوتية . والظاهر ان بنتينوس هذا ومعاصره اكليمنضس الاسكندري الذائع الصيت كانا كلاهما تلميذين لاثناغوراس المار ذكره وكانا كباقي مسيحيي مصر الاولين متضلعين في علوم القدماء وحكمتهم كتضلعهما في كل الحقائق والمبادىء المسيحية الصحيحة . وكان

بطريرك الاسكندرية في ذلك الوقت انبا يوليانوس الذي تبوأ الكرسي البطريركي بعد اغريبانوس في سنة ١٧٩ ب.م وهي السنة الاخيرة من ملك مرقس اوريليوس

ويروى في امر رسامة خلفه انه لما احس يوليانوس بدنو اجله ظهر له ملاك الرب في رؤية او في حلم واخبره ان الرجل الذي يأتيه بهدية من العنب في اليوم التالي يكون هو الذي اختاره الله خلفاً له على كرسي البطريركية . فلما كان الغد جاءه الرجل واذا به شاب لا علاقة له بالاكليروس مطلقاً بل هو فلاح مصري امي متزوج وقد احضر معه عنباً من محصول كرمه . فلما قيل له انه انتخب ليكون بطريركاً توسل بضراعة ملتمساً اعفاءه من حمل هذه المسئولية الهائلة فلم يلتفت الى طلبه وتمت رسامته بالقوة الجبرية على ما قيل . فلما رأى ذلك اخذ للحال في اجهاد جميع قواه توصلاً الى اصلاح نقائص تربيته الاولى ففتح الله عليه بشيء كثير من العلم والحكمة حتى اصبح من اعظم احبار ذلك العصر واكبر ائمته واستمر بطريركاً مدة ٤٣ عاماً حدثت فيها عدة حوادث مهمة . واول عمل اتاه هو انه ارسل بنتينوس لنشر الدين المسيحي ببلاد الهند(١) . وكانت قد اتته رسالة من تلك البلاد النائية يلتمسون بها من بطريرك الاسكندرية (وهي اذ ذاك اشهر مدينة في العلم والفلسفة) ان يرسل اليهم معلماً للايمان

(١) ليكن معلوماً عند القارىء الكريم انه في القرن الثاني للمسيح كانت اكثر البلدان المتاخمة للهند تعرف بهذا الاسم . غير انه يظهر من عدة قرائن ان المقصود هنا بالهند هو الاقطار الهندية الحقيقية .

يعادل علمه تقواه . فعرض البطريرك ديمتريوس الامر على
بنتينوس فقبله هذا بكل رضى وذهب بنفسه لمباشرة هذا العمل
تاركاً لاكليمنضس رئاسة المدرسة اللاهوتية الى ان يعود هو اليها.
قيل وقد وجد عند الهنود نسخة من انجيل متى باللغة العبرانية كانت
موضوع اجلالهم وتعظيمهم ويقولون ان مار برثلماوس هو الذي أتى
بها الى اقطارهم الهندية ويظن مارجيروم ان بنتينوس جاء بهذه النسخة
الى الاسكندرية . هذا ولم يعرف كم مقدار الزمن الذي صرفه بنتينوس
في بلاد الهند لهذا الغرض وانما المعلوم انه حين رجوعه منها تولى رئاسة
المدرسة اللاهوتية ثانية وبقي فيها الى ان توفى سنة ١٩٤ ب . م على الارجح
اذ انه من شهادة المؤرخين قد ادرك زمن ساويرس الامبراطور وهذا
ملك من سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١ ولكنه لم يعش بعد سنة ١٩٤ المذكورة
بدليل انه لما حدث الاضطهاد سنة ٢٠٣ كان اكليمنض حينئذ مستقلاً
برئاسة المدرسة اللاهوتية منذ بضع سنوات

ولقد هال المدرسة الوثنية ما رأته من سرعة انتشار الديانة المسيحية
لذلك العهد فدبت النعرة في عروقها وجدد ذلك روح النشاط عندها.
فكانت خزائن مكتبة الاسكندرية في ذلك الوقت تحتوي على نسخ
من جميع مؤلفات اليونانيين والمصريين ومع ذلك كان السعي على قدم
وساق في تكثير مجلداتها وزيادة التآليف الجديدة فيها فخصص قسم من
النساخ لكتابة ما يمليه عليهم المؤلفون الاحياء واشتغل قسم آخر بنسخ

ما امكن العثور عليه من كتب المؤلفين والفلاسفة الوثنيين الذين درجوا وذلك
بقصد تسهيل انتشارها حتى يطلع الطلاب عليها . وقد بلغ عدد هؤلاء النساخ
مبلغاً عظيماً حتى اصبحوا عبارة عن جيش صغير وكانوا تبعاً لحالة وظيفتهم يقسمون
الى قسمين هما ارباب القلم السريع لكتابة الاملاء وناسخو الكتب وكان ثلاثة
من اعظم مشاهير المؤلفين الوثنيين في ذلك الحين وهم اثينيوس
ويوليوس بولوكس وكيرون مصريين مولودين بمدينة نوكراتيس .
وقد بقي من مؤلفات الاول كتاب واحد عنوانه « محادثات الفلاسفة »
وفيه وصف شائق لحالة الهيئة الاجتماعية في الاسكندرية لذلك العهد.
اما يوليوس بولوكس فلم يكن الا من اهل النقد الشفاهي ولكن
كيرون صنف تاريخاً في ملوك مصر وكهنتها فقد برمته ولما يصلنا شيء
منه لسوء الحظ . ومن الكتبة المعروفين في عهد الامبراطور كومودس
لوسيانوس مؤلف كتاب المحاورات وكان سكرتيراً او كاتب يد الوالي
الروماني حينئذ . ومن الفلاسفة الوثنيين ايضاً شلسوس الابيقوري اشتهر
برسالة له ضد الديانة المسيحية التي عمت وزاد انتشارها اكثر من الدين
الموسوي والديانة الوثنية الاصلية في مصر غير ان رسالته فقدت كغيرها
ولم نعرف من محتوياتها الا ما جاء في رد اوريجانوس عليها . وقد كتبت
في بحر تلك المدة عدة كتب اخرى في هذا الباب ولكن من الحقائق
المقررة التي لا يشوبها ادنى ريب ان الديانة المسيحية فضلاً عن اجتذابها
زمام العلماء في جميع انحاء العالم المتمدن حينئذ وانقياد ثلاثة من اعاظم

الرجال — هم ديمتريوس وبنتينوس واكليمنضس — لاوامرها وخدمتها
في مدينة الاسكندرية فقط فقد كانت آخذة في التغلب بسرعة غريبة على
الاديان الاخرى في القطر المصري حتى انه لما كان بطريرك الاسكندرية
هو الأسقف الوحيد في مصر لحد ذلك العهد رأى ديمتريوس حينئذ
انه من الضروري تعيين ثلاثة اساقفة آخرين للاقاليم البعيدة عن مركز
البطريركية ليتمكنوا من رعاية قطيع المؤمنين . ثم من اوضح الادلة على
اضمحلال الديانة المصرية القديمة تلك المراثي الحزنة التي انشأها صاحب
كتاب هرمس الاكبر اذ قال :—

« صحيح ان مصر هيكل الدنيا ومعبد الوجود ولكن لما كان من
الواجب على الحكيم ان يتدبر في مصير الامور ليعرف عواقبها وما
تنتهي اليه فاعلم اذاً انه سيأتي وقت يظهر فيه للمصريين كأن عبادتهم
وتقواهم قد ذهبت سدى وان دياناتهم المقدسة اصبحت لغواً اذ يرجع
اللاهوت من الارض الى السماء وتصبح ارض مصر مهجورة وتمسي
خالية من الدين والتقى بعد ان كانت مستقر الالوهية لان البلاد متى
اصبحت في قبضة الاجانب تهمل امور دينها وتسن فيها الشرائع ضد
التقوى والمتقين وتفرض القصاصات على المتدينين . فتمسي هذه
البلاد المقدسة ملأى بالعبادة الوثنية مشحونة بهياكل الاصنام
وقبور الاموات. فواحسرتاه عليك يامصر اذ سوف لا يبقى فيك سوى
ظل ديانتك فلا يؤمن بها الاعقاب والخلف وسوف لا يدوم لك سوى

تلك النقوش المحفورة على اعمدة مبانيك الشاهقة الفخيمة لتشهد باعمالك
البارة التقوية . سيحتلك وآسفاه عليك قوم من الحثيين او الهنود او اية
قبيلة اخرى متوحشة فيغادرك اللاهوت الى السماء ويهجر الله والانسان
مصر . هلم فاسمع ما اقوله لك ايها النهر المقدس وع ما سأنبئك
به مما سيحل بك . تمتلىء مياهك وينابيعك المقدسة بالدماء حتى
يفيض على شطوطك ويصير عدد الاموات الذين تبتلعهم اكثر من
عدد الاحياء والذي لا يبقى حياً لا يعرف انه مصري الا بلغته فقط اذ تكون
اعماله كاعمال المتوحشين » اه

وفي ذلك الوقت شعرت الكنيسة بضرورة الشروع في ترجمة
حياة السيد المسيح الى اللغة المصرية المعروفة الآن باللغة القبطية وقد
تم لها ذلك غير ان هذا الانجيل الذي كان ينسب للمصريين ضاع
منذ زمان طويل حتى انه ليصعب الآن معرفة اي الاناجيل الاربعة
كان هو بل قد اصبح من المرجح الآن استدلالاً من بعض شذرات
وصلت الينا باللغة اليونانية ان الانجيل المذكور لم يكن ترجمة وانما هو
مجموعة ادخل اليها شيء من العقائد المصرية القديمة بحيث اصبحت
لا يصح اعتبارها ولذا قرر اوريجانوس وجيروم انها من الكتابات
المزورة ومع ذلك فقد نشر هذا الكتاب حينئذ في البلاد بكل حرية
وبدون ادنى معارضة من تلك الكنيسة المسيحية المثقفة بالعلوم
والمعارف . على ان زمن السلام لم يدم طويلاً لتلك الكنيسة الفتية اذ

باغتها عاجلاً الاضطهاد الاول الذي حصل للمسيحيين في بر مصر

الفصل السابع

﴿ اوريجانوس . سنة ١٩٣ ب.م ﴾

قلنا فيما سبق انه في اوائل حكم الامبراطور ساويرس كان اكليمنضس الاسكندري رئيساً للمدرسة اللاهوتية في الاسكندرية (وانما عرف بالاسكندري تمييزاً له عن سميه اكليمنضس الروماني) اما اسم هذا الرجل الشهير فهو تيطس فلافيوس اكليمنضس وفيه اشارة الى وجود بعض الصلة بالعائلة الامبراطورية غير اننا لانعرف شيئاً اكيداً عن مولده وان كانت قد غلبت عليه النسبة الى الاسكندرية . وقد ارتد عن الديانة الوثنية بعد ان صرف بضع سنوات في السياحة والدرس والمطالعة وتتلمذ بعد ذلك لبنتينوس وصار صديقه الحميم وقام مقامه مدة غيابه ببلاد الهند في الرئاسة على المدرسة اللاهوتية وعين بعد موته رئيساً لها وفي نحو ذلك الوقت ايضاً تمت رسامته كاهناً جرياً على عادتهم في ان هذه الرئاسة تكون لكاهن وانما يستثنى من ذلك اوريجانوس الذي لم يدرج في سلك الكهنوت الا بعد انفصاله عن المدرسة المذكورة

اما شهرة اكليمنضس فلم تنحصر في طول باعه في التعليم والتدريس فقط بل كان طائر الصيت جليل السمعة ايضاً بما كان له من التآليف والتصانيف المعتبرة وقد حفظ منها الى يومنا هذا خمسة مؤلفات عدا عن عدد عظيم من بقايا كتب مختلفة. اما الحقيقة العظمى التي كان هو من اول دعاتها وتفنن في اظهارها على جملة طرق واساليب هي ان الدين المسيحي وارث الماضي وترجمان المستقبل . وانه ليس بنبإ غريب في تاريخ الكون او مناقض للحوادث والانباء السابقة بل هو اتمام كل اعلان او وحي او نبوة حصلت وتفسير وايضاح لكل كتاب أنزل ولكل قول او مبدأ نطقت به افواه العلماء والحكماء وارباب العقول الثاقبة سواء كانوا من اليهود أو الامم أو اليونان أو المصريين . وكان اكليمنضس لا يقتبس ادلته واستشهاداته على الدوام من العهدين القديم والجديد فقط بل من الاسفار الغير موحى بها ايضاً مثل سفر ابن سيراخ ويهوديت ومن الكتب المسيحية التي لا تعتبر من اجزاء الكتاب المقدس كرسائل برنابا ورسائل اكليمنضس الروماني وعظات ماربطرس ورسائل هرمس المسماة بالراعي وانجيل العبرانيين . وكان يعتبر الكتابين الاولين مساويين للرسائل القانونية

غير ان اوقات الهدؤ والسكينة لم تدم طويلاً في مصر بعد ان تمتعت بها البلاد سبعين عاماً وهي المدة التي انقضت منذ عصيان اليهود الى بدء ظهور الاضطهادات ضد المسيحيين وفي خلالها كانت الديار

المصرية قد اصبحت برمتها تقريباً مسيحية فلما تولى الامبراطور ساويرس عرش السلطنة الرومانية وجه اهتمامه في باديء الامر الى اخضاع الذين قاموا يزاحمونه من كل فج في انحاء الامبراطورية وكان قليل العناية الى ذلك الوقت بامر مصر وشؤونها مظهراً الميل والرضى نحو المسيحيين حتى انه كان يعين منهم من يلزم للقيام بخدمة ابنه . ثم لا ندري ما السبب الذي حمله بعد ذلك على مطاردة واضطهاد الشعب الوحيد الذي كان أميل شعوب مملكته الى الدعة والسكينة وانما الذي نعلمه انه ما ابث ان سحق شوكة الخوارج حتى اصدر امراً في سنة ٢٠٢ ب . م يحرم فيه على رعاياه الدخول في الديانة المسيحية او في الدين اليهودي في مستقبل الايام

وبعد اصدار هذا الامر قدم الامبراطور لزيارة بلاد مصر وتجول في انحائها حتى وصل مدينة طيبة جنوباً والظاهر ان ما شاهده هنالك من استفحال سلطة الدين المسيحي وتمدن المسيحيين وكثرة عديدهم جعله يوجس خيفة منهم على السلطنة الرومانية نفسها فكان انه بعد وصوله مصر ازداد الاضطهاد شدة وصرامة ولم يكف الا بعد رجوعه بمدة . وكان في مصر حينئذ وال اسمه ليتوس بذل غاية جهده في تنفيذ اوامر مولاه حتى عم الاضطهاد في انحاء القطر المصري كله الا ان الضربة القاسية اصابت الاسكندرية بنوع خاص لانها كانت تعتبر منبع الديانة المسيحية . ومع ان البطريرك ديمتريوس ظل ساكن الجاش ثابتاً في

مركزه الا انه أمر بايصاد المدرسة اللاهوتية موقتاً واعقب ذلك ان تشتت شمل التلامذة ولازموا بيوتهم وكذلك اكليمنضس اركن الى الفرار من هذه البلاد لكي يخلص نفسه من غائلة الاضطهاد . وعاش ديمتريوس مدة بعد ذلك الا انه لم يتمكن من نشر مؤلفاته اثناء حياته فنشرت بعد نياحته . اما عن المدة التي عاشها بعد الاضطهاد وما تم له فيها وكيف مات فلا يعرف شيء عنها يستحق الذكر

والذي يتصفح قائمة اسماء الشهداء من المصريين يجدها طويلة جداً ولو انها لم تصل الينا كاملة مع انه في الاضطهادات الاخرى لا تجد اكثر من واحد او اثنين من اهم الشهداء . ومن الذين اشتهروا في هذا الاضطهاد فتاة اسمها بوتامينا التي تذكر كلما ذكرت غضاضة الشباب ونضارة الجمال وذاع صيتها لشدة ما قاسته من العذاب وذلك لكي يضطروها ان تنكر الديانة المسيحية وترتد عنها ولكنها بقيت متمسكة بايمانها الوطيد الى أن اودعت لهب النار مع امها مارسلا . ولم ينته عمل هذه الصبية عند موتها بل ان ما اظهرته من الشجاعة والثبات في احتمال الآلام والعذاب اثر تأثيراً عميقاً في الضابط المكلف بتنفيذ الحكم عليها فلم يلبث بعد موتها ان سلم نفسه بارادته للحكومة كمسيحي فازيلت رأسه من على جسمه وهذه احدى نتائج الايمان القويم الذي سيخلد ابوتامينا جليل الذكر وجميل الاثر . ومن اغرب ما نقله الراؤون بالاجماع ان النساء في مثل هذه الاضطهادات كن يعذبن اعذاباً اليماً

بخلاف الرجال الذين كانت تقطع رؤوسهم بدون تعذيب . وبين
الرجال الذين ذاقوا كأس هـذا الاضطهاد كان ليونيدس الذي شهرته
ذاعت لانه كان ابا لاوريجانوس ولا يعرف عنه شيء بخلاف ذلك
مع ان بعض المؤرخين قالوا انه كان اسقفاً فاذا صح ذلك فقد يحتمل
انه كان من ضمن الاساقفة الذين عينهم ديمتريوس للاقاليم الا انه كان
متزوجاً وله سبعة بنين اكبرهم اوريجانوس الذي كان عمره بين ١٥ و١٦
سنة عند ما ألقي القبض على ابيه وكان هذا قد اشتهر قبلاً في الاسكندرية
بانه من انجب تلامذة مدرستها اللاهوتية واذكاهم كما انه تحلى ايضاً بصفات
حسن السلوك ومتانة الايمان حتى اصبح يشار اليه بالبنان ولذا صار
موضوع سرور والديه ومطمح انظار آله وذويه . ولما قبض على ابيه
ليونيدس كان هو غائباً عن المنزل كما يظهر من قرائن الاحوال فلما آب
وجد أمه واخوته الصغار في يأس وقنوط شديدين وقد يمكن للفطن ان
يتصور حاسات هذه الام التعيسة التي لم تكد تنتهي من سرد هذا الخبر
المحزن لاوريجانوس حتى اعلن للحال رغبته في تسليم نفسه للحكومة
والالتحاق بابيه طمعاً في نوال مجد الاستشهاد ولكن دموع الشفقة
والحنان التي كانت تنحدر من عينيها كالسيل المنهمر وتوسلاتها اليه ليعدل
عن عزمه عاقاه برهة عما كان ينويه خصوصاً وان الشمس كانت قد
مالت للمغيب ولما جن الظلام وثقل اوريجانوس بالنوم دخلت امه الاسيفة
الى مخدعه خلسة وطوت كل ثيابه وابعدتها عنه فصار حينئذ كسجين

عندها لم تطلقه الا بعد ان وعدها وعداً ثابتاً بان لا يتركها الا اذا دعته
الضرورة الشديدة لذلك وعليه اطاع الابن عوامل قلب والدته فارسل
جواباً لابيه المسجون يرجوه فيه ان لا يتأثر لذكراهم ولا يفكر فيهم
أو في مصير أمورهم بل يصرف همه في ما يؤول اليه أمره الشخصي .
وثابت ان يوسيبوس جمع مجموعة تحتوي على نيف ومائة مكتوب
سطرتها يد اوريجانوس في مثل هذه الظروف تشجيعاً للمضطهدين
ولكن عبثت بها ايدي الضياع كغيرها من المؤلفات الثمينة التي ذهبت
طعاماً للنار مع المكاتب التي حرقت في مصر وفلسطين

اما عن ليونيدس ابي اوريجانوس فآخر خبر عنه ان قد قطعت
رأسه وضمت املاكه لجانب الحكومة . ولذا اصبح اوريجانوس صفر
اليدين لا سنيد له وعلى عاتقه ام يعولها وصبية ستة يربيهم ولكن قيض
الله له سيدة من ربات الثروة واليسار — لا يعرف اسمها — بذلت كل
ما في وسعها لتدافع عن المسيحيين في الوقت الذي كانوا فيه يتراوحون
بين عاملي الخوف والاضطراب في الاسكندرية . ويستدل من بقاء
اسم هذه السيدة في طي الكتمان مع ما كانت عليه من الشهرة الواسعة
انها لم تكن مسيحية ولكنها فتحت خزائنها وبيتها ليس لاعضاء الكنيسة
الارثذوكسية فقط بل وللهراطقة ايضاً سواء في مصر وانطاكيه

وظلت نار الاضطهاد مندلعة بضع سنوات في اثناءها لم يصب
اوريجانوس بسوء وسبب ذلك كونه اشتهر عنه انه تحت كنف تلك

السيدة المشار اليها وذلك انه بعد استشهاد ابيه لم يبق في المكان الذي
اختباء فيه طويلا بل خرج منه كما يخرج الاسد من عرينه وذهب
وقلبه مملوء بالشجاعة لزيارة المسيحيين الذين ضاقت بهم رحبات السجون
وكان يخدم كلاً منهم بقدر جهده منشطاً اياهم ليظلوا على ايمانهم ثابتين
ولو جرعهم هذا كأس المنون . فسر البطريرك ديمتريوس من عمل هذا
الشاب الباسل وشجعه في الاستمرار على الدرس والمطالعة كما انه اوجد
له ايضاً تلامذة في اوقات الخطر هذه لتدريسهم وكانت تصرف لهم
مرتباتهم من الاموال المخصصة لدار الفقراء والمعوزين . ومع ان
هؤلاء التلامذة لم يمكنهم الالتئام في المدرسة نفسها مبدئياً الا انه لم
يمض طويل زمن حتى التف كل تلامذتها حول هذا الشاب الذي صار
فيما بعد من نوابغ متخرجيها . وقد يصعب على الباحث المدقق معرفة
الحالة التي كان عليها المصريون اثناء هذه الاضطهادات ولكن يظهر ان
احوالهم لم تكن على وتيرة واحدة بل كانت تختلف باختلاف الظروف ففي
بعض الاوقات كان المسيحيون يقشعرون ويتشنجون عند ما يلقى
القبض فجأة على الرجال والنساء منهم ويؤخذون على غرة من الاماكن
التي يقطنونها وكثيرون منهم يعذبون عذاباً اليماً ثم يتجرعون كاس الحمام
في لحظة من الزمن وبعضهم يتركون في السجون حتى يصيبهم الضنى والنحول
وكانوا احياناً يعاملون بمنتهى القسوة والصرامة كما يشاء المكلفون بحراستهم
واحياناً يرفق بهم قليلاً فيسمح لهم بمقابلة اصدقائهم والتكلم معهم بما يخفف

السجن ويزيل الهم نوعاً بيد ان مجرى الاعمال الاعتيادية كالبيع والشراء
والرياضة وغيرها بقيت على ما هي عليه في الاسكندرية وكان المسيحيون
يخطرون ذهاباً وجيئة بين جيرانهم الوثنيين واليهود وهم غير عارفين متى
يجيء دورهم او ما الذي يحل بالمسجونين منهم . ولم يكونوا يستطيعون
التفوه بخبر الا همساً في الآذان فكان الواحد منهم يقول لصاحبه « هل
سمعت ان فلاناً قبض عليه وسجن وقيل انه لا يعود يفلت » وكقول
بعضهم « لقد اصبنا بخسائر لا تقدر فما العمل » ولم يزل الامر كذلك
حتى اختفى خبر الكثيرين واصبحت السجون مكتظة بهم حتى اذا لم
يبق فيها مكان أعدم من فيها لايجاد محل لغيرهم . كل هذا والبطريرك
الفلاح الشيخ ديمتريوس والشاب المهذب العالم اوريجانوس وكثيرون
غيرهما من اولي الشجاعة والايمان ظلوا يؤدون ما يطلب منهم نحو
الآخرين بكل ثبات وسكون جاش وكانوا ينتقلون من مكان
الى آخر دون ان يجسر احد ويمد يده اليهم بسوء مع انهم كانوا
محفوفين باخطار جمة . ولم يك طويلاً حتى القى القبض على خمسة من
التلامذة الذين كانوا يتلقون الدروس اللاهوتية على اوريجانوس وبعد
ان قضوا اياماً مرة ذاقوا فيها من الاهانة القاسية والسجن الاليم ما تنوء
تحته اجسام الرجال تجرعوا غصص المنون لانهم رفضوا ان ينكروا
ايمانهم بانفة وشهامة . وكان بين هؤلاء الشبان الخمسة بلوطارخوس وهو
شقيق لتلميذ آخر اسمه هراكلاس الذي فر من الذين امسكوه بطريقة

وقدر له ان يعيش حتى يكون رئيساً للمدرسة اللاهوتية ثم بطريركاً للاسكندرية . وكان اوريجانوس مع بلوطارخوس عندما قبضوا عليه لانه كان صديقه فلم يتركه برهة بل ظل مرافقاً له الى آخر لحظة من حياته فلما قدم بلوطارخوس للاعدام اندفع اوريجانوس كالسهم يخترق الجمع المزدحم وتقدم نحو صديقه بلوطارخوس ليقبله قبلة الوداع الاخيرة وهو بين السيف والنطع بينما كان الرعاع المتجمهرون هنالك يضجون ويصخبون طالبين القبض عليه ايضاً ورجمه بالحجارة ولكنه تمكن من الفرار فلم يقفوا له على أثر . اما باقي هؤلاء التلامذة الخمسة فهم ساويرس وقد أحرق بالنار وهيراكليدس وهرون وقد قطعت رأساهما وآخر اسمه ساويرس ذاق العذاب الواناً قبل ان يريحه السيف منه

وبعد مضي سنتين على هذه الصفة اضطر البطريرك ديمتريوس ان يعين اوريجانوس نهائياً رئيساً للمدرسة اللاهوتية التي كانت لا تزال ملتئمة تحت رئاسته منذما بدأ الاضطهاد . فهذا التعيين جعل اوريجانوس مبغوضاً جداً من عامة الوثنيين الذين كانوا ينظرون اليه شذراً بعين ملؤها الكره والغيظ فاحس ديمتريوس بذلك وشعر بمقدار الخطر الذي يحيق باوريجانوس ولذا وضع حراسة قوية لحمايته من الاذى الذي كان ينتظر ان يصيبه من الاوباش الذين كانوا يقصدون القبض عليه في احد الشوارع لا ان تقبض عليه الحكومة بالطريقة القانونية . قال يوسيبيوس يصف الحالة التي كان فيها اوريجانوس « ان عوامل

الاضطهاد كانت تزداد ضده كل يوم وحنق القوم عليه اصبح شديداً حتى ان اهالي الاسكندرية عن بكرة ابيهم لم يستطيعوا احتماله ولا الصبر على انتقاله من منزل الى آخر وجولانه في كل ناحية مرشداً ومشجعاً الجم الغفير الذين هداهم الى الايمان الصحيح والدين القويم » . ومن الغريب ان هؤلاء السفلة الرعاع بداء فيهم شعور الاحترام لهذا الشاب الهمام الذي سحرهم بأعماله بينما كان يستخف بهم كلهم ليس ازدراء وسخرية بل بفطنة زائدة وطبع دمث وخلق سلس . قال ابيفانيوس انه في يوم ما امسك اولئك الرعاع اوريجانوس بينما كان سائراً في الطريق وحملوه بين ضجيج القوم الى هيكل سيرابيس الشاهق واضطروه اضطراراً بان يضع القلنسوة [1] على رأسه والبسوه الحلة البيضاء (التونية) التي يلبسها كاهن هيكل سيرابيس ومن ثم اخرجوه خارج الهيكل واصعدوه على قمة الطياره الكبرى التي في اعلى السلم وحينئذ امروه ان يوزع سعف النخل على عبدة الاوثان الذين كانوا مجتمعين كالنحل وهم يسخرون به ويصفقون له بالاكف من الاسف . فلم يتأخر اوريجانوس ان مد يده واخذ اغصان النخل وقدمها للشعب المتجمهر وصرخ بصوت كالرعد قائلا « هلموا خذوا هذه الاغصان . لكن ليس برسم الاوثان . بل باسم الرب يسوع المسيح خالق الانسان » — حقاً ان هذا المنظر لمن اعظم المناظر سروراً للعواطف الحية في مثل هاتيك الايام المظلمة

(١) هذه اشارة كان يلبسها الكهنة الوثنيون في تلك الايام وليست من خصائص المسيحيين

المضطربة—منظر ترى فيه ذلك الهيكل العظيم يناطح السحاب وحوله من الاسفل ردهة ملآنة باسافل القوم من كل جنس وطبقة وهم يضحكون ويصيحون بصوت كهزيم البرق كما تشاهد امثالهم في وقتنا الحاضر عند الاحتفال (بالمحمل) — ترى ايضاً طيارة السلم الشامخة مزدحمة بالوثنيين المترفضين يحملون الاغصان المقدسة وفي وسطهم صورة ذلك الشاب الباسل كانها القمر في ليلة حالكة وهناك ضوء الشمس يسطع على حلته الناصعة البياض فينعكس على تلك الاعين الشريرة فيبهرها كما كان ينعكس فضله على افئدتهم فيسحرها واوريجانوس واقف كالاسد يبتسم عن ثغر نقي وبيده سعف النخل يشير به على هذا الشعب لينبههم الى الدعوة التي يدعوهم اليها وهي عبادة المسيح بدل سيرابيس . وكان صوته الجهوري يرن في الآذان وسكون جاشه وثباته حيرا الاذهان.

اما اوريجانوس هذا فكان علامة دهره في حقائق الديانة المسيحية عند ما تقرر تعيينه رئيساً للمدرسة اللاهوتية كما انه كان متضلعاً في العلوم والمعارف التي شب على درسها واستيعابها . والذي اوصله الى هذه الدرجة من المعرفة والعلم هو انه قبل بدآءة هذا الاضطهاد درس كثيراً هو وجماعة من الشبان المسيحيين في المدرسة اللاهوتية درساً مدققاً ثم في المدرسة الوثنية التي كان يديرها امونيوس ساكوس من اشهر علماء الاسكندرية وكبار اساتذتها . قال يوسيبوس في هذا الصدد « ولما رأى اوريجانوس ان التلامذة الذين عهد اليه البطريرك

دمتريوس امر تعليمهم قد اخذوا يزدادون ويتكاثرون ارتأى ان استمراره في درس العلوم الطبيعية والدروس الادبية لا يتلاءم مع تدريس العلوم الدينية للطلبة الذين أسند اليه تعليمهم ولذا لم يلبث ان ترك مدرسة الفلسفة الوثنية السابقة الذكر واعتبرها عديمة الجدوى وان دروسها سحابة تحجب الانوار الساطعة التي يأخذها من علم اللاهوت» ولكنه لم يتبع خطة الافراط والتفريط مرة واحدة بل بقي يطالع ما سطره الاقدمون من العلوم المفيدة بجد متواصل وفي هذه المدة اخذ يبيع كل كتبه المدرسية القديمة وجميع النسخ التي كتبها بيده من مكتبة الاسكندرية وعليه اتفق مع رجل باعه هذه الكتب الوثنية برمتها على ان يدفع له اربع بارات[1] يومياً ليقتات بها في حياته . فهذا الفكر كان مبداء لخطة سار عليها اوريجانوس في ما بعد قاعدتها الغيرة الروحية التي تسوق الى انكار الذات وتكريس النفس وهي خطة اتبعها اكثر المصريين المتدينين في هاتيك الايام وتطرفوا فيها حتى حرموا كل بحث وتنقيب في الامور العالمية . ولما كان اوريجانوس قد اشتهر بالحذق والتواضع ورقة الجانب فلم يصب بتلك المصيبة التي وقع فيها اكثر الاتقياء من المصريين وهي الالتجاء الى الصحارى والقفار والابتعاد عن العالم بحجة التبتل والزهد أو هو موت الاحياء بل ان ذكاءه ومواهبه السامية جعلته مفيداً اكثر باختلاطه مع الآخرين الذين هم في حاجة اليه اكثر من

(١) كانت البارة عبارة عن قطعة نحاسية تساوي مليمين تقريبا

احتياج الدير له الا انه لم يبق كامل القوى بمعنى انه اسلم نفسه لعوامل الضعف وقهر الجسد حتى شعر بخطائه وندم على ما فعله من اذلال جسمه وود لو امكنه استرجاع قواه ولكن لم يفد الندم ولم ينفع الاسف فظل ضعيفاً منهوكاً . والذي يراجع تاريخه يعجب جداً من الطريقة التي اتبعها كما انه يعرف السبب الذي اضعفه واضناه في انه اجهد نفسه ليتمم كل فرائض العهد الجديد واوامره حرفياً حتى امتنع من اقتناء ثوبين معاً في وقت واحد وكان يسير حافياً شتاء وصيفاً وكان يأكل الخبز ويشرب الماء فقط ويأدم ببقول خضراء غير مطبوخة اسوة بافقر فلاح مصري وكف عن درس الدروس الادبية والعلمية التي كانت اعظم ما تسر به نفسه ولم يزد حرفاً واحداً على الاصل في ترجمته لسفر من الاسفار المقدسة — كل هذا ولم يكن اوريجانوس الا شاباً في عنفوان الصبا وريعان العمر تقاومه الشهوة الطبيعية فكان يتغلب عليها بعد عناء يعرفه من يقاوم ارادته البشرية حتى انه لما كانت تضطره واجباته في ايام الاضطهاد الى الدخول وسط العائلات وارشادها الطريق السداد ومناقشة الجنسين النشيط واللطيف ساعات متوالية كان يتألم ويرتعب خوفاً من الوقوع في تجربة وقصد ان يصد نفسه بعزم شديد عن اي عمل يوجب الخجل والارتياب متبعاً في ذلك نص ما ورد في الاصحاح التاسع عشر من انجيل متى

هذا ولو ذكر القارىء الكريم حالة البطريرك ديمتريوس عند ما

سمي بطريركاً وكيف انه جاء ليصلي لله لاجل زوجته ويقدم لكنيسته تقدمة هي محصول كرمه وهو حينئذ رجل فلاح أمي وقد اختير لهذا المنصب الخطير — لو ذكر ذلك وعرف مقدار حبه لاوريجانوس ظهيره ونصيره لادرك ما استحوذ على افكار هذا البطريرك من الحزن والقلق عند ما رأى هذا الشاب الغض قد سقط في وهدة الضعف والنحول لسبب زهده وتقشفه خصوصاً لاغراقه وتعمقه في مبدأ تكريس نفسه وانكار ذاته ولانه لم يتبعه كمبداء شخصي اختطه لنفسه بل قصد منه ان ينزع من فكر البطريرك ترشيحه لرتبة الكهنوتية كما ترشح اكليمنضس وبنتينوس من قبله . ولم يكن لحد هذا الزمن قد سن قانون رسمي يعمل به في مسألة الرتب الكهنوتية الا ان رأي الشعب العام كان له القول الفصل في هذا الامر لقوته وتنوره ولذا كان كل من وقع عليه الاختيار سيم للحال لاي رتبة كيفما كانت درجته . زد على ذلك ان عمل اوريجانوس هذا خالف كل المخالفة قانون المملكة المدني التي تعتبره كقاتل نفس كما انه تقرر في المجمع النيقاوي ان كل كاهن يعمل بنفسه هذا العمل اي الزهد الزائد والتنسك المفرط لحد الاضرار بنفسه « يقطع من الكهنوت » الا ان غلطة اوريجانوس هذه تغفر له لانه اعترف بها اعتراف المقر بذنبه الشاعر بثقل خطيته كما ورد ذلك في هامش رسالته التي سبقت الاشارة اليها

وقد استمر الاضطهاد السالف ذكره سبع سنوات لم يصب مسيحيو

رومية ضرر يذكر خصوصاً الذين كانوا منهم في خدمة البلاط الملوكي ولعل سبب ذلك عدم وجود عصبية قوية لهم توجد التاثير المطلوب مع كثرة عديدهم واهمية مراكزهم ولذا لم يخش الامبراطور شرهم كما كان يخشى شر المصريين الذين كانوا في درجة عظيمة من الثروة والعلم عارفين تمام المعرفة بما سلب منهم من الشهرة السياسية والادبية ولا يعوزهم للايقاع بمملكته سوى رباط متين يربطهم معاً كأن يكون دين واحد كالدين المسيحي ولذا كان القصد محو آثاره في قرطجنة وانطاكية وفي باقي الاقاليم المصرية اما رومية عاصمة المملكة التي كانت تحت حمى الجيش والحكومة فلم يكونوا يهتمون بامره كثيراً. وقد يغلب على الظن ان اوريجانوس زار كنيسة رومية ربيبة الكنيسة المصرية وذلك اثناء مدة هذا الاضطهاد. وبعد عودته او ربما قبل سفره كان قد اشرك معه هراكلاس زميله في التلمذة في تدبير مهام المدرسة اللاهوتية بينما كان هذا قد سيم كاهناً . وفي هذا الوقت ايضاً انكب اوريجانوس على تعلم اللغة العبرانية وذلك ليؤهل نفسه الى ترجمة الكتب المقدسة الى ست لغات وهو عمل يعد من اهم الاعمال الخطيرة التي عملها اوريجانوس في حياته ولو ان هذه الترجمة لم تنشر الا بعد وفاته بسنين قليلة . وكان حجم هذه التوراة المترجمة يساوي ستة اضعاف حجم التوراة الاصلية مرتبة في جداول متوازية في الاول منها النص العبراني

الاصلي وفي الثاني النص اليوناني وفي الثالث ترجمة اكويلا [١] وفي الرابع ترجمة سياخوس وهو مسيحي عاش في مدة مرقس اوريليوس او ساويرس كما يظن البعض وكان مسكنه فلسطين حيثما يحتمل انه اتم هذه الترجمة المنسوبة اليه وقد يمكن ان اوريجانوس كان عارفاً بترجمة سياخوس قبل ان يعثر على النسخة التي قال بلاديوس ان اوريجانوس كتب عليها بخط يده هذه العبارة « قد وجدت هذه النسخة في بيت يوليانا العذراء في قيصرية بينما كنت مختبئاً هناك وقد قالت لي يوليانا انها اخذتها من يد سياخوس مترجم اليهود » . اما الجدول الخامس فكان يحتوي على الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية والسادس على ترجمة ثيودوشن الافسي كتبها نحو سنة ١٨٠ ب.م وقد قال عنه ايرينوس انه كان وثنياً واعتنق الديانة المسيحية ولم يترجم سوى العهد القديم فقط ويحتمل انه اهمل مراثي ارميا الا ان هذه الترجمة قورنت مع نسخ عديدة متنوعة مكتوبة بخط اليد قال عنها يوسيبيوس ان اوريجانوس بحث عنها ونقب في مخابيء قديمة حتى وجدها مطمورة فاخرجها بعد ان مرت عليها ايام كثيرة . ولما لم يهتد اوريجانوس الى معرفة اسم المؤلف لهذه النسخ نوه في حاشية منها بانه وجدها في نيكوبوليس بالقرب من اكتيوم كما انه وجد هذه الترجمة الاخيرة في مكان مثل هذا . اما ترجمة المزامير في هذه التوراة فكانت تحتوي على الاربعة جداول الاولى ثم اضيف اليها ثلاثة ايضاً

(١) هو من بنطس كان يشتغل في اعمال متنوعة في ايام ادريانوس وقد اعتنق الديانة اليهودية او الديانة المسيحية على قول البعض

فاصبحت المزامير مترجمة الى سبع لغات واحد هذه الجداول الثلاثة قيل انه اكتشف باريجا في مرجل وذلك في مدة كارا كلا ابن ساويرس

فهذه الترجمة الشهيرة التي كتبها اوريجانوس قد عبثت بها ايدي الضياع كما لعبت في غيرها من المؤلفات الثمينة ولم يبق لها أثر ولكن الجدول المأخوذ من الترجمة السبعينية كان قد نسخ صورة منه من الاصل الذي كان محفوظاً في قيصرية في ايام يوسيبيوس وبامفيليوس وعرضت هذه النسخة ليقراءها من شاء . وفي القرن السابع قام بولس اسقف بلاَّ وترجم نسخة الترجمة السبعينية الى اللغة السريانية وظلت نسخة من هذه الترجمة محفوظة في ديرفي وادي النطرون اكثر من الف سنة وهي الآن موجودة في المتحف البريطاني ولكنها غير كاملة

هنا اخذ اوريجانوس يشعر بخطائه الذى ارتكبه في قمع جسده وعقله وهو شعور ازداد معه عندما اخذ على عاتقه اتمام العمل المار ذكره الذي يحتاج لعقل سليم في جسم غير سقيم ولذا عول على اصلاح غلطته هذه بقدر استطاعته ولكن لم تعد تجدي الوسائط نفعاً ولم يكن في طوقه استرجاع نضارة شبابه التي اضاعها بنزقه وتهوره ولكنه افرغ قواه في اعادة غضاضة عقله ان لم يقدر على جسمه وذلك بمعاودته درس المؤلفات العلمية والادبية . فلما عمل هذا اصبح عرضة للوم وتقريع الجهلاء وسخيفي العقول ولذا اضطر ان يبرىء نفسه ويناضل عن مبادئه وهاك شذرة من رسالة له في هذا المعنى قال فيها : —

« ولما كنت قد كرست نفسي لخدمة كلمة الخلاص وكان قد ذاع صيتي في الآفاق نظراً لبراعتي واقتداري وكثيراً ما كنت معضداً للهراطقة واهل البدع الذين يجيئون لزيارتي والبحث معي وكنت مرموقاً بجماعة من المغرمين بالعلوم اليونانية خصوصاً المتعمقين في الفلسفة — قصدت ان افحص افكار الهراطقة وامتحن تآليف الفلاسفة الذين أحياناً ينطقون بحقائق مهمة وقد اتبعت في هذا خطوات بنتينوس الذي افاد الكثيرين قبل ان اوجد انا ولم اكن معارفه قاصرة على هذا الحد كما انني اقفوت آثار هراكلاس الذي كان عضواً في مجمع الاسكندرية وقد علمت انه واظب مدة خمس سنوات يحضر عند معلم الفلسفة قبل ان ابتدى انا في استيعاب هذه العلوم »

وقد كتب غريغوري ثومترغس وهو من اشهر تلامذة اوريجانوس كتاباً على نسق ما كتبه استاذه وهذا نصه :

« لم يحرم علينا البحث في اي موضوع ولا استعصى علينا علم ولا خفي عنا أمر وقد أبيح لنا الوقوف على سر كل تعليم سواء كان للمتوحشين او اليونان ومعرفة غوامض الامور روحية وجسدية الهية او بشرية . وقد استقصينا بحرية كل انواع العلوم ومتعنا انفسنا بكل المسرات الجائزة التي تميل لها النفس الشريفة »

ولم يكتف اوريجانوس بترجمة التوراة الى ست لغات بل في الوقت نفسه وضع ايضاً شرحاً طويلا لاسفار التوراة ضاع اكثره من زمن مديد مع انه كان متداولاً في ايام يوسيبيوس . فهذا هو اوريجانوس الذي يعد بين الطبقة العليا من علماء المسيحيين بالاسكندرية في الاعصر الاولى حتى لقد ذاع صيته وطبقت شهرته الافاق فكان يأتي اليه الناس افواجاً من كل فج عميق وترسل الامم في طلبه ليرشدها الى طريق الخلاص خصوصاً لما عرف عنه من الفرح في وقت الشدائد والابتهاج

بالعذاب والآلام وكان من أهم اعماله ثلاث ارساليات أنفذت الى بلاد العرب كل على حدتها وقد ذكرها يوسيبيوس في تاريخه . ولا بد ان يتذكر القارىء ان بلاد العرب كانت في ذلك العهد اشبه ببلاد الهند حينئذ التي مر بك وصفها في انها كانت عبارة عن بلاد واسعة الارجاء لا يعرف عنها شيء . اما مدينة البصرة التي كانت بمثابة واحة في صحراء سورية وهي تسمى الآن حوران على مسيرة اربعة ايام شمالي دمشق

وأول ارسالية من الارساليات الثلاث التي انفذها اوريجانوس كانت بين سنة ٢٠٣ — ٢١٥ ب . م وسبب ارسالها هو ان حاكم بلاد العرب أرسل جوابات الى والي مصر وبطريرك الاسكندرية يطلب فيها ارسال الرجل المسمى اوريجانوس بدون تأخير وذلك لكي يشرح له تعاليم الديانة المسيحية ويرشده الى طريق الخلاص . وقد يبعد على الظن كثيراً ان حاكماً يرسل لحاكم آخر ارسالية مثل هذه لنشر الدين المسيحي بينما كان الاضطهاد مستمراً والغرض منه ابادة هذا الدين واضمحلاله . وكما ان الهدو لم يدم طويلاً للمسيحيين كذلك الاضطهاد ايضاً كف سنة ٢١١ ب . م عند موت ساويرس فبدأ مسيحيو مصر يذوقون لذة الراحة خصوصاً عند جلوس ابنه كاراكلا الذي كان ميالاً للمسيحيين لما شب عليه من العلم والتهذيب وهذا الذي مكن اوريجانوس من انفاذ أول ارسالية لبلاد العرب بين سنتي ٢١٢ و٢١٣ ب . م ولما سار اوريجانوس قاصداً بلاد العرب وكل ادارة المدرسة اللاهوتية لهيدة

هراكلاس ولم تطل غيبته كثيراً عن مصر وذلك لانه عين شخصاً اسمه بيرلوس اسقفاً للبصرة وكان البطريرك ديمتريوس قد سامه رئيساً لهذه الارسالية . اما عدم بقاء اوريجانوس زمناً طويلا في بلاد العرب فهو لضيق وقته وكثرة اشغاله فضلاً عن ان البطريرك ديمتريوس لم يسند اليه مركز الرئاسة على هذه الارسالية وهي وظيفة لا تعطى الا للكهنة واوريجانوس لم يكن منهم مع ما اشتهر به من العلم والفضل

اما الامبراطور كاراكلا فكان رجلا مستشرقاً وهو وصف ينطبق عليه تماماً ذلك لان اباه كان خليطاً من اوروبي وافريقية وامه كانت امرأة سورية الجنس وكأن الخلط والتباين في اصله اوجدا خلطاً وتبايناً في صفاته وطباعه التي كانت تختلف من مكر وخداع الى لطف وملاينة الى همجية وقسوة حتى ان الصفة الاخيرة هذه تغلبت عليه مرة فقتل اخاه على مرآى من امه وذلك بعد ان رقيا عرش المملكة بسنة واحدة وهذا ليس بغريب في الطبع البشري ان يتغلب شيطان الشر على ملاك الخير ما دام الانسان مستسلماً لعوامل ارادته الفاسدة . وقد خطر على بال كاراكلا ان يعمل على زيادة دخله فغير النظام الذي كان يسير عليه مسيحيو مصر فيما يختص بتأدية الجزية وابدله بنظام آخر ضرب فيه ضريبة على نزلاء الرومانيين الذين طال زمن استيطانهم لمصر ولكنه أعفى منها المهاجرين والارقاء وضاعفها على المصريين باجمعهم دون ان يستثني منهم احداً وعليه ضجر هؤلاء من هذا الظلم الجديد وشاركهم

في تذمرهم جماعة القرطجنيين والسوريين فعقدوا الخناصر على تغيير هذه الحال والمطالبة بالعدل واتفقوا على رأي يسيرون عليه . وكان بين القوانين المعمول بها حينئذ قانون يقضي على المسيحي الذي يعرف عنه انه قاوم الحكومة في امر ما بالصلب او بطرحه للوحوش الضارية فتمزقه ارباً هذا ان لم يكن عبداً ذليلاً فيكتفي بعبوديته وذله . وكان النزيل الروماني عرضة لمثل هذه العذابات المفروضة على المسيحي المصري اذا قاوم الحكومة الا ان نهايتهما لم تكن واحدة فان الاول يقتصر قصاصه على العذاب فقط ثم يعفى عنه اما الثاني فبعد هذا العذاب يذوق كاس الحمام بحد الحسام

وقد مر بك ان اهالي الاسكندرية سواء كانوا مسيحيين او وثنيين كانوا يزدرون بحكامهم ولا يهتمون بالامبراطرة مطلقاً حتى كثيراً ما لقبوهم بالقاب الهزء والسخرية واطلقوا على القياصرة انفسهم اسماء مستعارة تضحك الثكلى ونال كاراكلا حظاً وفيرا من هذا السخر حتى تضايق جداً وود لو قدر ان يقابلهم بالاحتقار وعدم الاهتمام الا ان هذا الازدراء اثر كثيراً في احساساته فبات يرقب فرصة فيها لينتقم من الذين حقروه واهانوه . وحدث في سنة ٢١٥ ب . م بينما كان كاراكلا في سورية اعلن رغبته في زيارة الاسكندرية ولم يكد يبلغ هذا الخبر مسامع سكانها حتى قاموا يستعدون لمقابلته باحتفال عظيم وذلك اقراراً بفضله عليهم بمنع الاضطهاد عنهم وكأنهم تناسوا ايضاً قوارص الكلام

الذي رموه به عند قتله اخيه وارتكابه لجرائم اخرى ثم قصدوا من الجهة الاخرى اقامة احتفالات مضى عليهم وقت طويل وهم محرومون منها وعليه تقاطرت الجموع الى الاسكندرية حتى ضاقت بهم على سعتها وذلك لكي يشهدوا ذلك العيد العظيم ويحيوا الامبراطور عند مجيئه بنداء التكريم

وكان كراكلا يستصحب معه ثلتين من العساكر احداهما من مكدونية والثانية من اسبرطه كحرس له فقصد عند زيارته مصر ان يشرف الاسكندرية وهي اشهر مدينة في هذه الديار بان يتخذ له منها كتيبة من الجنود ضمن حرسه الخصوصي فسر الاسكندريون بهذه المنة سروراً كبيراً وقابلوا هذا الفكر بمزيد الفرح والابتهاج . فلما جاء اليوم المعين لاتمام هذا الغرض وفد الوف من الشبان واجتمعوا في ردهة واسعة خارج المدينة واصطفوا فيها صفوفاً حتى يسهل على الامبراطور افتقادهم وانتخاب من يليق منهم قبل ان ينتظموا في سلك الجندية ويحملوا الاسلحة . وكان لذلك يوم مشهوداً ازدحم فيه اقارب اولئك الفتيان واصحابهم فرحين متهللين وهم وقوف في ضوء شمس سطع نورها تحت قبة زرقاء رق اديمها وغرضهم من ذلك مشاهدة هذا الاستعراض وتهنئة من يحوز الفخر والشرف بانضمامه للحرس الامبراطوري . وكان الجيش المنظم الذي جاء مع الامبراطور مصطفاً على شكل دائرة حول ساحة الاستعراض وكان الامبراطور مع حرسه واركان حربه يتفقد

صفوف المتطوعين والشعب يقابله باصوات الاستحسان وعبارات الدعاء والاكرام . ولم يكن كلمح البصر حتى خرج الامبراطور خارج الصفوف وأشار اشارة اتفق عليها مع اولئك العساكر الادنياء الخاليين من الرحمة والحنان الذين كانوا عالمين قبلاً بان مولاهم سيعهد اليهم اليوم اتمام مذبحة هائلة تشيب لها النواصي وعليه جردوا احرابهم وسيوفهم وانقضوا على هذا الجمع الاعزل من كل سلاح كما ينقض الباشق على عصفور صغير وأعملوا فيهم مرهفات الصوارم وزرق الانياب حتى انقلبت اصوات الفرح والحان الموسيقى الى صراخ الحنق والقنوط وعويل الحزن والموت وذبح اولئك الشبان ذبحاً وجزت رؤوس اقاربهم وأصحابهم جزاً وسال الدم يجري كالغدران والذين لم ينتابهم السيف طرحوا في لجج البحر وصاروا طعاماً للاسماك . قيل ان ماء النيل الذي يصب في البحر المتوسط امتزج بدماء المذبوحين امتزاجاً حتى صار احمر كالبقم ولم ينج من كل ذلك الجمع الهائل سوى رجل او رجلين فرا هاربين ولجأا الى المدينة والقيا الرعب والحزن في قلوب أهليها بهذه الاخبار التي ينفطر منها الفؤاد وبات القوم في خوف وجزع مما ينتظر ان يحل بهم فيما بعد وظن الكثيرون ان هذا العمل كان كمقدمة فقط لاضطهاد يهول لا يبقي ولا يذر وظلوا يترقبون هجوم الجيوش على الاسكندرية فتدمرها وبنوا ظنهم هذا على امر اصدره الامبراطور بارفاض الجمعيات العلمية التي كان يعتبرها كسد يحول دون تنفيذ انتقامه . ولما رسخ هذا الفكر في اذهان

الناس اسرعوا بالفرار من المدينة لا يلوون على شيء . وقد ذكر يوسيبيوس هذه الحادثة بقوله انها حرب عوان انتشبت في المدينة ولكنه لم يذكر اسم كاراكلا ولا علاقته بهذه الحرب وقد أشار ايضاً الى هروب الناس من المدينة وذكر ان اوريجانوس كان ضمن الفارين ذلك لانه ادرك ان بقاءه في مصر خطر على حياته فجاء الى فلسطين وأقام في قيصرية . اما البطريرك ديمتريوس وهراكلاس فظلا في الاسكندرية وبواسطتهما ظهر للمسيحيين ان غضب الامبراطور لم يكن موجهاً لهم خاصة بل لجميع السكان على اختلاف اديانهم وان انتقامه لم ينته عند هذا الحد بعد بل بداء ينتقم من الاسكندرية انتقاماً ادبياً بان أصدر أوامره بابطال الالعاب العمومية وعدم صرف مرتبات من الحنطة للوطنيين وشاد معاقل وحصوناً بين المدينة الاصلية وبين الحي الذي فيه قصر الامبراطرة المدعو بروخيوم وذلك لكي يكون في مأمن من الثورات والعصيان . ولم يكتف بذلك بل سعى في احياء رميم الديانة المصرية القديمة وبنى هيكلاً للآله ايزيس في رومية . وقد قصر مدة اقامته في الاسكندرية بعد ذلك فلم يمكث بها طويلاً بل قفل راجعاً الى رومية حيث هجم عليه مكرينوس واورده حتفه بعد هذه الحادثة المريعة بسنتين « ولا ظالم الا ويبلى باظلم »

اما اوريجانوس الذي عرفت انه هرب لفلسطين وأقام بقيصرية فقد قوبل فيها بمزيد الحفاوة والاكرام كما يليق بفاضل مثله وعلت

منزلته في اعين علماء هايك البلاد حتى عهدوا اليه القاء دروس ادبية
علمية في بحر الاسبوع ثم طلب منه اسكندر اسقف اورشليم — وهو
رفيق اوريجانوس في التلمذة — وثيوسيستوس اسقف قيصرية ان
يعظ جهاراً في كنائسهما . فلما بلغ هذا الخبر مسامع ديمتريوس بطريرك
الاسكندرية كتب يعترض على الاسقفين المذكورين سماحهما لرجل
علماني الوعظ في الكنائس جهاراً وهو عمل لا يجوز الا للكهنة فقط
ويحرم على من عداهم حتى اوريجانوس نفسه . فلم يسكت الاسقفان
على هذا الاعتراض بل ردا عليه ولكن بلهجة معتدله وكلام يدل على
مقدار احترامهما لهذا البطريرك واستشهدا على عملهما هذا بما اجراه
السلف الصالح الا ان البطريرك ديمتريوس الشديد العارضة لم يقتنع بهذا
الرد بل عاد فانفذ شمامسة من الكنيسة المصرية يحملون رسائل
لاوريجانوس نفسه يحرضه فيها على الكف عن هذه الاعمال التي تنافي
قانون الكنيسة وطلب اليه ان يعود الى الاسكندرية ليمارس عمله
فيها لان المياه عادت الي مجاريها واصبحت الاحوال في هدو وسكينة.
فبناء على ما جبل عليه اوريجانوس من الطاعة والتواضع وهي اعظم حلية
تحلى بها رضخ لاشارة رئيسه وعاد لاسكندرية على جناح السرعة

اما مكرينوس الذي اغتال حياة كاراكلا فلم يملك سوى شهرين
فقط سمى نفسه فيهما والي مصر وعين صديقاً له اسمه باسيليانوس مع
آخر اسمه مرقس سكندوس لينوبا عنه في حكم مصر. ومرقس سكندوس

هذا هو اول عضو في مجلس النواب ناب عن والٍ في مصر

ولم يكن لكاراكلا عقب يخلفه على سرير المملكة الا ان خالته
يوليامويسا وهي فينيقية الاصل كان لها بنتان ولدت كل منهما ولداً .
فهؤلاء النساء الثلاث وهن يوليامويسا و يولياسوميا ويوليامامياكن
موجودات في البلاط الروماني اثناء وجود كاراكلا في عالم الوجود ولكن
بعد موته اضطررن ان يلجأن الي سوريا حيث دبرن مكيدة محبوكة
الاطراف قصدن بها استرداد السلطة التي سلبها مكرينوس قاتل كاراكلا
من ايديهن وعليه اشاعت يولياسوميا ان كاراكلا هو الآب الشرعي
لابنها الذي كان له ستة اسماء معاً ولكنه كان كثيره من سالفيه يعرف
باسم واحدهو لقب يلقب به وهو هليوجابلوس نسبة الى ديانته السورية
التي يشتق هذا اللقب منها. وقد ساعد على اتمام هذه الحيلة ان الجيوش الرومانية
التي كانت معسكرة في سوريا بايعت هذا الصبي الامبراطورية واقتبلوه مع امه
وجدته بكل ترحاب واكرام وانزلوهم في معسكرهم منزلاً رحيباً فبدأت
حينئذ حرب سجال بين انصار مكرينوس وهليوجابلوس كان الفوز
فيها لهذا الذي استولى على الملك واصبحت السلطة في يده . اما الحالة
في الاسكندرية فكانت على غير ما يرام اذ ظل السلام مفقوداً منها
بما كان يثيره اعداء المسيحيين من الخصام والعراك حتى في وسط
شوارع المدينة الى ان قتل مكرينوس سكندوس كما مر وفر والي مصر
الذي كان نائباً عنه تاركاً الدار تبكي من بناها

وحكم هليوجابلوس اربع سنوات كانت كلها شؤماً ونحساً على المملكة الرومانية خاصة اما مصر فقد تمتعت بشيء من السلم والامن خصوصاً في الثلاث سنوات الاخيرة من حكمه واستفاد اوريجانوس كثيراً من هذه السكينة اذ اخذ يمارس التدريس والتأليف بعزيمة ماضية وجد متواصل وكذلك البطريرك ديمتريوس الذي لم يبرح مركزه يوماً واحداً حتى في اشد ايام الاضطراب بداء يزاول اعمال الكنيسة بهمة عليا ونشاط غريب . واستفاد الوثنيون ايضاً من هذا السلام اذ اخذت مدرستهم الجديدة التي اسسها امونيوس سكاس (١) لتدريس الفلسفة اليونانية تمو وتترعرع . وفي هذه المدة ايضاً تعرف اوريجانوس برجل من ارباب الثروة والنفوذ اسمه امبروز الاسكندري وهو ليس اسكندرياً حقيقة — والا لكنا عرفنا شيئاً عنه قبل أوبة اوريجانوس من فلسطين بناء على شهرته الواسعة — بل يحتمل انه كان احد الاصدقاء الذين اصطفاهم اوريجانوس في فلسطين . فهذه الصداقة التي كانت بين اوريجانوس وامبروز وظلت متينة العرى لحد موته اثرت تأثيراً يذكر بالشكر في حياة اوريجانوس ذلك ان امبروز كان تابعاً لشيعة من اهل البدع والهرطقة فاقنعه اوريجانوس بترك الافكار السخيفة واكتسبه ضمن اعضاء الكنيسة المستقيمة الرأي وقد افاده امبروز ايضاً

(١) قد اتفق جميع المؤرخين على ان امونيوس سكاس هذا هو الذي اسس مدرسة الاسكندرية الوثنية لتعليم الفلسفة الافلاطونية وان بلوطينوس ولونجينوس الوثنيين واوريجانوس وهراكلاس المسيحيين وكثيرين غيرهم كانوا من تلامذته الا ان الآراء اختلفت فيما اذا كان امونيوس سكاس قد اعتنق الديانة المسيحية ام لا

بان حثه على تأليف اكثر الكتب التي الفها ونسخها على مصاريفه الخصوصية وذلك بان اوجد له فرقة من الناسخين الذين يكتبون الخط المختزل ومن الذين ينسخون الكتب بالطريقة المعروفة وكان بين جماعة الكاتبين هذه عدد من الفتيات اتخذن هذه الصناعة مهنة لهن للافادة والاستفادة

وحدث في سنة ٢٢٢ ب . م ان الجيش الروماني ضجر من معاملة هليوجابلوس الشاب معاملة تدل على القسوة والوحشية ضد هذا الجيش الذي مال بكليته الى اسكندر ساويرس ابن يوليا ماميا خالة هليوجابلوس وكانت امه قد ذهبت به الى رومية مع اختها عندما ارتقى هيلوجابلوس كرسي المملكة وظلا في مناظرة ومساجلة الى ان افضى الامر اخيراً بوقوع حرب عوان بين الاختين وابنيهما كل منهم يقود جيشاً من انصاره بنفسه وانفض الخصام بانتصار ماميا على اختها سوئميا فقتلها مع ابنها واستحوذت هي على المملكة مع ابنها

ملك اسكندر ساويرس سنة ٢٢٢ وكان عمره ١٧ سنة حين ملك وهو يعد من اعظم امبراطرة الرومان واحسنهم صفات وجلس على العرش الامبراطوري احدى عشرة سنة هي عبارة عن جهاد مستمر لاصلاح الحال والفساد اللذين استوليا على المملكة كما انه بذل ما في وسعه ليوقف تقدم الفرس وتوغلهم في المملكة الرومانية وهم اعداء الداء لها كانوا قد بلغوا في ذلك الحين مبلغاً عظيماً من القوة والمنعة بواسطة ارتباطهم واتحادهم معاً . ولما يسطر لهذا الامبراطور بالقضاء

هو دفاعه عن المسيحيين وشهادته عنهم بانهم اكثر الناس كفاءة لحكم
البلاد وادارة امور العباد على محور الاستقامة والامانة . ومع انه ظل
متمسكاً بديانته السورية الوثنية التي شب عليها تمسكاً ظاهرياً الا انه
كان يعتبر المسيح من اعاظم العلماء الكبار الذين نشأوا في العالم وافادوا
الناس بتعاليمهم وآدابهم واقام له تمثالاً في معبده الخصوصي ووضعه بين
تماثيل العلماء الاخرين مثل ابراهام واورفيوس واسكندر الكبير
وابولونيوس الذي من تيانا . وقد عرفنا في ما مر ان كل
امبراطور كان له اسم يختلف عن غيره او لقب خاص يطلق عليه
في البلاد كلها وذلك لكثرة التشابه في اسماء الاباطرة وهو امر كان
كثير الوقوع حينئذ وهكذا لقب اسكندر ساويرس في أخريات ايامه
بلقب مضطهد المسيحيين وهي ريبة ينفيها عنه ما ورد في اقوال المؤرخين
الذين عاصروه والذين جاؤا بعده باكثر من جيلين . ولقد ازهر العلم
في ايامه وأخذ فلاسفة الاسكندرية من مسيحيين ووثنيين يمارسون
اعمالهم العلمية ويدأبون في التأليف والتصنيف فوضع بلوطينوس من
ليكوبوليس (اسيوط) مبادىء الفلسفة الافلاطونية على طريقة قويمة
وعم نشرها وكذلك هروديان المؤرخ اتم تاريخه في هاتيك الايام

وقد يغلب على الظن ان اوريجانوس بارح الاسكندرية مرتين
أثناء حكم اسكندر هذا احداهما أنفذ فيها لمقابلة ماميا والدة هذا الامبراطور
والثانية أرسل الى بلاد اليونان في اعمال تختص بالكنيسة المصرية حيث

اتى أمراً يستوجب الانتقاد اذ كانت نهايته قطع العلاقات بينه وبين
صديقه الحميم ورئيسه الموقر البطريرك ديمتريوس وهو امر يذكر
بالاسف الشديد خصوصاً لالتصاق اللوم بالاثنين معاً ووقوعهما في
الخطاء سواء ولو ان استفحال الخرق بينهما واتساع مجال اللدد والخصام
يعزى الى تحزب اصدقاء الطرفين وتحريضهم لهما جرياً وراء الغايات
والاغراض

ومن الواضح البين ان ديمتريوس مع اعجابه بغيرة اوريجانوس
وحماسه اللذين اوصلاه الى غلطة فادحة هي قمع جسده واضعافه وهو
في عنفوان شبابه — اعتبر غيرة اوريجانوس هذه مانعة اياه من ترشيحه
للرتب الكهنوتية مع انه كان اهلاً لها من كل الوجوه عدا هذا الوجه
اما اوريجانوس نفسه فكان ميالاً لارتقاء الرتبة الكهنوتية الا انه كان
يحترم ارادة رئيسه البطريرك في هذا الشأن ويرضخ لحكمه . وكان
ديمتريوس يؤكد ثقته باوريجانوس بين كل آونة واخرى بواسطة معاملته
له معاملة تدل على الثقة التامة وبارساله في مهام مهمة لها علاقة كبرى
بالكنيسة مع انه عالماني كغيره من عامة الناس . وليس من العجيب
ان يكون روح العداء بداء بين البطريرك واوريجانوس بواسطة اصحاب
الطرفين كما سبقت الاشارة كأن يكون امبروز وغيره من محبي
اوريجانوس والمعجبين به اظهروا استهجاناً من حرمان اعظم لاهوتي في
تلك الايام من الوظائف الروحية بواسطة بطريرك كان لم يزل الى وقت

ارتقائه السدة البطريركية فلاحاً امياً وحرضوا اوريجانوس ان يستخف بهذا البطريرك ويترك بلاده هذه ويقصد اساقفة فلسطين الذين كانوا رفقاء له في المدرسة ويعرفون قيمته ومقداره ويودون من صميم افئدتهم تعيينه في وظيفة كهنوتية . فاذا صح هذا الاحتمال فقد يكون تحريض هؤلاء القوم السبب الوحيد الذي جعل اوريجانوس يعدل عن الذهاب تواً الى بلاد اليونان لاتمام المأمورية التي عهدت اليه وان يعرّج على فلسطين حيث سيم كاهناً على قيصرية

وقد احتدم ديمتريوس غيظاً لاحتقار سلطته والاستهانة به فكتب للذين كانوا السبب في الذي حدث كتابة شديدة اللهجة وغضب من اوريجانوس غضباً شديداً حتى انه لما عاد هذا الى الاسكندرية بعد مضي بضعة اشهر على رسامته في فلسطين وجد مكانته قد سقطت ومركزه لم يبق له ولكنه طن نفسه محقاً في الخطة التي اتبعها وان ما عمله هو الصواب بعينه ولكنه لعلو همته واتساع مداركه رأى انه يخطيء اذا هو بقي في الاسكندرية في مثل هذه الظروف التي زعزعت مقامه ولذلك فض كل علاقة له مع المدرسة اللاهوتية التي كان رئيساً لها وعول على ترك الاسكندرية وكل ما فيها وهجر مصر هجراناً لالقاء بعده . وقد يصعب على المرء ان يتصور مقدار الشقاق والانقسام اللذين كان يمكن حدوثهما في الكنيسة لو لم يتداركهما اوريجانوس الامر بما فطر عليه من اشرف الفضل والتواضع ويحتمل بطيبة خاطر الاهانة ما جنته عليه يدهم فيستحب بنفسه لطوعه الله

واختياراً تاركاً هذه البلاد الى بلاد اخرى اختارها لشخصه بذاته . وكان لسوء الحظ ان ديمتريوس لم يظهر هذه الشهامة والانفة اللتين اظهرهما خصمه . صحيح قد كان له الحق في ان لا يقبل في بلاده كاهناً يعتقد بعدم صحة كهنوته وعدم صلاحيته لهذه الرتبة كما ان باقي اساقفة البلاد كتبوا له يسفهون رأي اوريجانوس تسفيهاً ولكنه لم يكتف بهذا كله فيقف عند هذا الحد . ذلك لانه مع قبول اوريجانوس حكم المجلس الذي شكله ديمتريوس من الاساقفة والشيوخ واستعفائه من رئاسة المدرسة اللاهوتية ومهاجرته مسقط رأسه ومنبت أسلته . كل هذا لم يزد ديمتريوس الا حنقاً عليه وسخطاً خصوصاً وان اوريجانوس قوبل في فلسطين مقابلة المنتصر الفائز على خصمه واكرم اصدقاءه الاساقفة هناك وفادته ورفعوا منزلته كثيراً ولا ريب انهم كانوا مستعدين لاجراء هذه المظاهرة لاوريجانوس لمعرفتهم بما سيتم له في مصر . والذي يراجع ما كتبه يوسيبيوس في هذا الصدد يتضح له ان اساقفة فلسطين اظهروا اعجاباً واستحساناً لاعمال اوريجانوس وتحقيراً وتسفيهاً لاراء ديمتريوس الامر الذي اغاظه غيظاً يعذر عليه ولكن كيفما كانت اسباب هذا الغيظ فهي لا تخلي ديمتريوس من الملام الواقع عليه بما عمله من جمعه اساقفته وحصوله على قرار منهم يقضي بحرمان اوريجانوس حرماً باتاً وارساله خطابات الى جميع الكنائس يعلمها بهذا القرار وذلك لانه استشاط غضباً من هروب اوريجانوس الى فلسطين كما يهرب العبد الآبق

واحتقاره اياه مع ماكان له من عميم الفضل عليه وحق الرئاسة ايضاً وحبه له وهو بعد في مهد الطفولية . اما اوريجانوس فعد هذا الحرم غاية في القسوة والحدة كما يظهر لك ذلك من نص كتاب كتبه اثناء اقامته في قيصرية وهاك ملخصه :

« وحدث بعد هذه الامور ان الله اخرجني من ارض مصر بيت العبوديه كما خلص شعبه منها قديماً . ثم قام عدوي (يعني البطريرك) واقام في وجهي حرباً عواناً بواسطة مكاتيبه التافهة التي تغاير مبادىء الانجيل تماماً وحرك ضدي ريحاً صرصراً فرأيت من الصواب ان اقاوم جهد استطاعتي مدافعاً عن المبدإ المهم الذي اختطته لنفسي وسرت عليه وهو الافاده والاستفادة وكنت اخشى من ان هذه المماحكات العقيمة يستفحل شرها فتثير ثائرة النفس الامارة فتضعف الذاكرة حينئذ واعجز عن اتمام شرح الكتاب المقدس الذي بدأت به قبل ان ينطمس ذهني خصوصاً وان ابتعادي عن النساخ الذين كانوا يكتبون الخط المختزل منعني من تلية ما يخطر على بالي من الافكار . اما الآن وقد بعدت عن كل عوامل التأثير وقدر الله جل وعلا ان تطيش تلك السهام الناريه التي صوبت نحوي وتذهب في الهواء ألفت نفسي حينئذ وقوع الملمات التي كانت تصيبني بسبب التبشير بكلمة الانجيل واضطرت هذه النفس ان تتحمل بطيب خاطر جميع المصائب التي انتابتني فهدأ روعي وسكن جأشي لجودة الهواء وحسن الطقس فعقدت النية على عدم تأجيل نسخ وتلاية المؤلفات المطلوب مني اتمامها »

ولنرجع الى القرار الذي صدر بحرم اوريجانوس فنرى ان اساقفة بلاد العرب واليونان وكبدوكية وفلسطين قابلوا هذا الحكم الصارم غضاء وعدم اهتمام وظل اوريجانوس يزاول في فلسطين كل العمل المطلوب منه ككاهن فوق مشاغله اليومية في التدريس والابحاث اللاهوتية . ولم يسلم اوريجانوس من غلطات يقع فيها جميع البشر على السواء فيما

يختص بمعاملتهم لاعدائهم ومبغضيهم وقلما ينجو منها احد خصوصاً وقت الحدة التي تبدل الحلم بعنف والتواضع بتشامخ وكان من اوريجانوس انه وعظ يوماً في اورشليم فاتخذ آية موضوعه قوله « يقول الله للاشرار لماذا تضعون عهدي في افواهكم وانتم قد رفضتم الاصلاح واطرحتم كلامي خلف ظهوركم » ولكنه لم يكد يتم قراءة هذه الآية حتى نخسه ضميره ووبخه قلبه وشعر ان صديقه ورئيسه البطريرك ديمتريوس قد يمكن ان يأوّل هذا الكلام تأويلاً يطبقه على نفسه فسالت دموعه على خديه كالسيل المنهمر واجهش في البكاء حتى لم يعد يستطيع النطق فتأثرت الكنيسة لتأثره وبكت لبكائه . وهذه احدى نتائج الضمير الحي الذي لم يقض عليه القضاء الآخير

واقام اوريجانوس نهائياً في قيصرية وتبعه اليها امبروز وزوجته وكل عائلته وتوافد اليه التلامذة افواجاً للاستنارة بمشكاة علمه وفضله . اما رفيقاه في التلمذة وهما هراكلاس وديونيشيوس اللذان كانا من اعز اصدقائه في مصر فلم تخمد نار محبتهما له ولكن عندما حمي وطيس الجدال بينه وبين البطريرك ديمتريوس انحازا لرأي البطريرك والدليل على ذلك انه عندما رقيا الكرسي البطريركي بالتوالي في اثناء حياة اوريجانوس لم يفكرا في ارجاعه الى الاسكندرية مرة اخرى . وبعد هذه المخاصمة الغبية بين هذين الصديقين بقليل تنيح البطريرك ديمتريوس شيخاً وشبعان من الايام بعد ان شهد ستة امباطرة توالوا على العرش الروماني وخلفه

هراكلاس اما ديونيشيوس فعين رئيساً للمدرسة اللاهوتية بالاسكندرية

الفصل الثامن

اضطهاد ديشيوس للمسيحيين. سنة ٢٣٥ ب . م

بعد ان رحل اوريجانوس الى فلسطين بسنتين من الزمان قتل الامبراطور اسكندر بيد مكسيمينوس وهو بطل مغوار جمع كل شي تحت سلطته وساعده على ذلك اهمية مركزه في الجيش حتى اصبح سيداً تعنو له رقاب اولئك الجنود الذين كانوا يتلونون كالحرباء ويخضعون لمن ملك وهم الذين عضدوه في تدبير المؤامرة ضد سيده فقلب عرشه ورقي كرسي الامبراطورية ضد رغبة مجلس النواب الذي لم يستطع الاعتراض على عمل كهذا يعضده الجيش ويرغب فيه . وكان اول امر شرع فيه مكسيمينوس مقاومة المسيحيين ومناجزتهم وذلك لان اسكندر سلفه كان يثق بهم ويعطف عليهم فبداء اضطهاده في ايطاليا وفلسطين وألقى القبض في قيصرية على امبروز وصديق آخر لاوريجانوس كان تلميذاً له قبلاً واستاقوهما الى المانيا ليسجنا في سجونها اما اوريجانوس ففر هارباً وجاء الى قيصرية كبدوكية والتقى فيها باسقفها فرميليانوس الذي كان من ضمن اصدقائه والمعجبين به كثيراً واقام اوريجانوس مدة في هذه المدينة في منزل امرأة اسمها يوليانا كانت على جانب عظيم من الثروة والتهذيب. ولما بداء الاضطهاد في مصر اضطر البطريرك هراكلاس

الى يترك الاسكندرية فراراً من وجه مكسيمينوس ولكن كثيرين من المصريين المسيحيين تجرعوا الموت كأساً دهاقاً في الاسكندرية والاقاليم

ولم تدم مدة هذا الظالم الغشوم طويلاً فلم تكد تمضي ثلاث سنوات على ملكه حتى حدثت ثورة في موريتانيا احدى المقاطعات الرومانية اندك بها عرشه وخلفه غورديان وابنه اللذان ملكا ثلاثة شهور انتهت بان انتحر الاب انتحاراً وقتل الابن في حرب اغتيالاً وعقبهما مكسيموس وبلبينوس اللذان انتخبا انتخاباً اما مكسيموس فهجم عليه جيشه وقتله غيلة. ولما كان لعائلة غورديان مكانة سامية في ذلك الوقت لم يرض الجيش وعامة الشعب بغيرها ولذلك اجهزوا على بلبينوس الذي انتخبه مجلس النواب مع مكسيموس فقتلوه في القصر الامبراطوري برومية ونادى الجيش بغورديان الثالث امبراطوراً والبسوه التاج الروماني وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره. وعند ما ملك هذا الفتى استراحت البلاد من الاضطهاد ولو ان الحرب لم تلق اوزارها بعد. ولما هداء ثائر الاضطهاد عاد اوريجانوس من كبدوكية الى قيصرية والتقى بامبروز الذي يحتمل انه استفاد من المصائب التي وقعت على الحكومة اذ انتهز فرصة انقلاب السلطنة بواسطة الثورات المتتالية وفر من سجنه. اما غورديان فملك ست سنين لم يحدث فيها ما يستحق الذكر سوى انها كانت سني سلام وأمان فنمت فيها الكنيسة المسيحية في مصر نمواً يوجب الشكر والدليل على ذلك ان البطريرك هراكلاس أوجد عدة ابروشيات جديدة في

الاقاليم. وقدذهب بعض المؤرخين الى ان هراكلاس كان اول بطاريرك مصري اطلق عليه لقب بابا وهذا خطاء فان اللقب المذكور كان معروفاً في مصر من اول نشأة الديانة المسيحية فيها وكان يطلق على القس والاسقف سواء. وفي هذه المدة جاء مصر يوليوس افريكانوس الشهير

ويغلب على الظن انه في اواخر حكم غورديان شرع اوريجانوس في رحلته الثانية الى بلاد العرب وكان بريلوس اسقفها الذي سبقت الاشارة اليه قد وقع في حبائل بدعة جديدة كان يعلمها للناس وهي ان مخلصنا يسوع المسيح لم يكن له في عالم الوجود وجود قبل ان يولد بالناسوت فباحثه اوريجانوس طويلا وناقشه كثيراً في هذا الشأن حتى تغلب عليه بقوة الحجة والبرهان واقنعه بغلطه وبذا منع شقاق جديد كاد يقع في الكنيسة . وقد يكون اوريجانوس عرف شيئاً كثيراً في هذه الرحلة عن رجل اسمه فيليب من البصرة كان ابوه يلقب برئيس عصابة لصوص — وبعبارة اوضح كان بدوياً يسكن القفار — وعين فيليب هذا ضابطاً قضائياً وكان قبل تعيينه يدس الدسائس ضد مولاه الملك. اما الفرس الذين عرفناهم قبلاً اقوياء متحدين فقد بدأوا يستعملون قوتهم في اثناء حكم غورديان باغارتهم على الحدود الشرقية للمملكة فضاق غورديان ذرعاً من معاملتهم هذه وصمم اخيراً ان يسير اليهم بجيش يتولى قيادته بنفسه . ومع ان انهزام احد الطرفين كان لا بد منه الا ان بلوطينوس الفيلسوف الافلاطوني الاسكندري الشهير رافق هذه

الحملة آملاً ان يستفيد شيئاً من فلسفة الفرس التي كانت لا تقل كثيراً عن فلسفة اليونان . فانتهز فيليب السابق ذكره هذه الفرصة للايقاع بسيده الامبراطور غورديان فتوصل اخيراً الى اغتياله وذبحه وله من العمر احدى وعشرون سنة ثم عقد فيليب معاهدة صلح مع الفرس وذهب مسرعاً الى رومية. وقد عاد بلوطينوس بعد ان لاقى صعوبات جمة في طريقه اذ كان يخشى عليه من الوقوع في ايدي الجيش الفارسي وقطن في رومية ينشر فيها علومه التي استوعبها من فلاسفة الفرس وعلماء الاسكندرية

قال يوسيبيوس ان فيليب هذا كان مسيحياً وهذا خطاء يناقض ما رواه يوسيبيوس نفسه من ان قسطنطين هو اول امبراطور مسيحي كما ان فيليب اضطهد المسيحيين في مصر ولا يمكن ان يضطهدهم لو كان مسيحياً . وقبل ان يبتدىء اضطهاد ديشيوس الآتي ذكره تنيح البطريرك هراكلاس وخلفه ديونيشيوس الذي كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية

وكان ديونيشيوس هذا من عائلة عريقة في النسب وتربى تربية وثنية . ومما يروى عنه ان امرأة مسيحة فقيرة اقرضته يوماً ما رسائل بولس الرسول ليقرأها فما اتم قراءتها حتى استفاد منها فائدة كبرى وشعر بلذة عظمى من مطالعة هذه الرسائل فاشتراها حالاً ودار يسأل عن الكتب الاخرى التي يقتنيها المسيحيون حتى يستعيرها منهم فاشارت

عليه تلك الامرأة التقية ان يذهب الى القسوس فهم اعرف منها بذلك فعمد اليهم من فوره وعرض عليهم امره فقدموا له باقي الاسفار وهم فرحين مسرورين . فعمل الروح القدس في قلبه عمله المعروف واعتنق هذا الشاب الوثني الديانة المسيحية ومن ثم تتلمذ لاوريجانوس كما سبق القول . ومن المؤكد ان ديونيشيوس كان متزوجاً ولكن يحتمل ان امرأته كانت قد ماتت عند ارتقائه الكرسي البطريركي وكان ايضاً من مشاهير رجال عصره ومن فطاحل علماء زمانه وقد كتب كثيراً في مواضيع شتى لم تزل بعض كتاباته باقية الى يومنا هذا سندرج بعضها فيما يلي ومنها يتضح الشدة والضيق اللذان قاساهما المسيحيون بمصر في هاتيك الايام المرة . وبعد ان تعين ديونيشيوس بطريركاً اعقبه بيروس في رئاسة المدرسة اللاهوتية وكان كغيره من آئمة تلك الاعصر قساً عالماً وكاتباً ماهراً فضلاً عن انه عرف بزلاقة اللسان وفصاحة المنطق وبلاغة الكلام حتى سموه اوريجانوس الصغير . وقد ذهب البعض الى انه مات شهيداً فاذا صدق قولهم فيكون استشهد في الاضطهاد الذي احدثه الامبراطور فاليريان كما سيجيء القول ولكن تاريخ موته لم يعلم قط وعلى اي حال فانه مات قبل سنة ٢٨٢ ب . م وذلك لانه عندما سيم ثيوناس بطريركاً في السنة المذكورة لم يكن بيروس رئيساً للمدرسة اللاهوتية بل كانت تحت رئاسة ثيوغنوسطس الذي لا يعرف عنه شيء . ومن الذين رضعوا لبان العلوم اللاهوتية على يد

بيروس رجل شهير من قيصرية اسمه بامفيليوس وذلك في مدرسة الاسكندرية الطائرة الصيت حينئذ

وكان الاضطهاد الذي وقع في حكم فاليريان محصوراً في مصر فقط فلم يتعدها الى غيرها وسببه التعصب الديني من الوثنيين ضد المسيحيين وليس هو بامر من الحكومة كالاضطهادات الاخرى . وقد كتب ديونيشيوس بعد نهاية هذا الاضطهاد كتاباً بعث به الى فابيان اسقف انطاكية وفيه وصف للاضطهاد المذكور كما انه احد الخطابات التي وعدناك بنشرها دلالة على مقدرة ديونيشيوس على الكتابة والتحرير وهاك هو :—

« ان الاضطهاد الذي اصابنا لم يحدث بناء على أمر من الحكومة بل ان ناره كانت مخبوءة تحت رماده مدة سنة كاملة فالتظت عند ما اثارتها زند التعصب . وتفصيل ذلك ان شاعراً يدعي النبوة وفد على الاسكندريه وكان مجيئه شؤماً عليها اذ جال فيها يهيج سخط الوثنيين ضدنا ويحرضهم على الدفاع عن خرافاتهم واباطيلهم التافهة فتم له ذلك واثار ثائرة الوثنيين نحونا وساعدهم على عملهم ما اباحته لهم الحكومة من اجراء اي شر وضر يرغبونهما لنا كما انهم ظنوا ان منتهى التقوى والقداسة تنحصر في عبادة اوثانهم وشياطينهم وان هذه العبادة تتم بذبحنا وتقديم اجسادنا قرباناً لاصنامهم . وكان اول شر ارتكبوه ان امسكوا رجلاً هرماً اسمه متراس وطلبوا [illegible] ان يجدف ويهزئ بكلام

بذي فرفض الرجل طلبهم بتاتاً وحينئذ انقضوا عليه كالوحوش واخذوا
يضربونه بالعصي ويخزون وجهه وعينيه بمناخس وهو ثابت القلب
ساكن الجائش فلما يئسوا منه اخرجوه خارج المدينة ورجموه بالحجارة
حتى مات . ثم اتفقوا جميعهم وساروا مندفعين الى منازل المسيحيين
فكانوا يدخلونها بقوة غير مراعين حرمة الجيرة ولا شروط المروءة
ويخرجون السكان منها ثم يتلفون كل ما وصلت اليه ايديهم الاثيمة
فيأخذون الاشياء الثمينة القيمة اما الاثاث والامتعة البيتية فيجعلونها
طعاماً للنار اذ يحرقونها على قارعة الطريق حتى اذا رآهم احد وهم
يركضون ويسلبون ويقتلون ويحرقون ظنهم جيشاً ظفر بمدينة ففعل
بها فعل الغالب المنتصر . اما المسيحيون فلم يبدوا ادنى مقاومة بل وقفوا
يراقبون خراب بيوتهم وهم سكوت صامتين فكانوا مثل اخوتهم
الذين اشار اليهم بولس الرسول في انهم كانو ينظرون سلب امتعتهم
بفرح . ولست اعرف سوى رجل فقط من الذين وقعوا في ايديهم
انكر ايمانه ولكن بعد عناء شديد وعذاب قاس واعرف ايضاً انهم
القوا القبض على عذراء عفيفة فاضلة اسمها ابولونيا وكانت قد هرمت
وشابت ناصيتها واخذوا يضربونها على فكيها حتى حطموا اسنانها تحطيماً
ثم اشعلوا ناراً خارج المدينة وهددوها بالحرق حية ان لم تنطق بكلمات
التجديف والسخر التي كانوا يلقنونها اياها فاصابتها في اول الامر
قشعريرة شديدة من شدة الآلام ولكنها عادت فتجلدت وثبتت فلما

رأى معذبوها عدم فائدة هذا العذاب طرحوها في النار واحرقوها حتى
صارت رماداً . وقد امسكوا ايضاً رجلاً اسمه سرابيون بينما كان في
بيته واذاقوه عذابات يقصر القلم عن وصفها ويرق الحجر الصلد من
تأثيرها حتى كسروا جميع اضلاعه وسحقوها سحقاً واخيراً طرحوه على
ام رأسه من فوق علو شاهق . وكان اذا سار الانسان ليلا او نهاراً
في الشوارع والازقة لا يسمع سوى صراخ وضجيج وقوم يهددون
ويعذبون كل من رفض ان يجحد ايمانه وينكر مسيحه ولا يشاهد المرء
غير اناس اتقياء يجرهم الاشرار على وجوههم ثم يطرحونهم في النار
المتقدة فيحرقونهم كالهشيم . وقد بقيت هذه الخطوب متفاقمة مدة من
الزمن الى ان ظهر هياج سياسي اعقبه حرب اهلية (١) جرفت في
سبيلها كل شرير اثيم ولذلك استرحنا قليلا اذ انصرف شرهم عنا الى
بعضهم بعض ولم نكد نتنفس الصعداء حتى حاق بنا الخوف وحفنا الخطر
عند ما أبدل ذلك الملك الذي كان ارق جانباً واقل شراً من غيره بملك
آخر قد لا يجلس على كرسي المملكة الا ويوجه انظاره نحونا فيعمل على
اضطهادنا . وقد بدأ حدسنا يصدق وظننا يتحقق حالما صدر (٢) امر
شديد الوطأة مثلما انبأ بذلك مخلصنا له المجد متضمناً عبارات تصك منها
الركب حتى اوشك المختارون على السقوط والعثار وعم الخوف الجميع
واركن كثيرون من المشاهير الى الفرار ورفت كل مسيحي في خدمة

(١) كانت نتيجة هذه الحرب الاهلية قتل فيلب وارتقاء ديشيوس الى الكرسي الامبراطوري
(٢) هذا الامر اصدره ديشيوس في سنة ٢٥٠ ب ٠ م

الحكومة كيفما كان ذكاءه ونباهته وكان كل وثني يعرف احد المسيحيين ويرشد عنه كان يؤتى به على عجل ويدعون الواحد باسمه حتى يتقدم الى هيكل الاوثان فيطلب منه تقديم الذبيحة الوثنية وكان عقاب من يرفض تقديم الذبيحة للصنم ان يكون هو نفسه ذبيحة للصنم بعد ان يجهدوا في اقناعه بذلك بكل وسائط التخويف والارهاب بينما كان يوجد جمهور من الوثنيين التأم هنالك وهو يهزاء ويسخر بكل مسيحي يكون حظه اما نكران الايمان وتقديم الذبائح للاوثان واما الموت الذي هو نهاية كل انسان. ولكن بعض ضعيفي الايمان انكر ايمانه وهو واقف امام المذبح الوثني واثبت انه لم يكن مسيحياً قط فتمّ هذا يصدق عليهم قول المخلص المجيد انهم بالجهد يخلصون . وكان البعض يقتدون بهذا الجاحد والبعض يتمسكون باذيال الفرار وغيرهم قبض عليهم وطرحوا في السجون مكبلين بالقيود والاغلال ومنهم من انكر الديانة المسيحية بعد ان سجن قليلا ولم يحاكم وكثيرون بقوا متمسكين بالدين المسيحي معترفين به مع صعوبة العذابات التي ذاقوها مدة طويلة. وكثيرون قواهم الله وارسل لهم معونة من لدنه فبقوا مرتبطين بوحدانية الايمان الصحيح ولم يميلوا عنه يمنة او يسرة وكان من امرهم ان صاروا اركاناً متينة في بيت الرب وعليهم بنيت الكنيسة المصرية كما انهم دعوا شهوداً امناء على مجد ملكوت ابن الله . وكان في مقدمة هؤلاء الاتقياء رجل اسمه يوليانوس اصيب بالنقرس (داء المفاصل)

فلم تكن له مقدرة على السير او القيام من مكانه فساقوه الى المحاكمة يحمله رجلان على كتفيهما ولما تقدم هذان الرجلان امام المحكمة انكر احدهما ايمانه بلا امهال واما الثاني واسمه كرونيون ولقبه انوس فاعترف بايمانه اعترافاً صريحاً كما اعترف يوليانوس ايضاً ولذلك حملوهما على جمالين وطافوا بهما في جميع انحاء الاسكندرية ـ وهي كما تعلم واسعة الاطراف ـ وكانوا يجلدونهما بالسياط جلداً عنيفاً واخيراً طرحوهما في لهيب يتقد بالنيران فصارا رماداً بينما كان مضطهدوهما وقوفاً يتفرجون عليهما كأنه من المناظر التي تسر لها النفوس »

وقد سطر ديونيثيوس ايضاً ما حدث من استشهاد ستة رجال واربع نساء فيهم شاب في ريعان عمره اسمه ديوسقوروس . وكان بعض هؤلاء المذكورين من الاقاليم وبعضهم من الاسكندرية . وهاك مضمون الجواب المذكور

« بعد ان جلد اولئك الاتقياء بالسياط طرحوا في اتون النار لتنقدا ما ديوسقوروس فاعطاه القاضي مهلة يتدبر فيها نتيجة اصراره على التمسك بايمانه عساه يعود فيجحده اشفاقاً من القاضي على نضارة شبابه وخصوصاً لما آنسه فيه من العقل والرصانة عند ما كان يجيب لى الاسئلة التي سألوه اياها . قال الكاتب — وها انا اخط هذه السطور وديوسقوروس قائم بجانبي يطفر من الفرح الروحي منتظراً عذاباً مريعاً والماً موجعاً قد يصيبه الآن »

كتب الجواب المذكور آنفاً حالاً بعد بداءة الاضطهاد الذي اثاره الامبراطور ديثيوس اما المكتوب الذي سيجيء ذكره فيستدل من

اوائله انه كتب في زمن سابق لهذا الزمن غالباً في ايام الاضطهاد الذي وقع في مدة فيليب . اما السبب الذي الجأ البطريرك ديونيشيوس الى كتابة الرسالة التالية فهو ان جرمانوس احد اساقفة الاقاليم بلغه ان هذا البطريرك لم يتبع الخطة التي سار عليها سلفه الاسبق ديمتريوس في انه هرب من الاسكندرية بعد بدائة الاضطهاد بقليل ولم يعد اليها الا بعد ان استراح المسيحيون هنيهة لسبب الخصومة التي وقعت بين الامبراطورين دشيوس وفيليب عن المملكة وقد اشار اليها ديونيشيوس في كتابه الآنف ذكره . فرأى جرمانوس ان هروب البطريرك ديونيشيوس من الاسكندرية اثناء الاضطهاد ناتج عن جبن وخوف ولذلك وبخه توبيخاً عنيفاً فقام ديونيشيوس يدافع عن نفسه وينفي التهمة التي وجهت اليه بأنفة وغيرة حيث قال :ـ

« الى جرمانوس سلام

« وبعد فانني اتكلم امام الله واشهده على نفسي انني لا اكذب فيما اقول بان هروبي لم يكن طبقاً لارادتي كما لا ادعي انني اتيته بناء على الهام من الله بل الواقع انه قبل ما يبتدي الاضطهاد الذي اثاره دشيوس جاء رجل اسمه فرومنتاريوس من قبل حابينوس ليبحث عني وكنت قد مكثت في منزلي نحو اربعة ايام انتظر مجيء فرومنتاريوس الذي لم يأت الى بيتي تواً بل ذهب ينقب في كل مكان في الشوارع والحقول وبقرب الانهر حيثما ظن انني اختبيء هناك وكانه ضرب بالعمى فلم يستطع العثور على منزلي لانه لم يخطر بباله قط انني ابقى في البيت وقت الاضطهاد . فمرت الاربعة ايام على هذه الحالة الى ان اذن لي الله ان اترك كبني وفتح لي طريقاً سلكت فيه بكيفية عجيبة جداً فخرجت من المنزل ومعي اتباعي وكثيرون من الاخوة

المسيحين وكان ذلك بتدبير من الله وعناية منه ظهرت لنا في كل الذي تم معنا بعد ذلك وبدونها لم نكن نذكر بشيء او نفيد شيئا . وعند ما آذنت الشمس بالمغيب امسكني العساكر انا ورفقائي وقادونا الى سجن تابوسيرس ولكن تيموثاوس (يحتمل انه ابن هذا البطريرك) لم يكن موجوداً ولم يلق القبض عليه وذلك بعناية الهية فانه لما دخل البيت وجده قفراً والمزار بعيدا وليس فيه سوى خدام يحرسونه اما نحن فصرنا عبيدا ارقاء وقد اتفق ان رجلا من الارياف رأى تيموثاوس راكضاً تلوح عليه دلائل الخوف والجزع فسأله الرجل عن سبب جريه فاوضح له تيموثاوس جلية الخبر . وبعد ان سمع الرجل هذا الامر ذهب في طريقه وكان قاصدا وليمة عرس ـ وكانت العادة ان الناس يحيون كل الليل في الافراح ـ فلما استقر به الجلوس في المجلس قص هذا الخبر على آذان المدعوين لهذه الوليمة فلم يكن الا كلمح البصر حتى نهضوا جميعهم نهضة رجل واحد كانهم كانوا على اتفاق سواء وجاؤا مسرعين كالسيل الجارف واندفعوا علينا كالسور واخذوا يصرخون ويضجون باصوات كالرعد القاصف فلما رأى العساكر الذين كانوا يحرسوننا ماجرى ولوا الادبار وارتكنوا الى الفرار فانقض اولئك علينا انقضاض البواشق بينما كنا نياماً على اسرة ليس عليها شيء من الفراش . ويعلم الله انني ظننتهم في باديء الامر جماعة من اللصوص جاؤا قاصدين السلب والنهب ولذلك ظللت نائماً على فراشي كما كنت دون ان ابدي حراكا وليس عليّ شيء من الملابس سوى قميص من الكتان اتدثر به واما باقي ثيابي فكانت مطروحة بجانبي فقدمتها لهم عند ما اقتربوا مني . اما هم فلم يكونوا يقصدون النهب ولا يبتغون الثياب بل امروني ان اقوم من مربضي واسير معهم مسرعا الى حيث يريدون . فلما ادركت قصدهم من المجيء الينا اخذت في البكاء والعويل واخذت اتوسل اليهم متضرعا ان ينصرفوا عنا ويتركونا وشأننا وقلت لهم انهم اذا شاؤا ان يعملوا معنا جميلا فليستأذنوا الذين ادخلوني في هذا المكان ومن ثم يقطعون رأسي فلما صحت عليهم هكذا كما يشهد بذلك رفاقي والذين اشتركوا معي في الضيقات اجتهد اولئك القوم ان يأخذوني قسرا رغما عني ولذلك القيت بنفسي على الارض مطروحا على ظهري ولكنهم لم يشفقوا عليّ بل امسكوا بيدي

ورجلي وجروني خارجا وتبعني الذين شاهدوا هذه الحادثة وهم كايوس وفوسطس وبطرس وبولس (غير الرسولين المعروفين) فاخرجوني خارج المدينة واركبوني حماراً غير مسرج»

وقد بلغ اضطهاد ديشيوس منتهى القسوة والصرامة في فلسطين ولكن اوريجانوس تقوى هذا المرة فلم يهرب وكان قد عاد حديثاً من زيارته الثالثة لبلاد العرب حيث اضل الشيطان بعض اعضاء الكنيسة فيها فصاروا يكرزون بمبداء جديد هو ان اللاهوت مات مع الناسوت وقام معه ثانية في وقت واحد (١) . فجرد اوريجانوس سيف الحجة والبرهان في هذه المرة ايضاً وفاز باقناع اولئك المبتدعين الذين خالفت اراؤهم وافكارهم تعاليم الكنيسة كل المخالفة اما اوريجانوس فلم يكد يصل فلسطين عند عودته اليها من بلاد العرب حتى طرح في السجن . ولم يذكر يوسيبيوس شيئاً عن كيفية القاء القبض على اوريجانوس بل ذكر عنه ما يأتي في سياق كلامه عن اسكندر اسقف اورشليم وبسيليوس اسقف انطاكية اللذين قال عنهما انهما ماتا في السجن بعد عذاب اليم . قال يوسيبيوس :—

« يصعب على الكاتب الذهن وصف ما قاساه اوريجانوس واحتمله بصبر وفرح من العذابات المرة والآلامات القاسية اثناء هذا الاضطهاد اذ وضعوه في مقطرة من الحديد وزجوه في اعماق السجن حيث ظل بضعة ايام مطروحاً على خشبة وهو

(١) كان المصريون القدماء يعتقدون انه ولو مات الجسد الا ان الروح والنفس البشرية يبقيان تحيى الروح في عالم آخر والنفس في الجثة المحنطة (المومياء) التي حفظت لبقاء النفس فيها الى يوم القيامة الى ان تعود الروح وتتحد مع النفس كما كانتا قبلاً . ومن هذا الاعتقاد وجدت عندهم اهمية تحنيط الجثث كمسكن للروح ليس الا

مشدود باربعة واثاقات لا يستطيع معها الحراك وهم يشعلون النار من حوله تهديداً له وتخويفاً وغير ذلك من مرائر شرحها يطول ووصفها يهول ذاقها هذا المسيحي من اعدائه العديدين ولكنه لم يبد ضجراً ولا اظهر مللا ولم يحل باازمة الفرجي وعند ما انتهى القوم من تجريع اوريجانوس كل اصناف العذاب قدموه للحكم عليه بالموت فسعى القاضي الموكل بالحكم جهده في تأخير موته ليس لينجي اوريجانوس منه بل ليطيل عذابه باطالة ايام حياته . فالذي تم لاوريجانوس من آلام وعذاب يجدر بان يكون عبرة لمن يعتبر وذكرى لمن يذكر وتعزية للذي وقع في مصاب او اصابه شر وتجربة وعلى من يرغب شرحاً وافياً عن ذلك عليه بمراجعة رسائل اوريجانوس التي بقيت بعده فيجد فيها اخبارا يوثق بصحتها وتفصيلا وافياً عما اصابه واصاب غيره من قبله »

اما الرسائل الكثيرة التي كتبها اوريجانوس واشار اليها يوسيبيوس في ما كتبه آنفاً فلم يبق منها سوى رسالتين فقط ليس فيهما شيء عن الاضطهاد الذي احدثه دينيوس وقد يمكن ان ما ذكره عن هذا الاضطهاد موجود في رسائله الاخرى التي اصبحت هباء منثوراً . ولو ان كل ما ورد في كتاب يوسيبيوس عن اوريجانوس قد ضاع ولم يبق شيء منه الا انه عجيب في ان ذكرى هذا الرجل وتأثيره الشخصي بقي فعالاً مؤثراً في ايام كان ديجور خلامها يلمس بالايدي وشرها يسمع صريره بالآذان . اما عذاب اوريجانوس فلم يقف عند الحد المار ذكره بل بقي مدة طويلة تقلب فيها الرجل على فراش الضنى والحول حتى بلغت روحه الحلقوم ولكن ظهر له شعاع من الفرح والسرور عند ما وافاه مكتوب من البطريرك ديونيشيوس يشجعه فيه ويشاطره الاسى والاسف مظهراً فيه ارق العواطف

واشرف الاحساس الا ان هذا الجواب الثمين ضاع كما ضاع غيره من المكاتيب المفيدة

وقد زل كثيرون من المسيحيين اثناء اضطهاد ديثيوس هذا وقدموا الذبائح للاوثان اجابة لطلب معذبيهم فاخذت هذه المسألة دوراً مهماً في الكنيسة عن كيفية المعاملة التي يعامل بها الذين سقطوا عند ما يخف وزر الاضطهاد ويأتون ليعترفوا بخطاياهم ويتوسلوا الى الكنيسة لكي تقبلهم ثانية في احضانها . فقر الرأي على قانون للتوبة سن بعد ذلك بقليل للسير بمقتضاه في هذه الاحوال والظروف الصعبة وقد يمكن ان هاته المسألة كانت موضوع البحث في كل اضطهاد حدث ولكن بت الحكم فيها هذه المرة فقط واصبح العمل بها امراً مقرراً بعد ان تداولت عنها مكاتبات ورسائل كثيرة بين اساقفة الاقاليم وكان اكثرهم ميالا للرفق بحال من يتوب توبة حقيقية الا ان نوفاتوس احد كهنة رومية خالف زملاءه في هذا الشأن وكان رأيه ليس مما يحمد عليه فضلا عن انه تحصل على تصديق مزور من اساقفة في بلاد بعيدة يدعي فيه انه عين اسقفاً لرومية . فرجل بمثل هذه الصفات يرتقي المناصب الكهنوتية زوراً وبهتاناً لا يصعب عليه ان يشدد النكير على الذين زلت بهم القدم في مدة الاضطهادات ويقسو عليهم قسوة متناهية حتى انه اوجد قانوناً مخصوصاً في هذا الصدد مفاده ان الذين جحدوا الدين المسيحي ولو مرة واحدة لسبب الاضطهاد لا يمكن قبولهم في عضوية الكنيسة مرة ثانية ولو تابوا توبة بدموع

ما دام ان الكنيسة لا قدرة لها على مسامحتهم وغفران خطاياهم وعليه انعقد مجمع في قرطجنة مؤلف من نيف وستين اسقفاً عدا الكهنة والشمامسة تحت رئاسة كبريانوس للنظر في هذا الامر فقرر اخيراً باجماع الاراء القرار الآتي وهو :

« حيث ان نوفاتوس والذين جاروه على آرائه عولوا على انتهاج طريق العدوان وسلكوا مسلكا يخالف الطبيعة البشرية كل المخالفة فهؤلاء يعتبرون منشقين عن الكنيسة ما داموا يخالفونها في قراراتها . اما الاخوة الذي وقعت عليهم المصائب الروحية وضلوا السبيل السوي فيلزم علاجهم بدواء التوبة الشافي حتى ينقهوا »

وقد اتفق المجمع كله على استئناف القضية الى اسقف الاسكندرية أو هو بابا الاسكندرية . اما كرنيليوس الذي انتخب حديثاً اسقفاً لرومية بدل فابيان الشهيد — ذلك لان تعيين نوفاتوس الغير القانوني لم يقر عليه الرأي ولا اعترف به احد سوى رهط يعد على الاصابع — كتب الى ديونيثيوس كتاباً شديد اللهجة متين العبارة يشكو فيه « الثعلب الخبيث المحتال » وهو يقصد بذلك نوفاتوس المذكور . اما نوفاتوس فكتب الى دنيثيوس يعتذر عن رسامته الغير قانونية ويقول انه اضطر لقبولها اضطراراً اجابة لتلمس بعض الاخوة والحاحهم عليه . فقوارص الكلام التي طعن بها كرنيليوس وكبريانوس في صدر نوفاتوس لم تؤثر فيه بشيء ولكن الرسالة التالية التي ارسلها اليه البطريرك دنيثيوس فعلت في قلبه فعل قطرات الماء في جرف هار وهاك الرسالة :

« ديونيثيوس يهدي سلامه الى اخيه نوفاتوس — وبعد . فاذا صح ما قلته وصدق اعتذارك في انك قبلت الوظيفة بطريقة غير قانونية ضد رغبتك فعليك ان تبرهن ذلك بان تترك هذه الوظيفة برغبتك وتمتزلها بارادتك لان الواجب علينا ان نحتمل كل شيء ونذوق كل هوان وعذاب لا ان نسيء اساءة تؤثر في كنيسة المسيح التي افتداها بدمه . واعلم هداك الله ان المجد الاسنى والشرف الاعظم يكونان لنا كاملين اذا نحن متنا شهداء لاجل الكنيسة من ان نسهل لابنائنا تقديم الذبائح للاوثان وانكار الايمان . ومن رأيي ان الذي يموت شهيداً لاجل ايمانه انما يريح نفسه وينال المجد والثواب لشخصه فقط ولكن الذي يموت لاجل الكنيسة فهو يفيد الكنيسة ونفسه ايضاً . والنتيجة انك اذا اقنعت اخوانك وحملتهم على اتمام مبادىء الاتفاق والوئام فتكون حسناتك قد زادت عن سيئاتك والا ان لم تستطع التأثير عليهم وخالفوا وساطتك فاعمل على الاقل خلاص نفسك واربأ بها . وفي الختام اهديك تحيتي وسلامي على امل انك راغب في السلام عامل على توطيد دعائمه باسم ربنا يسوع المسيح »

وقد يحتمل ان فابيوس اسقف انطاكية كان ميالاً لاحتذاء حذو نوفاتوس من حيث التشديد على الذين انكروا ايمانهم وتابوا ومعاملتهم بالعدوان والقسوة ولذلك كتب اليه ديونيثيوس كتاباً نأتي على ملخصه هنا وهو :

« اليك مثال عما حدث في مثل هذه الامور التي نتناقش فيها الآن ومنه يظهر لك كيف تصرفنا نحن : حدث ان رجلاً هرماً اسمه سيرابيون وهو مسيحي لا غش فيه قضى حياة طويلة بكل تقوى واماناً . كان قد ذبح للاوثان اثناء اضطهادهم اياه ولكنه عاد فاقر بذنبه واستغفر ربه عن خطيته فلم يقبله احد او يرق لحالة انسان . فاصاب الرجل مرض عضال الزمه الفراش وظل ثلاثة ايام متوالية لايعي ولا يتكلم وفي اليوم الرابع افاق قليلاً من غشوته فدعي اليه ابنه الاكبر وقال له « لقد طال يا ابني زمن حجزك لي فاتوسل اليك ان تسرع وتطلقني من عالي فارجوك ان تذهب وتأتي لي باحد شيوخ الكنيسة » ولما قال هذا عاد الى غشوته وصمته واما الغلام فاسرع الى شيخ من مشائخ الكنيسة ليدعوه كامر ابيه وكان الوقت ليلاً والشيخ مريضاً . وكنت قد اصدرت امراً قبل هذا الوقت يقضي بان الذين على حافة الموت اذا شعروا بحاجتهم للتوبة والحوا في طلب المغفرة يجب ان يمنحوها حتى ينتقلوا من هذا العالم وقلبهم مملوء من التعزية والرجاء بالحياة الابدية . وعليه جاءني الغلام فاعطيته جزءاً من العشاء الرباني وقلت له ان يغمسه في الماء ويضعه في فم هذا الرجل الهرم . فذهب الولد مسرعاً الى البيت ومعه لقمة الخبز التي اعطيته له ولما قرب من مدخل الباب كان سيرابيون قد عاد اليه رشده فنهض قائلاً « لقد جئت يا ابني ولكن الشيخ لم يقدر على المجيء معك فعليك اتمام ما امرت به ومن ثم اطلقني بسلام فقد ابصرت عيناي خلاص الرب » فبل الشاب اللقمة ووضعها حالاً في فم ابيه الذي لم يلبث حتى ازدردها وفاضت روحه الى خالقها . ألم يكن هذا الرجل قد تاب توبة حقيقية وألم يظل حياً الى ان نال المغفرة ومحيت جميع ذنوبه ؟ وهلا يعتبر هذا الرجل التقي مؤمناً لاجل اعماله الصالحة الكثيرة التي عملها في حياته وعند موته ؟! »

وقد يذكر القراء الكرام رجلاً اسمه بولس الناسك وهو احد اركان الرهبنة في بر مصر نشأ هذا الرجل في مدة هذا الاضطهاد ولكن شهرته لم تبلغ حدها الا بعد انقضاء الاضطهاد بمدة طويلة حتى ان البطريرك

ديونيثيوس فلما يعرف شيئاً عنه. وكان مسقط رأسه مدينة طيبة الوسطى ومات ابواه وله من العمر خمس عشرة سنة وتركا له ارثاً وافراً واملاكاً واسعة ساعدته على التربية الحسنة التي شب عليها وكان بعد موت ابويه يقطن في منزل لاخته التي كانت متزوجة بزوج غير مسيحي وبقي عندها الى ان حدث الاضطهاد الذي اثار غباره ديثيوس فاعتزل منزلا في الارياف كان لصهره وذلك لكي ينجو بنفسه من هول الاضطهاد وويله ولم يمكث في هذا المنزل المعتزل طويلا حتى انذرته اخته بان زوجها عقد النية على اخبار الحكومة بحقيقة حاله وارشادها اليه حتى تقتصه فيتمتع هو بماله وعقاره الذي يؤول اليه بالارث من بعده. فخطر على بال بولس حينئذ قول السيد المسيح له المجد «من أحب أخا أو أختاً أو حقولاً الخ اكثر مني فلا يستحقني». وعليه وهب أخته وزوجها جميع ما يمتلكه من حطام العالم وصمم على أن يعيش عيشة منفردة في الصحاري والقفار ولا يستأنس باحد الا بالله كما فعل القديس فردنتونيوس من قبله. فجاء الى شقيقته الوحيدة يودعها وداعا لالقاء بعده وسار يحث مطايا الجد في عرض الفلاء قاصداً الصحراء التي كان فيها فردنتونيوس على مسيرة يوم من نهر النيل الى شمالي ممفيس وهناك صرف جزءاً من حياته في التجوال والطواف يحث عن مكان مناسب يقيم فيه الى أن عثر بطريق الصدفة على خلوة تحيط بها كثبان وتلال فاصابت غرضه واتخذها دار اقامة ما بقى من أيام حياته. وكان باب

هذه الخلوة غير ظاهر من الخارج فلا يستطيع أحد أن يلجها الا اذا كان عارفا بها من قبل وعند مدخل الباب توجد ردهة واسعة يمر بها النسيم رطباً ناشفاً وهي محاطة من جميع الجوانب بصخور صماء يعسر حتى على الايل أن تمر عليها وليس بينها وبين القبة الزرقاء فاصل أو حاجز بل من كان داخلها يسهل عليه أن يرى «السموات تنطق بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه» فهي من كل وجه تليق برجل يريد العبادة الانفرادية ويرغب فيها. واتفق ان بولس وجد في هذا المكان آلات عجيبة الصنع وكثير من المعادن القديمة مرت عليها حقبات من الزمن وهي باقية هنالك لم تمسها يد بشر فاخذ يبحث وينقب عن أصل هذه المعادن وسبب وجودها هنا فعرف بما كان عليه من العلم والتربية وفرط الذكاء ان هذا الموضع كان يستعمل لصك النقود الزائفة التي كان يشتغل فيها المزيفون في عهد الملكة كليوبترا الشهيرة. وأهم شيء سر له صاحبنا هذا ان نخلة برزت من جوف الارض ونمت في هذه الخلوة وكان يجري تحتها ينبوع صغير من ماء كالزلال الذي لم يبق له أثر الآن كانما قد غار في الرمال وانطفى خبره. ففي هذه العزلة المار وصفها اقام بولس الناسك وقضى في زهده بتوليته مدة تسعين سنه على ما يقال فاذا صح ذلك فيكون مات وعمره ١١٢ سنه لان عمره كان ٢٢ عاما لما فارق أهله وذويه وعكف على النسك. وليس في هذه العبارة ما يدعو للعجب والاستغراب بالنسبة لطول حياة بولس الناسك

فان الباحث المدقق يعرف ان كثيرين من النساك المصريين عمروا طويلا . اما بولس فكان يقتات في بادئ أمره ببلح تلك النخلة ويشرب من ماء النبع الذي ينساب تحتها ولكن بعد قليل بلغ خبره مسامع أهالي البلاد القريبة منه وعلموا بما جبلوا عليه من البساطة والسذاجة ان رجلا صالحاً تقياً جاء وقطن على مقربة منهم ولذلك وفدوا اليه زرافات ووحداناً ومعهم هدايا من خضار وخبز وكانوا يستشيرونه في أمورهم ويهتدون بهديه في حل معضلات أعمالهم فكان ينصحهم في الامور الدنيوية كما انه كان يعظهم ويبشرهم بالديانة المسيحية فذاع صيته في الآفاق وسمع به كل مصري حتى ان انطونيوس جاءه قبل موته بقليل ليزوده النظرة الاخيرة ويقبل دعواته الطيبات وظل مقيما معه الى أن مات فواراه لحده [1]

وفي الوقت الذي فيه نبذ بولس العالم وعمد الى الزهد كان مئات غيره في جميع البلاد المصرية تركوا كل شيء واتبعوا المسيح بطريق التنسك والاعتزال في الصحاري والقفار ولكن قلما يعرف شيء عنهم .

أما اضطهاد ديشيوس الذي طال واستطر قد انتهى الآن وجاء وقت الفرج بعد ضيق شديد وذلك انه في اكتوبر سنة ٢٥١ ب . م قتل ديشيوس هذا في غارة شنها عليه سكان شمالي أوروبا الذين بدأوا

(١) في كتاب العلامة كنجسلي عن « النساك » تجد شرحاً وافياً عن تاريخ حياة بولس الناسك وكيفية موته

يغيرون على المملكة الرومانية في سنة ٢٥٠ وبعد موت هذا الامبراطور خلفه غالوس الذي أوقف سريان الاضطهاد . وقد كتب البطريرك ديونيسيوس كتابا بعد هذا الوقت بقليل الى اسطفانوس أسقف رومية الجديد يثني فيه عاطر الثناء على الكنيسة التي وضعت حداً للشقاق الذي أوجده نوفاتوس في الوقت الذي فيه كف الاضطهاد عنها

وممن وقعوا تحت طائلة اضطهاد ديسيوس القديس مركوريوس المعروف « بابي سيفين » وقد استشهد بعد عذاب طويل . هذا القديس له عند المصريين منزلة علياء فهم يجلونه ويحترمونه ولذا تجدهم قد لفقوا عنه أقاصيص وخرافات لا طائل تحتها وبالغوا في أمره حتى قالوا انه هبط من السماء لقتل يوليانوس المترفض ويؤكدون لك صحة هذه الخرافة تأكيد من شهد الشيء بعينه واذا راجعت كتاب مستر بتلر الانكليزي عن « الكنائس القبطية » تجد في الجزء الثاني منه روايتين من الروايات التي يتناقلها المصريون عن أبي سيفين هما من الغرابة بمكان

أما أوريجانوس فقد أفرج عنه عند موت ديشيوس ولكن هذا الافراج لم يغنه شيئاً بعد أن ذاق عذابات الاضطهاد ومصائب السجون فلم يعش بعد ذلك سوى سنة واحدة ومات في مدينة صور وله من العمر تسع وستين سنة ودفن في المكان الذي مات فيه وظل قبره معروفاً يحج اليه الزوار الى أن جر الخراب أذياله على هذه المدينة ولاشاها من الوجود . وقد بنيت كنيسة عظيمة فوق ضريحه كان يزورها

كثيرون من السياح والرواد وبقيت على عظمتها وأهميتها الى منتصف القرن السادس عشر اذ زال المكان الذي دفن فيه أوريجانوس ولم يبق له ذكر سوى في بطون الروايات والتواريخ . ولو ذهبت الآن الى صور وسألت أهاليها عن ضريح أوريجانوس لاشاروا لك الى اطلال كنيسة قديمة بنيت اكواخهم الآن عليها وقالوا لك ان جسد أورينوس — وهو أوريجانوس عندهم — مدفون في قبو من قباب تلك الكنيسة هو الآن تحت الارض

والذي يتصدى لنقد تأليف هذا الرجل العظيم الذي يعد من مشاهير المصريين في تاريخ كهذا قد تداولته الايدي — لا يكون مصيباً في نقده بل قد يشذ عن الحقيقة ويبتدعها خصوصاً وان كتبه التي الفها تفوق الحصر والعد حتى ان ابيفانوس نقل عن بعض التقارير المنسوبة في ذلك العهد ان اوريجانوس الف نحو ستة آلاف كتاب ونبذة وغير ذلك وهذا قول لا يخلو من المبالغة والغلو اوهو غلطة من الناسخ الذي كتب ٦٠٠٠ بدل ٦٠٠ بزيادة نقطة لا تقدم ولا تأخر في الكتابة ولكنها تفيد معنى اكبر واوسع في القراءة والفهم . وعلى اي حال فان الستمائة كتاب يؤلفها رجل واحد كان يشتغل باعمال كثيرة ليس مما يستخف به بل هو عدد وافر قد لا يأتيه الكثيرون من ذوي العقول الواسعة . ولم يبق من هذه الكتب الكثيرة سوى بعضها واكثر هذا البعض ناقص ضاع اهمه ولكن الكتب الكاملة انما هي عبارة عن شرح مسهب لاكثر اسفار العهدين القديم والجديد

وردود مفحمة على شلسوس وغيره من الهراطقة الذين جادلهم مشافهة وكتابة وبين هذه الكتب الموجودة رسائل تحتوي على مواعظ وخطابات وانذارات وابحاث عديدة في كل موضوع اهمها واشهرها نبذة له عنوانها « المبادي الاساسية » كتبها في الاسكندرية وعمره اذ ذاك ٣٥ سنة ثم « ترجمة التوراة الى ست لغات » وقد سبق القول عنها « والرد على شلوس المبتدع » « وكيفية الصلاة وفائدتها » .

ومع ان تاريخ قرطجنة لا علاقة له بتاريخنا هذا ولكننا لا نرى مندوحة من ذكر لمحة منه بها يظهر الفرق بين الكنيستين العظيمتين في افريقيا هما كنيسة مصر وكنيسة قرطجنة وفيها تتضح صفات اعاظم الرجال الذين نبغوا منهما في ذلك العهد . فلنأخذ اثنين من كنيسة قرطجنة واثنين من كنيسة مصر مثالاً على ما سيأتي . فمن الاولى طرطوليانوس وهو رجل عمر طويلاً ومات في مدة الامبراطور ديشيوس ثم كبريانوس كان في ذلك الحين قد بلغ شأواً يذكر من السلطة وطيب السمعة . فاذا انت قرأت ما كتبه ذانك الرجلان وقابلت كتاباتهما مع ما سطره اكليمنضس واوريجانوس تعجب كثيراً وتسأل عما اذا كان هؤلاء الاربعة رجال قد نبغوا في وقت واحد ويعتقدون اعتقاداً واحداً . وكان يمكن ان الكنيستين تكونان على نظام واحد خصوصاً وانهما زرعتا في ارض واحدة بيد رجل واحد وترعرعتا تحت سماء واحدة ولكن الفرق وجد من ان كنيسة

الاسكندرية كانت مصرية النسبة والاصل يونانية اللغة واما كنيسة
قرطجنة فكانت فينيقية النسبة والاصل ولاتينية اللغة

والذي يجهد نفسه للوقوف على كنه الكنيستين الافريقيتين
يأخذه العجب والاندهاش عند ما يرى الاختلاف العظيم بينهما
في السجايا والتعاليم . ولو ان هاتين الكنيستين تمسكتا بتعاليم الديانة
المسيحية الجوهرية واعترفتا برب واحد واله واحد الا ان هذه
التعاليم كانت مثل القمر يظهر نصفه منيراً لجزء من العالم بينما النصف
الآخر المظلم الذي يبعد عن الشمس يكون ظاهراً للجزء الآخر
من سكان الكرة الارضية ولكنه مظلم . فعلى هذا القياس كان
قانون الايمان المسيحي يظهر امام الكنيسة المصرية كنور لامع وضوء
ساطع ويتجلى امام اعين كنيسة قرطجنة ككتلة من الاسرار المبهمة
والرموز الغامضة التي لا يحدها العقل ولا يتصورها الادراك . واذا
سألت طرطوليانوس واوريجانوس واوغسطينوس عن قواعد الدين
المسيحي لاجابوك جميعهم جواباً واحداً ولاتفقوا معاً في جوهره
ونصه ولكنهم يختلفون (أي المصريون والقرطجنيون) اختلافاً
كبيراً في عمله وتأثيره في قلوبهم واخلاقهم اذ ترى القرطجني مثلاً
يسلك الطريق المسيحي من غير الوجهة التي يسلك فيها المصري ولعل سبب
هذا الاختلاف والتباين في سلوك الكنيستين اختلافهما في ديانتيهما الوثنيتين
القديمتين اللتين ظل تأثيرهما فيهما حتى بعد اعتناقهما الدين المسيحي . فاذا

بحثت مثلاً في ديانة القرطجنيين القديمة وجدتها ديانة مركبة من عقائد
صارمة وعوائد قاسية تقضي بتقديم الذبائح البشرية وتحتم على المتمسكين
بها وجوب الانتقام من المسيء ولو طال عليه المطال ومرت عليه الايام
والليال وهي عادات او فرائض كان القوم يفتخرون بها ويتباهون بانفاذها
فلما دخل القرطجنيون داخل حظيرة المسيح ولبسوا ثوب الديانة المسيحية
القشيب ضعفت فيهم روح القسوة وحب الانتقام ولكنها لم تنزع تماما
بل ظل اثرها موجوداً في صدورهم كما تشاهد اثر الشمس في الافق
عند المغيب ولذلك كان طرطوليانوس مثلاً يعتقد ان الله هو اله يسر
بعذاب مخلوقاته التي تشذ عن طاعته ويفرح بالانتقام من الذين يخالفون
ويحيدون عن طريقه السوي وانه يفتقد ذنوب الاباء في الابناء ويدخر
العقاب من جيل الى جيل . ولما كان الطبع البشري يميل من عادته الى
مثل هذه المبادىء ويود لو ان يصرح للانسان ان ينتقم ويقاص كل
من يغيظه ويغضبه عم هذا الروح كل الكنيسة الغربية التي سارت على
تعاليم اوغسطينوس من حيث تشديد العقاب على كل من اساء ولو
اساءة صغيرة وتشهير كل من اقترف ذنباً . وهو تعليم صارم جرت
عليه الكنيسة الغربية نقلاً عن كنيسة قرطجنة بينما رفضت تعاليم اوريجانوس
التي تأمر بالمحبة والتساهل والمسامحة وغض الطرف عن الهفوات والذنوب
وتجاهلت تواضعه ودماثة اخلاقه ولم تكتف بذلك بل حكمت عليه بالهرطقة
والابتداع ولا ذنب له يستوجب ذلك اللهم الا ان يكون علو افكاره

وغزارة مادته وتجره في العلوم والمعارف التي كانت تسر بها نفسه ويصبو اليها قلبه . والنتيجة ان الكنيسة الغربية استصوبت تعاليم اوغسطينوس الصارمة وحسبته ضمن اعمدة الكنيسة بينما خطأت روح اوريجانوس المحبة وشجبته شجباً ولا عجب في ذلك ولا غرابة ما دام الانسان يميل الى ما يوافق طبيعته المنحطة وافكاره الساقطة

فكنيسة قرطجنة التي مر بك وصفها قد زالت من الارض واختفى منها العين والاثر واما الكنيسة المصرية فلم تزل باقية لليوم ولم تختلف شيء عن الكنيسة الاصلية بل هي رسم جوهرها وصورة مجدها. وقد وصفها احد العلماء العصريين — هو مستر بتلر الانكليزي — المشهور بميله الى الكنيسة القبطية وحبه لها فقال ان نظام هذه الكنيسة يمتاز عن نظام الكنائس الاخرى شرفا ورفعة لتجرده من كل ما يشين ويهين وانها اسمى الكنائس ولو انها وصلت الآن الى درجة من الانحطاط يأسف عليها محبوها. والذي يرفع الكنيسة القبطية في اعين العقلاء هو انها قاست من الاضطهادات المريعة ما يكفي لاضمحلال الممالك وعانت من العذابات والمشقات ما لم يقع لاي كنيسة اخرى في العالم ولكنها لم تزل حية نامية وقد ساعدها على الحياة الطويلة هذه روح الرجاء والامل اللذين نشأ معها وثقتها الوطيدة في مخلصها وفاديها. واذا انت طفت الكنائس المصرية ودخلت افقر واحقر كنيسة من الكنائس القبطية لرأيت علامات الرجاء والامل تبدو على جدرانها وقلما

شاهدت فيها صورة تشير الى جهنم او عذاب مقبل بل قلما وجدت فيها تمثال جمجمة باهتة ولا هيكل عظام عار مما يشير الى آلام وسقام ولكن ترى شهداءها تبتسم تماثيلهم المرسومة على الجدران كأن ما قاسوه من العذابات والاضطهادات لم يكن شيئاً يذكر بل اصبح نسياً منسياً وهناك تشاهد القديسين الابطال مصورين بشكل يدل على انهم قتلوا ثعبانا او احد رؤساء هذا العالم الشرير دون ان يجدوا في قتله عناء يذكر اما آلامهم واوجاعهم فليس لها أثر في ذلك الرسم كما لا تجد صورة تمثل الخاطيء بعد موته مما تشمئز منه النفس وتنكمش لمرآه الروح. فهؤلاء الاتقياء الابرار الذين اسسوا الكنيسة القبطية بدمائهم كانوا يطرحون انفسهم بين يدي الله وهم مسرورون فرحون كما انهم كانوا يطلبون رحمة منه على الذين كانوا يضطهدونهم ويذيقونهم الخسف والجور »

الفصل التاسع

اضطهاد فاريان للمسيحيين . سنة ٢٥٤ ب . م

بعد موت ديشيوس تزاحم القوم وتعاركوا كعادتهم للحصول على الملك وانتهى الامر اخيراً بارتقاء غالوس العرش الملوكي وظل قابضاً على صولجانه مدة سنتين ثم استلمه ابنه ايميليانوس الذي نادى بنفسه امبراطوراً وبقي مقيماً بضعة شهور في مقاطعة بانونيا . ففي هذه المدة خفت وطأة الاضطهاد عن المسيحيين ولكن داء الدفتيريا (الخانوق) الذي اشار اليه

ديونيشيوس في جواب يلي كان قد انتشر في البلاد ربما قبل حكم غالوس وبعده

وفي شهر يوليو سنة ٢٥٤ ب . م نودي بفاليريان امبراطوراً على المملكة الرومانية وهو رجل من سلالة عائلة رومانية طائرة الصيت كان قد تقلب في اهم مناصب الحكومة ورتبها وبعد ان استتب له الامر اشرك معه ابنه غالينوس في ادارة شؤون المملكة . وقد رأيت فيما مر بك ان الامبراطرة الرومانيين كانوا يتعاقبون بسرعة على الكرسي الامبراطوري ولم تطل مدة احكامهم بل كانوا يمرون على العرش مر السحاب في الصيف ويظهر ان داء التغيير السريع والابدال المتوالي عم اساقفة رومية ايضاً فساووا امبراطرتهم في كثرة التغيير والتعاقب فانه منذ عهد تعيين ديونيشيوس بطريركاً للكنيسة المصرية تعين في رومية من الاساقفة فابيان وكرنيليوس ولوشيوس واسطفانوس ثم اكسيستوس الذي كتب له ديونيشيوس في ذلك العهد كتاباً بشأن رجل عمدة الهراطقة المشار اليهم هم من اتباع نوفاتوس اسقف رومية الغير القانوني الذي كان يعلم بعدم وجود مغفرة للخطايا التي يرتكبها الانسان بعد عماده وهو تعليم أثر تأثيراً سيء العواقب في انه جعل الكثيرين يؤجلون عمادهم الى ساعة احتضارهم كما فعل الامبراطور قسطنطين .
وقد سار فاليريان على الخطة التي سار عليها اكثر الامبراطرة الرومانيين في انه اظهر ميلاً وانعطافاً نحو المسيحيين في اوائل حكمه وكان قصره

منتدى يؤمه المسيحيون وكثيرون منهم استخدموا عنده . الا انه كان مغرماً كثيراً بحكمة المصريين القدماء وعلومهم يحب المتضلعين منهم بهذه العلوم حتى انه اتخذ احد المصريين واسمه مكريانوس الحاكم القضائي مشيراً له وكان يثق به تمام الثقة وكان البطريرك ديونيشيوس يلقب مكريانوس هذا « استاذ السحرة المصريين ورئيسهم الاعظم » وربما كان يقصد بذلك ما لمكريانوس من التأثير الشديد في عقل الامبراطور كما كان يؤثر كهنة المصريين القدماء في اذهان الملوك ويقتادونهم وراءهم.
وعلى اي حال فان مكريانوس كان متمسكا اشد التمسك بديانة اجداده القدماء ولذلك كان لا ينفك يلح على مولاه الامبراطور ليقنعه بان المصائب التي تحيق بالمملكة سببها تغاضي الآلهة الحقيقيين « يقصد بهم آلهة المصريين القدماء » عن المملكة واهمالهم شأنها والترخيص للناس بان يعتقدوا بخرافة لا اساس لها وهي صلب ذلك النجار « اعني به يسوع المسيح » . وقد صادف قول هذا الرجل قبولا خصوصاً وان المملكة كانت في ذلك الحين واقعة في اشد المصائب ومحاطة باقوى الملمات لدرجة لم يسبق لها مثيل اذ اكتنفها البرابرة وسكان شمالي اوروبا والجرمانيون والفرنساويون والبورغنديون والفرس من كل ناحية وانهاروا على المقاطعات الرومانية كالسيل الجارف وكانوا يعيثون في الارض فساداً ويهلكون الزرع والضرع في كل بلدة وطئتها اقدامهم وصاروا يجرفون في طريقهم مدينة بعد اخرى مبتدئين من طاراقونا في اسبانيا

الى انطاكية في سوريا . ومما زاد الطين بلة ان الدفتيريا التي بداءت
قبل موت ديشيوس زاد انتشارها وعم بلاؤها خصوصاً في بر مصر
حيث بقيت خمس عشرة سنة تفعل في الناس فعل الصارم البتار . وقد
القى البطريرك ديونيشيوس تبعة تجديد الاضطهاد على عاتق مكريانوس
وعزى اليه سبب كل شر وقع على المسيحيين وهو امر لا يستوجب
الريب لان مكريانوس عدو لدود لديونيشيوس ورعيته دينيا وقد عرفنا
انه ملاء قلب الامبراطور بغضا وحقداً على المسيحيين اخوته في الوطنية
الذين لم يتكلم عنهم كلمة واحدة توجب الشفقة والحنان

وقد علمت فيما مضى ان جرمانوس احد اساقفة الاقاليم المصرية
كان قد ارسل الى بطريركية ديونيشيوس يلومه لانه هرب في ايام
الاضطهاد الذي احدثه ديشيوس وقد عاد جرمانوس فارسل جواباً
الى ديونيشيوس ايضاً يعنفه فيه لانه امر بابطال الاجتماعات الجمهورية
في الكنيسة فرد عليه ديونيشيوس بكتاب يصف له فيه كيفية القاء القبض
عليه واحضاره مع قومه امام الوالي واعترافهم جميعاً بايمانهم وكيف انهم
ارسلوا اسرى ليسجنوا في مكان اسمه سيفرد شمالي القطر المصري .
قال ديونيشيوس : —

« ولما حللنا سيفرد التف حولنا جم غفير من الاخوة الذين جاؤا معنا
من الاسكندرية ومن الذين وفدوا الينا من مصر بعد وصولنا الى هنا وهكذا
مهد الله سبيلا لكلمته في هذه الجهة كما في كل الاماكن الاخرى . صحيح ان
اعداءنا في بادىء الامر اضطهدونا ورشقونا بالاحجار ولكن اخيراً ترك كثيرون

من الوثنيين اصنامهم ونبذوها ظهرياً واقبلوا الى الله بقلوبهم لان كلمته غرست في
افئدتهم كما يغرس البذار في ارض ذات زرع وكانوا لم يسمعوا عنها من ذي قبل.
وكان الله جل وعلا اراد ان يأتي بنا الى هذا المنفى لنذيع بشرى الخلاص فيه فلما تم
ذلك وافلحنا شاءت مشيئته ان ننقل الى مكان آخر لهذه الغاية عينها وذلك ان
ايميليانوس ابن الامبراطور غالوس قصد ان ينقلنا الى اماكن اشد ضرراً واكثر
تعباً مشحونة بالخوف والمخاطر ثم امر سكان اقليم مريوط ان يلتئموا في مكان
واحد خصصه لهم وعين لهم قرى معروفة يقيمون فيها فيما بعد اما نحن والذين
تبعونا فاوصى بان نبقى مطروحين في الطريق بلا مأوى ولا ملجاء لانه لم يكن
يشك في اننا الناس لا نركن للفرار ولا نميل للهرب بل وثق انه متى اراد يسهل
عليه القبض علينا بدون مشقة . ولا اخفي عنك انه عند ما صدر اليّ الامر
بالارتحال الى سيفرد هذه لم اكن اعلم الى اين اسير ولا اعرف شيئاً عن المكان
الذي انفى اليه بل كنت بالكاد اعرف اسمه من قبل ولكني كنت فرحاً جذلا
لعلمي ان هكذا كانت ارادة الله الا انه لما امروني بالانتقال الى مكان اسمه كولوثيوس
تأثرت تأثيراً شهده الحاضرون لانني علمت بان هذا المكان سيكون كسجن لي
لا استطيع فيه ان اتمم العمل المطلوب مني ولذلك تضايقت اولاً لهذا الخبر وثقل سماعه
على اذني مع انني كنت عالماً بهذا الاقليم واكثر خبرة به من غيري ولكن قيل
لي انه خال من الاخوة المسيحيين وليس فيه احد من افاضل الرجال الذين تلتذ النفس
لمعاشرتهم فضلا عن انه عرضة لوقاحة المسافرين ورذائلهم ومكمن للصوص وقطاع
الطرق الا ان بعض الاخوة واسوني اذ اخبروني انه قريب من مدينة الاسكندرية.
ومما يسر القلب ان سيفرد التي نفينا اليها جمعتنا بكثيرين من الاخوة المسيحيين
الذين لم نكن لنراهم لولاها وبواسطة اجتماعنا وارتباطنا تمكنا من نشر كلمة الله
واذاعة خبر الخلاص بطريقة لم نكن لنحصل عليها لولا هذا المنفى . واذ كانت
الاسكندرية قريبة من المكان الذي كنا نقيم فيه تمتعنا كثيراً بمشاهدة الذين نحبهم
ونميل اليهم وقد كانوا يجيئون لزيارتنا دائماً ويمكثون معنا طويلا ولذلك كنا نعقد
جمعية عظيمة كانت تلتئم في اقصى مكان من الاسكندرية ولم تزل هذه الجمعيات
توالي انعقادها لسماع كلمة الله حتى بعد ان تركناها ورجعنا الى مدينتنا »

قال يوسيبوس ان بين القسوس والشمامسة الذين اشار اليهم ديونيشيوس في جوابه المار ذكره قس اسمه فوسطس استشهد في الاضطهاد الذي اوجده ديوكلتيان كما سيجيء وكان قد بلغ من الكبر عتياً . ومن الذين ذكرهم ديونيشيوس في جوابه مكسيموس الذي عين بطريكاً بعده ويوساب الذي سيم فيما بعد اسقفاً للادوكية ومما رواه ديونيشيوس انه بعد ان آب من منفاه الى الاسكندرية لم يجد من شمامسة الكنيسة سوى ثلاثة فقط مع انه ترك عدداً وافراً منهم ظلوا مختبئين في مكانهم وكانوا ينتهزون الفرص ليعظوا الاخوة ويبشروهم ولكنهم ماتوا جميعهم بداء الدفثيريا ولم يبق الا اولئك الثلاثة المذكورين وهم فوسطس ويوساب وكويرمولي

وقد استمر اضطهاد فاليريان للمسيحيين مدة ٤٢ شهراً وانتهى في سنة ٢٦٠ ب . م اذ وقع هذا الامبراطور في ايدي الفرس حياً وظل في اسرهم الى ان مات وكان قد خلفه ابنه غالينوس الذي عقد محالفة مع اوديناثوس ملك تدمر (بالميرا) واتخذه له صديقاً في الشرق الادنى وفوض اليه الدفاع عن حدود المملكة وصد هجمات الفرس عنها . وكان من اعمال غالينوس ايضاً انه ابطل الاضطهاد حتى تسنى للبطريرك دنيشيوس ان ساح في القطر المصري سياحة طويلة افتقد فيها رعيته التي كادت تتفرق ايدي سبا من اهوال الاضطهادات كما انه دشن كنائس ورسم خداماً لها حسبما دعت الحاجة الى ذلك وبذل

جهده في تعزية شعبه ومواساته في مصائبه كما هو الواجب المحتم على كل راع صالح ولما وصل في سياحته الى ابروشيته ارسينو في (الفيوم) وجد فيها شقاقاً ما كاد يبتدىء حتى استفحل أمره وخيف من نتيجته واتماماً للفائدة نأتي على وصف هذا الشقاق واسبابه وكيفية تصرف هذا البطريرك لازالته فنقول

كان في هذه الابروشية قبل ذهاب البطريرك اليها اسقف اسمه نيبوس اشتهر بالعلم والفضل وسمو المدارك حتى ان شعبه كان يثق به ثقة الاعمى بدليله وينقاد اليه انقياد الخراف لراعيها . هذا الاسقف اخذ يعلم رعيته تعليماً جديداً وهو قرب الزمن الذي يملك فيه المسيح الف سنة على الارض كملك ارضي يأتي بنفسه ويتولى الملك بذاته وقد فسر لهم كل ما ورد عن هذ الموضوع في سفر الرؤيا تفسيراً حرفياً والف كتاباً اعترض فيه على الذين يذهبون الى ان ما جاء في هذا السفر هو مجاز محض ثم اجتهد كثيراً في اثناء حياته باقناع شعبه بقبول هذا التعليم فقبلوه على علاته دون فحص اواستقصاء عما يعتقد به باقي اخوتهم المسيحيين في المسكونة . وحدث بعد موته ان اشتدت بينهم المجادلات والمباحثات في هذا الموضوع واخيراً انشق منهم جماعة اتخذت رجلا اسمه كراسيون زعيماً لها . وكان لحسن الحظ ان شعب الابروشية باكمله اتفق على رأي واحد هو استئناف الحكم في هذه المسألة للبطريرك حال وصوله اليهم لاعتقادهم بكفاءته على حل المعضلات وفض المشاكل . فلما جاء

(ديونيشيوس عندهم اجتمع حوله القوم فقابلهم بكل بشاشة وايناس بدون تمييز احدهم عن الآخر ودعا اليه كهنة وشمامسة الابروشية وبعض علماء العلمانيين الذين انتخبهم لهذا الغرض واقترح عليهم البحث والمناقشة في هذا الموضوع ولكن بروح الاخلاص والمحبة وان تقرأ على مسامعهم النبذة التي كتبها نيبوس في هذا الصدد بصوت عال ثم يفحصونها وينقبون فيها الى ان يتوصلوا لرأي سديد يقر قرارهم عليه ويكون القول الفصل في هذا المشكل فينتهي الامر على تمام الصفاء والوئام . فرضي الشعب بهذا الرأي الثاقب وظلوا ثلاثة ايام متوالية يلتئمون من الصباح الى المساء حول البطريرك الذي كان جالساً في وسطهم — كما ترى في ايامنا هذه بعض المشائخ يجلسون في حوش الجامع الازهر وحولهم المجاورون يتكأكأون عليهم كتكأكئهم على ذي جنة يسألونهم ويستفسرون منهم ولكن الفرق بين هؤلاء واولئك ظاهر كالصبح — وكانت نتيجة هذا الاجتماع ما ستقراءه في الرسالة الآتية التي كتبها ديونيشيوس نفسه وهي

« انه ليسرني جداً ان اعلن على رؤوس الاشهاد ما شاهدته في هؤلاء الاخوة من الثبات والاخلاص والمحبة والذكاء عند ما بدأنا بالبحث في هذا المعضل وكيف انهم تبادلوا الاراء وناقشوا في الاسئلة والابحاث بروح الاعتدال والهدو اذ تجنبنا بقدر الامكان الاصرار على صحة الافكار التي تتفق معنا ولو ثبتت صحتها قبل ان نفحصها جيداً ونمتحنها كثيراً كما اننا لم نصرف جهدنا في المعارضات والمباحكات بل سعينا جهد استطاعتنا في ان لا نشذ عن الموضوع الذي نناقش فيه ولا ان نتركه الى غيره قبل ان نبت فيه حكماً نهائياً . ومن احسن ما يقال في

هذا الشأن انه اذا عرض لاحدنا ان يغير فكره في ما يعتقده وشعر بخطائه لا يخجل في اعلان ذلك والعدول عنه الى طريق الصواب بقوة الحجة ومتانة البرهان باخلاص وطهارة قلب ما دامت غايتنا الاقتناع بما ورد في كتاب الله الطاهر والتسليم بتعاليمه المقدسة . وكانت النتيجة ان كوراسيون — مبتدع هذا التعليم وزعيمه — اعترف امام جميع الاخوة جهاراً بخطائه وعقد النية على مسمع منا جميعاً بان لا يعود يتمسك بهذا التعليم ولا يتباحث فيه مع احد ولا يفوه ببنت شفة فيما يتعلق به وذلك بعد ان اقتنع تمام الاقتناع بفساد آرائه وصحة آراء الذين يذهبون غير مذهبه وقد سر جميع الحاضرين لنتيجة هذا المؤتمر الروحي وانثنوا يثنون ويشكرون ما شاهدوه في بعضهم من الميل الى السلام والابتعاد عن كل ما يوجب الشقاق والخصام »

ولم يكتف ديونيشيوس بذلك بل خطر على باله فيما بعد ان يدحض هذه الافكار كتابة فالف فذلكة دعاها « المواعيد الآلهة » نقتطف منها ما يأتي : —

« لقد تمسك البعض بما كتبه نيبوس وجعلوا له اهمية عظمى كأن ذلك الرأي من الحقائق الثابتة التي لا يمكن دحضها حيث اكد لهم ان المسيح سوف يملك ملكاً ارضياً . هذه هي المسألة التي اختلف فيها مع نيبوس وانقضها نقضاً واما في ما عدا ذلك فانني واياه على مبداء واحد كما انني اقول صراحة انني احبه حباً متيناً لا تؤثر فيه المناقشات ولا يزعزعه اختلاف في الرأي ولا انكر انني اقدر هذا الرجل حق قدره لقوة ايمانه وتقواه وتضلعه في الكتاب المقدس ولانه انسان شديد الذكاء حازم الفكر حتى انه وجه التفاته مرة الى تلحين المزامير للترتيل فافاد الكثيرين بهذا العمل الجليل وانار اذهانهم . وما زلت احترم هذا الرجل واجله لانه مات موت الاتقياء الصالحين وفارق هذا الدار الفانية دون ان يرهبه الموت او يخشى ظلمة الرمس والنتيجة انه يجب على كل عاقل ان يحبه ويفضله على كثيرين غيره . اذاً فردي عليه وبحثي فيما كتبه ودحضي لافكاره لا يعتبر عملاً عدائياً له لانه اذا تحتم علينا ان نقبل الحقيقة ولو كانت صادرة من اعدائنا ونجاهر باستحساننا للصدق

ولو كان من اقل الناس واضعفهم كذلك يجب تقويض اركان كل قول لم يبن على اساس متين وتسفيه كل رأي لم يؤسس على المبادىء الصحيحة والتعاليم الحقة ولو صدر هذا القول من اعز الناس لدينا واكبرهم مقاماً عندنا . ولو كان نيبوس حياً لما اقدمت على الرد على افكاره كتابة بل لاكتفيت بالبحث الشفاهي معه حتى افحمه بقوة البرهان واستميله مع انصاره لجانب الحق بواسطة اللسان فقط ولكن حيث ان تعاليمه هذه نشرت مكتوبة ومال الناس لتصديقها والاقتناع بصحتها كما انه من الجهة الاخرى يوجد بعد معلمين يذهبون الى ان الناموس والانبياء لا قيمة لهم ثم تدرجوا بعد ذلك الى نبذ الانجيل والازدراء برسائل الرسل واذاعوا ان تعاليم نيبوس هذه انما هي سر غامض لا يتسنى لاحد حله مع ما فيه من الاهمية وهم يجهلون كل ذلك ولا يفهمون شيئاً عن الحقائق المسيحية ولا يدركون معنى ظهور مخلصنا الثاني ظهوراً آلهياً مجيداً ولا يفهمون كيف اننا نقوم في يوم القيامة اذ نتغير من شكلنا الحاضر ونلبس صورة الله حيث نلتقي معه في السحب عند ظهوره ليدين الاحياء والاموات الامر الذي لا يدركه اولئك المتفلسفين زورا بل هم يعتقدون بملك ارضي زائل لا نتيجة له ولا فائدة منه ولا هو من التعاليم التي تؤمن بها الكنيسة — فلاجل هذه الاسباب جميعها الجأني الضرورة ان اناقش اخينا نيبوس كما لو كان حياً واورد عليه كتابة حتى ازيل ما علق بالاذهان من تعاليم تافهة وخرافات مضلة لا ثمرة منها »

ولم يقتصر البطريرك ديونيسيوس في كتابه السالف ذكره على الرد على نيبوس بل افاض في البحث في سفر الرؤيا بحثاً دقيقاً وأبان الخطاء الكبير في فهم هذا السفر بمعناه الحرفي وقال انه عبارة عن رموز ونبوات تم بعضها وسوف يتم البعض الآخر ثم أورد البراهين والادلة على ان كاتب هذا السفر ليس يوحنا الرسول ولكنه قال صريحاً ان الذي كتبه هو شخص اسمه يوحنا ولا ينكر انه سفر موحي به من الله وان الذي

سطره هو رجل أوحي اليه من الروح القدس . ثم قال نه يبعد ان يكون كاتب انجيل يوحنا هو ذاته الذي كتب سفر الرؤيا الا انه استدرك وقال « اما انا فلا يمكني ان ابدي رأياً خصوصياً عن هذا السفر كأن يكون منع قرائته والتحريض على عدم البحث فيه ما دام اكثر الاخوة المسيحيين يجلونه كثيراً ويميلون لمطالعته وفهم رموزه ميلا ظاهراً »

فما تقدم يتضح للقاريء الخطة التي سار عليها البطريرك ديونيسيوس في الانتقاد والروح الذي استعمله في تفنيد الاراء المغايرة للتعاليم المسيحية وذلك انه كان يدعم كلامه بالحجة والبرهان شأن الباحث المدقق والمصلح الحقيقي لا بالمهاترة والبهتان وهو دأب قليل البضاعة ضعيف القوى العقلية الذي يفاخر ويهاتر بكلام مبرقش لا فائدة منه لمن يريد الفائدة ولا حجة فيه لمن يهمه البرهان . الا ان ديونيسيوس لم يكن لديه من مشاغل وظيفته وقت يساعده على الاينال في هذه المؤلفات والردود بل ان رسائله الرعوية التي كان يبعث بها للاساقفة والكهنة والشمامسة واعظاً وحاثاً على العمل في كرم الرب لم تدع له فرصة للاشتغال بغيرها بل كان بالكاد يكتبها ويرسلها اذا ساعدته الظروف على ارسالها في هاتيك الايام الصعبة التي كانت اذا خمدت نار الاضطهاد قليلا التهبت نار الحروب الاهلية طويلاً بين اولئك الامبراطرة الذين كانوا يتخاصمون ويتخانقون على العرش الروماني حتى ان الامن والسلم لم يكن لهما سبيلا في هذه البلاد في هذا الحين وضع مكريانيوس المصري الوثني التاج الملوكي على رأسه

وسعى ليضع كل المملكة تحت سلطته ويضمها تحت لوائه . الا انه كان من الصعب على مصر التي اصبحت الآن مسيحية ان تقبل هذا الرجل حاكماً عليها ولو انه من لحمها ودمها ولكنه اظهر عداوة مرة لابنائها المسيحيين وناصبهم الشر والعدوان من قبل الآن . وقد شعر بذلك اميليانوس الوالي فقام في وجه مكريانوس هذا وفي وجه غالينوس الذي كان يعيش في رومية عيشة مصرف خامل فانتحل اميليانوس لنفسه اسم « اسكندر » وحكم مصر مدة قصيرة اظهر فيها كل انواع الشدة والعنف ولكنه جال يتفقد احوال البلاد وطرد منها البرابرة الذين جاؤها من الجنوب وارجعهم القهقرى الى السودان بشجاعة وسرعة لم يحلموا بهما من قبل . ثم انه ابطل الجزية التي كانت ترسل الى رومية فتفاءلت مصر خيراً باعادة استقلالها الذي فقدته من قديم . ولم يزهر غرس اميليانوس حتى جاءه ثيودوتس قائد جيوش غالينوس وشن عليه الغارة في الاسكندريه قاصداً بذلك استخلاص المملكة الرومانية في يده فاسرع اميليانوس وتحصن في حي بروخيوم حيث القصر الامبراطوري وحاصره ثيودوتس حصاراً شديداً بعد ان استحوذ على ما بقي من المدينه . وفي ذلك الوقت كتب البطريرك ديونيشيوس كتاباً الى هيراكس أحد اساقفة مصر يصف فيه الحالة وصفاً دقيقاً حيث قال :ـ

« من الامور التي توجب العجب والاندهاش انه كثيراً ما قامت في وجهي صعوبات جمة فيما يختص بارسال رسائلي الى الانحاء النائية

بينما قد اصبحت الآن في مركز يحتم علي ان احتاط لنفسي من الغوائل واتدبر في امر به امنع الشر الذي يحدق بي في هذه الايام السوداء كما انني اشعر بضرورة قصوى في ان ارسل مكاتيب دينية ومواعظ وجوابات ودية الى اخوتي في الرب الذين احبهم كنفسي واعزهم كحدقة عيني الذين هم اعضاء الكنيسة واركانها ولكنني احترت في كيف ابث بهذه الرسائل اليهم اذ انه يسهل على المرء ان يجوب البلاد من مشرقها الى مغربها ويطوف سهولها وفيافيها ولكن يشق عليه جداً ان يسير في احد شوارع الاسكندرية او ان يخطو خطوة فيها في هذه الايام التي اشتد فيها الحصار حتى اصبحت المدينة خربة وصار يعسر المرور فيها اكثر من خراب تلك الصحراء المقفرة التي سار فيها بنو اسرائيل وعبروها في مدة اربعين سنة بسهولة لا نشعر بها نحن الآن في الاسكندريه ومن الغريب ان البحر قام للاشتراك في هذه المصائب فانك ترى ميناء الاسكندريه التي كانت صقيلة كالمرآة والبحر ساكن هادىء واذا به الآن يهيج ويهدر ويعلو وينخفض فاشبه بذلك البحر الاحمر الذي انقسم الى شطرين وقامت مياهه كالاسوار المنيعة على الجانبين الى ان عبر فيه شعب الله وتبعهم المصريون فاطبق عليهم وغرقوا في لججه وراحوا في غمراته . ولم يكن وجه الشبه بين بحرنا والبحر الاحمر انقسامهما وهديرهما فقط بل ان بحرنا اشبه هذا في اللون ايضاً وامست مياهه حمراء كالبقم لكثرة ما سال فيها من دماء المذبوحين الذين فارقوا حياتهم بالقرب منه حتى

ان النهر (١) الذي كانت امواجه تفيض وتكاد تغمر المدينة اصبح الآن وهو انشف من صحراء محرقة واقفر من القفر الذي عاش فيه بنو اسرائيل حتى اوشك ان يقتلهم الظماء عندما تذمروا على موسى فقام وضرب لهم الصخرة ففاضت منها المياه زلالا بقوة الله القوي الذي صنع العجائب والمعجزات في كل دور وجيل . فهذا النهر الناشف المقفر قد يفيض احياناً ويطفو على البلاد المجاورة له حتى يخال الناظر ان طوفان نوح الذي غمر العالم قديماً ووعد الله بعدم اتيانه ثانية قد عاد الآن وملأ الشوارع والحقول ولكن نهرنا هذا يفيض وقد اختلط ماؤه بدماء القتلى واشلاء الغرقى وجثثهم كما حدث قديماً في ايام فرعون عندما ضرب الله المصريين على يد موسى فحول نهرهم دماً احمر وانتن النهر وماتت كل ما فيه من السمك . واذا كانت الماء قد صارت كما وصفت لك من الفساد والقذارة فمن يطهرها وينظفها وهى واسطة التطهير والتنظيف وهل يستطيع هذا البحر المحيط العجاج ان يجرف في سبيله كل قذر اعترى هذا النهر الرائق الصافي الذي اصبح الآن من المزاق؟ وهل ينتظر ان ذلك النهر العظيم الذي كان ينبع من جنة عدن وينقسم الى اربع رؤوس منها نهر جيحون يزيل هذا الماء الملوث الذي تعافه النفس؟ ثم انى يصبح هذا الهواء نقياً وذلك النسيم العليل بليلا وقد فسد وصار يخنق الناس ويضيق الانفاس لكثرة ما امتزج به من البخار الممتلىء بالغازات السامة المميتة؟ فلقد

(١) ان المقصود بالنهر هو ترعة كانت متصلة بالاسكندرية اما نهر النيل نفسه فلم يكن يصب عندها في ذلك العهد

كثرت الروائح الفاسدة التي يستنشقها الانسان وثار الغبار الذي يعمي ويصم بواسطة الارياح والزوابع التي تهب من ناحية البحر وخيم الضباب فوق الماء واليابسة فحول نور النهار ظلاماً دامساً فصار يظن المرء ان جثث الموتى تتحرك سائرة معنا وانها تحللت الى ذرات دقيقة وامتزجت بكل شيء حولنا وان دماءهم تبخرت وامتزجت بالهواء ثم تكاثفت وسقطت علينا كالطل والنداء وعليه فلم يمض زمن حتى فني كثيرون من سكان هذه المدينة العظيمة (اي الاسكندرية) وصار الفناء يتدرج من الاطفال الرضع الى الشيوخ الذين وقفوا على حافة الابدية قبل الآن وعم القوي والضعيف فلم يبق ولم يذر . وقد ترى هؤلاء القساة العتاة يشاهدون الجنس الادمي يفنى ويضمحل وينظرون اخوانهم في الانسانية يمشي فيهم الهلاك تمشي النار في الهشيم لكثرة عوامل التدمير والخراب التي شيدتها ايديهم ولكن عواطفهم لا تحس ولا تشعر كأن قلوبهم قدت من صخر صلد »

وقد ورد ذكر هذا الحصار والدمار في الرسالة (١) التي كان يكتبها ديونيسيوس لتتلى في عيد الفصح كما كانت العادة في تلك الايام .

(١) ان رسالة عيد الفصح هذه كانت عبارة عن نبذة عمومية يصدرها بابا الاسكندرية قبل العيد بقليل وترسل لجميع الكنائس المسيحية عموماً والمصرية خصوصاً في اليوم الذي يقع فيه عيد القيامة من كل سنة . وكان لهذه الرسائل اهمية عظمى حتى عند غير المسيحيين لما تضمنته من الحساب الفلكي الدقيق الذي جرى عليه المصريون القدماء بالضبط ولذلك عهد بكتابتها الى بطريرك الكنيسة القبطية المصرية وحده لعلمه بهذا الحساب التاريخي علماً تاماً . وكانت فاتحة هذه الرسائل موعظة بليغة تقرأ في الكنيسة جهاراً

اما تاريخ هذه الرسالة التي نحن بصددها فكان سنة ٢٦٤ ب.م وهاك مغزاها :—

ان الوقت الحاضر اصبح كغيره في الاوقات الغابرة اذ يعسر فيه على الكثيرين من المسيحيين ان يؤدوا فريضة عيد الفصح وسيان عندنا اوقات الحزن والغم وايام الفرح والسرور التي لا يكاد يراها احد ولو في المنام لكثرة توالي المصائب وتتابع النكبات حتى اصبح الانسان لا يقع نظره الا على عيون تدمع وقلوب تتفجع ومآق تسيل على الخدود بدل الدمع السخين الذي تنشق له الاعين حزناً على اناس اتقياء كثيرين ماتوا ودرجوا الى العالم الباقي . واذا مررت الآن في المدينة لسمعت التنهدات والزفرات يكاد القلب يتفطر معها اسفاً على اقوام مشرفين على الهلاك ينظرون ابواب القبور مفتوحة امامهم تكاد تبتلعهم قبلما تفارق ارواحهم الاجساد حتى اصبحنا في زمن اشبه بالزمن الذي مات فيه كل بكر في ارض مصر على يد موسى فلم يخل بيت من البكاء والعويل لانه يوجد ميت على الاقل في كل منزل . وكنت اتمنى لو ان يكون هذا كل البلاء ويقف المصاب عند هذا الحد مع ما يسبقه من اهوال تشيب لها النواصي وتصطك منها الركب بل زادوا في انهم طردونا طرداً واقصونا الى اماكن بعيدة ثم اخذوا يضطهدوننا حتى اماتوا الكثيرين ومع ذلك فلا نزال نعيد العيد بكل احتفاء واحتفال . وكلما كان اضطهادنا شديداً كلما كان عيدنا بهياً بهيجاً . وكان المكان الذي نذوق فيه اشد العذابات لابد

وان تقيم فيه اهم الحفلات الدينية ولم تترك حقلا ولا مفازة ولا سفينة ولا خاناً ولا سجناً الا وعملنا فيه جمعية يذكر فيها اسم الرب وينادي بكلمته جهاراً . اما اهم الاعياد واكثرها مجلبة للفرح والسرور فهو العيد الذي يحتفل به جماعة الشهداء الابرار الآن في السماء حيث يرأس حفلتهم الرب يسوع نفسه حيث لا الم ولا تعب ولا جوع ولا شيء من مصائب هذه الحياة وبلاياها

وقد اعقب هذه النكبات حرب تلاها جوع وشغب اصابنا نحن والوثنيين على السواء. ولكن الضرر الاكثر لحق بالفقراء المساكين الذين اثر فينا حالهم تأثيراً شديداً فكنا نواسيهم ونشاطر كل من انتابته مصيبة في بلاياه ونرثي لامرهم ونعطف عليهم عطفاً ينتج من قلوب رقيقة واحساسات مسيحية شريفة تتأثر لمصاب بني البشر الذين هم اخوتنا في الانسانية . ثم جاءت بعد كل هذه هدنة قصيرة منحها لنا الرب يسوع المسيح تمتعنا فيها بشيء من الراحة والفرح ولم نلبث طويلا على هذه الحالة حتى دهمنا وباء فتاك مسنا مساً ولكنه فتك بالوثنيين فتكا ذريعاً

فلما قدم هذا الداء الوبيل بخيله ورجله ظهرت احساسات الاخوة المسيحيين نحو القوم المصابين وبانت نواياهم الحسنة وعواطفهم الحية مع كل مريض مدنف حتى انهم لم يخشوا شر الداء ولم يخافوا على انفسهم من الهلاك بل عمدوا الى تمريض الضعفاء وسد حاجات المعوزين بهمة شماء ومروءة علياء وهي اعمال كانت تضيء في هذه الايام السوداء كما

يضيء مصباح لامع في حالك الظلام وديجوره فكانوا يداوون المرضى بالادوية الروحية اولا حتى اذا فارقوا هذه الحياة الدنيا انطلقوا الى الابدية وفي قلوبهم رجاء لا يفنى بالحياة الآتية . وكان كثيرون من هؤلاء الاخوة الذين يخدمون المرضى يموتون معهم بعد ان يصابوا بعدوى امراضهم . ثم كانوا يموتون فرحين مسرورين لموت هو رقاد موقت تعقبه حياة ابدية سعيدة . وكانت العدوى تنتقل من المصاب الى الصحيح لان هذا كان يستخرج مصل الداء من ذلك بواسطة مصه (١) فكأنهم كانوا يحملون اعباء الامراض من على اعناق الاخرين ولذلك مات الكثير من المسيحيين فداء لاخوانهم المرضى وهو عمل يظهر منه الفرق الكبير بين المسيحي الحقيقي الذي يضع نفسه عن الاخرين كما فعل سيده قبله وبين اولئك الذين يظهرون انفسهم في مظهر المحبين المخلصين بواسطة احساس غير حساس يبدونه في آداب باطلة وتحيات فارغة ومودة عقيمة ولكن اذا جاء وقت الشدة فزعوا من اصدقائهم وابتعدوا عنهم او قدموهم قربانا لاغراضهم اذا كان في تقدمتهم ما يجلب بعض النفع او يزيل شيئاً من الضرر . في زمن هذا الوباء انتقل الكثيرون من خيرة الاخوة

(١) هذا يدل على ان عملية ايصال الهواء الى الرئتين في حالة مرض الدفتيريا كانت معروفة عند المصريين في ذاك الوقت . اما غرضهم من مص المصل فهو تطهير قناة الهواء (او قصبة الرئة) حتى يسهل مرور الهواء فيها فلا يختنق المصاب وهي ذات الطريقة المستعملة في ايامنا الحاضرة . ولا ريب في انها عملية خطرة مات فيها كثير من الاطباء الانكليز

وافاضل الامة وذهبوا الى الدار الباقية شهداء الخدمة المسيحية وكان فيهم القسوس ومشائخ الكنيسة وشمامستها وغيرهم من الشعب الذين اشتهروا بحسن السيرة وطيب السمعة فالموت بهذه الكيفية وما اقترن به من شفقة عميقة وايمان حار وغيرة تقوية ومحبة مخلصة لا يقل في الاهمية عن الاستشهاد الذي يحدث في زمن الاضطهادات . والذين يموتون بالطريقة المار ذكرها كانوا يكرمون ويحتفل بموتهم احتفالا باهراً اذ كانوا يحملون على الاكف ويوضعون فوق الرؤوس بعد ان تنظف عيونهم وتكفكف كل دمعة ذرفت منها ساعة الحشرجة وتقفل افواههم ويكفنونهم باحسن الاكفان واثمنها ومن ثم يدفنونهم باجلال واكرام وهكذا يودع الواحد منهم اخاه ويعود فلا يلبث طويلا حتى يودعه غيره على الطريقة التي اتبعها هو مع سابقه . اما الوثنيون فكانوا على الضد من ذلك ولا عجب في هذا ولا غرابة ما دامت الاحساسات المسيحيه والعواطف التقوية لم تجد لها طريقاً للقلب ولم تعمل فيه عملها المعروف فكان اولئك الوثنيون عند ما يشعرون بان احدهم مريض يبتعدون عنه ويتنحون حتى عن اعز اصدقائهم ومحبيهم وقد بلغت بهم القساوة مبلغاً عظيما حتى كانوا يطرحون مرضاهم في الازقة والشوارع وهم بين حي وميت فاذا فارق المريض هذه الدار رموا به في عرض الفلاء دون ان يواروه التراب ومن غير ان تظهر على سماتهم ادنى المظاهر التي تدل على التأثير والاحساس ولو احتاطت بهم كل العوامل المؤثرة الفعالة »

وقد تلطفت مصائب هذا الحصار كثيراً وخف بعض الشيء من
بلاياه المريعة وذلك بواسطة سلوك الكهنة المسيحيين سلوكا يحمد ويمدح
نخص منهم بالذكر يوساب واناطوليس اللذان تعاقبا بعد ذلك على اسقفية
لاودكية . وقد قال يوسيفوس المؤرخ في عرض كلامه عن اناطوليس
ما نصه :—

«وقد اسند الكثيرون اكثر الاعمال الخطيرة التي تمت اثناء حصار
بروخيوم (جزء من الاسكندرية) الى اناطوليس وذلك لان جميع
الموظفين على اختلاف درجاتهم كانوا يجلونه ويحترمونه احتراما زائداً وهو
قول لا يحتمل الشك او الريب واليك مثال على صحة ذلك . لما نفذ الزاد
في ايام الحصار وندر وجود الخبز في المدينة لدرجة رضي فيها الناس ان
يسلموا انفسهم لاعدائهم الادميين من ان يسقطوا بين براثن عدو قاس
هو الجوع خطر على بال اناطوليس فكر جيد رأى الخير كله في انفاذه
وتفصيل ذلك ان نصف المدينة الثاني كان على وداد تام مع الرومان
ولذلك لم يقم عليه حصار ولم ينصب نحوه متراس فلذلك ارسل اناطوليس
الى يوساب الذي كان مقيما في الجزء الغير المحاصر (وكان يوساب حينئذ
موجوداً في الاسكندريه قبل ان يذهب الى سوريا ويسام اسقفاً في
لاودكية ذائع الصيت نافذ الكلمة حتى عند قائد الجيوش الرومانية)
واخبره انهم اوشكوا على التلف من جرى الجوع والسغب . فلما سمع
يوساب هذا الخبر التمس من القائد الروماني ان يمنح الامان لجميع الذين

يفرون من وجه العدو ويلجأون اليه وعد هذه المنحة اعظم جميل واكبر
معروف يعمله معه . فلما اجاب القائد طلبه هذا ارسل يعلم اناطوليس
به في الحال وعليه جمع هذا مجلس الشيوخ الاسكندري وعرض عليه
الامر القاضي بان كل الناس سواء كانوا رجالا او نساء خالين من خدمة
الجيش عليهم المبادرة بالخروج من المدينة ما دام لا يوجد أمل لهم بالنجاة
من عوامل الهلاك لو هم ظلوا قاعدين في مكانهم خصوصاً وان الجوع
يتهددهم بالفناء اذا انتظروا استتباب الاحوال وحسن المآل . فصادق
المجلس على هذا الرأي الصائب واتفق مع يوساب على ان الذين يهربون
اولا هم اعضاء الكنيسة المسيحية ثم الشيوخ الضعفاء الذين لا نصير
لهم ولا مجير

ولم يقتصر الامر على هؤلاء فقط بل ان كثيرين من رجال
المدينة تزيوا بزي النساء وخرجوا منها بهذه الحيلة تحت جنح الظلام
ومروا على معسكر الرومانيين فلم يميزهم احد ثم جاؤا الى يوساب مع
من جاء فاقتبل الجميع بكل ترحاب وتلطف واخذ يؤاسي الحزين منهم
كأنه اب شفوق ويضمد جراح كل جريح منهم كطبيب ماهر
وبالاجمال فقد رفع عن الكثيرين اعباء مصائب واهوال شديدة
تجرعوا غصصها اثناء هذا الحصار »

وقد ألقت الحرب اوزارها في مصر عند ما ألقي القائد الروماني
القبض على اميليانوس وقتله فاستراحت هذه البلاد الامينة من هول

الطعن والضرب ولكنها لم تسترح من بلايا الطاعون الذي كان
لا يزال يفتك في اهليها فتكاً شديداً . اما البطريرك فكان لم يزل
مشتغلاً حينئذ بالمباحثات والتآليف

وقد أتهم البطريرك ديونشيوس بما أتهم به غيره من الميل الى
الهرطقة والجنوح الى البدع وهي تهمة اصابت اكثر أعاظم رجال
الكنيسة المسيحية واقيالها سواء في حياتهم او بعد موتهم وسواء
بحق او بغير حق . وكان من حسن حظ ديونيشيوس ان التهمة
وجهت اليه وهو بعد على قيد الحياة ولذلك قدر على دحضها وتبرئة
نفسه بطريقة دلت على مقدرته في استخراج الحجج القوية واتضاعه
في المناقشة والجدال مما زاد في شرفه ورفع مكانته كثيراً حتى دعي
رئيس البطاركة وكبير البابوات في العالم كله . وقد استاء بعض من
شعبه منه لعبارات قاسية وردت له في جواب أرسله الى أساقفة مقاطعة
بنتابوليس قصد منه التوفيق بينهم في مسائل اختلفوا عليها وايقاف سير
بدعة جديدة كانت على وشك الظهور . اما اهل هذه المقاطعة فأتوا
امراً مغايراً للأصول بالمرة اذ عوضاً عن ان يردوا على بطريركهم
ويجادلوه بالتي هي أحسن اغراهم بعض الدخلاء من الرومانيين وحرضوهم
على الشر والشقاق فكتبوا الى ديونيشيوس أسقف رومية كتاباً فيه
يرمون بطريركهم بالهرطقة والبدعة وكان هذا الاسقف سادس أسقف
جلس على الكرسي الروماني اثناء جلوس البطريرك ديونيشيوس على

الاريكة القبطية ولذلك كان صاحبنا الروماني شابا في مقتبل عمره
قليل الخبرة ضيق المعرفة بالنسبة الى البطريرك المصري الذي كان
لا يساويه أحد في العلم والاختبار الكثير . فسار ديونيشيوس الروماني
سير الاعتساف وارتكب متن الشطط في انه شكل مجمعاً وقتياً وحكم فيه
بالحرمان على ديونيشيوس الاسكندري وكتب اليه يعلمه بنتيجة هذا
الحكم ويسأله عما اذا كان لديه شيء يقوله دفاعاً عن نفسه مما عده بابا
الاسكندرية هذا اهانة وافتراء الا ان تقواه وتمسكه بعرى الديانة
المسيحية منعاه عن مقابلة الشر بالشر وعوضاً عن ان يقابل شعب تلك
الابرشية المتمرد بما يستحقه من اللوم والسخط وبدلا من ان يحتقر
ما كتبه له زميله الروماني ويضرب به عرض الحائط لما فيه من القحة
والبذاءة . عمد الى قلمه وكتب رداً طويلاً كان آية في البلاغة وحسن
البيان شرح فيه كيف ان اعداءه أبدلوا كلماته وحولوها عن معناها
الاصلي بقلب مبناها لغاية في النفس حتى صارت تؤول تأويلاً يغاير
الحقيقة ثم قال انه تجنب البحث في مسألة « الاستحالة » ولم يذكر
شيئاً عنها لانه لم يقف لها على اصل في الكتاب المقدس وان الذي
يراجع كلامه الاصلي يقتنع بصحة ما كتبه لانه يجده غير محرّف او
مبدل وانه يأسف لعدم امكانه ارسال نسخة منه الى ديونيشيوس الروماني

فبواسطة حكمة ديونيشيوس الاسكندري ورصانته خمدت ثورة
شقاق كان يمكن ان يستفحل امره فيضر بالكنيسة ضرراً بليغاً كما ان

هذا الاعتدال زاد اعتبار هذا البطريرك الحكيم في أعين الناس عن
ذي قبل وأوجد له مهابة كبرى في النفوس

وحدث انه في آخر سني حياة ديونيشيوس هذا دعاه مجمع انطاكية
لحضور احدى جلساته حيث حكم بحرمان بولس من ساموساتا (ولا
حاجة بنا لشرح حكايته هنا لعدم اهميتها) ولكن ديونيشيوس لم يحضر
هذا المجمع معتذراً بضعفه وكبر سنه فكتب لهم رأيه في هذا الشأن
وارسله اليهم . وقبل ان يبث المجمع المذكور حكماً في قضية بولس هذا
نام ذلك البطريرك العظيم في الرب واستراح من اتعاب جمة ودخل
الى فرح سيده لانه كان اميناً في القليل فاقامه على الكثير فطوبى له

الفصل العاشر

مار آمون ومار انطونيوس . سنة ٢٦٨ ب . م

في سنة ٢٦٨ ب . م ورد غالينوس الامبراطور حتفه في ميلان
(بايطاليا) في حرب عوان مع خصم آخر كان يطالب بسرير الملك . وبعد
موته حدث الالتباس المعتاد حدوثه عمن يخلفه فنشأ عن ذلك اضطراب
جديد جرّ شراً على مصر الشقية وانتهى الامر أخيراً بان رقي كلوديوس
العرش الامبراطوري في أوروبا وأصبح اسمه يسبك على النقود لمدة
ثلاث سنين ولكنه لم يحكم مصر الا بالاسم فقط لان المصريين اعتادوا عدم
الخضوع لاي سلطة أجنبية بطيب خاطر الا ان يكون لليونان وعليه
يحتمل انهم يكونون قد التجأوا الى زينب (أوزنوبيا) ملكة تدمر وأرملة

أودينانوس وهي الملكة التي جمالها الفتان وشهرتها الواسعة ابقيا ذكراً
للمملكة تدمر (التي يسميها الافرنج بالميرا أو مملكة النخل) وطلبوا انها
تستولى على مصر وتضمها تحت لوائها . وكانت هذه الملكة تزعم انها
سليلة كليوبترا الشهيرة ولذلك رأت ان لها حقاً لان تملك مملكة آبائها

ومما اشتهرت به هذه الملكة ان مجلسها كان يضم كثيرين من العلماء
وفطاحل الرجال الذين رضعوا أفاويق العلوم في مدارس الاسكندرية
المعروفة وكان أعظم هؤلاء الافاضل شهرة العلامة لونجينوس . أما كون
زينب من سلالة كليوبترا المصرية فغير صحيح بل يغلب على الظن انها
رومانية الاصل اذ لا يوجد دليل على وجود صلة رحم بينها وبين كليوبترا
كما كانت تزعم الا ان يكون تشابه الاثنتين في الجمال الباهر والشجاعة
الفائقة وفي آخرتهما السوداء . ولما جاءت زينب لاخذ مصر امتلك
جيشها الاسكندرية أولاً ثم سار جنوباً في وادي النيل تخيم فوقه أعلام
النصر ويرافقه الظفر في كل غزواته وهو تحت قيادة مصري باسل اسمه
تياجينس الذي سار في طليعة المحاربين . وبعد ان افتتح هذا الجيش
البلاد المصرية عاد راجعاً فالتقى في طريقه بقائد روماني يقود جيشاً
يقصد به مقاتلة ذلك الجيش الا ان خبرة تياجينس باحوال البلاد
ومسالكها ساعدته في قهر عدوه وجعله يعود ناكصاً على أعقابه راضٍ
من الغنيمة بالاياب

ولم يدم حكم التدمريين طويلاً في مصر لان أوريليانوس الروماني

حارب زينب وأخذها أسيرة ودمر مدينة تدمر بعد حصار طويل . ولكن
المصريين لم يخضعوا لحكم الرومان ولم يرضخوا لسلطتهم بدون جهاد
وقتال اذ يؤخذ من بعض المصادر ان ملكين كانا يتنازعان السلطة في
مصر عند ملك أوريليانيوس لها وقد قاوماه كثيراً وكانت النتيجة ان
مصر عادت تخضعت للسيطرة الرومانية وسلمت زمامها لاوريليانوس الذي
لم يمكث فيها طويلا بل قفل راجعاً الى رومية بعد ان عهد بادارة أمور
مصر الى وال قادر اسمه بروبوس

أما عن المسيحيين في مدة حكم زينب لمصر فقد عاشوا في صفاء
ورفاء وأعطيت لهم الحرية الدينية التامة ولكنهم شاطروا باقي مواطنيهم
في قلاقل الحروب الاهلية ومتاعبها . وقد جلس على الكرسي البطريركي
بعد ديونيشيوس البطريرك مكسيموس الذي لا يعرف عنه شيء سوى
انه اشترك في الحكم الصادر على بولس الساموساتي الذي مر ذكره بك
كما انه بدأ في مدته اثنان من مشاهير المصريين بان عاشا أولا عيشة الزهد
والتنسك ثم أفرطا فيها كثيراً الى ان تخطياها الى التبتل وانكار الذات
أما هذان الراهبان فكانا مارانطونيوس ومار آمون الذي لم يشتهر
أمره كثيراً ولكنه كان محبوباً أكثر من غيره عند عارفيه وهو المؤسس
لدير النطرون (بالبحيرة) ولو ان القديس زوثونيوس كان قد اتخذ
هذا المكان دار اقامة له قبل هذا العهد بنحو جيل

أما انطونيوس فولد في بلدة تسمى « الكوم » في الصعيد من والدين

مسيحيين مثريين ولم يخلق فيه ميل للعلم . ومع انه لم يكن أمياً تماماً كما
يظن بعض المؤرخين الا انه لم يتعلم من اللغات الاجنبية شيئاً ولم يكن
يعرف سوى لغته (القبطي الصعيدي) التي لم تكن دارجة بين الطبقات العليا
في مصر . وقد مات والداه وهو في الثامنة من عمره فاصبح تحت
رعاية أخته وعنايتها . والذي يبحث في اخلاقه وطباعه يجده شبيهاً
باوريجانوس من وجه الغيرة الدينية والميل الى انكار الذات الا ان ظروفه
لم تكن كظروف أوريجانوس فان أصحابه هنا الكثيرين ومعارفه الواسعة
وعلمه الصحيح كل هذه صدته عن عيشة الوحدة والانفراد والبقاء في
عالم الاحياء لاستعمال مواهبه في ماهو نافع ومفيد فكراً وعملاً . أما
انطونيوس فمع انه في نشأته لم يكن ميالا كثيراً أو مفكراً في الزهد
والرهبنة الا انه بعد موت والديه بنحو ستة شهور (في سنة ٢٦٨ ب . م)
كان قد ذهب الى كنيسة ما لسماع الوعظ وكان الموضوع يومئذ قول المسيح
للشاب الغني « ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط
الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني » (مت ١٩ : ٢١) فلما
سمع صاحبنا انطونيوس هذا لم يمض حزيناً كما مضى ذلك الشاب الغني
بل صمم على اتمام هذا الامر حرفياً فذهب وباع كل أملاكه ولم يبق منها
سوى جزء قليل خصه باخته . وحدث في غد ذلك اليوم انه ذهب
الى الكنيسة كعادته فسمع قول المخلص « لا تهتموا للغد » فنخسه ضميره
وظن ان هذه الآية توبيخ له على ما أبقاه لاخته من العقار فباع هذا

الجزء الصغير فوراً وترك أخته في عهدة امرأة مسيحية في بلدته ووزع كل ما يمتلكه من حطام الدنيا على الفقراء والمعوزين وهام على وجهه وهو حافي الاقدام لا أنيس له ولا رفيق وعزم أن يعيش عيشة جهاد مع نفسه وأن يحارب جسده ويقمعه وينزع عنه كل خلة أو سجية تغيظ الله وتخالف أوامره وهذا عمل أتاه أناس كثيرون في كل الاعصر ظناً منهم أنه يقربهم الى الله جلّ وعلا. وبعد أن انتقل انطونيوس من مكان لاخر أوجد نفسه في صرح متهدم واقع على شاطىء النيل وامتنع عن النظر في وجه آدمي أياً كان الا انه كان يعظ من وراء الحجاب ويخطب في جماعة رعاة القطعان الذين كانوا يحترمونه احتراماً ناتجاً عن اعتقادات خرافية من نحوه وكانوا يتوافدون لسماع العبارات الحماسية التي كان يتفوه بها هذا الزاهد المختفي ولكنهم قلما كانوا يفهمونها. ولطالما جاؤوا اليه بخبز من بلادهم كثير وبشيء وافر من الكعك المسطح (قرص) فكان يبقيها عنده أشهراً طويلة حتى تستحجر ولا تلين الا بعد ان توضع وقتاً غير قصير في الماء. ومن ثم يسهل مضغها وازدرادها كما يفعل الفلاح المصري اليوم في هذه الايام. ولأنه عاش على هذه الصورة فقد عزيت اليه أمور واشاعات تجسمت فيما بعد وتكبرت حتى صارت خرافات لا يقبلها العقل وأصبح يتناقلها الآن كثيرون من ذوي العقول الضيقة. ففي هذا المكان قضى انطونيوس عشرين عاما بعيداً عن أعين الناس ولكن صيته وشهرته ملأتا الآفاق

أما مار آمون فلا يعرف مسقط رأسه تماماً ولكنه لا يبعد كثيراً عن مدينة الاسكندرية. وهو كزميله انطونيوس ولد من أبوين موسرين وتيتم منهما وهو بعد يافع. ويؤخذ من اسمه انه مصري قح ومع ان كثيرين من المصريين الاصليين اطلقت عليهم اسماء اليونانية وقت عمادهم الا انه لم يكن يسمح ليوناني مسيحي أو لدخيل أن يسمي ابنه باسم اله مصري كآمون أو غيره. ولما دخل آمون دور الشبوبية (غالباً بين سني ٢٦٥ — ٢٧٠ ب.م) رغب في عيشة الزهد ومال الى الرهبنة الا ان عمه وولي أمره رفضا طلبه هذا وأغرياه بضرورة عقد خطوبته على آنسة يمر فانها ذات متاع وعقار قد يمكن أن يوسع ثروته بها. ويظهر من قرائن الاحوال ان آمون كان لا يزال الى هذا الحين تحت رعاية عمه ولا يسعه الخروج من طاعته ولذلك شرع حينئذ في مخاطبة هذه الفتاة كما أمره عمه وكانت النتيجة انه أوجد فيها الميل الذي عنده وزرع في فكرها الرغبة في عيشة الزهد وتكريس النفس ومن ثم اتفق الشاب والشابة على ما ظناه خيراً لهما وابقى. فتزوجا بعضهما على شرط اتفقا عليه سراً هو ان يعيشا معاً كأخ واخت لا كزوج وزوجة وقد ظلا على هذه الحالة عدة سنين وهما يحافظان على شروطهما بعفة وامانة. وقد اختلف المؤرخون فيما اذا كان الاثنان قد عكفا على الزهد وذهبا الى الجبل حالا بعد زواجهما أم لا ولكن الذي يقرب من الحقيقة على كلتا الحالتين انهما كانا ينفقان على انفسهما من مالهما الخصوصي وعاشا بسعة من ايراد

املا كبيرا . وبعد ردحة من الزمن ظن آمون انه ليس في غبطة تامة او انه
لم يعد يستطيع العزوبية التي فرضها على نفسه وبجانبه واحدة من بنات
حواء فاستأذن امرأته هذه وانصرف الى وادي النطرون حيث اقتفى
اثره جم غفير من ارباب الغيرة واصحاب الميل الى هذا الانفراد.
ومعهم مكاريوس الشهير الذي نال الشهرة التي كانت لآمون رئيسه ولم
تمض على هذا الحال ثمانون حولاً حتى أصبح وادي النطرون يحتوي
على نحو خمسين ديراً او تزيد كما ذكر ذلك روفينوس في تاريخه
المعروف . ولم يكن كل سكان وادي النطرون في ذلك العهد من الرهبان
والنساك بل ان كثيرين من عامة الشعب سكنوا قبلهم ذلك لان السهول
القريبة منه لم تكن جدباء بالمرة بل ان بحيرات الملح كانت تحيط به كما
في وقتنا الحاضر وحولها شيء من الخضرة النضرة كما ان الماء لم
يكن شحيحاً هنالك بل ان الذي يحفر آباراً يسهل عليه استخراج ماء
زلال يشرب منها ويروي بها ارضاً تخرج نباتاً طيباً . اما آمون فقد
استماله ما شاهده من رسوب النطرون هنالك وفكر في ايجاد طريقة
ينتفع بها في تشغيل الرجال الذين تبعوه في استخراجه . ولم يك طويلاً
حتى احتشد كثيرون من سكان مدن وقرى الريف التي على مسافة
٣٠ او ٣٥ ميلا من الدير واتفقوا جماعات القوا قوافل منتظمة وساروا
ليجيئوا بالنطرون الذي كان يستخرجه آمون ورجاله وكانوا يبيعونه في
اسواق مصر ويتجرون به . وحدث ان شاباً اسمه مكاريوس سار مع قافلة

من هاتيك القوافل الى وادي النطرون فلم يكد يلقي عصا الترحال حتى
جاش صدره داخله غيرة منه عند ما رأى جماعة النساك والزهاد يشتغلون
شغلا شاقاً في استخراج النطرون . ولم يكن مكاريوس يظن انه محتم عليه
البقاء مع آمون ورفاقه او ان الزهد لا يتم الا بالالتحاق بهم . فانه لما
رأى العنصر العالماني (لان اتباع آمون لم يكونوا جميعهم رهباناً) متغلباً
هنالك كثيراً وان التجارة والكسب هما الغرض الذي يرمي اليه القوم اعتقد
ان وادي النطرون لا يناسب عيشة الوحدة والاعتزال وعليه ترك
هؤلاء الجماعة المنهمكين في اعمالهم حول بحيرات النطرون واعتزل مكاناً
قصياً يبعد كثيراً عن هذا المحل حيث لا توجد شجرة او نخلة تطفيء
حرقة حاجرته او تبرّد لظى قفاره . والذي يلقي نظره على الخرائط
الفرنسوية يجد الوادي الذي كان فيه آمون والوادي الذي سكنه مكاريوس
واسمهما سيتس ونطريا ـ مرسومين كانهما واد واحد والحقيقة انه يوجد
فرق واضح بين الاثنين وتباين في الارتفاع بينهما كما اوضح ذلك
مستر هوكر (مدير مصلحة المصلح) في خريطة له رسمها سنة ٩٦
اما الوادي الاعلى الذي يمتد الى الجنوب الشرقي فلم يكن له اسم يعرف
به عند ما استوطنه مكاريوس ولكنه أطلق عليه فيما بعد اسم «سيتس»
ومعناه موضع الارواح المقدسة وسبب هذا الاسم هو ان مكاريوس
تبعه كثير من المريدين كما اتبعوا آمون وسكنوا في كهوف احتفروها
لانفسهم وبقوا على معزل من اقليم وادي النطرون

وكانوا يتجشمون اتعابا كثيرة للحصول على الماء لطول الشقة ولم تكن لهم حرفة يحترفون بها سوى صنع السلال والمقاطف التي كانوا يحصلون منها على مايساعدهم في معيشتهم الصعبة التي كانوا يظنونها احسن عيشة في العالم توجد بينهم وبين الله اتصالا متيناً . في هذا المكان قضى مكاريوس حياته التي كانت تحكم بينما كان آمون على مقربة منه يكد ويكدح مع جماعته في استخراج النطرون وكان يسمح لنفسه بالتطواف مرتين في السنة يصرف في كل مرة ستة ايام يسير فيها عرض الصحراء والوجه البحري لينظر امرأته ويسأل عن سلامتها . ولا ريب في انه اتعب نفسه كثيراً واجهد ذاته اجهاداً مفرطاً ليكفر عما فرط منه من الاهمال والتغاضي وفرض على نفسه فروضاً صعبة كان يؤديها في خلوته . وليس يصعب على الفطن ان يتصور ما كان يعانيه هذا الناسك من العناء وقلق البال انتظاراً لاخبار ترد اليه من الارياف اثناء هذه المدة الطويلة التي صرفها في الجبال من سنة ٣٠٣ـ٣٢٢ . ومات آمون هذا في سنة ٣٤٥ بينما كان يراقب على بعد الجهاد العديم الفائدة التي جاهدته مصر في سبيل تحرير بلادها من عبودية الرومان وانتقام ذلك الامبراطور منهم انتقاما تقشعر منه الابدان لانهم جاهدوا في سبيل الحرية مع ان هذا الامبراطور كان قد ولد تحت رق العبودية والذل



الفصل الحادي عشر

الجهاد في سبيل الحرية . سنة ٢٨٢ ب.م

بعد ان قتل اوريليانوس استولى تاسيطس على العرش الروماني في اوربا وظل جالساً عليه مدة قصيرة اما مصر فكانت حينئذ تحت سلطة ارملة اوريليانوس التي جلست على سرير ملكها ثمانية شهور . ولما ان مات تاسيطس اتفق الجيش المحتل مصر على انتخاب القائد بروبوس الذي كان محبوبا من جيشه ومكرما عنده . ولما استتب له الامر في مصر غادرها الى اوربا ليضع يده على ولاياتها وليضم تحت لوائه كل المملكة الرومانية وفي اثناء غيابه انتهزت بقية من التدمريين ـ الذين قلنا انهم اخذوا مصر قبلا ـ هذه الفرصة وسعوا لاخذ مصر العليا واغتصابها من يد بروبوس فاضطر هذا ان يعود قافلا الى مصر ليرد عنها هذه الغارة الجديدة وليشن حربا عوانا يفتح به مدينتي قبطس (اوقفط) وبطولميس من جديد . ومع ان الحرب استمرت زمناً لا سيما بين الطرفين الا ان بروبوس لم يكن ليغفل شؤون مصر والعمل على تحسين احوالها العمومية ومعاملة شعبها المنحوس برفق وعدل بعد ان ذاق هذا الشعب اصناف البلاء والحيف مدة طويلة . وفي سنة ٢٨٢ ب.م هجم عساكر بروبوس عليه واخذوا حياته غيلة فخلفه كاروس والي مصر وهذا ايضاً مات سنة ٢٨٣ في حرب اقام سوقها ضد الفرس ولكنها أوقفت عند موته وعقبه ابناه كارينوس ونومريانوس وبعد ان حكما سنة واحدة كلها حروب


Shero4jesus@gmail.com

ومصائب قام ديوكلتيانوس (او تكلا) واغتصب التاج الامبراطوري
واصبح صاحب السلطة كلها على المملكة الرومانية برمتها

وفي خلال ذلك تنيح البطريرك مكسيموس وذلك سنة ٢٨٢
ويحتمل ان الامة وجدت صعوبات ومقاومات في اختيار خلف له ولذا
ظل الكرسي البطريركي بدون بطريرك بضعة اشهر الى ان انتخب ثيوناس
الذي ساس شعبه بسلام وحكمة مدة من السنين . وفي مدة الهدنة
هذه التي جاءت بين الحروب والاضطهادات التي كانت تتوالى على
الكنيسة المصرية كالحلقة المفرغة بنيت في مدينة الاسكندريه اكبر كنيسة
في بر مصر وكرست باسم العذراء مريم . ولو ان الكنائس الكبرى
لم تكن قليلة في هذه البلاد الا ان هذه الكتدرائية الجديدة دلت
على نهضة ممدوحة لانها كانت اول مابناه المصريون المسيحيون من نوعها
كمعبد عظيم يجتمعون فيه للعبادة الجمهورية

اما المسيحيون في مصر فلم يكن لديهم سبب يعرفونه يحملهم على
الشك في نوايا ديوكلتيانوس في بدء حكمه ولم يكونوا يظنون به سوءاً
من نحوهم وهذا ظاهر من جواب ارسله البطريرك ثيوناس الى لوسيان
المسيحي الذي كان معيناً حينئذ في وظيفة خطيرة عند الامبراطور هي
(ناظر بيت الملك) او بمعنى اوضح (مدير الدائرة الخاصة) . وكان
تعيينه في هذه الوظيفة بعد ارتقاء ديوكلتيانوس العرش الملوكي بقليل
فكتب اليه البطريرك يقول :ـ

« ان الراحة التي تتمتع بها الكنيسة الآن تعزى الى سبب واحد فقط
هو سلوك المسيحيين الحسن واعمالهم الممدوحة التي تضيء كالشمس في
رابعة النهار فينعكس ضوءها امام اعين الكفرة والملحدين فتبهر انظارهم
وبذلك يتمجد ابانا الذي في السموات . اما غرضنا الذي نرمي اليه والغاية
القصوى التي نسعي خلفها هي ان نكون مسيحيين فعلا لا بالاسم
فقط وان نعمل اعمال المسيحيين الحقيقيين لانه اذا كنا نطلب مجد انفسنا
الذاتي فنكون كمن يطلب شيئاً تافهاً زائلا لا فائدة منه . فاذاً يجب على
كل مسيحي ان يهتم بمجد الله الآب وبمجد الله الابن الذي سمر لاجلنا على
خشبة الصليب وفدانا بدمه فداء ابدياً لا يقوم بذهب او بفضة . فلذلك
ايها العزيز لوسيان لا اريد ان يعرف عنك التباهي والفخر لانك اهديت
كثيرين من خدمة البلاط الملوكي الى معرفة الحق وادخلتهم في حظيرة
المسيح بل بالاحرى بك ان تشكر الله الذي اختارك آلة نافعة للبنيان
وجعلك واسطة خير لنفع الاخرين واعطاك نعمة في عيني مولاك لحد
تمكنت فيه من نشر كلمة الخلاص واذاعة معرفة فادي المسيحيين وذلك
لمجد اسمه وخلاص الكثيرين »

وقد كتب هذا البطريرك كثيراً يوصي ابناءه الموجودين في
خدمة الامبراطور بالالتفات لواجباتهم كمسيحيين واتيان الاعمال التي
يمتاز بها المستخدم المسيحي في ديوان وثني عن غيره ثم شدد عليهم
الوصية بالابتعاد عن شر كثيراً ما سقط فيه المصريون بل الشرقيون

بوجه عام حيث قال :ـ

« ان الله ينهاكم عن ان تبيعوا للآخرين شيئاً من متعلقات القصر خلسة او ان تأخذوا رشوة لكي تقولوا للامبراطور كلاماً ضد الحق ابتعدوا عن الطمع والجشع اللذين يتمسك بهما الوثنيون لا المسيحيون واعلموا ان الربح القبيح والغش هما صفتان لا تلائمان من قبل المسيح وعوّل على الاقتداء به ذاك الذي كان فقيراً معدماً . لا تتكلموا بشر فيما بينكم ولا تخرج كلمة قبيحة من افواهكم بل لتكن كل اعمالكم مقرونة باللطف والتأدب مع العدل والحق بذلك يتمجد اسم ربنا والهنا يسوع المسيح فيكم وفي اعمالكم . تمموا واجباتكم التي أسندت اليكم بخوف من الله ومحبة للامبراطور وبغاية الدقة والاجتهاد واعتبروا ان الاوامر التي تصدر لكم من مولاكم الذي لم يسيء الى احد من رجال الله كأنها صادرة من الله نفسه لانه مقام منه ولم يتقلد السيف باطلاً . وأخيراً يا أبنائي الاعزاء البسوا الصبر كرداء وتمنطقوا بالفضيلة وامتلئوا بالرجاء والايمان والمحبة »

وبعد هذه المقدمة العمومية اسهب البطريرك في تفصيل الطريقة التي يسير عليها المستخدمون عند تأدية واجباتهم المتنوّعة المتعدّدة . وكان اكثر موظفي البلاط الامبراطوري من المسيحيين وكانت وظيفة امين الكتبخانة خالية حينئذ وكان البطريرك ثيوناس يرجو تعيين مسيحي فيها . اما أمين الخزانة الخاصة فقد أوصى البطريرك بانتخاب

شخص يكون ماهراً في علم الحساب عارفاً بمسك الدفاتر فلا يعتمد على ذاكرته في هذا العمل وان يكون حسابه مرتباً مبوباً حتى يسهل معرفة الميزانية وفحصها في وقت قصير ويجب كتابة تاريخ صرف النقود وسبب صرفها والمكان الذي صرفت فيه في أعمدة على حدتها في الكشوف (الاستمارات) الخاصة بذلك . وقد وضع هذا البطريرك العارف تعليمات لامين الثياب والملابس واختاره من الرجال الذين اشتهروا بالدقة والامانة وكتب له يوصيه بملاحظة الترتيب الآتي وهو :ـ

« مقدار الملابس المسلمة لعهدته ونوعها وماهيتها والاماكن الموضوعة فيها وتاريخ وصولها للمخزن واسم المتعهد الذي وردّها وهل هي حسب الشروط ام لا وضرورة افتقادها مراراً ومعرفة موضع كل سلعة من الدولاب المخزونة فيه . وعلى الامين أن يفعل كل هذا بتواضع وطول اناة لكي يتمجد اسم المسيح حتى في مثل هذه الاعمال القليلة الاهمية »

وقد شرح ثيوناس بالتفصيل الوافي واجبات أمين الكتبخانة واظهر في شرحه هذا كل حكمة ومهارة مما يدل على غزارة مادته وطول باعه اذ قال ـ « يجب على أمين الكتبخانة ان يكون عارفاً بما عنده من الكتب والمجلدات وان يفتقدها ويفحصها كل آونة وأخرى وان يرتبها حسب اهميتها ويدرجها في كشف على نسق واضح وان يستخدم امهر النساخ وابرعهم لنسخ ما يحتاج اليه من الكتب الغير

موجودة عنده . كذلك يلزمه ان لا يرتأي ويظن انه ليس في حاجة الى الدرس والمطالعة او الالمام بمحتويات الكتب خصوصاً التي يميل اليها الامبراطور ويبحث عنها ويطلبها . ويتحتم عليه ايضاً معرفة اسماء الخطباء والشعراء والمؤرخين الذين نبغوا في الاعصر الخالية والوقوف على مؤلفاتهم ومصنفاتهم وأقوالهم المأثورة . وحيث ان هذا الامين كثيراً ما تضطره شؤون وظيفته للمحادثة مع الامبراطور وارشاده الى الكتب المهمة التي عنده فينبغي له ان يذكر امامه في اثناء حديثه اهمية الترجمة السبعينية للكتاب المقدس ونفعها وما فيها من الفائدة العظمى وان يفهمه ان هذا الكتاب كانت له منزلة كبرى عند بطليموس فيلادلفوس الشهير الذي كان يقدره حق قدره (١)

وقد وضع هذا البطريرك الماهر ارشادات أخرى عن الكتب التي يشير بقراءتها على مسامع الامبراطور بصوت جهوري كما انه أشار ايضاً على القاريء باقتباس شواهد من كتب أخرى تناسب مقام الموضوع المراد تفهيمه للامبراطور . وقد ذكر أيضاً انه يلزم الامين

(١) معلوم ان بطليموس فيلادلفوس هذا هو الذي اعتنى بترجمة التوراة الترجمة المسماة بالسبعينية . ويظهر من قول ثيوناس انه لم يكن يخطر بباله ان امبراطور روماني كديوكلتيانوس يكون على درجة من الجهل المطلق لحد انه لا يعرف شيئاً عن بطليموس واعماله المعروفة . ولكن جهل ذلك الامبراطور الماني كان حقيقة راهنة حتى ان مريديه ومحبيه شهدوا بخلوه من كل معرفة وتجرده من العلم والعرفان

ان يعتني بالكتب القديمة المنسوخة وان يجلدها تجليداً حسناً وان يعمل كل ما من شأنه حفظها من أيدي العبث . كذا يجب على الذين يقرأ كتاباً للامبراطور ان يمزج كلامه ببعض شواهد عن اعمال المسيح ويدخل في موضوعه امراً يجر الى الحديث عن الديانة المسيحية وكثيراً ما شدّد هذا البطريرك الوصية على المسيحيين المستخدمين في الدوائر الامبراطورية بمراعاة شروط النظافة وحسن الهندام وان تكون دلائل الفرح والابتهاج ظاهرة على سيمائهم وعلائم الهيبة والوقار واضحة في ملامحهم وعلى وجوههم

ولنعد الآن للبحث عن اصل هذا الامبراطور وفصله الذي توسم فيه المسيحيون المصريون كل خير وبركة فنقول :-

ان الذي ينظر الي اسم هذا الامبراطور يظنه يونانياً او رومانياً ولكن اسمه في الحقيقة لقب اخذ من مدينة في دلماطية هي مسقط رأس أمه وذلك لانه ولد عبداً من والدين كانا تحت رق العبودية الا انه اظهر من نعومة اظفاره طمعاً اشعبياً وحذقا طبيعياً في طلب التقدم والرفعة كما انه كان يشك كثيرا في الوسائط التي استعملها لنيل غرضه الذي يسعي اليه ولقد تقدم ديوكلتيانوس تقدما سريعاً في الرتب العسكرية الى ان عين قائداً للحرس في الوقت الذي مات فيه الامبراطور نومريانوس في مدينة خلكدونية عند عودته من حرب الفرس كامر بك . فلما مات نومريانوس هذا دبر حيلة محبوكة الاطراف بها جعل قواد الجيش الذين كانوا في

الحرب مع الحكام الرومانيين ان يصادقوا على انتخابه امبراطوراً فتم له
ذلك . ولما استتب له الامر افتتح حكمه بقتل رجل كان يخشى من مطالبته
اياه بسرير المملكة ويخاف ان يصيبه شر منه ولذلك اتهمه بانه القاتل
لنومريانوس سلفه فجيء بهذا الرجل المسكين امامه وهو مقيد بالاغلال
والسلاسل وحوله جمع يصخبون ويصيحون فامسكه وذبحه بيده ذبحاً
دون ان يعمل معه تحقيقاً او ان يحيله على محاكمة بل هدر دم الرجل هدراً
وبعد مضي سنتين على هذه الحادثة رأى ديوكلتيانوس انه يصعب عليه
تنظيم هذه المملكة بمفرده بينما هي مملكة واسعة الاطراف اعتاد شعبها
عدم الخضوع بـ ولة للذين يغتصبون استقلالهم ويفقدونهم حريتهم فلذلك
اشرك معه في ادارة المملكة مكسيميان وهو رجل أمي كان مثله كمثل
ديوكلتيانوس في انه ترقى سريعاً في الرتب العسكرية الى ان صار قائد فرقة
وذلك لحذقه الطبيعي ومهارته . فلما عينه ديوكلتيانوس وكيلا له اعطاه لقب
امبراطور المغرب وبعد هذا التعيين بست سنين شعر الامبراطور الروماني
بضرورة تعيين وكيلين له ولشريكه فعين قسطنطينوس وكيلا لمكسيميان
وهو رجل من عائلة طيبة وعين غليروس وكيلا لنفسه وهو رجل راعي
قطعان وسمى هذين الوكيلين قيصرين واضطرهما ان يطلق كل منهما امرأته
ويقترن بابنة مولاه لينال بذلك الترقي والرفعة

اما هؤلاء الاباطرة والقياصرة فكان لديهم شغل خطير في انهم
يعملون للدفاع عن سلامة المملكة التي كانت تنحل تدريجياً وتستقل ولاية

منها بعد الاخرى وذلك لان الشعب رفض مبايعة عبد ذميم كديوكلتيانوس
والاعتراف بانه امبراطور عليهم وكانت كل ولاية من هذه الولايات
النازعة للاستقلال تختار عميداً لها من بنيها ليقيم الحروب ويشن الغارات
طمعاً في اعادة الاستقلال القديم وكانت اول ولاية نزعت الى الحرية
بريطانيا وعقدت لواءها الى اميرها اسمه كاراشيوس وتبعتها فرنسا تحت
قيادة اليانوس واماندوس ثم قرطجنة تحت يوليانوس واخيراً قامت مصر تحت
زعامة اخيلوس واعتقلت البيض الصفاح لتسترد استقلالا لها كان قدمات
وراح . والذي يتدبر طول مدة الجهاد في مصر لاجل الحرية وما له من
الاهمية العظمى لانه جهاد في سبيل الخلاص من رق العبودية يعجب
جداً اذ لا يجد مايشفي العلة عن اخيلوس هذا ولا يعرف شيئاً عنه بينما
يراه رجلا عنيداً وبطلا صنديداً ظل تسع سنوات متوالية يقاوم القوة
الرومانية ويحتقر سطوتها وعظمتها الى ان مات بعد مدة طويلة في الحرب
وبموته خابت آمال مواطنيه ولم يعد لهم امل في الاستقلال . وكل ما
نعرفه عن اخيلوس هذا على سبيل التخمين انه مصري النزعة مسيحي
المذهب ولو انه يوناني الاسم . وقد مضت ستين سنة بعد هذه الحادثة
والمصريون يتضجرون ويتململون من حكم هؤلاء البرابرة المغتصبين
الذين انتحلوا لانفسهم لقب امبرطورة رومانيين وادعوا ان المملكة
المصرية انما هي ارث لهم لا يصح ان ينازعهم فيها منازع . ولم تسكت
مصر طول هذه الستين سنة بل انها قامت ست مرات في اثناء هذه

المدة وهي تحتمل السلاح وتسير خلف كل من يقول بانه قاصد استقلالها وساع في تحريرها ولكنها لم تستفد شيئاً ولم يخشها العدو لانه كان مؤكداً انها تنهزم امامه لما اعده لها من جيش متمرن ولانه استأجر لها عساكر متدربة في فنون القتال لا يقف امامها هذا الشعب المصري الضعيف الذي اعتزل السلاح من قرون مضت ولم تبق له معرفة بالحروب كما ان المصريين لم يكونوا ينتظرون نجدة من الخارج ولكنهم ارتبطوا كلهم معاً ـ اليوناني والمصري والمسيحي والوثني على السواء ـ لكي يجاهدوا جهاد اليائس القانط في نوال الحرية

وقد قضت سنة هذا الكون الطبيعية ان يكون السبق للسريع والنصر للقوي . وتفسير ذلك ان اخيلوس المار ذكره بك كان قد أخذ طيبة وأقيم ملكاً فيها لمدة أربعة اعوام ذاق فيها المصريون طعم الحرية المزوج بعلقم تهديد الرومانيين لهم بينما كان غاليروس غير نافذ الكلمة لا تتعدى سلطته حدود خيمته ولا يسمع صوته سوى عساكره ولذلك سعى جهده في الحصول على مركز ثابت وايجاد شهرة له من العدم فسار بجنوده ضد المصريين واخيلوس عساه يذلهم فيعود بالشهرة والنصر ولكنه لم يفلح في تدبيره هذا وحينئذ اضطر ديوكليتيانوس ان يحضر بنفسه ومعه جيش مزبد ومن ثم بدأ الحرب بينه وبين المصريين او بمعنى اخر بين العلم والنصرانية والضعف من الجهة الواحدة وبين الجهل والكفر والقوة من الجهة الاخرى

وبعد ان حاصر الامبراطور مدينتي قبطس وبوزيريس حصاراً طويلا تغلب عليهما اخيراً واهلكهما عن بكرة أبيهما ومن ثم سار في طيبة الى ان وصل آخر حدود مصر فعقد معاهدة مع أهالي النوبة والحبشة وتنازل لهم فيها عن الاقليم الواقع بين اصوان ووادي حلفا على شرط ان يردّوا غارات الاعداء الذين يغيرون على حدود المملكة . وكانت تجدد هذه المعاهدة سنوياً ويقام لها احتفال ديني تنحر فيه الذبائح حسب طقوس الديانة المصرية القديمة وتعمل لها الولائم الفاخرة في جزيرة فيلا التي عسكرت فيها الحامية الرومانية . ولم تزل بقايا السور الذي شاده ديوكليتيانوس في وسط الوادي قائمة الى يومنا هذا . وقد ذكر بعض المؤرخين ان ديوكليتيانوس لم يثق تمام الثقة بمدافعة اهالي النوبة عن الحدود المصرية فاتفق معهم فيما بعد بان يدفع لهم جزية سنوية ومثلها للبلميين الذين كان يخشى شر غاراتهم وهم الذين ساعدوا التدمريين قبلاً على افتتاح مصر من جهة الجنوب

ولما اكمل ديوكليتيانوس هذا كله غادر مصر وتبعه جيشه ولذلك تقلص ظل السلطة الرومانية فيها وأوشك بدر قوتها على الافول وعليه التفّ المصريون باجمعهم مرة ثانية حول اخيلوس ـ الذي كان فرّ من وجه ديوكليتيانوس قبلاً ـ فقابلته مدينة الاسكندرية بترحاب واجلال بعد ان فاز بالنصر ونال غرضه . وقد يصعب على الباحث تحديد مدة استقلال مصر تحت حكم اخيلوس ولكن البعض زعموا ان

مصر ظلت مستقلة من ست سنوات الى تسع وبنوا ظنهم هذا على ان ديوكليتيانوس لم يعد لمحاربة مصر وارجاعها لسلطته الا بعد ان قضى وقتاً طويلاً في رومية كانت مصر في اثنائه تستنشق نسيم الحرية المنعش

فلما قدم ديوكليتيانوس لاخضاع مصر زاد شقاؤها وعظم بؤسها ومصابها . فانه بينما كان اخليوس في الاسكندرية يجني ثمار انتصاره داهمها ديوكلشيانوس قاصداً افتتاحها فبدأ اولاً بتشديد الحصار عليها بان حوّل مجاري المياه التي تشرب المدينة منها ولم يبق شك في انتصاره عليها ما دام قد قطع كل صلة بينها وبين باقي مصر وما دام هو قادراً على ايجاد كل ما يحتاج اليه من مؤونه وذخيرة بواسطة البحر المتوسط وبينما كان ديوكليتيانوس يحاول أخذ الاسكندرية ويقاتل المصريين ليسلبهم استقلالهم كانت الامم الاخرى الخاضعة للسلطة الرومانية تجاهد مع الامبراطرة الرومانيين شركاء ديوكليتيانوس دفاعاً عن حياتها واحتفاظاً على وحدتها واستقلالها وقد رشى هذا الامبراطور النوبيين والبلميين ليكونوا على الحياد فلا يمدون يد المساعدة لمصر وكان حرب ديوكليتيانوس السابق لهذا قد أورد مصر موارد الخراب والدمار وحرمها من ملكها الذي سجنه في الاسكندرية فلذلك لم تقو هذه المرة على مقاومة طويلة فان الاسكندرية بعد ان مضى عليها ثمانية شهور في حرب عوان يدفعها اليها اليأس سلمت للامبراطور وأخذ اخيلوس أسيراً ثم

حكم عليه بالموت . قيل ان ديوكليتيانوس اغتاظ جداً من مقاومة الاسكندرية له وحنق من استبسالها في حربها معه فأقسم ايماناً مغلظة ان لا يكف عن ذبح اهليها حتى تجري دماؤهم كالسيل المنهمر في الشوارع ويبلغ ارتفاعها الى ركبة حصانه قصاصاً لهم على عنادهم وعدم استسلامهم فذبح عشرات الالوف من المصريين وجرى دمهم كالغدران في الازقة والشوارع الى ان شبعت نفس ديوكليتيانوس بهذا المنظر الذي تشيب من رؤيته الاطفال فانتهز فرصة سقوط حصانه عند ما عثر بالجثث المكومة فاوقف الذبح لانه اعتبر عثار جواده علامة من السماء على اتمام هذا الانتقام وهو لم يكن ليكف مطلقاً عن عمله هذا لولا ان دواع سياسية خطرت بباله فوجد له مخرجاً من الحنث بقسمه الذي أقسمه فكف عن خراب المدينة وذبح كل سكانها . وقد زعم البعض ان العمود المنفرد الذي لم يزل الى الآن قائماً في اطلال الاسكندرية القديمة المعروف « بعمود السواري » اقامه الوطنيون هناك او نصب بامر الامبراطور نفسه في هيكل سيرابيس ليكون تذكاراً لهذه الحادثة المشومة الا ان الابحاث الحديثة التي عملت في الاسكندرية لا تثبت صحة هذا الزعم . اما ديوكليتيانوس فعرف كيف يتصرّف في مصر فقضى فيها وقتاً ساكناً هادئاً ولم يصب جامات انتقامه على رأس هذه البلاد الشقية الا بعد بضعة اعوام ولكن هذا الانتقام الثاني كان صارماً جداً لا مثيل له بين أعمال الانسان الوحشية

ولما رأى بعض الاشخاص الذين كان قد حكم عليهم بالموت او بالنفي ان ديوكلتيانوس ينوي بهم شراً تركوا مصر وفروا الى بلاد اخرى . وقد بدأ ديوكلتيانوس حينئذ في ابطال سبك النقود المصرية القديمة ولكن هذا لا يعد شيئاً في جانب المصيبة العظمى التي اصابت مصر بضياع كتبها العلمية القديمة التي كانت اثمن الكنوز عندها . فان هذا الامبراطور الجاهل الذي كان عقله مفعماً بالخرافات والاوهام ظن ان المصريين قادرون بواسطة علم الكيمياء ان يحولوا كل المعادن الاخرى الى ذهب وهاج وان هذه هي الطريقة الوحيدة التي جمعوا بها مالا طائلا صرفوه في المدة التي كانوا يجاهدون فيها لاستقلالهم وحريتهم . فبناء على هذا الفكر السخيف — الذي يوجد كثيرون يعتقدون به الآن — امر بتسليم جميع هذه الكتب اليه وقد نفذ الامر رغماً عن احتجاج المصريين وتوسلاتهم وتضرعاتهم فاخذ هذه المجلدات العلمية وحرقها هذا الامبراطور الغر الغشوم باحتفال حافل وهي ولو انها تحتوي على بعض امور وهمية واغلاط غير جوهرية الا انها لو بقيت لكانت أحسن ما يقتنيه العالم في علم الكيمياء وفي علوم اخرى مهمة

وبعد هذ بقليل توفي بطريرك الاسكندرية الذي ربما قاسى كثيراً من هذه المصائب التي مرت على ابنائه . وقد يصعب التثبت من معرفة الذين رأسوا المدرسة اللاهوتية بالترتيب في ايام الاضطرابات هذه وقد يمكن معرفة اسماء الذين اداروا حركة هذه المدرسة ولكن تعاقبهم الواحد

بعد الاخر لا تسهل معرفته الا انه يحتمل ان يكون اخيلاس قد خلف ثيوغنوسطس وانه تعين بامر من البطريرك ثيوناس وانه رقي كرسي البطريركية بعد ذلك بمدة طويلة في اثنائها توالى بطرس وسيرابيون على رئاسة المدرسة اللاهوتية . ويقرب من الظن ان اخيلاس هذا فعل ما فعله اكليمنضس قبله في انه ترك الاسكندرية اوقات القلاقل والحروب وحل محله بطرس اثناء غيابه وقد ورد ان البطريرك ثيوناس مات سنة ٣٠٠ ب . م وخلفه بطرس هذا الذي كان حينئذ شاباً بالنسبة الى ثيوناس وكان ايضاً متزوجا وذا بنات

وقد ظلت مصر ثلاث سنوات هادئة مطمئنة (١) ومن ثم عصفت زوابع المصائب التي تركت الكنيسة على شفا جرف هار ثم قامت ريح صرصر امطرت على الامة المصرية بلايا ورزايا لم تقم لها قائمة بعدها

الفصل الثامن عشر

تاريخ الشهداء . سنة ٣٠٣ ب . م

لا ريب في أن الاضطهاد الذي احدثه ديوكلتيانوس وكاد يقضي على مصر قضاء مبرماً لم يكن محصورا في هذه البلاد فقط انما كان بدء مشروع خطير يقصد به محو آثار الديانة المسيحية من على وجه البسيطة

(١) قال يوحنا النيقاوي في تاريخه ان الاضطهاد بداء في مصر عقيب اخماد نار عصيانها . وهذا القول قريب من الصواب كما انه ازاح الستار عن بعض العقد التاريخية فيما يتعلق بالشقاق الذي احدثه ميليتيوس في مصر . وقدمر بك أن الاضطهاد الذي اثاره ديشيوس بداء في مصر قبل صدور الامر الامبراطوري بشأنه بسنة كاملة

ولان بطانة هذا الامبراطور العاتي ومعينه لم يكونوا يهتمون باظهار الحقائق له فيما بعد - وجوله موصوف في الذي مضى - ان القوة والمقاومة التي صادفها في الشعب في مصر وعدم رضوخهم له انما منشأ هذه الطبائع للمسيحية الشديدة المراس التي تدعي التهذيب والمدنية كثر من سوى المملكة الرومانية بهما والتي تدين لاله قدير وتطيعه وتقول انه أعلى من الامبراطور الروماني وارفع وتنكران هذ الامبراطور نائبه . والذي زاد هذا الامبراطور ارتياباً في امر الديانة المسيحية ماشاهده في فرنسا وبريطانيا وفي شمال افريقيا من سعي هذه الشعوب لنوال الاستقلال كما تسعى مصر ومن ان الباعث لهذا السعي هو سبب واحد ومحرك واحد هي الديانة المسيحية . ومما زاد هوسه وجنونه ان غاليريوس (١) وكيله جسم له الامر وكبره كما ان المنجمين والعرافين الذين دعاهم ديوكلتيانوس كثيراً لينبئوه عما يكون في مستقبله قالوا انه يعسر عليهم اغراء الارواح على مجاوبتهم وظهار مكنونات الغيب مادام ان قصر الامبراطور مقيم بجماعة الكفرة (يقصدون بذلك المسيحيين) الذين وجودهم من القصر يمنع تجلي الارواح وظهورها

(١) مما ينبغي ذكره هنا انصافاً لديوكلتيانوس ان الاضطهاد المنسوب له لم يصل درجة الفظاعة والقسوة الا وقت جنونه الذي اعقب تنازله قسراً وتركه غاليريوس يتصرف كيف شاء نائباً الفعل لديوكليانوس . وقد صدر أمر في البداءة كان صارماً شنيعاً ثم تلاه ثان وثالث في ظرف بضعة اسابيع يتضمنان سجن جماعة الاكليروس أولا ثم اجبارهم على أن يذبحوا للاوثان بواسطة العذابات المريعة وكان ذلك نتيجة نار شبت في قصر الامبراطور اتفق جمهور المؤرخين المعاصرين بانها اضرمت بامر غاليريوس نفسه وعزاها الى المسيحيين وبذلك اقتنع ديوكلتيانوس باتخاذ الطرق اللازمة ضدهم . وقد صدر أمر رابع بينما كان ديوكلتيانوس معتوهاً وبلغ الاضطهاد حده بعد تنازله

ولما امتلأ عقل ديوكلتيانوس بخوف ناتج من خرافات عقيمة ولاعتبارات سياسية ايضاً امر باصدار منشور شديد اللهجة ضد المسيحيين وذلك في ٢٣ فبراير سنة ٣٠٣ ب.م (وهو يوم عيد عند الوثنيين) ولما صدر هذا المنشور كان ديوكلتيانوس وغاليريوس في نيكوميديا يطلان من القصر لينظرا بدء تلك الحادثة المشؤمة التي استمرت تسع سنوات كاملة . وقد بدأ هذا الاضطهاد بان سار الوالي بمشهد حافل الى كنيسة نيكوميديا الكبرى يصحبه جم غفير من الموظفين والكتاب وجماعة من حاملي الفؤوس فكسروا الابواب واحرقوا جميع كتب الكنيسة وستورها ثم اخذ العمال في هدم الكنيسة بالفؤوس والاثقال الى ان ساووها بالارض ولم يتركوا فيها حجراً على حجر الا ونقضوه . اما المنشور السابق ذكره فصدر في ثاني يوم لهذه الحادثة وعلق في الاسواق والاماكن العمومية وهذا نصه :-

(١) يجب هدم جميع الكنائس وازالتها من الوجود

(٢) يجب احراق كل الكتب المقدسة

(٣) جميع المسيحيين الموظفين في خدمة الحكومة لا يجردون من وظائفهم فقط بل يحرمون من حقوقهم الوطنية ايضاً (وذلك لكي يتسنى لاعدائهم ان يذيقوهم انواع العذابات واشكال القسوة)

(٤) كل المسيحيين الغير موظفين يصيرون عبيداً ارقاء

وقد يمكن للفطن ان يتصور بمقدار ازدحام الناس في الاسواق

لقراءة هذا المنشور . فكان المسيحيون عند سماعهم هذا الخبر المشوم
ينسلون من وسط الجمع لكي يختبئوا او يفروا هاربين ولو ان املهم في
هذا الهرب كان ضعيفاً . اما الوثنيون فلم يفرحوا لهذا الخبر بل بالعكس
كانوا يريدون المدافعة عن اخوانهم لولا انهم خافوا الشبهة والريبة . قيل
ان مسيحياً جريء القلب شديد العارضة اقتحم الجمهور المزدحم في السوق
وتقدم ليقرأ هذا المنشور فلما علم بما فيه مد يده بسرعة البرق الخاطف
واخذ هذا الامر الامبراطوري ومزقه شذر مذر وذره في الهواء وقد
فعل ذلك بغاية الشجاعة والحزم بينما المتفرجون وقفوا مندهشين كأن على
رؤوسهم الطير . اما هذا الباسل فقد القوا القبض عليه في الحال وذاق
الوان العذاب المر وحينئذ احرقوه حياً في نار ضعيفة اللهيب لكي يطول
عذابه كثيراً

وقد جاء في روايات العامة ما يثبت ان هذا الشهيد المار ذكره هو
مارجرجس الشهير الذي يعد الآن عميد القديسين في البلاد الانكليزية .
ولا يوجد سبب يدل على عدم احتمال هذا القول الا ان الحكاية الآنفة
لم يرد لها ذكر في الروايات المصرية المنقولة عن مار جرجس . فقد ورد
في هذه الروايات المصرية حكاية غريبة عن التنين ومار جرجس مما حدا
بالبعض الى الظن ان هذه الحكاية هي من اوضاع برسوس الروائي
الشهير وضعها كرمز الى حالة المسيحي في هذا العالم وجهاده فيه . اما
كلمة « تنين » فكانت لقباً اطلقه المصريون على ديوكلتيانوس وجعلوا

وجه الشبه بينهما الخصام الشديد الذي استحكمت حلقاته بين هذا
الامبراطور وبين ذلك الشهيد الباسل الذي قاومه مقاومة شديدة واخيراً
فاز عليه واخضع سلطة وقوة ارادته تحت موطيء قدميه . هذا كلما يتعلق
بمسألة التنين الذي اقترن ذكره بتاريخ مار جرجس والذي يتصفح
الروايات القديمة على صحتها لا يجد ادنى خبر عن وجود تنين حرفي او
عن مقاومة جرت بين هذا القديس وبين اي حيوان آخر . اما الرواية
الصحيحة التي نحن في صددها فتقول ان هذا الامبراطور كان ممثلاً في
صورة كأنه ملك المسكونة برمتها وتحت يده ثمانية ملوك خاضعة له .
وقد جاء فيها ايضاً انه بعد مضي ثلاث سنين على منشور الامبراطور
الذي ذكر قبلا لم يكن احد يتجاسر ويقول انه مسيحي خوفاً من العذابات
المرة التي كان يتوعدهم بها ديوكلتيانوس . اما عن مار جرجس فقد ورد
فيها انه وهو بعد ضابط صغير في الجيش طلب الى مدينة الاسكندرية
ليرقى الى درجة اعلى فلما مثل بين يدي رؤسائه لم يسعه السكوت بل
قال جهاراً انه مسيحي . فعندما سمع الامبراطور ذلك لم يشأ قتله حالا
بل مد له في اجله حرصاً على حياة ضابط امين مثله وكان دائماً يجدد العفو
عنه ويعده بالترقي والتقدم اذا هو اطاع الامر وانكر المسيح . ولم تسلم
حكاية مارجرجس الصحيحة من النسخ والابدال لانه يحتمل ان كاتباً
من المذهب الآريوسي (نسبة لآريوس الهرطوقي) وقعت في يده هذه
القصة بعد زمن ما فادخل فيها ما قلب وضعها وعلق عليها من الشروح

والحواشي ما وافق غرضه الذي قصد به نسبة فضائل وكرامات مارجرجس المصري الى مارجرجس الاريوسي الروماني الذي جاء بعده كما سيجيء. وقد صادف عمل هذا الكاتب بعض النجح في اوائل الامر ولكن لم يلبث هذا النجح ان انعكس من وقت ما تلاشت الطائفة الاريوسية من مصر واضمحل ذكرها واصبحت الكنيستان او الثلاث التي كانت تكرست باسم مارجرجس الاريوسي (١) تنسب الى مارجرجس المصري ونقول بسيادته عليها وصارت هذه الكنائس ملأى بصور تمثل حكاية التنين القديمة العهد وهي حكاية لا علاقة لها مع هذا او ذاك كما أسلفنا . ففي هذه الصور ترى مار جرجس راكباً جواداً أصيلاً مطهماً وقد اغمد سيفه في تنين (٢) وحشي كما يسميه اليونان والمصريون وخلص الاميرة من انيابه كقول برسوس المار ذكره ولكن الروايات المصرية القديمة لم يذكر فيه تنين او أميرة بل التنين كان لقباً للامبراطور كما قلنا وكان مار جرجس يلقبه به اما هذه الاميرة فكانت احدى محظيات الامبراطور التي كانت

(١) قيل ان الكنيسة اليونانية المسماة باسم مارجرجس الموجودة في قلعة بابلون (بمصر القديمة) كانت مكرسة قديماً باسم مارجرجس الاريوسي وكان له كنيسة أخرى في جرجا

(٢) لا يعرف شيء عن صفة الحيوان الذي صنفت عنه قديماً حكاية التنين . وقد ترجم في سفر (التكوين «حوت» ، ويشيرون عنه في مصر تارة بتمساح واحياناً بتمساح مجنح واحياناً بحية عظيمة هائلة

قد حبست ليلة كاملة مع هذا الشاب الباسل بعد ان رفض انكار المسيح بقصد ان يؤثر خداعها وكلامها اللين في عزيمته التي لم يزدها التعذيب الا ثباتاً ورسوخاً . فلما ادخلوا هذه الحظية الى سجن مار جرجس ذهب الى احدى زوايا الغرفة التي كان مسجوناً فيها وجثا على ركبتيه يصلي لله الى ان جاءت هذه الاميرة وطلبت منه بلطف ان يقول لها بصوت جهوري ما كان يتمتم به في صلاته . فاخذ صاحبنا يشرح لها كل ما يختص بالمسيح وصلبه وموته وقيامه فأثر فيها كلامه تأثيراً عميقاً . فلما بدأت تباشير الصباح اقبل رجال الامبراطور لاخذها اليه فلم يكن من الفتاة الا ان أعلنت بصريح اللفظ بأنها صارت مسيحية تماماً ولذلك صدر امر الامبراطور باعدامها في الحال فأعدمت (١)

وقد يحسن هنا الرد بابسط عبارة على الذين ذهبوا مذهب العلامة رينولدس في القرن السابع عشر الذين اجتهدوا حينئذ في التوفيق بين مارجرجس قاتل التنين وبين مارجرجس الآريوسي . فان مار جرجس الآريوسي لم يمت حتى سنة ٣٦١ ولم تبن كنائس باسمه الا بعد موته بزمن . اما مار جرجس المصري فقد كرست كنائس باسمه قبل ذلك بكثير اي سنة ٣٤٦ ب . م

(١) في واحة برقا وجدت في القرن الثالث عشر كنيسة لمار جرجس قيل انها تضم عظامه . وزعموا ان رأسه موجودة في ليدا ويقول أهل الواحات ان جسده أرسل اليهم بعد استشهاده بمدة طويلة للاحتفاظ عليه

كذا قد عمّ الخلط في مصر الآن بين قديستين ولم يعد احد يميز
بينهما حتى خيف كثيراً ان حداثة عهد الواحدة بالنسبة للثانية وعدم
معرفة شخصيتها يمحي ذكر الاخرى . ذلك ان كل غربي سمع عن
القديسة كاترينا التي من الاسكندرية بينما قليل من الفرنجة لا يعرف
عن الست دميانة سوى اسمها فقط وهي العذراء الشهيرة التي تكرمها
مصر وتحترمها ولذلك تجد صورتها مرسومة في كل كنيسة ويندر من
لا يعرف تاريخها تفصيلا بين المسيحيين المصريين . فاذا سلمنا جدلا ان
القديسة كاترينا وجدت في مصر - وهو امر مشكوك في صحته -
فقد يمكن ان تكون هي القديسة تاوضورا بعينها وهي التي استشهدت
في الاسكندرية في الزمن الذي يقولون ان القديسة كاترينا استشهدت
فيه . ويوجد محل للنظر في ان تاوضورا كانت تسمى هيكاترينا قبل
اعتناقها الديانة المسيحية - وهو اسم مشتق من اسم الآلهة هيكات .
ثم أبدلته باسمها الحالي وقت عمادها . كل هذا ظن فقط ولكن الحقيقة
التي لا ريب فيها هي ان الكنيسة المصرية لا تعرف القديسة كاترينا ولم
تسمع عن اسمها قط الى ان جاء الروم الكاثوليك هذه الديار واذاعوا
خبرها فيها لتوهمهم بانها مسقط رأسها وكان ذلك بعد الزمن الذي
خيل لهم انها استشهدت فيه بعدة قرون

وقد يحدث كثيراً انه عند ما يفد السياح الافرنج الى هذه البلاد
يذهبون لمشاهدة الكنائس المصرية ويسألون عن صورة القديسة

كاترينا فيضطر الترجمان ان يشير لهم الى صورة الست دميانة وهي
أشهر عذراء استشهدت والتي لا يعرف القسوس شيئاً عنها فيراها السياح
مرسومة وبيدها سعف النخل تحيط بها أربعون راهبة من أترابها .
(قالت المؤلفة) : وقد اتفق لي من مدة مضت ان زرت احدى
الكنائس الكبرى في القاهرة وسمعت القس يشير الى صورة الست
دميانة كأنها صورة الست كاترينا . فلما رأيت منه ذلك ابتدرته بالسؤال
قائلة : كيف تقول هذا القول ؟ أليست هذه صورة الست دميانة ؟ .
فاجابني القس بوجه شاحب مقطب : « ماذا عساني أقول غير هذا ؟
نعم ان جنابك الفخيم تعلمين انها الست دميانة ولكن السائحين لا يعرفون
شيئاً عنها فاذا قلت لهم انها الست دميانة لا يفقهون قولي ولا يفهمون
وقد يقولون لي انها الست كاترينا وانا لا اعرف اكثر من هذا ولا يسعني
مجادلتهم وقد تكون كاترينا كلمة انكليزية معناها دميانة !!! ولذلك فانني
اقول لهم انها كاترينا وهم راضون بقولي. ومن ذلك الوقت اتضح لي أن تلك
الصورة الموجودة في الكنيسة المومأ اليها - وهي الكنيسة الوحيدة
تقريباً التي يزورها السياح - يقولون عنها انها القديسة كاترينا وقد وجدت
هذا الاعتقاد شائعاً في الاسكندرية فيما بعد ذلك لان الروم الكاثوليك
بنوا كنيسة في هذه المدينة وكرسوها باسم القديسة كاترينا وشاركهم في
ذلك الاقباط الكاثوليك واصبحوا يحجون اليها . قالت المؤلفة : وقد تمكنت
من زيارة الكنيسة القبطية الوحيدة في الاسكندرية وهي التي أعيد بناؤها

من عهد قريب فوجدت أن الست دميانة قد رسمت فيها بشكل حديث تحيط بها الاربعون راهبة ولكنها ليست ماسكة سعف النخل في يدها بل هي في وسط عجلة مرسومة حولها . فلما رأيت اسم الست دميانة منقوشاً على الصورة سألتهم ان لماذا صوروها محاطة بعجلة كالقديسة كاترينا فكان جوابهم لي «ان جماعة الفرنجة يقولون انها القديسة كاترينا وقد تكون كاترينا كلمة افرنجية ترجمتها دميانة فلذلك رسمنا الست دميانة وحولها عجلة كاترين » !!!*

وقد نصيب الغرض اذا نحن اتينا بذكر شيء عن الست دميانة فنقول : ان كلمة دميانة مأخوذة من مذكر هذا الاسم « دميان » وان هذه القديسة كانت من ضحايا هذا الاضطهاد الذي نحن في حكايته وكانت بارعة الجمال غضة الشباب خصت نفسها بالزهد والتنسك وهي في الخامسة عشرة من عمرها . وكان أبوها مصري الموطن تعين مديراً لاحدى مديريات مصر وابتنى ديراً لابنته على مسيرة ساعتين من بلقاس شمالا (غربيه) حيثما اعتزلت فيه مع راهباتها وصارت رئيسة لهذا الدير رغماً عن حداثة سنها . وقد قدر بعضهم عدد الراهبات اللواتي كنَّ في الدير

* (المترجم) هذا ما سمعته حضرة المؤلفة في مصر والاسكندرية عن الست دميانة ومنه يستدل على ان الخطأ والجهل يتفشيان بين القوم ويسريان في عقول هذه الفئة المعلومة اكثر من سريان الحقائق الصحيحة بينهم . وهو عيب فاضح عيرنا به الافرنج ويقولون ان المعرفة والعلم بعيدان عنا بعداً شاسعاً مادام هذا مقدار علمنا باحوال قديسينا وشهدائنا المشهورين

عندما شبت نار الاضطهاد باربعين راهبة . وكان والد دميانة معتبراً في قومه ذا مكانة عند الامبراطور الذي استعمل معه كل نفوذه الشخصي ليقنعه بان يذبح للاوثان لانه لم يكن يرغب هلاك خادم أمين مثله قل ان يوجد له مثيل في بلاد عمها الاضطراب والقلاقل وكثر فيها أعداء الامبراطور. قيل ان هذا الامبراطور قبل من والد دميانة ان يظهر له اشارة خفيفة تدل على الخضوع لاوامره في هذا الشأن بدل أن يذبح للاوثان كغيره ومن ثم يعهد اليه الامبراطور تنفيذ أمره القاضي بالاضطهاد في المديرية التي يحكمها هو فيتسنى له حينئذ انقاذ اصدقائه ومحبيه من العذاب بهذه الطريقة . فتردد صاحبنا بين القبول والرفض ولما سمعت دميانة بذلك أرسلت الى ابيها تستعطفه وترجوه وتستحلفه أن يرفض طلب الامبراطور رفضاً باتاً ففعل ابوها كذلك وازدرى بمواعيد الامبراطور واستخف به ايضاً . فلما بلغ ديوكلتيانوس ذلك استشاط غضباً خصوصاً لان امرأة مكسورة الجناح ابطلت كلامه ولم تعبأ بقوله فسكب سخطه ورجزه ليس على الاب فقط بل على الابنة والقي القبض على دميانة والراهبات اللاتي معهن واضطرهن لان يذبحن للاوثان ولما رفضن ذلك قطعياً وضعن تحت طائلة العذابات القاسية الطويلة المدى ولما لم يعدلن عن رأيهن قطعت رؤوسهن جميعاً . ولم يزل الدير الذي قيل ان رفاتهن موجودة فيه قريباً من بلقاس . ومن الحقائق الراهنة ان المسلمين الوطنيين ــ الذين من سلالة المصريين المسيحيين وارتدوا عن الايمان في أوقات مختلفة ــ

لا زالوا يؤدون الاكرام للست دميانة كما وصل اليهم من اجدادهم
فيقصدون مزارها مع مواطنيهم المسيحيين سنوياً ويفدون زرافات
ووحداناً الى ديرها الذي يعد من اجمل الآثار منظراً في مصر

وقد ظلت نار الاضطهاد مستعرة في انحاء المملكة الرومانية لمدة
ثلاث سنوات حيث بلغت منتهى القسوة والفظاعة . واول امر صدر
باثارة الاضطهادات كان في سنة ٣٠٣ ولم تأت سنة ٣٠٤ حتى صدر الامر
الرابع المار ذكره بك أصدره غاليريوس عندما كان ديوكلتيانوس مصاباً
بالعته والجنون . وهذا الامر الاخير زاد عن غيره في الصرامة والخشونة
ولم يقتصر على فريق معلوم من المسيحيين بل عم جميعهم بغض النظر عن
العمر وبدون تمييز بين الرجال والنساء ولم يستثن منه ذو حيثية وصاحب
مركز رفيع . والذي يريد معرفة درجة ذلك الاضطهاد ومقدار ما قاساه
المسيحيون من العذاب عليه بمراجعة الفقرة الآتية التي كتبها يوسيبوس
أسقف قيصرية وكان قد جاء الاسكندرية عندما خمدت نار الاضطهاد
وعندما كان صدى بلاياه لا يزال يرن في آذان الذين شاهدوه وذاقوا
مرارته . ومما يذكر في هذا الصدد ان برسوم العريان الذي نال الشهادة
بعدئذ وستأتي حكايته معنا كان اكثر الحكام غيرة في تنفيذ اوامر
الامبراطور القاضية بالاضطهاد ولكنه اهتدى واستشهد . ولا يؤخذ من
كلام يوسيبوس التالي انه كان في مصر عند حدوث هذا الاضطهاد
ولكن يحتمل من كلامه الآتي بانه شاهد الامر بعينه انه يقصد بذلك

ما نظره في فلسطين من استشهاد الكثيرين وموتهم لاجل اسم المسيح
مما جعله يقيس ما جرى في صعيد مصر به ويتخذه دليلا على شدة الاضطهاد
في هذه الديار وهوله . وهاك ملخص ما كتبه :

«انه يعسر على الكاتب الماهر ان يصف مقدار ما تجرعته الشهداء
في صعيد مصر من عذابات قاسية وآلامات تشيب من ذكرها النواصي
فقد كانوا يأتون بهؤلاء الشهداء ويخدشون اجسامهم وينزعون عنها
الجلد الى ان ينكشف اللحم وهكذا يفعلون بباقي اجزاء الجسم الى ان يموتوا
اما النساء منهم فكانت تربط احداهن في احدى رجليها وترفع
في الهواء بواسطة آلة مخصصة لذلك بعد ان يخلعوا عنها ملابسها
ويكشفوا كل جسمها وتظهر امام جمهور المتفرجين بمظهر تنفر منها
الانسانية وتأباه النفوس الابية . وكثيرون ماتوا بواسطة الاشجار
بالطريقة الآتية وهي انهم كانوا يقربون غصنين قويين من شجرتين
متقاربتين بآلة وضعت لهذا الغرض ثم يجيئون بالشهيد ويربطونه بهذين
الغصنين ومن ثم يتركانهما ليعودا الى اصلهما فهذا يعتدل لجهة اليمين مثلا
والآخر للشمال والشهيد بينهما تمزق اضلاعه وتسحق عظامه سحقاً
ويتطاير جسمه في الفضاء . ولم يكف لهذه الفظائع اياماً وشهوراً بل
كانت تستمر سنيناً طوالا وهي في افظع حالاتها وكثيراً ما كان
يصدر حكم بقتل عشرة اشخاص في لحظة واحدة واحياناً يقتلون عشرين
رجلا مرة واحدة واحياناً ثلاثين وستين ومرة حكم على مائة رجل

بالموت فماتوا في يوم واحد مع زوجاتهم واولادهم الصغار وذلك بعد ان ذاقوا من العذاب الواناً . قال المكاتب : وقد شاهدت بعيني بينما كنت واقفاً بقرب النطع جماً غفيراً من المسيحيين جمعوا لينالوا الشهادة ولكن بطرق مختلفة فكان بعضهم تجز رؤوسهم وبعضهم يحرقون في اتون النار المتقدة حتى ان السيف الذي كانت تقطع به الرؤوس ثلم وفل حده وتحطم تحطيما لكثرة ما سحق من الرقاب وكذلك السيافون تعبوا وخارت قواهم من ذبح الآدميين فكانوا يستريحون هنيهة ريثما يتنفسون الصعداء . فمما تقدم يتضح ولا شك اننا نحن شهود عدول على ما شاهدناه باعيننا من الغيرة الخارقة والقوة الالهية الصحيحة والفرح في الروح القدس الذي ملأ قلوب هؤلاء الذين يؤمنون بالمسيح ابن الله ايماناً متيناً جعلهم يقتبلون الموت بصدور منشرحة وثغور باسمة حتى انه عندما كان يصدر الحكم على واحد منهم بالاعدام كان الاخرون يندفعون من كل صوب مزدحمين في المحكمة امام القاضي معترفين له بانهم مسيحيون غير مبالين بما يلحق بهم من عذابات مريعة واضطهادات شنيعة بل كانوا يجاهرون بكل جراءة وشجاعة بديانتهم الحقيقية التي تعلم بوجود اله واحد عظيم خالق السماء والارض والبحر وكل ما فيها . ومن العجيب الغريب انه عند ما كان يصدر الحكم النهائي بموتهم كانوا يقابلون هذا الحكم بفرح وتهليل حتى انهم كانوا يرنمون ويرتلون اغاني الحمد والشكر لله الذي اهلهم لان يموتوا لاجله وكانوا يظلون يفرحون ويطربون الى آخر نسمة من

حياتهم عند ما تفارق ارواحهم اجسامهم - نعم ان هذا غريب ولكن الاعجب من هذا كله ان الافراد الذين اشتهروا بغناهم وثروتهم والذين عرفوا بطيب محتدهم وشرف منسبهم وذاع صيتهم في الافاق خصوصا لانهم برعوا في الفلسفة والعلم ونبغوا في المعرفة والعرفان - هؤلاء كانوا يحسبون كل هذه الامجاد والمزايا من سقط المتاع ويزدرون بها ازدراء في جانب اهمية الدين الحقيقي والايمان الصحيح بربنا ومخلصنا يسوع المسيح »

ولنعد الآن الى ذكر مشاهير الشهداء الذين استشهدوا على يد ديوكلتيانوس في مصر فنقول ان من اشهرهم ميناس او مينا المعروف هنا باسم « مارمينا » فقد ولد من عائلة عريقة في النسب في مدينة نيقيوس وكان أبوه مديراً في احدى مديريات مصر اما مينا نفسه فكان ضابطاً في الجيش عندما دعي لانكار الديانة المسيحية فلما رفض قطعت رأسه ودفن جسمه في اقليم مريوط حيثما بنيت كنيسة في المكان الذي دفن فيه اكراماً له ثم هدمت وبنيت مكانها كنيسة اكبر منها في مدة حكم اركاديوس ويحتمل انها كانت كمكان يستريح فيه الحجاج والمسافرون عند مرورهم من الاسكندرية الى وادي النطرون

ولو ان الموت والاضطهاد وقعا بشدة على الطبقة العالية من المسيحيين في مصر الا ان العمال وجماعة الفقراء معهم لم يمسهم السوء كما مس غيرهم وذلك لان الحكومة كانت في حاجة اليهم لتشغيلهم في مقالع البرفير

ومناجم الزمرد في مصر التي كان تشتغل فيها قبلا المجرمون ومن ثم سخروا فيها المسيحيين عدة سنين كمذنبين وذنبهم هو دينهم . وكان عندما يبتدي الاضطهاد يحكمون على بعض المسيحيين بالاشغال الشاقة مؤبداً خصوصاً عندما كانوا يحتاجونهم للاشتغال في اخراج المعادن وبعضهم سيما اساقفة الكنيسة كانوا يحكمون عليهم بان يشتغلوا طول حياتهم في خدمة ابل الامبراطور واسطبلات خيوله . إلا انه يحتمل ان هؤلاء الاساقفة افتدوا انفسهم بشروط معلومة وذلك يظهر من قول يوسيبوس عنهم بانهم لم يسوسوا رعيتهم سياسة الجد والاستقامة ولذلك سقطوا الى حضيض المذلة والهوان لابتعادهم عن الحق والكمال فلو كانوا في الاسر وتحت رق العبودية لماقال عنهم يوسيبوس هذا القول ولما كانت لهم ثمت علاقة بالشعب .

وقد ورد في بعض التواريخ ذكر خمسة من اساقفة مصر الذين وقعوا تحت طائلة العذاب المرتقب قبل ان يردوا حتفهم . اما تاريخ الشهداء القديم فقد جاء فيه ان عدد الذين استشهدوا في خلال التسع سنين التي ازكى ديوكلتيانوس نار الاضطهاد فيها في بر مصر بلغ ١٤٤٠٠٠ شهيد ولا مشاحة في ان في هذا القدر شيئاً من المبالغة والغلو كما ان التقدير الذي قدره بعضهم بعيد عن الحقيقة بالمرة لا يعتد به لانه ذكر عدد الشهداء اقل من الصحيح بكثير . فاذا قال باحث بشناعة الاضطهاد بمصر في ذلك الحين وبكثرة الذين راحوا ضحية فيه قلنا له انظر الى النجم

الوافر الذين ارتدوا عن الايمان والذين خبأوا انفسهم لكي ينجوا من الموت فهؤلاء لا يحسبون في عداد الذين ماتوا وفاتوا . وقد مر بك ان برسوم العريان كان من أشد الناس مقاومة للديانة المسيحية واضطهاداً للمسيحيين وقد ذكر المؤرخ نيبل الظروف التي اعتنق فيها هذا الرجل الديانة المسيحية ولكنه لم يذكرها حسب اصلها بل جاءت محرفة ولذلك رأينا من الصواب ان نأتي على شرح الحقيقة نقلا عن اقدم المصادر المصرية واوثقها فنقول :

ذكرنا آنفاً ان العريان كان ضابطاً في الجيش المصري . وكان بين رجال فرقته عسكريان اسم احدهما فيليمون والثاني ابولونيوس وكان أولهما مغنياً والثاني زماراً . وكان هذان العسكريان صديقين حميمين لبعضهما وكانت رغبتهما في الاستشهاد شديدة جداً وذلك لانهما اختارا أن ينالا الشهادة حالا من ان يظلا طويلا في خدمة عدو لدود لدينهما هو العريان وقد يحتمل ان مهارتهما في فن الموسيقى وما كان لهما من المواهب السامية والصفات الحميدة جعلت العريان ان يغض الطرف عن ديانتهما فلم يضطهدهما حالا بل تركهما آمنين . وحدث انه اتضح لهما ان العريان يحب فيليمون المغني اكثر من زميله ولذلك اتفق الاثنان على تدبير الحيلة الآتية وهي ان فيليمون اخذ الزمار والملابس التي لابولونيوس وتزيا بزيه تماماً ثم دخل على العريان بجراءة غريبة واعترف امامه صراحا بانه مسيحي . فلما رآه العريان بهذا الشكل ظنه ابولونيوس بعينه وخطر

على باله انه من الضروري ان يمثل به تمثيلا حتى يكون عبرة لزميله ليمتنع من اقتفاء أثره وعليه اصدر امره للحال برميه بالسهام وقتله وقد كان كذلك . فلما قتل فيليمون مثل ابولونيوس امام العريان كما قتل زميله من قبله فعرف العريان حينئذ بانه قتل احد الصديقين الذي كان يحبه كثيراً وكان يتمنى لو يعيش طويلا فحنق واستشاط غيظاً وأمر بقتل ابولونيوس كما قتل رفيقه . فلما جاء رامي السهام لتنفيذ الحكم على ابولونيوس هذا طاش سهم من سهامه فاصاب عين العريان فادماها وظل مدة طويلة وهو يقاسي العذاب الاليم من هذه الاصابة الى ان شفاه احد المسيحيين وأعاد اليه بصره كالاول . وقد جاء في الرواية التي نحن بصددها ان الدواء الذي استعمله هذا المسيحي لمعالجة عين العريان كان دم هذين العسكريين اللذين استشهدا ولذلك لم يسع العريان الا ان اعترف بقوة المسيح وصدق الديانة المسيحية وبرهن على صحة ايمانه بان اطلق سراح جميع الذين كانوا تحت طائلة العذاب والموت في السجون . ولما وصل هذا الخبر الى مسامع ديوكلتيانوس ارسل للحال بطلب العريان وعند وصوله امر بموته فماته شهيداً

ومع انه يحتمل ان محافظ الاسكندرية كان اكثر شفقة واقل اهتماماً من العريان في تنفيذ الاوامر القاضية بالاضطهاد الا ان الاضطهاد في هذه المدة كان اقسى واشنع من غيره وقد قيل ان البطريرك بطرس اختباء في بادئ الامر كما فعل بعض سلفائه

وعند ما أصيب ديوكلتيانوس بالجنون وعد ان يتنازل عن الملك وذلك في أول مايو سنة ٣٠٥ ولكنه لما عاد صوابه اليه في هذا الشهر نفسه رفض هذا التنازل وسعى ان يقبض بيده على زمام الحكومة باكملها الا ان خلف الوعد هذا لم يرق في عيني غاليروس الذي بذل ما في وسعه ليضطر ديوكلتيانوس الى اصدار امر التنازل الذي وعد به . الا ان (١) موت قسطنطينوس في سنة ٣٠٦ والاضطرابات التي حدثت في المملكة أشغلت بال غاليريوس عن كل شيء حتى ان نار الاضطهاد خمدت في مصر مدة من الزمن . فلما اقترب عيد القيامة لسنة ٣٠٧ اشتغل البطريرك بطرس ـ زيادة عن شغله في اعداد منشور العيد الذي كان يصدر سنوياً ـ بتأليف « قانون التوبة » او هي الشروط التي بمقتضاها

(١) قال يوحنا النيقاوي ـ وهو كاتب نشأ بمصر في القرن السابع ـ انه لما اضاع ديوكلتيانوس رشده نفي الى جزيرة تكثر فيها الحراج والغابات اسمها واروس في الغرب ـ نيل . كان في هذه الجزيرة فئة من المسيحيين التجأوا اليها فراراً من الاضطهاد ، فلما رأوا الامبراطور في حالته السيئة هذه أظهروا له حنواً واشفاقاً وكانوا يقدمون له الخبز يومياً ويقوتونه الى ان عاد اليه صوابه وحينئذ كتب الى الجيش والى مجلس الشيوخ في رومية بطلب اطلاق سراحه واعادته الى عرشه ولكنهم أبوا عليه ذلك ورفضوا قبوله مرة أخرى فكانت النتيجة ان هذا الامبراطور أصيب بمرض السوداء (الماليخوليا) وظل وقته يبكي وينتحب الى ان ازداد جنونه ثم أصيب بالعمى وبقي هكذا الى ان انتهت حياته ومات ولم يكن احد يعتني به سوى جماعة المسيحيين الذين كان حكم عليهم هو بالعبودية والعذاب والموت

يصير قبول الذين سقطوا أثناء الاضطهاد الى حضن الكنيسة ثانية .
وقد أتينا عليها هنا بالايجاز تاركين باقي البراهين والشواهد التي اقتبسها بطرس من الكتب المقدسة ليثبت بها مذهبه في كل بند منها وهاك الشروط المذكورة — :

(١) جميع الذين زلوا في بدائة الاضطهاد لشدة ما قاسوه من العذاب المريع ثم أظهروا توبة وندامة في أثناء الثلاث سنوات الماضية يجوز قبولهم في الكنيسة يوم العيد الآتي وذلك بعد ان يصوموا (١) اربعين يوماً صوماً عنيفاً

(٢) جميع الذين عثروا في ايمانهم لداعي سجنهم فقط دون ان

---

(١) ان صوم الاربعين يوماً هذا لم يكن في ذلك الحين قانونياً في الكنيسة انما واضع لاجل الذين يرغبون في التوبة اما الصيام الذي كان دارجاً في الكنيسة الى ذلك العهد فكان اربعين ساعة فقط . وقد كتب ايرنيوس مكتوباً في هذا الصدد بعث به الى فكتور يندد عليه فيه لسعيه في ادخال هذا الفرض القاسي الثقيل الى الكنيسة قائلاً « ان جدالنا لا يقتصر الآن على تحديد يوم العيد فقط بل يتعداه الى كيفية الصوم وحدوده . ذلك ان البعض يذهب الى ان يتحتم عليهم صوم يوم واحد وقال غيرهم يومين وآخرين اكثر وبعضهم يحسبون ان اليوم المفروض عليهم انما هو اربعين ساعة نهاراً وليلاً . فهذا الاختلاف الذي تراه بين الكثيرين لم يقع في أيامنا هذه بل نشاء بين الذين سبقونا الذين اذا لم يكن عندهم قانون صحيح يسيرون عليه ابتدعوا هذا الصوم الذي منشاؤه سذاجتهم وعدم اختبارهم وعلى اي حال بحيث انهم كانوا مسالمين للجميع فوجب علينا ايضاً ان نكون على وئام وسلام »

يعذبوا عذاباً شديداً يجب ان تعطى لهم سنة كاملة فيها يظهرون التوبة الحقيقية قبل قبولهم في حضن الكنيسة

(٣) كل الذين ارتدوا عن الايمان لمجرد الخوف والوهم فقط ولم يذوقوا عذاباً تعطى لهم اربع سنوات ليبرهنوا فيها على التوبة والندامة

(٤) جميع الذين ارتدوا ولم يعودوا يطلبون التوبة والانضمام الى الكنيسة فلا يوجد قانون لهم بل حريّ بالكنيسة ان تبكيهم وترثي لحالهم

(٥) الذين نجوا من العذاب او الموت لتظاهرهم بالبله او الصرع او أي حيلة أخرى تمنح لهم مهلة ستة شهور فيها يكفرون عن سيئآتهم

(٦) العبيد الذين اجبرهم مواليهم للتقدم للمحاكمة عوضاً عنهم ثم سقطوا في هذه التجربة ينبغي ان يبرهنوا على توبتهم باعمالهم في بحر سنة

(٧) الموالي الذين فعلوا ما تقدم تفرض عليهم ثلاث سنين توبة

(٨) جميع الذين عثروا ثم عادوا فاصلحوا خطأهم حالا بان قدموا انفسهم للسجن وللعذابات يجب قبولهم في عضوية الكنيسة بدون فحص او قصاص

(٩) كل الذين قدموا انفسهم للاخطار طوعاً واختياراً دون ان ينتظروا القاء القبض عليهم او يصبروا حتى يرى ما يحل بهم لاتصح محاكمتهم ومقاصتهم بل يكتفي بتذكيرهم بان المسيح ورسله لم يعملوا

هكذا ولم يلقوا بانفسهم في التهلكة . اما الذين سقطوا من هذه الفئة المشار اليها فاذا كانوا من الاكليروس الذين طلبوا العودة الى حضن الكنيسة فلا يجب قبولهم في الوظائف الكهنوتية ثانية بل يقبلون كاعضاء في الكنيسة فقط

(١٠) اولئك الذين انكروا حيثياتهم واشخاصهم لاجل تشجيع الاخرين وتقوية ايمانهم في اوقات الاضطهاد فهم قد أتوا عملاً حسناً فلا لوم عليهم ولا تثريب

(١١) جميع الذين افتدوا انفسهم بدراهم دفعوها فداء عنهم فلا يلامون قط

(١٢) لاشيء على الذين نجوا بواسطة هربهم من الموت ولا قصاص عليهم

(١٢) جميع الذين اجبروا اجباراً لكي يذبحوا للاوثان والذين افقدهم العذاب شعورهم واحساسهم فاصبحوا لا يدركون يجب اعتبارهم في درجة الذين اعترفوا بالمسيح تماماً ماداموا فعلوا مافعلوه بدون ارادتهم . فاذا كانوا من الاكليروس يعادون الى وظائفهم كما كانوا . انتهى

وبعد ان انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنائس الاوربية صادق مجمع طرولو سنة ٦٦٢ على هذه القوانين المار ذكرها وقد ظل هذا القانون الذي دعاه الاجانب قانون الكنيسة الهرطوقية معمولاً به في جميع الكنائس الاورثوذكسية في كل العالم التي اقتفت آثار كنيسة

مصر ونسجت على منوالها

وقد يغلب على الظن انه في أثناء هدنة الاضطهاد هذه استفحل أمر الانشقاق الذي كان منشاؤه ميليتيوس حتى استلفت امره الانظار واشغل الافكار وقد اختلف المؤرخون في تحديد مدة وقوعه فقدموا واخروا فيه نحو سنتين او ثلاث . اما ميليتيوس هذا فكان أسقفاً لمدينة ليكوبوليس (اسيوط) وقد وردت عنه روايتان متناقضتان . اولاهما رواها اتباعه ومريدوه والثانية اوردها أثناسيوس الذي كتب عن هذا الشقاق بعد حدوثه بخمسين سنة . ولا ريب في ان الروايتين المذكورتين تقربان من الحقيقة ولو كانتا مختلفتين

اما أثناسيوس فقال ان ميليتيوس قد نجى نفسه في وقت الاضطهاد بان ذبح للاوثان فلم يسع البطريرك بطرس الا أن شكل مجلساً بعد ذلك في الاسكندرية فحكم هذا المجلس على ميليتوس بالادانة والابتعاد عن الوظيفة فعوضاً عن ان يخضع ميليتيوس للحكم انشق من الكنيسة وسار على غير طريقها ولم يكتف برسامة القسوس فقط بل تطرف حتى صار يسيم اساقفة وكانت النتيجة ان ثلاثين من هؤلاء الاساقفة الذين سامهم ميليتيوس صرحوا باستقلالهم عن كرسي الاسكندرية وقالوا بعدم وجود علاقة لهم به . وقد اشتبه في هؤلاء الاساقفة بادخالهم الى الكنيسه تعاليم يهودية وفرائض طقسية من العهد القديم بطريقة غير محسوسة وقد ظهر في الاسكندرية بعد ذلك صديق وظهير لميليتيوس هو آريوس الهرطوقي

المشهور واصله من ليبيا كان قد سامه بطرس شماساً في الكنيسة

اما اتباع ميليتيوس واصدقاؤه فانتحلوا له عذراً على ما فعله وقالوا ان هروب البطريرك بطرس في أبان الاضطهاد وسجن كثيرين من اساقفة الوجه البحري اضطره الى تقديم الذبائح للاصنام ليربأ بنفسه. أما البراهين التي قدمها أنصار ميليتيوس والمعارضات القائل بها أضداده فتنحصر في الاوجه الآتية وهي: ان ميليتيوس فر من السجن ولم يحتمل عذاباً في سبيل الايمان المسيحي وهو عمل لم يأته أحد من الاساقفة رصفائه ثم ان ميليتيوس رسم قسوساً وسام أساقفة لابروشيات أخرى غير أبروشيته وقد عمل هذا رغماً عن الاحتجاج الشديد والاعتراض القوي الذي أرسله له أربعة من الاساقفة بينما كانوا في السجن ثم ذاقوا كأس الحمام ونالوا اكليل الشهادة مع من ناله. وانه بعد موت هؤلاء الاساقفة الاربعة سار ميليتيوس الى الاسكندرية واغتصب وظيفة البطريرك الذي كان لا يزال غائباً وأخذ يتداخل في أعمال البطريركية ثم انه لم يعبأ بجواب التعنيف الذي أرسله بطرس كما انه عند عودة هذا البطريرك وصدور الحكم عليه من المجلس لم يرضخ للحكم بل اظهر ازدراء به وتحقيراً مهيناً ثم صار يقاوم البطريرك ويضاده في كل قول وعمل. وبعد هذا كله ذهب ميليتيوس الى بلدته حيث اعتزل فيها عن كل عمل اما آريوس فسامحه البطريرك ورده ثانية الى وظيفته

ولم تكن هذه المناظرات والمنازعات لتنتهي لو لا ان بداء اضطهاد

جديد وضع حداً لها وجعل الكنيسة تنظر الى هذه المصيبة الحديثة. اما الامة القبطية فلم تكن حينئذ قد عرفت الذي تم لميليتيوس واريوس ومر ذكره بك

فهذا الاضطهاد الجديد بداء في خريف سنة ٣٠٨ب. م اذ أصدر غاليريوس امراً صارماً شديداً يقضي باعادته من جديد وذلك باتفاقه مع ابن اخيه مكسيمين. وغريب في امر حكام الاقاليم الذين بعد ان كانوا في الاضطهادات السالفة يكتفون بتعذيب المسيحي باتلاف احدى عينيه مثلا او بوضعه تحت رق العبودية والذل اذ يشتغل في المناجم المصرية كاسير تجاوز هؤلاء الحكام الحد في هذه المرة وجرى دم الغيرة والحسد في عروقهم من فعل الديانة المسيحية وزاد حنقهم كثيراً ضد المسيحيين الذين كانوا يابون انكار دينهم والاعتراف بغيره. فعظم الخوف والرعب من جراء هذا الاضطهاد ومصائبه وعم القلق والاضطراب واستوليا على مصر مدة سنتين كاملتين فكانت تشبه فرانسا عند ثورتها العظيمة التى حدثت سنة ١٧٨٩ التي دكت بها معالم الاستبداد ومحت آثار الظلم ولكن بعد ان جرت الدماء انهراً. ولسنا في حاجة الآن لوصف طويل لتلك المخاوف والشدائد بل يكفي ان نقول انها فاقت كل البلايا التي سبقتها وقرأت وصفها فيما مر وان الذي زاد النار اشتعالا والداء استفحالا هو مكسيمين دازا ذلك الشكس الشرس والفظ المتوحش الذي اضر بمصر كثيراً كما ان مكسيننتيوس ابن الامبراطور مكسيميان اشعل مثل هذه

النيران في اوروبا واوقع فيها اضطهاداً يهول

وحدث في سنة ٣١١ ان الله ابتلى غاليريوس بمرض عضال عز دواؤه وعسر شفاؤه . فلما ازداد به الالم ولم يجد طبيباً يريحه من عذابه او الهاً يشفيه من اوصابه وينقذه مما اصابه سعى سعي اليائس القانط في ايجاد سلام وصلح بينه وبين اله المسيحيين الذي صرف غاليريوس هذا كل ما في وسعه وقضى العمر في مقاومته ومحاربته واضطهاد شعبه فاصدر امراً يقضي بعقد هدنة مع المسيحيين وكف الاضطهاد عنهم للسبب المار ذكره وقد ورد نص هذا الامر في تاريخ يوسيبيوس وهو مطول مسهب الا ان خضوع غاليريوس وتوبته التي جاءت بعد اوانها لم تفده شيئاً لان الله لا تجوز عليه الحيل ولا يخفى عليه الغش والخداع . فان خبر ارتداد غاليريوس الى الديانة المسيحية عرفه الناس في اخر يوم من شهر ابريل سنة ٣١١ وفي اواخر شهر مايو ذاع خبر موته في جميع انحاء المملكة ولا بد ان يكون مات قبل اذاعة الخبر في المملكة بايام كما هو معلوم فتكون توبة غاليريوس وندامته جاءت وهو على حافة القبر فلم تنفعه شيئاً

قلنا ان غاليريوس اصدر امراً يقضي بايقاف الاضطهاد وقد ذيل هذا الامر بامضاء قسطنطين وليسينيوس النائبين عنه ولكنه لم ينفع ولم يوقف سير الاضطهاد فان مكسيمين دازا ابن اخيه لم يكف عن بغيه وعناده بل بقي يحمي وطيس الاضطهاد حتى ان اهم شهداء مصر وكثيرين من امجادهم نالوا الشهادة في آخر سنة من سنيه وكان في

مقدمة هؤلاء الشهداء البطريرك نفسه الذي قطعت رأسه بغتة وعلى غرة من شعبه خوفاً من ان يقوم هذا الشعب الذي كان يحب البطريرك حباً مفرطاً ويعمل على خلاصه من يد الحكومة بالقوة والقسر . ومما يدلك على تفاقم الخطب في هذا الاضطهاد ان انطونيوس اب الرهبنة شعر به وحس بثقل وطأته بينما كان منكمشاً في ديره في الصعيد مدة عشرين عاماً او تزيد فخرج من مكمنه كانه من أهل الكهف المزعومين وسار يحث الخطى الى الاسكندرية لكي يعزي الشعب الذي حزن واكتأب لموت البطريرك وقيل بل ان غرضه كان ان ينال الشهادة في الاسكندرية ما دام لم ينلها في الصعيد حيث كان بعيداً عن الاضطهاد في ديره الا ان هذه الامنية لم تتحقق له ولم يستشهد لايقاف حركة الاضطهاد وذلك لان قسطنطين وليسينيوس كانا قد تظاهرا بالعدوان ضد مكسيمين الخامل عديم الشهرة فتحولت انظار هذا من اضطهاد الاخرين الى الدفاع عن نفسه ولكن خانه حظه فهزم في سنة ٣١٢ شر هزيمة امام عدويه وبعد ان قضى بضعة ايام في حالة الغيبوبة شرب كاس الحمام بان تجرع شيئاً من السم الزعاف

فالى هنا انتهت مدة العشر سنين التي كانت ملأى بمصائب وبلايا لم تذق مثلها كنيسة مسيحية في العالم . صحيح ان كل امة مسيحية في الارض يمكنها ان تسرد لك حكايات مؤلمة عن اضطهاد وقع عليها قد يكون قاسياً صارماً مثل هذا الاضطهاد الذي وصفناه لك في ما سبق

وصحيح ايضا ان بعد هذه الحوادث بنحو اثني عشر قرنا قام ملك مسيحي (هو فيليب الثاني ملك اسبانيا) وحكم على جميع سكان مملكة أخرى مسيحية (هولاندا) بالموت لاجل ديانتهم ولم يستثن رجلا او امرأة صغيراً أو كبيراً حتى انه انفذ جيشا لتنفيذ حكمه هذا — نعم كل هذا حدث وصحيح ولكن منذ ما ظهرت الديانة المسيحية في عالم الوجود لم ترَ عين ولم تسمع اذن باضطهاد شنيع فظيع مثل ذلك الاضطهاد الذي وصفناه لك وهو الاضطهاد الذي من وقته والمسيحيون المصريون يؤرخون تاريخهم الخاص به وهم يذكرونه الآن والقلب مفعم بعوامل الاسف والتفجع على تلك الازمنة القاسية . وهذا التاريخ هو تاريخ الشهداء (١) المعروف عند القاصي والداني

الفصل الثالث عشر

جدال اريوس سنة ٣٢٢ للمسيح و٢٨ للشهداء

بعد موت مكسيمين بسنتين وبعد استشهاد البطريرك بطرس بسنة تقريباً شرع المصريون في انتخاب بطريرك جديد لهم فوقع اختيارهم على أخيلاس الذي كان قبلا رئيساً للمدرسة اللاهوتية . أما انطونيوس الذي قلنا انه جاء الاسكندرية لينال الشهادة كغيره ولم يتمكن من نوالها فقد برح الاسكندرية في هذا لوقت ولكنه لم يذهب تواً

(١) ان تاريخ الشهداء — او هو التاريخ القبطي — لا يبتدىء من سنة ٣٠٣ كما يزعم البعض بل من سنة ٢٨٤ ب . م وهي اول سنة من ملك ديوكلتيانوس

الى الصعيد حينما كان قبلا بل سار الى الانحاء الجبلية الواقعة بين البحر الاحمر والنيل حيث بني بعد موته ديرا مار انطونيوس ومار بولص ولا يزالان موجودين الى الآن في المكان المشار اليه . ولما حط انطونيوس رحاله في هذه البقعة غرس بيده زرعاً في الاراضي البراح الواقعة هناك لكي يقتات منها وكان يشتغل في عمل الحصر وذلك ليكفي تلامذته وأتباعه مؤونة احضار الطعام له وهم على مسافة بعيدة منه . ويظهر ان العناء زاد عليه بعدئذ وكثرت أشغاله كثيراً لانه فضلا عن تعبه في تعليم التلاميذ الذين التفوا حوله في مدة قصيرة فانه لم يدع فرصة تمر دون أن يفيد أهالي الريف ويتحفهم بمآثره كل آونة وأخرى مع عدم وجود رابطة متينة بينه وبينهم وقد كان يبعث برسائل ارشاد ونصح الى الامبراطرة والولاة لعلمه انهم في حاجة شديدة الى نصائحه . ومع انه لم تكن لديه كتب أو اسفار كما انه لم يكن عارفا بلغة غير لغته كما مرّ القول ولكنه كان رجلا يفكر كثيراً ويعلم تعليماً حسناً شأن أهل الغيرة الذين يعرفون انهم خلقوا ليفيدوا العالم وينفعوا بني جنسهم . أما تاريخ حياة انطونيوس الذي كتبه أثناسيوس فقد دخلت عليه زيادات واضافات كثيرة قلبت معناه حتى ظنّ البعض ان أثناسيوس براء منه وانه لم يكتب كلمة واحدة فيه . وقد ظهر كثيرون في هذا القرن التاسع عشر من المنتقدين المدققين الذين زعم بعضهم ان انطونيوس لم يكن له في عالم الوجود وجود وان حياته محض خرافة لا أصل لها وقد تعمق بعض

الباحثين وقال ان ما كتب عنه انما هو رواية تاريخية خلق الروائي مار انطونيوس بطلا لها وليس هي ترجمة حال شخص حقيقي . ولكن المنصف الذي ينظر الى الحقائق بفكر ثاقب ويطرح ظهرياً ما علق بذكر هذا الرجل العظيم من الخرافات والحكايات الغريبة التي تقترن عادة بتواريخ نوابغ العالم — ان الذي يفتكر هكذا لا يجد ندحة لافكار هذا الرجل أو عدم الاقرار باعماله العظيمة التي أتاها في حياته

أما اخيلاس الذي قلنا انه انتخب بطريركا في الاسكندرية فلم يستمر منصبه سوى سنة واحدة حدثت في اثناءها حادثة تستحق الذكر هي قبوله آريوس الهرطوقي الذي كان قد حرمه بطرس سلفه مرة ثانية وظل تحت طائلة هذا الحكم الى ان توفي بطرس فرده اخيلاس الى عضوية الكنيسة بناء على طلبه وزاد ان عهد اليه رعوية كنيسة بوكاليس وهي أقدم كنيسة في الاسكندرية قيل انها بنيت على مقبرة مارمرقس. ولما توفي اخيلاس رشح اريوس نفسه لمركز البطريركية ولكن الاكليروس والشعب اتفقوا معاً على انتخاب اسكندر صديق اخيلاس

وكان اسكندر هذا قد بلغ من الكبر عتياً عند ما سيم بطريركاً وكان اثناسيوس تلميذه المحبوب في السابعة عشرة من عمره . أما الحكاية التي اوردها روفينوس المؤرخ عن كيفية تعلق اسكندر باثناسيوس وسبب ميله له فلا يمكن تصديقها على علاتها الا انه يقرب من العقل ان حادثاً حدث قبل ارتقاء اسكندر اوجد علاقة بينه وبين صديقه

اثناسيوس نلخصه لك فيما يلي :

قيل ان اسكندر كان مرة ينتظر مجيء بعض رجال الاكليروس لتناول الطعام وكان جالساً في شرفة تطل على البحر الذي كان يجري تحت منزله وهو يتفرج على جماعة من الغلمان يلعبون هنالك . وقد احدق بنظره فيهم طويلاً فاتضح له أنهم في لعبهم يمارسون الطقوس الكنائسية على اتم اشكالها . وقد ظن انهم ربما يطيلون لعبهم ولا ينتهون منها حالاً ولذلك استدعاهم من على الشاطئ . فمثلوا بين يديه بحضور جماعة الاكليروس الذين كانوا قد جاؤا في هذه الاثناء . فلما استقصى البطريرك حقيقة أمرهم زاد استغرابه كثيراً عند ما ظهر له انهم أتوا عملاً فوق ما كان يخمن ذلك لان واحداً من هؤلاء الصبية اسمه اثناسيوس عمد بعض الاولاد رفاقه الذين لم يسبق لهم عماد حسب الطريقة القانونية المستعملة في الكنيسة . وبعد ان تناقش القسوس مع بعضهم في أمر هذا العماد قرّ رأيهم اخيراً على الاعتراف بصحته ثم صمموا على ترشيح اثناسيوس وواحد أو اثنين من الصبيان الذين ساعدوه في اتمام هذه الفريضة لرتبة الكهنوت

وسواء صدقت هذه القصة أو لم تصدق فلا مشاحة في ان اثناسيوس كان منذ نعومة اظفاره صديقاً لاسكندر وانه تعين سكرتيراً له عند ما صار بطريركاً . ولم يمض على ارتقاء اسكندر السدة البطريركية خمس سنين حتى عم السلام كل الكنيسة في ارض مصر برمتها بعد هاتيك

البلايا والمصائب التي اقتحمتها. أما ميليتيوس اسقف اسيوط فقد يستدل من الحوادث التالية انه ظل مدة في شقاقه وعناده ولكن لما كانت اسيوط في ذلك الحين بعيدة عن الاسكندرية بسفر أيام كثيرة فكان يخال للناس انه ساكن في ابروشيته لا يعمل شيئاً يدل على الشقاق . وقد عاد الناس الى منازلهم بعد الفرار وأخذ الشعب يهتم في ترميم الكنائس المنهدمة مع انه لم تكن توجد عائلة واحدة في مصر الآ وكانت تندب عزيزاً أو قريباً لها ذهب فريسة الاضطهاد فتكلمت القلوب لفقده وكثيرون كانوا يعدّونه في عداد الاموات اما لان عظامهم سحقت لكثرة ماقاسوه من الامات الاضطهاد فاصبحوا كالعدم أو لان عيونهم فقئت تعذيباً لهم ولكن الديانة المسيحية امتدت اغصانها كثيراً في البلاد زيادة عن ذي قبل حتى ان عدداً يذكر من الوثنيين دخلوا الى حظيرة المسيح لما شاهدوه فى الديانة المسيحية من الحق الذي لا ينقض والقوة الروحية التي لا تغلب . ومع كل هذا التقدم كان الشقاق قد بداء يستفحل حتى صار صفة ملازمة للمصريين على توالي الايام واصبح تعريفاً لهم دون غيرهم الى الآن وما سبب هذا الا لان الدم النقي الذي كان يجري في عروق الامة اهرق وكاد ان يستأصل وذلك عند ما قامت تطلب الاستقلال في مدة حكم اخيلوس وعند ما كانت تجاهد لحفظ كيان الديانة المسيحية أثناء العشر سنين الاخيرة لما قام اعداؤها يطلبون اضمحلالها ولذلك لم يبق من المصريين الاحرار الا النذر اليسير لان الذين عاشوا

بعد تلك المحن والاحن وعمروا البلاد انما نجوا من الموت بالمكر والخداع أو بالجبن والخوف وهي صفات تدلك على حيثية هذا الشعب ولم يبق من الكرام سوى جماعة تشوهت اجسامهم ظلوا مطروحين بين اهليهم لا منفعة منهم أو فريق من العمال الذين أستعبدوا ليشتغلوا في المناجم القاصية وقد كانوا يميلون للحصول على مغفرة من الكنيسة لاجل هفوة تصور البعض انهم ارتكبوها ضد الدين الذي بذلوا لاجله دماءهم ولكنهم قضوا حياتهم يقاسون مر الاسر والذل ـ أما الشقاق الذي أشرنا اليه فقد مضت عليه عشر سنوات اخرى قبلما يتسنى لقسطنطين ان يتداخل لحسمه وفض الخلاف الذي كان قائماً بين اساقفة الكنائس بعد ان اشتدت بينهم الشحناء والبغضاء وذلك لان هذا الامبراطور لم يكن قد صار مسيحياً بعد ولم يكن قد تعمد لانه كان سادس الستة امبراطرة الذين اقتسموا المملكة بينهم بعد تنازل ديوكلتيانوس عن سرير الملك

اما الحوادث التي أوجبت انعقاد مجمع نيقية وما تمّ في هذا المجمع فمعروفة عند الكثيرين اذ أتى على ذكرها جماعة من علماء اللاهوت وشرحوها بالاسهاب فلا حاجة لسردها الآن . ولم تأت سنة ٣١٩ حتى زاد تذمر الاسكندريين وكثر لغطهم ضد البدعة التي كان آريوس يسعى في نشرها وتعليمها للآخرين مما دعى البطريرك اسكندر ان يهتم لاخذ الاحتياط اللازم لصدّها . وكان لما شعر هذا البطريرك بتفاقم الشقاق واتساع حلقة الخلاف في الكنيسة صرف كل عنايته بغاية

ما يكون من الصبر والحكمة ليستميل اليه تلك الجماعة التي انشقت
ويعمل على اقناعها بخطائها وضمها الى الكنيسة وذلك بعد ان ينزع من
العقول ما علق بها من الاوهام والاضاليل كما فعل البطريرك ديونيشيوس
قبله في مسألة الفيوم فعقد اجتماعين حافلين للمناقشة في هذا الموضوع
وفضّ الخلاف بالحسنى ولكنه لم يفلح ولم يأت عمله بثمرة وأخيراً كتب
البطريرك رسالة رعوية الى آريوس واتباعه ينذرهم بترك طريق الضلالة
التي ساروا فيها والرجوع الى الطريق السويّ ولكنه عبثاً حاول إقناعهم
ولا بد ان بعض الباحثين يعرفون ان نقطة الخلاف هذه كانت فيما
يختص بألوهية المسيح وهي مسألة لم يسبق لها مثيل في الجدل واللدد
ولم تكن الكنيسة تعرفها ولا تهتم بها قبل الآن حتى انها اشغلت
الاذهان واوجدت احزاباً انحاز اليها الكثيرون وبينهم أولئك الذين
كانوا يجنحون الى السلام ويميلون الى الابتعاد عن كل شقاق وخصام .
والذي درس بدعة آريوس هذه درساً مدققاً ووقف على كنهها لا يجزم
بان هذا الرجل انكر ألوهية المسيح انكاراً حقيقياً صريحاً ولو انه كان
يحاول كثيراً في أزمنة مختلفة ان يدخل معتقده في العقول بكلمات
وعبارات كان يمكن ان تصادف قبولاً عند اعضاء الكنيسة . اذاً
فالذنب ليس على آريوس بل على فئآت اخرى سبقته في ايجاد هذه
البدع فاخذ هو عنها ولكن تأثير تلك الفئآت لم يكن شديداً كما كان
تأثير آريوس الذي جعل الكثيرين ينكرون سر الالوهية حتى انتشر

هذا التعليم وعمّ ولعل سبب هذا هو ردّ الفعل الناتج من شدة تمسك
القوم بالامور الروحية واحتفاظهم على معانيها وقوتها احتفاظاً لم يدعهم
يسقطون في أزمنة الاضطهادات المرّة بل كانوا يضحون انفسهم لاجل
هذا المعتقد الذي اصبحوا الآن يرفضونه لا لسبب سوى اثبات قاعدة
الافراط والتفريط

وكانت نتيجة هذا كله ان البطريرك اسكندر شكل مجمعاً في سنة
٣٢٠ حكم فيه على آريوس بالحرمان من عضوية الكنيسة وهو ثالث
حكم صدر ضده في حياته . اما آريوس فلم يرضخ لهذا الحكم ولم يعبأ به
بل غادر الاسكندرية قاصداً فلسطين حيثما جمع اليه اصدقاء أثر فيهم
تأثيراً شديداً اذ استمالهم اليه بكليتهم حتى ان يوساب اسقف نيكوميديا
الذي كان رفيقاً لآريوس في المدرسة اعتنق مذهب زميله كما هو ومن
ثمّ سعى بعد ذلك في استمالة الامبراطور قسطنطين الى هذا المذهب
وقد كان الامبراطور المذكور صديقاً ليوساب يميل اليه كثيراً

ولما غرس آريوس غرسه هذا في يوساب اسقف نيكوميديا آب
الى فلسطين حيث سمح له يوسيبوس اسقف قيصرية واساقفة آخرون
بان يعقد جمعيات دينية في ابروشيات مختلفة ليعظ فيها . فلما احسّ
البطريرك اسكندر بذلك ساءه كثيراً فسعى في اتخاذ طريقة فعالة
لايقافه عند حدّه ومنع سريان بدعته وهرطقته وعليه كتب رسالة
انجيلية محضة الى اساقفة كل الكنائس اوضح فيها الاسباب التي حملته

على حرمان آريوس وقطعه من عضوية الكنيسة وكيف انه يأبى قبوله مرة أخرى في حضن الكنيسة ما دام هو لا يزال يتمادى في غيه وضلاله . ولم تستمر هذه المناظرة طويلاً لان اذهان المتناظرين كانت قد انصرفت الى رعب جديد واضطهاد حديث بدأ حالاً بواسطة ليسينوس النائب الامبراطوري الذي امات دوناتوس اسقف ثميوس في مصر مع اثنين من قسوسه كما ان فيلاس سلف دوناتوس كان قد استشهد قبل هذا الوقت ببضع سنوات . فلسبب هذا الاضطهاد الجديد ولاسباب اخرى حمل قسطنطين على ليسينوس حملة مرة وهزمه في واقعتين عظيمتين حدثتا في يوليو وسبتمبر سنة ٣٢٣ وحينئذ خلا الجو لقسطنطين فنادى بانه اصبح الملك الوحيد للمسكونة كلها وجعل مقر ملكه مدينة بيزانتيوم (وهي اسطمبول او القسطنطينية) وفي هذا الوقت رفع اليه يوساب اسقف نيكوميديا مسألة آريوس فاغتنم هذا الامبراطور فرصة في وسط مشاغله الكثيرة بتدبير مهام الملك كتب فيها مكتوباً ارسله الى البطريرك اسكندر وآريوس معاً وهذا المكتوب اشتهر بما تضمنه من قول سداه المحبة المسيحية الحقيقية ولحمته الاخلاص والولاء .

ولكن رغماً عما حواه هذا الخطاب من الحجة المعتدلة والكلام المؤثر فان الامبراطور لم يفلح قط في ايقاف هذا الشقاق عند حده لعدم معرفته حقيقة أمره . وكان الامبراطور قد أرسل رجلا اسمه هوسيوس

من كردوفا يحمل ذلك الجواب الى اسكندر فلما آب هذا الرسول من مصر قص على مولاه حقيقة الخبر وأوقفه على جلية هذه المعضلة وعليه أصدر قسطنطين أوامره باجتماع جميع الاساقفة في نيقية ليفحصوا هذا المشكل ويبتوا فيه حكماً قاطعاً بكل تبصر وامعان . وبناء على ذلك التأم هذا المجمع الشهير سنة ٣٢٥ وفيه كتب أول نسخة من قانون الايمان النيقاوي (١) اعضاءها جميع الاساقفة الحاضرين الا خمسة منهم رفضوا التوقيع عليها . وقد ختم هذا القانون بالحرمان الآتي الذي يسرنا انه امحى من زمن طويل :- « ان الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه وانه لم يوجد قبل ان يولد وانه وجد من لا شيء او من يقول ان الابن وجد من مادة او جوهر غير جوهر الله الآب وكل من يؤمن انه خلق أو من يقول انه قابل للتغير ويعتريه ظل دوران »

وعلى ذلك حرم المجمع آريوس حرما باتا واصدر قراراً بنفيه ونفي الاساقفة الذين ابوا التوقيع على هذا القانون . ثم أخذ هؤلاء الاساقفة يبحثون في أمر الشقاق الذي احدثه ميليتيوس وفي مسألة تحديد يوم عيد القيامة فقر رأيهم على ما يأتي في النبذة التالية التي بعث بها المجمع الى المصريين وهاك هي :

« اننا اذا راعينا الحقيقة نجدان ميليتيوس لا يستحق اكراما اوصفحاً

(١) ان القانون الذي صادق عليه المجمع النيقاوي ينتهي بهذه العبارات « نؤمن بالروح القدس » اما العبارات الاخرى التي تلو هذه الجملة فقد اضيف اليه في زمن بعد هذا

على ما اقترفه من أمر الشقاق الذي احدثه الا ان الشفقة والحنان يحتمان علينا أن نعامله بالرأفة واللطف ولذلك أذن له المجمع بالاقامة في بلدته مسقط رأسه وأمره ان لا يمارس أي وظيفة كهنوتية سواء كانت رسامة أحد او ترشيح أحد للرسامة ويحتم عليه عدم الظهور في أي اقليم او مدينة بهذا المظهر ولا ان يدعي شيئاً حرمه عليه المجمع بل تبقى له صفته الشخصية فقط . اما الذين عينهم هو في وظائف وتثبتوا فيها بواسطة رسامة قانونية فيجب قبولهم في عضوية الكنيسة بالشروط الآتية وهي : ان تبقى لهم وظائفهم ورتبهم ولكنهم يعتبرون اقل درجة في كل شيء من الاخرين الذين عينهم رئيسنا المحترم البطريرك اسكندر واقامتهم الكنائس الاخرى . كذا لاسلطة لهم على تعيين أو ترشيح من يشاؤن ولا ان يعملوا عملا ما بدون تصديق أحد أساقفة الكنيسة الجامعة الذين يعدون من أنصار اسكندر ومساعديه . وعند موت أحد هؤلاء القسوس الذين سامهم ميليتيوس سابقاً ينبغي تعيين واحد بدله من الذين تنطبق حالتهم على النظامات الحديثة على شرط ان يكون ذا أهلية واستحقاق فيختاره الشعب ويصدق اسقف الاسكندرية على انتخابه . فهذا الامتياز ممنوح لجميع الاساقفة على السواء الا ميليتيوس فلا يعطى هذه السلطة نظراً لسلوكه السابق المغاير للصواب والتعقل بل يجرد من كل سلطة وسطوة لاجل طياشته وخيلائه ولانه رجل لا يبعد عليه ان يحدث شقاقاً جديداً مثل الذي اتاه قبلا . فهذه المسائل تهم مصر وكنيستها الرفيعة الشأن على

الخصوص وعليه فاذا سن قانون آخر غير هذا أو حدث رسامة كاهن ليست قانونية فيكون لغبطة الحبر المفضال البطريرك اسكندر حق التداخل في هذا الامر وان يفحصه فحصاً دقيقاً ويبت حكمه فيه لانه ليس بصاحب صوت فقط في الذي يحدث ولكن له الرئاسة العليا والسلطة التامة في تنفيذ أي عمل يريده . ولقد يسرنا أيضاً في هذا المقام ان نخبركم بما قر عليه الرأي في مسألة تحديد يوم عيد القيامة المبارك فان هذه المسألة انتهت بمساعدة صلواتكم وأصبح جميع الاخوة المسيحيين في الشرق الذين كانوا يعيدون هذا العيد مع اليهود تماما يسيرون من الآن فصاعداً على الطريقة التي تسير فيها الكنيسة الرومانية وهي التي نجري عليها نحن أيضا ومن جرى مجرانا من قديم الزمان (١) »

وقد يظن البعض ان شقاق آريوس قد انتهى عند هذا الحد والحقيقة انه بداء يستفحل الآن

وحدث ان البطريرك اسكندر تنيح بعد عودته من نيقية الى مصر باشهر ثلاثة وخلفه اثناسيوس الشاب التقي المملوء غيرة ونعمة وكان آريوس يعده خصما لدوداً له ولذلك استحكمت عوامل الشحناء بينهما مدة عشر سنوات متوالية بسبب بدعة آريوس وبعد وفاة هذا صار العداء

---

(١) قد سعي بعض اعضاء المجمع النيقاوي بان يفرضوا الرهبنة على كل الاكليروس ولكن طلبهم هذا صادف استخفافا ولم يحز القبول مطلقا حتى ان بانوتيوس الراهب وهو اسقف مصري دافع دفاعاً مفحماً ضد هذا الاقتراح واقام الحجج القوية على كل من يعمل للتداخل في مسيحية الديانة المسيحية خصوصاً فيما يتعلق بالزواج والرهبنة

شديداً للسبب عينه بين الامبراطور وهذا البطريرك الاسكندري كما سترى (١)

الفصل الرابع عشر

البدعة والانشقاق . سنة ٣٢٦ للمسيح و٤٢ للشهداء

لما رأى الامبراطور قسطنطين ان السلام قد مدّ رواقه على الكنيسة والمملكة صرف همه الى اصلاح الشرائع الرومانية وبناء عاصمة جديدة له . وحيث ان اصلاح هذه الشرائع لم يكن له تأثير في مصر فهو لا يهمنا ولا حاجة بنا للكلام عنه اما نقل عاصمة المملكة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) فقد احدث تغييراً في حالة الامة المصرية وقد سبق القول ان المصريين كانوا دائماً يحتقرون السلطة الرومانية وينفرون منها كما انهم كانوا يهزأون بالجنس اللاتيني ويعدونه شعباً جاهلاً وثني الاصل غبياً ولكن المصريين كانوا يرضخون لهؤلاء واولئك لسبب القوة العسكرية المتحكمة فيهم . والذي زاد كره المصريين

(١) جاء في القانون الذي وضعه المجمع النيقاوي هذه الجملة «حيث ان البعض يصلون وهم راكعين في أيام الآحاد وفي الاعياد الكبرى فقد قرر هذا المجمع المقدس ضرورة الوقوف على الاقدام حين تأدية الصلاة لكي يكون كل شيء بلياقة وترتيب»

للرومانيين حتى صار هذا الكره ضرباً من الجنون (١) هو اعمال بعض الامبراطرة التي كانت وحشية تنفر منها النفس وتستحلي الموت عن البقاء في مثل هذا الذل وهذا ما حدى بالمصريين الى النزوع للثورات وطلب الحرية والاستقلال في مدة حكم ديوكلتيانوس اما قسطنطين فمع انه كان من عائلة ملوكية الا انه لم يكن رومانياً ولا ميالا لرومية بل كان من بلاد السرب التي هي مسقط رأسه . اما امياله فكانت يونانية صرفة يدلك ذلك الى ان المدينتين الواقعتين على جانبي قنطرة هلاس وهما بيزانتيوم وخلكدونية كانتا قبلا مأهولتين باليونان . ولما عزم قسطنطين على بناء مدينة جديدة اختار المكان الذي اسمه «بيزانتيوم» قاعدة لها فعند ما تم بناؤها احتفل بتدشينها احتفالا باهراً وذلك في ١١ مايو سنة ٣٣٠ م ثم امر امراً جائراً هو ان جميع الذين يقصدون استيطان هذه العاصمة الجديدة يجب ان يكونوا من اصل يوناني او مكدوني وكان ذلك بتحريض واغراء من الآخرين الذين استمالوه الى حب اليونان والانعطاف نحوهم كما مر القول . ومعلوم ان مصر كانت تؤدي جزية من الحنطة سنوياً الى رومية فلما بنيت

(١) في مدة حكم لزه مان كان من العار على المصري ان يؤدي الجزية الا بعد ان يدمي جسمه من الجلد بالسياط ويجز جلده من شدة الضرب . وقد صار المصريون الى هذه الخطة في عصرنا هذا حين كانوا يعصون الاتراك ويقاومون اعمالهم فلا يرضخون الا للكرباج الذي لم يرفع عنهم الا في سنة ١٨٨٠ كما هو معلوم

القسطنطينية صارت هذه الاتاوة ترحل اليها لا الى رومية . وبالاجمال نقول انه لم يبق في مصر ما يدل على وجود أثر لتلك السيادة الرومانية التي استمرت مدة طويلة مستحكمة في رقاب اهليها سوى طلل واحد خرب وكلمة واحدة بقيت من آثار الكلام الروماني . اما هذا الطلل البالي فهو القلعة الرومانية السامقة التي كانت لا تزال دمنها قائمة في بابيلون ومع ذلك فلم يكن المصريون يعتقدون بان هذه القلعة رومانية بل كانوا يصدقون بانها الحصن القوي الخاص بالمسيحيين في ارض مصر وظلوا على اعتقادهم هذا اجيالا كثيرة . اما الكلمة التي كانت تدل على وجود الرومانيين في مصر فلم تكن الا اسم روماني فقط لا يعرف المصريون شيئاً عنه ولا يظنون انه روماني . ومعنى ذلك انه لما بنى قسطنطين الحاضرة الجديدة مزج اسمها باسم رومية فدعى العاصمتين رومية الجديدة ورومية القديمة ولم يتخذ لمدينته اسما خاصاً بها ولكن لم يقتف احد أثره في ذلك واطلق الناس على بيزانتيوم كلمة القسطنطينية واسطمبول وهو تصحيف في اللفظ اوجده الاجانب الا ان اسم رومية ظل دارجاً في الجزء الشرقي من المملكة ولم يكن يستعمل للدلالة على الرومانيين بل على اليونان والبيزانتيين وزال اسم اليونان القديم من الكلام الدارج وصاروا يلقبون بالاروام ولكن الامة اليونانية حفظت وحدتها وسلطتها في علمها ولغتها فلم يعتورهما نقص ثم تدرجت الى ان عادت اليها عظمتها التي كانت لها قبل التاريخ المسيحي فمدت ظل سطوتها على

المشرق لا سيما مصر ولكن باسم «الروم» او الرومانيين وهم أولئك القوم العتاة الوثنيون الذين كان المصريون يحتقرونهم لتوحشهم وهمجيتهم ويخافون قوتهم العسكرية وبطشهم الحربي لان هذه القوة لم ير العالم مثيلا لها قبل الرومان في ابان مجدهم وعظمتهم . ولا يزال المصريون في وقتنا الحاضر ومن قبله يطلقون كلمة (روم واروام) على اليونان لا على الرومان فهم يقولون (حارة الروم) في القاهرة يقصدون بها الشارع الذي اكثر سكانه من اليونان وكذلك يسمون بطريرك اليونان (البطريرك الرومي) (١)

وبعد تاريخ المجمع النيقاوي بقليل حدث أمر محزن مريع لهذا الامبراطور الروماني اوجد فيه نوعا من الوساوس جعلته متقلب الطبع شارد الفكر طول حياته وهذا الحادث هو قتل ابنه كريسبوس وزوجته فوسطا ولهما حكاية بذيئة شنيعة نعرض عن سردها تأدبا ولكننا نأتي على النتيجة فقط وهي ان فوسطا اتهمت ابن زوجها زوراً بتهمة تنفر منها النفس الابية ثم رفعت امره الى ابيه فاحتد وحنق وتولاه مس من الجنون حتى انه أصدر امره في الحال باعدام ابنه فاعدم . فلما عاد اليه رشده قام ضميره يبكته على هذا التسرع في قتل ابنه ثم ما لبث حتى وقف على

(١) ان هذا الخلط بين اليونان والرومان لم يقتصر على مصر فقط بل تعداها الى كل القسم الشرقي من المملكة الرومانية بذات الاسباب التي شاع بها في مصر . وقد اصبح هذا الخلط عاما الآن بين جميع الناطقين بالضاد كما اسلفنا

جلية الخبر وظهر له امر الخيانة التي ارتكبتها زوجته طوعا لدعي الميل الحيواني فامر بقتلها حالا لتنال جزاء ماجنته يداها فاماتها مع انها كانت زوجة له من سنين طويلة . اما اولادها فصاروا ورثة للعرش الملوكي بعد موت صنوهم (اخوهم من ابيهم)

والذي يتتبع سيرة قسطنطين فيما بقي من حياته يرى وجود ميل عنده لاضعاف الضمير وانحطاط في المبادي . قيل انه التمس حلا ومغفرة من الكنيسة ولعل كثرة زيارة هيلانة امه للاماكن المقدسة مرات عديدة وبناءها كنائس متعددة وتأجيلها عماده هذا الامبراطور كلها عوامل للتوبة والحاح في طلب المغفرة عما اقترفه من الذنوب التي كانت نقطة سوداء في تاريخ حياته

ومما يجدر ذكره هنا انه لم يرد في التواريخ التي كتبت في ذلك العهد شيء عن العجائب التي قال مؤرخو هذا الزمان انها حدثت عند ما كانت هيلانه تبحث وتنقب في المدينة المقدسة (اورشليم) فقد ذهب جماعة الكتاب الى ان قسطنطين بنى كنيسة ضمن كنائس اخرى في اورشليم في المكان الذي دفن فيه المسيح وان موضعها معلوم عند كل باحث ولكن لا يوجد برهان على انهم وجدوا صليباً في ذلك المكان . وقد عزى بعضهم الى هيلانة بناء عدة كنائس في القطر المصري اخصها كنائس الدير الاحمر والدير الابيض الواقعين على مقربة من سوهاج ولا ريب في ان اكثر هذه الكنائس التي شادتها هيلانة بني على اطلال كنائس قديمة العهد أودى بها الدهر اثناء الاضطهاد الاخير

وفي نحو هذا الزمن تأسست الكنيسة الحبشية وهي تعد ربيبة للكنيسة المصرية ومازالت خاضعة لها خضوعا دينياً لحد الآن . وقبل هذا العهد لم يكن للديانة المسيحية أثر في بلاد الحبشة ولو ان الحبشان يقولون بوجود صلة قديمة بينهم وبين اليهود حتى انهم كانوا يمارسون كثيراً من الطقوس والفرائض الموسوية (١) وحدث انه بينما كان البطريرك أثناسيوس جالساً في مجمع مع زمرة من الاساقفة قيل له ان رجلا غريباً وفد حالا من بلاد الحبشة يرغب في مقابلتهم فأذنوا للرجل بالدخول ولما استقر به المقام أخبره بان اسمه فرومنتيوس ومن ثم اخذ يسرد حكايته على جماعة الاراخنة الموجودين قائلا :ـ

منذ بضع سنوات مضت شرع ولي امري ـ وهو فيلسوف من صور اسمه ميروبيوس ـ في رحلة رياضية لبلاد الهند مستصحباً معه شابين من اقاربه هما فرومنتيوس (المتكلم) واخاه الاصغر واسمه ايديسيوس . وعند أوبتنا من هذه السياحة القينا عصا الترحال في احدى المواني الحبشية لكي نتزود ماء فلم نشعر الا وهجم علينا اهالي تلك البلاد لينتقموا لانفسهم

(١) توجد رواية قبطية غريبة جداً ورد فيها تفصيل الظروف التي فيها ملكة سبا (اي الحبشة) زارت سليمان الحكيم ، ماتلاها من زيارة ابنها الذي حبلت به منه لابيه سليمان . قيل انه في اثناء الزيارة الثانية انتهز ابن ملكة سبا تغافل سليمان واختلس تابوت العهد بمساعدة اربعة من الكهنة كان قد رشاهم ثم اخذه معه الى بلاد الحبشة . قال روى هذا الخبر على هذه الكيفية اخذ تابوت العهد الى بلاد الحبشة وبقي فيها الى وقت ميلاد ربنا يسوع المسيح

من بحارة في احدى السفن كان قد اساؤا اليهم فانقضوا علينا كالصواعق وذبحوا جميع الاجانب ولم ينج من يدهم الا انا واخي باعونا عبيداً للملك فلما صرنا في حوزته عين اخي نديماً له وجعلني انا كاتم سره ولبثنا عنده على هذه الحالة الى ان اعتقنا ساعة احتضاره وهو على فراش الموت . فالتمست منا ارملة الملك ان نمكث في بلادها لنساعدها على تربية اولادها الصغار فرضينا واقمنا عندهم الى ان اصبحت كل حكومة الحبشة في قبضة يدنا على توالي الايام ولذلك استعملنا كل نفوذنا في رفع شأن الديانة المسيحية في هذه البلاد . ولما جاء الزمن الذي صار فيه ولي العهد راشداً وقادراً على ادارة حكومة بلاده بنفسه فلم يبق لنا حينئذ وجه للاقامة هنالك فرحلنا من عندهم قاصدين وطننا ومسقط رأسنا اما اخي ايديسيوس فسبقني الى صور وانا عرجت على مصر لاسرد هذا الخبر على مسامع جناب البابا (لان بطريرك الاسكندرية كان يلقب في ذلك الحين بابا المشرق ولم يكن بابا رومية معروفا بهذا اللقب حينئذ) ثم التمس فرومنتيوس من البطريرك ارسال اسقف اليهم ليؤسس الارسالية في هاتيك البلاد (١)

فبعد ان استشار أثناسيوس الاساقفة في هذا الامر قر رأيهم على

(١) جاء في الرواية المصرية المشار اليها ان مار مرقس نادي بالديانة المسيحية في الحبشة كما في مصر . ويظهر من حكاية فرومنتيوس هذه انه وجد اثراً للديانة المسيحية في هاتيك البلاد عند ذهابه اليها مع الفيلسوف الصوري واخيه

تحريض فرومنتيوس بالرجوع الى الحبشة وأخذ هذا العمل على عاتقه وعليه أعطيت له رتبة كهنوتية وأعيد الى بلاد الحبشة حيثما امضى بقية حياته فيها . ولا يزال الحبشان يحترمونه ويكرمونه وهم يسمونه « ابو سلامه » او اب السلام (١)

كذلك البطريرك أثناسيوس انتهز فرصة السلام والهدو هذه فجال يفتقد رعاياه ويسأل عنهم الى ان وصل في سياحته هذه لحد اصوان وكان في اصوان راهب مشهور اسمه باخوميوس هو مؤلف كتاب « قانون الرهبنة » القديم كان ضابطاً في الجيش فترك وظيفته ليصير مسيحياً بناء على الغيرة والحمية التي فيه . ففي هذه البلدة اجتمع باخوميوس هذا على راهب أقدم منه اسمه بلامون اشتهر بالتقوى والورع في البلاد المجاورة لاصوان . وكان هذان الراهبان يحصلان على قوتهما الضروري بواسطة صنع ملابس من الشعر كان لبسها عاماً في مصر . ولم يمض زمن طويل حتى التف حولهما جمهور من العزاب وكارهي الزواج حتى صاروا فئة كبرى جاءت لمقابلة أثناسيوس عند زيارته لاصوان واحتفلت باستقباله احتفالا باهراً وتلوا فيه ترنيمات من مزامير داوود

اما ميليتيوس وآريوس فلم يكونا يرضخان لحكم المجمع النيقاوي ولذلك بدأت اضطرابات جديدة تقع في الكنيسة المصرية . وقام

(١) قال روفينوس المؤلف انه لم يأخذ هذا الخبر بالسماع بل تلقاه من فم ايديسيوس شقيق فرومنتيوس الذي كان قساً في صور بعد عودته من الحبشة

ميليتيوس الاسقف المنشق وآريوس الكاهن المبتدع يناصبان البطريرك العداء ويقاومانه بكل جهدهما حتى صار لقب ميليتي وآريوس وصمة عار في مصر يتصم بها كل من سار على رأي هذين العاصيين . والذي ساعدهما على التمادي في غيهما ميل قسطنطين الملك لمذهب آريوس وهذا الميل نشاء فيه من تأثير اتباع آريوس على ذهنه واستمالته اليهم حتى انهم اغروه ان يكتب مكتوباً لاثناسيوس يطلب فيه اعادة آريوس الى الكنيسة كما كان فرفض اثناسيوس هذا الطلب بتاتاً بحجة ان آريوس لا يزال متمسكاً ببدعته ولم يرجع عنها . فاتخذ اتباع آريوس هذا الرفض الذي كانوا يتوقعونه حجة ضد اثناسيوس واهاجوا سخط الامبراطور نحوه حتى مال لسماع التهم التي سعى يوسابيوس اسقف نيكوميديا وانصاره لاثباتها عليه . اما التهمات التي اتهموا بها اثناسيوس فكانت تنحصر في أمرين : اولهما ان هذا البطريرك شرع في ضرب ضريبة على مصر يحصل منها على حلل بيضاء من الكتان (تواني) للاكليروس . والثانية انه مد احد ارباب الفتن والمحرضين على الثورات بدراهم . فهاتان التهمتان نقضهما اثناسيوس نقضاً وبرهن كذبهما فلم يؤثرا قط في سمعته الا ان التهمة الثالثة التي سيجيء ذكرها قد ضايقته كثيراً اذ كان يظهر عليها مسحة من الحقيقة فلم يكن من السهل دحضها حتى بالبرهان العقلي

ومبدأ هذه التهمة الثالثة هو ان قساً من الاسكندرية اسمه

كولوثس انشق من الكنيسة قبل هذه الحوادث ببضع سنوات . وسبب انشقاقه غير معروف تماماً . ثم أخذ يعين قسوساً من العالمانيين وحيث انه لم يكن هو سوى قس بسيط لاحق له في رسامة قسيسين نظيره تحاكم امام مجمع الاسكندرية فحكم عليه بالحرمان وعلى الذين رسمهم بتجريدهم من وظائفهم وصيرورتهم عالمانيين كما كانوا . فقام احد هؤلاء الرجال واسمه اسخيراس واستخف بحكم المجمع ولكنه لم يمكث في الاسكندرية ليمارس وظيفته الموهومة بل سار الى قريته في اقليم مريوط وصار يجمع جمعية صغيرة في غرفة حيث لم تكن توجد كنيسة هناك . وقد يلام اثناسيوس لانه لم يرسم هذا الرجل كاهناً رسمياً ولم يعضده في بناء كنيسة مع علمه باحواله وأعماله عند زيارته لتلك الجهة في سنة ٣٢٩ تقريباً

ومع ان اثناسيوس كان عظيماً كبيراً الا انه لم يعرف باتساع المدارك ورقة الاحساس كما عرف بهما البطريرك ديونيسيوس . ومما يذكر في هذا السياق أن بعض الباحثين ذهب الى ان اسخيراس المذكور كان رديء السمعة فاذا صح هذا القول كان اللوم على اثناسيوس شديداً لانه تركه وشأنه في بادىء الامر ولكنه ارسل بعدئذ قساً اسمه مكاريوس يدعو اسخيراس للمثول بين يديه ويؤنب اباه على الجرم الذي اقترفه ابنه فلما وصل مكاريوس وجد اسخيراس طريح الفراش فلم يعمل معه شيئاً ولكن اباه وعده بصده عن فعله الناشذ وايقافه عند حده . فلما تماثل

اسخيراس للصحة تبع مذهب ميليتيوس وصار آلة صماء يديرونه كيف شاؤا .
فالتهمة التي اتهموا بها اثناسيوس في هذا الشأن هي انه بذاته أو بايعازه
الى مكاريوس هدم كنيسة اسخيراس عنوة واحرق كتبها وحطم كأس
العشاء الرباني . اما اثناسيوس فبرهن على عدم وجود كنيسة هناك وانه
لم يتلف شيئاً من الاشياء التي نسبوا اليه اتلافها وان ماقيل من ان اسخيراس
كان يؤدي خدمة دينية عند ذهاب مكاريوس اليه فوهم باطل لان
اسخيراس هذا كان مريضاً في ذلك الوقت . وبعد مضي وقت على هذه
المسألة مثل اسخيراس امام مجمع حيث أقرّ في محضر امضاه ثلاثة عشر
قساً من الاسكندرية ومربوط بان التهمة التي اتهم بها البطريرك لا
اساس لها وان اليمين التي حلفها لاثباتها كاذبة وهاك نص اعترافه في المحضر
المذكور : (يشهد الله أن لاعلم لي بما تقولون عن هذه التهمة التي لفقها
بعضهم بل انني صرّح جهاراً بعدم وجود كأس كسره احدها أو أن
شخصاً ما مد يده بسوء نحو شيء من متاع كنيسة لا معرفة لي بوجودها
ولكنني أقول الحق وهو ان بعضهم اضطرني اضطراراً للاقرار بتلك
التهمة الملفقة) ولما رفض اثناسيوس مسامحة اسخيراس وحله أنكر
هذا الاعتراف المسطر ولم يعد يعترف به ثانية

ولم يخلص اثناسيوس من التهمات الموجهة اليه حتى قامت ضده
شبهة جديدة هي انهم اتهموه باستعمال السحر والتنجيم وهي تهمة خطيرة
يهتم لامرها عامة الشعب منذ القرن الرابع لحد يومنا هذا . وقد شاع

بين الناس ان اثناسيوس دس السم لاسقف من اتباع ميليتيوس اسمه
ارسنيوس فاماته واستخدم جثته لغرض سحري دني . فانتشار مثل
هذه الخرافة وسهولة تصديقها عند الناس دليل على انحطاط الاخلاق
وفساد الآداب في الامة من بعد ان كف عنها الاضطهاد. أما الذين ادعوا
هذه الدعوى فجاؤا بدليل على اثباتها وهو يد مبتورة من جثة قالوا انها
يد ارسنيوس التي فصلها اثناسيوس من جسمه . فذهل اثناسيوس عند
سماعه هذا القول ورأى ان عدم دحضه هذه التهمة بالبينة القاطعة يوجد
ريبة في النفوس من نحوه ولذلك انفذ شماساً الى الصعيد للبحث عن
ارسنيوس وكشف جلاء الحقيقة

وقد ثبت لهذا الشماس ان الاسقف الذي قيل انه قتل لايزال حياً
يرزق وهو مقيم في احد الاديرة هناك وقبل وصول الشماس الى المكان
الذي كان ارسنيوس يقيم فيه اسرع بينس رئيس الدير وارسل ارسنيوس
الى صور حتى لا يعلم مقره احد الا ان الشماس تربص في طريق الدير
والقى القبض على بينس وراهب آخر اسمه هلياس كان قد ذهب ليشيعا
ارسنيوس ويهدياه الى الطريق التي يسير فيها ثم احضرهما هذا الشماس
أمام حاكم الاقليم حيث اعترفا بما فعلاه (١)

(١) ان بينس هذا كتب الى يوحنا اركاف كتاباً غريباً في بابه يثبت فيه بان
هذه التهمة لايمكن اثباتها ضد اثناسيوس لانه معروف في كل القطر المصري ان ارسنيوس
لم يزل حياً ولم يصبه مكروه من احد

أما الشماس المذكور فسار تواً الى صور للبحث عن ارسنيوس ولم يستطع العثور عليه في بادىء الامر واخيراً التقى باحد خدام حاكم الولاية وأخبره بانه سمع بطريق الصدفة في احد النوادي ان ارسنيوس مختبىء في احد منازل هذه المدينة فاقتفى الشماس آثار مخبره الذي تمكن من ارشاده الى المكان الذي كان ارسنيوس مختبئاً فيه فانكر هذا نفسه عندما رآه الشماس ولكن بولس اسقف صور عرفه به وقال انه ارسنيوس بعينه واذنه فلم يسع ارسنيوس هذا الا ان كتب مكتوباً الى اثناسيوس يلقبه فيه (بالبابا المحترم) ويظهر اسفه من الذي حدث ويسأله أن يصفح عنه ويقبله في عضوية الكنيسة

ومع أن براءة اثناسيوس ظهرت كشمس الظهيرة الا ان يوساب اسقف نيكوميديا اقنع الامبراطور بضرورة تحقيق التهمات الموجهة ضده أمام مجمع كنائسي وعلى رؤوس الاشهاد . وعليه تشكل مجمع في قيصرية تحت رئاسة يوسيبوس المؤرخ اسقف هذه المدينة وطلب اثناسيوس مراراً للحضور أمام المجمع فلم يعبأ بهذا الطلب ولم يذهب قط بل ظل يشتغل في تدبير مهام البلاد التي يرأسها آملا بتسوية هذه المسائل طبيعياً بدون بحث أو جدال منشأه الحمق والعناد

ولكن في سنة ٣٣٥ التأم مجمع آخر في صور وارسل الامبراطور امراً مشدداً الى اثناسيوس يدعوه للحضور فاذعن للحال وسار في موكب حافل يحيط به ثمانية واربعين من اساقفته . أما اساقفة المجمع

فقابلوه مقابلة تدلي الى الاهانة وعدم الاحترام وكانوا كلهم تقريباً من انصار آريوس واتباع مذهبه فلم يسع بوتامون احد اساقفة اثناسيوس الا استهجان هذا العمل والقاء عبء هذا الخجل والخزي على كاهل يوساب اسقف صور رئيس المجمع لانه سمح للاعضاء باتيان مثل هذه الاعمال المعيبة ثم بداء يسأله قائلا (أجالس انت هنا لتحاكم اثناسيوس ؟ ألا تذكر اذ كنت انا وأنت سجينين معاً لاجل الايمان فاقتلعوا عيني واما انت فنجوت من الخطر دون ان يلحقك ضرر)

فانتهر يوساب هذا الاسقف الذي ظهرت نفحات ايمانه قديماً ووبخه على ما بدا منه من الحدة في الكلام ثم اخذ القوم في محاكمة اثناسيوس ولكنهم كانوا متفقين قبلا على الحكم عليه وكانت أول تهمة بدأوا بفحصها هي قتله ارسنيوس

فابتدرهم اثناسيوس بالسؤال قائلا (أيعرف احد منكم ارسنيوس)؟

فقال كثير من الحاضرين انهم يعرفونه من قبل . وحينئذ احضر لهم اثناسيوس رجلا ملثما بلثام يغطي كل رأسه وأمره ان يحسر عن وجهه أمام المجمع وكان هذا الرجل ارسنيوس . ثم رفع اثناسيوس طرف رداء ارسنيوس واظهر لهم يده اليمنى وانها لم تزل صحيحة موضوعة في مكانها الذي خلقت فيه ثم كشف لهم اليد الاخرى بكل سكون وتأن وخاطبهم وهم سكوت كأن على رؤوسهم الطير وقال : (انظروا ان للرجل يدين فاين اليد التي بترتها أنا ؟ ومعلوم ان الله خلق للانسان يدين فقط

لا ثالثة لهما)

فلما قال اثناسيوس هذا هاج الجمع وماج فانتهز يوحنا اركان هذه الفرصة وسعى للهرب لانه كان المسؤول رأساً عن صحة هذه التهمة وكذبها ولكنه عدل عن الفرار والتفت نحو أعضاء المجمع وافهمهم أن ما عمله اثناسيوس الآن انما هو دليل جديد على كونه ساحراً ماكراً ولذلك اشتد سخط القوم وزاد حنقهم على هذا البطريرك البائس الذي كان قد برهن لهم على جرأته وكادوا يفتكون به لولا ان الامير ديونيثيوس الذي كان قد انفذه الامبراطور لمراقبة هذه المضحكات المبكيات خلصه من ايديهم وانقذ حياته من العطب

أما مسألة اسخيراس فلم تزل على ما كانت عليه ولذلك تجدد البحث فيها فجاء مصر ستة من اعضاء المجمع ليعملوا تحقيقاً في هذه الحكاية الثانية وكانوا من اتباع آريوس المتطرفين وبالتالي اعداء الداء للبطريرك اثناسيوس . وكان مكاريوس قد طرح في سجن صور ولذلك عول اثناسيوس على رفع دعواه الى الامبراطور شخصياً فاستصحب معه خمسة من اساقفته وسافروا في أول سفينة اقلعت من صور قاصدين القسطنطينية والتقوا فيها بالامبراطور فجأة عندما كان خارجاً للنزهة في موكبه الحافل اما الامبراطور قسطنطين فلم يعرف اثناسيوس في أول الامر فلما عرفه هذا بنفسه رفض الامبراطور سماع دعواه متذرعاً بحجة واهية هي ان هذه المسائل كانت موضوع البحث في مجمع نظرها وحكم فيها . ولكن

اثناسيوس لم تقنعه هذه الحجة بل اعترض الامبراطور في طريقه قائلاً: (إما ان تأمر بتشكيل مجمع مسكوني شرعي أو ان تسمح لي بالاجتماع مع خصومي امامك ونتناقش معاً) فاقتنع الامبراطور اخيراً وكتب رسالة يدعو بها المجمع للالتئام في القسطنطينية . فلما علم الاضداد هذا اهتزوا وانزعجوا وعادوا الى ابروشياتهم خائفين وجلين ولم يلبوا دعوة الامبراطور الا يوساب اسقف نيكوميديا ورهط من الاساقفة اتباع آريوس الذين جاؤا الى الامبراطور فلم يذكروا كلمة واحدة من مسألتي ارسنيوس واسخيراس بل ابتدعوا تهمة جديدة زادت في حيرة اثناسيوس واذهلته أما هذه التهمة الجديدة فمفادها ان اثناسيوس كان يقصد منع سفر المراكب التي تأتي القسطنطينية حاملة ضريبة الحنطة وهو عمل يشبه اشهار حرب عوان ضد الامبراطور

فانكر اثناسيوس هذه التهمة انكاراً قطعياً ولكنها كانت ملفقة ضده تلفيقاً يلبسها مسحة الحقيقة ومعلوم ان هذا الامبراطور كان شديد الغيرة على سلطته لا يطيق ما يحط بها أو يقاومها ولذلك قاطع اثناسيوس بينما كان يدافع عن نفسه ولم يتركه يتم كلامه وانتهى الامر بان نفاه نفياً موقتاً الى المكان الذي يقيم فيه ابنه الاكبر قسطنطين في تريفس شمالي جرمانيا . فظل اثناسيوس سنتين ونصفاً في بلاد لم تكتحل عينه بمرآها من ذي قبل ولم يكن بينها وبين مصر وجه شبه قط بل انه كان يتصور جرمانيا الشمالية كأنها منتهى الارض وآخرها

وانها اقصى الاقاصي . وكان يصحبه في منفاه هذا واحد أو اثنان من
رفاقه المصريين فلم يصرف وقته عبثاً في هذا المكان بل كان يوالي
كتابة الرسائل المفيدة الى رعيته التي لعبت بها ايدي الدهر من بعده
لان مدة نفيه لم يكن للسلام أثر في مصر ولم تكن مصر تعرف الراحة
والوئام وسبب ذلك آريوس وحكايته الذي انكر ما عزي اليه في المجمع
الاورشليمي المقدس وعاد لايمانه الاول فضم الى الكنيسة ثانية وأمر
بالبقاء في الاسكندرية ولكنه لم يكف عن سعيه المعتاد من ايجاد انقسام
وشقاق في هذه المدينة التي لم يهدأ لها بال فأعيد منها ولم يسمح له بالبقاء
فيها طويلا . ومن الاسباب التي أوجدت الكدر والقلق في مصر هو
تهيج المصريين وتحرك عواطفهم الوطنية لاجل نقل عادياتهم القديمة
العديمة المثال الى مدينة قسطنطين الجديدة (القسطنطينية) واخذ مسلاتهم
السامقة لتزيين هذه العاصمة وتجلية رونقها وزيادة عظمتها بواسطة الآثار
المصرية . كذا العنصر الوثني من سكان مصر غضب وسخط عند نقل
مقياس النيل من هيكل سيرابيس الى احدى الكنائس المسيحية ومن
عهد نقله صار القسوس المسيحيون يؤدون خدمة عيد وفاء النيل بدلا
من كهنة الوثنيين . وكان من بين الذين التمسوا من الامبراطور التداخل
في مسألة اثناسيوس وحسم مشكلته مار انطونيوس الذي ترك ديره بناء
على طلب اثناثيوس له وقدم الى الاسكندرية ليكرز فيها ضد بدعة آريوس
ويحذر الناس من اقتفاء أثره فلما توسل الى الامبراطور ليفض الخلاف

الذي بينه وبين اثناسيوس لم يرض هذا الامبراطور وذهب سعي انطونيوس
ادراج الرياح . وكانت النتيجة ان يوساب اسقف نيكوميديا اقنع الامبراطور
بقبول آريوس جهاراً في كنيسة القسطنطينية في يوم احد يعين لهذه الغاية
وان يحتفل بدخوله فيها احتفالا باهراً يدل على فوزه على خصومه وان
يبتدئ سير موكبه من قصر الامبراطور الى كنيسة الرسل . فعارض
اسكندر اسقف القسطنطينية هذا الرأي واحتج عليه ولكن معارضته لم
يكن لها تأثير فان القوم استعدوا لهذا الاحتفال استعداداً باهراً لم يسبق
له مثيل ولكن السعد لم يخدمهم هذه المرة ولم يتمتعوا بهذا الفرح ذلك
لانه في يوم السبت السابق ليوم الاحد المعين للاحتفال ركب آريوس
مع رهط من اخصائه وخرج بموكبه من القصر الملوكي وسار في اهم شوارع
المدينة يميس خلالها ويستلفت انظار الشعب الى الاحتفال العظيم الذي
سيقام له في الغد وكان بعمله هذا كمن يدعو الناس لحضور ذلك الاحتفال
فلما وصل الى الميدان المعروف بميدان قسطنطين باغته مرض عضال يشبه
اعراض الكوليرا الشديدة الوطأة عند ما تكون في اقوى حالاتها فحينئذ
قفل راجعاً وانزوى خلف هذا الميدان بينما كان ذلك الجمهور المزدحم
ينتظره بفروغ صبر وقد كثرت بينه الاقاويل والاراجيف عنه ولم يكن
كلمح البصر حتى شاع خبر موته الفجائي وتناقلته الالسن وأثبته واحد أو
اثنان من الذين شهدوه شهادة العين وذعرا من ذلك المنظر المفزع الذي
وقع امامهما وما رأياه من آريوس ساعة الحشرجة من الضيق والكرب

فعلى هذه الكيفية المريعة قضى آريوس نحبه وهو زعيم تلك الفئة
التي كانت تلقب نفسها آريوسية وكان الاحرى بها ان تقول انها ناكرة
الوهية المسيح مقاومة لمن يؤمن به كاله - مات هذا الرجل ميتة
الاشرار مع انه كان متصفاً باحسن الصفات الادبية الا انه بالنسبة لظروف
ذلك الزمان واهواله كان قادراً ان يلحق بالديانة المسيحية ضرراً عظيماً
لا يستطيع اتيانه اكثر الناس شراً وخبثاً . وقد امتاز اتباعه بمزية ممقوتة
هي انهم كانوا أول مسيحيين اضطهدوا المسيحيين اخوانهم

وفي سنة ٣٣٧ اتم قسطنطين بناء الكنيسة الكبرى في القسطنطينية
التي دعاها كنيسة الرسل الاطهار ودشنها وكان يقصد ان يلحد فيها بعد
موته . وكأنه شعر بدنو اجله فانه كاد يتم بناء هذه الكنيسة حتى خارت
قواه وأخذت صحته تنحط انحطاطاً ظاهراً فعمد الى العماد من يوساب
اسقف نيكوميديا ثم فاضت روحه في يوم احد العنصرة من سنة ٣٣٧ .
وكان قبل موته اقام خمسة قياصرة تحت امرته وهم اولاده الثلاثة وابني
أخيه وقسم المملكة بينهم كما يأتي : قسطنطين ابنه الاكبر اخذ بريطانيا
واسبانيا وفرنسا وقسطنطينوس اسيا وسوريا ومصر وقسطنس ايطاليا
وبلاد المغرب (افريقيا) ودلماطيوس ايليريكوم (بلاد اليونان) وهنيبال
ارمينا وبنطس الا أن هنيبال هذا لم ينل لقب قيصر بل لقب
ملك فقط

وبعد موت الامبراطور قسطنطين هرع قسطنطينوس ابنه الثاني

وجاء القسطنطينية سراعاً وكانت له يد قوية في جمع الحوادث التي وقعت
فيما بعد . وكانت الجيوش قد أعلنت صراحاً بعدم قبول ملك عليهم من
غير ابناء قسطنطين ولذلك حدثت مذبحة عظيمة ذبح فيها كثيرون من
ذرية قسطنطينوس الاول الذين ولدوا له من امرأته الثانية تيوضورا .
وكان بين الذين اكلهم السيف دلماطيوس وهنيبال وخمسة آخرين من
ابناء اخوة قسطنطين وحنواه (ابنا ابيه) ووزيره الخاص ابلاقيوس وواحد
أو اثنان من المقربين اليه ولم يبق من العائلة المالكة سوى ابناء الامبراطور
وابني حنوه يوليوس قسطنطينوس وهما غالوس الذي قيل وقتئذ انه مشرف
على الموت والصبي يوليان الذي نجاه من العطب اسقف مسيحي

وبعد هذه الحوادث المريعة التقى ابناء قسطنطين الثاني في سيرميوم
وأعادوا تقسيم المملكة فيما بينهم فاستولى قسطنطين الثاني على الجزء الغربي
من المملكة أو هو شمالي اوروبا واخذ قسطنس الاجزاء المتوسطة وهي
جنوبي اوروبا اما قسطنطينوس الثاني فصار امبراطور مصر وباقي
الشرق برمته

فلما استتب الامر لقسطنطين الثاني طلب الى اثناسيوس البطريرك
ان يعود الى كرسيه وكان قد اخذه معه الى فيميناشيوم وهو مكان حدده
الثلاثة امبراطرة ليجتمعوا فيه فقرر رأيهم على ارجاعه الى بلاده فعاد هذا
البطريرك الى الاسكندرية في شهر نوفمبر سنة ٣٣٨ حينما قابله الشعب
باحتفال حافل ابدى فيه من السرور والشكر مالا يوصف

ولما رأى الاساقفة الذين من شيعة آريوس ان أثناسيوس قد عاد واستقر في مكانه كما كان لم يهدأ بالهم بل قاموا يدبرون طريقة أخرى ينزعونه بها من على كرسيه ما دام ان التهمات السابقة لم تؤثر فيه الا كما يفعل الماء في الصخر المتين . وقد ساعدهم على ذلك ميل الامبراطور قسطنطينوس اليهم لانه كان آريوسياً قحاً حتى انه عين يوساب اسقف نيكومديا (١) بطريركاً في القسطنطينية رغماً عن هياج الشعب وعدم رضاه بهذا البطريرك . وكان اعتراض جماعة آريوس على رجوع أثناسيوس هو ان في عودته خدشاً للقوانين الكنائسية واهتضاماً للمبادىء الكهنوتية لانه عاد الى كرسيه بدون تصديق قانوني يصدر من مجمع كنائسي عام يشكل لهذا الغرض وقالوا ان الكرسي الاسكندري يعتبر بدون بطريرك طبقاً لهذا المبدإ ثم اخذو يبثون الدسائس لينتخبوا رجلاً اسمه بسطس بطريركاً للاسكندرية مع انه كان من ضمن القسوس الذين حرمهم البطريرك اسكندر عند ما حرم آريوس لاجل بدعته وقد ارتأى هذا الحزب الآريوسي رأياً هو انهم اذا اغووا اسقف رومية الذي لا يعرف شيئاً عن بسطس على التداخل في هذا الامر والسير خلف غرضهم قد يقوى جانبهم ويشتد ازرهم به وعليه انفذوا

(١) ان يوساب هذا نقل من مركزه مرتين — الاولى من بيروت الى نيكومديا والثانية من نيكومديا الى القسطنطينية مع ان نقل الاساقفة في ذلك الوقت كان ضد القانون الكنائسي

ثلاثة قسوس الى رومية كبعثة للغاية السالفة الذكر . فلما وصل الخبر الى يوليوس اسقف رومية كتب خطاباً سلس العبارة الى أثناسيوس يخطره فيه بهذا الامر فارسل أثناسيوس رسلاً من قبله الى يوليوس مزودين بادلة تثبت ان سعي القوم في ترشيح بسطس للبطريركية لم يصادف نجاحاً ولم يلق قبولاً حتى عند اصدقائه الاخصاء . وكان رسل أثناسيوس قد حملوا معهم الى رومية قراراً مجمعياً من كنيسة مصر امضاه اكثر من مائة أسقف مصري برهنوا فيه على براءة أثناسيوس وطهارة ذيله وقالوا في رسالتهم هذه ان الغرض الوحيد الذي يرمي اليه اتباع يوساب هو تعميم بدعة آريوس ونشرها في مصر .

وبناء على ذلك اقترح يوليوس اسقف رومية تشكيل مجلس للنظر في هذه المشكلة فصادق الطرفان على هذا الاقتراح وقبلوا به . ولكن حدث في سنة ٣٤٠ ان قسطنطين الثاني الذي كان نصيراً لأثناسيوس وظهيراً قوياً له قتل في مناوشة حربية وبعد موته اصدر الوالي فيلاغريوس امراً رسمياً اوضح فيه لكنيسة الاسكندرية خبراً ساءها وهو ان بسطس لا يعين بطريركاً بل ان رجلا اسمه غريغوريوس من معية الملك قسطنطينوس اختير ليكون بطريركا للاسكندرية بدل أثناسيوس اما غريغوريوس هذا فمسقط رأسه مدينة كبدوكية ولكنه رضع لبان العلوم في كلية الاسكندرية ولاقى من أثناسيوس كل عناية واكرام وقت تلمذته . ولم يكن هذا الرجل قد حرم كغيره لاجل بدعة

آريوس ولكن كاتم سره آمون كان قد حرمه البطريرك اسكندر لذات السبب الذي حرم لاجله بسطس . فلما تعين غريغوريوس بطريركاً بدأت الاضطرابات تسري في الاسكندرية وقامت المشاكل والزعازع وكثرت جميات التحريض وكان منها جمعية كبرى التأمت لتحتج على هذه المعاملة التي عومل بها اثناسيوس وكان التآمها في كنيسة القديس قورينوس (١)

فلما راى فيلاغريوس الوالي هذا وكان صديقاً لغريغوريوس ومواطناً له حرّض قوماً من سفلة الوثنيين وحرافيشهم - وقيل انه قادهم بنفسه - لكي يهجموا على الكنيسة التي اجتمعت فيها هذه الجمعية . فاندفع هؤلاء الزعانف الى اقدس الاماكن واجلها واحرقوا كتب الكنيسة وطردوا منها تلك الجمعية بعد ان اوسعوها سباً وشتما تأبي الآذان سماعه ثم نهبوا خزائن الكنيسة وامتعتها وقتلوا بعض الرهبان بينما كانوا يذودن عن حوض الكنيسة ويدافعون عن اشياءها

اما اثناسيوس فكان في ذلك الحين يأوى الى صومعة في كنيسة القديس ثيوناس فلما علم انه هو المقصود بالذات خاف على الكنيسة من وجوده داخلها لئلا يلحق بها ضرر من الاعداء فانسحب من الاسكندرية وخلا الجو لغريغريوس فدخلها بعد اربعة ايام من سفر اثناسيوس دون ان يلقى مقاومة من احد كل هذه الحوادث وقعت في الصوم الكبير

(١) يحتمل ان يكون هذا القديس هو قورينوس اسقف سيشيا التابعة لمقاطعة ايليريكوم وكان قد نال الشهادة في ايام ديوكليتيانوس

وفيه اصاب اهالي الاسكندرية المساكين اضطهاد شديد من هذا الاسقف الذي اهتضم حق غيره قسراً

أما قسوس الاسكندرية فحجر عليهم تعميد احد أو زيارة مريض أو ممارسة أي عمل من وظائفهم . ولم يأت يوم الجمعة الكبيرة حتى حدث هياج جديد وذلك عند دخول غريغوريوس الكنيسة بموكبه الحافل اذ تصدى له هذا الشعب المحتدم غيظاً وابتدره بعبارات السب والاهانة فرفع غريغوريوس دعواه الى صديقه الوالي الذي اهتم بالامر كثيراً والقى القبض على نحو اربعة وثلاثين وجيهاً من الذين كانوا حاضرين في الكنيسة وجلدهم بالسياط جلداً عنيفاً وكان منهم اصحاب الحيثيات والاعتبار واكثرهم نساء مكسورات الجناح بلا عضد ولا سند وفي هذه الاثناء برز محضر آخر امضاه الوثنيون واتباع آريوس فقط وفيه يتهمون اثناسيوس تهمات تمسه لاهميتها فصمم هذا البطريرك الاسيف على الذهاب الى رومية آملا بانعقاد ذلك المجمع الكنائسي الذي اقترحه يوليوس . فلما وصل اثناسيوس رومية تلقاه يوليوس بكل تجلة واكرام وانفذ كاهنين من قبله يدعوان المجمع للالتئام وحدد له شهر دسمبر من تلك السنة . وكان يوليوس في ذلك الوقت يلاطف اثناسيوس ويرجوه البقاء عنده فقبل اثناسيوس ذلك لعلمه بان وجوده بالاسكندرية في هذه الظروف لاينتج عنه خير واخذ يبذل قواه في ابعاد الافكار الشريرة عنه التي كانت تساوره وتقلقه وقد قال عن نفسه في ذلك الوقت « لما

عرضت مسألتي على الكنيسة وهي بغيتي التي كنت ابتغيها لم اترك في ذهني شيئاً يشغلني عن خدمة هذه الكنيسة التي هي جلّ مرادي» وكان بمعيته في رومية كاهنان من مصر وهما آمونيوس احد رهبان دير النطرون وايسداروس . وقد أثرت اقامة آمونيوس في رومية تأثيراً سيئاً في احساساته الاصلية فقد قيل انه لم يعجبه بناء في ابنية رومية الذائعة الصيت سوى بناء كنيستي مار بطرس وبولس (١) الذي شرح صدره كثيراً وحول نظره من مصر الى رومية . ولكن بقاء اثناسيوس - بابا الاسكندرية في رومية اوجد مبداء في الكنيسة اللاتينية (الكاثوليكية) لا يزال فيها الى الآن

وبيان ذلك ان القوم هنالك كانوا يصغون بكل ارتياح الى كلام اثناسيوس عن الرهبنة ونظامها في مصر فصادف هذا القول منزعاً في نفوس الغربيين فزاد شوقهم الى الرهبنة ورغبتهم في العزوبية . قال جيبون المؤرخ « ان اثناسيوس ادخل الى رومية مبدإ الرهبنة ونظامها ولكن يصعب على العقل ان يتصوّر صحة هذا القول حرفياً او ن يصدق عدم وجود رهبان في رومية قبل مجيء اثناسيوس اليها اما اثناسيوس فقد ظل في رومية ثمانية عشر شهراً وهو ينتظر الفرج القريب من الله ويترقب وجود مخرج له من كربته التي كان فيها

(١) ان آمونيوس هذا هو اكبر الاخوة الذين اشتهروا بطول قامتهم وسيأتي الكلام عنهم عند ذكر ما جرى في مدة حكم ثاوفيلوس

الفصل الخامس عشر

غريغوريوس وجورجيوس من كبدوكية

سنة ٣٤٠ للمسيح و٥٦ للشهداء

في نحو الزمن الذي قتل فيه قسطنطين الثاني - وربما قبله ببضعة شهور - مات اشهر رجال ذلك العصر واحد المؤرخين العظام وهو يوسيبوس اسقف قيصرية الذي اخذنا عنه كما نعرفه الآن عن الثلاثة قرون الاولى للكنيسة المسيحية . وكان الرجل في باديء امره ميالاً للانحياز الى جانب آريوس عند استفحال ذلك الانشقاق المحزن الذي اتينا لك على شرحه في ما مرّ ولكنه عاد فاقتنع بحكم المجمع النيقاوي وسار على جادّة الصواب التي قرّرها هذا المجمع سيراً مرضياً . وقد كان يوسيبوس هذا صديقاً حميماً لقسطنطين الكبير ومحبوباً عنده حباً يقرب من العبادة فكان يثق بعلمه وفضله وعهد اليه في آخر سنيه بعمل تآليف ادبية ذات شأن . ومما يستحق الذكر من اعمال هذا العلامة ان النساخ الاسكندريين كتبوا تحت مراقبته خمسين نسخة من الكتاب المقدّس اخذها قسطنطين ووزعها على الكنائس الكبرى التي كان قد بناها وكرّسها كما عرفت . ولم تبق ولا نسخة واحدة من هذه الكتب الثمينة لحد الآن ولكننا لا نيأس فقد يأتي يوم فيه تظهر ولو واحدة منها في أحد القبور المصرية او في كهف او جحر نسج عليه العنكبوت خيوطه فتزيلها ايدي الباحثين المجتهدين

كذلك علماء الوثنيين في مصر كانوا في ذلك العهد من اكثر الناس اجتهاداً في تحصيل العلوم واشتغالا بالتأليف والتصنيف ولم يزل بين ايدي علماء هذا العصر كتاب من تأليف عالم وثني مشهور هو البيبوس الذي وضع مصنفاً في فن الموسيقى تتداوله الايدي الى الآن ولا تزال تطرب من نغماته الآذان وكذلك زميله ايمبليكوس الذي عدّ مع البيوس من اشهر انصار الفلسفة الافلاطونية وناشري تعاليمها في الاسكندرية . وقد وضع اخيليوس طاطيوس كتاباً نفيساً في علم الفلك وهو علم كان يعشقه المصريون ويرغبون فيه كثيراً هذا عدا عن روايات اخرى خيالية صنفها هذا الرجل تلذ قراءتها جداً وقد صار اخيليوس مسيحياً فيما بعد وزعم كثيرون انه تعين أسقفاً . ومن الكتاب الذين نبغوا في علم الهيئة (التنجيم) هيفستن من طيبة (الاقصر) كتب نبذة اظهر فيها تأثير عدة كواكب في منطقة البروج على امزجة الناس . وتقسيمه لمنطقة البروج يطابق التقسيم المرسوم على سقف هيكل دندرة (قنا)

وقد عرفنا فيما سبق ان غريغوريوس جلس على السدة البطريركية بالاسكندرية ونقول الآن ان مافتىء يعيث فساداً في هذه المدينة ويعمل أموراً تنفر منها الطباع الشريفة حتى انه اضطهد عمة لاثناسيوس الى ان ماتت وعند موتها سعى جهده ليحرمها من الدفن في مقبرة المسيحيين . وقد اتهمه بعضهم بالتهام صدقات الارامل وهي تهمة رمي

اثناسيوس بها ولذلك لم يعبأ بها احد . وحدث ان غريغوريوس هذا برح الاسكندرية ليسوح في داخلية البلاد فما كاد يظعن ركبه حتى تفاقم الشر وازداد الخطب استفحالا وكان من افظع المسائل ان الاساقفة الذين ابوا الاعتراف برئاسته عوملوا معاملة خشنة قاسية . خذ لذلك مثلا الراهب بوتامون الذي عرفنا انه كان مع اثناسيوس في صور وكان بين الثلثمائة وثمانية عشر عضواً في المجمع النيقاوي وهو رجل تشوّه جسمه وتحطمت اضلعه في اضطهاد ديوكلتيانوس — هذا الراهب الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً جلده شخص يقول انه أسقف مسيحي جلداً عنيفاً حتى مات بعد ضربه بايام قليلة وعدّ بين الشهداء الاطهار . ولما طرقت هذه الامور مسامع مار انطونيوس وهو منزو في ديره بالجبل كتب كتاباً شديد العبارة وبعث به الى غريغوريوس يعنفه فيه ويلومه على تغطرسه فعند ماأخذ غريغوريوس الجواب ضرب به عرض الحائط بعد ان مزقه

وقد مضى شهر دسمبر الذي حدده يوليوس اسقف رومية لالتئام المجمع ولم يلتئم وفي شهر يناير عاد الكاهنان اللذان ارسلهما الاسقف المذكور ليدعيا اعضاء المجمع وبيدهما مكتوب من الاساقفة الآريوسيين فيه كل عبارات الاساءة والطعن فطالب الكاهنان من اسقف رومية بروح المحبة المسيحية التي تأمر باحتمال الاساءة حباً في صالح الآخرين — ان لا يقرأه ولا يعلم بما حواه فرضي الرجل وظل ينتظر حضور بعض الاساقفة اليه والامل

مل فؤاده ببغض هذا المشكل . ولكن جماعة آريوس عكسوا الغرض فانهم
بدل ان يذهبوا الى رومية لعقد المجمع هناك عقدوه في انطاكية عندما ذهبوا
ليها لحضور الاحتفال بتدشين كنيسة كبرى بنيت فيها وكان عددهم نحو
تسعة وسبعين اسقفاً التأموا في هذه المدينة وقرروا بعض امور منها تأييد الحكم
بحرمان اثناسيوس وتجريده من وظيفته . فلم يكتف يوليوس بحكم هذا المجمع
لا اقتنع به بل شكل مجمعاً آخر في شهر نوفمبر من السنة ذاتها مؤلفاً من
يف وخمسين اسقفاً ففحص التهمات الموجهة ضد اثناسيوس فحصاً دقيقاً
واخيراً حكم ببراءته جهاراً عندما اتضحت له تماماً . ولكن هذين المجمعين
ختلفا في وجهتهما فلم يهتم احدهما بما قرره الآخر وعليه مكث اثناسيوس
ي رومية ولم يؤثر الرجوع الى الاسكندرية خوفاً من حدوث قلاقل
جديدة تنشأ من عودته اليها مادام غريغوريوس موجوداً فيها . وفي سنة ٣٤٣
نشرح صدر اثناسيوس عندما بلغه ان الامبراطور قسطنطين عزم على تشكيل
مجمع كبير يجمع اليه اساقفة الشرق والغرب معاً فذهب اثناسيوس الى ميلان
بايطاليا) حيث تقابل مع قسطنس مقابلة خصوصية وحينئذ سار ليرى
لاب الجليل هوسيوس اسقف كردوفا . أما المجمع فانتظم عقده في جزيرة
سردينيا في اواخر سنة ٣٤٣ وبعد حجاج ولجاج طالا واستطالا انسحب منه
الاساقفة الآريوسيون مغضبين دون ان يبدوا رأيهم في هذه المسألة . وكان
أهم مبدإ قرره هذا المجمع هو ذلك القانون المشهور القاضي برفع المشاكل
المعضلة الى كرسي رومية للنظر فيها ومن ذلك الحين ورومية تدعي الاسبقية

والاولوية على باقي الكراسي الاخرى وهي دعوى لم يقر بها البطاركة ولا
قبلتها أهم الكنائس في القسطنطينية والاسكندرية

أما قسطنطينوس فهاج غضبه وحنق كثيراً لسبب الفشل الذي لحق
بحزبه ولم يرضخ لحكم المجمع قط ولذلك عول على ايجاد مصائب جديدة
في ارض مصر فاصدر اوامره الى حكام الاسكندرية بقطع رأس اثناسيوس
اذا هو تجاسر وعاد الى كرسيه ثم نفى خمسة من القسوس الذين ينتمون
اليه وكثيرون منهم اختبأوا في البراري والقفار فراراً من اضطهاد اتباع
آريوس لهم . اخيراً في سنة ٣٤٤ ظهرت دسيسة دنيئة دبرها البطريرك
الاريوسي الانطاكي ضد احد القسوس الابرياء فساء اعتماد قسطنطينوس
في هؤلاء المبتدعين وشاح بوجهه اعراضاً عنهم بل بداء يميل نحو اثناسيوس
ويعطف عليه . وفي شهر فبراير سنة ٣٤٥ مات غريغوريوس في الاسكندرية
فتمهد السبيل امام اثناسيوس للعودة الى مكانه ولكن لعدم ثقته في
قسطنطينوس تمهل اكثر من اللازم وبقي الى شهر اكتوبر سنة ٣٤٦ حتى
عاد الى وطنه بعد كل هذا الغياب الطويل . وقد اسهب غريغوريوس
النزينزي في وصف الاحتفال الذي اقامه الشعب عند استقبال بطريركهم
المحبوب وكيف ان القوم توافدوا من جميع انحاء المدينة على اختلاف نزعاتهم
لملاقاته وكانوا يتسلقون الجدران ليمتعوا انظارهم برؤيته وقد عبق الهواء برائحة
البخور العطرية الذي كان يتصاعد من المجامر فيزري بنشر الخزام . وعندما
جن الظلام صارت المدينة شعلة من نار اكراماً لتشريفه وفرحاً بعودته اليهم

وقد استهل هذا البطريرك رسالته التي نشرها في عيد القيامة لسنة ٣٤٧
بتقديم الشكر لله والحمد لاسمه تعالى لانه من عليه بالرجوع من هاتيك
البلاد القاصية ثم ختمها ببيان عن الاساقفة الذين رسمهم حديثاً والاماكن
التي عينوا فيها

مرت على اثناسيوس ومصر ثلاث سنوات ذاقوا فيها طعم الراحة والسلام.
وكان لدى هذا الحبر عمل كثير لرعيته التي لعبت بها ايدي الشتات من بعده
فعين ديديموس رئيساً للمدرسة اللاهوتية بعد ان رسم عدة اساقفة كانت
رسامتهم أول عمل بداء به . وكان ديديموس هذا كفيف البصر وذلك لانه
اصيب بمرض في عينه - رمد صديدي حاد - وهو في الرابعة من عمره
ويستنتج من ذلك انه لم يتعلم كغيره من الاطفال حتى ولا مبادىء القراءة
البسيطة الا ان رغبته في الحصول على العلم كانت شديدة جداً ازالت من
امامه كل حائل في هذا السبيل فلم يثن عزمه الفقر والعوز ولا صده اغضاء
الغير عنه واهمالهم أمر تربيته بل اخذ يهذب عقله ويقوي ذاكرته الى ان
اتسعت مداركه وصارت قريحته وقادة تحير الالباب . وكانت عنده الحروف
الابجدية محفورة على الواح من الخشب وبواسطتها تعلم القراءة بواسطة اللمس
وبرع فيها . قال سقراط عنه انه بهذه الطريقة تعلم النحو والمعاني والبيان
والفلسفة والمنطق والرياضة وفن الموسيقي - استوعب كل هذه العلوم
استيعاباً كاملا متيناً حتى انه كان يستظهر على مناظريه الذين درسوا هذه العلوم
نفسها من الكتب الخاصة بها وكان يفحمهم بالادلة القاطعة ويقهرهم اذا حمي

وطيس الجدال بينهم في امر غامض . فطار صيته في الافاق وبلغت شهرته
السبع الطباق قبل ايام اثناسيوس بكثير حتى ان مار انطونيوس الناسك بحث
عليه كثيراً عند ما زار الاسكندرية عقيب الاضطهاد وقيل انه خاطبه بالعبارة
الآتية : (اسمع ياديديموس . لا تكن خسارة بصرك الجسدي سبباً في
احراج صدرك . فانك ولو حرمت من حاسة البصر التي منحت حتى للبعوض
والذباب كواسطة للشعور بها ما دام لاشعور عندها غير البصر فحري بك
ان تفرح لان لك عينين كأعين الملائكة تبصر بها الروحيات بل بواسطتهما
ادركت الاله نفسه وسطع نوره امامك فازاح دياجير الظلام عن عيني قلبك
فاستنرت) . قال سقراط ايضاً ان ديديموس كان يعتبره الناس حصناً متيناً وسنداً
قوياً للديانة المسيحية حتى قبل ان يتولى رئاسة المدرسة اللاهوتية وهو يعد
خصماً عنيداً كسر شوكة اتباع آريوس واذلهم في مناظراته معهم . وله
مصنفات عديدة لم يبق منها في عالم الوجود سوى اربعة فقط . ولقد قلنا في
الذي سبق ان اخلاق الامة انحطت وآدابها تغيرت من بعد اضطهاد
ديوكليتيانوس ولك دليل جديد على ذلك هو اعتقاد الكنيسة في اوريجانوس
العظيم بانه كان منحرفاً عن جادة الحق لا يمتاز عن اهل البدع والهرطقة الا
قليلا وهذا برهان على سوء الفهم وضعف الادراك لا برهان بعده . فلما
رأى العلامة ديديموس ان هذا الاعتقاد شاع بين الكنيسة نشر شرحاً
ضافياً لكتاب اوريجانوس المسمى « المبادي المهمة » ابان فيه خطأ الذين
يعتقدون هذا الاعتقاد في اوريجانوس وان ظنونهم هذه انما هي تخرفات

اوهام لا طائل تحتها ثم قال · « ان الذين يتهمون اوريجانوس بالابتداع هم عديموا الفهم لامقدرة لهم على ادراك الافكار العالية والحكمة الغامضة التي امتاز بها ذلك الرجل العظيم الذي يعد من النوابغ المشهورين » · اما هذا الكتاب الذي وضعه ديديموس فلم يبق له اثر · ولما رأس ديديموس المدرسة اللاهوتية تقاطر طلاب العلم الى الاسكندرية من جميع انحاء العالم المتمدن وبعد رئاسته بقليل جاء روفينوس وجيروم الشهيران وكانا حينئذ في شرخ الشباب ليتلقيا العلوم والمعارف في الاسكندرية على يد هذا النابغة الخطير الذي كان يلقب « بالاعمى البصير »

وغريب في مصر أم العجائب ان الراحة والسلام لايدومان طويلا فيها وهذا شأنها من قديم الزمان · ففي فبراير سنة ٣٥٠ قتل قسطنس في ثورة بداء بها مغينطيوس وبقي قسطنطينوس الامبراطور الوحيد في المملكة كلها بعد اخويه · ومعلوم ان قسطنطينوس هذا كان ينفر من اثناسيوس ويعرض بانفه عنه ولذلك داخل اثناسيوس خوف ورعب من تصرفات هذا خصوصاً وان الواشين ضده اخذوا ينمون عليه ويدسون له الدسائس بعزم جديد · ففي شهر مايو سنة ٣٥٣ استحسن ارسال خمسة اساقفة وثلاثة قسوس الى قسطنطينوس لاثبات براءته امامه مما عزي اليه سابقاً · وكان مع هؤلاء الاساقفة سيرابيون اسقف ثيوس (١) وهي مدينة شهيرة في الوجه البحري

(١) لايغرب عن الاذهان وجود مدينتين قديماً بهذا الاسم في مصر ويؤخذ من بعض استدلالات ان هاتين المدينتين كانتا اسقفيتين في وقت واحد

وقد قال بعض المؤرخين ان سيرابيون هذا كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية اما قبل ايام البطريرك بطرس او بعده فاذا صحّ ذلك فيكون الرجل قد مات شيخاً وشبعان من الايام · اما رئاسته للمدرسة فلا يبعد ان تكون صحيحة ولو انه كان شاباً فتياً في ذلك الوقت فانهم كانوا يسندون هذه الرئاسة في اوقات الاضطهاد حتى الى الشبان بصفة موقتة كما كان الحال مع اوريجانوس الذي وجد في هذا المنصب وهو في سن المراهقة كما علمت · وقد كان سيرابيون هذا عالماً متضلعاً وكاتباً ماهراً وصديقاً وفياً لاثناسيوس ولذلك ارسله مع من ارسله في هذه البعثة الى قسطنطينوس التي لم تصادف نجاحاً فان هذا الامبراطور احتال في اوّل الامر على اثناسيوس ليعيده الى اوروبا ثانية فلما خاب مسعاه شكل مجمعاً في ارلس فاصدر هذا المجمع احكاماً ضد اثناسيوس · والذي يحصي المجامع التي عقدت في مدة حكم قسطنطينوس يجدها اكثر من عشرة عدا عن مجلسين في ريمني وسلوشيا وكان سبب التئام هذه المجامع كلها المناقشات والمجادلات بين اثناسيوس وجماعة آريوس · وكان قسطنطينوس يعد نفسه رأس الكنيسة في الامور الروحية كما هو رئيسها في الامور الزمنية وانتحل لذاته حق السلطة على باباوات واساقفة المملكة بامرها وهي دعوى لم يدّعها ابوه الاكبر ولا فكر فيها · وقد كتب اميانوس مرسيلينوس المؤرخ الوثني شذرة عن هذا الامبراطور يقول فيها

ان الديانة المسيحية واضحة بسيطة سهلة المأخذ ليس فيها شيء من

الاعجاز الا ان قسطنطينوس شوّه جمالها بخرافات عجائزية واوجد فيها
شقاقاً بواسطة احزاب متعددة وُجدت لتبحث ابحاث غريبة لا طائل تحتها
وقوّى عزمها هذا الامبراطور على الاختلاف بدلاً من التوفيق بينها بماله من
السلطة والنفوذ فعمت هذه الاختلافات جميع الاصقاع وزاد انتشارها تلك
المجادلات الشفاهية التي كانوا يتناقشون فيها باغراء الامبراطور نفسه حتى
انه ابطل البريد واعطى خيوله لجماعة الاساقفة يذهبون بها الى المجامع
ويجيئون بناءً على دعوته اليهم ليصادقوا له على توحيد السلطة ووضعها تحت
يده »

وفي مدة الصوم الكبير لسنة ٣٥٤ كانت كنائس الاسكندرية
تزدحم بجمهور المصلين ازدحاماً شديداً ضجر منه الشعب وعليه التمس
اهالي الاسكندرية من اثناسيوس ان يؤدي خدمات العيد الكبير
في كنيسة سيزاريوم الكبرى (اي كنيسة القيصر) وكان قد تمّ
بناءها فقط ولم تدشن فتردد اثناسيوس في الامر لعلمه انه اذا عمل
هكذا يفتح لاعدائه باباً جديداً للاعتراض عليه لان كنيسة سيزاريوم
هذه كانت مبنية على اطلال القصر المسيحي سيزاريوم (اي قصر
القيصر) وهو قصر قديم للامبراطرة الرومانيين وكان لم يزل ملكاً
خاصاً بالامبراطور ما لم يسلم نهائياً الى الكنيسة ويصير تحت تصرفها
فاذا صلى اثناسيوس في هذه الكنيسة فيكون قد اهان مليكه واحتقره
اذا هو وضع يده على الكنيسة قبلما تعطى له زد على ذلك ان تأدية

خدمة العيد الكبير في بناء غير مكرّس يعدّ مغايراً للقوانين الكنائسية
واخيراً قبل اثناسيوس على غير رضى منه وضد ضميره وصلى في هذه
الكنيسة فأعتبر هذا ذنباً جديداً له . وفي سنة ٣٥٥ أعيدت محاكمة
اثناسيوس في مجمع شكل في ميلان وذلك بعد لدد وخصام شديد بين
اربعة اساقفة قاموا للدفاع عنه وبين الامبراطور الذي اشتد غضبه
لان القوم انكروا عليه سلطته الشخصية ومقدرته على معاقبة اسقف
رأى ان يعاقبه بنفسه بدون قانون . وقد ردّ عليه الاساقفة واغلظوا له
في المقال حتى قالوا له انهم لم يكونوا هنالك ليدرأوا له غلطته التي ارتكبها
ثم اخبروه بصريح اللفظ قائلين « ان اثناسيوس بصفته بطريركاً لا يحاكمه
الامبراطور بل الاساقفة فلا تخلط جنابك بين القوانين الكنائسية
والاوامر الامبراطورية »

فاجابهم الامبراطور وهو ممتلىء غيظاً (ان ارادتي هي القانون)
وفي شهر اغسطس من هذه السنة جاء احد كتبة الامبراطور الى
الاسكندرية وحاول ان يخرج اثناسيوس منها بصفة غير رسمية ولكنه
لم يفلح . وفي يناير سنة ٣٥٦ وفد سريانوس وهو قائد اسطمبولي ومعه
احد رجال الامبراطور المسمى هيلاريوس وطلبا من اثناسيوس شفاهياً
ان يرافقهما فرفض الطلب لعدم وجود امر رسمي من الامبراطور بيدهما
وقد ساعده على ذلك تعضيد جميع الاكليروس والشعب له تعضيداً تاماً
ولذلك اقسم سيريانوس برأس الامبراطور امام والي مصر ومحافظ

الاسكندرية بان لا يعمل شيئاً ضد اثناسيوس ما لم يصله امر من مولاه

وبعد مضي ثلاثة اسابيع بينما كان البطريرك اثناسيوس في كنيسة مارتيوناس يؤدي صلاة نصف الليل وهي صلاة يتحتم على المصريين آداؤها دائماً ـ حدث هرج ومرج خارج الكنيسة عندما سمع وقع اقدام عساكر احتاطت بها تحت قيادة الجنرال سيريانوس وهيلاريوس وغورغونيوس رئيس الشرطة . فلما علم اثناسيوس هذا خاطب جماعة الحاضرين ورجاهم ان لا يهربوا هرباً يوجب الخجل والريبة ولا ان يقاوموا هذه القوة بالقوة

وقد كتب اثناسيوس بعد ذلك يصف هذه الحادثة قائلا (اما انا فجلست على الكرسي (١) الخاص لي واوعزت الى الشماس ان يتلو المزمور ١٣٦ وكان الشعب يردون عليه قائلين (لان رحمته تدوم للآباد) وحينئذ حان وقت الانصراف وكنا على وشك الذهاب الى منازلنا

ولما كان الظلام خارج الكنيسة حالكا جداً طرق العساكر جميع

(١) كان كرسي البطريرك يوضع دائماً خلف المذبح متجهاً نحو الشعب وذلك في الكنائس المصرية وهذا الكرسي عبارة عن فتحة في الحائط ـ مثل القبلة في الجامع ـ وفي هذه الفتحة حجر مرتفع يجعل الشعب قادراً ان ينظر الجالس عليه بسهولة

الابواب (١) طرقاً عنيفاً عند ما كان الشماس يرتل مزمور الحمد والشكر هذا حتى ان دق الابواب كان يعرف في آذان الشعب الذين كانوا مشتغلين بالصلاة والعبادة وكانوا يعجبون لهذا الطارق ليلا . ولما كان الشعب يرد على الشماس بهذه العبارة (لان رحمته تدوم للآباد) فتحت الابواب قهراً وولجها الجيش الروماني وهو يصيح صياح النصرة والفوز كمن افتتح مدينة قوية وكانت سيوفهم مشهورة في ايديهم تلمع في شعاع سرج الكنيسة المنعكسة عليها . فاندفع العساكر في الكنيسة كالسيل الجارف وهرعوا قاصدين البطريرك الذي وقف وامر الشعب بالفرار بقدر الامكان ولكن بعضهم اجتهد ان يعترض العساكر في طريقهم فذبحهم العسكر وداسوهم تحت اقدامهم عند ما كانوا يركضون نحو ردهة الكنيسة للقبض على الفارين . وقد ألح القسوس على اثناسيوس بالفرار ولكنه أبى ذلك لعلمه الاكيد بانه ما دام موجوداً امام أولئك الذين يسعون خلفه ليقتلوه فهم يكتفون به ولا يبحثون عن الآخرين بل يتركونهم وشأنهم حيث ان لا علاقة لهم معهم . وقد كتب اثناسيوس فقرة في هذا الصدد يقول فيها : (قلت في نفسي انني لا اهرب حتى ينجو جميع الشعب ثم وقفت وطلبت من الحضور ان يصلوا الصلاة الاخيرة وحينئذ اشرت اليهم بالانصراف حالا . ولما انصرف اكثر الشعب جاء

(١) كانت جميع الكنائس المصرية في ذلك الحين كأنها حصون ومعاقل وفيها كل ما يحتاج اليه في وقت الضيق

الرهبان مع الذين تخلفوا من القسوس وحملوني خارجاً)

وبينما كان جماعة الاكليروس يحملون اثناسيوس هجم العساكر هجمة قوية على الكنيسة حتى أغمي على اثناسيوس من شدة الخوف ولكن القسوس تمكنوا من اخراجه خلسة لان النور كان قد ضعف وكاد يطفي وكان الجند يضج ويرغي ثم حاصر كرسي البطريرك الموجود بالهيكل ولكنه كان خالياً لان البطريرك هرب والتجأ الى مكان امين اختبأ فيه قبل ان يعرف اعداؤه بفراره من ايديهم . ففاز اثناسيوس بالنجاة في الظلام الحالك ولطالما كان الظلام ستراً تجري خلفه خير الاعمال وشرها

وقد ظل اثناسيوس في كمينه مدة ست سنوات وهو ينتقل من مكان الى آخر لان رجال الامبراطور كانوا يبحثون عنه ويبثون العيون والارصاد عليه في انحاء القطر المصري . والذي يتصور حالته وقت فراره حين اكفهرّ وجهه واغبرّ لونه واسترسل شعره منسدلا على ظهره يجده شبيهاً بابطال الروايات الخيالية التي نقرأها الا ان اثناسيوس هذا كان بطريركا ورعاً شرد من وجه اعدائه وليس محباً وامقاً هام يبحث عن من يحبه . وكان يقتات بخبز الفلاحين الناشف الغير مختمر واذا عطش اغترف من ماء النيل براحتيه واذا انهكه التعب واخناه السفر جلس على قطعة حصيرة رثة أو افترش الثرى وتوسد التراب

وكانت أحسن الايام عنده ان يجلس مع جماعة النساك البسطاء

في دير وادي النطرون او في طيبة (الاقصر) حيث يتمتع قليلا بضوء الشمس لانه كان يصرف اكثر اوقاته مختبئاً في نفق مظلم في الارض او منزويا في احد القبور القديمة المهجورة ولم يترك مغارة او وهدة الا وانكمش فيها ولم يدع غاراً او ديراً او قرية الا وشرفها بزيارته وصرف فيها وقتاً ثميناً من اوقاته هارباً من اعدائه ومبغضيه . ولا يوجد برهان يدل على عظمة هذا الرجل وحسن نواياه مثل حبه في افادة الآخرين اثناء هذه السنوات الست التي ذاق فيها من الصعوبات مالا يحده العقل وقاسى فيها من الاتعاب والمصائب ما تنوء تحته اعناق الرجال ولكنه مع كل ذلك لم يقطع علاقته مع الكنيسة يوماً واحداً ولا اغفل امرها طرفة عين . ولو انه لم يظهر لاحد كل هذه المدة الطويلة الا للذين كانوا يعتنون به الا انه ما فتىء يكاتب الاساقفة ويبعث بالرسائل والاوامر الى كنيسته التي كانت تعتبر اوامره نافذة المفعول كما لو كانت صادرة منه وهو جالس على السدة البطريركية في الاسكندرية وقد كتب عدة خطابات اما لمؤمن حزين يحتاج الى التعزية او لحائر مرتبك تعوزه النصيحة والارشاد عدا عن تآليف ادبية في أهم المباحث افاد بها ابناء ذلك العصر الذين كانوا في حاجة شديدة الى مثل هذه الابحاث المفيدة . وكان عمره في ذلك الحين ستين سنة ولذلك لم يكن له رجاء في العودة الى حالة الراحة والامن كما ان الاخبار التي تصله من البلاد كانت مما تنقبض منها الصدور وتتقصم لسماعها الظهور ولكنه

كان دائماً يظهر علائم الفرح والسرور . ومن المؤكد انه في مدة فراره هذه كتب دفاعاً (١) عن نفسه بعث به الى قسطنطينوس وكتب ايضاً يعتذر عن هروبه والاسباب التي الجأته اليه . ثم انه وضع منشوراً ارسله للرهبان في مبادئ هامة وسطر خطاباً لصديقه الحميم سيرابيون اسقف سيوس واعظم عمل أتاه في هذه المدة كان ذلك الكتاب المهم المتضمن مقالات سابغة الذيول ضد آريوس واتباعه

ولما ضاقت الحيل باثناسيوس خطر على باله ان يرفع دعواه بنفسه الى الامبراطور قسطنطينوس ولكنه عاد فرأى ان هذا الرأي سقيم لا ينتج فائدة . فانه بعد ان شرع القوم في قتل اثناسيوس داخل اسوار كنيسة ماريثوناس ولما لم يفوزوا بغرضهم اشاعوا في الاسكندرية بان اسقفاً من المتمذهبين بمذهب آريوس كبدوكي المولد قادم ليتولى مسند الرئاسة على كنيسة مصر بدل اثناسيوس وكان اسم هذا الاسقف جورجيوس (٢) وقد قيل عنه انه قبل تعيينه في الوظائف الكهنوتية

(١) ليعلم القارئ الكريم ان كلمة «دفاع» هذه لا تؤخذ حسب معناها الدارج الآن في انها خطابات تتضمن المدافعة او الاعتذار عن الخطأ . بل ان لهذه الكلمة معنى آخر هو انها كانت تستعمل للدلالة على نبذات محكمة الوضع محتوية على حكم وامثال ومواعظ شتى

(٢) ان تشابه اسمي غريغوريوس وجورجيوس ولانهما من كبدوكية اوجد خلطاً بينهما حتى لم يقدر البعض على تمييز هذا من ذاك . اما الاخبار المسطورة عن جورجيوس في هذا المتن فلم تكتب هنا الا بعد فحص دقيق في مؤلفات كثيرة ابنت صحتها تماماً

كان سمساراً خادعاً ومقاولاً محتالاً في القسطنطينية ولكنه كان ايضاً عالماً معدوداً . وقد جرت عادة رجال الكنيسة المصرية ان يجعلوا تعيين البطريرك في الصوم الكبير فقط ولذلك عينوا هذا الصوم المقدس لوسامة هذا الرجل الذي جاء ليغتصب الكرسي البطريركي اغتصاباً حتى انه بعد وصوله للاسكندرية بقليل بدأت نار الاضطهاد تحتدم فيها لتحرق كل من يسير على غير رأي هؤلاء العتاة وكان بين الذين ذاقوا مرارة هذا الاضطهاد سبعة عشر اسقفاً قال عنهم اثناسيوس انهم نفيوا نفياً وعوملوا معاملة قاسية شديدة حتى ان بعضهم مات في الطريق قبل ان يصل الى منفاه وبعضهم مات بعد وصوله بقليل وبالاجمال فان اكثر من ثلاثين اسقفاً مصرياً صار طردهم ونفيهم من البلاد حتى اختفت آثارهم بالمرة ولم يقف لهم أحد على خبر . وقد لمح اثناسيوس الى الاعمال التي اتاها جورجيوس فقال : —

« لم ينته اسبوع العيد حتى كنت ترى العذارى الفتيات يطرحن في السجون اضطهاداً وتعذيباً وكان العساكر يربطون الاساقفة بسلاسل واغلال ويجرونهم في الشوارع وكان اعوان جورجيوس يدخلون مساكن الايتام والارامل عنوة واقتداراً ويسلبون ما فيها . وكانوا يدفنون المسيحيين احياء تحت جنح الظلام ثم يضعون علامات على منازلهم ليعرفوها حتى اذا اصبح الصباح نهبوا ما فيها بدون مقاوم . ولم يقتصر هذا الشر على الاكليروس فقط بل ان اقاربهم كانوا في خطر لا لذنب بل لانهم

اقرباؤهم . ولم يقتصر هؤلاء المضطهدين على هذه الفظائع بل تجاوزوها كثيراً وعادوا في غيهم وعتوهم لدرجة اوجبت نفور الشعب واشمئزازه من هذه الحالة حتى ان أعضاء الكنيسة لم يطيقوا تأدية الصلاة فيها بعد عيد الفصح بل كانوا يذهبون الى المقابر ويصلون فيها لانهم كرهوا الصلاة مع جورجيوس فلما علم هذا الظالم الغاشم بكره الشعب له حرّض جندهم ضابطاً من الشيعة المانويّة اسمه سباسيان فسار نحوهم في نفر من الجند مسلح بسيوف قاطعة وسهام لامعة وحراب نافذة وهجم على هذا الشعب المنيف في يوم الرب المبارك الذي قدّسه لعبادته لا لقتل الانفس البريئة . فلما وصل الى المقبرة لم يجد الا رجالاً يعدون على الاصابع لان اكثر الناس كانوا قد عادوا الى منازلهم عند ما مال النهار فلم يرحم هؤلاء البائسين الابرياء بل أعمل فيهم الصارم البتار وبرهن بعمله هذا على قسوة وعتو وجدا في مثل هذا المتوحش اللئيم . وبعد ان أودى بالرجال حوّل نظره نحو اولئك العذارى الطاهرات فاضرم ناراً تأجج سعيرها وأدناهن منها وهددهن بالاعتراف بمذهب آريوس والانحياز اليه اماهنّ فلم يملن عن اعتقادهن ورفضن طلبه هذا كانهن احتقرن النار وحسبنها ماء زلالاً فلذلك اشتد حنق هذا الوحش الضاري عليهن فجردهن من ثيابهن وظل يضربهن على الوجوه حتى تغيرت سحنتهن ولم يكن احد يعرفهن فيما بعد . فلقد القى هذا الضابط القبض على نحو أربعين رجلاً وجلدهم بالسياط جلداً تقشعر منه الابدان وترتعد

لهوله الفرائص وذلك بان مزق ظهورهم بعصي خضراء قطعت من النخل بشوكها حتى ان بعضهم عملت له عملية جراحية لاخراج الشوك من لحمه وبعضهم لم يحتمل العذاب والالم فمات من شدة الضرب أما الذين عاشوا بعد هذه المصائب فنفيوا الى الواحات الكبرى البحرية بما فيهم واحدة من أولئك العذارى ولم يكن هذا العاتي يسمح لاقارب الموتى باخذ جثث موتاهم ولكن لما تعهد له هؤلاء الاقارب بعدم الاحتفال بموتاهم والامتناع عن تأدية الفرائض الدينية المعتادة لهم اذن لهم أولئك القساة بدفنهم كما وافق اغراضهم حتى يخفوا عن أعين العالم دلائل قسوتهم وغلاظتهم التي لم تخف بل ظلت ظاهرة في بطون التواريخ الى الآن . وعلى خطة الجهل والعمه هذه سار أولئك المجانين سيراً لم يؤثر في أهل الايمان الصحيح تأثيراً يذكر لان أصدقاء وأقارب الذين ماتوا في هذا الاضطهاد كانوا يفرحون ويطربون لان اخوانهم بقوا محافظين على ايمانهم الى ساعة موتهم ولو انهم أسفوا واستاؤوا لعدم التصريح لهم بدفن جثثهم وهو عمل يدل على منتهى الفظاظة والخشونة في صدور الفجار الذين تجردوا من الانسانية فاصبحت أعمالهم واضحة عند جميع الناس

وكانت السنون تمر سراعاً وهذا البطريرك أثناسيوس هائم على وجهه لا يقر له قرار وهو كل يوم يتصدع خاطره بسماع الاخبار المحزنة منها ان هوسيوس أسقف كردوفا صديقه المحبوب صادق في سنة ٣٥٧ على مذهب آريوس وأقر على صحته وذلك لانه كان قد اضناه اضطهاد

نقيل اضعف عقله وكاد يفقده الادراك والشعور ولكنه لم يلبث حتى عاد اليه رشده وسطع نجم حذقه قبل موته فاسترد ما عمل وتاب عن هذه الهفوة التي ارتكبها في ظروف صعبة الا ان اثناسيوس تأثر وانفعل من هذا الفعل حتى كان كأن سهما حاداً نفذ كبده خصوصاً اذ تلاه فرار ليبريوس اسقف روميه في سنة ٣٥٨ وكان هذا صديقه أيضاً . وفي سنة ٣٥٨ و٣٥٩ و٣٦٠ انعقدت ثلاثة مجالس آريوسية اسهب اثناسيوس في كيفيتها وأعمالها اسهاباً مفصلا وذلك في نبذة له عن مجامع ارمينيا وسلوشيا أظهر في كتابتها ما عهد فيه من الصبر عند اشتداد الاذية واحتمال الضيق بنفس راضية وسلاسة الطبع ورقة الجانب التي فاق بها الاوائل والاواخر ومن الاسباب التي احزنت قلب اثناسيوس وأحرجت صدره وصول نباء اليه ينعي مارانطونيوس الناسك الذي كان من أحسن الاصدقاء له وأقوى سنيد يشتد به أزره . والذي زاد غمه وكدره انه في سنة ٣٦١ بلغه ان وثنياً أصبح حاكماً للعالم المتمدن بعد ان اختفت آثار هؤلاء المتوحشين ومعنى ذلك ان قسطنطينيوس مات وعقبه يوليانوس الكافر الملحد

أما يوليانوس هذا فلم يكن مسيحياً مع انه تربى تربية مسيحية والذنب في ذلك كله على الذين كانوا مسؤلين عن الكنيسة التي صارت بواسطة اهمالهم وشقاقهم مهملة حتى كادت تبعد عن الصبغة المسيحية كثيراً ومعلوم ان قسطنطينيوس ابن عم يوليانوس هذا كان امبراطوراً مسيحياً

ومع ذلك فقد بدأ حكمه بان ذبح جميع أقاربه كلهم ولم يبق منهم الا يوليانوس نجى من الموت رغماً عن ارادة قسطنطينيوس الذي لم يكن يعرف انه سيخلفه على سرير المملكة . ومع ان يوليانوس هذا كان قد تعين قيصراً في سنة ٣٥٥ وهو في الرابعة والعشرين من عمره الا انه لم تكن له سلطة قط في هذه الاثناء بل كان كسجين تحت تصرف الحكومة وسبب ذلك أن أوغسطس زميله كان ذا نفوذ وسلطة بواسطة تحريضه الجيش على تعضيده والسير خلفه وهذا عمل لم يكن يعرفه قسطنطينيوس في حياته ولذلك ظل يوليانوس ينكر الديانة المسيحية مدة من الزمن ولكنه لم يجاهر بارائه هذه الا قبيل موت ابن عمه قسطنطينيوس حينما اطرح برقع الحياء واذاع بانه وثني قح وأشهر ذلك جهاراً حتى انه ادى رسوم الديانة الوثنية من ذبح الذبائح للاصنام واجراء باقي فرائضها وتقاليدها وكانت المدينة التي يهواها قلبه ويجنح لسكناها مدينة باريس التي لم تكن معروفة قبل ايامه بل هذا أول عهدها بالتاريخ . وهو رجل عزب ماتت امرأته بدون عقب فلم يكن له بنون أيضاً . وقد رقي يوليانوس العرش الامبراطوري في شهر نوفمبر سنة ٣٦١ وصرف أول ايامه في اتمام بعض نظامات ضرورية في القسطنطينية . وفي عشية عيد الميلاد حدث شغب عنيف في مدينة الاسكندرية أوجده الوثنيون الذين كانوا في ذلك الحين مغترين بقوتهم مغترين بجاههم وكان قصدهم من هذا الشغب الايقاع بثلاثة رجال تكرههم العامة وتنفر منهم الخاصة وهم جورجيوس

وديودورس ودراكونتيوس وذلك لان جماعة الوثنيين ظلوا مدة طويلة
وهم حانقين ومتغيظين من هؤلاء الثلاثة . أما ديودورس هذا فكان
مسيحياً ذا ثروة طائلة ومركز خطير في الاسكندرية وحائزاً لرتبة (كونت)
من لدن المملكة الرومانية ويحتمل انه يوناني النزعة ولو انه مصري
الموطن وكانت وظيفته في ذلك الحين مراقبة البناء في كنيسة سيزاريوم
الكبرى التي لم تكن قد تمت بعد ولكنه كان قد جرح احساسات
المصريين واغاظهم في انه قطع خصلة الشعر الطويلة المدلاة على جوانبها
اما بشخصه أو ربما استعمل سلطته ونفوذه في اجبار تلامذة الاسكندرية
على هذا العمل . اما غديرة الشعر هذه فكانت تستعمل في أيام حكم الفراعنة
وعند ابان صولتهم ومجدهم للدلالة على ابن الملك او ابنته واستعملها
البطالسة اشارة الى ان حاملها من أصحاب المراتب العالية والرتب الرفيعة
وفي ذلك العهد كان يلبسها كل من يفاخر بنسبته الى المصريين ويقول بانه
من سلالة اولئك العظام المشهورين

اما دراكونتيوس فاغاظ الوثنيين عند ما كان مديراً للضربخانة
المصرية وذلك لانه نقل مذبحاً وثنياً وجده في دار صك النقود . وقد
زادت التهمات ضد البطريرك جورجيوس اكثر من كل الذين سبقوه
كما انها كانت غريبة في مبناها ومعناها فضلا عن كونه شدد النكير
على جميع المسيحيين الذين يؤمنون الايمان الصحيح ويبتعدون عن كل
بدعة حتى انه ضايقهم ضيقاً شديداً ـ كذلك ابعد عنه قلوب الاحزاب

الاخرى بواسطة طمعه الاشعبي وجوره الذي لا يطاق . من ذلك انه
اسخط جماعة الاسكندريين في انه اغرى الامبراطور بفرض عوائد
املاك على جميع منازل المدينة كما انه احتكر لنفسه استخراج النطرون
والملح وسعى في نفي زينو وهو طبيب وثني طائر الصيت في الاسكندرية
ثم انه اغوى ارطميوس(١) والي مصر على مهاجمة هيكل سيرابيس العظيم
وهو اقوى حصن وثني بواسطة ثلة من الجند شاكي السلاح ثم جرد
هذا الهيكل من التماثيل الموجودة فيه ونزع عنه كل حلية وزينة ازدان
بها . واخيراً فكر في احتكار وظيفة « الحانوتية » حتى انه لم يكن
يسمح بدفن جثة ما لم يحملها رجال عينهم هو لحمل الموتى لغرض الربح
القبيح . وكان قبيل ذلك في شهر اغسطس سنة ٣٥٨ ان عامة الناس
في الاسكندرية هجموا على كنيسة مار ديونشيوس حينما كان يسكن
جورجيوس في احدى قبابها وكانوا يقصدون اغتياله فاسرع الحرس
الامبراطوري لانقاذه من ايديهم وبعد معركة شعواء بين الطرفين
انقذوه وهو لا يكاد يصدق بالنجاة ولذلك اضطر ان يترك الاسكندرية
في شهر اكتوبر من السنة نفسها لان خطر الموت كان يتهدد حياته
فيها ولم يعد الى هذه المدينة الا بعد ارفضاض مجمعي ريمني وسلوشيا(٢)

(١) لاجل هذا السبب ولاسباب أخرى مهمة قطع يوليانوس رأس ارطميوس هذا

(٢) قرر مجمع سلوشيا باغلبية الاراء ابعاد جورجيوس وكثيرين من الاساقفة
الى اماكن بعيدة عن مراكزهم ولكن هذا الحكم لم ينفذ ولم يعبأ اولئك به

في نحو شهر نوفمبر سنة ٣٥٩ . وقد ذكر اميانوس المؤرخ الوثني ان جورجيوس هذا كان يتهدد الناس بقوله لهم انه قادر ان يؤذيهم بالنفي والابعاد عن الوطن وبعد مضي سنة أخرى من عودته الى الاسكندرية بلغ هذا البطريرك الجبار منتهى السطوة والقوة ووصل به من الغطرسة والخيلاء الى اهانة الحزب الوثني اهانة قاسية نلخصها لك فيما يأتي :—

ذلك انه كان يوجد مكان في الاسكندرية أهمل أمره وتغاضى القوم عنه مرة من الزمن حتى اصبح بؤرة اقذار مع انه كان قبلا هيكلا للوثنيين حيثما قدمت فيه الذبائح البشرية ونحر ابن آدم على مذبحه اكراماً للاله مثراس أحد آلهة المصريين القدماء وكان الامبراطور قسطنطيوس قد وهب هذا المكان الخرب الى كنيسة الاسكندرية ولذلك صمم اوديوس حينئذ على بناء كنيسة فيه فكان لا بد له من ازالة ما فيه من الاوساخ والاتربة المتراكمة في ساحته فلما شرع في ذلك اكتشف العمال هوة عميقة جداً ملاى بجماجم البشر ورفات الادميين مما أظهر للناس فظاعة الطقوس الوثنية وشناعة هذه الديانة التي كان المتدينون بها يؤدون فرائضها في هذا الموضع . وقد اغتنم جورجيوس هذه الفرصة لتشهير الوثنية وتقبيح أعمال الوثنيين وعليه رتب موكباً حافلا بالمسيحيين طاف به كل المدينة وهو رافع الجماجم والرموز الوثنية التي وجدها في ذلك المكان . فزاد ضجيج القوم وعلا صياحهم سيما وهم من ثمالة المورد وزعانف الشعب الذين كانوا يهرعون الى الشوارع للتفرج على هذا الموكب

ومما زاد الخطب تفاقماً ان عقلاء الوثنيين استاؤا جداً من هذا العمل ولذلك لم يوقفوا اولئك الرعاع عند حدهم أو يمنعوهم عن الاعتداء والهياج . وقد ضاق الخناق عند ما بلغ القوم فجأة ان سفينة قدمت من القسطنطينية تنعي الامبراطور قسطنطيوس وتنبيء بتبوؤ يوليانوس الكافر كرسي المملكة . فانتشرت هذه الاخبار في الاسكندرية انتشار النار في الهشيم فانفجرت حدة الوثنيين كالبركان الهائج وجعلوا يرغون ويزبدون كمن بهم مسة من الجنون ثم هجموا على موكب المسيحيين بسرعة البرق الخاطف وجعلوا يصيحون بصوت واحد قائلين « تباً لك ياجورجيوس » ثم امسكوه هو وديودورس ودراكونتيوس وكادوا يعدمونهم الحياة في تلك النقطة لولا ان بعض متشرعي الوطنيين تداخل في الامر فمنعهم من قتلهم واكتفوا فقط بطرح ذلك البطريرك الشقي في السجن مع رفيقيه وتأخر انفاذ الحكم عليهم بضعة أيام . وكان خبر ارتقاء يوليانوس قد عرفه الناس في نحو ٣٠ نوفمبر سنة ٣٦١ ولذلك بقي البطريرك والاثنان اللذان معه في السجن مدة اسبوع أو اسبوعين دون ان يحاكموا لان القضية لم تكن قد رفعت عليهم ولأن جلوس امبراطور جديد قد يؤخر سير القضايا ويؤجلها اكثر ولكن هياج الوثنيين وازدياد سخطهم لم يعرف له اول من آخر . فلما جاءت عشية عيد الميلاد المار ذكرها عظم هذا السخط وصار شغباً يعسر اخماده فهجم على السجن جماعة من سفلة القوم وهم يهرون كالكلاب وجرّوا الثلاثة رجال واخرجوهم خارجاً وهم

يضربونهم بالعصي ويرفسونهم بارجلهم رفساً عنيفاً. وقد وصف يوليانوس
نفسه هذا العمل بقوله « ان الشعب مزّق أحد الرجال الثلاثة ارباً ارباً
في اقل من لمح البصر ففعلوا في هذا فعل الكلاب في الجثث » . وقد
خلطوا لحم جورجيوس بعظمه ثم وضعوه على جمل وربطوا جثتي رفيقيه
بحبال وطافوا بهم في انحاء المدينة ليعكسوا الاحتفال الذي عمله المسيحيون
ضدهم ويحقرون نتيجته واخيراً احرقوا الجثث على شاطئ النهر وذرّوا
رمادها في الماء وهذا العمل يعد نهاية الاهانة التي يهين بها المصري جثة الميت

وعلى هذه الصورة المعكوسة انتهت حياة جورجيوس بطريرك
الاسكندرية وهو الذي خلطه جيبون المؤرخ بعد أربعة عشر قرناً مع
مار جرجس زعيم الكنيسة الانكليزية واعظم شهيد في المشرق . وقد
اتضح في فصل سبق ان هذا الخلط بعيد عن التصور لا يحتمله العقل
ولا يقام عليه دليل بل ان الصحيح هو الذي ذكرناه لك دون غيره .
ومع ذلك يحتمل ان تكون شيعة آريوس قد اكرمت جورجيوس هذا
بعد موته وشادت له كنائس كرّستها باسمه ولكن هذا لا يثبت كونه
مار جرجس بطل الشهداء وعميد القديسين

الفصل السادس عشر

—﴿ أوبة اثناسيوس ووفاته . سنة ٣٦١ للمسيح و٧٧ للشهداء ﴾—

لما بلغ يوليانوس خبر قتل جورجيوس أرسل هذا الامبراطور جواباً

غريب المعنى الى الجمعية الوثنية في الاسكندرية يدل ظاهره على انه
يؤنبهم ويلومهم لاجل الجرم الذي ارتكبوه بقتل جورجيوس ورفاقه
ولكن يفهم من باطنه أنه يشجعهم على هذا العمل بدل أن يفرض
قصاصاً عليهم يكون رادعاً لهم عن غيهم والدليل على ذلك العبارة الآتية
التي ختم بها يوليانوس جوابه هذا حيث قال : —

« لقد كان من حسن حظكم أيها الاسكندريون ان ارتكبتم هذا
الذنب القبيح في مدة حكمنا فعاملناكم معاملة ودية أخوية حتمها علينا حبنا
واحترامنا لجماعة الآلهة واكرامنا واجلالنا لاسمي جدنا وعمنا اللذين
دعي بهما علينا وهما اللذان حكما مصر بما فيها مدينتكم الزاهرة . ولكن
لا يغرب عن افهامكم ان سلطتنا لا تحتمل الضيم لنفسها وان حكومتنا
هذه التي لها ما لها من الحول والطول لا يمكنها أن تتغاضى عن مثل هذه
الدعارة الفائقة الحد ولا تسمح بسريانها بين رعاياها الآمنين ولكنها
تداوي سوء الخلق هذا بكل طرق العنف والقسوة بواسطة أدوية
ناجعة فعالة . ولكننا بناء على الاسباب التي ذكرناها آنفاً نتصرف في
مسألتكم الحاضرة تصرف الطبيب العاقل الدمث الطباع بان نكتفي بتوبيخكم
على ما ارتكبتموه وتحذيركم من العودة لمثله مرة أخرى كما اننا نستعمل
معكم أنواع العلاج التي نعرف انها ملائمة لطبعكم لعلمنا انكم لستم فقط
ابناء أولئك اليونانيين العظام بل انه ما زال يتمثل امامكم ما كان لاسلافكم
من صفات المجد وآثار السؤدد . وعليه ارجو اذاعة هذه المبادئ

والافكار بين اخوتنا سكان الاسكندرية »

ولا ريب في ان يوليانوس كان شديد التمسك بدينه الوثني غيوراً على عقيدته غيرة كادت أن تقوده الى اثارة اضطهاد ضد المسيحيين لو لا انه شعر ان مثل هذا الاضطهاد قد يوجد رباطاً متيناً بين المسيحيين على اختلاف نزعاتهم وتعدد مذاهبهم فيقومون ضده مرة واحدة وان هذه العصبة القويه في ظروفه الحرجة تلك قد تفقده ملكه بل حياته اذ لا قدرة له على مقاومتها ومناجزتها وعليه اكتفى باصدار أوامر كثيرة التضييق في سبل التربية والتعليم والضغط الشديد على العقول مما أعاق عمل الكنيسة وعطل سيرها عطلة تدعو الى الاسف كما انه من الجهة الاخرى ضرب شيعة آريوس التي كانت قد قويت ضربة قاضية كادت تجهز عليها وذلك لانه أصدر أمراً بارجاع جميع الاساقفة الذين نفاهم قسطنطينوس الى كراسيهم واعادة أملاكهم التي سلبتها الحكومة اليهم.

ومن أحسن المآثر في تاريخ هذا الامبراطور الوثني رد اثناسيوس وكثيرين معه ومنحه ما كان له قبلا من السلطة والمكانة وكان ذلك في شهر فبراير سنة ٣٦٢ وعاد معه اسقفا فرسيلي وكالاريس من أوروبا وكانا قد نفيا الى طيبة . أما أسقف كالاريس فسار تواً الى انطاكية ولكن أسقف فرسيلي بقي في الاسكندرية ليحضر انعقاد المجمع الذي شكله اثناسيوس عقيب عودته من منفاه ولم يحضر هذا المجمع سوى عشرين أسقفاً من بين كثيرين كانوا تحت رئاسة اثناسيوس في أيامه الاولى قبل

أن تتوالى عليه المصائب والنكبات . وقد قرر هذا المجمع أن يقبل في عضوية الكنيسة كل الذين يقبلون قانون الايمان الذي قرره المجمع النقاوي وذكرناه قبلا وذلك منعاً لما عساه ان يحدث من شقاق قديم مر وانقضى وايقافاً لسير شحناء تتولد من مباحثات ومماحكات فارغة لاطائل تحتها . أما هذا البطريرك فلم يكد يتنفس الصعداء من هول النفي والاضطهاد حتى عادت الاهوال تترى عليه وتنصب المصائب تباعاً فوق أم رأسه فان يوليانوس الذي أعاده من منفاه عاد فغير رأيه من نحوه ونوى الشر لاثناسيوس (١) لعلمه بان الديانة الوثنية كادت تطمس آثارها وتعفو رسومها ما دام هذا البطريرك موجوداً في الاسكندرية . وقد بلغ من نخة يوليانوس انه لم يعتبر اثناسيوس نداً له يناصبه العدوان بل انه احتقره وازدرى به ولكنه ما لبث حتى حنق وسخط سخطاً شديداً لما علم ان البطريرك المذكور لم يكد يلقي عصا الترحال في الاسكندريه حتى أقدم على تعميد بعض السيدات اليونانيات اللائي كنّ وثنيات واعتنقن الديانة المسيحية وعليه أصدر أمراً قاطعاً بنفي اثناسيوس من الاسكندرية حالا بحجة ان

(١) كتب يوليانوس مرة الى والي الاسكندرية يقول : مع انك تهمل كثيراً في ان تكتب لي عن مسائل متعددة وانا اغضي عن هذا الاهمال الا انه كان يتحتم عليك ان تخبرني عن تصرفاتك مع اثناسيوس عدو الآلهة وكاره الاوثان وانت تعلم حقيقة مقاصدي ضد هذا الرجل التي اخبرتك عنها من زمن مضى . وعليه فانني اقسم بالاله سيرابيس العظيم انه ان لم يبرح اثناسيوس الاسكندرية — بل القطر المصري في اوائل شهر دسمبر فاني اغرم جميع موظفي حكومتك غرامة قدرها ١٠٠ رطل ذهب قصاصاً لهم . واعلم اني بطيء العقاب ولكني بطيء العفو والصفح

العفو الامبراطوري لم يشمله أو ان حالته لا تنطبق على منطوق هذا العفو

فسمع اثناسيوس هذا الامر في شهر اكتوبر سنة ٣٦٢ وحينئذ أسرع لمقابلة أصدقائه وتعزيتهم على فراقه لهم وكانت عيونهم تهمي بالدموع وكادت قلوبهم تتمزق من هول الوداع الذي لم يعرفوا نهايته ومن ثم ابحر اثناسيوس في النيل قاصداً الانحاء القبلية . وقبلما ابتعد كثيراً جاءه خبر بطريقة سرية ينبئه ان عمال الحكومة يقتفون أثره ويجدون في طلبه للايقاع به وهم على مقربة منهم ،لو انهم غير ظاهرين له لانهم كانوا في منعطف من النهر يخفيهم عن العيون . فلما علم اثناسيوس بذلك أوعز الى رجاله وهو بغاية الرصانة والتعقل أن يديروا دفة القارب الذي كان فيه ويرجعوا الى الوراء ثم سار توا لملاقاة السفينة التي أنفذتها الحكومة خلفه فلما اقترب منها ناداه الرجال الذين فيها وطلبوا معرفة ما اذا كان اثناسيوس في هذا القارب أم لا فاجابهم هو بنفسه قائلا (هو ذا اثناسيوس قريب منكم) وفي أقل من لمح البصر غاب قاربه عن أعينهم فسار الى شيرو حيث القى مرساه فيها ومنها قصد منفيس (جيزة) براً ومكث فيها وربما كتب الرسالة السنوية التي كانت تكتب في العيد وترسل الى جميع الكنائس وحينئذ سافر قاصداً طيبة ليختبيء فيها مرة أخرى . وبقرب مدينة هرموبوليس التقى اثناسيوس بثيودورس رئيس دير طبنسي (١)

(١) ان دير طبنسي (ومعناه مدينة ايزيس) هو غالباً الدير المعروف الآن بالدير الابيض على مقربة من سوهاج

وكان قد جاء ليحتفل بقدومه احتفالا باهراً اضاء فيه السرج الوهاجة والمصابيح المضيئة كانه يستقبل ملكا ظافراً لا بطريركا منفياً بائساً . فمكث اثناسيوس مدة من الزمن في هرموبوليس وانطينو واعظاً بكلمة الخلاص متمما واجباته بغاية النشاط والامانة كما لو كان سائحاً يفتقد رعية لا هاربا من وجه أعدائه . ولما انتصف فصل الصيف بلغ اثناسيوس ان الخطر أصبح محدقاً به يتهدده في كل لحظة فعول على الهرب الا ان ثيودورس وأحد رؤساء الاديرة الاخرى توسل اليه ان يمكث عندهم وان يختبيء في دير قريب من تلك الجهة اسمه ديرتانيا ولكن اثناسيوس رفض الاقامة ورحل في قارب مغطى ومعه الراهبان اللذان كانا يرافقانه دائماً فعاكستهم الرياح ولم تجر معهم بما تشتهي السفينة فذاقوا أشكال التعب والعناء في جرها ببطوء كثير . وقد ظل اثناسيوس يصلي طول اليوم حتى انه لم ينظر في وجهي رفيقيه وأخيراً أفاق كمن كان مغشياً عليه والتفت نحوهما قائلا (هبوا انني قتلت) ..... ثم كف عن الكلام لما رأى الراهبين يبتسمان في وجهه ابتسامة الفرح العجيب وحينئذ أخبراه انهما بينما كان هو غارقاً في صلاته علما بطريق الالهام الالهي أن يوليانوس فارق هذا العالم ولم يبق له أثر فيه وكان كلامهما صحيحاً فان يوليانوس مات قتيلا في معترك الطعن والضرب في ٢٦ يونيو سنة ٣٦٣ ولا يعلم شيء عن كيفية قتله ولكن المؤرخين الوثنيين في ذلك العصر لم يشكوا في أن أحد عساكر المسيحيين أخذه غيلة وقتله بطريق الخيانة والغدر وقد حمل

العسكري على ذلك تعصبه وكرهه ليوليانوس الذي ساقه الى التصور الى انه أوحى اليه ليقتل عدو الرب ويخفي آثاره. ولكن هذا الزعم لم يقم أدنى دليل على اثبات صحته بل ان كاليستوس أحد رجال حرسه زعم ان شيطانا ماردا أودى بحياته كما أن المسيحيين قالوا انه قتل بسر الهي لا يدركه أحد . وليس حلم الراهبين اللذين كانا مع اثناسيوس من الامور الغريبة فقد شاع في ذلك الحين ان أناساً كثيرين في انحاء مختلفة من المملكة جاءهم الهام روحي عن موت يوليانوس في ذات اللحظة التي فيها فارقت روحه جسمه . وقد قلنا فيما سبق ان حلم ثيودوروس الذي رآه في القارب كان السبب الوحيد الذي صد اثناسيوس عن الفرار ونذكر الآن حلما آخر رآه ديديموس العلامة الاسكندري الشهير الذي عرفنا عنه انه كان كفيف البصر حاد البصيرة فانه حلم حلما يشبه حلم ثيودوس وتفصيل ذلك أن هذا العالم الذي كان قد بلغ من الكبر اشده شعر شعوراً عميقاً بالضيق الذي استولى على الكنيسة وحزن لما رأى تقدم الوثنيين وانتصارهم عليها فصرف يوما كاملا في الصوم والصلاة والابتهال الى الله الى ان أضناه التعب والسغب فاستلقى على منضدته في منتصف الليل واستولى عليه النعاس فنام . وفي الساعة الاولى بعد نصف الليل قام من نومه مذعوراً اذ سمع صوتا جهوريا يناديه قائلا :ـ (لقد مات يوليانوس فقم وكل وبشر اثناسيوس بذلك) . اما ديديموس فكتب تاريخ اليوم والساعة اللذين رأى فيهما هذه الرؤيا بغاية الدقة فاتضح

له فيما بعد ان يوليانوس مات من الجروح التي اصابته في ذات اللحظة التي حلم فيها

ومن اشهر الاحلام في هذا المعنى واكثرها شيوعا في مصر حلم باسيليوس الذي صار فيما بعد اسقفاً لقيصرية كبدوكيه . وقبل ان يشتهر يوليانوس بالكفر والالحاد كان باسيليوس صديقه الشخصي الذي يركن اليه ولذلك استدعاه يوليانوس عند جلوسه على العرش الامبراطوري ورجاه ان يقيم عنده ويكون من رجال بطانته خصوصاً وان باسيليوس كان قد تربى تربية حسنة وعرف بالتقوى والتدين بين الناس . ولما كان باسيليوس على وشك اجابة الدعوة التي دعاه بها يوليانوس سمع عن ارتداده وكفره ولذلك رفض طلبه رفضا باتا وعدل عن الذهاب اليه والاقامة عنده . فهاج سخط يوليانوس لسبب رفضه دعوته واغتاظ غيظاً شديداً فقصد الانتقام من باسيليوس باضطهاد قيصرية التي كان قد عين كاهناً فيها في ذلك الوقت وكتب اليه كتابا للتحكك وطلب منه مائة رطل من الذهب الوهاج ليصرفها على الحملة التي جردها ضد الفرس وتوعده بدك قيصرية دكا وهدمها من اساساتها اذ لم يرسل الذهب حالا فحار باسيليوس في امره واستولى عليه اليأس ولم يدر ماذا يفعل في طلب يوليانوس هذا ولكنه عاد فهدئ روعه عند ما رأى هذه الرؤيا العجيبة وهي انه ظهر له في حلمه ان السموات انفتحت ثم سمع الرب يسوع المسيح يدعو عبده مركوريوس ان يذهب حالا ويقتل يوليانوس عدو

بحدامه الامناء. فامتشق مركوريوس سلاحا صقيلا يخطف الابصار بضوء لمعانه. غاب مرتين اختفى فيهما عن الاعين ثم عاد في المرة الثالثة وقال هاتفاً (ها قد قتلت الامبراطور يوليانوس كما امرتني يارباه فقضى نحبه) فلما ظهرت لباسيليوس هذه الرؤيا استيقظ من نومه خائفا وجلا وسار مسرعا الى الكنيسة حيث كان الكهنة وجماعة المؤمنين مجتمعين فيها يؤدون صلاة نصف الليل فقص عليهم الرؤيا التي رآها فلما سمعوها طلبوا اليه ان يكتم الخبر ريثما يتأكد صحته ولكن باسيليوس لم يقبل مشورتهم بل اذاع امر حلمه في كل صقع وناد ولم يمض زمن حتى وردت الانباء تترى بما يثبت صدق حلمه وموت يوليانوس ففرح الشعب لذلك وطربوا (١) واذا انت نظرت صورة القديس مركوريوس الموجودة في بر مصر تجده مرسوما وبيده سيفان متقاطعان فوق رأسه وتر تحت سنابك جواده صورة يوليانوس الشاحبة عليها تاجه مطروحين على الحضيض

ولما مات يوليانوس اختار الجيش العامل رئيس الحرس الامبراطوري امبراطوراً بدله وكان اسمه يوفيانوس وهو ككثير من غيره من اباطرة الروم سربي الجنس من عائلة عريقة في النسب. وقد كان مسيحياً يعتقد الاعتقاد الصحيح ولذلك كانت مدة حكمه القصيرة سلاماً وراحة للكنيسة

(١) قد اوردنا هذه الحكاية هنا كما رواها يوحنا النيقاوي الذي يذهب الى ان باسيليوس كان في ذلك الوقت اسقفاً لقيصرية

كما ان اكثر رجال الجيش الذين كانوا قد زاغوا عن الايمان في أيام يوليانوس عادوا الى معتقدهم الاول في أيام هذا الامبراطور فعم السرور جميع الرعايا وانشرحت أفئدتهم كثيراً الا الوثنيين الذين لما شاهدوا خراب هياكلهم واقفرار معابدهم بالاهلين علموا أن ديانتهم لا تؤثر في القلب الا أثراً سطحياً يعود عليهم بالضرر والشر اذا بطل الضغط واطلقت الحرية الدينية. وقد ذكر بعض المؤرخين ان يوفيانوس أصدر أمراً اباح فيه حرية الضمير المطلقة لجميع رعاياه على السواء ولكنه نهى عن ممارسة الاعمال السحرية الباطلة ثم كتب خطاباً الى اثناسيوس يدل على شريف احساسه واعجابه به وفيه يلتمس منه ان يشرح له المعتقد الصحيح شرحاً وافياً. فصدع اثناسيوس بالامر وكتب هذا الشرح على نسق رسالة رعوية صادرة من مجمع ديني وبعدها أبحر يوفيانوس قاصداً انطاكية حيث استقبل فيها باحتفال باهر

وفي هذه الاثناء لم تغمض اجفان اتباع آريوس في الاسكندرية ولم يفتأوا في عملهم فان واحداً منهم اسمه لوشيوس الذي كان جورجيوس قد سامه قساً قبل وفاته عقد النية على مقابلة هذا الامبراطور الجديد في انطاكية والالتماس منه بان يعينه في وظيفة البطريرك الخالية وذلك لعلم هذه الفئة انهم لا يمكنهم الحصول على غرضهم بالطرق القانونية اذا هم بقوا في الاسكندرية وعليه سار رهط آريوس للمثول بين يدي يوفيانوس في انطاكية وبيدهم طلب عزموا على رفعه اليه. فلما التقوا به عند ما كان

خارجاً في موكبه للنزهة سألهم ان من أنتم وماذا تريدون فاجابوه انهم مسيحيون من الاسكندرية يطلبون تعيين بطريرك لهم فاخبرهم الامبراطور بانه سبق وكتب لاثناسيوس ليرجع الى وظيفته . فقالوا له ان اثناسيوس صار من المغضوب عليهم واصبح منفياً من سنين مضت وان رجوعه لوظيفته لم يكن غرضهم الذي جاءوا لاجله . فلما قالوا هذا تقدم أحد العساكر وقاطعهم الحديث اذ اخبر الامبراطور بان هؤلاء القوم هم النفاية التي خلفها جورجيوس المحروم وعليه سار يوفيانوس في سبيله دون ان يلتفت الى طلبهم ولكنهم اكثروا من الالحاح ورجوه ان يسمع لهم ما يلقونه عن اثناسيوس ثم تبعوه في طريقه حتى اضطروه ان يسخط على البحارة الذين لم ينتهزوا فرصة يطرحون فيها لوشيوس في اليم عند سفره معهم من الاسكندرية الى انطاكية

وفي شهر فبراير سنة ٣٦٤ قفل اثناسيوس راجعاً الى الاسكندرية ولم يكد الدهر يبتسم للمصريين بعودته حتى كشّر لهم عن انيابه وصدّع خاطرهم بموت يوفيانوس الذي كانوا يرجون منه كل خير وبركة . أما سبب موته فهو انه طلب ان يؤتي له بوجاق فيه فحم ليدفئ غرفته لان البرد كان قارصاً ثم عمد الى فراشه ونام وفي الصباح وجدوه جثة بلا روح

وقد خلفه فالنتيان الاول على سرير المملكة وهو لا علاقة له بمصر لانه كان قد عهد بالشرق الى أخيه فالنس الذي يهمنا أمره وكان آريوسي

المذهب وهي الصفة التي تضمه مع المسيحيين ولو انه لم يكن على شيء من الديانة المسيحية قط . أما اذا أردت ان تعرف صفته الحقيقية فهي مضطهد المسيحيين ليس الا . والدليل على ذلك انه في سنة ٣٦٥ أصدر أمراً بنفي جميع الاساقفة القويمي المذهب وهم الذين أعادهم يوليانوس نفسه . ولما بلغت هذه الاخبار مدينة الاسكندرية في نحو شهر مايو من هذه السنة هاج القوم كثيراً دفاعاً عن اثناسيوس حتى ان والي مصر لم يتجاسر وينفذ أمر النفي اليه

وفي شهر اكتوبر بينما كان اثناسيوس مقيماً في زاوية بكنيسة القديس ديونيسيوس علم ان الوالي مصمم على مقاومته والقبض عليه ولذلك اسرع بالفرار حتى ان جنود الامبراطور لما هجموا على الكنيسة في ذات الليلة التي هرب فيها اثناسيوس بحثوا عنه كثيراً حتى في السقوف والجدران فلم يقفوا له على أثر . وقد قال سقراطس المؤرخ ان اثناسيوس مكث اربعة شهور مختبئاً في مقبرة آبائه . ولما رأى الامبراطور ان السلام لا يستتب في مصر والحالة هذه أجل انفاذ اوامره الى فرصة أخرى وسمح لاثناسيوس بالعودة الى كرسيه وظلت مصر بعد ذلك سنتين من الزمان آمنة مطمئنة تمارس فرائض الديانة المسيحية وتسعى في انتشارها تحت رعاية بطريركها اثناسيوس وفي خلال هذه المدة حدث شغب من الوثنيين في الاسكندرية في غرة يوليو سنة ٣٦٦ حرقت بواسطته كنيسة سيزاريوم الكبرى التي كان قد تم بناؤها في سنة ٣٦١ كما علمت في الذي مر بك

وفي سنة ٣٦٧ لما رسم لوسيوس الاريوسي رسامة غير قانونية خارج القطر المصري قصد ان يستحوذ على كرسي الاسكندرية بغير حق فطمحت انظاره لمسند البطريركية الذي طالما اشرأبت نحوه الاعناق وحاول الطامعون الوصول لسدته العالية وظن لوسيوس هذا انه لابد وان يأخذ هذه الوظيفة قسراً او بتصديق من الامبراطور . فلما وفد لوسيوس الى الاسكندرية سار قاصداً منزل امه التي كانت لا تزال على قيد الحياة . لم يكد خبر وصوله يطرق الآذان حتى احتاط بالبيت جمهور يزبد كالبحر الزاخر فلم يسع الوالي الا ان ارسل بعض الموظفين يأمرونه بالخروج من القطر المصري حالا ولكن هؤلاء الموظفين عادوا واخبروا الوالي بانه اذا أصر على اخراجه من منزله فهو يعرضه للقتل بايدي جماعة الثائرين اكثرهم من حرافيش الوثنيين وعليه انفذ الوالي كوكبة من الفرسان حملته على الاكف بين ضجيج القوم وهديرهم ثم وضعوه في اليوم التالي في سفينة واخرجوه خارج القطر لينقذوا حياته من الموت الذي شاهده بعينه

وفي سنة ٣٦٨ بدأ اثناسيوس بترميم كنيسة سيزاريوم التي حرقت وفي السنة التالية وضع اساسات كنيسة اخرى دعيت باسمه فيما بعد .

وفي هذا الوقت طلب اهالي مدينتين في مقاطعة بنتابوليس تعيين اسقف لهم يختص بالنظر في شؤونهم ثم ألحوا على اسقف الابروشية التابعين لها ان يرسم لهم شاباً عالمانياً اسمه سيداروس . فعنفهم اثناسيوس بروح الوداعة على نشوذهم هذا لانهم لم يطلبوا الطلب منه رأساً وبعد ان فحص الامر

اتضحت له اهلية سيداروس واستحقاقه فرقاه الى ابروشية مهمة جداً وبعد هذا العهد حرم اثناسيوس رجلا قاسياً عاتياً هو حاكم ليبيا « المغرب » ثم ارسل منشوراً الى رؤساء الكنائس على اختلاف انواعها يذكر فيه هذا الامر ويفصح عن الاسباب التي دعته الى ذلك . وقد صرف اثناسيوس الخمس سنوات الاخيرة من عمره وهو يؤدي واجباته بكل تأنٍ وتوضع وكان لا يفتاء يخاطب اساقفة جميع الكنائس الخارجة عن دائرة سلطته ويتوادد معهم خصوصاً مع باسيليوس اسقف قيصرية كبدوكية وصاحب الرؤوس المشهورة . فكانت اكثر خطاباته تختص بالشيع المختلفة وتقاوم مبتدعيها سيما بدعة ابوليناريس ومرسلوس من عنكيرة « في اوروبا »

وفي سنة ٣٧٣ انتهت حياة هذا البطريرك العظيم وهي حياة طويلة نافعة قضاها في اهم الاعمال واكثرها منفعة لتقدم الديانة المسيحية ونشر بشرى الخلاص بين الكثيرين . وبعد ان عين بطرس خليفة له نام في الرب بسلام وقد جلس على السدة البطريركية ستاً واربعين سنة

الفصل السابع عشر

انتحار الامة المصرية . سنة ٣٧٣ للمسيح و ٨٩ من الشهداء

اشرنا في فصل سبق الى النتائج السيئة التي نتجت من حروب المصريين في سبيل الحرية والخلاص من ربقة الذل وذكرنا ايضاً عاقبة الاضطهاد اثارة ديوكلتيانوس في بداءة القرن الرابع وكيف ان هذين العاملين اثرا

تأثيراً مذموماً في صفات الامة المصرية وطباعها حتى أُوجدوا فيها نوعان
الهوس والسوداء غيرا اطوارها وقلبا سجاياها . واتماماً للفائدة وتكملة لهـذا
المبحث نأتي الآن على شرح الموضوع الذي جعلناه عنواناً لهـذا الفصل
وسميناه انحدار الامة المصرية او هو انحطاطها وتقهقرها وهو عنوان قاسٍ مؤلم
ولكن لا مندوحة لنا من تسطيره اذا كنا نتوخى الحقيقة ونجد في طلبها
ولو وخزتنا وأدمت القلوب . فهذه الحقيقة المؤلمة هي ان الخلل الذي تطرق
في طباع المصريين وصفاتهم لم يزل موجوداً الى يومنا هذا بل انه زاد وتفاقم
شره عما كان عليه في هاتيك الايام الاولى . ومما يجمل ذكره في هذا المقام
ان الاقباط ـ كما يسميهم العرب الآن لعدم رغبتهم في اطلاق كلمة مصري
عليهم ـ كانوا في ذلك العهد لا ينظرون الى جامعتهم ككنيسة او كأمة
ولم يكونوا يفترقون بين مذهب وآخر حياً منهم في حفظ الرابطة القومية
ومحافظة على الوحدة الجنسية لا المذهبية . ولكن لما اشعلوا جذوة حرب
يرجون من ورائها استقلال وحرية فافقدتهم كل شجاع مقدام ومحب لوطنه
غيور . ثم ان الاضطهاد الذي بدأ به تاريخ الشهداء اضاع من هذه الامة
ما بقي لها بعد ذلك الحرب من روح التقوى والعفة بواسطة الندابات المريعة
التي وقعت عليها . ولما ان ختمت هذه الفصول المحزنة بظهور شيعة آريوس
وانتشارها وهي التي اجهزت على ما بقي فيها من شمم المعاطس والحزم الشديد
وابدلته يأس وقنوط من هذا العالم الحاضر حتى صار الاقباط حينئذ يظنون
ان نهاية العالم قد اقتربت منذ ظهر المسيخ الدجال « وكان المسيخ الدجال

عندهم هو آريوس » ـ لما ان ثقل عليهم عبء هذه العوامل والمؤثرات التي
اوضحناها هنا اوجد في هذه الامة جنوحاً الى العزلة والابتعاد عن هـذا
العالم بدون اهتمام في امر الآخرين ولذلك هرع خيار القوم تباعاً وفرادى
فرادى الى الاديرة ومغائر الارض طلباً للوحدة والانفراد ولم يبق في البلاد
الا الذين لا يهمهم سواء كان المسيح الهاً ام انساناً سواء كانت مصر ذليلة
مهانة ام عزيزة حرة ما داموا قادرين على زرع ارضهم وتفليحها وتصريف
تجارتهم وترويجها والسلام

وليس غرضنا مما تقـدم اثبات ان كل الذين شادوا الاديرة وبنوا
الصوامع والمناسك في الاراضي الجدباء بين سنة ٣٢٠ و ٣٩٠ كانوا
مدفوعين بمبادئ عالية شريفة ولا هم كانوا من خيرة الرجال واحسنهم
في مصر بل كان بينهم نفر من ذوي الامانة والايمان كاثناسيوس الكبير
مثلاً كما كان بينهم كثيرون غابت عنا اسماؤهم الآن كانوا يتراوحون بين
الدين والدنيا اذ بقوا في الاديرة كرهبان ولكنهم كانوا يهتمون ايضاً بواجبات
الحياة وضروريتها حتى ونوافلها وكمالياتها . انما الحقيقة التي نريد ايضاحها
الآن هي ان اكثر الذين صاروا رهباناً وراهبات واكثر الذين فعلوا مثل
اثناسيوس في انهم لم يتخلوا عن وظائفهم بل استحسنوا عدم الزواج لسبب
ضيق ذلك الوقت ومصائبه ـ ان معظم هؤلاء المتبتلين كانوا من احسن
المصريين طباعاً واوسعهم عقلاً واغزرهم مادة وهم الذين ساقهم هذا الانحطاط
الى نذر بتوليتهم فلم يخلفوا اولاداً بعدهم يدافعون عن بلادهم او على الاقل

يحفظون ذكرى والديهم ويحتفظون على المجد والسؤدد لذي و ثوه عن أجدادهم . واذا اردت معرفة مقدار اهمية هذا العمل وخطارته على الامة المصرية فعليك بالرجوع الى التاريخ المصري القديم وتقليب بعض صفحاته تجد نتيجته المشؤمة ظاهرة مكبرة . فانه من المسائل المقررة في الاذهان ان مبدأ الرهبنة كان موجوداً في مصر من قديم الزمان ولو انه سار فيها سيراً بطيئاً حتى كاد يبطل بالمرة عند دخول الديانة المسيحية هذه البلاد . ومعلوم انه قبل التاريخ المسيحي باجيال ترهبن كثيرون من المصريين الوثنيين حينئذ ويحتمل ان رهبنتهم لم تكن بحرية ارادتهم بل ان الامة كانت تنتخب العجزة وارباب العاهات وترسلهم الى الجبال لهذا الغرض لانها كانت تعتقد ان الصفات الطبيعية كحسن الخلق والخلق انما هي وراثية يتوارثها الابناء عن الآباء فلذلك لم تكن ترضى بوجود هؤلاء المشوهين في وسطها لئلا يتناسلوا ويكثر نسلهم فيفقد رونق الامة ويحط من قدرها . كذا كان المصريون القدماء يزعمون ان الرهبنة لا تحتاج لرجال من أولي الحصافة والكياسة او من الذين عرفوا بعلو المبادي والصفات الادبية العظمى فلذلك لم يكن يوجد بين رهبانهم من يستحق الذكر فضلا عن ان أولئك الرهبان الاقدمين امتازوا عن الرهبان المسيحيين بالنظافة التامة التي كانت من اهم الواجبات التي يحتم على الراهب المصري الوثني آداؤها فانهم كانوا يغسلون اجسامهم ثلاث مرات يومياً - قبل صلاة الصبح وفي الظهر وفي المساء وكانوا لا

يأكلون اللحم مطلقاً وكانوا ينكبون على الدرس واستيعاب العلوم والمعارف ولكن لما بدأ المصريون المسيحيون في القرن الثاني باقتفاء آثار آبائهم الاولين وادخال مبدأ الرهبنة في الديانة المسيحية لم ينسجوا على منوال الآباء والاجداد بل ساروا على غير خطتهم في انهم كثيراً ما احتقروا اجسادهم وحسبوها ادنى من اجسام الحيوانات وأفظع خذ لذلك مثلا مار آمون الذي أسس دير وادي النطرون كان يزعم انه عيب وخجل ان ينظر الرجل التقي جسمه عارياً من الملابس وعار ان يخلع ثيابه عنه ولو وقت الاستحمام . كذا اثناسيوس كان يقول ان الاستحمام عادة قبيحة مستهجنة لا توافق الآداب (ما دام الانسان يقف مجرداً من الملابس كما قال آمون) فلذلك صارت اجسام أولئك الرهبان السذج في حالة من القذارة والوساخة تشمئز منها نفوس صبيان الازقة في البلاد المتمدنة وهم كانوا يحسبون هذه الوساخة علامة على الزهد والتقوى واشارة للبر والقداسة . وعلى هذا القياس صارت النظافة التي كان يعبدها المصري او يعبد جسمه بها ترفهاً وتنعماً مع انه كان قبلا ينفر من القذارة ويستعيذ بالله منها . ولو اقتصر الامر على وساخة الجسم لكان الضرر سهلا هيناً بل تعداه الى وساخة العقول ايضاً فان اكثر الرهبان انكروا على انفسهم الدرس والمطالعة وامتنعوا عن مزاولة العلم والمعرفة وكانت النتيجة ان النباهة والحذق وحدة الذهن التي كانت طبيعية في الامة يتوارثها الاحفاد عن الاجداد ضاعت منها بواسطة نظام الرهبنة ولم

يبق لها شيء من المزايا العقلية السامية . نعم قالوا ان بعض الاديرة صار في القرون الوسطى مدارس للعلم ولكن اذا شئت الحقيقة التي لا مرية فيها انها كانت منسخاً يتعلم فيه الرهبان نسخ الكتب التي بقيت لهم من الاعصر الاولى وكانوا يصرفون اوقاتهم وهم يكدون ويكدحون في الكتابة باليد وقل ان يستفيدوا مما كانوا يكتبون

أما الاسباب التي حملت الكثيرين من أخيار المصريين وأشرارهم الى نذر أنفسهم للرهبنة فهي كثيرة متعددة نذكر لك بعضها ومنها يتضح ان الذين حافظوا على مبادئ هذا النذر هم زهرة رجال الامة بينما السفلة منهم نكثوا بعهدهم وكذبوا فيما وعدوا ولكن نتيجة الفريقين كانت واحدة هي ضرر الامة والتنكيل بها واول باعث على هذه الرهبنة هو القانون الذي وضعه قسطنطين سنة ٣٢٠ وفيه يعفى العزاب والذين بلا نسل من دفع الضرائب المفروضة على غيرهم وهذا القانون حدى بالكثيرين من محبي النفس والمال الى الامتناع عن الزواج بل ساعدهم على الشر والفساد اذ جاء في فقرة اخرى منه ان القطاء يربون على مصاريف الحكومة ومنها ان الرهبان كانوا يعفون من الخدمة العسكرية في مدة حكم قسطنطين. ولكن السبب الاكبر الذي يعزى اليه انحطاط الامة المصرية هو تقهقرها او هو سيرها للخلف مع يأس استولى عليها اوجد عندها استسلاماً واستماتة

والنتيجة ان هذه الامة ذاقت من المصائب وقاست من عوامل التأخر ما كان يكفي للاشاتها . وليقرأ القارئ الكريم بعضاً من نكباتها

ولا يسأم : — قامت هذه الامة فيما مضى وأوقفت نفسها ونفائسها للجهاد في سبيل الحرية تحت راية اخيليوس سنوات متوالية ولكنها لم تنجح . وعقب ذلك ان الرومانيين الذين كان المصريون يبغضونهم شددوا عليهم وضايقوهم اكثر من ذي قبل . ثم لما قنطوا من استقلال وطنهم التفتوا الى امور دينهم الذي اهرقوا دماءهم في سبيله للمحافظة على معتقدهم الاصلي ولكن هذا لم ينفعهم شيئاً ولم يبعد عنهم الشقاق والخناق اذ لم تمض عليهم عشر سنوات في حالة السلام والراحة ليعملوا على اعلاء شأن الكنيسة حتى ظهرت لهم شيعة آريوس بمظهر القوي المنتصر وانتشرت بسرعة زائدة وكانت نتيجتها ان الكنيسة المصرية وقع عليها الاضطهاد واصابها الضيق الشديد من قوم يدعون انفسهم مسيحيين وهم لا يعرفون المسيح . وبينما كان المسيحيون يظنون ان كل هذه المصائب انما هي سحابة صيف عن قليل تنقشع خاب ظنهم عند ما علموا ان وارث العرش بعد قسطنطين واولاده هو يوليانوس الوثني عدو جميع المسيحيين على اختلاف مذاهبهم وهو الذي اذاقهم اشكال العذاب والعناء . ومما يدعو الى العجب والاستغراب اكثر من الذي سردناه كله افتكارهم ان نهاية العالم قد اقتربت وهو فكر يطرق على بال كل امة تساورها الاحزان وتنتابها الحيرة والذهول ولذلك استولى عليهم الفساد وفشى بينهم الشر وصار كل منهم يقول في نفسه (لنأكل ونشرب فاننا غداً نموت) وقد تكاثر هؤلاء المفسدون وملأ

تسلهم البلاد (١) في الوقت الذي كان فيه الاتقياء الصالحون يفرون هاربين من عالم الشرور هذا لئلا يصيبهم البلاء فيهلكهم وظلوا يصلون بلا انقطاع وقد صلبوا الجسد مع الاهواء والشهوات انتظاراً لمجيء المسيح .

في هذا القرن الرابع الذي فشا فيه داء الرهبنة اصاب بسببه مصر ضرر لم يصبها من قبل وذلك للجهل والغفلة اللذين كانا يستويان في الصالح والطالح معاً . فلو ذكرنا للقارىء مقدار الرهبان والراهبات الذين تنسكوا فلا يكاد يصدقه لولا ان المؤرخين قد اثبتوه بانفسهم لانهم شهدوه شهادة العين عندما جابوا خلال الديار المصرية ليقفوا على هذا الامر الغريب بانفسهم

وحدث في السنة التي توفى فيها البطريرك اثناسيوس ان جماعة من الطليان الذين كانوا مجتمعين في اكويليا ليعيشوا كرهبان لم ترق لهم هذه المعيشة ولم يروا فيها شيئاً من الصواب فقضوا جمعيتهم هذه وتفرقوا في جهات مختلفة . ومن اشهر هؤلاء الشبان روفينوس وجيروم وقد كانا صديقين حميمين منذ نعومة اظفارهما كذلك عرفت هذه الجمعية بعقيلة اسمها ميلانيا كانت ترأس اعمالها وتدبر حركتها وهذه

(١) ان اداب الذين لم يصيروا رهباناً في ذلك العصر قد فسدت فساداً سيئاً حتى تناقص عدد الاهالي لسبب الفسق والعهر الذي عم بينهم كما ان الاغنياء كانوا يجمعون ثروتهم بطرق النصب والاحتيال بدل الجد والاجتهاد حتى ان الغني كان يعرف بانه اما ماكر غشاش او وريث خبيث محتال

اسبانية النزعة طيبة الأرومة . وكان عمر هذه السيدة اثنتين وعشرين سنة رزقت في خلالها بثلاثة اولاد اصيبت فيهم بمصيبة جلى كادت تودي بحياتها ذلك ان زوجها واثنين من ابنائها ماتوا بمرض عضال معد فاعتبرت هذه السيدة الاسيفة تلك المصيبة قصاصاً لها لانها تزوجت ولم تترهبن فعقدت النية من ذلك الحين على ان تعيش عيشة الزهد والعزلة ولم يكفها ذلك فقط بل قامت تنادي ضد الزواج وتحذر من عواقبه وتشن غارة صماء على كل من يقول به . وقد التقت بروفينوس وكان له من العمر حينئذ سبعة وعشرون سنة فوجدته مصمماً على الذهاب الى مصر لدرس احوال الرهبنة واستطلاع جلية امرها فيها فتركت ابنها الوحيد في ايطاليا تحت رعاية وصي اقامته له وجاءت مع روفينوس واقامت في مصر بينما كان روفينوس ومعه اثنان او ثلاثة من رفقائه يجولون في وادي النيل متفقدين آثاره الغريبة وزائرين جميع الاديرة والمناسك لمعرفة حقيقتها ودرس نظاماتها واحوالها ولما وفد روفينوس على اوكسيرينخوس وهي المدينة التي قلنا في اول هذا الكتاب ان السمك كان إلهها ومعبودها وجد جميع اهاليها قد اختطوا خطة الرهبنة فيها وان كثيرين من الرجال تركوا هذه المدينة واعتزلوا الاديرة والمغائر المنفردة . وقد قال اسقفها لروفينوس انه يوجد في هذه المدينة اكثر من عشرة آلاف راهب وعشرين الف راهبة . ومن غير الزمان ان الهياكل السامقة والمعابد الفسيحة التي كانت مختصة بكهنة الاوثان في عهد المصريين القدماء اصبحت الآن

اديرة ومناسك للرهبان المسيحيين عدا عن اثنتي عشرة كنيسة اخرى بنيت في هذه المدينة لهذا الغرض . وعند مجيء روفينوس ورفقائه الى اقليم الفيوم رأى ان جل سكانه يعيشون رهباناً ولكنهم كانوا يختلفون عن الآخرين في انهم اشتغلوا كفلاحين لزرع الحنطة وكانوا يرسلون محصول ارضيهم رأساً الى الاسكندرية . وعلى هذه الحالة سار اهالي منفيس وبابليون

وفي دير طبنسي (سوهاج) كان ثلاثة الاف راهب يعيشون كالاموات تحت رئاسة آمور الذي خلف ثيودورس في زعامة هذا الدير وقد رسمه اثناسيوس اسقفاً عليه وكان جورجيوس اسقف كبدوكيا قد ضايقه ونفاه اليه. كذلك كان الحال مع ابولونيوس رئيس دير على مقربة من هرموبوليس (المنيا) يحتوي على خمسمائة راهب كان اثناسيوس قد سامه اسقفاً بعدما اضطهده جورجيوس اسقف كبدوكيا المار ذكره . وقد ترهبن ابولونيوس هذا وهو في الخامسة عشرة من عمره ولكنه كان من اصل طيب ذا غيرة ونشاط فانه مع اهمال اوليائه في أمر تربيته صار بجده واجتهاده من مشاهير العلماء الاعلام في ذلك الحين وقد افاد روفينوس فائدة عظمى في انه اعلمه بحالة الديانة المسيحية في ذلك الوقت كما انه اسهب له في تبيان ماهية ديانة المصريين القدماء وطقوسها واحتفالاتها والرموز الصحيحة التي كانت تستعمل في الزمن الغابر للدلالة على الحيوانات المقدسة وكان ابولونيوس يدقق كثيراً على الرهبان الذين تحت رئاسته ولم يكن يسمح له بالاهمال في اتمام مواجب الحيوة وضرورياتها والتحلي بحلية

الدين والآداب حتى قيل ان ثيابهم كانت نظيفة كما كانت قلوبهم طاهرة ولما برح روفينوس ورفقائه هذا الدير الشهير أوفد معهم رئيسه الذي اشتهر بالكرم والبشاشة ثلاثة من التراجمة كانوا يرشدونهم في الطريق ويوضحون لهم ما يغمض عليهم معرفته فساروا لافتقاد الاديرة الكثيرة في مدن لم يرد ذكر اسمائها في ما كتبوه عن هذه الاديرة ثم زاروا كثيرين من النساك المشهورين الذين كانوا معتزلين في خلواتهم

وبين هذه الخلوات خلوة قامت على قمة جبل اقفر خلف مدينة انطينيوس يصل اليها بطريق وعرة ضيقة حتى ان الذي لم يطأها من قبل لا يمكنه المرور فيها . ففي هذه الخلوة القفرة عاش راهب اسمه الياس وحيداً في مغارة واسعة الاطراف ولم يكن له مؤنس فيها وظل على حالته هذه نيف وسبعون سنة كما قال الروّاد الذين زاروه وكتبوا عنه كما انهم اثبتوا انه بلغ من العمر ١١٠ سنين عندما زاره روفينوس وكان قد اصيب بالفالج فاهزله واضعفه . ولم يشهد أحد من جيرانه بأنه راى الياس خارج هذه المغاره او انه سكن في مكان آخر غيرها ثم وقد اشاعوا عنه انه شفى مرضى كثيرين . وقد اتضح لروفينوس وزملائه ان طعام هذا الراهب كان ثلاث أوقيات من الخبز يومياً وثلاث زيتونات كل مساء ولما رآه هؤلاء الشبان السائحين اندهشوا ونظروا اليه نظرة الهيبة والاجلال لما شاهدوه فيه من الصمت والسكوت ثم رجعوا ادراجهم الى الريف بعد ان عانوا مشقة وتعباً في هذا السفر . وقد زاروا ايضاً الخلوة التي كان

يقطنها ثيون وهو راهب اشتهر بعلمه وتضلعه في اللغات اليونانية والمصرية واللاتينية ايضاً

ومن اشهر هؤلاء النساك والزهاد يوحنا الاسيوطي الذي كان يقطن صومعة على اكمة مرتفعة اشتهر بحكمته وعلمه حتى ان القائد الروماني الذي كان معسكراً في اصوان كان يستشيره في الامور السياسية لاعتقاده برصانة عقله ورجحان رأيه كما ان الامبراطور ثيودسيوس كان يسير على رأيه ويهتدي بمشكاة فكره . ولم يقتصر يوحنا على الرهبنة والعزلة فقط بل كان يجمع الصدقات ويوزعها في مديرية اسيوط ذلك لان جميع السكان هناك اتفقوا في ما بينهم على ان يقدموا له عشر ايرادهم فكان يوحنا يجمع هذه الاعشار ويوزعها على الفقراء والبائسين وقد سار هذا المشروع سيراً حثيثاً وبزغت شمسه من اسيوط فانتشرت اشعتها على كل مصر ومنها عم جميع الممالك المسيحية . وقد اسند المؤرخون مبدأ تقويم الاعشار عند المسيحيين الى هذا الراهب الاسيوطي . وبعد هذا العهد كانت هذه الاعشار تجزأ الى ثلاثة اقسام - احداها رواتب الاكليروس وثانيها لعمارة الكنائس وثالثها للفقراء والمعوزين . وعلى هذه القاعدة سارت الكنيسة القبطية في هذه الايام فانك اذا دخلت الكنيسة المرقسية الكبرى الآن ترى ثلاثة اطباق للصدقات يحملها ثلاثة اشخاص يدورون بها اثناء تادية الخدمة واحد خلف الآخر وكل منهم يمد يده لجماعة المصلين الذين اعتادوا ان يدفعوا ثلاث دفعات - واحدة للاكليروس وواحدة لمصاريف

الكنيسة والثالثة للفقراء

أما الرهبان في مصر فكانوا على ثلاثة أنواع - النساك وهم الذين يسكنون الاديرة جماعات وفيئات . والزهاد وهم الذين يعيشون في الخلوات والصوامع والمتبتلون وهم الذين يجتمع اثنان أو ثلاثة معاً ويسكنون المدن ولكنهم لا يتزوجون

وبعد ان تمت سياحة روفينوس ورفقائه في وادي النيل صعداً عادوا قاصدين وادي النطرون فلما وصلوه وجدوا فيه اكثر من خمسين ديراً فيها ما ينيف عن خمسة آلاف راهب وهم مثل رهبان هرموبوليس في انهم من أحسن النساك واكثرهم نظافة ومعرفة . وقد علمنا ان أول من وضع اساس الاديرة في وادي النطرون هو مارامون الذي مات حوالي سنة ٣٤٥ واعقبه في الرئاسة مكاريوس . ولا يغرب عن ذهن القاريء انه كان يوجد في مصر قديسان يسميان بهذا الاسم وكانا معاصرين لبعضهما ولاجل التفريق بينهما في الاسم سمي احدهما مكاريوس الاسكندري والثاني مكاريوس المصري . وقد يصعب جداً التمييز بين الاعمال التي قام بها هذا من ذاك أو معرفة ما أتاه الواحد من الآخر فضلا عن انه كان يوجد كثيرون يسمون بهذا الاسم . أما مكاريوس الذي اتى اعمالا تذكر بالشكر في أيام اثناسيوس وكان من القسوس المنتمين اليه والمخلصين له فهو غير هذين القديسين على ما يظن . ذلك ان مار مكاريوس المصري كان من اصدقاء مار انطونيوس ومعاصريه وهو ومكاريوس الاسكندري

سكنا وادي النطرون ووادي سيتس الذي يبعد مسيره يوم عن وادي النطرون ولو انه ليتصل به اتصالاً طبيعياً . ومما يحتمل التصديق ايضاً أن مكاريوس المصري هو مكاريوس مجنوس بعينه الذي نشأ في القرن الرابع وله تآليف ثمينه رداً على اعتراض الوثنيين على الديانة المسيحية كانت قد لعبت بها ايدي الضياع الى ان نبغ فبسفودس في القرن الثامن ووجد نسخة منها بعد ان صرف اموالاً طائلة وتحمل عناء كبيراً ويؤخذ من هذه النسخة ان مكاريوس مجوس هو مكاريوس المصري كما اسلفنا ولا يوجد مايدعوا للريب في هذا الظن . وكان يوجد في وادي النطرون ايضاً أربعة رهباناً يعرفون بالاخوة الطويلي القامة اكبرهم امونيوس كان قد رافق أثناسيوس الى رومية عند مامكث فيها سنة ونصفاً . فهؤلاء الرهبان الاربعة كانوا اخوة من أب وأم واحد ومن دين ومذهب واحد وقد اشتهروا بطول قامتهم واعتدال قوامهم كما انهم عرفوا بغيرتهم الفائقة وعفتهم وتقواهم . وقد نشأ في وادي النطرون جمعيتان أسستا على مبادئ الجهل والغباوة ـ فاحداهما وهي الاكثر عدداً وسخافة كانت ترتأي وجوب تصوير الآله بصورة انسان بكل ملامحه واجزائه وتمثيله جل شأنه تمثالاً ظاهراً واضحاً وأما الثانية فكانت تبحث في الرموز والمعاني الروحية التي وضعها اوريجانوس . ولما زار روفينوس هذا الدير كان السلام والوئام سائدين فيه فلذلك وطن النفس على البقاء هناك ردحاً من الزمن الا ان جو مصر الاسيفة اكفهر بغيوم الاضطرابات الدينية والسياسية فلم

يصف لها الدهر يوماً الا تكدر في الثاني

الفصل الثامن عشر

آخر اسقف أريوسي في الاسكندرية

سنة ٣٧٣ للمسيح و٨٩ للشهداء

كانت وفاة اثناسيوس بدء سعي جديد قام به اتباع اريوس سواء مع الوثنيين قصدوا به قلب الكنيسة رأساً على عقب . فاعيدت المظاهرات التي اشتهرت بتطفل جورجيوس أسقف كبدوكيا وتداخله في أمور كنيسة مصر بلا مسوغ ثم ان الامبراطور فالنس كان أريوسياً وكان متغيظاً من ان المصريين قاموا ينتخبون بطريركاً لهم حسب اختيارهم فحدث انه بينما كانت تقام الخدمة الدينية في كنيسة مارشيوناس ـ وهي الكنيسة التي يصلي فيها البطريرك وله فيها مسكن خاص ـ هجم عليها والي مصر الوثني بالاريوس ومعه فرقة من الجند فاوقع الرعب والخوف في قلوب المصلين . وكان أيضاً ان رهطاً من زعانف الوثنيين واليهود انتهزوا هذه الفرصة لتدنيس المذابح واهانة المسيحيين فلما رأى البطريرك بطرس هذا فعل ما فعله أثناسيوس قبله في أنه فر هارباً وقصد كميناً يختبئ فيه . وفي هذه الاثناء كتب البطريرك رسالة رعوية لم تزل موجودة الى الان وفيها يصف هذه الحوادث التي وقعت يومئذ . وكان دماسيوس البابا الروماني قد انفذ رسولاً من قبله يحمل رسائل السلام والمحبة الى بابا الاسكندرية بطرس فعند وصوله اليها قبض عليه وأرسل

سجيناً يشتغل في المناجم . فلما رأى بطرس هذه الحالة فر هارباً الى رومية وبقي ضيفاً فيها خمس سنوات كاملة (١)

وقد عرفنا في ما سبق ان لوشيوس الاسقف الاريوسي كان يسعى للحصول على الكرسي الاسكندري فلما وقعت هذه الاضطرابات نال لوشيوس ما تمناه ودخل الاسكندرية دخول الظافر المنتصر يحيط به جمهور من وجوه المدينة فلم يكد يجلس على السدة البطريركية حتى بدأ باضطهاد الكنيسة المصرية فصب جامات غضبه على الاديرة والرهبان بنوع خاص ويقال انه سار بنفسه الى دير وادي النطرون ومعه فرقة من الجنود الملوكية قاصداً شن الغارة على جماعة الرهبان الذين ابوا انكار ألوهية الابن (٢) . فلما رأى لوشيوس ان الرهبان يدافعون عن أنفسهم دفاع الابطال وانهم راضون باقامة سوق حرب تباع فيها النفوس بثمن

(١) ان امر هذه المشاحنات الغبية بين الطوائف المسيحية المختلفة لم يقتصر على مصر فقط بل تمدامها الى رومية والقسطنطينية . اما دماسيوس بابا رومية فلم يتم انتخابه الا بالقوة والعنف

(٢) قال جيبون المؤرخ ان هذه الحملة العسكرية المؤلفة من ٣٠٠٠ رجل التي سارت ضد رهبان وادي النطرون كان القصد منها اجبار الشبان والاقوياء منهم على الخدمة العسكرية . وقد يمكن ان يكون هذا صحيحاً الا ان جيبون اخذ روايته من مصدرين افرنسيين ذكرا ان القانون الذي سنه تيودوسيوس كان يقضي على الرهبان بالتجند . ولكن جميع المؤرخين في ذلك الحين اتفقوا على ان القصد من هذه الحملة كان ادخال مبادي اريوس بالقوة في دير وادي النطرون الذي كان أقوى حصن ديني في القطر المصري

رخيص امر هذا المبتدع قائد الحملة ان ينفي مكاريوس الاسكندري ومكاريوس المصري رئيسي وادي النطرون وسيتس ظناً منه انه يسهل عليه الانتصار على جماعة الرهبان متى ما أبعدوا رؤساءهم عنهم . ومن ثم نفي القديسان مكاريوس الى جزيرة فيلا في الصعيد الاعلى وكانت هذه الجزيرة لا تزال وثنية بالمرة وفيها هيكل للاصنام مشهور وكان كاهن هذا الهيكل محترما عند سكان القرى المجاورة حتى كادوا يؤلهونه فلما وصلها هذان الرهبان المنفيان حدث فيها هياج واضطراب وذلك ان ابنة هذا الكاهن الوثني سلكت مسلك من يعقلها مس من الجنون في انها اندفعت كالسهام المفوقة الى الشاطيء الذي رسى فيه تانك القديسان وصرخت قائلة (لماذا اتيتما الينا لتخرجانا من ههنا . فقد ظننا اننا في مأمن منكما في هذا المكان الذي لا يعرفه أحد وفيه نقطن آمنين بوائق الايام فلا نحن نؤذي أحداً ولا أحد يؤذينا . فاذا كانت أنظاركما تطمح الى هذه الجزيرة ايضاً فهنيئاً لكما بها خذوها اذ لا مقدرة لنا على مقاومتكم»

فلما فاهت الصبية بهذه الكلمات سقطت على الارض مغمي عليها فتقدم اليها احد الرئيسين الذي كان متضلعاً في علم الطب فعالجها وشفاها وكانت النتيجة ان جميع سكان هذه الجزيرة اعتنقوا الديانة المسيحية ولما

بلغ لوشيوس هذا الخبر أصدر امراً خصوصياً باعادة هذين الرئيسين

ولما كان لوشيوس معضداً في اعماله بالحكومة الامبراطورية فلذلك نفى احد عشر اسقفاً بينهم ميلاس اسقف رينوكولورا (هي الآن

العريش في حدود مصر) وكان قد عهد الى قوة عسكرية بنفيه فلما وصلت هذه القوة الى الكنيسة في مساء يوم التقت بشاب كان يشتغل في تصليح القناديل واعدادها لساعة الخدمة فسأله الجند عن ميلاس وكان ميلاس هو هذا الشاب الذي التقوا به – فاجابهم ان ميلاس على مقربة منهم الآن وانه سيخبره بقدومهم حالاثم سار بهم الى منزله وقدم لهم عشاء فاخراً وظل يخدمهم بنفسه فلما فرغوا من تناول الطعام عرفهم بشخصه فدهش القوم من مروءته وجراءته واخبروه انهم يسمحون له بالفرار ولكنه ابى ذلك ففضلا مقاسمة اخوته الضراء من ان يربأ بنفسه ويتمتع بالراحة والسراء

ومن الذين قبض عليهم في دير وادي النطرون روفينوس المار ذكره وسجن مدة من الزمن واخيراً نفي الى خارج القطر المصري . وكذلك السيدة ميلانيا وهي غريبة عن مصر كانت قد جاءت الى الاسكندرية ومكثت فيها نحو ستة شهور ثم نفيت الى ابروشية قيصرية في فلسطين ونفي معها جم غفير من الاساقفة والقسوس والرهبان وقد بقت في قيصرية مدة من الزمن كانت تقبل فيها كل المصريين المنفيين وتقابلهم بهشاشة وبشاشة وتعولهم بمصاريفها الخصوصية وقد عول روفينوس على الالتحاق بها والاقامة عندها ولكنه قفل راجعاً الى مصر حالا وقضى فيها نحو ست سنوات صرف اكثرها في معاشرة الرهبان والامتزاج بهم

ومن اشهر الرهبان في ذلك العصر راهب اسمه موسى كان يعيش في صومعة موجودة في الصحراء الواقعة بين مصر وفلسطين وكان ذا هيبة واجلال لاجل تقواه وورعه وكانت قبائل البدو الرحّل – او هم العرب (١) – يعتبرونه ويكرمونه

وكان جماعة البدو في ذلك الحين تحت رعاية ملكة اسمها ماڤيا كان بين زوجها وبين الرومان محالفة ووداد في زمن قبل الزمن الذي كانت فيه . وبعد وفاة زوجها هذا عادت قبائل العرب واشتبكت في حرب استباحت فيه كل بلاد المشرق حتى كادت تدمرها . وكان سكان جنوبي فرنسا في ذلك الوقت قد اتعبوا الامبراطور ڤالنس كثيراً فكان هذا سبباً في ايقاف سير الاضطهاد في مصر . ولذلك لم يقدر ڤالنس على صد هؤلاء العرب عن حدود بلاده فارسل يطلب منهم عقد صلح معهم فصاغت الملكة ماڤيا شروط الصلح واهمها طلب تسليم الراهب موسى اليها لتعينه اسقفاً في بلادها وقد اشترطت هذا الشرط مع انها لم تكن قد صارت مسيحية بعد . فاجاب ڤالنس طلبها وهو يكاد يطير فرحاً وأصدر الاوامر المشددة بالقبض على موسى واحضاره الى الاسكندرية لكي يرسم اسقفاً سواء بطوعه ام بالرغم عنه . اما موسى فجاء الى الاسكندرية برضى وطيب خاطر ولكنه لما عرف ان

(١) ان كلمة « بدوي » كانت اسماً عاماً يطلق على كل قبائل العرب الساكنة بين ساحل البحر الاحمر ونهر الفرات

لوشيوس البطريرك الاريوسي سيضع يده عليه ليرسمه رفض الرسامة رفضاً باتاً وقال :ـ (انني احسب نفسي غير مستحق لهذه الوظيفة السامية ولكن اذا كانت دواعي الحال عند الحكومة ماسة لتوظفي فيها فلا مندوحة لي من قبول هذه الوظيفة ولكنني لا اقتبلها من لوشيوس ولا هو يضع يده عليّ ليرسمني لانها يد ملوثة بدماء الابرار القديسين)

فاغتاظ لوشيوس واعترض على هذه الجراة التي بدأت من موسى وقال انني لم اطلب احضاره امامي لكي يؤنبني ويعنفني بل طلبته لا لقنه المبادئ الدينية واعلمه منشأ العقائد الصحيحة . فرد عليه هذا الراهب الفاضل قائلاً انا لم نختلف في المسائل الدينية بعد وان هذا الامر لا علاقة له بالدين ولكن المسألة بسيطة لا تحتاج الى بحث كثير وهي انني رفضت الرسامة من يد لوشيوس الذي اضطهد المسيحيين واذاقهم مر العذاب . ثم بدأ موسى بايراد الادلة والبراهين على القسوة والوحشية اللتين رآهما في لوشيوس رأي العين ولكن لوشيوس لم يحتمل سماع هذا الكلام المؤلم فصرفه من امامه على عجل وللحال سار به الحراس الى الجبال ليبحثوا عن احد الاساقفة المنفيين لكي يضع يده عليه ويرسمه . ولما تعين موسى اسقفاً انتشرت بواسطته الديانة المسيحية انتشاراً واسعاً بين جماعة البدو وفي السودان ايضاً ولما رقي يوستنيان العرش الامبراطوري صارت جميع هذه البلاد مسيحية بالمرة

وفي ربيع سنة ٣٧٨ رأى البطريرك بطرس ان فالنس مهتم بامر سكان شمالي اوروبا الذين كانوا يوالون هجماتهم على حدود بلاده وعليه لم يبق للوشيوس سند او عضد في مصر فآب هذا البطريرك من رومية ليجلس على كرسيه ثانية وساعده شعبه الذي قام بنفس واحدة ضد لوشيوس وطرده من الاسكندرية . فرفع لوشيوس دعواه الى فالنس الذي اشغلته هذه الشواغل عن مساعدته ثم قتل هذا الامبراطور في معترك الهيجاء في السنة عينها فخابت بموته آمال لوشيوس واوهامه

وجلس ثيودوسيوس بعد فالنس على عرش المملكة الشرقية وهو اسباني الاصل وابن ثيودوسيوس الاكبر الذي خدم هذه المملكة خدمة تذكر وهو من قوادها الباسل وكان جزاءه على هذه الخدمات العظيمة انه راح ضحية لاوهام فالنس وخرافاته . وتفصيل هذه الخرافة هو ان فن التكهن وضرب الرمل كان شائعاً في المملكة الرومانية في ذلك الوقت . وحدث ان بعض محاربي فالس عقدوا جلسة رسمية لضرب الرمل ليعرفوا منها من الذي يخلف فالنس في المملكة وما هو مصير رجل اسمه ثيودورس كانوا يهتمون بامره ويخشون سلطته . فلما ضرب الرمل ظهرت فيه هذه الاحرف الاربعة مكتوبة وهي : ث ـ ي ـ و ـ د ـ وهي اوائل اسم الرجل الذي يعقب فالنس حسب زعمه فلذلك اصدر هذا الامبراطور امره بقتل ثيودورس حالاً وانتحل لنفسه سبباً ليقتل كل شخص مشهور يبتدئ اسمه بهذه الحروف ث ـ ي ـ و د . وكان

بين الذين انطبق اسمهم على هذه الاحرف ثيودوسيوس البطل المقدام وابنه المسمى باسمه فقتل الاب اما الابن فتمسك براي صائب هو انه اركن الى الفرار وذهب الى اسبانيا حيث اقام في منزل اسلافه الى ان ملك فيما بعد كما اسلفنا

اما المملكة الغربية فبعد موت فالنتنيان سنة ٣٧٥ خلفه فيها ابنه غراطيان وكان له اخ يافع تحت رعايته فالمانت فالنس راى غراطيان ان المملكة الشرقية في قبضة يده وانه قادر ان يضمها الى مملكته ولكنه تصرف تصرف الحكيم العاقل الذي يعلم ان المطامع منشأ كل شر وويل فلذلك ارسل واستدعى اليه ثيودوسيوس وكان عمر غراطيان نحو عشرون سنة وعمر ثيودوسيوس ثلاثة وثلاثين عاماً وكانا كلاهما يدينان بالدين الصحيح ويرفضان كل بدعة وخرافة · وفي شهر فبراير سنة ٣٨٠ لما راى ثيودوسيوس ان الاحوال الدينية قد تضعضعت في القسطنطينية وانها وصلت الى دركات الانحطاط اكثر من الاسكندرية ورومية نشر بين اهالي هذه المدينة بياناً وايضاحاً وافٍ عن كيفية الايمان وعمله ومقدار تأثير التقوى والدين في القلوب وكان قبل هذا الوقت بسنة طلب من البطريرك بطرس القبطي ان يعالج هذا الداء لعله ينجح في تقويم هذا الاعوجاج فلبى البطريرك طلبه وظل يهتم بامور القسطنطينية الدينية وينهمك في تدبير احوالها منذ ما آب من رومية الى مصر

ومن مشاهير الرجال الذين عبق عبير اعمالهم وسطع ضوء فضلهم فانار

دياجير الظلمات التي اكتنفت اواخر الجيل الرابع هو غريغوريوس النزينزي صحيح ان لاعلاقة له بتاريخ مصر ولكن ارتباطه ببطريرك الاسكندرية وعلاقته المتينة معه يسوغان لنا ذكر بعض ما شتهر به من الفضائل والفواضل فغريغوريوس هذا هو ابن غريغوريوس اسقف نزينزن في كبدوكيا وكان قد رفع افاويق العلوم في اثينا في ذات المدرسة التي تربى فيها الامبراطور يوليانوس الكافر وباسيليوس اسقف قيصرية اللذان ذكرناهما قبلا · وكانت امياله متجهة الى الرهبنة ولكنه لم يرض ان يفارق والديه الحريين فلذلك بقي معهما وكان يعيش عيشة الزهد والتنسك معتزلا كل عمل دنيوي مع انه كان وكيلا لابيه في اعماله · ثم ان اباه اضطره بالرغم عنه ان يقبل وظيفة كهنوتية وهو في السادسة والثلاثين من عمره وكان غرض ابيه من ذلك ترشيحه لرتبة الاسقفية التي لايمكنه ان ينالها اذا ظل عالمانياً · وفي سنة ٣٧٢ صمم ابوه وباسليوس اسقف قيصرية على تعيينه اسقفاً لساسيما وهي بلدة صغيرة تابعة لمقاطعة كبدوكيا كان قد ادعى مطران تيانا انها واقعة ضمن ابروشيته · ولكن غريغوريوس رفض قبول هذه الوظيفة لاسباب بدأت له ومع انه سيم اسقفاً الا انه لم يمارس اعمال الابروشية التي تعين لها ولم يتداخل في شؤونها وبقي يساعد اباه في اشغاله الى ان مات ابوه في سنة ٣٧٤ وله من العمر ماية سنة ثم توفت امه عقيب وفات ابيه وكانت تحب زوجها في حياته فلم ترض ان تفارقه في مماته فدعاها الصوت الالهي من السماء فلبت الدعوة وفارقت هذه الدار الفانية حينما كانت جاثية تتناول العشاء الرباني

وكان لغريغوريوس اخ واخت ماتا قبل هذا الحين فاصبح هو وحيداً في هذا العالم وبقي سنتين ينظر في اعمال الابروشية التي عهدت اليه منتظراً تعيين خلف له ولكنه راى ان وجوده في هذه الوظيفة قد يدعو الناس الى الظن بانه طامع فيها راض بحمل عبئها الثقيل لذلك اختفى فجأة وذهب الى دير شلوسيا حيث مكث فيه ثلاث سنوات في حالة الزهد والنسك

وفي سنة ٣٧٩ رفع اليه مسيحيو القسطنطينية المستقيمو الرأي عريضة ممهورة بامضاء عدد كبير من الاساقفة ومصدق عليها من بابا الاسكندرية فيها يلتمسون منه ان يجيء هذه العاصمة ويعمل على تقويت كريهم . وكان في القسطنطينية غير شيعة آريوس اكثر من ست شيعات دينية متغايرة المبادي متباينة الافكار وكانت جميعها معدودة هرطوقة تقول بغير التعليم الصحيح . ومن اهم هذه الشيعات الشيعة المانوية وشيعة نوفاتيان اما غريغوريوس فلبى الدعوة وسار الى القسطنطينية حيث اتخذ لنفسه بيتاً معتزلا وبداء يعلم الناس ان يسلكوا بالتقوى والعفاف وان يبتعدوا عن المباحثات الدينية الفارغة وهي تعاليم كان قد اهمل احدها زمناً طويلا . وقد بنيت كنيسة اكراماً له سميت كنيسة القيامة وظل غريغوريوس اكثر من سنة يعاني فيها اشق الاعمال واتعبها

وفي هذه الاثناء وفد على القسطنطينية رجل اسمه مكسيموس وهو سايح اسكندري تاريخه يدهش الالباب ستقف عليه في ما يلي . وكان

الرجل مسيحياً نصرانياً ولكنه كان فيلسوفاً شكساً شرساً . وقد ادعى انه مقر بالايمان القويم بدين للحق ولكن اعداءه قالوا عنه انه جلد بالسياط ونفي ليس لاجل ايمانه وتقواه بل لاجل سوء تصرفاته . ومن المحتمل ان مكسيموس هذا كان شديد الذكاء قوي المعارضة حتى انه صرف جهده ليؤثر تأثيراً قوياً على بطرس بطريرك الاسكندرية وغريغوريوس بطريرك القسطنطينية . وقد وصفه الواصفون بانه شاب ليس حسن المنظر له شعر اشقر طويل تسترسل جدائله مستشذرات الى الاسفل حتى تغطي منكبيه . قال عن نفسه انه صار صديقاً مكيناً لغريغوريوس حتى ان هذا الخلص له الضمير بناء على كلامه المملوء من الرياء والمداهنة مع ان مكسيموس ما فتئ كل هذه المدة يدس الدسائس عند بطريرك الاسكندرية الذي كان له ثقة عمياء فيه وذلك لكي يطرد غريغوريوس عنوة من وظيفته ويأخذ لنفسه الرئاسة في القسطنطينية

وكان بدء هذه الدسائس انه قال لبطرس مرة انه اخطأ خطاء كبيرا في تصديقه على تعيين غريغوريوس في القسطنطينية تعييناً غير رسمي وان نقل غريغوريوس من ساسيما التي لم يقبل التوظف فيها كان غير قانوني ايضاً . ثم اتهم غريغوريوس بخشونة الاخلاق وفظاظة الطباع وقال ان اهالي القسطنطينية المهذبين يأنفون منه ويتذمرون . فمال بطرس بكليته الى سماع هذه التهمات ونوى على ارسال وفد من الاساقفة الى القسطنطينية مزودين باوامر مقتضاها تعيين مكسيموس بدلا من غريغوريوس

فلما وصل الوفد الى القسطنطينية كان غريغوريوس مريضاً لكن من فرط حبه لمكسيموس لم يتأخر عن اظهار صداقته له فقام من فراشه وسار مع الوفد الاسكندري ليلا الى الكنيسة حيث بدأوا باقامة الاحتفال لاجل رسامة مكسيموس . وكان من المحتم قص غدائر الشعر الجميلة المسترسلة على رأس مكسيموس قبل ان يلبس القلنسوة (وهي التي نادى اثناسيوس بابطالها قبل ذلك الوقت ببضع سنوات قائلا انها خصت بالكهنة الوثنيين لا بالكهنة المسيحيين) وقبل ان يتم الاحتفال اشرقت شمس الصباح فهب اهالي القسطنطينية وساروا الى الكنيسة ليعرفوا ماذا يعمل فيها فهجم الاوباش على الكنيسة وطردوا المحتفلين منها ولكن شعر مكسيموس كان قد قص في حانوت احد المزمرين فلذلك لم يطق البقاء في القسطنطينية لاجل هياج الشعب ضده فقر قاصداً تسالونيكي ليقابل ثيودوسيوس ويلتمس منه الاسعاف والمدد فرفض ثيودوسيوس مساعدته والاعتراف بسلطته فعاد راجعاً الى الاسكندرية وطلب من البطريرك بطرس ان يستعمل ماله من السلطة والنفوذ في تعضيده . اما بطرس فكان قد ازيح الستار الذي أسدل على عينيه وتجلت له صفات صديقه ومحسوبه فأبى ان يصغي اليه وطلب من الوالي انه ينفيه فنفاه من الاسكندرية . وفي شهر فبراير سنة ٣٨٠ انتقل البطريرك بطرس الى رحمة ربه

وقد دخل الامبراطور ثيودوسيوس الى القسطنطينية دخولا

رسمياً في نوفمبر سنة ٣٨٠ وفي مايو سنة ٣٨١ شكل مجمعاً عاماً يبحث عن الطرق المؤدية لدوام السلام في الكنيسة وليبت الحكم بنوع خاص في مسألة بطريركية القسطنطينية التي كانت في حالة الارتباك والتشويش وقد أعيد انتخاب غريغوريوس الى رئاسة القسطنطينية ولكنه استقال بالنسبة الى كثرة الانشقاقات رغبة منه في دوام السلام وكانت استقالته قبل ارفضاض جلسات المجمع ثم سار الى نزينزن سنة ٣٨٣ وظل يمارس اشغال هذا الكرسي الى ان تعين اسقفاً فيها بدلا منه بناء على طلبه وحينئذ اعتزل العمل وصرف الستة شهور التي بقيت من حياته في الاشتغال بالآداب والعلوم . ومع ما اشتهر به هذا الرجل من طيبة القلب والتبحر في العلوم فقد يحتمل انه في آخر سني حياته سار على الخطة التي سار عليها امبروز في اوروبا وثوفيلس في مصر في انه استعمل نفوذه الشخصي في استمالة ثيودوسيوس نحو التحيز والتشيع الى فريق دون الآخر بدلا من ان يحمله على ايقاف سير الشحناء والبغضاء التي سرت بين تلك الشيع المتعددة

وقد جلس على الكرسي البطريركي في الاسكندرية بعد بطرس اخوه تيموثاوس الملقب بالفقير وذلك لانه وزع كل ما يمتلكه من حطام الدنيا . وكان تيموثاوس هذا عضواً في مجمع الاسكندرية وقد اشترك في المفاوضات التي افضت الى استعفاء غريغوريوس وله اليد البيضاء في نشر قانون المجمع النيقاوي بالصورة التي تتداولها الآن ما عدا الجملة

الافتتاحية التي مر ذكرها فلم يصادق عليها مجمع عام مطلقاً .

ولما بدأ هذا المجمع يبحث في المسألة المعضلة وهي وضع ترتيب معروف لمراكز البطريركات المختلفة كان الجميع على اتفاق تام في هذا الموضوع . ففي القرنين الاولين كانت الكراسي الخمسة التي من الدرجة الاولى هي : الاسكندرية ورومية وانطاكية واورشليم وقيصرية وكان الكرسي الاسكندري صاحب الاولوية على هذه جميعها (١) . وكان كرسي رومية ينقد حسداً لاسبقية كرسي الاسكندرية عليه ولكن بطاركة الاسكندرية الذين اشتهروا بالرقة واللطف وحسن المجاملة رضوا بفض الاشكال ولو افضى الى التنازل عن افضليتهم . وكانت الرئاسة الفعلية والخطاب العام الذي يصدر سنوياً وفيه تاريخ عيد الفصح مصدرهما الاسكندرية . فلما اعتنق قسطنطين الديانة المسيحية صار لمدينته الجديدة مركز بين البطركخانات الاصلية . فعندما انعقد المجمع النيقاوي دهم الاسكندرية اول مصاب حط من شهرتها ذلك لان هذا المجمع قرر اعتبار التاريخ الغربي قاعدة لعيد الفصح . ومن ذلك العهد اخذت سلطة رومية الكهنوتية في الازدياد بينما الاسكندرية والقسطنطينية كانتا تنحطان وتضعفان لداعي الخصومات المستمرة ولكثرة الاضطراب والقلاقل . ومن الاسباب التي اوجبت تقدم رومية ان الامبراطرة الذين

(١) في القانون الذي صدر من مجمع نيقيه وضع الكرسي الاورشليمي في الدرجة الثانية اما الرئاسة الحقيقية فكانت تتراوح بين الاسكندرية ورومية

على مذهب اريوس لم يكونوا يعبئون بها او يهتمون بأمرها بل كانوا يصرفون جل جهدهم في مقاومة بطريرك مصر والحط من شأن الاسكندرية . وفي مجمع سرديكا المنعقد سنة ٣٤٣ (وهو مجمع غير عام) فازت رومية بالحصول على قانون عام يقضي باستئناف المشاكل الى بابا رومية باعتباره حكماً في المسائل المتنازع فيها . وفي مجمع القسطنطينية الذي نحن في صدده سعت في الحصول على اثبات مدعاها بطريقة قانونية ليس فيما يختص بالرئاسة — لانه لا يسمح لها بها — بل فيما يختص بالاسبقية والاولوية . وكان لغراطيانوس وابيه قوة في المملكة الغربية ولذلك ادعوا الرئاسة على المملكة الشرقية ايضاً ولهذا كان الوقت مناسباً جداً لما تدعيه رومية خصوصاً ان ملك ثيودوسيوس كان تحت رحمة امبراطور اوروبا فلم يسعه التداخل في هذه المسألة او البحث فيها ولكنه كان يتمنى لو ان عاصمة مملكته (القسطنطينية) تحصل على الدرجة الثانية في الترتيب . وانتهى الامر بأن صدر قانون في مجمع القسطنطينية هذا يخول لرومية حق الرئاسة والقسطنطينية تالية لها وصارت الاسكندرية في الدرجة الثالثة بين كراسي البطاركة وكان تيموثاوس بطريرك الاسكندرية وهو عضو في هذا المجمع لم ينل اصواتاً كغيره فلذلك خرج من المجمع غاضباً ساخطاً وآب مع اساقفته الى مصر حيث صرف ما بقي من حياته في اتمام الواجبات المفروضة عليه بكل هدو وسكينة وقد كتب تواريخ حيوة كثيرين من القديسين

المصريين ومع اشتغاله باعمال اخرى اصدر ايضاً تعليمات للاساقفة والقسوس يهتدون بهديها في معضلات الامور ومن هذه التعليمات المرعية ان الكاهن يحمل على نفسه المسؤلية اذا هو رفض اتمام عقد زواج يظنه غير قانوني كأن يكون زواج الرجل بأخت امرأته المتوفاة . وفي قانون آخر انه لا يجوز الصلوة على رجل انتحر وهو مختل القوى العقلية. وفي غيره كتب رداً على سؤال وجه اليه قال« ان الذين يأكلون سهواً قبل المناولة لا يجوز حرمانهم من تناول الاسرار المقدسة لهذا السبب حيث ان الشيطان كثيراً ما يتخذ مثل هذه الطرق لمنع الآدميين من العشاء الرباني فاذا نحن حرمناهم منه فنكون كمن ساعده على تضليله »

وقد جاء في بعض التواريخ ان هذا البطريرك شاد عدة كنائس في الاسكندرية واذا انت تصفحت قائمة اسماء القديسين المصريين تجد بينهم اسم تيموثاوس ولكن نيبل المؤرخ يقول انه لا يمكن ان يكون القديس تيموثاوس هو هذا البطريرك ما دام ان القديسين المصريين كانوا غير متزوجين وان هذا البطريرك كان متزوجاً . ولكن حيث انه كان بين بطاركة الاسكندرية الاولين كثيرون منهم متزوجون وكانوا يعدون من ضمن القديسين ايضاً فهذا البرهان الذي اتاه المؤرخ المذكور لا يثبت هذه الحقيقة التي قلناها عن تيموثاوس ولا ينقضها

الفصل التاسع عشر

سقوط هيكل سيرابيس

سنة ٣٨٥ للمسيح و١٠١ للشهداء

بعد ان تنيح البطريرك تيموثاوس الملقب بالفقير اختير ثوفيلس خلفاً له وقد كان كاتب سر للبطريرك اثناسيوس. وقد قال عنه يوحنا النيقاوي انه ولد من والدين مسيحيين في مدينة ممفيس . تيتم ثوفيلس وهو في مهد الطفولية وكانت له اخت صغيرة ايضاً فنيط امر تربيتهما بجارية حبشية كانت ملكاً لابيهما . فحدث في ذات ليلة قبل بزوغ الشمس ان الجارية اخذت الطفلين الى هيكل الآلهة الكاذبة وفيه تمثالا ارطاميس وابولون وكانت تقصد العبادة كعادة الوثنيين . ولم يكد الطفلان يطأا ارض الهيكل حتى سقطت الاصنام الى الارض وتحطمت تحطيماً (١) فخافت الجارية اقتصاص الكهنة الوثنيين منها ففرت هاربة وجاءت بالطفلين الى بلدة نيقيوس ولكنها لم تستقر فيها طويلاً لانها رأت ان اهالي هذه المدينة قد يمكن ان يسلموها الى كهنة الاصنام فحينئذ سارت بالولدين الى الاسكندرية . وكأن الهاماً من الروح القدس اوعز اليها ان تأخذ الطفلين الى احدى الكنائس لكي يتسنى لها فهم عبادة المسيحيين بطريقة جلية . فحالما ولجوا باب الكنيسة وجلسوا على مقربة من المنبر تحول

(١) ان حكاية يوحنا هذه غامضة مبهمة وقد يحتمل ان الطفلين ضرا بالاصنام في انهما طرحاها على الارض وحطماها تحطيماً

نحوهم نظر البطريرك اثناسيوس فأمر بابقاء هؤلاء الاشخاص الثلاثة
في الكنيسة الى ما بعد نهاية الخدمة . فلما ارفضت الكنيسة جيء بالولدين
والجارية امام البطريرك فوبخ هذه الأمة لانها ذهبت بابناء والدين
مسيحيين الى هيكل الوثن ثم أوضح لها ان هذه الآلهة الكاذبة لا تفهم
ولا تعي ولا مقدرة لها على مساعدتها في شيء فضلاً عن انها تحطمت
امام ولدين صغيرين ثم قال لها « من الآن فصاعداً يبقى هذان الطفلان
في قبضة يدي »

فلما رأت هذه الجارية ان سرها قد انكشف وانها لا يسعها انكار
ما فعلت طرحت نفسها على قدمي البطريرك والتمست منه ان يعمدها
لكي تصير مسيحية فقبل اثناسيوس هذا الالتماس بكل ارتياح وعمد
الثلاثة معاً ثم وضع الصبية في دير بقيت فيه الى يوم زفافها اذ تزوجت
برجل من بلدة المحلة (غربية) وفيها ولدت انبا كيرلس الملقب بالنجم
المشرق الذي صار بنعمة الله بطريركا بعد خاله ثوفيلس

اما ثوفيلس فبعد عماده البسوه الحلة البيضاء (التونية) وجعلوه
في زمرة الطلاب فشب على خوف الله وتضلع من معرفة الكتب
المقدسة وكان مطيعاً لاوامرها سائراً حسب فرائضها . وقد ترقى الى
رتبة شماس ومن ثم الى رتبة الكهنوت وأخيراً اختير للكرسي البطريركي
اذ اضاء مدينة الاسكندرية باكملها بنور ايمانه الساطع . وقد فاز باستئصال
شافة الاصنام من جميع المدن المصرية حتى لم يبق واحد يعبد التماثيل

المنحوتة كما انبأ عنه القديس اثناسيوس قبل الآن

ومعلوم ان ثوفيلس كان غيوراً غيرة تفوق حد الوصف ولكنه
عرف بالتقصير في مضماري الحكمة والتواضع . وكان خيراً له ان لا يكون
موضع ثقة الامبراطور ثيودوسيوس ومحط افكاره لان هذه الثقة
أوجدت فيه نوعاً من الخيلاء والصلف . ولدينا الآن ايضاح بسيط
عن السنوات الاولى من رئاسته نبسطه هنا شرحاً لاعماله التي عملها

من ذلك ان أول واجب فرضه عليه الامبراطور هو ان يبت رأياً
في مسألة عيد الفصح التي وقع الاختلال والاختلاف فيها مرة ثانية
حتى انه في سنة ٣٨٧ صار الفرق بين العيد المصري والعيد الروماني
مدة خمسة أسابيع كاملة . وبناء على ذلك وضع البطريرك تقويماً للاعياد
لمدة ٤١٨ سنة وصنع جدولاً يحتوي على الايام التي يقع فيها عيد
الفصح لمدة مئة سنة مبتدئاً من سنة ٣٨٠ . ولا تزال صورة هذا
الجدول الخاص باعياد الفصح باقية الى يومنا هذا وفيها اوضح ثوفيلس
افكاره بان مخلصنا صلب في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان
(ابريل) لا في الرابع عشر منه . ثم وضع هذه القاعدة وهي : اذا كان
اليوم الرابع عشر من الشهر القمري يوافق يوم الاحد فعيد الفصح
يتبعه باسبوع . ومما يحتاج الى اثبات او هو يحتمل الشك واليقين كون
ثوفيلس ارسل كاهناً من قبله اسمه اسودورس في خلال اللدد
والخصام بين ثيودوسيوس ومكسيموس مزوداً بخطابات شكر وتهنئة

ليوصلها الى الحزب الفائز من الحزبين

وفي نحو سنة ٣٨٩ تحصل ثوفيلس على هبة من الامبراطور هي اطلال هيكل دارس خاص بباخوس اله الخمر في الاسكندرية حيث قصد ان يبني فيه كنيسة . فعند الشروع في حفر الاساسات اكتشفت قباب متنوعة مرسوم عليها صور تدل على الطقوس الدينية لعبادة الاوثان وقد عرفت في ما مضى ان جورجيوس أساء كثيراً بتقويضه اركان هيكل الاله متراس الخاص بالوثنيين وكذلك ثوفيلس ارتكب شططاً بالطريقة التي سلكها نحو هذه الطقوس الوثنية ولم يكن طويلاً حتى اصبحت شوارع الاسكندرية مسرحاً لخصام دائم ونزاع مستمر بين المسيحيين والوثنيين خصوصاً وان هؤلاء كانوا يسيرون يومياً نحو الانحطاط والفناء ولذا اخذ منهم اليأس والطيش كل مأخذ سيما وانهم في مدة حكم قسطنطين كانت دياناتهم الوثنية تعامل معاملة حسنة اكثر مما كان ينتظر قياساً على الحوادث التي وقعت في الاثنتي عشرة سنة التي سبقت هذه المدة. الا ان قسطنطين كان قد أبطل الذبائح الوثنية خصوصاً التي كانت تجري تحت جنح الظلام لانها كانت ذبائح بشرية تعتبر كقتل وجنايات فظيعة . اما قسطنطينوس فلم يقف عند هذا الحد بل تعداه الى مقاصة كل من خالف امر قسطنطين ومعاقبته بالموت وضم ممتلكاته لجانب الحكومة . الا ان هذين الامبراطورين كانا يحترمان الفنون ويعتبران الآثار القديمة ولذلك لم يسمحا بملاشاة الهياكل

والتماثيل التي كانت تحتوي على أهم العاديات واثمنها . صحيح انهما امرا بايصاد الهياكل وعدم تقديم ذبائح فيها ولكنهما أيضاً أبقيا عليها كآثار قديمة وأقاما لها حراساً على مصاريف الحكومة وعينا لها أدلاء يرشدون الزائرين الى مشاهدة ما فيها من الفنون والصنائع . ولما زار ايوليانوس محل ترواده القديم لم يجد ان الهياكل محفوظة فقط على غاية ما يرام بل ان الحارس صار أسقفاً لها

أما في مدة حكم ثيودوسيوس فتغير كل هذا النظام وأبدل بالمرة ذلك ان مبدأ التعذيب والاضطهاد الذي ادخله اتباع آريوس في الكنيسة وجد له منزعاً عند الارثوذكس فصاروا يميلون ايضاً الى اضطهاد كل من يخالفهم في الدين والمذهب حتى ان الرهبان كانوا اكثر الناس شراً من هذا القبيل وقد بلغت شرورهم الحد وعم اثمهم كل مكان خصوصاً مصر فاصبحوا فيها جيشاً ناشذاً يسيرون حفاة الاقدام حتى اشبهوا جماعة الثوار في كل اطوارهم من جهل وعمى وبعدت عنهم المعرفة والعلم ومما طوح بهم الى مهاوي الشر والفساد عدم وجود ذلك الرباط الطبيعي الذي يربط الانسان من ارتكاب المنكر . ثم زاد عصيانهم وصلبت رؤوسهم فلم يكونوا يطيعون آدمياً سوى رؤساء اديرتهم . فهؤلاء الرهبان أخذوا في تقويض الهياكل والتماثيل الوثنية في كل انحاء المملكة وذلك ضد الاوامر الامبراطورية . ومما يستدعي الاسف انه لما عزم ثيودوسيوس على التداخل بقوته على ايقاف هذا الخراب العلم ارهبه امبروز الميلاني وأوقفه

عن قصده بالتهديد الديني . وفي سنة ٣٩٢ اصدر ثيودوسيوس أمراً يدفع
به الغوائل عن مجامع اليهود ولكنه ترك هياكل الوثنيين التي كانت آية
في الرونق والبهاء تحت تصرف الرهبان فلم ينج من ايديهم الا المدرسة
الرومية المخصصة لاقامة الاعياد وهيكل جوبيتر وذلك رغماً عن ارادة
امبروز ولكنهما أبيدا بعد وفاة ثيودوسيوس في مدة حكم ابنه . أما في
مصر فقد سارت عوامل الخراب في هاتيك الهياكل سير النار في الهشيم
وذلك بامر ثيودوسيوس بناء على طلب البطريرك ثوفيلس ، فلم يبق
حجر على حجر من هيكل سيرابيس الا ونقض وقد كان هذا الهيكل
معدوداً من أجل الاعمال الهندسية في مدينة الاسكندرية

واذا قلنا أن اعمال ثوفيلس هذه كانت منشأ للاضطرابات والقلاقل
فلنا أن نقول أيضاً ان الوثنيين انفسهم اجهزوا على ما بقي لهم من
الرفعة والمجد وجروا انفسهم الى الحضيض . وكان في أثناء الخصومات التي
حدثت بين الوثنيين والمسيحيين ان قتل كثيرون من هؤلاء . أما الوثنيون
فاختاروا أولمبيوس رئيس كهنة هيكل سيرابيس قائداً لهم ثم ذهبوا وتحصنوا
في قنن هذا الهيكل العظيم وأخذوا يدافعون عن انفسهم ويصدون
هجمات مدينة الاسكندرية التي قامت ضدهم . وقد كان هـذا الهيكل
كحصن حصين لانه بني على صعيد من الارض على شكل بديع وفي وسطه
ردهة واسعة وكانت جدرانه سميكة مبنية على شكل هندسي دقيق تعلوها
طبقة من النحاس وتمر تحتها تماش وطرق سرية وهو مقسم من الداخل

الى غرف تختص بعضها بالكهنة وبعضها بالمصلين وبعضها بالضيوف وفيها
مكان هائل معد للمكتبة الكبرى التي فاقت مكتبة المتحف المصري في
عظمتها وكثرة محتوياتها . ففي هذا الهيكل السامق تحصن وجوه الوثنيين
ومعهم رجال ابطال أعدوا للحرب والقتال فكانوا يسخرون وهم من
داخل ابوابه بالامبراطور والبطريرك معاً ولكنهم لم يبقوا على هـذه
الحالة طويلا بل هددوا الامن العام اذ خرجوا من حصنهم وهجموا على
المدينة هجمة واحدة واحتملوا جمهوراً من المسيحيين أدخلوهم في هيكلهم
وعذبوهم امام المذابح ليضطروهم لان يذبحوا للاوثان

ومعلوم ان الحكومة لا تسمح باستمرار مثل هذه الحوادث ولذلك
سار ايفاجريوس والي مصر في ثلة من الجند وتقدم نحو الثائرين ثم أخذ
يسرد لهم نتيجة هذا العمل الذي يعد ضرباً من الجنون ويظهر لهم سوء
العقبى وصرامة القصاص الذي يقع عليهم اذا هم ظلوا يسخرون بالسلطة
الرومانيـة . ولم يكد ينتهي من كلامه حتى قام اولمبيوس والقى في قومه
خطاباً فصيحاً يحضهم على احتمال أي عناء وتعب لا ان يتركوا آلهة ابائهم
عرضة للهزء والسخرية . فلذلك رفض جماعة الوثنيين المصريين سماع كلام
الوالي الروماني وشاحوا بانوفهم اعراضاً عن نصائحه بانفة وشهامة عرفت
عن أجدادهم الاولين

ولما كان هذا الهيكل حصيناً لا يمكن فتحه الا بعد حصار طويل
وحرب عوان ترك الوالي جماعة الوثنيين فيه دون ان يفاتحهم العدوان ثم

كتب لمولاه الامبراطور يسأله اعطاء التعليمات والاوامر اللازمة للعمل
بموجبها في حل هذا المشكل . فرد عليه الامبراطور ثيودوسيوس قائلا
أن المسيحيين الذين قضوا نحبهم في هذه الحوادث يعدون ضمن الشهداء
ولذلك يجب مسامحة قاتليهم والتجاوز عن سيآت الذين أساؤا اليهم .
ثم أمر الامبراطور بهدم جميع الهياكل التي في الاسكندرية وازالتها من
الوجود ما دامت هي سبب هذه الاضطرابات ومنشاء هذا الهياج
والثورات

فلما ذاع خبر الامر الذي أصدره الامبراطور ودرى الناس انه
سيقرأ جهاراً على رؤوس الاشهاد احتشد كثيرون من المسيحيين والوثنيين
لسماع مؤداه ومعرفة ما حواه . فلما اتم الوالي قراءته صاح المسيحيون
صيحة الابتهاج والتهليل أما الوثنيون فعرتهم دهشة ورعب وفروا هاربين
فلما أتى المساء واسدل الظلام حجابه خرج اولمبيوس واتباعه من الهيكل
وتركوه وشأنه تعبث به أيدي العبث وساروا يلتمسون لانفسهم كهناً
يلجأون اليه . قيل انه لما خيم الظلام ومدّ الليل رواقه مر أحد المسيحيين
على الهيكل فوجده بلقعاً بوراً ليس فيه أحد من الانس ولما اقترب
الى مزار الهيكل الذي فيه الذخائر المقدسة سمع صوتاً من الداخل يقول
(لا يوجد أحد هنا) ثم تلا هذا الصوت نغمة تسبيح ختمت بكلمة
(هللوياه) فتعجب الرجل لهذا الامر الذي لم يعرف له سبباً ولكنك
ستعرفه أنت فيما يلي

وفي اليوم التالي استيقظ سكان الاسكندرية سحراً جداً وبداء
هرج الناس ومرجهم يتزايد وجموعهم تتوافد الى أن انتظم عقد الاحتفال
وسار في مقدمته البطريرك والوالي راكبين جنباً لجنب وتبعهم جمهور
الكهنة يرتلون ويسبحون ثم العساكر يسيرون عابسين وفي أيديهم القؤوس
والحراب وباقي دوات الخراب . وبينما كانت هذه الجموع المكتظة تسير
الهوينا، كان يقول الواحد منهم للآخر ان الا تذكر تلك النبوءة القديمة
التي فاه بها بعضهم وقال انه في اليوم الذي تتلاشى فيه هذه الاصنام
تضمحل الارض وتتساقط السموات وتتقوض دعائم العالم باسره ويعم
الخراب والفناء كل متحرك وجامد فيه . وكثيرون من المسيحيين كانوا
يصدقون هذه الخرافة حتى خافوا اتمام هذا العمل لئلا تصح النبوءة وتخرب
الدنيا. فلما اقترب ذلك الموكب من الهيكل صعد نحو مائة رجل على الدرج حتى
وصلوا الى الطيارة الكبرى التي رقاها ذلك الشاب اوريجانوس وحده
قبل هذا الزمن وقام فيها خطيباً والخطر يتهدد حياته وذلك لكي ينادي
بيسوع مصلوباً الذي جاء خدامه الآن في أبهة الرئاسة وعظمة القوة تحيط
بهم الجنود وتحف بهم سطوة المملكة الرومانية ليهدموا هيكلاً يمثل الديانة
الوثنية القديمة ويبرهن بوجوده على قوة تأثير الديانة المسيحية الجديدة
وفعلها السريع

وكان كثيرون من المسيحيين الملتمين حول بطريركهم والوالي
تتراوح قلوبهم بين عوامل الخوف والفرح ولم يكونوا قد رأوا هذا

الاله العظيم الذي جاؤا ليرموا به في الحضيض وهو الذي تسلط على عقول المصريين مدة ستمائة سنة وملك افهامهم بخرافات واباطيل كان منبعها ذلك المزار المقدس الذي كانت تخرج منه أصوات لا يفهم الناس مصدرها فكانوا يعدونها اسراراً لا يقدر على ادراكها الا هذا الاله الكاذب . وقد وقف هؤلاء المسيحيون يشخصون في هذا التمثال وهم سكوت كأن على رؤوسهم الطير بينما كانت آمال جماعة الوثنيين الحاضرين تذبل ورجاؤهم في هيكلهم العظيم خاب وضاع لما رأوا عوامل الخراب والدمار تفعل فيه فعلا قاسياً . وقد يغلب على الظن ان والد هيباشا التعيسة كان بين هؤلاء الحاضرين وهو الذي صار فيما بعد شهيد هذه الديانة الهالكة . وكذلك هيباشا كانت في ذلك الوقت يطفح وجهها بالجمال الناضر مع انها لم تكن في عنفوان الشباب وكانت تنظر الى هذا الاحتفال الغريب نظرة المعجب المغضب ولا بد انها عرفت فيما بعد غلط هذه الخبلات التافهة ووخامة هذا التعصب الغبي الذي اتاه جماعة يعبدون ابن النجار الذي عاش في هذا العالم يسالم الاشرار ويؤاخي الخطاة ويأكل مع العشارين ويدخل بيت امرأة خاطئة ويعفو عن الزانية بينما عبيده وخدامه يقتصون من كل من سار على غير مذهبهم وخالفهم في مشربهم . وقد عثرنا في كتاب على وصف لتمثال الاله سيرابيس فآثرنا نقله هنا افادة للقراء الكرام وهاك الوصف :

« كان للآله سيرابيس تمثال هائل جالس القرفصاء وله يدان تمتدان

في عرض المكان وتتصلان بجدارين على جانبيه وهو مصنوع من معادن مختلفة اغبر لونه واكفهر منظره لمرور زمن طويل على صنعه ولكنه كان مرصعاً باحجار كريمة ثمينة لا تزال تتألق وتضيء حتى تكاد تخطف الابصار بلمعانها . وكان على صورة رجل هرم وضع على رأسه مكيالاً للغلال رمزاً على الخصب وجودة الحاصلات والى جانبه صورة رأس اسد ورأس كلب ورأس ذئب . وكانت احدى يديه على شكل افعى وذلك رمزاً على الخلود . ولا غرو ان خليفة اثناسيوس (اي توفيلس) كان ينظر الى التمثال الذي يدل على عظمة الديانة المصرية القديمة نظرة معجب بها مندهش من فخامتها كما ان جماعة الاسكندريين كانوا ينظرون بعين ملؤها الاعجاب بهذه المبادي القديمة التي سادت على مصر في الازمنة الماضية سيادة لم تكن لتنزع لولا مجيء الوقت الذي فيه ملك ذلك الملك العظيم على هذا العالم فقامت كنيسته حينئذ ووضعت اعداءها تحت موطيء قدميها »

ولما بداء الهدم في ذلك الهيكل ضج قوم من الواقفين وعجوا واخذ دخان يثور من افواههم يدل على ان وراءه نار قد يتأجج سعيرها اذا حركتها الازند ولذلك رأى البطريرك أن الحكمة تقضي باتمام هذا العمل في اسرع وقت لان التأخير قد ينتج ضرراً لا تعرف نتيجته الا بعد حدوثه ومن ثم التفت نحو رجل من حاملي المعاول والفؤوس وامره أن يضرب التمثال الضربة القاضية فرفع الرجل فاسه وضرب

التمثال ضربة ازعجت جماعة الحاضرين وجعلتهم يصرخون صراخ الخوف والرعب كأن عدواً قوياً فاجأهم على غرة منهم . ثم ثنى الضارب مرة أخرى فانقلب خوف القوم وصراخهم الى ضحك وقهقهة عندما رأوا رأس آله المصريين القدماء تتدحرج على الارض كالكرة وخرج من جوفه رهط من الفيران والجرذان فزعت مذعورة كمن دهمتها مصيبة أو انها كانت كمن أفرج عنه بعد طول الاعتقال فذهبت الى كل ناحية من انحاء الهيكل وهي تزحف وتركض فرحة جذلة أو خائفة وجلة . ولم يك طويلا حتى زال الخوف والرعب من القلوب وأخذ القوم في تدمير هذا الهيكل العظيم وهم يطربون فرحاً ويفرحون طرباً ولم يتركوا فيه تمثالا الا وحطموه تحطيما . لم يدعوا فيه بناء حتى نقضوه نقضاً فساوت جدرانه السامقة الارض الواطئة وانحطت تلك المباني الفخيمة الى الحضيض الاسفل ولكن السور الخارج لم يهدم وظل قائماً مكانه الى أن صار فيما بعد بطريكخانة يقيم فيها البطريرك

أما وجوه الوثنيين واصحاب الحيثيات فيهم الذين سببوا كل هذا الهياج والقلاقل ضد المسيحيين فلم يجدوا لهم حيلة بعد الذي جرى سوى أن يتركوا الاسكندرية ويفروا هاربين الى ديار أخرى غيرها ولم يمد احد من المسيحيين يده بسوء الى هؤلاء الوثنيين مع ان هيلاديوس كاهن الاله جوبيتر صرح على رؤوس الاشهاد مفتخراً بانه ذبح مرة بيده تسع ذبائح آدمية على مذبح الاصنام الكاذبة . وقد كتب سقراط بعد ذلك

الفقرة الآتية عن هيكل سيرابيس قائلا :—

« عندما تهدم هيكل سيرابيس واصبح انقاضاً بالية وجد منقوش على حجارته كتابة باللغة الهيروغليفية لها شكل الصليب وهيئته تماماً فلما رآها المسيحيون والوثنيون قال كل فريق منهم ان هذه شارات ودلائل من ديانتنا خاصة ينادون الغير . ذلك لان المسيحيين يعتقدون ان الصليب علامة الفداء وتذكار الخلاص الذي عمله المسيح للجنس البشري ولذلك قالوا ان هذه الاشارات التي وجدت على الحجارة تدل على ديانتهم وتنبئ بها اما الوثنيون فقالوا لا يبعد ان تكون هذه العلامات دلائل على المسيح وسيرابيس في آن واحد وذلك لانها مشتركة بين المسيحيين من حيثية الشكل وبين الوثنيين من وجه الكتابة والحفر . وبينما كان الطرفان يتباحثان ويتجادلان في هذا الشأن ظهر لهم وثني اعتنق الديانة المسيحية وكان ملماً بمعرفة الهيروغليفية عارفاً باللغة المصرية القديمة فترجم لهم هذه الكتابة الموضوعة بشكل صليب واذا هي « الحياة العتيدة » فلما سمع المسيحيون هذه الترجمة قالوا لم يبق بعد دليل على انها تشير الى ديانتنا وانها وضعت لتنبئ عنها . ثم ظهرت كتابات اخرى باللغة المصرية اوضحت معنى شكل الصليب هذا ايضاحاً تاماً ومعناها « انه عندما يبتدئ الناس يعيشون العيشة الجديدة (اي يصيرون مسيحيين) فلا بد من سقوط هيكل سيرابيس ودماره » فلما طرق هذا القول مسامع الوثنيين اقتبل كثيرون منهم الديانة المسيحية معترفين بخطاياهم تائبين الى ربهم عما فرط منهم

ثم تعمدوا بمعمودية التوبة الصحيحة»

وقد عمّ مبداء كسر الصور وتحطيم التماثيل مصر بأسرها واصاب الضرر جميع العاديات والآثار الثمينة في القطر المصري مدة القرن الرابع بما لم تصب بمثله منذ افتتاح الفرس مصر او عند أخذ المسلمين اياها لما بداؤا بعوامل الخراب فيها شيئاً فشيئاً وساروا في تدمير الهياكل ونبش قبور الاموات سيراً حثيثاً وكان غرضهم البحث عن الكنوز التي زعموا انها موجودة داخل تلك الاجداث وهو خطأ لا يزال الكثيرون يأتونه في ايامنا هذه ولم ينج منه حتى بعض السياح الذين يجهلون الحقائق ويظنون ان كل الصيد في جوف الفراء او ان كل السعد والغنى في باطن القبور المصرية القديمة · ولم يبق اثر للهياكل في الاسكندرية وغيرها من المدائن الشهيرة بل تساوت جميعها بالارض واخذت منها التماثيل والانصاب المعدنية وسبكت اواني واوعية للكنائس اما التماثيل الحجرية فتحطمت وسحقت ولم يسلم منها سوى تمثال له رأس نسناس اقامه البطريرك ثوفيلس في ميدان فسيح حتى يعتبر الناس به ويعلموا كنه الآلهة التي كان يعبدها اباؤهم والاجداد وكيف انها حقيرة مزدراة · ولكن هذا الصنيع اساء امونيوس بنوع خاص وهو ذلك العلامة الوثني الشهير واخذ يتذمر ويذم هذا التشهير المعيب الذي شهرت به الديانة القديمة وكيف انها صارت هزءاً وسخرية

واما في باقي الاقاليم المصرية فكانت الهياكل الوثنية لا تزال قائمة على

اساساتها ولم يصل الخراب الا الى بعض اجزائها فقط ولكن تماثيل الآلهة التي كانت من أحسن ما صنعت يد الانسان وابهى حد وصلت اليه الفنون المصرية القديمة اذا نحن قسناها على التمثالين اللذين نقلا لرومية - كل هذه التماثيل أزيلت وأعدمت ولم يبق منها اثر ولا عين · ولك في حكاية بومن واخوته التي سنسردها الآن اعظم مثال على عوامل التخريب التي لعبت بتلك التماثيل الثمينة

اما بومن هذا فكان له اخوة ستة او سبعة كما يقول البعض وقد صاروا جميعهم رهباناً وامتاز بومن وواحد من اخوته اسمه انوف بالشهرة الواسعة والصيت الطيب · وحدث ان جماعة التدمريين الذين عرفنا انهم غزوا مصر قبلاً استولوا على جميع ممتلكات والد هؤلاء الاخوة ثم اوردوه حتفه وطردوهم من منزلهم ففر هؤلاء الاخوة يطلبون النجاة لانفسهم من اولئك المعتدين ثم اصبحوا بلا مأوى ولا عضد جائلين في فضاء الارض ورحبها بحالة البؤس وضنك العيش الى ان حطوا رحالهم في هيكل خرب اتخذوه داراً لهم يأوون اليه · وكان انوف اكبر هؤلاء الاخوة يتألم ويتوجع لحال اخوته اكثر من غيره · وحدث انه وجد في هذا الهيكل البالي تمثالاً عجيب الصنع مطروحاً على الارض بعد ان عبده الناس زمناً طويلاً في الهيكل المذكور وسجدت له الجباه وألصقت بالارض اكراماً له واجلالاً فرأى انوف ان يجعل هذا التمثال درساً لاخوته ويتخذه لهم عظة يتعظون بها فرجاهم ان يظلوا اسبوعاً كاملا

سا كتين دون ان ينبثوا ببنت شفة ولا ان يسألوه عما يفعله · وكان يهب
من نومه في صباح كل يوم من ايام هذا الاسبوع ويجمع اخوته حوله
بالاشارة ويبتدئ برمي ذلك التمثال بالاحجار ويكسر بعض اجزائه ثم
ركع امامه ويسأله الصفح والمغفرة فلما انتهى الاسبوع سأله اخوته
يضاحاً وشرحاً امله هذا فاجابهم ان هذا التمثال قد اهنته كثيراً
حقرته تحقيراً فلم يشك ولم يتذمر لانه صنع ايدي الانسان فهو
يعارضه في عمله · كذلك يجب على الانسان الخضوع التام لارادة الله
اعماله دون ان يعترض او ينقم

وبعد مضي بضع سنوات على هذه الحادثة علمت امهم ان ابناءها
رهبنوا وهم يقطنون دير وادي النطرون فطلبتهم بشوق معروف عن
والدات خصوصاً وسارت تجد الخطى حتى وصلت هنالك ولكن
يمن رفض مقابلتها بالمرة وسبب ذلك ان شظف العيش وضيق الحال
هاتيك المصاعب والمتاعب اوتمدت الاحساس الشريف واضاعت
لعواطف الحية من قلب بومن هذا حتى انه أبى النظر الى وجه امه
التي ولدته · ومما يندرج ضمن هذا الباب ايضاً ان ابن أخت بومن
كان قد حكم عليه بالاعدام فرضي الوالي بالعفو عنه اذا تداخل بومن
في امره وطلب العفو عنه وذلك لشهرته بالتقوى والعفاف ولكن بومن
لم يعبأ بتوسلات اخته التي حركت الجماد ولم تحرك قلبه بل اجاب رجاها
بهذه العبارة « اذا كان الشاب يستحق الموت فليمت والا فلا بد ان الحاكم يبرئه »

وفي وقت حكم البطالسة كان مقياس النيل المقدس محفوظاً في هيكل
سيرابيس فلما ملك قسطنطين نقل هذا المقياس من هيكل سيرابيس
ووضع في الكنيسة القيصرية الكبرى « سيزاريوم » ثم أعيد الى ذلك
الهيكل بامر من يوليانوس الملحد · فلما خرب الهيكل خراباً كاملاً نقله
المسيحيون الى كنيستهم باحتفال باهر فتنبأ الوثنيون نبوة مفادها ان
الآلهة سينتقمون لانفسهم بمنع النيل من الفيضان حتى لا يروي
الاراضي · وكان النيل قد تأخر في الزيادة عن ميعاده السنوي فصدق
صغار العقول من الوثنيين والمسيحيين ان الاله سيرابيس انتقم منهم
حقيقة وقاصصهم على تخريب هيكله فزاد ضجر الناس وقلقهم وتفاقم
الشر حتى خشي الوالي الخطر من هؤلاء الناقمين وكتب يسأل المرجع
الاعلى عما اذا كان مناسباً ان يرد شر جماعة المتمردين ويكفي الحكومة
مؤونة الثورة والهيجان بان يجعل مقياس النيل تحت رعاية الكهنة
الوثنيين وتصرفهم · فاجابه الامبراطور ثيودوسيوس جواباً مختصراً
مفحماً هو « اذا كان النيل لا يفيض الا بواسطة السحر والرقى او بذبح
الذبائح وتقديم المحرقات فخير له ان لا يفيض وان تبقى مصر ظمآنة الى الابد »

ولم يكد هذا الامبراطور يصدر امره الآنف ذكره حتى تغير الحال
واخذ النيل في الفيضان بسرعة زائدة حتى خاف الناس الغرق بعد ان
كانوا يخافون الشرق وزال بذلك خطر الثورة فتنعم بال المسيحيين
واستراح خاطرهم

الفصل العشرون

﴿ الاخوة الطويلو القامة ﴾

﴿ سنة ٣٩٠ للمسيح و١١١ للشهداء ﴾

في سنة ٣٩٤ سار البطريرك ثوفيلس الى القسطنطينية ليحضر مجمعاً آخر عقد فيها لفض بعض المسائل التي اودت الى خلاف بين جمهور الاساقفة المتبايني الاغراض والغايات . وقد حضر هذا البطريرك الاحتفال بتدشين كنيسة كبرى بنيت اكراماً للرسولين بطرس و بولس كان الوالي قد شادها في دغلة حول مدينة خلكدونية تدعى دغلة البلوط . و يحتمل انه في هذه السنة عينها ان ارسينوس استعفى من وظيفته وهي تعليم ابني الامبراطور وتهذيبهما وصار راهباً واتخذ ارض مصر موطناً لرهبنته وهو رجل عالم فاضل عرف بين اترابه بسعة العقل وغزارة المادة والتضلع في المعارف النافعة وربما كان قد عاد مع ثوفيلس عندما جاء من القسطنطينية الى مصر بعد ارفضاض المجمع

وفي سنة ٣٩٥ توفي الامبراطور ثيودوسيوس فاقتسم ولداه المملكة قسمين خص اركاديوس المشرق وهونوريوس المغرب . وفي سنة ٣٩٨ ذهب ثوفيلس مرة ثانية الى القسطنطينية ليرسم يوحنا كريسوستم بطريركاً لهذه الابروشية . قبل ان ثوفيلس اتم هذه الرسامة رغماً عنه لان ارتفاع كرسي القسطنطينية الى درجات الفخار فوق الاسكندريه كان قد ساءه جداً كما ساء سلفه تيموثاوس من قبله ولذلك تمنى لو يمكنه ان يعين شخصاً من

خاصته في هذا المركز بدل تعيين رجل مشهور قادر مثل يوحنا المذكور آنفاً

ولحد هذا الحين كان ثوفيلس على وفاق ووئام تام مع جماعة الرهبان العديدين في مصر خصوصاً مع رهبان وادي النطرون الذي هو اكبر دير واقرب لمدينة الاسكندرية من غيره وكانوا قد ساعدوه في هدم الهياكل وتدميرها فمدح غيرتهم ومروءتهم وكافأهم على ذلك بان رقى بعضهم الى رتبة الاسقفية كلما كانت تسنح له الفرصة . ومن الذين رقوا ديسقوروس احد الاخوة الطويلي القامه تعين اسقفاً لواحة هرموبوليس (المنيا) كذا شقيقاه يوساب ويوثيموس كان ثوفيلس قد طلب منهما ان يتركا دير وادي النطرون ليعينهما رعاة في كنيسة الاسكندرية . وفي سنة ٣٩٩ دارت المكاتبة بين ثوفيلس وجيروم قصد منها ذلك ان يسوي الخلاف بين جيروم ويوحنا اسقف اورشليم وهو من رهبان وادي النطرون وكانت النتيجة ان جيروم رد على بطريرك الاسكندرية قائلاً « انك لم تعرف كيف يكون الصدام مع الخصم في حومة الجدال ولم تعتد لقاء العدو غير هياب ولا وجل لانك الفت رهباناً يحتفلون بك ويجلون قدرك عند مقابلتهم اياك بل هم يحيونك ويبيونك باخلاص وولاء لانك لم تظلمهم او بالحري لم تقس عليهم في شيء) « ١ »

(١ يظهر ان جيروم هذا الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لدير في بيت لحم كان ميالاً ميلاً طبيعياً الى الشقاق والخناق . فقد سبق له انه غضب وصخب مع صديقه القديم روفينوس الذي كان ساكناً مع ميلانيا في جبل الزيتون عند ما هجر مصر لغاية سنة ٣٩٧ عندما ذهب الى رومية وكذلك تناقر جيروم مع ثوفيلس بشأن اسقف مصري كان هذا قد جرمه وطرده فقبله جيروم عنده باكرام وتبجيل

وقد أورد مؤرخو ذلك العصر ادلة كثيرة تؤيد تفضيل هذا البطريرك للرهبان اتباعه وايثارهم على غيرهم في الخطة التي وضعها اثناسيوس لسوء الحظ وهي اختيار الاساقفة من بين الرهبان العذاب بدلا من اختيارهم من بين القسوس المتزوجين . واذا نحن بحثنا في النتائج التي نجمت من هذا التفضيل لرأينا ان الجهل والعمه فشيا بين جماعة الرهبان للسبب المذكور كما انهم تدرجوا في مبادئ العجرفة والغطرفة منذ تسليم مقاليد هذه الوظائف اليهم . ولك دليل متين على هذه الغطرسة والخيلاء هي ان العلامة ارسينوس ذلك الرجل الطيب الارومة الشريف المحتد لما نوى على الرهبنة وجاء ليقدم نفسه الى رئيس دير برية شيهات وكان اسمه يوحنا وتوسل اليه ارسينوس بكل تواضع وخضوع ان يقبله عنده ليكون في زمرة هؤلاء الرهبان فاعرض هو ورهبانه عنه وذهبوا يتناولون طعامهم جلوساً بينما هنا العالم الفاضل واقف يتلظى كانه على مقالي الجمر (١) واخيراً رمى له واحد منهم بقطعة من الخبز الجاف كانه كلب لجثى ارسينوس والتقمها التقاماً . فلما رأى الرئيس منه ذلك قال بصلاحيته للرهبنة وصرح له بالبقاء مع الرهبان حتى يدرس قانون الرهبنة درساً مدققاً ويسير على فرائضه واحكامه وعين له صومعة يقيم فيها في سفح جبل المقطم حيث قضى اربعين عاماً معتزلا

(١) ان مبداء العنف والقسوة الذي سارت عليه الاديرة المصرية مع كل طالب للرهبنة راغب فيها لم يقتصر على مصر بل تعداها الى اوروبا حتى صار قانوناً مرعياً في قوانين الرهبنة هنالك

وحيدا . وقد عزم الامبراطور اركاديوس تلميذ ارسينوس وربيه ان يرقى استاذه هذا ويمنحه اقصى درجات المجد والشرف وينعم عليه بجزية مصر وخراجها ليصرفها على الفقراء والاديرة فاجابه اركاسينوس انه مادام قد مات عن هذا العالم وصلب الجسد مع الاهواء والشهوات فهو لا يهتم بالدراهم ولا يعنيه أمر توزيعها وتقسيمها بين الناس . ومع كل ذلك فلم تخمد نار غيرته الوطنية ولم يزل حاذقاً وديعاً طيب القلب نقي الفؤاد . والذي يراجع الروايات المنقولة عنه يظن لاول وهلة ان عيشة العزلة والانفراد اثرت في طباع هذا الرجل فجعلته شكساً جافي المراس ولكن الحقيقة التي لا مرية فيها هي انه اختار راهباً اعتاد على السرقة والخطف واتخذه له خدناً ورفيقاً واسكنه معه في مغارته وكان قصده من ذلك ارجاعه عن عادته هذه واصلاح حاله . والذي يقلب صفحات الكتاب المسمى « نصائح للرهبان » المسند اليه يرى مقدار الشعور العميق الذي كان يشعر به هذا الفاضل من التجارب الكثيرة التي يقع فيها جماعة الرهبان وكيف انه حذر كثيراً وانذر طويلا في هذا الصدد مما يدل على الخبرة الواسعة والباع الطويل

وكان البطريرك ثوفيلس قد جاء الى الدير لزيارة ارسينوس فقال له هذا انه يرجوه امراً واحداً . قال البطريرك وما هذا . اجاب ارسينوس اني اطلب منك ان تعود ادراجك دون ان تقابلني لانني لا ارغب في رؤية آدمي قط . وحدث ان سيدة من عقيلات رومية كانت تعرفه من قبل جاءت لزيارته وسارت المسافة بين الريف

ووادي النطرون مشياً على الاقدام لكي تراه اما هو فتلقاها بفظاظة
وعبوسة وابى مقابلتها فشكت هذه الفاضلة امرها لثوفيلس نطيب هذا
خاطرها وقال لها انها واحدة من بنات حواء لا ينتظر من قديس تقي
مثل ارسينوس ان يخاطبها او ينظر الى وجهها

وقد كان في طوق البطريرك ثوفيلس ان يحتمل الكبرياء والغطرسة
اللتين شبت عليهما جماعة الرهبان لما جهلهم فكان مما لا يطاق ولا
يحسن السكوت عليه لما فيه من الخطر وسوء المصير يدلك على ذلك انه
في سنة ٣٩٩ لما اصدر البطريرك رسالة الفصح السنوية اغتاظ اولئك
الرهبان الجهلاء من عبارة بسيطة وردت فيه وكان سبب غيظهم سوء فهمهم
وقصر ادراكهم مع سفالة في الطباع وانحطاط في الاخلاق . اما تلك
العبارة فهي قوله ان الله روح لا يدركه الفهم وليس هو بمجرد انسان
عظيم الشأن بجزاء ويحد ويحصر كما هو شأن الآدميين

فلما قرأ اولئك العميان هذه الرسالة حنقوا وهاجوا هياجاً غير
منتظر وقام جيش جرار منهم ترك وادي النطرون وسار في عرض
الصحراء الى ان وصل الدار التي يقيم فيها البطريرك فاحتشدوا حولها
كالنمل واخذوا يصيحون ويتوعدون ويتهددون البطريرك بالموت العاجل
ان لم يسحب كلامه ويعدل عن رأيه المذكور قبل

فاحتار ثوفيلس واضطرب اذا رأى نفسه وحيداً لا سند له يدافع
عنه ضد هؤلاء الناقمين الذين كانوا يموجون كالبحر الزاخر ويرغون

ويزبدون كانهم جيش عرمرم ملّ من طول الانتظار وطلب الكفاح
والقتال فلم يجد هذا البطريرك الضعيف حيلة سوى ان يتملقهم فناداهم قائلا
« اني اذا رأيت وجوهكم اشعر كانني نظرت الله وجهاً لوجه لانكم
على صورته ومثاله » ولكن هذا التملق لم يكن ليسكتهم او يوقفهم عند
حدهم بل صاح بعض الزعانف منهم طالبين من البطريرك ان يحرم
اوريجانوس وشيعه لانهم اعتبروا ان البدعة التي ذكرها البطريرك في
رسالته حسب زعمهم قد اقتبسها من اراء اوريجانوس وافكاره فلم يرضوا
الانصراف من امام البطريركية الا بعد ان وعدهم البطريرك باجابة ملتمسهم
بحرمان اوريجانوس اما الاخوة الطويلو القامة فانفوا من تصرفات
هذا البطريرك وازدروا بهذا التملق فعادوا راجعين الى وادي النطرون
دون ان يقابلوه ولكن الخلاف لم يمض ولم ينته امره فاضطر ثوفيلس
ان يصالح هؤلاء الرهبان المتحفزين للثورة بل يخشى انه استخدم بعضهم
في المصالح الكنائسية خوفاً من قوتهم واتقاء لبطشهم وعنفهم (١)
وكان ايسيدورس امين صندوق كنائس الاسكندرية صديقاً حميما

(١) ان جميع الرهبان لم يؤولوا رسالة البطريرك ولم يفهموها بالمعنى الذي فهمها
به اولئك البلداء . فان راهباً من اكثر الرهبان جهلاً كان يعبد الله كأنه انسان
محصور اللفظ وكان هذا الراهب واسمه سيرابيون قد بلغ من الكبر عتياً فكان مبجلا
معظماً في دير برية شيهات . وقد ظل على اعتقاده هذا مدة من الزمن الى ان
وقعت بينه وبين رئيس الدير وشماس كبدوي عالم مباحثة وجدال اقتنع منهما
بخطائه في فهم الكتاب المقدس واخذه بمعناه الحرفي بل يجب تفسيره روحياً لان
الحرف يقتل اما الروح فيحيي

ثوفيلس ودامت الصداقة بينهما مدة من السنين ولكن الحال تغير لاسباب، واستحالت الصداقة عداوة واستحكم الخلاف بين الاثنين ٠ ولما كان ايسودورس منحازاً لمذهب القائلين بالوهية الله وروحانيته اتخذ ثوفيلس هذا الاعتقاد واسطة للايقاع به بان حازب اولئك الرهبان الكافرين الذين كان ينفر منهم ومن معتقدهم قبلا وحرضهم ضد ايسودورس ٠ وقد ذكر بعضهم اسباب كثيرة قالوا انها كانت منشاء لهذا الخلاف الشديد ولكن الذي يقرب من الذهن ان سببه مسائل مالية تختص بالدراهم التي هي علة كل شقاق وسبب جميع البلايا في هذا العالم

اما فيما يختص بمال الكنائس فكانت العادة ان جميع العطايا والهدايا التي يهبها جماعة المؤمنين لكنيسة الاسكندرية تبقى في حوزة البطريرك وتحت تصرفه واما في الابروشيات الاخرى فكان الاساقفة يتصرفون في نقود الكنائس بالاتفاق مع لجان تعين لهذا الغرض ٠ وقد امتاز ثوفيلس عن باقي البطاركة بميله الشديد الى انشاء الابنية وتشييد الكنائس حتى انه كان يصرف اكثر الايراد الذي يجمعه في بناء كنائس فاخرة وتزويقها، وحدث ان سيدة اسكندرية موسرة تبرعت بصرف الف قطعة من الذهب في شراء ملابس للنساء الفقيرات ولكنها خافت ان يسمع البطريرك بخبرها فيأخذ منها المال ويبني به كنيسة بدل الملابس ولذلك عمدت الى امين الصندوق واسرت له الامر وجعلته يقسم لها ايماناً مغلظة بان يؤدي لها هذا الامر سراً وان لا يقول للبطريرك شيئاً عن هذا المال ولكن الخبر

لم يظل مكتوماً فان بعض النمامين اخبروا البطريرك به فلم يقبل كلمة في الدفاع، الامر تدل على تغيظه ولكن عند ما بدأ الخلاف بينه وبين ايسودورس انتهز هذه الفرصة واتهم هذا الرجل باهماله في وظيفته وعدم مقدرته على القيام بها وقال بعضهم بل انه رماه بتهمات قديمة لا اساس لها ولم يثبت منها واحدة ضده

اما فيما يختص بامر الملابس فان ايسودورس دافع عن نفسه فيها دفاعاً متيناً وقال للبطريرك كلاماً قاسياً مؤداه انه خير ان يصرف المال في شفاء المرضى وكساء الاجسام العارية التي تعتبر هيكلا لله بدلا من بناء حيطان وجدران لا تدعو الضرورة الشديدة اليها

وقد سبق معنا القول ان ثوفيلس اضطر ان ينحاز لجماعة الرهبان الذين يخالفون مبداء اوريجانوس الصحيح او هم الذين يضادون الاعتقاد بالوهية الاله ٠ وحدث انه في اوائل السنة التالية شكل هذا البطريرك مجمعاً شجب فيه مبداء اوريجانوس وسفه تعاليمه (١) وكان ذلك اتماماً لوعد منه لاولئك الرهبان الاغبياء ٠ ولم يكتف البطريرك بذلك بل انه في رسالة الفصح لسنة ٤٠١ كتب ضد اوريجانوس كلاماً مؤلماً وذكر عنه غلطات وهفوات لم تعرف عن هذا الرجل النابغة ولم يكن لها وجود الا في مخيلة ثيوفيلس

(١) ان اناسيوس بابا رومية اصدر ايضاً حرماناً ضد اوريجانوس في الوقت الذي حرمه فيه ثوفيلس ولكنه اعترف فيما بعد انه لم يكن يعرف شيئاً عن اوريجانوس او ما هي التعاليم التي فاه بها هذا الفاضل

واخيراً حكم عليه بانه هرطوقي مبتدع . ولما استفحل الخلاف بين البطريرك
وايسودورس في السنة عينها اضطر هذا ان يهرب ويقيم في دير وادي
النطرون مع جماعة الرهبان الموجودين فيه فلم يكن من ثوفيلس الا ان اصدر
امره الى اساقفة الابروشيات ورؤساء الاديرة بنفي جميع الرهبان الذين
يذهبون مذهب اوريجانوس او يقولون بقوله فلم يسكت امونيوس اكبر
الاخوة الطويلي القامة بل جاء الى الاسكندرية يرأس وفداً من الرهبان
ليحتج ضد البطريرك على عمله هذا وليعترض على اعتباره اياهم مبتدعين
لانهم رفضوا قبول فهم الكتاب المقدس فهماً حرفياً ناقصاً كما قبله جماعة
الرهبان الاغبياء الجاهلين . ولما كان ثوفيلس يهاب سطوة هؤلاء المتغطرسين
ويميل الى مذهبهم ولو ضد ضميره خاف شر الحرافيش والاوباش منهم واضطر
ان يمالئ الجهلاء ضد هذا الوفد الذي كان رائده الاعتدال وقائده الحجة
القوية والبرهان الصحيح ولذلك سار معهم ثوفيلس سير المتعسف الغشوم
حتى قيل عنه انه لطم امونيوس على فمه ودعاه مبتدعاً لانه رفض ان يحرم
اوريجانوس ويسفهه . ومن غريب الامور ان خمسة من رهبان دير النطرون
الذين لا هم في العير ولا في النفير لجهلهم وغباوتهم ارادوا ان يصلحوا ذات
البين بينهم وبين البطريرك فطلبوا منه ان يصرح لهم بابتداع تهمات كاذبة
ضد ثلاثة من مشاهير الرهبان وعظمائهم فاجاب طلبهم وكانت النتيجة ان
البطريرك حكم على هؤلاء الاكابر بالحرمان

اما الوفد الذي جاء مع امونيوس فعاد قافلاً الى وادي النطرون

بنفس كسيرة وقلب حزين ورضي اعضاؤه من الغنيمة بالاياب ولكن ثوفيلس
لم يرض بل صار يسعى لاقلاق بالهم وتعب سرهم . ولم يبق ريب لدى هذا
البطريرك في ان ازدياد الرهبان وتكاثر جموعهم واتساع دائرة سطوتهم
ونفوذهم كانت من اشد الامور خطراً على مصر ومن فيها وهذا امر ثابت
مؤكد لا مشاحة فيه ولا اعتراض عليه . ولكن هذا البطريرك لم يتخذ
طريقة لقطع شأفة هذا الداء ولم يأت عملا يبرره في اعين الناقدين بل
سار سيراً يوجب الاسف كل مدة رئاسته المشؤمة

وقد انقضى زمن الخلاف والشقاق وعاد رهبان دير وادي
النطرون الى اعمالهم اليدوية الدنيوية وصاروا يجدون خلف الكسب
وجمع المال . وقد كان بينهم الحائك والنساج وصانع الحلويات والطبيب
وطالب العلم وكل أرباب الحرف والصنائع . وبقوا ساكتين ساكنين
يصلون في كنيسة لهم كبرى تحيط بها ثلاث نخلات وكفوا عن الشقاق
والخصام ولكن ثوفيلس لم يرق له هذا السكون فطلب من الوالي
الروماني ان يمده بقوة عسكرية يهاجم بها جماعة الرهبان الآمنين فسار
الى ديرهم تحت جنح ليل بهيم فاقلق بالهم وحرك ساكنهم عند ما سمعوا
سنابك الخيول التي يمتطيها الجيش الروماني ترن في الفضاء فيسمع لها
دوي يوقع الرعب في القلوب

فهاج الرهبان وذعروا لما بلغهم ان بطريركهم جاء ومعه جيش
مزبد لكي يلقي القبض على اتباع اوريجانوس ومريديه وساد القلق

والخوف في نواحي الدير وذعر كل واحد فيه وهرع ثلاثة من أولئك الاخوة المعروفين الى الاختباء في بئر عميقة وذهب رابعهم ديسغورس وكمن في ركن من اركان الكنيسة ولكنه لم يلبث ان عرف مكانه جماعة من الحبشان المرافقين للبطريرك كانوا يتمايلون ثملين من بنت الدنان فاخرجوه من كمينه بقوة وعنف . اما العساكر فظنوا ان هذا الدير انما هو مدينة محصنة يجب أخذها قسراً واقتداراً وذلك رغماً عن طلب ثوفيلس لهم ان لا يفعلوا ذلك ولكنهم لم يذعنوا لقوله بل مالوا على الصوامع فنهبوها واضرموا فيها النيران ومات راهب حرقاً داخلها كما اثبت ذلك شهود عدول

فلما لاح الفجر وبدت تباشير الصباح كفّ العساكر عن عملهم القاسي خصوصاً لالحاح ثوفيلس عليهم بذلك ولانهم ممتعنين لا بد من مقاومتهم مقاومة لا تخلو من الخطر فلذلك اضطر الجنود ان يقفوا جانباً بعد ان ردوا سيوفهم في اغمادها ثم دعى ثوفيلس جماعة من الرهبان ليعقد منهم جمعية يطرح عليها كلامه وافكاره بسلام ووئام بدلا من الحرب والخصام ثم قرأ على مسامعهم بعض نبذات مما كتبه اوريجانوس والغازه الغامضة — وهي لا علاقة لها بايمان الرجل ولا تدل على مقدار اعتقاده — ثم استنتج منها ما توهمه فيها من البدع التي ودّ ان يقتنع الرهبان بصحة نسبتها وحينئذ خاطبهم قائلا :- « فلهذا السبب حكم على حلفاء اوريجانوس واتباعه بالحرمان فلم يرضخوا لهذا الحكم

بل وضعوا يدهم عنوة على كنيسة دير وادي النطرون وقفلوها في وجوه الاساقفة ورؤساء الاديرة وصاروا يمسكون في أيديهم النبابيت مغطاة بسعف النخل لكي يفاجئوا كل من يقف في طريقهم فاضطر الرأي العام الارثوذكسي الى وضع حد لهذه القلاقل وتم الامر الآن على ما نريد ونشتهي

أما الاربعة الاخوة الذين اختبأوا في الدير فلم يمكثوا فيه طويلا بل ساروا الى فلسطين حيث قضوا بعض ايامهم يسكنون آمنين في سفح جبل جلبوع وهم يمارسون عمل الاقفاص من جريد النخل وهي صناعة تعلموها في مصر وتبعهم كثيرون من الفارين حتى زاد عديدهم زيادة تستدعي الالتفات وكان جماعة المسيحيين في فلسطين يرمقونهم بعين الاحتقار والفتور لعلمهم أن بطريركهم حرمهم ونفاهم ولكن بعض الاساقفة اظهر نحوهم حناناً واشفاقاً فعنّفهم البطريرك ووبخهم ورجاهم بان لا يعودوا ويمتزجوا بهؤلاء الرهبان لئلا يعد عملهم هذا مسبة ويحسب ذنباً واهانة في عرف جماعة الجهلاء. ولما ضاق الحال على هؤلاء الرهبان المنفيين ـ وكان عددهم قد بلغ الخمسين ـ رفعوا دعواهم الى يوحنا بطريرك القسطنطينية

وفي أواخر سنة ٤٠١ مثل امام بطريرك اسطمبول أولئك الرهبان الهرمين الذين اضناهم طول السفر وأضر عظمهم البلاء المر فلما رآهم هذا

البطريرك فاضت عيناه بالدموع الغزيرة رثاء لحالهم وتوجعاً لمصابهم وسألهم ان ماذا افعل لكم وأي طريقة تخفف ويلاتكم . فطلبوا منه أن ينصفهم من بطريركهم الذي جار عليهم واعتدى وهضم حقوقهم دون ان يخشى ربه أو يخاف لوم اللائمين ثم وقف كليم فصيح من بينهم وخاطب البطريرك بصوت جهوري قائلا : ـ

(اذا كنت تراعي خاطره ولا تعمل على تنفيث كربنا فنضطر حينئذ الى رفع دعوانا الى الامبراطور نفسه وكل الذي نطلبه منك أن تسترضي ثوفيلس حتى يسمح لنا باستيطان وطننا ومسقط رأسنا فاننا لم نجن ذنباً ضده ولم نرتكب امراً يستمطر غضب الله علينا)

فوعدهم البطريرك يوحنا خيراً واخبرهم انه سيبذل جهده في مساعدتهم على شرط ان لا يقدموا مسألتهم أمام السلطة المدنية ولا ان يحدثوا هياجاً واضطراباً في المدينة ثم ختم كلامه لهم بقوله (حيث اني كتبت لاخي ثوفيلس في هذا الصدد فعليكم بالصبر حتى يجيء رد الجواب) وقد اظهر لهم كل لطف وايناس واسكنهم في مخادع كنيسة القيامة وكان في ذلك الوقت يبحث في هذا الامر مع جماعة من اكليروس الاسكندرية كانوا ارسلوا الي ديوان الامبراطور لاشغال تختص بوظيفتهم وصار يستشيرهم في الامر . فقالوا له ان رهبان دير وادي النطرون تحملوا الهوان في المعاملة التي عوملوا بها ولكن هؤلاء القسوس ارتأوا ان رفع

هذه الدعوى الى بطريرك القسطنطينية لا ينتج نتيجة حسنة ولا يأتي بفائدة ثم طلبوا من هذا البطريرك ان لا يتسرع في قبول هؤلاء الرهبان على مائدة العشاء الرباني لئلا يكدر خاطر بابا الاسكندرية بعمله هذا ولكنه اذا رغب في اظهار الشفقة والحنو لهم فليظهرها بطرق أخرى غير طريقة المناولة

فقبل بطريرك القسطنطينية نصيحتهم وكتب الى ثوفيلس يرجوه ايجاد وسائل السلام والسكينة ولكن ثوفيلس لما بلغه ان هؤلاء الاخوة ساروا الى القسطنطينية ارسل الى بطريركها مكاتيب اللوم والتعنيف التي كتبها الى اساقفة فلسطين قبل حين طلب منهم عدم الاختلاط مع هؤلاء الرهبان ولكنه لم يكتف بذلك هذه المرة بل اتهمهم بتهمة جديدة هي انهم ليسوا فقط اهل بدعة وشقاق بل هم سحرة يخاطبون الجن ويلتصقون بجماعة العفاريت (١) فهاجت هذه التهمة الشنيعة سخط عامة اهل القسطنطينية ضد هؤلاء الاخوة المساكين حتى كانوا يزجرونهم ويهزأون

(١) لا شك في ان القلب الذي ابتدع هذه التهمة ضد اولئك الرهبان كله حقد وغل لانها صادفت ارضاً ذات زرع في مصر التي نشأ فيها الجهل بسرعة غريبة بدل ذلك العلم الذى فاقت به الامصار الاخرى في قديم الازمان ووصلت الغباوة في هذه البلاد الى درجة كان فيها كل عالم يمارس العلم ويبحث في فنونه يتهم بالسحر والتنجيم والعيافة والقيافة وفي اشكال الخرافات الاخرى وهكذا كان العلم في جميع أنحاء المملكة الرومانية يعد خرافة وجهلا

بهم على قارعة الطريق تحزن اكثر الرهبان لاتهامهم بهذه التهمة التي يعرفون انها سيئة النتائج فلذلك انفذوا الوسطاء والشفعاء الى ثوفيلس يرجونه صفحاً ومغفرة ولكن الاربعة الاخوة واصدقائهم الاخصاء نظروا الى هذه التهمة بعين الازدراء والاحتقار ولم يعبأوا بها قط بل أعدوا تهمة قانونية ضد بطريركهم ورفعوها لبطريرك القسطنطينية

فكتب هذا البطريرك الى ثوفيلس مرة أخرى واظهر له اسفه الشديد من ان خصومه جروا معه على الخطة التي سار هو عليها معهم ثم قال انه حرضهم على ترك القسطنطينية فلم يفلح . فاجابه ثوفيلس جواباً مملوءاً من الغضب والحنق وقال :

(اذا كنت لم تقف على مضمون الدستور الذي وضعه المجمع النيقاوي القاضي بعدم تداخل اسقف أو بطريرك في المسائل التي لا تنحصر ضمن دائرة سلطته فارجوك أن تطلع على هذا القانون وتدرسه حتى تريح نفسك من التعرض لي وتكف عن الصدام والجدال معي . أما اذا قضى الزمان عليَّ بالمحاكمة فسوف يحاكمني اساقفة مصريون لا انت ولا غيرك ممن هم بعيدون عنا يقتضي لوصولنا اليهم أو لوصولهم الينا سفر ٧٥ يوماً كاملة)

فقرأ يوحنا كريسوستم هذا الجواب بالرضى والاذعان واخذ يسعى جهده في اقناع الاخوة الطوبلي القامة واصدقائهم على فض هذا المشكل

بالحسنى وابطال رفع الدعاوي التي تولد الحقد والغل ولكن هؤلاء لم يرضخوا بل استأنفوا قضيتهم الى الامبراطورة ايدوكسيا وتوسلوا اليها ان تأمر بسماع دعواهم قانونياً . وكان لهذه الامبراطورة تأثير يذكر على قلب زوجها فحملته على اصدار امره باستدعاء ثوفيلس الى القسطنطينية حتى يمكن للبطريرك كريسوستم ان يفحص المسألة بنفسه ويبت فيها حكماً قاطعاً . ومعلوم ان هذا العمل يعد اجحافاً بحقوق ثوفيلس وهضماً لسلطته لانه بصفته بابا الاسكندرية كان مساوياً في القوة والعظمة للامبراطور اركاديوس نفسه وله في مصر ما لهذا الامبراطور من النفوذ والسلطة لان الامة المصرية كانت تعتبر بطريركها اعتبارها للملك المتوج بل لم تكن هذه الامة تهتم كثيراً بامر اولئك الاباطرة لبعدهم عنها . فلما صدر الامر لثوفيلس بالذهاب الى الاسكندرية لم يرفض الطلب رفضاً باتاً كما انه لم يذهب بل تأخر مدة من الزمن الى ان رفعت الدعوى ضده غيابياً وافتتحت بفحص الشكاوى الموجهة نحو رهبان وادي النطرون فاتضح عدم صحتها ومن ثم حكم المجمع بسجن الخمسة رهبان الذين انفذهم ثوفيلس ليشتكوا ضد رهبان وادي النطرون وظلوا في السجن الى ان توفى بعضهم وكان ثوفيلس في هذه الاثناء قد ارسل مكتوباً الى ابيفانيوس اسقف سلاميس يرجوه فيه الذهاب الى القسطنطينية وعرض قرار المجمع الاقليمي الخاص بحرم اوريجانوس والحكم عليه كهرطوقي على كريسوستم ليصدق

عليه وبهره بحججه ولكن هذا البطريرك رفض ذلك قائلاً ان هذه المسألة تحت نظر مجمع عام فهو يحكم فيها حسب القانون

وفي سنة ٤٠٣ سافر البطريرك ثوفيلس قاصداً القسطنطينية واشاع قبل سفره انه ذاهب اليها ليخلع يوحنا (١) بطريركها من وظيفته قصاصاً له على اعماله التي اتاها ضده . فسار البطريرك المصري الى عاصمة المملكة في ابهة السلطان تحف به حاشية من اساقفة مصر والحبشة وتحيط به زمرة من الكهنة والقسوس كما لو كان من الملوك والسلاطين فالقت سفينته مرساها في مياه البوسفور التي كانت تنعكس اشعة شمس شهر يونيو على مياهه فيخالها الرائي لجيناً أو عسجداً فحياه بحارة المراكب المصرية التي كانت راسية هنالك حاملة ضريبة الحنطة وادوا له واجبات التعظيم والتبجيل وهم يفرحون ويطربون ولكن قسوس القسطنطينية لم يفدوا لاستقباله او الاحتفاء بقدومه فلذلك لم يرغب في الاقامة بالقسطنطينية بل قصد خلكدونية ومكث بها حيث لاقاه سيرينوس اسقفها المصري الجنس بكل اكرام وتعظيم واحسن وفادته . فلما استقر به

(١) ان كلمة « كريسوستم » هي لقب اطلق على بطاركة القسطنطينية ومعناها « فم الذهب » او « ذهبي الفم » . وكثيرون من القراء يعرفون يوحنا فم الذهب الاسكندري المصري الذي اشتهر بزلاقة لسانه وطلاقة بيانه واصله فيلسوف وثني مشهور بين كبار العلماء في ذلك العصر

المقام ارسل يستدعي كريسوستم بانفة وعزة نفس يعز نظيرها وطلب منه الحضور امام المجمع ليدفع عن نفسه تهمات طويلة عريضة اتهمه بها اعداؤه وسعوا في اثباتها ضده وكانت اكثرها عديمة الاهمية لامعنى لها بل قصدوا بها ازعاج خاطره ووسوسة عقله ولكن ثوفيلس اختار تهمتين من هاته التهم الكثيرة ورتبها ترتيباً يعسر نقضها ولا يسهل دحضها أولاهما اتهام كريسوستم هذا بتلقيبه الامبراطورة بلقب « ايزابل » (هي امرأة اخاب ملك اسرائيل الشريرة) والثانية انه تكلم ضدها كلاماً غير لائق يدل على احتقاره لها . فلم ينكر هذا البطريرك بانه دعى هذه الامبراطورة باسم ايزابل في عظة القاها على ملاء من الناس . ثم أتهم بتهمة أخرى لها مسحة من الحقيقة هي انه عمل على هضم سلطة بعض الاراخنة وتحريض الآخرين على عصيان رؤسائهم الروحيين وكان يقصد ثوفيلس بذلك مسألة رهبان وادي النطرون ومن معهم التي كادت تصبح نسياً منسياً وتطرح في زوايا الاهمال لولا ان حرك ساكنها هذا البطريرك الاسكندري وطلب شهود الاثبات ولكن احد الشهود وهو ديسقورس كان قد انتقل الى رحمة مولاه ولم يبق سوى امونيوس اخيه الذي جيء به الى خلكدونية وهو يحتضر فلما رآه ثوفيلس في حالة الموت ذرفت عيناه دمعاً مدراراً من شدة التأثر وهكذا تم الصلح بين خصمين لدودين في اقل من لمح البصر بدون وساطة ولا شفاعة سوى وقع العين

على العين وايجاد التأثير في قلبين يقبلانه حالاً قبول الارض الجدباء للماء القراح . وفي هذه الاثناء ارسلت الامبراطورة خطاباً صادراً من ديوان الامبراطور الى مجمع خلكدونية لجلسته الثانية عشرة وفيه تحتيم على المجمع باصدار حكمه في مسألة كريسوستم بغاية ما يمكن من السرعة والذي دفعها الى ذلك حنقها على هذا البطريرك وتغيظها منه لانه شتمها واهانها

وعلى ذلك حكم المجمع بخلع كريسوستم من وظيفته ثم صدر أمر الامبراطور بنفيه حالاً خارج القسطنطينية ولكن ثوفيلس فعل كل هذا وهو لا يعرف مقدار تأثير البطريرك المذكور في الرأي العام الروماني وعلو منزلته عند شعبه حتى انه بعد مضي ثلاثة ايام على حكم نفيه كان من الصعب القاء القبض عليه لان جمهوراً غفيراً من رعيته التأموا حول سكنه وأخذوا على انفسهم حراسته وحمايته فكانوا يتناوبون المدافعة عنه بطريقة منظمة كانهم حرس عسكري حتى صار القاء القبض عليه مما يحدث في المدينة حرباً اهلية لا تحمد نتيجتها بل ان هذه الحرب كانت على الابواب وأوشك لهيبها يندلع لولا ان كريسوستم نفسه كان يرقى منبر الوعظ كل آونة واخرى ويفوه بنصائح وانذارات لشعبه يحرضهم فيها على الميل للسلام . وكان في منتصف اليوم الثالث في وقت القيلولة عندما ذهب حارسوه للراحة أن كريسوستم انسل من باب خصوصي دون

أن يشعر به احد وسار الى موظفي الحكومة وسلم نفسه لهم بكل رضى وسكوت فاخذوه حينئذ الى سفينة وارسلوه الى بيت غنيا

فخلا الجو لثوفيلس ودخل المدينة في اليوم التالي لسفر كريسوستم باحتفال حفيل وتوجه تواً الى الكنيسة الكبرى لكي يسيم خلفاً لكريسوستم ولكن لما وقف الواعظ من قبل ثوفيلس واخذ يطعن في كريسوستم بكلام مر قارص هاج الشعب هياجاً لا تدرك نتيجته فصاروا يصيحون ويضجون حتى اهتزت الكنيسة وارتجت وكادت تندك من اساساتها ولولا ان قوة عسكرية جاءت فطردت الهائجين خارجها بالعصي والمعاول . وكانت الشوارع قد امتلأت بجمهور من الاوباش الثائرين وهم يملأون الفضاء بصياحهم طالبين ارجاع بطريركهم لهم وكادوا يهجمون على ثوفيلس ويأخذونه غيلة مع تعضيد الامبراطورة له لولا ان حدثت زلزلة في الهزيع الاول من الليل فهزت المدينة ورجتها حتى ان الامبراطورة قامت مذعورة من نومها وسارت مسرعة الى مخدع زوجها ورجته ان يعيد كريسوستم الى وظيفته ما دام ان السموات غضبت لاجله وكادت تصب غضبها على الارض حزناً عليه فلم يسع الامبراطور اركاديوس الا اجابة هذا الطلب ولما عرف ثوفيلس ما تم وخاف قيام جميع الشعب ضده برح القسطنطينية حالاً وعاد راجعاً الى الاسكندرية . وللحال انعقد مجمع من نحو ستين اسقفاً ألغى كل اجرآت المجمع السابق وقرر ان كريسوستم لا يزال

بطريركا للقسطنطينية . أما ثوفيلس فكتب خطاباً الى بابا رومية يخبره فيه انه جرد كريسوستم من وظيفته فرد عليه هذا البابا يسأله اسباب هذا التجريد ثم قال له انه لا يزال على تمام الصداقة والاخاء معه ومع كريسوستم ايضاً

أما بابا الاسكندرية ثوفيلس فلم يكف عن اسباب الخصام والنزاع ولم ينتأ يناصب كريسوستم العداء فاوفد وفداً من قبله الى القسطنطينية ولم يذهب هو بنفسه معتذراً بكثرة اشغاله ووفرة الواجبات الضرورية المحتم عليه أداؤها لرعيته فناب هذا الوفد منابه في التدابير التي افضت الى طرد كريسوستم طرداً نهائياً من ابروشيته بامر استصدروه من الامبراطور والامبراطورة معاً . ولتنفيذ هذا الامر ارسل خصومه كوكبة من الفرسان هاجمت الكنيسة بينما كان البطريرك يؤدي خدمة عيد الفصح وقيل انه كان يوجد في هذه الكنيسة اكثر من ٣٠٠٠ نفس طالبين العماد فطردهم العساكر من المعمودية باسنة الرماح ثم دفعوا كل الشعب خارج الكنيسة بالقوة . فتقدم جماعة من القسوس الاشداء وجمعوا طالبي العماد من الشوارع واخذوهم الى حمامات قسطنطين وقرأوا على الماء التي في هذه الحمامات وباركوها ثم عمدوا القوم بكل نظام تام وسرعة زائدة ولم يكد يتم عماد الجميع حتى سمع العساكر بذلك فهجموا على القسوس وطردوهم من هناك ايضاً . واخيراً صدر الحكم النهائي

بنفي كريسوستم وذلك في يونيو سنة ٤٠٤ وظل في منفاه الى ان توفي في خريف سنة ٤٠٧

الفصل الحادي والعشرون

﴿ سينيثيوس القوريني ﴾

ولد سنة ٣٦٥ للمسيح و١٨ للشهداء

في آخر رئاسة ثوفيلس حدث بينه وبين سينيثيوس القوريني صداقة وولاء. وكان الاخير رجلا مشهوراً بالعلمية والفضل وله رابطة مع حوادث تالية ستعرفها فيما يلي :

ولد هذا العالم في مدينة قورينة سنة ٣٦٥ من عائلة يونانية قديمة استوطنت هذه المدينة في الايام السابقة وكانت لعائلته هذه أملاك واسعة وعقارات كثيرة في مقاطعة بنتابوليس . وكان قد صرف بعض سني شبابه في الجيش ولكنه استعفى من منصبه وهو بعد شاب وعكف على درس الفلسفة والتبحر فيها

وكان الدهر قد عبث بمدرسة قورينة الشهيرة وأودى بها فسار سينيثيوس الى الاسكندرية ليتلقى العلوم فيها مثل غيره من الطلاب الذين كانوا يؤمون المدارس الوثنية التي كانت في ذلك العهد قد انحطت ودخلت في دور التقهقر . وكانت هيباشا الشهيرة قد بدأت تلقي الدروس

على التلامذة الذين بينهم سينيثوس وكان وجهها يطفح بالجمال وعقلها يفيض علما ومعرفة ففعلت مواهبها هذه في قلب سينيثوس الجندي الباسل فصار عبداً مطيعاً لها وبعد اعتناقه الديانة المسيحية اصبح صديقها المخلص لولائها المعجب بخصالها وفعالها . ولم تكن هيباشا الى ذلك الحين قد حازت المعرفة التامة فيما يختص بمبادىء الفلسفة الوثنية ولم تكن قد استوعبت العلوم المصرية الرفيعة بكل اجزائها ولكنها جدت فيها بجد واجتهدت حتى تضلعت في هذه المعارف واستعملتها لاصلاح الفساد السريع الذي سرى في الديانة المسيحية بالاسكندرية كما أسلفنا . فلما رأى سينيثوس أن معلمته ليس في وسعها تثقيف عقله كما ينبغي جنح قلبه الى مدارس اثينا عاصمة اليونان والتردد عليها خصوصاً وانه كان يحن الى زيارة وطنه ومنبت اثلته حنين من تشبعت نفسه بحب الوطن وما فيه . فارسل اليه صديق من اصدقائه جواب توبيخ يعنفه فيه على تركه الاسكندرية وذهابه الى اثينا وتعلقه بمبادئها وديانتها فرد عليه سينيثوس رداً جميلا هاك مغزاه : —

(انني بذهابي الى اثينا سأتحصل على الاقل على شيء واحد مفيد هو انني لا أعود انظر نظرة الاحترام والاجلال الى اولئك الاشخاص الذين مع انهم لم يفوقونا في معرفة فلسفة افلاطون وارسطوطاليس ولكنهم يعدون انفسهم في مصاف الالهة ويعدوننا نحن حيوانات صماء

بكماً لانهم حضروا الجمعية العلمية مرة وشاهدوا دار الفنون والمعارف باعينهم فقط فلذلك يحتقروننا ويزدرون بنا لاننا لم ننظر هذه الآثار ولم نحضر جلسات الجمعيات العلمية فلذلك دعتني الغيرة وحب المناظرة والمباراة الى مساواتهم في هذا الشأن والسبق عليهم في غيره

اما سينيثوس فلم يطل الاقامة في اثينا بل انكشفت له ابهة هذه المدينة وعظمتها فظهرت امامه بمظهر حقرها في عينيه حتى انه قال عنها انها مثل حيوان مات فسلخوا جلده وملأوه قشاً ونصبوه ليغروا الناس بانه حيوان والحقيقة انه خياله أو مثاله . ولم يبق في اثينا حينئذ من الصنائع المهمة سوى استخراج الشهد من خلايا النحل . قال سينيثوس ان اشهر الاساتذة والمعلمين في اثينا لم يستميلوا تلامذتهم اليهم بواسطة القاء العلوم المفيدة عليهم بل باهدائهم هدايا وافرة من عسل النحل فيغوونهم بهذه الطريقة على مداومة الحضور لمدارسهم

وبعد ان تحصل سينيثوس على شيء كثير من العلوم في الاسكندرية واثينا عاد الى مصر ومكث في بنتابوليس يعمل في املاكه ويدير حركة عقاراته بعقل واسع ومعرفة كاملة . وكان له أخ اسمه افوتيوس أحبه حباً مفرطاً وكان يكاتبه في مدة غيابه بلا انقطاع ولا تزال بعض مكاتيبه موجودة الى الآن وفيها دليل كاف على ان المصريين المتعلمين في أواخر القرن الرابع كانوا يماثلون غيرهم من علماء القرون الوسطى والحديثة كما

ان الفلاح المصري في هاتيك الايام كان عاقلا عارفاً عزيز المادة اكثر من التلميذ المصري في هذه السنين . وهاك جواب ارسله افويتيوس الفلاح الى اخيه سينيثوس بينما كان هذا متغيباً في اثينا مترجم هو وغيره عن الحوابات نفسها بغاية الدقة والوضوح :—

« أخي العزيز

نحن الآن نستيقظ من نوم مبكرين بواسطة صهيل الخيول وخوار الثيران وبعبعة الغنم والمعزى ونلتئم معشر الفلاحين معاً كأننا من عائلة واحدة لا يشوب اجتماعات القوم المتمدنين من التحاسد والتنافر والتباغض بل يساعد الواحد منا رفيقه في كل واجباته واعماله سواء في زرع الاراضي وتفليحها أو في رعي قطعان الغنم واسراب المعز أو في صيد الظباء والايائل التي لا يمكن اقتناصها الا في الارياف ووسيع الخلاء . أما طعامنا فبسيط خفيف هو خبز الشعير نلتذ من اكله ويمرىء جسمنا من غذائه ولا نفرح باطايب الافاويه وتعدد اصناف المآكل على الخوان مما نظن فيها تخمة للمعدة . ولسنا نشرب سوى عصير الشعير الذي نأكله فنسوغه بعد كثرة الشغل فيمتص من اجسامنا الحرارة الشديدة التي نصادفها في أيام الصيف ولا نخشى غيرها من انواع المشروبات المذهبة للعقل المضعفة للبصر المحطة للشرف المخربة للجيب . ولا تظن اننا ناكل الشعير ونشرب عصيره لضيق ذات يدنا أو لاننا محرومون

من المواد الاخرى بل اعلم ان عندنا مقاديراً وافرة من القمح واكداساً مكدسة من الفواكه والاطايب اللذيذة واوعية مفعمة بقطار الشهاد ولبن الاغنام الذي نستدره منها ونأتدم به ولا نحلب الابقار بل نترك لبنها لفصيلها يغتذي به ويقوى . أما احسن أكل تنفتح له الشهية فهو ما نصطاده بايدينا ونتعب بالحصول عليه . ولنا آلات طرب نلتذ لسماعها ونطرب وهي وطنية صرفة عبارة عن قصبة مزمار علاها الصداء لها نغمة خشنة فهي تنفع لان يستعملها احد اساتذتكم كعصا يؤدب بها تلامذة مدرسة افلاطون اذ لا يمكن لكم ان تشجوا من نغماتها ولا يحرك صوتها الاجش احساساتكم التي ترقت كثيراً فصارت لا تطرب من الذي يطرب منه الفلاح الساذج نظيرنا الذي له بعض ادوار بسيطة اختارها ارباب الطرب منا ليسهل لهم التوقيع على آلات بها وهي ادوار ليست على شيء من الرقة ولكنها تختص بمدح الكلاب القوية التي لا تخاف الضباع ولا تخشى الذئاب بل تنقض عليها وتقبض على ارقابها فتقتلها . وكثير من هذه الاغاني ثناء وشكر للنعجة التي تلد توأمين ولاشجار التين التي تحمل ثمراً كثيراً وفيها ايضاً غزل بالخمر وباقي انواع المشروبات والانبذة . واكثر ما يكون من اغنياتنا تسابيح حمد وطلب بركة الله على الانسان والنبات وكل عشب اخضر . أما عن الملك (أي الامبراطور) واصدقائه فليس لنا

شيء نقوله عنه سوى اننا نعرف بوجود ملك حاكم علينا ويذكرنا بوجوده الجباة الذين يجيئون لجمع اموال الخراج ولكننا لا نعرف من هو هذا الملك أو ما هو اسمه حتى ان البعض منا يظنون ان اغاممنون بن اتريوس الذي اشتهر في حروب طروادة لا يزال ملكاً علينا الى الآن والذي حدى بهؤلاء البعض الى هذا الظن هو انهم سمعوا في طفوليتهم انه يوجد ملك اسمه اغاممنون فقالوا انه لا يزال متسلطاً علينا الى الآن والى الابد . ولا يخطرن على بالك ياشقيقي ان هذا ناتج عن جهل منا أو تقصير في معرفة حكامنا بل اننا قوم لا علاقة لنا بهؤلاء الملوك والقياصرة ولا يهمنا من امرهم سوى العدل واجراء الانصاف بين الرعية فليس من الضروري معرفة اسم الملك أو نظر رسمه ما دمنا جماعة سذجاً بسطاء القلوب حتى انك لتعجب جداً اذا قلت لك ان الكثيرين من الفلاحين الذين بلغوا من العمر اشده احياناً ما يسألونني عن المراكب وشكلها والقلوع وكيف توضع عليها وباي كيفية تسير هذه الجواري في المياه السائلة فاشرح لهم ذلك ببيان وايضاح وقد يصدقون ويفهمون ولكنني اذا قلت لهم انه يوجد في البحر حيوانات حية متحركة يأكل منها الانسان ويغتذي فقد لا يصدقون قولي ولا يعقلون كلامي بل يذهبون ان كل ماكل ومشرب لا يأتي الا من الارض التي هي أم كل حي . ولما اتعب نفسي في البرهان على وجود سمك البحر اضطر ان أجيء لهم بجرة فيها

ماء وسمك من ارض مصر وافتحها امامهم لاقنعهم بوجود هذه الاسماك في مياه البحار ولكنهم مع ذلك لا يقتنعون بهذا البرهان بل يقولون انما هذه الاسماك هي حيات واحناش سامة تجنحت بزعانف فصارت تعوم وتسبح وتزلق عظامها لا بد وان تكون ملأى بالسم الزعاف كانياب الافاعي وغريب أن رجلا يعتبر من انبه الفلاحين واعقلهم قال ان لا يسعه التصديق بوجود شيء يصلح للاكل والغذاء في المياه المالحة في الابحر سوى شيء من الضفادع والعلق الذي نجده في انابيب ماء الشرب التي لا يجسر حتى المعتوه على اكلها أو القرب منها »

اما جماعة الفلاحين الذين كانوا يشتغلون في حقول سينيثوس فاكثرهم من العبيد الارقاء ورثهم اباؤه عن اجداده وورثهم هو عن الاباء وهم من ابناء البلاد كانوا يعاملون معاملة طيبة حتى كأنهم اولاد صاحب الارض

وحدث في سنة ٣٩٧ ان الضرورة الجأت سينيثوس للذهاب الى القسطنطينية لعمل هام يتعلق بمدينته وصالح بلاده فمكث في اسطنبول ثلاث سنوات كاملة قبل ان ينظر أحد من رجال البلاط الملوكي اليه أو يهتم باعماله وذلك لكثرة ارتباكات الحكومة وخلل نظامها في هاتيك الايام (وهذه ايضاً) . وكان له صديق اسمه اورليان هو فيلسوف شهير له نفوذ قوي وتداخل متين في شؤون المملكة فساعد سينيثوس في امر خطير هو ان صدر النطق الامبراطوري لسينيثوس هذا بان يلقي خطاباً على مسامع الامبراطور اوكاديوس ورجال حاشيته وكبار عمال دولته

فاصاب هذا الامر مغمزاً في نفس سينيثوس الذي كان متغيظاً جداً من سير الاعمال في حكومة القسطنطينية ومستاء من الخطل الكثير الذي انتاب جسم هذه الحكومة ولذلك اختار موضوع خطابه هذه العبارة « خطارة وظيفة الملك وواجباته نحو رعيته » . واذا صح ما نقله الينا الناقلون عن هذا الخطاب وما فيه من قوارص الكلم فهو يدل على ما كان عند الامبراطور اركاديوس من سموّ المدارك وشرف النفس وحرية الفكر لانه صغى الى هذا الخطاب القاسي بكل اناة ولطف ولم يتململ من سهام الكلام الموجهة اليه كما يفعل غيره من الملوك والاقيال الذين يثقل على صماخ آذانهم قول الحق فلم تظهر عليه بوادر الغضب الكامنة في نفسه ونفس اسلافه من العنصر البيزنطي فسمع قول سينيثوس بكل هدؤ ورصانة حيث قال هذا في عرض خطابه المذكور : —

(اسمع يا جلالة الامبراطور واصغ لاقوالي . أن ترفعك عن مقابلة الناس وظنك ان الاختلاط بالرعية يخفض من مقامك ويجعلك مساوياً لها — ان هذا الفكر اوجد عندك مبداء العزلة والانفراد حتى اصبحت كسجين في قصرك لا تعرف شيئاً مما يجرى في مملكتك ولا تقف على أمر من الامور السائرة في حكومتك التي لو عرفتها لصرت اكثر خبرة واوسع دراية بشؤون دولتك مما انت عليه الآن . بل خالفت القانون الطبيعي ووضعت نصب عينيك الملذات النفسانية والتمتع بكل انواع السرور التي تروق لك بغض النظر عن شعبك ورعيتك فلذلك كانت حياتك

حياة من يعيش ليأكل لا من يأكل ليعيش)

وقد وضع سينيثوس مدة اقامته في القسطنطينية نبذة سياسية تحتوي على افكار عالية ومبادىء قويمة في شكل رواية مصرية بقالب خيالي يختلب الالباب ذكر فيها كيفية الدسائس التي كان يدسها القائد جيناس ضد الامبراطور اورليانوس والمملكة باسرها . ولبراعة سينيثوس ومهارته نال من القسطنطينية المأرب الذي ذهب لقضائه ومكث لاجله فيها كل هذه المدة الطويلة ثم عاد الى بلاده ومسقط رأسه وهو يشكر هذه السوانح التي اوجدت له اصدقاء كثيرين يركن اليهم ويثني على العلم الذي كان سبباً في رفع شأنه وعلو مركزه بين العالمين

ولكن ثغر الزمان لم يدم مفتراً لسينيثوس بل شاب صفو لياليه شائبة كدر لسبب هجوم جماعة البدو الهمج على بلاده وكانوا يفدون اليها من صحراء ليبيا ويجيئون الى مقاطعة بنتابوليس (مديرية الشرقية الآن) ويغزونها حتى صيروها قاعاً صفصفاً . وقد تمادوا في غيهم وعدوانهم كثيراً لعدم وجود جند يصد هجماتهم عن البلاد كما ان معظم سكان هذا الاقليم كانوا من العبيد الذين استرقهم نزلاء اليونان قبلا واستخدموهم للفلاحة كما ذكرنا فلم تبق فيهم قوة أو معرفة بالطرق الحربية ولم يكن سوى جماعة المسيحيين القلائل وقسوسهم الضعفاء الذين اعتقلوا سلاحهم وقاموا يكافحون للدفاع عن حوزة بلادهم بقدر ما يصل اليه جهدهم ولعل هذا هو السبب الاكبر في ميل سينيثوس للديانة المسيحية وحبه لرجالها

المخاصين وهو لم يكن يعرف شيئاً عنها حتى في مدة وجوده بالقسطنطينية وبعد أوبته منها . وقد كتب فيما بعد عن هؤلاء المسيحيين يقول :ـ

« اني ابداء بشكر جماعة القسوس واثني على مروءتهم وشجاعتهم وهم الذين اظهروا من البسالة وقوة البأس ما يحمدون عليه حتى انهم فاقوا الجنود المدربة الذين لما كشر لهم العدو عن ناب الغضب ولوا الادبار ولم يقفوا له في طريق ولكن هؤلاء الكهنة البواسل جمعوا شعبهم وبعد ان صلوا لله طالبين المعونة والنصر قاموا يذبون عن بيضة وطنهم ويدافعون عنه دفاع الاسود الكواسر . ومما يجمل ذكره في هذا المقام ان الاعداء تحصنوا في أخدود (واد ضيق) كثير الادغال والاحراش وساروا نحو البلاد دون أن يقابلهم جند يصد هجماتهم ولكن البطل المقدام فوسطس وهو شماس ذكي الفؤاد اعترضهم في طريقهم وهو أعزل من كل سلاح وهجم على جندي من الاعداء مدجج بمعدات القتال وآلات الفناء فضربه بحجر في رأسه غاص في جبهته فالقاه على الارض صريعاً ونزع عنه سلاحه وتقدم نحو القوم ينازلهم ويكافحهم حتى قتل كثيرين منهم وهكذا كان حال الآخرين من رجال لدين الذين اظهروا شجاعة وبسالة تستحق المكافأة الحسنة بل لو كنت ملكا لوضعت على رأس كل منهم تاجاً من الذهب الابريز ولشرت اسمهم في طول البلاد وعرضها لانهم من الرجال المعدودين الذين ابدوا شهامة ومقدرة يعجز عنها الاولون والآخرون حتى ظن اكثر العارفين ان اعداءنا لم

يكونوا من الغزاة الاقوياء الذين يحاربون ويقاتلون بل هم قوم خطفة سالبين يسهل الانتصار عليهم ورد كيدهم في نحورهم »

ولكن مدافعة عدد قليل اعزل من المسيحيين الاشداء لم تكن تغني فتيلا ضد جماعة من الهمج المتوحشين كثر عديدهم وزادت قوتهم حتى اضروا بالبلاد ضرراً يتضح لك مقداره مما كتبه سينيثوس في هذا الصدد حيث قال :ـ

(لقد لحق بنا هؤلاء العتاة خسارة جسيمة اذ احرقوا الزرع واهلكوا الضرع ونهبوا البلاد وسبوا النساء والاطفال وقتلوا الصغار والرجال ولم يبقوا على احد وكانوا قبلا يتركون الشبان احياء ولكنهم عدلوا عن ذلك لانه لم تكن عندهم جنود تكفي لحراسة الاسلاب والغنائم وخوض معامع القتال . كل هذا ولا تزال بارقة من الامل تضيء أمام قلوبنا حتى صرنا نمكث في منازلنا منتظرين مجيء العساكر المنظمة لانقاذنا من مخالب هذا الموت الزؤام ولكن اتضح لنا بعد ذلك ان هذا الامل يعد ضرباً من الحمق لان النجوم اقرب لنا من قدوم جنودنا ولم يبق علينا سوى ان نعتقل البيض الصفاح ونستعد للحرب والكفاح دفاعاً عن ابنائنا ونسائنا ووطننا العزيز . ولقد كتب هذا الجواب وانا ممتط صهوة جوادي لانني مشغول في مراقبة الجيش الذي جيشته ورتبته من شباننا وشبان جيراننا وصرت الآن اسير على الاعداء والامل رائدي على ان كثيرين من الفتيان سيتبعوني ويتفانون في الذود عن ذمار

الوطن والاهل)

وكانت صعوبة هذا العمل تنطوي تحت عدم وجود الاسلحة خصوصاً وان أخاسينيثوس لما بلغه خبر هذه الحرب كتب لاخيه كتاباً شديد اللهجة يخبره فيه ان عمله هذا عرضه لتهمة خيانة الدولة لتجييشه الجيوش وتعبئة الفيالق في وسط بلاد الحكومة وهو عمل تستأ منه القوة الحاكمة وتخشى عاقبته فرد سينيثوس على اخيه يقول :—

(ان سذاجتك وبساطة قلبك وعدم تبصرك في عواقب الامور اضرت بنا ضرراً عظيما لانك اعقتنا من الحصول على الاسلحة حتى اقترب العدو منا وصار قاب قوسين أو أدنى واخذ ينهب ويسلب ويقتل ويذبح ما دام لا يوجد معنا جيش يدافع عنا ولا سلاح لدينا نصد به هذا المهاجم القوي . فهل يصح لك بعد هذا كله ان تخطئنا وتقول انه لا يجوز لاحد من افراد الرعية حمل الاسلحة النارية وان الحكومة تغضب وتغتاظ من كل شخص يدافع عن نفسه . اتمنى أن أموت يوم ان انظر بلادي تسترد مجدها الطارف وتعيد اليها سطوتها ورونقها . نعم انني اموت يومئذ قرير العين مرتاح البال على وطني الذي اليه احن ونحوه تصبو النفس وتطمح الابصار)

وقد كتب سينيثوس بعد ذلك الى العلامة هيباشا في هذا الصدد يقول:

(اذا صدق قول هوميرس الشاعر — « في الجحيم من يذكرك» على الاخرين فهو لا يصدق عليّ انا الذي ما زلت اذكر العزيزة هيباشا

بين شفرات السيوف وصليل بيض الهند . وانني لاخاف على قلبك ان يتصدع اذا انا ذكرت لك ما اعانيه من حزن يقصم الظهور على بلادي اناخ عليها الدهر بكلكله وما انا فيه من كآبة واسى على رجال كرام يجز العدو رؤوسهم بسيفه الصقيل كما يجز الجزاز صوف الغنم أو كما يجز الجزار رأس الكباش حتى صار الهواء الذي استنشقه ملآناً بالروائح الكريهة المتصاعدة من جثث القتلى واشلاء الموتى ولذلك صرت انتظر الموت لنفسي بين آونة واخرى وأرى كأن هذه الطيور الجوارح التي تحوم في الجو تأكل من جسدي بعد موتي كما هي الآن تمزق اجسام هؤلاء الموتى المساكين وتملأ بطنها بها . كل هذا وانا لا ازال على ما انا عليه من الحب لوطني والميل الى بلاد تضم رفات اجدادي الكرام والنفس في تحن الى ارض يحوي تربها بقايا أولئك الآباء الذين شادوا لنا صروح المجد والفخار فلنبرهن باننا ابناؤهم لا ان نعق جميلهم علينا وعلى هذه البلاد باكملها . فاذا ساعدنا الدهر وفزنا بالنصر اتبعت اميال قلبي من نحوك وتركت هذه البلاد وجئتك يحملني اليك الشوق ويحدوني حادي الود الصحيح والولاء الطاهر . فصبراً)

وكانت النتيجة ان سينيثوس فاز بالنصر الذي كان يرجوه فعاد الاعداء ناكصين على اعقابهم وتمتعت البلاد بالراحة والهناء بعد طول الجهاد والعناء . اما سينيثوس فوفي بوعده مع هيباشا وسار يحث المطايا الى الاسكندرية لزيارة هذه العالمة التي اشتهرت بجمال الوجه وكمال العقل

حدث له في هذه المدينة حادث يستحق الذكر هو ان قلبه وقع في فخاخ الحب لآنسة مسيحية ومال الى الاقتران بها فسعى جهده الى اقناعها بذلك فرضيت وعقد لهما البطريرك ثوفيلس عقد الزواج (مع ان سينيثوس لم يكن قد صار مسيحياً بعد) وكان هذا البطريرك فرحاً بذلك الزواج الذي يقرب هذا النابغة الى الديانة المسيحية ويوجد بينها وبين صديق هيباشا رباطاً متيناً لانه يظهر ان العالمة هيباشا كانت في ذلك الوقت خصماً لدوداً للبابا ثوفيلس كما كانت كذلك مع خلفه كيرلس

ولم يعتنق سينيثوس الديانة المسيحية عند زواجه ولم تخمد نار محبته الطاهرة لمعلمته هيباشا وقد كانت قرينته من صديقات هيباشا المسيحيات وفي الاربع سنوات التي تلت قران سينيثوس أخذت الديانة المسيحية تعمل في قلبه عملها المعروف حتى اعتنقها بسرور وفرح لا يوصفان ولا غرو فان القلب النقي والعقل الذكي يقبلان هذه الديانة الطاهرة باسرع مما تقبل الارض الظمآنة ماء المطر المتأخر

أما زواج سينيثوس فكان في سنة ٤٠٣ ومكث في الاسكندرية سنتين بعد زفافه وضع في اثنائهما مقالة عن الرؤى والاحلام والف أيضاً نبذة أبان فيها ما يعتقده هو في الديانة المسيحية وما يعتقده باقي المسيحيين فيها والسبب هذا الاختلاف بينه وبينهم . وقد جعل سينيثوس اهمية كبرى للرؤى والاحلام وقال ان احلامه التي كان يراها في منامه كانت الرائد الوحيد له في اعماله أما النبذة الثانية فكتبها ليرد بها على

الانتقاد الشديد الذي وجهه ضده فلاسفة الوثنيين ورهبان المسيحيين وليدفع عن نفسه ما رموه به من سفاهة الرأي واعوجاج المبداء في كونه خالف ذلك الفكر الشائع في مصر بخصوص الرهبنة والتبتل حتى ان البعض يذهبون الى ان مبداء الرهبنة وتعميمها في مصر كان السبب الوحيد في تأخير سينيثوس عن اعتناق الديانة المسيحية من زمن مضى . ولما اكمل سينيثوس وضع هذين النبذتين ارسلهما الى العلامة هيباشا لتنتقدهما وتمحصهما فلما وقفت عليهما سرها ما فيهما من غزارة المادة وقوة الحجة ويؤخذ من الملحق الذي صنفه سينيثوس لهاتين النبذتين انه صار مسيحياً في اثناء الثلاث السنوات التي مكثها في وطنه بعد عودته من الاسكندرية ويحتمل ان عماده تم بعد زواجه بنحو خمس سنوات

أما سينيثوس هذا فكان شاعراً بارعاً وناثراً ماهراً ظهرت نفحات تأثير الديانة المسيحية في افكاره فأثرت في شعره ونثره . ولما رجع الى بلاده سنة ٤٠٤ وجد انه قد عادت الى عترها لميس وان جماعة الغزاة المتوحشين عاودوا الهجوم على البلاد لانهم سخروا بحاكمها وهزأوا بضعف رأيه وخوار عزيمته فلم يكن ثمت وقت لسينيثوس يتمتع فيه بالسعادة العائلية أو يغوص بافكاره في لجج العلوم وبحارها فيستخرج منها ما يزري بالدرر الغوال فاعاد الكره على الاعداء حتى في جواباته وخطاباته لاصدقائه في الاسكندرية التي كنت لا تقرأ فيها سوى ذكر بيادر حرقت وقطعان نهبت وقرى سلبت واصبح جميع الناس يستعدون للقتال والنزال . أما

حاكم هذه المقاطعة فترك وظيفته وفر هارباً فرار الجبناء الانذال ففوضت
الحكومة الى سينيثوس امر الدفاع عن بطلومايس عاصمة اقليم بنتابوليس
فقعل في مهمته هذه فعلا يظهر لك مقداره من نصوص المكاتيب الآتية
حيث قال :—

(لما رأى الحاكم ان الخطر يتهدده ازل جميع نقوده وأمواله في
السفينة ثم تبعها هو وأبحر الى حيث يأمن الشر واخذ يصدر لنا الاوامر
تباعاً بواسطة زورق صغير بان نظل مختبئين داخل جدران منازلنا وان
لا نهاجم هذا العدو القوي ولا نعتدي عليه بل يكفي ان نتخذ خطة الدفاع
فقط والا فنحن مسؤولون عما يلحقنا من الضرر وجنابه خال من كل
لوم وتثريب . فكنا نقيم اربعة حراس في الليل يحرسون المدينة وتعلمنا
ان الخطر كل الخطر في غمض الاجفان وملء العيون نعاساً وليعذرني
الاصدقاء في عدم المداومة على ارسال الخطابات اليهم لان وقتي قصير
وهوذا أنا مشتغل الآن في تدبير طريقة اصنع بها منجنيقاً يصب على
الاعداء صيباً من الحجارة ويرمي عليهم ادوات الفناء على مسافة بعيدة

أما الخطة التي سرت عليها في امر الدفاع هذا فهي انني امتطي متن
جوادي في ضحى كل يوم واخرج لاستطلاع طلع هؤلاء اللصوص
الذين لا اسميهم اعداء ولكنني أدعيهم سلبة خاطفين لا يأتون شيئاً سوى
النهب وقتل الضعيف الذي لا سند له ولا عضد . فاذا جن الظلام وارخى
الليل سدوله خرجت في نفر من الشبان الاقوياء ودرنا حول التلال

والكثبان حتى يطمئن بال النساء ويأمن آمنات طوارق الحدثان. وعندي
الآن فرقة من الجند كانوا قبل تعيين حاكمنا الحالي بيادة راكبة
يرمون السهام من فوق ظهور الشهب المطهمة فلما تعين هذا الوالي باع
خيولهم فاصبحوا يؤدون خدماتهم معي ولا جياد معهم ولكنهم يحسنون
رمي السهام التي تفيدنا كثيراً في رد العدو عن المنازل وصده عن النهر
الذي نشرب منه لاننا لا نجد الماء داخل المدينة . ولا يحوجني في هذه
الحالة سوى بعض رجال لهم صفات الرجال الشجعان فبمعونة الله ومساعدة
هؤلاء الابطال اضمن الفوز والنجاح . اما اذا كان نصيبي الموت لاجل وطني
فلا يجب عليّ ان اجزع منه ولا احزن على فناء جسم يقول عنه جماعة
الفلاسفة انه كتلة لحم نتن ان لم يأت بفائدة لبني الانسانية . ولكن لا يلومني
اللوام اذا انا اذرفت الدمع الغزير عندما اتذكر قرينتي وولدي لان
الاحساسات الابوية امر طبيعي لم يخل منه الحيوان فضلا عن الانسان)

كانت النتيجة بعد هذا الجهاد ان مساعي سينيثوس قورنت بالفوز
والنجاح وكللت اعماله باكليل الظفر والفخر الذي يناله كل خادم للانسانية
ساع في صالح ابناء امته من قلب مخلص وضمير طيب وانتهى الامر
بعزل ذلك الحاكم الجبان وتعيين بدله من الرجال الاقوياء القادرين على
صد الغزاة وخفض شوكتهم وكسر قوتهم . وحينئذ صفا الجو لسينيثوس
فعاد الى الفلسفة وابحاثها وانكب ينعب على العلوم ويسعى خلفها بعزمه
الاول وكان الرجل ميالا الى الفلسفة والتفقه فيها اكثر من ميله الى

العلوم الاخرى وهو يضاد في ذلك المبداء الذي سار عليه ناشئة بنتابوليس في ذلك الحين من تفضيلهم العلوم والفنون على الفلسفة وفروعها وهاك ما كتبه سينيثوس في هذا الصدد : —

(اني لااري اثراً للفلسفة في ليبيا باكملها ولا اسمع لها صوتاً سوى صدى صوتي الذي يرن في الآذان فان لم يشهد احد لي بهذه الاسبقية فان الله جل شأنه يعلم اني باريت الاخرين في هذا المجال الفسيح لانه اعطاني عقلا نيراً هو صنع يديه . كذلك النجوم والكواكب تنظر اليّ من فوق مفترة مبتسمة لي لانني اعتني بامرها وارقب حركاتها وارصد دورانها وميلها في فضاء هذا الجو الواسع الذي يبهر الانظار ويحير العقول)

وقد سعى سينيثوس كثيراً في تنظيم رديف عسكري وطني في مقاطعة بنتابوليس ولكنه لم يفلح ولم يقبل أحد رأيه لان سياسة الدولة الرومانية لم تكن لتسمح للمصريين الكارهين سلطتها بالتجند وحمل السلاح . وقد شرع سينيثوس ايضاً في مشروع مفيد هو ان يعهد بتعيين حاكم مقاطعتهم الى والي مصر لا لديوان الامبراطور في القسطنطينية وذلك لانه اتضح له بعد الاختبار الكثير ان تعيين الحاكم من قبل الامبراطور يكون مجلبة للضرر وسببه انه لا يطمع احد بهذا المنصب في بلاد بعيدة محفوفة بالاخطار الدائمة وغزوات القوم المتوحشين سوى رجل يكون غرضه الاول جمع المال والحصول على الثروة في مدة ولايته التي هي عبارة عن التزام أو استئجار هذه الولاية . وقد ضرب سينيثوس

مثلاً هو ان احد حكام بنتابوليس جمع ثروته بطرق دنيئة قبيحة منها انه فتح بيتاً لا ينبغي ذكره لهذا الغرض . وقد كان الناس يرسلون شكاويهم تباعاً الى القسطنطينية ولكن بدون فائدة واحياناً لا تصل هذه الشكاوي الى ولاة الامور لصعوبة المواصلات وبعد المسافة بين هذه المقاطعة وتلك المدينة القاصية مع ان اكثر البيوتات الشهيرة في قضاء بنتابوليس كان لها اقارب واصدقاء في الاسكندرية حيث يسهل التخاطب معهم وايصال طلباتهم اليهم لرفع حيف أو طلب انصاف

ومضى الزمن الطويل ولم يعبأ احد من رجال بطانة الامبراطور بهذه الطلبات العادلة فهاج السكان وماجوا وسعوا في دس الدسائس ضد الدولة فاذعنت هذه الى مطاليبهم واستدعت الحاكم العسكري الذي كان عليهم وعينت بدله حاكما اسوأ منه حالا وارداء خصالا كان مشهوراً في الولاية باكملها بالشر والفساد فحنق جميع افراد الرعية وغضبوا من هذا الظلم الجائر وقاموا كرجل واحد بطريقة لم تكن تنتظر منهم حتى كادوا يشعلون جذوة ثورة في البلاد لا تخمد نارها الا بشق الانفس

ولا يخفى انه منذ ما جلس قسطنطين على العرش الروماني صارت السلطة الرومانية في مصر تنسل شيئاً فشيئاً من يد الامبراطور وعمالئه الى يد البطريرك والاساقفة واصبحت القوة الحقيقية في القطر المصري

في قبضة الاباء الروحيين بدل الولاة الزمنيين (١) وسبب ذلك بغض المصريين للحكم الروماني حتى تطرفوا اخيراً وصاروا لا يخشون سطوة هذه الدولة ولا يهتزون لهيبتها ولا يهتمون لامرها سوى في دفع الضريبة السنوية المفروضة عليهم التي لم يدفعوها الا بعد تعب ومقاومة وتحكم سوط الجباة في اجسادهم كما اشرنا الى ذلك قبلا . فما داموا يدفعون الضريبة ويؤدون جزية الحنطة المفروضة عليهم سنوياً الى القسطنطينية فالديوان الامبراطوري لا يهمه من أمر مصر شيء ولا يعمل على مافيه راحتها وانصافها سوى انه كان يتميز غيظاً وحسداً من ازدياد سلطة بابا الاسكندرية وامتداد نفوذه الادبي والروحي . كذا كان انسلال السطوة من ايدي الحكام الى الاساقفة سارياً في جميع انحاء المملكة على النمط الذي سرى عليه في مصر وذلك لان الوالي من هؤلاء الولاة لم يكن يعرف شيئاً عن البلاد التي يحكمها ولم يكن يفكر في تقدمها وارتقائها

(١) في مدة حكم امبراطرة الروم كانت مصر مجزأة الى ست مديريات يحكمها ولاة من قبل الامبراطور يستمدون الاوامر من القسطنطينية وليس لاحد في مصر حق الرئاسة عليهم . كذا كان الجباة الذين يجمعون اموال الخراج تحت سلطة القسطنطينية رأساً ولا علاقة لهم مع ولاة مصر . ثم قسمت مصر بعد ذلك الى ثمانية اقضية (١) طيبة العليا تتبعها ١١ مدينة (٢) طيبة السفلى ولها عشر مدائن بما فيها الواحات البحرية (سيوى) (٣) ليبيا العليا أو قورينه (٤) ليبيا السفلى (٥) اركاديا (نسبة الى الامبراطور اركاديوس) (٦) نصف الدلتا الشرقي (٧) نصف الدلتا الغربي (٨) من تل بسطة بمديرية الشرقية لغاية البحر الاحمر

بل كانت علاقته معها كعلاقة المستأجر مع اجيره أو كعلاقة الغريب النازح مع المستوطنين فضلا عن ان الاساقفة كانوا دائماً مصريين ينتخبون من ذات الابروشية التي يعينون فيها ولذلك كان يحبهم شعبهم ويرضخ لاشارتهم ويطيعهم طاعة تامة بحيث لا يخالفون لهم قولا ولا يسيرون على غير رأيهم . اما الاساقفة الذين اصلهم رهبان ورقاهم اثناسيوس وثوفيلس فمع انهم لم يكونوا محبوبين كثيراً من شعبهم لجمودهم وبلادتهم ولكنهم كانوا يملكون قلوب الرعية في ابروشياتهم بواسطة تقواهم وعفتهم ولان بعضهم كان عارفاً بقشور من علوم المصريين القدماء وفلسفتهم فكانوا يظهرون امام الشعب بمظهر العالم العارف ويموهون على البسطاء السذج منهم فلم يكونوا يخرجون عن طاعتهم أو يعرفون حاكماً لهم غير هؤلاء الاساقفة فقط . والذي زاد انحراف الرعية عن الحاكم الروماني وبغضها له ما وجد في طبع هذا من الجشع والطمع وعدم المقدرة على ادارة امور البلاد بالحكمة والسداد حتى ان اهالي المدينة مثلا كانوا كثيراما يهبون الى تغيير حاكمهم ويقع اختيارهم على رجل ينتخبونه ثم يلتمسون من البطريرك تعيينه اسقفاً عليهم ليحكمهم ويسوسهم . وكثيراً ما يكون في الابروشية اسقف يؤدي اعمالها ويدير حركتها ولكن لاتساعها وتمدد مدنها يعمد بعض اهاليها الى تعيين اسقف آخر تعهد اليه اعمالهم فيلحون على البطريرك والاسقف الاصلي باجابة طلبهم ورسم الاسقف لهم وتخصيصه بابروشية خاصة به وبهم أو على الاقل تعيينه معاوناً للاسقف القديم

ولهذا السبب لم يعبأ سكان مقاطعة بنتابوليس بتعيين الوالي اندرونيكس حاكماً عليهم وذلك لان مقاطعة بطولمايس التي كان لها حق السلطة الدينية على ابروشية بنتابوليس كانت بدون رئيس ديني فصمم الشعب على اختيار سينيثوس اسقفاً ووالياً عليهم فلم يتوقف البطريرك ثيوفيلس في رسامة سينيثوس ولم يتردد في اجابة طلبهم لانه كان راغباً في اعطائه هذا المنصب اكثر من رضى سينيثوس به . وفي هذا الحين كتب سينيثوس كتاباً مطولاً ارسله الى اخيه الذي كان مقيماً حينئذ في الاسكندرية واوصاه باطلاع البطريرك على فحواه وهو يتضمن الشكر الكثير والثناء الوافر على مواطنيه الذين زادوه شرفاً باختيارهم اياه لهذا المنصب الخطير الذي شعر بعدم كفاءته له وعدم رغبته في هذه الوظيفة لاسباب ذكرها في الخطاب المذكور نأتي على مغزاها حيث قال :—

(اني اقسم اوقاتي الى قسمين للرياضة والنزهة وللدرس والمطالعة ففي الوقت الذي اشتغل فيه بالدرس خصوصاً في الكتب الدينية انقطع عن اي عمل آخر وامنع نفسي عن ممارسة اي شغل ولما اذهب للرياضة وتسلية الخاطر اكون رجلا ورعاً تقياً والورع لا يهتم بالرياضة الجسدية ولا بما ينزه النفس ويسر الفؤاد كما ان العيون كلها تتطلع نحوي لترى ما اذا كنت متمماً لواجباتي قائماً باعباء وظيفتي . وويل لي اذا قصرت في امر . كذا تجبرني وظيفتي الدينية الى الابتعاد عن العزلة أو الانقطاع للدرس والمطالعة بل التزم بمخالطة الناس وصرف كل اوقاتي معهم في التعليم والارشاد

ولا انسى انني ساكون بمفردي مسؤولاً عن كل شخص حاملا اثقال جميع الناس وهذا عمل يحتاج رجلا نادر الصفات ثابت الجنان قوي العقل والجسم ليقوم بشعائر هذه الامور الروحية بدون كلل أو ملل)

وفضلا عن هذه الاسباب السالف ذكرها كان يوجد سببان قويان جداً يحملان سينيثوس على الابتعاد عن هذه الوظيفة ورفضها بتاتاً . ذلك انك عرفت في الذي مر انه في مدة الاربعين سنة الاخيرة جرت العادة بانتخاب الاساقفة من طغمة الرهبان وصار القس المتزوج محروماً من الترقية لمثل هذه الوظائف . ولقد اعترض سينيثوس على هذه القاعدة اعتراضاً ملئه الحجة القوية والبرهان الصحيح حيث قال .

(ان الله والناموس ويد البطريرك ثوفيلس سلمتني امرأتي التي اصرح جهاراً انه لا توجد قوة في الكون غير الموت تقدر تفصلني عنها كما انني لا اسير على مذهب ضعاف العقول الذين يقولون ان ابتعد عنها وازورها سرياً كما يفعل الزناة الخاطئون فهذا العمل يخالف الانسانية والشرائع الالهية وعليه فسأظل ملتصقاً بقرينتي الى النهاية واطلب الى الله ان يرزقني منها اولاداً اتقياء يعبدونه ويخدمونه)

هذا سبب من السببين اللذين بغضا سينيثوس في وظيفته الاسقفية أما السبب الثاني فيختص بآرائه الدينية ومذهبه واعتقاده . فمعلوم انه لم يمض زمن طويل على صيرورة سينيثوس مسيحياً كما انه تربى تربية وثنية ورضع البان فلسفة هذه الديانة وعلومها ولذلك كانت افكاره في بعض

النقط الدينية لا تزال مرتبكة مضطربة مع انه عاهد نفسه عهداً متيناً بعدم الخوض مع شعبه في المسائل اللاهوتية الغامضة قائلاً في نفسه ان ما فائدة العامة من البحث في الامور الفلسفية العويصة ما دام ان الله سهل المأخذ قريب الايمان به ومعرفته بامور بسيطة لا تحتاج للتنقيب عن اسرار والغاز تدهش العقل واللب ولذلك رغب في عدم ايجاد امر ينشتم منه سوء الفهم بينه وبين البطريرك وكتب يقول :

(انني اذا دعيت لمنصب الاسقفية فلي كلمة اقولها لا استطيع كتمانها وهي حقيقة يشهد على صحتها الله والناس ولا اخشى في قولها لومة لائم لان الحق من عند الله الذي احب ان اكون امامه بلا لوم . ذلك انني مغرم من نعومة اظفاري بمواد الرياضة والتسلية ولي ميل شديد لاقتناء الاسلحة الفاخرة واحراز الخيول الاصايل ومع ذلك فانني راض ان اترك كل هذه الاشياء واتخلى عنها ولو انه يسوءني ان أرى كلاب الصيد التي لي مجبورة لا تصطاد ولا تطارد فريستها وان اترك سهامي واقواسي عرضة للعث والسوس ينخرها ويأكلها ولكن هذه جميعها شيء تافه زائل لا يهمني اذا اراد الله أن يستعملني آلة لمجد اسمه واصطياد الناس .

وكما انني ابغض كل ما يشغل بالي و يتعب عقلي ولكنني مستعد لتكريس نفسي لخدمة المسيح خدمة احتمل في سبيلها كل عناء وتعب الا انني لا استطيع ان اغش نفسي من جهة العقائد ولا ان اقول ضد ما اضمر ولا اصرح للساني ان ينطق ضد الذي في جناني . وعليه فانني ارجو ان الاب ثوفيلس المحترم يخبرني براً به جهاراً امن نحوي وان يقول عني ما يعرفه فيَّ دون كتمان فاما ان يتركني وشأني اعيش لنفسي باخذي في

الفلسفة واصولها أو يعطي ضماناً كافياً حتى لا يحاكمني احد فيما بعد لاجل افكاري ويحكم عليَّ بالطرد من وظيفة الاسقف التي يختارني الشعب لها)

ويظهر ان البطريرك ثوفيلس سلك في هذا الامر مسلك الحكمة والتعقل خلاف ما كان ينتظر منه قياساً على تهوره واندفاعه في مسألة الرهبان و يوحنا كريستم . فان هذا البطريرك مع ما عرف عنه من الغلطات الكثيرة كان عاقلاً خبيراً رأى الفائدة العظمى التي تنجم من ادخال سينيثوس ضمن الرعاة وليمنع الشبهة الموجهة ضده من انه شاع في ذلك الوقت ان له افكاراً تخالف نصوص الكتاب المقدس . اما فيما يختص بامرأة سينيثوس فان ثوفيلس لم يبد ادنى اعتراض على زواجه هذا لانه راى في مدى العشر سنوات الاخيرة الخطر الهائل الذي انتج من الرهبنة ومصائبها . وقبل ان يقر الرأي على امر ذهب سينيثوس الى الاسكندرية ليستشير ثوفيلس شخصياً في هذا الشان وحينئذ شاع بين اهالي بتنابوليس الشاعة انه اذا رفض سينيثوس اجابة طلبهم ولم يقبل وظيفة الاسقفية فلا يمكنه الرجوع الى وطنه والسكنى بين مواطنيه

وتم الامر اخيراً واختير سينيثوس اسقفاً لبتنابوليس سنة ٤١٠ . وعند تعيينه ارسل جواباً في هذا المعنى الى اساقفة بطلومايس ناتي لك على معزاه وهو .

(حيث ان الله جل وعلا اختارني لهذه الوظيفة طبقاً لارادته لا لارادتي فانني اطلب منه بالحاح ان يهبني الصفات العالية حتى اسلك في هذه الوظيفة مسلكاً يرضيه وان اعمل ما يطلبه مني . فانه لا يمكن القيام باعباء هذه المرتبة الخطيرة لانني رجل ضعيف لا المام لي الا بالفلسفة العالمية ولا معرفة عندي سوى ما تلقنته في حداثتي من العلوم الوثنية ولكن اذا ساعدني الله واخذ بيدي واعدني لهذا العمل العظيم عشت عيشة اخدمه فيها واخدم كنيسته خدمة يطلبها من كل شخص وضع يده على الحراث نظيري . وعليه فانني ارجوكم ايها القسوس ان ترفعوا ايديكم نحو العزة الالهية وتبتهلوا الى الله العظيم وان تطلبوا من شعبكم ان يصلوا معكم من اجلي الى الله لكي يساعدني و يأخذ بيدي وينجح عملي . فاذا عضدني الله فانني اضع مركز الاسقفية هذا فوق كل مركز آخر من نوعها وارفعها بمعونة القدير الى اعلى عليين .)

وقد قضى سينيثوس ثلاث سنوات في وظيفة الاسقفية ذاق فيها كل انواع العناء والتعب . فانه بعد عودته من الاسكندرية عند اقام رسامته وجد مقاطعة بطلومايس في هياج واضطراب ذلك لان الوالي اندرونيكس ارتكب فيها من الفظائع ما لا يحصره القلم فانه اضطهد شعب هذه المقاطعة الواقعة على حدود مصر بعيد عن سلطة الولاة العظام دون ان يقترف هذا الشعب جرماً يوجب اضطهاده وعذابه سوى ان هذا الوالي الظالم كان يسعى في ابتزاز اموالهم واخذ مقتنياتهم لنفسه وهذا هو سبب ما ارتكبه من القبائح والمظالم . وقد تفاقم الخطب جداً وذاق الناس مرارة العذاب المريع الذي سكبه عليهم اندرونيكس فهرعوا الى دار الاسقفية يطلبون لانفسهم ملجأ ومدافعاً يدرأ عنهم هذا الشر المريع فقام سينيثوس وعنف الوالي على عدوانه وشره وسعى جهده في حمله على الكف عن هذه الفظائع ولكن الشعب تذمر وتضجر وظنوا ان سينيثوس زعيمهم ومقدامهم لم يعبأ بهم ولم يلتفت لامرهم وكأن المصائب توالت تباعاً على رأس هذا الاسقف الحليم فمات ابنه الوحيد ولم يسمع الله لصلواته الحارة التي قدمها طالباً شفاءه فقنط سينيثوس واستولى عليه اليأس حتى انه عمد الى الانتحار ليتخلص من حياة ملؤها الهم والكدر . . وكان قبل هذا الوقت ارسل مكتوباً شديد اللهجة الى القسطنطينية يحتج فيه على سلوك الوالي المذكور ولكن الشعب لم يمهله حتى يصل رد مكتوبه فشكل سينيثوس مجمعاً حافلاً في الكنيسة الكبرى واصدر فيه حكماً بحرمان اندرونيكس والقى موعظة مؤثرة شرح فيها الذنوب والآثام التي ارتكبها هذا الوالي حتى اضطر ان يتخذ ضده ما اتخذه وختمها بقوله

(بناء على ما اتاه اندرونيكس من الفظائع اصدرت كنيسة بطلومايس الامر الآتي الى جميع الكنائس في المسكونة وهو : لا يجب ان تفتح كنيسة او هيكل في وجه اندرونيكس وعائلته وثواس وعائلته وهو الذي كان آلة شر هذا الوالي الظالم ومساعده في مظالمه ولتقفل جميع الابنية المقدسة في وجه هذين الشريرين فلا يدخلانها ولا يقبلان في عضوية كنيسة ابن الله . وكما ان الشيطان لا نصيب له في ملكوت السموات فهكذا هذان الظالمان لا ينجانها بل يطردان خارجاً حيث يكون البكاء وصرير الاسنان . وعليه فانني احذر جميع الناس من اي طبقة كانوا ان لا يساكنون هذين

الشريرين ولا يخالطونهما ولا يؤاكلونهما كما انني انبه على الاساقفة ان لا يتكلمون معهما وهم احياء ولا يدفنونهما بعد موتهما . واذا ارتأى شخص ان يحتقر هذا الامر لانه صادر من كنيسة صغيرة حقيرة ككنيستنا فيختلط بهذين الشقيين فليعلم انه خالف ارادة الله الذي ارسل ابنه المسيح ليفتدي هذه الكنيسة ونظيراتها بدمه ويجعلها كنيسة واحدة في اتحاده ولذلك نضطر ان نعامل هذا الشخص سواء كان اسقفاً او شماساً او عالمانياً معاملة اندرونيكس نفسه فلا نجالس معه ولا نأكل من اكله لانه يكون قد فضل اندرونيكس وثواس الشريرين علينا ولم يقبل حكمنا)

فلما بلغ اندرونيكس خبر هذا الحكم وعرف انه على وشك النشر بين اساقفة بنتابوليس جاء الى سينيثوس مقراً بذنبه تائباً عما اقترفه من الذنوب والآثام طالباً فسخ هذا الحكم وابطاله . فلم يعتمد سينيثوس على قول اندرونيكس ولم يثق بكلامه انما اوقف نشر الحكم الى حين لئلا اذا عرف هذا الوالي ان الحكم الذي صدر ضده اصبح لغواً قد يعود الى ارتكاب الشرور التي اتاه عليها

واذ عرف سينيثوس ان الطبع غلاب وان هذا الوالي الغاشم لا يمكنه التنازل عن عناده انفذ عليه حكم الحرمان وكتب الى البطريرك ثوفيلس يعلمه بذلك ويطلب منه معاملة هذا الرجل بما يستحقه من الاغضاء والاحتقار

ولما اراح سينيثوس رعيته من ظلم هذا الظالم جال في هذا الاقليم يفتقد شعبه ويؤاسيهم ووصل في سياحته الى قريتين واقعتين على حدود صحراء ليبيا وكانت هاتان القريتان قد انتخبتا اسقفاً نشيطاً عاملاً في مدة حكم فالدس ليرد عنهما هجماته ويدفع عنهما غوائله وكانتا قد طلبتا من البطريرك اثناسيوس ان يكرسه لهما ففعل واختص هذا الاسقف النشيط بابروشية صغيرة تابعة في اعمالها لابروشية بنتابوليس وعند زيارة سينيثوس لهاتين القريتين كان الاسقف المذكور قد انتقل الى رحمة مولاه فطلب من ثوفيلس ان ينتخب خلفاً له . وحدث ان بولس اسقف ابروشية صغيرة اخرى اسمها اريثون كان محبوباً من الجميع فطلب اهالي القريتين المذكورتين ان ينضموا الى ابروشيته دون ان ينتخبوا اسقفاً جديداً لهم . وكان لما جمعهم سينيثوس وطلب منهم اختيار خلف لاسقفهم المتوفي بدت منهم الامور التالية التي نشرحها لك في السطور الآتية :

(عندما تكامل عدد الشعب الذي جمعه سينيثوس وطلب منه انتخاب اسقف

طرح الشعب كله انفسهم الى الارض واخذوا يتوسلون الى البطريرك ثوفيلس كما لو كان حاضراً ويلتمسون منه بدموع ان يجيب طلبهم ويضيفهم الى هذا الاسقف الذي قالوا عنه وكانوا يفعلون ذلك بدون ترتيب او نظام بل ما كنت تسمع الا زفرات تتصاعد من افواه الرجال وشهيق يردده النساء وبكاء من الاطفال يملأ الفضاء حزناً وكمداً على كرسي اسقفهم المحبوب الذي اصبح خالياً منه بعد موته . فلم يستطع سينيثوس ترتيب هذا الجمع المختبط وحينئذ صرف الشعب بعد ان اخبرهم بالعودة الى هذا المكان بعد اربعة ايام . فلما اجتمعوا في الاجل المضروب حدث ما حدث اولا من الاختباط فاضطر سينيثوس ان يكتب بالتفصيل الى البطريرك ثوفيلس ويحيطه علماً بما حدث ويطلب منه القول الفصل في هذا الامر)

ولنا في القصة التالية اعظم دليل على صفات الاسقف بولس الممتازة التي جذبت اليه قلوب الشعب في انه كان رجلا تقياً نشيطاً يقدر يفيد اصدقاءه ويضر مبغضيه اما هذه القصة فهي انه كان يوجد بقرب احدى القريتين المذكورتين قبلا اطلال قصر قديم قائمة على قمة كثيب كثير الحزون والوهاد . وكان هذا القصر قد ابت به ايدي الزلازل فقوضت بعض جدرانه وكان بعضها يصلح لان يكون حصناً منيعاً للقرى المجاورة له تدرأ به هجمات الاعداء في هاتيك الايام التي كثرت قلاقلها وعظمت اضطراباتها حتى ان الشعب اضطر حينئذ ان يبحث عن حصن يكمن فيه عند تفاقم الخطوب حيث يكون في مأمن على المواشي والارزاق من غارات المتوحشين الذين كانوا لا يفتأون يغيرون ويحاربون . وكان هذا الكثيب والصرح ملكا لديسفورس اسقف قرية اسمها دردانوس مجاورة لاحدى القريتين المذكورتين ولذا عجز بولس عن الحصول على هذا الحصن المنيع وعليه سار اليه بالقوة الجبرية ونصب في وسطه منضدة اتخذها كمذبح وشرع في تكريس المكان ليكون ككنيسة وحينئذ صار هذا الحصن بمقتضى تكريسه ملكا لبولس تابعاً لابروشيته ولم يعد لاحد حقاً ليتصرف فيه . ولما وقع الخلاف بين الفريقين بسبب هذه القلعة رفعوا الامر الى الاسقف الكبير اعني به سينيثوس الذي لم يستحسن ما عمل ولكنه لم يعلن بطلان التكريس ولم يقل انه غير نافذ المفعول مع انه لم يشك في ذلك لانه قال ان ممارسة الفرائض الالهية وتكريس احد الاماكن لا يؤخذ منه ان هذا المكان المكرس يظل مقدساً الى الابد

والا كان جميع القصور التي تقام فيها الصلوات والخدمات الدينية في ايام الحروب تبقى كنائس بناء على هذا الرأي . ثم كتب فقرة في هذا المعنى يقول فيها : —

« انني من الناس الذين يفرقون بين الامور الدينية الصحيحة وبين الخرافات التي اعدها نوعاً من الرذيلة لها مسحة الفضيلة ويعدها العلم شكلا ثالثاً من اشكال الزندقة والكفر كما انني لا اعتقد بقداسة مكان وطهارته الا اذا اجريت فيه اعمال القداسة والطهارة . فان الايمان المسيحي المتين لا يقول بحلول الروح القدس في مكان بناء على تكريسه أو تتمة بعض كلمات فيه ولكن الروح القدس يحل في الانفس الطاهرة والاجسام التي صارت هياكل لله ولا يسكن المسيح وسط بناء عملت له هاتيك الطقوس والرسوم لتكريسه ولكنه يسكن بين اثنين أو ثلاثة اجتمعوا باسمه . ومعلوم ان الروح الاقدس لا يحل وسط جماعة استولى عليهم الشنآن والحنق واستفحل بينهم روح النفار والنقار حتى اذا كان موجوداً في مكان دخلت فيه هذه الرذائل فلا شك ان روح الله يهرب منه ويفارقه . اذاً فتكريس الابنية لا توجب طهارتها وقداستها بل تشير فقط على تخصيصها للعبادة »

وعلى هذا المبدإ القوي لم يسع الاسقف بولس الا التسليم لحكم سينيثوس وقلبه مملوء من الهم والكدر . اما ديسفورس فاظهر كرماً ومروءة يحمدان ويمدحان في انه قال باستعداده لعمل كل ما يزيل الخصام ويوجد السلام وعليه اشترى منه بولس الكثيب والقصر الذي فوقه وزال الشقاق من بين الجماعات وصاروا جميعهم مسرورين فرحين

ولم يمض وقت طويل على هذا الحال حتى استدعت الحكومة القائد الماهر الذي كانت قبائل المتوحشين تخشى بأسه وحل محله قائد ضعيف جبان مهد الطرق لجماعة الغزاة بالهجوم على مقاطعة بنتابوليس كما كان الحال سابقاً . وقد كتب سينيثوس في هذا المعنى يقول : —

« قرأت في التواريخ ان مدناً وقرى لم يبق فيها سوى النساء والاطفال لسبب الخراب والدمار اللذين استوليا عليها وقد شاهدت هذه الحالة في بلادنا بل اكثر منها شراً لان الاعداء لم يتركوا النساء والاولاد بل اتخذوهم غنيمة لهم وكانوا يبقونهم عندهم الى ان يكبروا فيرجعونهم لوطنهم ولكنهم كانوا يأتونه كاعداء بعد ان تشربت قلوبهم عداوته وبغضه حتى ان الشاب منهم كان يتلف الحقل الذي لابيه وهو لا يعلم انه له

فلو كان عندنا قائد ماهر لامكننا ان ننتقم لانفسنا من عدو دلي • مهان انتهك حرمة الاشياء المقدسة عندنا ولم يترك مكاناً مقدساً الا وداسه برجليه الدنستين ولم يدع قبراً اوحدثاً الا ونبشه نبشاً ولم يترك كنيسة الا واحرقها ودنس المذابح المقدسة واستعملها لاعيادهم وولائمهم واخذ الاواني المقدسة ووضعها في هيا كل الاصنام والشياطين فضلاً عن القلاع التي هدمها والمواشي التي استاقها والعقارات التي سلبها حتى اصبحت مقاطعة بنتابوليس خراباً لا يأوى اليها احد ولم يبق لي بلد ابن اهرب اليه الا قوربنة مسقط رأسي حيث ان نسبي يتصل بهرقل بطل الابطال . ولكن لا اهرب ولا اترك بنتابوليس التي انا اسقف لها ولا افر من القبر الذي اقبر فيه هنا • انني اشعر ان المصيبة قريبة مني حتى ان دموعي فاضت وخنقتني الزفرات فالتصق لساني بحنكي ولم اعد استطيع النطق حين افتكر بما حل ببيت الله وكنيسته وصرت في درجة الحيرة الشديدة حتى اذا ارتايت ان انجو بنفسي الى جزيرة قريبة مني اعود فاغير فكري وامكث هنا ولم يبق عليَّ الآن الا الالتجاء لهيكل الله والتمسك بقرني مذبحه حيث اسكب دموعي على ارضه واظل اقبل بابه ومحرابه واطلب من الله النجدة والمعونة • ان عينيَّ جفاها النوم من كثرة القلق والاضطراب ولم تعد لي فرصة للوسن فيها بطريق اجفاني لكثرة اهتمامي بترتيب الحرس بالمناوبة وبعد ان كنت اصرف ليلي في مراقبة النجوم والسيارات • وعمل الارصاد الجوية اصبحت الآن اقضي ليلة بعد الاخرى في مراقبة العدو حتى اذا هجعت قليلا ايقظتني الاحلام المريعة والمناظر المخيفة ويخال لي في المنام انني هارب او مسجون او مجروح او مكبل بالقيود والاصفاد او باعوني عبداً رقيقاً وكثير ما كنت اقوم من نومي مذعوراً لانني احلم بعد هذا كله انني هربت من عدوي الظالم بعد ان استعفت العسكري الذي كان يتولى حراستي . فلو ثبت لي ان الجزر المجاورة لنا خالية من مثل هذه المصائب لكنت ذهبت اليها وارحت نفسي قليلاً من هذه المخاوف ولكنني اخشى ان ينزل بي القدر المحتوم قبل ان استطيع الهروب اذ ان يوم الهلاك اصبح قريباً ولم يبقَ عليَّ سوى الذهاب لهيكل الله والسجود لاسمه تعالى ليرسل لنا المعونة والنجاة وقد عولت على البقاء في هذه البلاد وعدم ترك الكنيسة وساضع امامي الاواني المقدسة واتسلق بها على اعمدة الكنيسة وسابقى فيها ما بقي فيَّ رمق ثم اموت مدافعاً عن بيت الله متمماً واجباتي لانني معين من قبل الله لتقديم القربان على مذبحه

فلا غرو اذا جاء الوقت الذي فيه اقدم نفسي قرباناً على هيكله ولاشك في ان الله يرحم شعبه اذا رأى ان مذبحه تخضب بدماء اسقفه الذي يظل اميناً له الى النفس الاخير

وبعد ان انتهت هذه المخاوف مات ابن سينيثوس الصغير وكانت امرأته وولدان آخران قد ماتوا قبله في ظرف سنة واحدة فتراكمت الاحزان على هذا الاسقف المفضال وقصمت المصائب ظهره فكتب جواباً لهيباشا الشهيرة يقول فيه • ـ اما انا فقد اصبت بمرض في الجسم نشأ عنه مرض في العقل والفكر لان موت ابنائي وامرأتي اخنافي واسقمني فاصبحت واضرحة اولادي مرسومة امام عيني اللتان ابيضتا من الحزن ولست انسام حتى اسكن التراب نظيرهم اما امرأتي العزيزة فانني اقول لها:

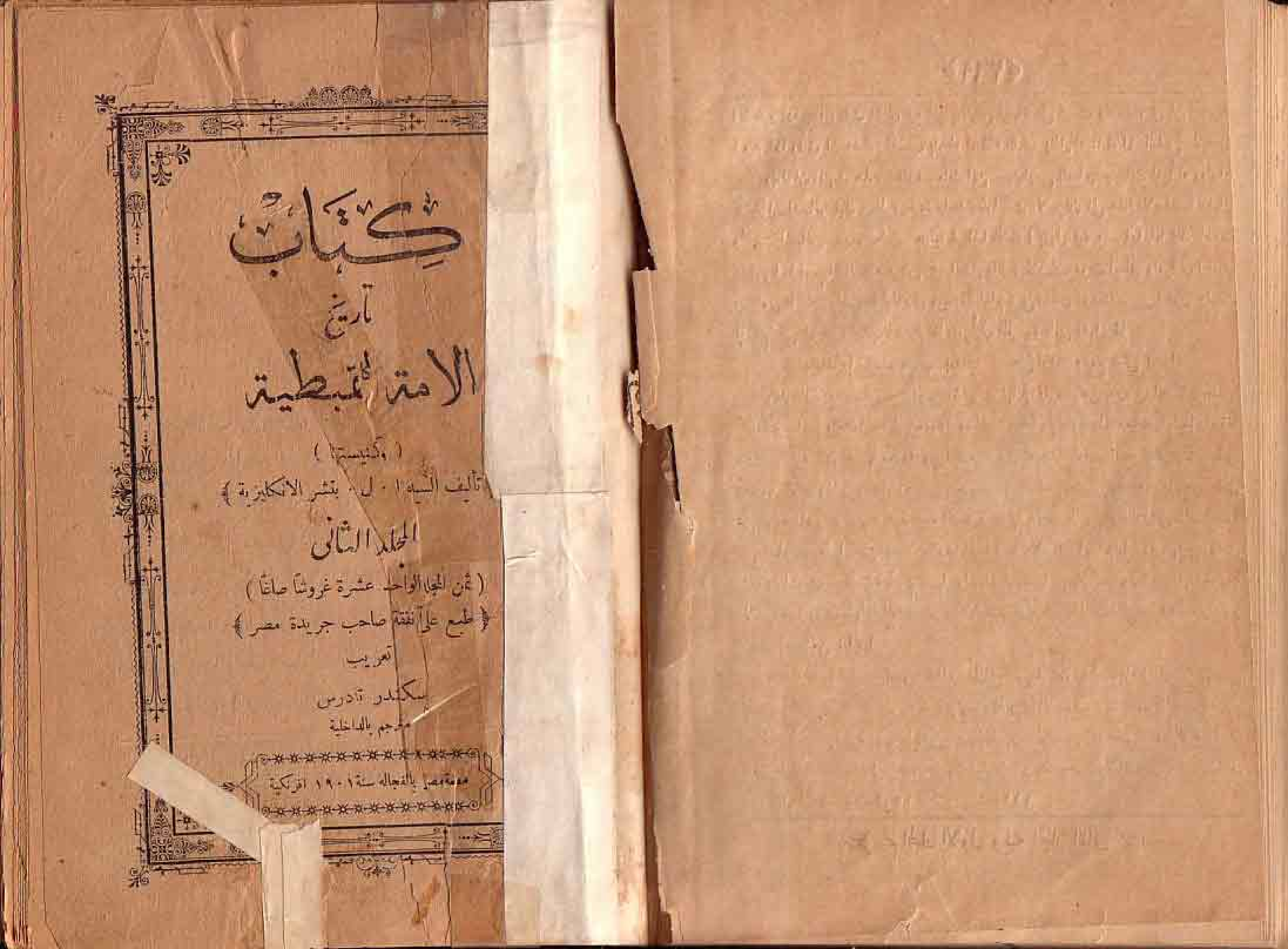
ابكيك ما بقيت حياتي بعدكِ حتى اراكِ ودمع عيني احمرا

وقد قال بعضهم ان سينيثوس اشتهر بمزايا لم تعرف عن غيره في انه كان جندياً شجاعاً وسياسياً متضلعاً وخطيباً مفوهاً وشاعراً مفلقاً وفيلسوفاً عالماً ومنطقياً بليغاً واسقفاً ورعاً كما انه كان محبوباً مكرماً من الجميع . وفي نحو هذا الوقت تنيح البطريرك توفيلس وهو من اقوى واشهر البطاركة الذين جلسوا على السدة البطريركية وهو اول من اطلق على الامة المصرية اسم « الكنيسة القبطية » ثم خلفه بطريرك كان سائراً على ذات الخطة التي سار هو عليها حتى اوصلا بلادهما الى درجة الاستقلال العقلي ولو انها لم تستقل امميا وظلت في مصر مدة تحكم نفسها بواسطة اساقفتها وبطاركتها ولم تتداخل الحكومة الامبراطورية في شؤونها مدة طويلة الا عند ظهور تهمة الهرطقة التي صرفها الامبراطور بلطف خوفاً من نتائجها

وقد اضاف توفيلس بعض القوانين الى الكنيسة يحتوي احدها على ان الاكليروس يجب ان يختارهم الاكليروس عند تعيينهم ويختبرهم الاسقف وينتخبهم الشعب بعد تمام رضائه ورغبته • ومن غريب ما يحكى عن البطريرك توفيلس انه قضى ايامه الاخيرة في شغل منهك مضعف حتى اصبح هزيلاً ضئيلاً لدرجة اوجبت له الذهول والسبات الى ان انتقل لرحمة مولاه في ١٥ اكتوبر سنة ٤١٢

تم المجلد الاول ويليه المجلد الثاني


Shero4jesus@gmail.com



كتاب

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

﴿ تأليف السيدة ا . ل . بتشر الانكليزية ﴾

المجلد الثاني

(ثمن المجلد الواحد عشرة غروشا صاغا)

﴿ طبع على نفقة صاحب جريدة مصر ﴾

تعريب

اسكندر تادرس

مترجم بالداخلية

مطبعة مصر بالفجالة سنة ١٩٠١ افرنكية

المجلد الثاني

الفصل الثاني والعشرون

شنوده الاخميمي وغيره

سنة ٤١٣ للمسيح ١٢٨ للشهداء

بينما كان سينيشوس المار ذكره في الفصل السابق يجاهد جهاد الابطال ويبذل قواه في صد الاعداء عن حدود مصر من الشمال الغربي ظهر رجل آخر ذاع صيته كثيراً في ذلك الوقت واشتهر في العالمين شهرة قل ان وصل اليها آدمي في ذلك الحين ولو لا ذكره الطفيف في هذه الايام واصبح الذين يذكرونه او يعرفون شيئاً عنه يعدون على الاصابع · هذا الرجل بزغ في صعيد مصر وعرف بالتقوى والقداسة وصرف اوقاته وجهده في الصلاة والصوم والجهاد ضد الخطية وهذا النابغ هو شنوده الاخميمي

ولد شنوده (١) هذا في قرية صغيرة لا تزل باقية الى الآن على مسافة

(١) ان اسم شنوده اختلط مع الاسم اللاتيني سنوتيس وقال ان شنوده كلمة مصرية قديمة معناها (ابن الله) · ومن غريب الامور ان مستركرزون الانكليزي الذي زار الاديرة سنة ١٨٣٣ قال في كتابه عنها (لم يسعدني الحظ بعلة احد ليخبرني عن حقيقة حال ابو شنوده واعماله وسبب اكرام الناس له واعتبارهم اياه من مصاف القديسين ولذلك ظننت انه احد الاولياء المسلمين (كذا) وضع هذا الدير القبطي تحت حماه في اوقات الاضطهاد حتى لا يمسه المسلمين بسوء ولذلك سمي باسمه)

ميل او ميلين من بندر اخميم للشمال الغربي لعلها ناحية الصوامعة) وكان ابوه مزارعاً مشهوراً ذا ثروة طائلة يمتلك قطعاناً كثيرة من الاغنام ولذلك كان شنوده يذهب مع احد الرعاة ليساعدهم في اعمالهم وهو بعد فتى يافع ولكنه لم يكن يشتغل معهم قط بل كان يصرف كل اوقاته في الصلاة والعبادة ولذلك طلب الراعي من مخدومه ان يمنع هذا الصبي عن الاشتغال في الحقول بل يأخذه الى مكان يناسب ميله وفطرته · وعليه أرسل شنوده الى دير قريب من بلدته كان خاله رئيساً له فشب فيه كراهب اذ كانت الرهبنة في هاتيك الايام درجة يسعى اليها كل مصري حاذق لما فيها من الارتقاء دينياً ودنيوياً كما سبق معنا تفصيل ذلك في الكلام عن «انحطاط الامة المصرية» · ومع ما كان عليه شنوده من الشهرة الفائقة والتقوى الصحيحة فقل ان نعرف شيئاً عن حياته حتى تكون مشكاة للآخرين وقدوة حسنة للقارئين كما عرفنا الشيء الكثير عن اعمال ذلك الفيلسوف العالم والبطل المغوار سينيشوس · والذي يقراه تاريخ شنوده يجد صعوبة كبرى في التمييز بين الوقائع الحقيقية التي وقعت له ومعه وبين الخرافات والروايات الكاذبة التي أفعم بها تاريخه كما كان الحال مع غيره من القديسين المشهورين · ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان جماعة القديسين والنساك الذين صرفوا حياتهم في الزهد والانعكاف كان الناس يرتأون ان لهم قوة واقتداراً يفوقان حد الوصف وان لهم سراً في الاعمال لا تدركه العقول · ويقرب من الظن ان صاحبنا شنوده كان يجتهد باي واسطة من الوسائط

في استعمال مواهبه الطبيعية للتأثير على الرهبان الذين كانوا تحت سلطته وملء افهامهم بمقدرته وسطوته وهو عمل لايبرره من تهمة الايهام والتغرير ولكنه من وجه ديني يعتبر عملاً نافعاً قد يتخذ عذراً لعمله هذا · انما شنوده عمم مبادي، العدل وشد ازر الحق في جميع البلاد المجاورة له بطريقة القسر والضغط بشرط انه لم يكن يوجد من يقاومه في حكمه او يرد له كلاماً

من ذلك ان رجلاً جاء الى شنوده واعترف له بانه افنى آثار شخص غريب وقتله لانه كان يحمل كيساً ظن القاتل انه مملوء من الذهب الوهاج وانه لم يجد فيه سوى قطعة من الذهب · ثم سأله القاتل ان ماذا اعمل لكي اخلص وتغفر خطيتي الكبيرة هذه

فامره شنوده ان يسير تواً الى اخميم فيجد جماعة من اللصوص الذين سرقوا منزلاً بالاكراه يحاكمون امام حاكم الاقليم فيدخل في زمرتهم ويحاكم معهم منتظراً نصيبه الذي يصيبه · ثم اوصى شنوده القاتل بانهم «اذا سألوك عما اذا كنت مع هؤلاء الاشقياء فاجب بالايجاب وحينئذٍ يصدر الحكم عليك بالاعدام فتكون بذلك قد كفرت عن خطاياك وتنال الحياة الابدية » فسار الرجل مسرعاً كما امره شنوده وحوكم مع اللصوص واعدم نظيرهم

وكثيراً ما كان الناس الذين تسرق اشياءهم يرفعون اليه دعواهم فكان يظهر السارقين ويضطرهم الى ارجاع السرقات او التعويض عنها

كذا اعاظم الامة وكبار الشعب كانوا يجيئون اليه من كل فج سحيق

لاستشارته في معضلات الامور واخذ رأيه في المسائل الهامة فكان يكشف لهم عن غامض اسرارهم ويزيح الستار عما أعضل من امورهم حتى ان كثيرين من البسطاء كانوا يصدقون انه ايليا النبي او حزقيال النبي او احد هؤلاء الانبياء الكرام الذين يخاطبون العزة الالهية رأساً بدون وساطة احد الملائكة او الارواح الطاهرة

وحدث مرة ان قائداً رومانياً كان سائراً في جيش عرمرم ليرد غارات الاعداء عن حدود مصر القبلية فمر في طريقه على دير انبا شنوده ليستشيره في امر هذه الحرب ويطلب دعاءه وبركته (١) · اما انبا شنوده فكان قد اعتزل مكاناً قصياً في الجبل حيث يصرف وقتاً في الصلوة والابتهال الى الله ليرد عنهم مصيبة كانت تتهددهم هي ان النيل في تلك السنة كان واطئاً ولم يكن منتظراً ان يروي الاراضي · ثم شدد انبا شنوده الاوامر على الرهبان بان لا يأتوا اليه في عزلته ولا يزعجوه لاي سبب من الاسباب وعليه اخبر الرهبان ذلك القائد الروماني انهم لا يقدرون على الذهاب الى هذا القديس المحترم ولا اقلاق خاطره في وحدته الا بعد انتهاء الاسبوع الذي خصصه للصلوة والعبادة · اما القائد المذكور فاعلن الرهبان بانه لايستطيع مبارحة الدير قبل مقابلة شنوده وعليه ضرب خيام عساكره على مقربة منهم وطلب من الرهبان ان يقدموا زاداً ومؤونة لكل رجال الجيش فلم يمض ثلاثة ايام على هذه الحالة حتى ضجر الرهبان من

(١) هذه الحادثة وقعت في سنة ٤٥٠ عند ما بلغ شنوده المائة سنة من عمره

هذه المصاريف الباهظة ولم يمكنهم القيام بها يوماً واحداً بعد ذلك فانفذوا شخصاً اسمه ويصا كان كاتباً عند شنوده ومحبوباً لديه وطلبوا اليه ان يلتمس من ابيهم هذا ان يجيء وينقذهم من هذا الهم الثقيل · فاحتد شنوده كثيراً لمخالفة اوامره ولكنه عاد الى صوابه ورأى ان تلامذته معذورون في الحاحهم عليه والسير ضد رغبته فسمح للقائد بمقابلته فقابله وصرف معه وقتاً طويلاً ثم توسل اليه القائد ان يمنحه واحدة من حياصاته (حزامه) فمنحه شنوده اياها لكي يتمنطق بها وقت محاربته مع جماعة الغزاة ليسهل له النصر عليهم بواسطتها : قيل انه لما حمي وطيس القتال وعلا سعير نار الحرب نسي القائد لبس الحياصة ولذلك انكسر شر كسرة وهزم جنده وطاردهم العدو يومين كاملين ولكن القائد تذكر المنطقة فما لبث ان تمنطق بها حتى كرَّ خلف اعدائه وهزمهم هزيمة مرَّة !!!

وكان انبا شنوده عدواً لدوداً للديانة الوثنية التي كانت آثارها لم تزل موجودة في بعض مراكز الوجه القبلي وكثيراً ما كان يسير الى قرية وثنية في جيش من الرهبان فيدمر منازلها وينهب ما فيها من الامتعة وذلك عند ما يرفع له احد المسيحيين شكوى من وثني لانه كان قد وضع جميع المسيحيين هنالك تحت ظل كنفه · وحدث مرة ان بعضهم رفع له شكوى من ان احد ارباب الكروم من الوثنيين غدر مستخدميه المسيحيين ولم يدفع لهم شيئاً من اجورهم بدعوى ان كرومه فسدت ولم تنتج خمراً وانه خسر بذلك خسارة فادحة · فحشد شنوده حالاً جيشاً من الرهبان وسار ضد ذلك

الوثني الذي اجحف بحق المسيحيين فاتلف امتعته وهدم منازله

وكان مرة ان رجلاً غنياً جداً اسمه بطرس جاء الى شنوده من احدى البلاد المجاورة لبلدته وطلب منه بركة ودعوات طيبات وقدم له هدايا وعطايا · فقابله شنوده بغضب وحنق ووبخه توبيخاً صارماً لانه كان متزوجاً بابنة اخته · فاعتذر الرجل بالعادة الجارية من ان للفتاة ارثاً معه فاضطر ان يتزوجها لئلا يأتي اجنبي ويأخذ هذا الارث ويتداخل في شؤون العائلة *

فاجابه القديس شنوده بغيظ « ألم تقرأ ما ورد في الانجيل المقدس حيث قال : ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه او ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه » فانتفض صاحبنا الغني وصار كعصفور بلله القطر ثم التفت الى القديس وقال « آه يا أبت ألا يوجد طريق للتوبة والخلاص أطرقه الآن (١) فاجابه الاب « نعم يوجد » فقام الرجل من فوره وسار مسرعاً الى بيته ثم عاد ومعه ٥٠٠ قطعة من الذهب وقدمها لانبا شنوده وطلب منه ان يوزعها على الفقراء والمساكين تقدمة عن روحه

* (المترجم) لعل الادباء يذكرون ان هذا العذر لازال يتحجج به بعض الآباء الذين يجبرون ابناءهم اجباراً على الزواج بفتيات من اقاربهم خوفاً من ضياع الارث وذهابه في ايدي الغرباء · فانه اذا كان الزواج بابنة الاخت حراماً شرعاً لا يقبل معه عذر فان اجبار الابن زواجه باية كانت لا يجوز عقلاً ولا شرعاً · ولعل في هذا ذكرى لهؤلاء الطماعين الغافلين

(١) كانت شيعة نوفاتيانوس وبعض اعضاء الكنيسة المتطرفين يذهبون ان لا توبة ولا مغفرة للذين ارتكبوا خطايا كبيرة بعد عمادهم

فقال له شنوده « انا لا يمكنني اخذها فقط عليك أن تذهب الى صومعة الآب (افلو) واطلب منه ان يبحث لك عن شخص امين يأخذها منك ويبقيها عنده للغرض الذي انت تطلبه » فسار بطرس من حينه الى المكان الذي عينه له شنوده حيث وجد هناك الآب بولص رئيس دير بويط (ولعله بوش بمديرية بني سويف) الذي اخذ المبلغ منه بكل سرور ومن ثم عاد بطرس الى امرأته وقال لها « اتعلمين يا اختي اننا كنا عائشين عيشة خاطئة دون ان نعلم ذلك » وحينئذٍ وهب جميع امواله واملاكه الى امرأته هذه بعد ان طلقها وصار راهباً من اتباع شنوده ومريديه (١)

وكان يوجد على مقربة من انبا شنوده رجل شهير نظيره كان قد بلغ من العمر اشده في ذلك الوقت وهو مار يوحنا الاسيوطي (المار ذكره) او هو يوحنا النجار كما ورد عنه في الكتب القديمة لانه كان نجاراً قبلما يصير راهباً . وقد شابه يوحنا هذا انبا شنوده في بعد الشهرة واصالة الرأي حتى ان الامبراطرة والملوك كانوا يستشيرونه في كثير من الامور المعضلة . قيل ان انبا شنوده عوّل على زيارة يوحنا هذا في ديره عند اسيوط ولكن الوفاة ادركت يوحنا سنة ٣٩٤ وله من العمر تسعون عاماً . وكان لهذين القديسين ثالث وهو بلاديوس الذي كتب كثيراً عن الرهبنة في الجيل الرابع ووضع تاريخاً لها وكان منبت اسلته في مصر الوسطى حيث طاف كثيراً وهو يبحث

(١) لا زال يوجد ليومنا هذا عشر كنائس باسم ابو شنوده في مصر الوسطى وواحدة له بنيا في قلعة بابليون الرومانية

وينقب عما يختص بالرهبنة واصولها . ولما جاءت سنة ٣٩٩ انحطت قوى بلاديوس هذا وساءت صحته فسار الى الاسكندرية ليستشير اطباءها في أمر مرضه فاشاروا عليه بمغادرة مصر والذهاب الى فلسطين فذهب اليها حيث سيم اسقفاً في هيلنوبوليس بمقاطعة بيت عنيا ومن ثم صار صديقاً حميماً لكريسوستم مطران القسطنطينية حتى انه عندما نفي هذا المطران سنة ٤٠٤ طرح بلاديوس في السجن مع اساقفة كثيرين كانوا يحبون كريسوستم وعوملوا بالقسوة والخشونة وأخيراً في سنة ٤٠٥ نفي بلاديوس الى اصوان ومرّ في طريقه على اسيوط واخميم . ولما تنيح البطريرك ثوفيلس صرّح لبلاديوس أن يترك اصوان على شرط ان لا يعود الى ابروشيته فغادرها الى اقاليم مصر الوسطى حيث صرف فيه نحو اربع سنوات بدا في اثنائها بكتابة تاريخ الرهبنة وأتمه في سنة ٤٢٠ . اما شنوده فعاش بعد يوحنا وبلاديوس (١) الى أن تولى كرسي البطريركية كيرلس (٢) الذي كان يهتدي بآراء شنوده في عويص المشاكل وكان صديقه المخلص له

(١) ذهب بعضهم الى ان مؤلف الكتاب الثمين المسمى (الهنود والبراهمة) هو بلاديوس المتقدم ذكره ولعل سبب هذا الظن هو المشابهة في الاسم بين بلاديوس هذا وآخر سميه . والحقيقة هي ان بلاديوس الذي نحن في صدده سافر الى الهند وغرضه درس فلسفتها واستيعاب علومها وقد التقى في طريقه بأسقف مدينة ادول وهي مينا واقعة على البحر الاحمر وطلب منه ان يرافقه في رحلته هذه . فعانى الاثنان من الصعوبات والمتاعب ما يصعب وصفه ولذلك لم يمكثا هنالك طويلا بل عادا ادراجهما الى مصر . وكان يوجد رجل آخر اسمه بلاديوس يتجر في المصنوعات الهندية رحل قاصداً بلاد الهند للغرض الآنف ذكره مع كاهن اصطحبه معه فلم يصلا سيلان حتى اسرهما قوم هناك وظلا في الاسر ست سنوات الى ان من الله عليهما بالفرج فاطلق سراحهما . اذاً فالظن المذكور بأن بلاديوس هو واضع ذلك الكتاب يقرب من الحقيقة او هو الحقيقة بعينها .

(٢) ظهر في اخميم في أيام شنوده رجل شاعر مشهور هو كيروس الشاعر المصري المعروف

وقد اشتهر في هاتيك الايام راهب عفيف النفس ابيّها اسمه ايسداروس ظهر في مقاطعة بلوزيوم باقليم الوجه البحري وكانت بلوزيوم هذه اقوى حصن حربي على حدود مصر من الشمال الغربي · وكان سكان هذه الجهة يختلفون كثيراً في المعرفة والفهم من سكان الوجه القبلي البسطاء ورهبانه السذج الذين كانوا يعتبرون شنوده حتى كادوا يعبدونه بعد الله عزّ وجلّ · وكان ايسداروس يمتاز عن غيره من جماعة النساك في انه عاش في مدينة عامرة آهلة بالسكان حيث صرف كل حياته في توبيخ وتعنيف الذين عاشوا عيشة دنيوية من زملائه الذين كانوا يهتمون بالامور الجسدية اكثر من اهتمامهم بالامور الروحية · وتفصيل ذلك ان السلطة الزمنية الكبرى التي اصبحت في ايدي الاساقفة في تلك الايام لسبب ضعف وخبث الحكام الرومانيين كانت تجربة عظيمة لهم سقط في مهواتها كثيرون منهم وهو شيء طبيعي ورثه البشر عن ابيهم آدم او هي ذات التجربة التي سقط فيها هو اذ احب الرفعة وطلب المزيد من الرئاسة فهوى الى الحضيض · ولا يخفاك ايها القارئ ان المبدأ الفاسد الذي ذكرناه لك في المجلد الاول تحت عنوان « انحطاط الامة المصرية » كان لا يزال سارياً بين المصريين سريان النار في الهشيم · فانه اذا كان يوجد رجل شهم نقي طامح نحو الشهرة الصحيحة محب لوطنه لا يفيد شيئاً ولا يستفيد من شيء ان لم يدخل في زمرة الرهبان اذ يصير فيما بعد رئيس دير

الذي كان صديقاً لايدوشيا زوجة الامبراطور ثيودوسيوس الثاني · وقد تقلب كيروس هذا في أيام ثيودوسيوس في مناصب عالية الى ان صار قائد الجيش المصري في بلاد الغرب · ولكن النعمة اثرت في قلبه فترك المراتب الرفيعة ليخدم سيده وحينئذ تعين اسقفاً في احدى الابروشيات

أو اسقفاً · فاذا رأيت رجلاً في ذلك الحين قد سمت مبادئه وارتقعت صفاته وحسنت اخلاقه ورق شعوره واتسعت مداركه فاعلم ان هذا الرجل سيكون راهباً او بالحري سيموت لانه لايترك نسلاً بعده يرثه في تلك السجايا المليحة ويفيد امته ووطنه · ولقد طالما مات الرهبان وهم احياء خصوصاً عند ما ارتقوا مسند الاسقفية اذ انتفخت اوداجهم وورمت صدورهم واتخذوا لانفسهم ابهة الملوك وفخفخة العظماء لما رأوا انهم متسلطون على الشعب زمنياً وروحياً · واذا قلت ان حكمهم الزمني كان عادلاً محبوباً عند عامة المصريين وخاصتهم اجبتك انه كان جائراً على الكنيسة في انها لم تستفد من رئاستهم عليها لانهم لم يكونوا يقدرون على ادارة الحكومة والكنيسة في آن واحد وليس في استطاعة الانسان ان يعبد ربين · وكان من حرية فكر ايسداروس انه اعترض على الكنائس الجميلة التي كانت مقامة في جميع بلاد القطر واظهر اشمئزازه من زينتها وبهرجتها بقوله « ان ابن الله لا يحل في وسطنا لاجل فخامة البنيان وزخرفة الجدران بل لاجل نفوس طاهرة وارواح منكسرة جاء وسكن في قلوبنا · ولو استطعت ان اختار الزمن الذي اعيش فيه في هذا العالم لاخترت عصر الرسل الذين لم يكن في كنائسهم شيء من الزخرف والبهرج بل كانت متشحة بالنعمة مزينة بالروح المعزي بعكس كنائس وقتنا الحاضر التي اصبحت مغطاة بكل انواع النقوش والصور محلاة بالرخام والمرمر ولكنها خالية من المواهب الروحية عارية من كل نعمة وعطية سماوية » وقد تكلم ايسداروس عن وظيفة الاسقف فقال « انها وظيفة عمل وكد

لاضعف واسترخاء وعناء وكدح لا ترف ورفاه كما انها مرتبة دينية تلقي على متقلدها مسئولية عظمى وليست وظيفة عالمية لا يسأل الموظف فيها · بل بالحري هي عبارة عن علاقة ابوية فيها يرعى الاسقف شعبه بكل حنو ولطف وليست سلطة زمنية يستعمل فيها الجبروت والعنف · ومع هذا كله فلا انكر انه يوجد اساقفة قلائل جداً يبذلون ما في وسعهم ليعيشوا كما عاش الرسل الاطهار من قبلهم ساعين مجتهدين في اراحة شعبهم وايرادهم موارد كلمة الله العذبه » كذلك تذمر ايسداروس كثيراً من شح الرهبان وعدم اكرامهم للضيوف والنزلاء ومن شراهتهم ونهمهم وشراستهم وخصامهم ·

ولنبحث الآن في ما قال عنه ايسداروس « شراهة ونهم » وننظر اذا كان في عمل الاساقفة ومعيشتهم ومآكلهم ما يستوجب اطلاق هذا النعت عليهم فنقول ان ناسكاً كايسداروس كان قد بلغ من العمر اعظمه يظن ان المآكل البسيطة والطعام المطبوخ المستوي يعد تلذذاً للجسد وافراطاً في الترف والاسراف حتى انه قال ان الخبز والماء والملح والخضار النيء تكفي لغذاء الجسد وحفظه من الفناء · كما ان الناسك لا يلزمه ان يتدثر بعباءة إلا اذا كان شيخاً هرماً فيحق له ان يلبس رداء قديماً بالياً اذا رماه في عرض الطريق اياماً لا يمد احد يده ويأخذه لرثاثته وبلائه (١) وقد بلغ من

(١) تقول حضرة المؤلفة (انه في القرن التاسع عشر فقط أذن للرهبان المصريين بتناول اللحم مرة في الاسبوع وذلك يوم الاحد بدل مرة واحدة في الشهر) ولكن هذا ليس بقانون يتمشى عليهم جميعاً · قال المترجم يعرف بعض رؤساء الاديرة يأكلون خروف زق كل يوم ويشربون من الصيدليات المهمة ويتلذذون بأحسن انواع المآكل والمشارب وهم في الاديرة في الجبال · كذلك

تواضع بعض الرهبان انهم كانوا لا يكلفون تلامذتهم ولو بخدمة صغيرة فضلاً عن انهم لم يقتنوا خدماً ولا حشماً مما يعدونه اسرافاً وتنعماً · وقد قص احد الرهبان قصة هي قوله : لما كنت شاباً فتياً كنت مقيماً مع الرئيس كرونيوس الذي مع كونه شاخ وهرم وارتخت اعصابه ولكنه لم يكن يكلفني باداء خدمة كيفما كانت خفيفة بل بالعكس كان ينهض بنفسه ويدير علينا بيده جرة الماء فنشرب جميعاً · وقد عشت ايضاً مع رئيس دير اسمه ثاودروس كان يرتب مائدة الاكل بيده ثم يدعوني قائلاً « قد حان وقت الطعام يا صاح فاذا شئت فتعال كل » فكنت اعترض عليه قائلاً « اني جئت اليك يا ابت لاخدمك فلماذا لا تسألني اعداد ما يلزمك » فلم يكن يجيبني بكلمة واحدة ولكن اذا سأله احد الشيوخ ان يستخدمني في قضاء بعض المهام فكان يقول « اني لست سيداً حتى اصدر الاوامر والنواهي ولكنه اذا شاء ان يساعدني من تلقاء نفسه فليفعل ذلك عند ما يراني مشتغلاً » ومن ذلك الحين ادركت غرضه وكنت اساعده وانا ساكت ساكن لا ابدي كلمة واحدة ؛ والمؤرخ المنصف لا يقول ان جميع الاساقفة والرهبان الذين اهاجوا سخط ايسداروس وحركوا غضبه نحوهم كانوا اشراراً او غير مسيحيين حقيقيين · صحيح ان الاساقفة في بعض الاحايين كانوا يظهرون عناداً وتشبثاً بالرأي مع استبداد في الحكم وجور في السلطة ولكنهم كانوا ايضاً امناء نشيطين

يوجد رهبان كثيرون لا يذوقون اللحم الا في ايام الاعياد الثلاثة الكبرى في السنة ولعل سبب ذلك لبس التقشف والزهد بل الشح والتقتير وحب المال الذي اصبح الفرقة الحادية عشرين جماعة الرهبان المتزهدين

معتدلين في عيشتهم · اما الذي حدا بهم الى هذا الاعتدال في المعيشة هو عدم امكانهم اتمام الواجبات المفروضة عليهم وهم هزال ضئال خاضعون لناموس الرهبنة القاسي القاضي بالزهد وانهاك الجسم · والذي يراجع ما كتبه سقراط المؤرخ عن أسقف من شيعة نوفاتيانوس اسمه سيسينيوس يتضح له ما كان يعتقده اولئك في الاساقفة الذين عاشوا باعتدال في المأكل والملبس وكيف انهم كانوا يظنونهم مترفين متطرفين مفرطين

وقد شهد سقراط عن هذا الاسقف انه كان متعلمًا متهذبًا بارعًا في علوم المنطق والفلسفة و بالاخص في العلوم اللاهوتية ومعرفة الكتب المقدسة فضلاً عن فصاحته وزلاقة لسانه · ولكن هذا المؤرخ يلوم الاسقف المذكور لانه «لم يكن بسيطًا في مأكله لان مائدة طعامه كانت مزدانة بانواع الاواني الفاخرة مع ميله الشديد للاعتدال في المعيشة · كذلك كانت ملابسه ناعمة رقيقة يلبس الابيض الناصع من الثياب ويستحم مرتين في اليوم في الحمامات العمومية » · قال سقراط «وحدث ان بعضهم سأل سيسينيوس ان كيف يجوز له الاستحمام مرتين في اليوم مع انه اسقف · فاجاب هذا الاسقف انه لا يستطيع الاستحمام ثلاث مرات في النهار لعدم وجود وقت عنده والا لكان يفعل ذلك » · ومما يدل على قوة حجة سيسينيوس وغزارة مادته انه ذهب يومًا ما لزيارة زميله الاسقف ارساشيوس فالتقى عنده ببعض الاصدقاء الذين اعترضوه للباسه الثياب البيضاء بقولهم انها لاتلائم الاساقفة لخروجها عن حد الحشمة · ثم سألوه قائلين ان اين ورد

في الكتب ان الكاهن يلبس الملابس البيضاء · فردّ عليهم بقوله — اجيبوني انتم اولاً اين ورد في الكتب ان الكاهن يلبس الملابس السوداء القاتمة وانا اجيبكم عن سؤالكم · فلما عجز السائلون عن الجواب اندفع صاحبنا الاسقف يبرهن لهم على صحة عمله فقال · «انكم لم تقدروا تقنعوني بضرورة ارتداء الاسقف الملابس السوداء ولكنني افحمكم ببراهين من الكتب المقدسة بان لا لوم ولا تثريب على الكاهن اذا لبس الثياب البيضاء · واول شاهد على ذلك قول سليمان الحكيم «لتكن ثيابكم بيضاء » وكذلك جاء في الانجيل المقدس ان مخلصنا كان يتزر بالملابس البيضاء كما انه اظهر موسى وايليا امام الرسل في ساعة التجلي بثياب بيضاء كالثلج » · قال سقراط ان سرعة خاطر هذا الاسقف ومتانة حجته خلبت عقول الحاضرين وسلبت البابهم ·

قلنا في ماسبق ان ايسداروس كان يحب كريسوستم اسقف القسطنطينية حبًا مفرطًا حملهُ على الكتابة ضد بطريركه ثوفيلس بلهجة عنيفة كقوله مثلاً «ان ثوفيلس الذي عنده ولع باقامة الابنية الفاخرة وهوس في عبادة الذهب والمال كان لا يفتأ يخاصم وينافر زميلي ايسداروس الاسكندري بل كان كأنه ضربةٌ انفذت من مصر لاضطهاد هذا الرجل التقي والعالم اللاهوتي الشهير » · ولما مات ثوفيلس وتولى الكرسي بعده كيرلس اثر عليه ايسداروس هذا باحترام اثار كريسوستم وتسجيل اسمه بين اسماء الشهداء كما سيجي · كل هذا ولم يكن ايسداروس فاسد المبداء ضعيف الرأي فانه ارتأى فكرًا هو غاية في الاصابة والاصالة ذلك انه قال ان مطالعة تاريخ الكنيسة

يوجد فشلاً وخيبة عند القارئ لسبب مايراه فيها من الشرور والآثام التي لايصح نسبتها الى كنيسة مسيحية راسخة كما ان الذي يراجع حالة الكنيسة الحاضرة من ابناء الاجيال الآتية يشك في حالتها هذه ويغير اعتقاده من نحوها · ولهذا القول اثر كبير من الصحة فانه في ذلك العصر كان قد فشى في الكنيسة المصرية مبداء عبادة القديسين والشهداء وعمَّ جميع الكنائس في مصر باسرها ثم انتقل منها الى الكنائس الكاثوليكية بعد ذلك واصبح اليوم مبداءها التي تسير عليه بل قد تطرفت فيه جداً بينما الكنيسة الرومانية والكنيسة القبطية في عصرنا الحاضر قللتا من اهمية عبادة القديسين واصبحتا تحترمانهم فقط · وقد بلغ الحد بالكنيسة القبطية في عصرها الاول انها كانت تبحث عن بقايا وذخائر اولئك الشهداء وتدفنها في كل كنيسة تبنى حديثاً حتى ان هذه الآثار لم تكن كافية لجميع الكنائس فاضطر الشعب الى استخراج رفات وعظام القديسين والشهداء المصريين من مدافنهم ووضعها في الكنائس ليس في مصر فقط بل وفي القسطنطينية وباقي اجزاء المملكة الرومانية

كذا بداء الشعب المسيحي في ذلك العصر بزيارة الاراضي المقدسة في مصر وغيرها وما زال الاقباط الى يومنا هذا يؤدون هذه الزيارات سنوياً لمزارات قديسيهم بمصر مع ان اولياء المسلمين فيها اهتضموا صيت القديسين المسيحيين في اماكن كثيرة كما في طنطا وغيرها من الجهات حتى اصبح المصريون لا يعرفون مزاراً الا لاولئك الاولياء الحديثي العهد

ولنذكر ايضاً عادة اخرى جاءت للديانة المسيحية مع الوثنيين الذين

اعتنقوها وهي مسألة الاشجار المقدسة واحترامها · واكثر هذه الاشجار احتراماً كانت شجرة البلسم التي يقولون عنها الآن ان الرب يسوع قدسها لانه جلس تحتها مع والديه ليستريحوا من وعثاء السفر اثناء مرورهم على المطرية · ومن حسن الحظ ان اشجار البلسم هذه تلاشت من البلاد برمتها لانها جاءت من بلاد اجنبية لا يوافق هواؤها هواء هذا القطر وتطرق اليها الفناء بسرعة مع اعتناء الامبراطور اركاديوس بامرها اعتناءً زائداً حتى انه اصدر امراً يقضي بعدم قطع شجرة واحدة من اشجار البلسم في البلاد المصرية باسرها وان الذي يبيع او يشتري واحدة منها يعدّ مذنباً ويغرم خمسة جنيهات ذهباً · اما الشجرة الموجودة بالمطرية الآن التي يعتبرها الاقباط الكاثوليك انها مقدسة فليس يعرف لها اصل ولكنها في الغالب من فصيلة الجميز لا يزيد عمرها عن ٢٠٠ سنة

وفي ذلك الحين اتم جماعة العلماء من الرهبان ترجمة ونسخ كثير من الكتب والاسفار منها ترجمة العهد الجديد الى الثلاث لغات القبطية المختلفة وهي اللغة الصعيدية المستعملة قبلي اسيوط واللغة البشمورية او الفيومية واللغة البحيرية الشائعة في مصر والوجه البحري · وقد ترجموا تواريخ كثيرين من الشهداء والقديسين الى اللغة القبطية وترجموا تآليف اكثر الآباء الاولين · ومما اشتهر في القرن الرابع هذا كتابات اتباع اغنوسطينوس العجيبة الشكل · واشهر من هذا كله اربع نسخ من العهد الجديد كتبت في اواسط هذا القرن توجد واحدة منها في الفاتيكان برومية والثانية بباريس

والثالثة في بطرسبرج والرابعة في دار التحف البريطاني يفاخر بها الغربيون المصريين و يزدهون عليهم بها مع انها صنع ايدي آبائهم الاكرمين ولكن الابناء فرّطوا فيها وافرطوا في حفظها فصارت الى ايدي من يجلونها ويعرفون قيمتها · وعلى عنوان النسخة الموجودة في لندن كتابة تشير الى ان ناسخ هذه النسخة عقيلة من اكرم العقائل المصريات اسمها تكلا كتبتها بعد ارفضاض المجمع النيقاوي بوقت قصير · وقد يسهل معرفة جميع هذه النسخ بوجود كلمات فيها مأخوذة من اللغة المصرية القديمة

وفي بداءة القرن الخامس عمّ بناء الكنائس في المدن التي اقيم فيها الجنود الرومانية وتكريسها للاسقف الاريوسي جرجس الذي سبق معنا القول بانه قتل في الشغب الذي احدثهُ الوثنيون بالاسكندرية واعتبره الرومانيون في مصاف الشهداء القديسين ولكن المصريين كانوا يكرهونه ويوجهون اليه كل لوم ومذمة · ولقد افرط الرومانيون في اكرام جرجس هذا افراطاً عدّ اساءة للمصريين حيث مثلوا هذا الاسقف الهرطوقي راكباً على ظهر جواد ركوب المنتصر الظافر وتحت سنابك جواده تنين قد اغمد سيفه فيه كما صوّر المصريون مار جرجس المصري ولكن الرومانيين قصدوا بهذا التنين الغلطات التى ارتكبها البطريرك اثناسيوس وتغلب عليها جرجس بقوّته ومهارته · ولا تزال كنيسة من الكنائس المكرَّسة لجرجس الروماني قائمة لهذا العهد داخل اسوار القلعة الرومانية «بمصر القديمة» وهي تسمى كنيسة مار جرجس ومازالت في ايدي الروم «اليونان» ليومنا هذا

ولكنهم تناسوا اسم مار جرجس الاريوسي ويزعمون ان كنيستهم مكرسة لمار جرجس الشهيد المصري

وقد بنيت كنيسة اخرى باسم جرجس الاريوسي في مصر الوسطى ببلدة طولمايس «جرجا» ثم تغلب اسم هذا القديس الاريوسي على اسم المدينة اليوناني ولذلك دعيت هذه البلدة باسمهِ (جرجا) الى يومنا هذا · وقد ابطل مسيحيو مصر سقف الكنائس بالحجارة مما كانوا يستعملونه في العصر الوثني واستبدلوا الحجر بالخشب لسقوف الكنائس

وقد مكث في مصر بين سنة ٣٩٠ و ٤٠٣ رجل اسمهُ يوحنا كاسيانوس جاءها لذات الغرض الذي وفد لاجله كثيرون قبله وهو درس احوال الرهبان ومعرفة ما في الاديرة في هذه البلاد التي عرِفت بكثرة الرهبان وتعدد الاديرة · وقد تولىّ يوحنا هذا العجب مما شاهدهُ من الصعوبات والمشاق التي يتكبدها جماعة الرهبان والنفس منهم طيبة راضية وظهر عجبه هذا فيما كتبه عنهم من انهم يعمدون الى الزهد في اماكن بعيدة عن الماء وباقي احتياجات الحياة حتى انهم كثيراً ما يضطرون الى حمل ما يلزمهم على منكبيهم ويسيرون بهذه الاحمال الثقال مسافة قد تزيد عن ثلاثة او اربعة اميال · وقد كتب ما كتبهُ عنهم باللغة اللاتينية نقلاً عن المصرية بواسطة مترجم كان يسير معه ليفهمه ما يسمعه من افواه المصريين .واستنسخ ايضاً القوانين التي كان معمولاً بها في ثلاثة او اربعة من الاديرة الشهيرة في مصر وترجمها الى اللغة اللاتينية لتكون

مشكاة يهتدي بها الرهبان الغربيون ·

وبين الذين زاروا مصر في ذلك العصر كاتب ارمني مشهور اسمه موسى من بلدة خورين في ارمينيا كان قد وفد الى هذه الديار مع زمرة من رفقائه على مصاريف خزينة بلادهم لكي يدرسوا في مدارس الاسكندرية المسيحية والوثنية منها فاستفادوا فائدة كبرى وافادوا بلادهم ايضاً في انهم ترجموا اكثر كتب الاسكندرية المكتوبة بخط اليد الى اللغة الارمنية وهو عمل افاد اوربا باسرها بعد ذلك الحين باجيال كثيرة في انها اهتدت الى ما كتبه هؤلاء الطلبة فنشرته وحصدت ما غرست ايديهم ولا تزال اكثر هذه الكتب الثمينة موجودة بايدي الباحثين الحاليين وصلت اليهم من دير ارمني في مدينة البندقية (بايطاليا) وهي من مؤلفات موسى ورفقائه · ومن الحقائق الثابتة انه في النصف الاخير من القرن الرابع وفي بداءة القرن الخامس وصلت مصر الى الدرجة التي كانت فيها في عصر الفراعنة والبطالسة في انها كانت مصدر العلوم والمعارف ومنبع التمدن الصحيح والتهذيب الحقيقي للعالم باسره

ولكن من موجبات الاسف ودواعي الحسرة على مصر انه في القرن الرابع كان التنسك والتزهد او هو قتل الانفس واتلاف الاجساد لا يزال سارياً في مصر فضلاً عن انه في نهاية هذا القرن اضاعت الاسكندرية فخر كنيستها واساس مجدها الا وهو المدرسة اللاهوتية التي نبغ منها اشهر القديسين واعظم المعلمين التي انحطت وتدهورت مذ ما نقلها رودون

الذي اخلف ديديموس الضرير في رئاستها الى بلدة سيد في اقليم بامفيليا دون ان يوجد سبب يدعو الى هذا النقل ودون ان يهتم البطريرك ثوفيلس ويعارض في نقلها الذي اضر بالطلاب المسيحيين في الاسكندرية بل اضر بالمدرسة نفسها فانها لم تبقَ طويلاً بعد انتقالها من هذا المكان حتى اصبحت في خبر كان · ومن ذلك الحين تمهد السبيل امام العلامة هيباشا ولم يبقَ ثمة مقاوم للفلسفة الوثنية التي دبت فيها روح الحياة بعد ان اوشكت على الموت ولكنها كانت حياة النزع الاخير والحشرجة فانها لم تتبع خطة التعليم والتفهيم بل سارت في طريق المشاغبات والقلاقل حتى انه عندما جلس على السدة البطريركية كيرلس وديسقورس — وهما اللذان رفعا منار الديانة المسيحية في مصر حتى اوصلاها الى اعلا الدرجات — اجهزا ايضاً على ما بقي للوثنية من رمق فسارت الى الاضمحلال سير السريع المستعجل

الفصل الثالث والعشرون

كيرلس الكبير

سنة ٤١٢ للمسيح و ١٢٨ للشهداء

بعد ان تنيح البطريرك ثوفيلس خلفه ابن اخته كيرلس على الكرسي البابوي الاسكندري وكان لم يزل شاباً في سن المراهقة اشتهر بالعناد وصلابة الرأي لدرجة اوقعته في مشاكل واتعاب جمة خصوصاً في السنوات الاولى

من رئاسته · وقبل ان يسام كيرلس لهذا المنصب الخطير كان قد صرف نحو خمس سنوات في دير وادي النطرون يتلقن ما عند رهبانه من العلوم والمبادئ المعروفة عن اولئك الرهبان حتى ان الاب ايسداروس قال انهُ ظهر له ان كيرلس كثيراً ما يشغل فكرهُ ويتعب باله في امور دنيوية صرفة · وعلى كل حال فان صفات كيرلس الادبية لم يكن فيها ما يستحق الذم ولم يكن في سلوكه ما يوجب الانتقاد ولا غرابة في ذلك فان الفرق بين باباوات الاسكندرية وباباوات رومية في مسألة الصفات الادبية والسلوك الشخصي كان كبيراً واضحاً اذ انه لم يكن يوجد شيء يشين آداب بطاركة مصر او يحط من سمعتهم حتى ان اثناسيوس وكثيرين من زملائه عند ما اتهمهم اعداؤهم بالمرطقة والابتداع كان هؤلاء الاعداء يسعون كثيراً في الصاق تهمات مشينة بشرفهم ولكنهم لم يثبتوها فضلاً عن ان البطاركة المصريين كثيراً ما برهنوا على حسن اعمالهم ودحضوا باقوى دليل ما نسب اليهم من سوء الذكر · اما غلطات كيرلس ومساويهِ فكانت فيما يتعلق بوظيفتهِ واعمالهِ كأن يكون ضعفه في عدم ردّ خصم او مقاومة عدو وخمولهُ في وقت كان فيه الامبراطور لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمرهِ حيث كان البطريرك يستطيع الاستقلال في عملهِ الديني والزمني خصوصاً وانهُ كان لدى كيرلس جيش عرمرم مؤلف من نيف وخمسة آلاف راهب يقطنون وادي النطرون · ومعلوم للقراء من الذي مرّ ان الرهبان المصريين في هاتيك الايام كانوا خيراً من الجنود المدربة وقد نجحوا في مواقع عديدة وقاوموا مقاومة الابطال

في حومة النزال ونازلوا الجيش الروماني المنظم فانتصروا عليه وفلوا جموعه وشتتوا شمله

وفي الوقت الذي حلَّ فيه انتخاب كيرلس للبطريركية ظهر له خصم عنيد اسمه تيموثوس رئيس شمامسة الاسكندرية كان له انصار اقوياء حتى خشي من حدوث معركة شعواء بين انصار الخصمين قبل ما يستتب الامر لكيرلس ويتم انتخابه

ولما وطَّد كيرلس نفسه على الكرسي البطريركي بداء في اضطهاد اتباع نوفاتيانوس المرطوقي اضطهاداً عنيفاً وكانت هذه الشيعة قد قويت في مصر وصار لها أسقف خاص بها اسمهُ ثيوبمتوس جرَّدهُ كيرلس من جميع املاكهِ ومقتنياتهِ واخذ منه ذخائر الكنيسة التي كانت تحت يدهِ · ولا يسعنا الآن اطالة الكلام عن السنوات الاولى من حكم كيرلس بل نختصر فيها ما أمكن الاختصار ليس لقلة المادة او لعدم معرفتنا شيئاً عنه بل لان أعمالهِ في هذه السنوات الاولى ذكرت بالتطويل الكافي في كتاب الاستاذ كنجسلي عن هيباشا * وكيرلس · فالذي يهمه شأن الاقباط وكنيستهم عليه بقراءة هذا الكتاب اذ فيه يتجلى له حال الكنيسة المصرية في ذلك الوقت وما كانت عليه من علم وجهل وقوَّة وضعف وغير هذا من اجتماع النقيضين مما لا يجده

* (المترجم) بين يدي الآن كتاب ثمين هو الذي وضعه الاستاذ تشارلس كنجسلي عن العلامة المصرية الشهيرة هيباشا (وقد دعيتها آنا « حبشية » وهو الاسم الدارج الآن) وهو يحتوي الى ٤٦٠ صحيفة بقطع هذا الكتاب · والمؤلف المذكور غزير المادة للبذ على شكل رواية علمية فلسفية دينية تاريخية يود الذي يقرأه ان يأتي على آخره مرة واحدة لو ساعده الوقت · وليس هذا مجال واسع لذكر طرف مما فيه ولكن اذا أتيح لي فيما بعد عربته كما عربت هذا حتى لا يحرم أبناء أمتي من معرفة أهم ما يتعلق بكنيستهم في ابان مجدها وزهوها والوقوف على الفرق بين المرأة القبطية اليوم وأختها بالامس

في كتاب آخر حيث يتضح له مقدار العداوة الشديدة بين هيباشا وكيرلس وضعف وارتخاء اورستيس حاكم مصر الاسمي وتعذيب هيراكس وشروع اليهود في ذبح المسيحيين وكيف ان كيرلس استدعى جيش الرهبان بحكمة ونفى جميع اليهود الساكنين في الاسكندرية كل في دوره . وقد ارسل اورستيس شكواه ضد كيرلس الى القسطنطينية ولكن لم يجسر احد من رجالها على التداخل في شؤون البابا الاسكندري فانه كان مطلق التصرّف في ذلك الحين .

وقد نصح الشعب للبطريرك كيرلس بمهادنة الوالي اورستيس ومسالمته فالتقى به بعد ان طرد اليهود من الاسكندرية واصطلح معه وقدّم له نسخة من الانجيل باحتفال حافل ففرح اورستيس بهذا الصلح وسرّ بتحسن العلائق بينه وبين حاكم مصر الحقيقي الا ان كيرلس لم يقدر يضبط رهبانه من التهوّر ما لم يكن متقلداً زعامتهم . فحدث مرّة ان الرهبان التقوا باورستيس في الطريق في مكان حرج وكادوا يوردونه حتفه لولا ان بعضهم انقذه من ايديهم وأسر واحداً منهم في هذه الوقعة الصغيرة وعذبه اورستيس الى ان اماته انتقاماً وحنقاً حتى هاج سخط البطريرك واشتد غضبه فارتكب امراً نكراً شاذاً تاب عليه فيما بعد توبة حقيقية — ذلك انه احتفل بتشييع جثة ذلك الراهب المسكين احتفالاً باهراً واقام له قداساً وجنازاً في الكنيسة واعلن اسمه في مصاف الشهداء والقديسين كما لو كان استشهد لاجل ايمانه بواسطة احد المضطهدين الملحدين . ومما سوّد تاريخ كيرلس بل تاريخ

الرهبنة باسرها ذلك الحادث المريع اعني به قتل العلامة هيباشا من ايدي جماعة الرهبان المتجمهرين . وقد ورد شرح هذا بالاسهاب في كتاب كنجسلي ونحن نقتطف هنا ما كتبه سقراط في هذا الصدد بالايجاز حيث قال :

« كان في الاسكندرية عقيلة اسمها هيباشا كريمة الفيلسوف ثيون اتي بلغت من العلم والمعرفة في الآداب والعلوم مبلغاً لم يصل اليه احد من فلاسفة عصرها وعلمائه . ولما قبضت بيدها على زمام مدرسة افلاطون وبلوطينوس اخذت تشرح للطلاب مبادىء الفلسفة واصولها وكان تلامذتها كثيرين يجيئون اليها من كل فج سحيق لاكتساب المعارف والآداب منها وقد اشتهرت بحسن سمعتها وزكاء صيتها وسلامة طبعها ورقة جانبها ودماثة اخلاقها . كل هذا نتج من التهذيب والتربية الصحيحة التي وسعت مداركها ورقت عقلها . وكانت كثيراً ما تظهر امام الحكام والولاة بمظهر الشهامة والانفة ولم تكن تترك جمعية رجال الا وتبرهن فيها عن التصرف بتواضع وحكمة وطهر مما اشتهرت به وعرف عنها وجعل لها منزلة رفيعة بين الناس واحلها في اعين القوم محلاً مجلاً . ولكن خانها سعدها وراحت فريسة الاغراض السياسية وضحية الغيرة الشخصية والمنافسات الذاتية التي تفاقم امرها في ذلك الحين . وسبب ذلك انه لاختلاطها الدائم مع اورستيس الوالي ومقابلتها له على الدوام افترى عليها المسيحيون بانه بواسطة تأثيرها عليه رفض المهادنة مع كيرلس وحينئذ ائتمر ضدها جماعة من الذين اعمتهم الغيرة الدينية الفارغة تحت زعامة عريف اسمه بطرس وكمنوا لها عند ما كانت

عائدة لمنزلها في عربتها فهجموا عليها واخرجوها من العربة بعنف وساروا بها الى كنيسة سيزار يوم حيث جرّدوها من ثيابها بالمرّة وقتلوها بواسطة تشريح جسدها بالاصداف · وبعد ان مزقوا جسمها تمزيقاً اخذوا لحمها الممتزج بدمها واحرقوه في مكان بالاسكندرية اسمه سينارون — هذا ولا ريب عمل وحشي فظيع تأباه الانسانية وتنفر منه طباع الضواري · عمل يلصق وصمة خزي وفضيحة وعار ليس بكيرلس فقط بل بكنيسة الاسكندرية بامرها»

ولا يوجد سبب يدعو الى الظن بان كيرلس كان يعرف شيئاً عن هذه الحادثة المريعة قبل وقوعها ولكن هذا لا يبرئه من المسئولية الكبرى الملقاة على عاتقه في هذا الامر الذي كان نقطة سوداء في صحيفة الكنيسة المصرية البيضاء · وقد ظل هذا البطريرك عدة سنين بعد هذا الحادث هادئاً ساكناً بعيداً عن كل خناق وشقاق متمماً واجباته المنوطة به حتى انه لم يظهر ادنى مقاومة عند ما صدر امر امبراطوري عالٍ يقضي بعدم تداخل الاكليرس في المسائل السياسية وتحديد عدد القندلفتية (١) (خدمة الكنائس) وتحسين سيرهم وسلوكهم وكان ذلك عقيب تلك الحوادث المزعجة في الاسكندرية · ومما اتاه البطريرك كيرلس في سنيه الاولى انه رفض تسجيل اسم كريسوستم

(١) ان هؤلاء القندلفتية لم تكن وظيفتهم قاصرة على خدمة الكنائس بل كانوا يشتغلون كتمورجية في الاسبتاليات وممرضين في منازل الفقراء المرضى · وكانوا يعدون من ضمن الاكليروس ولكنهم كانوا خاضعين لقوانين الحكومة ونظاماتها خصوصاً بين سنة ٤١٦ و ٤١٨ حينما صاروا تحت مراقبة الوالي قصاصاً لهم على عصيانهم وميلهم الى الشقاق والنفار ولكن لما اخلدوا الى السكينة صاروا تحت امرة البطريرك · ويغلب على الظن ان جماعة القندلفتية هؤلاء كانوا علة الشقاق الذي حدث في مجمع افسس سنة ٤٤٩ حينما استفحل امره بسببهم كما سيجيء·

بطريرك القسطنطينية في قائمة الشهداء والقديسين وكتب الى اتيكوس اسقفها يسأله حرمان كريسوستم والاّ فهو يحرم اتيكوس نفسه من الشركة في بطريركية الاسكندرية ولكن ايسداروس تغلب على كيرلس واقنعه بتغيير عزمه هذا وتقييد اسم كريسوستم في قائمة الشهداء المصريين (١)

وقد ورد في رسالة العيد الكبير التي اصدرها البطريرك كيرلس سنة ٤٢٩ كلام قاس ضد بدعة نسطور التي اخذت في تهييج خواطر العالم المسيحي · اما نسطور هذا فهو جرماني الاصل كان قد ترهبن في دير قريب من انطاكية · وحدث في سنة ٤٢٨ ان الامبراطور ثيودوسيوس الثاني ملّ كثرة الشقاق الديني الذي تكرر وقوعه بين جماعة الاكليروس في القسطنطينية فصمم على عدم تعيين بطريرك من هذه المدينة وحينئذ استدعى الراهب نسطور ليعينه في مسند البطريركية الذي كان خالياً في ذلك الوقت

وكان نسطور هذا مثل كثيرين غيره من رهبان ذلك العصر في انه كان غيوراً متعصباً وجاهلاً متحمساً مع اهمال في امر نفسه وعدم اعتناء بجسده وحاجياته · فلما وفد على القسطنطينية ورقى ذلك المنصب وضع نصب عينيه تنفيذ جميع اغراضه بقدر ما تصل اليه قوته ونفوذه ·

(١) ان هذه القائمة كان عبارة عن لوحات مصنوعة اما من الخشب او العاج او الذهب أو الفضة ومحفورة عليها الاسماء التي تذكر في القداس وهي (١) اسم العذراء مريم والرسل وبعض مشاهير القديسين و (٢) أسماء الاشخاص المعروفين الذين ماتوا على المبدأ الديني الصحيح و (٣) أسماء بعض الاشخاص الاحياء الذين ترى الكنيسة انهم مستحقون للاكرام والاجلال · وكانت العادة في مصر واسبانيا وفرنسا ان هؤلاء الاشخاص يذكرون قبل القداس ولكن في رومية كانوا يلفظون أسماء بعضهم قبل القداس وبعضهم بعده

فبدأ اوّلاً باضطهاد اتباع آريوس ثم اتباع نوفاتيانوس ثم جميع الملل الاخرى الموجودة في المملكة الرومانية ولكنه ما عتم ان القيت عليه تهمة الهرطقة والابتداع وهي تهمة كان تؤدي بمن تقع عليه الى ادنى دركات الانحطاط في هاتيك الايام التي كثرت فيها البدع وتعددت في اثنائها الهرطقة بكل انواعها · اما هرطقة نسطور هذه فلم تكن كغيرها نشأت عن اختلاف في عقائد وضعها الآباء والاحبار بل هي كانت جوهرية تختص بأهم مواضيع الايمان واعظم اركان الدين المسيحي · ذلك ان نسطور ذهب الى ان ربنا يسوع المسيح لم يكن الهاً في حد ذاته بل هو انسان مملوء من البركة والنعمة او هو ملهم من الله فلم يرتكب خطيئة وما أتى أمراً اداً

وقد جرت العادة وقتئذٍ بارسال رسائل الاعياد الى الرعايا المصريين القيمين في البلاد الاجنبية · وحدث ان رسالة كيرلس عن عيد الفصح التي ورد فيها ذكر نسطور وهرطقته أرسلت الى المصريين الموجودين في القسطنطينية فقرأها نسطور واحتدم غيظاً على ما ورد في هذه الرسالة من الكلام القارص ضد افكاره وتعاليمه وما فيها من تسفيه رأيه وتفنيد مذهبه · وفي سنة ٤٣٠ وفد على القسطنطينية من اوروبا اسقف من اتباع بيلاجيوس (وهم جماعة يجولون في البحار والقفار لا مقر لهم يعرف) ومعه جماعة من رفاقه فاتبع نسطور في ذلك القواعد الادبية المرعية بين رؤساء المذاهب وكتب الى سلستين بطريرك رومية يعلمه فيه بوصول هذه الجماعة التي تعد تابعة له ويسأله رأيه فيما يجب اتخاذه نحوهم · وقد رأى نسطور انه حفظ كرامة

البطريرك الروماني بما كتبه له عن اتباعه ولذلك انتهز هذه الفرصة وذكر في الكتاب عينه شكواه من معاملة كيرلس له وتسفيهه آراءه وظن انه بهذه الحيلة يستميل اليه افكار البابا الروماني ليعضده ضد البابا الاسكندري · وقد طال على نسطور الزمن ولم يصله رد من سلستين بابا رومية فكتب له ثانية في هذا الصدد ولم يمض زمن يذكر حتى ورد عليه جواب من بابا روميه يعتذر فيه عن تأخيره في الرد لان جواب نسطور وباقي الاوراق الاخرى المرسلة معه دحضاً لافكار كيرلس كان لابد من ترجمتها جميعها من اللغة اليونانية الى اللاتينية حتى يتمكن سلستين من استيعابها وفحصها جيداً · ثم ارسل بابا روميه في هذه الاثناء جواباً الى كيرلس يطلب منه ايضاحاً وتفصيلاً عن حقيقة هذا الخلاف · فارسل كيرلس — الذي كان عالماً في اللاهوت وباقي الامور الدينية اكثر من نسطور وسلستين — مكتوباً الى بابا رومية يحيطهُ فيه علماً بمسألة نسطور فلما وقف سلستين على هذا الايضاح عدّ افكار نسطور محض تجديف او هي تخريف وتهريف · ثم كتب كيرلس كتابين الى نسطور يقول له فيهما ان حركة الخواطر التي قامت ضده لم يكن منشأها رسالة العيد بل هي نتجت من رفض نسطور اعطاء العذراء لقب « ام الاله » وبعد ان تداولت المكاتبات الكثيرة بين الثلاثة البطاركة اتفق بطريرك الاسكندرية وبطريرك رومية على حرمان نسطور بطريرك القسطنطينية وشجب افكاره · وكان البادئ في هذا الحرمان سلستين فانه عقد مجمعاً حكم على نسطور بانه هرطوقي مبتدع ثم كتب جواباً في ١١ اغسطس سنة

٤٩٠ الى كيرلس يطلب منه تشكيل مجمع والحكم على نسطور بمثل هذا الحكم الذي اصدره هو · فشكل كيرلس مجمعاً مصرياً حكم على نسطور مثلما حكم عليه مجمع رومية ثم انفذ اربعة اساقفة من مصر الى القسطنطينية يحملون خطابات من هذه المجامع تحتوي على الاحكام الصادرة ضد نسطور ولكن قبلما تطأ ارجلهم ارض القسطنطينية اصدر الامبراطور ثيودوسيوس الثاني امره بتشكيل مجمع عام يلتئم في افسس وكان ذلك بناء على طلب نسطور

فشرع كيرلس يستعد لهذا المجمع ولكنه كان يخشى من عواقبه لانه داخله الريب في غاية هذا المجمع واغراضه · قيل ان كيرلس اخذ معه الى القسطنطينية مقداراً وافراً من الذهب الوهاج دفعه رشوة لموظفي البلاط الامبراطوري الذين ظن فيهم المقدرة على مساعدته للحصول على نتيجة مرضية · كذلك اصطحب معه اكثر من خمسين اسقفاً مصرياً في مقدمتهم ذانك الناسكان المشهوران وهما شنوده الاخميمي وبقطر السوهاجي · ثم استقبلهم ممنون اسقف افسس — وهو مصري الاصل — ومعه عدد عديد من الاساقفة الذين ضموا اصواتهم الى اصوات اخوانهم المصريين حتى فاقوا في العدد اتباع نسطور ومريديه فلذلك اضطر هذا الى عدم الحضور في المجمع بل شكل مجمعاً من رفاقه وحكم على كيرلس وممنون بالحرم والعزل من الوظائف الكهنوتية ·

وقد بدأت جلسات هذه المجامع تحتشد في شهر يوليو من سنة ٤٣١ وظهر للملأ انه لا يمكن ايجاد اتفاق ووئام بين هذه الجماعات الناشزة النافرة

بل كنت ترى الحزبين يسيران ضد بعضهما كما لو كانا جيشين متحاربين معسكرين كل منهما تجاه الآخر · ولكن هذين الحزبين الدينيين استعملا الاغراض السافلة والغايات الدنيئة ليفوز الواحد منهما على الآخر · فكانا يكتبان كتابات ضد بعضهما ويدفعونها الى الشحاذين يجولون بها في الشوارع والازقة وكانا يدفعان الرشوة لكل من يساعد جانباً منهما والنتيجة ان كل جماعة كانت تشتكي مر الشكوى من المعاملة التي تعاملها بها الجماعة الاخرى · ومما يحكى عن انبا شنوده في هذا المقام انه حضر مرة في الغرفة التي اجتمع فيها الاساقفة وكان فيها عرش وضع عليه كتاب الانجيل ثم حضر بعده نسطور الذي لم يراع حرمة الكتاب المقدس بل نقله من على العرش المخصص له وجلس مكانه فلما رأى شنوده ذلك نهض من مكانه مغضباً وتناول الانجيل وصفع به وجه نسطور صفعاً عنيفاً واهانه اهانة فادحة · وقد عد عمل شنوده هذا مذموماً لانه اراد ان يحفظ كرامة الانجيل من حيث هو اهانه لانه ضرب به الذي اهانه اولاً · وقد تساءل نسطور عن غريمه هذا الذي ضربه وحقره فقيل له انه انبا شنوده فاعترض على وجوده في المجمع مادام هو ليس اسقفاً ولا كاهناً ولكنه راهب بسيط · فرد عليه انبا شنوده بقوة عارضة قائلاً « ألا تعلم من انا ؟ — انا رجل ارسله الله ليزيح الستار عن شرورك ويطلب لك القصاص على خطاياك وغرورك » قال المؤرخ الذي نقلنا عنه هذه الفقرة ان نسطور حالما سمع هذه الكلمات سقط على الارض وسط المجمع كمن اصابته نوبة او كان به صرع · وقد قال اكثر

المؤرخين ان البطريرك كيرلس سام شنوده كاهناً في تلك اللحظة لكي يكون له الحق في حضور جلسات هذا المجمع

ومن الذين ساعدوا كيرلس في هذا المجمع بوطيخوس رئيس احد الاديرة الذي بعد هذا الزمن بعشرين سنة حكم عليه بالحرمان لاتهامه بالهرطقة . ومن الذين عضدوا كيرلس في هذا الشأن ومدوه بقوتهم الروحية ومواهبهم السامية هو الراهب دلماطيوس الذي قلنا انه كان جندياً في الحرس الامبراطوري واصبح الآن زاهداً حتى ظل مقيماً في صومعته ثماني واربعون سنة ولم يبرحها مرة واحدة . وقد ذاع صيت دلماطيوس في جميع الانحاء الرومانية ولذلك شعر كيرلس بعظم الفائدة التي ينالها من استمالة مثل هذا المتبتل الشهير الى جانبه وانه يقدر يؤثر على افهام العامة بصداقته ومودته . كذلك تمكن كيرلس من برطلة نصف بطانة الامبراطور بغاية ما يكون من التبذير والاسراف حتى انه استنفد خزينة الكنائس المصرية في هذا الصدد وبهذا وذاك تم له ما يتمناه وفاز ببتغاه . فلما رفع الامر الى دلماطيوس طلب جميع الرهبان الذين في اديرة القسطنطينية ومعهم رؤساء الاديرة المذكورة وسار هو في مقدمتهم باحتفال حافل مشى فيه جميع سكان هذه المدينة الكبرى وهم يغنون اغنية حماسية ويصيحون بأعلى صوتهم طالبين مقابلة الامبراطور . وقد التف هذا الجم الغفير حول سراي الامبراطور كالحلقة المفرغة التي لا يعرف طرفاها وكان الرهبان في وسطهم يتغنون ويترنمون بينما كان رؤساء الاديرة قد حظوا بلقاء الامبراطور الذي اذن لهم بمقابلته خوفاً من هؤلاء الرهبان الذين كانوا

كجيش عرمرم يرهب العدو العنيد . وبعد هنيهة خرج الرؤساء من حضرة الامبراطور واوعزوا الى رهبانهم بأن يذهبوا الى الكنيسة وينتظروهم هناك فعاد هؤلاء الرهبان الحفاة الى الكنيسة وفي ايديهم المشاعل تبدد ذلك الظلام الحالك ونغمات اصواتهم العالية تشق عنان الفضاء ثم لحقهم دلماطيوس وامتطى متن المنبر واخبرهم صراحة بان الامبراطور اجاب ملتمسهم ووعدهم بالتعضيد والمساعدة

ولم يكن هذا الكلام لغواً بل هو حقيقي لامشاحة فيه فان الامبراطور ارسل اوامره الى افسس يطلب عزل نسطور وذلك في اكتوبر سنة ٤٣١ فعزل واختير مكانه رجل اسمه مكسيميان . اما نسطور فأعيد الى ديره القريب من انطاكية ومكث هنالك اربع سنوات وأخيراً طلب يوحنا أسقف هذه المدينة نقله من هذا المكان الى مكان آخر حيثما نفوذه الشخصي لا يوجد تأثيراً في النفوس فأجيب طلبه ونفي نسطور الى الواحة الكبرى في مصر الوسطى وقد كانت في ذلك الحين آهلة بالسكان المسيحيين عامرة بخيراتها الكثيرة واراضيها الخصبة

وفي مدة الصيف من هذه السنة كان هؤلاء الثلاثة بطاركة وهم نسطور وكيرولس وممنون — يعتبرون معزولين محرومين بواسطة الاحكام التي صدرت عليهم من المجامع التي عقدها بعضهم ضد البعض ولذلك فهم كانوا أيضاً تحت الحفظ ينام حرس خصوصي على باب الغرف التي يقطنونها . ولكن لما صدر حكم مجمع افسس ضد نسطور بناء على ايعاز الامبراطور صرح

لكيرلس واساقفته بالرجوع الى وطنهم في اكتوبر سنة ٤٣١

ومن موجبات الأسف ان هذا الشقاق لم ينته عند هذا الحد بل استغرق أكثر اوقات كيرلس · اما سبب استفحال هذا النفار فهو انه كان لنسطور حزب قوي في المملكة الرومانية لا يزال موجوداً ليومنا هذا · وقد اشتد الحنق بكيرلس ضد نسطور وهرطقته لدرجة تطرّف فيها هذا لايجاد بدعة اخرى هي قوله ان المسيح طبيعة واحدة(١)

اما اتباع نسطور فهاجروا زرافات ووحداناً الى بلاد العجم وما جاورها حيث لا يزالون متمسكين بذاك الرأي السقيم العقيم ولكنهم من بعض الوجوه يحافظون على تقاليد الكنيسة الاساسية خصوصاً وانهم قرروا في مجمع لهم حرم كل من يقدم على الرهبنة ضد رغبته · اما نسطور فلم يبرح مصر بل ظل فيها الى ان هاجم الواحات قوم من الغزاة الذين عاثوا فيها فساداً وخربوها وأخيراً اخذوا نسطور اسيراً مع غيره من الاسرى حيث اذاقوه مرّ العذاب · وبعد ان اطلق سراحه عاد وقدم نفسه لحاكم اقليم مصر الوسطى الذي القى القبض عليه حالاً لينفيه وقيل انه مات من شدة القسوة

(١) ان هذا التعليم تنكره الكنيستان اليونانية والرومانية وتتبرآن منه ولكن كيرلس وخلفه ديسقورس كانا يعتقدان بذلك الاعتقاد الذي حوكم لاجله ديسقورس وحكم عليه بالحرمان · اما هذا الاعتقاد او البدعة الجديدة التي كتب عنها كيرلس في اجتماعه مع يوحنا اسقف انطاكية قائلا (اذا فكرنا في الطبائع التي تنحصر في الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح نجدها طبيعتين اتحدتا وصارتا واحدة · وحيث ان انفصال الطبيعتين زال بعد الصلبوت وصارتا طبيعة واحدة فنحن نعتقد الآن ان طبيعة الابن هي واحدة اي انه اله متجسد او ان الكلمة صارت جسداً)

التي عاناها في منفاه واسره ولكن سنة موته لا نعلم بالتدقيق الا انه يحتمل انه مات بين سنة ٤٣٩ و ٤٥١

اما البطريرك كيرلس فتنيح سنة ٤٤٤ بعد ان جلس على السدة البطريركية نحو ثلاثين عاماً وخلفه رئيس شمامسته ديسقورس وهو رجل اكثر ثباتاً واوفر مقدرة واغزر مادة من كيرلس · ولكن « لا تعدم الحسناء ذاماً » فان جماعة من نحارير الكتاب في الامور الدينية انتقدوا صفاته وآدابه في كثير من كتاباتهم تتجلى لك حقيقتها فيما يلي

الفصل الرابع والعشرون

منافسة البابوات

سنة ٤٤٤ للمسيح و ١٦٠ للشهداء

لما استوى ديسقورس على عرش البطريركية المصرية كانت العلاقات بين الثلاثة كراسي اللاهوتية الكبرى وهي الاسكندرية ورومية والقسطنطينية قد اخذت في الفتور والضعف · فانه لما تنيح البابا سلستين في رومية خلفه ليو الكبير فصرف كل همه لاعادة الاولوية والاسبقية لكرسيه اعتقاداً منه بانه حق لرومية لا يجب ان ينازعها فيه منازع فتم له الامر وتقرّر في المجمع الثاني العام اعطاء الكرسي الروماني حق السيادة على باقي الكراسي الاخرى · كذلك بطريركية القسطنطينية التي كان قد تقرّر

لما في هذا المجمع العام الدرجة الثانية وكانت ايضاً مركز الامبراطرة لم يهدأ
لها بال لانها لم تكن قوية في حد ذاتها ولذلك كانت تكثر من الشكوى
والتذمر من زميلتيها . أما ضعفها بالنسبة لغيرها فهو ان كثيرين من بطاركة
القسطنطينية بما فيهم كريسوستم الطائر الصيت حكم عليهم بالعزل اما باتحاد
رومية والاسكندرية معاً او بالاسكندرية فقط مع انه لم يصدر هذا
الحكم على احد من باباوات الاسكندرية باتحاد رومية والاسكندرية كما
انه لم يحكم على بابا روماني بالهرطقة سوى هونوريوس الذي حكم عليه
بالابتداع في المجمع السادس والسابع والثامن . ولقد سعى بابا رومية جهده
للاتحاد مع بابا الاسكندرية كما يتضح ذلك من خطاب ارسله ليو الى ديسقورس
في شهر يونيو سنة ٤٤٥ يطلب فيه المؤاخاة والعمل على التداخل في مهام
الامور سوية مادام الاثنان متساويين في الرتبة والدرجة الا ان بابا الاسكندرية
رفض هذا الطلب هازئاً مخطئاً للمقترح ومسفهاً اقتراحه

أما وقد عرفنا مركز الباباوات الثلاثة تجاه بعضهم ومنافسة كل منه
لنده فعلينا ان نعرف مركز ديسقورس بابا الاسكندرية وصفاته الادبية
فنقول ان هذا الحبر اتهم بتهمات كثيرة مثل التي لوثبها غيره من الاحبار
السابقين ولكننا اذا دققنا البحث في جوهر هذه الوشايات والنمائم نجدها
ألصقت به بعد ان أتهم بالهرطقة التي وُصم بها اثناسيوس وغيره من ائمة
الكنيسة القبطية في مثل هذه الظروف التى سهلت على اخصامهم والاعداء
وصمهم بوصمات مشينة لا اساس لها ولا مسحة من الصحة فيها فضلاً عن انه

ديسقورس لم يسمح له الزمان بدحض هذه التهم كما دحضها زملاؤه ليس
لانه لم يكن قادراً على نقضها مثلما نقضها اثناسيوس بل لانه رأى ان هذه
اللمزات والغمزات لا تستحق الالتفات ولا تحتاج الى نقض وابرام مادامت
محض كذب وافتراء . والذي وقفنا عليه من صفات ديسقورس ما جاء في
أقوال احد المؤرخين حيث اورد انه رجل « عنيف شديد وطماع خاطف
كثير الاعتداد بآرائه والتمسك بافكاره . في آدابه سبة ومعرة تهين
وتشين » هذا الوصف تناقله الكتاب الغربيون عن ذلك البطريرك وبنوا
عليه العلالي والقصور من الاوهام والمزاعم مع انه لم يقم احد دليلاً على صحته ولم
يستطع كاتب اثبات حقيقة فيما يختص بطمعه ونهمه او بفساد آدابه وانحطاط
اخلاقه ولو ان الشدة والعنف كانا من صفاته كما كانا من مميزات جماعة الأئمة
والآباء في هاتيك الايام . صحيح ان ديسقورس كان قوى التمسك بآرائه
متصلفاً عنيداً ولكن هذا العناد والتصلف كانا يتملكان فيه عند ما يظهر امام
عينيه أمر مجحف بوطنه او بعقائده الدينية وافكاره اللاهوتية

اما الذين رموا هذا البطريرك بشين الآداب وسوء السمعة فقد بنوا
زعمهم على امر لم يتثبتوا من حقيقته وهذه الحقيقة هي ان ديسقورس كان
متزوجاً زواجاً سرياً بمعنى انه كان قد اخفى امر قرانه لئلا يقف هذا
القران عثرة في سبيل ترقيته . ولا غرو في ان عملاً مثل هذا يعد دناءة
وسفالة ولكنه ليس زنى وفجوراً . زد على ذلك ان يوحنا النيقاوي وجماعة
المؤرخين المصريين كتبوا عنه كتابة ملؤها الاحترام والتكريم حتى ان رجلا

اسمه تاودروس اختصمه ديسقورس وعامله بالضغط والقسوة واتهمه بالهرطقة والبدعة — رجل مثل هذا لا يقال ان له ضلعاً مع البطريرك - شهد عنه شهادة يحسن سكوت المتكلم عليها

ولما كان الشيء بالشيء يذكر نقول هنا ان ديسقورس في اول رئاسته اعتدى على تاودروس هذا اعتداء فاحشاً واتهمه بالانحياز لمبداء نسطور (١) وهزاء يبطريرك انطاكية الذي هو بطريرك تاودروس المذكور ولم يقبل منه شفاعة ولا سمع له كلاماً حتى ان ليو بطريرك رومية وفلافيان بطريرك القسطنطينية نسبوا الى ديسقورس العناد والمقاومة وعدم الميل الى فض المشاكل التي تقع في دائرة كنيسته وكان من نتيجة اعتقادهذين البطريركين في بطريرك الاسكندرية انه عندما تداخل هذا البطريرك في امر يوطيخوس كما سيجيء اعتصبا عليه وأغاظاه غيظاً عظيماً

اما يوطيخوس وهو أرخن من القسطنطينية كان من اشد الناس مقاومة لنسطور وبدعته أُتهم بالهرطقة في سنة ٤٤٨ · والذي رمى يوطيخوس بهذه التهمة رجل اسمه يوسيبوس قصد بذلك اقلاق بال هذا الشيخ البالي الذي

(١) إن اتهام تاودروس بالتشيع لتعاليم نسطور افتراء واضح كما يظهر ذلك جلياً من اقراره الآتي وهو « ان الذي يقول عن العذراء الطاهرة بانها ليست أم الله والذي يذهب الى ان ربنا يسوع المسيح هو انسان فقط أو يقول انه اله وانسان معاً يكون محروماً من الخلاص بعيداً عن المسيح محروما من ام الآباء والقديسين » وهذا الاقرار هو عين الذي اعترف به ديسقورس وخلفاؤه من بعده ولو انهم دخلوا في غمار مناقشات ومناقشات في هذا الصدد ضد اندادهم · والذي يتحرى الصدق ير ان هذا الخصام لم يكن منشأه حب الدين والخوف على العقائد والتعاليم الصحيحة بل نجم من حب الرئاسة والميل الى العظمة والتحكم مما تسلط دائماً في صدري ليو وديسقورس

انزوى في ديره وارتكن القرار من دار الغرور هذه والعيشة في ظلال السلم والسكينة · الا ان فلافيان بطريرك القسطنطينية قاطع يوسيبوس عند ما قام هذا في مجمع الاساقفة المنعقد في القسطنطينية يوم ٨ نوفمبر وقرأ على مسامع الحضور رقعة جاء فيها ان يوطيخوس مجدّف ملحد وعندها قال فلافيان ان هذه التهمة تستدعي الاستغراب والتعجب ولم يزد على قوله هذا حرفاً لانه كان كغيره من بطاركة الاسكندرية ورومية كثير العجب والخيلاء يخشى انتقاد المنتقدين ولوم اللائمين حتى في ساعة الدفاع عن المظلومين - اما يوسيبوس فلم يعبأ بمدافعة فلافيان ولا هو التفت الى قوله بل اقنع الحضور بطلب يوطيخوس امام المجمع الذي أجّل التامه الى اليوم الثاني عشر من الشهر المذكور · فلما حل هذا اليوم لم يحضر يوطيخوس فضرب الاعضاء صفحاً عن مسألته في هذه الجلسة ايضاً واخذوا يتناقشون في تقرير قاعدة الحكاية الطبيعة والطبيعتين وانتهوا على هذا القرار وهو : — « ان المسيح آله تام وانسان تام متحد مع الاب في اللاهوتية ومع مريم العذراء في الناسوتية · فهاتان الطبيعتان اتحدتا بعد التجسد في شخص واحد هو يسوع المسيح » ولم يعارض أحد في هذا القرار الا باسيلي اسقف سلوشيا الذي قال « انني أعبد المسيح ذا الطبيعتين حتى بعد التجسد »

وبعد هذا ارفضّ المجمع واعيد احتشاده في ١٥ نوفمبر حيث عاد الرسل الذين أنفذوا لاحضار يوطيخوس وقالوا انه تعذّر عليه الاتيان معهم لانه آلى على نفسه ان لا يبرح الدير باقي ايام حياته وانه يعتبر يوسيبوس عدواً لدوداً

له . ثم اعترف لهم بايمانه قائلاً انه يؤمن بأن المسيح انسان تام ولكنه ليس ذا لحم ودم نظيرنا وليس هو ذا طبيعتين بعد اتحاد اللاهوت بالناسوت فلم يقتنع المجلس بهذا الاقرار بل ارسل قوة اخرجت ذلك الناسك من صومعته قهراً وجاءت به امام المجمع وخلفه عدد لا يحصى من الضباط والعساكر والرهبان ولذلك خافت الحكومة على حياته فأوفدت اميراً يتولى حراسته ويذود عنه

فلما مثل يوطيخوس امام المجمع اعاد على مسامع اعضائه اعترافه الاول وقال انه لا يزال يعتقد اعتقاد البطريركين اثناسيوس وكيرلس (١) وانه يؤمن مثلهما ان للمسيح طبيعتين قبل التأنس قد اتحدتا بعد ذلك وصارتا الهاً كاملاً وانساناً كاملاً . فلم يرضَ المجلس بهذا التصريح بل حكم على يوطيخوس بالحرمان والشجب لابتداعه في قوله ان للمسيح طبيعة واحدة بعد التجسد . فاستأنف يوطيخوس هذا الحكم الى بطريركي رومية والاسكندرية فانحاز هذا الى جانب يوطيخوس وقام يدافع عنه دفاع الابطال . وقبل ان يتمكن بطريرك رومية من الاجابة على مكتوب يوطيخوس لتأخره في الوصول اليه وصله اعلان من الامبراطور ثيودوسيوس الثاني بناء على طلب ديسقورس يقول فيه انه عهد بفض هذه المشاكل الى مجمع يلتئم في مدينة أفسس تحت رئاسة البطريرك الاسكندري

فعندما سمع بطريرك رومية بهذا الخبر احتدمت نار الغيرة والغيظ

(١) ان المجمع اعتبر اقرار اثناسيوس الذي تمسك به كيرلس ويوطيخوس بعده مزوراً ملفقاً ولذلك رفضه بتاتاً مع ان هذين الاخيرين اعتقدا بذلك الاعتراف على انهما انه صحيح مضبوط

في صدره وكشر عن ناب العداء والخصام نحو ديسقورس و « محسوبه » يوطيخوس فلم يحضر بنفسه الى افسس بل أرسل نواباً الى المجمع يحملون مكتوباً خصوصياً الى فلافيان يشرح فيه رأيه في هذا المعضل . ولم يكتف بذلك بل وصم هذا المجمع بوصمة الاختلاس والتدليس واظهر احتقاراً لحكمه وازدراء بعباراته التي كانت تتضمن شيئاً من المغامز وقوارص الكلم .

ومما يجمل ذكره هنا ان بعض المجامع الكنائسية كانت تصدر احكاماً شديدة اللهجة عنيفة المنطق ولكن هذا العنف لم يكن ينسخ الاحكام ولم يبطل مفعولها

وقد وجد في الفاتيكان (وهو مسكن باباوات رومية) كتاب قبطي قديم بخط اليد يؤخذ منه ان ناسخه تلقن الاقوال الموجودة فيه من فم ديسقورس نفسه لما كان في منفاه . وهذا الكتاب يحتوي على سفر ديسقورس الى مجمع افسس وما تم فيه . وقد جاء في هذه النسخة حكاية كلها ثناء وتعظيم لمكاريوس احد مشاهير الرهبان المصريين في ذلك العصر الذي تعين أيضاً اسقفاً لناحية ادكو (بمديرية البحيرة) . ويظهر من هذه الحكاية ان هذا الراهب مكاريوس كان قد وفد على الاسكندرية مع تلميذ له اسمه ينوشن وفي نيتهما الذهاب الى مجمع افسس مشياً على الاقدام . فلما رست السفينتان المعينتان لنقل ديسقورس واساقفته جاء ربانهما الى مكاريوس وطلب منه باحترام أن يرافقه في سفينته لصعوبة السفر الى أفسس على القدم ولما فيه من مشقة وعناء . فرفض مكاريوس طلبه وقال له « انني لا اسعى خلف الراحة والاستكانة بل يلذلي التعب في سبيل الخدمة الدينية

ولذلك عولت أن أسير الى المجمع راجلاً » فلم يتركه ربان السفينة بل الحّ عليه متوسلاً ان يركب السفينة فاجابه الراهب « الله يباركك يا ابني فلا تكثر من الالحاح عليَّ فليس في وسعي ركوب المراكب خصوصاً وليس عندي دراهم ولا امتلك شيئاً من حطام الدنيا الفاني » فرد عليه قائد السفينتين قائلاً « اذا كانت الدراهم تعوقك عن النزول في سفينتي فيمكنك ان تذهب مجاناً مع البطريرك في سفينته » ولما علم مكاريوس انه يسافر مع البطريرك فرح وانسرّ قلبه وشكر هذه الظروف التي أهلته ان يرافق خادم الله ولكنه لم يجلس على مقربة منه بل اتخذ له مكاناً قصياً في مؤخرة السفينة . على ان ديسقورس لما سمع بخبر قدومه رحب به ورجاه ان يختار لهُ محلاً مناسباً في وسط الجارية لاان يبقى في مؤخرتها . الا ان هذا الناسك المتعبد لم يكن يفهم كلام البطريرك ولا استطاع هذا فهم كلامه لانه كان امياً لا يعرف الا لغة الارياف التي لا يدركها غير جماعة الفلاحين ولذلك استدعى البطريرك ترجماناً ليترجم بينهما . وحدث ان شماساً نظر الى مكاريوس شذراً بمؤخر عينه دلالة على احتقاره اياه وعجب من احتفال البطريرك والاساقفة برجل غرّ جاهل مثل هذا الراهب الذي لا يعرف شيئاً من المعارف ولا حتى اللغة ولكن ديسقورس وبخ الشماس المذكور على فعله واضطره ان يلتمس العفو والغفران من مكاريوس مع ان هذا لم يفهم معنى كلام الشماس ولا هو عرف مقدار الاهانة التي لحقت به ولذلك اندهش لما رأى هذا الشماس جاثياً امامه على ركبتيه يطلب منه الصفح والسماح فمدّ يده واقامه وهو يسأل

عن سبب ذلك الخضوع والاستغفار فشرح لهُ ديسقورس المسألة وطلب منه ان يسامح الشماس على خطاه او يكون عقابه الحرمان . فصفح عنه مكاريوس قائلاً « اسأل الله ان يغفر لك خطاياك يابني »

ومن ذلك الحين اصبح مكاريوس موضوع احترام جميع المسافرين الذين كانوا يحبونه و يعتبرون مقامه لدرجة انهم ظنوا فيه المقدرة على اجراء آيات وعجائب توهموا ان باقي النساك والزُهاد الذين من طرز مكاريوس يجرونها متى شاؤا حتى اكثروا من السؤال على تلميذه يتوسلون ان يسرد لهم حكاية احدى العجائب التي تمت على يد معلمه . فقص عليهم التلميذ خبر هجوم مكاريوس على بلدة وثنية فيها هيكل وثني اتهم سكانها بخطف صبيان المسيحيين وذبحهم على مذابح اصنامهم . فسار مكاريوس في الحال على هذه البلدة ومعه ثلاثة رجال فقط . فعند ما رأى رجال مكاريوس الهيكل وقبته الشامخة السامقة مكتظة بجيش عرمرم من الوثنيين وبأيديهم السيوف والرماح تضيء كالدراري انهلعت قلوبهم واصطكت ركبهم وخارت قواهم وخانتهم شجاعتهم خصوصاً لما نهاهم الوثنيون عن الدنو من هيكلهم قائلين لرئيسهم مكاريوس بصوت كقصف الرعد « مالك ولنا ياهذا ولماذا جئت هنا »

اجابهم الراهب بقول ملؤه الهيبة والحماس « لقد اتيت اليكم حتى ارى ماذا انتم فاعلون بغلمان المسيحيين الذين اختطفتموهم اختطافاً لتذبحوهم لاوثانكم الكاذبة »

قال الوثنيون « ان الذي ابلغك هذا الخبر كاذب غاش اذ لا صحة لهذا القول »

فرد عليهم مكاريوس «اذا كان مابلغني غير صحيح فاسمحوا لي بدخول الهيكل لكي اتأكد صحة ما سمعته او كذبه»

قال بينوشن راوي هذا الخبر «وحينئذٍ اشار الينا الوثنيون بالدخول ولكن رجلين من الذين كانوا معنا امتنعا عن الدخول فولجت الهيكل مع معلمي ورجلين آخرين ولم يكن كلمح الطرف حتى هجم علينا عشرون رجلاً يقصدون اخذنا غيلة وهم يقولون لنا لقد دنا اجلكم الآن ولم يبق لكم في الحياة مطمع ثم امسكوا مكاريوس وكادوا يذبحونه على مذبح آلهتهم الكاذبة لولا ان هومبرس رئيس كهنتهم الذي يحتم عليه اجراء هذه الذبيحة لم يكن موجوداً في الهيكل فارسلوا يستدعونه . وقد انتهزت هذه الفرصة وهمست في اذن معلمي الذي كان مغلولاً معي وقلت له «لقد آن لك ان تصلي وتطلب النجاة من الله لانه قد حان حيننا وهوذا كأس الحمام يترع لنا» فاجابني مكاريوس «تشجع يا بنيّ ولا تجزع فان يسوع سوف يخلصنا من مخالب الموت الزؤام» ولم يكد استاذي يكمل كلامه حتى طرق مسامعنا صوت ويصا على الباب يطلب فكنا من عقالنا»

قيل ان ويصا هذا علم بذهاب مكاريوس لمهاجمة هيكل الوثنيين فتبعه على الاثر في نفر من الرجال وادرك مكاريوس في آخر انفاسه فكسر باب الهيكل وانقذ ذلك الراهب البالي والذين معه ثم قبض على هومبرس رئيس كهنة الوثنيين واحرقه حياً واضرم النار في جميع الاصنام فلاشاها ودار في البلدة يحرق آلهتها ويوقع الرعب في قلوب ساكنيها حتى اضطر كثيرون منهم ان يتعمدوا !!!

وبينما كان بينوشن يسرد هذه القصة العجيبة كان الاساقفة والقسوس المصريون يصغون اليه برغبة وشوق شديدين وهم يعجبون بشجاعة مكاريوس وبسالته وقد تناسوا امر الهرطقة والهراطقة والبدع والمبتدعين وهي فترة لم تسنح لحضرات الاحبار والائمة الذين كانوا يلوكون في افواههم هذه المسألة الموجبة للشقاق والخصام واللدد والانقسام مما اوصى سيدهم باجتنابه لفائدة الكنيسة وتقدم الانجيل ولكن هؤلاء الاتباع كانوا قد اغمضوا الطرف عن السلام وصرفوا جهدهم الى ما يقضي بالبغضة التي تفعل في النفوس اكثر من فعل الحسام .

الفصل الخامس والعشرون

مجمع خلكيدونية

سنة ٤٤٩ للمسيح و ١٦٥ للشهداء

في اليوم الثامن من شهر اغسطس سنة ٤٤٩ التأم مجمع خلكيدونية في كنيسة العذراء بافسس حيث حكم فيها على نسطور بالحرمان قبل هذا الوقت بزمان . ثم جلس ديسقورس بطريرك الاسكندرية في كرسي الرئاسة وبيده المكتوب الذي ارسله له ليو بطريرك رومية واشرنا اليه قبلاً ولكن ديسقورس اعتذر عن قراءة هذا الخطاب على مسامع اعضاء المجمع وتذرع باسباب انتحلها لهذا الغرض . وكان الامبراطور تيودوسيوس قد اوفد لسوء

لحظ ارخناً (ارشمندريتي) سورياً اسمه برسوم لينوب عن باقي اراخنة الشرق في المجمع . وكان برسوم هذا كغيره من الرهبان السوريين جاهلاً متصلفاً ومتعصباً متحيزاً يكره يوطيخوس وينفر منه . فلما ارسله الامبراطور للمجمع لم يحضر جنابه وحده بل جلب معه جيشاً من الرهبان زملائه لا يقل عديدهم عن الف راهب ضربوا خيامهم حول الكنيسة حتى ضايقوا حرس الحكومة وزادوا عنه في العد والعدد ومنعوه عن اتمام المأمورية التي جاء لاجلها (اي الحرس) وهي حفظ السلام واستتباب الامن في المجمع

فلما افتتح المجلس جلساته بدأ الهرج يظهر بين اعضائه الا انهم كانوا متفقين جميعهم على نتيجة عملهم الا يوسيبيوس الذي جاهر برغبته في الحكم على يوطيخوس بالحرمان وذلك لعداوته وبغضه له . وعند ما قرأ كاتب الجلسة قرارات مجمع القسطنطينية الذي حكم فيه على يوطيخوس بالحرم كان الاعضاء ساكتين يصغون ويفهمون الى ان وصل القارئ للتعديل الذي ادخله باسيلي اسقف سلوقيا على اقرار فلافيان بطريرك القسطنطينية فيما يختص بالطبيعتين والمشيئتين وهو قوله « اني اعبد المسيح ذا الطبيعتين حتى بعد التجسد » فهاج الاعضاء وماجوا وازداد هرجهم الى درجة الهوس والجنون ولكن ديسقورس وجماعته خرجوا من هذه المعمعة منتصرين ظافرين . ثم قام اسقف اورشليم وطلب من باسيلي ان ينكر اعترافه او يحذف منه الكلمات التي اوجبت هذا السخط . وبعد ان هدأ الهياج سأل ديسقورس المجمع عما اذا كان يحكم على يوطيخوس او يبرئه

فاجاب الاعضاء بالتتابع ببراءته واعادته الى وظيفته كما كان (١)

ولو اقتصر الامر على ما ذُكر لغابت هرطقة يوطيخوس وحكايته عن الاذهان ولما تجدّد ذكرها تلك الوقائع التي حدثت في مصر فيما بعد . فان ديسقورس انتفخت اوداجه لاجل الغلبة التي احرزها في المجمع وعمل على اذلال بطريرك القسطنطينية خصمه فسطر عبارة ليست ضد يوسيبيوس فقط بل ضد فلافيان نفسه مما اوقع المجمع كله في خوف واضطراب فقام النائب عن بطريرك رومية وابدى معارضة لرأي ديسقورس اما فلافيان فقال بعدم اعتباره لسلطة المجلس وانسحابه منه ولكن لم يسمع احد اعتراض النائب او انسحاب البطريرك لسبب الغوغاء والجلبة التي اعقبت ذلك

وتفصيل هذه الجلبة ان كثيرين من الاساقفة رموا انفسهم على اقدام ديسقورس وطلبوا منه الرأفة والتساهل قائلين « اذا كان فلافيان يستحق اللوم والتعنيف فلومه وعنفه ولكننا نتوسل اليك ان لا تحكم على بطريرك نظيره بالحرمان لاجل قس بسيط لا هو في العير ولا في النفير » حينئذ نهض ديسقورس نهضة الاسد من عرينه وصعد على درج عرش الرئاسة وشخص في الحضور فساد السكوت والهدوء فقال يخاطب الاعضاء « اسمعوا يا هؤلاء ان الذي يتوقف منكم عن التوقيع على الحكم على فلافيان فيكون له معي شأن آخر . انني لا ازال انادي بحرم فلافيان وشجبه ولو شد لساني من عنقي . اما اذا

(١) لقد يعسر على العقل تصديق القول بان الاساقفة برأوا يوطيخوس عند ذمتهم . اما الهياج الذي حدث ضد فلافيان فكل واحد يعلم ان ديسقورس هو الذي احدثه وان اللوم فيه واقع عليه

كنتم قد عولتم على الثورة فهذا ليس في طوقكم ولا يستطيع حتى امراؤكم اتيانه »

وبينما كان ديسقورس يتلو هذه الاقوال اذ سمع رهط برسوم ضجة الداخل فلم يجدوا الى التصبر والتبصر سبيلاً بل اندفعوا الى الكنيسة السيل العرم ومعهم خليط من الجنود والرهبان وخدمة الكنيسة قندلفتية » وعدد كثير من الزعانف والحرافيش واخذوا يصيحون ويعجون صخبون ويصرخون ثم عمدوا الى المضاربة والملاكمة مما لطخ مجمع افسس اني بلطخة سوداء · ولم يكتفوا بهذا كله بل تعدوا على فلافيان واوسعوه ربا واهانة ورموه تحت اقدامهم وداسوه بأرجلهم وكان برسوم يشجعهم عملهم هذا ويحرضهم على قتل ذلك البطريرك البائس طعناً بالمدى الحراب · وقد خاف الاساقفة اعضاء المجمع على انفسهم فاجابوا كل طلب هم اياه ولم يتأخروا عن شيء خوفاً على حياتهم حتى انهم امضوا ورقة يضاء كتب عليها بعد ذلك الحرمان ضد فلافيان · اما النائب الروماني فاركن الى الفرار من الكنيسة دون ان يؤذه احد او يعمل شيئاً · وقد اثرت الضربات واللكمات في فلافيان تأثيراً شديداً فمات على اثرها

وعلى ذلك عاد ديسقورس الى مصر يحف به النصر وتعلو هامته علامات الظفر وتلوح على سيمائه علائم الفخر مما اغاظ ليو واحرق احشاءه خصوصاً لان بطريرك الاسكندرية هذا كانت له سلطة في المشرق تعلو على سلطة الملوك والحكام بينما كان بابا رومية يعمل جهده في الحط من قوة خصمه وتخفيض

شأنه فلم يدع واسطة لمقاومة بابا الاسكندرية ومناجزته والا وطرق بابها حتى انه كتب الى الامبراطور ثيودوسيوس يقول له ان الدين المسيحي سوف يتلاشى ويضمحل من الوجود ما لم يلغ حكم مجمع خلكيدونية وتهمد قوة ديسقورس · ثم أعقب مكتوبه هذا بخطاب آخر الى بولكريا شقيقة الامبراطور التي كانت ساخطة على حرمان فلافيان سخطاً يدل على شريف الاحساس وحسن العواطف · وآخر الكل كتب ليو هذا جواباً الى فلافيان الذي كان قد انتقل من ارض الشقاء الى دار النعيم والبقاء وسطر تحريراً الى كنيسة القسطنطينية يحرضها على نبذ قرارات المجمع والازدراء بها · ولما لم تفده كل هذه الحيل والوسائل رمى بنفسه بين يدي فالنتنيان امبراطور رومية ورجاه ان يطلب من زميله الامبراطور ثيودوسيوس التداخل في مسألة فلافيان وطرحها على مجمع عام ينعقد في رومية

ولما اكثر ليو الالحاح على امبراطوره لم يسع هذا الا القبول فكتب لثيودوسيوس كطلب ليو ولكن ثيودوسيوس لم يغير رأيه بل رد على زميله يقول له انه يعتبر مجمع خلكيدونية مجمعاً قانونياً صحيحاً وان الحكم الذي صدر على فلافيان كان في محله فلا يقبل نقضاً ولا تحويلاً · ومما ينبغي الاشارة اليه في هذا الصدد ان فالنتنيان كان يلقب ليو في جواباته لثيودوسيوس بالبابا الاعظم الا ان ثيودوسيوس كان يسميه البطريرك المحترم او رئيس الاساقفة الموقر · وكان تاريخ هذه الخطابات في فاتحة سنة ٤٥٠ وفي شهر يوليو من هذه السنة انتقل ثيودوسيوس الى رحمة مولاه

ولما رأى ديسقورس ان ليو تمادى في عدوانه وافرط في المعاكسة شرع في حرمانه وتجريده من وظيفته وذلك لانه سعى في ابطال قرارات مجمع نظامي شرعي · وقد اختلف المؤرخون فيما اذا كان ديسقورس قد شرع في مشروعه هذا قبل موت الامبراطور ثيودوسيوس او بعده · والذين قالوا ان ديسقورس ناصب ليو العداء قبل موت الامبراطور بنوا رأيهم هذا على ان صاحبنا بابا الاسكندرية كان قد بلغ ذرى المجد والعظمة ابان حياة ثيودوسيوس لان هذا الامبراطور كان ميالاً لتعضيده والاخذ بيده في جميع اعماله لانه من رعاياه المخلصين له كما انه كان يسعى في الخفض من شأن بابا رومية الذي لم يحسب لاوامر الامبراطور حساباً ولم يجب طلبه عند ما دعاه للحضور في مجمع خلكيدونية كباقي اقرانه مما اهاج سخط ثيودوسيوس عليه وظنه ساعياً في ايجاد قوة ونفوذ له في المملكة الشرقية · اما الذين زعموا ان ديسقورس فعل ما فعله ضد ليو بعد وفاة ثيودوسيوس فاسندوا زعمهم على ان ذلك البطريرك عمل على حرم ليو عند ما تشكل مجمع نيقية سنة ٤٥١ حيث امضى عشرة من الاساقفة الحكم الذي صدر ضد البطريرك الروماني مما حدى ببعض الكتاب الى الظن بان هذا الحكم برز من مصر وليس من نيقية لان اكثر الاساقفة الذين امهروه كانوا مصريين

وكان بعد موت الامبراطور ثيودوسيوس ان اخته بولكريا اخلفته على سرير المملكة واختارت احد النبلاء الاشراف المسمى مركيانوس ليكون زوجاً لها ويساعدها في تدبير مهام الملك · وكانت هذه الامبراطورة ميالة

الى فلافيان ومبدئه ولكن ميلها هذا لم يكن شيئاً يذكر بالنسبة الى الاحوال السياسية التي تجلت امام عينيها وكانت مغمضة على اخيها ثيودوسيوس · ذلك انها رأت الحد الذي وصل اليه بابا الاسكندرية من القوة ومنعة الجانب وان اتساع سلطته هذه قد تضر بمملكتها ضرراً لا يحمل السكوت عليه اذ لا يبعد ان تضيع مصر من يدها وهي اخصب اراضي سلطتها واوفرها ثروة واعظمها غنىً واكثرها رضوخاً · فلذلك سلكت بولكريا مع زوجها مسلك دهاة السياسة فلم تسمح لامبراطور رومية بالتداخل في امر بطاركتها ومجامعها كما انها اتخذت مسألة الاختلافات المذهبية والانشقاقات الكنائسية آلة ماضية تقاتل بها خصومها ورأت بدهائها ان اقوى سلاح يقطع اوصال ديسقورس ويقوض اركان سلطته هو اتهامه بالهرطقة · وكان لديسقورس في ذلك الحين سفير مفوض ينوب عنه امام حكومة القسطنطينية ثم ترقى هذا السفير بواسطة ديسقورس وصار بطريركاً للقسطنطينية · فاول عمل شرعت فيه الامبراطورة مع زوجها اجبارها سفير ديسقورس على حرمان يوطيخوس ونسطور في مجمع رسمي والمصادقة على مبادىء ليو ثم كتب مركيانوس الى ليو يقول له انه مستعد ان يجمع له مجمعاً تحت رئاسته اذا احب الانتقال من مكانه والا اذا رأى في السفر مشقة وعناء فان مركيانوس يرأس المجمع بنفسه وينوب منابه (اي مناب ليو)

فردّ ليو على مركيانوس بخطاب مؤرخ في ابريل سنة ٤٥١ يقول له ان لا حاجة لهذا المجمع بالبحث في تخطئة اعتقاد يوطيخوس او تفنيد آراء

ديسقورس واحكامه لان هذه المسائل قد مضى وقتها وانقضى — ولكن اذا عقد مجمع فليكن اول موضوع يتناقش فيه الاوجه التي يجب الصفح بها عن اولئك الاساقفة الذين اتبعوا رأي ديسقورس وساروا في طريقه في ذلك المجمع الاخير . ومعلوم ان مركيانوس لم يكن يروق له تشكيل المجمع في رومية حسب فكر ليو بل اصدر امره باحتشاد جميع الاساقفة في نيقية فساء عمله هذا ليو ولم يذعن للحضور هذه المرة ايضاً ولكنه ارسل نواباً عنه ادّعى فيما بعد انهم رأسوا الجلسات باسمه والحقيقة ليست كذلك بل ان مركيانوس انتخب تسعة عشر عضواً من اشراف المملكة وكبار موظفيها ليترأسوا على المجمع بدلاً عنه اما النائبون عن بابا رومية فانهم اكتفوا بالرئاسة في انهم جلسوا على منصات اعلى من التي جلس عليها زملاؤهم

اما المجمع فلم يلتئم في نيقية بل ان اكثر من خمسمائة اسقف الذين وفدوا على هذه المدينة صدر لهم الامر بالرحيل الى خلكيدونية وعقد المجمع بها وقد كان كذلك وافتتحت الجلسات في اليوم الثامن من شهر اكتوبر سنة ٤٥١ في كنيسة خلكيدونية .

وكان اول اقتراح طلبه مندوبو بابا رومية انسحاب ديسقورس من المجلس . فسأل الرئيس عن الباعث لهذا الانسحاب وعن الاسباب التي تلجيء المجمع الى اخراج هذا البطريرك من قاعته . فكان اعتراض هؤلاء المندوبين ان ديسقورس شكل مجمعاً دون ان يستأذن الكرسي الرسولي اوهم يقصدون بالكرسي الرسولي بابا رومية وهي دعوى لم يبق لهؤلاء

الباباوات غيرها من اشكال الرئاسة والخيلاء ولو انها صارت في يدهم اسماً لا فعلاً) فلم يصادق مندوبو الحكومة على هذا الرأي السقيم وقرّ قرار المجمع على بقاء ديسقورس ضمن اعضائه ولكن ليس على كرسي الرئاسة كما كان في المجامع السابقة لانها اصبحت في يد رجال الامبراطور . والذي فتح باب هذا الاقتراح المار ذكره هو يوسيبوس عدو يوطيخوس الالد فرد عليه البابا ديسقورس بغاية الرصانة والتعقل قائلا انه لم يكن في حاجة لاستئذان « الكرسي الرسولي » في عقد المجامع مادام قد صدر امر من الامبراطور يقضي بتشكيلها ثم طلب قراءة القرارات التي قد قرّ عليها المجمع الاخير . وقبل ان يبدأ القاريء بسرد ما عنده دخل تاودروس الانطاكي فاحدث دخوله عجيجاً وضجيجاً في المجمع كما حدث في افسس قبلاً وقام الحزبان ضد بعضهما يرمي كل منها خصمه ببذيء المثالب وقبيح المطاعن حتى كادت غرفة الجلسات تصير ميداناً للمضاربة والمحاربة لولا ان مندوبي الامبراطورة استعملوا نفوذهم وسلطتهم في اعادة النظام والسكينة ووقف واحد منهم وخطب في المجمع قائلاً : — « انه لا يجدر بالاساقفة وأئمة الدين ان يأتوا مثل هذه الاعمال المشينة من صياح وصراخ وسب وقذف وضرب ولكم بل يجب عليهم ان يكونوا قدوة للشعب في الهدوء واجراء الامور على محور الحكمة والسداد . ولذلك ارجوكم ان تستعملوا البرهان بدل المهاترة والدليل عوضاً عن القول المراء واميلوا آذانكم الى سماع ما يتلى عليكم »

فقرأ الكاتب قرارات المجمع السابق وكان اعضاء الحزبين يقاطعونه

بضجيج الاستحسان او الاستهجان الا ديسقورس فانه سار سير العاقل الحكيم ولم تبدُ منه اشارة تدل على النزق والتهور بل كان يجرد سيف البرهان القاطع ويلفظ كلامه بمنتهى الفصاحة والحصافة ويبوح بما يعتقد به في مسألة الطبيعتين والمشيئتين غير هياب ولا وجل · ومما فاه به ديسقورس في هذا المجمع قوله «ان الاسباب التي بني عليها الحكم على فلافيان واضحة صريحة هي انه كان يعتقد بوجود طبيعتين للمسيح بعد التجسد · ولقد عثرت على شواهد من اقوال البطاركة اثناسيوس وغريغوريوس وكيرلس(١) وفيها انهم كانوا يعتقدون بعدم وجود طبيعتين للمسيح بعد التجسد بل ان الكلمة المتجسدة اتخذت طبيعة واحدة فقط · فاذا كان في اعتقادي خطأ فيكون اصله من خطأ هؤلاء الاباء المحترمين الذين اقول انا بقولهم ولا احول عن مبدائهم· وحتى يكون المجمع على ثقة من قولي اخبره اني نقلت اقوالهم هذه بالحرف الواحد واعتنيت كثيراً في ضبطها على الاصل والتحقق من صحتها»

وقد تذمر مندوبو بابا رومية من حرية ديسقورس في افكاره وكلامه وقالوا ان فلافيان لم يسمح له بمثل هذه الحرية في مجمع افسس فاجابهم الرئيس «ان هذا المجمع يقتفي آثار العدل والحق في اعماله فهو يمنح حرية الافكار الصحيحة لجميع الاعضاء على السواء»

وبعد هذا نظر المجمع في الشدة التي استعملها ديسقورس في مجمع افسس

(١) ان الحزبين المتضادين في هذا المجمع اتفقا على السير بمقتضى رأي كيرلس لانه وافق كلاهما في كونه قابل للتأويل والتفسير مثل نص العهد الجديد نفسه

والعنف الذي ظهر في جميع تصرفاته · فاقترح مفوضو الحكومة عزله هو وخمسة اساقفة من وظائفهم لانهم اختطوا لهم حينئذٍ خطة غير حميدة · فصادف هذا الاقتراح تصفيق الاستحسان وتهليل الفرح من الخصوم ولكن اغلبية المجمع لم تقر عليه · ثم طرح بعضهم آراء ليو بخصوص الطبيعتين وطلب غيره البحث في الخطاب الثالث الذي كان قد بعث به البطريرك كيرلس الى نسطور وكان الوقت قد ضاق فرأى مندوبو الحكومة تأجيل المجمع الى خمسة ايام · ولكن حزب بطريرك رومية اقنع باقي الاعضاء بالالتئام بعد ثلاثة ايام بدلاً من خمسة وذلك لكي يستطيعوا تنفيذ اغراضهم دون ان يتداخل مندوبو الحكومة في امرهم · فلما التأم المجمع بعد ايام ثلاثة لم يحضره ديسقورس لان رجال الامبراطورة لم يكونوا هنالك ولم يعترفوا بصحة هذا الاجتماع · فانتهز اخصامهُ فرصة غيابه وغياب اولئك المندوبين العاليين ووجهوا اليه كل انواع التهمات الشائنة والوصمات المعيبة كما عمل اسلافهم مع اثناسيوس في الايام الغابرة واخيراً قرّ رأيهم على عزل ديسقورس وارسلوا له اعلاناً رسمياً بهذا القرار ثم بعثوا بصورته الى اعضاء كنيسته واساقفته الموجودين معه في خلكيدونية والى مركيانوس والى بولكريا والى فالنتيان والى كرسي القسطنطينية وخلكيدونية

وفي ١٧ اكتوبر احتشد المجمع بهيئته الرسمية وكان من فاتحة اعماله اعتراض مندوبي الحكومة على عزل بابا الاسكندرية في اثناء غيابهم وبدون تصديق الامبراطورة وكان من ذلك ان الحكم على ديسقورس لم يصادق عليه

المجمع بطريقة قانونية مع انه نفذ وذكر في اول القرارات الصادرة منه ·
اما الخمسة اساقفة الذين حكم عليهم معه فصفح عنهم المجمع وردهم الى وظائفهم ·

ثم ارسل المجلس واستدعى ثلاثة عشر اسقفاً مصرياً وطلب منهم ان يحرموا يوطيخوس ويصادقوا على آراء ليو · وبعد اخذ وردّ وتمنع واباء قبل هؤلاء الاساقفة حرم يوطيخوس ولكنهم رفضوا الاقرار على مبادئ ليو الا باذن من بطريركهم الاسكندري · ومما قالوه اعتذاراً على رفضهم هذا انهم اذا عرف عنهم مخالفة رأي رئيسهم او السير على غير منهاجه فلا ريب ان الاقباط في مصر يوردونهم حتفهم ويمزقون اجسادهم عند ما يؤوبون الى بلادهم فوعدهم رجال الحكومة بالدفاع عنهم او بالتصريح لهم بالاقامة في القسطنطينية على الرحب والسعة الى ان يتم انتخاب بطريرك جديد لمصر ولكن الاساقفة لم يقبلوا ولم يقروا على صحة آراء ليو

وحيث ان باقي قرارات هذا المجمع لاتهمّ الاقباط اصحاب هذا الكتاب فلا حاجة الى ايرادها هنا خصوصاً وانها مشهورة ومسطورة في كل كتاب ديني جدلي · فقط نقول ان نتيجة المجمع المذكور كانت خلع ديسقورس من كرسيه كما يخلع الملوك من عروشهم وهذا سببه الحدة والشدة اللتان اشرنا لهما آنفاً ولذلك قبل ديسقورس هذا الحكم بكل طاعة وخضوع وعزم على عدم العودة الى مصر وصرف باقي ايام حياته في بلدة اسمها كنجرة كان قد نفي اليها عقيب صدور ذلك الحكم حيث عاش عيشة هادئة مطمئنة ·

اما اقباط مصر فلم يذعنوا لهذا القرار الذي صدر ضد بطريركهم ولا زالوا الى يومنا هذا يرفضون قرارات مجمع خلكيدونية ويقولون بعدم صحتها ولذلك فالكنيسة القبطية لا تعتبر المجمع المذكور من المجامع المسكونية الشرعية ·

الفصل السادس والعشرون

نتيجة الشقاق بين الكنائس
ومركز الاروام في مصر

سنة ٤٥١ للمسيح و١٦٧ للشهداء

لما طرق مسامع المصريين ما لحق ببطريكهم من الحرمان والعزل هاجوا وغضبوا واتفقوا على عدم الاعتراف بقرار المجمع الذي اصدر هـذا الحكم واعلنوا رضاءهم ببقاء هذا البطريرك رئيساً عليهم ولو انه محروم مشجوب وان ايمانه ومعتقده هو عين ايمانهم ومعتقدهم ولو خالفه فيهما جميع امبراطرة القسطنطينية وبطاركة رومية · والذي اغضب المصريين كثيراً هو انهم اعتبروا ان الحكم الذي صدر ضد بطريركهم ماس بحريتهم الوطنية مجحف بحقوقهم السياسية ولو انه حكم ديني صرف لا يهمهم امره ما دام ان القانون الاساسي لكنيستهم قد صادق عليه البطريرك المذكور وصاروا يتمسكون به تمسكهم بقواعد دينهم · وكانت نتيجة هذا كله ان اسباب الشحناء والبغضاء نمت وتمادت بين الاقباط الوطنيين وبين الرومانيين المقيمين

في مصر وزادت عوامل الجفاء والخصام بينهم خصوصاً عند ما انحاز جماعة اليونان الى الكنيسة الرومانية مع انهم كانوا مثل المصريين في العوائد والاخلاق . وكان المصري في ذلك الحين يبرهن على صدق وطنيته واخلاصه لبلاده برفضه قرارات مجمع خلكيدونية رفضاً باتاً والجزء باعماله

وعندما وفد على مصر اربعة من الاساقفة مع مندوب من قبل الامبراطورة لانتخاب بطريرك جديد احتدم الشعب المصري غيظاً وبدأ دخان غضبه يتعالى مما يدل على كمون نار قد تلتظي اذا حركتها ايدي العوامل الفعالة . ذلك ان المصريين كانوا لا يزالون يقولون بأن ديسقورس هو بطريركهم وحاكمهم المطلق وولي امرهم وانهم لا يقبلون بديلا عنه مادام هو على قيد الحياة . ولكن قوة الحزب الروماني في كنيسة الاسكندرية تغلبت على نخوة المصريين وانتهى الامر بترشيح رئيس كهنة الاسكندرية واسمه بروتوريوس للبطريركية مع ان ديسقورس كان يثق به حتى عهد اليه بادارة امور الكنائس اثناء غيابه الا انه خالف هذه الثقة وصرّح بقبول احكام مجمع خلكيدونية ليكون مقبولاً في عيني منتخبيه الاروام كما انه صادق على اراء البابا ليو عند ما طلب منه هذا المصادقة عليها (١)

(١) ان بابا رومية نفسه لم يكن راضياً عن مجمع خلكيدونية ولم ترق في عينيه القرارات التي أصدرها مع انه تمكن بواسطته من سحق خصمه العنيد ديسقورس ولكنه لم يتحصل على غايته القصوى التي كان يسعى اليها وهي التصديق من الامبراطورة أو المجمع بأولوية الكرسي الروماني واعطائه الرئاسة على باقي الكراسي فضلا من ان المجمع قرر في المادة الثامنة والعشرون تجريد كرسي رومية من هذه الدعاوي الفارغة وبأن لاحق له في الاسقفية على الكنائس الشرقية . وقد اغتاظ ليو أيضا لانه كان يقصد ادخال هذه العبارة في القرار الذي

ولما اتفق الاساقفة المصريون على رسامة بروتوريوس ثارت الامة المصرية عن بكرة ابيها واشتد هياج الشعب وضجيجه لانهم اعتبروه خائناً لوطنه غاشاً لكنيسته وعدُّوه منافقاً مرائياً . وحدث ان الحكومة ارسلت كتيبة من الجند لاخضاع هذا الشعب الثائر ولكن الاقباط هزموا جيش الفرسان هذا وحصروه في قباب هيكل سيرابيوم الذي كان قد عفت آثاره وتهدمت اركانه ثم اوقدوا النيران فيه واحرقوا العساكر وذروا تراب اجسامهم في الهواء . فاغاظ هذا العمل فلورس والي مصر وقائد جنودها فعوّل على الانتقام منها انتقاماً قاسياً مؤلماً فقطع عن السكان جراية الخبز التي كانت تصرف للتكايا والمساطب واغلق الحمامات العمومية وابطل المعارض والمجتمعات ثم ارسل يطلب مدداً من القسطنطينية فامدته الامبراطورة بألفي رجل وصلوا اليه في ستة أيام ولكنهم لم يكونوا من الجنود المدربة بل هم كانوا حديثي العهد في الخدمة العسكرية ولذلك تمردوا وعصوا الاوامر فزادوا الشر نفاقماً والحرق اتساعاً فاضطر فلورس ان يعقد هدنة مع المصريين واجتمع مع نخبة منهم في ميدان سباق الخيل وتعهد هذا الوالي لهم بالغاء الاحتياطات الصارمة التي اتخذها ضدهم ولذلك تم الصلح بينهم ولكنه صلح ظاهري فقط غير صادر من القلوب والافئدة الا ان المصريين لم يعترفوا برئاسة

صدر بحرمان ديسقورس وهي « نحن نواب بابا رومية رئيس الكنيسة الجامعة نحرم ديسقورس بمصادقة المجمع على ذلك » الا ان المجمع رفض هذه الجملة واكتفى بالتالية وهي « رئيس أساقفة رومية العظمى » . ومع ان بروتوريوس صادق ليو وصادقه الا انه لم يتنازل له عن أولوية الكنيسة القبطية في اصدار رسائل عيد الفصح التي كان يكتبها بطاركة مصر على الدوام

بروتوريوس الذي عينته الامبراطورة بطريركاً عليهم فكان الرجل شاعراً
بالخطر المحدق به ولذلك كان اذا انتقل من مكان للآخر تخفره ثلة من
الجنود كما ان القسوس كانوا يبغضون هذا البطريرك الخائن ويضمرون له
الشر ولم يرافقه احد في سيره سوى اربعة عشر اسقفاً واما باقي الاساقفة
والقسوس فكانوا يحتقرونه ويهزأون به لانه رفض ذكر اسم ديسقورس في
القداس ولانه صادق على مجمع خلكيدونية . وكان رئيس هذه العصبة
الكارهة لبروتوريوس رجل اسمه تيموثاوس كان قد حكم عليه بالحرمان مع
شماس اسمه بطرس ونفيا الى ليبيه مع خمسة اساقفة ورهط من رهبان
الاسكندرية لانهم ابوا الاعتراف ببروتوريوس بطريركاً عليهم مادام
ديسقورس لا يزال حياً

وفي سنة ٤٥٤ توفى ديسقورس وبعد وفاته كان المصريون لا يزالون
ينكرون بطريركية بروتوريوس ولكنهم لم يتمكنوا من رسامة خلف له الا بعد
مضي ثلاث سنوات عند ممات الامبراطور مركيانوس الذي كان معضداً
لبروتوريوس . فلما سمع تيموثاوس بوفاة الامبراطور عاد مسرعاً الى الاسكندرية
فرسمه الاساقفة الذين يكرهون بروتوريوس وينفرون منه . قيل ان تيموثاوس
هذا لعب العاباً خيالية في احدى الليالي خارج مناسك الرهبان وعمد الى
مثل هذه الحيل والاوهام السافلة لكي يحمل الآخرين على انتخابه : وهو
عمل يشير الى ان رسامته لم تكن قانونية ولكنه لم يتفرد فيه وحده بل ان
بروتوريوس عمد الى مثل هذه الخديعة ولذلك لم تكمل فيه وفي تيموثاوس

الشروط الضرورية التي تطلبها الكنيسة من الذي يتصدر لمسند البطريركية .
واتفق انه عند رسامة تيموثاوس كان الوالي غائباً عن الاسكندرية فساءه
تعيين البطريرك اثناء غيبته ولذلك شرع في نفيه من الاسكندرية بغاية
الحنق والعنف وكان في مشروعه هذا بدء شقاق وخناق وقعت نتيجتهما
السيئة على رأس بروتوريوس المسكين . وتفصيل ذلك ان جماعة من غاغة
القوم وحرافيشهم هجموا على منزل بروتوريوس ولكنهم لم يتمكنوا من القبض
عليه لانه كان قد التجأ الى كنيسة مجاورة لبيته فظل اولئك الاوباش
واقفين امام المنزل وهم يموجون ويضجون ثم اندفعوا الى الكنيسة بقوة لا تقف
امامها قوة وقبضوا على بروتوريوس وستة من القسوس الذين كانوا مختبئين
في مكان المعمودية وذبحوهم بالمدى والنصال ثم سحبوا جثة بروتوريوس وطافوا
بها في شوارع المدينة وبعد ان مثلوا بها شر تمثيل واهانوها منتهى الاهانة
احرقوها في لهيب من النار المضطرمة . وكانت هذه ثالثة الاثافي او هي
ثالثة حوادث القتل المعيبة التي تلطخت بها مدينة الاسكندرية اذ لا يخفى
ان الاولى قتل جرجس الاريوسي والثانية قتل هيباشا الفيلسوفة المصرية
الشهيرة .

وكان تيموثاوس غائباً عن الاسكندرية في ذلك الوقت ولم تكن له يد
في هذه الجناية الفظيعة ولكنه لا يخلو من اللوم الذي تلطخ به سالفه كيرلس
في حكاية هيباشا لان الاثنين كانا قادرين على معاقبة القاتلين والاقتصاص
منهم ولكنهما لم يفعلا بل ان تيموثاوس صب غضبه على القسوس والاساقفة

الذين كانت لهم علاقة مع بروتوريوس ثم تبرأ من كل شركة او اتحاد بين كنيسته وكنائس رومية والقسطنطينية وانطاكية وسعى سعياً زاد الشقاق والخصام بدل ان يعمل جهده على ايقافهما واستئصالها

فرفع الاربعة عشر اسقفاً الذين حكم عليهم بالعزل والحرمان العرائض الى الامبراطور والى بطريرك القسطنطينية وكذلك تيموثاوس ارسل كتاباً مع وفد من الاساقفة والقسوس الى الامبراطور ولا تزال بقايا هذا المكتوب باقية الى يومنا هذا ولكنها بالية ممزقة لا يؤخذ منها شيء . ولذلك فجميع ما وقع لتيموثاوس وما نسب اليه مأخوذ من اقوال الكتّاب الذين لهم ضلع مع مجمع خلكيدونية وبروتوريوس وهي ليست ثقة كما هو معلوم ومفهوم (١)

فارتبك الامبراطور الجديد واسمه ليو من كثرة الدعاوي والمشاكل التي رفعها اليه بطاركة الاسكندرية ورومية والقسطنطينية واختبل باله من المسائل التي عرضتها عليه جماعة قوية الشوكة ظهرت في القسطنطينية لمقاومة اعمال المجمع الخلكيدوني ونسخ قراراته فلم يكن له مناص الا بطلب جميع أئمة الدين في المملكة باسرها لعقد مجمع عام والاقرار عما اذا كانت احكام مجمع خلكيدونية صحيحة يجب العمل بها ام لا فترفض وعما اذا كان انتخاب

(١) قال يوحنا النيقاوي الذي عاش في القرن السابع ان تيموثاوس عاش عيشة راضية تقية بينما كان راهباً في دير القلمون بمديرية الفيوم الى ان تعين شيخاً في كنيسة الاسكندرية ثم خلف ديسقورس بعد وفاته وهو آية في التقوى والتدين . وقد قال يوحنا هذا ان تيموثاوس كان مثال المؤمن الحقيقي وانه سار ضد أنصار المجمع الخلكيدوني الذين أتعبوا العالم وأزعجوه (ولكن الرجل تغيرت مبادئه عند ماوضع قدمه على سلم الارتقاء اذ استعمل الحيل والخديعة ثم هو الآن يطلب تغيير معتقده لانهم عولوا على نفيه . وكأنه قدر للمصري ان لايثبت على مبدأ قط)

تيموثاوس قانونياً ام لا . قال يوحنا النيقاوي المؤرخ انه لم يقم لتعضيد تيموثاوس سوى اسقفين فقط وهما فقط اللذان اشارا برفض اعمال المجمع الخلكيدوني اما باقي الاساقفة فان بعضهم قالوا ان انتخاب تيموثاوس يعتبر لغواً اذا صح قول اعدائه فيه وبعضهم لفظ جميع انواع السباب والشتائم ضد هذا البطريرك الاسكندري

وقد رأى الامبراطور من حسن السياسة وسداد الرأي ان يترك المصريين وشأنهم ولا يتداخل في امرهم عسى بذلك يهدأون ويسكتون . وكاد يصدق ظنه وتكف المناقشات وتنقطع وسائل الخصام لولا ان بابارومية تمادى في غيه وأخذ يدبر الدسائس والمكائد حتى اقنع الامبراطور في سنة ٤٦٠ بان يرسل الاوامر المشددة الى قائد الجنود في الاسكندرية بنفي تيموثاوس من الاسكندرية وتنصيب بطريرك مستقيم الرأي بدله

فلما علم تيموثاوس بذلك ونظر خطارة هذا الامر واهميته من الوجه السياسي وليس من الوجه الديني فقط اعلن انه يقبل تغيير آرائه ومعتقداته وينحاز الى مجمع خلكيدونية اذا عدل الامبراطور عن نفيه ولكن البابا ليو اغرى الامبراطور بدسائسه وخداعه على عدم قبول هذا الرأي من تيموثاوس وحينئذ نفي هذا البطريرك الى كنجرة

وبعد ان نفي تيموثاوس اختير تيموثاوس آخر بدلاً عنه وهو لم يكن مثل سميه وسلفه في الصفات والاخلاق بل كان يقدّم حب الديانة على حب الوطن حتى استمال جميع الاحزاب اليه بحسن آدابه وتقواه واستقامة

اطواره ووداعته . وقد جلس تيموثاوس هذا على الكرسي البطريركي ستة عشر عاماً قضاها في سلام وامان مظهراً الانعطاف والانصاف لجميع الناس على السواء غيوراً على كنيسته غيرة صادرة من قلب سليم وايمان قوي . ومع انه اغاظ البابا ليو والامبراطور ليو بذكر اسم ديسقورس في القداس الا ان هذين العنيدين لم يستطيعا معاندته ومقاومته لانه امتلك اعنة قلوب الشعب والاكليروس في قبضة يده وفض جميع الخلاف الواقع بين كل الطبقات حتى ان المتطرفين الذين رفضوا في بادئ الامر الاعتراف برئاسته كانوا اذا نظروه ماراً في الشوارع العمومية يحيونه بتهليل وتكبير قائلين « انا وان لم نقرّ على انتخابك ولكننا نحبك حباً مفرطاً » . وقد اظهر هذا البطريرك حكمة وتعقلاً في جميع اعماله وتصرفاته حتى انه كان يحتقر اوامر الامبراطور المشددة باضطهاد الهراطقة و يزدري بمثل هذا القول وبقائله ذاهباً في ذلك مذهب العقلاء الذين يقولون ان كل انسان حرّ في اعتقاده وايمانه . ولو لم يقصف الله عمر ليو بابا رومية حالاً لكان صاحبنا تيموثاوس لاقى من دسائسه ومكائده كل انواع المتاعب والمصاعب . وجاء بعد ليو على كرسي رومية بطريرك اسمه هلاري لم يكن لديه من الوقت ما يسعه للتداخل في شؤون الكنائس الشرقية كما كان سلفه ليو يكثر من التداخل والتطفل بحجة الرئاسة المطلقة على جميع الكنائس المسيحية في العالم باسره وهي دعوى فارغة تركت لليو أثراً أسود

وفي سنة ٤٧١ توفي بطريرك القسطنطينية وخلفه اكاشيوس . وفي

سنة ٤٧٤ توفي الامبراطور وجلس مكانه زينو الذي لم يمض سنة في كرسي ملكه حتى فرّ هارباً من وجه جبار مغتصب اسمه باسيليكوس طرده وتربع على العرش بدله

وكان باسيليكوس هذا متحازاً الى مذهب يوطيخوس المار ذكره ولذلك انتهز رجال هذا الحزب تلك الفرصة وأرسلوا وفداً يطلب من الامبراطور المذكور إعادة تيموثاوس المنفي الى مسند البطريركية فأجاب هذا الامبراطور الاثيم الظالم طلبهم . أما تيموثاوس الحالي فآب الى ديره راضياً مسروراً دون أن يعترض او يقاوم هذا الامر اعتقاداً منه ان هكذا شاءت مشيئة الله « وان كل ما يعمل انما يعمل معنا للخير لاجل البنيان » ثم عاد تيموثاوس الاول « وعادت ريمة الى عادتها القديمة » فانه عوضاً عن ان يقتدي بزميله تيموثاوس الثاني ويتخذ السلم والسكون دثاراً وشعاراً له سعى الى التحزبات والتعصبات الذميمة واوعز الى الامبراطور ان يصدر منشوراً يطعن في مجمع خلكيدونية ويطلب من البطاركة والاساقفة عدم تنفيذ قرارات هذا المجمع وعدم اعتبار احكامه . وكان في مقدمة الذين رفضوا هذا العمل اكاشيوس بطريرك القسطنطينية ولذلك عقد مجمع في افسس سنة ٤٧٧ لمحاكمته فحكم عليه بالعزل ولكن هذا الحكم كان اسمياً فقط بمعنى انه لم ينفذ .

اما فرح تيموثاوس وانتصاره فلم يدوما طويلاً لانه في سنة ٤٧٧ استردّ زينو الملك لنفسه وكاد يصدر امره بنفي تيموثاوس هذا لولا انه وجده طاعناً في السن لا يحتمل وعثاء السفر واتعابه كما ان تيموثاوس الثاني (ويعرف بصاحب

القلنسوة البيضاء) لم يتحفز للعودة الى كرسيه ولم تبدُ منه ادنى بادرة يشتم منها انه راغب في السلطة والرئاسة حتى انه لما مات تيموثاوس الاول وعلم صاحبنا الثاني انه توجد جماعة كبرى في الاسكندرية تعانده وتضادده فضل البقاء في ديره طلباً للسلام وحسماً للنزاع والخصام وعليه اختير بطرس صديق تيموثاس الاول الحميم بطريركاً للاسكندرية . وقد تضاربت الاقوال واختلفت الاسانيد في امر انتخاب بطرس هذا وذهب اكثر الكتاب والمؤرخين الى ان معظم الاساقفة لم يصادقوا على تعيينه وهذا ربما كان صحيحاً ولكن القول الذي لا يقرب من العقل هو ماقاله الاستاذ نيل المؤرخ من ان اسقفاً واحداً فقط حضر رسامة هذا البطريرك (١) ولا يبعد ان اكثر الاساقفة لم يحضروا خوفاً من الامبراطور زينو الذي كان يبغي تعيين البطريرك بنفسه مخالفاً بذلك المنقول والمعقول . وكان خوف هؤلاء الاساقفة من سلطة الامبراطور وغضبه في محله فانه عند ما بلغه خبر رسامة بطرس للبطريركية أصدر الاوامر بنفيه واعادة تيموثاوس صاحب القلنسوة البيضاء . الا ان بطرس لم يبعد عن الاسكندرية بل ظل مختبئاً فيها مدة

(١) عرفنا فيما مرّ ان عدد الاساقفة المصريين الذين صادقوا على أعمال المجمع الخلكيدوني وقبلوا رئاسة كرسي القسطنطينية على الكرسي المصري كانوا اربعة عشر أسقفاً فقط . وليعلم القارئ ان جملة الاساقفة المصريين في ذلك العصر كانت مائة اسقف او تزيد

الخمس سنوات التي حكم فيها تيموثاوس شعبه حكماً مملوءاً من الحنان والامان والسلم والاطمئنان

وقد خطر على بال تيموثاوس وشعبه فكر سديد هو وضع قاعدة تسير عليها الامة في انتخاب خليفة للبطريرك الحالي بعد موته منعاً للخصام العتيد وقوعه بين كثيرين يرشحون انفسهم لهذه الوظيفة ويتحفزون لاغتصابها عند فراغها . فاتفق رأي الشعب على ارسال وفد خصوصي الى الامبراطور يطلب منه تخويل المصريين حق انتخاب بطريرك لهم كما جرت به العادة من قديم الزمان وهم يشترطون مقابل ذلك ان الذي يتم تعيينه يحتم عليه قبول الاوامر الصادرة من مجمع خلكيدونية . وكان زعيم هذا الوفد رجل اسمه يوحنا التلاوي (ربما نسبة الى تلا منوفية) وكان صديقاً متيناً للبطريرك تيموثاوس الحالي وللوالي الروماني المسمى ايلوس . ولكن صداقة يوحنا لهذا الوالي اضرّت به كثيراً مع ان المصريين استبشروا بها وذلك لان الوالي المذكور كان من المغضوب عليهم من البلاط الملوكي لاتهامه بالمروق والخيانة . وقد روى المؤرخون المتقدمون ان الامبراطور اعتقد في يوحنا السعي للحصول على رتبة البطريرك ولم يكن يرغب في تعيينه لها لانه ظنه رجلاً لا يليق لمثل هذه الوظيفة الخطيرة ولذلك فبعد ان اجاب الامبراطور سؤل المصريين ومنحهم ما طلبوه استدعى اليه يوحنا وحلفه يميناً مغلظة بعدم السعي خلف مسند البطريركية . على ان يوحنا حنث في يمينه ولذلك اضاع المصريون الرجاء الذي كان يملأ صدورهم باستتباب الامن في الكنيسة بناء على هذا

النظام الذي عملوه وصادق عليه الامبراطور · فانه عند ما تنيح تيموثاوس سنة ٤٨٢ أختير يوحنا التلاوي بطريركاً وقبل الوظيفة جذلاً مسروراً فهاج عمله هذا سخط الامبراطور وزاد الطين بلة او زاد البلة طيناً عند ما كتب منشوراً الى جميع الاساقفة المسيحيين في المسكونة يخطرهم بانتخابه وكان ضمن المنشورات التي ارسلها منشور بعث به رأساً الى سمبليشيوس بابا رومية ومنشوران احدهما للامبراطور والثاني لاكاشيوس بطريرك القسطنطينية ولكنه لم يرسلهما اليهما تواً بل وضعهما داخل الغلاف المرسل لصديقه ايلوس وقيل انه كان داخل هذا الغلاف الكبير رشوة بعثها يوحنا لصديقه ليرشي بها من يتوسم فيه التعضيد له لنوال غرضه · وحدث ان ايلوس الذي كان مغضوباً عليه كما قلنا كان غائباً في انطاكية ولذلك تأخر المنشوران عن الوصول للامبراطور وبطريرك القسطنطينية فوجد الوشاة فرصة بها يزيدون ما بقلب الامبراطور من الحقد والغل ضد البطريرك ذلك انهم قالوا له ان هذا البطريرك لم يكتف بحنثه واخلافه لوعده بل خرج عن حدود السلطة ووضع نفسه تحت كنف البابا الروماني لانه كتب له يخطره بانتخابه ولم يتنازل ويخطر امبراطور اوبطريرك القسطنطينية بذلك وهذا يعد احتقاراً للامبراطور واستخفافاً بهيبته · فحقد زينو وحرد وسطر خطاباً الى بطريرك رومية ينبئه بعدم اعتماد يوحنا بطريركا للاسكندرية وانه عازم على تعيين بطرس لهذا المنصب لان تعيينه يوجد سلاماً في مصر مادام المصريون انفسهم يميلون اليه لاعتقادهم بصحة معتقده ورسوخ قدمه

في الايمان الصحيح · فرد هذا البطريرك على الامبراطور رداً يظهر من خلال سطوره الانتفاخ والافتخار وحب الرئاسة وطلب التداخل في امور الكنيسة المصرية كما فعل « المرحوم » ليو قبلاً · ذلك لانه قال للامبراطور انه وان لم يصادق على انتخاب يوحنا فهو لا يقبل تعيين بطرس بطريركاً لمصر (كأن بطريرك مصر لا يعين الا بتصديق بابا رومية المحترم !!!)

فلما قرأ زينو واكاشيوس اقوال بطريرك رومية ودعواه الفارغة ضربا بها عرض الحائط واغتاظا من هذا التطفل والتعلل وارسل الامبراطور امراً الى الاسكندرية بتنصيب بطرس على كرسي بطريركيتها بشرط ان يوقع على القرار المرسل له على يد برغامس والي مصر الجديد · اما هذا القرار الذي اشتهر امره فكان عبارة عن خطاب ارسله الامبراطور الى جميع الاساقفة والقسوس والرهبان والعلمانيين في الاسكندرية ومصر وليبيا والخمس مدن الغربية مصدق عليه من بطريرك القسطنطينية ويقول بعضهم ان البطريرك نفسه املاه للامبراطور · وفحوى هذا الجواب ازالة اسباب الشقاق الموجودة بين الطوائف المختلفة في مسألة الطبيعة والطبيعتين فهو يفسر على معان مختلفة يأخذ كل منها ما يوافق مذهبه واعتقاده حتى سمي « اساس الاتحاد » · وكاد نجاح هذا المشروع يتم لولا ان بطريرك رومية عارضه وقاومه مدعياً ان الجواب المذكور مستخرج من قرارات مجمع خلكيدونية التي لا يصادق عليها هو وكان مبدأ هذا البطريرك وسلفاه وخلفاه ان يزيدوا الشقاق استحكاماً في الكنيسة المصرية وان يوجدوا شقاقاً آخر بين كنائس

الشرق والغرب استمرت ناره مشتعلة مدة اربعين سنة او تزيد. اما البطريرك بطرس فمع قبوله هذا الجواب وقراءته له جهاراً على مسامع شعبه لم يسلك مسلك المسيحي الحقيقي الذي يسعى نحو السلام ويقطع اوصال النزاع والخصام بل الصق بأخصامه والمعارضين كل تهمة قبيحة وافتراء مذموم مما يدل على اقتداره في اقامة برهان على لا شيء او على ايجاد دليل من الهواء وهو ما يسميه المنطقيون « السفسطة » او الحجة الواهية الفارغة وكان غرضه من ذلك حفظ مركزه والبقاء على سلطته وعدم التزعزع من كرسيه وهي خطة جرى عليها الكثيرون في اعلاء شأن انفسهم بالحط من كرامة الآخرين . صحيح ان هذا البطريرك بطرس لم يكن ميالاً وحده الى هذه المنازعات والمنافسات . وصحيح ايضاً انه قبل مبدأ الاتحاد وسعى الى ادخاله في عقول الآخرين ولكن هذا السعي كان ممقوتاً من بعض الوجوه لانه بلغ درجة التطرف لحد انه نفى كثيرين من الاساقفة والرهبان المصريين لان اذهانهم لم تقبل هذا المبدأ او لأنهم لم يألفوه لاول وهلة او لانهم كانوا يقولون بصحة مجمع خلكيدونية ويذهبون الى تصديق احكامه . اما يوحنا التلاوي فلم يرجع الى مصر بعد نفيه مع انه رفع دعواه الى اناستاسيوس خليفة الامبراطور زينو لوجود معرفة قديمة العهد بينهما ظناً تشفع في تحيز الامبراطور لجانبه او تستميله اليه ولكن هذا الامبراطور الجديد لم يلق بسمعه نحو دعوى يوحنا بل اكتفى بتعيينه اسقفاً في احدى الابروشيات

ولم يجلس البطريرك بطرس على كرسيه سوى ثمان سنوات فقط وتوفي

في اكتوبر سنة ٤٩٠ وتوفي اكاشيوس بطريرك القسطنطينية سنة ٤٨٩ والامبراطور زينو مات في ابريل سنة ٤٩١ والبطريرك فيلكس الروماني الذي قطع كل صلة بينه وبين الكنائس الشرقية مات في فبراير سنة ٤٩٢ وكأن الله جلّ وعلا اراد ايجاد عصر جديد للراحة والسلام فأخمد انفاس هؤلاء الاشخاص الذين اشتركوا في جميع انواع الشقاق والخناق والتخالف والتحالف والتباغض والتباعد والتنافر والتناقش والتنافس والتحاسد والتحاقد مما شتت شمل الكنيسة المسيحية في القرن الخامس وفض وحدتها فأصبحت الآن منقسمة الى كنائس متكاثرة متنافرة متزاحمة متألبة تطعن الواحدة في الاخرى لا لسبب سوى لحب الرئاسة والانتفاخ الممقوت

ويجدر بنا الآن ان نذكر ما كتبه احد المؤرخين في هذا الصدد حيث ذهب الى ان اصل هذا الشقاق غرسه الشيطان كما غرس الزوان في وسط الحقول . قال المؤرخ المذكور: ان هذا الاختلاف نشأ عن كلمة واحدة أي ان بعضهم ذهب الى ان المسيح « ذو » طبيعتين وبعضهم قال انه مكوّن « من » طبيعتين . فلو تدبر الفريقان لوجدوا انه لا يوجد اختلاف مطلقاً بين الرأيين . فان الذي يقول بان المسيح « ذو » طبيعتين يعتقد انه آله وانسان في آن واحد وهذا يثبت اللاهوت والناسوت في المخلص . والذي يذهب الى انه « من » طبيعتين يقصد ان له لاهوتاً وناسوتاً وهذا ولا ريب عين الاعتقاد الاول لا فرق بينهما الا في كلمتي « ذو » و « من » وهو فرق لا يدركه الا ضعاف العقول . انتهى

ومن ذلك الحين لحد يومنا هذا ومركز كنيسة القسطنطينية في مصر — واسمها الآن كنيسة الاروام — لم يتغير ولم يتبدل ولم يدخل عليه عامل من عوامل التقدم أو التأخر مع وجود شبه قرابة بل صلة رحم قوية بينها وبين الكنيسة القبطية الوطنية خصوصاً في التعاليم والتقاليد ولكن الفرق كبير عظيم بينهما في العواطف والامال بالحياة الابدية · ولو لم يتداخل امبراطرة الرومان قديماً ويضغطون على الاقباط في تعيين بطاركة اروام لما قبل الاقباط بطريركاً منهم ولو كان من نسل الملائكة كما حدث من سنة ٤٨٢ لغاية ٥٨٩ وبعد الفتح الاسلامي بنحو سبعين سنة حيث لم يجلس على الكرسي القبطي بطريرك ضد رغبة الشعب

والنتيجة ان عدد التابعين الان للكنيسة الرومانية في مصر على اختلاف مذاهبهم وجنسياتهم لا يتجاوز ٦٠٠٠ نفس مع ان ابناء الكنيسة الوطنية اوهم الاقباط قد بلغ تعدادهم الحديث نحو عشر سكان القطر عموماً

الفصل السابع والعشرون

زمن الراحة والسلام

سنة ٤٩١ للمسيح و ٢٠١ للشهداء

ان الامبراطور الجديد اناستاسيوس الذي ملك بعد زينو واقترن بأرملته اريادن كان عارفاً بأحوال مصر ملماً باخبارها وذلك لانه ظل

مدة منفياً فيها عندما ابعده سلفه حيث اقام في مركز منوف (بمديرية المنوفية) وكان له فيه اصدقاء كثيرون · وحدث ان واحداً من اعيان منوف اشار على اناستاسيوس وهو منفي بزيارة راهب مشهور اسمه ارميا كان يقطن احدى بلاد هذا المركز وله فيه سمعة طيبة التقواه وقداسته عساه يفرج كربته وينفث غمته · فسمع اناستاسيوس هذه النصيحة وسار مع نفر من اصدقائه حتى جاؤا الى ارميا وسألوه ان يمنح اناستاسيوس البركة ويطلب من الله في صلواته ان يذلل غرضه ويعيده الى عرشه · فقبل الاب ارميا طلبهم وباركهم اجمالاً ولم يخص اناستاسيوس بكلمة واحدة حتى بعد ان انصرفوا من امامه نظروا الى اناستاسيوس فوجدوه مغتماً مهموماً توهماً منه ان هذا الناسك المتعبد علم خفايا قلبه وظهر له انه انسان غير مستقيم النية فلم يمنحه البركة لانه لا يستحقها · فبذل اصحابه المصريون ما في وسعهم لكي يصرفوا عنه هذا الفكر الذي ازعج خاطره فلم يفلحوا ولذلك آب جماعة منهم الى منسك الاب ارميا واخبروه ان اناستاسيوس الذي وفدوا لاجله وانقلبوا معه طلباً لفائدته خرج من لدنه حزيناً كئيباً · وعليه امرهم ارميا ان يأتوا له باناستاسيوس ثانية فلما مثل بين يديه اختلى به هو وثلاثة من خلانه الذين يثق بصدقهم واخلاصهم وشرح لهم السبب الذي لاجله لم يمنح اناستاسيوس بركة خصوصية ذلك لانه رأى في حلم واذا بيد الله موضوعة على رأسه (اي اناستاسيوس) فلا حاجة له بطلب المزيد من البركة ما دامت قد صدرت من العلا · ثم طفق ارميا يوصي اناستاسيوس قائلاً « ان الله

تبارك اسمه قد اصطفاك من بين ملايين من الآدميين لترعى شعبه وتنوب عنه في الدفاع عن رعيته · فاذا تمت هذه النبوءة التي أنبئك بها اليوم فيتحتم عليك ان تتمم انت ايضاً ما اوصيك به وهو ان لا ترتكب الخطايا ولا تسير بقدمك نحو الشرور والآثام وان لا تعمل عملاً لمقاومة الديانة المسيحية وان لا تصادق على مجمع خلكيدونية لان المصادقة على احكامه تغيظ الله وتغضبه»

فلما صفى الزمان لاناستاسيوس وجلس على كرسي المملكة ارسل في طلب بعض الاقباط من تلامذة ارميا لكي يزوروه فيكرمهم · فسار اليه وفد من مريدي الاب ارميا ومعهم راهب اسمه وريدنوس من اقارب هذا الناسك المحترم الذي اوصاهم ان لا يقبلوا هدية او عطية من الامبراطور الا ان يكون بعض بخور أو أواني مقدسة يرسلها جلالته لخدمة الكنائس وليس للرهبان انفسهم · ولما كان هذا الامبراطور منفياً بنى كنيسة كبرى ارسل اليها مع هذا الوفد أواني من الذهب والفضة و بخوراً ونذوراً ثمينة القيمة كما انه بعث بهدايا فاخرة الى اصدقائه المصريين وعين بعضهم حكاماً ومديرين في الاقاليم · ومن ضمن احساناته الى مصر انه شاد لها قلعة على شاطئ البحر الاحمر ورمم منارة الاسكندرية المشهورة وكانت قد آلت للسقوط والدمار

والخلاصة انه لم يقم بين الامبراطرة الرومانيين امبراطور كان محباً لمصر ومحبوباً من المصريين مثل اناستاسيوس · وقد ازداد المصريون غبطة وهناء عند ماقام بينهم بطريرك اسمه اثناسيوس انتخبه الشعب باجماع الآراء بعد وفاة بطرس ولذلك كان انتخابه قانونياً · وقد صرف الامبراطور وهذا

البطريرك همهما في اعداد معدات السلم والراحة في الشرق عموماً ومصر خصوصاً التي ذاقت من المخاصمات والمنافسات ما كاد يذهب برونقها الديني والسياسي معاً · وكانت رغبة اناستاسيوس ان لا تقوم للمناقشات الدينية والمجادلات المذهبية قائمة وان كل بلاد تتبع المذهب الذي يشير به رئيسها الديني وان يكف هؤلاء الرؤساء عن محاكمة ومطاردة كل من لا يتمذهب بمذهبهم او لا يوافقهم في معتقدهم · وقد قال احد المؤرخين ان الامبراطور لما رأى بعض الاساقفة لا يزالون يتخذون البحث والخصام دأباً لهم عوّل على ابدالهم أو نقلهم الى اماكن قاصية حتى لا يعودون يكبرون اوجه الشقاق لغاية في النفس فيحرمون من يصادق او لا يصادق على مجمع خلكيدونية حتى يتمكنوا بذلك من ايجاد وسائل الانقسامات والتحزبات · وبهذه الطريقة زالت اسباب العداء وظلت الاربعة كراسي الكبرى - وهي الاسكندرية وانطاكية والقسطنطينية واورشليم - على غاية ما يكون من الصداقة وحسن الوداد الا كرسي رومية فان حضرات باباواته المحترمين لم يكفوا عن تعصبهم الذميم وتحزبهم الممقوت وآلوا على انفسهم ان لا يؤاخوا الكنائس الشرقية ولا يصافوها اذا هي لم تصادق على اعمال مجمع خلكيدونية مصادقة عمياء بدون بحث او تنقيب وان تصدر ايضاً قرار الحرمان نسطور و يوطيخوس وديسقوروس وبطرس واكاشيوس حرماناً باتاً « من فم الاباء والقديسين » (ولو انهم ماتوا وانتقلوا من دار يقول باباوات رومية انهم خلفاء الله والرسل فيها ويقول كل مسيحي حقيقي انه لا يحب البقاء في هذه الدار اذا صح ان

حضراتهم وكلاء بطرس ونوابه المفوضين)

ولم تكن فائدة هذه الراحة والسلام قاصرة على المسيحيين فقط فان جماعة الوثنيين في الاسكندرية ذاقوا طعمها اللذيذ واستمروه · فان هيروكليس احد مشاهير فلاسفة الاقباط الوثنيين الذي ذاق في اوائل القرن الخامس مرارة الاضطهاد والعذاب لاجل افكاره حتى جلدوه جهاراً في شوارع القسطنطينية — قد تمتع في ايام السلم هذه بالحرية التامة وآب الى وطنه شاكراً نعمة العدل والمساواة · وكان هيروكليس هذا من ضمن العلماء الذين بذلوا جهدهم ليوفقوا بين الديانة الوثنية والديانة المسيحية بان يطابق آداب وتعاليم تلك بهذه · ولا تزال بعض مؤلفاته في هذا المعنى باقية الى يومنا هذا ويجدر بكل من يعثر عليها ان يدرسها حق دراستها لما فيها من الفوائد الجمة والمعاني الفلسفية · اما باقي الكتاب والمؤلفين الذين نبغوا في مصر في ذلك العصر فليس فيهم من يستحق الذكر سوى اتيوس وهو طبيب قبطي بارع ولد في انطاكية وتربى في الاسكندرية واعتنق مذهب اريوس وتطرف في التحيز اليه · والذي يراجع تاريخ هذا النطاسي المشهور وهو بعد وثني او عند ما اعتنق الديانة المسيحية وهرطق فيها يجد فيه اموراً لا يمكن العقل قبولها لغرابتها وبعدها عن الحقيقة · وقد وضع هذا الطبيب مؤلفاً مسهب العبارة يرى فيه القارئ مقدار اهمية الطبيب وارتفاع شأنه وغزارة مادة رجاله في مصر في هاتيك الايام الاولى · وكان اتيوس هذا يعتقد بوجود منافع عديدة في ماء النيل وانها مفيدة للصحة وفيها شفاء للناس ويزعم ايضاً

بمنفعة حجر اليشب اذا وضعه الانسان في خاتم ولبسه في اصبعه اثر على مزاجه تأثيراً حسناً

وجلس اثناسيوس على كرسي البطريركية سبع سنوات فقط وبعد نياحته اخلفه رجل اسمه يوحنا عرف بالحكمة والتعقل اللتين عرف بهما سالفه ولذلك ظلت مصر تمرح في ميدان الراحة والسكينة بينما كانت اكثر انحاء المملكة الرومانية في قلاقل مستمرة وخصومات دائمة حتى في القسطنطينية نفسها حيث تعدى جمهور من الرعاع على الامبراطور واهانوه فتهددهم بالتنازل عن الملك والقاء حبل السلطنة على غاربها اذا هم لم يرجعوا عن معاكسته ومقاومته · اما مصر فكانت في مدة حكم الامبراطور اناستاسيوس بعيدة عن كل نزاع وثورة الا انه شاب صفوها شائبة مرض مخيف تفشى في انحائها قيل انه نوع من الجنون تسلط على السكان على اختلاف اعمارهم واجناسهم فكان الذي يصاب به يبيت يطوف في الشوارع وهو ينبح ويهر كالكلاب الى ان يفقد النطق ويعتريه الصمم · وقد شخص بعضهم هذا الداء بانه داء الكلب وذهب آخرون الى ان داء الكلب لم يكن موجوداً في مصر في تلك الايام وانه نوع من الصرع المعدي (هستيريا) انتقل من شخص الى آخر بطريق العدوى

ثم تنيح البطريرك يوحنا وخلفه يوحنا آخر يعرف بيوحنا النيقاوي (وهو غير يوحنا النيقاوي المؤرخ) · وقد صرف هذا البطريرك بضع سنين قبل رسامته في دير القار الذي كان على مقربة من بلبيس « بمديرية الشرقية »

حيث كان راهباً فيه · ولما جلس على السدة البطريركية تبادل الرسائل الدينية بينه وبين انطاكية وظلت هذه الرسائل سائرة على محور الوداد الى ما قبل ايامنا بقليل · وكان بطريرك انطاكية في ذلك الوقت اسمه ساويرس قد اشتهر بين الحزب القائل بان للمسيح طبيعة واحدة لتحزبه ضد مجمع خلكيدونية · وكان قبل رسامته مقيماً في الاسكندرية فاختاره الامبراطور بطريركاً لانطاكية وقد أسف الامبراطور فيما بعد لتعيين ساويرس في هذا المنصب لانه كان لا يعرف للتساهل والتسامح معنى بل كان يضطهد كل من لا يقول بقوله او يقبل المبداء الذي قرره المجمع الخلكيدوني بشأن الطبيعة والطبيعتين

وما فتئت الكنيسة الحبشية تحافظ على شروط الطاعة والخضوع لامها الكنيسة المصرية فرفضت قرارات مجمع خلكيدونية وأبت الاعتراف بسلطة البطاركة الاروام الذين كان الامبراطور يعينهم على الكرسي المصري ويرغم المصريين بقبولهم كما سيجيء · وكانت رسامة مطران الحبشة تتم على يد بطريرك الاقباط في مصر ويستحيل على الاحباش قبول اي مطران آخر لا يعينه بطريرك مصروهم ظلوا محافظين على هذا المبداء الى وقتنا الحاضر

وفي سنة ٥٠١ غزا مصر جيش من الفرس واستباح باحة الوجه البحري حتى وصل الى اسوار الاسكندرية ولكن الجيوش الرومانية صدتهم وهزمتهم في مواقع عديدة واجلتهم عن البلاد بالمرة بعد ان اخرب الفرس الزرع والضرع فوقع الشعب المصري بين مخالب السغب واشتدت المجاعة في مصر· وحدث

ان احد اليهود المتنصرين في الاسكندرية تبرّع بتوزيع مقدار عظيم من الحنطة على جماعة الفقراء الجياع وكان ذلك في يوم عيد القيامة اذ ازدحم جمع غفير من الناس حول الكنيسة لاختطاف هذه الصدقات فتألب القوم وتكأكأوا وتجمعوا حتى سقط نحو ثلثمائة منهم تحت الاقدام المزدحمة وماتوا دوساً بالارجل

وقد نبغ بمصر في هذا الزمن شاعر قبطي مفلق لا تزال قصائده الرنانة واراجيزه الرقيقة مسطورة في الكتاب الخامس من منتخبات الاشعار عند اليونان وكانت قد نشرت بعد وفاته بمدة قصيرة في القسطنطينية واسم هذا الشاعر كريستودورس من طيبة (الاقصر) كان قد عانى صعوبات قاسية في نسخ اشعاره وترتيبها لان الكتاب والمؤلفين في ذلك الحين كانوا يتعبون كثيراً في كتابة ما تجود به قرائحهم الا في ارض مصر مصدر الكتابة والتصوير فانها اقل صعوبة من غيرها في هذا الفن والدليل على ذلك كثرة النسخ التي لا تزال تصدر من هذه البلاد الى انحاء العالم كله بعد ان تكتشفها الايدي الاجنبية في القبور القديمة او الابنية المهجورة وفي الاديرة والمناسك ايضاً · ومن اشهر مؤلفات ذلك العصر كتاب وضعه عالم قبطي ايضاً اسمه ديسكوريدس عن النبات بناء على طلب احدى الاميرات الروميات مزين بالرسوم الجميلة محلى بالصور والنقوش الباهرة وهو موجود في مكتبة فينا ببلاد النمسا الى يومنا هذا · وفي المكتبة المذكورة نسخة من سفر التكوين كتبت في مصر نحو هذا الزمن وهي تحتوي على اكثر من ٨٨ صورة تختص بمواضيع تاريخية

حسنة الوضع جميلة الصنع

ولما توفى البطريرك يوحنا النيقاوي رغب الامبراطور في تنصيب ديسقورس ابن عم تيموثاوس الاول وكان محبوباً من الشعب ولكن الامة رفضت قبوله مع حبها له لانها لم تكن ترضى بتداخل الامبراطور في امر تعيين بطاركتهم وزاد حنق الاقباط كثيراً حتى كاد هذا الحنق يفضي الى ثورة ولكن ديسقورس هدأ خاطرهم وسكن جاشهم اذ وعدهم برفض تعيين الامبراطور له وان يسلم نفسه لارادة الشعب فينتخبوه او لا ينتخبوه حسب مايطابق رغبتهم ويوافق القواعد المرعية في الكنيسة · وقد سلك المصريون في ذلك مسلك الحكمة والسداد فانهم لم يشرعوا في انتخاب ديسقورس الا بعد مضي زمن طويل اذ اجروا الرسوم المعتادة في كنيسة مارمرقس ثم طافوا ببطريكهم الشوارع في احتفال حافل حتى وصلوا الى كنيسة ماريوحنا حيث قام البطريرك بالخدمة الكنائسية وتناول الاسرار المقدسة · ولكن حرافيش الاسكندرية والزعانف لم يكفوا عن الهياج لا لسبب سوى لتطبعهم به (كما هو حالهم الان) فجالوا في المدينة طول يوم الاحتفال يهيجون ويرغون ويعربدون ويزأرون حتى عثروا في طريقهم بثيودوسيوس ابن الوالي الروماني فأوردوه حتفه ومزقوه تمزيقاً · وقد لاقى القاتلون جزاء اثمهم وشرهم الا ان الامبراطور غضب وحنق عند ما بلغه خبر هذا الهياج والقتل فخاف الاسكندريون شر غضب الامبراطور وتوسلوا الى بطريكهم ان يذهب اليه ويستعطفه ويطيب خاطره · فذهب البطريرك الى القسطنطينية وتحصل

على عفو عام لمدينة الاسكندرية · ومما يسطر لهذا البطريرك بمداد الثناء والاعجاب في رحلته هذه انه احتمل بكل صبر وسكون تلك الاهانات المرّة التي اهانه بها انصار مجمع خلكيدونيه في القسطنطينية وسلك بغاية الحكمة والرصانة ولم يرد بكلمة واحدة على هؤلاء السفلة الذين كانوا يشتمونه ويحقرونه اثناء مروره في الشوارع العمومية

وكان من سوء حظ مصر انه مات الامبراطور اناستاسيوس ولحق به البطريرك ديسقورس ففقدت مصر بموتهما رجلين عملا على تقدمها وبذلا جهدهما في راحتها ورفاهيتها · فجلس على الكرسي الامبراطوري يوستينوس وكان عسكرياً بسيطاً امياً من الجنس السلافي المغولي فقاده طبعه وجهله الى السير ضد الخطة الحميدة التي سار فيها سلفه اناستاسيوس فضلاً عن انه كان معضداً لمبادىء المجمع الخلكيدوني ولذلك كان مع ساويرس بطريرك انطاكية وعدو خلكيدونية وجمعها على طرفي نقيض · قيل ان هذا الامبراطور اصدر امره بالقبض على ساويرس وقطع لسانه ولكن هذا فرّ هارباً الى الاسكندرية حيث اضر باهليها لانه اوجد فيهم ميلاً الى تجديد المنازعات الدينية والمجادلات المذهبية وكان يزيد الخطب تفاقماً لولا ان العزة الالهية رزقت مصر بطريركاً عاقلاً حكيماً هو تيموثاوس الثالث الذي اعقب ديسقورس الثاني · وقد ابى هذا البطريرك الانحياز الى حزب من احزاب الكنيسة مع انه كان شبيهاً بساويرس في كراهته لمجمع خلكيدونية ولكنه لم يظهر هذا الكره مطلقاً

والنتيجة ان مصر تمتعت بالسكينة في مدة حكم يوستينوس الاول
القصيرة المدى وظلت في هذه الحالة خمس سنوات في اوائل حكم يوستينيانوس
لانه كان مشغولاً عنها بتوطيد دعائم ملكه في المشرق والمغرب وعمل صلح
بين الكنيستين اليونانية والرومانية · وبعد ان انتهى يوستينانوس من هذا
وذاك حوّل انظاره نحو مصر قاصداً اضطهاد المسيحيين فيها لانه كان من
انصار مجمع خلكيدونية ومعضديه · واول عمل شرع فيه انه ارسل خطاباً
يحتم على تيموثاوس بطريرك مصر بالحضور الى الاسكندرية · فانصاع هذا
ورضخ للامر واخذ يستعد للسفر ولكنه اصيب بمرض عضال كان السبب
في انتقاله ليس من الاسكندرية الى القسطنطينية ولكن من هذه الدار الفانية
الى الدار الاخرى الباقية

الفصل الثامن والعشرون

كل اول وله آخر

سنة ٥٢٧ للمسيح و٢٣٧ للشهداء

عرفنا ان يوستنيانوس جلس على العرش الامبراطوري سنة ٥٢٧ وقلنا
انه لم يهتم بامر مصر وشأنها الا بعد مضي سنوات خمس على ملكه · ومع ان
هذا الامبراطور كان منحازاً الى مجمع خلكيدونية الى ان زوجته تاودورا
كانت تذهب مذهب المصريين وتعتقد كما يعتقدون وهذا مادعاه الى

الاعتدال في تحيزه وعدم التهور نحو امياله او الاندفاع وراء تيار اغراضه ·
وكان في مدة رئاسة تيموثاوس الثالث ان السلام تخلخل بنيانه في ارض مصر
وكادت اركانه تنهار لاسباب اختلف المؤرخون في شرحها وتأويلها ·
فمن قائل ان يوستنيانوس انفذ قائداً اسمه ابو ليناريس في جيش عرمرم لكي
يجبر المصريين على قبول مذهب مجمع خلكيدونية — وكانت النتيجة ان
الدماء سالت انهاراً في هذا السبيل ولم تؤثر في اعتقاد المصريين ولا استمالتهم
لجهة الامبراطور · ومن زاعم ان هذا الامبراطور عين بطريركاً للاسكندرية
سنة ٥٥٠ اسمهُ ابو ليناريس من تلقاء نفسه دون اخذ رأْي الشعب
المصري · فاذا صح هذان السببان او اذا كان منشأ هذه القلاقل نزوع
أهالي الاسكندرية الى العصيان والخصام عند دخول القائد أبوليناريس
الى مدينتهم — سواء صدق هذا او ذاك فان الاضطرابات والمنازعات
وقعت في مصر وزعزعت قوائم السلام الذي تمتع به اهلوها مدة غير قصيرة ·
وقد ورد في كلام يوحنا النيقاوي في هذا المعنى ان الامبراطور شرع في
اجراء القوة القاهرة على المصريين حتى يقبلوا مذهبه ويدينوا بدينه وعين
لذلك قوة عسكرية وفدت على الاسكندرية لكي ترغم اهلها على قبول
قرارات المجمع الخلكيدوني · فاوفد البطريرك تيموثاوس وفداً مؤلفاً من
الرهبان والنساك الى القسطنطينية ليطلبوا من الامبراطور استرجاع اوامره
والغاء اجراآته خوفاً من حدوث معركة عظيمة تصطك من هولها الركب
وتشيب منها نواصي الولدان وان يترك رعيته في أمن وسلام تعتقد ما كان

يعتقده الآباء والاجداد · قيل ان هذا الوفد لاقى نجاحاً في مأموريته بواسطة تداخل الامبراطورة تاودورا التي اوعزت الى قرينها ان يتنازل عن رأيه فقبل وارسل الاوامر الى جيشه بمبارحة الاسكندرية والذهاب الى أقاليم شمالي افريقيا الغربية · وقد قال يوحنا النيقاوي ان البطريرك ابوليناريس الذي عينه الامبراطور كان على جانب عظيم من رقة الجانب والتقوى عاش بسلام مع جميع الاحزاب ولو انه كان خلكيدونياً وامبراطورياً — اي صنيعة الامبراطور — وكان قبل تعيينه في هذا المنصب شماساً في دير ابا سلامه بالاسكندرية

ويغلب على الظن ان الامبراطور يوستنيانوس لم يسعَ الى تعيين بطريرك روماني في مصر الا بعد وفاة تيموثاوس · وقد كان في نية هذا الامبراطور ان لا يتداخل في هذا الامر بتاتاً لو اتفق المصريون فيما بينهم على تعيين بطريرك لهم · ولكنهم للاسف « اتفقوا ان لا يتفقوا » فانه بعد موت تيموثاوس نشأ في الكنيسة شقاق جديد بين حزبين قويين يقول احدهما ان جسد المسيح كان شبيهاً بجسدنا في جوهره ومادته فهو نظيرنا قابل للفناء والفساد · ويذهب الحزب الثاني الى ان جسد المخلص لم يرَ فساداً بل كان يشبه جسدنا شبهاً ظاهرياً وليس حقيقياً · وكانت النتيجة ان اكثرية الشعب مالت الى انتخاب ثيودوسيوس احد رجال الحزب الاول وكان كاتب سر تيموثاوس الاول واختار الحزب الثاني رجلاً اسمه غيناس لمركز البطريركية

وكانت العادة الجارية في الكنيسة القبطية في ذلك الحين ان الذي

يرشح للانتخاب ينبغي ان يصرف ليلة ساهرة وهو جالس بجانب جثة البطريرك المتوفي · وحدث انه بينما كان ثيودوسيوس ساهراً كالمتبع اذ سمع ضجة لفيف من الاوباش داخلين بعنف في الكنيسة وفي مقدمتهم غيناس · فخاف ثيودوسيوس على حياته وهرب من المدينة ولم يمض سوى يومين او ثلاثة حتى اختير غيناس بطريركاً · فهذه هي الفرصة التي سنحت ليوستنيانوس بالتداخل في شؤون البطريركية المصرية اذ ارسل نواباً من قبله الى الاسكندرية اعادوا ثيودوسيوس الى كرسي البطريركية · ولكن عودة ثيودوسيوس الى مركز وظيفته بواسطة الامبراطور لم ترق في عيني المصريين فزادت امامه الصعوبات والمتاعب في حفظ نظام كنيسته بل بلاده بأسرها وسلك كل طريق في اقناع شعبه بأن تداخل الامبراطور في امر ارجاعه لا يلجئه الى الخضوع لارادة الامبراطور ولا قبول مذهبه ومعتقده · ولما رأى الامبراطور حرج مركز ثيودوسيوس قصد ان يزيد في طريقه عثرة ووعورة فاستدعاه اليه وطلب منه المصادقة على المبداء الخلكيدوني وان يمنحه في مقابل ذلك امتيازات وقوة كبرى يخضع لها شعبه رغم انوفهم ولكن هذا البطريرك رفض كل هاته المواعيد مستخفاً بها هازئاً بقائلها ·

فلما رأى يوستنيانوس عناد البطريرك وصلابة رأيه وان الوعد والوعيد لا ينفعان معه دبر امراً جديداً لاخضاعه وكان هذا التدبير مكيدة ابتكرها والي مصر الروماني هي تعيين رجل اسمه بولس لمسند البطريركية وكان هذا

الرجل اجنبياً عن مصر شب ودب في طرسوس — وليس في تونس كما يزعم المقريزي · ومن الغريب ان يوستنيانوس لم يخطر الاقباط باختيار هذا البطريرك لهم بل رسمه في القسطنطينية وأرسله الى مصر تحت حراسة قوة عسكرية هائلة · وقد تم هذا كله سنة ٥٤١ اي بعد نفي البطريرك يوحنا النيقاوي بنحو ستين عاماً · اما المصريون فلم يعبأوا برئاسة بولس هذا ولم يحسبوا لوجوده بطريركاً عليهم ادنى حساب وما تجرأ احد منهم على التكلم معه أو مخاطبته في أمر من الامور بل كانوا يلقبونه بيهوذا الثاني (ويهوذا الاول هو يهوذا الاسخريوطي الذي خان سيده المسيح وسلمه للصلب) ولم يكونوا يعرفون بطريركاً لهم غير ثيودوسيوس المنفي الذي كانوا يطيعونه ويخضعون لاوامره كما لو كان جالساً على كرسي البطريركية · وقد قنع بولس من الرئاسة بوضع يده على الكنيسة الكبرى المسماة بالكنيسة القيصرية ثم استحوذ بمساعدة الجيش على عدة كنائس مهمة غيرها فاضطر المصريون الى تشييد معابد جديدة سموا احدها الكنيسة الملائكية نكاية في الكنيسة القيصرية

ولم يكن المصريون فقط يبغضون بولس وينفرون منه بل شاركهم في هذا النفور كثيرون من الموظفين الرومانيين في مصر الذين رفضوا الاعتراف بسلطته عليهم ولذلك شرع هذا البطريرك في اتخاذ طرق بها ينتقم من الجميع ويمد ظل نفوذه في مصر · وكان الامبراطور قد امده بقوة عظمى وأطلق يده للتصرف كما يريد ويشتهي وعليه قصد بولس نقل ايلياس قائد الجنود في الوجه القبلي من مركزه الى مركز آخر حتى يضعف بذلك قوة

الاقباط في الصعيد · وكان ايلياس غائباً في الاسكندرية حينذاك فأحس احد اصدقائه واسمه يبوس بهذا المشروع فكتب الى صديقه ايلياس يعلمه بأمر هذه الدسيسة التي نسج بردها بولس ضده · وكان يبوس هذا شماساً في الكنيسة القيصرية التي كانت تحت سلطة بولس فوقع كتابه الى ايلياس في يد احد اتباع هذا البطريرك الذي امر للحال بالقاء القبض على يبوس متهماً اياه باهمال مصلحة الكنيسة وتبديد ايرادها فسلمه الى عهدة رودون والي مصر الذي عذب هذا الشماس المسكين عذاباً مريعاً ثم اخمد انفاسه · فرفع اقارب يبوس دعواهم الى الامبراطور الذي امر بعزل رودون وتعيين ليبريوس والياً لمصر واعطاه تعليمات باجراء تحقيق دقيق في هذه المسألة واظهار الفاعل الحقيقي لها · فدافع رودون عن نفسه بقوله ان الاوامر الصادرة له من الامبراطور تقضي عليه باطاعة بولس طاعة عمياء وتنفيذ اغراضه · اما بولس فقال انه لم يأمر رودون بقتل يبوس وانكر انكاراً باتاً ما عزاه اليه رودون من انه ارسل له الاوامر باعدام يبوس على يد وطني اسمه ارسينوس وكانت نتيجة هذا التحقيق ان صدر الحكم بالاعدام على رودون وارسينوس ونفي بولس الى غزة حيث اجتمع جمع مؤلف من والي مصر وبطريركي انطاكية واورشليم وحكم عليه بالعزل والحرمان · ومن ثم عين الامبراطور بدله رجلاً اسمه زويلوس ليجلس على كرسي مارمرقس الذي اصبحت تتلاعب به الايدي تلاعب الصبيان بالأكر

ولم يكن حظ هذا البطريرك الجديد عند الاقباط احسن من حظ

سالفه فانهم قابلوا تعيينه بمزيد الاحتقار والهزء ولم يغيروا رأيهم في رئاسة ثيودوسيوس عليهم ولو انه كان لا يزال بعيداً عنهم في منفاه بعد ان جيء به من القسطنطينية حيث صرف مدة سجيناً في سجونها . ومن ذلك العصر الى زمن الفتح الاسلامي ومصر يحكمها بطريركان في آن واحد — البطريرك الاسمي الذي يعينه الامبراطور و يقيم في السراي البطريركية ويضع يده على اغنى الكنائس في الاسكندرية ويبتلع ايرادها ولكن الامة القبطية عن بكرة ابيها كانت تحتقره وتزدري بسلطته . والبطريرك الثاني هو البطريرك الحقيقي الذي كان يقطن دير وادي النطرون و يسوس رعيته باوامره ونواهيه التي يصدرها من هذا الدير

وما كان الضرر الذي لحق بالكنيسة المصرية قاصراً على الامور الدينية والسياسية فقط بل مسها شرّ العوز المالي ايضاً . فانه من ذلك الحين لحد دخول العرب مصر وولاة مصر الرومانيين ينهبون المرتبات والصدقات المخصصة للكنائس ويعطونها الى البطريرك الذي يعينه الامبراطور أو هو البطريرك الاسمي وكانت تبلغ هذه المرتبات نحو ثمانين الف جنيه ايراداً سنوياً . ومن ذلك اليوم بطل استعمال اللغة اليونانية في الكنائس والمجتمعات المصرية فلم يبقَ لها اثر سوى في كنيسة الحكومة التي شادها الامبراطور الموظفين . ومن ثم صار الاقباط يصلون في كنائسهم بلغتهم الاصلية المعروفة باللغة القبطية وترجموا جميع كتب الطقوس والخدمة اليها

وقد ترك جهل اليونان في مصر اثراً سيئاً من الخرافات والاوهام

التي ملأت العقول وغشت الافهام من ذلك العصر الى هذه الايام ولا يزال المصريون يعتقدون بها ويصعب نزعها من اذهانهم . مثال ذلك ان سائحاً جال مصر في ذلك القرن وقال انه وجد احد ابواب هيكل افتاح (وكان هذا الهيكل كنيسة للمسيحيين في القرون الاولى) موصداً لا يمكن فتحه . فسأل احد المصريين عن سبب اغلاق هذا الباب على الدوام فأجابه المصري ان الباب المذكور كان قد اغلق في وجه المسيح بعنف عند ما وفد على مصر مع والديه منذ خمسمائة سنة مضت فدعى عليه المسيح ببقائه مغلقاً دائماً ولذلك لا توجد قوة في الكون تستطيع فتحه !!!

ومن اعمال يوستنيانوس في مصر انه امر ببناء ثلاثة حصون قوية في الاديرة من الدراهم المخصصة للاكليروس والكنائس فبنيت هذه الحصون ووضع فيها رهبان يقومون بالدفاع ورد غارات المهاجمين وقت الحاجة . وكان احد الحصون المذكورة قائماً في دير جبل سينا والاخران في ديري مار انطونيوس ومار بولس على شاطئ البحر الاحمر من جهة مصر . ومعلوم ان الديرين الاخيرين كانا موجودين قبل زمن يوستنيانوس بكثير فلم يزد عليهما الا ترميم وتحصين . وقد بقي هذان الديران محافظين على عهود الاخاء والاخلاص للكنيسة المصرية فلم يحولا عن اقتفاء اثرها لحد يومنا هذا

مرّت السنون على الحالة التي وصفناها تلك والشقاق يزداد تفاقماً والغل يغلي ويجيش كالقدر في صدور زمرة الرومانيين المستوطنين مصر من الجهة الواحدة وجمهور المصريين المسيحيين من الجهة الاخرى حتى انه لم يمر على

هذا الخلاف الا قرن واحد اذ قام الاقباط يرحبون بالمسلمين ويمدون لهم ايديهم لينقذوهم من ظلم ظالميهم الرومانيين المسيحيين

صحيح ان الذنب كبير لا يغتفر لفئة قليلة من الاقباط غررت ببلادها وملتها الى اعداء دينها . وصحيح ايضاً ان هـذه الفئة حصدت نتيجة مازرعت وذاقت من القصاص المريع من ايدي الذين ادخلوهم ما يذيب من هوله الحجر الصلد وتخر من فظاعته الجبال الشم . كل هذا صحيح حق ولكن « امل لهم عذراً وانت تلوم » فان الرومانيين اغاظوا الاقباط واغضبوهم ووضعوا يدهم على كنائسهم الكبرى واختلسوا ايراد هذه الكنائس عنوة وأعطوه لمختلس كرسي بطريركتهم الذي حل محل رئيسهم الوطني وحجر عليه في ديره فلم يكن يغادره الاخلسة . وقد اتخذ حزب الرومانيين وحزب المصريين لونين اختص كل جماعة منهم بلون (كما علمت في اتخاذ الانكليز لونين من الوان الورد لحزبين كبيرين نشأا بينهم وكانت النتيجة شبوب نار الحرب بين الحزبين لا زالت تعرف بحرب الوردتين) فاختار الرومانيون اللون الازرق والمصريون الاخضر . والذي يتصفح التواريخ المصرية القديمة يجد فيها بياناً وافياً عن فساد الحكومة وانحطاط قوانينها في ذلك الوقت مما نتج عنه نزاع وخصام بين الحزبين الازرق والاخضر ولها حكايات محزنة يطول شرحها و يتعذر سردها وتعدادها

وقد زاد الامبراطور يوستنيانوس نار الشقاق ضراماً وابعد عنه قلوب الكثيرين في مصر وفلسطين لما اصدر امراً يقضي بحرم اوريجانوس عميد

الاكليروس المصري وشجب افكاره وتكفيره . ثم في سنة ٤٥٤ وزع هذا الامبراطور منشوراً فيه حرم ثلاثة من مشاهير المؤلفين في فلسطين متهماً اياهم بالهرطقة وطلب من جميع البطاركة والاساقفة في انحاء المملكة الرومانية المصادقة على هذا الحرمان والتوقيع على المنشور الخاص به وكان عبارة عن تفنيد اعمال المجمع الخلكيدوني وتسفيه آراء القائلين بصحة قراراته لان اولئك الكتاب الثلثة كانوا من معضديه . ولم يكن لدى الكنيسة المصرية مانع لقبول هذا المنشور لانه وافق مشربها سوى انها رفضته قطعياً لانها قد اتبعت المبداء الذي اختطه الاساقفة في شمالي افريقيا وهو عدم جواز حرمان الاشخاص الذين انتقلوا من هذا العالم الى العالم الآخر بل يكتفي بتشهير اغلاطهم والابتعاد عن افكارهم . كذلك الامبراطور لم يطلب من البطريرك المصري التداخل في هذا الموضوع بل انه سأل زويلوس بطريرك الامبراطور في مصر ان يضع امضاءه عليه ففعل ولكنه عاد فندم ولذلك نفاه الامبراطور وعين غيره اسمه ابوليناريس مكانه . ومعلوم ان يوستنيانوس كان امبراطوراً في الشرق والغرب معاً وكانت له السلطة على رومية كما على القسطنطينية ولذلك ارسل منشوره الى فيجيليوس بابا رومية وطلب منه ان يمهره بامضائه فراوغ هذا البابا كثيراً وماطل وتعلل وتمهل ولكنه رضخ اخيراً ووقع على المنشور في سنة ٥٤٨ . ولم يكتف يوستنيانوس بهذا بل ارسل الى فيجيليوس منشوراً آخر اصدره سنة ٥٥١ اشد لهجة واكثر ضغطاً من الاول ولكن هذا البطريرك الروماني أنف من التصديق عليه وتمنع من ختمه ثم علم بنتيجة هذا

التمنع ففرّ هارباً من وجهِ الامبراطور ولجأ الى كنيسة مار بطرس في القسطنطينية فطارده يوستنيانوس وارسل خلفه جماعة من الموظفين ليحضروه بالقوة والعنف حتى انهم هدموا اعمدة المذبح وقوضوا اركان الهيكل ليخرجوا البابا من الكنيسة ولكنه تمكن من الفرار وسار الى خالكيدونية حيث مكث فيها الى ان عفى عنه الامبراطور وأمنه على حياته حتى يعود الى القسطنطينيه ويحضر مجمعاً عاماً عقد سنة ٥٥٣ . وقد حضر هذا المجمع ابوليناريس البطريرك الامبراطوري في الاسكندرية اما الكنيسة المصرية فلم ترسل من ينوب عنها في هذا المجمع ولا هي اهتمت بقراراته واعماله

وكأن المصائب أبت الا تنصب بأجمها على رأس مصر الاسيفة وتكون البلايا فيها سلسلة ذات حلقات متتابعة متلاصقة . فانها فضلاً عما لحقها من جراء المنازعات المدنية والدينية انتابتها زلزلة عنيفة اصابت الشرق باكلهِ ومصر أيضاً . قال يوحنا النيقاوي ان هذا الزلزال استمر فعله في مصر مدة سنة كاملة ثم اعقبه طاعون وجوع اضر بالوجه البحري ضرراً عظيماً وكادا يتركانه قاعاً صفصفاً . اما الصعيد فكان انعم بالاً واهنأ عيشاً من البحيرة ذلك لان سكانه لم يكونوا يهتمون بسطوة الامبراطور وما كانوا يعرفون شيئاً عن سلطته فزهى فيه زرع الديانة المسيحية وترعرع وازهرت اغصانها حتى ظللت تحت كنفها جميع بلاد الحبشة ونمت فيها نموا عجيباً . ولم يكد المصريون يودعون القرن الخامس ويستقبلون السادس حتى صارت الديانة المسيحية عامة شائعة من الاسكندرية شمالاً الى اقصى بلاد الحبشة

وما جاورها جنوباً ولم يبق للوثنية أثر حتى في جزيرة فيلا (اصوان) حيث كانت هذه الديانة تحتضر الى ان ملك يوستنيانوس فاجهز عليها . وكان البطريرك المصري ثيودوسيوس لا يفتأ يبعث الارساليات الدينية للتبشير في اكناف البلاد القبلية . وكما ان الوجه البحري اختص بالنزاع والشقاق الديني فان الوجه القبلي عُرف بالغيرة الدينية والعمل على تقدُّم المسيحية وارتقائها . وما سبب ذلك الا لان اهالي الصعيد كانوا يتجنبون السياسة ويبتعدون عن التعصب المذهبي والتحيز لهذا المبتدع او لذاك الهرطوقي

وقد مات الامبراطور يوستنيانوس سنة ٥٦٦ وتنيح البطريرك ثيودوسيوس سنة ٥٦٧ وعند وفاته ظنّ ابوليناريس ان الجو قد خلا لهُ وانه يسهل عليه اعلان أمر رئاسته على الكرسي الاسكندري فاعدّ مأدبة فاخرة لهذا الغرض في الاسكندرية واحتفل احتفالاً باهراً لم ينته منه حتى ظهر له خطأه ظهوراً مجسماً فان الاقباط انتخبوا لهم بطريركاً اسمهُ بطرس من اطيب الاكليروس سمعة واكثرهم علماً واوسعهم عقلاً ومعرفة

وفي مدة رئاسة البطريرك بطرس وفد على مصر يعقوب البرادعي المشهور . وُلد يعقوب هذا في بلدة تيلا على مسافة ٥٥ ميلاً من اديسا بمقاطعة انطاكية وذلك في اواخر القرن الخامس فكان عند حضوره لمصر قد بلغ من العمر اشدّهُ . وفي سنة ٥٤١ احضروه من ديره عند القسطنطينية ورسمه ثيودوسيوس بطريرك الاسكندرية اسقفاً مع جماعة من المصريين الذين كان يوستنيانوس قد حجزهم في ذلك الدير . وكانت رسامته على

اقليم اديسا اسمياً فقط لانه كان كرسل يجول في انحاء الولايات الرومانية عدا مصر لكي يضم سكانها الى حظيرة الكنيسة المصرية ويدخل في اذهانهم مذهبها واعتقادها بهمة لا يعتريها شيء من الكلال وقلب لا يعرف الخوف ولا يشعر بالخطر المحدق به من الموظفين والكهنة الرومانيين . قيل انه رسم ٨٩ اسقفاً والوفاً من الكهنة والقسوس . ومن ذلك الحين اطلقت كلمة « يعقوبين » على جميع الذين يذهبون بان للمسيح طبيعة واحدة اشتقاقاً من اسم يعقوب البرادعي زعيم هذا الحزب . ولكن من الخلط الكبير والخبط الذي يدل على الجهل اطلاق لفظة يعقوبيين على الكنيسة القبطية المصرية اذ لا علاقة لها بيعقوب اما اذا سميت الكنيسة الرومانية بمصر بالكنيسة الملكية فأنت مصيب غير مخطيء لان هذا الاسم صار علماً للكنيسة المذكورة من بعد الفتح الاسلامي وهو اسم عربي الاصل مشتق من كلمة « ملك » ومعناها الذين ينحازون الى الملك او الامبراطور الروماني مذهباً وسياسة

والذي حدى بيعقوب لزيارته مصر هو سعيه لاصلاح ذات البين بين كنائسها وكنائس سوريا . وسبب هذا الخصام هو ان يعقوب كان قد رسم بطريركاً لانطاكية اسمه بولس كان من حزب القائلين بوجود طبيعة واحدة للمسيح ولكن لداعي الاضطهاد الشديد الذي وقع على بولس هذا اضطر ان يصادق على مجمع خلكيدونية ويقبل جميع قراراته وبالتالي يعتقد ان للمسيح طبيعتين . فساء هذا العمل يعقوب اساءة حرمه لاجلها وعزله من منصبه ولكن بولس فرّ من القسطنطينية بعد ان اعترفا بخطائه لامبراطورها وتاب عن زلته

هذه فلما سمع يعقوب بتوبته قبله في عضوية الكنيسة ثم اعاده لبطريركية انطاكية كما كان . فحنق المصريون لهذا التصرف وقبل ان البطريرك بطرس حكم على بولس بالحرم والعزل وهذا هو السبب الذي دعى يعقوب للمجيء الى مصر لكي يتفاوض في هذا الامر ويقنع بطريركها بالعدول عن رأيه ولكن البطريرك اقنعه ببراهين قوية واسانيد تعزى الى سيرة بولس هذا وسلوكه السابق في الاسكندرية التي هي مسقط رأسه ولذلك صادق يعقوب على الحكم بعزل بولس ولكنه يبقى عضواً في الكنيسة لانه تاب وندم . الا انه كان لبولس حزب قوي في سوريا رفض قبول هذا الحكم الذي اصدره بطريرك الاسكندرية وصادق عليه مطرانهم وزعيمهم يعقوب ولهذا وذاك نشأ في سوريا شقاق جديد استفحل امره وتعاظم شره . وبعد مضي بضع سنوات عزم يعقوب على زيارة الاسكندرية ثانية وكان البطريرك دميان قد اعقب البطريرك بطرس ولكن يعقوب أصيب بمرض عضال في الطريق فعرّج على دير في حدود مصر . فلما بلغ دميان خبر مرضه اسرع لعوده والسؤال عنه فلما وصل الدير كانت روح يعقوب قد وصلت الى باريها

ولم يحدث في مصر من الامور الهامة مدة رئاسة البطريرك بطرس الرابع الا زيارة يعقوب البرادعي لهذه البلاد كما ذكرنا وذلك لان بطرس لم يجلس على كرسي البطريركية سوى سنتين اذ توفاه الله وخلفه دميان الذي سار على خطة سلفائه الحسنة وهي الابتعاد عن كل شقاق ديني ونزاع مذهبي فكان هذا البطريرك يسوس رعيته بسياسة التعقل والتبصر وهو منزوٍ في صومعة في

دير وادي النطرون وقد مات ابوليناريس البطريرك الامبرطوري سنة ٥٦٩ وخلفه بطريرك آخر اسمه يوحنا اصله من قواد الجيش الروماني المتقاعدين تمت رسامته في القسطنطينية وارسل الى مصر ليقبض على ايراد الكنائس فيها ولم يكن هذا البطريرك كاسلافه معانداً مغاضباً بل هو اظهر ميلاً للسلام والهدو ولم يستعمل الضغط والقسر في اجبار الآخرين على ترك مذهبهم وتغيير عقائدهم ولكنه كان يخدم الله خدمة العبد الخاص لذاته تعالى

وفي ذلك العهد تفاقم امر الشقاق بين المصريين والرومانيين وذلك لان الحكومة الامبراطورية دققت جداً في عدم الحاق اي مصري كان بالجيش الروماني وهو قانون سارت عليه الحكومة من زمن مضى ولكنها كانت تتساهل فيه احياناً فاتبعت في هذا الحين الصرامة الكبرى في تنفيذه لانها راعت فيه جانب السياسة اكثر من جانب الوطنية او المذهب ولذلك جهل المصريون معرفة التمرينات العسكرية والحركات الحربية جهلاً تاماً وكان هذا سبب انكسارهم وفشلهم في الثورات التي قاموا بها ضد الرومانيين

وقد قاوم الرومانيون ايضاً تجارة مصر فاضعفوها قليلاً ولكنهم لم يقدروا على حصرها وملاشاتها فان السفن المصرية كانت تذهب الى انكلترا مشحونة بالغلال فتبيعها وتستعيض عنها بانواع المعادن خصوصاً القصدير

وفي هذا الزمن نبغ في مصر تاجر مشهور اسمه قزمان ولع بالملاحة والسياحة وسار الى اماكن قصية لحد خليج العجم وسيلان والهند . ولم يكن الرجل مولماً بالتجارة ولعه بالبحث والتنقيب في اخلاق الناس الذين يراهم وطبائع

سكان البلاد التي يزورها وقد وضع مؤلفات عديدة حوت وصفاً مفيداً للاقطار التي رحل اليها وما فيها من انسان وحيوان ونبات وغير ذلك مما يماثل مؤلفات العلماء في عصرنا هذا . ومن موجبات الاسف الشديد ان يد الزمان عبثت بهذه الكتب كما عبثت بغيرها من مؤلفات المصريين القدماء ولم يبق من مصنفات قزمان سوى كتاب واحد موضوعه « وصف البلدان وصفاً ينطبق على مبادىء الديانة المسيحية » وقد ذكر في مقدمته « انه الفه ليدحض الوهم الفاسد الذي تسلط على بعض القائلين ان الارض كرة مستديرة مع انها مسطحة مستطيلة كما يتبين من مغزى الكتب المقدسة » ولا ريب في ان رأي قزمان هذا خطأ وخطل لا يقول به تلامذة المدارس في هذا الزمن

على اننا اذا اغمضنا الطرف عن الهفوة الآنفة الذكر نجد الكتاب لذيذاً نافعاً يحتوي على امور مهمة دقيقة عن سيلان وبلاد الهند ليس فقط في ما يختص بحالة الديانة المسيحية فيهما بل يبحث ايضاً بالاسهاب عن محصولاتهما وتجارتهما وفنونهما . وفيه زيادة كما ذكر صورة كتابة اثرية قديمة وجدها منقوشة على بناء عتيق في مدينة ادول وهي ثغر من ثغور بلاد الحبشة واقع على شاطىء البحر الاحمر . وفي هذا الكتاب وصف لهذا الاثر القديم بانه « قطعة من الرخام الاسود على شكل السفين (الحابور) قائمة خلف كرسي من الرخام الابيض خص بالمريخ وعليه صورة هرقل وعطارد . (المريخ وهرقل آلهة الحرب عند القدماء) وكان على قطعة الرخام الاسود كتابة

محفورة فيها تشير الى بطليموس يورجيتيس (ملك من سنة ٢٤٧ الى ٢٢٢ قبل المسيح) وعلى كرسي الرخام الابيض كلام يشير الى ملك لم يذكر اسمه غزا بلاد الحبشة بعد التاريخ المذكور بقليل »

ولم يكف الاسكندرية ما اصابها من الانحطاط في تجارتها وعلومها بل ان المدينة نفسها تغير رونقها وانقلب منظرها من وقت ما اتخذها الموظفون الرومانيون مسكناً لهم . وكان اكثر هؤلاء الحكام يقطنون مدينة طبوصيرس الواقعة على مسيرة يوم غربي الاسكندرية . ولا تزال خرائب قصورها واطلال حماماتها الشهيرة ودمن منازلها قائمة تدل على ما كان لها من المجد والعظمة

وكان علماء العالم باسره يفدون على الاسكندرية حينئذ لتصحيح ما بايديهم من النسخ القديمة التي لا يوجد عارف باصولها سوى علماء الاسكندرية . وبالجملة فان علوم المصريين ومعرفتهم في الطب والجراحة كانت لا تزال مشهورة مأثورة في جميع المسكونة

وفي مدة حكم يوستنيانوس وخليفتيه يوستينوس الثاني وطيباريوس الثاني اتسع فتق البغض والكره وعلا سعير العداوة والنفور بين المصريين والرومانيين الدرجة تتضح لك فيما يلي من الفصول

الفصل التاسع والعشرون

ثورة الثلاثة اخوة

سنة ٥٨٢ للمسيح و٢٩٨ للشهداء

في اوائل حكم الامبراطور موريس الذي جاء بعد طيباريوس الثاني حدثت ثورة في الوجه البحري تحت زعامة اخوة ثلاثة من الاقباط هم ابسخرون ومينا ويعقوب الذي اعتقلوا السلاح وقاموا يناجزون الرومانيين ويناصبونهم الشر والعدوان . وكان فاتحة اعمالهم انهم ساروا على جهة بنا وابو صير (بالقرب من سمنود غربية) واضرموا فيها النيران وعملوا الصارم البتار في رقاب سكانها . فلما احس واليها بذلك فرّ تحت جنح الظلام قاصداً القسطنطينية حيث عرض الامر على امبراطورها واخبره بهذا الثوران ومصيره . فارسل الامبراطور الاوامر مشددة الى يوحنا حاكم الاسكندرية يطلب منه وضع حد لهذا العصيان واخماد نيرانه بجميع الوسائل الممكنة . اما العصاة فبعد ان استتب لهم الامر في اقاليم الوجه البحري ووضعوا يدهم عليها جعلوا وجهتهم الاسكندرية يتهددونها ويتوعدون وكان اول ضرر الحقوه بها هو انهم اغتصبوا الحنطة التي كانت مرسلة اليها في السفن فنتج من ذلك جوع وتني في الاسكندرية اهاج سخط الرعاع فقاموا على يوحنا حاكم المدينة يبغون قتله فلم ينقذه من ايديهم سوى بعض وجهاء المصريين الاقباط الذين وقفوا في وجه الاوباش واخذوا يوحنا تحت حمايتهم . ومن غريب الاتفاق ان يوحنا هذا كان

صديقاً حميماً للاخوة الثلاثة الذين اوقدوا شواظ هذه الثورة . ولكن صداقة يوحنا لزعماء الثائرين لم تمنع هذا العصيان ولم تفد في ايقافه بل اضرته من وجه آخر لان الامبراطور عزله وعين بدله رجلاً اسمه بولس . وفي هذه الاثناء كان لهيب الثورة يندلع ممتداً في مصر مهدداً السلطة الرومانية بالسقوط والزوال . فان اسحق ابن اكبر الاخوة الثلاثة انتصر في عدة مواقع بحرية انتصاراً باهراً وغنم عدداً وافراً من المراكب والسفن وصار يطوف في البحار الى ان وصل قبرص وهو يكسح في طريقه جميع المراكب الرومانية ويناوش الشطوط والمواني ويسلب منها الغنائم والذخائر . فخاف الامبراطور شر العقبى واوعز الى بطريركه في مصر ان يفاوض الثوّار في شروط الصلح فقبل البطريرك وعين مكان الاجتماع للصلح في بلدة عيقلة (هي الآن زاوية صقر بمركز ابو حمص بحيرة) مسقط رأس الاخوة الثلثة

وكان هذا البطريرك الامبراطوري واسمه يولوجيوس قد جلس بعد يوحنا نحو سنة ٥٧٩ وهو اول بطريرك روماني استمال لجانبه المصريين بعض الميل واكتسب ثقتهم ومحبتهم . ولم يكن الرجل رومانياً او مصرياً بل هو من انطاكية رسم في القسطنطينية وانفذ الى مصر ليرأس ذلك الرهط الروماني القليل العدد الذي كان يعتبره امبراطور القسطنطينية وبابا رومية كأنه الكنيسة المصرية الاصلية وهو الذي اوجد كل هذه الثورات والحزازات . وكان يولوجيوس هذا صديقاً لغريغوريوس الكبير بابا رومية الذي جاء بعد بيلاجوس الا ان هذه الصداقة كانت شخصية فقط لا دخل للعقائد فيها لان

يولوجيوس كان مسيحياً حقيقياً على شيء كبير من رقة الاحساس وصفاء القلب وسعة العقل ولذلك ابقى على الكنيسة الرومانية في مصر بعدما اوشكت على الاضمحلال والبوار . وبناء على ايعاز الامبراطور له بشأن الصلح سار الى عيقلة مع شماس له اسمه عيلاس وهناك اجتمع الحزبان الاخضر (المصريون) والازرق (الرومانيون) وتباحثوا وتناضلوا وتجادلوا وتفاوضوا ولكن بدون جدوى ما دام ان الثائرين كانوا مصرّين على اعادة يوحنا والي مصر المعزول والا فهم يداومون القتال . وقد قام خطيب منهم وقال « ان يوحنا هذا لا يهاب احداً ولا يخشى العذل والعتب بل هو عدو للظلم نصير للعدل وكان يعاملنا معاملة حسنة نرضى بها ولا نرضى بغيرها فلا بد من اعادته »

فرأى الامبراطور من حسن السياسة اجابة طلب العصاة لانهم كانوا قد وضعوا ايديهم على الوجه البحري برمته واصبحوا اقوياء قادرين حتى انهم استولوا على الجزية التي كانت تدفع الى الحكومة الرومانية من مصر واخذوها لانفسهم . فأعيد يوحنا الى الاسكندرية وارسل رجل اسمه تاودروس ابن احد القواد المشهورين العارفين بمواقع البلاد ليقود الجيش الروماني ضد العصاة اذا لزم الحال

وكان الامر المهم الذي تذمر منه المصريون وتضجروا هو ان الحكومة الرومانية القت القبض على رجلين من اصحاب الحيثيات وارباب الوجاهة بين المصريين بدون سبب يعرف وسجنتهما والرجلان المذكوران هما قزمان ابن صموئيل وبانون ابن آمون فطلب تاودروس قائد الجيش الروماني

اطلاق سراح هذين الوجيهين وتسليمهما له لكي يظهرهما امام الثائرين فيكفوا عن عصيانهم . فاجابت الحكومة طلبه وافرجت عن ذينك الرجلين وعن ثلاثة آخرين من عظماء المصريين كانوا قد سجنوا معهما وسلمت الخمسة اشخاص الى تاودروس الذي دار يبحث عن العصاة حتى نظرهم من بعيد فضرب خيامه على شاطىء النيل المقابل لهم ووضع قزمان و بانون على رابية مرتفعة لكي يراها اخوانهما . و يظهر ان تاودروس استعمل الوعد والوعيد مع قزمان و بانون فكلما مواطنيهما قائلين ان يكفوا عن القتال والنزال و يعودوا الى السلم والامن لان الحكومة الرومانية لا تزال في عنفوان قوتها وان الثائرين لا يمكن لهم النجاح والاستقلال

فأثر كلام قزمان و بانون في اكثر الثائرين فطرحوا السلاح وعبروا النهر حيث التقوا باصدقائهم الخمسة وتشتت شمل الجيش المصري فلم يبق في ساحة النزال الا الاخوة الثلاثة وعدد قليل من اصدقائهم وقد قابلوا صفوف الجيش الروماني الذي هجم عليهم حينئذ بقلوب من حديد وصاروا يقارعون هذا الجيش العرمرم و يناوشونه و يهاوشونه الى ان اقبل الليل وقد خارت قواهم وكلت سواعدهم فلم يجدوا لهم مفرجاً الا الهرب ففروا الى بلدة صان (بالشرقية) حيث استراحوا قليلاً ثم ساروا عند شروق الشمس ولكن الجنود الرومانية ادركتهم فوقفوا في وجوههم مدة من الزمن يخترقون صفوفهم الى ان تكاثر عليهم الجنود واخذوهم اسرى على مقربة من الاسكندرية ومعهم الثلاثة اخوة واسحق ابن اكبرهم ثم وضعوا هؤلاء على جمال وطافوا بهم شوارع الاسكندرية حتى يعتبر

سكانها بما جرى للعصاة وليعلموا ان الثورة قد همدت . وبعد هذا التشهير والتعيير طرح الاخوة وابنهم في السجن ولكن يوحنا الوالي صديقهم ظل يدافع عنهم طول مدة ولايته الى ان حل والٍ جديد محله فقطع رؤوس الاخوة الثلاثة ونفى اسحق نفياً مؤبداً . اما الامبراطور فكان حانقاً من هذا العصيان فلم يكتف بهذه النذالة والدناءة بل امر الوالي بضم جميع ممتلكات زعماء الثورة الى الحكومة واحراق مدينتي عيقله وصان

وعلى هذه الصورة المحزنة انتهت الثورة التي اوقد جذوتها اولئك الاخوة الابطال ولكنها لم تكن الاخيرة من نوعها لان العداء والبغضة وكل اسباب الحقد والغضب كانت تستفحل وتقوى يومياً عند المصريين ضد الرومانيين ولذلك كثرت الثورات في مدة حكم موريس وخلفائه وقام العصاة في جهة اخميم (بمديرية جرجا) يقاومون الحكومة الرومانية ولكن جيشها تغلب عليهم وهزمهم الى بلاد جرداء لا زاد فيها ولا ماء واحاط بهم حتى ماتوا جوعاً وسغباً . ولما صار فوكاس امبراطوراً هبت خمس مدن مهمة الى الثورة والحرب وهي صان وخربتا و بسطره و بلقطر وسنهور (بمديرية البحيرة) وقد نالها فوق ما نال غيرها من الفشل والهزيمة الا ان الروم استعملوا مع سكان هذه المدن جميع انواع القسوة والوحشية التي لا تأتيها الضواري المفترسة

ومن ذلك الحين علم المصريون حق العلم انه يصعب عليهم لوحدهم طرح ذلك النير الروماني الثقيل الذي زاد ضغطاً على اعناقهم منذ سنة ٤٥١ ولذلك نظروا في اوائل القرن السابع نظرة اليائس القانط عساهم يجدون من

يرفع عنهم هذا الشر فعمدوا الى العرب الذين بهرت فتوحاتهم الابصار وادخلوهم الى مصر ولكنهم لما استجاروا بعمر ابن الخطاب على القادم من ظلم الرومانيين وقعوا في ما هو اشر وانكى وظلوا من ذلك العهد لحد يومنا هذا — مدة ثلاثة عشر قرناً ونيف — يذوقون من العرب مر العذاب ويسامون انواع الظلم والعسف ويضطهدون اضطهاداً لا يذكر بجنبه اضطهاد ديوكلتيانوس ونيرون . وكأن الشاعر العربي احسن باستجارة الاقباط بعمر بن الخطاب او بعمرو بن العاص فعناهم بقوله :

المستجيرُ بعمروٍ عند كربتهِ كالمستجيرِ من الرمضاء بالنارِ

الفصل الثلاثون

الفتح الفارسي

سنة ٦٠٣ للمسيح و٣١٩ للشهداء

بينما كان قضيب السلطة الرومانية في مصر ينتفض و يرتجف حتى يكاد ينقصف كأن المصريون يزدادون قوة ومنعة على توالي الايام . وقد جلس على السدة البطريركية بعد دميان البطريرك اناسطاسيوس سنة ٦٠٣ وكان رجلاً عالي الهمة قوي العزيمة فلم ترض نفسه الشماء القعود في دير وادي النطرون بل جاء الاسكندرية وخطر الموت يحدق به ورسم قسوساً واساقفة

ثم طاف جائلاً في الارياف يفتقد رعيته و يؤاسيها . وقد بنى كنيسة كبرى في الاسكندرية تضارع الكنيسة الامبراطورية وكرّسها باسم ميخائيل رئيس الملائكة(١) . وفي هذه السنة فاض النيل بغزارة في احدى الليالي حتى ارتفع على بلدة اسنا (بمديرية قنا) فغمر منازلها واغرق كثيرين من سكانها

وفي هذا الزمن حدث انشقاق وانقسام في المملكة الرومانية وقام هرقل الاكبر والي افريقيا ضد فوكاس امبراطور القسطنطينية يريد التهام مصر منه وهي اللقمة الدسمة السمينة التي سعت امم العالم من زمان قديم لازدرادها ولكن عسر هضمها على جميع هذه الامم . فلما وجد المصريون عدواً

(١) ان رئيس الملائكة مخائيل حل في مصر محل آله وثني كان المصريون يعتبرونه كثيراً و يعبدونه عبادة المخلوق لخالقه . في القرن الرابع قام البطريرك اسكندر على هذا الصنم وحطم تمثاله النحاسي باحتفال عظيم اقامه في الاسكندرية لهذا الغرض ثم ابدل مذبحه بكنيسة للمسيحيين . ولم يكن في امكانه اتمام هذا العمل بدون مقاومة حتى من المسيحيين انفسهم لولا انه وعدهم بتعضيد مخائيل لهم ومساعدته اياهم اكثر من ذلك الصنم الاصم وكذلك ابقى لهم جميع مراسم الاعياد والاحتفالات التي كانوا يقيمونها للاله الكاذب ولكنه حولها من اسمه الى اسم مخائيل ومن ذلك العهد لحد يومنا هذا والمصريون يعيدون ذلك العيد الوثني اكراماً لرئيس الملائكة. ولا يزال المصريون يتناقلون خرافة عن مخائيل ويزعمون ان باب الجحيم (او المطهر) يفتح في يوم معين من ايام السنة فيدخله هذا الملاك ويغوص في وسط لهب النيران المستعرة ثم يخرج حاملاً ارواحاً بقدر ما يستطيع جناحاه حملها . وهو تهريف وتخريف تصدقه العقول الصغيرة كما تصدق غيره من امثال هذه الخرافات الكثيرة

يناصب فوكاس العداء انضموا اليه بكليتهم وسار عدد كبير منهم مع الجيش الذي سيره هرقل لفتح الاسكندرية وكان مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل من الجنود الرومانية تحت قيادة قائد اسمه بوناكيس ضم اليه حامية مريوط لان واليها خاف شر الحرب وسار مع هؤلاء المغتصبين ضد رغبته ورغبة مولاه الامبراطور دون ان يبدي أدنى مقاومة · فلما عسكر جيش بوناكيس خارج اسوار الاسكندرية برز لهم واليها في نفر من الجند قليل العدد يريد رد هجماتهم ولكن بوناكيس طلب منه الانسحاب من المعمعة والقعود في مكانه بدون عراك وهو يشترط له في مقابل ذلك حفظ حياته من القتل · الا ان والي الاسكندرية أبى السكوت وشن الغارة على المغيرين ولم يقف طويلاً في ساحة القتال لان جيشه هزم ووقع هو اسيراً فقطعت رأسه وعلقت على اسوار الاسكندرية لكي يعتبر بها كل من يتطلع لامر فوق طوقه · فلما رأى تاودروس البطريرك الروماني ذلك علم ان الخطر محيط به فلجأ الى الكنيسة الرومانية لانه لم يجد له نصيراً في الاسكندرية مادام جميع سكانها رحبوا بهرقل وجنوده كما ان اهالي نيقية (ابشادي بمركز منوف) ساروا باجمعهم تحت رئاسة اسقفهم للقاء بوناكيس والاعتراف بحكم هرقل عليهم وقد نسج اكثر المصريين في المدن الاخرى على منوالهم ما عدا صاحبنا قزمان الذي اخمد نيران ثورة الاخوة الثلاثة فانه انحاز مع بولس والي سمنود ومركيانوس والي بنها وبعض الموظفين الرومانيين الى جانب الامبراطور فوكاس وانضمت اليهم ايضاً عقيلة ذات نفوذ وهيبة اسمها كرستودورا

واتفق هذا الحزب الضئيل القليل على مقاومة اعداء فوكاس بكل قوة خصوصاً لانهم سمعوا ان قائداً اسمه بونوز جاء من عند فوكاس بجيش جرار وصار على مقربة من الاسكندرية · ولذلك انقسم الوطنيون الى قسمين — قسم انحاز الى هرقل تحت رئاسة البطريرك الروماني تاودروس وافلاطون وتاودروس اسقف ابشادي ومينا وكيل الاسقفية · والقسم الوطني الثاني المعضد لفوكاس كان تحت زعامة قزمان وبولس وكرستودورا · وكلا الحزبين وقفا ضد بعضهما في مركز منوف ولكنهما لم يتحاربا بل انتظرا مجيء القائدين الرومانيين اللذين وفدا في ذلك اليوم فعسكر بونوز ظهير فوكاس في بنها وتقدم بوناكيس نصير هرقل من ابشادي ليلتحق بنصرائه من الوطنيين وحينئذ اشتبك الجيشان في معركة شعواء شرقي بلدة منوف عقد فيها النصر لواء لبونوز وقتل بوناكيس وفر افلاطون والبطريرك تاودروس الى دير عند اتريس واختبآ فيه · أما تاودروس اسقف ابشادي ووكيله مينا فلجآ الى خيمة بونوز وبيدهما الكتاب المقدس يحتميان به ويطلبان باسمه رحمة وصفحاً فمن عليهما بونوز ومال للعفو عنهما ولكن مركيانوس وكرستودورا اغرياه على قتلهما واوغرا قلبه بكل انواع الحقد ضدهما بقولهما له ان هذا الاسقف امر بتكسير التمثال الذي كان ممثلاً فوكاس في ابشادي وانه اول من حرض على مقاومة الامبراطور وحزبه فهو يستحق الموت · وعليه قطعت رأس هذا الاسقف المسكين في بلدته ووضع مينا تحت طائلة السياط والجلد المريع الى ان دفع ثلاثة آلاف قطعة من الذهب فدية له ولكنه مات بعد

يومين من ألم الضرب · وعند ما سمع سكان البلاد المجاورة هذه الاخبار استولى عليهم الرعب والقلق خصوصاً رهبان اتريس الذين ساروا سير الجبناء الانذال وسلموا الى بونوز جميع مواطنيهم الذين التجأوا اليهم فوضعوا السلاسل والاغلال في رقاب افلاطون والبطريرك تاودروس وكثير من وجهاء منوف واعيانها وثلاثة من ارباب المظاهر والحيثيات من الاقباط وساقوهم الى بونوز في ابشادي حيث جلدهم بالسياط والمقارع جلداً اهرى جلودهم ثم قطع رؤسهم في المكان الذي لاقى فيه اسقف ابشادي حتفه

وما كان النصر الذي احرزه فوكاس وانصاره سوى سحابة صيف انقشعت وزالت وهبَّ وجهاء المصريين وجماعة الرومانيين المستوطنين مصر والكنيسة القبطية عن بكرة ابيها للاخذ بناصر هرقل وتعضيده · ثم وفد على الاسكندرية قائد مدرَّب اسمه نسطاس من قبل هرقل ومعه جيش زاخر فافتتح فتوحاته بسمنود ولم يقف واليها طويلاً في وجه هذا الجيش الجرار حتى اغرقوا سفينتهُ برميها بالحجارة ونجى هو بنفسه · وكان على مقربة من سمنود راهب اسمه ثوفيلس عرف بالتقوى والقداسة ظل اربعين سنة قاعداً فوق قمة عمود دون ان يطأ الارض بقدميه قصده نسطاس يستشيره في مصير هذه الحرب ويستمد منه المساعدة لان الرجل كان نافذ القول مسموع الكلمة بين الاقباط · فقال له ثوفيلس ان الغلبة ستكون لهُ وان هرقل سوف يصعد على كرسي المملكة بدون ريب ولا جدال · فاعتماداً على هذا التنبوء سار نسطاس نحو الاسكندرية واقام الحرب العوان على بونوز فهزمه والجاه

للفرار الى ابشادي وضم تحت رايته كل الحزب الروماني في مصر · ومعلوم ان الضعيف يعمد الى الحيلة والخديعة في جميع اموره ولذلك لما ضاعت القوَّة من يد بونوز ارسل عسكرياً الى نسطاس يدعوى اعلانه بالخضوع له واوصى هذا العسكري ان يأخذ نسطاس غيلة ويقتله بخنجره ولكنه لم ينجح لان احد رجاله اخطر نسطاس بهذه الدسيسة فقبض على الرسول وقتله بخنجره الذي حمله لاغتيال نسطاس · وبعد مصادمات وحروب عنيفة انذلَّ اتباع فوكاس وتشتت شملهم وقتل بونوز وتاودروس البطريرك الروماني واسر بولس والي سمنود وقزمان ولكنهما عوملا بالرفق واللين · ولما استتب الامر لنسطاس حوَّل نظرهُ الى اجراء النظام والعدل في مصر لان الارتباك كان قد عمَّ نواحيها وقام جماعة من المصريين يقصدون نهب الرومانيين وسلبهم في اثناء هذا الاختباط والثورات ولذلك اضطرَّ الكثيرون منهم الى مهاجرة مصر بالمرَّة وغيرهم ترك الديانة المسيحية وعاد الى الوثنية كما يعود الكلب الى قيئه · وقد استعمل نسطاس القسوه تارة والرحمة طوراً لتسكين الخواطر الثائرة وكان من حسن اعماله انه اعفى مصر من كل جزية لمدة ثلاث سنوات فاستراحت برهة لم تكن الا كطرفة عين وانتباهتها

ذلك ان الزمان وهو ابو العجائب ابى على مصر ام الغرائب ان تتمتع بالسلام والسكينة الا بقدر ما يرى الشقي السجين ضوء الشمس بعينيه ثم يعود الى حجرته المظلمة · فانه بعد مضي اربع سنوات على هذه الفترة افتتح جيش كسرى ملك الفرس بلاد الشام ووصل حدود مصر يتهددها ويتوعد · وكان

كثيرون من مسيحيي سوريا قد فرّوا الى مصر ملتجئين اليها من ظلم الفرس وقسوتهم فتسابق البطريرك الروماني يوحنا — الذي عينه هرقل خليفة لثاودروس في مصر — والبطريرك المصري اناسطاسيوس في اكرام جيرانهم المسيحيين اللاجئين اليهم وعملا ما في وسعهم لتخفيف ويلاتهم وتنفيس كروبهم · ولا ريب ان يوحنا البطريرك الامبراطوري كان اوسع ثروة واكثر مالاً من زميله المصري لانه كان واضعاً يده على ايراد الكنائس القبطية ودخلها كله ولم يكن لدى الاقباط من المال سوى ما يجمعونه من المحسنين لسد احتياجات بطريكهم والاكليروس · اما البطريرك يوحنا فكان عنده يوم تعيينه اربعة آلاف رطل من الذهب الاصفر او الاحمر مكوّمة مكدسة في خزائن كنيسة هذا عدا عن ايراده السنوي الوافر والمبالغ الباهظة التي جاد بها المتبرعون اعانة لجالية السوريين اللائذين بمصر · وكان بين الذين قصدوا مصر في ذلك الوقت البطريرك الانطاكي الذي استقبله اناسطاسيوس البطريرك الاسكندري استقبالاً حافلاً وهش في وجهه وبش واكرم وفادته كثيراً مع انه كان في ظروف حرجة ضيقة لان النيل كان واطئاً ولم يبلغ ارتفاعه المعتاد · وقد اظهر البطريرك يوحنا سخاء زائداً وكرماً مدهشاً يدل على احساس حساس وقلب رقيق لطيف فوزع جميع امواله بدون شيء من الحرص او الحزم حتى دعوه بعد موته بالقديس يوحنا المحسن · فانشأ مستشفيات للمرضى وملاجئاً للبائسين والعجزة فضلاً عن انه كان يوزع الصدقات الكثيرة يومياً على الذين يفدون الى داره ويمد للجائعين اسمطة الاطعمة وموائد المآكل

فيأكلون و يسدون رمق جوع شديد · وكثيراً ما كان وكلاء هذا المحسن يجتهدون في كف كفه عن هذا البذل والجود بدعوى ان اغلب المتسولين يلبسون حلياً من الذهب والحجارة الكريمة وهؤلاء لا يصح الاحسان اليهم لانهم يمكنهم بيع هذه الحلى والاقتيات بثمنها فكان يوحنا يوبخ وكلاءه على قساوة قلوبهم وضعف ايمانهم وهو يقول لهم انه لو اجتمع على بابه جميع اهالي العالم باسره فهو يمكنه اطعامهم وامدادهم بما يحتاجون بنعمة الله وجوده الغير المتناهي · (وحري ببعض رؤساء الديانات في هذا العصر ان يتعظوا ويقتدوا بهذا الجواد و يبذلوا شيئاً مما يمتصون من دماء رعاياهم على فقراء يتضورون جوعاً وارامل يكدن يبذلن ماء الوجه للحصول على القوت الضروري وحضرات الاحبار الذين يقولون انهم خلفاء ذاك الذي لم يكن له اين يسند رأسه يكنزون لهم كنوزاً في الارض حيث لا وارث سوى الصداء الذي يقول عنه يعقوب الرسول انه يأكل تلك اللحوم كنار في اليوم الاخير)

وكانت نتيجة هذا السخاء المفرط ان المال فرغ من خزائن يوحنا قبل ان يفرغ هو من الاعمال الضرورية فوقع صاحبنا في ضيق شديد ولم يجد له مخرجاً من هذا العسر المالي · وحدث ان مثرياً شهيراً من الاسكندرية وعد يوحنا باعطائه مقداراً وافراً من الحنطة و١٨٠ رطلاً من الذهب على شرط ان يعينه يوحنا شماساً — وكانت هذه الوظيفة الخطوة الاولى للوصول الى رتبة البطريركية · وكان عسيراً على يوحنا مخالفة النظامات والقوانين الكنائسية لان هذا الغني كان قد تزوج مرتين ففقد بذلك اول شرط من شروط

الكهنوتية وهو ان يكون الشماس قد تزوج مرة واحدة فقط (١) اي لم تمت امرأته الاولى و يقترن باخرى » . فوقع هذا البطريرك المفضال في ورطة وحيرة لانه كان في اشد الاحتياج لهذا المبلغ الوافر ولكنه رد على هذا المحسن المشترط بقوله انه لا يستطيع انكار فائدة هذه الهبة الكبرى التي تفيد الكثيرين وتنفعهم ولكنها حيث هي مبنية على غاية ذات اساس فاسد فلا ينبغي التردد في رفضها وعدم الندم على ردها لواهبها . ثم خاطبه قائلاً « ان الله الذي اعال هؤلاء المساكين كل سنيهم السالفة قبل ان يعرفونا قادر ان يقوتهم في ما بقي لهم من الايام . وان ذاك الذي بارك في الخمسة ارغفة فاشبعت عدداً عديداً من الناس هو وحده قادر ان يبارك في كيلتي الحنطة الباقيتين في مخازني »

فلما سمع هذا الوجيه كلام يوحنا المؤثر اسقط في يده ومضى حزيناً يتعثر بأذيال الخيبة والفشل ولم يكد يخرج من امامه حتى دخل رسول يقول ليوحنا ان سفينتين من السفن الخاصة بالكنيسة عادتا من جزيرة سيسليا (بالقرب من ايطاليا) مشحونتين بالغلال شحناً كاملاً . فللحال جثا هذا البطريرك الورع على ركبتيه وشكر الله كثيراً على نعمائه وفيض بركاته ولانه اغناه فلم يسمح له ببيع المواهب الروحية بذهب او بفضة

(١) ان البطريرك يوحنا من جزيرة قبرص كان أرمل ولم يكن راهباً ولا شماساً ولذلك كان تعيينه في مسند البطريركية غير قانوني . ولكنه ما دام رسم للحزب الامبراطوري وبأمر من الامبراطور فلا يعد عبثاً اذا جاء تعيينه ضد كل قانون كنائسي ومخالف للاصول الشرعية والمرعية

ولو ان يوحنا هذا كان واضعاً يده على ايراد الكنائس تعضده قوة الحكومة وتساعده يد الامبراطور الا ان نفوذه لم يكن معروفاً سوى في مدينتين او ثلاث حيث كانت تقيم الحاميات الرومانية وهذا كان حال جميع البطاركة الرومانيين الذين يعينهم الامبراطور لمصر فان المصريين لم يكونوا يشعرون بوجودهم لعدم اهتمامهم بهم . الا ان هذا المحسن المشهور اكتسب محبة الاسكندريين وصداقتهم بواسطة فضائله وفواضله لا بقوته وسلطانه . واعظم هذه الفضائل احسانه الذي اسهبنا في وصفه لك وتقتيره على نفسه وعيشته بغاية البساطة والابتعاد عن كل ترف واسراف كما كان يفعل بطريرك الاسكندرية المصري اناسطاسيوس الذي سار مع يوحنا بغاية الوداد والصداقة الخالصة من كل رياء ونفاق . ولما تنيح البطريرك اناسطاسيوس الذي كان محبوباً ومحترماً عند رعاياه وخلفه اندرونيكوس أذنت له الحكومة بالبقاء في الاسكندرية بغاية ما يكون من الحرية ولذلك مد السلام رواقه بين الكنيسة المصرية وربيبتها الرومانية بعد طول ذاك الشقاق والخناق . ولم ينس المصريون هذا الجميل بل ذكروه للامبراطور بالشكر الوافر كما انهم عدّوا البطريرك يوحنا الروماني قديساً بعد موته مع انهم لم يكونوا يعترفون لاحد بالقداسة ما دام هو خارج حضن كنيستهم القبطية

ومن الفضائل التي تسطر للبطريرك يوحنا بمداد التبر انه خصص جزءاً من ايراد الكنيسة السنوي يدفع فدية للمسيحيين الذين وقعوا اسرى في حرب الفرس . وحدث ان يوحنا اتضح له امراً غريباً هو ان المستخدمين

الذين عهدت اليهم هذه الخدمة كانوا يأخذون رشوة من اهل الاسرى حتى يسرعوا بفك هذا قبل ذاك فجمعهم اليه والقى عليهم التنبيهات المشددة بعدم العودة الى مثل هذا الامر الشائن مرة اخرى ثم انه زاد رواتبهم زيادة طيبة حتى يقتنعوا بها فلا يمدون ايديهم للرشوة (وما اجدر حكومتنا بمثل هذا الصنيع مع بعض مستخدميها) . قيل ان هذا اللطف والكرم اثرا كثيراً في بعض الموظفين حتى انهم تبرعوا بهذه الزيادة لخدمة الكنيسة

ولنذكر لك القصة التالية وفيها دلالة على نباهة يوحنا وحذقه وغيرته ولطفه ذلك ان جرت العادة في جميع الكنائس ان كل مسيحي يلزمه مناولة الاسرار المقدسة في الصيامات ولكن بعض الاقباط والاروام اهملوا هذا الامر بالكلية . ثم ان بعض شبان الاروام في الاسكندرية ابتدعوا بدعة جديدة هي انهم كانوا يخرجون من الكنيسة بعد قراءة انجيل القداس ولا يمكثون لحد ما تنتهي الخدمة . فلما رأى البطريرك يوحنا هذا الابتداع ترك الكنيسة وخرج في اثر الشعب قبل ما تتم الخدمة . فعجب الشعب من عمله هذا وسألوه السبب منذهلين متعجبين فاجابهم يوحنا بكل سكوت وتعقل قائلاً « لا يخفاكم انه يتحتم على الراعي ان يذهب حيثما تذهب الرعية . فما دمتم حضراتكم لا تمكثون في الكنيسة التي شيدناها لكم فلا حاجة لي بالبقاء فيها بعدكم لانني انما اذهب اليها لاجلكم اما انا فيمكنني ان اصلي في منزلي او في اي مكان آخر بعيد عن الكنيسة » قيل ان السامعين نخستهم ضمائرهم من هذا التوبيخ اللطيف وصاروا يمكثون في الكنيسة الى ما بعد انتهاء الخدمة

ومع ما اشتهر به يوحنا من الفضائل الذكية لم تكن عنده الشجاعة المسيحية التي تقود امثاله الى الموت استشهاداً في سبيل الايمان . فانه بعد ما انقضت فترة السلام هذه وكان الفرس قد وطدوا قدمهم في سوريا ساروا نحو مصر فقابلهم المصريون بصدر رحيب لانهم كانوا يسعون بجميع الوسائل الفعالة للخلاص من جور الرومانيين وتسلطهم وتحكمهم تحكم الظالمين الغاشمين . اما نسطاس القائد الروماني الذي انتصر قبلا على شراذم المصريين الجاهلين بالحركات العسكرية فلم يبد حراكاً ضد الفرس لانه اعتبر ان مقاومتهم والوقوف في وجههم ضرب من الهوس والجنون فاتفق مع البطريرك الامبراطوري يوحنا على الفرار من الاسكندرية التي احتلها الفرس سنة ٦٢٠ وخضعت لهم كل ارض مصر خضوعاً تاماً من الاسكندرية شمالاً لحد بلاد الحبشة جنوباً حتى صارت مصر اقليماً فارسياً . وكان الامبراطور هرقل مشغولاً حينئذ بالدفاع عن عاصمة مملكته (القسطنطينية) وصد هجمات الاعجام عنها فلم يحرك ساكناً لاسترداد مصر من ايديهم ولا هو عين بطريركاً لكنيسة الاروام فيها مع ان يوحنا مات في السنة التي فيها فرّ هارباً وقد عدّ هروبه هذا جبناً وضعفاً كما قلنا . وبعد وفاة يوحنا بسنة تنيح البطريرك المصري اندرونيكوس فاصبحت الكنيستان المصرية والرومانية بلا رئيس مدة الى ان شرع الاقباط في انتخاب بطريرك لهم فتنبه رهط الاروام كأنه كان نائماً وعلة هذا الانتباه ان الاروام عرفوا انهم اذا ظلوا بلا بطريرك فلا ريب في ان البطريرك القبطي الذي يعين يضع يده على ايراد الكنائس الوافر وهم لا يستطيعون

المقاومة لانهم بدون عضد فلم ينتظروا امر الامبراطور بل وقع اختيارهم
حالاً على بطريرك اسمه جرجس لا يعرف عنه شيء. يستحق الذكر سوى
انه خدم جماعته كما خدمهم اسلافه

وقد اختار الاقباط بنيامين بطريركاً لهم وهو من عائلة اشتهرت بالثروة
الكثيرة والنفوذ الواسع مما ساعد هذا البطريرك في اعماله التالية وجعل له
شهرة فائقة . وكان بنيامين راهباً في احد الاديرة حيث عرف فيه بالزهد
الكثير والميل الى الصلوة والعبادة . وقبل انتخابه ببضع سنوات جاء الاسكندرية
واقام فيها مدة مع سلفه البطريرك اندرونيكوس الى ان اختاره الاقباط
لمسند البطريركية

الفصل الحادي والثلاثون

مشروع الاتحاد

سنة ٦٢٩ للمسيح و٣٤٥ للشهداء

في سنة ٦٢٩ اقام هرقل حرباً عواناً على الفرس في انحاء المملكة الرومانية
احرز فيه نصراً باهراً وحينئذ ادار وجهه نحو مصر ليستردها من ايديهم . وقد
علمه الاختبار ودرّبته الحنكة والتجارب انه لا يستطيع اعادة هذا القطر لقبضة
يده الا اذا هو اصطلح مع الاقباط واتفق مع سكان مصر على العموم . فلذلك
جمع لديه اثناسيوس بطريرك انطاكية (الذي لجأ الى مصر منذ سنوات

مضت) وسرجيوس بطريرك القسطنطينية وكيروس احد اساقفة المملكة
الغربية واستشارهم على تباين آرائهم في انجح الطرق لاتمام هذا الصلح . فبعد
جدال طويل اتفقوا على عدم ذكر مجمع خلكيدونية على الالسنة حيث ان
ذكره بالمدح او بالذم يثير ثائرة الاحزاب ويغضبهم . ثم قرروا ايضاً وضع
مشروع سموه « مشروع الاتحاد » ومعناه القول بان لربنا « مشيئة » واحدة
بدل قولهم « طبيعة » واحدة . فصادق الثلاثة احبار السالف ذكرهم على
هذا الرأي ومن ثم عين الامبراطور الاسقف كيروس بطريركاً للاسكندرية
وانفذه اليها بكل انواع السلطة والقوة التي يمكنه استعمالها في اتمام الصلح
الذي قرّ القرار عليه

فلما وصل كيروس الى الاسكندرية لم يجد صعوبة في اتمام مأموريته لان
عامة الشعب القبطي والاكليروس قبلوا مبدأ الاتحاد هذا ما دام ان القول بمشيئة
واحدة يؤيد اعتقادهم بطبيعة واحدة فلذلك اتحدوا مع الكنيسة الرومانية
من هذا الوجه وقالوا بان هذه الكنيسة قد انضمت اليهم وصارت تذهب
مذهبهم . وكذلك الاروام صادقوا على هذا الرأي الجديد وقبلوا المبدأ
الذي وضعه الامبراطور بكل رضى وارتياح . الا انه قام في الاسكندرية
رجل من اصدقاء يوحنا المحسن اسمه صفرونيوس كان مسموع الكلمة في
الكنيسة الرومانية مشهوراً بعلمه وسعة اطلاعه وحاجج البطريرك وجادله
وناقضه ورجاه ان لا يذيع هذا التعليم الجديد ولا يقول به مطلقاً لانه عبارة
عن هرطقة وبدعة جديدة رسمها الامبراطور لهم . فلم يعبأ كيروس بهذا

التحذير والكلام بل صرف انظاره لاقناع البطريرك القبطي بقبول ذلك المشروع ولكن هذا البطريرك ابى البحث فيه وقال انه لا يقبل قراراً دينياً يصدره الامبراطور لانه ليس من خصائصه ولا من شأنه وضع الشرائع اللاهوتية · فاحتار كيروس في هذا الامر وعلم ان الصلح لا يفيد شيئاً · ولا ينفع النفع السياسي المطلوب ان لم يصدق عليه البطريرك ويقبله ولذلك سعى في تنفيذ رأيه بالقوة والقهر فاصبحت حيوة وجياه الاقباط الذين عضدوا البطريرك في فكره مهددة بالخطر وعليه برحوا الاسكندرية حالا ولم يمكثوا فيها مطلقاً · وانتهى الامر بنفي البطريرك بنيامين الى دير حقير في مصر الوسطى (١) وكذلك صفرونيوس غادر مصر الى سوريا حيثما اختير فيما بعد بطريركاً لاورشليم

وقد سرّ هرقل بالنجاح الذي صادفه بطريركه كيروس فاخذ يستعد للذهاب الى اورشليم في السنة التالية لزيارة الاراضي المقدسة · ففي هذه الزيارة حدثت حوادث مهمة سيأتي ذكرها نتج منها فرض صوم دعوه «صوم هرقل» لا تزال الكنيسة القبطية وكنائس الشرق بأسره تصومه سنوياً الى يومنا هذا (٢)

---

(١) زعموا ان البطريرك بنيامين تشجع في منفاه برؤية سماوية انبأته انه بعد مضي عشر سنوات يرسل الرب عوناً للمصريين يأتيهم من امة تمارس فريضة الختان كما يمارسونها هم (اي امة العرب او الاسلام) وان هذه الامة ترفع من على اعناقهم النير الروماني فلا يعودون يحملونه بعد

(٢) من غريب الامور انه لم يبق بمصر من مشروع الاتحاد الذي وضعه

وتفصيل ذلك ان هرقل كان قد منح يهود سوريا الامن والسلام بناء على ما قدموه له من الهدايا الفاخرة والعطايا الثمينة · ولكن عند ما جاء اورشليم للزيارة او للحج اندهش وذهل عند ما رأى الخراب والدمار قد استوليا عليها من افعال اليهود اكثر مما فعله الفرس فيها وذلك لان جماعة اليهود افنوا كل ما وصلت اليه ايديهم في هذه المدينة المقدسة مما دلّ على شدة كراهتهم للديانة المسيحية · فلما قابل مسيحيو سوريا الامبراطور طلبوا منه ان ينتقم لهم من اليهود · قال المقريزي في هذا الصدد : — « وحينئذ افهم هرقل المسيحيين انه لا يستطيع التصريح لهم بذبح اليهود لانه وعدهم بالامان واقسم لهم ايماناً مغلظة بحفظ حياتهم فهو لا يمكنه الحنث في يمينه او تغيير وعده · فقام جماعة الرهبان والبطاركة والقسيسين يحاجون هرقل ويقنعونه بقولهم ان يمينه لا يعتبر سبباً في عدم ذبح اليهود ما داموا هم قد مكروا به واستعملوا خبثهم المعروف عنهم في انهم تحصلوا على وعد منه ثابت بحفظ حياتهم قبل ما يعرف حالتهم والاضرار التي الحقوها بالمسيحيين · وفضلاً عن ذلك فانهم يأخذون على عاتقهم التكفير عن حنثه في قسمه بان يصوموا هم وجميع المسيحيين اسبوعاً كل سنة على الدوام

فاقتنع هرقل بهذا الكلام وامر بالحملة على اليهود حملة يحمر لها جبين الانسانية خجلاً وحزناً اذ فني هؤلاء المساكين ولم يبق منهم احد في ولايات رومية ومصر وسوريا سوى الذين هربوا او اخفوا انفسهم في مغائر الجبال وكهوفه ·

هرقل سوى صوم جنابه ولم تكن الكنيسة القبطية في حاجة اليه لكثرة صياماتها وصرامتها

ومن ذلك الحين ارسل بطريرك اورشليم واساقفته منشوراً الى جميع البلدان يؤكدون فيه على المسيحيين بصوم سبعة ايام كل سنة لا يزالون يدعونها اسبوع هرقل

ولقد اعيدت سلطة الرومانيين على مصر ولكنها كانت الى حين كما انها لم تعد بقوتها الاولى . فانه بعد ما طرد الفرس من مصر اكتفى الرومانيون بوضع حاميات عسكرية في الوجه البحري لم تتعد جنودهم مديرية الفيوم جنوباً وظل الوجه القبلي يحكم نفسه بنفسه الى ان جاء ذلك الشخص الوهمي الذي يسمونه المقوقس ولم يمض زمن يذكر بعد هذا التاريخ حتى بزغ من صحارى جزيرة العرب عدو جديد مخيف ظهر ليحط المملكة الرومانية وينزل بها الى الحضيض . وهذا العدو اللدود هو الامة العربية التي قامت مدفوعة بقوة هائلة مفزعة هي قوة الدين الحديث الذي ظهر بينها . ومع ان محمداً واضع هذا الدين كان قد انتقل من هذا العالم الا ان خليفته عمر سار في فتوحاته سيراً سريعاً اذ استولى على اكثر بلاد المشرق ولم تجيء سنة ٦٤٠ (وليست سنة ٦٣٨ كما يزعم بعض المؤرخين) حتى انتهى قائدهم المغوار عمرو بن العاص من فتح سوريا اذ جعل وجهته مصر ذلك البلد الطيب الامين وبواسطة الحيلة والخديعة (١) تحصل عمرو على تصريح من الخليفة عمر بفتحها ففتحها ودوخها كما سيجيء

---

(١) لما ارسل عمرو بن العاص يسأل عمر بن الخطاب التصريح له بفتح مصر اجابه عمر انه اذا كان قد دخل حدود مصر عند وصول الجواب اليه فليتقدم ويحاربها والا فليعد ادراجه . قيل ان عمراً ادرك ما في الجواب بواسطة من الوسائط وكان لم يطأ ارض مصر بعد فلم يفتحه وما قرأه الا بعد ان عسكر بجيشه في الاراضي المصرية

الفصل الثاني والثلاثون

الفتح الاسلامي

سنة ٦٤٠ للمسيح و٣٥٦ للشهداء و١٨ للهجرة

لقد عرفنا في الذي مر انه عند ما شرع العرب يفتحون مصر كان المصريون في ضيق وضنك شديدين من الحكومة الرومانية الحديثة التي استردت البلاد من الفرس . وقبل هذا الفتح العربي بنحو عشر سنوات وضع اكثر ولاة مصر ايديهم على الجزية التي كانت تتقاضاها الحكومة الرومانية من هذه البلاد لان هاته الحكومة كانت قد بلغت من الضعف والوهن مبلغاً لا تستطيع معه جمع الاتاوة المضروبة على القطر المصري فاصبح اثنان او ثلاثة من حكام الاقاليم المصرية ملوكاً غير متوجين لانهم استقلوا في ادارة امور ولاياتهم عن سلطة الفرس والرومانيين على السواء حتى انه لما طرد هرقل الفرس ٦٣٠ واسترجع مصر لقبضة يده لم يمكنه مد سلطته عليها كما تقتضيه شروط الدول المحتلة لانه كان عارفاً بضعف قوته وزعزعة اركان سطوته فظل ينتظر الفرص المناسبة التي فيها ينقاد المصريون الى مشروعه الديني الآنف ذكره فيستميلهم لجانبه بواسطة الدين ويرفع من بينهم الاختلاف المذهبي الذي كان السبب القوي في كل تلك القلاقل والاضطرابات . ولكن ولاة الاقاليم المصرية — وجلهم من الاقباط — كانوا يفزعون من الحكومة الرومانية ويخافون اليوم الذي فيه تعود سلطة هذه الحكومة وثقلها في رقابهم

لاسباب شخصية وسياسية معاً فلذلك كانوا يسعون في تقليص ظلها وتقويض اركانهم بجميع مالديهم من وسائل القوة والنفوذ

ولو اتاح الحظ للحكومة الرومانية وقبل البطريرك المصري بنيامين ذلك المشروع الديني الذي وضعه الامبراطور وقال فيه ان للمسيح مشيئة واحدة بدل طبيعة واحدة لاصبح اولئك الحكام بلا قوة تذكر ولاستتب الامر للرومانيين في هذه البلاد الاسيفة · ولكن الامبراطور هرقل اعماه ذلك النجاح الضئيل الذي صادفه بطريكه كيروس في مصر من قبول فئة قليلة من الاقباط لمشروعه ولذا فلم يحسب هذا الامبراطور للبطريرك بنيامين ادنى حساب بل اضطهده واغاظه ثم نفاه لانه رفض قبول مبدائه مما جعل خاصة المصريين واكثر عامتهم يقلدون بطريركهم ويرفضون كل قول لايصادق عليه هو وهذا دليل على ان الاقباط من قديم الزمن يتعلقون ببطاركتهم ويسيرون خلفهم ولو كان بعض هؤلاء البطاركة لا يستحقون كل هـذا التعلق والميل · ومن ذلك الحين جحد الرأي العام المصري الامبراطور ونفر منه نفوراً كبيراً وبداء كيروس يشعر بخطارة مركزه وبالفشل الذي اصابه في مشروعه ومشروع امبراطوره كما ان بعض الحكام الخائنين اتخذوا هذا النفور فرصة يتخلصون فيها من سلطة الرومانيين ويطرحون نيرهم من على اعناقهم ولكن ليس ليستقلوا بل ليلقوا بانفسهم الى التهلكة الكبرى

وكان اكثر هؤلاء الولاة خيانة لمصر واشنعهم ذنباً واقبحهم عذراً ولؤماً هو ذلك الرجل الذي يعرفه معظم المصريين لشهرته بالدناءة والنذالة الا وهو

المقوقس الذي لا يزال الكثيرون يبحثون في ماهية اسمه ووظيفته وجنسيته بحثهم في ذلك الجبان الذي احرق هيكل ارطاميس لكي يذكر اسمه في صفحات التاريخ · ومن محاسن الصدف ان احد علماء اوربا اكتشف اوراقاً من البابيروس (البردي) فيها ما يزيح الستار عن هذا الموضوع الذي تضاربت فيه الظنون وتشعبت في حقيقته افكار المؤرخين جميعهم

ذلك ان معظم المؤرخين ذهبوا الى ان كلمة « المقوقس » لم تكن اسم علم ولكنها لقب او رتبة · والحقيقة ليست كذلك فان هذا الرجل الذي كان والياً في مصر اسمه الصحيح جرجس بن مينا بر كوبوس (١) فهو مصري لا ريب فيه · وكان ولاة مصر في ذلك العهد ملكيين (اي ليسوا عسكريين) تعهد اليهم ادارة الولايات في ما يختص بمسائل الضبط والامن العام والادارة وتحصيل الضرائب الاميرية ومراقبة الاشغال العمومية مثل السكك والجسور وحفر الترع وتطهيرها وتشييد الكباري والقناطر وصك النقود وتحديد المقاييس والمكاييل وضبطها · فلم يكن خارجاً عن سلطة الوالي سوى الجيش الذي كان له في كل مديرية حامية صغيرة قليلة العدد وجماعة الكهنة وهم اقوى من الوالي والجيش معاً · وقد عرفنا من هذا الاكتشاف الحديث الذي اشرنا اليه اسماء ثلاثة من مشاهير الولاة في مصر وحدود وظائفهم وهم الذين كانوا موجودين

(١) ان لفظة مينا كانت اسما دارجاً في مصر لا بد له من لقب يميزه عن غيره · وكثيراً ما كان هذا اللقب مأخوذاً من اليونانية كما نرى في اسم ابي جرجس

في وقت الفتح الاسلامي سنذكرهم لك بالتفصيل الكافي في الذي يلي من الكلام بعد ان نشرح معنى كلمة «مقوقس» واصلها واشتقاقها.

معلوم ان لغة الحكومة الرسمية في مصر كانت اللغة اليونانية وكان ولاة مصر يفخمون ويعظمون بواسطة كلمة يونانية تضاف في اوائل اسمائهم كما نستعمل نحن في العربي كلمة جناب او المحترم او سعادة . وهذه الكلمة الرومانية هي «مقوقس» ومعناها الافخم ظنها العرب جزءاً من اسم ذلك الخائن الذي سلم مصر لعمرو بن العاص فاقتضبوها واستعملوها ونقلوها للخلف وظل هذا الوغد الزنيم يسمى «بالافخم» الى ان ظهرت الحقيقة حديثاً وهو لقب بعيد عنه بعد جرجس من المروءة والشرف

اما وقد عرفت معنى المقوقس ومبناه فلنسرد لك حكاية اولئك الولاة الثلاثة واولهم آمون مينا والي الوجه البحري لا نعرف عنه سوى انه كان كثير الادعاء والخيلاء جاهلا متغطرساً يكره المصريين كرهه للموت او للشياطين ولذلك بقي في وظيفته بعد استيلاء العرب على مصر . وثانيهم كيروس حاكم مصر الوسطى او الجانب الغربي من النيل المحتوي على اقاليم الفشن والمنيا وبني سويف ولم يشتهر بشيء الا باهتمامه واجتهاده في تسليم مصر للمسلمين . وثالثهم جرجس الذي يدعونه المقوقس والي الوجه القبلي بما فيه بابليون (عند مصر القديمة) التي اتخذها قاعدة لولايته . وكان في كل من هذه الولايات الثلاث قائد عسكري يدير مهام حامية تحتلها من قبل الحكومة الرومانية . ثم وجد بعد ذلك نظام — ربما بعد دخول العرب مصر بقليل — قضى بتعيين حاكمين

اول سلطة من اولئك الثلاثة . وهذان الحاكمان هما فيلوكسنوس للفيوم وشنوده للبلاد الريفية

ومما لا يقبل الشك والتخمين ان ثلاثة من هؤلاء الولاة الخمسة كانوا مصريين كما يستدل على ذلك من اسمائهم المصرية وهم آمون مينا وجرجس مينا وشنوده ولكنهم لم يكونوا اعضاء في الكنيسة المصرية الوطنية التي تسمى الآن الكنيسة القبطية (١) بل هم كانوا تابعين للكنيسة الرومانية والا فلا يمكن تعيينهم في هذه الوظائف . والذين قالوا ان جرجس المقوقس مصري قح مصيبون في قولهم ولكنهم اخطأوا في نسبتهم اياه للكنيسة القبطية لان الرجل كان روماني المذهب لاشك في ذلك ولا ريب . اذاً فالمقوقس كان مصري الموطن ولكنه روماني المعتقد روماني الوظيفة وفي جميع احواله فهو خائن للامبراطور الروماني خائن لكنيسته الرومانية خائن لبلاده المصرية خائن لامته القبطية خائن لنفسه الدنيئة

وعند ما افتتح العرب مصر كان جرجس قد مضى عليه زمن طويل وهو في وظيفته مما جعله قوي الساعد نافذ الكلمة خصوصاً وانه كان مقيماً في بابليون

---

(١) معلوم ان المدائن المصرية القديمة كان لها اسمان احدهما مدني والآخر ديني مثل منفيس (جيزه) مثلا فان اسمها الديني هو (ها كابتا) حرفه اليونان الى (اكوبتوس) واطلقوه على القطر المصري كله . فلما افتتح العرب مصر دعوها (اقبطا) ودعوا كل ساكن فيها (اقبطي) ثم تبدلت الكلمة على توالي الايام وصارت (قبطي وقبط)

آخر حدود ولايته من الشمال مما جعل رعيته تنظر اليه كأنه ملكها المطلق لا يفوقه ملك او امبراطور لان فتح الفرس مصر وبطشهم فيها علم المصريين ان الرومانيين اضعف من حكم وان قوتهم تلاشت واضمحلت . ومع ان الفرس برحوا هذه البلاد واحتلها بعدهم الرومانيون واقاموا حامياتهم وجنودهم في بابيلون وفي بني سويف والفيوم فلم يكن سكان الصعيد يهتمون بهم او يحسبون لوجودهم حساباً ولم يكونوا يعرفون اذا كانت هذه الجنود فارسية او رومانية لانهم لا يختلطون بهم ولا يسألون عنهم ما داموا يدفعون الضرائب الى واليهم وهو وشأنه يتصرف فيها كما يشاء . وكانت هذه الخطة في تصريف الجزية من ضمن الدواعي التي الجأت جرجس المقوقس الى خيانة وطنه لانه بعد ان ظل عدة سنين يستحوذ عليها ويبقيها لنفسه دون ان يدفع شيئاً منها للحكومة الرومانية جاءه هرقل يضايقه بطلب الجزية وتنفيذ اوامر السلطة الرومانية في البلاد التي استردها من الفرس . فلهذا السبب ولاسباب اخرى سياسية ارسل المقوقس وفداً الى محمد زعيم المسلمين وزوده بهدايا من عسل النحل وعدد عديد من العبيد والارقاء . ولكن لم يمر الزمن الذي فيه يضمن المقوقس النجاح حتى مات محمد ورفع هرقل راية سلطته في مصر فخاف هذا الخائن المائن واسقط في يده لانه اذا دبت الحياة في جسم المملكة الرومانية وعادت قوتها تتجدد بعد الاحتضار وتغلبت على العرب كما قهرت الفرس فلا ريب في ان قصاص المقوقس يكون مثل ذنبه مريعاً هائلاً . وحدث في ذلك الوقت ان جيش هرقل اشتبك مع العرب في معركة كبرى بفلسطين فصار

جرجس يترقب اخبار هذه الحرب علماً منه ان مصر تأول لمن يخدمه السعد ويحوز النصر من الطرفين . ومن مميزات المقوقس انه كان ذا وجهين يتلون كالحرباء ويتقلب كيف شاء ولسان حاله يقول « انا مع الغالب » . فانه لما انتصر هرقل على العرب في موقعة عند فلسطين ظن جرجس ان النصر سيكون حليفاً لهذا الامبراطور ولذلك سعى في التقرب اليه والتملق له عساه يتناسى عدوانه وطمعه فدبر الطريقة الاتية هي انه كانت له ابنة بارعة في الجمال اسمها ارمانوسة فخطر على باله ان يزوجها بقسطنطين ابن هرقل الاكبر ووريثه وامهرها بصداق وفير جعل هذا الامير الذي كان حاكماً في قيصرية ان يقبل طلب جرجس ويتنازل عن المتأخرات الباقية عليه من ضرائب مصر التي لم يدفعها للخزينة الامبراطورية . ففي سنة ٦٣٩ سارت هذه العروس المصرية من بابيلون بابهة الملكات وفخفخة جداتها المصريات يحف بها جيش جرار ويمشي في ركابها امراء واقيال حتى بلغ مقدار الفرسان الذين كانوا في موكب زفافها الفا فارس او يزيدون عدا عن العبيد والهدايا النفيسة والمطايا الفاخرة التي تليق بعروس مصرية لعريس روماني

ولكن عند ما وصلت هذه الآنسة الحسناء الى حدود مصر وكادت تعبر القنطرة (عند الاسمعيلية) الى العريش بلغها ان الغلبة كانت حليفة للعرب الذين شددوا الحصار على قيصرية وهم يستعدون للهجوم على مصر . فلما طرق هذا الخبر آذان سليلة رعمسيس وابنة فرعون وكريمة اولئك الاجداد الكرام الذين دوخوا العالم واجتاحوه قبل ان يوجد العرب طرحت على

العرس وزينة الفرح وتقلدت السيف بدل الوشاح ولبست الدروع بدل الدمالج وتمنطقت بعدات الهلاك بدل احزمة الذهب المرصعة بالآلي ونزلت من مركبتها وامتطت متن جواد اشهب وقالت للذين يسيرون معها ان هيا نخضب ايدينا بدماء الاعداء بدل خضاب الاوانس ونشرب بجماجمهم عوضاً عن شربنا بكاسات الذهب وطاسات الابريز . تعالوا نشنف آذاننا بصلصة السيوف وصليل الخيل بدل وقع الدف ورنة العود . سيروا بنا نحو الاعادي وهناك اذا وقعت العين على العين وحمي وطيس الحرب وعلا سعير الطعن والضرب وتقابلت مع الفرسان تجدوني اردد ما قاله عنترتهم الاسود وانا فتاة بيضاء بضاء وغادة هيفاء غضة :—

اذا كشف الزمان لك القناعا ومدَّ اليك صرف الدهر باعا
فلا تخشَ المنية والتقيها ودافع ما استطعت لها دفاعا
ولا تختر فراشاً من حرير ولا تبكِ المنازل والبقاعا

وحينئذ كرَّت ارمانوسة راجعة الى بلبيس في نفر من رجالها واخذت تستعد للدفاع وصد هجمات الاعداء المغيرين ثم ارسلت باقي الجنود التي كانت تسير في حراستها الى جهة الاسمعيلية اذ ظنت ان العرب قد يجيئون من هنالك . وبعد ان استكملت جميع هذه المعدَّات للذب عن بيضة وطنها ارسلت واخطرت اباها بالخبر وظلت هي في بلبيس تدور على السكان مشجعة اياهم للمدافعة ضد اعداء دينهم واعداء امتهم

وبعد قليل هجم عمرو بن العاص على الاسمعيلية واخذها ثم تقدَّم على

بلبيس وحاصرها ولكن ارمانوسة وقفت في وجه قوَّاته مدة شهر من الزمان وهي تدفعهم وتصدهم وتخترق صفوفهم وتفل جموعهم وتشتت شملهم وبقيت على هذه الحالة وهي تشهد الموقعة بعد الاخرى وتبلي في الاعداء بلاءً حسناً حتى يئس عمرو من الانتصار وضجر من هذه الباسلة القوية فاغار على بلبيس دفعة واحدة خسر فيها خسارة كبرى ولكنه تغلب عليها لان جيش ارمانوسة لم يكن جيشاً منظماً مدرباً بل كان جماعة من الفلاحين جمعتهم للقتال والنزال . وبعد ان دخل عمرو بلبيس وقعت ارمانوسة اسيرة في يده ولكنه ارسلها الى ابيها بكل احترام وتبجيل اما الانه أُعجب بشجاعتها وبسالتها او لانه خاف ان يؤذيها فيسيء الى والدها صديقه الحميم الذي ثبت لديه الآن ان العرب هم الذين سوف يأخذون مصر بلا محالة

ولما وصلت ارمانوسة الى ابيها سألها عما فعلت فاجابته :—

اقمت بالذوابل سوق حرب وصيرت النفوس لها متاعا
حصاني كان دلال المنايا فخاض غبارها وشرا وباعا
وسيفي كان في الهيجاء طبيباً يداوي رأس من يشكوا الصداعا
اذا الابطال فرَّت خوف بأسي ترى الاقطار باعاً او ذراعا

فكظم ابوها غيظهُ منها لانها قاومت الذين تعاهد معهم على ان يعطيهم وطنه لقمة باردة بدون حرب او عناء ولم يستطع توبيخها او تعنيفها لانه كان لا يزال تحت سلطة الرومانيين ولم تصر مصر بعد الى ايدي هؤلاء الغزاة المغيرين خصوصاً وان بابلون كانت محصنة منيعة لا يمكن اخذها الا

بالمكر والخديعة • وربما يذكر القراء ان النيل كان قريباً من بابيلون ومصر القديمة اكثر من الوقت الحاضر وكانت بابيلون متصلة مع منيل الروضة بواسطة كوبري من المراكب رصها الرومانيون وقت شبوب الحرب كما انهم اوصلوا الروضة بالجيزة بهذه القوارب لكي تكون القوات العسكرية متلاصقة متلاحمة مع بعضها فلا يستطيع العدو قطع خط الرجعة عنها • اما غرض جرجس المقوقس في هذا الوقت فكان مساعدة عمرو على اخذ بابيلون مساعدة سرية لانه كان يتظاهر بنجدة مولاه الامبراطور والميل لقائد الحملة الرومانية وتعضيده

وعندما بلغ هرقل اغارة العرب على مصر وكان عارفاً بضعف مركزه فيها وعدم ميل سكانها له ارسل مندوبه الخصوصي اعني به البطريرك كيروس ليتفاوض مع عمرو على الانسحاب من هذه البلاد على شرط ان يدفع له هرقل مبلغاً معلوماً من المال • وكان وصول كيروس الى مصر في الوقت الذي ضرب عمرو فيه خيامه على مقربة من بابيلون وحاصرها ذلك الحصار المشهور الذي لم يكن يفيد في اخذ هذه القلعة المنيعة لولا الغدر والخيانة • فلما جاء كيروس الى عمرو لم يخبره بما قاله له الامبراطور من امر المال فقط بل زاد من عنده انه اذا غادر العرب مصر فهو يزوج ايدوشيا ابنة الامبراطور او احدى الاميرات بالخليفة عمر • فلم يقبل عمرو هذا الشرط مادام هو قد اتفق مع الوالي جرجس الذي يعتبر عنده اكثر مقدرة وانفع من هذا البطريرك كيروس الذي ساء هرقل ما عرضه من

امر زواج ابنته برجل مسلم واستدعاه الى القسطنطينية ووبخه توبيخاً صارماً وكان عازماً على قطع رأسه لاجل خيانته وتمريضه بعرضه لولا انه ابقاه ليوم قمطرير هو يوم حصار الاسكندرية عساه يفيد في تشجيع سكانها الرومانيين بماله من المكانة والنفوذ عندهم

وقد دام حصار بابيلون سبعة شهور كاملة ارسل عمرو في اثنائها يطلب مدداً من الخليفة عمر فلما وصلته الامدادات سيرها سراً الى الفيوم وقصده بذلك ان يقطع المدد الذي يجيء من عند الامبراطور لمساعدة الحامية الموجودة هنالك • كذا تيودوسيوس وانستاسيوس قائدا الجيش في الوجه البحري حفظا خط الرجعة بينهما وبين حامية بابيلون مما زاد في قوة هذه المدينة منعة وبطشاً ورأى العرب انهم لا يقدرون على مهاجمة هذا الجيش الروماني من جهة النيل فرجعوا القهقرى واخذوا يسلبون اغناماً ومعيزاً ليقتاتوا بها عند اشتداد الجوع عليهم كما هي عادتهم في كل زمان ومكان • وقد سارت الى الفيوم فرقة من الجند الروماني تحت امرة قائد اسمه ليونيوس اشتهر بغلاظة جسمه وغلاظة عقله وبلادته وجهله للفنون الحربية • فلما وصل جنابه الفيوم وجد نار الحرب مستعرة بين قائدها والمسلمين فترك نصف الجنود التي معه لمساعدة هذا القائد اما هو فكرّ راجعاً بالنصف الثاني ليخبر رؤساءه بما رأى وقد ظن في عمله هذا منتهى الشجاعة لانه وطأ ارض الفيوم وعاد منها سالماً غانماً دون ان يجرد سيفاً

وقد ظل عمرو سبعة اشهر يهاجم بابيلون ويغير عليها بكل قواته وهو

يحاول افتتاحها ولكنه لم يفلح بل عاد بالخيبة والفشل فدبر طريقة اخرى هي انه قسم جيشه الى ثلاث فرق وضع الاولى في عين شمس ليمنع الاسعاف الذي يأتي للرومانيين من الشمال ووضع الفرقة الثانية خلف بابيلون من جهة الشمال الشرقي وعسكر بالثالثة في قلعة كانت واقعة على شاطيء النيل جنوب غربي بابيلون لم يبق منها الآن اثر يعرف

اما الاقباط فكانوا ينظرون الى تعارك هاتين الدولتين الاجنبيتين نظر الحائر الذاهل . ذلك ان بغضهم للرومانيين وذكراهم لقبائحهم منعهم من الانحياز الى جانبهم ولم تسمح لهم ضمائرهم ايضاً بتعضيد قوم يدينون بغير دينهم وكأنهم شعروا بانهم سيعذبونهم ويضطهدونهم فتركوا تدبير هذا الامر للعناية ولم يمدوا يداً لاحد وكان مثلهم في ذلك مثل غلام قاصر رأى رجلين يتخانقان ويتقاتلان على ميراثه فلم يشأ مساعدة احدهما لكراهته لهذا وخوفه من ذاك

وقد اتفق جماعة المؤرخين على ان بابيلون سقطت في ايدي المسلمين بواسطة الخديعة والحيلة ولم يأخذوها بحرب وضرب ولا احتلوها بتسليم من الرومانيين تحت شروط مقررة . وقد شرح بعض الكتاب هذا الاجمال فقال ان جرجس المقوقس اقنع قائد الجيوش الرومانية بالانسحاب من قلعة بابيلون الى منيل الروضة فجاء العرب حينئذ بناء على اشارة من جرجس واحتلوا هذه القلعة . اما كون جرجس كان ممالئاً للعرب متحداً معهم متفقاً على اخطارهم بجميع حركات وسكنات الجيش الروماني فهذا امر لا نجادل فيه لانه صحيح

ثابت . ولكن الذي يمعن نظره برهة في ساحة القتال ويتدبر مواقع الجيش واهمية مراكزه يصعب عليه تصديق ان القائد الروماني ينخدع انخداع جاهل غر لدرجة انه يظن ان جزيرة الروضة امنع وامتن من قلعة بابيلون كما ان الشواهد والبينات التاريخية تدل على ان الجندي الروماني كان من اكثر جنود الارض امانة لدولته وحباً لوطنه فلا يرضى بالسير خلف الخائنين واتباع رأي الماكرين والتغرير بوطنه وشرفه مما يعد من افعال الجبناء المرذولين . اذاً ففي الامر وجه آخر ذكره يوحنا النيقاوي نسرده لك هنا عساه يكون اقرب الى العقل واكثر الآراء صواباً وصحة

قال هذا المؤرخ المدقق ان عمرواً عمد الى خدعة — والحرب خدعة — نجح فيها هي انه انقهقر كما ينقهقر المغلوب حتى يجر الجيش الروماني وراءه ويخرجه من قلعة بابيلون . فكان من حسن حظه وسوء بخت مصر ان الرومانيين انخدعوا وظنوا انهم هزموا الاعداء فتركوا قلعتهم وجدوا في اثرهم وحينئذ برزت فرقة من فرق العرب الثلاث التي ذكرناها آنفاً وقطعت على الرومانيين خط الرجعة واحاطت بجيشهم احاطة السوار بالمعصم فوقعت بين الجيشين معركة شعواء سوداء اظهر فيها الجيش الروماني منتهى البسالة والشجاعة وقاتل الاعداء قتال المستبسل المستميت وخرقت ثلة منه صفوف العرب وهي تفتح طريقها بحد الصارم البتار الى ان وصلت جزيرة الروضة ومنها ولت الادبار . ولم يبق في قلعة بابيلون سوى ٣٠٠ مقاتل فقط الذين لما ابصروا ما حل باخوانهم كمنوا في مخابئ القلعة وظلوا يقاومون جيش العرب الجرار

برهة من الزمن الى ان اعيتهم الحيلة وهمدت قواهم ورأوا حرج مركزهم وضيق موقفهم فاتفقوا مع العرب ان يسلموهم القلعة ويكفوا عن القتال على شرط ان لا يصيبهم مكروه وان يلحقوا بباقي الجيش المتقهقر عند الروضة

وكل من تصفح التاريخ يعرف ان جرجس المقوقس كان قبل وقوع البلاد في قبضة المسلمين قد اشترط مع عمرو شروطاً تختص بجميع سكان مصر من غير الرومانيين . ومن ضمن هذه الشروط شرطاً يخول للاقباط الحرية الدينية المطلقة اذا هم دفعوا جزية ولم يقاوموا العرب في احتلالهم مصر . وقد اقسم عمرو الايمان المغلظة بتنفيذ هذا الوعد مع المصريين على السواء

وقد اشغلتنا شروط عمرو ووعوده عن صاحبنا دومنتيانوس قائد الجيش الروماني في الفيوم ولم نعرف ما تم له فلنعد الآن الى حكايته وهي ان جنابه لما بلغه خبر سقوط بابيلون ترك مدينة الفيوم وتقهقر منها هو وكل جنوده ولكن « بانتظام » واخلى هذه المديرية الى العرب راضياً من الحرب بسلامة رأسه دون يجرد في وجه الاعداء حساماً او يسفك في سبيل الدفاع عن مركزه نقطة دم بل عبر هو وجنوده نهر النيل شمالي الجيزة وسار يجد الخطى الى الاسكندرية ولم يرض الانضمام الى بقية الجيش الروماني الذي كان يسير الى نقيوس (هي الآن ابشادي بمركز تلا منوفية كما ذكرنا) حيث يقف في وجه العرب و ينازلهم معركة فاصلة . ولكن عمرواً لم يسمح للجيش الروماني باتمام هذا التدبير فانه صبر حتى بداء هذا الجيش في المسير الى الشمال ثم تبعه بفرقة من جيشه يقضي عليه القضاء الاخير فالتقى في طريقه بدومنتيانوس وجيشه الذي فرَّ

من الفيوم ولكنه لم يلق منه مقاومة لان دومنتيانوس لما بلغه خبر اقتراب العرب منه ترك جنوده ونزل في قارب صغير ابحر به الى الاسكندرية فلم يتأخر الجنود عن اقتفاء اثره فطرحوا اسلحتهم وعددهم على شاطئ النهر وانحدروا الى السفن يبغون الهرب فاضطرب البحارة منهم وخافوا وولوا الادبار ولجأوا الى قراهم خائفين وجلين وحينئذ وقع هؤلاء الجنود المساكين في ايدي العرب الذين احاطوا بهم وذبحوهم ذبح الاغنام وسالت دماؤهم في النيل فلونت ماءه بلون احمر قان ولم ينج من هذه الكتيبة الا جندي واحد اسمه زخاري فر من مقتحم الاهوال وقص هذا الخبر المريع على أولي امره

اما باقي الجنود الرومانية التي كانت في بابيلون وهزمت فانها لما التقى بها عمرو اتت عملاً يسطر لها بكل ثناء واعجاب في بطون التواريخ مع كونها كانت قليلة العدد لا يزيد رجالها عن مائة عداً ! اذ وقفت ثلاثة اسابيع كاملة في وجه عدو شديد البطش كثير المدد والعدد اكثر رجاله يحاربون فوق متون الجياد الصافنات كما ان اكثر الاهالي لم يمدوا يداً لتعضيد هذه الفئة الباسلة بل اظهروا لها كرهاً وبغضاً لانها من الرومانيين الذين ينفر من ذكرهم المصريون ويستعيذون بالله من اعمالهم التي اوجبت كل هذا الشر وجرَّت على مصر البلاء المر . كذا الجيش المستحفظ اوهم العساكر الغير منظمة الذين جمعهم الرومانيون من المصريين لم يحاربوا العرب ولم يرفعوا في وجههم سلاحاً لانهم كانوا مثل باقي اخوانهم الاقباط لا يعرفون عن هؤلاء المسلمين الا انهم قوم يمتازون عن الرومانيين بعدلهم وانصافهم

وانهم امة تمارس فريضة الختان مثل مسيحيي مصر وتؤمن بالله واحد وتنادي
بدين جديد تقول انه دين الحق والاصلاح . هذا كل الذي عرفه
الاقباط عن المسلمين عند افتتاحهم لمصر ولذلك رحبوا بهم وفرحوا بقدومهم
ولكن هذا الفرح لم يكمل لانه بعد مضى ستة شهور فقط على دخول العرب
مصر ندم الاقباط على غلطة شنيعة ارتكبوها في مساعدتهم العرب على
احتلال مصر وعضوا نواجذهم اسفاً وحزناً لانهم ارادوا التخلص من ظالمين
فوقعوا في حبائل قوم اكثر ظلماً من اولئك واشد طغياناً ووحشية من الاولين
والاخرين

وقد بقي الرومانيون يحاربون ويقاومون وهم يتقهقرون ويتاخرون
والاقباط ينظرون اليهم شذراً ويسخرون الى ان وصل هذا الجيش
الروماني الى بلدة الكريون (بمركز كفر الدوار بحيرة) على مسيرة عشرين
ميلا من الاسكندرية وسيف العدو يعمل في رجاله عمل النار في الهشيم
ولكنهم لم يعمدوا الى الفرار ولم تخرمهم العزائم فيسلموا او يستسلموا بل هم
شددوا قوائمهم عندما وصلوا الى الكريون وحاربوا حرباً تشيب من هولها
نواصي الولدان وكان الانهزام حليفهم فساروا الى الاسكندرية حيث
اخذوا يستعدون للدفاع عنها بقدر ما تصل اليه طاقتهم وقوتهم

ولنعد الآن الى مصر مرسح هذه الرواية المحزنة او هي ملعب الشيطان
كما سماها يوحنا النيقاوي فنقول والاسف ملء القلوب ان المسلمين انتشروا
في الوجه البحري كما ينتشر الجراد في مزرعة خضراء واخذوا يسلبون وينهبون

ويحرقون ويهتكون الاعراض ويغمدون السيوف في الرقاب فلم يقف في
وجوههم العبوسة سوى اثنين من اشراف الاقباط هما مينا وقزمان جمعا
حولهما جماعة غير مدرّبة على القتال وشنا الغارة على كل اجنبي معتدٍ سواء
كان رومانياً او مسلماً فكفا عدوان المعتدين قليلاً ولو انهما كانا بدون
مسعدة او نجدة من الخارج . وفي ذلك الوقت وصل عمرو الى الاسكندرية
واخذ يجمع جيشه كلّه حول اسوارها بعد ان ترك حامية قوية في بابيلون
واخذ الجزء الاكبر من جنوده الى الشمال قاصداً الاسكندرية وعند
مسيره الى هذه المدينة اجتاح بلدة نيقيوس (ابشادي) واعمل السيوف في
اعناق سكانها مع انهم لم يبدوا مقاومة وماجرّدوا سلاحاً فقتل كل من وقعت
عينه عليه سواء في الشوارع العمومية او في الكنائس ولم يترك رجلاً ولا
امرأة صبياً او شيخاً الا واورده حتفه وصير هذه المدينة قاعاً صفصفاً (١)

---

(١) يحكى انه لما نوى عمرو على المسير الى الاسكندرية وامر بنقل
خيام الجنود من مكانها جاءه بعضهم واخبره ان يمامتين بنتا لهما عشاً فوق سقف
خيمته وباضتاه وافرختا ولكن فراخهما لم يريشا بعد وما يمكنها الطيران . قيل ان
عمرواً اصدر امره بعدم ازعاج اليمامتين وترك خيمته في مكانها الى ان عاد من
الاسكندرية (وهكذا يرى صغار العقول وقصار النظر في عمل عمرو هذا مرحمة
وانصافاً ويباهون بهذه الشفقة على يمامتين لاتساويان فلساً ولكنهم لا يذكرون تلك
القسوة والوحشية التي ارتكبها هذا العادل المنصف في ذات اليوم او بعده بقليل
اذا اهلك بلدة آمنة (ابشادي) وافنى سكانها بحد الحسام وهم لم يجنوا ذنباً وما
أتوا امراً يستحقون عليه كل هذه الخشونة والفظاعة بل هم اولى من اليمام في الاظهار

وعندما علم الامبراطور هرقل بتقدم المسلمين على الاسكندرية اسرع فارسل البطريرك كيروس اليها ليبذل جهده في الدفاع عنها وصد هجمات المغيرين عليها · وكان قد اجتمع داخل اسوار الاسكندرية جميع الجيش الروماني في مصر وكل الرومانيين المستوطنين القطر المصري هجروا منازلهم وربوعهم ولجأوا الى الاسكندرية ليحتموا فيها مع ان هذه المدينة كان قد مزّق احشاءها عامل الشقاق الداخلي الناتج عن التعصبات المذهبية وحب الرئاسة والسلطة فلم يكن يمكن ايجاد اتحاد وائتلاف بين ساكنيها حتى في ساعة الضيق ووجود عدو اجنبي يتهددها بالخراب والدمار ولذلك فكان المحتمي بها كالغريق الذي يتمسك بخيوط العنكبوت لينجو من لجة اليم

ولم يكن في الاسكندرية وقتئذ من القوّاد الرومانيين سوى تاودروس القائد العام ودومنتيانوس النذل الجبان الذي كان عدواً لدوداً للبطريرك كيروس صهره ولاثنين من ارباب الحيثيات والنفوذ احدهما مصري هومينا والآخر يوناني اسمه فيليادس شقيق البطريرك الروماني السابق · فساء القائد تاودروس هذا العداء والشحناء في وقت الضيق والنكد وحنق من تصرّف دومنتيانوس الممقوت ولم يظاهره على اخصامه حتى على مينا المصري ·

الشفقة والانعطاف " · والذي يدقق في مايلي من الوقائع يجد ان هؤلاء الفاتحين كانوا (يصفون عن البعوضة ويبتلعون الجمل) اوهم يظهرون العدل والرحمة في المسائل الصغيرة التافهة ولكنهم يأتون منتهى القسوة والجبروت الطبيعي اذا عنّ لهم اهلاك بلدة او ابادة امة ولو بدون سبب)

فرد هذا الوغد المهان وغضب وجند جماعة من الحزب الازرق في الاسكندرية (الرومانيون) ليس ليقاتل المسلمين ولكن ليحارب مينا الذي لم يرضَ بالذل بل اصب خصمه الشر وجمع تحت لوائه جميع انصار الحزب الاخضر (المصريون) وما تم اليوم حتى قام الحزبان ينازلان بعضهما ويتقاتلان في شوارع الاسكندرية بينما كان العرب يحاصرون هذه المدينة ويضيقون عليها الخناق وذلك في خريف سنة ٦٤٠ · فلما راى تاودروس ان العدو واقف على الباب بذل جهده وقاسى كل صعوبة وعناء الى ان فض هذا الخلاف بين الحزبين ثم جرّد دومنتيانوس من وظيفته ورتبته

ومع ان المؤونة والذخيرة وباقي مواد المدد كان يتعذّر وصولها للاسكندرية من طريق البر الا ان البحر كان طريقاً اميناً لها اذ جاءها منه ما جعلها اقوى على حصار المسلمين مدة سنة كاملة ولو ان الضعف الداخلي الناشيء عن الانقسامات انهك قواها واضاع مزيتها · وقد اصبح ساكنوها يترقبون مجيء المسعدة والنجدة من القسطنطينية ولكن الحكومة الرومانية فيها كانت قد بلغت من الاختباط والارتباك مبلغاً لا يساعدها على ارسال نجدة لاسترداد مصر تكلفها من المصاريف والمتاعب مالا قبل لها به · وهذا الارتباك نتج من امرين اولهما ان هرقل مرض مرضاً عضالاً قضى على حياته في شهر فبراير سنة ٦٤١ · والثاني ان هذا الامبراطور كان قد اقترن بابنة اخيه مرتينه قراناً تعتبره الكنيسة فحشاً وزنى خصوصاً وانها ولدت له ولداً قصد هرقل ان يقاسمه السلطنة مع ابنه الاكبر قسطنطين الذي كان واهي القوى

واهن العزيمة . فلما وقفت الكنيسة على مشروع هرقل هذا صرفت همها الى مقاومته ونسيت كل امر غيره . وعند ما بلغ تاودروس القائد خبر وفاة هرقل اغتم واستولى عليه اليأس لانه لم يكن يرجى نفعاً من خلفه . ثم ان مينا ودومنتيانوس والبطريرك كيروس اتفقوا على مهادنة المسلمين وعقد صلح معهم فلم يقوَ تاودروس على رد اتفاقهم هذا الذي كان قد سرى بين وجهاء الاسكندرية فاصبحوا يتحدثون بالتسليم للعرب وتقرير مواد الخضوع لهم خضوعاً كاملاً

ومعلوم عند الذين يقولون بالسعد والنحس ان الزمن اذا جار على امة اعمى بصيرتها عن كل شيء يكون فيه تقدمها ونجاحها . ودليل هذا المبدإ ان الرومانيين في الاسكندرية ساق لهم القدر بختاً ولكن النحس الذي استحكمت حلقاته اغمض ابصارهم عن هذا البخت المليح ففر من ايديهم . وتفصيل ذلك ان موقعة كبرى حدثت بين الروم والعرب عند ابواب الاسكندرية أُخذ فيها عمرو واحد قواد جيشه ومعتوقه اسرى وجيء بهم امام تاودروس الذي حادثهم وتكلم معهم طويلاً دون ان يعرف شيئاً عن رتبهم ووظائفهم . فحدث في اثناء الحديث ان فرطت من عمرو بادرة كادت تكشف سره وتظهر امره لولا ان معتوقه تنبه لذلك وصفع عمرواً على وجهه قائلاً له ان يسكت ولا يفوه بكلمة امام اسياده لانه من معاشر الجنود الاصاغر . ثم تقدم القائد الذي كان مع عمرو واتم الحيلة على تاودروس وكيروس بقوله انه سيعرض امر هذه المهادنة على كبيرهم عمرو عند رجوعهم اليه . وبهذه الخدعة لم يشعر الاسكندريون

بان عمرواً وقع في ايديهم الا بعد عودته لمعسكره اذ ضج الجند وكبر بسلامته من الخطر ونجاته من الاسر فحينئذ فهم اولئك المساكين انهم اضاعوا فرصة ثمينة استعاضوها بقول ليت « وهل تنفع شيئاً ليت »

ولم يكف الروم عن مقاومة المسلمين وقتالهم حتى اوشكوا ان يبعدوهم عن الاسكندرية ويردوهم على اعقابهم خصوصاً ان قائدهم عمرواً لم يكن على علم تام باساليب القتال في مثل هذا الحصار بل هو كان يقتحم المواقع بطريقة يقول رجال الحرب انها لا تضمن الغلبة لو لا ان السعد خدمه والهلع تمكن من افئدة خصومه الذين لم يجدوا مندوحة عن ابطال الحرب وتفويض كيروس بالمفاوضة مع عمرو في ما يختص بشروط الصلح والتسليم وانسحاب الجيش الروماني من ارض الفراعنة

والذي يراجع معاهدة الصلح التي ذكرها يوحنا في تاريخه يجدها ملائمة مناسبة . فان الرومانيين منحوا احدى عشر شهراً هدنة فيها يستطيع كل روماني مبارحة مصر اذا شاء على شرط ان يدفع الرومانيون للمسلمين مبلغاً وافراً من المال فدية لهم . اما الذين يبغون الاقامة في مصر فعليهم ان يدفعوا جزية اسوة بالمصريين حتى يتمتعوا بالحرية نظيرهم . ثم ان الجيش الروماني يغادر مصر في مدة معلومة وله ان يأخذ معه معداته واسلحته على شرط ان لا يعود ويدخل هذه البلاد في الحرب او في السلم . وقد اخذ المسلمون رهينة لحين اتمام هذه الشروط مائة رجل — خمسين من ضباط الجيش وخمسين من وجهاء الرومانيين

وقد تعهد المسلمون في مقابلة ذلك ان يتبعوا مع الاروام ذات الخطة التي وعدوا الاقباط باتباعها وهي ان لا يغتصبوا كنيسة من كنائسهم ولا يتداخلوا في امور دينهم . ومما يدل على مكر هؤلاء العرب انهم صرحوا لليهود بالاقامة في الاسكندرية واعطوهم تمام الحرية وذلك لان اليهود جمعوا الجزء الاكبر من المال الذي دفعته مصر حينئذ للمسلمين

فلما اتفق كيروس مع عمرو على هذه النصوص والقيود عاد الى الاسكندرية وطرحها على تاودروس واكابر المدينة على اختلاف اجناسهم ونزعاتهم فتوقف بعضهم عن قبولها واختلفوا فيما بينهم اختلافهم في كل امر ولذلك ارتأوا ان ينفذوا رسولاً الى القسطنطينية يسأل الامبراطور قسطنطين رأيه فيها ويطلب منه التصديق عليها اذا شاء ان يقبلها . وقبل ان يبت الرومانيون الحكم في هذا الامر الجلل تسرع عمرو ودخل الاسكندرية مع جنوده كلها ليأخذ الفدية التي تقرر دفعها عن الرومانيين مع ان الشروط لم تعتبر نهائية بعد . فذعر الاهالي من هذه المفاجأة وقاموا في وجه المسلمين يقاومونهم ويكافحون ولكن القائد الروماني تدارك الامر وسار في كتيبة من جيشه يهدئ روع العامة ويسكن جأشهم قائلاً لهم ان الصلح قد تم على يد البطريرك كيروس . فعند ما سمع السكان ذلك تحول هياجهم وغضبهم الى كيروس وداروا يبحثون عنه ليقتلوه فلم يمكث هذا البطريرك حتى يجدوه بل خرج لمقابلتهم بقلب جسور وقدم ثابتة مما جعل هؤلاء القوم المزبدين الهائجين يقفون صامتين كأن على رؤوسهم الطير ليسمعوا ما يلقيه عليهم كيروس

بدل ان ينقضوا عليه ويمزقوه . ثم خطب فيهم خطاباً مؤثراً غير شعورهم وحرك عواطفهم حتى انهم انصرفوا من امامه الى بيوتهم وجاؤا له بكل ما عندهم من ذهب وفضة ليدفعها في الفدية المطلوبة من الرومانيين (وهكذا عرف المصري ببساطته وسذاجته لدرجة يقول عنها علماء الاخلاق انها افقدته استقلاله ومجده لانه يتأثر من لا شيء وان تأثره لا يبقى معه طويلاً ولا يعمل في قلبه الا عملاً وقتياً)

وعلى هذه الصورة المحزنة وضعت مصر على عنقها بيدها النير الاسلامي من بدء شهر ديسمبر سنة ٦٤١ ولم تقدر ترفعه لحد يومنا هذا سواء كان المسلمون الذين يحكمونها من العرب او الشراكسة او الاتراك الذين قضوا جميعهم على علومها وصنائعها وفنونها وتمدنها وديانتها بل قضوا ايضاً على حياتها قضاء لا تقوم لها قائمة من بعده . واذا اردت ان تعرف مقدار ما اصابها الآن من الهول والويل والنكد والبلاء من ثقل هذا النير فاعلم انه لا يوجد بين سكان مصر الذين يبلغون التسعة ملايين من الانفس سوى سبعمائة الف شخص قبطي لا شك ولا ريب في انهم وحدهم سلالة اولئك المصريين القدماء الذين ابقتهم العناية الالهية شهوداً على ما اصاب الديانة المسيحية في هذه البلاد مدة تسعة عشر قرناً من اضطهاد مهول وعذاب شرحه يطول

الفصل الثالث والثلاثون

المسلمون في مصر

سنة ٦٤٢ للمسيح و٣٥٨ للشهداء و ٢٠ للهجرة

مرت اكثر سني حياة مصر وهي تخرج من تحت حكم دولة لتدخل تحت سلطة دولة اخرى وتدين حكومتها بدينها الى ان تجيء امة جديدة بدين جديد فتتمسك به . ولا يوجد قطر في اقطار العالم مثل مصر في غرائب امورها وعجائب حكوماتها واختلاف اديانها وتشعب شعوبها وتبلبل الالسنة فيها . فاقرأ وتأمل

قبل التاريخ المسيحي بثلاثين سنة طرحت مصر حكم البطالسة ودخلت تحت ظل الحكومة الرومانية . وفي سنة ٦٤٢ ب . م ظهر فيها خليع خائن ماكر — هو المقوقس — سلمها الى ايدي العرب ومنهم للشراكسة ثم للاتراك وهلم جراً

على ان تقلب الاديان فيها يماثل تعدد الامم التي حكمتها او يزيد . فانه لغاية سنة ٣٢٣ كانت ديانة الحكومة المصرية الديانة الوثنية ومن سنة ٣٤٠ الى ٣٨٠ المذهب الآريوسي ومن بعد سنة ٤٥١ لحد الفتح الاسلامي المذهب الخلكيدوني الذي لم تقبله الكنيسة القبطية ولم تصادق الا على قوانين المجمع النيقاوي فهي لذلك ظلت محافظة على مبادئها الاساسية لا تعرف رئيساً لها غير بابا الاسكندرية ولا تذهب مذهباً سوى ما وضعه لها الآباء والاجداد . ومنذ ما افتتح المسلمون مصر اصبحت ديانة الحكومة الدين الاسلامي الذي مد

سطوته عنوة واقتداراً على معظم الامة المصرية الحالية . ولكن مهلاً فانه لا يزال يوجد — ليس سبعة آلاف ركبة فقط لم تجث للبعل (*) — بل نحو سبعمائة الف شخص لا زالوا يفاخرون بنسبهم ويلقبون انفسهم بالامة القبطية وليس بالكنيسة القبطية فقط

اما وقد عرفنا شيئاً عن غرائب الاحكام والاديان في ارض الغرائب فلنتقدم لدحض وهم تسلط على عامة الناس وبعض خاصتهم قروناً عديدة هو ان اوروبا مديونة للعرب بعلومها ومعارفها . والذين يزعمون هذا الزعم بنوا فكرهم على ان اكثر العلوم دخلت اوروبا بواسطة العرب وهو اذا صح لا يؤخذ دليل على ان العرب هم الذين جاؤا بهذه المعارف من انفسهم ولكنهم نقلوها تلقفاً من التهذيب والعلم القديم الذين محوا آثاره من البلاد التي امتلكوها كمصر مثلاً بعد ان اخذوا قشوراً ضعيفة منه اوصلوها الينا ممسوخة منسوخة كما ان الذين نقلوا بعض العلوم الصحيحة لم يكونوا من العرب انفسهم بل هم من الامم الاخرى التي امتزجت بهم . خذ لذلك مثلاً وقس عليه البواقي :— ان العرب الذين ادخلوا بعض الفنون الهندسية والحرف الى الشرق في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ليسوا من العرب الاصليين بل هم جماعة من اليونان والارمن والشراكسة الذين توظفوا في مصر واتخذوا منها هذه الفنون

(*) (المترجم) هذا مقتبس من سفر الملوك الاول ص١٩ ع١٨ حيث قال الرب لايليا النبي (وقد ابقيت في اسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله)

ونشروها في البلاد التي انتقلوا اليها فيما بعد . واذا قام بعض الذين لا يفهمون وبرهنوا لنا على صحة ذلك الزعم من ان اسماء اكثر العلوم عربية صرفة ولذلك فهي من بنات افكار العرب اتخذنا قولهم هذا حجة لنا لا علينا فان الابحاث الحديثة الدقيقة اثبتت ان هذه الاسماء التي يظنها بعضهم عربية انما هي مصرية او يونانية . مثال ذلك « الكيمياء » فانها مأخوذة من كلمة « الكم او الخم » ومعناها تراب احمر وهي الاسم العلم لارض مصر التي بزغت منها جميع العلوم والمعارف ونبغ فيها الاطباء والمهندسون والمعماريون ومهرة الصناع وارباب الفنون الجميلة الذين كانوا وطنيين مسيحيين لا تزال الحكومة المصرية لحد يومنا هذا تثق بامانتهم ومهارتهم وتضعهم في الوظائف الخطيرة التي تحتاج الى العفة والنشاط والاستقامة والجد مما اشتهر به الاقباط شهرة يعرفها كل من درس التاريخ الماضي والحاضر ولا ينكرها الا من اعماه الغرض المقوت . ونحن مع هذا كله لا ننكر على العرب فضائلهم ولا نبخس الاتراك حقهم فان هاتين الامتين اشتهرتا بالشجاعة وقوة البأس والكرم ومزايا اخرى كان يحسن بالمصريين ان يقتبسوها منهما ولكنهما للاسف كانتا ولم تزالا على جانب عظيم من البداوة والخشونة وهو ما نسميه بالهمجية والوحشية . فاذا كان في الامتين ميل للفتوحات فهذا الميل ناشيء عن حب التوسع في السلطة والتحكم في رقاب العباد عجرفة وغطرسة كما ان التمدن عندهما هو عبارة عن الترف والاسراف واطلاق عنان النفس للشهوات المذمومة (١)

(١) ان سلالة العرب الذين فتحوا مصر المعروفين فيها الآن بالعربان او

على ان العرب الاولين في بدء مجدهم كانوا بعيدين عن كل ترف ورفه يميلون للجد في اعمالهم ويأكلون شظف العيش ويلبسون خشن الثياب ويحتقرون كل من يتنعم ويبذخ مع انهم وقعوا في هذه المهواة فيما بعد وغاصوا فيها لآذانهم . ولنذكر لك الآن حكاية تستدل منها على ترفع امراء العرب وعظمائهم عن البذخ والتبذير وعدم ميلهم ايضاً الى شيء من العلوم النافعة والمؤلفات المفيدة . فانه لما افتتح عمرو الاسكندرية اندهل من ثروة سكانها وعجب من تفخختهم وترفهم فكتب الى عمر يبالغ في وصف ما رأى من عظمة حماماتها وزخرفة سقفها ونظافة شوارعها وبهرجة ساكنيها ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن الكتب الثمينة والتصانيف الغالية التي كانت كنز الاسكندرية وفخرها خصوصاً مكتبتها الشهيرة التي سنقص عليك حكايتها ومنها تدرك مقدار اهتمام العرب بالعلوم والكتب التي كانوا يعدونها من سقط المتاع — ذلك ان احد علماء الاسكندرية في ذلك العصر وباسمه يوحنا فيلوبونس بلغه ان قائد العرب الجاهل يبغي حرق المكتبة واعدامها فطلب مقابلته ورجاه ان لا يتصرف في هذا الكنز الثمين ولا يسلمه لعوامل الدمار بل اذا كان لا يهتم بامره فليضعه تحت يده (اي يد يوحنا) . قبل ان عمرواً استصغر عقل هذا العالم وظنه معتوهاً لانه يبحث عن رقوق عتيقة وجلود عفنة يسميها

البدو يميلون بكلياتهم الى اسباب الترف والبذخ والبهرجة وجميع الاميال الحيوانية. وكذلك العرب الذين ملكوا الشرق من القرن الثامن الى الحادي عشر انحطوا وتدهوروا بسرعة وانهمكوا في الملذات حتى شابهوا جماعة الاتراك الذين تعقبوهم

كنزاً وهي لا تنفع للاحذية وليس فيها سوى كتابة غامضة مبهمة تشبه الطلاسم والرقى · ففرطت من صاحبنا العالم كلمة امام عمرو لم يلتفت لنتيجتها وقال له ان بعض هذه الكتب يساوي كل الاسكندرية وما فيها من ثروة طائلة واموال هائلة · فاجابه عمرو انه اذا كان مقدار اهمية هذه المكتبة كما ذكرت فليس في وسعي البت في امرها ولا يمكني ان اعطيها لك كما طلبت مني · ثم رفع عمرو الامر الى الخليفة عمر الذي اجابه جواباً بسيطا يقول عنه المنطقيون انه فاسد المقدمات فهو فاسد النتائج · قال الخليفة قضية منطقية قضت على هذه المكتبة الشهيرة بالحرق وهاك القضية :—

« اذا كانت هذه الكتب لا تحتوي على شيء غير المسطور في القرآن فهي كعدمها

واذا كانت هذه الكتب تنافي ما جاء في القرآن فهي ضارة مؤذية لا يجب حفظها

اذاً فعلى كلتا الحالتين يجب حرقها وابادتها من الوجود »

قيل ان هذه الذخائر والنفائس استعملت وقود الحمامات الاسكندرية الكثيرة الكبيرة لمدة ستة شهور باكملها (١)

وبينما كان الفاتح المسلم يشتغل في تدبير مهام الاسكندرية ويضع لها

(١) لا مشاحة في ان مكتبة الاسكندرية القديمة كان قد احرقها اوغسطوس قيصر اول امبراطور روماني وضع يده على مصر ولكن لم يمض زمن طويل حتى تجددت هذه المكتبة اذ نقلت مكتبة برغاموس اليها فصارت اشهر من الاولى وانفع

النظامات واللوائح جاءه وفد غريب في شكله ووضعه · ذلك ان رهبان دير وادي النطرون وبرية شيهات الذين لم يسبق لهم التداخل في الامور السياسية ولا هم اشتركوا في تلك الحروب الاهلية والثورات المشومة التي حدثت في القرن السادس ضد الحكومة الرومانية — هؤلاء الرهبان لما سمعوا ان قوة جديدة احتلت هذه البلاد بعد ان طردت الرومانيين منها خرجوا من صوامعهم ومناسكهم كانهم اهل الكهف وساروا الى الريف في حفلة حفيلة وهم حفاة الاقدام لابسون رث الثياب ورثيث المآزر وجاؤا الى الفاتح الجديد ليتفاوضوا معه في شروط التسليم والحكم كما لو كانت لهم حكومة مستقلة غير حكومة القطر المصري · وكان اول امر طلبوه اعطاءهم الحرية الدينية والشخصية واعادة بطريركهم الموقر بنيامين من منفاه الى الاسكندرية · ولما كان عمرو قد تعلم من سالفيه الرومانيين اهمية مهادنة الاقباط ومحاسنتهم لم يتأخر عن منح الرهبان ما طلبوه منه فكتب مكتوباً الى البطريرك بنيامين يخبره فيه بانه حر في تصرفه يمكنه الرجوع والاقامة متى شاء واين اراد · فلم يتأخر بنيامين عن العودة الى الاسكندرية حيث استقبله شعبه بفرح وسرور · اما البطريرك الروماني كيروس فانه مات عند ما ماتت آماله اذ اصابه مرض بعد الخيبة والفشل اللذين اصاباه عند فتح العرب مصر فتوفاه الله بعد احد الشعانين بثلاثة ايام · ولا يعلم اذا كان الامبراطور او اساقفة الكنيسة الرومانية في مصر هم الذين اختاروا خلفه بطرس الذي لما عرف ان البطريرك بنيامين هو صاحب السلطة والرئاسة في مصر لم تعجبه البقاء فيها بل آب

ادراجه الى القسطنطينية مع المهاجرين اليها · وقد ظل الكرسي الروماني في هذه البلاد بدون بطريرك مدة ستين سنة بعد موت بطرس هذا

وكان عند ما اخذ المسلمون مصر ان بنتا بوليس — او هي الخمس مدن الغربية — انفصلت عن مصر واستقلت فارسل اليها عمرو جيشاً لم يستطع اخضاعها بل اكتفى بما اخذه منها من الغنائم والاسلاب وهي عبارة عن عدد وافر من المواشي والاسرى الذين جعلهم عبيداً ارقاء · وبعد هذه الحرب جاء عمرو الى بابيلون وشرع في بناء مدينة جديدة له ولاتباعه شمالي المدينة القديمة بابيلون · ومع ما كان عليه عمرو من الخشونة وضيق العقل فقد عرف بالبسالة والدهاء السياسي يدلك على ذلك انه ابعد رجال جيشه عن سكان بابيلون وممفيس فلم يعين منهم مستخدماً ولا حاكماً حتى لا ينفر المصريون منهم وحتى لا يسقط رجاله في وسائل الترف والاسراف فاقام الولاة والحكام في مصر من المصريين انفسهم وصرف نظره الى جمع الاموال منهم التي كانوا يؤدونها عن يد وهم صاغرون · ولم يخلف عمرو وعده في تعميم الحرية الدينية واقامة العدل والقسط بين المصريين والرومانيين على السواء مع ان عدله حينئذ كان اشرّ وامرّ من اشد انواع الظلم والعسف · وقد امر بترميم مقاييس النيل من جزيرة فيلا (اصوان) الى الروضة وتطهير ترعة تراجان (١) وتوسيعها وكذلك خص كل امة بقانون واقام قضاة للمصريين منهم ولم

(١) ان ترعة تراجان هي المعروفة الآن بالخليج وفم الخليج الذي امرت الحكومة بردمه سنة ١٨٩٧ لاسباب صحية ولذلك بطل العيد الكبير الذي كان

تكن احكام القضاة المسلمين تسري الا على المسلمين فقط · ثم انه شاد اول جامع في مصر في مكان الجامع المعروف باسمه بمصر القديمة ولكنه اخذ اعمدته والاحجار اللازمة له من كنائس ممفيس وبذلك وضع عمرو قاعدة سار عليها المسلمون فيما بعد اذ بنوا جوامعهم من انقاض كنائس المسيحيين بعد هدمها وتقويضها وسبب ذلك جهلهم المطلق بصناعة قطع الحجارة وتسويتها على مثل ما كان يفعل المصريون

ولم يكد عمرو يخطو خطوة ثانية في مشروعاته حتى قتل الخليفة عمر وخلفه عثمان بن عفان الذي استدعى عمرواً من مصر وعين بدله عبد الله بن سعد اخاه في الرضاعة وذلك في سنة ٦٤٧ (٢٥ هجرية) ولكنه لم يهتم بنجاحها وتقدمها بل هو صرف جهده في زيادة الضرائب المفروضة على المصريين وطمع في مد السلطة الاسلامية خارج مصر · وكان عمرو بن العاص قد ارسل حملة على بلاد النوبة او البلاد الواقعة جنوبي اصوان فلم تفلح فظن عبد الله ان ينتقم من السودانيين ويداوي الخيبة التي لحقت بسلفه فسير جيشاً على النوبة نشرح لك حكايته في الفصل التالي

يقام في مصر بوفاء النيل من ايام الفراعنة الى اليوم ولم يبق من كل ذاك الاحتفال الا عمل لا يشعر به سوى القليلين

الفصل الرابع والثلاثون

فتح السودان

سنة ٦٥٢ للمسيح و٣٦٩ للشهداء و٣١ للهجرة

معلوم ان سلطة الحكومة الرومانية لم تخرج عن حدود مصر وما تجاوزت مدينة فيلا في وقت من الاوقات ولكن تلك الحكومة القوية والسلطة المتناهية التي مدّت نفوذها في انحاء المسكونة بلا حرب ولا قتال اعني بها الديانة المسيحية كانت قد غلبت الوثنية وسحقتها سحقاً بقوة رب الجنود الذي ساعدها في مصر حتى تعدت حدود السودان وتسلطت على انحائه وظلت مثمرة فيه نامية مدة قرون عديدة · ولما اخذ المسلمون مصر كانت الديانة المسيحية قد بزغت شمسها من ارض مصر فاشرقت على الجزء الشرقي من القارة الافريقية وانارت اقصى الحدود الشمالية لبلاد الحبشة وصارت جميع هذه البلاد تعترف بسيادة بطريرك الاقباط عليها اعترافاً تاماً وتخضع لسلطته ·
اما هذه البلاد الافريقية التي اشرنا اليها فهي الواقعة بين اصوان و بلاد الحبشة شمالاً وشرقاً وكانت في وقت الفتح الاسلامي عبارة عن ممالك مسيحية عديدة مستقلة استقلالا سياسياً كاملاً يقول عنها المؤرخون المسلمون انها كانت ذات حكومات منتظمة وقوانين مرتبة عادلة وشعب مهذب وامم بلغت ذرى الكمال والدأب على العمل حتى ساقها حب التزاحم وتنازع البقاء الى ايقاد نار حروب كثيراً ما اشتعلت بينها وهمدت حالا · واذا نظرت

الى الاهوال التي قاستها مصر من امتلاك العرب والاتراك لناصيتها ورأيت ما حلّ بتمدنها وعلومها وصنائعها من المصائب والارزاء لرأيته شيئاً لا يذكر بالنسبة لما اصاب هذه الممالك المسيحية السودانية من ويل ادمى فؤادها واضنى قلبها بعد ما ترعرعت بسقي الديانة المسيحية ونمى غرسها وصارت زهرة القارة السوداء واكليلها الثمين

قلنا في الفصل السابق ان حملة من العرب هاجمت هذه الممالك السودانية في ايام عمرو وعادت منها بالخيبة والندامة وذلك سنة ٦٤٣ للمسيح · وقد اختلف المؤرخون فيما اذا كان عمرو نفسه قاد هذه الحملة او بعث بها تحت زعامة احد الامراء المسلمين · وورد في كتاب فتوح البلدان لاحمد الكوفي عن هذه الحملة ما يأتي : — « لما كان عمرو بن العاص مقيما في مصر جاءه مكتوب من الخليفة عمر يأمره فيه بالمسير على بلاد النوبة وافتتاحها وغزو بلاد البرابرة وان يفتتح ايضاً برقة وطرابلس الغرب ويجتاح جميع البلاد التابعة لها مثل طنجة وافرنجة لحد سوس العقصة » اه

وقد جاء في هذا الكتاب ان عمرواً كان قد جمع من سكان الاسكندرية عشرة آلاف دينار (الدينار يساوي نحو ثلاثة ريالات مصرية) وفي نيته ارسالها الى عمر · ولكنه لما صدر اليه امر هذه الحملة وزع هذا المبلغ على رجال جيشه واخذ يستعد لشن الغارة على الممالك المذكورة وسير ضدها عبدالله بن سعد (الذي تولى مصر بعد عمرو) يقود عشرين الف مقاتل (كذا في الاصل العربي وهو كذب محض)

ولما بدأ عبد الله يسير اذن لرجال جيشه بارتكاب ما يوافق طباعهم القاسية الجامدة فاخذوا ينهبون و يسلبون و يقتلون و يدنسون ماتقع عليه اعينهم او مايقف في طريقهم من بابيلون لحد السودان حتى اتلفوا شيئاً كثيرا وقتلوا خلقاً عديداً . وعند ما بلغ السودانيون خبر قدوم العرب اجتمع منهم نحو مائة الف رجل (١) ووقفوا في وجه المغيرين الى ان اقتربوا منهم فهجموا عليهم هجمات قال مؤرخو المسلمين ان العرب لم يروا مثيلا لهذه الشجاعة ولم يشهدوا حروباً ذاقوا فيها البلاء المر مثل ما لاقوا من اهالي النوبة الذين كانوا يحسنون الرمي بالسهام فلا يخطئون . قال عبد الله قائد الحملة لاحد المؤرخين المسلمين انه لما دارت رحى الحرب واشتبك الجيشان في الطعن والضرب كان السودانيون يصيحون على اعدائهم ويسألونهم ان في اي عضو من اعضاء اجسامهم يريدون وقع السهام عليه . فكان العربي يجيبهم ضاحكا هازئاً ان اضربوني في العضو الفلاني فلم يكن يتم كلامه حتى ينفذ السهم في الجزء الذي ذكره دون ان يخطئه ولكن النوبيين كانوا يفضلون ضرب اخصامهم في اعينهم ليفقأوها و يفقدوا ابصارهم و بصائرهم

وكانت نتيجة هذه الحرب العوان ان الدائرة دارت على السودانيين الذين لم يولوا الادبار ولم يقع واحد منهم اسيراً في ايدي الاعداء فقنع المسلمون من

(١) لقد بالغ ابن الكوفي في عدد الجيشين اذ قال ان المسلمين كانوا عشرين الفاً والسودانيين مائة الف مقاتل وهو قول بعيد عن الحقيقة وغرض الكاتب منه اظهار شجاعة العرب ومقدرتهم بقوله انهم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة من السودانيين

الغنيمة بالاياب فرجعوا الى حدود مصر وعسكروا فيها وكانوا على وشك الانصراف الى داخلية البلاد ولولا ان اهالي النوبة ارتكبوا متن الشطط والطيش وغاروا على جنوبي مصر والحقوا بها خسائر جسيمة وقد ساعدهم على ذلك موت عمر وانقسام العرب ووقوع شقاق داخلي في بلادهم انتهى بتنصيب عثمان على كرسي الخلافة واستدعاء عمرو بن العاص من مصر وتولية عبد الله بن سعد بدله فيها . فلو اتفق المصريون والسودانيون في هذه الفترة على طرد المسلمين من مصر لكان النجاح مضموناً لهم ولاعادوا الاستقلال والراحة لبلادهم . ولكنه كتب لهذين القطرين الشقاء الدائم والتعاسة العظمى فلم يقم فيهما وقتئذٍ رجال يدعون الى الاتحاد واعمى النحس اعين الفريقين عن فرصة اضاعوها فصارت لهم غصة تجرعوها وذاقوا من ورائها كل هول وويل . وماجاءت سنة ٦٥٣ حتى قدم عبد الله على مصر ومنها سار في جيش عرمرم الى السودان بقصد اخضاعه وهو يحرق الارم غيظاً من عناد هذه البلاد و يدس في قلبه كل مكر وغدر لاهليها

وقد وغل عبد الله وجيشه في السودان الى ان وصلوا دنقله (كانت هذه المدينة في القرن السابع على مسافة مئات من الاميال شمالي المدينة الحالية) وحاصرها واقام حولها المتاريس والمنجنيقات التي لم يرها السودانيون قبل الآن واخذ يرمي الحجارة على المدينة فاصابت بالصدفة كنيستها الكبرى فدمرتها وقوضت اركانها

فلما رأى النوبيون ان كنيستهم قد سقطت تشاءموا وقالوا انه لم يعدلهم

امل بالنجاح وحينئذ شرع ملكهم — واسمه كاليودرات على ما يظن — في المفاوضة بشأن الصلح الذي كان من ضمن شروطه ان العرب لا يعودون لمهاجمة النوبة فيما بعد وان يمدوها بالمساعدة اذا هاجمها عدو اجنبي . وفرض على اهالي النوبة في مقابل ذلك ان يسمحوا ببناء جامع في دنقله يصلي فيه المسلمون الذين يبغون الاقامة فيها وان لا يصيبهم ضرر ولا يحجر عليهم في ممارسة طقوس ديانتهم الاسلامية . وقد غالى العرب في شروطهم حتى حتموا على النوبيين المسيحيين ان يهتموا بنظافة الجامع وانارته وترميمه اذا لزم الحال وان لا يمنعوا مسلماً من استيطان اية بقعة في السودان الا العبيد والاسرى المتشردين فلا يجوز لهم ان يلجأوا الى دنقله ويقيموا فيها

ومن الشنع ما ورد في هذه المعاهدة شرط اوجد مبدأ تجارة الرقيق التي عمت الشرق من ذلك الحين وتجاوزت حد الخدمة البيتية الى حد الاسترقاق والاستعباد الذي اوجده المسلمون من ايام فتحهم للسودان اذ فرضوا ضريبة مقدارها ثلثمائة وستون عبداً ترسل من السودان لوالي اصوان الذي يبعث بها الى الامام الاكبر على شرط ان لا يكون بين هؤلاء العبيد كهل او كهلة او فتى دون سن البلوغ بل يكونون من احسن الناس قامة ومنظراً لا شين فيهم ولا هم يعابون . وفضلاً عن ذلك فان والي مصر كان يأخذ من السودان اربعين عبداً زيادة عن الثلثمائة والستين التي تقدم للخليفة . وكان والي مصر يرسل لملك السودان في مقابل هؤلاء الارقاء هدايا من الخمر والقمح والشعير والثياب الناعمة اللامعة ولكن الخمر بطل بعد ذلك بقليل لارتياب

الوالي في شأنه . ولما رأى المسلمون على توالي الايام فائدة هؤلاء العبيد شرعوا في جلب عدد كبير منهم من السودان غير الذين يدفعون للجزية ورفعوا امرهم الى القضاة الشرعيين المسلمين ليحكموا لهم بجواز هذه التجارة فقرر القضاة ان جميع الاسرى الذين اخذوا في الحروب التي قامت بين العرب والسودانيين وكل الاشخاص الذين يخصصون للرق في السودان يعتبرون مثل الابضعة والامتعة ويجوز فيهم البيع والشراء بكل انواعه

وقد ورد في اقوال المؤرخين المسلمين ان احد وجهاء السودان اهدى جامع عمرو الجديد الذي في الفسطاط منبراً حسن الصنع وانفذ نجاراً ماهراً اسمه بقطر من اهالي دندرة ليضعه في المكان المخصص له في الجامع المذكور

وكانت نتيجة اعمال عبدالله السالف ذكرها ان المصريين شعروا بالفرق الهائل بين حكمه وحكم عمرو عليهم فأخذوا في سنة ٦٥٧ يستعدون لثورة يسفكون فيها ما بقي فيهم من الدماء التي افسد تركيبها الذل والضيم بكل اصنافها . فأحس عبدالله بالامر ورأى الخطر يتهدده فترك مصر قاصداً بلاد العرب ليستمد رأي الخليفة عثمان في الذي ينبغي عمله . وما كاد عبدالله يبرح الاراضي المصرية حتى قام جماعة من خوارج العرب وأتمروا ضد الخليفة يطلبون نزعه من على كرسيه وعضدهم في ذلك مسلمو مصر حتى اوشك الثائرون ان يضعوا يدهم على جميع اطراف المملكة لولا ان عثمان وعدهم باجابة كل سؤال طلبوه منه خصوصاً استدعاء عبدالله من مصر وعزله عن

ولايتها وتعيين محمد بن ابي بكر بديلاً له · ولكن عثمان اظهر لاعدائه خيانة
لم ترضهم لانهم اكتشفوا مكيدة دبرها هي ان انفذ رسولاً الى مصر واوصاه
باغتيال حياة محمد عند وصوله اليها فهاج المسلمون ضد عثمان واشترك معهم
المصريون في هذا الثوران ولم تجيء سنة ٣٦ هجرية حتى هجم الثوار على
المدينة وقتلوا عثمان وبايعوا علي بن ابي طالب خليفة بدله · وقد ظلت مصر
طول هذه الفترة بدون والٍ الى ان صودق على تعيين محمد بن ابي بكر لها
سنة ٣٧ للهجرة

وما زال المسلمون بعد ذلك الحين منشقين منقسمين الى قسمين – احدهما
تحت رئاسة علي وهو يشتمل على بلاد الفرس والعرب ومصر والقسم الثاني
سوريا تحت زعامة معاوية بن ابي سفيان ووكيله عمرو بن العاص · وقد ظل
هذا الانقسام اربع سنوات كاملة الى ان حلت سنة ٤١ هجرية (٦٦٠
مسيحية) اذ قتل علي بن ابي طالب وابنه الحسين وخلع ابنه الاكبر الحسن
وحينئذٍ اصبح معاوية الخليفة الوحيد للمسلمين في العالم كله

الفصل الخامس والثلاثون

عبد العزيز

سنة ٦٦٠ للمسيح و٤٥٦ للشهداء و٤١ للهجرة

كان معاوية ابن ابي سفيان اول خليفة في الدولة الاموية التي دعيت

هكذا نسبة الى امية جد معاوية الاكبر · وقد سرَّ مصر قيام هذا الخليفة
لانه اعاد اليهم واليهم الذي كانوا يحترمونه ويخافونه اعني به عمرو بن العاص
ولكنه لم يلبث سوى سنة بعد عودته لمصر حتى مات وخلفه عتبة اخو معاوية
الاصغر وهذا مات ايضاً في ظرف سنة وعين غيره وعزل حالاً وبذلك
توالى على مصر ثلاثة من الولاة في بضع سنوات قليلة · وفي سنة ٦٦٤
(٤٥ هـ) تعين مسلمة بن مخلد والياً لمصر وظل فيها الى ان مات سنة ٦٨١
واعقبه سعيد بن يزيد تولى مصر مدة ثلاث سنوات فقط · وقد ذاقت مصر
في ايام مسلمة وسعيد نوعاً من الراحة والسلام بينما كان المسلمون في جميع انحاء
المسكونة في شقاق وخصام وحروب اهلية دعاهم اليها ميلهم الى الترأس والتعجرف

وقبل تنصيب معاوية بسنة مات البطريرك المصري بنيامين شيخاً وشبعان
من الايام بعد ان صرف هذا العمر الطويل المديد يشتغل بهمة لا يعتريها
الكلال وعزيمة امضى من حد الحسام الصقيل مشجعاً ابناءه مشدداً المرتخين
منهم الذين اضناهم الاضطهاد والعذاب مرمماً الاديرة التي عبثت بها
ايدي الفاتحين ونهبت كل ما فيها · واهم عمل اشتهر به هذا البطريرك سعيه
في اصلاح آداب شعبه التي كانت قد مالت الى الانحطاط بسبب الذل
والحيف اللذين يفقدان الشهامة والعزة من الامم كيفما كانت قوية منيعة ·
وقبل وفاته ارسل مطراناً جديداً الى بلاد الحبشة ومعه راهب اسمه تكلا
هيمانوت عرف بتقواه وقداسته لا زال الحبشان يكرمونه ويجلونه الى هذا
اليوم ويقولون انه اول من اوجد الرهبنة في بلادهم · وفي ذلك الحين شاد

البطريرك بنيامين كنيسة جديدة في صحراء وادي النطرون وكرسها باسم القديس مكاريوس (او هو ابا مقاره)

وجلس على كرسي البطريركية القبطية بعد بنيامين البطريرك اغاتو الذي نسج على منوال سلفه باتباعه المنهج القويم والخدمة الحقة . وقد كانت مدة رئاسته ثماني عشرة سنة تضايق فيها جداً من تصرفات رجل اسمه ثيودوسيوس من اتباع كنيسة الاروام في مصر اذ استمد هذا الرجل سلطة من الحاكم الاسلامي بها ضاعف مقدار الضريبة المفروضة على الكنيسة القبطية ثم غالى ثيودوسيوس في القحة والبذاءة فاصدر امراً يحتم على البطريرك القبطي بالانكماش في كنيسته وان لا يبرح صومعته فيها والا يحل رجمه بالاحجار وقتله وكان سبب ذلك البغض والحقد الكامنين في صدر هذا الروماني ضد اغاتو حتى انه عند ما توفي هذا البطريرك اسرع ثيودوسيوس الى البطريكخانة وارصد جميع ابوابها وختمها بالشمع بدون مسوغ شرعي وبدون قانون يخول له هذا التداخل المذموم . وكانت النتيجة ان حاشية البطريرك استاءت من هذه الوقاحة ورفعت دعواها الى حاكم مصر المسلم الذي نظر في الامر ورفع هذا الحيف الثقيل

وبعد مضي زمن قصير قصف الله عمر ثيودوسيوس الذي اخلف بعده عوامل العداوة والشقاق بين الاقباط والاروام مما اضر بالطائفتين ضرراً يتضح لك من الحكاية التالية وهي انه لما جلس يوحنا السمنودي على مسند البطريركية لم يحتفل بامير مصر الجديد ولم يرسل له الوفد المعتاد ارساله مزوداً بالهدايا

الثمينة والعطايا الكثيرة . وقد ذهب بعض المؤرخين ان هذا العمل لم يكن احتقاراً من يوحنا لوالي مصر بل ان البطريرك المذكور كان مشغولا بتدبير مهام رعيته وقطع دابر التفرقة والعداء من بينها فلم يهتم بامر الوالي ولا سمع بخبر قدومه مطلقاً . ولكن احد انسباء ثيودوسيوس انتهز هذه الفرصة ووشى بالبطريرك الى الحاكم المسلم وقال له انه رجل غني مثرٍ يجب ان تفرض عليه غرامة رابية جزاء لاهماله واغضائه

فأرسل امير مصر وهو سعيد بن يزيد الى البطريرك يطلب منه دفع مائة الف قطعة من الذهب غرامة وقصاصاً . فرد البطريرك عليه يقول انه فقير معدم لا يملك ولا مائة درهم وليس لديه سوى امتعة الكنيسة التي لا يستطيع التصرف فيها بل هو راض ان يبذل نفسه في سبيلها . فللحال قبض سعيد على هذا البطريرك البائس وعذبه عذاباً تنفر من ذكره الضواري لانه وضع قدميه في اناء من النحاس موضوعة على نار شديدة اللهيب اذابت شحم القدمين من قوة النار ولكن يوحنا لم يتحرك ولم يتزعزع ولا هو لفظ كلمة يؤخذ منها الاستغاثة والمعونة بل ظل واقفاً على الجمر كأنه واقف على وثير الفراش وناعم الرياش الى ان افرج عنه الامير لما بلغه ان امرأته اصيبت فجأة بمرض عضال ظنه هذا الظالم قصاصاً له على تعذيبه للبطريرك البريء الذي أخذ الى السجن والاغلال في عنقه والسلاسل في يديه وارجله ومكث فيه سجيناً الى ان تعهد الاقباط بدفع عشرة آلاف قطعة من الذهب فدية لبطريركهم الاسيف . قبل ان اليوم الذي اطلق فيه سراح يوحنا كان يوم

خميس العهد فسار هذا البطريرك من السجن الى الكنيسة تواً وأخذ يغسل اقدام الفقراء والشحاذين اقتداء بسيده ثم اتم الخدمة الكنائسية وتناول الاسرار المقدسة قبل ان يذهب الى بيته

ويحتمل انه في ايام هذا البطريرك او سلفه ان كنيسة مار مرقس في الاسكندرية صار تجديدها وترميمها وفي الغالب ان البطريركين اشتركا في اعادة رونقها وتقويم اودها · واذا استثنينا ما وقع للبطريرك يوحنا من العذاب والاضطهاد فالاقباط قضوا مدة وجيزة في نوع من الراحة والسلام ولكن مصر نفسها لم تسترح من المصائب والبلايا فانها اصابها جوع شديد ظل فيها ثلاث سنوات كاملة افقدها كل ثروة ولم يبق على شيء من منابع الغنى ووسائل المعيشة

وفي سنة ٦٨٣ (٦٤ هـ) مات الخليفة يزيد وخلفه ابنه معاوية الثاني الذي ملك ستة اسابيع فقط ومات وقام بعده اثنان يتنازعان الخلافة ويسعيان للحصول عليها وهما عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وهذا بويع الخلافة في دمشق وذاك في مكة ببلاد العرب · ولما استتبت الخلافة لابن الزبير عين عبد الرحمن بن جحدم واليًا على مصر التي كانت احسن المقاطعات واغنى الولايات في ايام المسلمين كما في زمن الرومانيين · وكانت ولاية عبد الرحمن على مصر بعد نفي الوالي الذي كان فيها من قبل الدولة الاموية ولم يكد هذا الوالي الجديد يستقر في ولايته حتى بلغه ان مروان سار على مصر ليأخذها لنفسه فاستعد عبد الرحمن للدفاع وحفر خندقًا عميقًا عند بابيلون وجيش جيشًا

جرارًا ليرد به هجمات العدو الذي وصل الى المطرية واشتبك الجيشان في معركة فاصلة عند عين شمس دارت فيها الدائرة على عبد الرحمن ففر هاربًا يطلب النجاة لنفسه

وحينئذ استولى مروان على الفسطاط واقام فيها ابنه عبد العزيز حاكمًا على مصر · وحدث في يوم دخول مروان الفسطاط ان ابن عمرو بن العاص مات في منزله بعد ان صرف حياته في داره فلم يبرحها مرة واحدة ولم يتداخل في الشؤون السياسية او الحربية مطلقًا · ولسوء الاحوال في ذلك الوقت لم يجسر احد على الاحتفال بجنازة ابن اكبر قائد في المسلمين بل دفنوه في حفرة تحت جدار منزله

أما مروان فترك مصر قاصدًا سوريا ولم تطأها قدماه حتى اصيب بالطاعون ومات فجأة * وبعد موته بقي الخصام والنزاع بين المتحفزين لمسند الخلافة مدة عشر سنوات وكان عبد العزيز حينئذ قاعدًا في ولاية مصر أخوه عبد الملك خليفة بدل أبيه بعد ان اخضعا مصر خضوعًا تامًا وصار عبد العزيز يجري فيها العدل المعروف عن اولئك الولاة وقلنا لك عنه في الذي سبق انه اشد واقسى من الظلم المريع ولكنه كان عدلاً بالنسبة لجور غيره وعسفه · انما هذا العدل كان بعيدًا عن الاقباط لان عبد العزيز كان يظن ان بطريركهم خصمه الوحيد وعدوه العنيد فزاد عليهم الضرائب والجزية ·

* (المترجم) قال مؤرخو المسلمين ان مروان بن الحكم مات مقتولاً اذ خنقته امرأته ام خالد بن يزيد بن معاوية

ولما مات البطريرك يوحنا اصدر عبد العزيز أمراً باتاً يقضي فيه على الاقباط بأن ينتخبوا بطريكهم الجديد في بابيلون التي أصبحت في ذلك العهد من ضواحي الفسطاط وكانوا قبلا ينتخبونه في الاسكندرية (١)

وقد وقع اختيار الاقباط على راهب من ديرابا مقاره اسمه ايساك (او اسحق) الذى بعد ان تم تعيينه جاءه وفد من احدى ممالك السودان يشرح له سوء الحالة في هاتيك البلاد ويقول له انه لم يبق عندهم من الاساقفة عدد يكفي للخدمة الدينية ويطلب تعيين من يلزم · ولكن ملك المملكة الشمالية المتاخمة لحدود مصر من جهة السودان كان مسيحياً بالاسم فقط ذلك لانه اتفق مع المسلمين على شن الغارات على الممالك الواقعة جنوبي مملكته وغرضه من هذه الحروب والمعارك الحصول على العبيد المخصصين للجزية السنوية · فعداء هذا الملك للمسيحيين ومحالفته لاعداء المسيحية جعل ايساك يخشى ارسال اساقفة للممالك الجنوبية خوفاً من اغتيال حياتهم بيد ذلك الغاشم النذل ·

فرأى البطريرك ان يكتب للملك المذكور يسأله الامان لهؤلاء الاساقفة وقد اظهر له في خطابه مقدار المسؤلية العظمى الملقاة على عاتقه من

(١) من ذلك الحين لغاية القرن الحادى عشر وبطاركة الاقباط ينتخبون في بابلون ولكن رسامتهم تتم في كنيسة الملائكة بالاسكندرية وكان البطريرك المنتخب يتعهدان يدفع من ايراده الرسمي المخصص له مبلغاً سنويا للقسوس الاسكندرية اعانة لهم على تعمير كنائس هذه المدينة وحفظها من الزوال

الله اذا هو سعى في تعطيل عمل الانجيل وتسبب في خراب الكنائس الجنوبية واضمحلالها · ولسنا نعرف الذي ورد في هذا المكتوب عن المسلمين وبأي عبارة اشار اليهم هذا البطريرك ولكننا نعرف ان اعداءه اوقعوا بينه وبين عبد العزيز قائلين انه يأتمر مع ملوك السودان لخلع النير الاسلامي عن اعناق المصريين فغضب امير مصر وقبض على ايساك وأمر بضرب عنقه ولكن بعضهم توسط في الامر ورجا عبد العزيز أن يؤجل تنفيذ الحكم حتى يسترجع الجواب وينظر في مضمونه · فانتهز احد مهرة الاقباط هذه الفترة وكتب خطابات قلد فيها خط ايساك بغاية الحذاقة وسطر فيها كلاماً بمعنى ما في الجواب السالف ولكنه اخلاها من كل لفظ يغيظ المسلمين ويغضبهم ثم قدموا هذه المكاتيب الى عبد العزيز قائلين انهم استردوها من الاماكن التي ارسلت اليها فعفى الوالي عن البطريرك بهذه الحيلة العجيبة وهي حيلة شريفة جائزة في مذهب العاقلين

وبعد مدة وجيزة ظهر في الفسطاط وباء مخيف ففرَّ الامير من وجهه قاصداً حلوان التي كانت يومئذ واقعة على شاطئ النيل فأقام فيها وغير معالمها حتى صارت مدينة زاهية زاهرة بما شاد فيها من الجوامع وما غرس من الاشجار الباسقة والازهار العطرة ثم أذن للمسيحيين أن يبنوا فيها كنيستين لكي بهما يتم رونقها لان كنائس هاتيك الايام — وهذه ايضاً — كانت من أحسن الابنية شكلاً وابهاها وضعاً وتنسيقا · اما ادوات المباني فجيء بها من ممفيس التي كانت واقعة تجاه حلوان وقد اصبحت وقتئذ خربة خالية

ليس فيها سوى الانقاض والاطلال · وفي أخريات ايام عبد العزيز بنى لنفسه صرحاً شاهقاً في الفسطاط وكان الرجل مغرماً بالبناء مولعاً بالعمائر حتى سماه كتاب العرب فرعون الثاني

وفي سنة ٦٨٨ تنيح البطريرك ايساك واعقبه يوحنا رئيس دير وادي النطرون الذي بعد انتخابه اخذه الاساقفة وجمهور من وجهاء الاقباط واعيانهم وجاؤا به الى عبد العزيز لكي يصادق على تعيينه ولكي يقدموا له واجب الاحترام والمجاملة والا فهم يقعون تحت طائلة الاضطهادات و يرزحون تحت عبء الضرائب والغرائم

وكان بين اتباع يوحنا راهب اسمه سيمون وُلِدَ في سوريا ولكنه تربى في دير وادي النطرون حيثما كانت له مكانة كبرى · وحدث ان أحد الاساقفة اذاع انه احق بمنصب البطريركية من سواه فألقى عبد العزيز بسمعه الى قوله واستنتج منه ان انتخاب يوحنا لم يكن باجماع الآراء ولذلك صار هذا الامير يهزأ بالاقباط و يعيرهم ويسألهم أن يختاروا بطريركاً لهم ذا اهلية وكفاءة · فقال له الاقباط الواقفون امامه ان اختيارهم وقع على هذا البطريرك وهم يسألون الله ان يدبر ما فيه صالحهم و يرجون الامير ان يعمل على راحتهم ويختار من يشاء · فمال عبد العزيز الى تعيين سيمون السوري الذي عارض وتمنع ولكنه اختاره الامير رغماً عنه ووضعه في مكان يوحنا الذي قبل العزل بكل فرح وابتهاج حباً في راحة رعيته وميلاً منه الى السلام والوئام · وكانت نتيجة هذا ان العواطف الحسنة والمحبة المتبادلة ملأت قلب سيمون كما افعمت

فؤاد يوحنا فعينه سيمون وكيلاً له متصرفاً وكان يهتدي برأيه ويسير على نصيحته مدة الثلاث سنوات التي عاشها يوحنا بعد تعيين سيمون

والكنيسة القبطية تعدُّ البطريرك سيمون من القديسين وتعزي اليه كثيراً من الآيات والعجائب تذهب الى انها تمت على يديه · وقد بقي هذا البطريرك يحافظ على نواميس الرهبنة كما لو كان موجوداً في ديره فلم يأكل لحماً كل أيام حياته · واشتهر سيمون بغيرته على اصلاح الديانة وتنقيتها من الخرافات والاوهام التي تطرقت اليها وامتزجت بها فشوهت محاسنها واضعفت نموها فعين لهذه المأمورية المهمة احد رؤساء الاديرة المصرية وهو يوحنا النيقاوي المعروف بسمو مبادئه وشهامته واتساع عقله فضلا عن انه كاتب ماهر ومؤرخ مدقق · ومن سوء الحظ ان تاريخ يوحنا ضاع برمته ولم نقف منه الا على ترجمة ممسوخة ملأى بالخطاء والاغلاط وهي التي ترجمها أسقف قبطي كان مقيماً ببلاد الحبشة وكتب عليها تاريخ الترجمة وهو يدلك على الاغلاط الكثيرة الموجودة فيها فقد قال انه ترجمها « سنة ٧٥٩٤ للخليقة و١٩٤٧ للاسكندر و١٥٩٤ للمسيح و١٣١٨ للشهداء و٩٨٠ للهجرة او ١٠٠١ قمرية » وسبب الخطأ في هذه الترجمة انها لم تؤخذ من اصل الكتاب الذي وضعه يوحنا بيده وكان مكتوباً بعضه باليونانية و بعضه بالقبطية ولكنها أخذت من اصل عربي موجز مختصر مقتضب يختلف كثيراً عن الاصل الذي كان يحتوي على حوادث مهمة ووقائع صادقة خصوصاً التي وقعت في العصر الذي وجد يوحنا فيه فانه اسهب في تفصيل اموره مع انه اوجز كثيراً

في غيره . اما بلدة نيقيوس موطن يوحنا (وقد ذكرناها قبلاً) فهي في
مركز منوف وتسمى باللغة المصرية القديمة ابشاتي وقد مسخ العرب هذا الاسم
ودعوها ابشادي وهو اسمها الى هذا اليوم ولكنها كانت في ذلك الزمن جزيرة
كبرى واقعة بين فرعي النيل تحتوي الآن على ابشادي المذكورة وعلى بلدة
أخرى اسمها زاوية رزين حيث لا تزال توجد آثار الهياكل التي شادها الفراعنة
واطلال المذابح والكنائس التي بناها المسيحيون في الاعصر الاولى وقد هدمتها
ايدي الحدثان وطوارق الزمان

ولا يعرف بالضبط كم من الزمن بقي يوحنا في وظيفة مصلح للعوائد
ومفتش للاديرة ولكن المعروف انه قاسى في سبيل هذا العمل متاعب ومشاق
يقاسيها كل من عرَّض نفسه للخدمة العمومية بغيرة واخلاص . والذي زاد
في شقائه ما أتاه مع راهب ثبتت عليه جريمة الزنى والفحش فجلده يوحنا
جلداً مزق جلده واورثه الآلام والاسقام حتى مات بعد عشرة ايام فهاج
الاكليروس هياجاً كاد يفضي الى ثورة شنعاء لولا ان الاساقفة تداركوا الامر
ورفعوا الى البطريرك شكواهم من قساوة يوحنا وغلاظته في تأديبه عامله فصدر
امر البطريرك بعزله من وظيفته وتجريده من مرتبة الاسقفية . وكان
يوحنا حينئذ قد بلغ من العمر اقصاه فلم يعش طويلاً بعد هذه الاساءة

وفي أيام هذا البطريرك ظهرت بين الاقباط بدعة جديدة هي الطلاق
الذي هو عبارة عن عدوى وصلت اليهم من المسلمين الذين كانوا يتنعمون
ويتلذذون بكثرة الزوجات وتعددهن ولذلك ارتأى بعض الاقباط ان

يضعوا قاعدة بها يحق لهم ان يطلقوا نساءهم متى شاؤوا . فقام الاساقفة ضد
هذه الفئة وحرموها وشجبوا افكارها ولكن اعضاء هذه الفئة رفعوا امرهم الى
عبد العزيز والي مصر المسلم الذي لم يحقق آمالهم وينفذ لهم غاياتهم السافلة
بل استدعى كل اساقفة مصر على اختلاف مذاهبهم واجناسهم وطلب منهم
تشكيل مجمع ديني ينظر في الامر ويبت فيه حكماً نهائياً

فاحتشد في هذا المجمع اربعة وستين اسقفاً اكثرهم من الاقباط وفيهم
من الكنيسة الملكية والخلكيدونية وغيرهم وذلك سنة ٦٩٥ في بابيلون وبدأوا
يتناقشون في الموضوع بروح خالية من العداء وبعيدة عن كل نفور وشقاق
وقبل ان ينفض المجمع جلساته جاءت الانباء المحزنة من القسطنطينية فكان
لها وقع سيء في حال الكنيسة القبطية . ذلك انه حدثت ثورة في القسطنطينية
انتهت بخلع الامبراطور يوستنيانوس وتنصيب قائد مقدام اسمه ليونديوس مكانه
فلما سمع والي مصر المسلم بما تقدم ظن ان السلطة الرومانية اخذت في الانحطاط
والهبوط ولذلك لم يعبأ بمجاملة الكنائس المصرية ومهادنتها بل شن عليها
غارات الاضطهاد وسعى في مضايقة الاقباط ونهب اموالهم وسلب مقتنياتهم
وكان البطريرك في مثل هذه الاحوال هدفاً للمصائب والرزائل ولذا وقع
سيمون تحت طائلة سخط الوالي وزجره لامر لم يكن له دخل فيه كما يتضح
لك هذا من الحكاية التالية

ذلك ان كاهناً جاء من بلاد الهند يلتمس من البطريرك سيمون تعيين
اسقفاً لهاتيك البلاد وارساله لها معه . فقال البطريرك للكاهن الهندي انه لا

بدّ له من الحصول على تصريح من حاكم مصر قبل اجابة طلبه هـذا . وفي اثناء ذلك بلغ الاسقف الروماني تاودروس ما جرى بين سيمون والكاهن الهندي فاعتبر حرص سيمون وخوفه من المسلمين ضرباً من الجبن فلذلك وليله الى توسيع نطاق كنيسته استمال اليه القس الهندي فرسم له اسقفاً من ملته وارسله مع قسين آخرين الى بلاد الهند . وبعد ان قطع هؤلاء الجماعة مسيرة عشرين يوماً قبض عليهم المسلمون بحجة انهم جواسيس واحضروهم امام الخليفة عبد الملك الذي كان في دمشق الا الكاهن الهندي فانه اركن الى الفرار فلم يقفوا له على اثر . وقد اعتقد عبد الملك ان هؤلاء القسوس انما هم وفد مرسل من قبل مسيحيي مصر الى المسيحيين في الهند ليتفقوا معاً على خلع نير المسلمين وتقويض سلطتهم فلذلك حكم على اولئك الكهنة المساكين بقطع ايديهم واقدامهم ثم اعادهم الى مصر بجواب لوم وتوبيخ الى اخيه عبد العزيز لانه سمح لمثل هؤلاء الجواسيس بالخروج من مصر ليأتمروا ضد الحكومة الاسلامية ثم اوصاه ان يضرب البطريرك القبطي مائتي جلدة لتجاسره على ارسال اولئك الكهنة بدون اذن وان يدفع فوق ذلك غرامة رابية

فاحتج سيمون ضد هذا الظلم البين وحاول اثبات براءته فلم ينجح ولكن عبد العزيز امهله ثلاثة ايام فيها يأتي بالكاهن الهندي ليسمع اقواله في هذا الموضوع . فلما عرف هذا القس الهام بحرج الموقف الذي وصل اليه البطريرك القبطي جاء مصر مسرعاً ليقول الحقيقة بكل صراحة وجرأة وكانت النتيجة ان صدر العفو عن سيمون وطرح هذا القس الهندي في السجن اما تاودروس

الملق . وقد ذكر مؤرخو الاقباط ان المسلمين بذلوا ما في وسعهم ليدسوا السم للبطريرك سيمون فنجحوا ومات هذا الحبر مسموماً بعد ان جلس على الكرسي البطريركي اربعة عشر عاماً . وبعد موته لم يتجاسر الاساقفة على انتخاب خلف له بل عهدوا الى غريغوريوس اسقف القيس (بمركز بني مزار بمديرية المنيا) بادارة اعمال الكنيسة لغاية سنة ٧٠٣ (٨٤ هـ) اذ انتخبوا اسكندر الثاني وهو من رهبان وادي النطرون . وفي ايام هذا البطريرك آلت حكومة مصر الى عصبة بن عبد العزيز الذي استعمل قوّته ومواهبه في مضايقة الاقباط واضطهادهم وساعده على ذلك نذل دهان اسمه بنيامين كان قبلاً شماساً في الكنيسة ثم ارتدَّ عن الايمان واعتنق الديانة الاسلامية وصار صديقاً حميماً لعصبة وعلَّمه كيف يضغط على الاقباط ويقلل عددهم ويفني جموعهم . فأوّل شرّ بدأ به عصبة انه فرض ضريبة على جميع الرهبان في مصر وامر باحصائهم ثم اصدر قراراً مفاده انه لا يدخل احد في دائرة الرهبنة الا باذن من الوالي . وقد زاد في طنبور الظلم نغمة انه ضرب جزية رابية على الاساقفة مقدارها الفا قطعة من الذهب الوهاج

ولكن يد الله القوية لم تترك عصبة يتمادى في ظلمه وطغيانه فانه تبارك اسمه ضربه ضربة شديدة ظهرت آثارها للعالمين . ذلك ان هذا الوالي الغاشم دخل كنيسة في حلوان اثناء وجود الاسقف فيها فحانت منه التفاتة الى صورة مرسومة عليها السيدة العذراء وابنها . فسأل الاسقف عنها فشرح له فحواها فحينئذ بصق هذا الوغد على الصورة واقسم ايماناً مغلظة انه عند

ما يتم له امر الولاية على مصر فهو يلاشي الديانة المسيحية منها ويطمس معالمها
فلما رجع الى منزله ونام رأى حلماً مريعاً قصه في اليوم التالي على ابيه عبد
العزيز ولم يكد يتم حكاية حلمه حتى ابتلاه الله بحمى قتالة لم تمهله سوى
سويعات قليلة ذاق فيها مرّ العذاب ثم اخمد الله انفاسه وسارت روحه الى
حيث أُعدّ له مكان يناسب اعماله وتصرفاته . وقد أثر موته في ابيه فلحق
به بعد ان تولى مصر مدة عشرين سنة استراحت فيها مصر من بلايا
الحروب والثورات وتمت فيها بعض الاعمال اللازمة للري مثل حفر الترع
وانشاء الجسور التي لم تكن البلاد في غنى عنها لجمع الضرائب الفادحة
المفروضة عليها

الفصل السادس والثلاثون

« ظلم ولاة مصر وجورهم »

(سنة ٧٠٥ للمسيح و ٤٢١ للشهداء و ٨٦ للهجرة)

لما مات عبد العزيز حكم مصر عبد الله بن الخليفة عبد الملك بن
مروان وكانت مدة حكمه ويلاً وشؤماً على الاقباط الذين كانوا ينتظرون
العدل والانصاف من هذا الحاكم الجديد فساء ظنهم ووقعوا تحت جور
يهول وبغي شرحه يطول . من ذلك ان عبد الله سلك في طريق الطغيان
مسلكاً عجز عنه نيرون المشهور بظلمه فان عبد الله كان اذا جلس على مائدة

الطعام لا يستقرّ الاكل في جوفه الا اذا قطع رأس قبطي في اثناء الغذاء
فيسرّ برؤية الدماء تسيل من الاجسام وكانت له عبارة عن احسن انواع
الادام . وقد خطر على بال البطريرك اسكندر ان يدفع عن نفسه بعض
الشرّ فذهب لزيارة عبد الله عندما جلس على كرسي الولاية وقدّم له
انواع الخضوع والتحية الناتجة عن ذل وصغار لا تزال آثارها بادية الى الآن
فلم يكن نصيب هذا البطريرك البائس من المجاملة والطاعة الا طرحه في
السجن وطلب فدية له مقدارها ثلاثة آلاف قطعة من الذهب . ولا يخفى
ان حكام مصر المسلمين كانوا على جانب عظيم من الجهل فهم استخدموا
الاقباط في ادارة اعمال الحكومة وتدبير مهامها مع شدة بغضهم لهم ولم
يستغنوا عنهم حتى في المعية التي لم يكن فيها غير الاقباط الذين توسلوا الى
الامير لكي يخفض قيمة الغرامة المفروضة على البطريرك فلم يفلحوا ولكنهم
افرجوا عنه بضمانة شماس وجيه اسمه جرجس تعهد باستحضار الدراهم المطلوبة
بعد مضي شهرين . فلم يكن لدى هذا البطريرك المسكين سوى الاستعطاء
والتسوّل والشحاذة فجال في الوجه البحري يتكفف ويلتمس الدرهم والدينار
الى ان جمع له شعبه المبلغ المطلوب منه مما اتخذه عبد الله دليلاً على حسن
حال الاقباط واثرائهم فزاد الضريبة السنوية المفروضة عليهم ثلاثة اضعاف
وكان ذلك بدء اضطهاد شديد ذاق منه الاقباط عذاباً تصطك منه الركب
وتشيب لهوله اللمم فاضطرّ كثيرون منهم الى اعتناق الدين الاسلامي رغماً
عنهم على ان معظم الاقباط رضوا بالموت واستسهلوه في سبيل ايمانهم فماتوا

شهداء ولكن حكومة المسلمين لم تكن تسمح بدفن جثثهم الا اذا دفع اهلوهم اتاوة من الدراهم لهذا الغرض · ولم يقف البلاء عند هذا الحد بل ان اناساً كثيرين هجروا مصر تبكي ابناءها وقصدوا الامصار الاخرى وغيرهم مات من الجوع والتعب وكذلك هدمت الكنائس وتعطلت اماكن العبادة جوراً وعدواناً

وبعد هذا مد الله يده فاختطف روح عبد الله فخلفه قرة بن شريك وكان من طينة سلفه في العسف والجور فضيق الخناق على الاقباط واضطهدهم اضطهاداً مراً وطلب من البطريرك اسكندر ان يدفع له الغرامة التي دفعها لعبد الله وهي ثلاثة آلاف قطعة من الذهب فاعتذر اسكندر بضيق ذات يده وانه جمع المبلغ الاول بالتكفف والتسول وقد يصعب عليه جمعه الآن فلم يقبل هذا الجبار عذره وألحّ بطلب المبلغ والحصول عليه هذه المرة من الوجه القبلي · فسار اسكندر الى الصعيد يصحبه أمين صندوقه وكاتم اسراره فكان الشعب يقابله بالتهليل والترحيب ويعطونه ما تجود به اريحيتهم الى ان وصل مصر العليا فترك رفيقيه يجمعان المال وسار الى السودان

وحدث ان ناسكاً في الصعيد طلب من تلميذين له ان يبنيا لاجله صومعة في مكان غير المكان الذي كان يقيم فيه · فلما حفر هذان الراهبان جدار المنسك عثرا على كنز يحتوي على خمسة صناديق مملوءة من العملة اليونانية القديمة · فأوقع الشيطان — او اذا شئت الذهب — هذين التلميذين الزاهدين في تجربة عدم الامانة فانهما اتفقا ان يخبئا صندوقاً ويعطيا رئيسهما

الاربعة · فلما اخذ الناسك هذا الكنز قال انه هبة من الله ارسلها في الوقت الذي فيه الكنيسة معسرة محتاجة وحينئذ امر بارسال هذه الذخيرة الى البطريرك الذي لم يكن قد آب من الجنوب فسلمها الى امين صندوقه وكاتم سره فلم يؤتمنا عليها بل اخفياها عن البطريرك واخذاها لهما · فعندما رأي الوالي المسلم ان مظاهر حياة هذين الرجلين قد تغيرت وانهما يسرفان ويبذخان اكثر من ذي قبل اشتبه في امرهما خصوصاً وانه وجد معهما كثيراً من هذه النقود اليونانية فقبض على احدهما وعذبه طويلاً حتى اعترف بما اقترف ودل على المكان الذي اخفى فيه هذه الصناديق الاربعة

فهذا الكنز الوافر الذي كان ينتظر ان يفيد البطريرك في ضيقه زاد في تعذيبه والتشديد عليه لان قرة لم يصدق بحكاية هذه الذخيرة التي وجدها الراهبان واخفاها زميلا البطريرك بل شن الغارة على الكنيسة الكبرى والبطريكخانة في الاسكندرية باحثاً منقباً عن الكنوز واللقايا التي ظن ان البطريرك يملك كثيراً منها ثم القى القبض على اسكندر ووضع الاغلال في عنقه ولامه لانه اقسم بانه فقير لا يمتلك شيئاً وأوشك ان يورده حتفه لولا ان البطريرك المسكين وعده بالحصول عن اموال طائلة وظل سنتين كاملتين يسعى ويجد ويستعطي حتى جمع له المبلغ الاصلي المطلوب منه · فقويت الشبهة في نفس قرة وتصور انه يوجد في البطريكخانة معمل لسك النقود التي لم يكن العرب يعرفون شيئاً عنها الا في ايام الخليفة عبد الملك · فأرسل هذا الوالي الغاشم شرذمة من الجنود تبحث في منزل البطريرك ومع انهم لم

يجدوا فلساً واحداً فيه ولكن طبعهم الفظ وقلبهم القاسي لم يسمح لهم بالخروج من البطريكخانة دون ان يرتكبوا القسوة والخشونة فصاروا يجلدون البطريرك بالسياط حتى سال الدم من جسمه متدفقاً وتركوه بين حي وميت واخذوا جميع اواني الكنائس فلما جاء عيد الفصح مارس البطريرك فريضة العشاء الرباني في كأس من الزجاج وصينية من الخشب · ولم يرَ الاقباط راحة وهناء الا لما عينت الحكومة قبطياً يجمع منهم الضرائب الثقيلة المضروبة عليهم وبذا استراح اسكندر هنيهة وشرع في افتقاد حالة شعبه والجولان بينهم معزياً مؤاسياً ·

وقبل ان يكف قرة عن الاضطهاد والظلم وجد الوفاء من الاقباط يهجرون وطنهم العزيز فراراً من الجور الثقيل فعين احد الضباط لمنع المهاجرة وقتل كل من شرع فيها · وفي هذا الزمن دهم مصر طاعون مهلك ضاعف شقاءها ومصابها ولكنه رفع عنها الابرطاعون لانه اصاب قرة فأدمى فؤاده وقصف عمره والذي جاء بعد قرة لم يمكث سوى ثلاثة شهور فقط خربت فيها اكثر كنائس الاسكندرية لان المسلمين هدموها واخذوا حجارة المرمر والرخام وباقي انواع الزينة والزخرف التي كانت فيها ووضعوها في جوامعهم التي كانت لا تبنى الا بهدم الكنائس القبطية وتقويض اركانها بعد تقويض اركان الامة القبطية التعيسة التي سارت في ذلك العهد الى الفناء من كثرة الظلم والاضطهاد(١)

(١) يذهب اكثر السائحين في ايامنا هذه الى ان الاقباط في الاعصر الاولى كانوا يسرقون اعمدة الهياكل الوثنية ويضعونها في كنائسهم · وهذا الزعم

وقد تولى على مصر عصامة بن يزيد الذي اضطهد الاقباط اضطهاداً اكثر قسوة واشد وقعاً مما سبقه خصوصاً وانه زاد الضريبة المفروضة على الرهبان واخترع لهم طريقة جديدة بها يتأكد من دفع الجزية الرابية · ذلك انه امر باعطاء كل راهب يدفع الاتاوة قطعة من الحديد يكتب عليها اسم ديره والسنة التي دفع فيها الجزية ويلبسها على يده اليمنى سواء في الدير أو خارجه وكل من يخلع هذه النمرة يكون جزاءه الموت اما بقطع رأسه او بجلده بالسياط جلداً مميتاً · وقد غالى هذا الوالي في تعذيب الاقباط فكان يجدع انوفهم ويقلع اعينهم ويصلم آذانهم ويقطع ايديهم ويجز أرجلهم ويبتر اي عضو من اعضائهم ثم يميتهم ويضم ممتلكاتهم الى ماله الخاص دون ان يرتكبوا ذنباً او يشرعوا في خيانة بل لانهم كانوا متمسكين بدينهم حريصين على ايمانهم الذي اوجد لهم عذاباً واضطهاداً بل موتاً احتملوه فرحين مسرورين · وقد كثر المهاجرون من الاقباط رغماً عن منعهم وتهديدهم بالموت اذا هم تركوا بلادهم كما اشرنا قبلاً فأصدر عصامة امراً يحتم على كل قبطي بأخذ جواز للسفر

فاسد لا اساس له لان المسيحيين المصريين في القرون الاولى كانوا لا يستعملون شيئاً مما خص بالاصنام حتى انهم كانوا اذا اجبرتهم الضرورة على بناء كنيسة داخل اسوار هيكل خرب فهم كانوا يطمسون الكتابة المصرية القديمة بالجير ويأتون باعمدة يصنعونها بأيديهم ويقيمونها في مكان بعيد عن مكان اعمدة الوثن · وفي هذا القرن فقط اهدى احد المديرين اعمدة قديمة وضعت في كنيسة قبطية حديثة بناها اقباط الاقصر وهذا كل الذي عرف عن هذه الاعمدة القديمة

(باسبورت) قبل مبارحة مصر او حتى اذا انتقل من بلد الى آخر داخلها وان يدفع مقابل ذلك عشرة دنانير (او ٦٠٠ غرش صاغ) ومن خالف هذا القرار تبتر يداه الاثنتان . وحدث ان ارملة فقيرة حفها ظلم الظالمين قصدت الفرار من هذه الديار مع ابن لها وحيد فباعت كل ما تمتلكه واشترت جوازين لها ولابنها واعطتهما له ليحفظهما معه . ففي صباح يوم مشوم اقترب الغلام من شاطىء النيل يستقي ماء فهجم عليه تمساح كان في الماء وابتلع الصبي على مرأى من والدته التي انفطر قلبها حزناً على وحيدها وذاب كبدها هماً على فلذة فؤادها خصوصاً وانها في بلاد غريبة ليس من يرق لها او يرثي لحالها وقد أصبحت ثكلى تندب ابنها ومعدمة تأكل الثرى وتفترش التراب لانها اضطرت ان تبيع ملابسها وتتسوّل باقي الدراهم ليس لتسد رمق الجوع الذي اضناها بل لتشتري لها جوازاً بدل الذي ضاع مع ابنها والا اضاعت حياتها التي لم يبق لها غيرها

واسبب هذه المظالم الباهظة والمغارم الثقيلة والبغي الوخيم أخذت مصر تتأهب لثورة ضد المسلمين لولا ان مات الخليفة سليمان بن عبد الملك اخو الوليد وخلفه ابن عمه عمر بن عبد العزيز الذي افتتح اعماله بانه سجن والي مصر الظالم واماته في السجن اشنع ميتة وكان ذلك سنة ٧١٧ (٩٩هـ) وعين بدله ايوب بن شرحبيل فوقف سير الاضطهاد مدة خلافة عمر التي كانت سنتين فقط اذ مات وبويع بعده يزيد بن عبد الملك الذي عزل ايوب وولى بدله بشر بن صفوان وأمره ان يخير اقباط مصر وجميع ساكنيها بين امرين

وهما اما ان يعتنقوا الديانة الاسلامية واما يتركوا البلاد وكل ما يمتلكونه فيها . فعد الاقباط الشرط الثاني مرحمة وعدلاً لانه سمح لهم بالهرب من وجه الظلم بعد ذلك التضييق الذي شرحناه قبلاً فهجر الوطن كثيرون منهم حتى اصفرت مديريات برمتها وخلت من السكان فانتهز المسلمون هذه الفرصة وصبوا قسوتهم على الكنائس فهدموا اكثرها ولكنهم ابقوا على بعضها فأزالوا منها الصور والصلبان وغيروا باقي معالمها وصيروها جوامع ومساجد لهم . وهكذا تعاقب على مصر ولاة يعوزنا الوقت لذكر اسمائهم واعمالهم التي تنحصر في شيء واحد وهو تعذيب الاقباط واضطهادهم وسلب اموالهم وهتك اعراضهم وقتل الاجسام والارواح منهم وظل هؤلاء الولاة في قسوتهم ووحشيتهم الى ان تولى مصر الحسن بن يوسف ومعه غر اسمه عبيد الله عين لجمع الضرائب فزاد هذان الاثنان في كأس الظلم مرارة حتى طفح ولم يبق في قوس الصبر منزع فقام الاقباط يدافعون عن حريتهم وأرواحهم ولكنهم لم يفلحوا لانهم كانوا يقاتلون رجالا لم يتعلموا شيئاً في حياتهم غير القتال وسفك الدماء . وقد بدأت هذه الثورة سنة ٧٢٥ في جهة مديرية الشرقية ولم يقف الاقباط طويلاً في وجه اعدائهم لعدم دربتهم وضعف سواعدهم فدارت الدائرة عليهم ولكنهم لم يفروا من وجه اعدائهم بل وقفوا جامدين في اماكنهم حتى ذبحهم المسلمون عن آخرهم ولم يستبقوا واحداً منهم كما شهد مؤرخو العرب بذلك وقالوا ان المسلمين قتلوا خلقاً لا يحصى من الاقباط في هذه الواقعة

وبعد ان أطفئت جذوة الثورة استدعى والي مصر البطريرك القبطي

اسكندر الذي علم نتيجة هذه الدعوة ففر مع حامول اسقف اوسيم (بمديرية الجيزة) فلم يصلا الى بلدة مربوط حتى اصاب البطريرك مرض عضال اراحه من عذاب الاضطهاد واخذ حياته الى الاحضان السموية فبكاه الاقباط وحزنت عليه رعيته حزناً مفرطاً . وكان مرض البطريرك سبباً في اعاقة اسقف اوسيم عن الهرب فقبض عليه اعوان الوالي وجاؤا به امامه فطلب منه الف قطعة من الفضة فداء عن نفسه ولما لم يقدر الاسقف على دفع هذا المبلغ الهائل جلده المسلمون في شوارع الفسطاط وبابليون وصاروا يطوفون به الازقة والطرقات وهم يضربونه ويصفعونه حتى وصلوا الى كنيسة مارجرجس بمصر القديمة حيث ربطوه على بابها وصاروا يجلدونه بالسياط والمقارع حتى اشرف على الموت فجمع له الاقباط ٣٠٠ قطعة من الذهب وخلصوا حياته

وقد استلفتت الثورة السالفة الذكر انظار الخليفة الى مجرى الامور في مصر فعزل الوالي المذكور فاستراح الاقباط برهة من الاضطهاد مدة رئاسة البطريرك قزمان (أو قزما) الذي جاء بعد اسكندر ولكنهم لم يستريحوا من الضيق والظلم وجميع اصناف المغارم . وفي هذه الاثناء تحصل الاقباط على اذن به بنوا كنيسة مار مينا بمصر القديمة فغضب المسلمون وحنقوا بسبب ذلك ولم يرضهم اعفاء الاقباط من الاضطهاد فابتلى الله مصر بضربتين اسكتتا هؤلاء الناقمين وهما الجوع والوباء اللذان افنيا من سكان مصر الوفاً وعشرات الالوف . ثم اعقبت ذلك ضربة ثالثة هي جماعة من العرب هاجروا الى مصر بلغ عددهم نيفاً وثلاثين الفاً أحلهم الوالي على الرحب والسعة في الجبل الواقع

عند الفسطاط واذن لهم بنهب البلاد وسلب ما تصل اليه ايديهم الطامعة الخاطفة . وبعد هنيهة مات هذا الوالي واسمه عبد الرحمن بن خالد (وبعضهم يذهب الى ان الخليفة هشام بن عبد الملك عزله عزلاً) وولي بدله حنظلة ابن صفوان وهذه ثاني ولاية له على مصر . وكان الرجل كاسمه قاسياً ظالماً مضطهداً للاقباط فضاعف الضرائب المفروضة عليهم ثم وسم كل قبطي بميسم من نار كما تكوى الحيوانات علامة لها

وفي هذا الاوان توفي البطريرك تاودروس الذي اعقب البطريرك قزمان فلم ينتخب الاقباط غيره لداعي الشقاق الذي وقع بين اكليروس الاسكندرية وباقي القسوس في القطر المصري

وكانت الكنيسة الرومانية حينئذٍ لتوهم ان خليفة المسلمين ميال لجانبها فسعى رجالها في استرجاع بعض ما فقدوه من السلطة ووضع اليد على ايراد الكنيسة القبطية الذي كانوا يأخذونه قبل ان تدول دولتهم ويهرب بطريركهم بطرس منذ ستين سنة مضت قبل هذا التاريخ الذي نحن في صدده . وليس بعد انحطاط هذه الافكار انحطاط سوى ان يكون تقهقر هذه الكنيسة وتدهورها كما شهد بذلك مؤرخو الرومانيين انفسهم الذين قالوا بصريح العبارة انهم بحثوا وفتشوا على رجل يعينونه بطريركاً لهم فلم يجدوا اليق من خياط اسمه قزما لا يدري القراءة ولا الكتابة . فلما تمت رسامة هذا البطريرك الأمي ارسل وفداً الى الخليفة هشام ليبث له شكواه من الاقباط الذين اعتدوا على كنيسته على زعمه في زمن الفتح الاسلامي ولقبوا انفسهم بالكنيسة الوطنية وهو لقب لا يحل لهم في

في مذهب هذا البطريرك الغافل · وليس يخفى على القارئ ان الخسارة التي لحقت بالكنيسة الرومانية كان منشاءها فرار بطريركهم بطرس ولكن هؤلاء الاروام ادعوا زوراً ان البطريرك بنيامين الذي شهد الفتح العربي وخلفاءه من بعده قد جردوهم من ايراداتهم ومقتنياتهم ووطنيتهم واولويتهم ولذلك طلبوا من الخليفة اعادة جميع هذه الحقوق لهم · فصادف هذا الطلب قبولاً في نفس الخليفة الذي كان يترقب الفرص للتداخل في شؤون مصر الداخلية وسرّ لانه وجد في مصر طائفة من المسيحيين يمكنه ان يحارب بها تلك القوة المسيحية الكبرى اعني بهم الاقباط الذين عصوا عليه قبلاً وصادق بطريركهم على ذلك العصيان · فاكرم هشام مثوى قزما الروماني واصدر امره لوالي مصر بوضع جميع الكنائس في القطر المصري وكل متعلقاتها في قبضة هذا البطريرك الجاهل · فلم يستطع الوالي تنفيذ هذه الاوامر الجائرة حرفياً ولكنه اخذ اكثر الكنائس المهمة عنوة واقتداراً من ايدي الاقباط واعطاها لثالة الاروام في مصر ومن ضمنها الكنيسة القيصرية الكبرى وكنيسة الملائكة في الاسكندرية التي كان قد بناها الاقباط لما اخرجهم الامبراطورة الرومانيون من القيصرية في ابان مجدهم ووقت عتوهم وضغطهم · وقد بقي الكرسي القبطي مدة من الزمن بدون بطريرك لان الوالي المسلم لم يمنح الاقباط رخصة بتعيين بطريرك لهم الا اذا دفعوا له مبلغاً وافراً من المال لم يكن في طوقهم دفعه

وفي هذه الفترة بلغ ظلم حنظلة وعتوه مبلغاً لا تطيق الانفس مرارته فعزله الخليفة هشام من مصر وولاه امرة افريقية واقام بدله حفص بن الوليد

الذي اذن بالتئام اساقفة الاقباط في بابيلون لانتخاب بطريرك لهم · وكان الخلاف بين اكليروس الاسكندرية واساقفة مصر لا يزال مستحكماً فلم يقر رأيهم على انتخاب شخص معلوم ولذلك رفعوا الامر الى موسى اسقف اوسيم الذي كان محترماً بين قومه موقراً عند رعيته وقد منعه مرضه وكبر سنه عن الحضور الى بابيلون لفض هذا المشكل فاحضره الشعب بطريقة نعرفها من الفصل التالي

الفصل السابع والثلاثون

عصيان الاقباط

وسقوط الدولة الاموية

سنة ٧٤٣ للمسيح و٤٥٩ للشهداء و١٢٤ للهجرة

اشتهرت بلدة اوسيم عدة قرون بكثرة كنائسها ومتانة مركزها الديني ولكن اخنى عليها الفتح الاسلامي كما اخنى على كثير غيرها من المدن المسيحية فمد رواق ظلمته عليها واطفى نورها الوضاح فاصبحت هذه المدينة الشهيرة في اوائل القرن التاسع عشر قرية حقيرة لا يذكرها الذاكرون ولا يعرف موقعها احد من الباحثين المجتهدين حتى ظنها بعض المؤرخين قد تلاشت واضمحلت مع انها لا تزال قائمة الى الآن على مسيرة ساعتين من كوبري امبابه المعروف شاهده على ما كان لها من المجد والسؤدد سواء في ايام الوثنية قديماً حيثما كان

فيها هيكلان عظيمان للاوثان احدهما في شمالها والاخر في وسطها او في عصر
المسيحية اذ امر الامبراطور قسطنطين بهدم هذين الهيكلين وتشييد كنائس
في موضعها . وقد قال احد الكتاب انه مضى على اوسيم زمن كان فيها نحو
ثلثمائة سنة وستين كنيسة مما يدل على انها كانت مقراً لعلماء اللاهوت
ومهبطاً للمباحث الدينية النافعة مدة من الزمن . ولا يظن القارئ ان في عدد
الكنائس هذه شيئاً من المبالغة والغلو لان المؤرخ المذكور ربما يقصد بالكنيسة
المذبح وكانت الكنيسة تحتوي على ثلاثة مذابح كما هو الحال الان فلا يبعد
وجود هذا العدد من المذابح والمعابد في مدينة كانت شهرتها عظيمة فائقة على
مثلما اسلفنا . والذى يزور اوسيم الان و يجيل طرفه في انحائها يرى آثاراً
دارسة واطلالاً بالية لكنائس مسيحية وهياكل وثنية كانت فيها في قديم
الزمان . الا ان الكنيسة القبطية الموجودة فيها الان حديثة العهد مثل
اكثر الكنائس القبطية في القطر المصري التي بناها الاقباط في عهد الاحتلال
الانكليزي دون ان يلاقوا عناء و بلاء في بناءها كما ذاقوا قبل زمن الاحتلال .
وبجوار هذه البلدة توجد رابية مرتفعة يعلوها سور قديم متهدم هو جامع
للمسلمين الان وكان هذا السور قبلاً محيطاً بكنيسة قبطية قديمة لا تزال
اعمدتها الحجرية قائمة وفوقها قوائم ورؤوس من الحجر المنحوت المحدب يصلها
بعضها ببعض . وخارج هذا السور قطعة حجر كبيرة كانت في الجدار حفر
فيها صليب مجوف كبير تراه العين على بعد . واذا ذهبت الى هنالك واجلت
طرفك هنيهة لرأيت هذا كله ولنظرت ايضاً اساساً قديماً نقش على حجارته

ات وصور من اللغة الهيروغليفية القديمة مما يدلك على ان هذا المكان كان
هيكلا وثنياً فصار كنيسة مسيحية وصار جامعاً اسلامياً كما ذكرنا . وقد كان
على مقربة من اوسيم دير زاهر بناه تاجر سوداني سكن هذه البلدة قبل حكم
ديوكلتيانوس الظالم باربعين سنة . وقد ظل هذا الدير عامراً مدة الف سنة
او تزيد الى ان اخربته يد الظلم والجور

في ايام الخليفة هشام كانت اوسيم في اوج مجدها وعظمتها وقد زادها
شهرة اسقفها موسى الذي اشتهر بتقواه وعلمه . قلنا ان هذا الاسقف المفضال
كان مريضاً عند ما جاءه وفد من بابيلون يستشيره في مسألة انتخاب البطريرك
لم يقدر موسى على الذهاب الى بابيلون لضعفه ووهنه فحمله الرجال على نقالة
من الخشب فوقها مرتبة من القش وساروا به وسط الحقول الخضراء والرياض
الغناء حتى وصلوا به الى كنيسة المعلقة حيثما التأم الاساقفة لاختيار بطريرك
لهم . ويظهر ان الخلاف الذي طرأ بين الاكليروس كان سببه ان الحزب
الاسكندري رشح شخصاً لم تقبله البلاد برمتها وكذلك الاسكندريون لم
يرضوا بالذي اختاره باقي اخوانهم المصريين فهاجوا وماجوا وما سمعوا نصيحة
موسى فقام هذا الاسقف الموقر واقفاً على قدميه وامسك عكازه بيده وطرد
هؤلاء الجماعة من الكنيسة طرداً دون ان يقاومه احد منهم . وهكذا
انقضى النهار ولم ينتخب البطريرك

وعند ما جن الظلام ودخل الاب موسى غرفته ليستريح ومعه شماسه
صرف الاثنان ليلهما في التفكير والتدبير علهما يهتديان الى شخص تقبله

الاحزاب المتنافرة المتخالفة واخيراً خطر ببال الشماس راهب اسمه خائيل من دير انبا مقاره لم يكن موجوداً في بابيلون في ذلك الحين . فلما اشرق الصباح بنوره واجتمع المنتخبون في الكنيسة وهم على ما كانوا عليه من التناقض والتنافر دخل موسى وذكر لهم اسم خائيل الذي كانوا يحترمونه كلهم فصادقوا باجماع الاراء على تعيينه بعد ان تعبوا من الجدال وسئموا من القيل والقال . ولما صادق الوالي على تعيين خائيل سار وفد الى وادي النطرون ليجيء به فالتقى هو بهم في الطريق مع زمرة من الرهبان جاؤا ليعترضوا على اجراآت الوالي السابق . فبشرهم الوفد المذكور بعزل ذلك الوالي ونفيه و بانتخاب خائيل بطريركاً للكنيسة القبطية

ولم يدم السلام في مصر اطول من العادة بل فارقها وحل بها الشقاء والويل عند ما مات هشام وخلفه الوليد بن يزيد الذي عزل حفص وعين بدل حسان بن عتاهية الذي اضطهد الاقباط واذاقهم من العذاب اشكالا سوداء . وفي ظرف أربع سنوات تعاقب على كرسي الخلافة أربعة من الخلفاء وكثير من الولاة في مصر لا حاجة لذكر اسمائهم سوى ان جميعهم ساروا على وتيرة واحدة هي تعذيب الاقباط ومضايقتهم واضطهادهم حتى اضطر اكثر هؤلاء البائسين الى بيع املاكهم ومقتنياتهم للتخلص من الظلم ودفع شر العتاة حتى اولادهم بيعوا عبيداً ارقاء وقبض ثمنهم الولاة المسلمون ليسدوا جشعهم الاشعبي وطمعهم الذي لا حد له . وقد هجر اكثر الاساقفة ابروشياتهم وكنوا في الاديرة فراراً من العذابات المريعة ودارت الدائرة المشؤومة

[على] الاقباط فارتدوا عن الايمان القويم واعتنق كثيرون منهم الديانة الاسلامية اما تخلصاً من اضطهاد شنيع واما قبولاً لوعد واغراء هو ان الولاة اعفوهم من التعذيب اذا هم نطقوا بالشهادتين على شرط ان يبقوا مسيحيين فعلاً ومسلمين اسماً ولكن النتيجة السيئة كانت واحدة من الجهتين فان ابناء هؤلاء المساكين صاروا مسلمين فعلا لا قولاً

قيل ان الذين انكروا الديانة المسيحية واعتنقوا الاسلامية في هذه المدة القصيرة يربون على اربعة وعشرين الفاً من الاقباط وذلك لسبب ما لحق بهم من الاضطهاد الشديد والعذاب المريع وقد صرف موسى اسقف اوسيم ما بقي له من الجهد والقوة في تعزية البائسين وجبر قلوب المحزونين وكان هذا الحبر الهمام اليد اليمنى للبطريرك خائيل في ايام المصائب هذه . وفي ذلك الوقت قام مروان بن محمد الملقب بالحمار ضد الخليفة ابراهيم بن الوليد فاغتصب الخلافة منهُ وصار سيد العالم الاسلامي ومن ثم عزل والي مصر وعين بدله حوثرة بن سهيل الذي اراح الاقباط قليلا من ذلك الظلم الهائل الذي قاسوه في ايام اسلافه ولذلك صرف البطريرك اكثر اوقاته في قبول توبة الذين انكروا المسيحية ثم عادوا الآن اليها بعد انقضاء زمن الاضطهاد الذي اجبرهم على اعتناق الاسلامية

ولنرجع لحكاية البطريرك الروماني قزما المعروف بغباوته وتغطرسه الذي ظل ساكناً منزوياً في ايام الضيق فلم يبد حراكاً ولكن لما استراح الاقباط هنيهة وشاركهم مسيحيو مصر في هذه الراحة تحرك قزما من مكمنه

وقام يناصب الاقباط العداء ويوالي هجماته على كنائسهم مدعياً انها من حقوقه الشرعية . ولم يكتف هذا الجاهل بالجدال والنضال بل رفع دعواه الى الوالي المسلم طالباً منه ان يعطيه كنيسة مارمينا الكائنة في مريوط وما يتبعها من ايراد كثير ومتاع وفير . ولكي يعرف القاريء مقدار اهمية هذه الكنيسة التي اختصها قزما من باقي الكنائس اشرح له موقعها وشأنها في ذلك الوقت . فقد كانت كنيسة مارمينا هذه مبنية في مدينة مريوط الواقعة في الصحراء بين الاسكندرية ووادي النطرون . ولا يوجد شيء من معالم هذه الكنيسة في وقتنا الحاضر سوى اطلال دوارس لا تزال قائمة هنالك وعليها كتابات قديمة نقلها مؤرخ فرنساوي عن كتاب عربي بخط اليد نأتي هنا على نصها اتماماً للفائدة :

(ان كنيسة مينا تحيط بها ثلاث مدن خربة واقعة في وسط صحراء جدباء لا تزال مباني بعض منازلها قائمة للآن اتخذها العرب كميناً ينقضون منه على التجار وعابري السبيل فينهبونهم ويسلبونهم اشياءهم . وفي هذه البقعة توجد صروح سامقة وقصور شامخة بنيت على نسق هندسي جميل فيها غرف واروقة معقودة فخيمة يسكن فيها الرهبان والناسكون . وماء الشرب هناك مريء لذيذ ولكنه شحيح قليل

اما كنيسة مارمينا فهي بناء واسع فخيم مزينة بالتماثيل البديعة والصور الجميلة تظل الشموع موقدة فيها نهاراً وليلاً . والداخل الى هذه الكنيسة العظيمة يجد في ناحية منها جدث قيل ان مارمينا دفن فيه وبجانب الجدث تمثالا جملين من الرخام يعلوهما تمثال رجل وضع كلتا رجليه على الجملين واحدى يديه مبسوطة والاخرى مقبوضة . وهذا التمثال خص بمارمينا . وفي الكنيسة ايضاً تماثيل

القديسين يوحنا وزخاري وليسوع المسيح مصنوعة من الرخام الناصع وملصوقة في اعمدة متينة قائمة عند باب على يمين الداخل لا يمكن لاحد فتحه . وفيها تمثال لمريم العذراء وضع خلف ستارتين وحوله انصبة عديدة لجميع الانبياء . وفي حوش الكنيسة صور مجسمة للحيوانات على اشكالها وللناس على اختلاف اجناسهم وبينهم عبد اسود يمسك في يده كيساً للنقود مقلوباً مما يدل على انه كان تاجراً وافلس . وفي وسط الكنيسة قبة كبرى قيل ان فيها ثمانية تماثيل للملائكة

وعلى مقربة من الكنيسة جامع فيه محراب وجهته القبلة حيث يوجه المسلمون وجوههم شطر المسجد الحرام عندما يصلون . وحول هذه الكنيسة جنات فيحاء فيها من كل فاكهة زوجان واكثرها اللوز والخروب وكان القوم يصنعون منهما اشربة ومرطبات لذيذة فاخرة . وفضلاً عن الفواكه فان الكروم كانت كثيرة عصرت منها الانبذة والخمور بمقادير وافرة)

فايراد كنيسة مار مينا التي وصفناها لك بالاسهاب لم يكن يقل عن الف دينار سنوياً حتى في زمن انحطاط مريوط وخرابها . وكان ايرادها الكثير سبباً في تطلع الاروام الى وضع يدهم عليها مع انها لم تكن لهم في زمن من الازمان وما اقاموا فيها حجراً ولا سمعوا عنها خبراً سوى لما تفتحت اعينهم الى سلب الكنائس القبطية من بداءة لم تتركها احقر الامم الا واعتدت عليها . فعندما استعان قزما بالوالي على اخذ هذه الكنيسة استدعاه الوالي مع البطريرك خائيل وطلب منهما ان يضع كل منهما تقريراً يذكر فيه ماله من الحقوق لامتلاك الكنيسة المذكورة . فبعد ما قرأ الوالي التقريرين لم يجد وجهاً يخوّل لقزما اغتصاب الكنيسة ولذلك حكم برفض دعواه واحقية الاقباط فيها . الا ان هذه الدعوى الفارغة افادت قزما من وجه آخر فانه

جمع مبلغاً طائلاً من المال من زمرة الاروام بينما خائيل لم يكن لديه مال وهو
رئيس الكنيسة الوطنية التي يدخل في دائرتها جميع المصريين الذين كانوا اقباطاً
في ذلك الوقت · ولكن ليس كل الشرف والمجد في كثرة المال ووفرة الذهب
كما يظن بعض صغار العقول في هذه الايام بل للمرء صفات وفضائل يعرف
بها ويمتاز على الاقران بواسطتها بينما الذهب لا يميزه بشيء · واحسن مثال
على ذلك البطريرك القبطي خائيل الذي عرف بدماثة الاخلاق واخلاص
القلب حتى انه بعد كل هذه المماكسة والتحكك اللذين ابداهما قزما سعى
خائيل في مصادقته ومصافاته فلما حان وقت الضيق والاضطهاد كان
البطريركان يداً واحدة في دفع الظلم والجور عن كنائسهما في كثير من
الحوادث التي وقعت فيما بعد كما سيجيء

ومع ان السلطة الاسلامية كانت قد بلغت شأواً عظيماً في ايام الدولة
الاموية واستباحت افريقيا وسرياقوسة الصغرى وقرطجنة واكثر انحاء اسبانيا
الا ان الانشقاق الداخلي والحروب الاهلية التي كانت تستعر بين آونة واخرى
بين المتزاحمين على الخلافة اوجدت خللاً في الحكومة الاسلامية حتى انهم
لم تقم لهم حكومة منتظمة ولا استتب لهم امر في قطر من الاقطار التي افتتحوها
بل كانوا يحكمون في جميع البلاد التي ساقها حظها للوقوع في يدهم احكاماً
اشبه بالاحكام العرفية في هذه الايام · والذي زاد في ضعف المسلمين واوجد
الوهن في قواتهم حروبهم الكثيرة في بلاد المغرب وقيام مروان بن محمد الحمار
آخر خلفاء الدولة الاموية الذي لم يشتهر سوى بسفك الدماء والميل للعسف والانتقام

حتى اجهز على قوة العرب ووضع حداً متيناً لفتوحاتهم الباهرة فوقفوا عند
الدرجة التي وصلوا اليها حتى لم يكن في طوقهم مغادرة اسبانيا التي بقوا فيها
مدة قرون دون ان يتعدوا حدودها او يملكوا شبر ارض من اوروبا غيرها ·
ولما كان الحديد لا يفله الا الحديد فقد قام من المسلمين رجل عات جبار
اسمه ابو العباس بن محمد الذي اشتهر بقوته وجبروته حتى لقبوه بالسفاح ومعناه
سافك الدماء واخذ يناجز مروان ويقاومه

ففي اثناء هذه المناوشات والحروب انتهز عبد الملك بن مروان والي مصر
بعد حوثره فرصة انشغال مروان وارتباكه وشن الغارة على الاقباط واضطهدهم
اضطهاداً فظيعاً وقبض على البطريرك خائيل وموسى اسقف اوسيم و ٣٠٠
قبطي وقبطية وزج الجميع في سرداب مظلم حرج استعمله البطريرك والاسقف
كنيسة فيها يواسون المسجونين معهم ويصرفون عنهم بعض كربتهم · وبينما كان
هؤلاء المساكين في ضيق يكل القلم عن وصفه ينتظرون دنو الاجل بين
لحظة واخرى اذ جاءتهم نجدة من السودان لم يكونوا يتوقعونها خلصتهم من
ضيق وهم عظيمين

ذلك ان بلاد النوبة او هي السودان التي قلنا لك في ما سبق انها ذاقت
هواناً اكثر من مصر لسبب غارات العرب عليها لاخذ جزية العبيد
السنوية منها كانت احسن حظاً من مصر لعدم وقوع اضطهاد وضنك عليها
كما وقعا في هذا القطر الاسيف الذي خربت فيه بلاد برمتها ولم يبق فيها
ساكن لسوء ما اصابها من سيف ونار بينما كان السودان عامرا بسكانه

آهلاً بابنائه فيه ملك اسمه مركربوس قد تعلقت قلوب رعيته على حبه واجمعت افئدة شعبه على احترامه ومدحه حتى لقبوه بقسطنطين الثاني . وبعد وفاة مركربوس رفض ابنه الاكبر زخاري قبول تاج الملك ميلاً منه الى الراحة والابتعاد عن عناء الرئاسة فجلس على الكرسي ابناه الاخران ابراهيم ومرقس ولم تكن مدة حكمهما طويلة لان الاثنين قتلا بايدي الحزبين المختلفين فآل الملك حينئذ الى رجل يدعى قرياقوص اشتهر بعلو همته وسمو مبادئه وقوة بأسه

وفي هذا الوقت كان السودان يئن متوجعاً من الظلم الذي لحق به من المسلمين والجور الفادح الذي كاد يؤدي بهذه البلاد ويلاشي سكانها لان سادتنا العرب القساة لم يكتفوا بالجزية السنوية المضروبة على السودان من العبيد بل كثيراً ما هاجموا هذه البلاد واخذوا من سكانها عدداً كبيراً من الناس صيروهم ارقاء وباعوهم في مصر بيع السائمة وتجروا فيهم كما يتجر الجاهل في سقط المتاع ولذلك حنق السودانيون وغضبوا فاختلس مليكهم قرياقوص فرصة الحرب القائمة بين مروان وابي العباس وبداء يتداخل في شؤون مصر بحجة ان واليها يضطهد الاقباط ويهينهم . واول عمل اتاه قرياقوص ارساله احد اشراف مملكته المسمى ابريقيس ليطلب من عبد الملك اطلاق سراح البطريرك القبطي حالاً . ولما كان هذا الوالي لا يعرف مركز ملك السودان وقوته قبض على ابريقيس واودعه السجن احتقاراً لمرسله وازدراء بطلبه . فلما سمع قرياقص بذلك لم ترض همته القعود بل جهز جيشاً

جراراً سار فيه فرسان وهجانة ومشاة كعدد الرمل وسار به على مصر وافتتحها . قال الشماس يوحنا تلميذ خائيل الذي كتب تاريخاً عن حياة مولاه « لقد اثبت لي شهود عدول ان الخيول التي كان يمتطيها رجال قرياقوص لم تكن اطول من الحمير ولكنها كانت تفعل العجائب عند اشتعال نار الحرب في انها تعض وتنهش وتضرب بيديها ورجليها فتهزم العدو ولو لم يحرك راكبها »

وكان الاقباط في مصر الى ذلك العهد يربون عداً عن المسلمين فيها فرحبوا بقرياقوص وفرحوا بقدومه فكانوا يقابلونه بتهليل وسرور الى ان وصل هذا الملك الشجاع الى ابواب مدينة الفسطاط بعد ان كسح في طريقه جميع قوات المسلمين وفل جموعهم وحلّ عزائمهم . فلما علم عبد الملك بذلك اصطكت ركبتاه فافرج حالاً عن ابريقيس ورجاه ان يقنع مولاه بالعودة من مصر على اي شرط يرضاه ثم اطلق سراح البطريرك خائيل ايضاً واجبره ان يكتب لقرياقوص بانه في حالة سارة قارة مما جعل هذا الملك السوداني يعود ادراجه بعد ان ساق امامه عدداً لا يحصى من المسلمين اتخذهم عبيداً خادمين

ومعلوم انه لا يقيم على وعده ويثبت في كلامه الا الرجل الهمام الشريف الذي يستسهل ضياع حياته على الاخلال بوعده . اما اللئيم العديم المروءة لا يقيم على وعد ولا يسير على مبدأ الا ريثما تنفرج ازمته ويرتفع الضغط عنه . فان عبد الملك بعد عودة قرياقوص اخلف وعده وحنث في يمينه وصب

كاسات ظلمه ورجزه على الاقباط لحد اضطرهم ان يستعدوا للثوران والعصيان · وكثيراً ما كان الظلم واسطة للجمع بين قلوب متنافرة اذا كان وقعه عليها متساوياً · فان البطريركين القبطي والرومي اطرحا اسباب الشحناء المذهبية واتفقا على القيام ضد اعداء دينهما قومة واحدة فسارا في مقدمة الثائرين واوجدا فيهم قوة وشجاعة كانا سبباً في بعض النجاح الذي بدأ في اوائل هذه الثورة التي اشتعلت نارها الآن في الوجه القبلي حيث انتظر الاقباط عوناً ونجدة من جيرانهم السودانيين · اما عبد الملك فجمع جيشاً عظيماً من العرب والتقى بثوار الاقباط فحدثت بين الجيشين معركة شعواء دارت الدائرة فيها على المسلمين بعد ان خسروا من رجالهم عدداً وفيراً · وقد قويت شوكة الاقباط بهذا الانتصار الباهر فلم يكتفوا بالمواقع التي اكتسبوها من اعدائهم بل ساروا مجدين خلفهم الى ان جاء الخليفة مروان بجيش عرمرم فلم يقف في وجه الاقباط ايضاً وهزم امامهم كما هزم امام جيش السفاح الظافر · وكان قائد ثوار الاقباط بالوجه البحري في اكثر المواقع هولاً رجل اسمه يوحنا من سمنود غريبة حاز نصراً عجيباً ولكنه لم يقدر يرد حرافيش العرب وزعانف جيشهم عن نهب البلاد وسلبها اثناء تقهقرهم لان قائدهم مروان اذن لهم بذلك كما انه اشعل ناراً في مصر القديمة واحرق جميع مساكن الاقباط فيها وهي حيلة المغلوب المقهور · وكانت نتيجة هذا كله ان الاقباط تحصلوا على شبه استقلال قبل موت مروان وظلوا تحت رئاسة بطريركهم مدة قليلة ثم دار دولاب الزمان كما هي عادته معهم من قديم الازل فما جاءت سنة ٧٥٠ حتى فقدوا

زهرة رجالهم واتم ابطالهم الذين ادخروهم للملمات · فان مروان استجمع قوته واعاد الكرة عليهم فانتشب بينه وبين يوحنا السمنودي قتال في الوجه البحري انتهى بانكسار هذا وقتله مع نخبة رجاله البواسل وكذلك خان الاقباط سعدهم في الوجه القبلي فهزموا ووقع البطريركان القبطي والرومي في يد جيش المسلمين فسلموهما الى مروان الذي امر بسجنهما

وقد افتدى قزمان بطريرك الاروام نفسه بدفع الف قطعة من الذهب وما خرج من سجنه حتى فرّ من مصر فرار الانسان من لهيب النار ولم نعد نسمع عنه شيئاً الا بعد مضي خمس سنوات عند ما اشتد الخصام والنزاع بين رهط الاروام في مصر بخصوص كسر الصور والايقونات · اما خائيل فلم يكن لديه مال يدفعه فاستعمل معه المسلمون قسوتهم المعروفة وجلدوه بالسياط جلداً عنيفاً قاصدين اعدام حياته ولكن مروان ابقى عليه ظناً منه انه قد يفيده في تهدئة خواطر الثائرين فاعاده الى سجنه كما كان

ولم يكتف المسلمون بما احرزوه من النصر على شراذم الاقباط بل غلب عليهم الطبع الغلاّب واخذوا يحرقون المحاصيل وينهبون الاديرة ويغتصبون الراهبات لهتك اعراضهنّ واكراههن على البغاء مع انهن اردن تعففاً · وكان بين هؤلاء الراهبات راهبة اسمها فبرونية غضة الاهاب نضرة الشباب بارعة في الجمال مشهورة في الكمال تكاد المحاسن الادبية تطفح من وجهها ونور العفة والنعمة يشرق على جبينها · فلما شاهد المسلمون هذا الحسن الباهر واللطف الساحر لم يمدوا لها يداً بسوء بل ابقوها للخليفة مروان ليتمتع بها ويشكرهم على

هذه الهدية الثمينة بل الدرة اليتيمة . ولكن شهامة فبرونية وانفتها لم تطاوعها على تسليم نفسها للذل والعجز بل هي أتت حيلة غريبة بها تخلصت من الاهانة العظمى قبل أن تقع في يد مروان . ذاك انها قالت لقائد الجندان عندها زيتاً مقدساً اذا دهن الانسان جسمه منه صار اقوى من الحديد وامتن من الفولاذ فلا تعمل فيه السيوف البواتر ولا تجرحه مرهفات الصوارم . ثم مدت يدها الى جيبها واخرجت منه زجاجة فيها زيت فقالت للضابط «اني سأطلعك على مخبئات هذا السر النافع على شرط ان تحفظ طهارتي وتصون عرض رفيقاتي العذارى الراهبات . وقبل ان أهبك هذه المنحة اعمل امامك تجربة في نفسي منها تعرف صدق قولي» . وحينئذٍ دهنت فبرونية عنقها بهذا الزيت وقالت للقائد «استل سيفك واضرب به رقبتي ضربة قوية فهو لا يؤثر فيَّ قط» فضربها الضابط ضربة شديدة ازاحت رأسها من على عنقها وبهذه الخدعة نجت فبرونية من العار والفضيحة . قال ابو صالح المؤرخ «ان المسلمين ندموا كثيراً وحزنوا على موتها حزناً زائداً وصرفوا باقي الراهبات الى ديرهن ولم يأتوا معهن امراً نكراً»

وفي سنة ٧٥١ دخل ابو العباس مصر بجيش زاخر وهو يقصد اخذها من يد مروان . وكان الاقباط حينئذٍ قد يأسوا من الاستقلال وليس في طوقهم محاربة جيشين من المسلمين فعقدوا صلحاً مع الدولة العباسية وانحاز اكثرهم لجانبها . وعند ما وصل السفاح مصر عسكر بجيشه على شاطىء النيل تجاه مروان الذي كان لا يزال قابضاً على البطريرك خائيل وموسى اسقف

اوسيم . ولما علم مروان ان بعض الاقباط انضموا لجيش خصمه اراد ان ينتقم منهم بتعذيب البطريرك والاسقف اللذين كانا محبوبين جداً عند الاقباط وصار يهينهما ويجلدهما على شاطىء النيل على مرأى من الاقباط الذين كانوا مع جيش السفاح . الا ان الحبرين المذكورين لم يتأثرا من هذه العذابات القاسية وما فاها بكلمة تضجر او استرحام وهذا مما اغاظ مروان كثيراً فاعادهما الى سجنهما قاصداً ان يطيل عذابهما في اليوم التالي ويضاعف قسوته عليهما الى ان يميتهما

فلما لاح فجر اليوم الموعود ولم تنفع الوسائل لانقاذ هذين التقيين جمع مروان لديه كل القسوس الذين وقعت يده عليهم وعددهم احدى عشر قسيساً واوقفهم على شاطىء النهر وامر باعداد جميع آلات العذاب ومعدات القسوة والوحشية ووضعوها امام اعين الاكليروس المساكين الذين لما شاهدوا هذه الآلات الجهنمية احتضن كل منهم اخاه وعانقه ثم جثوا راكعين امام البطريرك طالبين منه ان يمنحهم البركة ويسأل الله ان يغفر خطاياهم قبل موتهم . وكان الازدحام عظيماً على جانبي النيل والناس من هنا ومن هناك وقوف كأن على رؤوسهم الطير . فان الاقباط الذين كانوا مع ابي العباس صاحوا وناحوا وبكوا وانتحبوا حزناً وكآبة على هذا الموقف القاسي المريع وظلوا شاخصين الى بطريركهم وكهنتهم وهم سكوت خاشعون . وكذلك رجال مروان الذين قدت قلوبهم من حجر صلد وعرفوا بالتوحش والصلابة لم يستطيعوا اخفاء تأثرهم من هذا المنظر المفزع فبقوا صامتين جامدين كأنهم

صم بكم لا ينطقون . فبينما كانت كل هذه الجموع المتألبة صامتة هادئة وقف البطريرك وفاه بصلاة البركة وطلب مغفرة الخطايا بصوت جهوري اجهش وجنان ثابت لا يتزعزع قائلاً : —

(ايها الرب الاله يسوع المسيح الابن الوحيد وكلمة الله الآب . يا من شفيتنا بجرحك وسلمت نفسك لاجلنا لكي تحلنا من قيود الخطية وترفع عن اعناقنا حمل الاثم الثقيل . يا من نفخت في وجوه رسلك الاطهار وقلت لهم : — (اقبلوا الروح القدس . من غفرتم خطاياه تغفر له ومن امسكتم خطاياه امسكت) انت يا ربنا قد فوضت الى الرسل الذين اخترتهم ان يقيموا وظيفة الكهنوت في كنيستك المقدسة ويعطوا سلطة بغفران الخطايا والحل من رباط الآثام والذنوب . فعلى هذا نحن نسأل من صلاحك يا محب البشر ان تقطع سلاسل الخطايا التي طوقت اعناقنا وتغفر لنا جرائمنا نحن وآباءنا واخواننا الساجدين امام عظمتك الآن وان ترحمنا بعظيم رحمتك وتترأف علينا برأفتك . واذا كنا يا الهنا قد اخطأنا اليك عمداً او سهواً بالقول او بالفعل فنتوسل اليك انت العارف بضعف الانسان ووهنه وتقلب قلبه ان تعطف علينا وتمنحنا غفراناً لخطايانا وان تباركنا وتمحوا جميع آثامنا وتملأ قلوبنا هيبة منك ومحبة لك وترشدنا الى طريق نسير فيه حسب ارادتك الصالحة لانك الهنا وخالقنا ولك نهدي مع ابيك الصالح والروح القدس كل حمد ومجد وسجود وعبادة . وآخيراً نصلي اليك ان تصفح عن عبيدك الذين في هذا اليوم يؤدون الخدمة المطلوبة منهم وجميع القسوس والشمامسة والاكليروس والعالمانيين وانا الضعيف العاجز وتحلهم من رق العبودية من فم الثالوث الاقدس الآب والابن والروح القدس ومن فم الكنيسة الجامعة الرسولية ومن فم الاثني عشر رسولا ومن فم مار مرقس الكاروز والشهيد ومن فم البطريرك انبا ساويرس ومن فم طبيبنا الروحي ديسقورس ومن فم مار يوحنا ذهبي الفم ومار كيرلس ومار باسيلي ومار

غريغوريوس ومن فم الثلثمائة الذين اجتمعوا في مجمع نيقية والمائة وخمسين الذين التأموا في القسطنطينية والمائة الذين كانوا في افسس ومن فمي انا الخاطي الغير مستحق ان اقف امامك اكراماً لاسمك الامجد ايها الآب والابن والروح القدس من الآن والى ابد الابدين آمين)

وعند ما فرغ البطريرك من صلاته برز ابن مروان من وسط الجمع المزدحم وطرح نفسه على قدمي ابيه طالباً منه ان يعفو عن هؤلاء المساكين وينقذهم من شر العذابات والموت ايضاً . وكان ابن مروان علم ان الرحمة لا محل لها في قلب ابيه العاتي وانه لا يعرف للشفقة معنى فرجاه من الوجهة السياسية قائلاً انه لم يبق لهم نصير غير الاقباط الذين يسيرون على رأي بطريركهم . فاذا قتل هذا البطريرك الآن بمثل هذه الشناعة والفظاعة فلا ريب في ان كل قبطي يلحق بالعباسيين ويقومون في وجهنا للانتقام ورغبة في الاخذ بثار بطريركهم منا . واخيراً رضخ مروان لنصيحة ابنه وربما كان منظر القسوس وهم راكعون على ما وصفنا اوجد شيئاً من الحس في قلبه الجامد فعفى عنهم ولكنه اعادهم للسجن كما كانوا وظل موسى الاوسيمي يشجع رفاقه ويشدد عزائمهم وقد اقيمت صلوات وابتهالات لله في جميع الاديرة والكنائس ليلاً ونهاراً لكي يرحم هؤلاء البائسين وينقذهم من ايدي الظالمين

واخيراً عبر جيش السفاح النيل والتقى بجنود مروان عند ابوصير بمديرية بني سويف حيث ادبر سعد مروان وحان حينه فقتل اشنع قتلة وتفرق جيشه ايدي سبا

ولما رأى عبدالله بن مروان ما حل بابيه فرّ مع شراذم الجيش الى السودان ووضع نفسه بين يدي مليكه ليلتجيء به . وبعد ان مكث عبد الله ثلاثة ايام في السودان ارسل له مليكه يقول انه آت لزيارته بنفسه وسماع ما عنده من المطالب والرغائب . وعند ما حان مجيء الملك افترش عبد الله سجادة واستعد للقاء هذا السلطان المسيحي بكل احتفاء واحتفال . الا ان الملك لم يجلس على هذه السجادة بل قعد فوق اديم الارض قائلا لابن مروان انه يتحتم على الملك ان يظهر كل طاعة وخضوع لدى العزة الالهية التي منحته الملك والسلطان

وبعد ان استقر المقام بالملك افتتح الحديث بسؤال عبدالله ان لماذا اتباعه يشربون خمراً مع ان شربه ممنوع في كتابهم الذي يعتبرونه منزلاً . فاجاب عبد الله معتذراً بقوله ان الذين يحتسون الخمر هم عبيده وبعض الضباط واللوم كله عليهم لا عليه

ثم وجه الملك سؤالاً ثانياً الى عبد الله قائلاً « لماذا تسمح لجنودك ان يدوسوا الزرع والحنطة تحت سنابك خيولهم مع ان هذا محرم في كتابكم »

فاعتذر عبدالله بما اعتذر به قبلا قائلا انه لم يقدر برد الضباط والعبيد عن هذا العمل النبيء

فسأله الملك سؤالاً وقال « لماذا تلبسون جميعكم ثياباً من الدمقس والحرير مزركشة بالذهب والعسجد وهذا يغاير مبادىء دينكم وقواعده »

اجاب عبد الله « لا يخفى على جلالتكم اننا فقدنا كل قوة وسلطة وصرنا

البيء الى الاجانب واسألهم المعونة والمساعدة فنضطر الى الارتداء بهذه الملابس الفاخرة حتى نظهر في اعينهم مظهراً عظيماً وهم فضلاً عن ذلك يحتذون حذونا مع انهم اعتنقوا ديننا وصاروا مسلمين نظيرنا »

فاطرق الملك برأسه هنيهة الى الارض كمن شرد فكره الى موضوع رئيس ثم قال « عبيدنا وضباطنا والاجانب الذي اعتنقوا ديننا ومثل هذه الاعذار الباردة الفارغة »

وأخيراً رفع وجهه وقال لعبد الله بجدة وشدة « انني لا أقتنع بكلامك لبعده عن الحقيقة فانكم انتم انفسكم قد اسأتم الى الله وسرتم ضد اوامره ونواهيه واتخذتم القوة التي اعطاها لكم لتظلموا عباده الآمنين ولذلك اذلكم واسقطكم كما من حالق ووضع على وجوهكم علائم العار والخزي المشين . فلو كان عندكم ذرة من الايمان لكنتم تعرفون مقدار انتقام الله من الظالمين القساة ولذلك فانني اخشى ان يصب جامات غضبه على رأسك وانت في مملكتي فيصيبها شر بسبب خطاياك وآثامك . فاعلم ان حقوق الضيافة لا تجاوز ثلاثة ايام تقضيها هنا مع رفاقك وبعدها تتزود من عندي بما تشاء من زاد وارحل عن مملكتي واياك وعصيان امري »

ومعلوم ان عبد الله كان في ذلك الوقت ضعيفاً ذليلاً ليس في طوقه المقاومة والعناد فانصاع للامر وآب الى مصر حيث وقع في ايدي العباسيين الذين طرحوه في السجن حتى انتهت حياته فيه . قيل ان المنصور بن محمد الملقب بأبي جعفر الذي ورث الخلافة عن اخيه العباس استدعى عبد الله

امامه ذات يوم وسأله عن رحلته الى السودان ومما جرى له مع ملكها فقص له الحكاية المسطورة هنا كما وقعت له

وعند ماوضع العباسيون نيرهم على عنق مصر اطلق سراح البطريرك خائيل ومنح الاقباط شيئاً من الراحه والحرية لم تدم معهم سوى اربع سنوات فقط كانت كاحلام النائم

الفصل الثامن والثلاثون

ظلم الدولة العباسية للاقباط

(سنة ٧٥١ للمسيح و ٤٦٧ للشهداء و ١٣٣ للهجرة)

في ظرف الاربع والخمسين سنة التالية تولى مصر خمسة واربعين والياً من قبل خمسة خلفاء تعاقبوا على عرش الخلافة الواحد بعد الآخر . ولسنا في حاجة الى اقلاق خواطر القراء والتشويش على اذهانهم وافهامهم بذكر اسماء هؤلاء الولاة لما فيها من التلبك والثقل ولكننا نذكر شيئاً واحداً يعمهم جميعاً هو ظلمهم للاقباط واضطهادهم اياهم اضطهاداً فظيعاً شنيعاً مؤلماً قاسياً . اما الولاة الذي اراحوا الاقباط ومنحوهم بعض الحرية كما اشرنا الى ذلك في الفصل الماضي فانما هم فعلوا هكذا لسبب يتضح لك من الحكاية الآتية

ذلك انه بعد موت مروان بمدة قليلة ووقوع مصر في قبضة العباسيين

حدثت حادثة في هذا القطر عدها الناس يومئذ من باب الآيات والعجائب . ان النيل كان قد بلغ في الارتفاع اربعة عشر ذراعاً فقط وكان يجب ان يصل الى ستة عشر ذراعاً حتى يروي الاراضي والا فتكون البلاد في خطر الشراقي الذي يعقبه الجوع والقحط . وفي هذا الاوان كان الاساقفة الاقباط مجتمعين في بابيلون للمفاوضة في بعض الشؤون الدينية فاتفقوا حينئذ على ان يقيموا خدمة خصوصية فيها يرفعون لله صلواتهم وتضرعاتهم لكي يرحمهم ويزيد في فيضان النيل . وقد اسهب يوحنا شماس خائيل في تفصيل هذه القصة حيث قال : —

(في ١٧ توت (٢٦ سبتمبر) وهو يوم عيد الصليب المجيد اجتمع قسوس الجيزة وبعض اكليروس البلاد النائية وجمهور من سكان الفسطاط كباراً وصغاراً نساء ورجالاً وساروا في احتفال حافل وبأيديهم الاناجيل المقدسة والمجامر يفوح منها بخور ينعش الارواح ويحيي النفوس . وقد دخل هذا الجمع كنيسة مار بطرس الكبرى التي كانت اساساتها على شاطئ النيل فلم تسعهم الكنيسة على رحبها فظل اكثر الشعب وقوفاً خارجها . وبعد هنيهة حضر البطريرك ورفع الصليب بيمينه وبجانبه انبا مينا اسقف ممفيس (جيزه) ماسك الانجيل الشريف وسارا امامنا وفي يد كل منا صليب الى ان وصلنا شاطئ النهر فوقفنا هناك وكان ذلك قبل طلوع الشمس . وقد بدا البطريرك والاسقف مينا بالصلاة والتسبيح والشعب يجيبهما بصوت يرن في الفضاء قائلاً (كيريلا يصون) (اي يارب ارحم) واستمرت الصلوة والترتيل لغاية الساعة الثالثة من النهار اذ استيقظ اليهود والمسلمون من نومهم وسمعونا ونحن نرفع لله المتعالي في سماه اصوات الابتهال والضراعة . وقد سمع الله تبارك اسمه صراخنا واجاب طلبنا وارتفع النيل في ذلك اليوم ذراعاً كاملاً فجد

الناس الله وشكروا نعمته الوافرة . وعند ما وقع هذا الخبر على مسامع الوالي المسلم أخذه العجب والاندهاش واستولاه الخوف والرعب هو وجميع وجنوده)

قيل ان الوالي ساءه ان مثل هذه العجيبة تتم على يد الاقباط وينسبها الناس الى صلواتهم وطلباتهم فأمر المسلمين بأن يذهبوا في صبيحة اليوم التالي الى المكان الذي كان الاقباط يصلون فيه عساهم يزيدون في النيل ذراعاً ايضاً بواسطة ركوعهم وقيامهم على شاطئه . فعند ما صلى المسلمون وركعوا عكس الله الامر معهم ونقص النيل ذراعاً بدل ان يزيد وهذا النقص أخذ من مقياس النيل في جزيرة الروضة . فغضب الوالي وسخط واصدر امراً يقضي على الاقباط والمسلمين معاً بأن لا يصلوا من اجل النيل فيبقى هذا النهر على حاله الاصلي اي اربعة عشر ذراعاً في الارتفاع . ولكن هذا الحاكم المتقلب المتردد يئس من الري فطلب من الاقباط ان يضرعوا لله كما فعلوا في بادىء الامر وكانت نتيجة هذه الضراعة ان النيل وصل الى سبعة عشر ذراعاً وزال كل خوف من الشراقي . وبسبب هذه الاعجوبة استراح الاقباط من مر الاضطهاد وألم العذاب مدة الاربع سنوات التي اشرنا اليها آنفاً

وفي هذه الفترة شرع البطريرك خائيل في زيارة الانحاء المصرية لافتقاد شعبه وقد ورد في تاريخ حياته انه عثر على زمرة من اتباع ميليتوس الهرطوقي يقدر عدد رجالها بنحو ثلثمائة رجل صرفوا حياتهم معتكفين عائشين في كهوف الارض ومغائر الاديرة . ومعلوم ان هذه الزمرة لم يذكرها الذاكرون وان هرطقة زعيمها تناستها الاذهان في مدة القرون الاخيرة لان

الاضطهادات والمتاعب غطت الهرطقات والبدع فضلاً عن ان هؤلاء النساك كانوا منزوين في واحة بعيدة من واحات القطر المصري لم يعلم بوجودهم احد قبل البطريرك الذي عند ما نظرهم قابلهم ببشاشة ورقة جانب وضمهم الى حضن الكنيسة القبطية بحكمته المشهورة وغيرته المأثورة

اما الذي زعزع دعائم السلام واعاد الهم والقلق الى مصر واقباطها فهو اسحق اسقف حاران (بفلسطين) وذلك بسوء تصرفه وانحطاط مبادئه ومحسوبيته على الخليفة العباسي . وتفصيل ذلك انه عند ما توفى بطريرك انطاكية اصدر الخليفة امره الى اساقفة هاتيك البلاد يحتم عليهم بانتخاب اسحق بطريركاً لانطاكية . ولما كان نقل الاساقفة من وظيفة الى اخرى غير جائز في قوانين الكنائس الشرقية ابى الاساقفة تعيين اسحق «محسوب» الخليفة . وكان بين الذين عارضوا في انتخاب اسحق وشددوا في ذلك مطرانان من اشهر مطارنة انطاكية اغاظا هذا المفسد واحتقراه فاستعمل ماله من الحول والطول والسلطة المعطاة له من الخليفة وقتل المطرانين المذكورين غدراً وظلماً وبهذا وذاك اوقع الرعب في قلوب باقي الاساقفة واستمال اكثرهم اليه بالتهديد والوعيد فتم له ما تمنى وجلس على السدة البطريركية . ثم ارسل اعلاناً كالعادة الى البطريرك خائيل يخبره بتعيينه ويطلب منه اعتباره نداً له . وقد بعث الخليفة اوامره الى والي مصر يقول له انه اذا لم يصادق خائيل على تعيين اسحق فلا بد من القبض عليه وارساله الى سوريا ليتولى الخليفة امر قصاصه بذاته

واذ رأى خائيل نفسه في هذا الموقف الحرج شكل مجمعاً من اساقفة الوجهين القبلي والبحري وذلك في بابيلون وطرح امامهم هذه المسألة المعضلة لكي يبتوا فيها حكماً وكان جماعة الاساقفة يعلمون حق العلم انهم اذا رفضوا طلب الخليفة فهم يقعون مع امتهم تحت طائلة عذاب مخيف واضطهاد مهول لا بد وان ينتهي بموت بطريكهم بعد طول تعذيبه . ثم انهم لا يسعهم المصادقة على تعيين بطريرك كاسحق لم يتعدَّ حداً واحداً من الحدود الكنائسية فقط ولكنه قتل ايضاً مطرانين لا يمكن لاحد ان يبرئه من تهمة قتلهما . فهذه العقدة القاسية اشغلت بال جميع الاساقفة مدة تنيف عن شهر واخيراً لم يجدوا وجهاً لحلها فتركوها ملقاة على عاتق البطريرك يتصرف فيها كيف شاء ويتحمل مسئوليتها على نفسه . فلما علم خائيل بثقل هذه المسئولية قال امام الاساقفة بشجاعة لا تفوقها شجاعة « لا سيف ولا نار ولا حيوانات ضارية ولا نفي ولا تعذيب تستطيع ان تضطرني الى التصديق على امر يخالف ضميري ويغاير مبداء ديني ومعتقدي »

وبناء على هذا طلب رسل الخليفة من والي مصر ان يسلمهم البطريرك القبطي مقبوضاً عليه اتباعاً لامر مولاهم . وكان الوالي المذكور يميل للبطريرك ويحترمه كثيراً فسأل الرسل ان يتمهلوا على خائيل حتى يتدبر الامر ويفكر فيه قليلا علّه يغير رأيه ويرجع عن عزمه . وبمثل هذه الاعذار صار الوالي يؤخر تنفيذ اوامر الخليفة وصاحبنا خائيل لا يزال مصراً على فكره ثابتاً في عزمه الى ان اضطر الوالي ان يقبض عليه اجابة لسؤال الخليفة . وعندما

مع موسى اسقف اوسيم بذلك اعلن رغبته في مرافقة رئيسه ولو الى القبر وكذلك يوحنا الشماس فانه تصدى للذهاب مع مولاه وعدم الافتراق عنه . ولكن اذا اشكل الامر وتعقدت المسائل ولم يجد ابن آدم حلاً لها فان الله تبارك اسمه يرسل الفرج من حيث لا تعلمون . فانه عند ما استعد هؤلاء الابطال الثلاثة للسفر الى مكان فيه الموت الاحمر والاسود معاً وردت الانباء مبشرة بموت اسحق وانطفاء خبره فلم تبق حاجة الى سفر خائيل ورفيقيه الى سوريا وقد منعهما الوالي عن ذلك وقلبه يطفق فرحاً وسروراً

وقد عاش البطريرك خائيل بعد هذه الحادثة نحو احدى عشرة سنة وهو يشتغل في كرم الرب شغل الخادم الامين الى ان انتهت حياته في هذا العالم سنة ٧٦٧ . اما الخليفة الذي كان معاصراً لخائيل فهو ابو جعفر المنصور الذي ذكرناه قبلاً اتخذ بغداد عاصمة الملك وهو اول خليفة اظهر شيئاً من الميل الى العلوم والآداب مع انه لم يمتز بشيء من الصفات الادبية والمبادئ العالية عن غيره من هؤلاء الخلفاء الذين كانوا على نمط واحد ما عدا عمر بن الخطاب الذي عرف بميله للعدل وحبه للانصاف . والوالي الذي تولى امر مصر في ذلك الوقت هو يزيد بن حاتم (الذي نقل الدواوين الى قصر الشمع المعروف لغاية يومنا هذا)

وجلس بعد خائيل راهب اسمه مينا من دير ابا مقارة ظلت الكنيسة على عهده مدة احدى عشرة سنة وهي آمنة مطمئنة لا يقلقها عذاب ولا يعتورها شقاق الى ان ظهرت فيها آفة من جنسها سطت عليها فكدرت صفاها وغيرت

احوالها ولا ريب في ان علة الاقباط من قديم الزمن « منهم فيهم » وداءهم صادر منهم . فان شماساً من الاسكندرية اسمه بطرس جاء يوماً الى البطريرك مينا وسأله ان يعينه اسقفاً ولكن البطريرك رفض طلبه . فخنق بطرس لخيبة آماله وسار تواً الى بغداد حيث بذل ما في وسعه ليستميل الخليفة الى جانبه وقد نجح في ذلك وعاد الى مصر مزوداً بامر من المنصور الى والي مصر بعزل مينا وتنصيب بطرس مكانه . فجمع مينا مجمعاً من الاساقفة في بابيلون ليستمد رأيهم في هذا الامر والتأموا في الكنيسة يتباحثون ويتفاوضون ولم يكن طويلا حتى هجم بطرس على الكنيسة ومعه شرذمة من الجند اندفعوا الى المكان المخصص لسكنى البطريرك . وبينما كان مينا محتاراً مرتبكاً في شأن هذا التعدي نهض موسى اسقف اوسيم وتبعه جماعة من الاساقفة ووقفوا في وجه ذلك الشماس المهان واخرجوه خارج الكنيسة بالقوة ولكن العساكر هجمت عليهم ووضعت الاغلال في اعناقهم وساقتهم الى السجون المظلمة . وقد مكث البطريرك والاساقفة في السجن يترقبون الموت من لحظة لاخرى الا ان احد الناس قال للوالي ان البطريرك عارف « بصنعة جابر » وهي تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب ثمين وهو زعم لا يزال ضعاف العقول يزعمونه الى يومنا هذا ويقيمون الف دليل ودليل على صحته . فلم يسع الوالي السكوت على هذا الكنز الموهوم فارسل اولا يطلب من البطريرك ان يعطيه جميع اواني الفضة والذهب الموجودة في الكنائس القبطية في القطر كله لكي يبعث بها الى الخليفة . فرد عليه مينا قائلاً ان هذه الكنائس احتملت من

الضيم والظلم ما افقدها ذخائرها ولم يبقَ فيها شيء من العسجد او اللجين فان كنائس الاسكندرية الكبرى تستعمل فيها كؤوس زجاج وصليبات خشب لاتمام فريضة العشاء الرباني . فلم يقتنع الوالي بهذا الدليل بل الح على البطريرك باعطائه الكتاب الذي يحتوي على سر صناعة الذهب (وهو المسمى عند جهلاء اليوم بالاسطرلاب) فتنصل البطريرك معتذراً بعدم معرفته لهذا الكتاب ولا هو سمع عنه قط . ولما لم يجد الوالي حيلة للحصول على ما اوحته اليه خرافاته وخزعبلاته اطلق سراح البطريرك زاعماً انه بهذه الطريقة يستميله اليه ويأخذ منه الاسطرلاب ثم ارسله مع اساقفته الى الاسكندرية ليشتغلوا في ترساناتها كما يشتغل الاشقياء المجرمون في عسير الاعمال

فساء هذا العمل جمهور الاقباط ولم يحتملوا ما لحق ببطريركهم من الضيم والاهانة فعصي جماعة منهم في الوجه البحري وطردوا المستخدمين المسلمين في بلادهم وصاروا يديرون حركة اعمالهم بانفسهم كما يقول المقريزي . فارسل والي مصر جيشاً قوياً ليحاربهم ويخضعهم ولكن الاقباط احاطوا بهذا الجيش احاطة السوار بالمعصم ووضعوا السيف في رقاب رجاله فلم ينجُ منهم الا طويل العمر . وقد عرفنا من امثال هذه الثورات ان نجاح الاقباط فيها كان شبيهاً بسحائب الصيف لا تلبث ان تنقشع حالاً لان هذه الامة المسكينة لم يكن يباح لها حمل الاسلحة والتدرب على القتال والنزال بينما المسلمون كانوا اقوياء السواعد عرفوا فنون الحرب والضرب فضلاً عن كثرة عديدهم والتفاف امم الشرق القوية تحت رأيه نبي المسلمين الذي كان من مبادئ دينه

التصريح لاتباعهِ بارتكاب ما يوافق طبائعهم القاسية واطلاق يدهم في النهب والسلب والقتل والذبح مما جعلهم جنوداً متمرنين على القتال يذلون مهجهم وارواحهم في سبيل اتمام هذه الغاية الموضوعة امامهم · وانتهت هذه الثورة بمحاصرة الثائرين واخضاعهم بالقوة والعنف وذلك بعد ان ثبتوا امام اعدائهم ثبوت الرواسي مدة من الزمن حتى اضطروا ان يأكلوا جثث الموتى منهم لشدة الجوع كما ذكر المقريزي في تاريخهِ · وقد أُهدمت جميع كنائسهم في الفسطاط ولم تبق منها سوى كنيسة انبا شنوده الواقعة بين الفسطاط وبابليون · وقدم الاقباط خمسين الف دينار للوالي لكي يتجاوز عن كنيسة لهم كانت قائمة في حصن قسطنطين وان لا يسلمها لعوامل الخراب ولكن الوالي الغاشم رفض المبلغ وهدم الكنيسة فلم يترك فيها حجراً على حجر

وقد استراح الاقباط قليلاً في مدة عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية الذي تولى مصر بعد يزيد بن حاتم فانه اطلق سراح البطريرك والاساقفة بعد ان ظلوا سنة كاملة يشتغلون الاشغال الشاقة كمذنبين وطرح بطرس في السجن وهو واصل كل هذه المتاعب والاوصاب التي حلت بامتهِ · وكانت مدة ولاية عبدالله ثلاث سنوات فقط وخلفه اخوه محمد فلم يمكث سوى شهور قلائل ومات وتولى بعده موسى بن علي سنة ۷۷۲ الذي افتتح ولايته بفحص حالة المسجونين ومعرفة جرائمهم وانواع ذنوبهم التي اوصلتهم الى مهاوي السجون فكادوا يقضون فيها · ولما جاء دور بطرس لمعرفة سبب اعتقاله ابدى هذا الخائن الكاذب اعذاراً حملت الوالي على اخراجه من السجن وارساله

الى الخليفة ليرفع دعواه اليه · فعند ما مثل بطرس بين يدي المنصور اكرم وفادته ونفث كربته ومده بقوة عاد بها الى مصر لينتقم من البطريرك مينا وجميع الاقباط · وقد رجع بطرس الى مصر باسم جديد يؤخذ منه انه ترك الدين الصحيح واعتنق دين الخليفة ليسهل عليه الحصول على غاياته السافلة ومقاصده الدنيئة · اما الاقباط فلم يرق في اعينهم هذا الحال ولم يسمحوا لمثل هذا المهان باضطهادهم فاخذوا يستعدون للقيام بثورة يسفكون فيها ما بقي لهم من الدماء ولكن العزة الالهية رحمتهم ورأفت بحالهم فاخذت اباجعفر المنصور من ارض الاحياء الى عالم الاموات وبذا اصبح بطرس حقيراً ذليلاً لا معين له ولا نصير فطرح نفسه بين يدي البطريرك والاساقفة الذين كان يسعى لهلاكهم وطلب منهم ان يقبلوه في حضن الكنيسة بعد ان يثبت توبته وندامته على ما فات ولكن طلبه رفض رفضاً باتاً من جميع الاكليروس لانهم لم يثقوا في قوله ولم يصدقوا توبته مع اشتهار الكنيسة القبطية بقبول كل تائب آئب اليها

ولم يعش مينا طويلاً عقيب خروجه من السجن وبقي الكرسي البطريركي بدون بطريرك مدة سنة بعد موت مينا وذلك لعدم اتفاق الشعب على انتخاب شخص معين · ولكن الاقباط في هذه المرة لم يتخانقوا ويتشاحنوا ويتنافسوا ويتناقشوا بل هم اتفقوا على رأي صائب هو الاقتراع على المرشحين لوظيفة بطريرك ما دام صوت الامة لم ينحز لجانب احد باجماع الاراء · ولقد سارت الكنيسة القبطية مدة من الزمن على قاعدة القرعة هذه وكانت تسمى

« هيكلية » لانها كانت تتم داخل الهيكل موكلة الى يد الله الذي عنده تدبير الامور

وعند ما حان الوقت لانتخاب خليفة للبطريرك مينا اصطفى الشعب من بين الرهبان مائة راهب (١) · وكان يشترط على الراهب المرشح للبطريركية ان يولد حراً غير رق من والدين شريفين وان يكون ابناً لفتاة بكر لم يسبق زواجها باحد قبل والد المرشح وذلك لان الكنيسة القبطية مع انها تسمح لابنائها ان يتزوجوا مرة ثانية بعد وفاة الزوجة الاولى ولكنها لا تعد الزواج الثاني مثل الاول في الاهمية والمنزلة والدليل على ذلك ان ما يسمونه تاج الاكاليل او هو عقد الاملاك لا يستعمل عند زواج الارمل والارملة ولهذا يتحتم ان يكون البطريرك ابناً لام عقدت لها الاملاك بمعنى انها بكر لم تتزوج قبل ولكن هذا الشرط لا يعمّ الرجل فانه يجوز تعيين ابن الارمل الذي يولد له من الزوجة الثانية بطريركا وهو تساهل للرجال وتمييز لهم عن النساء الضعيفات وتلك سنة العالم معهن من قديم الزمن · وتوجد شروط وروابط اخرى غير التي ذكرناها هي ان الذي يبتغي وظيفة البطريركية يجب ان يكون قوي البنية صحيح الجسم غير مشوه ولا متزوج وعمره خمسين سنة على الاقل · وينبغي ان لا يكون قد سفك دم انسان او حيوان · مصري

(١) من المؤكد انه في الاعصر الاولى كان بطاركة الكنيسة القبطية ينتخبون من غير الرهبان بدليل ان اكثر اولئك البطاركة كانوا متزوجين ولهم اولاد

الجنس عارف بلغة البلاد قد تربى تربية حسنة ذو سيرة طيبة وسلوك مستقيم وعقل واسع وعلم كامل وان يكون من غير الاساقفة ويعرف المذهب الارثذوكسي ويتمسك به تمسكا شديداً · ولم يكن يسمح للولاة المسلمين بالتداخل في امر الانتخاب مطلقاً فاذا اوصى الوالي المسلم بتعيين رجل ينتخبه هو لهذا الغرض فلا بد من رفض وصيته ولو كلف هذا الرفض حياة الامة

فلما اجتمع الشعب لفحص المائة راهب وجدوا خمسين منهم كاملة فيهم بعض الشروط وهؤلاء الخمسين صاروا خمسة وعشرين ثم عشرة ثم ثلاثة فقط يليقون لهذه الوظيفة · وكان من الممكن وقوع اختيار الامة على واحد من هؤلاء الثلاثة بدون اقتراح ولكن الآراء لم تتفق على ذلك ففوضوا امرهم الى القرعة لتفض المشكل · اما القرعة فكانت عبارة عن اربع قطعات من الورق كتب على ثلاث منها اسم المرشحين الثلثة وعلى الرابعة اسم يسوع المسيح ابن الله ووضعت الاربع ورقات في قارورة ووضعت القارورة تحت المذبح الى ان تقام الخدمة الكنائسية وتقدم الصلوات والابتهالات الى الله ليرشدهم في اعمالهم وقد تبقى هذه الخدمة مدة اربع وعشرين ساعة او اكثر

وعند انتهاء الفرائض الدينية يؤتى بصبي صغير ويشار اليه باستخراج ورقة واحدة من الاربع ورقات الموضوعة في القارورة تحت المذبح · فاذا جاء الصبي بورقة عليها اسم احد المرشحين فينتهي الاشكال ويتم تعيين الذي ورد اسمه في الورقة هذه · اما اذا كان على القرعة اسم السيد المسيح فيعتبر هذا علامة على عدم رضى الله عن هؤلاء الثلاثة المرشحين وتعاد العملية ثانية

وفي اول اقتراع جرى بواسطة «الهيكلية» اصابت القرعة راهباً اسمه يوحنا وهو رابع بطريرك بهذا الاسم جلس على كرسي مرقس اربعوعشرين سنة · وفي نحو هذا الوقت توفى البطريرك الرومي قزمان بعد ان جادل وناضل في مسألة تكسير الايقونات والتماثيل في الكنائس مما كان شائعاً في اوروبا و بلاد الشام ولكن الكنيسة القبطية لم تتداخل في هذه المباحثات لان عبادة التماثيل لم تكن من معتقداتها · فاذا رأيت الآن كنيسة قبطية فيها اثر للتماثيل والانصاب فاعلم انها كانت قبلاً للاروام وانتقلت للاقباط · ونحن نحمد الله حمداً كثيراً لان الامتين القبطية والرومانية اتفقتا على تحريم اقامة التماثيل فى كنائسهما واكتفتا بالصور والرسوم فقط

وقد صرف البطريرك يوحنا عنايته الى اعادة بناء الكنائس التي هدمت في الاضطهادات الاخيرة وربما دفع مصاريف البناء من ايراد خصوصي له اذ يعسر على العقل التصديق بان راهباً نظيره يملك شيئاً من المال الكثير لاتمام مثل هذه الاعمال المهمة · واعظم كنيسة شادها البطريرك يوحنا كنيسة ميخائيل رئيس الملائكة في الاسكندرية وهي التي اغاظت الاروام ببهائها وزخرفها فذهب واحد منهم الى الوالي المسلم ووشى بالبطريرك قائلاً ان الكنائس الجديدة اوسع من القديمة وهذا الاتساع جاءها من ارض الحكومة التي ادخلها يوحنا في كنائسه · وقد وجد الوالي المسلم فرصة مناسبة فرض فيها غرامة رابية على يوحنا دفعها هذا دون ان يوقف البناء يوماً واحداً

وفي هذا الزمن انتشر في مصر جوع وقحط شديد اذهب بثروة البطريرك

الذي صرف ماله في اطعام الجياع وسد حاجات البائسين · وقد اصبح الجوع داء موضعياً في مصر تكرر حدوثه بين آونة واخرى وسببه خبث الولاة المسلمين وخيانتهم واهمالهم امر المنافع العمومية اللازمة لري الاراضي فلم يطهروا ترعة وما حفروا مجرى للماء جديداً حتى ان الترع الموجودة ردمت على ممر السنين ولم تمر فيها المياه خصوصاً اذا كان النيل منخفضاً فان الشرق يعم البلاد و يعقبه جوع قاس · ولاسباب كثرة المجاعات ضعف المصريون وراحت منهم الثروة وصار الفقراء منهم يموتون من السغب او تقتلهم الحكومة الاسلامية للتخلص من اعالتهم · ومن الغريب ان احد ولاة مصر تنبه الى ضرورة تطهير الترع فساق اليها عدداً عظيماً من الاقباط ليس لديهم قوت يوم فماتوا من الجوع وبقيت جثثهم مكومة في الاماكن التي ماتوا فيها مما اوجد وباء وطاعوناً في البلاد زاد في شقائها وبلائها

وفي بداءة القرن التاسع كتب اول تاريخ عن مصر وضعه مؤرخ مسلم اسمه ابن عبد الحكم وهو يحتوي على فتح العرب مصر ولا يزال موجوداً اليوم هذا بخط اليد · وقد زاد بعض المؤرخين الحوادث التي وقعت في القرن الثاني والثالث للهجرة · ويذهب العارفون الى ان ابن عبد الحكم كان قبطياً واسلم بدليل ان الكندي الذي وضع تاريخه في نهاية القرن التاسع للمسيح يعرف بانه اول مؤرخ مسلم · وتاريخ الكندي يحتوي على وقائع القرن التاسع والعاشر للمسيح

الفصل التاسع والثلاثون

آخر ثورة هائلة للاقباط

سنه ٧٨٥ للمسيح و٥٠١ للشهداء و١٦٨ للهجرة

في سنة ٧٨٥ مسيحية (١٦٨ هجرية) مات الخليفة المهدي بن المنصور وخلفه ابنه الاكبر الهادي فلم يمكث سوى بضعة اشهر ومات فآلت الخلافة الى اخيه هرون الرشيد المشهور بميزات كثيرة اولها حربه مع اليونان — اوهم بقايا الرومانيين — وانتصاره عليهم وضربه جزية على القسطنطينية مقدارها سبعين الف دينار سنوياً . وكذا امتاز هرون على اسلافه بميله الى الادبيات ميلا دل على حسن ذوقه وسمو مداركه سوى انه لم يعمل كثيراً على مساعدة الآداب ونشرها في البلاد المستظلة برايته والعمل على تقدمها بقدر ما عنده من وسائل المنفعة وطرق الخير . ولم يكن الرشيد يثق باحد ليخول له سلطة كبرى على مصر لئلا يأول الامر باستقلال الولاة في هذه البلاد الاسيفة المعروفة بوفرة خيراتها وجودة تربتها وتطلع الناس الى امتلاكها . فلهذا السبب سار الرشيد في الطريق التي سلكها ابوه قبله من تغيير الولاة كل سنة مما جعل حال الحكومة في مصر مرتبكا لانظام لها ولا ترتيب . ومع ان الاضطهاد كف وقوعه على رؤوس الاقباط في مدة هرون الا ان هذا الخليفة كان ينظر الى الكنيسة القبطية وبطريركها بعين الريبة والخوف فكان يبذل جهده في التضييق عليهم والضغط على اعناقهم ضغطاً عنيفاً

وفي سنة ٧٩٥ تولى إمرة مصر عبيد الله بن المهدي اخو الخليفة هرون فأرسل الى اخيه فتاة مصرية آية في الجمال والمحاسن ليتخذها الخليفة حظية له . وقد نالت هذه الفتاة حظوى عظمى لدى هرون حتى انها لما مرضت حزن عليها واكتئب وداريبحث عن مشاهير الاطباء ليعالجوها ولكن هذه الغادة الحسناء قالت للرشيد انه لا يعرف داءها الا اطباء مصر الذين عرفوا بالمهارة والبراعة في فن الطب والجراحة . وكان هرون عارفاً بمقدرة اطباء مصر على معالجة الاسقام لانه اختبر ذلك بنفسه فارسل يطلب من مصر ابرع نطاسي فيها فسار اليه بوليشان البطريرك الرومي وكان من احسن الاطباء حكمة وعلماً وجاء بغداد واخذ يداوي خليلة الخليفة الى ان شفيت تماما وتماثلت للصحة والعافية . فسأله هرون ان يطلب ما يشاء اجرة لاتعابه فطلب البطريرك الروماني ان بعض الكنائس القبطية الموجودة تحت يد يوحنا بطريرك الاقباط تعطى له عطية لا ترد . وقد اجيب سؤله ونال مناه

وفي سنة ٧٩٩ تنيح يوحنا بطريرك الاقباط وبعده بسنتين لحق به بطريرك الاروام الذي خلفه رجل اسمه يوسطاثيوس كانت مهنته نسج الكتان ولكن السعد خدمه فعثر على كنز من المال في ضريح قديم فرفعه هذا الكنز من مقعد النول الى منصب البطريركية وذلك لانه وهب امواله الى كنيسته فاختاره الشعب بلا تردد . اما الاقباط فانتخبوا رجلا قادراً بارعاً مخلص النية سليم الطوية اسمه مرقس الذي عند ما جلس على السدة البطريركية توافد عليه رجال الطوائف والشيعات المختلفة المتعددة في مصر يطلبون منه

ان يضمهم مع اسقفهم الى حضن الكنيسة القبطية بعد ان ظلوا منفردين عنها بعيدين عن وحدتها منذ القرن الرابع الذي كثرت فيه البدع والهرطقات · فلما مثل اسقف هؤلاء المنشقين بين يدي البطريرك قبله بكل بشاشة واكرام واعلن له رغبته في الوحدة والالتئام ولكنه اراد ان يمتحنه ويمحص افكاره فاخبره انه لا يصادق على وظيفة الاسقفية التي له لانه يعتبرها غير قانونية وانه عند ما ينضم الى حضن الكنيسة القبطية ينزل لدرجة كاهن بسيط فقط · فقبل الاسقف المذكور هذه الشروط وانضم مع اتباعه الى حظيرة الكنيسة وحينئذ شرع البطريرك في اعادة تكريس كنائسهم فحورت جميع طقوسهم وفرائضهم لكي تتلائم مع طقوس الكنيسة القبطية وبعد مضي سنتين اظهر فيها الاسقف سلوكاً حسناً واعمالاً جليلة اعيدت رسامته اسقفاً قانونياً على رعاياه الاولين

وفي سنة ٨٠٨ (١٩٣هـ) مات هرون الرشيد فقام اولاده الامين والمأمون يتناصبان بعضهما العداء واستفحل الشر بينهما فقامت الحرب على قدم وساق وظلت سجالاً بين الطرفين مدة خمس سنوات انتهت بقتل الامين وتنصيب المأمون خليفة وقد ذكر شمس الدين المؤرخ ان ثمانية من الولاة تعينوا لحكم مصر في اثناء الخمس سنوات هذه ولكنهم لم يطأوا ارضها وما دخلوها ولا عملوا عملاً فيها · والذي يراجع اقوال مؤرخي المسلمين في ذلك الوقت يجدها مظلمة مبهمة متضاربة متناقضة لا يتضح منها شيء سوى ان عدواً اجنبياً طمح بابصاره الى مصر ليمتلكها فهاجمها من الجهة الشمالية الغربية · ويغلب على الظن ان هذا المهاجم كان مسلمو الاندلس (اسبانيا) الذين كانوا

قد اقاموا لهم خليفة خاصاً بهم وقطعوا كل علاقة لهم مع بغداد بعد ان قلبوا لها ولخليفتها ظهر المجن

فلما اقترب مسلمو الاندلس من القطر المصري وبدأوا يناوشونه ويهاوشونه انتبه العباسيون واخذوا في تحصين الاسكندرية وامدادها بالجنود وكذلك البطريرك القبطي مرقس سار اليها ليفتقد حال رعيته فيها · اما البطريرك الروماني خريستوفر الذي جاء بعد يوسطاثيوس فلم يرد له ذكر في وقت القلاقل لانه كان مسناً ضعيفاً لا يستطيع الحركة ولا يفيد بشيء ولذلك وجه البطريرك مرقس عنايته لجميع المسيحيين على السواء فلم يميز بين قبطي وروماني كما انه اظهر شجاعة واقداماً يشكر عليهما حتى انه اقتحم صفوف المقاتلين وسار بين بريق السيوف ولمعان المرهفات الى ان وصل لقائد الجنود ودفع فدية لجميع اسرى المسيحيين الذين نوى القائد اخذهم عبيداً ارقاء · وقد بلغ عدد الذين فداهم البطريرك مرقس من الاسرى نحو ستة الاف قبطي رجالاً ونساء واطفالاً صغاراً وزودهم بجميع ما يحتاجون اليه في سفرهم الى اوطانهم التي اخذوا منها قسراً · اما الذين اضاعوا الزرع والضرع ولم يبق لهم في بلادهم ما يقتاتون به فقد ابقاهم البطريرك في الاسكندرية واوجد لهم ما يقوم بحاجياتهم · وكثيرون من الاقباط الذين اضناهم الذل وذاقوا مر الظلم والاضطهاد اتحدوا مع مسلمي الاندلس طلباً للعدل والحرية وساعدوهم على اخذ الاسكندرية ولكن الاندلسيين ما اتموا ان وضعوا يدهم على الاسكندرية حتى احاط بهم مسلمو مصر احاطة السوار بالمعصم واعملوا

فيهم الصارم البتار وقتلوا نحو ثمانمائة منهم ولذلك اشتبكت الحرب بين الطرفين ووقعت الاسكندرية في مصاب عظيم حيث اطلقت فيها الايدي للسلب والنهب والفتك والذبح · وقد وصلت ايدي الطغاة البغاة الى كنيسة المخلص فنهبوا امتعتها ثم اشعلوا فيهـا النيران فدمرتها وعادوا واوقدوا نارا في جميع انحاء المدينة فصار كانها شعلة من اللهيب · ولما رأى البطريرك مرقس هذا الويل الهائل فرّ مع بعض اصدقائه واختبأوا في احد الاديرة المقفرة · ومع ان هذا البطريرك المفضال كان في ضيق وخطر ولكنه لم يتأخر لحظة واحدة عن اتمام واجباته بل كان يصدر التعليمات والارشادات لرعيته وهو منزو في ذلك الدير المهجور وظل على هذه الحالة خمس سنوات كاملة الى ان منحه والي مصر الامان على حياته وصرح له بالاقامة في دير وادي النطرون · وفي هذه الاثناء انتهت الهدنة التي كانت معقودة بين المسلمين وقاموا جميعهم ينهبون الاقباط ويسلبونهم ويستبيحون اموالهم وارواحهم

ذلك ان ولاية مصر آلت الى رجل اسمه عبدالله بن طاهر الذي عندما جلس على سدتها اباح لجنوده نهب الاديرة واحراق الكنائس والتمثيل بمعابد الاقباط وابادتها · فلما سمع البطريرك بهذه النازلة الجديدة ووقف على تفصيل تلك الاخبار المؤلمة اصابته حمى قتالة قضت على حياته واسكنته رمسه · وقد وقعت مصر في ذلك الحين في بلايا ثلاث اولاها مسلمو الاندلس الذين اخذوا الاسكندرية والانحاء البحرية واستباحوها والبلية الثانية عبد الله بن

طاهر الذي احتل الفسطاط ودمره والمصيبة الثالثة شخص اسمه عبد العزيز اشتد ساعده في مصر وصار نفوذه قويا وشروره لا يحتملها بشر · فان هذا الطاغية احرق الاهراء ومخازن الغلال حتى نتج من ذلك جوع وقحط في البلاد وكان غرضه ان يميت مسلمي اسبانيا جوعاً وسغباً · ومن ضمن رذائل عبد العزيز انه تداخل في انتخاب بطريرك بدل مرقس ولكن الاقباط رفضوا هذا التداخل بتاتاً واختاروا لمسند البطريركية رجلا اسمه يعقوب (اويا كوبوس) فحينئذ اقسم عبد العزيز باغلظ الايمان ان يقتل جميع الاساقفة ويدمر ما بقي من الكنائس القبطية ان لم يسلم يعقوب نفسه حالا · فلم يسع يعقوب الا الطاعة والاذعان وسار قاصدا عبد العزيز وهو واثق انه سيذوق مر العذاب ثم يتجرع غصص المنون ولكن الله جل اسمه ابتلى عبد العزيز بمرض عضال قصف به عمره وبذا نجى يعقوب من الموت

وعندما استتبت الخلافة للمأمون بن الرشيد جاء مصر بشخصه ليؤيد اركان السلام فيها ويوطد دعائم الامة في ارجائها · وكان اول عمل اتاه انه طرد مسلمي الاندلس ورشى عبدالله بن طاهر بمبلغ طائل من المال ليتنازل عن الولاية ويعود من حيث جاء · ثم اقام المأمون اخاه المعتصم والياً على مصر وسوريا معاً

وقد ورد في تاريخ ابي الفرج الاصفهاني ان دنيس بطريرك انطاكية زار مصر مرتين في ايام البابا يعقوب · ففي المرة الاولى وفد دنيس بحراً ونزل على مدينة صان (شرقية) فخرج سكانها وعددهم نحو ثلاثين الف قبطي

يتقدمهم البابا وكثيرون من الاساقفة لاستقبال بطريرك انطاكية واكرام وفادته . وكان دنيس هـذا عالماً متضلعاً بفن التاريخ يدلك على ذلك ان البطريرك القبطي لما التقى به ورحب بقدومه قال ان زيارة دنيس لمصر تعتبر اول زيارة من بطريرك انطاكي لها منذ ايام البطريرك ساويرس الاكبر . فرد دنيس على زميله يعقوب قائلا « اني اذكر خوتكم بزيارة البطريرك اثاناسيوس لكم عند ما جاء ليداوي جرح الشقاق الذي احدثه بطرس بطريرك انطاكية الاسبق ودميان بطريرك الاسكندرية المعاصر له . ولا ريب في ان اهمال مطالعة التواريخ توقع الانسان في غلطات تاريخية مهمة » . اما سبب مجيء دنيس الى مصر هذه المرة فكان ليحتج ضد تصرفات اخي عبدالله بن طاهر في اديسا (بانطاكية) حيث بلغ من الظلم والغشم مبلغاً عظيما . وقد تحصل دنيس على جواب من عبد الله لاخيه فيه ينهاه عن تخريب ما بقي من الكنائس في اديسا وان يكف عن شروره واثامه . وفي ثاني مرة جاء دنيس الى مصر مع الخليفة المأمون الذي عينه مع البطريرك يعقوب القبطي لاخماد ثورة الاقباط ووضع حد لعصيانهم . وقد كتب دنيس عن الاقباط يقول « وجدت بطريركهم واساقفتهم اتقياء ورعين متواضعين يحبون الله ويخافونه من قلوبهم . وقد اكرموا مثوانا واظهروا لنا كل بشاشة ولطف مدة وجودنا في مصر مما نشكرهم عليه شكراً مستفيضاً » وقد انتقد دنيس الاقباط في امرين مهمين اولها انهم يغفلون قراءة الكتاب المقدس ولا يهتمون بمطالعته كثيراً . والثاني فرضهم ضريبة مقدارها مائتين اوثلثمائة قطعة من

الفضة يدفعها الاسقف يوم رسامته وهو يعتبر هذا عبارة عن بيع المواهب الروحية بذهب وفضة . ومما آخذهم عليه ايضاً تأخيرهم عماد الاطفال مدة ثلاثين او اربعين يوماً بعد ولادتهم . وقد سر دنيس جداً من اثار مصر وعادياتها وكتب كتاباً يصفها فيه نشره بعد ان آب الى سوريا

قلنا ان المأمون جاء مصر ومعه البطريرك دنيس ليضع حدا لثورة الاقباط ولكن دنيس ويعقوب لم يفلحا في ايقاف الاقباط عن ثورة ظنوا انها تخلع عن رقابهم النير الاسلامي الثقيل . وقبل مجيء المأمون ارسل البطريرك يعقوب جواباً يظهر لهم فيه استحالة نجاحهم وانه خير لهم ان يخضعوا ويسيروا كما سار الرسل في عصرهم وخضعوا للسلطان الكائن اعتقاداً منهم انه لم يحمل السيف عبثاً وان العصيان يجلب سفك دماء غزيرة ويعقبه اضطهاد هائل . وكان البطريرك يرسل مثل هذه الجوابات الى زعيم العصاة على يد اساقفة ويزودهم بنصائح لم تنفع بشيء بل صم الثوار آذانهم عن سماع اقوال بطريكهم واتهموه مع اساقفته بالضعف والجبن وقالوا انهم عزموا ان يموتوا اشرافاً بحد الحسام من ان يعيشوا عبيدا تحت سلطة الظلم والعسف

ولما راى الخليفة ان الثورة قد استفحلت ارسل مدداً لعساكره ثم جاء مصر بنفسه ومعه دنيس كما سبق القول . فاوفد المأمون دنيس ويعقوب ليتفاوضا مع العصاة ويعقدا صلحاً معهم فلم ينجحا كما قلنا لان الاقباط غرّهم ما احرزوه من الانتصار وايضاً لم يأمنوا جانب الخليفة ولم يصدقوا مواعيده وخافوا شر انتقامه فرفضوا طلب البطريركين وردوهما على اعقابهما خائبين

فخاف المأمون ضياع مصر من يده وهي اغنى بلد واخصب بقعة في المملكة الاسلامية برمتها ولذلك جمع كل رجاله وامواله قاصداً اخضاع العصاة واذلالهم . فلما تكاثرت قوات المأمون تقهقر الثائرون الى ان وصلوا بابيلون وتحصنوا فيها ولكن جيش المسلمين اكتسح المكان ووضع السيف في رقاب الرجال اما النساء والاطفال فاخذوهم اسرى الى بغداد

ولم يكتف المسلمون بما نالوه من النصر ولا بقتل جموع الثائرين واهلاك عائلاتهم بل انتقموا من الاقباط انتقاماً تقشعر منه الانسانية فان اولئك القساة داروا في جميع انحاء البلاد يقتلون وينهبون ويبيعون الاقباط بيع السائمة حتى اضطرت الطبقة السفلى من هؤلاء الاقباط المساكين الى اعتناق الدين الاسلامي رغبة في الخلاص من الموت . ومن ذلك الحين وعدد الاقباط صار يتنازل في مصر الى ان قل عن عدد المسلمين . وقبل هذا الزمن كان المسلمون يوجدون في الجيش او في المدن الكبرى على نسبة قليلة من عدد سكانها ولكن بعد هذه الثورة المشؤومة ارتد نحو ربع السكان عن الايمان الصحيح كما ان العرب اتخذوا القرى موطناً لهم وصاروا يفلحون الاراضي التي اغتصبوها من الاقباط وبذا زاد عددهم وقويت عصبيتهم

وبعد ان هدأت الاحوال وسكنت العواصف الثائرة عزم البطريرك يعقوب على تجريد اسقفي بابيلون وصان من وظيفتيهما لسوء تدبيرهما وعدم سماعهما نصائح البطريرك . فلما جرد هذين الاسقفين ارادا ان ينتقما منه

فذهبا الى الامير افشين الذي عهد اليه امر قيادة الجنود الاسلامية واطفاء جذوة الثورة واخبراه ان البطريرك يعقوب الذي كان يتظاهر بالسعي في اخماد نار العصيان هو في الحقيقة مشعل لهيبها وموقد شعلتها . فللحال ارسل افشين ثلة من الجنود دون ان يفحص هذا القول ويتبين صحيحه من فاسده وامرهم ان يهجموا على البطريرك في كنيسته حينما كان يؤدي الخدمة الدينية ويقتلوه قتلاً . وكان من حسن حظ البطريرك ان بعضهم اخبره بهذه المكيدة فترك الكنيسة قبل ان تصلها العساكر وسار الى الامير بقدم ثابتة وشجاعة مأثورة وبرهن له على براءته وفساد هذه التهمة وحينئذ تحول غضب افشين ضد الاسقفين الخائنين وامر باعدامهما ولكن البطريرك توسل اليه ورجاه ان يعفو عنهما ويسامحهما

فوقع طلب العفو هذا عند الامير موقع الاستغراب ولم يفهم له معنى ولا ادرك كيف يعفو البطريرك عن عدوين لدودين سعيا لاهلاكه . ولو عرف هذا الامير كنه الديانة المسيحية وفهم انها ديانة تساهل وتسامح لا انتقام وحقد لما عسر عليه معرفة الداعي الذي ألجأ يعقوب الى مسامحة خصميه . فلما لم يجد افشين حلاً لهذا اللغز رفع الامر برمته الى الخليفة الذي كان يتوقع فرصة كهذه بها يعمل جميلاً مع البطريرك يعقوب ولذلك اصدر امراً يقضي بأن كل حكم يصدر من البطريرك ضد اي قبطي كان لا يجوز استئنافه الى السلطة الدنيوية . وقد ظل يعقوب باقي ايامه في أمن وراحة مع انه صرف

هذه الايام القليلة حزيناً كئيباً لما اصاب شعبه من الويلات والمصائب ومات حالاً بعد انقضاء الثورة

وقد امتاز المأمون عن غيره من الخلفاء والولاة بميله للوقوف على علوم القدماء وآدابهم وآثارهم تمدنهم مما سعى آباؤه واجداده في طمس معالمه وازالة رسومه . وقد امر بترجمة كثير من الكتب والمؤلفات المصرية والعبرية والسريانية واليونانية الى اللغة العربية وهذه الكتب قد وصلت الى اوروبا عربية صرفة فظنها صغار العقول انها من بنات افكار العرب الذين قلّ أن وجد بينهم شخص في ذلك الحين يفهم لهذه العلوم مغزى . والدليل على ذلك ان اكثر المسلمين في ذلك الوقت اغتاظوا وحنقوا من تملق المأمون بهذه المعارف والادبيات وعدوا عمله هذا كفراً اوزندقة اتباعاً لرأي عمر بن الخطاب عند ما أمر بحرق مكتبة الاسكندرية مستنداً الى تلك القضية المنطقية الفاسدة التي مر بك شرحها . وكان عمل ائمة المسلمين هذا شؤماً عليهم لان المأمون اضطهد كل مسلم ذهب الى ان القرآن منزل غير مؤلف ثم تطرف هذا الخليفة واصدر منشوراً يقول فيه ان القرآن يعد طبقة ثالثة بعد محمد وعلي

اما زمن موت المأمون فلا يعرف بالضبط وقد اعقبه اخوه المعتصم الذي كان والياً على مصر وسوريا . ومع ان المعتصم هذا ابن لهرون واخ للمأمون ولكنه كان عربياً صرفاً بمعنى انه اميّ جاهل لا يدري القراءة ولا الكتابة شهواني من الطبقة السافلة ولكنه كان شجاعاً لا يهاب الموت ولا يهمه أمر جسده . وكانت المملكة الاسلامية في ذلك الوقت ملأى من العبيد

والارقاء الذين اخذوا اسرى حروب اودفعوا جزية كما فعلت ممالك السودان . وبين هؤلاء الاسرى عدد يذكر من الاتراك الذين شابهوا ساداتهم العرب واتخذوا الحرب والضرب صناعة لهم ولكنهم لم يشابهوهم في شيء من العلوم السطحية التي اقتبسها اولئك العرب من الامم التي اختلطوا بها . ومع ان العرب كانوا كما وصفناهم لا يعرفون شيئاً ولكن ظهر منهم رجال برعوا في بعض العلوم والفنون اما الاتراك فلم يظهر منهم احد سوى الذين امتزجوا بدم اجنبي اضاع الدم التركي . ولقد اظهر المعتصم ميلاً الى اسرى الاتراك وجمع منهم جيشاً مخصوصاً قوي ساعده فيما بعد حتى خافه الخليفة ولم يستطع الاقامة في بغداد خوفاً من هذا الجيش لئلا ينقض عليه . وقد بزغ بين اسرى الاتراك رجل اسمه طولون رزق بولد له شأن يذكر في تاريخ مصر سيجيء الكلام عنه بالتفصيل فيما يلي

الفصل الاربعون

﴿ مقابلة ولي عهد السودان للخليفة ﴾

سنة ٨٣١ للمسيح و٥٤٧ للشهداء و٢١٦ للهجرة

قلنا في الفصل السابق ان البطريرك يعقوب مات وقلبه مفعم بالحزن لما رأى ما حل برعيته من البلاء الاكبر عند ما شرعوا في طرح نير مضايقيهم المسلمين . ثم جاء بعد يعقوب بطريرك اسمه سيمون (او سمعان) لم يعش سوى

اشهر قلائل . وبعد موته وقع الخلاف بين الامة القبطية في تعيين خلفه ذلك لان حزباً كبيراً من الاقباط برأسه زخاري اسقف اوسيم وتاودروس اسقف بابيلون صمم على انتخاب رجل اسمه ايساك اشتهر بالثروة الطائلة والعلم الكثير والاصل الطيب وكان عيبه الوحيد الزواج الذي جعل الحزب الثاني يرفضه ما دام له زوجة واولاد . والذي اوجد هذا الخلاف هو ان الاقباط واساقفتهم في ذلك العصر كانوا مثل اخوانهم في العصر الحاضر لا يعرفون ان البطاركة والاساقفة في الايام الاولى كانوا متزوجين ولهم اولاد وما درسوا عن بطريرك تزوج الا ان يكون ديمتريوس الملقب بالكرام الذي يعتقدون عنه لحد يومنا هذا ان زواجه كان اعجوبة بمعنى انه لم يعرف امرأته بل عاش معها عيشة الاخ مع اخته وهو قول فاسد منقوض من كل وجه . وكان يرأس الحزب المعارض ميخائيل اسقف البحيرة ويوحنا اسقف بنا وابوصير اللذان استندا على العادة الجارية والاصول المتبعة التي تجعل الزواج حجر عثرة في سبيل اسناد وظيفة بطريرك لرجل تزوج كما ان تغيير هذه العادة يسيء كنيسة انطاكية التي سارت عليها كالكنيسة القبطية ويفرح الكنيسة الرومانية التي تتمنى ان تجد مغمزاً او مكاناً للضعف والانتقاد في الاقباط فتهاجمهم وتعاكسهم . ولهذه الاسباب الواهية والبراهين الضعيفة التي لا يزال يتحجج بمثلها ضعاف العقول في هذه الايام فاز المعارضون ورفضوا انتخاب ايساك واختاروا رجلا اسمه يوسف رئيس دير انبا مقارة . وكان في الوجه البحري نائب اقامه الوالي المسلم عرف بالظلم والعسف فلم يرضه تعيين يوسف بل

طلب انتخاب ايساك تطلعاً منه الى ثروته وطمعاً في ان يأخذ رشوة منه وافرة والا اذا اصرّ الاقباط على اختيار يوسف فعليهم ان يدفعوا الف قطعة من الذهب لهذا الفرض . ولكن سلطة هذا الحاكم الغاشم لم تكن ممتدة لحد بابيلون فخطر على بال الاساقفة ان ينتقلوا لهذه المدينة ويتمموا رسامة بطريكهم لكي يخلصوا من ظلم هذا الرجل وجوره

ولنعد الآن الى حكاية ممالك السودان المسيحية ونشرح لك شيئاً عنها فنقول ان هذه الممالك نمت وقويت وصارت ذات بطش يخشى منه حتى انها توقفت عن دفع جزية العبيد التي فرضها عليهم المسلمون ولم يرسلوا رقيقاً واحدا في ايام المأمون والمعتصم . ولا ريب ان هذه الجزية الثقيلة الفظيعة اوجدت متاعب وحروباً مستمرة بين الممالك السودانية فضلا عن انها كانت منافية تماماً لمبادئ الديانة المسيحية وتعاليمها

والذي اوقف سير هذه الجزية ومنع تقديمها هو جرجس ولي عهد المملكة الشمالية المتاخمة مصر فانه اقنع والده الملك زخاري بابطالها في الوقت الذي كان المسلمون مشتغلين فيه باخماد ثورة الاقباط الهائلة . ولكن عندما وردت الاخبار بانهزام الاقباط وتعقب المسلمين لهم واعمال السيف في رقابهم وانتقامهم منهم انتقاماً شنيعاً بربرياً خاف الملك زخاري سوء المغبة وفاوض ابنه في هذا الامر الا ان هذا الابن الشجاع اصرّ على رأيه الاول ورضي باحتمال كل مسئولية في هذا الصدد . واخيراً عوّل زخاري ان يرسل ابنه جرجس هذا في مأمورية الى الخليفة بها يقدر يستطلع احوال المملكة

الاسلامية ويقف على حالة البلاد وقوة الجيش وما عند المسلمين من حصون وقلاع ومال وبالنتيجة كل ما تهم المحارب معرفته . وقد قال الملك لابنه انه عند عودته سالماً ومعرفته احوال المسلمين اذا شام بارقة نجاح في محاربتهم والانتصار عليهم فهو لا يتأخر عن اعتقال السلاح وضعضعة اركان مملكتهم . اما اذا اتضح له ضعفه امام قوتهم فهو مضطر ان يرضخ ويؤدي الجزية كما كانت

وكان لا بد للملك زخاري من انتحال سبب به يرسل ابنه الى الخليفة فورد على فكره الامر التالي : هو ان كثيرين من المسلمين استوطنوا بلاده واتخذوها دار اقامة لهم واشتروا الاراضي الخصبة في جهة اسوان من السودانيين الذين كرهوا بلادهم لكثرة ما قاسوه من الاهوال عند اخذ اولادهم لسداد الجزية وجعلهم عبيداً ارقاء فضلاً عن ان المسلمين اغروهم بالاثمان الطائلة فباع السودانيون املاكهم واطيانهم وكثر عدد المسلمين كثرة خشي منها زخاري وتضايق جداً وخاف على بلاده وعرشه من وجودهم عنده . فسواء صحت هذه الدعوى او ان زخاري اتخذها وسيلة ليفتتح بها الكلام مع الخليفة فهو عول على ارسال ابنه للاستكشاف واستطلاع حال المسلمين . ولكن هذه الدعوى كانت صحيحة من طبعها لان زخاري ذهب الى ان بيع هذه الاراضي يعتبر فاسداً غير شرعي ما دام ان البائعين هم عبيد للملك وخادمون له ولا حق لهم ان يتصرفوا في اراضيه سوى ان يستأجروها ويزرعوها فقط لا ان يبيعوها

ويظهر ان اخبار هذه المباحث وصلت آذان المسلمين فخشوا نتائجها وخافوا فقدان املاكهم فبذلوا مالاً طائلاً للسودانيين المسيحيين واسترضوهم بجميع انواع الاستعطاف والالتماس ان يقولوا امام المحكمة ان هذه الاراضي خاصة بهم لا بالملك وانهم احرار ليسوا عبيداً له . فلما رفعت هذه القضية الى القاضي المسلم اصدر حكماً ضد رغبة الملك قال فيه ان هذا البيع صحيح لا جدال فيه وان الارض التي في حوزة المسلمين تعتبر ملكاً حلالاً لهم لا ينازعهم فيها منازع

فلم يحرك الملك ساكناً لهذا الحكم وظل ينتظر نتيجة مأمورية ابنه اذ تكون حينئذ القول الفصل في هذه المسألة وغيرها . وقد رأى جرجس في طريقه من دلائل القوة الاسلامية وعلائم الاستعداد الحربي ما جعله يحكم بعدم استطاعة السودان مقاومة هذه القوة العظمى وانه لا بد من البقاء على تلك الحالة الحاضرة حتى يقضي الله امراً كان مسطوراً . وكان الخليفة عارفاً باهمية السودان فرأى من الصواب ان يهادنه ويسالمه ولذلك احتفى بقدوم جرجس واكرم ضيافته واحباه بهدايا فاخرة واجاب طلباته كلها . وقد سمع الخليفة قول جرجس ان مصر والسودان صارتا في اشقى حال من جراء جزية العبيد التي تدفع سنوياً فأمر بابطال هذه الجزية السنوية والاكتفاء بها كل ثلاث سنوات مرة . ثم منح جرجس رخصة بالافراج عن جميع المسيحيين المسجونين بما فيهم اسرى الحروب وغيرهم . وبين الهدايا التي اقتبلها جرجس من الخليفة قصر في الجيزة وآخر في الفسطاط بشارع بني وائل . وقد افاد

هذان القصران جرجس اذ نزل فيهما كل المدة التي اقامها في مصر عند عودته حيث سوّى مسائل كثيرة مع البطريرك يوسف منها انه طلب من البطريرك المذكور ان يكرّس مذبحاً خشبياً ينتقل مع ابيه الملك عند ما يكون في سفر حتى بواسطته يمكنه تأدية الخدمة الكنائسية · وقد شيع البطريرك جرجس عند رجوعه الذي بعده قرّ الرأي على عدم محاربة المسلمين بالمرة

وفي مدة رئاسة البطريرك يوسف جاء مصر مطران الحبشة المصري هارباً من وجه ملكتها التي كانت تؤدي اعمال المملكة بدل زوجها المتغيب في حروب ضد اعدائه · ويظهر من قرائن الاحوال ان هذا المطران اساء الى الملكة وهيج غضبها فأرادت ان تعدم حياته فعمد الى الفرار لمصر وذهب تواً الى ديره واقام فيه فلما آب الملك منهزماً امام خصمه وعلم بما فعلته الملكة مع المطران غضب جداً ولام قرينته على فعلتها وانفذ رسولاً الى بطريرك الاقباط يعتذر له عما فرط من زوجته ويتوسل اليه ان يعيد المطران ثانية · فقبل البطريرك والمطران رجاء الملك وعاد هذا الى بلاد الحبشة فرحب به ملكها ولكن الشعب ظل نافراً منه ولم يكرمه كالاول

واشتهر البطريرك يوسف بقوته الادبية وتقواه وامتلاء روحه من المبادىء المسيحية الصحيحة · وقد استمال الخليفة اليه حتى بطلت جميع الاضطهادات والاضطرابات ضد الاقباط كما انه كان ذا نفوذ قوي وسلطة متينة في بلاد الحبشة وكذلك اكتسب صداقة بطريرك الاروام صفرونيوس نخبت نار الشقاق بين الامتين القبطية والرومانية واستراح بال البطريرك

من كل منازعة وخصام فصار يؤسس المراكز الدينية خارج القطر المصري ويرمم دعائم الكنيسة القبطية التي كاد بناؤها ينهار لشدة ما اصابها من الاضطهاد والضيم

وكان الاضطهادات والظلم كتبا على هؤلاء البطاركة المساكين فلم ينج واحد منها ولو كان من اعز اصدقاء الخلفاء والولاة معاً · فان البطريرك يوسف اخذ نصيبه من الاضطهاد وكان الذنب في ذلك واقعاً على رأس كاهن قبطي سبب له جميع هذه المصائب والاحزان · وتفصيل الحكاية ان قساً اسمه تاودروس كان صديقاً لاسحق اسقف اوسيم ومعيناً له في اعماله وضع قلبه على مسند الاسقفية عند موت اسحق واراد ان يكون اسقفاً بعده ولكن البطريرك رفض تعيينه بدعوى ان شعب الابروشية المشار اليها طلبوا تعيين غيره بكل رجاء والحاح · فرفع تاودروس دعواه الى والي مصر الذي اتخذ هذه المسألة حجة بها ينهب ويسلب ويرتشي ويتبرطل واصدر امره الى البطريرك مشدداً بتعيين تاودروس اسقفاً لاوسيم فرفض البطريرك امر الوالي ولذلك اصدر الحاكم الظلوم امراً بابادة جميع الكنائس القبطية في الفسطاط وبابليون فبداء الهدم اولاً في الكنائس القديمة الموجودة في قلعة بابليون التي يسميها العرب بقصر الشمع (١) وقد ألح الاقباط كثيراً على بطريركهم باجابة طلب الوالي حتى لا تخرب الكنائس فلم يسع البطريرك الرفض وسام تاودروس اسقفاً لاوسيم ولكن بعد ان دمرت الكنائس وانقوضت

(١) اصل هذه الكلمة غالباً (قصر الخيمي او الشيمي) ومعناها قصر مصر

اركانها . ولم يكتف الوالي برسامة تاودروس بل طلب من البطريرك غرامة قدرها ثلاثة آلاف قطعة من الذهب جمعها الاقباط حالاً ودفعوها له وبذا كف الاضطهاد عن كنائسهم وبطريكهم

وما كادت مسألة تاودروس تنتهي حتى ظهرت مسألة اخرى اوجدها اسقف بابيلون الذي تصرف تصرفاً غير محمود ولا ممدوح . ذلك انه طلب ابدال مركز اسقفية بابيلون — وهي من المراكز المهمة — بمطرانية وترقية حضرته من رتبة اسقف الى مطران حتى بذلك يخرج من تحت سيطرة البطريرك ويكاد يساويه في الاهمية (١) وما اكتفى هذا الاسقف بما طلب من البطريرك بل رفع مسألته الى المحكمة الشرعية الاسلامية . وقد استعمل البطريرك يوسف طريقة الحكمة والسداد في هذه المشكلة فلم يوقع ابنه في مصيبة جديدة بل عمد الى الامر الذي اصدره الخليفة السابق المأمون القائل ان كل قبطي يجب ان يرضخ لحكم البطريرك الذي لا يجوز استئنافه

(١) في هذا الوقت كان بطريرك الاروام قد رفع اربع اسقفيات الى مطرانيات ضمنها بابيلون وكان غرضه من ذلك ان يرفعها في عيون الناس على اسقفيات الكنيسة القبطية الاصلية . ولما كانت بابيلون قريبة للفسطاط مقر الولاة المسلمين ولها اهمية عظمى في عيون الاسلام قام اسقفها القبطي وطلب من البطريرك رفعها الى مطرانية وترقية جنابه الى مطران حتى يكون مساوياً لنده الرومي الا ان الوسائط التي استعملها هذا الاسقف كانت غير جائزة ومحتقرة . (وامل القراء يذكرون ان سبب ترقية لاساقفة لمطارنة في هذا العهد هو لان رهط الاقباط الكاثوليك في مصر عين مطرانين في المنيا وطهطا !!!)

للولاة المسلمين . فلم يسع الوالي المجادلة والبحث في هذا القول بل صمت وخرص . ولم يكن البطريرك يوسف يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية فكان جداله مع الوالي بواسطة ترجمان

وفي ذلك الوقت جلس على كرسي الخلافة المتوكل وهو الابن الثاني للمعتصم وولى ابنه المنتصر إمرة مصر . وكان الخليفة وابنه متعصبين جداً يكرهان الاقباط كرهاً شديداً مع انهما كانا يحتاجان الى خدماتهم ويستعملانهم في الاعمال الهندسية والحسابية والطبية وفي كل شغل يحتاج الى علم وذكاء وامانة ونباهة ومع ذلك فانهما عاملاهم بالقسوة والحيف وضايقاهم كثيراً حتى اضطر كثيرون من المسيحيين المستخدمين عند الخليفة والوالي الى نسيان الواجبات المسيحية المطلوبة منهم وتراخوا في شأنها حتى اهملوا امر ديانتهم بالمرة . وحدث ان مهندساً رومانياً اسمه اليعازر جاء مصر وبيده امر من الخليفة يقضي بخلع جميع حجارة الرخام واعمدة المرمر الموجودة في الكنائس القبطية ونقلها الى بغداد لوضعها في عمائر الخليفة ومنازله . واول كنيسة اخذ هذا المهندس الدنيء رخامها كانت كنيسة مارمينا الموجودة في مريوط وقد مر بك وصف جمال منظرها وزخرفها وانها احسن كنيسة قبطية في مصر ولم تفد تضرعات البطريرك يوسف ولا توسلاته الحارة في البقاء على هذا المعبد الفخيم بل ان يد الدناءة والخسة دمرته تدميراً . قيل ان اليعازر المذكور ندم بعد ذلك على ما فرط منه وارسل مبلغاً من المال الى خليفة هذا البطريرك ليرمم به تلك الكنيسة التي خربها بيده

ولم يمكث المنتصر طويلاً في مصر بل رحل عنها وعين نائباً يقوم مقامه
اسمه اسحق بن يحيى وكانت فاتحة اعمال هذا النائب اضطهاد البطريرك القبطي
اضطهاداً فظيعاً حتى انه ذاق العذاب الواناً في نهاية حياته . من ذلك انه
عندما توفي بطريرك انطاكية وقام خلفه مكانه ارسل هذا الخلف الرسالة
المعتادة الى البطريرك القبطي يخبره بتعيينه ويقرئه السلام ويطلب منه
امداده بنصائحه . فعمل البطريرك يوسف بواجب اللياقة وذهب من مصر
للاسكندرية ليستقبل الوفد المرسل من بطريرك انطاكية ويحييه . فانتهز
الوالي هذه الفرصة والقى القبض على البطريرك بدون سبب وبدون ذنب
ثم جلده جلداً عنيفاً في الشوارع العمومية امام الوفد الانطاكي . فاذا كان
هذا الوالي الظالم يقصد من معاملة البطريرك القبطي بهذه الكيفية تحقيره
امام الاجانب الوافدين عليه فقد ساء فاله واخطاء في قصده فان رسل
بطريرك انطاكية كتبوا تقريراً يعجبون فيه من صبر هذا البطريرك على
احتمال المصائب ويثنون على تقواه وشجاعته

ولم يكتف هذا الوالي المشؤوم بما فعل بل تعدى الى اهانة البطريرك
يوسف اهانة شديدة اذ دخل عليه في معبده الخصوصي ومعه سراريه
ومحظياته اللواتي دنسن المكان المقدس بعهرهن وفجورهن فقبل البطريرك هذا
الفعل القبيح حامداً شاكراً . واخيراً اتهم هذا الوالي الظلوم البطريرك
يوسف بانه يدبر مؤامرة ومكيدة مع بطريرك الاروام ضد الدولة الاسلامية
وعلى هذه التهمة الفاسدة طرح البطريرك يوسف في سجن ضيق لا يمكنه ان

ينام فيه ولا تنفذه شمس او نور وصار يجلد كل يوم جلداً يسيل منه دمه .
وقد فهم الاقباط حينئذٍ ان الغرض من هذا العمل هو اخذ الرشوة المعتادة
فاسرعوا وجمعوا الف قطعة من الذهب وقدموها للوالي ليفرج عن بطريكهم
ولكن هذا البطريرك البائس كان قد بلغ من العمر اشده وقد انهكت الآلام
قواه وبيضت الاحزان عيناه واحنت المصائب ظهره فلم يعش بعد خروجه
من السجن سوى ثلاثة اسابيع فقط وانتقل لرحمة مولاه سنة ٨٤٩ وهو يحمد
الله الذي ساعده على اتمام امور ثلاثة كان يميل الى اتمامها من كل قواه وهي
انه اوجد صلة حبية بينه وبين كنيسة انطاكية وانه قدر ان يصلح الكنيسة
القبطية ويشدد عزائمها وانه نظم الاعمال الكنائسية في السودان والحبشة وتمكن
ربط الاتحاد بينها وبينه

ولما كانت يد الله فوق كل يد فقد ضرب الوالي الذي عذب البطريرك
يوسف بضربات مؤلمات قصفت عمره قبل ان يتوفى البطريرك بايام قلائل
وسار الى حيث يؤدي حساباً عن ظلم ارتكبه وشر جناه واثم زرعته يداه في
هذا العالم سوف يحصد ثماره في العالم الآتي

الفصل الحادى والاربعون

احمد بن طولون

سنة ٨٤٩ للمسيح و٥٦٥ للشهداء و٢٣٥ للهجرة

جلس على السدة البطريركية بعد يوسف خائيل الثاني الذي طلب

منه الولاة المسلمون مبالغ طائلة يدفعها رشوة لهم حتى التزم ان يبيع اواني الكنائس ويسدد المطلوب · ولم تطل مدة هذا البطريرك سوى سنة واحدة ومات فاضطر الاقباط المساكين الى دفع رشوة جديدة لاجل تعيين بطريرك جديد وذلك قبل ان يفرغوا من همّ تلك الرشوة السابقة · فاختير البطريرك من رهبان دير انبا مقارة واسمه قزمان الثاني وكانت مدة رئاسته سبع سنوات أفتتحت بازدياد الاضطهاد الذي بداء في ايام البطريرك يوسف الاسبق واخذ ينمو ويكبر في مدة قزمان حتى بلغ نهاية الصرامة والفظاعة · فقد اصدر الخليفة المتوكل الامر تلو الامر ضد المسيحيين عموماً في جميع انحاء المملكة الاسلامية وخصوصاً مصر التي لم يبطل فيها الاضطهاد سنة واحدة من قديم الزمان · والذي يقراء هذه الاوامر من ابناء هذا العصر يظنها غير شديدة لا يقصد منها الاضطهاد ولا العذاب بل هي وضعت لازعاج خاطر المسيحيين وتكدير صفاهم ولكن منطوق تلك الاوامر كان الغرض منه اذلال المسيحيين وتكدير انوفهم والاذلال في ذلك الوقت هو الاضطهاد والتعذيب · ولنضرب للقارئ امثلة على علائم الذل التي وضعها المسلمون للاقباط · فقد جرت عادة تلك الايام ان النساء فقط يلبسن المناطق والاحزمة والحياصات حيث هي علامة للحشمة والتواضع اما الرجال فلا يجوز لهم التمنطق بهذه المناطق · فصدر الامر حينئذٍ بمنع نساء الاقباط من استعمال هذه الاحزمة وان رجال الاقباط يلبسونها بدل النساء والا وقعوا تحت طائلة الاضطهاد والقصاص · فالغرض من ابدال لبس النساء بالرجال هو تحقير الاقباط وتهزئتهم

حتى اذا خالفوا الامر اما توهم او سلبوهم · ومن ذلك انه كان لا يجوز للقبطي ان يركب سوى حمار صغير او بغل ذميم على بردعة او سرج وضع عليه علامة مخصوصة · ولا بد ان تكون الركابات من خشب بدل الحديد وان يكون اللجام قطعة من حبل فقط · ومنها انه يحتم على القبطي ان يخيط في اردان ثيابه رقعة طولها اربعة قراريط بلون عسلي او اصفر كيفما كان لون ثيابه وان كل سيدة قبطية تلبس برقعاً عسلي اللون (١) وما كانت المرأة القبطية تلبس البرقع قبل هذا الزمن الذي نحن في صدده ولكنها اضطرت الى لبسه اضطراراً حتى اذا سارت في الشوارع لا يميزها احد عن الامرأة المسلمة فلا تشتم ولا تهان · وقد الزم الاقباط ان يضعوا على ابوابهم تمثالا خشبياً يمثل نسناساً او كلباً او عفريتاً · وقد منعوا من ايقاد انوار او عمل احتفالات او اعراس وحجر عليهم استعمال الصليب المقدس حتى في الخدمات الكنائسية وان لا يوقد القبطي ناراً في وجاق بدون باب ولا يطبخ طعاماً على مرأى من الناس كما جرت بذلك عادة الفقراء في كل بلاد المشرق

وقد سئم الاقباط وتململوا من هذه الاوامر الثقيلة ولكن الاساقفة بذلوا جهدهم في تحميل الشعب على قبولها حتى لا يسيئوا الى الحكام المسلمين اساءة تعود عليهم بالويل والثبور والاضطهاد والعذاب · وكان اصعب شيء على الشعب القبطي لبس المنطقة التي يستعملها النساء لانهم رأوا فيها

(١) ظهر لي من مصادر عديدة ان هذا البرقع العسلي او الاصفر اللون كان خاصاً بالمومسات فقط قبل ان تجبر القبطيات على استعماله

دلائل الصغار والذل والخجل المعيب ولكن الاساقفة افهموهم بانها ضد ذلك تدل على التواضع والحشمة وانه يترتب عليهم لبسها حتى في الكنيسة ووقت الصلوة · ولما انف الاقباط من ركوب تلك الحمير الصغيرة والاتن القصيرة ذكرهم الاساقفة بان يسوع نفسه ركب جحشاً ولم يخجل وان الخيل المطهمة علامة الكبرياء والعظمة وهي لا تستعمل الا في الحروب

وقد صدر بعدئذ امر جديد غاية في القسوة والصرامة وهو يقضي برفت كل قبطي من خدمة الحكومة بدون استثناء وهو امر لم يسبق له مثيل حتى في ايام الاضطهاد الفظيع لانه لم يكن في استطاعة الحكومة الاسلامية ان تقوم باعمالها بدون مساعدة الاقباط وتعضيدهم لها · وقد كان لهذا الامر وقع سيء اذ جلب شقاء كبيراً على عائلات كثيرة

ثم ان جميع الكنائس التي اعيد بناؤها بعد الثورة الاخيرة هدمت ولم يبق فيها حجر على حجر وكذلك قبور الاقباط ومدافنهم في القطر باسره نبشت وازيلت · ومن ذلك الحين والاقباط اليائسون اصبحوا فريسة لوحشية جيرانهم المسلمين ووصلوا الى حالة لم تصل اليها امة من قبلهم ولا وصلتها امة بعدهم · فقد خيم عليهم الشقاء وضرب البلاء اطنابه في جميع البلاد لشدة جور المسلمين وعنفهم وعسفهم واضطهادهم لهؤلاء المساكين وتضييقهم عليهم حتى بلغت ارواحهم التراق ولم يعد لهم جلد على هذه الحالة · ولو وقف المصاب عند هذا الحد وكف الظالمون ايديهم فيما بعد لحمدنا الذي مضى ولكن استفحل الشر وطفح الكيل عند ما صدر امر من الخليفة او من والي مصر

القصد منه ملاشاة المسيحيين ومحو آثار الديانة المسيحية من القطر المصري وفحوى هذا الامر ابطال الصلوة على كل ميت قبطي واقفال جميع الكنائس فلا تؤدى فيها خدمة قط وتقليع جميع اشجار العنب واتلاف الكروم ومنع بيع النبيذ حتى لا يجد الاقباط خمراً لاتمام فريضة العشاء الرباني · وقد نفذ هذا القرار الاخير بالدقة حتى صار من المستحيل ايجاد عنب او نبيذ في بر مصر بعد مضي مدة قليلة من الزمن ولكن الاكليروس القبطي في ذلك الوقت كان لا يخاف الموت ولا يخشى الاضطهاد والعذاب فهو لم يكف عن اتمام فريضة العشاء الرباني ولو ان العنب والنبيذ منعا من مصر ولكنهم كانوا يأتون بعنب من البلاد الاجنبية سراً ويصنعون منه الخمر المقدس كلما يحتاجون لذلك ولكن هذا العنب كان ينشف حين وصوله لمصر ويصير زبيباً يضعه الكاهن في الماء برهة ثم يعصره قبل ان يختمر لعدم وجود وقت كافٍ · فهذه المادة التي سار عليها كهنة الاقباط في ذلك الزمن وتجددت مرة اخرى بعد مضي مائة وخمسين سنة لحدوث اضطهاد وضيق آخرين اوجد عند مؤرخي هذا العصر فكراً هو ان الاقباط يستعملون على الدوام نبيذاً غير مختمر للمناولة · فهذا الفكر صحيح من وجه لان الاقباط استعملوا هذا النبيذ الغير مختمر وذلك في ظروف حرجة يعذرون عليها ولكنهم لم يمارسوه على الدوام كما ظن البعض

وفي نحو سنة ٨٥٢ وجه الرومانيون انظارهم لاعادة مصر الى قبضة يدهم واحتلوا دمياط مدة من الزمن فاضر عملهم هذا بالاقباط ضرراً عظيماً لان

المسلمين شددوا النكير على المسيحيين بوجه عام وصدرت اوامر الاضطهاد والجور ضدهم فاصاب الاقباط الجزء الاكبر منها كما هي عادة الزمان معهم في كل حين · وقد توفى البطريرك قزمان الثاني في هذه الايام السوداء وخلفه شنوده الاول · وقبل تعيين شنوده هذا حدث اختلاف بين الاساقفة في من يخلف قزمان ولكنهم عادوا واتفقوا على انتخاب شنوده · وحدث ان شنوده دخل الكنيسة فجأة عند ما كان القس يتلوا القداس وقد وصل الى هذه العبارة « هو مستحق وعادل » فتفاءل الشعب حسناً بهذه الصدفة واتخذوها دليلاً على ان الله سبحانه وتعالى اختار شنوده لهذا المنصب الخطير

وقد انتهز والي مصر هذه الفرصة ليأخذ الرشوة المعتادة فطلب من الاقباط مبلغاً هائلاً ولكن شنوده فرَّ هارباً وذهب لافتقاد الاديرة القاصية فلم يعرف المسلمون مقره ولذلك نهبوا امتعة القسوس وقفلوا جميع الكنائس في الفسطاط وبابليون الا واحدة فقط · فلما سمع شنوده ان اولاده القسوس يعذبون ويهانون لسبب هروبه عزم على ان يعود لمصر ويسلم نفسه للوالي فداء لراحتهم · فجمع الاقباط نحو اربعة الاف قطعة من الذهب دفعوها للوالي وتعهدوا له ان يدفعوا مثلها سنوياً اذا هو عفى عن شنوده ففعل وقبل

وبعد ذلك بقليل قتل الخليفة المتوكل بيد ابنه المنتصر الذي جلس على كرسي الخلافة نصف سنة فقط وعند موته وقع هياج عظيم في المملكة الاسلامية لان ولديه المستعين والمعتز قاما ضد بعضهما يتحاربان ويتضاربان كما ان الجيش التركي الذي قوي واشتد في ذلك الوقت انحاز لابن المعتصم

الاكبر ورأى قواده ان لهم الحق في تنصيب من يشاؤون من الملوك والخلفاء ·

وفي مدة خلافة المستعين القصيرة اعتدل الزمن قليلاً مع الاقباط ونالوا راحة لم يحلموا بها من قبل وكان ذلك بواسطة رجلين من الاعاظم المعتبرين اللذين سارا الى الخليفة بعد تصديق البطريرك ودعاء لهما بالتوفيق اذ بسطا للمستعين ما ذاقته مصر من المر والعلقم لجور ولاتها وظلم حكامها ورجاءاه ان يرحم بلادها ويذيقها طعم العدل اللذيذ · ومعلوم ان حياة المستعين انقضت عند ما قبض اخوه عليه واودعه السجن ثم قتله · وقبل ان يصبه هذا المصاب افاد الاقباط فائدة عظمى واجاب مطالب الوجيهين المذكورين لانه ظن انهم يكونون اعظم عضد واقوى ساعد له اذا هو هادنهم وسالمهم ولذلك اعطى الرسولين تصريحاً بان جميع الاراضي والكنائس والاديرة واواني المذابح التي سلبت منهم في ايام الظلم والاضطهاد يجب ان ترد اليهم ثانية · وقد جاء هذان العظيمان الى بطريركهما بذلك القرار الذي اعطاه لهما الخليفة فطبع البطريرك عدة نسخ منه وارسلها لجميع الاساقفة في القطر المصري باسره وارفقها بجواب يشكر فيه الله على هذه المنحة التي كانت اعظم تعزية لهم على مصائبهم الماضية ويثني على الخليفة بما يستحقه · قال احد المؤرخين ان جميع كنائس الاقباط الواقعة بين الاسكندرية شمالاً واصوان جنوباً اصلحت وصارت الخدمات الكنائسية تمارس فيها كالعادة · وقد نجى الله مصر من الاختباط والارتباك الذي اصاب المملكة الاسلامية عند سجن المستعين وقتله الذي انتهى بخلافة اخيه وقاتله المعتز اذ عين تركياً اسمه

مزاحم بن خاقان لولاية مصر . وكان مزاحم هذا ذا نفوذ وقوة جاء مصر ومعه جيش جرار من الاتراك الذين كانوا يحتقرون العرب المسلمين كما احتقروا هؤلاء الاقباط المسيحيين «وما ظالم الا ويبلى باظلم» وبهذه الطريقة وُجد نوع من العدل في ايام مزاحم هذا وتساوى القبطي والمسلم وبطل السلب والنهب ونشطت الصنائع من عقالها بعد ان كادت تطمسها ايدي الظلمة الجائرين . وقد انتهز البطريرك في شنوده هذه الفرصة المناسبة واجرى اصلاحات عديدة في القطر كانت البلاد في حاجة كبرى اليها . ومما يذكر له بالشكر ايصاله المياه لمدينة الاسكندرية في قناة بنى لها سهريجاً مرتفعاً في المدينة ومدّ منه المواسير والمجاري الى المنازل والمساكن فصار سكان الاسكندرية يشربون ماء زلالا احسن من الوقت الحاضر

ومن سوء حظ مصرمات مزاحم حالا بعد ان تولاها سنتين فقط وعين بدله تركي اسمه بيك سنة ٨٦٨ ولكنه لم يجيء مصر بل سلمها لعهدة رجلين ينوبان عنه احدهما لجمع الضرائب واسمه المندوب المالي والثاني لقيادة الجند واسمه المندوب العسكري وهو احمد بن طولون الذي ذهب بعض المؤرخين الى انه لم يكن ابناً حقيقياً لطولون بل ان هذا تبناه فقط . وعلى اي حال فهو تركي قح حاز الصفات الحربية التركية ولكنه امتاز عن الاتراك بشيء من المعرفة والعقل وحسن التربية . وكانت للرجل مطامع وافكار تميل الى العلا واحراز السطوه ولذلك سعى في تجريد زميله المندوب المالي من كل سلطة ولم يمده بعساكر يساعدونه على تحصيل الضرائب حتى يظهر امام المصريين بمظهر

الضعف ويعرفون ان الحاكم الحقيقي هو احمد لاشريك له . وكان اسم المندوب المالي احمد ايضاً كرهه المصريون ونفروا منه في المدة التي اقامها في مصر قبل قدوم ابن طولون اليها لانه ضاعف الضرائب على المسيحيين والمسلمين سواء وهي اول مرة تساوى فيها الاقباط بالاسلام منذ احتلال هؤلاء مصر . ثم انه احتكر بيع النطرون وصيد الاسماك لجانب الحكومة . فهذه الاعمال اوجدت لابن طولون فرصة بها يزحزح زميله من منصبه فوضع يده على وظيفته واستولى عليها بالحكمة والسياسة

ولم تكن مدة اقامة احمد بن طولون قد طالت في مصر حتى قتل الخليفة المهتدي الذي اخلف المعتز مدة سنة واحده فاختار الجنود الاتراك ابناً للمتوكل اسمه المعتمد واسندوا اليه الخلافة ولكن والي سوريا لم يقر على خلافة المعتمد فارسل هذا الى ابن طولون يطلب منه تأديبه واخضاعه وكان في نية ذلك الوالي السوري ان يستقل بمملكة خاصة له يؤلفها من سوريا وارمينية ومصر وهو فكر طالما جال في خاطر احمد بن طولون ولذلك استعد لاخضاع هذا الوالي الذي قصد بعمله تخييب آمال احمد من حيث لا يدري . وللحال سار ابن طولون على سوريا بجيش من الاسرى والعبيد والاحباش والاروام وترك جيشه التركي لحراسة مصر . وكان الخليفة قد سبق وارسل والياً آخر طرد والي سوريا بدون ادنى مقاومة فعاد احمد ادراجه بعد ان غاب شهرين عن مصر وفي صدره شوق لاخذ سوريا وتأليف مملكة مستقلة

وقد وجد احمد ان القصر الذي يقيم فيه والثكنات المخصصة لاقامة

العساكر غير كافية للجنود الاتراك فعزم على بناء مدينة جديدة شمالي الفسطاط تكون خاصة للاتراك كما اختص العرب بالفسطاط والاقباط ببابيلون. فالمدينة التى بناها احمد بن طولون هي المعروفة الآن بمصر العتيقة التي يظنها بعض المصريين انها تحتوي على الفسطاط و بابيلون. وقبل ايام ابن طولون لم تكن توجد مدينة اسمها مصر على الاطلاق مع ان العرب كانوا يطلقون هذا الاسم على بابيلون والفسطاط معاً · وانت تعلم ان « مصر » كلمة عبرانية اطلقت على القطر المصري كله لا على مدينة واحدة ولكن بابيلون هو الاسم الصحيح الذي لا يزال الاوروبيون يطلقونه على مدينة مصر حتى ان الافرنج يسمون سلطان مصر بسلطان بابيلون لحد يومنا هذا مع ان بابيلون اصبحت اطلالاً دارسة وخرائب متهدمة في وسطها تلك القلعة القديمة التي تشهد بما كان لها من المجد والسؤدد قبل تلك الايام السوداء

وقد اتبع احمد في بناء مدينته ذات الخطة التي اتبعها الخديوي اسمعيل باشا عند ما بنى حي الاسمعيلية المعروف في القاهرة · ذلك ان ابن طولون قسم الارض الى اجزاء متفرقة اختار احسنها لبناء اماكن للحكومة ثم وزّع الباقي على اتباعه والاعيان على شرط ان يبنوها ويسكنوها فتعمر وتزهو · وكانت النقطة التي انتخبها لمدينته بعيدة عن النهر اكثر من الفسطاط وواقعة الى الشمال الغربي منه تحت سفح المقطم · وكان هذا المحل قديماً مدفناً لليهود و بعدهم للاقباط ولكن هذا لم يمنع احمد عن اتمام مشروعه فأمر بهدم جميع المدافن والمقابر واستعمال انقاضها في ابنية الحكومة التي شادها هو · و بعد ان تم بناء

المدينة احاطها بسور له ابواب عديدة و بنى في داخله صرحاً عظيماً لنفسه عمل له ميداناً فسيحاً غرسه بالازهار والرياحين

وقد وصل خبر هذه الاعمال التي اتاها ابن طولون الى مسامع الخليفة فداخله ريب من امره خصوصاً لان احمد المندوب المالي كان عدواً لدوداً لزميله المندوب العسكري فدس له الدسائس وكاد له المكائد حتى ان الخليفة ارسل امراً لابن طولون يشدد عليه بالحضور الى مدينة سمرة عاصمة الخلافة حينئذٍ وذلك بينما كان ابن طولون منهمكاً في ابنيته ومصالحه · فرأى احمد في نفسه قدرة على مخالفة اوامر الخليفة والازدراء بها ولكنه لم يفعل ذلك بل سلك طريق السداد وارسل كاتم اسراره مزوداً بهدايا ثمينة ومبلغاً وافراً على سبيل الرشوة للخليفة · وقد نجح ابن طولون في تدبيره هذا فثبته الخليفة في وظيفته مع ان سبيك كان لا يزال الوالي الاسمي لمصر ثم ارسل له امرأته واولاده الذين كانوا محجوزين في سمرة حتى يطيع امر الخليفة · وفي تالي سنة لهذه الحادثة أُخذت ولاية مصر الاسمية من بيك واعطيت لبرقوق وهو اسير تحرر وكان صهراً لاحمد بن طولون فرفت المندوب الوالي قطعياً ولغى وظيفته فلم يعين احداً بدله كما ان حاكم الاسكندرية والسواحل رُفت ايضاً ولذلك اصبح ابن طولون حاكم مصر الفعلي مع ان لقبه كان نائب الوالي برقوق

واول امر اهتم به احمد تخفيف وتعديل الضرائب التي أنّ المصريون من ثقلها وتضجروا من عدم انتظامها · وقد استراح الاقباط لهذا الامر اذ تساووا مع المسلمين في كل وجه ولو في الظلم مع ان احمد كان يميز الترك على

العرب والروم على الاقباط فهو سار على سياسة اذلال القوي بمساعدة الضعيف . وكان احمد يعتبر بطريرك الاقباط خصمه الذي يخشى من بطشه فاخترع طرقاً كثيرة بها يسلب اموال الاقباط حتى يبقوا دائماً في حالة الضعف والوهن بسبب الفقر والعوز ولكنه لم يأخذ هذه الاموال منهم بضرب ضريبة خصوصية عليهم بل لانه فرض مالاً طائلاً جائراً على البطريرك الذي كان يضطر لجمعه من شعبه . وفي السنة الاولى من تعديل الضرائب انزلها احمد الى مائة الف دينار فقط (اي ستين الف جنيه) حتى ان كاتم اسراره انتقده على انقاص الايراد لهذا الحد بينما هو في حاجة شديدة للمال ليصرفه في العمائر والمشروعات الاخرى الكثيرة . قيل ان ابن طولون كان معتمداً في عمله هذا على حلم ظهر له فيه شيخ صالح يعرفه من طرسوس حيثما تربى واخبره انه اذا ترك الوالي لرعيته ماله من الحقوق والاموال (كذا) فان الله يعوضه بدلها اضعافاً

قال الراوي !!! — وبعد زمن قليل بينما كان ابن طولون راكباً حصانه وسائراً في الصحراء قاصداً الصعيد عثر حصان احد عبيده الذين كانوا يسيرون خلفه وغارت رجل الجواد في الارض لانها دخلت في جحر فسقط الحصان على الارض وكان لسقطته رجة وهزة انفتحت لها مغارة كبرى ربما كانت قبر احد الفراعنة ووجد في هذه الحفرة نقدية بلغت قيمتها مليون دينار (اي ٦٠٠ الف جنيه)

فلما علم ابن طولون ان اخبار هذا الكنز المهول قد ذاعت في جميع بلدان

المشرق رأى من الصواب ان يكتب للخليفة يخبره بما كان ويطلب منه التصريح بصرف هذا المبلغ على المنافع العمومية في مصر فلم يسع الخليفة سوى الاجابة بالايجاب لضعفه وقوة احمد . فوجود هذا الكنز اوجد عند المسلمين طمعاً في اكتشاف غيره فترك اكثرهم الاشغال التي يقتاتون منها وصاروا يحفرون وينقبون في جوف الارض حتى اتلفوا مدينة عين شمس ودمروا ما بقي فيها من الاطلال والدمن ولم يجدوا شيئاً قط مع ان ابن طولون الذي ظل يبحث في الاماكن القديمة قيل انه وجد كنزاً لا يقل في القيمة عن الاول كما زعم الذين ذكروا هذا الخبر وهم الذين قالوا ايضاً ان ابن طولون وزع اكثر هذا المبلغ على المساكين وصرف الباقي في اتمام مدينته الجديدة وبنى جامعاً في قمة المقطم وجوامع اخرى غيره ثم شاد مستشفى في مدينته . وقد صرف ابن طولون اعتناء خاصاً لجر المياه الى هذه المدينة وهذا العمل يلزم له تعب كثير بالنسبة الى موقعها وارتفاعها . ولم يكن هناك سوى ترعة واحدة تعرف باسم ترعة ابي خالد . فلما بنى ابن طولون خزاناً للماء اشار عليه بعضهم ان يملأه من ترعة ابي خالد فرفض هذا الرأي علماً منه انه اذا ملئ الخزان من هذه الترعة فلا بد من اطلاق اسم ابي خالد عليه على توالي الايام مع ان ابن طولون قصد باقامة هذا الخزان ذكرى له ودلالة على اهتمامه بالاصلاح والعمران

وقد كان المهندسون والمعماريون في مصر وارباب الصنائع والفنون من الاقباط فقط سواء في ايام المسلمين او قبلهم . فاستحضر ابن طولون مهندساً قبطياً اشتهر بطول باعه ومهارته في هذا الفن وطلب منه ان يعمل

ما في وسعه لايصال المياه الى مدينته بطريقة سهلة ومتينة وبشكل جميل لا يتغير · فللحال اختار المهندس القبطي مكاناً في الصحراء الجنوبية وحفر فيه بئراً عميقاً اخرج منه الماء الى سهريج بناه على قباب واعمدة عديدة فصار هذا السهريج يملئ من البئر ويوزع الماء في مواسير ممتدة الى المنازل · وعلى هذا النسق قام صلاح الدين بعد هذا الزمن بكثير وشاد سهريجاً به يجر الماء الى القلعة المعروفة باسمه · ولا يزال سهريج ابن طولون وسهريج صلاح الدين موجودين ليومنا هذا يزور الاجانب الذين يرتادون مصر السهريج الثاني اما الاول فقلما يقصده احد · فاذا انت ركبت خط سكة حديد حلوان القديم ونظرت الى الصحراء شرقي مصر وبابلون والفسطاط لرأيت السهريج الذي بناه احمد بن طولون

وكان الناس في تلك الايام يعتبرون هذه القناة من اكبر العجائب واهمها حتى انها عند ما تمت ركب ابن طولون في محفل حفيل وسار ليراها ويشكر المهندس الذي براها · وكان من سوء الحظ ان احد العمال اهمل في نقل كومة من الاتربة والاحجار المتخلفة عن البناء فعثر فيها حصان ابن طولون وسقط على الارض براكبه الذي لم يصبه اذى ولكنه تطير وتشاءم فغضب وحنق وبدل ان يكافئ المهندس القبطي ويدفع له المقاولة المتفق عليها امر بالقبض عليه وطرحه في السجن حيث ظل سجيناً مدة من الزمن

وقد طهر احمد ترعة الاسكندرية وردم جروفها المنهارة وبنى اقنية ومجاري للماء في هذه المدينة واصلح المتهدم في اعلى المنارة الموجودة في البحر · ومن

اعماله ترميم مقياس النيل الكائن في جزيرة الروضة ثم بناء مستشفى في الفسطاط وحمامات عمومية ايضاً وكان يتعهد بنفسه الابنية التي احدثها ويرى ما اختل منها فيصلحه · وحدث ان احد المتوهين الموجودين في الاسبتالية شرع في قتل احمد عند ما ذهب لزيارتها فلم يؤخره هذا عن افتقادها كعادته ولا حرّك له ساكناً · وبالاجمال فان مصر لم يعتن بها احد من ولاة المسلمين مذ ما افتتحوها كما اعتنى احمد بن طولون بأمرها سوى ان الاقباط والعرب تذمروا وتزمروا كثيراً من امور متباينة متخالفة · فان شكوى الاقباط كانت لأن احمد اراد نهب اموالهم وزاد في ضرائبهم · واما العرب فلأن احمد منعهم من نهب الاقباط وغل ايديهم عن ظلم ظلوا يرتكبونه قروناً عديدة

الفصل الثاني والاربعون

العمري واعماله الخطيرة

سنة ٨٧٨ للمسيح و ٥٩٤ للشهداء و ٢٦٤ للهجرة

بين الذين اشتهروا من المسلمين بأعمالهم الخطيرة التي تقرب من الهوس والجنون رجل اسمه العمري امتاز عن سواه بقوة بطشه وحدة جنانه وبالاضرار التي جرها على النوبة او على المملكة السودانية المسيحية المتاخمة مصر من الحدود الجنوبية · والمقريزي يذهب الى ان هذا الرجل من سلالة

الخليفة عمر ويقول ان اسمه ابو عبد الرحمن العمري العدوي القرشي ولكن
اللقب الذي امتاز به هو العمري فقط . اما مسقط رأس هذا الداهية المغوار
فالمدينة حيثما نشاء ولكنه درس بعض العلوم في الفسطاط وتمرن على الاعمال
الحربية تحت قيادة ابرهيم احد النهابين السلابين الذين اتعبوا ابن طولون
حتى ان ابرهيم هذا اخذ منه مبلغاً طائلاً من المال فعاد الى الفسطاط وكف
عن غاراته . وحدث ان العمري سمع بعض المصريين يتحادثون عن معادن
الذهب الموجودة في الاماكن الجنوبية حيثما كانت تستخرج المقادير
الوافرة من ذلك الاصفر المحبوب في الازمنة الماضية . فعند ما سمع العمري
هذا الكلام صمم على السفر الى حيث توجد هذه المناجم الذهبية لاستخراج
ركاز الذهب منها وابقائها لنفسه ولكنه ابقى هذا الامر سراً مكتوماً داخل
صدره فلم يبح به لاحد ولكنه اشاع بانه عازم على الذهاب جنوباً للاشتغال
بالتجارة ثم اشترى عدداً كبيراً من العبيد ليحفروا هاتيك المناجم وسار بهم الى
اصوان اولاً حيث شرع بجمع ما يمكنه من المعلومات الدقيقة عن اماكن تلك
المناجم القديمة

ومن اصوان صعد العمري الى ان وصل مكاناً قيل ان فيه معدن الذهب
الثمين . ولكنه وجد بدل الذهب قبيلة مضر العربية قد ضربت مضاربها
هناك واخذت تشن الغارات على قبيلة ربيعة طلباً للثار رجل منها اغتالة ربيعة .
وقد انتهت الحرب بين القبيلتين بعقد صلح اقسموا فيه على عدم المشاحنة والمطاعنة
وهذا ضد رغبة العمري الذي كان من صالحه ايقاع القبيلتين مع بعضهما حتى

يفنيا فيخلو له الجو ولذلك حرض قبيلة مضر ضد ربيعة الا ان القبيلتين اتفقتا
على محاربته فقامتا في وجهه ووجه رجاله يقصدون اهلاكهم ولكن العمري
اسرع بالمسير الى الجنوب قاصداً منجم آخر كان بعيداً جداً عن النيل حتى
اضنى العطش رجاله لانهم لم يعرفوا الطريق الى النيل ولا في اية جهة
يقصدون الى ان حامت حولهم حومة من الطيور فأرسل العمري بعض رجاله
خلفها و بواسطتها اهتدوا الى النيل وشربوا

وكان العمري في هذا المكان داخل حدود بلاد النوبة المسيحية التي بداء
سكانها ينظرون اليه بعين ملؤها الغيظ والغضب لانه اعتدى على ارضهم
واخذها لنفسه بدون حق ولذلك قبضوا على بعض رجاله وسجنوهم فجاء العمري
بذاته يتفاوض معهم و يرجوهم ان لا يضايقوه فأطلق السودانيون سراح رجاله
ولكنهم منعوا عنهم الماء وقتلوا كل وارد للاستقاء . ولما كان العمري مصراً
على اتمام مشروعه اراد ان يقاوم النوبيين فسار ضدهم برجاله وعبر النيل في
مكان اسمه شنكير شمالي دنقله وهاجم السودانيين بغتة فانتصر عليهم انتصاراً
باهراً وقتل كثيرين منهم واخذ الباقي اسرى كان يبيعهم عبيداً بثمن بخس
جداً حتى ان المقريزي قال انه عند ما كان يقصد احد رجال العمري قص
شعره كان يعطي الحلاق عبداً اجرة الحلاقة

ولم ينج من السودانيين الا القليل الذين وضعوا امتعتهم في قوارب وقطعوا
النهر للجهة الاخرى وظنوا انفسهم في امان لان العمري لم تكن عنده قوارب
مثلهم . ولكن هذا الرجل كان ماهراً جداً اخترع حيلة بها اخذ هؤلاء

المساكين وقواربهم . ذلك انه امر رجاله ان ينفخوا القرب التي كانوا يستقون بها الماء وارسلهم تحت جناح الظلام الى الشاطىء الآخر اذ عبروا النيل سباحة فوق قرب الجلد هذه فوصلوا بكل هدوء وسكينة حتى ان احدهم عضه تمساح في رجله فلم يفه بكلمة استغاثة خوف ان يستيقظ السودانيون الذين اخذوا على غرة بهذه الحيلة الغريبة

وكان ملك النوبة في ذلك الحين صاحبنا جرجس بن زخاري الذي مرَّ بك انه عزم على ابطال جزية العبيد عندما سافر لبغداد والتقى بالخليفة . فلما سمع جرجس عن العمري واعماله ارسل جيشاً ليطرد هذا المسلم العاتي من بلاده . وكان جرجس في ذلك الوقت هرماً عجوزاً وله منزلة كبرى في بلاده اذ يحترمه الشعب ويحبه كثيراً . وقد وجدت صورة هذا الملك في كنيسة قديمة في احدى البلاد السودانية وهي تمثل جرجس في سن الثمانين سنة جالساً على عرش من الابنوس المطعم بالعاج ومغشى بصفائح من الذهب الوهاج وعلى رأسه التاج الملوكي المرصع بالحجارة الكريمة يعلوه صليب من الذهب الخالص

وكان للملك جرجس قائد اسمه نيوتي ارسله لمحاربة العمري . ونيوتي هذا زوج ابنة جرجس لابن اخيه . وقد ظلت الحرب سجالاً بين العمري ونيوتي ولم يحز النصر احد من الفريقين . وأخيراً عمد نيوتي الى خيانة مولاه الملك وتحالف مع العمري ضده وقام الاثنان يحاربان جرجس الذي ارسل ابنه الاكبر بجيش جديد لم يلبث ان هزم ولم يستطع الوقوف ضد جيشي العمري ونيوتي . فخجل الابن من العودة لأبيه وفرَّ هارباً الى المملكة

السودانية الواقعة جنوبي مملكتهم وهي مسيحية ايضاً كان اسمها ألواح ومكث هناك عند ملكها

فقام ابن جرجس الاصغر وكان اسمه زخاري وطلب من ابيه ان يطلق يده في العمل وهو يتعهد بتخليص البلاد من ايدي العمري المسلم ونيوتي الخائن فزوَّده ابوه بجيش ثالث كامل العدد والعدد

وقد بدأ زخاري عمله بمخابرة العمري في امر هو ان يبقى هذا ساكناً لا يتداخل في شيء حتى يؤدب زخاري صهره نيوتي على خيانته ودناءته فقبل العمري هذا الشرط وقام زخاري وأقام حرباً على نيوتي ولكنه لم يلبث ان هزم وتشتت جيشه ايدي سبا وفرَّ هو هارباً من وجه نيوتي وسار تواً الى العمري ولم يقل له انه زخاري بل اخبره انه رسول جاء من عند زخاري يريد مقابلته مقابلة خصوصية بعد ان سأله الآمان على حياته مؤكداً له ان زخاري لديه قوة كافية من عند ابيه الملك ولكنه لا يقصد الحرب بل يريد ان يعقد صلحاً على شروط ودية . فلما امنه العمري على حياته اظهر له زخاري نفسه وقال له انه زخاري بعينه فذهل العمري من حكمة هذا الامير وشجاعته ورفع منزلته في عينيه

وقد مكث زخاري مدة عند العمري ازال فيها كل شبهة ضده واكتسب صداقته واظهر له المودة والاخاء وظل يقص له حكايات القبور القديمة المخفية التي دس فيها المصريون القدماء كنوزهم واموالهم وصرح له باستخراج تلك الكنوز في اي وقت شاء . فلما رأى زخاري ان العمري قد

مال اليه بكليته اخذ يكاشفه بما يجول بخاطره من التدابير المهمة وقال له ان نيوتي هو عدوه الالد فلا يهمه سوى التخلص منه وبعدها يقتسمان المملكة سوية ثم بعد قتل نيوتي يزوجه بأرملته التي هي اخت زخاري حتى يكون له منزلة في اعين السودانيين

فرفض العمري اهلاك نيوتي بدعوى انه قائد ماهر وان جيشه احسن من جيش العمري واكثر شجاعة فلا يمكنه محاربته والتغلب عليه · فاجابه زخاري انه لا يقصد محاربة نيوتي ولكنه يأخذه بالحيلة بدون تعب ولا عناء · ولما كان العمري واثقاً بقدرة زخاري على تدبير الحيل والمكائد أذن له بعمل ما يحسن في عينيه ووضع أربعة من اقوى ضباطه وامهرهم تحت امره

وللحال نزل زخاري في زورق وسار في النيل بعد ان اعطى رفقاءه الضباط تعليمات بالخطة التي يتبعونها وقدوعدوه واقسموا له بتنفيذ اوامره بامانة واستقامة وحينئذٍ وصل زخاري وجماعته الى جزيرة واقعة تجاه المكان المعسكر فيه نيوتي وهناك شد الضباط وثاق زخاري وتركوه منفرداً وساروا في النيل قاصدين نيوتي فعند ما اقتربوا منه قالوا انهم يريدون الاختلاء معه لامر ذي شأن · فلما قابلهم نيوتي على الشاطئ حياه الضباط الاربعة باسم العمري واخبروه انهم احضروا له زخاري حسب رغبته وهم مستعدون ان يسلموه له مقابل دراهم او عبيد يأخذونها مكافأة على عملهم ويظهر من ذلك ان نيوتي كان قد كتب للعمري يسأله ان يسلمه عدوه زخاري لكي يقتص منه

وبعد اخذ وعطاء ومساومة ومبايعة اتفق الضباط على مبلغ طائل

يأخذونه من نيوتي ثمناً لزخاري ولكن نيوتي اشترط على ان لا يدفع الثمن قبل ان ينظر زخاري بعينه ويتحقق من شخصه وكان الضباط ينتظرون هذا من نيوتي فقبلوه ورضوا ان يسير معهم ولكن نيوتي طلب كتيبة من الجنود ان ترافقه وتبحر معه في الزوارق فرفض الضباط طلبه هذا وقالوا له انهم اربعة رجال فقط فلا يسلمون له ان يأخذ معه زمرة من رجاله لا يبعد ان يقتلوهم او على الاقل يسلبون منهم زخاري دون ان يدفعوا شيئاً لهم وعليه امر نيوتي رجاله ان يعودوا الى خيامهم واخذ معه رجلين او ثلاثة فقط وابحر مع الضباط الى ان وصلوا الجزيرة الموجود بها زخاري ففرشوا له سجاجيد وابسطة واقاموا له عرشاً ليجلس عليه ثم جاؤا بزخاري امامه وهو مكتوف اليدين حاسر الرأس · وكان زخاري قد اتفق مع الضباط انه عند ما يذرف الدموع من عينيه يهمون هم بقتل نيوتي واخماد انفاسه

وكان نيوتي قد سعى الى حتفه بظلفه · فانه اخذ يضرب صهره المغلول الايدي ضرباً مؤلماً ويشتمه ويسبه ويلعنه باقبح الفاظ السباب والشتائم وزخاري يستشفع ويستعطف ثم سالت الدموع من عينيه وهي العلامة لقتل نيوتي الذي قام عليه الاربعة ضباط وقتلوه بدون شفقة ولا رحمة ثم حلوا وثاق زخاري فسار معهم بقدم ثابتة الى الشاطئ الثاني وطلب من جيش نيوتي الخضوع والطاعة بلا خوف ولا جزع اذ هو قد صفح لهم عما ارتكبوه في الماضي · فرحب به الجيش مظهراً كل طاعة وحينئذٍ جمع زخاري مجلساً سرياً من كبار الضباط واسرّ لهم ما يقصد عمله من الامور الخطيرة ولكنه

اعلن جهرياً انه لا يزال صديقاً حميماً للعمري ثم امر باكرام ضباطه الاربعة
ومعاملتهم بالحسنى وكتب للعمري يخبره بنجاحه في عمله وطلب منه ان
يستعد للاحتفاء بقدوم هذا الجيش الجرار الذي وعده قبلاً بان يضعه
تحت امره · ولما ارسل زخاري هذه الرسالة طرح برقع التنكر وامر
بقتل الضباط الاربعة الذين رافقوه ثم استعد للمسير ضد العمري ومهاجمته
فعبر النهر قاصداً معسكره وسار بهيئة جعلت احد اتباع العمري يرتاب في
امره لانه كان متجهاً نحو خيمة مولاه بجيش يربو عن جيشه ولما قرب
زخاري من العمري اعطى جنوده اشارة فهجموا على المسلمين واغمدوا السيوف
في رقابهم فقتل كثيرون منهم ولكن العمري فرّ مع بعض جنوده ولجأ الى
الزوارق وسافر بها في النيل قاصداً النجاة · وكان زخاري عالماً بهذه النتيجة
وان العمري يلجأ للبحر فاوصى احد اتباعه البحارة بكيف يتصرف معه اذا هو
هرب · فلما قرب العمري من هذا الربان رجاه ان يوصله الى شمالي
الشلالات وهو يدفع له مالاً كثيراً · فربط الربان زوارق العمري واتباعه
معاً وسار امامهم في زورق خاص به الى ان اوصلهم الى مكان صخري لا يمكن
عبوره ورمى بنفسه الى البحر فنجى سباحة اما زوارق العمري فتحطمت
وتكسرت وغرق جميع العساكر الذي كانوا معه ولم ينج منهم احد الا العمري
الذي لم يكن في تلك الزوارق التي اصابتها اول مصيبة · ومع ان هذا الرجل
قاسى اتعاباً كثيرة وتحمل خسائر جمة وكاد يعضه الموت الا انه لم ييأس من
النجاح بل جمع قوته واقام في النوبة سنة كاملة والتف حوله بعض الاعراب

الذين اغواهم زخاري بالمال والمكر حتى تركوه فضعفت قوته وحينئذ سار
زخاري ضده بجيش عرمرم فلما سمع العمري ذلك ولى الادبار قاصداً مصر
وقبل ان يصل اصوان التقى بعدو جديد هو ابراهيم الصوفي احد الظلمة الخاطفين
الذين اذاقوا مصر المر من فضائحهم ومنكراتهم

وقد وضع الصوفي هذا يده على اقليم اسنا ظلماً وقهراً وقتل كل من قاومه
او عارض سلطته حتى اوشك ان يخرب ذلك الاقليم

فلما رأى ابن طولون ذلك ارسل ضده حملة فهزمها الصوفي شر هزيمة
فارسل احمد حملة اخرى ضده اقوى من الاولى فقهرت الصوفي عند اخميم
وفلت جموعه اما هو ففر هارباً ولجأ الى الواحات حيث جمع له قوة جديدة
من الاشقياء الذين طردوا من مصر ونزل بهم الى النوبة ليحذو حذو العمري
ويغتصب جزءاً من اراضي السودان الخصبة · ولكنه ما وطئ ارض السودان
حتى التقى بالعمري عند انهزامه امام زخاري فاشتبكت بين الاثنين حرب
عوان اظهر فيها العمري منتهى البسالة والاستماتة فانتصر على ابراهيم وهزمه الى
اصوان حيث التقى هذا بجيش ثالث من المسلمين تحت قيادة شباح البابكي
الذي ارسله احمد ليأتي بالعمري ويضع حداً لاعماله وتصرفاته في السودان ·
ويظهر ان اتباع ابراهيم ملوا البقاء معه فتركوه وانضموا تحت راية العمري
الذي سار ضده شباح ليحاربه · وقد اجتهد العمري ان يعقد صلحاً مع شباح فلم
يفلح وحينئذ شن عليه الغارة وهزمه وشتت جيوشه وتعقبه لغاية ادفو وظل
يقاتل جنود ابن طولون شمالي اصوان حتى طردهم لمصر

فسرّ زخاري لخلاص بلاده من هذا العدو المبين الذي اضرّ به وبجيوشه كثيراً · وفي ايام احمد بن طولون كانت مصر احسن حالاً من النوبة فيما يختص بالمتشردين واللصوص حيث ان العمري آلى على نفسه ان لا يكف عن مماكسة السودان لانه في السنة التالية عاد اليه قاصداً ان يشتغل في المناجم ويستخرج منها الذهب ولكنه وقع مع قبائل العربان الذين كانوا يكرهونه ووقعت بينهم وبينه حروب دموية كثيرة فدارت الدائرة على العمري وسقط في فخ نصبه له شيخ من قبيلة مضر كان قد اقسم بالايمان المغلظة ان يقتل العمري فقتله

ولما قُتل العمري اراد اثنان من عبيده ان يجمعا شيئاً من المال من موته فقطعا رأس مولاهما وهو مائت وذهبا بها الى احمد بن طولون واخبراه انهما قتلا العمري واقنعاه انها رأسه التي بيدهما بدون شك ولا جدال · فسألهما ابن طولون اذا كان العمري قد اساء اليهما اساءة تستوجب مثل هذا القتل وقطع الرأس فاجاباه انه لم يسيء اليهما قط ولكنهما قتلاه ليستجلبا رضى مولاهما الامير ابن طولون · فقال لهما ابن طولون ان قد ساءه فألهما لانهما ارتكبا اثماً يسخط الله ويغيظ الناس وامر بجلدهما جلداً عنيفاً ثم صلبهما وقطع رأسيهما



الفصل الثالث والاربعون

مدينة ابن طولون الجديدة وجامعه

سنة ٨٨٠ للمسيح و٥٩٦ للشهداء و٢٦٦ للهجرة

عرفنا في الذي مرّ ان ابن طولون كان يخشى صولة المغيرين المسلمين مثل العمري وغيره ويتعب كثيراً في صد غاراتهم ومنع هجماتهم · وقد كان هذا الوالي ينظر ايضاً الى شنوده بطريرك الاقباط بعين ملؤها الحذر والخوف ويعده خصماً عنيداً له ولذلك ظل ابن طولون مدة وهو يترقب الفرص لاضطهاد الاقباط واكليروسهم الى ان حانت له فرصة عند ما قام شماس قبطي خائن عقوق وقدم لابن طولون شكوى كاذبة يقول فيها ان شنوده يختلس الاموال ويسرف ويبذر وينهب فقبض احمد على البطريرك واساقفته ووضع الاغلال في اعناقهم وساقهم مثل الاغنام من بابليون الى مصر حيث جرّدهم من ملابسهم الكهنوتية واركبهم على حمير بدون براذع وامر ان يطاف بهم في شوارع هذه المدينة التي كانت مأهولة بالمسلمين باحتفال هو علامة الاحتقار والسفاهة ومنتهى الازدراء واللؤم · وبعد نهاية هذا التحقير المهين طرح شنوده فقط في السجن حيث مكث فيه ثلاثين يوماً وهو يتألم ويتوجع من داء النقرس (مرض المفاصل) الذي اصابه واخيراً جيء به امام الوالي ليحاكم فاثبت براءته وفساد التهمة الموجودة ضده ببرهان صريح وحجة متينة · وقد اشتد سخط جمهور الاقباط على ذلك الشماس الكاذب النمام حتى

قصدوا ان يوقعوا به ولكنه اسرع الى البطريرك وطرح نفسه على قدميه طالباً منه الصفح والمغفرة بينما هو كان يسعى لاهلاكه وقد حمله كل هاتيك المصائب الجسيمة والاضطهادات الاليمة • فاظهر هذا البطريرك المفضال ميلاً الى التسامح ولم يكتفِ بالعفو عن هذا الخائن بل نفحه بمبلغ من المال ليستعين به على الرجوع الى بلدته بمديرية الشرقية واعطاه جملاً يركبه وثلاث حلل من الثياب ليلبسها وزوّده بدعوات صالحات حتى ان كاتم اسراره عنفه على هذا اللين الزائد والشفقة المفرطة على شخص لا يستحق سوى القصاص الحق من جنس عمله • ولقد صح ظن كاتب البطريرك وصدق في تعنيف مولاه لان ذلك الشماس الوغد عاد الى خيانته الذميمة وصار يتهم الاقباط بتهمات كاذبة لدى الحكام المسلمين لكي يتحصل على شيء من حطام الدنيا ولكن الله انتقم منه بعدله اذ قبض عليه حاكم الشرقية وجلده بالسياط جلداً عنيفاً حتى مات من تأثير الضرب • وقد نسج كثيرون من الخلعاء او المسيحيين بالاسم على منوال ذلك الشماس فكانوا يتهمون اخوانهم ومواطنيهم تهماً باطلة حتى ينالوا حظوى لدى الولاة المسلمين الذي كانوا يتخذون هـذه التهم حجة بها يضطهدون الاقباط ويعذبونهم

وكان البطريرك شنوده مولعاً بجمع الكتب القديمة ذات الأهمية الكبرى • وحدث عندما اتُهم باختلاس الاموال كما ذكرنا وامر ابن طولون بتفتيش الصناديق والخزائن الموجودة عنده وُجدت هذه الصناديق ملأى بنسخ من تلك الكتب المسطورة بخط اليد • وقد اتهم المسلمون البطريرك

شنوده بتهمة لا تخلو من الصحة هي انه يسعى في ردّ المسلمين من الديانة الاسلامية الى المسيحية وكان ذلك مضاداً لاوامر الخليفة التي صدرت حديثاً وهي تقضي بابادة الديانة المسيحية من القطر المصري وملاشاتها ولكن هذه الاوامر لم تنفذ ولم يزد الاضطهاد ضد الاقباط اكثر من ذي قبل ذلك لان ابن طولون عصى اوامر مولاه جميعها ونادى بنفسه سلطاناً لمصر وسوريا

وكان ابن طولون عالماً ان هذه الدعوى تجر حرباً عليه وان الخليفة لا يلبث حتى يجرّد ضده جيشاً لاخضاعه فاخذ يقوّي حصون الفسطاط وبنى قلعة جديدة في جزيرة الروضة ليمنع المهاجمين بحراً ووضع فيها مئة من ابطال الرجال بكامل العدد والمؤونة ثم اقام مكامن ومراصد ووضع فيها حمام الزاجل ليحمل اليه الاخبار في اسرع وقت • وقد منع ابن طولون تصدير الغلال وشاد قلعة جديدة للدفاع عن مدينته أتمّ بناؤها في برهة صغيرة جداً لان العمال كانوا يشتغلون بالمناوبة ليلاً ونهاراً

وكان من حسن حظ مصر وابن طولون معاً ان الجيوش التي ارسلتها الخليفة عليه خرجت ضد قوّادها وعصت اوامرها قبل ان تطأ اقدامها أرض مصر ولذلك امتلك ابن طولون القطر المصري دون أن ينازعه احد فيه • وقد افتتح ملكه باجتذاب قلوب الشعب المصري اليه فانه وزع هدايا واموالاً طائلة فرحاً بفوزه ودفع أجور العمال الذين اشتغلوا في الحصون والمعاقل • وقد احصى مؤرخو المسلمين المبالغ التي صرفها ابن طولون على التحصين والتجييش استعداداً لحرب لم تقع فبلغت هذه المصاريف نحو ٨٠

الف دينار او تزيد

ولما صفى الزمان لابن طولون واستتب له الحكم على مصر شرع في بناء جامع جديد لمدينته الحديثة يفوق في الرونق والبهاء كل جوامع مصر . ولم يكن المسلمون في ذلك العهد يعرفون بناء القباب والمآذن (١) التي كانت تزدان بها الكنائس القبطية حتى ان كثيرين من ولاة المسلمين كانوا يعجبون بأقبية الكنائس ويندهشون من نسقها الهندسي الجميل وهذا ما حدا بعبد العزيز الى الالحاح على بطريرك الاقباط ببناء كنيستين في حلوان يكونان زينة لهذه المدينة الجديدة . اما جوامع المسلمين في صدر الاسلام فكانت عبارة عن أرض محاطة بسور غير مسقوفة لاشكل هندسي لها ولا رونق لبنائها مع ان جدرانها كانت تقام من الاحجار الثمينة كالرخام والمرمر . وبعد ذلك قلد المسلمون الاقباط فصاروا يبنون سقائف في جوامعهم ويأخذون اعمدتها بالقوة من كنائس الاقباط مادام ان هؤلاء العرب لم يكونوا يفقهون نحت الاحجار وتشييد الاعمدة على القواعد الهندسية التي كانت معروفة يومئذ للاقباط فقط . وقد صنع العرب أعمدة في هذه الازمنة الحديثة اذا أنت رأيت واحداً منها عرفت الفرق الهائل بينها وبين اعمدة الكنائس القبطية التي سلبها منها هؤلاء الغزاة . مثال ذلك الجامع الكبير القديم الموجود في المحلة الكبرى وهو يحتوي على نيف ومائة عمود منها أربعة وسبعين أخذت

(١) اول من بني مأذنة في جامع مثل قباب الكنائس هو أحد ولاة مصر الذي حكمها من سنة ٦٦٨ لغاية ٦٨٢ ولكنها لم تتم الا بعد ذلك بزمن طويل

قسراً من الكنائس القبطية في قديم الزمان والباقي أعمدة حديثة لا تناسب تلك في شيء . كذلك أكثر الاعمدة الموجودة في الجامع الازهر وفي جميع الجوامع القديمة القائمة الآن في مصر فانها مأخوذة من الكنائس القبطية . فاذا كنت ذاهبة وساقك نكد الطالع لزيارة بلدة كانت تحتوي قديماً على كنيسة قبطية جميلة فهناك تسيل منك المدامع كالسيل المنهمل عند مالاتجد اثراً لتلك الكنائس اذ ترى في الجوامع الكائنة في تلك البلدة أعمدة الكنائس القبطية قائمة يعلوها التراب كأنه ثوب حداد لها او مقلوبة مطروحة على الارض كأنها مائتة كما يموت الفصيل اذا أبعدته عن أمه ومنعت عنه وسائل الحياة

وكان ابن طولون يريد أن يجعل جامعه الجديد تقدمة لله يثاب عليها ويمنع عنه شديد العقاب عما اقترفه من الخطايا والذنوب فلذلك رغب أن لا يتعدى نصوص القرآن في بنائه بمعنى انه لا يسخر احداً في عمل ما وعليه بدىء العمل بتلاوة آيات القرآن على مسمع من السلطان حتى لا يفوته شيء مما ورد فيه . ولما وصل القارىء الى الامر القائل بعدم استعمال أدوات مسروقة في بناء الجوامع نهض ابن طولون من مكانه ومزق ثيابه وصاح قائلاً « انه يستحيل تشييد الجامع بدون نهب مواده من الكنائس فانني ما سمعت من يوم وجودي في هذا العالم ان جامعاً بني دون ان تؤخذ اعمدته من كنائس المسيحيين . وحيث انه لا يمكنني الاغفالة هذا الامر فسوف اخالفه واستغفر ربي عن هذا الذنب ان لم يكن بناء الجامع كافياً للغفران »

وقد علم الناس جميعاً ان السلطان وقع في حيرة وارتباك وخاف الاقباط
ان يفتي أحد المسلمين بجواز نهب أعمدة الكنائس لان مثل هذا السلب
لا يعد جرماً ما دام اصحاب الكنائس هم كفرة ملحدين حسب زعم جماعة
المسلمين . ولكن قيض الله للاقباط ذلك المهندس القبطي البارع هو ابن
كاتب الفرجاني الذي كان مطروحاً في السجن من يوم ان عثر حصان ابن
طولون في انقاض العمارة وسقط به . فان هذا المهندس أرسل يقول للسلطان
انه اذا اطلق سراحه فهو يتعهد ببناء جامع جميل ويصنع له أعمدة بلا مثيل
وبذا ينجو السلطان من جريمة سرقة المواد اللازمة لتشييد جامعه . وللحال
حل ابن طولون عقال الفرجاني الذي كان يعرف فناً من الهندسة لم يعرفه
أحدٌ غيره في ذلك الوقت وهو بناء قناطر وقواصر بدل اقامة الاعمدة مما وفى
بالغرض المطلوب . ولا يزال هذا الجامع موجوداً الى يومنا هذا حسب
ما وضعه المهندس القبطي الا انه ترمم كثيراً وغير السلطان الكامل جزءاً
صغيراً منه . وقد جعله اسمعيل باشا الخديوي الاسبق داراً للعجزة الذين
كانوا يطوفون في الشوارع يلتمسون القوت و يستعطون بحالة قذرة ولكن لما
زارت مصر الامبراطورة اوجيني قرينة نابوليون الثالث امبراطور فرانسا طلبت
اخراج اولئك المقعدين منه وردّهم الى أصله . والذي يستلفت الانظار في
هذا الجامع شكل قبابه واقواسه التي تعد اجمل مما صنعهُ الصناع في الاعصر
الاولى ونقله عنهم المهندسون في هذه الايام وصاروا يعملون قواصر على هيئة
نصف دائرة مما تراه شائعاً في الابنية الحديثة . اما رسم المأذنة فيقال ان

ابن طولون قد وضعهُ بيده وهذا ليس من الامور العسيرة فان التراجمة
والادلاء يدركون كنه هذه المأذنة ولا يصعب عليهم ادراك رسمها ووضعها.
ومعلوم انه كان يوجد في الكنائس القبطية قديماً حوض مملوء ماء للاغتسال
في خميس العهد وعيد الغطاس فنقل المسلمون استعمال هذا الحوض ووضعوا في
جوامعهم الآن ما يسمونه «ميضة» للوضوء . وقد صنع المهندس القبطي ميضة
لجامع ابن طولون جميلة الشكل منمقة بالفسيفساء والاحجار الملوَّنة ووضعها
في صحن الجامع . وقد وُجدت كتابة منقوشة في رواق الجامع فيها وصف
وتاريخ بنائه وهذه الكتابة لا تزال واضحة ظاهرة كأنها حديثة العهد . والى
جانب هذا الجامع بنى ابن طولون ديوان للحكومة ومدرسة جامعة عين لها
فقيهاً يتناوبها كل اسبوع مرة حيث يلقي شيئاً من الاحاديث الاسلامية وهو
علمٌ بسيط لا يحتاج لعقل واسع وذكاء خارق ولكن الاتراك لم يكونوا يميلون
لاستيعاب هذه الدروس مع ان احمد اجبر اولاده واحفاده وندمائه على الحضور
الى تلك المدرسة لتلقي علم الحديث فيها . ولما تمَّ بناء الجامع الجديد احتفل
ابن طولون بتدشينه احتفالاً باهراً عظيماً وخلع على المهندس القبطي خلعة
فاخرة ولم يرسلهُ الى السجن كالمرة الاولى بل دفع له جميع ما يستحقه وعين
له راتباً يتقاضاه مدة حياته . ولكن هذا المهندس المسكين اجبر بعد ذلك
بسنين قليلة على اعتناق الديانة الاسلامية فرفض وقاوم فامر السلطان بقطع
رأسه واخماد انفاسه

وعند ما اتم ابن طولون بناء مدينته وجامعه الجديدين نادى بغزو

الاروام واقامة حرب دينية ضدهم . فسار اولاً الى سوريا حيث قابله واليها بالخضوع والتسليم ثم حول وجهه نحو اسيا الصغرى واخذ انطاكية وموبسويستا وعدانه وطرسوس . ولم يكد احمد يخلد الى الراحة حتى جاءته الاخبار تترى بان ابنــه الاكبر عباس الذي اقامه وكيلاً له في مصر اثناء غيابه عمد الى العصيان ضد ابيه واعلن نفسه حاكم مصر المطلق

فلم يسع ابن طولون الا العودة لمصر على جناح السرعة بعد ان ترك اكثر قوّاته في اسيا الصغرى تحت قيادة قائد اسمه لؤلؤ . فلما بلغ عباس ان قدم ابيه وطأت ارض مصر ترك الفسطاط وفر الى الجيزة بعد ان اخذ معه جميع الاموال الموجودة في الخزينة وقدرها مليونا دينار (او مليون ومائتا الف جنيه مصري) ورافقه احمد الواسطي الذي كان عينه ابن طولون مساعداً لابنه عباس . وقد عول الواسطي بعد ذلك على الأوبة وعدم مشاركة عباس في العصيان ولكن عباس كبله بالحديد والاغلال لئلا يفرّ هارباً

وقد أرسل ابن طولون عدة مكاتب لابنه فيها يؤنبهُ على عمله ويطلب منهُ العدول عن هذا العداء وهو يعفو عنه ولكن جماعة الاتراك الذين حرضوا عباس على العصيان في بادىء الامر اغروه على عدم سماع أقوال أبيه لعلمهم انهُ اذا عفى ابن طولون عن ابنه فهو لا يعفو عنهم بل يقتص منهم ولذلك ارتحلوا لجهة الشمال الغرب الى ان وصلوا القيروان فطردهم حاكمها فعادوا ادراجهم حيث التقوا بجيش ابن طولون ووقعت لهم معه وقائع طويلة انتهت بانهزام عباس واسره وحمله الى الفسطاط وذلك في خريف سنة ٨٨١

وبعد ان مكث عباس ثلاثة شهور في السجن احضره أبوهُ قدامهُ وواجههُ برفاقه الذين اشتركوا معهُ في الثورة ثم طلب منهُ أن يقطع أيديهم وأرجلهم بيده . فأطاع عباس الامر وشوه أجسام اصحابه ولذلك وبخهُ ابوهُ ولامهُ لوماً شديداً على نذالته وخسة طباعه واسراعه في قتل أصحابه الذين ساعدوهُ على عمله وأجابوا طلبه في عصيانه وحينئذٍ جلده جلداً صارماً واعادهُ لسجنه كما كان

وكان يجول في خاطر ابن طولون اعمال ومشروعات جمه وتطمح نفسهُ الى التوسع في الملك ولكنهُ لم يكن لديه مال يساعدهُ على غرضه لان ابنه العاصي أفرغ الخزينة كما ان حظهُ لم يسعفهُ الى اكتشاف كنز جديد ولذلك عمد الى طريقته القديمة ودق على نغمة ولاة المسلمين وهي سلب الاقباط ونهب أموالهم وذلك بواسطة خليع زنيم منهم شكى ضدهم وارشدهُ الى طريقة لابتزاز ارزاقهم

وكان البطريرك شنوده قد انتقل الى رحمة مولاه عند ما كان احمد يحارب ابنهُ فلم يطالب ابن طولون خليفتهُ خائيل الثالث بدفع المبلغ المفروض عند رسامة بطريرك جديد لاشتغاله بالحرب مع ولده . ولما اكتفى احمد بما أخذهُ من الاقباط مؤخراً وأغمض جفنه عن ظلمهم واضطهادهم نهضت هذه الامة الاسيفة الى تعمير الكنائس وتشييد المعابد يتقدمها زعيمها ومقدامها البطريرك خائيل الذي افتتح عمله بتكريس كنيسة بنيت في سخا (بمديرية الغربية) باسم ماربطلوماس . وعند حلول ميعاد تدشين هذه الكنيسة

سار البطريرك مع كثيرين من الاساقفة وجمٌ غفيرٌ من أعيان الشعب الى سخا · فلما دخلوا الكنيسة لم يجدوا اسقف الابروشية حاضراً لاستقبالهم فظلوا ينتظرونه مدة من الزمن ولما لم يجيء ارسلوا اليهِ رسولاً يستدعيه فعاد الرسول وقال ان الاسقف لم ينتهِ من تناول طعام الفطور الذي كان قد دعى اليهِ كثيرين من اخصائهِ والاصدقاء (١) فغضب الاساقفة الذين جاؤا مع البطريرك من معاملة زميلهم هذهِ وسألوا رئيسهم ان يبتدىء بالخدمة ولا ينتظر هذا الاسقف · وبعد اخذ ورد قبل البطريرك وقام بإداء الخدمة المقدسة وحينئذٍ دخل اسقف سخا المشار اليهِ وهوَ يكاد يتميز من الغيظ لان كاهناً آخر تعدى على حقوقهِ ومارس فريضة العشاء الرباني في كنيستهِ الخاصة بهِ ثم سار نحو المذبح وامسك خبز التقدمة وطرحهُ في الارض وخرج مغضباً حانقاً · وكان الخبز الذي رماهُ الاسقف غير مقدس بعد فاستعاضهُ البطريرك بغيره واكمل القداس ووزع القربان على الشعب

وفي اليوم التالي قبل ارفضاض الجمع شكل البطريرك مجمعاً من الاساقفة الذين نظروا تلك الحادثة الشاذة وحكموا باجماع الاراء بحرمان اسقف سخا وخلعهِ وتعيين غيرهُ مكانهُ · فما كاد المجمع ينطق بهذا الحكم حتى سار ذلك الاسقف الخائن الى مصر تواً وذهب الى ابن طولون الذي اتخذ هذا الحادث

(١) في ما تقدم دليل واضح على ان الصيام قبل العشاء الرباني لم يكن متبعاً في تلك الايام · وهذا يظهر جلياً من عدم اعتراض الحاضرين على افطار الاسقف قبل المناولة بل هم اعترضوا فقط على عدم اهتمامه بحضورهم

حجة بها يتداخل في أمور الكنيسة القبطية ويمد يده بالسوء · فاكرم ابن طولون وفادته وأرسل حالاً فاستدعى البطريرك خائيل وطلب منهُ أن يسلمهُ جميع الاواني الذهبية والفضية الموجودة في الكنائس القبطية في القطر المصري باسره وكل معدن يمكن تحويله الى نقود ومسكوكات · أما البطريرك فرفض هذا الطلب بتاتاً ولذلك امر ابن طولون بسجنهِ فسجن

وقد بقي هذا البطريرك المسكين سنة كاملة في السجن حتى ظهر لابن طولون ان السجن والموت لا يرعبانه ولا يحركان جنانه فهو لا يجيبه الى تسليم اواني الكنائس ولو كان بين السيف والنطع ولذلك اضطر احمد اضطراراً ان يخرجه من هذا السجن الضيق المظلم على شروط اتفق عليها مع المستخدمين الاقباط الموجودين في معيته · ذلك ان يوحنا باشكاتب المعية ومقار ابنه وعدا احمد ان يقدما مبلغاً فداء للبطريرك والكنائس فرضي احمد على شرط ان لا يقل عن عشرين الف قطعة من الذهب طلب مقار وابنه من البطريرك ان يجمعها من ابنائه فقبل البطريرك الاسيف دفع هذه الغرامة الرابية حباً في خلاص اولاده من شقاء يحيق بهم واضطهاد يقع على رؤوسهم الا ان الصعوبة الكبرى كانت ان نصف هذا المبلغ يدفع في مدة شهر من الزمان والنصف الاخير يدفع بعد مضي اربعة شهور

فبداء البطريرك يبيع بيوتاً موقوفة للكنائس واراضي خارج الفسطاط كان يقطنها جماعة من الاحباش · وقد انتهز اليهود فرصة الضيق هذه التي كان البطريرك واقعاً فيها واخذوا يساومونه على شراء كنيسة

للاروام كانت في قبضة الاقباط ولكنها خربت وتهدمت فلم يكونوا يؤدون فيها خدمة · وكان اليهود يعتبرون مكان هذه الكنيسة من اقدس الاماكن واطهرها ولا زالوا يعتقدون هذا الاعتقاد الى الآن حيث زعموا ان فيها قبر النبي ارميا · وكل الذي نعرفهُ عن هذه الكنيسة انها كانت كنيساً قديماً لليهود بني قبل بزوغ شمس الديانة المسيحية فلما اعتنق اكثر يهود بابيلون الدين المسيحي في القرن الاول للمسيح حوَّلوا كنيسهم الى كنيسة · وقد ذكرنا في الفصل الثاني من المجلد الاول من هذا التاريخ ان نسخة قديمة من اسفار العهد القديم كانت موضوعة في مكان مقدس في ذلك الكنيس لا يعلم بوجوده احد سوى اليهود وقد زعموا ان هذا السفر كتبهُ عزرا النبي ولذلك لم يكونوا يفتحونه ولا ينظرون صفحاته كما انهم حرموا كل من مد يده اليه بسوء وعدوهُ اثيما جانياً (١) ففي ايام ضيقة البطريرك خائيل اشترى اليهود هذه الكنيسة القديمة التي لا تزال باقية تحت يدهم لغاية يومنا هذا

وبيع الاراضي والمنازل والكنائس القديمة لجمع هذه الغرامة الباهظة اجتمع الاساقفة معاً وقرروا فرض ضريبة شخصية على ابناء ابروشياتهم اولد ان جمعت هذه الضريبة واضيفت الى المال الاصلي ظهر ان كل هذه المبالغ

(١) منذ ثماني عشرة سنة مضت ذهب رجلان احدهما اسكوتلاندي والثاني اميركاني الى الكنيسة المذكورة وقبضا على ذلك الدرج في المكان الذي كان موضوعاً فيه فهاج اليهود وماجوا ومن ذلك الحين اخفوا هذا السفر المقدس فلا يعلم احد بمكانه الآن · أما تاريخ كتابة هذه النسخة فلا يعرفه احد قط

قليلة زهيدة في جنب المطلوب دفعةً فضلاً عن ان الشهر المضروب لدفع نصف الغرامة مرَّ مرَّ السحاب فوقع البطريرك في يأس وقنوط ورأى العذابات المريعة والموت الاحمر تتمثل امام عينيهِ ولكنه لم يهتز بهذا كله مثل ما خاف على يوحنا وابنه مقار اذا هو لم يحصل على الدراهم ولم يتمّ الوعد الذي وعداه لابن طولون

ففي هذه الظروف المرَّة سار خائيل في طريق ظل باقي عمره يأسف من انتهاجها لانها غطت تاريخ حياته الابيض بلطخة سوداء · وتفصيل ذلك ان في المدة التي كان فيها هذا البطريرك سجيناً خلت نحو عشر اسقفيات من اساقفتها وكان لابد من تعيين اساقفة فيها · وكان مركز الاسقف خطيراً مهماً رغماً عما يتهددهُ من الاضطهاد والاضطراب ولعلَّ اهميتهُ نشأت من تسلط الاسقف سلطة مطلقة على مواطنيه وابناء جلدته الذين يجدهم دائماً طوع امره لما له عليهم من النفوذ الديني اللازم لهذه الوظيفة · اما الطريقة التي اتبعها البطريرك خائيل في هذه الظروف فهي انه فرض على كل من يبتغي الاسقفية ان يدفع مبلغاً باهظاً من المال وقت رسامته حتى بذلك يؤدي المطلوب منه لابن طولون · فلم يكد هذا الخبر ينتشر حتى توافد عشرة اشخاص دفعوا المبالغ المفروضة وعينوا اساقفة · وبهذه الواسطة وقع خائيل في مصيبة تبكيت الضمير لانه كان اول بطريرك اخذ فضة لاجل المواهب الروحية مع ان له عذراً واضحاً يبرر عمله هذا حيث انه لم يأخذ شيئاً لنفسه مما جمعه بل هو دفع تلك النقود لرفع ضيم واضطهاد كان وقوعهما على امته امراً محتماً كما انه لم يقل

احد من المؤرخين ان خائيل سام غير كفوء لانه قدم فضة اوذهباً ٠ والنتيجة ان عمل البطريرك القبطي أشرف بكثير من تصرفات نوّاب الحكومة الانكليزية الذين يدفعون الاموال الطائلة لاغراء الشعب على انتخابهم كما انهم يأخذون مرتبات في مقابلة نيابتهم عن الامة ٠ ولا يغرب عن ذهن اللبيب ان اساقفة الاقباط قديماً دفعوا تلك المبالغ فدية لكنيستهم كما اشرنا قبلاً ولكن اساقفة الكنيسة الانكليزية الذين يتمتعون بالسلام والامن في ظل حكومة ملك مسيحي لا يزالون يدفعون الى يومنا هذا مبلغاً لا يقل عن ثلثمائة جنيه انكليزي يؤدّونها ضريبة للحكومة ولرئيس الاساقفة يوم رسامتهم

ولما لم تكف كل هذه المبالغ لدفع تلك الغرامة الثقيلة عمد البطريرك الى طريقة اخرى بها يجمع بعض المال وهي تأجير المقاعد المخصصة في الكنائس لجلوس الرهبان حيث ان عادة هاتيك الايام كانت ان للراهب مقعداً خاصاً به يجلس عليه اثناء الخدمة ولا يصح لغيره ان يستعمله ٠ وهكذا اضيفت اجرة الكراسي هذه الى الاموال المجموعة قبلاً وهذه وتلك لم تكن كافية للسداد وحينئذ اضطر البطريرك ان يسأل مدرسة الاسكندرية اللاهوتية القائمة وقتئذ بتدبير شؤون الكنائس في هذه المدينة ان يبيعوا جميع انواع النقوش والزخارف الموجودة في كنائسهم و يرسلوا ثمنها له لكي بواسطته و بغيره يتقي شر اضطهاد لا يعلم عاقبته الا الله علام الغيوب

وقد رفض اكليروس الاسكندرية في بادئ الامر اجابة طلب

البطريرك ولكنهم رضوا اخيراً على شرط ان البطريرك وخلفاءه يتعهدون بدفع الف قطعة من الذهب مساعدة سنوية لكنائس الاسكندرية ٠ فمن هذه الموارد المتعددة جمع البطريرك خائيل عشرة الاف قطعة من الذهب في نهاية الشهر المضروب اجلاً ودفعها لابن طولون

ولكن الزمن لم يفسح في اجل ابن طولون حتى يتم ما بدأ به من المشروعات الجليلة بل اعتدى الموت عليه وهو في عنفوان الصبا وريعان الشباب ٠ قيل ان ابن طولون بينما كان يحارب اسيا الصغرى اصابه مرض عضال نشأ من شربه مقداراً وافراً من لبن الجاموس ٠ وقد قال احد المؤرخين ان الطبيب القبطي الذي كان يعالج احمد اشار عليه بالحمية والابتعاد عن المآكل العسرة الهضم خوفاً على حياته ولكن احمد عصى اوامر طبيبه كبراً منه او جهلاً ولذلك اشتدت وطأة المرض عليه فعزم على العودة الى مصر تاركا تدبير مهام الحرب لاحد قواده فحملوه على حمالة من سوريا الى الاسكندرية ثم وضعوه في سفينة الى ان وصل الفسطاط حيث ازداد المرض عليه واشرف على الموت فاستدعى جميع الاطباء الموجودين في الفسطاط وطلب منهم ان يشفوه و يعيدوا اليه حياته الذاهبة والا يوردهم حتفهم و يذيقهم الموت الاليم ٠ ثم امر باقامة احتفال يشترك فيه ائمة الاديان المختلفة في مصر لتقديم طلبات وتضرعات لله ليشفي ابن طولون من مرضه ٠ فتقدم هذا الاحتفال الديني جماعة من فقهاء المسلمين يحملون القرآن وتلاهم اساقفة وقسوس الاقباط يحملون الاناجيل و بعدهم معلمو المدارس والتلامذة وسار هذا الموكب في

حفلة حافلة الى اعلا قنة المقطم حيث ركع الجميع امام الله المعبود من كل هذه الخلائق طالبين البرء لاميرهم السقيم · وقد وزعت الصدقات على فقراء المسلمين فقط واقيمت الصلوات والدعوات في الجوامع ليلاً ونهاراً · وكانت النتيجة ان صحة ابن طولون انحطت بدل التقدم وقواه ضعفت عوضاً عن التحسن وشعر بدنو اجله وحينئذٍ امر باطلاق رجل كان قد سجنه ظلماً واستغفر الله عما ارتكب في حياته ونطق بالشهادتين واسلم الروح لباريها

الفصل الرابع والاربعون

الدولة الاخشيدية

سنة ٨٨٤ للمسيح و٦٠٠ للشهداء و٢٧٠ للهجرة

مات احمد ابن طولون عن نحو ثلاثين ولداً ذكراً ظلوا أحياء بعد موته ولما كان بكره عباس قد اضاع ماله من الحق في وراثة الملك عن أبيه لسبب عصيانه وعقوقه آلت السلطة الى ابنه الثاني واسمه خمارويه · وقد قال بعض المؤرخين ان ابن طولون قبل موته عفى عن عباس واخرجه من سجنه ولكنه أوصى بالملك لابنه الثاني الآنف ذكره · ومن الثابت المعلوم ان عباس قتل بعد تمليك اخيه الذي قتله رغماً عنه اتباعاً لدسائس المفسدين الذين اغروه بذلك لكي يستريح منه · ولما استتب الملك لخمارويه اعفى الاقباط من دفع

العشرة آلاف قطعة من الذهب وهي نصف المبلغ الذي فرضه ابوه على البطريرك خائيل ثم دفع لهم الايصال الخاص بذلك حتى لايعود احد لمطالبتهم · وكانت عادة هذا الملك ان يدفع جزية سنوية للخليفة ولكنه ظل مستقلاً استقلالاً تاماً مدة الاثني عشرة سنة التي فيها حكم مصر وسوريا والقسم الاكبر من اسيا الصغرى حكماً مطلقاً لايشاركه فيه احد · واول عمل شرع فيه خمارويه انه بنى قصراً جديداً في المدينة التي أسسها أبوه وللعرب حكايات واقاصيص عن هذا القصر تقصر العقول عن تصديقها لبعدها عن الحقيقة · من ذلك انهم قالوا ان السلطان هذا وضع في حدائق قصره الجديد تماثيل وانصاباً له ولزوجاته الكثيرات ثم عمل بحيرة قطرها تسعة وعشرين متراً وملأها بالزئبق · ومن المؤكد ان مسألة التماثيل لاحقيقة لها لان المهندسين الاقباط الذين كانوا يبنون القصور والصروح لمواليهم المسلمين لم يكن يسمح لهم بوضع تماثيل أو نقوش أو صور اشخاص بشرية في العمائر التي شادوها للمسلمين ومن هنا يتضح كذب القول السابق ذكره

وبعد ذلك ببضع سنوات مات الخليفة المعتمد وخلفه المعتضد فرأى سلطان مصر ان يتقرب الى الخليفة الجديد بتزويج ابنته بابنه طمعاً في تقوية مركزه واعلاء سلطته · فرضي المعتمد بذلك وطلب ان يأخذ الفتاة زوجة له بدل ان يزفها الى ابنه وعليه سارت العروس من مصر الى دمشق في موكب حافل يتقدمه والدها وعيون مصر وارباب الحيثيات فيها · وبينما كان خمارويه في دمشق يفرح ويطرب دبرت له زوجاته مؤامرة مربوطة الاطراف كانت سبباً

في هلاكه وهو في الحادية والثلاثين من عمره (١) . وخلفه ابناه جيش ثم هرون الذي ظل استقلال مصر يتراوح في يديه كالقصبة المضطربة الى ان جاءت سنة ٩٠٤ للمسيح (٢٩٢ للهجرة) حينما ارسل الخليفة الجديد المكتفي جيشاً على مصر تحت قيادة محمد بن سليمان ليستردها لسلطانه . وكانت النتيجة ان هرون مات في ساحة القتال وقام بعده عمه شيبان وبذل جهده في اعادة السلطة القبضة يدهم ولكن رعيته اغتالت حياته في ظرف شهر واحد . وهكذا اطبق الزمان بكلكله على ذرية ابن طولون اذ ألقي القبض على نسله وضمت املاكهم لجانب الحكومة ثم أرسل عشرة من كبار عائلته الى بغداد مكبلين بالحديد والاغلال . وقد تولى مصر في ذلك الحين رجل اسمه عيسى النوشري فذاقت هذه البلاد الاسيفة منه ومن الذي وقع قبله كل مر وبلاء ومات البطريركان القبطي والرومي في ابان هذه المصائب وبقي الكرسيان خاليين مدة من الزمن ولم يتجاسر الشعبان على انتخاب بدل لبطريركيهما . والذي يراجع اقوال المؤرخين في هذا الصدد يجدها مضطربة مرتبكة الا انهم اتفقوا جميعهم على ان البطريركة القبطية بقيت بدون بطريرك مدة اربعة عشر عاماً والرومية احدى عشر .

---

(١) كان خمارويه ميالا للمسيحية والمسيحيين حتى قيل عنه انه كان يصرف ساعات من النهار واقفاً امام صورة في كنيسة الاروام بالقصير بهيئة التعبد والخشوع . وكان أيضاً صديقاً حمياً للرهبان في القصير يميل اليهم ويجنح الى البقاء معهم حتى انه بنى لنفسه غرفة وسط صوامعهم لكي يتمكن من مشاهدتهم وقت العبادة والتمتع برؤية الصور المقدسة

وكان آخر بطريرك للاروام ميخائيل جالس على الكرسي البطريركي سبعة وثلاثين سنة شهد فيها قيام دولة ابن طولون وسقوطها ولكنه لم يعمل في اثنائها ما يستحق الذكر سوى انه ارسل جواباً الى فوطيوس بطريرك القسطنطينية يهنئه فيه على رجوعه لمنصبه مرة اخرى . وكان فوطيوس هذا قد عزل بحكم من المجمع الكنائسي الثامن ثم تشكل بعد ذلك مجمع في القسطنطينية من نواب جاؤا من رومية ومن أروام مصر وأعادوه لمنصبه . وفي جواب التهنئة هذا أتى ميخائيل بطريرك الاروام على ذكر المطارنة الجدد الذين ترقوا حديثاً وهم زخاري لدمياط ويوحنا لبابيلون واسطفان للاقصر وثاوفيلوس للمنيا

وبعد هذه الفترة تعين بطريرك للاروام اولاً في مدة مكتني (اوتكين) الذي جاء بعد عيسى النوشري لامارة مصر . وهذا البطريرك الرومي الجديد كان مثل باقي بطاركة الاروام جيء به من خارج مصر فان مسقط رأسه مدينة حلب وقد انتخب ورسم بطريرك اورشليم سنة ٩٠٧ ولما وفد على مصر رفض جماعة الاروام قبوله او الاعتراف برتبته ما لم يعيدوا انتخابه ورسامته مرة ثانية . فقبل هذا البطريرك شرط رعيته وغير اسمه الاجنبي من كريستدلاس الى اسم عربي هو عبد المسيح

وبعد ذلك بنحو سنتين - اي سنة ٩١٠ - اختير راهب اسمه غبريال من دير انبا مقاره بطريركاً للكنيسة القبطية . وكان هذا البطريرك الجديد نقياً سهل الاخلاق دمثاً ولكنه لم يكن قوياً شديداً ذا ارادة تتغلب على المصاعب . يدلك على ذلك انه اجرى الضريبة التي فرضها سلفه خائيل على

كل اسقف برسم جديد وذلك لكي يدفع الرسم المطلوب لكنائس الاسكندرية الذي تعهد به خائيل في اوقات ضيقاته . كذا لم يلغ غبريال الضريبة الشخصية التي كانت مضروبة على اعضاء الكنائس القبطية سداداً لطلبات ابن طولون الجائرة الباهظة بل ظل هذا البطريرك الجديد يتقاضاها كما كانت

وبعد جلوس البطريرك غبريال بقليل وقع على مصر شقاء جديد قبل ان تفيق من المصائب القديمة وتفصيل ذلك انه في سنة ٨٩٣ مسيحية (٢٨٠ هجرية) وفد على مصر رهط كبير من العرب يلقبون انفسهم بالفاطميين زعماً منهم انهم من سلالة فاطمة ابنة النبي فاستحوذوا على الخمس مدن الغربية والبلاد المجاورة لها ووضعوها تحت سلطتهم . وبعد مضي ستة عشر سنة على قدومهم قام رئيسهم ونادى بنفسه خليفة تشبهاً بالخليفة الاموي في اسبانيا (الاندلس) والخليفة العباسي في بغداد . وقد جعل هذا الخليفة الفاطمي مدينة القيروان عاصمة لملكه . اما المدينة القديمة التي ذكرناها في أوائل المجلد الاول تحت اسم قورينة فقد اخربها العرب عند ما فتحوا هذه البلاد اول مرة (سنة ٤٦ هجرية) وازالوا معالمها ثم بنوا بدلها مدينة على مسافة قريبة من مكان المدينة الاولى وسموها باسمها بعد ان اخذوا انقاضها وادوات العمارة الموجودة فيها واستعملوها في بناء مدينتهم الجديدة

ولما استتب الامر للخليفة الفاطمي في القيروان عقد النية على اخذ مصر تلك الدرة الثمينة في المشرق باسره التي طالما تخاطفتها الامم وتلقفتها الشعوب دون ان يقوم من بينها من يحميها او يذود عن حوضها المتهدم . ففي سنة

٩١٣ م (٣٠٠ هـ) سار الخليفة الفاطمي على مصر باربعين الف مقاتل فاخذ الاسكندرية وحاصر الفسطاط ولكنه لم يلبث طويلا حتى هزم بعد ان تكبد خسائر جمة وعاد قافلاً الى الاسكندرية حيث بقيت في قبضة يده مدة من الزمن لم يستطع فيها دفع خصمه عنا فتركها عائداً الى بلاده راضياً من الغنيمة بالاياب . اما المصائب الجمة والبلايا المدلهمة فقد وقعت على رؤوس الاقباط في اثناء هذه الحرب لان الدهر اقامهم هدفاً لكل مصيبة يصيبه الضارب من الخارج ومن الداخل . واعظم ويل حلّ بالاقباط حينئذ احتراق كنيستهم الكبرى الكائنة بالاسكندرية المعروفة باسم القيصرية اذا اطلق فيها المسلمون الفاطميون النار فلم تبق عليها ولم تذر . ولم تمض سنوات قلائل على هذا الحرب حتى عاد الفاطميون يشنون الغارة على مصر بعد ان عقدوا النية على محاربتها في الاسكندرية والفيوم حتى يدوخوها

وفي سنة ٩٢١ توفي البطريرك غبريال وخلفه قزمان الثالث . وكانت تلك الحروب الدائمة وما تبعها من مصائب واهوال سبباً في فصم عرى العلاقات بين الكنيسة القبطية وربيبتها الحبشية اذ بقيت هذه العلاقات منقطعة مدة مائة سنة او تزيد . ويغلب على الظن ان وظيفة المطران في تلك البلاد كان يؤديها ملوك الحبشة في هذه الفترة وقد قال ابو صالح المؤرخ ان ملوك الحبشة كانوا يعتقدون انهم مرشحون لاتمام الوظائف الكهنوتية العالية مثل ترشيحهم لتأدية المواجب السياسية والادارية حتى ان بعضهم ادّى فريضة العشاء الرباني في احتفال أقيم في الكنيسة الحبشية . ولما جلس قزمان على السدة

البطريركية في مصر جاءه وفد من الحبشة يرجو تعيين مطران قبطي لكنيستهم خصوصاً وان مليكهم بلغ من العمر اشدّه واشرف على حافة الابدية وليس له سوى ولدين قاصرين لايصلحان للحكم فلا بدّ من تعيين مطران يكون قيّماً عليهما ويدبر شؤون المملكة الى ان يبلغ الولدان سن الرشد . فلبى قزمان طلب الوفد ورسم رجلا اسمه بطرس لهذا الغرض وارسله الى الحبشة حيث استقبله شعبها بترحاب وفرح زائدين واقاموه بعد موت ملكهم وصياً على ابنيه .
ولما كان الملك يحتضر على فراش موته استدعى اليه المطران بطرس وقال له ان لا ينظر الى من هو احق بالملك من ولديه من حيثية عمرها بل ينظر الى الاهلية والاستحقاق حتى اذا كان الاصغر أليق من الاكبر فلا عبرة بالبكورية بل يجب تعيين الاصغر لهذا المنصب الخطير . فلما شبّ الصبيان عن طوقهما ظهر لبطرس ان الاصغر احسن من الاكبر بكثير ولذلك اجلسه على عرش المملكة واقرّ له السلطة فرضخ اخوه الكبير لهذا الحكم ولم يبدِ ادنى مقاومة بل عاش هادئاً ساكناً مدة من الزمن الى ان دبّ احد المفسدين في بلاد الحبشة فقامت بسببه حرب اهلية اوجدت شقاء لهذه البلاد النائية . وتفصيل ذلك ان اثنين من الرهبان الذين اعتادوا على التجول طلباً للكفاف بواسطة الاجتداء والشحاذة ذهبا الى الحبشة وطلبا دراهماً من المطران الذي رفض طلبهما ربما لانه كان يعرفهما من قبل انهما من ذوي السلوك المشين . فحنق هذان الراهبان . واسمهما مينا وبقطر . ودبرا مكيدة سيئة بها ينتقمان من المطران انتقاماً يعود عليه بالضرر وعليهما بالفائدة

وكان بدء هذه المكيدة ان مينا كتب جوابات مزورة بامضاء البطريرك قزمان قال فيها انهُ (اي البطريرك) حزن واكتئب كثيراً عندما بلغهُ ان خائناً اسمهُ بطرس ادعى انهُ تعين بواسطته مطراناً للحبشة ونجح في اغراء الملك المتوفي على الاعتراف بسلطته . وختم هذا الجواب بقوله عن لسان البطريرك انه لم يعين بطرس وليس له ادنى علاقة معه وان مينا حامل هذا المكتوب هو المطران الحقيقي الذي سامه البطريرك للحبشة ولذلك فهو يطلب من ابناء الكنيسة نفي المطران بطرس والملك الجديد الذي عينه هو مختلساً حقوق اخيه الاكبر

وقد دفع مينا هذا الجواب الكاذب الى الابن الاكبر الذي انتهز هذه الفرصة ليسترد بها العرش فشنّ حرباً اهلية قامت سوقها بينه وبين اخيه الملك وكانت نتيجتها ان الملك أُخذ اسيرا وسجن في مكان منفرد ثم نفي المطران بطرس الى مكان بعيد وحلّ مينا محله . اما بقطر فيظهر انه اكتفى بتدبيرات زميله الشرير ووجد نفسه في مركز حرج ولذلك فرّ هارباً من الحبشة وجاء مصر حيث القى على مسامع البطريرك قزمان كل ماوقع من مينا

فلما سمع قزمان ذلك اصدر امره بحرم مينا وشجب اعماله فقام ملك الحبشة الجديد على مينا وقتله شر قتلة طمعاً منهُ في استجلاب رضى البطريرك القبطي ثم ارسل يستدعي بطرس المنفي ولكنهُ كان قد مات من شدة ما لاقاه من العذاب المرّ في منفاه وترك بعده تلميذاً استدعاه الملك الى اكسوم مدينة الاحباش المقدسة ليحل محل معلمه دون ان يرسله الى البطريرك ليرسمه كالمعتاد

بل اجبره على القيام بوظيفة المطرانية واتمام جميع اعمال المطران · وقد طلب هذا التلميذ من الملك ان يسمح له بالذهاب الى مصر حتى ينال الرسامة من بطريركها اتباعا للاصول والقوانين المرعية ولكن الملك رفض طلبه بتاتاً ووضع هذا المطران المسكين تحت المراقبة والسيطرة وامره ان لا يعترف بوجود رئيس له سوى الملك · ولعل هذا الملك الجاهل ظن انهُ اذا ذهب هذا المطران الجديد الى البطريرك ليرسمه فالبطريرك يوصيه بنزع المملكة من يده وتسليمها الى اخيه الاصغر · وقد ظلت الحبشة سائرة على هذا الترتيب مدة تنيف على سبعين سنة لم ترسل فيها الكنيسة القبطية مطراناً واحداً لهذه البلاد · وفي سنة ٩٣٣ م (٣٢١ هـ) توفى البطريرك قزمان وخلفهُ رجل اسمهُ مكاريوس لم يكن من طغمة الرهبان مطلقاً لانهُ كان يقطن مدينة الاسكندرية لحد اليوم الذي صار فيه بطريركا اذ غادرها الى مصر ولم يعد اليها ثانية · قيل ان هذا الرجل كان يحب امهُ حباً زائداً ويحترمها احتراماً كبيراً ولا غرابة في ذلك لانها ربتهُ احسن تربية وهذبتهُ اجمل تهذيب وزرعت فيه مبادئ جنت منها اثماراً لذيذة شهية · ولما تعين مكاريوس بطريركا كانت امهُ لا تزال في قيد الحياة فعزم ابنها مرة ان يزورها ويفرح قلبها بوظيفته السامية فسار الى البلدة التي كانت تسكنها بعد الاسكندرية يصحبه جماعة من الاكليروس والاساقفة فلما دخل مكاريوس منزل والدته ووقعت عيناها عليه ذرفت دموعا سخينة وقالت له بصوت اجش انها كانت تتمنى ان ترى نعشه محمولا على اعناق الرجال وخلفهُ النسوة يبكين حزناً من

ان تراه متقلداً هذه الوظيفة الخطيرة ومحاطاً بجمهور الاساقفة والقسوس ذلك لانهُ لما كان عالمانياً كان مسئولاً عن خطاياه الشخصية فقط ولكنه لما صار بطريركا فهو سوف يسأل عن خطايا كل شعبه وزلاتهم

وفي سنة ٩٣٥ م (٣٢٣ هـ) قام خليفة جديد في بغداد من الدولة العباسية فرفت والي مصر المسمى احمد بن كيغلغ ليحل محله ابو بكر محمد المعروف بالاخشيد وهو صنيعة هذا الخليفة الجديد · فلم يرق هذا الصنيع في عيني احمد بن كيغلغ لانه عزل بدون ذنب جناه فسار الى الخليفة الفاطمي واغراه بالهجوم على مصر واخذها عنوة · فصادف هذا القول هوى في نفس الخليفة الفاطمي الذي سار على مصر بجيش مزبد فاخذ الاسكندرية واستولى على جزء كبير من الوجه القبلي ايضاً · فوقع ابو بكر في دهشة من هذه المفاجأة ولكنه لم يسكت بل قام على هؤلاء المغيرين واجلاهم عن البلاد التي اخذوها ولكنه لم يقدر يخرجهم من الاسكندرية ولما رأي ابو بكر ان الخليفة في بغداد ضعيف لم يمد يده له في اوقات الضيق اعرض عنه وخرج عن طاعته ونادى بنفسه سلطاناً مطلقاً لمصر وذلك في سنة ٩٣٦ م (٣٢٤ هـ) · وقد دام حكم الاخشيد الى سنة ٩٤٦ لم يسترح في اثنائها من الحروب المستمرة ضد اصحاب المطامع من اخوانه المسلمين الذين طمحت انظارهم الى امتلاك سوريا واسيا الصغرى ولذلك زاد الاخشيد مقدار الضرائب المطلوبة من الاقباط المساكين بدعوى الحصول على مال به يجيش الجيوش ويجهز الحملات · فمن هذا يتضح لك انه اذا تخانق القوم وتحاربوا فالمصائب تقع على الاقباط

واذا عاشوا في امن وسلام فهم يوجهون انظارهم في اضطهاد الاقباط وتعذيبهم
فكل بلية في العالم انحطت على هذه الامة التعيسة في هاتيك العصور المظلمة
وذاقت من انواع المظالم والمغارم مايفوق حد التصور وتنوء تحته اقوى الامم وامنعها

ويظهر ان الحظ الذي لاقاه ابن طولون في ايجاد كنوز في القبور القديمة
اوجد غيرة متقدة في قلوب الذين اخلفوه حتى ان الاخشيد هذا ولع بنبش
القبور والبحث عن الكنوز ولعاً يقرب من الهوس والجنون فقد قال المسعودي
المؤرخ ان الاخشيد لم يترك قبراً واحداً في القطر المصري باسره الا ونبشه
طمعاً في اكتشاف لقية فيها . وقد وُجد في مقبرة واسعة بهو فخيم عليه نقوش
وصور زاهية باهية وفي وسطه تماثيل شيوخ وشبان ونساء واطفال صغار من
احسن ماصنع الصانعون وافخر مابرأته ايدي الآدميين . وكانت اعين هذه
التماثيل من الحجارة الكريمة ووجوهها من الذهب الوهاج او الفضة النقية

وكان بمصر في زمن الاخشيد مؤرخان شهيران احدهما مسلم وهو المسعودي
والثاني مسيحي هو يوطيخيوس الذي اشتهر ايضاً بمهارته في فن الطب وهو
كان لذلك اليوم منحصراً في المسيحيين واليهود فقط ولكن اقباط مصر فاقوا
سواهم فيه من كل وجه وكان اسم والد يوطيخيوس بتريك واسم يوطيخيوس
الحقيقي سعيد ولكنه مال الى الاسم اليوناني يوطيخيوس ومعناه ايضاً سعيد
او مبارك . وكان ليوطيخيوس هذا مؤلفات ثمينة منها نبذات عن تاريخ
الاسكندرية وكتاب في الطب وكتاب عن الجواهر والاحجار الثمينة .
اما مسقط رأسه فمصر ولد فيها سنة ٨٧٩ وفي سنة ٩٣٣ (٦٤٩ للشهداء)

أختير خليفة لعبد المسيح بطريرك الاروام في مصر وهو اول بطريرك للاروام
اشتهر بمزايا لم يشتهر بها سلفاؤه منذ ما فتح المسلمون مصر . وكانت مدة رئاسته
سبع سنوات ونصفاً ذاقت فيها الكنيستان القبطية والرومية انواع العذابات
من المسلمين . وقد اشتد بغض الاخشيد لمدينة صان (بمديرية الشرقية)
لاسباب لم نعرفها فصب جامات غضبه عليها بعد ان كانت على وشك
النهوض من السقطة الهائلة التي اوقعها فيها اخوانه المسلمون قبله اذ هدموا
كنائسها الرومانية مرتين وازالوا معابدها ظلماً وجوراً فلما جاء الاخشيد
واستتب له الامر في مصر ارسل ضابطاً وفرقة من عساكره الى صان وامرهم
بايصاد الكنائس الرومية واخذ كل ما يوجد فيها من ذهب وفضة وجميع
اواني المذبح . ولكن اسقف صان اجهد نفسه وباع بعض العقار الخاص
بكنائسه وجمع خمسة الاف دينار بكل صعوبة ودفعها للاخشيد رشوة
ليكف عما نواه ضد الكنائس وبعد موت يوطيخيوس المؤرخ سقطت
الكنيسة الرومانية في وهدة الانحطاط والتأخر وظلت خمسمائة سنة بعد
هذا التاريخ وهي مطموسة الاثر عارية من كل خبر لا يعرف عنها شيء
سوى اسماء البطاركة الذين قاموا فيها قياماً اسمياً بدون عمل يذكر

وفي زمن الاخشيد وضعت اساسات مدينة المنصورة عاصمة مديرية
الدقهلية وقبل أن يتم بناؤها مات الاخشيد وترك طفلا قاصراً وضعه تحت
رعاية معتوق من معاتيقه اسمه كافور وهو سوداني الاصل اشتهر بسعة عقله
وسمو صفاته . وقد جاء كافور من دمشق الى مصر مع ابي القاسم بن الاخشيد

القاصر ثم شرع في اصلاح حالة البلاد ووضع لها قوانين وشرائع عادلة نافعة ·
ولكن قبل ان يستقر بكافور النوى في مصر ظهر في دمشق عدو لدود للاخشيد
هو سيف الدولة الذي وضع يده عليها وامتلكها مع انه كان قد عقد صلحاً مع
الاخشيد قبل موته وتزوج ابنته اتماماً لهذا الصلح فاوقفه كافور عند حده واخمد
نار الثورة في سوريا وعاد الى مصر ليتم الاصلاح الذي بدأ به فلم يكد ينفض
غبار ثورة الشمال عن قدمه حتى اشتعلت نار حرب في جنوب مصر وذلك ان
ملك النوبة (السودان) احتل الواحات الكبرى واخذ عدداً كبيراً من سكانها
اسرى وقد بقي السودانيون يزعجون المسلمين في مصر ويقلقون راحتهم طول
زمن كافور وما بعده

وفي سنة ٩٥٣ توفي البطريرك مكاريوس وخلفه رجل هرم اسمه ثيوفانيوس
وكانت البطريركية القبطية في ذلك الوقت قد تضايقت وتذمرت من دفع
الالف قطعة من الذهب التي تعهد البطريرك خائيل الثالث بدفعها لكنيسة
الاسكندرية في ايام ضيقه ذلك لان الاقباط حينئذ قلّ عددهم وصار اكثر
سكان مصر من المسلمين وسبب هذا فشل الاقباط في ثورتهم الاخيرة سنة
٨٣٢ وما لاقوه بعدها من الظلم والاضطهاد مما افنى اكثرهم وحوّل بعضهم
الى الديانة الاسلامية · فهؤلاء الاقباط الضعفاء المساكين كانوا يدفعون اكثر
الاموال المطلوبة للحكومة ويؤدون جزية وضريبة غير اعتيادية وفوق هذا
كله يدفعون ذلك المبلغ الطائل لكنيسة الاسكندرية مما جعلهم يرزحون
تحت احمال الفاقة والديون فضلاً عن انهم كانوا قد دفعوا للاسكندرية اكثر

عشرة اضعاف المبلغ الذي اخذه خائيل منها · وقد رأى ثيوفانيوس ان
و ضجر من هذه الاتاوة حتى اضطر كثيرون من الزعانف وتمالة الامة
فنزل بانة المسيحية فراراً من هذه المغارم المالية فعوّل حينئذ على مفاوضة
بين ال سكندرية في هذا الامر والذهاب اليها بنفسه عساه يقنعها بالتنازل
البطر الغرامة الرابية · وكانت الاسكندرية في ذلك الحين في قبضة
م لم ولا يخلو السفر اليها من خطر ولكن ثيوفانيوس تدرّع بالشجاعة وسار
يها بقلب ثابت فوصلها سالماً وعقد مجمعاً من اكليروسها وطرح امامهم هذه
المعضلة ورجاهم اما ان يمزقوا الصك المأخوذ على البطريرك خائيل ويبطلوا
هذه الضريبة او على الاقل يخففوها ويتنازلوا عن جزء منها · وكانت لكنيسة
الاسكندرية منزلة خصوصية تمتاز بها عن باقي الكنائس القبطية مع انها
كانت تحت سلطة البطريرك اسمياً فقط وفعلياً تحت ادارة لجنة من اعضاء
الكنيسة يدبرون شؤونها ويحافظون على ما لها من الامتيازات الخاصة بها ·
فلهذه الاسباب سلكوا في هذه المسألة التي نحن بصددها سلوكاً يغاير مبادئ
المسيحية التي يدينون بها لانهم رفضوا باتاً البحث في ما عرضه عليهم البطريرك
وصمموا على المطالبة بحقوقهم كما هي

وكان ينتاب ثيوفانيوس احياناً نوع من الامراض العصبية كالصرع او
نحوه يفاجئه في غير اطواره فلما حنق من اصرار اقباط الاسكندرية على رفض
طلبه فاجأه هذا المرض فجعل يشتمهم ويوبخهم توبيخاً خرج عن حدود التعقل
فنتج من ذلك ان بعض اكليروس الاسكندرية اساؤا الادب لرئيسهم وقالوا

له بقحة زائدة انه لا حق له ان يؤنبهم ويعنفهم لانهم مساوون له في الد[illegible]
والوظيفة وانه لايمتاز عنهم بشيء سوى بملابسه التي لم يتحصل عليها با[illegible]
الشخصي بل بواسطة الذين اختاروه خطاء وسهواً

فلما سمع ثيوفانوس هذا لم يستطع السكوت بل مزق ملابسه تمز[illegible]
تحت اقدام الاسكندريين ثم اخذ غضبه يزداد ويشتد حتى استو[illegible]
المزعج الذي احدث خللاً في قواه العقلية بلغ لدرجة الجنون المحزن ف[illegible]
القسوس الذين كانوا معه بواسطة تمنع ثورانه الاربطه وتكبيله بالاغلال والقيو[illegible]
وقد

فحزن الاسكندريون من هذه الواقعة المريعة وعمهم القلق والخوف · وقد
اجتمع الاساقفة حالاً في الاسكندرية واخذوا يبحثون في الذي يجب عمله في
هذه الظروف الصعبة فقرروا ترحيل هذا البطريرك المسكين الى بابيلون بحراً
وحينئذ انزلوه في سفينة وهو موثوق بالسلاسل ونزل معه جمهور من الاكليروس
وواحد او اثنان من الاساقفة · وكان الامل بشفائه من هذا الداء العضال
معقوداً على هدوء النيل وطيب هوائه ولكن الطبيعة عاكسته فهاجت الزوابع
والاعاصير وصيرت هذا البطريرك المنكود في حالة لاتطاق من الارغاء والازباد
والمذيان والتجديف واخذ يتفوه بكلمات لاتطيقها الآذان ضد الديانة وواضعها
حتى ان القسوس الذين كانوا يلاحظونه ضجروا وتأففوا لولا انهم كانوا يزعمون
انه مملوء من الشياطين والارواح الشريرة فاكتفوا بانزاله في الأنبار (جوف
السفينة) وحجزه فيه . فلما اقترب المساء جلس الاساقفة والقسوس على ظهر
السفينة وهم في حالة الكآبة والحزن لان بطريكهم قد زاد اختباله واختبل حاله

وصارت كلماته التجديفية تطن في آذانهم فتؤلمهم وتجرح عواطفهم الدينية
فنزل اسقف منهم الى الأنبار الذي كان ثيوفانيوس سجيناً فيه · وقد جرى
بين البطريرك والاسقف حادث لايعرف تفصيله سوى ان الاسقف قتل هذا
البطريرك الاسيف قتلاً وربما فعل ذلك دفاعاً عن نفسه اذ يحتمل ان البطريرك
هم بقتله هياجاً وجنوناً فلم ير الاسقف مندوحة من قتله ولهذا لم يحاكم على
فعلته هذه · ولا يبعد ان يكون هذا الاسقف اراد ان يخرج الشيطان من
معله بقوة الرقى والعزائم حسب زعمهم في هاتيك الايام — وفي هذه ايضاً
فلم يفلح وهاج البطريرك من رؤيته فحدث بينهما ماحدث · وقد اثر التجديف
والمذيان الذي فاه به البطريرك في زمن جنونه في الاذهان حتى ان رعيته لم
تحتفل بموته كمسيحي بل طرحوا جثته في عرض الشوارع كما تطرح جثث الحيوانات

وكانت مدة رئاسة ثيوفانيوس ثلاث سنوات فقط وبعد موته ظل
الكرسي البطريركي خالياً نحو سنتين او ثلاث الى ان قام الاقباط واختاروا
راهباً عجوزاً فرفض هذه الوظيفة لما فيها من مسؤلية عظمى ولكنه اشار على
منتخبيه باختيار رجل اسمه مينا لم تقر كل الاصوات عليه في بادئ الامر
لان جماعة ممن لا يفهمون ولا يدركون عارضوا في انتخابه بدعوى انه كان
متزوجاً · صحيح ان الرجل كان متزوجا وقد ماتت امرأته من زمن مضى
وليس الزواج مانعاً في سبيل البطريركية لان ديمتريوس الملقب بالكرام
الذي كان بطريركاً في القرن الثاني كان ذا امرأة وبنين وبهذا البرهان
المتين اقتنع المعارضون واختاروا مينا وهو الثاني بهذا الاسم بين البطاركة

وقد جلس مينا الثاني على السدة البطريركية احدى عشرة سنة وصلت فيها مصر الى آخر حدود الانحطاط الناشئ من الظلم والاعتساف . ففي هذه الاثناء مات احد ابني الاخشيد وخلفه الابن الثاني وقد حكم بالاسم تحت مراقبة كافور الذي بواسطة دهائه ومقدرته الشخصية ابقى على الدولة الاخشيدية من السقوط السريع الى حين ولو انها سقطت حالاً ولم تقم لها قائمة بعد ذلك . وقد كان الاتراك والعرب يكرهون كافور وينفرون من سلطته عليهم كما ان العداء قوي بين المسلمين والمسيحيين في القطر المصري اكثر من ذي قبل ونمت جرثومة التعصب بينهما فكان الاقباط يتطلعون الى السودان منتظرين من ملكه عوناً ونجدة وكان المسلمون ينظرون الى القيروان حيث قام خليفة جديد من الفاطميين اسمه المعز . وكان مع المعز اسير يوناني عرف بالنباهة والشجاعة والامانة فاعتقه المعز وولاه قيادة جميع جيوشه التي افتتح بها هذا الرومي كل اقاليم شمالي افريقيا عدا مصر واخضعها لسلطة المعز . وكان الفاطميون قد وضعوا ايديهم على الاسكندرية والفيوم وجزء من الصعيد قبل ايام المعز كما المعنا لذلك قبلاً فقصد هذا الخليفة ان يخضع مصر برمتها ويضمها الى مملكته ولكنه عدل عن هذا الرأي موقتاً لما شاهده في كافور من القوة واصالة الرأي ولان امه عند ما ذهبت الى مكة للحج مرت بالفسطاط فاكرم كافور وفادتها واتحفها بهدايا وعطايا نفيسة جعلتها تلح على ابنها بتأجيل فتح مصر الى وقت آخر اكراماً لكافور . فانتهز المعز هذه الفرصة واخذ يجري الاستعدادات اللازمة لفتح مصر واهمها حفره آباراً في الصحراء الواقعة بين القيروان ومصر

ليستقي منها جيشه عند مروره فيها

وفي سنة ٩٥٦ م (٣٤٤ هجرية) هجم ملك السودان على مصر واخذ اصوان وتركها لعساكره الذين نهبوا كل ما فيها . وكان كافور في ذلك الوقت مشتغلاً في حرب مع سوريا ولكنه لم يسكت عن ملك السودان المسيحي فارسل جيشاً لصدم وقسم هذا الجيش قسمين احدهما رحل في النيل وارسل الثاني براً بالبحر الاحمر وامره ان يقطع خط الرجعة على السودانيين حتى لايمكنهم من العودة لبلادهم وقد نجح كافور في عمله هذا اذ حمل السودانيين خسائر جمة واخذ منهم قلعة دير ابريم على مسافة خمسة عشرة لوة جنوبي اصوان . وقد عاد قائد جيوش كافور الى الفسطاط ومعه ١٥٠ سيراً وعدد لا يحصى من رؤوس القتلى الذين لاقوا حتفهم في هذه حرب الشعواء . ولكن السودانيين لم يصبروا على مضض البلوى بل قاموا سنة ٩٦٧ وشنوا على مصر حرباً عواناً استباحوا فيه البلاد واكتسحوها مامهم الى ان وصلوا اخميم

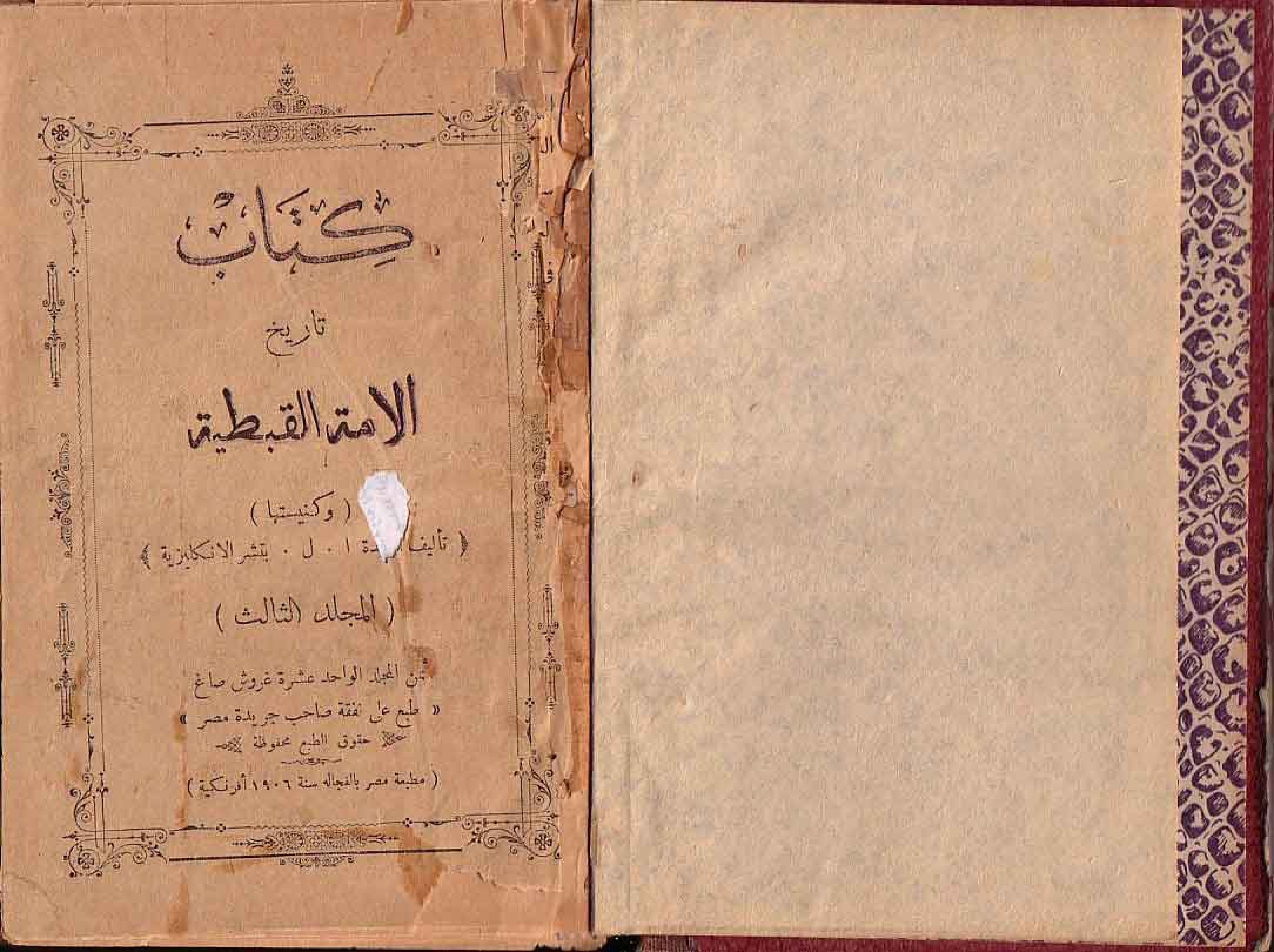
وقد وقعت مصر في سنة ٩٦٣ في بلاء مر زاد عن كل مصيبة اخرى اذ تلاها بجوع قتال بقي فيها نحو تسع سنوات افقدها الزرع والضرع وذلك ن نيلها — وهو روحها وريحانها — قصر عن الزيادة المعتادة فعم البلاد شرق ثم جاءت بعده ضربة الفيران التي كانت تأكل ما ينبت في الارض ن كروم ونبات ضعيف خفيف وعقب هذا القحط وباء جارف جعل اكثر صريين يهجرون بلادهم واوطانهم والذين بقوا في مصر ذاقوا مرارة الفاقة

والفقر · وقد ذكر المؤرخون المسلمون ان ستمائة الف نفس ماتوا في الفسطاط وبابيلون ومصر هذا عدا عن الجثث التي أُلقيت في النيل مما لا يحصى عددها · وقال مؤرخو الاقباط ان ابروشيات كثيرة زالت واضمحلت لان اقباطها ماتوا ولم يبق منهم واحد في ابروشيات برمتها اما البطريرك مينا فلجأ الى سيدة قبطية ذات ثروة واسعة اسمها دينة من محلة دانيال (غربية) حيث بقي في ضيافتها كل هذه المدة التي فيها اخذ الفاطميون مصر وانتقلت اليهم من يد كافور الذي جاء بعد الاخشيد فسبحان من يغير ولا يتغير



تم المجلد الثاني ويليه الثالث


Shero4jesus@gmail.com



كتاب

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

«تأليف [illegible]ة ا . ل . بتشر الانكليزية»

(المجلد الثالث)

ثمن المجلد الواحد عشرة غروش صاغ

«طبع على نفقة صاحب جريدة مصر»

(مطبعة مصر بالفجاله سنة ١٩٠٦ أفرنكية)

الفصل الخامس والاربعون

فتح الفاطميين لمصر

سنة ٩٦٤ للمسيح و٦٨٠ للشهداء و٣٠٥ للهجرة

وصل بنا الحديث في الاجزاء الماضية من هذا الكتاب الى ذكر حكم الاخشيد الثاني على مصر . ولما توفي هذا الاخشيد سنة ٩٦٤ و٩٦٥ (٣٥٥ للهجرة) اخلفه الكافور وحكم باسمه في الحال ولكنه لما مات بعد حكمه بسنتين بليت مصر في خلالها بالمجاعة والوباء اخلفه في الحكم الابن الحادي عشر من احفاد الاخشيد وهذا الاخير سولت له نفسه ان يقدم مصر هدية مجانية وغنيمة باردة لجماعة [illegible]ب الفاطميين

وتحرير الخبر ان خليفة الفاطميين المعز لد[illegible] دعا قائده الرومي (جوهر) الذي كان مملوكا له وتربى على الدين الاسلامي (وقد رقاه الى هذه الدرجة لما توسمه فيه من البسالة والاقدام وعلو الهمة) فاوعز اليه ان يجند جيشاً ويقوده بنفسه لفتح البلاد المصرية وقد تم ذلك فعلا وسار جوهر اليها بجيشه الجرار حيث فتح الفسطاط (مصر القديمه) سنة ٩٦٨ _ ٩٦٩ للمسيح الموافقه ٣٥٨ هجرية . وقد استقبله الاقباط والاتراك والعرب بكل حفاوة واظهروا له الخضوع التام

ولا عجب اذا كان دخول الفاطميين الى مصر على مثل هذه السهولة وعدم المقاومة لان العنصر المسيحي في البلاد كان يميل وقتئذ بكل جوار-

[illegible] الحكام من وقت الى آخر تخلصا من ظلم حكامه السابقين واما العرب والترك فالسبب في عدم مقاومتهم للفاطميين فهو لانهم كانوا قد [illegible]ا من حكم الحاكمين السوداني واليهودي اللذان كانا وقتئذ هما الآلة [illegible] في شخص الكافور والمحركة له . ولم يبق بعدئذ امام الفاطميين في ذلك الوقت الا فتح مملكة النوبة ومد فتوحاتهم في مصر من جهة الجنوب لان سلطان النوبة لم يكن قد اعترف بعد بسيادة الحاكم الجديد [illegible]ي كان في اعتقاده مغتصباً على ان القائد جوهر كان يدرك ماوراء ذلك من الصعوبات والعقبات وان فتح بلاد النوبة ليس من الهنات الهينات فكتب كتابا سياسيا الى الملك (جرجس) سلطان النوبة رقيق العبارة يظهر له فيه عاقبة عصيانه وعدم خضوعه ويحسن له اعتناق الدين الاسلامي ودفع ضريبة الرقيق المتأخرة عليه بصفة جزية لحاكم مصر الجديد . وقد ارسل اليه هذا الكتاب على يد ثلاثة من السفراء يرأسهم رجل يدعى عبد الله احمد بن سليم من اهالي اصوان وقد وضع هذا الاخير كتاباً ضمنه سرد اخبار رحلته هذه وما تم فيها وقد تضمن شيئاً كثيرا من الحقائق التاريخية المهمة ولما كانت هذه الحقائق تهم كل من يريد الوقوف على حالة الممالك المسيحية في ذلك العصر فنحن نقتطف منه هنا بعض الشيء نقلا عن ترجمة فرنساوية للمسيو كرمير المؤرخ المعروف :

بعد ان افاض سليم الكلام واسهب البحث في وصف التوات الاسلاميه في حدود مصر الجنوبية تكلم عن الاقليم الكائن مابين "الشلال

الثاني والحصن القائم على مسافة ستة اميال جنوبي اصوان . فقال ان هذا الاقليم تحت سلطة نائب ملك النوبة اوسلطانها وكان يسمح للمسلمين ان يقيموا فيه وقد اطلقت لهم حرية التجارة به . قال وانه لم يكن يوجد فرد بين هؤلاء المسلمين الذين عاشوا مدة طويلة مع المسيحيين يستطيع ان يتكلم اللغة العربية جيدا . وكان هذا الاقليم من الاقطار التي تروي اراضيها بالراحة وكانت تحيط به الكروم

على ان هذا الاقليم وان كان قد تحمل كثيرا من غزوات العرب المتوالية على مصر وتفشي تجارة الرقيق به الا انه مع هذا كله كان معتبرا امام هذا الكاتب انه اقليم سلام وخير كثير ولا يمكن احد من المسلمين او غيرهم ان يتجاوز حدود هذا الاقليم الجنوبية الا بامر من نائب ملك النوبة والا كان عقابه الموت لا محالة

والمرحلة الثانية الكائنة جنوبي هذا الاقليم عبارة عن حصن طبيعي مكون من صخور هائلة وراءها صحراء شاسعة وطرق وعرة يصعب على الانسان ان يطأها بقدمه ومن هذه الجهة يستخرج النوبيون الاحجار الكريمة التي يصنعون منها الحلي والجواهر .

وقد اثنى احمد بن سليم كثيراً على هاتين المملكتين المسيحيتين المعروفتين باسم (مقورة وألوه) الكائنتين في ابتداء الشلال الثالث الى مايليه جنوباً وقد دعي ملك النوبة بملك مقورة نسبة لاسم النصف الجنوبي من مملكته التي عاصمتها (دنقلا) وهي تبعد خمسة عشر يوماً عن اصوان

وقد شهد هذا الرحالة انه كل ماتوغل الانسان في هذه البلاد يرى الارض اكثر خصباً والامن اعظم انتشاراً

ومما يحسن ذكره وايراده هنا أيضاً ماقاله سليم في هذا الصدد من انه بعد سفر يومين في داخلية النوبة يمر الانسان على ثلاثين بلد تقريباً فيها الابنية الفخيمة والقصور الجميلة والكنائس الكبيرة والاديرة العظيمة والحدائق الغناء والرياض الفيحاء والحقول البديعة ترعى فيها الابل والمسافة من دنقلة الى حدود (الوه) اطول كثيراً من حدود اصوان

وفي هذا الاقليم عدة طرق توصل الى سواكن ومصوع وطرق اخرى على شواطئ البحر الاحمر وفي هذه النقطة نفسها ينقسم النيل الى نهرين الابيض والازرق وهما يأتيان من بحيرات عظيمة في بلاد السود ولكنه لم يذكر شيئاً عن تاريخ تلك البحيرات بل قال انه عند نقطة تفرع النيل الى نهرين توجد بلدة تدعى (صوبح) وهي عاصمة مملكة (الوه) وقد بنيت على انقاضها المدينة المعروفة الان في التاريخ الحديث باسم الخرطوم كاسيجيء وقد كانت مدينة صوبح هذه التي هي الان مدينة الخرطوم من المدن العظيمة المزدانة بالقصور الشاهقة والمباني الفخيمة والحدائق الغناء والكنائس الغنية بتحفها ومقتنياتها الذهبية وكان ربع هذه المدينة يأوى اليه المسلمون . وكان ملك الوه هذه التي كانت صوبح (الخرطوم) عاصمة ملكه أشد بأساً واعظم جيشاً من ملك مقروه فضلا عن ان الوه هذه كانت اكثر اتساعا واخصب ارضاً من نقطة مقروه

ولكن مع هذا كله فان الاول كان اقل من الثاني في وفرة النخيل والكروم

واشار ابن سليم بعد ذلك في عرض كلامه الى معمل البيرة ورخص اللحوم في تلك البقعة الطيبة وجودة الخيل والابل وذكر ان كل المسيحيين فيها كانوا تابعين لبطريرك البلاد المصرية كاساقفة الحبشة وكتبهم الدينية كانت مكتوبة باللغة اليونانية ولكنهم ترجموها الى لغتهم وكانت حكومتها مطلقة كما كان حال باقي الممالك الشرقية في ذلك العصر فكل ما يأمر به الملك كان لابد من تنفيذه اخطأ او اصاب وكان الملك يلبس عادة تاجاً كله من الذهب الخالص لان هذا المعدن كان كثير الوجود في بلادهم

وقد كان الاعتقاد بوجود الجن والعفاريت والارواح النجسة من الاعتقادات الكثيرة الانتشار في البلاد السودانية حتى انهم كانوا يوكلون هذه العفاريت والارواح في اعمالهم الزراعية وذكر هذا الرحالة الذي نحن بصدده انه كان من عادتهم ان يذهب الاهالي الى الحقول ويعينون النقط المراد وضع البذار فيها ثم يبذرون بعض التقاوي في زواياها الاربع ويكومون مابقي من البذور في مكان واحد وسط هذه الزوايا ويضعون بجانبها كأساً مملوءاً من الخمر (البيرة) حتى اذا عادوا اليها في الصباح يجدون كوم البذور قد بذر في الارض وكأس الخمر قد شرب كله وكذلك كانوا يفعلون في الحصاد فيحصدون بعض سنابل القمح ويضعون بجانبها كأساً من الخمر ويتركونها الى الصباح فيجدون الكأس قد شرب والقمح محصودا ومدروسا ولكنهم اذا سهى عليهم أن يستأصلوا بعض

جذور الحبوب وتركوها في الارض اثناء الحصاد تؤخذ هذه الجذور بحبوبها ولا يجدون لها أثرا بالمرة في اليوم الثاني وهم يزعمون ان كل ذلك من افعال الجن لان بعض الناس لهم تأثير كبير عليهم فيسخرونهم في هذه الاعمال وهم يرضخون لهم ولا يعصون امرهم (١)

وقد شاهد ابن سليم في بلاد قاصية (بألوه) قوماً ليسوا من المسلمين ولا المسيحيين واغلبهم يعتقدون بوجود أله ولكنهم يؤلهون الشمس والقمر والنجوم وبعضهم النار والبعض الآخر يعبدون بعض الاشجار والحيوانات . قال وانه بينما كان جالساً في حضرة الملك سأل بعضهم عن بلاده فقال انها تبعد عن هنا مدة سفر ثلاثة اشهر ولما سأله عن معتقده اجاب انه لا يوجد الا اله واحد وهو الهي واله الملك واله كل المخلوقات والكائنات وقال ان هذا الاله يسكن السماء وعندما تداهم بلادهم مصيبة من المصائب كالوباء أو موت الماشية فكل الاهالي هناك يصعدون الى الجبل ويصلون لله بكل ورع وخشوع فيجيب الاله صلاتهم ويرفع عن بلادهم هذه البلايا والرزايا فسأله اذا كان يعتقد بوجود نبي أو رسول فاجاب على ذلك سلباً. ولما قص عليه شيئاً عن أعمال انبيائه الثلاث موسى وعيسى ومحمد ومعجزاتهم الباهرة اجاب اذا كانت هذه الروايات صادقة وصحيحة فان هؤلاء الانبياء الثلاث يستحقون الاجلال

(١) يرى المسيو كرمير المؤرخ ان لامحل لتصديق هذه الخرافات والمحتمل ان هذه الاعمال يأتيها القرود ليلا ويختفون نهاراً في هذه الغابات .

ويحق ان تؤمن بهم ولو كنت رأيت ما أتاه هؤلاء الانبياء لصرت من أول المؤمنين بهم اه

على ان الرحالة بن سليم هذا الذي مر بنا ذكره لم ينجح هو ومن معه في مهمتهم ومأموريتهم لان ما جاء في كتاب القائد جوهر لم يصادف استحسانا أو قبولا لدى حكومة القسم الجنوبي ولم يؤثر ارسال هذا الوفد شيئاً في حكومة (دنقلا) ولو أن أعضاءه قوبلوا بكل حفاوة واكرام من رجال الحكومتين وبيان ذلك انه لما تمثل اعضاء هـذا الوفد الاسلامي بين يدي ملك النوبة وسلمه الرئيس كتاب القائد جوهر امر الملك بعقد مؤتمر من الاساقفة وعقلاء الامة واباح لاعضائه حرية البحث والمناقشة في امر هذا الكتاب واشتغل هو بكتابة الرد عليه ثم تلاه على الحاضرين وهذا ما جاء فيه : (بعد السلام والتحيات الخ . اننا ندعوكم لاعتناق الدين المسيحي وان اجدادي كانوا على الدوام يعاملون المسلمين الفاتحين للبلاد المصرية بكل اخلاص ومسالمة واني كنت اتأهب لعقد معاهدة مهمة معكم) وختم كتابه ببعض عبارات التودد الرقيقة ولكنه لم يذكر فيه شيئاً بالمرة عن جزية الرقيق التي أشار اليها القائد جوهر في كتابه

فلما علم بن سليم رئيس الوفد المصري مضمون هذا الكتاب اعترض عليه وناقش الملك كثيرا في هـذا الموضوع ثم كتب اليـه رسميا يقول (سيدي الملك . اذا كنتم تظنون ان وقوفكم امام القوات الاسلامية

ليس بالامر العسير عليكم (وهنا عدد له الغزوات والفتوحات العظيمة التي قام بها المسلمون بعد الدعوة النبوية) فلا بد ان أعود ومن معي الى مصر ثانيا نحمل كتابكم هذا للقائد جوهر حاكم مصر الآن وسأبذل كل ما في وسعي لاقنعه بعدم التصميم على فتح السودان والاغارة على بلادكم الآن

وبينما كان بن سليم ومن معه مقيمين في تلك البلاد حل عيد الاضحى فدعا رئيس الوفد المذكور جماعة المسلمين المقيمين في المدينة وعددهم لا يزيد عن ستين نسمة فاقاموا الاحتفالات والمهرجانات احتفالا بقدوم هذا العيد وقد الفوا موكبا دينياً سار في المدينة بكل خشوع بين عزف الطبول واصوات الابواق وقد حاول بعض المقربين الى الملك منع هذه المظاهرات الدينية فانتهرهم الملك وزجرهم على هذا التعصب القبيح ثم سافر الوفد الى مصر بعد عيد الاضحى وهم في غاية الارتياح والانشراح مما لاقوه في تلك البلاد وهذا غاية ما عرف عن الملك جرجس سلطان النوبة من حسن المعاملة وحرية الفكر وبعدئذ عاشت الممالك المسيحية هناك في امن وسلام باقي هذا الجيل



الفصل السادس والاربعون

بناء القاهرة

سنة ٩٧١ للمسيح و٦٨٧ للشهداء

و٣٦١ للهجرة

استمر حكم الفاطميين في مصر نحو مائة سنة رأى في اوائلها المصريون التعساء الحظ من الاقباط الذين كان عددهم وقتئذ قليلا بالنسبة للامة الاسلامية كل راحة وحسن معاملة كما تعودوا ذلك عند تغيير كل حاكم جديد

وبيان ذلك ان القائد جوهر لما فتح البلاد وحكمها باسم سيده الخليفة المعز مدة ثلاث سنوات سعى في خلالها في تخفيف الضرائب ووضع النظامات الكافلة لانتظام الاعمال واستتباب الامن ثم أمر بتطهير الترع المهملة فتحسنت بذلك حالة الري وتمهدت الطرق لزوال المجاعة التي كانت متفشية بمصر في ذلك الوقت واتفق انه في سنة ٩٧١ مسيحية و٣٦١ هجرية أي في السنة الاولى من فتحه لمصر زاد الفيضان كثيراً وفاض النيل فيضاناً عظيما فاعتبر المصريون ذلك فالاً حسنا وعلامة رضى وارتياح عن الدولة الحاكمة الجديدة

وكان يوجد وقتئذ على الشاطيء الشرقي من النيل ثلاث مدن ملتصقة ببعضها التصاقا طبيعيا وفي جنوبها مدينة بابل التي كان يسكنها كل المصريين الذين

اعتنقوا الدين المسيحي ولم يكن لهم معاملة مع المسلمين الا ما كان يتعلق بالمجاملة الادبية ليس الا . وقد بنوا الحصن الروماني المعروف بقصر الشمع ورمموه وجعلوه حصنهم الوحيد ثم بنوا كنيستهم الكبرى وهي المعروفة بدير ماري جرجس الآن على ابراج ذلك الحصن وطوابيه وبالجملة فان مدينة بابل كانت اقدم مدن مصر واقلها اعتبارا في نظم المسلمين وقتئذ الا انها كانت في الحقيقة لم تزل عاصمة مصر الوحيدة في اعتبار العالم الغربي وتليها في الاهمية مدينة الفسطاط العربية التي بنيت بامر عمرو بن العاص الفاتح العظيم وفي الشمال الشرقي من الفسطاط توجد المدينة التركية التي بناها احمد بن طولون وهي بعيدة عن النيل واقرب لسفح المقطم من تينك المدينتين

وكانت هذه المدينة في ذلك الوقت اشبه شيء بالقشلاقات الكبيرة ولذا كان يطلق عليها المصريون اسم (مصر عسكر) (١) اي مدينة العساكر واسم مصر الاصلي هو نسبة لمصرايم من نسل نوح لانه هو اول من جاء بعد الطوفان واستوطنها ولكن في عهد الفاطميين كان هذا يطلق فقط على المدينتين المسلمتين وهما الفسطاط والمدينة التي ابتناها ابن طولون .

وقد كان الخليفة المعز لما ودع قائده جوهر عند قيامه مع جيشه

(١) مدينة مصر عسكر هي المدينة التي دعاها المصريون بعدئذ مصر القديمة وكثيرا ما يخطيء ادلاء الطرق فيفهمون للسواح ان محل الفسطاط او بابل هو مصر القديمة

لفتح البلاد المصرية التفت الى جماعة المشائخ الذين كانوا يرافقون الحملة وتكلم متنبئاً عن ماسيتم في مصر بعد هذا الفتح فقال مخاطباً جوهر :

انك اذا سرت وحدك ستقهر مصرياجوهر وتدخل الفسطاط بملابسك الاعتيادية دون ان تحتاج الى اثارة حرب مع سكانهاوستسكن في قصر اولاد طولون ولكنك ستنشيء بعد ذلك مدينة اخرى تسميها القاهرة (اي المنتصرة) وهي التي سيخضع لها العالم كله .

فلما استقر لجوهر المقام في مصر ورأى ان نبوة الخليفة قد تمت بدخوله الفسطاط وقصر بن طولون بلا حرب ولا قتال واذ اهلها سلموا له البلاد في الحال ونادى المنادي بذلك ثم بايعه الاهالي تحت عزف الموسيقى واصوات التهليل اراد ان يتمم نبوة الخليفة ببناء مدينة القاهرة فجعل اساسها في الجزء المركزي الحالي من المدينة وهي البقعة التي اناخ فيها جماله يوم جاء لفتح الفسطاط ويوجد في هذه البقعة الان جامع الازهر الشريف وبيت القاضي وخان الخليلي وكان ابتداء تأسيس هذه المدينة الجديدة في سنة ٩٧٠ مسيحية و٣٥٩ هجرية وقد جعل مصر العسكر داخلة في نطاق السور الاصلي لهذه المدينة

وقد اقام القائد جوهر احتفالا عظيما لمناسبة وضع اساس هذه المدينة ثم اعد ادوات البناء وجميع الفعله اللازمين للعمل ووقف الجمع المحتشد ينتظر الامر بالبناء من الفلكيين الذين سبق انهم راقبوا نجم النصر في الفتح اولا ولما حانت الساعة المعينة صدر الامر بالشروع في العمل فهتف

جميع الفعلة والعمال وشرعوا في العمل جميعاً في وقت واحد .

وقد استمر البناء في هذه المدينة نحو سنتين من الزمان بكل همة وبعدئذ امكن الخليفة المعز لدين الله ان يأتي اليها ويزورها زيارة المالك لاحدى ولاياته

ولما قدم الخليفة الى مصر لم يأت اليها من طريق القيروان مباشرة بل انه قضى عدة اشهر متجولا في جزيرتي سيسليا وسردنيا على البحر الابيض المتوسط اللتان كانتا من املاكه اولا وتوجه منهما الى طرابلس ومنها الى الاسكندرية حيث وصل الى القاهرة سنة ٣٦٢ للهجرة وقد جلب اليها شيئا كثيرا من الهدايا من الممالك والبلاد التي فتحها وجعلها عاصمة مملكته وفي مكان القصر الذي نزل به في مصر بيت القاضي بجوار شارع النحاسين ثم أصدر أمره بنقل جثث اجداده في قبر اتخذه لهم في معمل خان الخليلي الآن

ثم رأى الخليفة وقائده جوهر ان المدينة الجديدة تحتاج الى مسجد عظيم يفوق مسجدي عمر وابن طولون فى المدينتين القديمتين فامر ببناء الجامع الازهر وكان ذلك في نفس السنة التي قدم فيها الى مصر

ولما كان هذا الخليفة ليس على شيء من الاوهام والوساوس الدينية مثل خلفه ابن طولون فقد اتخذ اغلب اعمدة هذا المسجد من الكنائس المسيحية ولذلك تجد شكل هذه الاعمدة التي تشبه اشجار الغابات ليست على شيء من التناسب فيما بينها كما يتضح للناظر اليها لدى اول وهلة .

ومن ثم ذاعت شهرة هذا الجامع الازهر بما بذله القائد جوهر من الهمة واقناعه للخليفة المعز بوجوب تنظيمه وتوسيع نطاقه بما له من التأثير والنفوذ على الخليفة واصبح بعدئذ هذا المسجد مدرسة عظيمة وانشئت به أيضاً مكتبة ثمينة واحضر اليه جماعة من خيرة الاساتذة والعلماء لالقاء الدروس في اللغة العربية والنظم واللاهوت (والفقه) والشرع والطب والفلك والرياضيات والتاريخ وامه التلامذة من جميع الاقطار الشرقية للاستفادة منه والانتفاع بنفحاته وثمراته الشهية ولم يزل هذا الجامع الى الآن يعد الكلية الاسلامية الجامعة الوحيدة في العلم الاسلامي وقد كان لهذه المدرسة الكبرى بادىء ذي بدىء الفضل الاكبر في نشر كثير من العلوم المصرية القديمة التي نقلها الغربيون الى بلادهم ثم انقلب الدهر وتغيرت الاحوال فعاد الغربيون يعلمون تلك العلوم القديمة لجماعة المسلمين

وفي سنة ٩٧٥ مسيحية توفي الى رحمة الله الخليفة المعز وفي هذه السنة نفسها تنيح بطريرك الاقباط وبويع بالخلافة ابن المعز ابو منصور العزيز وكان معروفا باسم العزيز

وقد كانت احدى زوجات العزيز مصرية مسيحية تابعة للكنيسة اليونانية وقد كان لهذه الزوجة تأثير عظيم على العزيز حتى انها تمكنت من تولية اخويها ارسنيوس وجرمياح بطاركة على الاسكندرية واورشليم للكنيسة اليونانية وفي غضون هذه المدة وقعت الكنيسة القبطية في اضطهاد عظيم من العزيز ولكنها فضلت تحمل هذه الاضطهادات دون الرضى

بتداخله في شؤونها ولم تعترض الكنيسة اليونانية على ذلك مع ما بينها وبين الكنيسة القبطية من الصلات القوية والروابط العظيمة وما ذلك الا مجاملة لزوجة العزيز اليونانية ولما تنيح حنا الثاني بطريرك الاقباط عقد الاساقفة وقسوس الاسكندرية مجلساً اكليريكيا بالقدس في كنيسة القديس سرجيوس والقديس بكشوس في بابليون (١) لينتخبوا لهم بطريركا جديدا وبينما هم مجتمعون لهذا الغرض دخل عليهم أحد التجار السوريين الذي كان مشهورا بالآداب ومكارم الاخلاق ويدعى افرايم وكانوا لم يزالوا يتناقشون ويتداولون في من يرشحونه لمركز البطريركية فلما وقع نظرهم عليه حيوه جميعاً في الحال ونادوا به الرجل المنتخب لهذا المنصب الرفيع وقد كان هذا البطريرك السوري متزوجا من قبل أيام كان علمانيا ولكنهم غضوا الطرف عن ذلك لما له من المنزلة والمكانة في جميع الافئدة والقلوب ومن ثم استلم افرايم المذكور زمام الكرازة المرقسية ولبث بها اكثر من ثلاث سنوات الغى في خلالها مسألة (السيمونية) وهي بيع الرتب الكهنوتية والمناصب الكنائسية بالمال وجعل رسامة القسوس وتقليد الوظائف الدينية والتدشين والتكريس من اعماله الخصوصية وله على ذلك شيئا معلوما من الشعب ولم تزل آثار هذه العادة باقية الى الآن. ومن اعظم اصلاحاته التي قام بها ايضا اشتغاله بحرارة وغيرة حقيقية في أحياء الفضائل

(١) هي الكنيسة التي يزورها السواح عادة وتحتها كنيسة تدعى كنيسة (ستي مريم) وهي مبنية تحت الارض

الدينية ومحاربة الافات والشرور التي كانت قد تفشت بين الاقباط بسبب اختلاطهم بالعناصر والطوائف الاخرى وعلى الاخص تهافتهم على تعدد السراري في بيوتهم بدون عقد شرعي مما ينافي روح الدين المسيحي وخصوصا جماعة الموظفين في الحكومة فتداخل البطريرك افرايم بنفسه في اصلاح هذا الحال مما افضى الى سقوطه شهيدا بسبب هذا الميل الشريف كما سيجيء . ذلك انه كان يوجد في هذا الوقت رجل يدعى ابو السرور وهو من الحاصلين على المناصب العالية في الحكومة وكانت لديه عدة سراري وحظيات فاعترض عليه البطريرك في ذلك وعنفه كثيرا ولما لم يرتدع اصدر عليه حرما من الكنيسة فما كان من هذا الغشوم الا ان تسبب في تسميم البطريرك الذي راح شهيد هذه الغيرة الدينية الشريفة وقد كان البطريرك افرايم الموما اليه على حداثة مدة توليته محبوباً من خليفة المسلمين كثيرا وقد اقترح عليه الخليفة ان يطلب ما شاء منه فيجيبه الى طلبه فطلب اليه البطريرك ان يعيد له موضع كنيسة القديس مركوريوس (١) التي تخربت واستولى عليها المسلمون مدة الاضطهاد السابق فأمر الخليفة المعز . ان تعطى له هذه الكنيسة في الحال فاستلمها واعاد بنائها وقد كتب ابو صالح الكاتب المعروف عن هذه الكنيسة ما يأتي :

١ كنيسة ابوسيفين طموه

لما شرع البطريرك في اعادة بناء الكنيسة هاج عليه رعاع المسلمين واعترضوه بدعوى انها تخربت من زمن طويل ولم يبق منها سوى بعض جدران آئلة للسقوط قد جعلها المسلمون مخازن لقصب السكر فصدر امر الخليفة المعز بان تبني الكنيسة وتعطى نفقات بنائها من خزينة الحكومة بغير قيد فأخذ البطريرك القرار ولم يعمل به بل رد الدراهم الى خزينة الحكومة واعتذر للوالي عن قبولها قائلا ان الله الذي يستحق كل شكر والذي اظهر لنا قوته العظيمة قادر ان يساعدنا على اعادة بناء بيت عبادته وهو غير محتاج الى مال هذا العالم. ورجاه ان يقبل منه المال ثانية ولا يجبره على قبوله فرضي الخليفة بذلك . وبعد ذلك بمدة شرع البطريرك في العمل فاعترضه رعاع المسلمين وحنقوا عليه واوقفوا بهياجهم البناء فنما الامر الى الامين العزيز بالله فارسل كتيبة من الجند والمماليك لاخماد الهياج وحراسة البناء فلما وصلت وعلم المعترضون بذلك كفوا عن التعرض وشرع في عمله بكل طمانينة

قال ابو صالح ان ابناء الكنيسة القبطية قدموا مبلغا عظيما من المال لغبطة البطريرك افرايم بصفة تقدمة شكر فقبلها شاكرا وصرفها في عمارة الكنيسة وبذلك تم لغبطته ما كان يؤمله من مساعدة الرب له . وكان ذلك في عهد ساويرس المؤرخ الشهير اسقف الاشمونين صاحب المؤلفات الكثيرة التي لم يطبع شيء منها وهذا الاسقف له حوادث واخبار نسقها بعد مماته الاسقف ميخائيل الذي كان اسقفا لمدينة صان (بمديرية الشرقية) وغيره من الكتبة الاقباط وفي ظني انه يوجد منها نسخة كاملة الآن ولو كان كثير منها

موجود في اللاتينية تأليف المؤرخ دنودوت . ولم يرسم ساويرس اسقفاً الا في عهد رئاسة البطريرك افرايم القصيرة وخلفه على كرسي البطريركية فيلوثاؤس الراهب من دير القديس مركريوس (كنيسة ابو سيفين الان) الذي سار على خطة البطريرك افرايم سلفه (١)

وفي عهد البطريرك فيلوثاوس اعتنق بعض المسلمين الديانة المسيحية.

ذكر نيل المؤرخ ان رجلا من مشيري الخليفة المعز اعتنق الديانة المسيحية وقد تعب في تربية ابنه المدعو واصا تعباً كبيراً لمضادته للديانة المسيحية

وقد حفظ واصا هذا القرآن في صغره وكان على جانب عظيم من الكره للمسيحيين فاتفق له انه بينما كان مجتازاً بالصحراء رأى جمعاً مزدحماً حول رجل يساق كمجرم فسأل المارة عنه فقيل له انه مسلم تنصر وهو يساق ليحرق جزاء جحوده فعمد الى ذلك الجمع وفرقهم عنه ووصل اليه واخذ يعنفه على قبيح عمله ويبين له غلطه في اتباع دين الثلاثة الهة فقال له ذلك السجين انا لم اتبع الا دين اله واحد في ثلاثة اقانيم وسيأتي يوم يتضح لك فيه هذا الحق فتجاهد متألماً لاجله مثلي . فاستشاط واصا من ذلك القول غضباً ورفسه وضربه بكل قوته فاحتمل ذلك الشهيد كل تلك الاهانات بصبر غريب وتبعه واصا الى مكان الاستشهاد فهاله ما رأى من صبره واثر

(١) اتفق نيل ورنودوت المورخان على الصاق بعض الذنوب بفيلوثاوس ولكن بفحص تلك التهم بالتدقيق لم ير عليه شي غير القول بانه كان محبا للمآكل الفاخرة قليل الاعتناء بتقدم الكنيسة و يدخل الى الحمام مرتين في اليوم

ذلك المشهد عليه حتى لم يعد قادراً على صرف تلك الافكار من ذهنه فعزم ان يطردها بذهابه الى الحج فسافر الى مكة وفيما هو في الطريق حلم ان راهباً كبير السن ناداه قائلا ان كنت تريد ان تعرف قيمة خلاص نفسك فتم واتبعني وحصل ذلك على ثلاث دفعات فقص حلمه على رفاقه فقالوا له انه من قبيل التخيلات الشيطانية . وادى واصا فريضة الحج وعاد وقبل وصوله الى القاهرة افترق عن رفاقه فضل عن الطريق ودخل عليه الليل فصار يرجف خوفاً من الوحوش الضارية التي يكثر وجودها في الصحراء وفيما هو كذلك اذا بفارس اقبل عليه وقال له ماذا تعمل هنا ياواصا فاخبره بما كان من امره فاشار عليه ان يتبعه ليقوده الى مكان امين فما صدق ان سمع ذلك حتى تبعه فأتى به الى دير كائن بين الفسطاط وبابليون وتركه هنالك فعلم واصا ان ذلك المكان لابد ان يكون كنيسة مسيحية (١)

ولما كان الفجر قام خادم الكنيسة لاعدادها للصلوة فرأى واصا مختبئاً عند جدرانها فانزعج اذ حسبه لصاً ولكنه لما سمع كلامه ورأى ان مقتنيات الكنيسة سالمة ظنه مجنوناً غير انه لما هدأت افكاره سأله واصا عن اسم الكنيسة فاجابه بانها كنيسة القديس مركوريوس واراه ايقونته واخبره بخبره في جهاده وايمانه فتفرس واصا فيها فرآها تشبه

(١) وهي نفس الكنيسة التي جددها البطريرك افرايم وهي باقية الى هذا اليوم وتعرف بكنيسة ابي سيفين طموه بقرب القاهره ومنظرها جميل للغاية.

صورة الفارس الذي لقيه ليلاً وانقذه من الخطر فحينئذ عزم على اعتناق الديانة المسيحية واخبر الفندلقت بذلك ولكن الفندلقت لم يكن في استعداد لسماع قصته فالح عليه بالانسحاب من الكنيسة قبل ابتداء الصلوة وان يختفي الى حين ووعده ان يرسل اليه الكاهن وفعلا خبأه في مكان وعاد فاعد الكنيسة للصلوة وارسل اليه القسيس وهو متخوف من الشر الذي سيصيب الكنيسة من جراء اعتناق ذلك الرجل النصرانية

وقد لبث واصا المذكور مختبئاً بالدير حتى اعتمد ولم يحصل شغب عند عماده لانه لم يعلم به احد من اقاربه الذين ظنوه انه هلك في الصحراء واراد الكاهن الذي عمده ان يرسله الى دير القديس مركوريوس بوادي النطرون ليتعلم اصول الديانة غير ان بعض المسلمين رأوه قبل ان يبارح الكنيسة وابلغوا والده الخبر قائلين اننا نشك في موته والغالب انه صار مسيحياً

فلما سمع ابوه بذلك بث عليه العيون والارصاد فلقيه وهو ذاهب الى جبل النطرون فرجع به الى بيته وهنالك عملت معه كل الوسائل اللازمة لارجاعه الى حضن الديانة الاسلامية فذهبت كل الوسائل عبثا ولما كان محبوبا لدى اهله خافوا ان يشتهر امره لدى باقي المسلمين فيقضوا عليه فلذلك تركوه وشأنه فخرج واصا (الذي دعي بولس بعد المعمودية) وذهب الى جبل النطرون واقام في دير هنالك زماناً طويلاً ولما كان هناك اخبره احد الرهبان انه ان لم يشهر ايمانه في نفس وطنه لمجد الرب لا يدعى

مؤمناً فقام من فوره الى بلدته واعلن ايمانه فلم يعارضه احد اولاً نظراً لمحبتهم الاولى له ولكنهم قاموا عليه اخيراً وعنفوه فلم يرجع ولما لم تجد الوسائط الحبية معه عمدوا الى اكراهه وسجنوه في سرداب مظلم ستة ايام وأتوا اليه بزوجته الجميلة التي كان قد اقترن بها قبل ان يتنصر فأخذت تستعطفه وتتذلل اليه وترجوه ان يعطف على ولده الصغير فلم تستفد . اخيراً تقدم اليه ابوه وخطف الطفل من بين يدي كنته وذبحه امامه واخذ ولده بولس وسلمه الى المحكمة وطلب ان تحكم عليه بصفته كافراً فلما تمثل بين يدي الخليفة العزيز بالله صار يتضرع اليه ويسترحمه لكي يأمر بابقائه حياً وتوسلت اليه زوجته (أي زوجة بولس المذكور) فرق عليه واطلقه فذهب الى الصعيد واصطحب مع اسقف الاشمونين غير انه لم يلبث معه طويلاً بل سافر الى اقاصي السودان جنوباً وبنى هنالك كنيسة باسم ميخائيل رئيس الملائكة على حدود الحبشة ثم رجع الى مصر لينال درجة كاهن فقابل البطريرك فيلوثاوس وطلب اليه ان يرسمه قسيسا فطلب منه دفع الرسم المقرر فلم يشأ لما قام في نفسه من كراهية ذلك الامر فاصر البطريرك على اخذ الرسم وانتهى الامر بينهما بتوسط احد ذوي الغيرة الدينية حيث دفع عنه ذلك الرسم فرسم قسيساً وقد بطلت عادة دفع الرسوم بعد ذلك في عهد البطريرك افرايم . واتفق ان والده سمع بصيرورته كاهناً فاشتد حنقه عليه واستأجر قوماً من الاعراب للفتك به فسمع بعض المسيحيين بذلك وحذروه فهرب الى بلدة تدعى

وهنالك تعين صرافاً لخزينة كنيسة القديس تادرس ومات بعد ذلك
بسنتين. وعند موته هجم المسلمون على الكنيسة وسلبوا المسيحيين
مسبات مؤلمة ولكن بولس كان قد اوصى وكيل البطريرك ان يحافظ على
جثته خوفاً من ان تعبث بها ايدي المسلمين فقام بتلك الوصية خير قيام
وهو الذي روى تاريخ حيوته لمخائيل المؤرخ اسقف صان (بمديرية الشرقية)

غير ان اعتناق بعض فضلاء المسلمين الديانة المسيحية وان كان قد
سر المسيحيين الا انه لم يقطع دابر الصعوبات التي كانت تعترض الكنيسة
لان بطريرك الاروام اغتصب من الاقباط كنيسة رغماً عن تشديد
العزيز بالله بمنع الاضطهاد عنهم وعدم سماحه للرومانيين بأن يضايقوا
الاقباط القائلين بالطبيعة الواحدة

وكانت الحبشة في ذلك الوقت مرسحاً للحروب الدموية لان
امرأتين اختلستا عرش الملك بالتابع وامرتا بقتل جميع ذرية الاشراف
الا واحداً نجا من كيدهما فلما بلغ هذا اشده شرع في
في استخلاص عرش اسلافه من ايدى مغتصبيه فكتب كتابا وارسله الى
ملك النوبة بالطريق الموعرة البعيدة الشقة خوفا من وقوعه في يد الحكومة
ورجاء ملك النوبة ان يسرع بارسال الكتاب الى غبطة البطريرك في مصر
(ولا تزال بعض اجزاء هذا الكتاب محفوظة ضمن الآثار القبطية حتى الان
بلندن) وفيه استنهاض لهمة غبطة البطريرك لتلافي الخلل وانقاذ الحبشة من حال
التعاسة الدينية التي باتت فيها بفضل الاهمال. وذكره بانه مضت مدة تولى

فيها ستة(١) بطاركة بالتتابع وفي كل هذا الزمن الطويل لم يلتفتوا الى الحبشة
حتى اضحت خالية من رئيس ديني لعدم قيام أحد بدل الذين توفوا . وقال فيه
انا لا ننكر انا قاسينا هذه الشرور جزاء ما اقترفناه ضد الكنيسة المصرية
ام ايماننا

فلما بلغ هذا الكتاب الى يد غبطة البطريرك امر في الحال برسم
الراهب دانيال الذي كان في دير الراهب مرقوريوس اسقفا للحبشة فسافر
اليها مشيعا بالاكرام واستقبله الاحباش بمزيد التجلة والاعتبار وفرحوا
به فرحاً لا يوصف وبواسطته نجح ذلك الملك الصغير في استخلاص العرش
لان الاسقف حرم المغتصبة فانزلها الشعب عن الكرسي واعدموها

الفصل السابع والاربعون

اضطهاد الحاكم بامر الله

سنة ٩٩٦م و٧١٢ للشهداء و٣٨٦ للهجرة

توفى العزيز بالله سنة ٣٨٦ للهجرة فخلفه ابنه المنصور او الحاكم بامر
الله وكان قاصرا فقام وزيره المدعو ارجوان بالوصاية عليه عشر سنوات
حتى بلغ رشده ولما كانت ام الخليفة مسيحية انشأت فيه شيئا من التأثيرات

(٢) هذا العدد غير صحيح فان البطريرك قصماص الثالث هو آخر من ارسل اساقفة
الى الحبشة وبينه وبين البطريرك فيلوثاوس اربعة بطاركة هم مكاريوس الاول
وطومانيوس ومينا الثاني وافرايم

الحسنة فتمتع السيحيون كل السنين التي كان فيها قاصرا بالراحة التامة
وكانوا يتقاضون مع المسلمين لدى الحاكم وينصفون وكانوا يركبون الخيل
ويتشحون بالثياب الثمينة ويلجون المصالح الكتابية في دواوين الحكومة
فشب الذين نشأوا في ذلك الوقت على الحرية الكاملة فاوجب ذلك حقد
المسلمين على الاقباط المساكين غير ان هذا الحقد لم تنفجر براكينه كل
مدة حيوة والدة الحاكم بامر الله الا انها لما توفيت تغيرت اطواره. وكان ضعيف
العقل فتراءى له ان يدعي النبوة فادعاها. وابتدع في عهده رجل بدعة جديدة
في الاسلام صار امرها مشهورا في مصر وهي منع المسلمين من حفظ يوم
الجمعة وايام عيدي الفطر والاضحى وتحريم الحج الى مكة وباغراء هذا
المدعي بنى الحاكم جامعه المعروف باسمه في القاهرة وكان حتى سنة ١٨٦٤
مسيحية مستودعاً لحفظ الاثار العربية. ولما ادعى النبوة كما قدمنا اعلن انه
اعظم من عيسى ومحمد واضطر المسلمين والمسيحيين ان يعتبروه وقال بعضهم
انه تجاوز الحد فلم يرد ان يعتبروه الاهالي كنبي فقط بل كعيسى المتجسد بروح
الله وكان يصعد الى جبل المقطم في فجر كل يوم ليناجي ربه على زعمه واذل اليهود
وسعى في الغاء الديانة الاسلامية فاحتقرته الرعية اما المسيحيون فقالوا انه
المسيح الدجال

وعاش البطريرك فيلوثاوس ٢٤ سنة على كرسي البطريركية وقضى
كل زمانه في هدو وسلام ولم يبدأ الاضطهاد الا بعد موته. وبيان ذلك
انه اذ كان يقرأ القداس سقط فجاءة فاقد الرشد فقام مقامه احد القسوس في

تكملة القداس وعند النهاية حملوه الى البضر كخانة وفارق الحياة على اثر ذلك
وحينئذ اراد الاسكندريون سيامة تاجر علماني مكانه فرفض الاساقفة
ذلك رفضا باتاً وانتخبوا زخريا صراف كنيسة القديس مرقوريوس. اما
ذلك التاجر الذي رشحه الشعب فانهم رسموه اسقفاً على مدينة ممفيس

وكان البطريرك زخريا محبا للسلام الا انه لم يسر من مجلس الاساقفة
نظرا لما نشأ عن فساد اخلاقهم من جرى الحرية التي اعطيت لهم ومخالطتهم
لعامة المسلمين في زمن العزيز بالله

وكان الاختلال في زمن البطريرك فيلثاوس بالغا حده فان الذين كانوا
يرقون الى درجة الاسقفية لم يكونوا يبلغونها الا بدفع جعل عظيم. اما
البطريرك زخريا فانه صار يدقق في رسامة الاساقفة وكان عقت تلك العادة
القبيحة ولا يقبل دراهم ولكن اعوانه كانوا يختلسونها وينفذون مآربهم
وقد ابقى ذلك البطريرك مجلس اساقفة عنده لاجل الفصل في سائر المسائل
الملية وكثيرون منهم من اقربائه وقيل ان واحدا منهم جمع اكثر من ٢٠
الف جنيه بطرق غير محالة فهذه الامور آلت بنتائج وخيمة كما ترى
فيما يلي.

كان رجل يدعى القس حنا كاهنا على ابرشية ابي نفروهي قرية بالجيزه
بالقرب من دير القديس مرقوريوس وبلغ به الشوق من منصب الاسقفية
مبلغاً حتى ذهب الى البطريرك بنفسه لهذه الغاية فقدم البطريرك طلبه الى
مجمع الاساقفة ولما كان القس حنا غير صالح لهذه الوظيفة لم يتردد المجمع

في رفض (١) الطلب لاول وهلة ولما كان حنا يعهد في نفسه عدم اللياقة فتوجه الى مركز الحكومة في القاهرة وبالنظر لنفوذه في دوائر الحكومة وصمم على تقديم شكواه للخليفة فلما بلغ ذلك اذان الموظفين من الاقباط وكان الاضطهاد بدأ يشتد عليهم ورأوا المسلمين يحرضون ذلك الكاهن على الشكوى اجتمعوا عليه ورجوه ان يكف وكتبوا هم عريضة الى غبطة البطريرك يظهرون حرج مركزهم ويرجونه الموافقة على تعيين القس حنا اسقفا. فلما اتى الكاهن الى مقر البطريركية وجد البطريرك غائبا في وادي الحبيب تاركا مسألة هذا الكاهن لابن اخيه ميخائيل اسقف سخا ليحفظها حتى يعود فيبت فيها ولما كان الاسقف مخائيل يبغض القس حنا خاف من انه اذا توانى يعود البطريرك فيرسمه استأجر بعض الاعراب للفتك به فكمنوا له في الطريق والقوه في بئر واخذوا يرجمونه بالحجارة ولحسن حظه كان في تلك البئر كهف فتوارى فيه ولم يصب بسوء ولما ظنه الاعراب انه مات وتركوه خرج من هناك وتوجه الى غبطة البطريرك وقص عليه ماجرى له فتأثر من ذلك ووعده وعدا شافيا بان يرشحه لدرجة الاسقفية عند خلو وظيفة وصار البطريرك في ذلك الوقت بين عاملين قويين اما ان يصدع برأي الاساقفة وينقض عهده مع حنا او ان يفي بوعده ويخالفهم ولكنه اضطر ان يخلف وعده وينقاد لرأيهم فاغتاظ حنا من ذلك ولم يعمل للانتقام

(١) يقال انهم رفضوه لكونه متزوجاً والقانون يقضي ان يكون الاسقف راهبا وقال بعضهم انهم رفضوه لانه لم يكن يقدم النقود اللازمة.

من مخائيل ابن اخي البطريرك بل دبر مكائد ضد البطريرك ومجمع الاساقفة كانت نتيجتها استدعاءهم لدى الخليفة وزج البطريرك في اضيق السجون وبعد مامضى عليه ثلاثة اشهر في سجنه اخرج والقي الى الاسود فلم تقرب اليه بسوء فطرح اليها مرة اخرى ففعلت كالاول فاعيد الى السجن ومن ذلك الوقت قامت الاضطهادات المريعة على المسيحيين في مصر ودامت كذلك حتى ايام البطريرك اسكندر الثاني. وبلغ من جبروت الحاكم انه امر المسيحيين بالاعتراف بالوهيته اذا ارادوا ان يخلصوا من العذاب وقيل انه وضع دفاتر في مراكز الحكومة الاربع في القاهرة ومصر القديمة والفسطاط وبابليون لتسجيل اسماء الذين يعترفون باوامره الكفرية وقيل ان الذين اطاعوه بلغوا ستة عشر الفا ولكن من سياق التاريخ نستنتج انه لم يطعه احد من الاقباط والراجح ان كثيرين من المسلمين اعترفوا به وقد شملت مظالمه جميع المسيحيين في كل انحاء الخلافة وقد وجه همته الى مصادرة مدينة بابليون بالخصوص فاحرقها وسلبت جنوده امتعتها واصدر امره بتقليع جميع كروم العنب ليمنع بذلك صناعة خمر الابار كة الذي يستعملونه في تناول السر المقدس

وقد وقع اكابر الاقباط في شدة قوية لا تطاق من ذلك الحاكم الظالم ومن ثم صار اخوانهم المسلمون الموظفون معهم يتجاهلونهم ولا يمدون يداً لانقاذهم وامر الخليفة بضرب عنق اثنين منهم ولم يكفه ذلك بل قبض على آخر يدعى المعلم غبريال ووعده انه يرقيه الى منصب الصدارة العظمى اذا هو

اعتنق الاسلام فطلب منه مهلة يوم واحد فامهله فتوجه الرجل الى بيته وجمع اولاده واقاربه ومعارفه واخبرهم بامره وقال انه لم يطلب مهلة لتردده في الايمان بل رغبة في الاجتماع بهم وحثهم على مقابلة الاضطهادات بثبات ثم اولم لهم وليمة الوداع واستودعهم الله وذهب الى مقابلة الخليفة بزباطة جاش واخبره بانه باق على دينه فتهدده بالتعذيب فلم يذعن فامر بجلده الف جلدة ففعلوا فلما بلغ عدد الجلدات ثمانيمئة مات ولكنهم استمروا يجلدون الجثة الهامدة حتى كمل العدد. وبعد ذلك قبضوا على ثمانية اخرين وتهددوهم فثبت منهم اربعة وجبن الاخرون واعتنقوا الاسلام فرارا من العذاب ومات احد الذين ثبتوا فجاءة اما الثلاثة الباقون فسجنوا في الكنيسة حتى يرجعوا عن عنادهم وبقوا في سجنهم حتى انتهى الاضطهاد. اما في سوريا فان الحاكم امر بهدم كنيسة القدس وتخريب القبر المقدس والكنيسة المبنية عليه واستدعى البطريرك ارميا (١) خاله الى مصر وأمر بقطع رأسه بالسيف وهرب اخوه ارسانيوس الناسك من وجه الخليفة خوفا من الهلاك وقد رأينا ان نورد في هذا المقام فقرة من تاريخ المقريزي الشهير بتبين عسف الحاكم على الاقباط قال.

وقد اشتد الحاكم على اقباط مصر والزمهم بشد زنار على احقائهم ونهاهم عن الاحتفال بعيد الميلاد والغطاس والفصح وحرق الصلبان والاخشاب

ارميه بطريرك اورشليم وارسينوس هما شقيقا احدى زوجات العزيز بالله والدة الحاكم التي تزوج بها كما بينا في الفصل السادس والاربعين

التي تعمل فيها وحظر عليهم شراء العبيد والاماء وهدم كنائس شادح الرشيد في مصر العتيقة وخرب كنائس المكس التي كانت خارج الاسكندرية ونهب اوانيها وعرضها للمبيع وامر بهدم دير القيصر (١) وصرح لرعاع المسلمين بسلبه وحظر على القبط الاحتفال بعيد النيروز الذي اعتادوا ان يقيموه على شاطئ النيل في كل عام ووضع هذا منعا لهم من الالتذاذ والسرور واجبر كل قبطي ان يعلق في رقبته صليبا خشبا لا يقل عن خمسة ارطال وزنا وحظر عليهم ركوب الخيل الا البغال والحمير بسروج ولجم عادية غير مموهة بالذهب وامر اصحاب الاصطبلات ان لا يخرجوا جوادا لركوب الاقباط بعد الغروب وان يلزم كل نوتي مسلم يقدم قبول قبطي للسفر في مركبه وان لا يلبسوا الاعمائم سوداء وان تكون ركائب سروجهم من خشب

بني هذا الدير الامبراطور اركاديوس الروماني على سفح المقطم شرقي طره تذكارا لارسانيوس معلم اولاده الذي كان باشكاتبا فانه صرف الاعوام الثلاثة الاخيرة في عمره داخل كهف كما يقال وتوفي فيه وعلى هذا الكهف بني الامبراطور الكنيسة التي صارت بعدئذ اشهر الادبرة المصرية. ودعيت كنيسة القيصر ودير القيصر باسم يوحنا القيصر القديس المشهور عند الاقباط وقد هدمت بامر الحاكم اسوة بغيرها في زمن الاضطهاد واعيدت بعد ذلك ودعيت بكنيسة البغلة ولذلك سبب عجيب وهو انه كان لرهبان ذلك الدير بغلة يضعون على ظهرها القرب كل صباح ويطلقونها فتذهب الى النيل بغير قائد وتقف هناك حتى يأتي بعض الفعلة ويملأ القرب ويضعها على ظهرها فتعود الى الدير ولا تزال خرائب ذلك الدير باقية حتى الآن

الجميز وقضى على اليهود ان يعلقوا حجرا مستديراً وزنه خمسة ارطال في اعناقهم . واصدر امراً عاماً بتدمير كنائس مصر قاطبة وجعلها غنيمة للمسلمين . كل هذا حل بالاقباط المساكين ولم يشف له غليلاً فامر بسلب امتعة الكنائس واوانيها واقامة جوامع على انقاضها وامر ان يؤذن في كنيسة القديس شنوده بمصر القديمة حالاً وبنى المسلمين سوراً حول كنيسة المعلقة (في قصر الشمع) وهو حصن مدينة بابليون الروماني . والتمس المسلمين من الخليفه ان يأمرهم بالتجول في انحاء القطر لتخريب مابقي من الكنائس فاجابهم الى ذلك واصدر امره الى حكام الاقاليم بمساعدتهم في اغراضهم فطافوا يتلفون ويخربون كل سنة ٤٠٣ للشهداء الموافقة ١٠١٣ مسيحية فسلبوا الكنائس واخذوا اوانيها وامتعتها النفيسة وصاروا يبعونها جهاراً في الاسواق ووضعوا ايديهم على جميع الاوقاف القبطية فلم يبقوا لها عيناً ولا اثراً ووجدوا في كنيستى القديس شنوده والمعلقة غنائم عظيمة من الاواني الذهبية والملابس الحريرية وغيرهما مما لايعد ولا يحصى ويؤخذ من التقارير الرسمية انه تخرب في تلك السنة ماينوف عن ثلاثة (١) الاف كنيسة في مصر والشام بما في ذلك الهيا كل التي بناها الرومانيون في الاقاليم المصرية . هذه كلها غنمها المسلمون وكانت عمارات جميلة وقصورا شاهقة واواني نفيسة

(١) هذا مأخوذ من تاريخ مالان والظاهر انه وقع غلط مطبعي لان المقريزي يذكر ان عدد الكنائس المستخربة يبلغ ثلاثين الفاً

وامر الحاكم ان كل من يذهب من الاقباط الى الحمام يعلق برقبته صليباً وان يعلق اليهودي جرساً وتماد في بغيه حتى امر برحيل الاقباط واليهود الى بلاد الروم (١) فتجمهروا مئات والوفاً وذهبوا الى قلعة الحاكم ووقفوا يستعطفون ويسترحمون ويطلبون اليه اعفاءهم من النفي حتى رضى عليهم وفي تلك الاوقات المكربة اعتنق من المسيحيين الديانة الاسلامية خلق كثير. وظل سعير الاضطهاد يلتهب ٩ سنين كاملة والبطريرك ذخريا في اعماق السجون يهدده الحاكم تارة بالحرق وطورا يرغبه بالهبات والعطايا ويعده بالرقي اذا هو اعتنق الديانة الاسلامية ليحمل الاقباط على النسج على منواله ولكنه لم يؤثر عليه التهديد ولا عمل فيه الخوف من الموت ولا اثارت رغباته المواعيد بل ثبت الى النهاية حتى سئم منه الحاكم واخلى سبيله فذهب الى وادي النطرون واقام هناك وكانت الثلاث سنوات الاخيرة في الاضطهاد من اشد واقسى السنين صرامة فيها لقوا الهول وصادفوا من الجور اشكالا والوانا الان الحاكم امر

(١) ذكر ابو صالح المؤرخ ان من الكنائس الشهيرة التي تخربت بامر الحاكم وتحولت الى جوامع ماعدا كنائس القاهرة كنيسة النسطوريين قرب العدوية او منية السودان تبعد عن القاهرة نحو ١٨ ميلا وكنيسة السيدة العذراء في اصوان وكنيسة العذراء في الاشمونين ودير القصير الشهير وقد اعيد بناءها بعد زمن الاضطهاد ومما يستحق الذكر كنيسة القديس باخوميوس بمدينة فاو باقليم دشنا وكان طولها ١٥٠ ذراعاً وعرضها ٧٥ ذراعاً وكانت حيطانها مرصعة بالفسيفسا والاحجار الكريمة واعمدتها من اجود انواع الرخام هذا عدا جملة كنائس في بلاد النوبة هدمتها حملة من الاسلام بعثها الحاكم خصيصاً

بابطال العبادة في جميع الكنائس الا في الاديرة الكائنه في الجبال فكان الشعب يرشو حكام الاقاليم ليسمح له بممارسة سائر العبادة في البيوت سرا ومن ثم صار الاقباط يقدسون ويناولون القربان في كنائسهم الصغرى فهال الحاكم ذلك اذا رأى انه اوامره غير نافذة بالدقة فامر اخيرا بمحو كل الديانة المسيحية من مملكته

وكان في تلك الايام راهب يقال له يمن انكر الدين المسيحي واعتنق الاسلام في بدء الاضطهاد خوفاً على حياته وتقرب الى الحاكم بامر الله وتمكن بدهائه من استصدار امر منه يقضي بالعفو عنه وعن اخوانه الاقباط . وعاد الى كنيسة القديس مرقوريوس (ابو سفين طموه) وزاره الخليفة في تلك الكنيسه ولما كان له عنده منزلة عظيمة اثر عليه فجعله ان يأذن للمسيحيين في العودة الى مدينة بابليون فنال ماتمنى ورجع البطريرك زخريا واقام في كنيسة ابي سيفين مع بعض الاساقفة والكهنة وفيهم

تلك الغاية وكان الملك الذي يحكم النوبة حينئذ يدعى رفائيل حكى عنه ابو صالح المؤرخ انه اقام في دنقله عاصمة ملكه قصوراً تناطح السماء قبابها من الطوب الاحمر الجميل كانت تزري بمباني العراق الجميلة يومئذ وشوارع المدينة في عهده كانت متسعة وقصورها شاهقة وكنائسها فاخرة وكانت بالاجمال اهم مدينة على شاطئ النيل

(٢) ذهبت مدام بتشر الى ان عقاب النفي انما صدر على اليهود فقط لان القبط كانوا يتوقون الى الهروب من تلقاء انفسهم الا ان الحاكم كان يحظر حتى انتقالهم من جهة الى اخرى

الراهب يمن . وعاد الخليفة الى زيارة الكنيسة مرة آخرى فوجد يمناً بين زمرة الكهنة فاسرع يمن الى ملاقاته وقدم اليه البطريرك ولم يكن قد رآه من ذي قبل فاندهش من منظره وحقارة شخصه ورثيث ملابسه واستقباله اياه بغير خوف او رهبة فلم يسع الحاكم بامر الله ان يخفي استغرابه فسأل الراهب يمن عن مقدار سلطة البطريرك فاخبره بذلك فتعجب الخليفة قائلاً انا مع كل استعمال نفوذنا المادي وصرف ما في خزائننا وتجريد عساكرنا لم نبلغ بعد ان نخضع الناس بمجرد رسالة بسيطة يوقع عليها مثل هذا الرجل البسيط باسم الصليب فلا ريب ان للديانة المسيحية من التأثير ماليس للجيوش الجرارة والقوة العظيمة

ولما كان الخليفة غريب الاطوار ادار وجهه الى خلف وخرج من الكنيسة من غير ان يطلعهم على حقيقة مايبطن وتوجه الى القاهرة

وكان خلق عظيم مجتمعين داخل الكنيسة وحول اسوارها ينتظرون مايكون من امره فلما خرج لبث البطريرك واساقفته يظنون الظنون الكثيرة في ما عسى ان يصير فاجمع الكل على انه عتيدان يعود بقوة عسكرية ويحاصر الدير ويهلك جميع الذين فيه و زادهم اعتقادا بذلك مجيء حنا كاهن كنيسة ابو نفر محسوب الحاكم بأمر الله في ذلك الوقت الى الدير وهو الذي حصل بسببه كل ذلك الاضطهاد وهو الذي غرر بالخليفة وزين له سجن البطريرك زخريا وافهمه بأنه رسول الله ونائب العزة الالهية في الارض . ولما دخل الى البطريرك حياه كانه لم يحصل منه شيء وهناه

يرجوعه سالما من السجن وما زال يتلطف في الحديث حتى استطرق الى ذكر ترقيته الى درجة الاسقفية فعند ذلك ضجر الاساقفة وقالوا ماعسى ان يكون هذا الطلب في مثل هذه الشدة . وانحوا باللائمة على البطريرك الذي قابل الكاهن حنا بالحنو وقالوا له لسنا نعلم ايها السيد الى متى تقودنا ببساطتك وهدوك الى المهالك . وروى بعض المؤرخين ان الاساقفة حنقوا على البطريرك لانهم رأوه ميالا الى منح حنا رتبة الاسقفية في حين انه كان سبب جميع البلايا التى حلت بالاقباط في كل تلك السنين وكان الاسقف ميخائيل ابن اخي البطريرك اشدهم معارضة لذلك لما قام في نفسه من الكراهية لحنا

فلما رأى حنا ملامح الغضب بادية على وجه الاسقف ميخائيل اسرع الى خارج واحتمى بالجمع المحتشد فتوسط الاساقفة في الامر واقنعوا ميخائيل بوجوب الصفح لاسيما في تلك الاحوال الشديدة فرضي بذلك فصالحوه مع حنا وادخلوا الكاهن حنا اليهم الى الدير وطيبوا خاطره ورقوه الى وظيفة ايغومانوس وهي اعلى درجة يستحقها حسب قانون الاكليروس

وبعد ذلك ببضع ساعات نما الخبر الى غبطة البطريرك وجميع الذين في الدير بان الخليفة قادم اليهم فطفقوا يبكون ويولولون ظنا منهم بان الساعة قد اتت لينتقم منهم . ولكن الخليفة دخل الى الدير وقابل البطريرك وناوله ورقة فتأملها واذا بها فرمان يقضي باباحة الحرية لجميع الاقباط ورد جميع

كنائسهم اليهم واعادة ماسلب منها من الذخائر والاواني والاعمدة وكذلك جميع الاطيان والاراضي الموقوفة وكل ماسلبه المسلمون من ايديهم وبالاجمال لم يهمل الخليفة فرصة لاعادة الاقباط الى سابق عزهم ومجدهم

وبذلك انقضى دور الاضطهاد الهائل الذي لحق الاقباط بقتل الخليفة الحاكم بامر الله . قتله اهل بلاطه اذ كادوا له فاغتالوه عند ما كان منفردا كعادته في جبل المقطم وهو يناجي ربه على زعمه . ولكن جثته لم توجد غير ان جثة رفيقيه اللذين كانا يلازمانه وجدت وعلى اثر ذلك اشاع بعض مريديه انه رفع الى السماء وسينزل في قابل الايام ولذلك ترى الدروز الى الآن يؤمنون بتلك الخرافة ويتبعون طريقة ذلك المبتدع المختل

وقد انشأ الخليفة الحاكم بامر الله هيئة علمية احتفل بافتتاحها سنة ١٠٠٥ مسيحية (٣٩٥ هجرية) وأسس مكتبة عظيمة فيها كثير من المؤلفات الرائقة في العلوم والفنون المختلفة وكان فيها كتبة ماهرون بالنسخ غير انها لم تلاق قبولا لدى المتأخرين لما كانوا يعتقدون فيه من الشذوذ عن قواعد الدين الحنيف

وقد بطلت هذه الهيئة من الوجود سنة ١١١٢ مسيحية ابطلها رجل يقال له الفضل لما رأى فيها من التعاليم المخالفة لعقائد الاسلام ولكن المسلمين اعادوها بعد ذلك الى سابق عهدها وأسسوها على قواعد متينة ولم تزل باقية حتى تلاشت بتقلص حكم الدولة الفاطمية في مصر

الفصل الثامن والاربعون

شنوده وخرستودوس

سنة ١٠٢٠ للمسيح و ٧٣٦ للشهداء و٤١١ للهجرة

قد مات الحاكم بامر الله كما اسلفنا مقتولا بمساعي اخته وقائد جيشه وبويع بالخلافة مكانه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله وكان يعرف باسم الظاهر فقط وكانت عمته تدير شؤون المملكة في ايامه حتى مماتها . ولو ان هذا لم يحكم اكثر من ستة عشر سنة غير انه لا بأس من ذكر ما حصل للاقباط في ايامه

وتفرغ البطريرك زخريا لترميم ما تهدم من الكنائس وارجاع الحالة الى سابق رونقها وظل اثنتي عشر سنة يعمل بغير كلل ولا ملل فاعاد منها كثيرا وساعده على ذلك فرمان الحاكم بامر الله غير انه توفي ولم يصلح الا القليل وانتخب مجمع الاساقفة خلفاً له راهبا يدعى شنوده من رهبان دير القديس مقاريوس وكان وزير الظاهر والسيد بكر احد اشراف المسلمين محبين للاقباط. فعملا على اعفاء البطريرك الجديد من دفع الرسم المقرر على كل بطريرك عند سيامته وقدره ستة الاف دينار لكن اكليروس الاسكندرية ظنوا ان وراء ذلك ما وراءه فلم يرضوا ان يقروا على انتخاب الراهب شنوده بطريركا الا بعد ان رضي بتوقيع صك الجزية. وانما فعلوا ذلك خشية من بأس الحكام المسلمين وخوفا من انتقاضهم عليهم. على ان ليس

كل البطاركة كانوا راضين بدفع تلك الجزية لان البطريرك تيوفانوس طالما مقتها وتوسل الى الاكليروس ان لا يكلفوا الشعب بدفعها فذهب توسله صرخة في واد

وقد سر البطريرك شنوده باعفاء الحكومة له من الضريبة المقررة على البطاركة الجدد ولكن لما لم يوافقه الشعب كما قدمنا دفعها ولكن في مقابل ذلك قرر ضريبة على القسوس والاساقفة الجدد وكان البطاركة اسلافه يمقتون تلك العادة اما هو فخالفهم ولم يكن يسمح برسم اسقف او قسيس الا للذي يدفع في الوظيفة ثمنا اكثر من غيره. وقد أمن الاقباط في ذلك العهد من اضطهاد مضايقيهم فاشتدت الرغبة في الحصول على درجة الكهنوت وكان كل من بذل مبلغا من الدراهم اكثر من سواه يؤوب فائزا بغرضه

ورأى الاغومانوس حنا الذي كان فيما سبق كاهنا لكنيسة ابي نفر ولم ينجح في زمن البطريرك زخريا في الحصول على وظيفة الاسقفية ان الفرصة لائحة له في عهد البطريرك شنوده فبذل جهده في نوال غرضه ولكنه لما لم يكن اهلا لتلك الدرجة لم ينجح غير انه في ذلك الوقت خلت ابرشية العريش من اسقف لها فسيم عليها اسقفا وصار يدفع ستين دينارا سنويا لحصوله على تلك الدرجة وباع البطريرك شنوده اسقفية باقيوس للاسقف رفائيل بالف ومئتي دينار واسقفية ليكوبوليس (اسيوط) للايغومانوس الذي فيها بمبلغ غير معروف ولما لم يرض عنه الشعب جاء الى البطريرك يطلب منه ان يقنع

الشعب بقبوله او ان يرد له الدراهم التي دفعها فابى عليه البطريرك كلا الامرين
ولم يقتصر شنوده على بيع الابرشيات للاساقفة لينعموا بها في حيوتهم
بل قرر ان تكون جميع مقتنيات الاساقفة حقا للبطريكخانة بعد وفاتهم ولا
يزال هذا القرار معمولا به حتى الان واول من وقع له ان ينفذ فيه مفعول
القرار اسقف شنان فان البطريرك شنوده امر اخا الاسقف المذكور بان
يسلم جميع ما كان لاخيه الى البطركخانة فتوسل ذلك الى البطرك ان يبقي له شيئاً
يرتزق منه او ان يترك له منزله ليسكن هو فيه فابى عليه ذلك فاعتنق
الرجل الديانة الاسلامية وتقاضى مع البطريرك امام المحاكم الشرعية فحكمت
للرجل بأخذ مقتنيات اخيه جميعها فوقع ذلك الحكم اسوأ موقع لدى
ذلك البطريرك.

وبالجملة كان تصرف شنوده المخجل في بيع الوظائف الكهنوتية
وتحصيل الرسوم الباهظة مما أدى الى تجاوز الرسوم المقررة وجعل اصحاب
المطامع يقدمون الدراهم بصفة رشوة للحصول على تلك المراكز وقد سرت
هذه العادة بين جميع طبقات الامة القبطية . وفي السنة الثانية من جلوسه
على كرسي البطريركية ابى دفع الاعانة المقررة للاسكندرانيين بدعوى ان ايراد
البطريكخانة لا يكفي للمشروعات الاصلاحية فرفع وكيل البطركخانة
الاسكندري الدعوى عليه لدى المحاكم فحكمت له بأخذ المبلغ المطلوب من
ايرادات الاوقاف كل هذه المناقشات حصلت بين الرؤساء في عصر الحرية
والعدالة الذي لم يتمتع بمثله الاقباط منذ ايام عمرو بن العاص . فهذه الامور

التي يخجل من ذكرها حر الشمائل بلغت مسامع القاصي والداني ونما خبرها
الى حضرة السيد بكر شريف المسلمين الذي كان له الباع الطائل في اعفاء
البطريرك من دفع الرسوم المقررة للحكومة فهاله الامر وتوسط في فض
الخلاف بين شنوده ووكيله الاسكندري وابان لهما سوء المغبة التي تنتج
عن مثل ذلك التصرف فالقى شنوده اللوم كله على الوكيل واحتج بان
مطالب الاسكندرانيين لا يمكن ان تسد بغير طريقة جمع الرسوم
والضرائب فما كان من بكر الا انه تعهد ان يقوم هو وكبار الاقباط بدفع
المبالغ اللازمة لسد مطالب الاسكندريين اذا كان هو واساقفته يكفون
عن بيع الوظائف الكهنوتية فرضي البطريرك بذلك وكتب محضراً
بواقعة الحال وامضى عليه ولما عرض الامر على اساقفته وكانوا قد سبقوا
فاخذوا نقوداً من بعض الراغبين في الوظائف الكنائسية ولم يفوا بوعدهم
لهم بعد رفضوا ذلك العمل رفضاً باتاً وعدوا عملهم مقدساً وكان تصرف
اساقفة الاقباط في ذلك العهد نظير تصرف اساقفة انكلترا الذين انكروا
من عهد غير بعيد تداخل العلمانيين في شؤونهم

ونما خبر الخلاف الذي حصل بين اعضاء المجمع المقدس الى مسامع
بكر الشريف فاسرع الى الدار البطريركية ورجا الاساقفة ان يذعنوا
لنصحه ووقف بينهم خطيباً يذكرهم بسوء المغبة التي تنتج من عدم رضائهم
بمشورة البطريرك وذكرهم بما كان من امانة البطريرك افرايم الذي يعهدون
فيه القداسة وكيف انه كان يحرم استعمال تلك العادة القبيحة وختم قوله

بان المصائب التي تحل بهم من وقت الى آخر انما هي نذير من السماء ينبئهم
بوجوب الكف عن المساوى واتباع الحق

فلما انتهى بكر من كلامه اظهر شنوده ارتياحه الى ذلك القول
والتمس من بكر ان يعيد اليه القرار الذي امضاه ليقرأه على مسامع
الاساقفة ولما كان بكر يعهد فيه الامانة ناوله اياه مطمئناً فاخذه ومزقه
امام بكر وجمهور الحاضرين وارفضت الجلسة على هذه الصورة المزعجة
وذلك الشكل القبيح

غير ان الاساقفة الذين تفرقوا على مثل تلك الصورة أثرت فيهم
بعض نصائح بكر الشريفة فاجتمع بعضهم وذهبوا الى بكر وشكوا اليه مرارة
سوء تصرف البطريرك وتردده في اصدار الاوامر وميله الى الابهة
والتظاهر وأعلموه انه هو الذي اوجب تحصيل تلك الرسوم بقرار مقدس
عند جلوسه على كرسي البطريركية ثم تفرقوا على وعد الاجتماع في كنيسة
ابي سيفين للاحتجاج على تلك التصرفات وتابعهم في ذلك بعض العلمانيين
اما شنوده فبقي في كنيسة القديس مخائيل مع رجال حزبه وبعد ذلك حصلت
مناقشات عديدة بين الاساقفة اسفرت عن اعترافهم بصحة نصائح بكر
فرغبوا في قبول تلك الاقتراحات ووافقوا على التوقيع على صورة القرار
الذي مزقه البطريرك في المجمع المقدس

على ان شنوده الذي كان يرتكن في تمزيق القرار على معارضة الاساقفة
لما رأى موافقة الاساقفة لبكر رجع الى العناد وتوجه في غد ذلك اليوم

الى الكنيسة التي اجتمع فيها الاساقفة والعلمانيون وقضى اليوم يبحث معهم
في امور لم تعد بفائدة وبعد ذلك قابله بكر عميد المسلمين ووقف بين الاساقفة
خطيباً يحثهم على طاعة البطريرك ويبين لهم مضار الشقاق وما زال يتناقش
مع البطريرك حتى أقنعه بوجوب الرضى بامضاء ذلك القرار. فلما رأى البطريرك
شدة عارضته وقوة حجته ووقوفه امامه موقف العاجز استشاط غيظاً وابى
الموافقة على ذلك وانكر على بكر تداخله في المسائل الملية البحتة وامر رجاله
ان يقبضوا عليه ويشبعوه ضرباً ففعلوا وتفرق الاساقفة ايدي سبا . كل
هذه الاهانة حصلت لبكر الشريف ولم يتعرض المسلمون للاقباط باذى
في ذلك العهد فما ابعد الفرق بين تلك الظروف السعيدة والظروف المكدرة
التي كانت في عهد البطريرك زخريا وفي ذلك دليل على ان الاقباط لم يعرفوا
كيف ينتهزون الفرصة ويتحدوا بدل الانقسام وهكذا بقي حال البطريركخانه
مختلا وادارتها معتله كل زمان حياة البطريرك شنوده

ومات الظاهر سنة ١٠٣٦ مسيحية (٤٢٧) هجرية وبويع بالخلافة بدله
ابنه المستنصر بالله وقد طال زمان حكم هذا الخليفة اكثر ممن تقدمه لانه
ملك وهو ابن سبع سنين وبقي خليفة ٦٠ سنة وكان ضعيف الرأي كثير
التقلب وامه سودانية الاصل باعها احد اليهود لابيه الظاهر وكانت وصية
عليه هي وبعض الوزراء قبل ان بلغ سن الرشد

وكان للمستنصر عمتان لهما ثروة طائلة وهما اختا اول خليفة من الخلفاء
الفاطميين وكان كل خليفة يتوقع موتهما ليتمتع باموالهما الا انهما عمرتا طويلا

وتوفيتا في زمن المستنصر فانفق من تلك الثروة مبلغاً عظيماً في تجديد جامع عمرو في الفسطاط وتغيير طرزه القديم وصنع فيه مشكاة (كوة غير نافذة) وجعل قبتها تجاه مكة وابدع في زخرفتها وبعد ذلك بقليل امر ببناء مأذنة عظيمة فيها وجعل فيه منبراً للخطابة وفي سنة ١٠٣٧ مسيحية (٤٢٩) للهجرة عقد المستنصر بالله معاهدة مع سلطان الاتراك مؤداها ان يطلق هذا الاخير سراح اسرى المسلمين الذين اسروا في الحرب التي نشبت بين الدولتين بشرط ان يسمح الخليفة لسلطان الاتراك ان يعيد بناء كنيسة القبر المقدس التي خربتها يد الاضطهاد في زمن الحاكم بامر الله فقبل الطرفان بتلك المعاهدة وجددت الكنيسة على احسن مايكون من الرونق والرواء

وفي سنة ١٠٤٧ مسيحية او ٤٣٩هجرية توفي البطريرك شنوده اثر داء عضال وخلفه البطريرك خرستودس الذي يلقبه العرب عبد المسيح

واكب البطريرك الجديد على اصلاح ماتخرب وكان الاقباط قد نهضوا في ذلك الوقت وجددوا خمس كنائس بغير تداخل الاساقفة فدشنها جميعها في يوم واحد ورسم في ذلك اليوم كاهناً وستين شماساً وكان الفرح شاملاً الجميع ودعا تلك الكنائس كما يلي كنيسة القديس يوحنا الانجيلي وكنيسة ماري مارقوريوس وكنيسة ماري مينا وكنيسة ماري جرجس وكنيسة ماري رفائيل وافتتح كنيسة ماري مرقس في اسكندرية وسن قوانين كنائسية ضمنها كل ماهو ضروري للاصلاح وجعلها دستوراً

عاماً لكل الكنائس القبطية في القطر المصري وبلغ عدد تلك القوانين واحداً وثلاثين قانوناً كانت على ما يقال افضل القوانين الكنائسية التي ظهرت من نوعها من بدء انفصال الكنيسة القبطية عن الكنائس اليونانية والرومانية وفي ذلك دليل قاطع على براعة البطريرك الذي سنها وقد احببنا ان نأتي على مثال منها اظهاراً لاهميتها من تاريخ نبيل الشهير

يمنع قطعياً عقد الزيجة في الصيام الكبير وكذلك العماد او دفن الموتى في يوم الجمعة الكبيرة (جمعة الالام) ويمنع أعطاء الرتب الكهنوتية في الاسبوع الاخير من عيد العنصرة ولا يجوز لاسقف تابع كنيسة آخرى خلاف الكنيسة القبطية الارثوذكسية المصرية ولا لكاهن او شماس ما ان يمارس خدمة مامن خدمات الكنيسة القبطية وينبغي حتماً ايجاب صيام الرسل وصيام الميلاد (الصيام الصغير) وصوم الاربع والجمعة من كل اسبوع ويمتنع تعميد اي طفل كان قبل ان يتناول الاسرار الالهية الا في حالة الخطر الشديد فانه حينئذ يكتفي الحال بالعماد بالماء فقط ويحظر على الاقباط ان يتزوجوا بغير الارثوذكسيات ويمنعوا من الاقتران ببنات الكنيسة الملكية الرومانية واذا تم شيء من مثل ذلك يكون لاغياً مالم يباشر عقد صيغة الاكليل كاهن من كهنة الكنيسة الارثوذكسية . واذا تخاصم شماس مع الكاهن الذي يناوله القربان فلا يجوز له ان يتناول عند خلافه (١) وكذلك الحال مع الاعضاء . ومن لم يرتض بحكم البطريركية

(١) وذلك لاجل دوام الالفة والسلام

واراد ان يستأنف دعواه لدي محاكم الحكومة فان كان كاهناً يفصل من وظيفة الكهنوت وان كان علمانياً يحرم من الكنيسة ولا يصنع القربان الا رجل طاهر مقدس وقد حصلت مناقشة كثيرة في عمل القربان تراها في ما يلي

ان خبز القربان الذي يوزع عادة في الكنائس عند تناول فريضة العشاء الرباني معروف لدى الجميع وهو عبارة عن خبز غير مختمر ولا مملح خال من الادهان والزيوت بالمرة ومختوم بختم باللغة القبطية فيه شكر لله. ولكن اهالي سوريا يضعون الزيت في قرابينهم اما البطريرك خريستدوس فانكر عليهم ذلك ونهى عن استعماله في الكنائس القبطية واتفق لهذا البطريرك انه كان يحتفل بقداس في كنيسة ابي سفين (طموه) وكان حاضراً يومئذ طبيب سوري له اتصال بالخليفة فاحضر قرباناً مما يصنع في بلاده وطلب من البطريرك ان يقدسه فابى عليه البطريرك ذلك وافهمه انه مغاير لقانون الكنيسة فاصر الطبيب على طلبه فامر البطريرك رجال الكنيسة ان يخرجوه منها غصباً فحصلت بينهم وبين رجال الطبيب مناوشة وصلت اذيتها الى الطبيب واخرج بالرغم عنه فكانت هذه الحادثة من اول اسباب العداوة التي قامت بين البطريرك والخليفة . وقد ساعد على القاء النفرة بينهما بعض اعوان الفساد الذين لم يكونوا ينالون من البطريرك مغنماً لما اتصف به من قوة الجنان والاستقلال بالرأي والعمل على كل ماهو صالح للكنيسة

وكانت احوال الكنيسة القبطية في عهد البطريرك شنوده سلف هذا البطريرك في غاية الاختلال ولم يكن الشعب يراعي الطقوس وكان بعض ذوي النفوذ من الاقباط يستعملون نفوذهم في قلب الكنيسة وتشويش نظاماتها وكان بعضهم ينكرون ايمانهم ويعتنقون الدين الاسلامي فلما تولى البطريرك خريستودوس اصلح من فسادها ورتب امورها . وحدث في عهده ان رئيساً من اكابر الاقباط موظفا في الحكومة كان له ابن شرير فطرده ابوه من بيته بسبب شروره وعدم طاعته فذهب الولد واعتنق الدين الاسلامي ولكنه عاد بعد مدة فندم على مافرط منه واراد ان يكفر عن خطاياه بتوبته فالتجأ الى دير ماري مخائيل ولبس ملابس راهب ودعا نفسه نيقام (أي التائب) واتفق ان بعض رهبان ذلك الدير ارادوا الرحيل الى دير القديس مكاريوس بوادي البطرون فطلبوا اليه ان يذهب معهم فرضي في بادئ الامر ولكن تراءى له في عشية الرحيل ان الهروب الى البرية من وجه الذين يطلبونه وعدم اشهار مسيحيته في نفس النقطة التي انكر فيها ايمانه يعد من باب الجبن وضعف الايمان وان التكفير عن خطيته لا يقوم الا بالاعتراف الجهاري امام الذين انكره بينهم فتقوى بذلك ولبس لباس الرهبانية ونزل الى القاهرة واجتمع بالذين كان يجالسهم في اسلامه فلما شاهدوه رموه بالكفر وقبضوا عليه واوسعوه ضربا وطرحوه في السجن فبذل ابوه جهد المستطاع في انقاذه فلم يستفد فعمد الى الارشاء لان بعضهم اخبره ان القاضي لا يسلم الا بالدراهم فلما وصلت النقود الى يد القاضي افتى بانه يجب على نيقام ان

ان يتظاهر بالجنون ويأتي الاطباء لفحصه ومتى قرروا انه معتوه يطلقون سبيله فذهب ابوه اليه في سجنه وافهمه ما وقع عليه التدبير واعلمه انه لا يمكن ان يخرج من السجن الا بتلك الحيلة وانه لا بأس من العمل بها فاقتنع بذلك. فخرج والده يدعو الاطباء وبعد خروجه دخل احد الرهبان الى نيقام واخبره ان هذه الطريقة مخلة بشرف الدين المسيحي وانه لا يمكن ان يكفر عن ذنبه الا بالاعتراف الجهاري فان لم يعترف فقد اضاع اجره ولم يستحق ان يدعى شهيدا لان الايمان الحقيقي لا يبعث على الجبن بل بالحري يجرئ على الظهور بمظهر الرجولية والثبات فسمع نيقام لقوله وعدل عما نوى ان يعمله فلما حضر الاطباء والشهود لم يبد شيئاً من علامات الجنون بل بالحري بقي رزينا عاقلا وزاد على ذلك ان اعلن الحاضرين باقامته على الدين المسيحي وايمانه بالاب والابن والروح القدس الله الواحد المثلث الاقانيم فاستشاط الشهود غيظا فقدموا تقريرا بذلك الى قاضي الاسلام فامر بقطع رأسه بغير امهال فقطع رأسه وأعطيت جثته لذويه بناء على امر الخليفة ودفن بقرب كنيسة ماري مخائيل فلما حضر البطريرك خريستودوس الى مدينة بابليون امر باحضارها فاحضرت ودفنها هناك داخل الكنيسة بكل تجلة واحترام كما احتفل بالشهداء الذين تقدموه

وجال خريستودوس في جميع انحاء القطر المصري يتعهد الكنائس ويحيي معالمها ولكنه لم يبادر الى الغاء الرسوم الدينية ولذلك نقم عليه البعض واتهموه ببيع الرتب الكنائسية كالبطاركة الذين تقدموه ولكن كنائس كثيرة

بنيت في ايامه وخصوصا كنيسة دمنهور فانها اتخذها مقرا لكرسيه فامها الاقباط من كل فج وصوب فزادت عمارتها وظهرت برونق جميل غير انها لبعدها عن مركز الحكومة بالقاهرة لم ينلها اذى الاضطهاد

واول تهمة اوقعها المسلمون عليه انه بسبب نفوذه تجرأ ملك النوبة المدعو جرجس على قطع العلائق التجارية مع المسلمين وامتنع من ارسال الجزية المعتادة كل عام من الرقيق والظاهر انه الى ذلك الحين كانت عوامل السلام سائدة بين ملك النوبة والخليفة في مصر مذ ما ارسل المعز سفراءه اليها. وقد ارسل ايضا البطريرك خريستودوس اسقفا من قبله لتدشين كنيسة بنيت في عهد الملك جرجس سلطان النوبة. ولكن خريستودوس استعمل قواه في اقناع وزير الخليفة في مصر بان لا صالح له في قطع جزية النوبة وان لا دخل له مطلقا في شؤون النوبة السياسية فاقتنع الوزير بذلك الا ان المسلمين لا زالوا يتحرشون بالاقباط نظرا لما رأوه من تمتعهم بالرغد في عهد بطريركهم النشيط

وفي سنة ١٠٥٢ مسيحية نقص منسوب فيضان النيل وكان الفيضان ايضا واطئا في السنتين السابقتين فساءت الحال ووقع القحط والغلاء فاضطر الخليفة المستنصر ان يكاتب قسطنطين العاشر امبراطور اليونان ليمده بالقمح فارسل اليه سفنا كثيرة تحمل قمحا وفي السنة التالية مات الامبراطور فابت زوجته ان ترسل اليه قمحا الا اذا عقد معها المستنصر محالفة هجوم ودفاع ضد الممالك الاسلامية فابى عليها المستنصر ذلك فرفضت امداده بالحنطة فبلغ

الجوع اشده في مصر ونزل الوباء في الناس فزاد فتكه عن حد القياس . وبالنظر لاشتغال المستنصر بالوباء والمجاعة ومراسلاته امبراطور وامبراطورة اليونان بقي خريستودوس في دمنهور آمنا كيد الاعداء ونجى من الاضطهاد فاتفق ان احد قضاة المسلمين مر بذيمورا أي دمنهور (١) قاعدة كرسي خريستودوس فاندهش مما رأى من عمارتها وحسن رونقها فكتب الى وزير المستنصر وبالغ في وصفها ووسمها بالقسطنطينية الثانية وانه قد بنيت فيها سبعة عشر كنيسة حديثاً عدا عما كان فيها قبلاً وذكر ان المنزل الذي يقطنه البطريرك فخم منقوش عليه عبارات تهين الدين الاسلامي فارسل الوزير يستفسر عن تلك العبارات المهينة وارسل القاضي الذي بلغه الى هناك ليقرأها ويتأكد من صحتها فذهب اليها فرأى منقوشا على واجهة منزل البطريرك البسملة المسيحية وهي « بسم الاب والابن والروح القدس الخ» فامر البطريرك ان يمحوها فلم يعارض في ذلك الا انه قال له ان محوها من على السور لا يمحوها عن صفحات قلبي فعاد القاضي الى القاهرة واخبر الوزير بما كان واستصدر منه امرا يقضي بهدم جميع الكنائس في الوجهين البحري والقبلي

وأناط ذلك برجلين من المسلمين الا انه لسوء حظ اهالي الوجه البحري كان المنوط بنفاذ الامر مشهورا بشدة بغضته للمسيحيين فخرب

(١) عرف نيل المؤرخ ديمورا بهرموبوليس بارفا او دمنهور ولكن ذلك التعريف بغير اساس وذكرها كاترمير المؤرخ فقال انها تدعى تيمورا وهي مدينة في اقليم الغربية شمال الدلتا

كنائس دمنهور واقفل سائر الكنائس في الدلتا وفرض على الاقباط دفع ضريبة سبعة آلاف دينار في نظير تمهله عليهم في اقفال الكنائس ولكنه بينما كان جاداً في اثر ذلك وقع عن جواده بغتة فقتل لساعته وكان موته سبباً في انفراج الازمة عن الاقباط

اما اقباط الاسكندرية فكانوا أسعد حالا من اقباط دمنهور لان والي الاسكندرية كان مشهورا بالعدل والرفق بالرعية فلما صدر اليه الامر بالتخريب والسلب أرسل الى أحد رجال الكنيسة المرقسية وأطلعه على حقيقة الامر وطلب اليه ان يخبيء كل نفيس وغال تلك الليلة فاهتم الاقباط بنقل النفائس والامتعة الثمينة ولما جاءت جنود الوالي في الصباح لتكبيس الكنيسة لم تجد فيها شيئاً غير بعض الحصر والستائر فكتب الوالي الى المستنصر يعلمه بالواقع ويخبره بان أقباط الاسكندرية فقراء لا يقدرون على دفع الستة آلاف دينار المضروبة عليهم فأمر الخليفة بتخفيض المبلغ الى الف دينار فقط فدفع الاقباط نصفها والنصف الآخر دفعه اليونانيون سكان الاسكندرية وسلم رجال المستنصر الى بطريرك الاقباط مفاتيح كنيسة واحدة لاقامة شعائر العبادة فيها وتركوا له بيت ابافوس وهو أول رجل تتلمذ مع ماري مرقس كاروز الديار المصرية وذكر كاترمير المؤرخ نقلا عن كتاب مخطوط ان رأس يوحنا المعمدان التي كانت محفوظة الى ذلك الوقت في اسكندرية خبأها الاقباط خوفا من وقوعها في ايدي المسلمين

وعاد المسلمون الى اضطهاد الاقباط بشدة فألقوا القبض على البطريرك ووجدوا في خزينته ستة آلاف دينار فنهبوها واقتسموها ثم أطلقوا سراحه بتوسط ذوي النفوذ من موظفي الحكومة الاقباط

وفي تلك المدة التي حكم فيها المستنصر ولى اثني عشر وزيرا بالتتابع وكان يعزلهم لعدم امانتهم وظهور الخيانة في اجرآتهم وذلك بعكس الاقباط الذين كانوا يظهرون الامانة والاجتهاد فلم يكن للحكومة غنى عنهم وكثيراً ماقام المسلمون عليهم وأشاروا بخلعهم من وظائفهم فخلعوا عشرات ومئات ولم يلبثوا ان عادوا اليها مبجلين اذ لم يكن في المسلمين من يقوم مقامهم في حل المسائل العويصة والقيام باعمال حساب الحكومة

وفي ذلك الوقت اصيبت مصر بحادث مريع فانها حلت بها زلزلة هلك بها نحو ٢٥ الفاً من السكان على اقل تقدير

الفصل التاسع والاربعون

بدر الجمالي الارمني

سنة ١٠٦٥ مسيحية و٧٨١ للشهداء و٤٥٨ للهجرة

لما كانت ام الخليفة المستنصر سودانية الاصل كما ذكرنا في الفصل الماضي كان ميلها الى ابناء جنسها أمرا طبيعياً فما زالت تستخدم السود

في الوظائف الاميرية حتى غصت بهم دواوين الحكومة ونظمت منهم فرقاً عسكرية من الجيش وجعلت الحرس الملوكي منهم فاغتاظت جنود العرب والاتراك من ذلك وقامت المنافسات بين الفريقين من ذلك الحين وتحزب العرب والاتراك على السودانيين وناصبوهم العداء ووقعت بين الفريقين مذابح دموية عجز الخليفة القاصر ووالدته عن اخمادها

وتحرير الخبر انه بينما كان المسلمون يحتفلون بسفر الحجاج الى مكة في مكان يقال له بركة تحميره المعروفة الان ببركة الحج سكر أحد الجنود التركية فشهر سيفه على أحد السودانيين فتألبت الجنود السودانية عليه وأوردوه حتفه فانفجر بركان العداوة القائمة في نفوس الفريقين واحتاطت الجنود التركية والعربية بقصر الخليفة تطلب طرد السودانيين من خدمة الجيش فخاطبهم الخليفة يريد اقناعهم بالعدول عن ذلك الطلب فلم يفلح فارسل اليهم مندوبين لمصالحتهم فلم يذعنوا ومنذ ذلك الوقت نشبت الحروب الشديدة بين الطرفين وكان النصر يتراوح فيها بين الفريقين . واظهرت والدة الخليفة ميلها الى نصرة السودانيين وامدتهم بالجنود والذخائر ففازوا على الاتراك فوزا مبينا غير ان الاتراك عادوا فلموا شعثهم وهجموا على السود مستقتلين فدحروهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً في ذلك اليوم وانتصر حزب الاتراك والعرب على السودانيين انتصارا باهرا وطردوهم الى الصعيد الاعلى فتبعهم اكثر من خمسة آلاف نفس من السودانيين القاطنين بالقاهرة وسرت هذه القلاقل في شمالي أفريقيا وامتدت الى سوريا ولم

يكن الخليفة ذا بطش يمكنه من كبح الثائرين فطمع فيه اتراك مصر
وصاروا يغتابونه

وفي ذلك الوقت قام أحد الفاتنين وادعى انه الحاكم بأمر الله
بعث من الرمس فتألب حوله كثيرون وسبب قلقاً لرجال الحكومة
ولكن حكومة المستنصر شمرت عن ساعد الجد على غير عادتها وقمعت
تلك الفتنة وأعادت السكينة الى ربوع البلاد . ولما رأت والدة الخليفة ان
الوزراء متواطئون عليها وانهم غير مخلصين في خدمة البلاد شددت
النكير عليهم ورأى الخليفة ان ليس له نفوذ في قصره فحدثته نفسه بالتنازل
عن الملك الاسمي والتخلص من صلف امه وعنادها وذهب الى الفسطاط
ليقضي باقي حياته بالزهد في جامع عمرو ولكن والدته لم ترض بذلك
بل أرسلت وراءه في الحال فردته

وكانت ظروف الخلافة في تلك الايام على غير مايرام ولقي الاقباط
والمسلمون في عهد ذلك الخليفة جهد البلاء وكان الاقباط اشدهم ويلا طبعاً
وعظم نفوذ ناصر الدولة قائد الاتراك بعد نصرته على الجنود السودانية
وطردها الى الصعيد الاعلى فطمعت نفسه في الخلافة فسعى لذلك باكتسابه
ثقة والدة الخليفة التي اغترت بدهائه وجعلت امره نافذا في كل دواوين
الحكومة حتى صارت اوامر الخليفة غير نافذة الا على حاشيته فقط .
ومد ناصر الدولة يده الى الخزينة واخذ منها الاموال وفرقها على الجندية
وطمعت الجنود التركية فضجت وتألبت حول قصر الخليفة وطلبت ان

تصرف لها الرواتب الطائلة وتهددوه فخاف من ذلك وافرغ اموال الخزينة
بين ايديهم وهكذا اضاع بضعفه ما جمعته اسلافه في ظرف مئتي سنة بالظلم
والقسوة . واماماجدول ببيان النفائس والمجوهرات الثمينة التي اخذتها الجنود
التركية واقتسمتها مما لا يسعنا الاتيان عليه تفصيلا . ومن جملة تلك النفائس
خريطة مطرزة باسلاك الذهب الابريز مرسوم عليها جميع ممالك الارض
بجبالها وأنهرها ومدنها وشوارعها ومرصعة بالحجارة الكريمة وكان قد امر
الخليفة المعز بصنعها فصنعت له

فكل هذه النفائس وما تحتوي من المصوغات والمجوهرات وماكان
يهديه سلاطين الارض وملوكها للخلفاء لعبت به ايدي الضياع في اسبوعين
من الزمان واخذته جنود الاتراك التي لاتعرف له قيمة. هذا عدا كثير
من انواع الاسلحة والدروع مما كان محفوظا في متاحف الخلفاء

واتفق ان الذي كلف بنقل الاثار لم يعتن بها الاعتناء الواجب فشبت
النار في تلك النفائس والمفروشات الباقية فالتهمتها عن بكرة ابيها ولم يبق
من كل ما للمستنصر الا المكتبة الملوكية وهذه ايضا لم تسلم من العبث
فان ناصر الدولة امر جنوده بنهبها وكان فيها مئات الوف من المجلدات
فاخذها الجنود الجهلة وكانوا يتسلون بتمزيقها كما يتسلى الاطفال بتمزيق الاوراق

وكان حاكم الاسكندرية احد القواد الذين عهد اليهم بنهب قصر
المستنصر فعني هذا بجميع الكتب الثمينة وحملها الى الاسكندرية ولما كانت
الفوضى قائمة في البلاد التقى بحامليها عصابة من اللصوص فبددوا شملهم

واستولوا عليها ونزعوا جلودها واتعلوها !اما الاوراق فاطلقوا فيها النار وما بقي طرحوه في الصحراء فحملتها الرياح وبقيت الاوراق منتشرة على وجه الارض مدة حتى اطلق الناس على ذلك المكان تل الكتب

وظل ناصر الدولة الحاكم المطلق يجور في الرعية ويستبد بالامر والخليفة المستنصر في قصره كالسجين لا يأوي اليه احد من ذوي النفوذ حتى كره الناس ناصر الدولة لما بدا من استبداده فانقلب عليه اعوانه ومريدوه واشهروا عليه حربا عوانا فانتهز المستنصر تلك الفرصة وترأس الحزب المضاد فنشبت معركة بين الفريقين اجلت عن فوز المستنصر وهروب ناصر الدولة الى حدود الجيزة وهنالك لم شعثه ورتب جيوشه وعسكر على ضفة النيل الشرقية تجاه جيوش المستنصر التى كانت على الضفة الغربية بين بابلون والفسطاط جنوبا ومصر العتيقة والقاهرة شمالا . في ذلك المكان الزاهر المملوء من الحدائق الغناء والرياض الفيحاء والقصور والعامرة نشبت الحرب بين الفريقين فتحولت الى قفار وخرائب وانجلت الموقعة عن انهزام جيوش ناصر الدولة فهرب الى الاسكندرية بمن بقي معه وتحصن فيها

وبعد ذلك خطر له ان يحالف بعض القبائل التي على الحدود التي طالما عاثت في بلاد الدلتا فسادا فحالفها وجمع منها جيشا عرمرما وزحف به على القاهرة لسلب الملك من يد المستنصر فكانوا وهم زاحفون اليها ينهبون ماوصلت اليه ايديهم من مال ومتاع ويسومون الاهالي خسفا وعذابا لا يطاق ويمنعونهم عن تطهير الترع وسقي الاراضي فبارت واقحلت التربة واشتدت

يدهم على الاقباط خصوصا فهاموا على وجوههم في البراري والقفار وما زال الجند يضطهدونهم حتى بلغوا وادي النطرون فهدموا كنائسه وخربوا صوامعه وذبحوا الرهبان الذين فيها ووقع البطريرك خريستو دوس اسيراً في ايديهم فاختطفوه من الدير واوسعوه اهانة وتعذيبا ولكن الله دبر له طريقا للنجاة . ذلك ان رئيس كتبة ناصر الدولة كان قبطياً يدعى ابا الطيب هذا توسل الى ناصر الدولة ان يطلق سبيل البطريرك ففعل اكراماً لخاطره ودفع ابو الطيب ٣ آلاف دينار فدية له . وبعد ذلك سعى ابو الطيب في انقاذ حاكم طنتدا (طنطا) وقد كان مستخدماً عنده قبلا فلم يصل اليه الا وكان جنود ناصر الدولة قد مزقوه شر تمزيق فحمد الله الذي الهمه ان يسعى في نجاة البطريرك اولاً

وبعد ذلك التقت جيوش ناصر الدولة بجيوش المستنصر وقامت الحرب بينهما سجالا تراوح النصر فيها بين الفريقين واخيراً تضعضع حال جيوش الخليفة فطمع ناصر الدولة بأخذ الخلافة ولكنه خشي مزاحمة بدر الدين الجمالي والي سوريا له فيها فاراد ان يحتاط لذلك فدعا رجلا يقال له طاهر من الاشراف ووعده ان يوليه الخلافة اذا هو عمل على قتل بدر الجمالي حاكم سوريا فاغتر طاهر بذلك فذهب الى سوريا ولكنه لم ينجح في مهمته

وبقي ناصر الدولة وجنوده يعيثون في الارض فسادا وطغت القبائل المحالفة له ايما طغيان ولا سيما في الخمس سنوات الاخيرة من حياته اي بين ١٠٦٤ و١٠٦٨ مسيحية وكانت الجنود تعترض المارة في السبل

والشوارع والطرق لنهب ما بأيديها لافرق في ذلك بين مسلم وقبطي فاهملت الترع ولم يقم النيل بري الاراضي وتراجع السكان عن الزراعة والصناعة وكان همهم الوحيد ان يسدوا رمقهم ورمق عيالهم باية طريقة ممكنة فساءت الحال وعم الوبال فنشأ عن ذلك مجاعة عظيمة شمل ضررها القاصي والداني ففني عدد عظيم من السكان . وبلغ في ذلك الوقت ثمن الرغيف الواحد خمسة عشر دينارا وثمن البيضة دينارا وثمن القط ثلاثة دنانير والكلب خمسة دنانير وعز وجود القطط والكلاب فاشتدت المجاعة بالناس حتى حتموا على احدهم الاتجار باللحوم البشرية فكان ذلك الغوي يخدع النساء والاطفال ويذبحهم ويبيع لحومهم وفنيت جميع الخيل والبغال والحمير ولم يبق للخليفة غير ثلاثة خيول فقط ونبشت الناس قبور الخلفاء واخذوا النفائس التي فيها واشتروا بها قوتا وتطاولوا الى ما في اعناق نساء الخليفة ومازال الناس يجردونه من كل ماله حتى بلغت به الفاقة الى درجة الاستعطاء فطلب احسانا من بعض النسوة وكانت مشهورة بالغنى ولكنها سبقت فوزعت ثروتها على المحتاجين والبؤساء فعز عليها ان ترفض طلبه فامرت له بصحن شوربة كل يوم لسد جوعه اما نساؤه فانهن همن على وجوههن يستجدين تخرجن من القصر مكشوفات الرؤوس حافيات الاقدام مولولات نادبات سوء الحالة ولم يكدن يخرجن من القصر حتى خارت قواهن من الجوع فسقطن الى الارض وماتت الواحدة بعد الاخرى فجاء الجياع والتهموا لحومهن ولا التهام الجوارح جثث القتلى

واتفق ان الوزير قصد قصر الخليفة راكبا بغلته فاعترضه بعض الجياع ورجلوه واخذوا البغلة وذبحوها واكلوا لحمها نيئا وامتصوا اعظامها فهرب على قدميه جازعاً حامدا ربه على خلاصه من ايديهم وبعد ثلاثة ايام عثروا بثلاثة من جنوده منفردين فقبضوا عليهم وذبحوهم وكشطوا لحومهم عن عظامهم فلما مر بهم الوزير في الصباح رأى هياكلهم فعلم انهم قد صاروا طعاما لاجواف الجياع

وفي ذلك الوقت فسدت الاهوية من الجيف فتفشى الوباء في الناس وصار يفتك بهم فتكا ذريعا فكانوا يموتون الوفا وربوات كل يوم وبلغ الوباء اشده في الفسطاط وبابليون فان معدل الوفيات كان عشرة في المائة يوميا

وتحالف الوباء والجوع على مدينة تانيس المدعوة الان (صا الحجر) بمديرية الشرقية فاهلكا جميع سكانها ولم يبقيا بها غير مئة نفس وهلك اسقفها المدعو ميخائيل جوعا مع قطيعه المساكين

ولما اشتد الحال بالسكان ارسل الاقباط الى الملك جرجس ملك النوبة يطلبون منه امدادهم بالمؤونة وكان ملك النوبة يومئذ قد ارسل رجلا يدعي بامون ليرسمه مطرانا على النوبة فرسمه واوصاه ان يخابر الملك في شان المدد فلما وصل الى هناك رفع اليه تقريرا بالحالة السيئة التي بات فيها الاقباط في مصر فاخذته الشفقة عليهم وارسل اليهم شيئا كثيرا من الزاد . فلما وصل الوفد الذي يحمل المؤونة الى حدود مصر اعترضهم ناصر الدولة بجنوده وارغمهم على العودة من حيث اتوا فعادوا آسفين وطنى

ذلك الوزير حتى منع كل امداد يرد من الخارج فعم البلاء وأشتد الويل

وروي في تلك الايام ان امرأة قبطية حضرت من القاهرة الى الفسطاط تحمل عقدا نفيساً يساوي الف دينار وجالت تلتمس استبداله ببعض الدقيق فشفق عليها بعضهم وأخذه وأعطاها كيس دقيق عوضا عنه ففرحت بذلك فرحا لا يوصف ولخوفها ان لا تصل الى منزلها سالمة استأجرت رجالا ليوصلوها الى منزلها فى حارة زويلة فساروا من حولها يحملون السيوف والحراب وهم فرحون لانهم مزمعون ان ياخذوا اجرتهم شيئا من الدقيق فلما وصلت الى باب الزويلة صرفتهم ووزعت عليهم شيئاً من الدقيق فمضوا فظنت انها امنت شرور القوم لانها صارت على مقربة من منزلها ولكن الناس لم يلمحوها الا وانقضوا عليها انقضاض الشواهين ومزقوا منها الكيس تمزيقا واخذوا ما فيه ولم تنل منه الا مقدار ما يكفي لصنع رغيف واحد

فعملت المرأة ذلك الرغيف وصعدت به على سور المدينة ورفعت صوتها مولولة وصاحت بالناس هلموا ايها المطمئنون انظروا الى ما وصلت اليه حالنا من السعادة ان هذا الرغيف الذي بيدي قد كلفني الف دينار فاشكروا الخليفة على ما اوصلكم اليه من الراحة واليسار. فبلغ ذلك الكلام مسامع الخليفة فاشتدت به الحال وتكدر من وخزات الضمير فامر باحضار رئيس الشرطة وعنفه تعنيفا عظيما واقسم انه ان لم يدبر طريقة لايجاد الخبز في اسواق المدينة باثمان معتدلة ليقطعن رأسه ويامر بنهب املاكه

فخرج مأمور الشرطة من لدن الخليفة حائراً وفيما هو يضرب اخماساً لاسداس فتقت له الحيلة ان يستدعي تجار القمح الذين كان يعهد ان لديهم شيئاً من الغلال وهم يضنون بها ولا يظهرونها الا للذي يدفع فيها ثمنا طائلا فاحضرهم وأحضر ثلاثة أنفار من المسجونين المحكوم عليهم بالاعدام بصفتهم تجار أيضاً ولما مثلوا لديه صاح في أحد المجرمين قائلاً لماذا تخفي القمح ايها الرجل الطماع والمجاعة قد أهلكت الناس أو لست تخاف الله ويوم الدين وأمر السياف بقطع رأسه فأطاره في الحال وهكذا فعل مع الثاني والثالث فارتعدت فرائص التجار الحقيقيين فلما قدم أحدهم صاحوا جميعاً بصوت واحد يطلبون العفو ويظهرون استعدادهم لاخراج الحنطة وبيعها في الاسواق بالثمن الذي يقدره فقام معهم من فوره فاخرجوا الحنطة والدقيق وباعوها في الاسواق بالاثمان التي قدرها رئيس الشرطة وذهب من فوره فاخبر الخليفة بما كان فشكره على ذلك وانفرجت الكربة الى حين ولكن لم يدم الحال على هذا المنوال طويلاً لان الحنطة فرغت ولم يرد المدد من خارج لان ناصر الدولة قطع كل مدد عن البلاد وحاصر الثغور والحدود نكاية في الخليفة قاصدا خلعه والاستيلاء مكانه

وبعد ذلك قام ناصر الدولة في نفر من رجاله ممن كانوا معسكرين في الصالحية ودخل القاهرة وطلع الى الخليفة المستنصر في قصره فرآه متوشحاً بالثياب البالية جالساً على حصيرة في حالة يرثى لها فشمت به

وسلط عليه جنوده فاهانوا والدته اهانة عظمى وخطر له في ذلك الوقت ان يستأثر بالخلافة وكان له صهر يقال له دكوز خصماً له فاظهر الفرح بقدومه خشية من بطشه وصالحه وما زال به حتى تمكن منه وقتله ذات ليلة شر قتلة فخلصت البلاد من شره ولكن المستنصر لم ينج من كيده حتى وقع في كيد احلافه سنة كاملة وكان موت الوزير ناصر الدولة سنة ١٠٧٣ مسيحية

ولما سئم المستنصر من تلك الحالة استجد ببدر الجمالي والى سوريا وكان من عتقاء المستنصر وهو أرمني الجنس الا انه لم يعتنق الدين الاسلامي بل بقي على عقيدته الاصلية (١)

وكبر بدر الجمالي في بلاط الخليفة وصار ينشؤ على قيادة الجيوش والنبوغ في الحرب حتى ولاه المستنصر على سورية فحكمها وأحسن ادارتها وظل خاضعاً لمولاه مع الاستقلال في ادارته

فعمد الخليفة المستنصر الى مخاطبته سراً واكد له انه اذا قطع دابر الاتراك يوليه حاكماً على مصر فقبل بدر الجمالي بذلك واشترط على المستنصر ان يولي في مصالح مصر من يثق بهم من رجاله السوريين فقبل المستنصر بذلك وتأهب بدر الجمالي لتجريد حملة على مصر وصمم على

(١) يصعب على المؤرخ ان يتاكد من نصرانية بدر الجمالي بعد بلوغه. الا ان الامير المسيحي الذي يشير اليه ابو صالح المؤرخ بانه كان سيد مصر حينئذ انما كان هو الملقب بتاج الدولة

دخولها من طريق البحر رغماً عن اعتراض قواد جيوشه وقصد بذلك ان يفاجيء الاتراك العصاة مفاجأة فقام بجيوشه بحراً وقصد الديار المصرية حتى وصل الى ثغر دمياط وانزل بها الجنود وسار في الدلتا بغير معارض حتى دخل القاهرة وكان ذلك سنة ١٠٧٤ مسيحية فلما علم الاتراك بما كان ظنوا ان مدعياً بالخلافة قام يزاحم المستنصر عليها فهالهم الامر ورأوا في نظام جيوش بدر الجمالي ماثبط عزائمهم فلذلك قصدوا ان ينضموا اليه

اما بدر فلما رأى ذلك عمد الى اخذهم بالحيلة فلما قدم اليه كبارهم اولم لهم وليمة عظيمة وكان قد اوصى جنوده ان يبطشوا بهم ورتب لكل جندي من الذين اقامهم على هذا العمل اميراً يقوم بقتله وفي نظير ذلك يعطيه سلبه وقصره فسر الجنود بذلك سروراً لا يوصف وبعد انتهاء الوليمة خرجوا الى منازلهم مطمئنين وكان كل واحد من الجنود المعينة لهذا العمل بازاء الامير المخصص له فبطش كل جندي باميره واماتوهم قتلاً بالسيف فلما اصبح الصباح ورأى بدر الجمالي ما كان من امر جنوده بر لهم بوعده واعطاهم غنائم الامراء ونفائسهم واسرع الى الخليفة المستنصر يبشره بنجاح تلك الخديعة ولم يكن قد لاقاه مذ يوم تولى الحكم على سورية فلما لقيه الخليفه قبله في عارضيه وولاه الصدارة العظمى ولقبه بامير الجيوش

وبعد ذلك وجه بدر الجمالي همته الى اعادة سلطان الخليفة على البلاد واخضاع الرعية له وكان انصار ناصر الدولة لايزالون منبثين في طول

البلاد وعرضها تحت قيادة اثنين من زعمائهم احدهما جعل مركزه الاسكندرية والآخر دمياط وظلوا يعيثون في البلاد فساداً حتى ابادوا معظم سكانها نهباً وقتلاً فسير بدر الجمالي عليهم حملة قوية فانتشب القتال بين الفريقين وانتصرت جنود بدر الجمالي على جنودهما ايما انتصار فتفرقوا ايدي سبأ واكتسحتهم جنود بدر الى ماوراء حدود الديار المصرية واستراحت بلاد الوجه البحري من شرهم . ومن ثم اخذ بدر يكتسح العصاة الذين صيروا البلاد فوضى في سائر انحاء البلاد حتى عمت الطمانينة وغنم من الاعداء شيئاً كثيراً من الاسلحة والذخيرة وسبى نساءهم وسلب خيولهم وفرق اجودهن على جنوده وباع الباقيات بيع السلع في القاهرة فكان يبيع المرآة بدينار والجواد بدينار ونصف

ولما راى الفلاحون رجوع المياه الى مجاريها سروا بما نالهم من تلك النعم وخصوصا وعد بدر لهم بأنهم لا يدفعون ضرائب مدة ثلاث سنين فعادوا الى فلح الاراضي واستثمارها بعد ان بارت زمانا طويلا

ولما استقرت الخلافة للمستنصر وثبتت قدمه في البلاد نما خبره الى سكان مدينة مكة فرجعوا الى سابق عهدهم واعترفوا به اميرا للمؤمنين بعد ما كانوا يعترفون بخليفة بغداد وقاموا على الكسوة النبوية السوداء التي وضعها خليفة بغداد ومزقوها واستعاضوها بكسوة خليفة الفاطميين البيضاء بمصر

ومع ان بدر الجمالي كان يميل الى المسيحيين الا انه لم يظهر ذلك الميل

اليهم واتفق ان احد تجار المسلمين وشى له بان فيكتور مطران النوبة امر بهدم جامع للمسلمين هناك فهتاج بدر الجمالي لذلك وامر بالقبض على البطريرك خريستودوس والقى عليه تبعة ذلك العمل فبرهن له البطريرك فساد ذلك بقوة غريبة فاقتنع بقوله واخلى سبيله

واتفق بعد ذلك ان زعيماً من زعماء اللصوص جمع له عصابة قوية كان يناوش بها جنود بدر الجمالي في الصعيد وكان القتال سجالا بين الفريقين والنصر متراوحاً بينهما فلما رأى بدر وجه الضرر من ذلك سير عليه قوة عظيمة فلما رأى ذلك الزعيم الشر باديا هرب الى بلاد النوبة فارسل وراءه تجريدة وبعث مندوبين من قبله الى ملك النوبة يطلب منه تسليم ذلك الثائر وطلب من البطريرك ان يبعث اسقفا من قبله الى ملك النوبة ليسرع في الامر فاجاب البطريرك طلبه وعين لذلك اسقفا يدعى مرقوريوس فقام مع مندوبيه وابلغ ذلك الى ملك النوبة فقبض على ذلك الزعيم العاصي وسلمه اليهم فجاؤا به الى القاهرة ودفعوه الى امير الجيوش فأمر باعدامه فاعدموه خارج النقطة المعروفة الان ببوابة الحديد

وانتظمت بلاد مصر واخذت في الرقي والتقدم بفضل عناية بدر الجمالي غير انها عادت الى شيء من الفوضى لان فاتحا جديدا من الاتراك يدعى عبد العزيز ظهر في فلسطين حينما كانت جنود امير الجيوش مشتبكة في مطاردة العصاة في صعيد مصر سنة ١٠٨٦ مسيحية . فانتهز عبد العزيز المذكور فرصة غياب بدر الجمالي عن سوريا وقدم اليها وافتتحها بغير كبير

مقاومة ودخل دمشق والقدس وطبريه ورحل الى مصر بأربعين الف مقاتل وظل يتقدم بجيوشه بغير معارضة حتى عسكر قرب القاهرة قبل ان يتمكن بدر الجمالي من أستقدام جيوشه . فوقع بدر في ورطة عظيمة فعمد كعادته الى الحيلة والدهاء وبدأ يظهر الوداد نحو عبد العزيز المذكور ودارت المخابرات بينهما على ان يدفع بدر الى ذلك الفاتح مبلغاً من المال نظير نفقة حملته على سوريا والديار المصرية في نظير جلائه عن البلاد وظل بدر يماطل في الوعد ويطيل في امد المخابرات وهو في اثناء ذلك يحثث جنوده المرابطة في اعالي الصعيد على التأهب لمنازلة العدو باسرع ما يمكن حتى قدمت اليه الجنود . واتفق ان عدداً عظيماً من الحجاج وصل الى القاهرة على نية المسير الى مكة فركب بدر الى استقبالهم واخبرهم بذلك الغازي ووقف فيهم خطيباً يحثهم على الجهاد ومعاونته في انقاذ البلاد من يديه فأثر عليهم ببلاغته فانصاعوا لقوله وانتخب منهم ثلاثة الاف نفر ووزع عليهم الاسلحة وأخذ يخابر بعض العربان الذين انضموا من أطراف البلاد الى جيش عبد العزيز ويرغبهم في الغنائم والاموال فسمعوا له وجاؤه بانصارهم فانضم اليه جمهور كثير من الجند وفي ذلك الوقت جاءته جيوشه المرابطة في الصعيد فاجتمع لديه جند كثير العدد فاقتادهم بنفسه وباغت بهم صفوف العدو وأبلى فيهم بلاء حسناً فتفرقوا طرائق وتمزقوا حذائق بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة ففروا من امامه تاركين اشلاءهم في حومة الميدان وعشرة آلاف من الصبيان والصبايا كانوا قد سبوهم من سوريا

ليبيعوهم في مصر بيع الرقيق

وبعد ان استراحت البلاد ولم يعد يكدر صفوها مكدر استراح بدر الجمالي من المتاعب والتفت الى تنظيم داخلية البلاد فبنى سور القاهرة والابواب الثلاثة المعروفة بباب الزويلة وباب الفتوح وباب النصر وعكف على تجديد الجوامع المتداعية وبنى جوامع جديدة بالقاهرة والاسكندرية وجزيرة الروضة ثم تمرد عليه اثنان من العامة والتف عليهما خلق كثير فسير عليهما حملة عظيمة بقيادة ابنه فكسرتهما شر كسرة واسرتهما فقطع رأس احدهما والقى الآخر في غيابة السجون

وفي ذلك الوقت وشى بعضهم الى امير الجيوش بان كيرلس مطران الحبشة الذي كان يدعى قبلا ابنا عبدون يغرر بمسلمي الحبشة الضعيفي الايمان ويدعوهم الى شرب الخمر معه عند تناول الطعام . فقبض بدر على البطريرك خريستودوس بصفته رئيساً لذلك المطران ليعاقبه عوضاً عنه . ولحسن حظ البطريرك لم يكن كيرلس المذكور قد سيم بعد مطراناً فدفع البطريرك عنه هذه التهمة وصرح بانه لم يرسم بعد وانه مرشح فقط ترشيحاً ليس الا وانه عتيد ان يرسل الانبا مرقوريوس الطيب الذكر الى الحبشة ليرسم كيرلس المذكور مطراناً وينهاه عما نوى ان يفعل ان كان ما شاع عنه حقاً فاقتنع أمير الجيوش بذلك وأطلقه . وفي تلك الايام نما غيظ المسلمين من الاقباط وازداد حسدهم للبطريرك خريستودوس لما شاموه من نفوذه على الحبشة والسودان وكان الحكام

يقضون المراسلات الصادرة والواردة من البطركخانة الى تلك الجهات وبالعكس ويردونها الى جهاتها مفضوضة او يمزقونها حسبما يتراءى لهم

وبعد ذلك بسنتين انتقل خريستودوس الى رحمة ربه ودفن في كنيسة المعلقة في بابليون ثم نقلوا رفاته الى وادي النطرون وقد دفن في بابليون أولاً لكونه سبق فاتخذها له مقراً بعد خراب كنيسته الكبرى في مدينة دمورا (دمنهور) في زمن ناصر الدولة كما قدمنا ولما استقر في بابليون لم يكتف بكنيسة المعلقة بل جدد كنيسة القديس مرقوريوس (ابو سيفين طوه) وجعلها كتدرائية كبرى ومركزاً لكرسيه وجعل كنيسة العذراء في حي الاروام مقراً له يأوي اليها عند اللزوم وجعل ايراد تلك الكنائس ورسوم المقاضاة في الاحوال الشخصية لنفسه ورضي أسقف بابليون بذلك ولكن الاسقف الذي خلفه عارض في هذا الامر ولم يرض به

ومما تقدم نعلم ان بدر الجمالي كان يحترم البطريرك خريستودوس ويجله ومع انه قبض عليه مرتين باغراء المفسدين الا ان ذلك لم يحط من مقامه وقوبل انتخاب الراهب الذي وقع عليه الانتخاب بعده من دير القديس مقاريوس بالاستحسان في جميع دوائر الحكومة حتى ان عقلاء المسلمين طلبوا اليه ان يبارك قصر الخليفة فباركه باحتفال عظيم فتفاءل الاقباط بذلك خيرا وكان اسم الراهب الذي اختير للبطريركية جرجس فلما تعين بطريركا دعي كيرلس الثاني وبعد جلوسه بقليل اتفق

ان جرجس ملك النوبة تنازل عن عرشه الى ابن اخته جرجس محبة فيه وزهادة منه في العالم ورغبة في صرف باقي حياته في عبادة الله . واختار السكنى في دير تفريوس الكائن في البرية على حدود مصر والنوبة وكان الخلاف واقعاً عليها بين مصر والنوبة فلما رأى اهل اصوان ان ملك النوبة اختارها للمقام بعثوا الى الدير وحاصروه طمعاً في إدخال تلك النقطة في املاك مصر ولا ندري ان كان ذلك بايعاز امير الجيوش لالقاء الرهبة في نفس ملك النوبة او انه صدر من تلقاء رغبة اهالي اصوان فلما حاصروا الدير سلم الذين فيه واخذوا الملك اسيراً وتوجهوا به الى القاهرة فلما وصلها قابله البطريرك وسائر الاقباط وجنود الحكومة بالتجلة والاحترام واحتفى به امير الجيوش احتفاء عظيماً ومنحه قصراً مشيد البنيان ليمكث به ولم يسمح له بالاقامة في البرية فقضى فيه سنة كاملة ومات بعد ذلك

وحدث في عهده ان راهباً قبطياً يدعى ساويرس حديث السن عالي الهمة طمع في البلوغ الى درجة المطرانية فلما بلغه أن مطران الاحباش ضعيف الهمة قليل النفوذ حدثته نفسه ان يأخذ مركزه خصوصاً وانه شاع عن عبدون مطران الحبشة انه غير أهل للوظيفة فاتخذ تلك الفرصة السانحة وسيلة الى بلوغ مقاصده وما زال يستعمل كل حيلة في التقرب من أمير الجيوش حتى نال الحظوى لديه واخبره بقصده ووعده بدفع مبلغ عظيم من المال اذا هو ساعده بنفوذه وان يبني اربعة جوامع للمسلمين في الحبشة . فسر أمير الجيوش بذلك واصدر امراً الى البطريرك كيرلس

يأمره فيه ان يسارع برسامته مطراناً على الحبشة فلم يسعه الا ان صدع
بامره وسافر ساويرس الى الحبشة بعزم ماض واعلن القوم انه تعين لهم
مطراناً اما عبدون فلانه كان قليل الحيلة لم يقف تلقاءه فهرب الى بلدة
تدعى الدهلكة فقبض عليه الاحباش وارسلوه الى القاهرة وبعد ذلك
بقليل قطع المصريون رأسه لعلة غير معلومة .

على انه وان كان ليس في استطاعة احد ان يبرر الواسطة التي نال
بها ساويرس رتبة المطرانية الا انه والحق يقال بذل مجهوده في اصلاح
حال الكنيسة الحبشية ولم شعثها ومقاومة العادات الفاسدة الشائعة بينهم
وأخصها عادة تعدد الزوجات لان الاحباش مذ اعتنقوا الديانة المسيحية
باقون على عهدهم في تعدد الزوجات سائرون على خطة الشريعة الموسوية .
وهم يقولون ان تعداد الزوجات ليس محرماً الا على القسوس والشمامسة
فقط مع اعترافهم بان ذلك مخالف لروح المسيح

وعلى اثر جدال في هذا الموضوع قام خلاف عظيم سنة ١٠٨٦ بين
المطران ساويرس واساقفة الحبشة وكان اللوم كله على أولئك الاساقفة
لمجادلتهم في امر يخالف نص الانجيل الصريح

واتفق ان بعض رجال الاكليروس بمصر ومنهم اسقفان لم تكن
ابروشيتاهما مندرجتين بكشف الابروشيات المصرية طعنوا في باقي الاساقفة
ووجهوا اليهم تهماً شنعاء وقذفوا في حق اعيان الاقباط من سكان بابليون
مقر البطريركية ورموهم بالتقاعد نظراً لسكوتهم عن استدراك الحالة

السيئة الجارية في بلاد الحبشة فرفع الاساقفة المطعون فيهم عريضة الى
البطريرك يطلبون منه التداخل في امرهم وتشليح أولئك الطاعنين وحرمانهم
من درجة الكهنوت فاجابهم انه كان يمكنه التداخل في ذلك لو كان الخلاف
واقعاً بين اثنين اما والخلاف واقع بين زمرة الاكليروس فانه يتركهم
وشأنهم وكل مسؤول عن نفسه

فلم يرتض الاساقفة بذلك وقاموا يلتمسون من امير الجيوش
التداخل في امرهم وارغام البطريرك باجابة مطاليبهم وتوصلوا اليه بواسطة
رئيس بستانه الذي كان قبطياً وكان البطريرك حينئذ متغيباً في
الاقاليم يزور الكنائس ويفتقد الرعية ويدشن الكنائس التي
بنيت حديثاً

ولكن امير الجيوش لم يتبع اهواءه في تلك المسألة بل ارسل الى البطريرك
يطلب اليه ان يأمر بعقد مجمع من الاساقفة يرأسه امير الجيوش بنفسه
فحرر البطريرك كشفاً باسماء الاساقفة الذين يطلبون لحضور الاجتماع وهم
سبعة وعشرون اسقفاً جميع اساقفة الوجه البحري واثنان وعشرون اسقفاً
نصف عدد اساقفة الصعيد ماعدا اساقفة كنيسة بابليون والخندق (وهي
كنيسة صغيرة في ضواحي القاهرة) والجيزة

فلما اجتمع مجمع الاساقفة ترأسه بدر الجمالي في قطعة ارض له خارج حدود
القاهرة وافتتحه بخطبة شائقة حثهم فيها على الاخلاص للبطريرك والخضوع
له ووبخهم على التنافس والشقاق وشكواهم عليه وطلب من الفريقين ان يوضحا

علة الشكوى والموجب لارغام البطريرك على الانحياز الى فريق دون آخر وان يقدما صورة طلبهما في ظرف ثلاثة اسابيع لينظر فيها

وبعد ذلك امر بقطع رأس رئيس بستانه لسعيه ضد رئيسه الاكبر وبعد ثلاثة اسابيع اجتمعوا لديه وقدم الفريقان مطاليبهما فأخذها ولم ينظر فيها بل وقف بينهم يحثهم على العيشة بالصفاء والمودة والاتفاق الحبي ووبخهم على عدم اذعانهم لرئيسهم الاكبر وقال لهم:—

كان يجب عليكم انتم ان تكونوا البادئين بالقدوة الصالحة طوعا لامر الانجيل لانكم خدام الدين وقادة الشعب الى الفضائل فانتم المرشدون ولستم في احتياج الى ان يرشدكم احد الى الواجبات فاذا سمعتم لقولي واطعتم اوامري عفوت عن ذنوبكم على شرط ان تصافحوا بعضكم بعضا امامي . وبعد ذلك امر رئيس حرسه ان يوزع عليهم اوراق العفو . وبعد هذا الخطاب الشديد اللهجة الذي لا نعرف ان كان صادرا عن تأثر ديني ام عن غاية سياسية ارفض المجلس وذهب كل واحد في طريقه

وقد خجل الاساقفة من عظة امير الجيوش لهم وعادوا الى كنيسة القديس مرقوريوس لتقديم التضرعات لله لكي يصفح عنهم وبعد ذلك باسبوع تناولوا القربان المقدس وتصافحوا

وبعد ذلك اشتغل البطريرك كيرلس بانشاء قوانين دينية جديدة تمشت في جميع الكنائس وصارت مرعية الى ما بعد وفاته بزمن

وفي عهد الخليفة المستنصر هاجر كثير من الارمن الى مصر وسكنوها

طمعا في كرم بدر الجمالي الذي هو احدهم فاكرم وفادتهم وخصص لهم بقعة في مصر العتيقة تعرف بدير البساتين لسكناهم . قال ابو صالح المؤرخ ان الحاكم الذي حكم مصر باسم الخليفة (والغالب انه بدر الجمالي) قد ابتنى الكنيسة الكبيرة في هذه الجهة وظل يرمم ويصلح فيها حتى وفاته .

ولما كثر المهاجرون من الارمن وازداد عديدهم انتخبوا لهم بطريركا يدعى غريغوري وقام بطريرك الاقباط برسامته مجاملة لهم واحتفى بهم الاقباط احتفاء عظيما وتوطدت بينهم علائق الصفاء والوداد ونشر البطريرك القبطي منشورا اذاع فيه ان كنائس مصر والحبشة وسورية وارمينية متحدة في الايمان الارثوذكسي القويم . وبعد ذلك رسم غريغوري اسقفا لاقليم اطفيح وظل البطاركة الارمن يتعاقبون حتى غزوة الاكراد وتقلص ظل الدولة الفاطمية ولشدة اتحاد الارمن بالاقباط نما غيظ المسلمين منهما ولكنهم لم ينالوا منهم مأربا نظرا لحسن سيرة بدر الجمالي وعدله لانه كان يعلم ان كل ثورة تؤول في البلاد الى الخراب والدمار

وفي ذلك الوقت أرسل ساويرس مطران الحبشة أخاه الى أمير الجيوش بهدية ولكن أمير الجيوش قابله بالجفاء ووبخه على عدم قيامه بوعده وأرسل حالا فاستدعى البطريرك وعنفه على تقصير ساويرس في ما وعد بارساله الى الحكومة المصرية وفي تقصيره في بناء الجوامع التي قال أنه يبنيها ولم يكد البطريرك يفتح فمه ليحتج حتى قاطعه أمير الجيوش قائلا اني لا أريد ان أسمع منك احتجاجا وقد حكمت عليك أنت وأساقفتك

ان تبقوا تحت الحجر عندي وان يدفع كل واحد منكم أربعة دنانير يومياً نفقة اعالتكم حتى ترسل الى الحبشة وتطلب من مطرانها ان يقوم بتنفيذ ماوعد به باقرب فرصة

فوقع ذلك القول على مسامع البطريرك وأساقفته وقوع الصاعقة الا انه لم ينفذ لسر عجيب دبرته العناية الالهية وهو ان ملك النوبة ارسل في ذلك الوقت وفداً الى الحكومة المصرية ومعه هدايا فاخرة ويلتمس ملك النوبة بلسان ذلك الوفد من البطريرك كيرلس ان يرسم له ابن المرحوم الملك السابق مطراناً للنوبة فلما فوجيء بدر الجمالي بتلك الهدية تمهل في أمر البطريرك لانه كان يمشي على قاعدة اسلافه وزراء مصر وهي ان تكون العلائق بين حكومتي مصر والنوبة ودادية

وبعد ذلك سمح أمير الجيوش للبطريرك والاساقفة وأخي مطران الحبشة بالحضور امامه والدفاع عن أنفسهم فلما أنسوا منه الميل الى سماع دعواهم قام أخو المطران وأخبره بان أخاه بنى سبعة جوامع بدل الاربعة فهاج ذلك سخط الاحباش فقاموا عليه قومة واحدة وأتهموه بالتحيز للمسلمين وهدموها جميعها فاضطر ان يهرب من وجوههم ولم ينقذه من ايديهم الا الامبراطور الذي امر بسجنه في ذلك الحين.

فسكن غضب امير الجيوش واقتنع بعذره الا انه طلب من البطريرك ان يرسل اثنين من الاساقفة الى ملك الحبشة لاعادة الجوامع التي هدمت فارسل البطريرك وفدا الى الامبراطور واخبره انه ان لم يبادر الى ذلك

فان امير الجيوش يهدم جميع الكنائس المسيحية في القطر المصري لكن فات بدر الجمالي انه جعل نفسه خصما لرجل عنيد هو امبراطور الحبشة فانه لما بلغه ذلك الخبر استعظمه وارسل الى بدر يقول له قد بلغني مقالك واعلم انك قادم على امر عظيم فلو مددت يدك الى الكنائس المسيحية بسوء لايكون مني الا ان اقلب مدينة مكة رأساً على عقب وبعد ان ادمرها تدميراً لا اسمح باعادة بناء حجر واحد الا بعدوزن مثله ذهباً

ولما عاد المستنصر الى القوة بفضل اعمال بدر الجمالي رجع الى اضطهاد الاقباط واليهود وجار عليهم كما جار الحاكم بامر الله سلفه وامرهم بلبس الزنار الاسود وفرض الضرائب على افرادهم ولكنه كان يخشى بأس حكومتي النوبة والحبشة فلم يكن يتعرض لرعاياهما

اما كيرلس بطريرك الاقباط فصرف باقي ايامه في اصلاح الكنائس وافتقاد الفقراء وفي ذلك العصر تغلبت اللغة العربية على اللغة القبطية وصار الناس ملزمين بطبيعة الحال ان ينطقوا بها ورأى البطريرك نفسه انه خليق به ان يتعلمها

ورقد البطريرك كيرلس سنة ١٠٩٢ مسيحية ٤٨٥ هجرية وتولى البطريركية ميخائيل الرابع وقبل جلوسه على الكرسي المرقسي لعب الاساقفة دورهم المعتاد عند تولية كل بطريرك فاشترطوا عليه الكف عن تحصيل الرسوم الدينية والتوقيع على صك بدفع مرتب وكيل الكرازة المرقسية بالاسكندرية والغاء الرسوم المعتادة عند توظيف احد الخدام الدينيين والتنازل عن حقوقه

على كنائس بابليون التى ابتدعها البطريرك خرستودوس وسلفه على رغم الاساقفة فامضى الشروط ووعدهم انه ينظر في سائر مطالبهم بالرغم عن استحالة القيام براتب ومطالب وكيل الكرازة المرقسية بالاسكندرية بسبب كثرة مطامعه ومن هذه العبارة الاخيرة يرى اللبيب انه اراد عدم القيام بما تعهد به. وبعد ذلك اتاه انبا شنوده اسقف بابليون يطالبه بارجاع اختصاصات الكنائس التي ذكرت في الشروط فتخلص منه البطريرك منكرا عليه ذلك وقال انه عاد فرفضها عند توليته فصاح فيه انبا شنوده قائلا لكن ياسيدي البطريرك انا بيدي حجة وعليك فيها شهود فانتهره البطريرك ان يسكت وتهدده بحرم كل من يتجاسر على التعرض له

وكان مطران الاسكندرية قد ارسل نسخة من تلك الشروط التي كان قد وقع عليها البطريرك ضمانا لراتبه وكانت صورة اخرى من هذه الشروط محفوظة عند اسقف سخا وهو اقدم الاساقفة عهدا فاجتهد البطريرك بحائيل حتى استحصل على نسختين من الشروط المأخوذة عليه وبذل جهده في أخذ الشروط التي مع اسقف بابليون فلم يفلح فصادره فهرب الاسقف الى احد الاديرة ولما كانت بابليون قريبة من القاهرة قام الشعب بلسان واحد واحتجوا على صنعه وشكوه الى الحكومة وطلبوا اعادة انبا شنوده الى كنيسته ورجوه ان يسامحه ففعل وعاد انبا شنوده الى سابق عمله ولم يعد البطريرك يفاتحه في تسليم الشروط التي معه.

ولشدة بأس بدر الجمالي نظم حكومة قوية فلم تعد تتم منازعات ولا

[...]ت عصابات تعيث فسادا في البلاد في ايامه ودام الحال على هذا المنوال [...]ى توفى سنة ١٠٩٤ مسيحية و٤٨٧ هجرية (١) ولم يزل هذا الرجل معتبراً [...]دى المصريين شبيها بعمرو بن العاص وبعد ذلك بقليل مات المستنصر [...]ضعيف الرأي بعد ان جلس على عرش الخلافة ستين سنة كاملة مرت عليه [...] خلالها العبر. وبالاجمال كانت سيئاته اكثر من حسناته وكان في اوائل [...]حياته كارها للرذائل مشغوفا بالاداب والفنون الجميلة والظاهر ان الذي دعاه الى ذلك هو نبوغ وزيره النيروزي في فن التصوير اذ كان يلقب يومئذ بشيخ المصورين. واستقدم الوزير يومئذ اثنين للتصوير احدهما رجل فارسي والثاني يدعى القاهر بن العزيز وكانا فرسي رهان في التصوير حتى انهما لما اقترح عليهما ان يرسما صورة احدى الراقصات على حائط واحد خرجت الصورتين كل منهما [...] فأعطيت لهما الجائزة بالتساوي

ولم يكن التصوير محرماً عند الاسلام في تلك العصور الا متى راموا اضطهاد الاقباط فانهم يقومون ليلاشوا الصور التي في كنائسهم بدعوى انه ليس بمأذون رسم صور بني آدم ولذلك كانوا ينتحلون هذه الدعوى لاتمام مآربهم

(١) يظهر من تاريخ أبي صالح انه مات مسيحيا لكونه دفن في البساتين [...]حلوان في الكنيسة الارمنية

الفصل الخمسون

تأثير مبادي الحروب الصليبية في مصر

سنة ١٠٩٦ مسيحية و ٨٧٠ للشهداء و ٤٩٠ للهجرة

وخلف المستنصر ابنه الثاني احمد ابو القاسم الملقب بالمستعلي بالله وكانت خلافته بالاسم لان الخليفة الفعلي انما كان ثاني انجال ذلك البطل المغوار امير الجيوش الذي حكم مصر على عهد المستنصر عشرين سنة فان الخلفاء الفاطميين من ذلك الحين لم يكن لهم حظ التمتع بالحرية المطلقة بل عاشوا داخل دورهم عيشة التحجب والترف والابهة والعظمة وقلما كانت الرعية ترى مليكها الا فيما ندر وفي ظروف خصوصية حتى اعتادت ان تنظر اليه كمعبود ومع ماكان للخليفة من قوة السلطان الا ان الفعلية كلها كانت بيد الوزراء

ولم يعلم سبب مبايعة ثاني انجال المستنصر بالخلافة وانما نعلم أن ثاني انجال امير الجيوش المدعو شاهين شاه الملقب بالافضل اقيم وصياً عليه لان اخاه الاكبر عصي أباه فحرمه من حقوق الوراثة وهو على قيد الحياة وكانت مواهبه اعظم من مواهب اخيه الاكبر فاستحق ان يكون حاكماً لمصر

فلما تربع الافضل في المركز العظيم الذي ورثه عن ابيه جعل همه قطع دابر العصاة الذين انضموا الى ابن المستنصر الاكبر وعكروا صفو

الحكومة الجديدة

وبعد ذلك التفت الى استخلاص سوريا من ايدي الفاتحين الاراتقة وما زال يصليهم حرباً حتى اعاد سلطة الخلافة على بيت المقدس لان الارتقيين كانوا قد احتلوها وامتنعوا فيها فحاصرها ونصب عليها المنجنيق فلما رأى المحاصرون ان اسوارها تهدم غادروها وهربوا الى شرقي سوريا

ولقد لقيت الديانة المسيحية معاكسة عظيمة من اولئك الارتقيين الذين اهاجهم لذلك العرب الفاطميون ومن تلك المعاكسات انهم قبضوا على البطريرك الاورشليمي وجروه من شعره وطافوا به شوارع المدينة والقوه في السجن ولم يخرج منه حتى اقتداه(١) الرهبان بمبلغ وافر من المال وكان كل قسيس او راهب معرضاً للسب والشتم واحتمال قوارص الكلام. ومن المؤكد ان الاقباط لقوا من الشدة والاهانة والعذابات مالا يوصف وما يؤاخذ لاجله مسيحيو الغرب لسكوتهم عن تخليصهم من ايدي معذبيهم او بالحري لعدم اعتراضهم على تلك المعاملات

(١) لما ضعفت الدولة الفاطمية بمصر قبل ايام بدر الجمالى تقلص ظل نفوذها في سوريا وفلسطين وبيت المقدس فخرجت من قبضتها لان السلجوقيين خرجوا من بلاد التتر واكتسحوا فارس وساقوا التركمان الرحل الى سوريا وكان امير التركمان يدعي ارتق بن اكسك فدرب قومه على الفنون الحربية وسار بهم الى القدس ففتحها ودعيت دولته بدولة الارتقيين وتوفي ارتق سنة ٤٨٤ هـ عن ولدين حكما بيت المقدس وفلسطين وسوريا حتى ضربهما الافضل بالمنجنيق وبدد شملهما

الاستبدادية مع انتشار اخبار تلك القبائح في الافاق على ان اوروبا كانت آتئذ في سبات عميق . فضلاعن انه عند افتتاح العرب بلاد مصر كان المصريون يعبدون الاوثان ولم يكن للديانة المسيحية تاثير ذو شأن لديهم حتى ان تعذيب بطريرك الروم الاورشليمي ووضعه في السجن كما قدمنا لم يبعث روح الغيرة في قلوب مسيحيي اوروبا ولا عطف قلوبهم عليهم كما يفعلون الآن حيث يسيرون الاساطيل العظيمة على اية بلاد تهين مبشرا او تقتل قسيساً

الا ان الزمن ابو العبر فقد وجدت ظروف اثارت عواطف المسيحيين على المسلمين لانه حدث انه بعد حادثة البطريرك التي مر ذكرها قام سبعة آلاف نفس من اللاتين لزيارة القبر المقدس فلما بلغوا حدود سوريا ومعهم اربعة اساقفة اساء المسلمون معاملتهم واستباحوهم قتلا ونهبا ولم يرجع منهم الى اوطانهم سوى الفي نفس فقط والباقون هلكوا من التعذيب والاضطهادات فاثار ذلك الاضطهاد روح النخوة في نفوس اهل اوروبا وكانت الكاس قد طفحت من كلا الجانبين فلم يعد في قوس الرجاء بايقاف الضغائن منزع فنشبت تلك الحروب الدموية التي يقف القلم عن تسطير فظائعها مما افاضت فيه كتب التاريخ باسهاب ولا مجال لايراده هنا وانما اقول ان الخطب والمواعظ التي استثار بها بطرس الناسك نخوة اهل اوروبا صادفت تربة مخصبة مستعدة للنبت ومن الغريب انها القيت في نفس الوقت الذي استرجعت فيه الدولة الفاطمية سلطانها على اورشليم وسائر

ولاية المقدس فانعقد مجلس كليرمنت على اثر ذلك فقرر ادارة رحى الحرب لاستخلاص المدينة المقدسة من ايدي الكفار

ولما كانت الدول الاسلامية متنافرة وجد الصليبيون فرصة لتمزيقهم فاتحدوا تحت قيادة الامبراطور الكسكسيون الاول وامعنوا فيهم قتلا ونهبا

وفي ذلك الوقت كان السلجوقيون يتقدمون في الفتح في بر الاناضول وما زالوا حتى وصلوا الى القسطنطينية وعسكروا على شاطيء البوسفور شرقاً وهددوا المسيحيين الذين فيها الذين كانوا يسمعون صدى التكبير في معسكر المسلمين فعبر المسيحيون البوسفور وسيروا جيوشهم على السلجوقيين والتقت جيوش الكسكسيون بجيوش السلطان ارسلان مؤسس دولة السلاجقة فابلى المسيحيون فيهم بلاء حسنا وكسروهم واستولوا على مدينتي نيس وانطاكية فاستنجد ارسلان بامراء الموصل ودمشق وحمص فانجدوه برجالهم واحاطوا به وبجيوشه احاطة السوار بالمعصم فلما رأى الصليبيون ما كان قالوا مستقتلين وفرقوا شمل العدو واخذوا المعرة وحمص وتلاطمت قواتهم كالامواج العظيمة وكان الافضل ابن امير الجيوش لما استخلص بيت المقدس من الارتقيين على ما قدمنا ترك فيها جيوشاً جرارة لترسيخ قدم الخلافة في القدس فالتقت بها جيوش الصليبيين واستحر القتال بين الفريقين اياماً متوالية وحاصر الصليبيون اورشليم اربعين يوماً وافتتحوها عنوة بعد مقتلة عنيفة هلك فيها من المسلمين وحدهم ما ينوف عن سبعين الفاً وكانت اشلاء القتلى

تلقى أكداساً في الجامع الاقصى حتى انتن الهواء وانتشرت الروائح الكريهة ولم يبرد لظى غيظ الصليبيين بذلك النصر الباهر بل حولوا وجوههم نحو مصر لانهم سكروا بخمرة النصر فلما رأى ذلك الافضل ابن امير الجيوش خاف ان يحل بمصر ما حل ببيت المقدس وزاد خوفاً من اتحاد مسيحي مصر والنوبة باهل اوروبا عليه ولو كان الصليبيون دخلوا مصر كما توهم لكان تغير وجه الارض عما هو عليه الآن ولقامت دول غير التي نراها اليوم ولكن الصليبيين تخاذلوا لان عقارب الحسد دبت بين قوادهم فاضمروا السؤ لبعضهم فضلاً عن اعتبارهم الاقباط والنوبيين هراطقة ولم يخلصهم من الفشل الذي وقعوا فيه الاجود فرى الذي اقاموه ملكاً عليهم نظراً لما تحلى به من الاخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة

وكان من حظ الافضل ان الصليبيين تراجعوا وتخاذلوا كما استشف فآنس منهم الضعف وجند جيشاً عظيماً وحمل عليهم حملة عظيمة بمساعدة رجل يدعي سعد الدولة جعله قائداً لجيشه فالتقى بهم تحت اسوار عسقلان فحاربهم بجهد شديد وانتصر عليهم انتصاراً باهراً فارجعهم عن حدود مصر ففرح بذلك فرحاً لا يوصف واطمأن باله على مصر من الخطر الذي كان يتهددها .

فلما انهزم الصليبيون ولم يتمكنوا من الدخول الى مصر حنقوا فسنوا قانوناً يحظر على اليعاقبة وهم اقباط مصر والسودان دخول المقدس فابعدوا عنهم بجهلهم حلفاءهم بالطبع واخوانهم في المعتقد . هذا فضلاً عن ان الاقباط

والسودانيين اشد المسيحيين تقوى واكثرهم زيارة للقبر المقدس فوقع ذلك القرار لدى الاقباط والسودانيين اسوأ موقع

وتوفي الخليفة المستعلي بالله بمدينة القاهرة يوم الثلاث ١٧ صفر ٤٩٥ هجرية بعد فتح الصليبيين لبيت المقدس بسنة وكانت مدة حكمه سبعة سنوات وشهرين فقط وخلفه ابنه المنصور وعمره ٦٥ سنة ولقبه شاهين شاه الافضل امير الجيوش بالخليفة الآمر باحكام الله

ولما كانت السلطة بيد الافضل لم يحصل تغيير في الحكومة بوفاة المستعلي لأن الافضل امير الجيوش أقيم وصياً على الخليفة الصغير كما كان وصياً على أبيه

وفي سنة ١١٠٢ مسيحية توفى مطران الحبشة فارسل امبراطورها وفداً الى البطريرك ميخائيل ليرسم لهم مطراناً بدله . فلما وصل الوفد الحبشي الى مصر رسم لهم البطريرك راهباً يدعى جرجس مطراناً وسافر معهم الى الحبشه ولكنه بوصوله اليها واستلامه ادارة المطرانية دب فيه روح الطمع فاسخط الاحباش فتظاهروا ضده فاجبره الامبراطور على رد جميع الاموال والمقتنيات التي جمعها بطرق غير محللة واعاده الى مصر حيث طرحه الافضل في اعماق السجون . وكانت اعمال البطريرك ميخائيل في اواخر ايامه كما هي في اوائلها . ويظهر انه عاش بسلام مع شنوده اسقف بابيلون بضع سنوات وبعدئذ عاد معه الى الخصام القديم لسبب غير معلوم فعزم البطريرك ان يتخلص منه فعقد لذلك مجمعاً من الاساقفة لفحص الاسقف

شنوده ووجه اليه تهمة غريبة مؤداها انه كان في ايام البطريرك السالف يقدس على القربان مرتين في اليوم وهو مخالف للقانون. ولذلك حرمه

وتوفى البطريرك كيرلس قبل ان يحله من حرومه ويغفر له ذلك الخطأ العظيم قال البطريرك وبناء على ما تقدم فهو مقطوع الى الآن ويجب ان يحرم ويجرد من كل حقوقه في رتبه الكهنوتية . ثم خاطب الاساقفة قائلاً . ومهما ظننتم ايها الاساقفة في كيفية سلوكي بالحكم في تلك المخالفة القديمة التي تعتبر بدعة في الطقوس الدينية واقامتي الحجة على الاسقف شنوده مرتكبها والحكم عليه بعد مضي عشرة سنوات وعدم اعترافي بتأييد الحل الذي كان البطريرك كيرلس بلا شك يريد ان يسامحه به قبل وفاته فمن الواضح انكم لا تجدون وجهاً لمعارضتي في ذلك لان الحل لم يتم حتى الآن . ثم ارسل في الحال البطريرك ميخائيل الى الاسقف شنوده وامره بان يحضر امام المجمع المقدس ليسمع الحكم عليه بالحرم وقطعه من رتبة الكهنوت وتجريده منها ولكنه أبى الحضور ورفض رفضاً باتاً الوقوف امام المجمع واختبأ في منزل سري في بابليون .

فصرف البطريرك المجمع وقام ووضع يده على كنيستي شنوده وهما كنيستا القديس سرجه والقديس باغوص بابيلون اللتين قام عليهما النزاع بسببهما وفي الغد اتفق رجوع الوزير الافضل امير الجيوش عن محاربة الاعداء فخرج البطريرك ميخائيل لتهنئته بعودته الى الوطن بالسلامة ولكنه لم يرجع الى منزله بعد تلك التهنئة الا واصيب بالطاعون وتوفي في غد

ذلك اليوم

ولما كان اثنان من رهبان دير القديس مقاريوس مرشحين للبطريركية لاقى الاساقفة صعوبة في انتخاب احدهما ولذا تأخر اقامة بطريرك خلفاً للبطريرك مخائيل حتى شهر توت من تلك السنه

وسبب الصعوبة ان احد المترشحين كان عمره اقل من الخمسين والقانون الكنائسي لايصرح بانتخاب بطريرك يقل عن الخمسين . فعزم الاساقفة على انتخاب الثاني المدعو مقاريوس . وكان هذا الرجل راغباً عن دواعي الشرف وحب الظهور او العظمة والابهة (١)

---

(١) ذكر المقريزي في تاريخه رواية عجيبة عن هذا البطريرك . وهو انه في زمن الخليفة المستنصر تأخر النيل عن الفيضان وحصل شرق عظيم تهدد بلاد مصر بالقحط فارسل المستنصر البطريرك ميخاييل في بعثة الى السودان ومنها البلاد الحبشة ليعرف اسباب عدم فيضان النيل فلما سمع امبراطور الحبشة بقدومه نزل لمقابلته وتبارك منه وساله عن مجيئه فاخبره البطريرك ان الداعي هو تأخر النيل عن فيضانه المعتاد ولقلة المياه كثيراهذه السنة يتألم سكان مصر تألماً عظيماً وسيقعون في مجاعة عظيمة . ففي الحال امر الامبراطور رجاله ان يفتحوا وادياً من الاودية التى يجري منها النيل لمصر فلما فعلوا ذلك الا وارتفع النيل ثلاثة ياردات في تلك الليلة في مصر وما زال يفيض حتي اغرق البلاد . ثم عاد البطريرك الى مصر فخلع عليه الخليفة المستنصر وعامله احسن معاملة بعد ان اكرم وفادته واحتفل بقدومه احتفالاً عظيماً

ولكنهم اعترضوا على انتخابه بدعوى انه من ثمرة ثاني زواج(١) غير ان الاساقفة عند التحقيق ظهر لهم انه ابن ابيه لزوجة ثانية أي ان أباه هو الذي تزوج دفعتين لا أمه فلم تفلح حجته واذ كان لا يريد منصب البطريركية احتج بحجة أخرى فاعترض على القبول بامضاء الشروط التي يوقعها كل بطريرك جديد لدفع مرتب الاسكندريين السنوي بالنظر لمطامعهم الكثيرة وانه يأبى ان يقيد نفسه بهذا القيد الثقيل ولكنه اذا كان ولا بد من قبوله المنصب فانه يكون حراً فيعطي على قدر ما تسمح له ظروفه وحالة الكنيسة المالية . ولكنهم لم يبالوا بكل تلك العراقيل بل صمموا على انتخابه وشرعوا في تهديده كما جرت عادتهم عند رسم كل بطريرك جديد فلما رأى ذلك خرج من وسطهم وفر الى ديره ليعيش فيه بالزهادة والتقشف

فلما حار الاساقفة في أمرهم وبلغ ذلك مسامع اهل الاسكندرية خفضوا من غلوائهم ورضوا بقبوله على شرط ان يدفع لهم حتى ولو اقل من نصف مرتبهم السنوي

وفي السنة الثانية من انتخابه بطريركا سقطت عكا في ايدي الصليبيين بعد ما حاصروها برا وبحرا وكان ذلك سنة ٤٩٧ للهجرة ولما طال المطال

(١) من ضمن شروط انتخاب البطاركة في قانون كنيسة مصر ان البطريرك لا ينتخب الا اذا كانت امه لم تتزوج الا زوجاً واحداً بمعنى انه لو توفى زوجها الاول وتزوجت بآخر فاولادها من الزوج الثاني لا يصح ان ينتخب منهم بطريركا

على الصليبيين هجموا على المدينة بقوة وشدة بأس وافتتحوها عنوة وفتكوا بالذين فيها فتكا ذريعاً وكانت عكا تابعة لمصر وعليها حاكم من قبل الافضل يلقب بامير الجيوش واسمه زاهر ففر من بين ايديهم ونجا بنفسه . وفي ذلك الوقت اتحدت كلمة الصليبيين تحت قيادة الكونت سنجيل فاغتنموا فرصة انقسام القوات الاسلامية وساروا الى طرابلس وضيقوا عليها الحصار فاستنجد اهلها بالخليفة في مصر فامدهم الافضل بجيش جرار واسطول قوي ولكن النجدة وصلت متأخرة فسلمت المدينة ليد الكونت وكان ذلك سنة ١١١٠ مسيحية و٥٥٣ هجرية

وما زال الصليبيون يفتحون البلاد في سوريا حتى استولوا على طرسوس وحمص وجبيل ولم يتركوا للخلافة الفاطمية فيها أثرا رغماً عن استبسال الافضل ودفاعه عنها . غير ان الافضل جعل همه الدفاع عن مصر حاسباً ان السلامة كل السلامة في بقائها مصونة من يد الاعداء لانه علم جيدا انه لولا انقسام الصليبيين بادئ بدء لما بقيت الى ذلك الوقت آمنة صروف الحدثان

ولكن اقباط مصر كانوا يتمنون ان يستمر الصليبيون على امعانهم في سوريا فتحاً ونهباً واستيلاء على اربائها وان يفعلوا كذلك بمصر رغماً عن علمهم انهم لا يستريحون مع اللاتين باكثر مما يستريحون تحت حكم المسلمين . وقد جاء حكم الواقع مصدقاً لما دار بخلدهم لان بلدوين الذي خلف جودفري على قيادة الجيوش الصليبية ملك على سوريا وفلسطين وجعل بيت القدس

عاصمة المملكة استصدر أمراً من البابا يقضي بضم البلاد التي فتحها الى بطريركية اللاتين في اورشليم فلما حصل على ذلك الامر خرج من بيت المقدس بجيش جرار الى مصر فوصل الى مدينة الفورمة التي بنيت على انقاض مدينة بلوزيوم القديمة في زمن الفراعنة وحاصرها وهدم مبانيها وجوامعها وفتك باهلها ومنها قام الى مصر ولكنه لم ينل منها مأرباً لانه اصيب بمرض عضال وهو سائر في الطريق فكر راجعاً بجيوشه الى بيت المقدس فمات على مقربة من العريش فنزعوا احشاءه منه ودفنوها هنالك واقاموا عليها حجراً كبيرا ولا تزال تلك البقعة تدعى الى الآن برمال بلدوين اما جثته فحملوها الى المقدس فلما رحلت الجيوش الصليبية عن مصر هدأت الخواطر وقرت الاعين واطمأن بال الافضل وقضي حيوته بسلام وكان للاقباط في عهده خير كثير

وفي كل هذا الزمان كان الخليفة الآمر باحكام الله محتجباً في قصره عن عيون الرعية لايخرج الا نادراً ولا يعرف سوى الابهة والشرف ولم يدر مما كان يجري شيئاً وكانت يد الافضل النشيطة تدرأ عنه الاخطار وبلغ من العمر يومئذٍ خمساً وثلاثين عاماً ولم تحدثه نفسه باعلان رشده وتولي زمام الامور بيديه . وبعد ذلك خطر له ان يظهر نفسه فلم ير وسيلة لذلك الاقتل الافضل وزيره المخلص فاستقدم بعض العمل العاثين الذين كانوا منتشرين في اطراف سوريا ويسميهم بعض المؤرخين بالاسماعيليين نسبة الى اسماعيل رئيسهم الذي كان يغتال النفوس بطرق وحشية على مثال

ما يجري من النهليست والفوضويين في هذا العصر وطلب اليهم ان يقتلوا الافضل فقتلوه ولم يلبث ان قتل هو ايضاً بايدي رجال تلك الشرذمة البطالة

واغتنم اسماعيل فرصة اشتغال الصليبيين بالحروب فاستقل بالقرى الجبلية القريبة من دمشق واستفحلت شوكته بها والتف عليه كثيرون فبنى الحصون والمعاقل وارهب السكان من نصارى ومسلمين وضرب عليهم الجزية فاعطوها لهُ صاغرين اتخلصاً من فتكه وبأسه وفي سنة ٥٣٤ هجرية انفذ بعض دهاته الى الحاكم بامر الله فقتلوه وهو ذاهب الى زيارة احدى عشيقاته من البدو بعد ان حكم ٣٠ سنة بالاسم لا بالفعل

ومات الافضل (١) عن ابن وحيد خلفه في حكم مصر فعلاً كما كان ابوه اما الآمر باحكام الله فلم يكن له اولاد ذكور فلما مات وكانت زوجته حبلى نادوا بابن عمه عبد المجيد بن القاسم الحافظ لدين الله نائباً للملك الا انها وضعت انثى فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالحافظ لدين الله

وقبل وفاة الافضل حدث زلزال عظيم شعرت به البلاد المصرية من اقصاها الى اقصاها تهدمت بسببه كنيسة المختار والمقول ان للافضل يداً في ذلك لانه اغتنم فرصة حصول الزلزال وهدمها اذ كانت قائمة في وسط بستان جميل

(١) ان الافضل هو الذي امر سنة ١١٠٧ مسيحية باستبدال التاريخ القبطي بالتاريخ الهجري في سائر دواوين الحكومة

وظلت الخلافة الفاطمية تنتقل من واحد الى آخر بطريق الاغتيال
وقتل الكبراء زمناً هذا مقداره وقد قتل ابن الافضل وحفيده وفيما
كان المسلمون يتنازعون كان الاقباط آمنين شرهم .

وتوفي البطريرك مقاريوس سنة ١١٢٩ مسيحية بعد ان شغل منصب
البطريركية اربعة وعشرين سنة ونيف وكانت كل سني حيوته سرا ورخاء
على امته وبعد وفاته بقي الكرسي خاليا نحو سنتين لاسباب لم تعلم حتى انه
لما استدعي الاساقفة للحضور كالعادة لانتخاب خلف له لم يحضر الا بعض الكهنة
والشمامسة وغيرهم من العلمانيين ولم يلب احد الاساقفة الدعوة فانصرف
المجتمعون على غير نتيجة وتوجه بعضهم الى كنيسة دير القديس مقاريوس
لينظروا في هذه الاحوال الخارقة العادة . وبعد ذلك انتخبوا رجلا يدعى
غبريال كان يلقب بالعربي بأبي العلا سعد بن تارك وهو سليل عائلة قبطية
قديمة كان في اول امره علمانيا وصرف زمنا في خدمة الحكومة فلما عزل
صار شماسا في كنيسة القديس سرجيوس في بابليون فحصل على وقار كثير
نظرا لمعارفه العلمية وتقواه وكان يعرف العربية كمعرفته القبطية وشغف
بجمع الكتب القديمة

وفي ذلك الوقت كان الخليفة الحافظ لدين الله مشتغلا بوضع حد للقلاقل
التي كانت قائمة بين رعيته بشأن تولية وزير للدولة فلكي يرضي جميع الاحزاب
اسند منصب الوزارة الى رجل ارمني هو شقيق البطريرك الارمني فهدأت
احوال الاقباط وتعزز مركز المسيحيين . فقام ذلك الوزير بمهمته خير قيام

واشتهر بمودته للمسلمين غير انهم غدروا به بعد ذلك وثاروا عليه بحجة ان
للمسيحيين من النفوذ بسببه ما يمكنهم من السلطة وبعيد البلاد الى
قبضة ايديهم

وكان القائم بهذه الثورة رجل يدعى رضوان لطمعه في الحصول على
الوزارة فلما رأى الوزير الارمني الملقب بتاج الدولة ما كان ابى ان يكون
سبب نزاع يؤول الى فتنة وهياج فاستعفى من منصبه ورجع الى طيبة ليقيم
مع اخ له كان حاكماً القوصية فوجد ان رضوان سبقه اليها وفتن اهلها على
المسيحيين وقتل اخا تاج الدولة شر قتلة . وابى سكان المدينة على تاج الدولة
ان يحل بمدينتهم فلما رأى ذلك هاج به الغضب وعزم على ان يجمع انصاره
ويحاصرها ولكنه عاد فانثنى عن عزمه وذهب الى احد الاديرة ليعيش
فيه مترهبا

وفي ذلك الوقت كان رضوان يتقدم برجاله على مصر القديمة وبابليون
والقاهرة ويأمر جيوشه بسلب المسيحيين ونهب امتعتهم وجعل همه الضغط
على الاقباط ومصادرتهم والادعاء عليهم بانهم غير اكفاء للوظائف فضاعف
الضرائب المقررة عليهم . ولكنه فاته انه بذلك افسد شؤون الحكومة التي
لم تكن تستغني عن الموظفين من الاقباط في الاعمال الكتابية اذ كان لزومهم
للوظائف الكتابية كلزوم اعمدة الكنائس للجوامع التي شادها المسلمون
في عصور الاضطهاد ولكن خطة الوزير رضوان العوجاء لم تفلح لان
المسلمين انفسهم نقموا عليه وطردوه فخرج اسفا قبل ان يتم له ما كان قد

دبره من ذبح الاقباط والارمن الذين استوطنوا مصر بكثرة على عهد بدر الجمالي امير الجيوش.

فارتبك الخليفة في اختيار وزير لدولته وكان يود ارجاع تاج الدولة ولكنه خاف من انه اذا اعلن هذا العزم ينقم عليه المسلمون فارسل اليه سرا يرجوه ان يعود الى مركزه فابى العودة بدعوى انه صار راهباً ولكنه يقبل بان يساعده في الثورة بغير ان يخرج من ديره.

وكان عدد الارمن في مصر عظيما ونفوذهم متزايدا من زمن الوزير بدر الجمالي فلما مات بطريركهم طلبوا من البطريرك غبريال ان يرسم لهم اسقف اطفيح الارمني بطريركا وان يرسم تاج الدولة اسقفا بدلا منه وكان البطريرك غبريال عاقلاً بصيرا بعواقب الامور فخشي معارضة الكنيسة الارمنية له واعتبارها ذلك تطفلا منه فابى ولكنه لما رأى الارمن مصرين وقد رغبوا الى بعض الاساقفة ان يجيبوهم الى طلبهم عاد الى الرضى واجابهم الى ماطلبوا وكان جميع الذين تقدموه يتعذرون عن قبول التقادم والرسوم لدى رسامة اساقفة أو بطاركة ثم يعودون فيقبلونها اما هو فابى القبول قطعيا ولم يأخذ من الثلاثة والخمسين اسقفا الذين رسمهم في عهده القصير الذي لا يزيد عن ستة عشر سنة مليما واحدا

وفي ذلك الوقت أتى اليه وفد من قبل امبراطور الحبشة يحمل خطابين مهمين أحدهما اليه والآخر الى الخليفة يعترض فيهما امبراطور الحبشة على القانون الكنائسي القاضي بقصر عدد أساقفة الحبشة الموجودين

تحت رئاسة مطرانها على سبعة فقط ويطلب التجاوز عن هذا القانون والسماح بالمزيد. وقد كان قانون الكنيسة القبطية يحظر زيادة الاساقفة في الحبشة عن هذا العدد خيفة من ان تستقل الكنيسة الحبشية عن أمها الكنيسة المرقسية لانه اذا بلغ عدد الاساقفة اثنى عشر فانه يجوز لهم ان ينتخبوا منهم بطريركا وربما كان غرض امبراطور الحبشة بذلك الاعتراض الوصول الى هذه الامنية. وقد كان الاسقف الحبشي الذي يرشح لدرجة المطرانية يسافر الى مصر ليرسمه البطريرك نفسه اما الآن فطران الحبشة يجب ان يكون من الاساقفة المصريين ويرسمه البطريرك ويرسله الى هناك

والغالب ان هذا الخوف كان في غير محله لان علاقة الممالك المسيحية ببعضها كانت مبنية على أسس المحبة والاخلاص فرأى امبراطور الحبشة ان سعة بلاده لا تخول الاساقفة السبعة الوقت الكافي للاشراف على حاجات الامة الدينية فرجا البطريرك ان يكف عن تحديد العدد. وأرسل الخليفة بناء على الحاح امبراطور الحبشة الى البطريرك يطلب منه التساهل مع الامبراطور في مطالبه فابى البطريرك قبول ذلك الطلب واعتذر الى الخليفة مبيناً له ان قبوله بذلك يؤول الى فتور العلائق وخروج البلاد من تحت سلطته. فاقتنع الخليفة بذلك ومهما يكن البطريرك غبريال مصيباً فلا مشاحة في انه أضر بالحبشة ومنع تقدمها وصلاحها.

وبعد ذلك سن البطريرك غبريال قانوناً يحتوي على ثلاثين مادة

واضافه على قوانين الكنيسة المرعية يحرم في احداها على الاكليروس حضور الالعاب والمراقص ونحوها وفي غيرها منعهم عن الرقص والخلاعة في ايام الاعراس وتأجيل الاحتفال بالاكليل الى المساء ومنع في مادة اخرى الصلوة على الموتى في ايام الاحاد وممارسة سر المعمودية في خلال الصلوة في الكنيسة وألغى عادة دفن الموتى في الكنائس وحتم على الكهنة في المادة الرابعة والعشرين منه بعدم السماح لغير زوجاتهم وامهاتهم وعماتهم وخالاتهم وجداتهم بالسكنى في منازلهم ولم يذكر بناتهم لانهن داخلات ضمن الدائرة الاكثر قربى

وتوفى البطريرك غبريال سنة ١١٤٦ مسيحية وانتخبوا له خلفا راهبا معروفا بشدة التقوى والنسك وكان اميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة سواء بالقبطية او العربية غير انه كان يحفظ القداس عن ظهر قلبه فلم يمنع ذلك من انتخابه لشدة لياقته لذلك المنصب الخطير فرسموه في كنيسة بابليون باحتفال عظيم غير انه لم يطل زمنه فتوفى مسموما . قيل ان الذي اقدم على سمه واحد من الرهبان اتباعه ممن لم يحتمل صرامة تأديبه ورسم الاساقفة بدلا منه واحداً من الاثنين اللذين كانا مرشحين للانتخاب عند انتخابه.

وفي سنة ١١٤٨ مسيحية نشبت حرب صليبية اخرى انزعجت لهولها نفوس الناس وتهددت مصر ايضا وبيان ذلك ان الكونت روجير الثاني ملك سيسليا وقائد النورمانديين وصل بجيوشه براً الى حدود مصر شمالا وهدد الاسكندرية فجاءة غير انه رحل عنها بجيوشه لسبب غير معلوم

وفي ذلك الوقت ظهر رضوان مرة أخرى يعثو في البلاد ويشن الغارة على السكان وجعل نفسه حاكماً على الاربع مدن. اما الخليفة الحافظ فاختفى في قصره ولم يبدِ مقاومة. ولكن رضوان لم يلبث هذه المرة سالماً من الاذى طويلا اذ قام عليه احد اعوانه وقتلهُ وبعد ذلك بقليل توفي الحافظ من ثمانين سنة تاركاً اربعة اولاد ارشدهم المدعو اسماعيل بن منصور الظافر لامر الله المعروف بالظافر

الفصل الحادي والخمسون

انشقاق مرقس بن قنبر

سنة ١١٤٩ ميلادية و ٨٦٥ للشهداء و٥٤٤ للهجرة

جلس اسماعيل ابو منصور الملقب بالظافر على عرش الخلافة الفاطمية وكان عمره وقتئذ ثمانية عشر سنة فقط وكان كثير الميل الى دواعي اللهو والترف والالتهاء بالجواري وصرف حياته في هذا العمل غير مراع شؤون مملكته ولا ناظراً الى الدسائس التي تحدث في بلاطه غير حاسب لها حساباً مع علمه انها تؤول الى خراب مملكته وبتقدم جيوش الصليبيين عليه ولم يبد حراكا كانه شاعر بقرب انحلال دولته . وكانت شؤون الحكومة المصرية موكولة لوزيره المدعو عباس الذي نال الوزارة بعد جهد شديد اذ فاز بقتل خصمه وصار صاحب القدح المعلى في الحكومة

المصرية وكان يمكن للظافر ان يعيش عمراً طويلاً ولو بلا عمل يذكر
في مملكته ويتمتع بملاذه الدنيوية مثل المستنصر لما كان يسعى وراء الملاذ
العالية التي حطت من مقامه الا انه لم يرق له ذلك بل سعى الى حتفه
بظلفه لعدم امتناعه عن العبث بشرف عائلة وزيره عباس الباطش . وكان
مهملاً فلم يحتفظ على نفسه وغرق في شهواته واهوائه فافضى ذلك الى
قتله وذلك انه بعد جلوسه باربعة سنوات اي سنة ٥٤٩ هجرية شق على
وزيره العباس ذلك السلوك السيء سيما ماشاع يومئذ على السنة الناس
من انثلام عرضه كما ألمعنا فاراد العباس ان يتخلص منه فدعاه الى وليمة في
داره واشار الى ابنه بقتله فقتله سراً وكان ذلك في شهر محرم سنة ٥٤٩
هجرية ولكي يخفي حيلته اتى الى قصر الخليفة وطلب مقابلته زاعماً
انه لم يعرف عن امره شيئاً فبحثوا عنه فلم يجدوه فسألوا عنه الحريم
فقلن انه لم يبت عندهن تلك الليلة فتحققوا مقتله ولكي يثبت العباس
حيلته وينفي التهمة عنه وعن ابنه اخرج يوسف وجبريل اخوي الظافر
واتهمهما بقتل اخيهما امير المؤمنين فاكبرا ذلك وانكراه وكانا طبعاً
صادقين في هذا الانكار فقتلهما في الحال على هذه التهمة . اما ابن الظافر
فكان طفلاً صغيراً اسمه عيسى لا يزيد عمره عن خمسة سنوات وهذا لما
شاهد مقتل عميه ورأى جثتيهما تتخبط بالدماء على الارض فزع من ذلك
المنظر واضطرب اضطراباً شديداً حتى صار كالمعتوه وبال على كتف العباس
الذي حمله وقتئذ وسار به في وسط الامراء ونادى قائلاً هذا ابن مولاكم

المقتول فاطيعوه فقبلوا طاعته وبويع خليفة في الحال وسموه الفائز الناصر
بالله وردوه الى حضن امه مصروعاً مختلجاً

فانفرد بعد ذلك العباس بالتصرف في كل شيء لكنه شعر بشططه
لانه علم ان اهل القصر علموا بمكيدته وصاروا يدبرون له الحيلة في قتله
مع ابنه وبعد ان اهاجوا الجيش عليه وخصوصاً الفرق السودانية كاتبوا
بذلك طايع بن رزيك الارمني الملقب بالصالح وكان وقتئذ حاكم المنيا
(منية خصيب) واستقدموه الى كرسي الخلافة وولوه الوزارة بدل
العباس الذي لما رأى الخطر محدقاً به خرج لساعته من القاهرة مع ابنه
نصر وحمل ما امكنه حمله من المال وفر هارباً مع جماعة يسيرة من اتباعه
الى الشام وذلك في ١٤ ربيع اول سنة ٥٤٩ هـ . فكتبت اخت الظاهر وراءه
للافرنج بعسقلان ليخرجوا عليه ويمسكوه وجعلت لهم مالاً جزيلاً نظير
ذلك . فخرجوا عليه واخذوا ماله وولده وقتلوه بعد انهزامه مع اصحابه
امامهم ثم ارسلوا ابنه نصر لاخت الظاهر بمصر داخل قفص حديد مع
رسل فسلموه لرجالها واستلموا المال الذي وعدتهم به مكافأة لهم
على قتل العباس . ثم أخذ رجال اخت الظاهر نصراً وجلدوه بالسياط
وحرقوه . وصلبوه على باب زويلة وانزلوه بعد موته يوم عاشوراً سنة ٥٥١

اما الصالح فبعد ان قدم بجيوشه الى القاهرة تكفل بالخليفة الطفل
وشؤون المملكة بدل العباس ولكن طمعه لم يقف عند حد محدود حتى
لما رقي الى درجة الوزير الاكبر تاقت نفسه الى العلى فلقب نفسه الملك

الصالح . ولكن لم يقم بما يبرهن تعزيز دعواه لان الدلتا الشرقية كانت في ذلك الوقت مهددة بالغزو يغير عليها فيألق الافرنج الذين بعسقلان وغزة ولم يكن يجسر ان يحاربهم اوان يقف في وجوههم لما فيه من الجبن ولذلك اشترى راحته بدفع جزية لملكهم ببيت المقدس .

وضايق الاقباط مضايقة شديدة واوقع عليهم ضرراً بالغاً كان تأثيره عليهم اشد وقعاً من الاضطهاد الحقيقي السابق فارتعدت فرائصهم وحل بهم الوجل والاضطراب

وبيان ذلك ان مدينة المطرية كانت تعتبر لدى الاقباط مقدسة نظرا لزيارة العذراء المباركة والسيد المسيح لها كما ورد في الانجيل ولا يزال كثيرون من انحاء العالم يترددون على زيارة هذا الاثر الشريف وجلهم من البلاد الغربية وفيهم كثيرون من انكلترا هذا فضلا عما اشتهرت به من البساتين الجميلة والحدائق الخضراء والرياض الغناء والينابيع الدافقة والروائح الزكية كل ذلك مما بعث على اشتهار صيتها كانما هي خصت ببركة السيد المسيح وكانت المطرية اشبه ببابليون من حيث سكنى الاقباط بها وبناء كنائسهم فيها .

وفي تلك الايام اغتصب الملك الصالح احدى تلك الكنائس وحولها جامعا

وفي تلك الاثناء كانت الكنيسة القبطية تقيم الصلوات وتكثر من الاحتفالات الدينية فحدث ان رهبان بعض الاقاليم اضافوا على الصلوة التي تتلى على القربان المقدس لفظة معطي الحيوة فاعترض اسقف ارشية سمنود على هذه البدعة ورفع الامر الى غبطة البطريرك فامر هذا بعقد

مجمع من الاساقفة وبعد النظر في ذلك قرروا صوابية الاضافة وانفضت المشكلة على سلام الا انه حدث في جو الكنيسة مشكلة اخرى

وبيان ذلك انه قام بعضهم يومئذ واعترضوا على استعمال البخور في الكنائس الذي يقوم باحراق اللبان في المبخرة . ومن المعلوم ان البخور لم يكن يستعمل في الاجيال الثلاثة الاولى من العصر المسيحي وهو عادة وثنية الا ان المسيحيين صاروا يستعملونه في كنائسهم من بعد القرن الرابع بدعوى انه يطرد الروائح الكريهة الناجمة عن ازدحام جماهير المصلين ولم يكونوا يباركونه قبلاً ولا يعلقون عليه كبير اهمية ولكن من بداءة الجيل السادس صاروا يباركونه فيقول الكاهن عند ما يحمل المبخرة فليبارك الرب هذا اللبان لازالة كل رائحة كريهة وسامة وليبارك في وقوده لرائحته الزكية ومن ذلك الوقت صار يعتبر طقساً دينيا كانما هو وسيلة لاصعاد صلوات الشعب الى العرش الاعلى حتى اعتاد الكاهن ان يقول فلتكن صلواتي امامك كبخور لبان يارب

وكذلك الاعتراف السري امام الكاهن فانه عادة عامة في جميع الكنائس المسيحية الا انها سرت في الشرق قبل سريانها في الغرب ولم تكن فريضة الزامية الا في اواخر القرن الرابع . وذلك انهم رأوا ان اعتراف الانسان علناً يفضي الى فظائع هائلة . ولهذا نهى أنبا باسيليوس مطران اورشليم احدى النساء عن الاعتراف جهارا بخطية الزنى خوفا من ان يبلغ ذلك الى سامع زوجها فيقوم عليها ليقتلها ومن ذلك الحين اخذ المسيحيون يعترفون

سرا امام الكاهن وصار للكاهن ان يميز بين الخطايا الواجب الاعتراف بها علناً وتلك التي يجب ان يعترف بها سرا وبمرور الزمن صار الرؤساء الروحانيون يقيمون كاهنا لكل كنيسة كبرى يختص باقتبال الاعترافات وصار هذا ألامر فرعا دينيا من فروع التقاليد غير انه الغي من الكنائس الشرقية وبالجملة من الكنيسة المصرية في نهاية القرن الرابع . ولم يزل الاعتراف سرا امام الكاهن جاريا في الكنائس القبطية حتى يومنا هذا انما بغير قانون خاص به كما في الكنائس الغربية كما وانه لم يكن يتحتم وقوعه قبل تناول الاسرار المقدسة وذلك لانهم يعتقدون ان الانسان لا يدخل في مصاف الرجال ويناقش الحساب على الخطاء الامتى تزوج ولذلك كانوا يبادرون الى تزويج الاحداث ومتى تزوج الحدث لا يتناول السر المقدس قبل ان يعترف امام الكاهن سواء في منزله او في الكنيسة . اما قبل الزواج فانهم كانوا يعتقدون ان الفتى يكون قاصرا ويحرسه سر المعمودية من الوقوع في الخطية . وكان المعترفون بعد الاعتراف بخطاياهم العلنية التي لا يخشون الاباحة بها يركعون ويعترفون في سرهم بالخطايا السرية التي لا يقدرون على التصريح بها وفي اثناء ذلك يطلق البخور ويطوف الكاهن بالمبخرة حول كل الكنيسة والهيكل وبتكرار هذه العادة صار الناس يعتقدون ان البخور من لوازم الصلوة وانه يحمل اعتراف الخطاة الى امام عرش الله

وزاد الاعتقاد في البخور بهذا المقدار في القرن الثاني عشر للمسيح حتى ان العامة كانوا يستغنون عن الكاهن في اقتبال الاعتراف ويحرقون

اللبان في منازلهم ويجثو الواحد منهم لدى المبخرة ويتوسل توسلات شديدة معترفا بخطاياه بخشوع وتقوى وهو يزعم ان البخور يرفع توبته الى المولى ويستنزل رحمته تعالى عليه . وسبب ذلك ان الاعتراف لدى الكهنة تسبب عنه فضائح مشينة وكان الشعب ينظرون اليه بعين الريبة وخصوصا اذا بدا من النساء فجرت العادة ان يعتبر البخور حاملا للاعتراف ووسيلة الى جلب الغفران

فقام كاهن قبطي في عصر البطريرك يوحنا الخامس وقاوم هذه العادة مقاومة شديدة وكان يدعى مرقس بن قنبر (١) تمييزا له من رجل يدعي مرقص كان في زمانه بطريركا

وكان ابن قنبر كاهنا باقليم الصعيد رسمه اسقف دمياط وكان رجلاً فصيحا نبيلا يخطب في الشعب فيختلب الالباب بقوة البيان وفصاحة الخطاب وكان يحث الشعب على وجوب الاعتراف السري ونوال الحل من الكاهن وجاهر بان لا مقدرة للبخور على العتق من الخطايا

ولما كان الاعتراف لدى المبخرة جائزا بأمر بطريركي كان جهاد بن قنبر عبثا فضلا عن كونه مثيرا لسخط الاساقفة والعلماء فاعتصبوا عليه وطلبوا الى البطريرك ان يحرمه . فتمهل يوحنا الخامس في حرمه لانه لم يراه مخطئا وانما اوقع عليه تأديبا بصفته سيء الاخلاق . وبعد ذلك اتصل

(١) ترى ترجمة مرقص بن قنبر باسهاب لذيذ في تاريخ ابي صالح من صحيفة ٢٠ — ٤٣ وقد نقلنا عنه ملخص ترجمته

الى البطريرك ان بن قنبر قد هجر زوجته وانتظم في سلك الرهبنة لا لعلة الا لكونه طامعاً في الحصول على درجه الاسقفية فالبطريركية فلا تكون زوجته حجر عثرة في سبيل رقياه فلما علم البطريرك بذلك ايقن بصحة دعوى المشتكين عليه فحرمه وقطعه من الكنيسة ولكن بن قنبر لم يكترث بهذا الحرم بل عكف على الوعظ والتبشير فالتف حوله جمع كثير لدرجة خيف معها وقوع الشقاق بين الشعب . وقد قاوم عادة الختان التي كانت جارية يومئذ بين الاقباط بدعوى انها من بقايا تقاليد اليهود ومخالفة لتعليم ووصايا الرسل فصار لابن قنبر وقار عظيم لذى جميع اهالي الصعيد وذكر اسمه على كل شفة ولسان

ومات البطريرك يوحنا الخامس في تلك الظروف الحرجة وخلفه مرقص بن زرعه تمييزا له من مرقص بن قنبر فلما جلس على كرسي البطريركية كتب اليه اساقفة الصعيد بشأن مرقص بن قنبر الذي كان عاكفاً على عقد الاجتماعات وتحريض الشعب على وجوب التيقظ الديني ورفض الخرافات المصنعة فاستدعاه البطريرك ولامه على ذلك وابان له انه مخطيء في فهمه فتأثر من نصائحه وسجد له ووعده بالكف عن ذلك فحله البطريرك من الحرم واعاده الى وظيفة الكهنوت ولكنه لما رجع الى مركزه اجتمعت الناس عليه وابتهجوا برجوعه واظهروا تعضيدهم له فوقع بين نارين اما ان ينقاد الى مشورة البطريرك ويخسر التأثير الذي له او ان يثابر على عمله ويخالف البطريرك وبعد التأمل رجحت كفة الامر الثاني على الاول فشرع يبشر

كالعادة فاقبلت اليه الجماهير بالهدايا والتقادم من نقود ومحصول » وكفوا عن تقديم العشور للخدام القانونيين

فلما رأى البطريرك ما كان خاف من استفحال الفتنة فعقد مجمعا مؤلفا من ٦٠ اسقفا واقر على حرمه فحرمه وجرده من رتبة الكهنوت

فلما رأى ذلك مرقس بن قنبر نهج في المسألة نهجاً غريباً اسف على حصوله فيما بعد اسفاً لا مزيد عليه وهو انه رفع دعواه الى الحكومة الاسلامية وقال انه لم يعظ بشيء ينافي القوانين الكنائسية وطلب اعادة النظر في دعواه بحضور الحكام المسلمين فاظهر الحكام استعداداً للتداخل في ذلك الامر ولكن البطريرك واساقفته رفضوا تداخل الحكومة رفضاً باتاً بدعوى ان تلك المسألة دينية محضة وبعد ذلك رضى البطريرك بقبول تحكيم مخائيل بطريرك انطاكية «١»

فسعى مخائيل في فض الخلاف بالحسنى ولكنه لم يرض الطرفين لانه اشار بان يقلل البطريرك من اهمية الاعتراف السمعي وان يتنازل بن قنبر عن المبالغة والتهويل فادى ذلك الى فتور العلائق قليلاً بين بطريركية مصر وانطاكية اما ابن قنبر فانه لما رأى ان بطريرك انطاكيا لم يقم بتعضيده لم ينتظر الى ان يأتيه الحكم بالقطع من الكنيسة بل ذهب مع عدد غفير من اتباعه الى الكنيسة الملكية اليونانية وقد كانت فى ذلك الوقت منحطة ولم يكن لبطاركتها قوة نافذة فى مصر وكانوا يتركون رعيتهم القليلة العدد

(١) بطريركية انطاكية من القائلين بان للمسيح طبيعة واحده

ويقضون معظم العمر فى القسطنطينية والرعية غائصة في بحار الخرافات
والجهالة وعما قليل ندم بن قنبر على ما فعل وعاد يتوسل الى البطريرك
فقبله فى حضن الكنيسة وحله من الحرم الذي اوقعه عليه . وعرف بن
قنبر ان افعاله الاخيرة اضاعت نفوذه لان القبطي يشعر ان انحرافه عن الايمان
الارثذكسي وعدم اخلاصه لكنيسته ليس من الايمان . فآل ذلك الى اعتقاد
الاقباط فيه انه غير بطل فلم يصبر على تلك الاهانة الادبية خشية من حسن
السمعة والاحدوثة فرجع الى الكنيسة اليونانية وعاد الى العصيان ولكنه
لم يلبث طويلاً حتى تاب ورجع فلم يشأ البطريرك قبوله لانه خان الكنيسة
ثلاث مرات فوقع ذلك المسكين في ظلمة دامسة ويأس عظيم

وكل ذلك نظر عدم ثباته على مبداء واحد ولم نعلم عنه بعد ذلك
الموت الادبي شيئاً الا انه مات (١) بعد ذلك بسنين طويلة وكانت تلك
الاعوام حتى عام ١١٦٠ مسيحية (٥٥٥) هجرية ذات حوادث عظيمة
وكثيرة في مصر اضعفت شأن البلاد . وفي تلك السنة توفى الخليفة وعمره
احد عشر سنة ولم يحكم الا ست سنوات فقط واقام الوزير الملقب بالملك
الصالح عبد الله ابن يوسف بن الحافظ لدين الله خليفة وهو قاصر وبايعه

(١) المقول انه لم يمت الا بعد تولية البابا انوسنت أى (الذي بلا عيب) الثالث بابا على رومية وقرر ضرورة الاعتراف السماعي في الكنايس الغربية لدى الكاهن لا امام البخور وطابق في ذلك اعتقاد ابن قنبر وكان انتخاب هذا البابا سنة ١١٩٨ مسيحية ولكن ذلك المبدأ لم يعمل به بين الكنايس المصرية

بالخلافة ولقبه بالعاضد لدين الله وهو الوارث الثاني للخلافة وفي زمانه
ضعفت شوكة الدولة الفاطمية وكان هذا الخليفة العاضد لدين الله آخر من
سمي من الفاطميين ولما كان النفوذ جميعه بيد الوزير الصالح لقب نفسه
سلطان بابليون ولم يعد الصليبيون بعد يسمعون بلفظة خليفة من ذلك الحين

الفصل الثاني والخمسون

حريق بابليون

سنة ١١٦٠ مسيحية و ٨٧٦ للشهداء و سنة ٥٥٥ للهجرة

ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الا سنة واحدة وتوفى سنة ٥٥٥ هجرية
مقتولاً بمساعي أخت الخليفة السابق وبوفاته وقعت مصر في ارتباكات
عظيمة وهبطت الى مهاوي الضعف حتى كان رجال حكومتها ينقدون
الصليبيين مبالغ وافرة ترضية لهم حتى لا يغزوهم من جهة غزه او عسقلان .
وبويع ابن الفائز مكان ابيه لكنه لم يحكم الا زمناً قصيراً وكان وقتئذ اثنان
مرشحين للخلافة وهما الامير ضرغام الملقب بابي الاشبال وشاور وكان
هذان الرجلان في مقدمة الامراء الذين كان انشأهم الملك الصالح طلائع
ابن رزيك في وزارته وكان يدعوهم البيرقية . وما زال ضرغام يرقي الى ان
صار حاجباً . اما شاور فتولى الوزراه . فطمع فيه ضرغام واراد ان يسلبه
وظيفته فتحفز الاثنان بجنودهما للاقتتال . وبعد ان لبث شاور

في الوزارة تسعة اشهر ثار ضرغام في رمضان سنه ٥٥٨ ه وطرده من القاهرة بعد ان قتل بكره فهرب الى الشام والتجاء الى والي دمشق وكانت يومئذ تابعة للدولة التركية التي تأسست في القرن السابق وسلطانها هو اتابك نور الدين الذي غزا سوريا وكان عدو الصليبيين الالد فاستنجد شاور باتابك نور الدين المعروف بالخليفة العباسي في بغداد ليرد اليه وزارة مصر فاجابه الى طلبه وغزا مصر وقد كان في نيته ان يفعل ذلك قبل ان يدعوه اليه شاور. فاتفق نور الدين مع شاور على ارسال حمله عسكرية الى مصر تحت قيادة رجل مشهور يدعى اسد الدين شيركويه.

وكان شيركويه كردياً وبطلاً مقداماً من قبيلة الروادية وهي اشهر قبائل الاكراد وكان هو وأخوه نجم الدين ايوب مخلصين في خدمة الاتابك نور الدين وكان يثق بهما ثقة تامة. فدعاهما الى قيادة الحملة الى مصر. فلما تاهب شيركويه للسفر طلب منه ابن اخيه يوسف نجم الدين ايوب ان يسير معه الى مصر فابى والده نجم الدين شقيق شيركويه ان يسير مع عمه في تلك الاخطار نظراً لحداثة سنه ومنعه نور الدين ايضاً ولكن يوسف صمم على الرحيل في طلب العلى والمجد. ولعل القادير دعته الى هذا التصميم ليتم له ما كان مسطوراً في الغيب من الشهرة فان سلطته امتدت الى اقصى الممالك الاسلامية وصار البطل الضرغام الذي سارت بذكره الركبان في كل اين وآن وهو السلطان صلاح الدين الايوبي وكان مولده في قلعة اكريت سنة ٥٣٢ هجريه.

ولما آنس والده فيه اصراراً على الذهاب مع عمه صرح له وقام شيركويه بالجيوش ومعه ابن أخيه وشيعهما نور الدين بنفسه حتى حدود مصر بقصد ان يوهم الصليبيين الذين أمامه انه آت بجيوشه لمحاربتهم كي ينكمشوا من ذلك الوهم ولا يتحرشون بحملة شيركويه ويصل سالماً الى مصر

وقبل ان يقوم شاور الى مصر مع الحمله ويفارق نور الدين وعده ان يدفع له ثلث ايراد الحكومة المصرية مكافئة له على اعادته الى منصب الوزارة

اما ضرغام فاستقر في الوزارة بعد هروب شاور الى دمشق ولقبه الخليفه العادل لدين الله بالملك المنصور فشكره الناس في بادىء الامر لانه كان فارساً جميل الصورة لطيف المحاضرة الا انه كان سريع التهيج ينتقم لاقل سيئة من اصحابه حتى انه لما بلغه ان رفاقه البرقية يسعون الى خلعه وتولية الوزير شاور بدله جمعهم في دار الوزارة وقتلهم ليلاً بالسيف عن اخرهم وكانوا نحو سبعين اميراً عدا الذين يلوذون بهم فضعفت البلاد بموت ذوي الرأي من اكابرها فمقته المصريون سيما بعد حملته على الافرنج وذلك ان ارموري او امالريك ملك الصليبيين في اورشليم طلب من ضرغام المتأخر من الجعل الذي تعهد المصريون بدفعه لقاء الهدنة من زمن السلطان الصالح طلائع وهو عبارة عن ٣٣ الف دينار تدفع سنوياً للبلدوين ملك الصليبيين باوروشليم. فلما تأخر ضرغام عن دفع تلك الجزيه قام

الافرنج على مصر بجيش جرار ليفتتحوها فارسل اليهم ضرغام اخاه هماماً
بقوة عسكرية الى الحدود فحاربهم فغلبوه وتبعوه الى قاعة بلبيس فبادر
همام الى قطع جسر النهر ففاضت المياه على الارض وغمرت جانباً عظيماً
منها فصارت حاجزاً بينه وبين الاعداء

وبعد هذه الموقعة قدم اسد الدين شركويه من الشام برجاله البواسل
فلما رأى الافرنج ما كان خافوا وعادوا من حيث اتوا اما ضرغام فلما علم
بقدوم شاور وعرف انه سيقع بين نارين نار الافرنج ونار سلطانه دمشق
أرسل الى أموري ملك الافرنج باورشليم ووعده بمضاعفة مقدار الجزية
اذا هو اعانه على سلطان دمشق. وقبل الوصول الى نتيجة فاجأه شيركويه
وشاور بجندهما على مقربة من قليوب يوم الخميس ٦ جماد آخر سنة ٥٥٩هـ

فلما رأى ضرغام ان لاقوة له على دفع ذلك الجيش العرمرم هرب
الى القاهرة وحشد طائفتي الريحانية والجيوشية واستعد للقاء شاور الذي
بعد ان أقام بضعة أيام بجيشه في قليوب سار الى القاهرة وعسكر بجي
الازبكية فخرج عليه ضرغام بكل قوته فهزمه شاور شر هزيمة وسار الى
مصر القديمة . ومال المصريون الى شاور كما هي عادتهم في مثل هذه
الاحوال فنصروه وخصوصاً بعد ماراوا من ضرغام جوراً زائد المقدار
اذ كان يعبث بالحقوق ويستحيل مال الايتام. واستمر شاور في مطاردته
والفتك برجاله فلما رأت رجال ضرغام ان لاقبل لهم بالوقوف امام تلك
القوات أغاروا على شاور فانحلت عصبيته سيما بعد ان أمر العاضد المحاربين

بالكف عن القتال . فصار درغام يدق الطبول وينفخ في الابواق من
فوق الاسوار فلم يخرج اليه أحد . فوقف على باب الذهب من أبواب
القصر ومعه ٥٠٠ فارس وتوسل الى الخليفة حتى يشرف عليه فلم يجبه
أحد وظل كذلك حتى العصر وتفرقت عنه الناس ولم يبق معه سوى ٣٠
فارساً وأخيرا ورد اليه مكتوب يقول كاتبه فيه انج بنفسك. ومن ثم
دخل جيش شاور الى القصر فهرب ضرغام الى باب زويله فادركه الناس
ورجلوه عن فرسه بين القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة نفيسه
وقطعوا رأسه وكان ذلك يوم ٣٠ جماد الثاني من تلك السنة. وهرب أخوه
الى المطرية فقتلوه وقتلوا أخاه الثاني عند بركة الفيل وبقي ضرغام ملقي
على الارض يومين وبعد ذلك حملوه ودفنوه في القرافة .

وانحازت جميع الناس الى شاور فرأى انه ملك البلاد والنفس بالطبع
امارة بالسوء فجمحت نفسه الى المعالي فنكث عهده مع سلطان دمشق وابى
دفع تلك الجزية الراتبة وهي ثلث ايراد الحكومة المصرية وامر شيركويه
بالخروج برجاله من بلاد مصر حالا فاستأ شيركويه من ذلك وابى القيام
بجنده وظل معسكراً امام القاهرة جملة ايام وبعد ذلك قام حتى وصل
الى بلبيس من اعمال الشرقية وعسكر فيها فانتشرت جنوده كالجراد في
طول البلاد وعرضها ترتكب الفظائع والقسوة لافرق في ذلك بين
مسلمين ومسيحيين نكاية في شاور الذي اعلم شيركويه انه ساع في عقد
معاهدة مع الصليبين لاخراجه بالقوة من مصر حتى يستقل بالسلطان

ويستغنى عن جيوش السلطان نور الدين الذي كان سبباً في رجوعه الى تلك النعمة .

وظلت جنود شيركويه تسوم الاقباط عذاباً حتى ترك بعضهم دينه واعتنق الاسلام واضاع المسلمون وطنيتهم وسعوا في استرضاء الاتراك بدلاً من ان يتحدوا مع الاقباط ويقاوموهم . ولم تقم النخوة في صدور رجال الفريقين من مسلمين وأقباط للمحاماة عن اعراضهم ومقتنياتهم والمدافعة عن نسائهم وبناتهم اللاتي كن يبعن بيع الجواري في جيوش شيركويه الا انه لما ازداد الضغط على الاقباط قاموا قومة كرجل واحد في بعض الايام لدفع الظالمين فاقتتل الفريقان واستشهد من الاقباط كثيرون في ذلك الحين

اما شاور فارسل الى اموري ملك الصليبيين يستنجده في اخراج شيركويه وجيوشه من مصر . فاجاب اموري الطلب فعاد الى مصر بعد ان كان قد رحل بجيوشه الى سوريا وحاصر بلبس التي كان يعسكر فيها شيركويه بجنده . وبعد حصار شهرين . اتفق قيام السلطان نور الدين نفسه بجيش جرار الى مصر لنجدة شيركويه فلما علم الصليبيون بذلك خافوا وطلبوا الى شيركويه ان يخلي بلبس ويسترجع اسراه ويعود الى سوريا .

ولما كان شيركويه غير عالم بقدوم السلطان نور الدين قبل هذه الشروط ورضي من الغنيمة بالاياب . وعاد الى سوريا فالتقى بنور الدين

يحارب الصليبيين وهو قادم الى نجدته فانضم اليه ونصره عليهم غير ان انتصاره على الصليبيين لم يقلل من اشتياقه الى افتتاح مصر وكان لايفتأ يحث نور الدين على المبادرة بذلك نظراً لما رآه من خصوبة ارضها ووافر ثروتها فطمحت نفسه الى امتلاكها والتمتع بخيراتها وكان اشتياق شيركويه الى فتح مصر لا يقل عن شوق الاتابك نور الدين الذي كان يريد من ارسال شيركويه بجنده اليها ان يفتتحها لسببين الاول — لينجد شاور الذي استغاث به ويعيده الى الوزراة والثاني — المعرفة باحوال مصر نظراً لما بلغه عن ضعف جنديتها وارتباكها وكان قد اتفق مع شاور سراً ان يسلمه مصر فيعطيه ثلث ايرادها

ولم يكن الصليبيون اقل معرفة بما لمصر من الخصب والجمال من شيركوية وسلطانه فبذلوا المجهود في افتتاحها . وقطعوا الطريق على جيوش نور الدين السائرة الى مصر . فلم يبال نور الدين بذلك وقطع سوريا وبلغ حدود مصر ودخلها في ربيع اول سنة ٥٦٢ هجرية . قبل ان يظفر به الصليبيون ويقطعوا عليه الطريق فعادوا الى غزه فالعريش فبلبيس ولما اتوا الى بلبيس كان نور الدين وشيركويه قدبارحاها وعسكرا بقرب القاهرة فلما علم شار بذلك خاف خوفاً شديدا وعلم انه ان لم يسارع الى ملافاة الخطب تقع مصر في يد الاتابكة وبعد ذلك علم ايضاً بقدوم جيش نور الدين ومجيء جيوش الصليبيين وراءها في سنة ١١٠٦ مسيحية وليس للفريقين مطمع الا في الاستيلاء على بلاده . ففضل محالفة الصليبيين على

الانحياز الى الاتراك ولو كانوا من ابناء جنسه فسلم اليهم القاهرة واتحد معهم على قتال شيركويه وكان شيركويه معسكراً على بعد اثنى عشر ميلاً من القاهرة فرأى انه لايستطع بعد عبور صحراء المقطم ان يهجم على تلك المدينة الحصينة فقطع النيل وعسكر على الضفة الغربية . فلما دخل الصليبيون الى القاهرة لم يوافقوا شاور على ما اراد الا بعد ان تعهد لهم بزيادة الجزية السنوية وعقد الطرفان معاهدة بذلك بواسطة مندوبين من كلا القومين فدفع لهم شاور ٢٠٠٠٠٠ دينار وتعهد ان يدفع مثل هذا المقدار بعد مدة يسيره

الا ان ذلك لم يقنع الصليبيين لانهم عرفوا ان شاور سريع التقلب وربما لايلبث ان ينتقض عليهم خصوصاً وانهم علموا بما صار منه مع السلطان نور الدين وكيف انه نكث وعده ولم يدفع له ثلث ايراد مصر في نظير نصره اياه على ضرغام وتوطيد قدمه فلم يرضوا ان يقبلوا شروطه الا بحضرة الخليفة نفسه فاجتهد شاور ان يقنعهم باستحالة ذلك بالنظر لعظم مركز الخليفة وانه لايجوز في شرع المسلمين ان يمثل أحد بين يدي امير المؤمنين الا المؤمنين بالله ورسوله وبما ان الافرنج مسيحيون فلا يجوز لهم الوقوف أمام خليفة النبي صلعم .

ولكنهم لم يقتنعوا بتلك الخدع وابوا الا ان يكون ما طلبوا فرضي شاور بذلك وانتدب الافرنج الذين اعتمدوهم لمقابلة الخليفة منهم هوغ صاحب قيصرية وجوفري فيلكس ووليم بنز وغيرهم من اشراف

الصليبيين واجتهد شاور في تنظيم الحرس وزخرفة السراي التي يقيم فيها الخليفه ليوهم الصليبيين حتى يخشوا من عظمته وصف الجنود السودانية عن الجانبين ورتب الذخائر والنفائس والجواهر والاسلحة في الدهاليز بصورة مدهشة حتى صار الافرنج من مشاهدة تلك الحجارة الكريمة والاواني الزجاجيه وانواع الوشي والتطريز والكلل المزركشة والستائر البديعة المرفوعة على باب الحجرة التي يجلس فيها الخليفة . فلما بلغوها ورفعت الاستار سجد ثلاثاً يشاور وقبل الارض ثلاثاً والقى سيفه ودخل الى الخليفه والقى سيفه ودخل الى الخليفة واستأذنه بدخول مندوبي الافرنج فسمح لهم بالدخول بعد ان اعطاهم شاور التعليمات عند كيفية مقابلته . فقابلوه ورضي الطرفان بتلك الشروط . ولكنه لم يكتف الافرنج بذلك بل طلبوا ان يعاهدهم الخليفه على ذلك بمصافحتهم باليد علامة على الرضى فاعلمهم رجال البلاط ان ذلك لا يمكن نظراً لان يد الخليفة اطهر من ان يمسها غير المؤمنين فاصر الافرنج على الطلب فصافحهم الخليفه علامة على الرضى والاتفاق فاقتنعوا بذلك وذهبوا الى حال سبيلهم وفي اثناء ذلك تقدم شيركويه ليلاً وعسكر في الجيزه امام مصر القاهره . فاراد اموري ملك الصليبيين ان يصنع جسرا من القوارب ويعبر بجنوده عليه ويهاجمه فكانوا كلما ابتدوا في بنا الجسر يشغلهم شيركويه عن اتمامه فبقي الجيشان على هذه الحالة نحواً من خمسين يوما تمكن فيها شيركويه من الاستيلاء على ضفة النيل الغربية وارتحل بجيشه نحو مصر العليا فسلمه

اياها اهليها بغير معارضه وتبعه الصليبيون بعد ما تركوا حاميات في جميع حصون القاهرة حتى سراي الخليفه . ولما ادرك الصليبيون والمصريون شيركويه التحم الفريقان في معركة عند مضيق يدعى البابين واقتتلا يوما كاملاً فانتصر شيركويه وطاردهم فعادوا عنه الى القاهره وكر بجيوشه وراءهم بعد ان ترك حامية في مصر العليا وسار لاخضاع مصر السفلى وفتح الاسكندريه واقام عليها اخيه يوسف صلاح الدين . ولما سمع الصليبيون في سوريا ان اموري فتح القاهرة وصار على جانب عظيم من القوة جاؤوا اليه يطلبون ان يقاسمهم في خيرات مصر

ولما رأى شيركويه تكاثر عدد العدو عليه وانه لم يعد في طاقته مقاومتهم بما بقي لهم من الرجال سيما بعد ان قطع الصليبيون عنه سبل المدد من سوريا اتحد مع شاور والصليبيين وتعهد ان يخلي مدينة الاسكندرية لشاور على شرط ان تنسحب جنود الصليبيين والسوريين الى سوريا وان تبقى مصر لشاور وحده فقبل الفريقان بهذه المعاهدة ورحل شيركويه وابن اخيه الى دمشق . اما الصليبيون فابوا مبارحة القاهره الا اذ تعهد لهم شاور بدفع مائة الف دينار (عبارة عن ستين الف جنيه انكليزى) في نظر خروجهم منها بذلك فترك الصليبيون قوما منهم في القاهرة الى ان يقوم شاور بدفع المبلغ وخرجوا وشاور غير مصدق من شدة الفرح ولما انسحب اموري الى سوريا وجد اخوانه الصليبيين حانقين عليه انه اضاع الجزيه الكبرى التي كان يلزم ان يتقاضاها من مصر ومع انه لا يزال باب الامل مفتوحا للعودة الى فتحها

اذا تأخرت الجزية لكن ذلك لم ينقذه من الندم وتوبيخ نفسه على ما فعل اذ اخلص للذين عاهدوه غير مخلصين وصمم على العوده لفتح مصر

واتفق ان حامية الصليبيين في القاهرة اخذت تحاول الاستيلا على مصر غير مبالية بتلك المعاهدة فكتبوا الى ملكهم اموري ان يمدهم بجيش لاستلام امور مصر سرا قبل ان يعلم بذلك نور الدين ويرسل جنوده السورية لما كسته فما . عتم ان وصل ذلك الكتاب اليه وجاء مطابقا لما يضمره حتى اسرع وجند جيوشه وكر راجعا الى مصر بغتة فوصل بلبيس بعد عشرة ايام وحاصرها ثلاثة ايام . ثم دخلها برجاله فامنعوا فيها سلباً ونهباً وقتلوا كل سكانها ما عدا الذين استحيوهم ليسترقوهم وكان اموري يريد بذلك القاء الرعب في قلوب مسلمي القاهرة . وزحف اموري بقوة بأس الى القاهرة فوصلها في خلال يومين ولم يبال بتعب الجنود وروي بعض المؤرخين ان جنوده تألمت من مشهد سبي بلبيس فلم يمكنهم متابعة المسير قبل ان يستريحوا وتزول من مخيلتهم صورة ذلك النظر الفظيع وقال بعضهم ان اموري لم يكن ينوي فتح مصر بل يقصد تقرير ضريبة على شاور اكبر من التي فرضها عليه فمهد بذلك السبيل الى فتح باب المخابرات مع شاور فتحير شاور واخيراً كتب الى نور الدين يستنجده فاراد نور الدين ان يذهب بنفسه لكنه خاف ان يغتال احد الاعداء بلاده فارسل اليه نجدة تحت قيادة شيركويه

اما اهالي القاهرة فلما سمعوا بما فعل الصليبيون باهالي بلبيس بد

حصارها (١) ثلاثة ايام اقسموا ان يدافعوا عن بلادهم حتى اخر نسمه من حياتهم

وكيفما كان الحال فان تأخير شاور في دفع الجزية الاولى في الحال اضر بالاقباط ضرراً لا يوصف فانهم كانوا دائماً اول من يقع عليه الارزاء واخر من يتألم من نتايج سياسة حكام الاسلام الخرقاء الذين حكموا مصر زمناً طويلاً .

وكانت مصر ذات اربعة اركان بالنظر للتدابير الحربية فصارت ركنين فقط . من الشمال للقاهرة او مصر القديمة . ومن الجنوب لبابليون والفسطاط وبين هاتين النقطتين البيوت الجميلة والحدائق الغنا . وكان نصف سكان القسم الشمالي اقباط ونصفهم مسلمون . اما قسم العاصمة الثاني وهو الجنوبي اي الفسطاط وبابليون فكان كل ساكنيه اقباطاً . وكانت حامية الصليبيين التي تركها اموري قبل خروجه من مصر تحتل القاهرة

وتراءى لشاور ان ديانة الاقباط والصليبيين واحدة لا تختلف عنها

(١) اتفق اكثر من واحد من مؤرخي اوربا ان مدينة بلوز يوم هي التي نهبها اموري في هذه الغزوة ليست بلبيس مع ان المورخين المصريين يذكرون صريحاً أن مدينة بلبيس بلده صغيرة لم تكن معروفة كثيرا عند كتاب الغرب مثل بايلتون فلذلك ظنوا ان ذكرها جاء خطاء والواقع انها كانت في ذلك الحين من ضمن حصون مصر العظيمة وعلى كل حال فالمدينتان كبيرتان فبلوز يوم قائمة في طريق القادمين من سوريا الى الاسكندرية و بلبيس في طريق القادمين الى القاهرة

كثيرا في الاصل والمبدأ فتخوف من ذلك كثيراً وحسب لذلك حساباً كبيرا فتوهم ان المسيحيين احتاطوا به من كل صوب اقباط كانوا ام افرنج وتصور انه لا بد ان يأتي يوم يقوم فيه المسيحيون فيستأصلون المسلمين ويخرجونهم من املاكهم في مصر في حين انه يخلص لاموري ويقوم له بدفع الجزية فلما تمكن منه هذا الوهم دعا مسلمي مصر الى القيام بحرب دينية عامة ضد المسيحيين كلهم واشعل النار في بابليون حتى لا يعسكر فيها الصليبيون وقطع النيل حتى يمنع ورود المدد على الاعداء ومرت ايام وليالي والدخان يتصاعد من تلك المدينة العظيمة الى السما (١)

(١) حاول بعض المورخين اثبات حصول الحريق في ضواحي القاهرة ولكن مما لاشك فيه ان مدينة بابليون وجزء عظيم من الفسطاط مع الصحراء التي بين هذه والقاهرة حرقت وذهبت في ذلك الحريق اشهر كنائس الاقباط في ذلك العصر وهي دير ابو سيفين القائم في ذلك العهد على شاطي النيل بين الفسطاط وبابليون وقد اعيدت الكنيسة والدير في مكانهما الاصلي على شاطي النيل غير ان النيل تحول عن مجراه الطبيعي الى الخلف قليلاً والطريق الذي تهدمت فيه اسوار الدير القديم تجري عليها الان سكة حديد حلوان . ولما كانت الاسوار قديمة العهد وقوية البنيان ولم تاكل النار الا جزءا منها فتري اثارها باقية الى الان نحو الشمال الغربي من جامع عمرو القريب منها جداً ولم نسمع كما ولم يذكر التاريخ ان جامع عمرو اصيب في ذلك الحريق كما ولا كنيستي العذرا وانبا شنوده القائمتين داخل سور ابي سيفين وعند كنيسة القديس مقاريوس الحاليه يدل على انها كنيسة العذراء وليس كنيسة القديس المذكور المعروفه بابي سيفين وحرقت في بابليون

وخرب جزء عظيم من الفسطاط خراباً تاماً واستمر اللهيب يأكل في المدينة اربعة وخمسين يوماً بدون انقطاع . ولم يستطع احد أن يحصي عدد الذين هلكوا في النار ولا ان يخبر عما حل بالمسيحيين الهاربين الذين يظن انهم عبروا النهر الى بلاد الجيزة . (١) وامتدت النار الى مسافات مترامية حتى كان لهيبها المرعب يفزع الناظرين اليها من الاقباط المساكين . وبعد ان فنيت الامتعة والموجودات انطفأت ولم تترك الا اثارا بالية واطلالا خاوية وتلالا تعلوها الاتربة ولم يظهر منها غير بعض قباب الكنائس والمنازل التي كانت قائمة داخل الاسوار الصلبة الباقية من حصن الرومانيين المتهدم

وكان ذلك المنظر يومئذ تتفتت له الاكباد حسرة على شقاء البلاد التي انتابها الشقاء والدمار وحل بها الخراب والبوار . والمنقب في اطلالها قليلا يجد كثيرا من النقود والسبح والعقود والحبوب والشقافة ونحو ذلك . ولم يكن في وسع الاقباط وقتئذ ان يعود الى بناء كنائسهم الا في مكان او اثنين من مما التقطوه من الحجارة المتفرقة والفسيفساء الجميلة التي كانت لم تزل باقية في مواضعها يحرسها الكهنة الذين لم يهربوا من النار . ووجدوا ايضا ستة كنائس باقية داخل حصن الرومانيين لم تصب بضرر ففرح بها الاقباط فرحاً عظيما وتعزوا بها عما اصابهم من الخسائر

ولا تزال مدينة بابليون تذكر الى الآن باسم الكنيسة الموجودة في

(١) من ضمن الذين هربوا من هذا الحريق بطريرك الارمن اذ قد هرب اسلى وريا والتجأ الى كنيسة باروشليم كما يقول ابو صالح المؤرخ

مصر القديمة التي تدعى كنيسة بابليون

وهي الآن كنيسة حقيرة سورها من الطوب المتهشم وهو مما يدعو الى الاسف والتحسر على زوال ذلك المجد الباذخ العظيم

الفصل الثالث والخمسون

الفتح الكردي

سنة ١١٦٨ مسيحية ٨٨٤ للشهداء و٥٦٤ هجرية

ولم يهدأ شاور عن اعماله وتدابيره اثناء حريق الفسطاط بل كان مستمرا في مشاغلة الصليبيين بواسطة مخابرته مع اموري قائد جيوشهم وازداد نشاطاً في ذلك لما جاءته الانباء بعودة شيركوية بجيشه الجرار الى مصر فحاول الاتحاد مع اموري واقناعه بان وجودهم بهذه الصفة في مصر لا تامن منه قدوم نور الدين ايضا بجيشه بقيادة شيركويه فلم تدخل هذه التدابير في ذهن الملك اموري ففرض عليه شاور مبلغا وافرا من النقود مقابل انسحابه الى سوريا . ولما كان اموري معروفا بالطمع وحب المال قبل منه ذلك تحت شرط ان يجعل قيمة الجزية المتفق عليها من ماية الف دينار الى مليون دينار فقبل شاور بذلك رغم ارادته ولكن فضلا عن قبول شاور بتلك الجزية الفادحة فان اموري رفض الانسحاب قبل ان يدفع له شاور على الاقل مبلغ الماية الف دينار فورا وباقي المليون يدفعه له على اجل

مسمى فدفع له شاور ما اراد فانسحب بجيشه الى سوريا محبة للمال. فاستاء رجال جيشه من ذلك الانسحاب ونقموا عليه لعدم دخولهم القاهرة التي كان الصليبيون يعتقدون باهميتها ويحلمون بغزوها ونهب ما فيها من الكنوز والغنائم ولكن لا عجب فان التاريخ ملآن بامثال اموري الذين يبيعون تعب الجنود وفخر النصر والفتح بمبالغ مالية قليلة الاهمية

ولما سار اموري قائد الصليبيين قاصدا سوريا بجنده التقى عند بلبيس بالقائد شيركويه قادما بجيش جرار من قبل الاتابك نور الدين يقصد تخليص مصر من يد شاور وذلك لان الخليفة العاضد انتهز فرصة اشتغال شاور بمخابراته مع اموري في موضوع الجلاء عن مصر وغرق هو ايضا في مخابرات سرية مع الاتابك نور الدين وتم المعاهدة معه على انه اذا كان ينجيه من شاور واستبداده يعطيه ثلث خراج مصر. فقبل منه نور الدين تلك المعاهدة على شرط انه عند وصول شيركويه بجنده الى مصر يوليه وزيرا بدل شاور بعد هزيمته. وعلى ذلك اسرع شيركويه بجنده فرحانا الى مصر فالتقى بجيوش الصليبيين عند بلبيس كما قدمنا فتحارب الجيشين وانتهى الامر بانهزام اموري واسراعه بالرحيل الى سوريا فاغتم شاور واغتاظ سرا من انتصار شيركويه الذي بعد فرار الصليبيون دخل القاهرة في ربيع الثاني سنة ٥٦٤ هجرية بابهة عظيمة وقصد سراي الخليفة رأسا. فرحب به الاهالي والخليفة معا بصفته مخلصهم من ظلم شاور

وبعدا خلع عليه الخليفة واكرم مثواه بالهدايا الفاخرة له ولسائر جنده.

فاغتاظ شاور من ذلك الاكرام ولكن لم يعد في وسعه اظهار ذلك الغيظ والجنود السورية حوله كالتفاف السوار على العظم. فكتظم الغيظ وتظاهر بالوداد والمحبة لشيركويه وصار يزوره في معسكره على نية ان يدعوه الى وليمة عنده فيقضي عليه فيها. ولكن ابت المقادير الا ان تظهر ليوسف صلاح الدين الايوبي ابن اخ شيركويه بعض نوايا شاور لعمه وبلغ ذلك ايضاً مسامع كبار الجند السوري فدبروا لشاور ما كان يدبره لاميرهم شيركويه وعند بلوغه معسكرهم بقصد زيارة شيركويه قبضوا عليه وكبلوه بالحديد ولما علم بذلك شيركويه امرهم ان لا يأتوا به سوءاً ولكن الخليفة العاضد لما علم ان رجال شيركويه قبضوا على شاور امرهم ان يأتوا برأسه اليه فجزوا رأسه بالسيف وارسلوها له في الحال وبعد ان رآها وارتاح ضميره وامر سكان القاهرة بنهب سرايه وكل ممتلكاته

وبعد ان انسر الخليفة العاضد جداً لنجاته من وزيره الذي جعله باستبداده وسوء تدبيره رقاً بل اذل من الرق. ولى شيركويه وزيراً له بدله اتماماً للمعاهده التي بينه وبين الاتابك نور الدين ولقبه بالملك المنصور. وكان امر توليته يوم الاربع ١٧ ربيع الاول سنة ٥٦٤ هجرية. وبعد استلامه زمام مصر ضغط على الاقباط وامرهم بشد الزنانير على اوساطهم ومنعهم من ارخا الذوابه المعروفه بالعزبه. (القلنصوه)

ولكن لحسن حظهم لم تطل مدة وزارته اذ عاجلته المنيه في ٢٢ جماد الثاني سنة ٥٦٤ هجرية فلم تدوم مدة احكامه الا شهرين وخمسة ايام فقط

وبعد وفاته احب الخليفة العاضد ان يبين محبته لشيركويه فولى مكان شاور ابن اخيه يوسف صلاح الدين ولقبه بالملك الناصر وكان لا يزال شاباً . فكان الخليفة يفضل الوزراء الشبان عن سواهم لزعمه بمقدرتهم على جذب ثقة الجند اليه فيأمن شرهم . ولكن لم يدر في خلده ان ذلك الشاب اليافع سيكون اشد نفوذاً واعظم تأثيراً في الجند ممن تقدمه من الوزراء لانه كان لين العريكة فصيحاً متواضعاً وكان متمسكا بالتقاليد الاسلامية القديمة ومتطرفاً جداً في تادية فروضه الدينية . وكان يحتقر ويزدري الرفاه والنعم . كما كان يستخف ويهزأ بالعلوم والفنون على السواء . ويعتقد ان الصنايع الفنيه والفنون الجميلة ضرب من عمل الشيطان . انما مطامعه في الشهرة العاليه كانت لاتحد . وقد قوى فيه ذلك الطبع لانه كان قد حلم مدة حداثته انه لايموت قبل ان يكون سلطان دمشق وبابليون اي سوريا ومصر او المملكة البابليونيه كما كانوا يدعونها . ولحسن حظه وتمهيداً لما يكنه له المستقبل انه اتي مع عمه الى مصر رغم ارادته، ولكن لو لم يحضر ابوه وعمه الى مصر واخذوه معهم لم يكن له حظاً بتولي الوزارة المصرية بعد عمه شيركويه . ولما كانت قوة الجند المعنوية ليست في يد الخليفة العاضد . بل كان فقط شاغلا مركز الرئاسة الدينية العظمي وكان كل الفاتحين كانهم يحجون اليه مع تبعهم وخضوعهم لخليفة بغداد العباسي . وكان الخليفة العاضد مقيماً في قصره كسجيناً . واهم مراكز الحكومة كان يشغلها اتباع صلاح الدين

ولما استلم صلاح الدين زمام الوزارة عصته الجيوش السورية لحداثة سنه فامالهم اليه بلينه ورقته فعادوا الى ولائه والضرب بسيفه .

وعمل الحسد في قلب جوهر الخصي الملقب بمؤتمن الخلافة وحدثته نفسه بخلع صلاح الدين وأخذ مركزه واوفقه على ذلك امرأ مصر وجنودها واتفقوا على ان يستدعوا الصليبيين الى مصر حتى اذا خرج صلاح الدين بجنده لطردهم اتحدوا هم معهؤلاء لطرده هو وجيشه من مصر . ثم ارسل موءتمن الدين كتاباً مخبوءا في نعل حذأ مع رسولاً الى الافرنج فقابل ذلك الرسول احد اصحاب صلاح الدين فاشتبه فيه لانه رجلاً رثا وحاملاً حذأ في يديه وليس على الجزء اثر المشي فاخذمنه الحذاء ومزقه فوجد الكتاب بين النعل فحمله الى صلاح الدين الذي علم بعد التحقيق ان الذي كتب ذلك الكتاب يهودياً فامر بقتله فاسلم فعفى عنه فقص له ما كان من موأمرة موءتمن الدولة ضده . فاعرض صلاح الدين عنه حتى انتهز فرصة خروج موءتمن الدولة الى بستانه في الخرقانية فارسل عليه قوة عظيمة من الرجال فقتلوه يوم الاربعاء ٢٥ ذي الحجة سنة ٥٦٤ واتوا برأسه الى صلاح الدين فهاج جميع المصريين لذلك بما فيهم الجند ضد صلاح الدين واجتمعت طائفة العبيد والطوايف الريحانية والجيوشيه والفرنجيه امام جيش صلاح الدين الذي جمع مع أخيه طوائف الغز وغيرهم وقام القتال سجالاً بين الطرفين وآل الامر الى انهزام صلاح الدين لولم يدركه حسن طالعه بقتل قائد طائفة العبيد فهبطت عزيمتهم وهجمت عليهم طائفة

الغز هجوم الاستقتال حتى كسروهم وطردوهم الى باب الذهب. وكان
الخليفة العاضد وقتئذ يشرف على الواقعة من اعلى منظرته بالقصر وصار
يحرض الجنود المصرية التي باعلا القصر برمي النشاب سرأ على الغز
وجنود صلاح الدين حتى هلك منهم كثيرون اوكادوا ينهزمون امام السودانيين.
فلما علم بذلك صلاح الدين أمر باحراق المنظرة فاحضر اخوه شمس الدولة
النفاطين لحرقها فخاف الخليفة العاضد على نفسه وخرج من المنظرة وصاح
قائلا (امير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد والكلاب
اخرجوهم من بلادكم) فخارت بذلك عزائم العبيد وظل صلاح الدين
واخيه شمس الدولة يعملان فيهم بالسيف والنار قتلاً وحرقاً ويطاردهم حتى
باب الزويله وكان مغلوقاً فحصروا فيه ودار فيهم القتل يومين حتى صاحوا
الامان فامنوهم يوم السبت ٢٨ ذي القعدة سنة ٥٦٥ ففتح لهم باب زويله
وهرب من بقي منهم الى الجيزه وتتبعهم شمس الدولة بالسيف حتى لم يفلت
منهم الا الشهداء وبهذه الواقعة المعروفة في التاريخ بواقعة العبيد تلاشت
سطوة العاضد وكان هو اخر خليفة تلاشت على يديه الدولة الفاطمية. ومن
غريب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبني القاهرة يدعى
جوهر وهو جوهر القائد الشهير والذي كان سبباً في تقليص ظل تلك
الدولة وكان خراب القاهرة على يده يدعى جوهر ايضاً وهو مؤتمن
الدولة الذي قام بمؤامرة ضد صلاح الدين وفشل. وهكذا بعد ان استأصل
صلاح الدين جرثومة الفساد من البلاد كافأ أخوه شمس الدولة طوران

شاهد لما اظهره من البسالة في واقعة العبيد بان اقطعة اقليمي قوص واصوان وكان
دخله منهما سنويا نحو ٢٦٦٠٠٠ دينار فاشتد ساعده فغزى النوبة وابريم وسبي
وغنم وعاد سنة ٥٦٨ هـ ثم خرج الى اليمن سنة ٥٦٩ وفتحها عنوة ولقب بالملك
المعظم وخطب لنفسة بعد الخليفة العباسي

اما الاتابك نور الدين فعظم سلطانه وقويت شوكته باعتزاز صلاح
الدين وانتصاراته فاتى مصر واراد معاكسة الصليبيين وانشاء دونمه مصريه وقام
تجول بها في البحر الابيض المتوسط ثم اتى بذلك الاسطول الى شواطئ
سوريا بقصد منع مرور قاصدي الارض المقدسة ولكي يستولي على الامداد
الذي يرد الى الصليبيين الذين تضايقوا من ذلك شديدا الذين بعد المداولة
فيما بينهم اقروا على انتداب فردريك بطريرك صور مع يوحنا اسقف
عكا لاستمداد قوة ملوك فرنسا وانكلترا وايطاليا وباقي الامراء المسيحيين
ولكنهم لم يفلحوا في ذلك. فارسل امبراطور القسطنطينيه اسطولا مؤلفا من
مائة وخمسين مركبا شراعية جرين ملاك المؤن والذخائر والجند واتحدوا
بجند عسقلان وقام الجميع براً وبحراً الى مصر بقيادة اموري حتى وصلوا
دمياط وعسكروا بينها وبين البحر في شهر صفر سنة ٥٦٥

فاحب اموري ان يأخذ دمياط هجومياً فلم يفلح لانها دافعت دفاعا
هائلا فالتزم بمحاصرتها ففشل في الحصار كما فشل في الهجوم لان
الدمياطيون كانوا مستكملين المؤون والعدد فلم يبالوا بالحصار الذي طال
امده حتى نفذت مؤونة الصليبيين فقصدوا الدخول في فم النيل ليأتوا

بالراد فصدتهم سلسلة قوية من الحديد ممكنة من أحد الطرفين بمتاريس المدينة والطرف الآخر ببرج هائل منيع الجانب وكان قد وضع ذلك الحاجز مسلمو هذا دمياط نكاية بالصليبيين . فوقف الصليبيون في موضعهم ينتظرون المدد من سوريا عبثا بينما كانت الامدادات تصل الى الدمياطيين تباعا من القاهرة بهمة صلاح الدين . اما الصليبيون فلما لم يصلهم مددا قام الشقاق بين العناصر المختلفة المؤلف منها مجموعهم سيما بين الفرنساويين والسوريين واليونان . ودب فيهم الجوع الذي افضى الى انفصام عرى اتحادهم فكانوا يتخاصمون على كسرة خبز ويمضغون افنان النخل حتى انفصلوا انفصالا تاما . ولسوء طالعهم قامت انواء وزوابع بحرية وامطار متواصلة جعل جندهم البري كانه في طوفان ومراكبهم البحرية تلاطمت وتلاحمت من بعضها وكسرت بعضها بعضا وصارت بين قوتين جاذبتين . تكاثر اعصار النوء في النيل حتى جعلته سريع الجري من جهة وتهيج العواصف ومياه البحر المتوسط ضد مجرى النيل من جهة اخرى فتحطمت المراكب عن اخرها الا ماندر منها ومع كل فان تعاستهم زادت باشتغال النار في باقي السنين فاحترقتها

فبعد ان قاسوا اهوال تلك المصائب والجوع مدة خمسين يوما انسحبوا عائدين بخفي حنين بعد ان تعهد لهم المسلمين بعدم معارضتهم ولا مطاردتهم بالقتال اثناء انسحابهم الى سوريا .

وكان صلاح الدين قد وصل من القاهرة بعد انسحابهم بقليل ومعه

جيشاً جراراً بعدانه ليكون مددا للقوة الموجودة في دمياط فشق عليه أمر انسحابهم قبل القضاء عليهم ووبخ الامراء ونوابه وقواد جنده الذين سمحوا لهم بالانسحاب .

وفي السنة التالية جرد صلاح الدين جيشا عظيماً وقام به الى سوريا قاصدا الانتقام من اعدائه فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ وحاصر ديرا قديماً للنصارى معروفا في التاريخ بقلعه داورن وهو على بعد اربعة اميال من غزة واتخذه حصنا له فلما علم بذلك اموري ملك الصليبيين وهو في عسقلان وقتئذ اتي بجيشه لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان ولما بلغ صلاح الدين ذلك سار لملاقاته في الطريق وقامت واقعة بين الطرفين كان قوس النصر فيها حليف صلاح الدين فنزل على غزه واستولى عليها . فاستبشر المسلمون خيرا بانتصار صلاح الدين المتوالي ولم يطمع في خلاف غزه بل اكتفى بها انتقاما بثأره فقط ثم ترك فيها حامية كافية لها وعاد الى القاهرة في ربيع سنة ١١٧١ مسيحية

ولما قويت شوكة صلاح الدين في مصر وعظم نفوذه حتى انكسف امامه نفوذ العاضد الذي أصبح خليفة اسما على غير مسمى . فلاح لنور الدين خليفة بغداد ان الاسلام في مصر اضحى في غنى عن سلطة الخليفة الفاطمي العاضد التي اصبحت لا معنى لها

فبعد وصول صلاح الدين من غزه بقليل وصله امرا من خليفة الرسمي وهو الاتابك نور الدين في بغداد يطلب فيه منه ابطال الخطبة

في مصر باسم العاضد خليفة الفاطميين وان يخطبوا عوضا عنه للمستضيء بنور الله الخليفة الثالث والثلاثين من بني العباس في بغداد . فاعتذر صلاح الدين بعدم امكانه تنفيذ ذلك الامر فورا خوفا من قيام احزاب الدولة الفاطمية عليه وحصول مالا يحمد عقباه . ولم يقل ذلك صلاح الدين حبا في الخلافة الفاطميه أو خوفا من قيام الاحزاب عليه كما يدعي بل كان من حسن سياسته انه يود وجود الخليفه العاضد في مركزه رسما فقط فيستفاد من ضعفه وعدم نفوذه رجوع كل القوة والسلطان اليه في امور مصر فبقاء العاضد في مركزه ولو انه خليفة ضعيف في العقيدة والتقاليد الاسلاميه افضل لصلاح الدين من تبعه لخليفة العباسيين قوي البطش حتى لا يقدر على مخالفته في امر فيصبح وقتئذ مسيرا في مصر لا مخيرا وشبه مستقل كما هو .

ولكن اعتذاره لم يصادف قبولاً لدى نور الدين ووصله امراً اخر يحتم عليه تنفيذ الامر الاول فجمع صلاح الدين امراءه ومشيريه واطلعهم على امر نور الدين فبعضهم وافق والآخر استعظمه واخيرا قام من بينهم امير فارس اسمه امير عالم وحرض صلاح الدين على وجوب اتباع امر نور الدين واخذ هو على عاتقه مباشرة تنفيذه .

وقد كان يوم الجمعة الاولى من محرم سنة ٥٦٧ هـ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ مسيحيه توجه امير عالم الى اكبر جوامع القاهرة وصعد المنبر وخطب في الناس وصلى باسم الخليفة المستضيء بامر الله العباسي فلم يعارضه احد

من العباسيين

فانسر صلاح الدين لذلك سروراً عظيماً وأمر باعادة ذلك في جميع جوامع القاهرة والفسطاط يوم الجمعه الثاني فقبل الجميع الخطبة وبذا دخلت مصر تحت حماية الخلافة العباسية الدينية التي قاعدتها بغداد بعد ان كانت انفصلت عنها مدة ٢٠٧ سنوات . ولم يؤثر تغيير الخليفة على سكان مصر بشيء لان الامر عندهم سيان لان غرض العنصرين المسلم والقبطي وجود حكومة حية تعطيهم الحرية في فلح الارض وتثيرها طالما يدفعون ضرائب لها على اطيانهم ولا يجنون منها مقابل ما يدفعون نظراً للحروب وضياع الامن فالتزم الاتراك والاكراد والمماليك والعرب الذين تتكون منهم الطبقة العليا من سكان مصر ان لا يهتموا بامر الخلفاء بل مالوا للخضوع تحت سيادة صلاح الدين وودوا توليته سلطاناً عليهم لعلمهم ان حروبه لا تنتهي فيغنمون من وراءها الغنائم الكثيرة .

ولم يخب صلاح الدين ظنهم اذ وزع عليهم وعلى امرائه وجنوده كل الذخائر والكنوز تعلق الخليفة العاضد التي كانت ثمينة جداً لانه بعد ان نهب ناصر الدولة ذخائر الخليفة المستنصر التي لا تثمن من مائة سنة مضت قبل زمن العاضد تمكن في اثنائها الخلفاء الذين اخلفوا المستنصر ان يجمعوا كثيرا من الكنوز والجوهرات الثمينة التي نهبت عن يد صلاح الدين في عصر اخر خليفة من الخلفاء الفاطميين وهو العاضد المسكين وفي اثناء المائة سنة المذكورة تألف عند الخلفاء مكتبة جديدة جمع فيها من

الكتب القديمة عددا عظيما من ايدي الذين لا يدرون بقيمتها واتصلت اليهم
عفوا من زمن ناصر الدولة وكان صلاح الدين ينظر الى الكتب بالعين
التي كان ينظر بها الخليفة عمر .

ومزق صلاح الدين كتب تلك المكتبة التي تبلغ المائة الف مجلد
على علماء عصره من المسلمين المصريين على امل ان يكسب بذلك محبتهم
وثقتهم به . ولم يزل موجوداً للآن من المجلدات المذكورة محفوظة في
مكتبة ليدن العظمى وكان لم يزل الى عهد قريب في هذا العصر بضع
كتب موجودة بخط اليد باللغة العربية تدل على عظمة مكتبة الدولة الفاطمية

اما الخليفة العاضد فقبض عليه صلاح الدين واستفتى الفقهاء في قتله
فافتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد واتباعه من انحلال العقيدة وكثرة
الوقوع في الصحابة والاشتهار بذلك

ولكن تركه صلاح الدين بدون قتل لان بقاءه وموته على حد سوى

اما العاضد فمن حسرته وحزنه من الاحتقار والاهانة التي لحقت به فضلا
عن ضياع الخلافة من يده سقط في مرض عضال ثم حجز عليه في احدى
غرف القصر الداخلية وكان ذلك المرض قاضيا عليه اذ توفى بعد ايام قليله
من تلك الحسرة يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ٥٦٧ هـ

وهكذا الدهر دولاب والدول كالافراد تموت وتحيى فماتت تلك
الدولة الفاطمية العظيمة الشأن بموت الخليفة العاضد لدين الله ولكن كان
موتها في حالة الخجل والضعف وانحلت من نفسها كانحلال الشمعة تحت

شعلتها بعد تلك العظمة والسؤدد التي رآها خلفاؤها بعد ان عاشت نيف
ومائتان سنة طبقت اثناءها الافاق في شهرتها وجلالها التي لم يحلم بها
يوليوس قيصر امبراطور الرومان العظيم الذي كان يقول — (قداتيت —
وفتحت ودوخت مصر العظيمه) فسبحان الحي الباقي

الفصل الرابع والخمسون

سنة ١١٦٨ مسيحيه و ٤٨٨ للشهداء و ٥٦٤ للهجرة

سلطنة صلاح الدين يوسف

وصرف السلطان صلاح الدين معظم ايام حكمه في الحروب. فكان
دائماً يقوم بغزوات شديده وحملات منكرة ضد الصليبين في سوريا من
جهة ومن جهة اخرى ضد ابن مولاه نور الدين . وانتهت تلك الحروب
بان صار المسلمون يخطبون باسمه في الجوامع بالنيابة عن الخليفة العباسي
وبهذا العمل قد اعلن سنة ١١٧٤ مسيحيه (٥٧٠ للهجرة) استقلاله
سلطاناً على سوريا ومصر وجزء من اسيا الصغرى مستثنياً من ذلك بيت
المقدس الذي كان مقر الصليبين وحصنهم الوحيد وقتئذ كما كانت بعض
مدن عظيمة اخرى في حوزتهم . ثم عاد الى مصر سنة ١١٧٦ مسيحيه
يستطلع احوالها ولم يمكث فيها طويلاً بل كر راجعاً الى فلسطين واقام
حروباً عظيمة فيها تعزيزاً لسلطنته ولم تكن حروبه قاصره فقط على فلسطين
بل تعداها الى جنوب سوريا ليطهر حدود مملكته الجديدة من الاعداء

وفي اثناء اشتغال صلاح الدين بحروبه في سوريا لاح لملك النوبه المسيحي ان يغزوا مصر نظرا لما شعر به من الضيقات والعذابات الشديدة التي كانت محيطة باخوانه الاقباط سيما بعد حريق بابليون وخاصة من زيادة عسف وظلم جبابرة الاسلام اثناء حروبهم ضد بعضهم

فتقدم بجيوشه الى حدود مصر من جهة وادى حلفا ثم تقدم الى اصوان فدخلها عنوة وكان من المحتمل تقدمه من اصوان الى الشمال قاصدا مصر العليا ومنها يدخل العاصمة ولكن لم يقعده عن عزمه الا ماسمعه من انقراض الدولة الفاطمية الخاملة وقيام سلطان قادر قاهر في الحروب وعلى انقاضها . ولما بلغ صلاح الدين امر حملة ملك النوبة هذه اصدر أمره في الحال بتسيير حمله قوية ضدها وارجاع ملك النوبه من حيث أتى . فلما علم ملك النوبه بقيام جيش صلاح الدين لمقاتلته فتبصر في الامر بفطانته وحزمه واختار ان يرضى من الغنيمة بالاياب فانسحب متقهقرا نحو الجنوب ثانياً قبل ان تدركه جيوش الاعداء وبنظره للعواقب قدر يعلم ان قوة وعدد رجال جيوش صلاح الدين تفوق مامعه بكثير فرأى ان الانسحاب فى مثل هذه الظروف هو الحكمة بعينها . ولكن ابت المقادير الا ان تعانده اذ لحقته جيوش صلاح الدين وهو منسحباً قبل ان يفارق الحدود المصريه وضربت مؤخر جيشه فالتزم ملك النوبه بالمقاومة والتحم الفريقان فى موقعه هائلة ولم يقدر يتغلب احدهما على الآخر فلما رأى قواد الجيشين انهم خسروا خسارة عظيمة جدا بدون

انهزام احد الطرفين التزموا بالكف عن القتال وتقهقر جيش ملك النوبة للجنوب وجيش صلاح الدين الى الشمال حتى عاد للقاهرة .

ولما علم صلاح الدين بعدم اقتدار حملته هذه على قهر ملك النوبه استشاط غيظا ولم يقتنع بما الحقه جيشه بجيش النوبيين من الخسائر الفادحه فاستقدم اخيه شمس الدولة وعهد اليه قيادة حمله قوية وامره بالسفر الى النوبة والاقتصاص من ملكها واهلها جزاء اقدامهم على غزو مصر .

فقام شمس الدولة بتلك الحمله اذعانا لامر اخيه وساربها حتى وصل الى حصن ديرابراهيم (المعروف محله الآن ببلدة ابريم) وكانت اول حدود النوبة وحاصره ثم فتحه بعد حصار ثلاثة ايام وكان في ذلك الحصن قلعة ذو طوابي منيعة جداً قائمة على سفح الجبل تجاه اول بلدة من بلاد النوبه وكان لهذه البلدة كنيسة عظيمة باسم العذرا مريم وكان مشيداً على بابها من الخارج صليباً كبيرا جدا .

فلما دخل شمس الدولة الى تلك البلدة برجاله اباح فيها السلب والنهب وسبي اهلها واطلق سراح الاسرى المسلمين الذين كانوا وقعوا في قبضة ملك النوبة وقت حملته هذه الاخيرة على مصر . وبعد ان انتهي شمس الدوله من قتل ونهب اهالي تلك المدينة التعيسة صار يبيع المسيحيين الباقيين فيها احياء بيع الرقيق ثم نهب مقتنيات الكنيسة وخزينتها وكل ما فيها من الاشياء الثمينة وبعدئذ اوقع ذلك الصليب العظيم من فوق القبه

وحرقه وحول الكنيسة الى جامع للمسلمين وجعل برجها العالي ماذنة له

اما اسقف تلك الابروشية فقبض عليه شمس الدولة وسامه عذابات اليمة جداً كي يعترف له عن ثروته التي ظنها تخبأت . ولكن تحقق له بعد ذلك انه لم يكن عند هذا الاسقف شيئاً مخبوءاً فكف عن عذابه ثم باعه رقاً مع باقي من باعهم من المسيحيين .

وكان شمس الدولة يريد ان يغزوا النوبة . ولكنه علم ان ذلك ليس امراً سهلاً كغزو مصر فلم يتوغل الى ابعد من هذه البلدة وهي دير ابريم . واخيرا عزم ان يتركها ويعود ثانياً الى مصر لان الحر كاد ان يقتله هو ورجاله . غير انه كان ضمن قواده رجلاً كردياً يدعى ابراهيم طلب منه ان يملكه هذه النقطة عوضاً عن تركها بعد ان تعب في فتحها فاجابه شمس الدولة الى طلبه وملكه هذه النقطة وتركه فيها وترك معه حامية من جيشه وكر راجعاً الى الشمال مع باقي الجنود حتي وصل قوص فعسكر فيها واتخذها مقراً له .

اما ابراهيم ومن بقي معه من الجنود الاكراد المتبربرين فظلوا في دير ابراهيم وعاثوا في تلك الجهة فساداً وقد مضى عليهم سنين هنالك تضوها في السلب والنهب والقتل وقطع الطرق وتقليع المزروعات وسرقة المواشي فصرخ الاهالي منهم الى ملكهم فالتزم هذا بان يرسل سفيراً من قبله الى شمس الدولة في قوص ومعه عبد وجارية بصفة هدية فطلب منه عقد الصلح معه حتى يعود الصفاء والسلام بين البلادين كما كان

فلما وصل ذلك السفير بهديته الى شمس الدولة وعرض عليه الخطاب الذي معه من سيده ملك النوبة قبل منه شمس الدولة الهدية الا انه اعطى للسفير بدلها زوجان من نبال الحرب فقط علامة على ازدرائه بمأموريته ولم يشأ أن يجاوب ملك النوبة بشيء . ثم انه لحظ من ميل مسيحي النوبه الغريب في طلبهم الصلح والسلام ضعف حالة تلك البلاد ودخله الطمع فيها فاوفد مع السفير عند عودته رسولا بقصد الوقوف على حقيقة الميل لعقد الصلح واعطاه تعليمات سرية ليتجسس احوال بلاد النوبة عند وصوله اليها ويعود فيخبره بحقيقة احوالها ودرجة استعدادها للحرب والقتال والمكافحة والنزال وكان ذلك الرسول رجلاً حلبياً يدعى مسعود

فلما وصل الى بلاد النوبة لاقى حظا وراحة اكثر مما كان ينتظر . لانه ولو ان ملك النوبة لم يشأ مقابلته الا انه سمح له بالعودة لبلاده سالما ولم يبد له اقل شيء يجرح احساسات الاسلام كما ابدى شمس الدولة لسفير ملك النوبه .

وقبل ان يعود مسعود الى مصر قابل الملك بنوع الصدفة وكان حينئذ وحده راكباً جوادا بسيطاً لاشيء من ابهة الملك عليه . فلح مسعود على الملك ان يقترب منه ويسلم عليه فضحك الملك وامره ان يضع يديه فوق بعضها بشكل صليب ثم سمح له بالسلام عليه . وبعدئذ امر باعطائه خمسين رطلاً من الدقيق واطلقه لحال سبيله الى مصر .

ولم يتجول مسعود في بلاد النوبه اكثر من مدينة دنقلا التي قال عنها

انها لاتحتوي على شيء يستحق الذكر سوى قصر الملك. ولكن كيفما كان
الحال فان اميال صلاح الدين كانت كاميال جوهر الذي تقدمه في حكم مصر
وهو عدم الرغبة في ضم ممالك السودان المسيحيه على مملكته

وبعد ذلك بزمن قليل غرق ابراهيم الكردي مع كثيرين من
اصحابه عند عبورهم النيل اثناء استعدادهم للسطو على احدى البلاد . فالتزم
باقي رجاله ان يتركوا احصن دير ابريم ويعودوا لمصر فعاد النوبيون وامتلكوه
كما كان

وفي سنة ١١٧٦ مسيحية الموافقة ٥٧٢ للهجرة قام اقباط مدينة قفط
بشيء من التمرد والعصيان ضد الاسلام فاطفأ نار تلك الفتنة قبل استفحالها
العادل أخو صلاح الدين الايوبي الذي جاء الى تلك المدينة التعيسة
الحظ وشرع في الاخذ بثار المسلمين من الاقباط بافظع الطرق . وذكر
المقريزي في تاريخه ان العادل هذا قصد الاخذ بثار اخوانه المسلمين
بواسطة صلب ثلاثة آلاف رجلاً قبطياً من سكان قفط على الاشجار
المحيطة بها واستعمل أحزمتهم وعماماتهم واسطة لصلبهم بافظع أنواع
الصلب والهلاك

وفي عام ١١٨٢ ميلادية (٥٧٨ للهجرة) توفي ابن الاتابك نور الدين
فكانت وفاته من حسن حظ صلاح الدين وفرصة مناسبة في استقلاله
بملك مصر وسوريا لانه لو عاش ابن نور الدين المذكور لاخاف صلاح
الدين في سلطنته ولكن بموته صارت السلطنة لاولاد صلاح الدين الذي

فرح لذلك فرحا لامزيد عليه وحمل في الحال حملات شديدة ضد
الصليبيين فانتصر عليهم وأخذ منهم في سنة واحدة بين عامي ١١٨٥و١١٨٦
بلاد طبرية والقيصرية وحيفا ويافا وسدوم وبيروت وعكا وبعض مدن
كثيرة أخرى صغيرة وفي عام ١١٨٧ تقدم بجيشه الى بيت المقدس
ففتحها وأسر ملكها . لان بيت المقدس كانت خالية من القوة التي
تمكن من مقاومة حصار جيش العرب لها . وكان جل مافي داخلها فريق
من العوام والفقراء الذين لاطاقة لهم على القتال ولم يكن لها جيش سوي ١٤٠٠
رجلا من الفرسان فدافعوا عن المدينة مع الكهنة المسيحيين والشمامسة
الذين كانوا يعتقدون أنهم يدافعون ويجاهدون جهاداً دينياً وفرضاً واجباً
عليهم للمحافظة على هذه المدينة المقدسة ولكن عاد الشعب فالتفت حول
البطريرك وعلا صياحه وضجيجه وهاج ضد الكهنة من داخل المدينة
طالباً التسليم بشروط مناسبة وبعد جهاد دام أربعة عشر يوما سلم البطريرك
المدينة تحت شرط انه بعد ان يدخلها المسلمون لا يأخذون سكانها المسيحيين
أسرى بل تكون قاعدة الصلح ان يودي كل مسيحي عشرين دينارا فدية
عن نفسه وكل مسيحية عشرة دنانير وكل طفل دينارين فمن أحضر
فديته نجا بنفسه والا أخذ أسيرا وكان بين الاهالي أربعة عشر الف
نفس غير قادرين على دفع الجزية المفروضة عليهم فأطلق صلاح الدين
سبيل بعضهم دون فدية لانه رآهم لايصلحون لاي عمل وأسر النصف
الآخر بعد ان نكس الصليب القائم على قبة الصخرة وكان عظيم الحجم

وقد وافق يوم دخوله المدينة واستلامه أياها ليلة المعراج ١٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ ففرح المسلمون لذلك فرحا عظيما وتقاطروا من كل صوب يهنئون سلطانهم على ما أحرزه من النصر وعلى سقوط أورشليم في يده وخضوع سوريا كلها لسلطانه ماعدا مدن ترسوس وطرابلس وانتيوخ التي كانت باقية في يد المسيحيين

وما بلغ ملوك أوروبا خبر سقوط أورشليم للمرة الثانية في يد الاسلام بعد بقائها ٩٦ سنه في يد المسيحيين حتى هالهم الامر واستولى عليهم الرعب المفزع فاجتمعوا متحدين مع بعضهم بعضاً لقتال جيوش صلاح للدين واعادة الحرب الصليبية كما كانت حيث قام امبراطور الغرب فردريك بروسيا حاملا صليبه وكتب الى صلاح الدين يدعوه الى القتال ويقول له انه من سلالة الرومانيين القدماء وخليفتهم أي السيد المطلق على مملكتهم شرقا وغرباً . فاجابه صلاح الدين بكتاب لايقل عن كتابه حماسه وانفصل طالباً منه القتال قائلا له باعجاب وغطرسه (لم يكن قصد المسلمين التسلط على المسيحيين وقهرهم فقط في الشرق بل في عزمهم مهاجمة أوروبا واكتساحها كلها وسوف تؤخذ كل بلادك منك بقوة الخالق سبحانه وتعالى .... لان المسيحيين باتحادهم الديني قاموا ضدنا مرتين في بابليون . ومرة في دمياط وأخرى في الاسكندرية ..... وأنت لاشك تعلم كيف انتهى الحال بالمسيحيين وردوا على أعقابهم خاسرين في كل حمله) وذيل كتابه هذا بامضائه الحامل لثلاثة عشر لقباً

أعطاها لنفسه كلقب (المخلص) و(المصلح) و (منظم العالم) و(مصحح القانون) و(منقح الشريعة) الخ

وما وصل هذا الكتاب الى الامبراطور فردريك حتى قاد جيشاً عرمرما من جميع أمم اوروبا وسار به لمقاتلة المسلمين ولكن سوء الطالع أدركه فغرق في الطريق وكانت هذه الحادثة أول صاعقة وقعت على رأس هذا الجيش في مسيره بينما كان المقيمون من الافرنج في فلسطين قد حاصروا مدينة عكه في شهر اغسطس سنة ١١٨٩ دون ان ينتظروا مجيء اخوانهم الصليبيين القادمين لنجدتهم من أوروبا ولم يكن في وسع صلاح الدين طردهم عنها فاستمروا على حصارها مدة سنتين . ولو ان صلاح الدين أرسل ليتقدم أسطول مصر الراسي في الاسكندرية محملاً بالمؤن والذخائر وجمع كل قواه حول المدينة لما استطاع خلاصها من أيدي المحاصرين لها لان الصليبيين أوحماة فردريك قد أتوا من أوروبا وهم الفا فارس وثلاثون الف مقاتل من المتدربين فاشتركوا مع أفرنج فلسطين في تضييق الحصار على المدينة وكان بين الصليبيين القادمين من أوروبا الملك فليب ملك فرنسا وريكاردوس (قلب الاسد) ملك انكلترا

ولما رأى صلاح الدين انه لايستطيع مقاومة تلك القوة الهائلة اضطر ان يسلم المدينة تحت شروط اشترطها عليه الصليبيون لاتمس بشرفه ولا بشرف الاسلام هذه ومفادها أولا تسليم المدينة وثانياً تسليم الصليب الحقيقي الذي صلب عليه السيد المسيح وأخذه المسلمون يوم فتح

اورشليم وثالثاً اطلاق سراح الفي نفس من اشراف المسيحيين اسرهم
صلاح الدين وخمسماية شخص من طبقات مختلفة من المسيحيين ورابعاً
ان يقوم المسلمون بدفع ٢٠٠ الف دينار بصفة غرامة حربية

فقام صلاح الدين وكبار المسلمين الذين معه بتنفيذ الثلاث بنود
الاولى من شروط الصلح . اما البند الرابع وهو الغرامه الحربية فقد
تأجل دفعها الى وقت آخر لعدم وجود قيمتها في خزينة الحكومة مسلماً
بدلها للصليبيين كل أشراف المسلمين واولادهم بصفة اسري تحت امر
ملكهم . حتى تسدد هذه الغرامة الكبيرة . فقبل ريكاردوس (قلب الاسد)
ذلك الاقتراح من صلاح الدين ولكن لما ابطأ في تنفيذ البند الثالث كما
وفي تسديد الغرامة الحربية كوعده قام ريكاردوس ملك الصليبيين وصلب
اولئك الاشراف المسلمين وكانوا ٢٧٠٠ علنا خارج مدينة عكا انتقاما من
صلاح الدين ومن المسلمين .

وقد خسر الصليبيون اثناء ذلك الحصار الطويل ستة بطاركة ومطارنة
واثني عشر اسقفاً واربعين اميراً بدرجة (كونت) وخمسماية من النبلاء
والاشراف بخلاف باقي الطبقات والدرجات الاخرى من كهنة وعلمانيين
اما المسيحيين الذين كانوا اسرى عند صلاح الدين وعددهم ١٢ الف نفس
فقد خلا سبيلهم بعد كل تلك الحوادث بالرغم عن ضعف ايمانهم بالله
وارسلهم الى بابليون في مصر بحراسة قوه صغيره من الجنود التركية .
واتفق في هذه الاثناء ان قام الملك ريكاردوس بحرسه الى داخلية الواقعة

على مقربة من دائرته لمعرفة البلاد ما فيها واكتشاف اثارها (وهو مع
قلة الجنود التي كانت معه يومئذ فان شهرته في القوة والبأس قامت مقام
القوة الحربية الكافية له بحيث ان الجنود الاتراك الذين كانوا يحرسون
الاسرى بمجرد ما وقع نظرهم على علم ريكاردوس دب في قلوبهم الرعب
والارتجاف فتركوا الاسرى وفروا هاربين من وجهه ولما رأى ريكاردوس
ذلك انقض على المسلمين الذي كانوا مع الاسرى المسيحيين وامر حرسه
بذبحهم واسر عشرين ضابطاً منهم واطلق سراح الاسرى جميعهم

ودام العداء سنه من الزمان بين ريكاردوس وصلاح الدين الايوبي حتى
تعبا من جراء ذلك العداء واتفقا اخيراً على عقد هدنه دامت مدة ثلاث
سنوات واشترط ريكاردوس انه في خلال تلك الثلاث سنوات يصرح
للمسيحيين بزيارة القبر المقدس فقبل صلاح الدين بذلك وقامت جمعيات
وفريق عظيم من المسيحيين والمحاربين الصليبيين لتأدية فريضة الحج
قبل عودتهم الى أوربا . اما الملك ريكاردوس فاعتبر نفسه غير مستحق
لتلك الزيارة لاعتقاد انه عجز عن فداء القبر وتخليصه من ايدي المسلمين
وخرج المسيحيون للحج في السنة الثالثة برئاسة اسقف سولسبرى
الانكليزي الذي كان تقابل مع صلاح الدين وتحصل منه على رخصه
بذلك وكان كهنة الكنيسه اليونانية في ذلك الحين وما قبله هم القائمون
بخدمة القبر المقدس . فلما وصل اسقف سولسبري لهناك اعتبر اولئك
الكهنة هراطقه وسعى حتى وضع بأمر صلاح الدين كاهنين وشماسين من

الكنيسة اللاتينيه التابعة لبابا رومية لخدمة كنيسة القبر المقدس وعين مثل
هولاء ايضاً لخدمة كنيستي بيت لحم والناصرية .

و بعد انقضاء الثلاث سنوات الهدنة دام السلم مستمراً بين صلاح الدين
وريكاردوس . وفي يوم الاربعاء ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ ﻫ تم الصلح بينهما
بعد مداولات ومخابرات يطول شرحها . ونادى المنادون ان البلاد
الاسلامية والنصرانية واحده فمن احب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد
الطائفة الاخرى فله ذلك دون خوف ولا حذر . وكان ذلك اليوم يوماً مشهودا
فرحت بـه الطائفتان وعادت الصلات الى مجاريها وعم السلام في ربوع
سوريا وصار الزائرون يفدون الى بيت المقدس من كل صوب . ثم توجه
السلطان صلاح الدين نفسه ليتفقد احوال تلك المدينة وتودد تودداً عظيما
مع ريكاردوس قلب الاسد حتى صار صديقين حميمين حيث انس كل
منهما في صاحبه العزم والحزم والبطش والمقدرة . ويقول بعض المؤرخين
انهما لم يتصادقا الا لما تعرفا بعضهما بواسطة الرموز الماسونية فتحققا لها
الاخا . ولولا ذلك لما تساهل البطل صلاح الدين مع النصاري الى
هذا الحد .

على ان المنية مع عجزها على مهاجمة ذلك الباسل في ساحة الحرب والقتال
لم تخش مهاجمته وهو على فراشه بين اولاده واخوانه

ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان لملاقاة الحجاج فعاد الى منزله ضعيفاً
ثم اصابته الحمى الصفراء فزادته ضعفاً الى ان توفاه الله في مدينة دمشق

صبيحة الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ ﻫ الموافق سنة ١١٩٣ ميلادية
فحزن عليه ريكاردوس قلب الاسد حزناً شديداً لانه توفى قبل ان
يرجع ريكاردوس الى انكلترا بستة شهور .

وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ ان فقد الخلفاء الراشدين
(رضي الله عنهم) وغشى القلعة والملك والسلطنة والدنيا كلها وحشه عظيمه
وكان الناس يتمنون فداء ذلك العزيز بنفوسهم الذي مات بعد ان عاش ٥٧
سنه وحكم ٢٤ سنه في مصر و ١٩ في سوريا ومن يتأمل في تاريخ
صلاح الدين وحياته العملية في العالم يندهش كيف انه في بحر الاربعة وعشرين
سنه التي اقامها في مصر قد رفع نفسه بمواهبه من ضابط صغير في حمله
عسكريه كرديه اتت اتفاقاً الى مصر الى ان ملك على عرش السلطة
الاسلامية التي اسسها في مصر وسوريا بجده واجتهاده وهو ليس كل ما
كانت تسمح اليه نفسه العزيزه ولكنه بما ان النفس خلقت تطلب المزيد
مهما بلغت من نيل ما تمنت فان السلطان صلاح الدين كان يطمع في اكتساح
روسيا والهند وضمهما الى سلطنته وما اخره عن ذلك الا هادم اللذات .

واجتمع في تشييع جنازته خلق عظيم جدا ودفنوه باحتفال عظيم داخل الدار
التي كان مريضا فيها . وفرقت شقيقته المدعوة ست الشام الصدقات الكثيرة
من جيبها الخاص . لان بعض المؤرخين يقولون انهم لم يجدوا في خزينته
الخصوصية الا دينارا واحدا و ٤٧ درهما من الفضة ولم يجدوا أثرا للذهب
او لغيره من الحجارة والذخائر الثمينة التي يتركها عادة السلاطين امثاله وذلك

مما يدل على فرط كرمه لانه كان يجود بكل ما تصل اليه يده على ذويه واقاربه

وفي الغالب ان الملك الذي يطمع بالاعتداء على أملاك غيره لا يتاح له ذلك الا بعد ان يرى مملكته الاصلية في حالة الرغد والهناء وهكذا كان حال صلاح الدين في مصر في اوائل حكمه واثناء الحروب التي كان يقيمها السلطان في فلسطين لم يكن يدفع مرتبات للجنود بل في الغالب كانوا يأخذون اجرتهم من سلب البلاد التي يفتحونها وما كانت مصر تمد الجنود المحاربه في فلسطين الا بقليل من المال اما المؤونة والذخائر فكانت ترسل لهم عن سعة

وجبابرة الاسلام الذين كانوا يعيشون في مصر على السلب والنهب وقطع الطرق قد فارقوا مصر وانضموا لجيش صلاح الدين المحارب في فلسطين حيث وجدوا ان هنالك مغنماً اوفى وبغيابهم عن مصر عادت البلاد الى قوتها الاصلية الصحيحة وعاش أهلها في هناء وسلام

ومما يذكر عن سيرة صلاح الدين انه في اثناء حروبه بفلسطين اسند عرشه في مصر الى بهاء الدين أحد خصيانه السود حيث كان يثق به وباخلاصه الثقة التامة. وأطلق عليه المصريون بعد تناوله مسند الوزارة لقب قرقوش (اعني العصفور الاسود اوطير الشحرور). وسموه بذلك وازدراء به اذ قد استاؤوا من ان عبداً جاهلاً أميا مثله صار ملكا عليهم وصاروا مكلفين بطاعته لان عادة المصريين في احترام وتبجيل اجدادهم واسلافهم العظام لم تكن قلت اهميتها عندهم او بطلت وكان اول ما لاقاه المصريون

من المسلمين والاقباط على السواء من احكام بهاء الدين قرقوش استهزاءه بقبور موتاهم وامتهانها وتدنيسها وانتهاك حرمتها بحفرها ونبشها ولم يكن قصده من نبش القبور البحث على الذخائر والكنوز كما كان يفعل السلاطين والوزراء الذين تقدموه بل كان عمله هذا خالي من الغرض المذكور لانه كان يعتقد ان وجود الكنوز بين القبور من الخرافات والحكايات الفارغه وفقط كان غرضه من هذا الصنيع اغاظة المصريين وكرهاً لهم من انهم بيض البشرة وهو اسودها فاستنزل بصنيعه هذا سخط المصريين عليه حالة كون السلطان صلاح الدين اوصاه بعد ان ولاه بضرورة استجلاب رضائهم له واكد عليه بضرورة تطهير وتهوية الترع والخلجان لري الاراضي بالراحة ليزيد محصول البلاد ويعيش الاهلون في نعيم ورخاء . وفي الواقع لو كان عمل هذا القرقوش الجبار بجزء مما اوصاه به صلاح الدين لحاز رضا المصريين وممنونيتهم . وقد اوصاه صلاح الدين ايضاً ان يعيد بناء سور القاهرة وبعض عمارات واصلاحات اخرى عمومية التي تحتاج الى احضار حجارة كثيرة وعمل عظيم.

ولكن لجهل ذلك الوزير الغبي وسوء فكره باحوال البلاد التي يرأسها انه امر بقطع احجار جديدة من الجبال البعيدة بينما كانت السهول الواسعة التي في غرب النيل ملآنة بالحجارة المقطوعة الجاهزة على مسافة عدة اميال وتلك الحجارة المنحوتة الجاهزة هي بقايا خرائب مدينة منفيس القديمة القريبة من مدينة القاهرة الجديدة . لانه كان حطم بجهله كل

الحجارة الموجودة في ذلك المتسع العظيم ودكها في الارض ماعدا الحجارة الكبيرة الحجم منها التي لقيت على جانبي النيل لعدم امكانه تحطيمها اودكها في الارض. واتى بالحجارة الجديده المقطوعة من الجبل مع بعض من تلك الحجارة القديمة واستعملها في اعمال عمومية كثيرة لم يزل اثرها باقياً الى اليوم منها الجسر الذي اقامه على النيل بين الجيزه والاهرام وكان هذا وكان هذا الجسر مركبا من اربعين قبوا وقد اختفى اثره الان ولكن سد المياه لم يزل اثره باقيا للان. ويرى في بولاق مصر وقلعة القاهرة الحالية التي بناها صلاح الدين الايوبي على انقاض القلعة القديمة التي بناها احمد ابن طولون لم تزل شاهدة حتى الآن على سفح جبل المقطم باعمال وعمارات ذلك السلطان العظيم ومن اثار صلاح الدين ايضاً البئر المعروفة بجوار القلعة ببئر يوسف ثم تلك القناة الباقية العظيمة التي كانت تجلب المياه من النيل الى المدينة

وبني ايضا صلاح الدين شونا واهراء ومخازن عظيمة للغلال بقرب الفسطاط ولم تزل بقايا خرائبها الى الان موجودة عند مصر القديمة وهذه النقطة معروفة عند المصريين باسم (مخازن يوسف الصديق). (١)

وارتأى بهاء الدين ان يبني سورا عظيما يحيط باربعة اجزاء المدينة

(١) بناء على اعتقاد المصريين ان تلك الاهراء هي (مخازن يوسف) فقد اعتادوا بان يفهموا السواحين الذين يزورونها ان باني تلك المخازن والبئر العظيمة الموجودة بالقلعة هو البطريرك يوسف قبل خروج الاسرائيليين من مصر

وهي بابليون والفسطاط والقاهرة ومصر ويبقى خارج ذلك السور العظيم حصن الرومانيين الموجود في بابليون. ولكن لم يتم ذلك المشروع امالعجز قراقوش عن تجهيز ادوات البناء او لعدم مصادقة صلاح الدين عليه. والذي عمله قراقوش بناء على مصادقة صلاح الدين هو ترميم سور مصر والقاهرة وتقويته وترك الفسطاط وخرائب بابليون خارج ذلك السور.

واتفق في مدة حكم السلطان صلاح الدين ان حاكم الاسكندرية اراد معارضته ومنع أحد الاعداء من ايقاف مراكبه وربطها قرب سور المدينة. فهدم ذلك العدو على مهل الاربعمائة عمود التي كانت الى ذلك الحين قائمة على خرائب سرابيوم والقى حجارتها في البحر وبهذا العمل مهد السبيل الى الاقتراب من سور المدينة. ولم يبق من تلك الاعمدة الاثرية العظيمة الا عمود واحد يسمى الان عامود بومبي وقد رآه عبد اللطيف المؤرخ العربي عند زيارته تلك البقعة. واظهر حزنه المفرط عند ما شاهد بقايا الاربعمائة عامود الملقاة قطعاً على شاطيء البحر.

ولما كان بهاء الدين يسوق المصريين مسلمين ونصارى معاً للسخرة في تلك الاعمال وبناء السور كرهه العنصران كرها شديدا. اما الاقباط فلم يضطهدهم اضطهادا حقيقيا بل ضايقهم مضايقة شديدة بقدر ما امكنه.

واول عمل اتاه ضدهم انه رفت كل الموظفين منهم في جميع دوائر الحكومة. واخيراً عاد وارجعهم من نفسه لما رأى ماراه غيره ممن تقدمه في حكم مصر استحالة انتظام الاعمال المصلحية سيما

الحماية منها بدونهم . ثم عمد بعد ذلك الى الاستبداد بهم حيث امرهم
بتعليق اجراس في اعناقهم وصلبان كبيرة في صدورهم وحرم عليهم اقامة
معالم الزينات والاحتفالات الدينية والاعياد . وبهذه الاعمال كان مكروهاً
وممقوتاً منهم ومن عامة الشعب المصري عموماً . وكان العوام ينتقمون
لنفسهم منه بان صاروا يمثلونه العوبة في ملاعبهم وكانوا يستعملون كل
مواهب فطنتهم وزكائهم في هجوه وتقريعه حتي جعلوه اضحوكة وسخرية
وصار لا يذكر اسم قراقوش الا ويصحبه الهزء والسخرية . وهكذا صاروا
يستعملون طرقاً شتى على انواع مختلفة . حتى ان ذلك الوزير المشهور بقراقوش
مع انه كان حاكماً على جبابرة الاسلام صار اسمه يذكر على توالي الاجيال
حتى اليوم يذكر مع الاحتقار والهوان حتي ان المصريين الآن
يحدثون في انديتهم او يمثلون في مراسحهم صور جهل وحماقة ورذائل حكامهم
السابقين يذكرونه بكل هجو وتقريع مصحوباً بالاضاحيك الهزلية
ويصورونه في هيئة تمثال سخري مضحك جداً وهو ما يسميه الآن
عامة المصريين واولادهم باسم اراجوز . والعاب اراجوز الموجودة الآن
بمصر هي من آثار ماكان يلعبه المصريون سابقاً بذلك التمثال تحقيراً بقراقوش
الذي تحرف اسمه الا ن عند اللاعبين باسم اراجوز . وكانت لعبة قراقوش
أو أراجوز أو الالعاب التى مثلها المصريون في عهد بهاء الدين ونقلها الانكليز
عن المصريين في ملعب البنش والجودي ولم تزل تظهر عند الانكليز للآن
في معارضهم . انما كان مبدأها عند المصريين هو انهم يعلمون عربة

صغيرة وفيها تلك الالعوبة السخرية ويسمونها باسماء والقاب رمزية
ويقصدون بها الاستهزاء بالحكام الظالمين . وقليل من المصريين الآن
من يعرف ان اصل لعبة اراجوز التي يتفرج عليها صغارهم هي رمزا عن
بهاء الدين قراقوش ذلك الحاكم الجاهل الظالم

الفصل الخامس والخمسون

النزاع والفتن بين الكنيسة الحبشية
وامها الكنيسة المصرية

سنة ١١٩٣ مسيحية وسنة ٩٠٩ للشهداء و٥٨٩ للهجرة

توفي صلاح الدين عن ستة عشر ولداً وابنة واحدة تدعى مؤنسة
تزوجت بابن عمها ناصر الدين محمد ابن سيف الدين . اما الاولاد
فقام النزاع بينهم بشأن الملك وجرت مخاصمات وحروب فيما بينهم كما هي
العادة عند الشرقيين في مثل هذه الاحوال وانتهت تلك الحروب الاهلية
بين اولاد صلاح الدين واخوته بتقسيم الملك فيما بينهم غير ان الحصص
لم تكن متساوية فان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتنع الباقون
بمقاطعات صغيرة وتم كل ذلك بموافقة الامراء . فكانت سوريه نصيب
ابنه الاكبر وهو المدعو نور الدين ولقب بالافضل واما ثاني اولاده المدعو
ابو الفتح فلقب بالملك الظاهر غيات الدين وكان نصيبه حلب وسوريا الغربية
ومن ضمنها حوران وتل باشر وعيراز والمنبج وابنه الثالث المدعو عماد

الدين عثمان فلقب بالملك العزيز وكان نصيبه مصر . وبذا تم تقسيم الدولة الايوبية الى ثلاث دول هي الايوبية الحلبية والدمشقية والمصرية .

وبعد ذلك التقسيم عرف كل من اولاد صلاح الدين الثلاثة . نصيبه . وظهر ان اعداء صلاح الدين كانوا غير قادرين على التظاهر بالعداوة امامه وهو على قيد الحياة فزرعوا بذور الشقاق بين اولاده فثبتوا ضد تيار تلك العوامل في بادئ الامر ولكن بعد ئذ قام بينهم الشقاق والتحاسد والتباغض بتأثير ذوي المفاسد

وكان ممن اثروا على الملك العزيز حاكم مصر عمه المدعو سيف الدين الملقب بالملك العادل .

ففي سنة ٥٩٢ هجرية راى ذلك العم (الملك العادل) وهو حاكم الكرك والشوبك وقتئذ ان ملكه صغير بالنسبة لاخوته واولاد اخيه صلاح الدين . فصار يتداخل رويداً رويداً في شؤون مصر وحكومة ابن اخيه الملك العزيز حتى صار له نفوذ عظيم وتأثير كبير عليه ثم حرضه على خلع الملك الافضل اخيه الاكبر عن دمشق وسائر سوريا الغربية والشطوط البحرية واورشليم ودمشق وبالاجمال عن كل الحصة التي كانت من نصيبه كي يتولى هو بدله فخلعوا الافضل المسكين ففر من دمشق الى بغداد يستنجد الخليفة الناصر لدين الله

ولكن لم يكد الافضل يصل الى بغداد حتى شعر العادل بوخز ضميره له على عمله فدعا ابن اخيه الافضل ثانيا وتنازل له عن ملكه المغتصب

وزاد في مرضاته بان تنازل له ايضا عن املاكه الاصلية في الكرك والشوبك . ثم أشار الملك العادل ومن يلوذ به على الملك العزيز عثمان بان يهدم اهرام الجيزة التي لم يكن باقيا بدون هدم منها وقتئذ الا تلك الاهرام الثلاث الكبيرة الباقية تقاوي الدهر حتى اليوم . فسمع الملك العزيز مشورتهم واصدر امره في الحال بالهدم . فوجدوه عسيرا اذا ابتدأوا اولا بهدم الاصغر منها المعروف بالهرم الاحمر . فاستحضر الالغام وقاطعي الاحجار وجمع فعلة من الفلاحين والقرى المجاورة للاهرام وجعل لهم اجور باهظة . وجعل مباشرة ذلك العمل العظيم تحت ملاحظة بعض أمراء كثيرين فألفوا لجنة مهمة لذلك وجاؤا وحلوا تحت الاهرام حيث يقف الترامواي هناك الآن وابتدأوا بالعمل

اشتغل أولئك العملة واللاغمون والقطاعون مدة ثمانية اشهر تمموها شغلا متواصلا وبعد تمام تلك المدة رأوا انهم يضربون في حديد بارد اذ قدروا ذلك العمل الشاق فاستنتجوا ان ماتم هدمه هو بنسبة حجر واحد في كل يوم ولم يهدموا في الثمانية اشهر الا قسما صغيرا من قشرته الخارجية وجعل فيه خرق لم يزل ظاهرا الى اليوم .

واخيراً رأت لجنة الامراء ان اتمام الهدم محال فضلا عن انه راحت نفقات طائلة على اتمام هدم ذلك القسم الصغير فانه فقط تشوه تشوهاً . فاقرت على الكف عن الهدم وكان ذلك سنة ٥٩٣ هجرية فقابل المصريون ذلك الخذلان بالهزء والسخرية وزاد استهجانهم لهؤلاء الحكام الجهلاء

واحتقروا كل مشروعاتهم

لكن الملك العزيز لم يثن عزمه ذلك الخذلان امام الاهرام .بل شرع في مشروع اقبح من الاول واليك البيان

كانت ايام فيضان النيل في بلاد مصر سيما في القاهرة تعد من ايام الاعياد عند المصريين عموماً والاقباط منهم خصوصاً اذ ورثوها من أجدادهم الفراعنة العظام الذين كانوا يقدسون النيل تقديساً وذلك لانه في زمن الفيضان تمتلئ الترع والخلجان ولا سيما خليج القاهرة الذي يخترقها . ولما كان الاحتفال بايام الفيضان عيداً عظيماً عند المصريين من اجيال عديدة صار ذلك الاحتفال عندهم قاعدة دينية وطنية . لان في الروايات والاساطير القديمة شيئاً كثيرا يدلنا أن المصريين كانوا في مدة عبادتهم الوثنية اي الاجيال التي تقدمت المسيح كانوا يؤلهون النيل ويقدمون له سنوياً ذبيحة بشرية هي عذراء طاهرة ولذلك تفصيلات عظيمة لا محل لها هنا

أما وقد دخلت الديانة المسيحية أرض الفراعنة فابطلت تلك العادة الشنيعة وحول كهنة الاقباط ذلك العيد الديني الى امراً أخف ضررا بالنوع البشري اذ قرروا استبدال القاء العذراء حية في النيل بوضع يد عذراء محنطة في مياه النيل بشرط ان تكون العذراء المائتة مشهورة بانها طاهرة صالحة اعتقاداً منهم بان ذلك يقدس ويبارك النيل . وبالاجمال فانه مهما اختلفت تلك العوايد واساليب الاحتفال بالنيل فان ايام فيضانه

كانت تعتبر لدى المصريين اعياداً وطنية عمومية حتى يومنا هذا . والسائحون الذين يزورون مصر قلما يشاهدون احتفال المصريين بذلك العيد لانه لا يتفق وقوعه وقت زيارتهم لها ففي تلك الايام تقيم له الحكومة مهرجانا هائلاً ويشترك معها الاهالي في ذلك الاحتفال العظيم المعروف عندهم بليلة (جبر الخليج) فترى الذهبيات مزدانه جميعها من اسفلها الى اعلاها بالانوار الملونة الجميلة وتمشي تمخطر كالعروس يميناً وشمالاً في عرض النيل وعلى ظهرها كل دواعي الانس والطرب والذين عليها هائمون فرحاً وسروراً بين عزف الموسيقي وارسال السواريخ النارية في الفضاء وبالاجمال فانه يكون منظراً جميلاً جداً فائق الوصف

وكان ذلك الاحتفال في زمن صلاح الدين الايوبي في طور التغيير والانقلاب لانه بعد أن كان ذلك الاحتفال خاص بالاقباط سرت تلك العادة منهم بحكم المعاشرة الى المسلمين وصار يحتفل العنصران به احتفالاً هائلا فكانت تحصل منازعات ومشاجرات عنيفة من كثرة عدد المحتفلين والمتفرجين وكثرت فيه الخلاعة وانواع الفساد والفجور بين الاهالي . ومع تعكير ذلك الاحتفال الاثري العظيم بعوامل الانحطاط الادبي فان عوام المصريين كانوا ولم يزلوا يعتبرونه اعز واعظم الاعياد الوطنية فهم من قديم الزمن يستأون جدا من امر ابطاله . وقبل عصر صلاح الدين بمائتي سنة كان الخليفة الحاكم بامر الله قد سعي في ابطاله فلم ينجح مع انه كان في عصره ذا صبغة دينية مسيحية اكثر مما كان عليه في زمن صلاح

الدين . وجاء الملك العزيز ابن صلاح الدين وامر سنة ٥٩٤ هجرية بابطال هـذا العيد ومنع الاحتفال به منعاً كلياً واستخدم لتنفيذ امره طرقاً وحشية قاسية فلم ينجح ايضاً لان الناس بعد أن استرحموه مرات عديدة ولم ينجحوا جاهروا بالعصيان ضد الملك العزيز ولـكن عاجلته المنية فمات ولم يتمم شيئا مما نوى وكانت وفاته في ٢١ محرم سنة ٥٩٥ هـ

واستمر المصريون يعيدون سنويا بايام فيضان النيل ولم يعد أحد من محبي المناظر الجميلة يحرم من رؤياه سنويا . وكان قد مضى زمن طويل على الكنيسة الملكية في البلاد المصرية بدون بطريرك نائب عنها حتى آلت الظروف الى قرب تلاشي حقوق تلك الكنيسة في مصر واشتد الخطب على اتباعها المتفرقين . فلما انس كبار الاكليروس في القسطنطينية علامات السلام والامان في ديار مصر على عهد الوزير بهاء الدين (قراقوش) وتأكدوا انه لم يعد بعد خطر على وجود بطركيتهم في مصر ولدواع سياسية رأوا ضرورة اعادة فرع كنيستهم المصرية ثانيا بقدر الامكان

فرسم بطريرك القسطنطينيه رجلا يدعى مرقص بطريركا على فرع الكنيسة الملكية اليونانية في مصر ثم اعطاه تعليمات اهمها ان الوظيفه الكهنوتيه التي اسندت اليه لا يجب ان يتخذها وظيفه للتعيش و يقعد عطلا بلا عمل كما كانت سابقاً بل يتعين عليه الجد والعمل على استرجاع ولم شعث قطيعه المتشتت في مصر ثم من وجهة سياسية عليه أن يبذل ما في وسعه في استرجاع واعادة النفوذ اليوناني في تلك البلاد (مصر)

فلما حضر مرقس الى مصر وأسس كرسي بطركيته ثانياً صار يرسل خطابات غريبة لبطريرك القسطنطينية عن حالة اتباعه المصريين الذين مضى عليهم زمن طويل لم يسمع عنهم شيئا . ومن جملة ما أدهش البطريرك مرقص وكتب عنه في مراسلاته أنه وجد طرق الصلاة وخدمة القداس هي الطريقة القديمة المعروفة باسم طريقة ماري مرقص واستفسر بطريرك القسطنطينية عن السماح بممارستها أو ابطالها فاجابه البطريرك بان كل شيء من الرسوم الدينية يلزم أن يكون حسب طقوس الكنيسة الملكية ويلزم ابطال طريقة ماري مرقص وابدالها بطريقتي القديسين يوحنا فم الذهب وباسيليوس . وباقي الطقوس الخاصة باسكندرية كتب عنها مرقص أيضا وقال انها طقوس قديمة جدا وتختلف عن الطقوس التي تمارس وتنشد بالقسطنطينيه فأجابه البطريرك بتغييرها أيضاً وبالاجمال أمره بابطال كل الطقوس والرسوم التي كان يستعملها المصريون

وكان الموجود وقتئذ على كرسي الكنيسة المرقسية القبطية الوطنية البطريرك يوحنا السادس الذي أخلف مرقص بن زعره سنة ١١٨٩ وكان وقت انتخابه بطريركا حديث العهد في ممارسة الكهنوت ويقال عنه انه كان متزوجا . الا أنه في زمن انتخابه كان أرملا . مع انه من الضروري عند الاقباط أن الذي ينتخب بطريركا لا بد أن يكون اعزب من بدء حياته لكن فصاحته وبلاغته وعلمه العالي أكسبته الافضلية في الانتخاب على المترشحين لذلك المركز السامي من رهبان الاديرة والصوامع فتم انتخابه

بطريركا . ولما كان مثل من تقدمه من البطاركة الذين لم تكن كل اختباراتهم
ومعارفهم محصورة فقط داخل أسوار الصومعه التي عاشوا فيها وخرجوا
منها بل كان عارفاً بكل ما تقتضيه معارف ذلك الوقت . وهكذا كان
يوحنا السادس رجلا ملما بكل ما جريات الاحوال فضلا عن علمه الواسع
ولذلك ساس الكنيسة المرقسية بكل حكمة ونظام .

وبعضهم قال عنه أنه كان رجلا تاجرا قبل انخراطه في سلك الرهبنة .
وكيفما كانت أحواله فأنه يستدل عنه أنه كان ذامواهب خاصة اهلته لذلك
المركز ويظهر أنه استخدم تلك المواهب في الاعمال الخيرية المحضة . ولم
يعلم عن سني بطريركته ألاولى الا الشيء القليل . ولكن بعد وصول البطريرك
اليوناني الجديد خاف الشعب المسيحي كله من أقباط ويونانيين
من تجدد الاضطهاد . لانهم علموا أن الملك العزيز لم يكن يقصد
فقط ابطال عادة الاحتفال بوفاء النيل ولكن كان يرغب في اقتفاء خطة الحاكم
بامر الله بخصوص اضطهاد المسيحيين . ولكنهم عادوا فتنفسوا الصعداء
بموت الملك العزيز فجأة قبل تتميم نواياه لانه كان قد ابتدأ في ايجاد المظالم
والمنكرات وزاد الضغط على الاهالي حتى صاروا في حالة سيئة سيما من غلو لوازم
المعيشة فجاءت المنية للعزيز منصفة المظلوم من الظالم

وقيل ان سبب موته فجاءة انه كان ذهب للقنص والصيد في الفيوم
فقفز به جواده قفزة هائلة فاصابه من جراها تلك القفزة ارتجاج في المخ

مصحوباً بحمى شديدة فحمله رجاله الى القاهرة وتوفي فيها الساعة الرابعة من
ليلة الاحد سنة ٥٩٥ هجرية كما تقدم الذكر . ففرح المصريين عموماً والمسيحيون
خصوصاً بموته .

مات العزيز وله صبي صغير في السنة الرابعة من العمر وقد خلفه على
الاريكة المصرية سنة ١١٩٨ مسيحية و٥٩٨ هجرية واسمه ناصر الدين محمد
ولقب بالملك المنصور وتعين وصياً عليه عمه الافضل

لكن ذلك لم يرق في عيني الملك العادل اذ رأى ان الملك الجديد
الذي هو في مهد الطفولية سيكون حجر عثره في سبيل مطامعه فقدم
من دمشق الى القاهرة بجيش جرار ليتولى الوصاية عليه ويكون نائباً عنه
في الملك حتى يتيسر له اغتيال مملكة مصر من ابن اخيه . فلما وصل القاهرة
طلب ثبات حقوق الوصاية على هذا الملك الطفل بدعوى انه جده الاكبر
وعم وصيه الافضل . فحاول الافضل اقناعه بغلطه فلم يقتنع ونادى بنفسه
سلطاناً سنة ١١٩٩ مسيحية (سنة ٥٩٦—٧ هـ) ولما استاء الافضل من ذلك
حاصره في قصره بالقاهرة فحاول العادل الفرار ففاز بذلك وكر راجعاً الى
دمشق ظافرا من الغنيمة بالاياب

وفي تلك الايام عاش المؤرخ العربي الشهير المدعو عبد اللطيف البغدادي .
فكتب تاريخاً مهماً عن احوال مصر وقد ترجم هذا المؤلف الى اللغة
الانكليزية والفرنساوية وكان عبد اللطيف كاتباً ماهراً وطبيباً حاذقاً لانه
صرف معظم حياته في مطالعة المؤلفات اليونانية القديمة سيما مؤلفات

ارسطاطاليس الحكيم . وقد حضر عبد اللطيف من بغداد الى القاهرة مجذوبا بعوامل الشوق الى رؤية ثلاثة من مشاهير رجالها وقتئذ في العلوم والاداب اذ كان يتوق الى ذوي العلم والادب وخصوصا الى النابغين منهم ومن أولئك الثلاثة الذين جاء عبد اللطيف على شهرتهم رجل يدعى ميمونيدس كان يهوديا اشتهر بالعلم وترك ورائه اسما ذائعا

وكان موسى ميمونيدس من اسبانيا ولد في بلده قورنوه من اعمال الاندلس ولما كبر وترعرع اعتنق الدين الاسلامي في موطنه غير ان بعض المؤرخين يقولون انه عاد الى ديانة اسلافه بعد ان اتى الديار المصرية بجهة الفسطاط . واول ما بدأ به عبد اللطيف عند قدومه الى القاهرة انه زار اهرام الجيزة قبل ان يتشوه خارجها باعمال الهدم التي قام بها الملك العزيز ولما شاهدها وصفها وصفا مسهبا وذكر انها منقوشة من جميع جوانبها بنقوش هيروغليفيه يتعسر على المسلمين فك رموزها وألف بعد ذلك مؤلفا في النباتات المصرية ووصف اثار الدلتا وذكر جاموس البحر في فرعي النيل وأسهب على الخصوص في اثنين منها وقال انهما كانا سبب تلف عظيم في فرع النيل الذي يصب في دمياط وان الحكومة المصرية لما اعيتها الحيل في قتلها ارسلت الى بلاد النوبة واستقدمت طائفة من الصيادين الحاذقين في صيد ذلك الوحش الضاري فحضروا وظفروا بصيدهما بمهارة فائقة وقتلوهما واحضروا جثتيهما الى القاهرة فرآهما عبد اللطيف وكتب يصفهما وصفا دقيقا . وكان عبد اللطيف كثير الاعجاب بالمباني المصرية الفخيمة

ونقوش احجارها العظيمة وقصور الامراء التي تناطح السحاب وفخامتها واتساعها وكثرة حماماتها الجميلة واقبيتها المتينة حتى بعض البيوت والقصور كانت تتهدم اما تلك الاقبية والحمامات فلم يصبها اذى وبقيت تلك الاثار الفخيمة والنظامات الهندسية من عهد اسلاف عبد العزيز الى ذلك العصر حتى ادهشت ذلك الحكيم الشهير والمؤرخ الحاذق عند رؤيته اياها لانه كان يسمع بشهرتها وهو في دمشق . ووصف عبد اللطيف في تاريخه المجاعة العظيمة التي حلت بمصر وصفاً دقيقاً وذكر الوباء الذي عقبها من سنة ٥٩٧ — ٥٩٨ هجرية اي سنة ١٢٠٠ مسيحية

ومما اثبته في وصف تلك المجاعة ما يأتي قال

كان هم بهاء الدين امير الجيوش منصرفاً الى استخدام انقاض المباني المصرية الاثرية الفخية التي هدمها في بناء اسوار القاهرة عوضاً عن تطهير الترع والخلجان وتيسير وسائل الري في البلدان . وكان نتيجة ذلك الغلط الفاحش أن النيل لم يف بالمراد اذ كان فيضانه قليلاً في تلك السنة التي كان مشغولاً فيها ببناء السور ثم هبط سريعاً وترك البلاد جدباء ولم تدخل المياه الى الترع والخلجان بتة لعدم العناية بتطهيرها فحل الشرق وبارت الاراضي الزراعية وترك الفلاحون التعساء حقولهم واجتمعوا في المدن والبلدان وحلوا على ضفاف النيل ولما لم يكن لديهم نقود أو غلال يعولون عليها فشت فيهم المجاعة وكان الفقراء يعيشون على لحم الكلاب والخيل بعد أن مات منهم كثيرون رجالاً ونساءً واشتدت بهم الفاقة الى ان صار

بعضهم ياكلون اولادهم وتفاقم الخطب الى ان صارت اللحوم البشرية تباع في الاسواق . وكان تجار تلك اللحوم يصطادون النساء بالخداع ويخطفون الاطفال ويذبحونهم ويقدمون لحمهم في السوق للبيع كلحم الخراف والعجول . قال عبد اللطيف المؤرخ وقد شاهدت بنفسي جثث جملة اطفال مشوية معروضة للبيع واخيراً اطلعت الهيئة الحاكمة على تلك الفظائع الشنيعة فاراد بهاء الدين وضع حد لتلك الضحايا البشرية فامر بالقبض على تجار تلك اللحوم وقتلة النساء والاطفال وامر بحرقهم احياء في النار . فاحرق منهم ما ينيف عن ثلاثين رجلاً في بحر بضعة ايام في مدينة القاهرة وحدها . وكل صفحة تقلبها من تاريخ عبد اللطيف عن مصر تجدها مشحونة بتفاصيل تلك الفظائع المريعة . وبالاجمال فان مجاورة جامع احمد ابن طولون كانت دائما مملوءة من الجزارين بائعي اللحوم البشرية وكانوا دائما يقفون منتظرين من يمر بهم من النسوة أو الاطفال حتى يقتنصوه اذ ينقضون عليه انقضاض الصاعقة ويذبحونه ويسلخونه وكان يقع في مخالبهم كثير من الخلق وقد خص عبد اللطيف بالذكر بائع كتب وقع بين أيديهم وكان سميناً كثير اللحم فوصف كيفية القبض عليه وذبحه وصفاً وافياً لا محل له هنا . وذكر في كتاباته الصادقة أن تلك الذبائح البشرية لم تكن قاصرة فقط على القاهرة بل كانت فاشية في كل مدن القطر المصري وأخصها بالذكر اصوان وقوص والفيوم والمحله الكبرى والاسكندرية ودمياط . وكانت جثث الذين يموتون جوعا

تلقى بدون دفن على قارعة الطريق وكان ينزع اللحم عن عظم كثير منها ويباع للاكل وتلقى العظام فى الطرق فيعثر فيها المارة كما يعثرون في حجار الارض وأصبحت قرى كبيرة خاوية من السكان ولم يبق الا قليل من الاغنياء الذين احتاطوا لانفسهم فخزنوا شيئاً من المؤونة فانهم هم الذين بقوا أحياء ووضعوا أيديهم على القرى والبلاد التى هلك ذووها وكان اولئك الاغنياء محتفظين على بعض البذور للزراعة وقد اضطروا الى تأجير بعض الناس لحمل الجثث المائتة والقائها في النيل فتلوث ماؤه بميكروبات الجيف فكان ذلك سبباً في انتشار الطاعون كما سترى .

وجعل أولئك الاغنياء قطعة من العملة الفضية لكل من يحمل عشر جثث ويلقيها في النيل وكانت الضباع والسباع توفر عليهم مشقة نقل الجثث في بعض الاحيان اذ كانت تنزل الى القرى ليلا وتأكلها . حكي أن صياداً من مدينة تانيس « احدى مدن الدلتا القديمة » انتشل في يوم واحد اربعماية جثة كانت طائفة على وجه المياه . وقال عبد اللطيف أن الوفامن من الناس كانوا يبيعون أنفسهم وأولادهم ارقاء للحصول على لقمة من العيش تحفظهم من الموت وأخبره بعضهم أن خمسين عذراء وقعن فريسة لأنياب المفترسين وثبت من الاحصاء الذي صار بعد ذلك انه لم يبق من طائفة الصناع وأرباب الحرف بعد تلك المجاعة اثنان في المائة

وكأنه قدر على الديار المصرية في تلك الايام أن تكون مهبط البلاء والشقاء فقد حل الوباء بعد تلك المجاعة العظيمة ومد ذراعه كمنجل الحاصد فحصد

الذين ابقاهم الجوع حصدا فقل عدد السكان في القطر المصري قلة واضحة يدل على ذلك ان الذين كانوا يجنزون يومياً في مدينة الاسكندرية بلغ سبعمائة عداً هذا عدا العدد العديد الذي كان يدفن بغير تجنيز أو يترك من غير دفن كلية واسف عبد اللطيف لان الحكومة والاهالي لم يستدعوه لاظهار مقدرته في انجاد ذلك الشعب وختم تاريخه ببيان شاف عن الدمار الذي الحقه الطاعون بالبلاد وقد علمنا من مصادر اخرى انه بعد أن كتب تاريخه غادر البلاد المصرية وتوجه الى دمشق وتركها تتلظى على جمر المجاعة. وفوق هذه الارزاء والنكبات فان الاضطهاد في ذلك الحين كان على اشده على الاقباط اصحاب الحرف المعمارية كنقاشي الاحجار ورؤساء البنائين والبنائين الذين ادهشت صناعتهم عبد اللطيف المؤرخ فهاجر مئات منهم الى بلاد الحبشة حيث اكرم الامبراطور وفادتهم واستخدمهم في بناء الكنائس.

وعلاوة على مصائب الجوع والاضطهاد والوباء فان فظائع الحرب قامت على قدم وساق في شمال الدلتا لان الصليبيين بعد ما فشلوا في استرجاع فلسطين دفعتين من ايدي الاسلام في خريف سنة ١٢٠٣ مسيحية وربيع سنة ١٢٠٤ اعادوا الكرة على مصر فدخلوها من فرع النيل الغربي عند رشيد وتوغلوا في البلاد حتى عسكروا عند مدينة فوه ثم تفرقوا في عرض الدلتا وصاروا يذبحون السكان من نصارى ومسلمين على السواء. فالتزم اسقف فوه المدعو كيلوس ان يدبر طريقه ليهرب وينجو بنفسه لانه يظهر ان شعبه تفرق

ايدي سبا او ذبحه الصليبيون. ويظهر ان المصائب في ذلك الوقت قد عقدت خناصرها على خراب مصر فاصابتها زلزلة عظيمة مرعبة اثناء ذبح الصليبيين للمصريين وكانت تلك الزلزلة هائلة جدا حتى شعر بها سكان سوريا واسيا الصغرى حتى حدود العجم. وكان العادل في ذلك الحين موجودا في سوريا فاسرع الى مصر لمطاردة الافرنج. وبوصوله لم تقم حربا في وجههم بل فتح باب المخابرات السياسية بينهم وانتهت تلك المخابرات الى معاهدة مفادها ان يسلم الملك العادل الى الصليبيين يافا ولدة والرملة في سوريا نظير جلائهم وبعد تلك الحوادث قدم وفد من امبراطور الحبشة الى البطريرك يوحنا السادس بطلب رسم مطران جديد لتلك البلاد. وكان البطريرك شديد الرغبة في انتخاب مطران يكون ذا كفاءة تامة لذلك المنصب الكهنوتي السامي المهم الكائن في بعيد الاقطار. ولكن العوائد القديمة المتقدمة كانت تحتم عليه ان لا ينتخب لذلك المركز الديني الرفيع الا من طبقة الرهبان ولا يمكنه انتخاب رجل من طبقة القسوس الذين يرى فيهم الكفاءة والاهلية. ولذا التزم ان يدور على الصوامع المصرية المختلفة وصار يمتحن الرهبان الذين فيها فرداً فرداً وينتخب اسماء الرهبان الذين يرى فيهم اللياقة للترشيح في الانتخاب وكتب قائمة باسمائهم وابتدأ أن ينظم طريقة انتخاب دقيقة ليختار اهم راغب في الصوامع المصرية واديرتها. لكن ذلك لم يرق في عيني المندوبين الاحباش حتى ملوا كثرة الانتظار فاشاروا على البطريرك ان يسرع في تعيين ذلك المطران. ثم

كتبوا الى سلطان مصر وارسلوا له هدايا عظيمة وطلبوا منه ان يكلف البطريرك يوحنا بان يسرع في انتخاب المطران حتى يعودوا به الى بلادهم بدون تاخير

لكن ذلك لم يؤثر في البطريرك لانه عدل بالمرة عن انتخاب راهب غير لائق لذلك المنصب ولم يبال بذلك الاستعجال . وتصادف ان اسقف فوه كان بلا قطيع لان شعبه قتل كله في حرب الصليبيين كما قدمنا . وكان ذلك الاسقف ذا خبرة تامة بشؤون وظيفته واخلاق عالية وافكار سامية فرأى البطريرك انه اكثر لياقة لذلك غير أن تعيينه مطراناً للحبشة يعد مخالفاً لقوانين الكنيسة القبطية التي يصعب نسخها لكن لما كان مبدأ البطريرك ساميا ولم يعارضه احد في ذلك ترقي الاسقف كيلوس الى رتبة مطران باحتفال عظيم وسافر في الحال الى مركزه السامي الجديد مع سفراء الاحباش .

ولما وصل حدود الديار الحبشية واستقبله الامبراطور والشعب الحبشي استقبالاً عظيماً . وصنعوا له موكبا مشى فيه الامبراطور نفسه على قدمه ثلاثة ايام من مدينة اكسيوم الى العاصمة وكان يتقدم ذلك الموكب العظيم كل اساقفة وكهنة وشمامسة الاقطار الحبشية يحرسهم جيش جرار من الجنود والضباط الاحباش واثناء مسير الموكب في الطريق خصص الامبراطور للمطران مظلة من الحرير الغالي القيمة المطرز بالذهب وكان يحملها اربعة من كبار الاساقفة الاحباش وظل هذا الموكب

المهيب العظيم سائراً على الاقدام حتى وصل عاصمة الديار الحبشية .

وكتب احد مؤرخي المصريين الاقباط الذي كان مصاحباً الاسقف في سفره وصفاً مدققاً لذلك الاحتفال البهي والمجد والعظمة التي كانت تحيط المطران في كل الاوقات . وبعد استلام المطران كيلوس مقاليد الكنيسة الحبشية صار يسوسها ويديرها باحسن انواع الادارة وسلك مع الاحباش وامبراطورهم احسن سلوك واستمر مدة اربع سنوات على هذا السلوك الحسن والبطريرك يوحنا في مصر يسمع عنه كل ثناء ومديح . ولكن بعد مضي تلك المدة حضر فجاءة الى القاهرة فاندهش البطريرك من ذلك ولما ساله عن سبب ترك مركزه وحضوره فجاءة بدون مناسبة فاجابه ان اسقفاً حبشياً هو شقيق الملكة اغتصب منه مركزه قهراً وقد نجا بحياته وحضر الى وطنه . ولكن ذلك لم يقنع البطريرك وارتاب في صدق الخبر فامر المطران كيلوس بالاقامة في القاهرة وارسل مندوباً الى الحبشة ليستفسر عن الحقيقة وتحقيق الامر مع الاحباش فراح المندوب وبعد غياب سنة تماماً عاد حاملا للبطريرك رواية تخالف رواية المطران كيلوس على خط مستقيم . ومضمون تلك الرواية ان اواني الكنيسة الكاتدرائية في مدينة اكسيوم قد سرقت وكانت مصنوعة من الذهب الخالص وان المطران كيلوس اتهم حامل مفتاح خزينة الكنيسة بسرقتها . وانه بمجرد الشبهة وسؤ الظن فيه القي القبض على ذلك الكاهن الحبشي المسكين وسجنه ثم امر بجلده بالسياط حتى

مات ، فاوجب ذلك التصرف الممقوت استياء الاحباش عموماً فتألبوا
واحدثوا مشاغبات هائلة ضد المطران كيلوس ولما لم يعد في وسعه دفع
الفرية عن نفسه فر هارباً الى مصر

وارسل امبراطور الحبشة مندوبين من قبله ايضاً مع مندوب البطريرك
الى مصر ليؤيدوا تلك الحقيقة للبطريرك ويطلبوا منه تعيين مطران اخر
خلاف كيلوس . وامدهم ايضاً بهدايا ثمينة للسلطان العادل لان السلاطين
والخلفاء المسلمين الذين كانوا يحكمون مصر كانوا يحذرون اتصال المخابرات
والمواصلات بين كنيستي السودان والحبشة وبين امهما الكنيسة القبطية
المصرية دون ان تقوم هاتان الكنيستان بدفع جزية عظيمة لحكام مصر نظير
ذلك الترخيص وبين تلك الهدايا التي ارسلها امبراطور الحبشة مع سفرائه للعادل
ملك مصر ثلاث حيوانات جليلة وهي اسد وفيل وزرافة وفي ذلك الوقت كان
الملك العادل غائبا عن مصر ومشغولا في حروبه مع الافرنج في سوريا
فتناول ابنه الكامل ولي عهده على مصر تلك الهدايا بمزيد الشكر واصدر
الاوامر بالترخيص للبطريرك بانتخاب مطران جديد للحبشة

أما البطريرك يوحنا فقبل ان ينظر في أمر تعيين المطران الجديد اراد
محاكمة المطران كيلوس اولا . فعقد مجمعاً دينيا تحت رئاسته وبعد المداولة
مع الاساقفة اعضاء المجمع حكم عليه بتجريده علناً امام الناس من درجته
الكهنوتية العالية . وقد عين يوما مخصوصا لتنفيذ ذلك الحكم في نقطة معلومة
من احياء مدينة القاهرة فما جاء ذلك اليوم حتى ازدحم الخلق ازدحاما

شديدا بين نصارى ومسلمين في نقطة التنفيذ ليشاهدوا شلح المطران .
وكان ازدحام الناس شديدا لشغفهم الزائد برؤية ذلك المنظر الذي لم يسبق
له مثيل . وكان كل فرد من المتفرجين يريد ان يستأجر حمارا مسرجا ليركبه
الى ذلك المكان حتى يصل قبل سواه فما كان يجد ولو دفع اجرته ثلاثة دراهم
(الثلاث دراهم كانت تعتبر اجرة غالية في ذلك الحين) . وبعد ان امتلأ
المكان من الجماهير الكثيرة حضر البطريرك وحوله الاساقفة والكهنة
والشمامسة وأحاطوا بالمطران كيلوس ووراءهم جمع كمن يسوقون رجلا للشنق
ولما وصلوا الى النقطة المعينة للتنفيذ . قرأ احد الاساقفة امام كيلوس
قصة ذنبه وصورة حكم المجمع المقدس عليه بالتجريد ثم خلعوا عنه الملابس
الكهنوتية باهانة وكان المنظر مؤثراً وبعد ذلك تفرق الجميع

ثم انتخب البطريرك راهبا من دير القديس انطونيوس يدعى اسحق
وارسله الى الحبشة فقوبل هناك بكل حفاوة واكرام وساس كنيستها
بحكمة فائقة ثم توفى بعد ان عاش اربعين سنة بين الاحباش في صفاء
وهناء حتى اعتبروه في مصاف القديسين بعد وفاته . ومن اعماله المأثورة
انه استحضر من مصر جماعة من الاقباط المشهورين بالنقش على الحجر
فنقشوا له احجارا صخرية صلبة نقشا جميلا وزين بها كل الكنائس الحبشية
بناء وترميما وقد ادهشت تلك النقوش الحجرية الجميلة جماعة البرتغاليين الذين
زاروا البلاد الحبشية بعد زمن المطران اسحق المشار اليه باجيال عديدة .

وكان الملك العادل اثناء تلك الحوادث مشغولا بمحاربة الصليبيين

في فلسطين وكان القائم باحكام وشؤون مصر ابنه الملك الكامل لذي كان يحبه الاقباط حبا شديدا. حتى ان بعضاً الذين كانوا اسلموا ظاهريا في ايام السلطان صلاح الدين لضغطه عليهم ابتدأوا يؤملون خيرا في الملك الكامل ليصرح لهم ان يعودوا الى ايمانهم الاصلي ودينهم المسيحي اذ لم يتركوا دينهم الا خوفا من الموت حرقا بالنار وهو القصاص الذي كان يصيب كل من يحيد عن الدين الاسلامي في عصر صلاح الدين.

وكان في جملة اولئك الذين اعتنقوا الاسلام قهراً خوفا من الموت حرقا راهب من دير وادي النطرون أجبره السلطان صلاح الدين على اعتناق الديانة الاسلامية أو يذيقه المنون فاسلم وتعين كاتباً في الحكومة وكان ذلك سببا لحصوله على شهرة في الاعمال الحسابية

فلما جاءت ايام الملك الكامل الذي أظهر عطفه على الاقباط كما قدمنا. مثل ذلك الراهب المسلم الكاتب بين يديه وطلب منه الترخيص له بالعودة الى الديانة المسيحية وقال له انه ان لم يقبل منه ذلك الطلب فانه يفضل ان ان يموت شهيدا عن ان يبقى مسلما طول حياته فرأف الكامل بحاله واصدر أمره برفته من ديوانه دون أن يمسه أحد بضرر ففرح الراهب فرحا لا يوصف واستقبله اهله استقبالا عظيما وتاب عن خطاياه وعن تظاهره بالاسلام وعاد الى الرهبنة. وكان حينئذ قبطي آخر من مدينة طيبة قد إسلم قوة واقتدارا فلما سمع بنجاح راهب وادي النطرون في مسعاه قدم هذا أيضاً التماسا مثله الى الملك العادل يطلب فيه الترخيص له بالعودة الى

ديانته المسيحية. ولكن لسوء حظه ولنكد طالع الراهب ايضاً انه ما كاد الكامل يصدر أمره ثانيا بالتصريح له الا وحضر أبوه الملك العادل فجأة من سوريا فلما بلغه ما كان من أمر الراهب الذي عاد الى النصرانية استاء جدا وغضب غضباً شديدا بسبب حنو ورأفة ابنه ثم أصدر أمره في الحال الى ثلة من الجنود لمحاصرة دير وادي النطرون وأمر أحد ضباطه بقتل ذلك الراهب المسكين في الحال ان لم يبادر الى انكار ايمانه ويرجع الى الديانة الاسلامية فارتعدت فرائصه ولبى الطلب وانكر ايمانه ومن شدة خوفه تمادى في الانكار وصار يتملق الى المسلمين ورجال الحكومة واخبرهم انه قادر على ارشادهم الى حيث يخبئ الرهبان ذخائرهم. وكان لما سمع الرهبان بقدوم المسلمين الى الدير انهم اخفوا آنية الكنيسة في بئر لاماء فيها ولم يكن في الدير ذخائر خلاف ذلك. واكد ارشمندريت الدير لجماعة الاسلام الذين جاؤا يفتشون على الذخائر وينهبونها بعدم وجود شيء مما تبالغ لهم. ولكنهم عثروا على البئر بارشاد ذلك الراهب الخائن فاستخرجوا منها كأس الافخارستيا (أي كأس العشاء الرباني) وصينية الخبز التي يوضع عليها العشاء الرباني وحجاب الكنيسة المقدس وعادوا بها الى القاهرة. وبعد ذلك بقليل توسط في أمرهم الكامل فامر العادل برد تلك الذخائر اليهم ففرحوا فرحاً عظيماً لذلك

وبعد ذلك بقليل توفى البطريرك يوحنا وكان محبوباً من الجميع فحزن عليه كل المصريين غير أنهم دفنوه بغير ان يحتفلوا به احتفالاً عظيماً لان

من عادة المصريين ان يعجلوا بدفن موتاهم ولما كان موته بغتة لم يتمكن احد من اساقفة الابرشيات حضور جنازه

وكان احد اساقفة الكنيسة اليونانية في مصر يبكي عليه عند تشييع جنازته بكاء مرا وهو مما يدل على مكانته وعلو مقامه يشهد بذلك نفس الذين كانوا يسمونه بالهرطقة حتى ان احد المؤرخين المسلمين شهد بعظمته فكتب يقول ان من ضمن اصلاحاته انه الغى العادة الجارية بدفع رسوم الانتخاب ولم يلب مطالب الاسكندرانيين الباهظة . ونهى عن اخذ رسوم تقليد الوظائف الكهنوتية . ولم يكن مديوناً بجميل أو معروف لمسيحي واحد من شعبه طول حياته بل كان ذا فضل عم الجميع من رفيع ووضيع وكان يبغض الرشوة وذلك من افضل السجايا التي يتصف بها حر الشمائل وكان يسخط على الذين يقبلونها وبقي الكرسي البطريركي المرقسي خاليا من بطريرك يتبوأه لعدم اقرار الاساقفة على احد من المرشحين . وكان في ذلك الوقت اثنان مرشحين للبطريركية احدهما يدعي بولس لم يكن مشهورا الشهرة الكافية والاخر رئيس شمامسة كنيسة المعلقة في حصن بابليون . وغير هذين الرجلين كان ثالث يدعي داود ابن يوحنا بن لقلق من اهالي الفيوم اشتهر بين الاقباط بزيادة مطامعه في الترقي وكان له حظ وافر لدي مجمع الاساقفة الذي انعقد لانتخاب البطريرك الجديد فشرع في الحصول على الكرسي البطريركي بكل واسطة مهما كان نوعها مع انه لم يكن حائزا اللياقة لذلك دينياً اوعلمياً او ادبياً وقد سبق له ان اسقفه

حرمه بسبب اثارته شغباً في الكنيسة وكان قد رشح نفسه لوظيفة مطرانية الحبشة فلم يقبل البطريرك السابق يوحنا السادس طلبه وانتهره على تطفله وطلبه ما لا قبل له عليه فأثر ذلك في نفسه ايما تأثير وكان باعثاً له على السعي بما فوق الطاقة للحصول على مركز البطريركية ولم لو تكن الكنيسة القبطية مقيدة بقوانين وطقوس يتحتم اتباعها لفاز داود بالحصول على كرسي البطركية ولم يسبب سعيه متاعب تذكر. ولكنه لسبب ذلك لم يفز بطائل اولا لان شعبه غير موافق على لياقته وثانياً لرفض الاساقفة الاقرار عليه . ولكنه اذا كان صديقاً حميما لناظر الحربية الذي كان قبطياً مسيحياً ولكنه لم يكن غيورا على طقوس الكنيسة سعى في انالته بغيته وحض السلطان العادل على اصدار امره بسيامته بطريركا فاصدر السلطان أمره بذلك وكان يوم الاحد فلما علم الاقباط بذلك هاجوا هياجا شديدا . وحجز ناظر الحربية المذكور جمهورا من الاساقفة ليلة الاحد ليغصبهم على سيامة داود بطريركا طوعا لمنشور الملك العادل فتشاور الاساقفة في ذلك واتفقوا على ان يبلغوا كبار الامة بذلك حتى يتخذوا التدابير الفعالة لمنع التداخل في الشؤون الدينية . فلم يتأخر وجهاء الاقباط عن اجراء اللازم ولما وصلهم الخبر قاموا ليلا ووصلوا الى سراي الملك الكامل وهم في شغب وهياج عظيمين فصاحمن لومه على ضوضائهم وهم ينادون وكان يومئذ في قلعة المقطم فقام بشفقته المعهودة وخرج لاستقبالهم فتقدم اليه جماعة منهم وبأيديهم عرائض التظلم

ية ويسلون اليه ان يغيثهم ويمنع عنهم النكبة التي حلت بهم ويرفع المصاب الذي يتهدد كنيستهم بالخراب وكان كل الاقباط متجمهرين في الخارج وفي يدهم مشاعل موقدة وهم يصرخون طالبين من الكامل ان ينظر في شكواهم فلما وقف الكامل على امرهم امر باسراج جواده وركب مسرعا لمقابلة والده الملك العادل والمحادثة معه في ذلك ووعدهم خيراً اما ما كان من أمر داوود فانه علم بانه لابد من هياج الشعب فخاف وهرب في فجر الاحد من القاهرة ومعه اعوانه والاساقفة الذين كانوا يريدون ان يرسموه بطريركا وجاؤا الى بابليون التي لم يبق منها بعد ذلك الحريق الذي تقدم ذكره غير كنيسة المعلقة التي كانت الكندرائية العظمى في ذلك اليوم وقد حفظت من النار لوجودها داخل الحصن العظيم الذي لا تزال اثاره باقية حتى الآن . فدخلوها واقاموا بها .

ولما وصل الكامل الى قصر ابيه العادل في القاهرة وجد ان داود هرب منها فطفق يحدث اباه بتفاصيل المسألة ويبين له وجوه ستياء الاقباط من قبوله بطريركا عليهم لعدم توفر شروط اللياقة فيه بحسب مذهبهم فقبل العادل مطالب ابنه وأصدر أمره في الحال باستحضار الاساقفة من كنيسة المعلقة حيث بدونهم لايتم سيامة داود بطريركا . فقام رجال الحكومة حالا الى تلك الكنيسة وأمر الاساقفة بالخروج حالاً من الكنيسة والذهاب الى القاهرة بامر الملك العادل فما صدقوا ان سمعوا هذه الدعوة التي كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر نظراً لمضايقة داود وناظر الحربية لهم والالحاح عليهم

بسيامته بطريركا .

فلما قام الاساقفة مع مندوبي الحكومة الى القاهرة حبطت مساعي داود وتأجلت سيامته الى اجل غير مسمى . وبعد ذلك اجتمع اربعة من من الاساقفة وحرموه وتعاهدوا ان لايحضروا سيامته اذا اتفق اتمام ذلك بالرغم عنهم لانه ظهر لهم انهم لايثقون بالملك العادل وكان داود يبذل فصارى جهده في دس الدسائس لنوال مأربه طالما كان الكرسي البطريركي خالياً من رئيس ديني يتبوأه

ومن تلك المساعي والدسائس أن ناظر الحربية صديق داود عاد الى استئناف مساعيه فاثر على افهام الملك العادل بان داود اوفق ما يوجد لذلك المركز الخطير وان الشعب موافق على هذا كل الموافقة وانه لا يعول على تظاهر الذين قاموا ضده لانهم من رعاع القوم وصعاليك الامة ولا يروقهم الا الهياج واقلاق راحة الامن العام وبرهن صحة أقواله للملك بان رشا بعضاً وهدد اخرين من الاساقفة حتى تحصل على امضاء ثلاثة عشر اسقفاً منهم ويقول بلوء الاسف ان اثنين منهم ممن اقسموا ان لايحضروا سيامته امضا على العريضة وفاز بالحصول على ختوم اربعين راهبا وجمهور عظيم من العوام وكتب ناظر الحربية عريضة مستوفية الشروط يطلب بها تعيين داود بطريركا فلم يسع السلطان العادل بعد ذلك الا ان أصدر أمره باجراء ما يريده ناظر حربيه فقربت آماني داوود ان تحقق . ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه فان المقادير عاكسته لان بقية الشعب لم توافقه على رأيه والتجأوا

الى ابن السلطان الملك الكامل بوساطة زعيمهم طبيب العادل وكان قبطياً
أيضاً فسعى في افساد تدابير ناظر الحربية وحصل على توقيع كثيرين
من ذوي الحيثيات بعدم اقرارهم على داود وطلب من الملك ان يطلق
الحريه للاقباط ليختاروا من يشأون حسب منطوق طقوسهم الكنائسية
فصار الطبيب والكامل يشدان الحبل من جهة وناظر الحربية وأعوانه
من الجهة الاخرى

فتحير الملك العادل من ذلك واخيرا اضطر ان يسلم الى ارادة ابنه
وطبيبه فأمر بمنع اجبار الاقباط على قبول داود بطريركا كما انه أمر ايضاً
بعدم تنصيب سواه فانتصر حزب الطبيب والامة على حزب داوود
وناظر الحربية وكانت نتيجة ذلك الشجار ان بقي الكرسي البطريركي بغير
حبر مدة طويلة

الفصل السادس والخمسون

الصليبيون في مصر

سنة ١٢١٦ مسيحية و٩٣٢ للشهداء و٦١٣ للهجرة

جرت تلك الحوادث في مصر بينما كان الصليبيون يوغلون في فلسطين
في حملتهم السادسة على المسلمين سنة ١٢١٣ (٦١٠ هجرية) حيث ضايقوا
المسلمين مضايقة شديدة على حدود سوريا وامتلكوا أعظم مدائن سوريا
أطمعهم في ذلك انقسام الدولة الايوبية ولكن لما خلا الجو للملك العادل

خلع المنصور في شوال سنة ٥٩٦ بعد ان حكم ٢١ شهراً ثم خلع الافضل عن
دمشق وقبض على زمام سلطنة مصر وسوريا وصير الامارات الصغرى
تحت سلطانه وجمع شتات القوات الاسلامية غير انه لما علم ان الصليبيين
يطمعون في المجيء الى مصر مرة اخرى ولا يرعون حرمة المعاهدة
السابقة التي تنازل لهم فيها عن مدن يافا واللد والرملة في سوريا نظير انسحابهم
من مصر استاء من نكثهم العهود واتضح له انهم لم يقبلوها يومئذ الا
ليشغلوه عنهم فيبقى في مصر حتى يسيروا الى فتح حماة فلذلك خرج اليهم
في جيش عظيم والتحم الجيشان في موقعة دمويه هائلة وبلغه وهو يحارب
قدوم نجدة للصليبيين فتقهقر الى نابلس وتحصن فيها فطرده الصليبيون فعاد
الى سهول صفر وتمكن الاعداء من قطع طرق المواصلات عليه وجالوا
في سوريا يذبحون وينهبون حتى صيروها بلاقع ومن ثم حولوا وجوههم
الى مصر فوصلوها بحراً وحاصروا دمياط وكان ذلك يوم الثلاثاء ٤ ربيع
اول سنة ٦١٥ هـ وكانت عددهم يومئذ ٤٠٠ الف راجل و٧٠ الف فارس فحفروا
الخنادق وشرعوا في مهاجمة برج دمياط الذي امتنع فيه المسلمون واحاطوه
بسلاسل حديدية امتدت من البرج الى السور على النيل لمنع المراكب
الحربية القادمة من البحر المتوسط وبذل الصليبيون الجهد في امتلاك البرج
ليتسنى لهم العبور في النيل حتى القاهرة وكان في البرج كثيرون من المقاتلة
الاشداء فلما رأوا ضيقة الحصار قاتلوا مستقتلين وصاروا يرشقون الاعداء
بالسهام والحجارة والحراب حتى دحروهم ولكن ورد المدد على الصليبيين

فاعادوا الكرة واستولوا على البرج وكان العادل اثناء ذلك يرسل الامداد
من الجنود السورية للدمياطيين ولما بلغ الكامل وقوع دمياط في تلك
الحرب بيد الاعداء وخروج ابيه منها وكان لم يزل في سوريا أمر والي
أقليم الغربية بجمع العربان وحشد جيش عظيم منهم علاوة على جيشه المنظم
وسار به حتى بلغ دمياط وفرق جنده حول السور ليحصر الافرنج ويساعد
جيوش ابيه الملك العادل ولكن الملك العادل كان سبق فتوجه الى القاهرة
خوفا عليها من فتك الصليبيين بها ولكنه مرض في طريقه ومات في جمادي
الاخرى فكتم الملك عيسى ابنه خبر موته خوفا من انحلال جنوده وقضاء
الصليبيين عليه واحتال لذلك بان حمله في محفة وجعل خادماً وطبيباً راكباً
بجانب المحفة والساقي يقدم الكاس كالمعتاد ويحمله الى الخادم فيشربه ويوهم
الناس ان السلطان العادل شربه وظل كذلك الى ان وصل الى دمشق
فوضع الملك عيسى خزائن ابيه وجميع ما كان معه في قلعتها واطمأن عليها
ثم أعلن وفاة أبيه ودفنه بالقلعة المذكورة ثم نقله الى مدرسة العادلية
بمدينة دمشق .

ولما بلغ خبر موته الى ابنه الملك الكامل حزن حزناً شديداً وتبوأ
العرش مكانه غير ان الجنود تمردت عليه وابت الخضوع له والاعتراف
به سلطانا لانهم كانوا يكرهونه لمحبته في السلام ورفقه بالمسيحيين واختاروا
من بينهم قائدا كرديا ليتولى أمورهم ولو كان الصليبيون تقدموا الى فتح
مصر حينئذ لظفروا بما كانوا يؤملون بغير كبير مشقة غير انهم كانوا

منقسمين على بعضهم كالمسلمين

وكان كل منهم يريدان يكون رئيساً لان القاصد الرسولي الذي
ارسله البابا وصل الى المعسكر واراد ان يسود رؤساء الجند فعارضه جان برين
قائد الجيوش الاكبر وابى أن يسلم وظيفته لاحد الاكليروس ومازال
الصليبيون يقضون الوقت في المناقشة على الرئاسة حتى أضاعوا الفرصة
وكان المسلمون يومئذ قد جمعوا كلمتهم ونظموا جامعتهم وسببه ان اخا الملك
الكامل كان يحب أخاه حباً خالصاً وذلك بخلاف ما نراه في الاخوة ذوي
المناصب الرفيعة على وجه العموم وكان اسمه نور الدين ولعله الملك العادل
عيسى المعظم الذي كان برفقة أبيه العادل وقت موته كما تقدم

فلما بلغه خبر تمرد الجند على أخيه الكامل أسرع اليه من سوريا
ليعضده وأيد كلمته والزم الجنود بالخضوع له فاعتزت كلمة الكامل والتفت
الى محاربة الصليبيين الذين بقوا على حصار دمياط بضعة اشهر زادت
قوتهم في خلالها بقدوم القديس فرنسيس من أوربا واتحاده مع اخوانه
وكان معه لفيف من الرهبان يقصدون الاستشهاد في الحرب . وصادف
مقدمه الوقت الذي كان فيه الملك الكامل وأخوه يستعدان لرفع الحصار
عن دمياط فانبأ القديس فرنسيس ان المسلمين سيهزمونهم في الموقعة القادمة
فتمت نبوءته بان قتل من الصليبيين في تلك الموقعة ستة آلاف نفر عدا
الذين اسرهم المسلمون غير انه مع ذلك النصر لم يقو المسلمون على فك الحصار
عن المدينة وبعد تلك الموقعة خرج القديس فرنسيس مع رفيق له من

معسكر الصليبيين لزيارة معسكر المسلمين فقبض عليهما رجال حرس المعسكر وكبلوهما بالقيود واحضروهما امام السلطان الكامل

فسألهما السلطان عن سبب مجيئهما الى معسكره . فاجابه القديس فرنسيس بانه حضر بارادة الله جل جلاله ليظهر للسلطان وشعبه طريق الخلاص . وكان القديس فرنسيس كباقي الاوروبيين في العصور الحاضرة والخالية غير عالم بقدر الكنيسة القبطية المصرية ولا يدري ان الاقباط المسيحيين متعلقون به وكذلك كان الملك الكامل يجهل ان القديس فرنسيس يعتبر الهرطوقي والمسلم على حد سوى غير مؤمنين وان لديه القبطي والمسلم على مساواة واحدة نظرا لانهما كلاهما على غير المذهب الكاثوليكي

فلما سمع الملك الكامل قوله تبسم ضاحكا من جهله لكنه سر من شجاعته وطلب منه أن يبقى في ضيافته جملة أيام فاجابه انه مستعد ان يجيبه الى طلبه اذا هو رضي بالشرط الذي يشترطه عليه وهو ان يامر السلطان باعداد اتون عظيم يحمى بالنار ويدخل فيه القديس فرنسيس مع احد مشايخ المسلمين الذي ينتخبه السلطان ممن يعهد فيه الطهارة فمن يخاف منهما من قوة النار وكانت النار عليه برداً وسلاماً كان هو صاحب الدين الصحيح فلم يرض السلطان بذلك لعلمه ان ليس أحد من المشايخ من يرضى بذلك فلما رأى القديس فرنسيس ذلك طلب ان يدخل اتون النار وحده بشرط انه اذا خرج حيا يحتم على الملك الكامل ان يعتنق الديانة المسيحية مع سائر شعبه .

فرفض الكامل ذلك الاقتراح أيضاً خوفا من ان يكون ذلك ضربا من ضروب السحر او الشعوذة ولو كان الملك الكامل يريد اعتناق الديانة المسيحية لما رضي بالتتبع للكنيسة اللاتينية بل بالحري كان يؤثر الكنيسة القبطية عليها. ومن ثم امر القديس فرنسيس بالخروج من عنده بكل لطف وقدم اليه هدايا ثمينة فلم يقبل ولكنه قبل خروجه طلب منه ان يأذن له أن يبتهل الى الله حتى يعلن عظمته لسلطان مصر سواء بقي على الاسلام أو تنصر

وبعد ان ايد الملك عيسى أخاه الكامل على سريره ابقى عنده بعضاً من جيشه وعاد الى الشام حذرا من استفحال شوكة الصليبيين اذا وقعت دمياط في ايديهم فلما وصل اليها أمر بهدم سورها حتى اذا ملكوها لم يكن لهم السور قوة على قوة

وبعد ان عاد القديس فرنسيس الى معسكر الصليبيين شرعوا في مضايقة دمياط فلما تأكد الكامل استحالة انقاذ المدينة بقوة الحرب اخذ يتداول معهم في شروط الصلح فقبلوا بذلك لان معظمها لصالحهم فانه رضي في نظير جلائهم دمياط وتخليهم عن حدود مصر ان يسلمه بيت المقدس وسائر املاكه في فلسطين واملاك اخيه خور الدين التي في شمال سوريا والصليب الحقيقي الذي صلب عليه السيد المسيح الذي سبق للسلطان صلاح الدين فوعدهم بتسليمه لهم ولم يبر بوعده هذا مما عدا الغرامة الحربية واطلاق كل الاسرى المسيحيين الذين عنده فكانت تلك البنود غاية في التساهل من الملك الكامل ومع ذلك رفضها

الصليبيون خوفاً من ان يعود المسلمون بعد ذلك الى استرجاع اوروشليم فصمموا على البقاء في مصر وابلغوا الكامل انهم لايقبلون بها في حين ان الذين رفضوها قلال جداً ومن ثم استؤنف القتال وهجم الصليبيون هجمة الاستبسال على دمياط ففتحوها عنوة ودخلوها يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ الموافق نوفمبر سنة ١٢١٩ مسيحية بعد حصار دام ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً وقد اشتد الغلاء في دمياط قبل افتتاحها حتى بلغ ثمن البيضة بضعة دنانير فلما دخلها الصليبيون اعملوا فيها السيف فتراكمت الاشلاء وتصاعدت منها الروائح الخبيثة والابخرة المنتنة فلما رأى الصليبيون ان المدينة اضحت بهذ الصورة عدلوا عن اقامة معالم الاحتفال بالظفر خوفاً من الاصابة بالوباء واساء جمهورهم الى الاقباط وانكروا عليهم حقوقهم الوطنية وعينوا مطراناً لدمياط من قبل كنيسة رومية اللاتينية وحولوا جامع المسلمين العظيم الى كنيسة رومانيه باسم العذراء مريم وتفرقوا في القرى يقتلون وينهبون وداسوا حقوق الكنيسة اليونانية في مصر وتعدوا على بطريركها وذكر رينودون المؤرخ الفرنسوي اسماء اربعة عشر بطريركاً لاتينياً اقيموا على الاسكندرية من عهد ذلك الانشقاق ولكن لم يبق منهم في مصر سوى الاثنين الاولين فقط.

ومما ساعد على ذلك ان الكنيسة القبطية كانت الى ذلك الحين خالية من بطريرك يعارض في الانشقاق الذي احدثه الصليبيون

وكتب تقولا بطريرك اليونان رسالة الى بابا رومية يتوسل اليه ان

يأمر الصليبيين باطلاق سراح الاسرى المسيحيين الذين وقعوا في اسرهم في حرب دمياط وأمر بسجنهم في سجون مصر والاسكندرية وأخبره ان بين الاسرى شماساً لاتينياً طلب منه ان يقيمه رئيساً دينيا عليهم في السجن وانه أي تقولا ابى ان يجيبه الى ذلك مالم يحصل على مصادقة ابيه الروحي الاعظم أي قداسة البابا. لكن البابا لم يطلع على ذلك الكتاب بل أمر بان يكتب الى البطريرك تقولا بوجوب الخضوع لكنيسة رومية وكان بين الحاضرين أسقف عكا فلما رأى الصليبيين يبيعون الذين بقوا احياء من سكان دمياط حملته الشفقة على شراء كثيرين منهم حتى قيل انه اشترى نحو ٥٠٠ طفل وعمدهم ولكن لانه لم يتخذ الوسائل الكافية لارضاعهم مات اكثرهم ولم يذكر التاريخ ان كان هذا الاسقف الشفوق بحث عن والدي أولئك الاطفال التعساء الذين عمدهم وعرف ما اذا كانوا مسيحيين ام مسلمين ولا ريب ان كثيرين منهم كانوا أقباطاً فتكرر عمادهم حينئذ والذين بقوا أحياء اعتنى بهم الاسقف مع بعض اصحابه

اما الملك الكامل فانه بعد سقوط دمياط في ايدي الصليبيين اسرع الى مصر وأمر بتحصين القاهرة عاصمة البلاد لتكون مستعدة لدفع النوازل ثم عاد الى طلخا وعسكر هناك ليصد الاعداء عن الايغال في داخلية البلاد وأمر ببناء البيوت والفنادق والاسواق هنالك. فدعيت تلك المباني من ذلك الحين بالمنصورة رمزاً الى انتصاره على الصليبيين كما سترى وهذا هو أول تأسيس مدينة المنصورة المشهورة بين مدن القطر المصري الان

ثم استنجد الكامل بكل المسلمين في سوريا ونادى في مصر بالجهاد الديني فالتف حوله خلق كثير جاؤا اليه من اصوان جنوباً الى اسكندريه شمالا عدا النجدات التي لحقته من الشام كالمطر تحت قيادة أخيه الملك عيسى المعظم وتبعه ملوك مسلمون كثيرون حتى بلغ جيش الكامل المنظم فقط نحو خمسين الفاً من الفرسان وخمسماية الف من المشاة

اما الصليبيون فبعد ان رتبوا معسكرهم في دمياط وأقاموا فيها حامية كافية ساروا جنوباً قاصدين مقاتلة السلطان الكامل ودخول عاصمته فلما وصلوا المنصورة وجدوه معسكرا فيها ومستعدا للقتال فهالهم امر استعداده لانهم كانوا وقتئذ لا يزيدون عن مئتي الف من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان . ولما علم الكامل بمجيء الصليبيين قدم اسطوله النيلي امام المنصورة وعدده مائة قطعة حربية وشاغلهم أولا من البحر وأسرع وأرسل الف فارس من العربان ليقطعوا عليهم خط الرجعة من جهة دمياط ثم سير الاسطول بقيادة الاميرال بدر الدين بن حسون ومعه حراقة كبيرة الى رأس بحر المحلة . فانقطعت المسيرة عن الافرنج براً وبحراً فوقعت دمياط في يد المسلمين والصليبيون لا يدرون . ثم شرع في محاربتهم عند المنصورة ووقعت بينهما موقعة دموية لم يستتب فيها النصر لاحد الطرفين لان الفريقين كانا يقاتلان مقاتلة اليأس والاستبسال حتى كادا يفنيان فركب الملك الكامل جواده ودخل المعمعة وصرخ في جنوده ليثير عواطفهم فصاروا يقاتلون قتال الجنون حتى رجحت كفة الميزان عنده وانجلت تلك الموقعة

بانتصار المسلمين على النصارى وكانت خسارة الصليبيين يومئذ عظيمة جدا لان المسلمين اسروا منهم نحواً من الفي فارس عدا الجنود التي قتلت واسروا أيضاً خمسة آلاف جندي وستة مراكب حربية عدا الذين غرقوا والذين تبضعت اجسامهم فتضعضع الافرنج وعقدوا هدنة مع المسلمين ومع ان الكامل حاز من النصر الباهر ما كلل جبينه بالفوز الا انه خرج منها منهوك القوى بسبب ما كلفته من بذل الاموال وجمع العدة فاضحى في حاجة شديدة الى جمع المال الكافي لمتابعة القتال ولم يكن الحصول على المال في مثل ذلك الوقت الضيق بالامر الهين ففرض الضرائب على الصناع وارباب الحرف وخصوصاً من الاقباط لان الكنيسة اليونانية المصرية كانت قد وصلت الى حالة سيئة بالنظر لفتور العلاقة بينها وبين شعبها على اثر ما شاع من مخاطبة البطريرك نقولا لبابا رومية وتأهبه لمبايعته الرئاسة فآل ذلك الى ابعاد القلوب عنه والى ضعف في ايرادات كنيسته فلما اراد الكامل اخذ المال منها لم يجد فيها ما يسد الرمق فحول نظره الى الكنيسة القبطية المصرية فقبض على نصف الاموال التي كان تركها البطريرك يوحنا السادس لاخته بعد وفاته وابتدأ الكامل ورجال حكومته أن يستميلوا الاقباط الى داود ويقنعوهم بلياقته وقبوله واجتهد الكامل في ذلك اولاً للحصول على رسوم البطريركية التي تدفع لخزينة الحكومة وثانياً لاخذ المال اللازم من داود نفسه في نظير مساعدته له للحصول على مآربه وما كاد يشيع هذا الخبر حتى هرع كثيرون من اساقفة جميع جهات القطر

للاحتجاج على تعيين داود وكان داود يومئذ قد احتفل في ديوان الحكومة بشكر الذين رشحوه الى ذلك المنصب فلما رأى احتجاج الاساقفة وهياج الشعب القبطي حبطت اماله وخاب رجاؤه مرة اخرى

غير انه لما كان قوي العارضه صلب الفكر ومصرا على تنفيذ مآربه كما سبق وذكرنا في الفصل السابق عمد الى تبوء الكرسي البطريركي قوة واقتدارا ولم يبال باحتفال او رسامة من اساقفة فلبس لباس البطريركية واحتفل له اعوانه وسار الى كنيسة القديس سرجيوس لاقامة الصلاة وتادية الطقوس الدينية في حصن بابليون فاجتمع من الاقباط خلق كثير وصاروا يصخبون ويصيحون عليه ويهجونه اما هو فكان محترصاً لنفسه فلم يبال بصراخهم واتمّ صلوته وقراءة القداس وسائر الطقوس الدينية رغم الصياح الذي يصم الاذان حتى ان نفس اعوانه لم يكونوا قادرين ان يسمعوا صوت صلاته . فهتاج لذلك الشعب القبطي في جميع الانحاء فآل الامر الى وقوع الاضطهاد عليهم لانه لما رأى قواد الجيش كثرة عدد الرهبان والاساقفة والشمامسة المنبثين في القطر الذين كانت تسترهم الصوامع والاديرة طمعوا في اذلالهم فقبضوا عليهم وساقوهم الى الاشغال الشاقة فسخروهم في بناء الاستحكامات والحصون في دمياط والمنصورة وخصوصا في الاولى منهما خوفا من وقوعها في يد الصليبيين وبعد ان قاموا بتلك الاشغال الشاقة اخبرهم الحكام المسلمون انهم سيأخذونهم الى المعسكر ويدخلونهم في الجندية فاحتج الاساقفة على ذلك واشتكوا الى الكامل

ففرض عليهم فدية معينة من المال نظير بدل عسكري . وعامل المسلمون رجال اكليروس الكنيسة اليونانية كما عاملوا الكنيسة القبطية . وكان الاقباط جميعاً في عرض الدلتا لا يعرفون لهم مخرجاً من تلك الورطة وشعروا بوقوعهم بين المطرقة والسندان اذا تأكدوا ان وجود الصليبيين في البلاد المصرية لم يعد عليهم بالفائدة المطلوبة لانهم كانوا يعتقدون مساعدتهم على المسلمين بصفتهم اخوانهم في العقيدة المسيحية . في حين أن الصليبيين كانوا يعتقدون فيهم الهرطقة ماداموا خارجين عن المذهب الكاثوليكي وليسوا تحت سلطة البابا وقد زاد التعصب الديني عند الاسلام على المسيحيين عموما لما شاهدوه من تأثير الغزو والفتح الذي قام به المسيحيون اللاتين وكانت عواقب ذلك كله واقعة على رؤوس الاقباط المساكين الذين كانوا دائماً عرضة لكل بلية فسواء كان الغالبون هم الصليبيين أو المسلمين فان للاقباط من كليهما نصيباً وافرا من الضيق والعذاب . وبلغ من عنف المسلمين يومئذ ان الجنود التي ارسلت لانقاذ دمياط من ايدي الصليبيين صارت تهدم كل كنيسة قبطية انتقاماً من النصارى عموما وقاسى الاقباط في داخلية البلاد اضطهادا شديدا . وكانت في الاسكندرية كنيسة قبطية عظيمة قديمة العهد باسم مارمرقس هدمها المسلمون عن اخرها خوفاً من أن يبلغ الصليبيون مدينة الاسكندرية من أجلها ويتخذوها حصناً بسبب متانة بنائها وكثرة اعمدتها وبعد أن هدموها حولوها جامعاً ولا تزال اثارها باقية الى اليوم بقرب باب القباري .

ولكن مع اضطهاد الاسلام للاقباط فان سلطانهم الكامل كان يخفف
وبلات ذلك الاضطهاد بما عرف عنه من الاخلاق الطيبة والاداب العالية
وذلك جعل الاقباط يخلصون له ويستنجدونه وقت الشدة وبهذه السجايا
السامية اكتسب أيضاً اخلاص ومحبة اخوته وأفراد عائلته وهو سر من
أسرار نجاحه فان أولاد عمه واخوته لما علموا بشدة مضايقته اتوا اليه
حالا من الشام بجيوشهم فعززوه وصيروه أقوى من الصليبيين بمراحل.

ولما كان الكامل ميالا للسلام ذكر الصليبيون وقت ماطلبوا الهدنة
بعد واقعة المنصورة العظيمة بالشروط التي اقترحها عليهم أولا قبل سقوط
دمياط في يدهم فاصروا على البقاء في مصر مالم يأخذوا ٣٠٠ الف دينار في
نظير هدم الملك المعظم عيسى اخي الملك الكامل اسوار بيت المقدس فرفض
الكامل ذلك الطلب لما انه هو القاهر الفائز وقتئذ فعاد الى مضايقتهم.
ولما كان ذلك الوقت قرب زمن فيضان النيل اجتهد ان يحشد جيشه
العظيم في اراض عالية حتى لا تغمر معسكره المياه

فلما ارتفع النيل وفاضت مياهه على الجسور ارسل الكامل
سرية من جنوده ليلا في الخفاء من وراء معسكر الافرنج لتقطع سد ترعة
المحلة التي كانوا معسكرين وراءها بالقرب من شاطئ النيل كما ذكرنا
ولما قطع السد طغت مياه الترعة فاغرقت جميع الاراضي التي تفصل جيش
الافرنج من دمياط واغرقت أيضاً جزءاً كبيرا من الارض المعسكر فيها
جيشهم. فلما استيقظوا في الصباح رأوا انفسهم في وسط جزيرة وقد حال

الماء بينهم وبين مؤنتهم وذخائرهم ولم يبق لهم بارق امل في الحصول على
نجدة تجيئهم من سوريا عن طريق دمياط. فخافوا سوء المصير وبأتوا
يشكون قلة الطعام ودبت في جنودهم عوامل القحط والجوع. ولما رأى
السلطان الكامل ذلك وانه لم يزل بينهم وبين دمياط معبر ضيق في وسط
المياه امر عساكره باقامة جسر وعبروا عليه وملكوا تلك الطريق فحصر
الافرنج في تلك الجزيرة فاضطربوا والتزموا في الحال أن يخابروه بقبول
شروط الصلح. ولم يجسروا حينئذ على ذكر تعويض مالي او غير مالي
لان مركزهم كان حرجاً بل رغبوا اليه ان يسمح لهم بطريق حتى يعبروا
وينسحبوا من بلاده فقبل منهم السلطان الكامل شروطهم وكان ذلك في
٧ رجب سنة ٦١٨ هـ غير انه اشترط عليهم أن يتركوا رهائن تضمن
خروجهم بالكلية من القطر فترك له الصليبيون ملك عكا ونائب البابا
وكذلك الملك الكامل أعطاهم ابنه الصالح وبعض الامراء

وبناء على ذلك الاتفاق امر الكامل بصنع جسر لعبورهم فعبروا
وانسحبوا الى دمياط واخذوا ما كان لهم فيها وتركوها للمسلمين وكان
ذلك يوم ١٩ رجب سنة ٦١٨ ونزلوا الى البحر قاصدين بلادهم وهكذا
انسحب الصليبيون من مصر راضين من الغنيمة بالاياب وتركوا دمياط
بعد ان جاهدوا في فتحها سنة ونصفاً وافنوا حول برجها بدر الاموال
ومهج الرجال". وبعد مبارحتهم الشطوط المصرية بقليل اتتهم نجدة عظيمة
بطريق البحر من اوروبا. فشكر الكامل تاخر تلك النجدة الى ذلك

الحين . ولما وصل الافرنج الى بلادهم ارسلوا الملك الصالح ومن معه الى ابيه فارسين لهم ايضاً رهائنهم . ودخل الملك الكامل دمياط مع اخوته في احتفال عظيم

وفرح الاقباط بانهزام الصليبيين فرحاً لا يوصف لانهم وجدوا ان معاملة المسلمين لهم افضل من معاملة اولئك غير ان هزيمتهم جاءت ضربة قاضية على امال الكنيسة اليونانية في مصر فصح في ذلك قولهم مصائب قوم عند قوم فوائد . اذ بقدر فرح الاقباط كان غم اليونان هكذا بالغاً . وكتب بطريركهم ثقولا خطاباً عجيباً جداً للبابا هونوريوس في رومية بعد تسليم الصليبيين مدينة دمياط للمسلمين وانسحابهم من البلاد المصرية وانكر في كتابه وجود الكنيسه القبطية المصرية بالمرة واخبره ان جميع المسيحيين سكان القطر المصري كانوا مستعدين لتقديم واجبات الطاعة والخضوع لسدة البابوية ونأتي هنا افادة للقراء على ترجمة ذلك الخطاب الغريب نقلاً عن نيل المؤرخ الفرنساري قال —

الى قداسة الاب الاقدس الكلي الوقار والاحترام والسيد المعظم المعصوم من الزلات والخطايا بالنعمة الالهية والحبر الاعظم بابا البابوات ورئيس رؤساء الكهنة الجالس على اريكة مار بولس الرسول بابا كنيسة رومية المقدسة من الاسقف العام ثقولا الجالس بصفته بطريركاً على ابرشية الاسكندرية بذات النعمة الالهية . الخاضع لسدتك الكهنوتية بكل فروض الوقار والاحترام التي تليق بقداستك

اما بعد . فان كل المطارنة والاساقفة والقسس ومشايخ الكنائس والكهنة والشمامسة والرهبان والكتاب والعلمانيين اجمعين وبالجملة كل المسيحيين الساكنين بارض مصر يتضرعون مبتهلين الى ابويتكم وقداستكم الرسولية بكل تأوّه . وزفرات وانين وصراخ وعويل من تلك المظالم والاضطهادات الاسلامية

فان اتفق سقوط بناء أي كنيسة مسيحية لدى حادث ما لا نقدر ان نتجاسر على اعادة بنائها . وفي مدة الاربعة عشر سنة الماضية صار كل مسيحي في ارض مصر مكلفاً بتأدية الضرائب الاجبارية عن نفسه بزانتاً (١) واحداً واربعة عشر قيريناً فان كان فقيراً زج في السجن حتى يوفي الفلس الاخير . ويوجد كثيرون من المسيحيين في هذه الديار يجمع منهم سلطان المسلمين ايراداً لا يقل عن ماية الف بزانتاً ذهبياً . وما عسى ان اكتب لقداستكم الطاهرة غير ما تقدم اكثر من ان المسيحيين جميعاً في هذه الديار يسخرون في الاشغال الشاقة وكل عمل

---

(١) البزانت هو قطعه من العملة الذهبية كانت شائعة في العصور الوسطى وهي عملة اسلامبوليه تساوي قيمتها ستين غرشاً مصرياً وكان يوجد قطعة اخرى قيمتها توازي جنيهاً مصرياً ويوجد ايضاً بزانت فضي تساوي قيمة مائة اربعة واربعين ملياً وكانت تلك النقود متداولة كثيراً باوربا كما يسميها اليونان . انما الذي يدفعه المسيحي في ضريبته التي يقول عنها نيل المؤرخ هي البزانت الفضى

(٢) القريين نوع من النقود الاسلامبوليه لا اسلامية كانت ذائعة الاستعمال في مصر ويحتمل ان تكون نحاسية

غير لائق وانهم مساقون قهراً لكنس شوارع المدينة ؟ !

وقد صار معلوما لدى العالم المسيحي اجمع كيفية سقوط مدينة دمياط المخجل بايدي المسلمين وهو امر اظنه خطرا عليّ لو كتبته على ورقة وبينته بخطابات لسدتكم الرسولية اذ أن قراءة كلماته مؤلمة ومحزنة للغاية . فبعد أن عرفت هذا كله تحنن علينا وارأف بنا ياسيد . يا ايها الآب الروحاني المعظم يانائب المسيح على الارض . وكما ان القديسين جميعاً قبل مجيء السيد المسيح له المجد كانوا مشتاقين لرؤياه ومجيئه في عصرهم ليخلصهم من رق العبودية الابليسية ويفديهم ويحررهم من اسر الخطية ومن مات منهم قبل مجيئه انما مات على ذلك الرجاء كذلك نحن اولادك جميعاً منتظرون باشتياق شديد مجيء جلالة الامبراطور وليس نحن فقط الذين سنموت على رجاء ذلك المجيء بل وايضاً اكثر من عشرة الاف مسيحيين منفيين ومشتتين في جميع انحاء المملكة الاسلامية

ولا انسى أن اذكر لقداستكم الاجرآات التي يجب ان يتخذها سيدنا وامبراطورنا عند وصوله لبلاد مصر وهذه الاجرآت هي الطريق الوحيد الذي باتباعه يمكن لجلالة الامبراطور ان يخلصنا ويبقي على حيوتنا من الاعداء فننجو بنعمة الله من كل خطر وهذ الطريقة هي : —

دع جلالة الامبراطور عند اقترابه من مياه الشطوط المصرية أن يدخل بمراكبه وسفنه الحربية مهما كان عددها من فرع النيل الغربي عند النقطة المسماة بمدخل رشيد عوضاً عن ان ياتي من جهة الفرع الشرقي

عند دمياط . ويدخلون عند رشيد ويستمرون في سيرهم بنهر النيل حتى يصلوا الى جزيرة قائم عليها مدينة تدعي فوّة وبوصولهم الى تلك النقطة يكونون قد ضمنوا امتلاك ارض مصر باذن الله بدون ادني خذلان . ومما يحسن ذكره ان نهر النيل عميق ومتسع والجزيرة المذكورة فيها كل مايحتاج اليه الجيش الفاتح . وحامل هذا الخطاب هو احد من ثق بهم الثقة التامة ويعزز كلامنا هذا شهادته الشخصية لقداستكم . ولاني اعرفه رجلاً حازم الرأي عاقلاً فطناً بصيراً قد اخترته لهذه المهمة ولا يفوتني ان اذكر لقداستكم اعظم المصائب التي حلت بالمسيحيين في مصر . وهو انه قد هدمت مائة وخمسة عشر كنيسة اثناء حرب دمياط وقبل الختام اتوسل اليك ايها الآب الطوباوي ان تتنازل بالسماح لي بلثم موطئ قدميك !! .

ولا عجب بعد ذلك الجواب الغريب اذا اعلمنا التاريخ ان السلطان الكامل كان دائماً مرتاباً كثير الظنون نحو الكنيسة اليونانية المصرية ولذلك لم يسمح لهم ببناء الكنائس التي تهدمت اخيراً في الحروب الاهلية وكانوا دائما تحت نير المذلة راضخين للجور اما الاقباط فسمح لهم ببناء جميع ماتهدم من كنائسهم وبممارسة عوائدهم وطقوسهم بكل حرية . يدلك على ذلك ان بعض الامراء قبض على بعض الرهبان وسلبهم ٤٠٠ بيزانتاً ذهبياً بدون وجه حق بدعوى انهم تأخروا عن دفع الجزية السنوية وكان هذا المبلغ هو كل ما يمتلكه الرهبان فشكوا الى الملك الكامل فنظر في مظلمتهم وامر بارجاع المال اليهم

ومما يذكر للكامل بالثناء انه رفض قبول كل رشوة قدمت اليه لاجل ترشيح داوود بطريركا . ومن حسناته أيضاً انه اعفى الرهبان من دفع الجزية الشخصية وقدزار بنفسه دير وادي النطرون وتفقدأحواله واحوال الرهبان فيه وزار أيضا دير القديس مقاريوس فوجد أحد كبار موظفي الاسلام ساكنا به فامره بالترحال محافظة على احساسات الرهبان .

ولما زار ذينك الديرين كان الرهبان يتضرعون اليه بحرارة حتى يصرح لهم بانتخاب بطريرك ويظهرون له شدة احتياج الكنيسة لذلك . وأخبروه انه تخرج من دير القديس مقاريوس ثمانون راهبا رسمهم المرحوم البطريرك يوحنا السادس كهنة على عدة ابرشيات فلم يبق منهم على قيد الحياة سوى أربعة فقط واعلموه انهم يخدمون جميع الابرشيات مع انهم لم يزالوا رهبانا في حين ان في البلاد أساقفة كثيرين يستطيعون ان يعينوهم رعاة ويمنحوهم رتبة الكهنوت ويوزعونهم على تلك الابرشيات الخالية من الرعاة غير انهم فضلوا البقاء في الخدمة وهم رهبان حتى لا يحرموا من سيامتهم كهنة رسميين بواسطة البطريرك الجديد لا بواسطة الاساقفة لانهم يعتبرون قيام البطريرك بتلك الخدمة مزية عظمى

فاجابهم السلطان الكامل بانه غير ملوم على ذلك التأخر وان ليس له أدنى علاقة بالظروف التعيسة التي حلت بكنيستهم وانه يود لو لقي منهم اتحاداً في انتخاب بطريرك ان يصادق عليه كما ويتنازل عن الرسوم التي اعتادت البطريركخانة ان تدفعها للحكومة عند تنصيب كل بطريرك جديد

والغالب ان الكامل كان أرق ملك رآه الاقباط في القرون الخوالي نظرا لما أبداه اليهم من الحنو والانعطاف . وان كل مسؤولية أدبية واقعة على ذلك الطامع الذي طمع فى الرتبة الكهنوتية بغير جدارة أو استحقاق وأعني به داود الذي بتطاوله الى الكرسي البطريركي أوجد الهياج والشغب الكثيرين وحط من كرامة الاقباط وأسقط مقام المسيحيين في عيون الاسلام في حين انه كان أولى بان يرفع في تلك الظروف الجميلة في حكم ذلك السلطان العادل ولكن أبت الاقدار الا وجود هذا الطاغية ليناضل ويقاوم حتى بقي الكرسي البطريركي خاليا ممن يجلس عليه وظل الاساقفة يموتون واحدا بعد آخر وتخلو أبرشياتهم ممن يحل فيها نظرا لعدم وجود بطريرك ينصب بدل المتوفين فكان ذلك موجباً لفرح داود لتناقص عدد خصومه

ولو كان المرحوم البطريرك يوحنا السادس أو غيره من سلفائه عائشاً في ذلك العصر الذهبي الجميل لرقي شؤون الاقباط وأوصلهم الى درجة من رغد العيش والرفاه يحسدون عليها بل كان سعى في اعادة بناء الكنيسة التي هدمتها يد الاضطهاد ولم يتوفق أحد الى تجديدها بل كان اتخذ ميل السلطان الكامل الى المسيحيين ذريعة لى تبشيره بالديانة المسيحية لان السلطان كان يحب الديانة المسيحية محبة شديدة

ومن الاسف انه لما طال الزمان على السلطان الكامل ولم ير من الاقباط الا داوود وفظائعه وأعماله القبيحة وفعال اتباعه الادنياء عيل

صبره الطويل مع الاقباط المنكودي الحظ وسقطت محبته الصادقة لهم من قلبه وفتر ميله الغريزي لديانتهم ونتج عن ذلك انه ندم على كرمه في اعفائه الرهبان من دفع الجزية الشخصية وحسب ذلك تبذيرا وشططا ورسخ في نفسه هذا الاعتقاد لما رأى ان مئات من الاقباط العلمانيين صاروا يتشحون بلباس الرهبنة حتى يعفوا من الجزية في حين انهم لا يعرفون شيئاً عن الرهبنة فلما ساء ظن الكامل بهم أمر في غضبه بالبحث عن أولئك المخادعين وفرزهم من الرهبان الحقيقيين بدقة فأسرع رجاله الى ذلك واتخذوا هذا الامر وسيلة للايقاع بالاقباط فكانوا يسلبون الاموال من الرهبان عموماً ولم يميزوا بين الراهب الحقيقي من المتصنع وشاع ان الرهبان الحقيقيين تألموا كثيرا من تلك الفظائع وبالاجمال فان الثلاثين عاماً التي حكم فيها الكامل والاثنان اللذان تقدماه كانت سني شؤم على الاقباط وخجل على ذوي الشعور منهم نظرا لما بدا لهم من الظروف الطيبة التي لم يغتنموها لتقوية نفوذهم

وكما اننا لا نقدر ان نعرف السبب الذي حدا بالكامل الى الانقلاب على الاقباط كذلك لا نقدر ان نعرف الداعي الذي جعله ان ينقم على اخوته في حين انه كان أحب الناس اليهم وقد لبث في ماضى ثمانية عشر عاما وهو معهم على صفاء عظيم ووداد لم يسبق له مثيل وقد كان كل منهم محباً لرعاياه سالكا بالعدل والانصاف فلم يظهر لهم ند في المعاملة الحية في ماتقدم من السلاطين ولطالما امدوه باجنادهم وأموالهم وأنجدوه

على الصليبيين بغير ان يطلب نجدتهم وبغير ان ينالوا منه عوضاً والغريب ان معظم ذلك الانقلاب أصاب شره الملك المعظم عيسى سلطان دمشق الذي لولاه لم تقم له قائمة في مصر كما رأى القارىء فيما تقدم من الكلام عند أوائل حكمه حيث نصره على الاعداء وأيده في مركزه

وبيان ذلك انه لما استتب الملك للكامل وأخمد الثورات والفتن طمع في أملاك اخوته فاثار حرباً على الملك المعظم عيسى سنة ١٢٣٥ م واغتنم فرصة ضعف الصليبيين فعقد معهم هدنة وأغرى فريدريك على اغتيال أخيه عيسى واستخلاص دمشق من يده فقدم هذا الامبراطور الى عكا وهنا لك علم بوفاة عيسى وتنصيب ابنه الملك الناصر صلاح الدين فاستبشر الملك الكامل ووضع يده على مملكة أخيه فاستنجد الملك الناصر عمه الاشرف على عمه الكامل فجاء الاشرف بجيش جرار ولكنه لسبب غير معروف اتحد مع أخيه الكامل ونصره على ابن أخيه الناصر . اما فردريك فسار توا من عكا لافتتاح مملكة دمشق فبعد ان فتح صور التقى بالملك الاشرف فتخاصما على الغنيمة ثم مات الاشرف فخلا الجو لاخيه الملك الكامل وأصبح الوارث لكلتا المملكتين ونائباً لاخويه عيسى المعظم والاشرف

ولما كان الملك الكامل محتاجا الى المال أقدم على عمل ما كان أقسم ان لا يفعله فخنث بيمينه وقبل رجاء اعوان داوود وسمح لهم برسمه بطريركا على أيدي بعض الاساقفة القليلين الذين كانوا باقين وقتئذ على

فيد الحياة. وقد قبل هؤلاء الاساقفة القيام برسمه بعد ان هددهم أولئك
الاعوان بالقتل لو رفضوا الطلب فقاموا بذلك تخلصاً من عذاب
الاستشهاد . وبذلك انتصرت عصا داود الحديدية بعد دسائس عشرين
سنة وسيم بطريركا ووقعت كنيسة آبائه فريسة في يده . وهكذا تغيرت
أحوال الملك الكامل تغيراً فجائياً بدون علة ظاهرة والمظنون انه كان
للمرض الذي مات به بعد ذلك بسنة تأثير كبير في ذلك الانقلاب
فذهب مثقلا باحمال الخطية . وقد كان قبل مماته واقعاً تحت تأثير
ذوي المفاسد والشرور الذين يحلو لهم المصائب بزرع الفتن والمفاسد
والمظنون ان ثاني انجاله حمله على اتيان تلك الخطة المستهجنة التي اتبعها
في أواخر أيامه . والحقيقة مجهولة من هذا القبيل ولا نعرف من أغراه
على اتفاقه مع فردريك امبراطور الصليبيين لمصادرة أملاك أخيه الملك
المعظم عيسى في سوريا وما كان من أمر وفاته سريعاً بعدئذ كما تقدم .
ثم انه بعد وفاة أخويه وتسلطه على مملكتهما لم يسترح له بال بسبب وجود
الملك الناصر ابن أخيه الملك المعظم لانه كان يخشى ان يستعين عليه
بقوات حربية أجنبية ويسترجع ملك أبيه المغتصب أو يظل على اقلاق
راحته فاتحد الملك الكامل مع أخ له آخر كان في أقليم مابين النهرين
وهي البلاد الكائنة بين نهري دجلة والفرات على قتل ابن أخيه الصغير
الملك الناصر ليخلو له الجو ويتربع على عرش مصر وسوريا . ولكن
كانت تدابير العناية أقوى من تدابير الاخين

مات الكامل قبل ان يدرك ماتمناه لابن أخيه المسكين . وذلك
انه لما عقد النية على ماتقدم وقام من مصر الى سوريا لهذا الغرض
سنة ١٢٣٧ مسيحية وصل الى دمشق ومات فيها في خلال شهر رجب
سنة ٦٣٥ هجرية ودفن في قلعتها . وكان محباً للعظمة والافتخار حازم
الري حسن الاعتقاد محباً للفضيلة والعلم . وكان يصرف لياليه في المباحثة
مع العلماء والفضلاء

ولما علم المصريون بوفاته بايعوا ابنه سيف الدين أبي بكر وهو
ابنه البكر وكان له القاب كثيرة أشهرها لقب الملك العادل «الثاني»
وكأن أباه شعر بدنو أجله فاقامه على مصر قبل ذهابه الى سوريا لتدبير
أمر قتل ابن اخيه الناصر

الفصل السابع والخمسون

البطريرك المرذول

سنة ١٢٣٧ مسيحية و٩٤٣ للشهدا و٦٣٤ للهجرة

ولما ترك الكامل مصر وسار الى سوريا لمحاربة اخوانه الابرياء كما
تقدم ابتدأ البطريرك داود مشروعاته المرذولة فظلم الرعية وانحرف في
السيرة ولم يكن فيهم من يقدر ان يناقشه الحساب ثم انتحل لقب كيرلس
تشبها بكيرلس البطريرك العظيم لذي افاد الكنيسة فائدة جلى غير انه
لم يشبهه الا في قوة الارادة فقط اما في غيرها من الاعمال الممدوحة فلا

وعند جلوسه على الكرسي البطريركي احتفل احتفالاً بهيجاً بذلك فاستاء المسلمون منه وفي بادىء امره استمال الرأي العام بان رسم بعض الكهنة والشمامسة ولم يحصل منهم الرسوم المعتادة. وكانت الابرشيات في ذلك الحين خالية كلها تقريباً من الاساقفة فتصرف فيها داود (كيرلس) تصرفاً زاد عن حد المعقول لانه في وقت قصير باع اربعين ابرشية أي انه صار يعين لها اساقفة من الكهنة الذين يتسابقون في دفع المال فجمع من ذلك مبالغ وافرة زادته قوة بازاء شعبه الضعيف واعترض عليه اعيان الاقباط وبينوا له سوء مغبة هذا التصرف فكان اعتراضهم كصرخة في واد أو نفخة في رماد لان كيرلس أو هو داود اخبرهم انه مضطر الى جمع النقود لسداد المطلوب للحكومة جزاء تنصيبه بطريركاً وكان في تلك الايام راهب يقال له بطرس استاء من تصرفاته المغايرة ولم يطق السكوت على مظالمه وحاز به كثيرون من الرهبان واقروا على الانسحاب من الطائفة مادام ان لا طاقة لهم على اقناعه

ولكن لما كان احتجاج الشعب شديداً على السيمونية أي جمع الاموال بواسطة الرسوم الكهنوتية اضطر ان يعقد جلسة دعا اليها كبار رجال الاكليروس واعيان العلمانيين في كنيسة المعلقة واخبرهم ان جمع المال انما كان لايفاء الاموال الاميرية وصادف ذلك القول الوقت الذي جاء فيه خبر وفاة الملك الكامل بدمشق وقد حلف كيرلس لرجال الجلسة انه بعد ان يتم جمع المال للغرض المذكور سيمنع قطعياً امر (السيمونية)

وهي بيع الرتب الكهنوتية في المستقبل اذ لم يكن ثمت داع لجمع الاموال بهذه الطريقة

وثاني مشروعاته وان لم تكن مختصة ببيع الرتب الكهنوتية فانها تتضمن اعمال عسف ومظالم جسيمة لاشباع مطامعه الاشعبية ورغبته المحرقة في الحصول على الاصفر الرنان وقوة الحكم والسلطان

ومن اعماله الجائرة انه كان في مصر بعض اديرة كدير القديس مغاريوس في وادي النطرون معتبرة أديرة بطريركية محضة بمعنى انها تابعة رأساً ادارياً ودينياً للبطريرك ذاته وهو وحده الذي يعين لها الاساقفة ويمارس كل ما يلزم لها مادياً وأدبياً ويكون دخلها السنوي لمصروفه الخاص وبعبارة أخرى انها مقطوعة على البطاركة بصفة معاش من قديم الزمان ولكن بعض البطاركة المتأخرين حباً في راحة وهناء الكنيسة تنازلوا عن بعض ايرادات تلك الاديرة واقتصروا على أخذ ما يكفيهم فقط من الاموال الضرورية . وبخلاف ذلك فانه يوجد أيضاً كثير من الاديرة والصوامع موضوعة تحت تصرف الاسقف الذي يكون الدير واقعاً في دائرة ابرشيته

فأصدر البطريرك كيرلس منشوراً استبدادياً لجميع الابرشيات والكنائس قرر فيه ان كل الصوامع والاديرة التي في القطر المصري تعتبر من ذلك الحين بطريركية محضة وفي ذلك من الدهاء ما فيه لانه ضمن لنفسه أمرين عظيمين الاول جمع ايرادات تلك الاديرة لنفسه ليزداد بها

دخله ويعظم شأنه والثاني ليكون له حق السلطة العظمى عليها للغاية وقد أصدر أمراً آخر جعل به الايرادات الاسقفية أي الخاصة بالاساقفة تحت سلطته وادارته. وأمرا آخر يعطيه حق السلطة الادارية على كثير من كنائس الابرشيات التي كانت تحت سلطة الاساقفة فقط

وثالث مشروعاته انه لم يكتف باغتيال حقوق اساقفته مادياً وأدبياً بل طمحت أنظاره الى حقوق بطريرك انطاكية ومن ذلك يظهر انه كان طموحاً الى الاستبداد في الحكم كما كان باباوات رومية في القرون الوسطى اذ انه أراد ان يجعل كرسي الكرازة المرقسية حراً من كل مراقبة. ومما جعله يطمح الى التعدي على حقوق كرسي انطاكية حجته بوجود كثير من الاقباط المصريين يقطنون بلاد سوريا وهؤلاء لا يفهمون لغة الاسقف السوري باورشليم وقت الصلاة (وهو تحت سلطة بطريرك انطاكيه) فتعلل بذلك وكتب للبطريرك المذكور يقول له انه ولو ان اسقفه الاورشليمي من القائلين بطبيعة واحدة للمسيح وهو معتقد الاقباط المصريين الا ان اختلاف الفهم نظراً لاختلاف لهجة اللغة توجد ارتباكاً في الفرائض الدينية

وبناء على ذلك رسم البطريرك كيرلس في مصر مطرانا لاورشليم تابعاً للكرسي المرقسي وارسله حالاً اليها فاعترض الاساقفة والكهنة في مصر على البطريرك اعتراضاً شديدا على هذا الصنيع وعدوه انشقاقاً من كنيسة انطاكية المتفقة معهم في المعتقد فلم يلتفت الى اعتراضهم

لكنهم نجحوا في حمله على ارسال مندوب الى بطريرك انطاكية الذي كان مقيماً وقتئذ في اورشليم يطلب اليه الاعتراف بالمطران الجديد الذي ارسله . فلما وصل المندوب الى اغناطيوس البطريرك الانطاكي وسأله قبوله رفض رفضاً باتاً غير انه لم يحتد ولم تظهر عليه علامات الدهشة ولم يتفوه بما يكدر خاطر المندوب المصري فرجع الى كيرلس واخبره بما كان فاصر هذا على تنفيذ قراره فاستاء اغناطيوس من ذلك العناد وتكدرت عواطفه واصدر حروماً ضد ذلك المطران الدخيل وقطعه وطرده من كنيسة اورشليم فاضطر ان يلتجئ الى اكليروس اللاتين بتلك المدينة الذين يعلمون ان صالحهم المادي والديني يقوم بوجود ذلك الانشقاق فقبلوه وبسطوا حمايتهم عليه

والتزم اغناطيوس ان يقابل الشر بمثله وقصد اغاظة كيرلس البطريرك الاسكندري فعين مطراناً من قبله لكنيسة الحبشة التابعة لسلطان الكنيسة القبطية المصرية وكان المطران الذي رسمه اغناطيوس حبشي الجنس مولوداً في بلاد الاحباش ولم يفصح لنا التاريخ عما اذا كان ذلك المطران تمكن من القيام برغائب اغناطيوس في الحبشة ام لا

وكانت اعمال كيرلس المذكورة كلها تقع موقع الاستغراب لدى السلطان الكامل قبل موته فاستهان به وجعله العوبة لطيفة حتى انه نظير تهمة زهيدة تافهة القى القبض عليه وسجنه فالتزم كيرلس ان يدفع الف وخمسمائة قطعة ذهبية من الاموال التي جمعها بطرق غير شرعية ليخلص

من السجن . وكانت هذه الحادثة اخر ماحدث له من السلطان الكامل اذ توفى بعدئذ بقليل في سوريا كما تقدم فلما تولي ابنه الملك العادل (الثاني) على الديار المصرية نجح كيرلس في سياسته واستمال الملك الجديد اليه واكتسب صداقته وحمايته له بالرشوة دون صداقة وحماية اخوي الملك العادل الثاني اللذين اغتصبا عرش اخيهما بعد حكمه بسنتين كما سيجيء

وبقي كيرلس بعدئذ ثمانية سنوات على كنيسته بمساعدة اصحابه الاسلام مزدريا ومحتقراً كل اشراف وأعيان شعبه من علمانيين وأساقفة ممن كانوا لا يفتأون يدبرون التدابير اللازمة لردعه والحجر عليه منعاً لخراب الكنيسة مع أن أغلبهم لم يحصل على تلك الرتبة الكهنوتية الا بخبثه ولم يكن كيرلس معروفاً لدى عيون شعبه كمن سلفه من البطاركة لانه لم يسكن في الكتدرائية الكبرى في حصن بابليون نظيرهم بل سكن في الاسكندرية ولما توالت شكوى الاقباط عليه اضطر ان يأتي الى مصر ويقابل اساقفته في منزل محافظ العاصمة الذي استجار به الاساقفة واذ كان المحافظ صديقاً حميماً لكيرلس فلما حضر وابتدأوا يسردون مظالمهم لدى المحافظ وطلبوا اليه ايضاً أن يخلعه حفظاً لما بقى من نظام وناموس كنيستهم وترتيبهم ولما كان المحافظ قد ارتشى من الطرفين لم يبت في أمر غير أن طلب العزل أدهشه واذ كان صديقاً للبطريرك كما اسلفنا عضده وحامي عنه فأجاب البطريرك ولو اني أعرف أنه لم يسبق في تاريخ البطاركة من عهد ماري مرقس الرسول الى الآن أنه يسوغ

للاساقفة أن يخلعوا البطريرك عن (١) كرسيه لاي علة كانت سيما لمثل تلك التهم الباطلة التي يسردونها ومع كل ذلك فان كانوا في شدة الضيق من معاملتي فالقانون الكنائسي أمامهم فليأخذوه ويبحثوا فيه عما يريحهم أو يسنوا لهم قانوناً يوافق أغراضهم .

وكانت طلبات الاساقفة في تلك الجلسة القضائية معتدلة ومعقولة وهي أولاً — ابطال السيمونية أي بيع الرتب الكهنوتية ومنعها قطعياً . وقد صدر هذا الطلب من أساقفة كانوا هم السبب في ايجادها لانهم دفعوا أموالاً كثيرة للبطريرك حتى رفعهم من كهنة الى أساقفة فهم الذين استعملوا تلك السيمونية القبيحة وقاموا الآن ينادون بابطالها ثانياً الزام البطريرك كيرلس باحترام حقوق البطريرك الانطاكي بارشليم . ثالثاً — حصر سلطة المطران الذي تعين حديثاً لسوريا لغاية حدود غزة فقط — ورابعاً شلح بعض رجال الاكليروس الذين رقاهم البطريرك بدون جدارة واستحقاق على خلاف القانون الكنائسي . خامساً — أنه لا ينبغي للبطريرك تقليد بدع الكنيسة الملكية اليونانية . سادساً — أن يتعين أحد كبار الاساقفة ليكون سكرتيراً للبطريرك ومحاسباً أي مستشاراً له في تصرفاته . فكان كيرلس يسمع تلك المطالب ويصغي اليها ولكنه لم يجب

(١) يقصد الاساقفة بتلك البدع أن البطريرك كيرلس قلد عوائد الكنيسة الملكية اليونانية في أمر الاعتراف السمعي واستعمله في كنيسته القبطية بعد أن بطلت تلك العادة من زمن مديد

أساقفة المجلس على واحد منها بل رفضها جميعها ووعدهم أنه سيعقد لذلك
مجمعاً مقدساً رسمياً وينظر فيها لانها مختصة بالملة ولا دخل للمحافظ
أو الحكومة فيها . فصادق على قوله المحافظ وارفضت الجلسة

وبعد ذلك صار الاساقفة يطلبون منه عقد ذلك المجمع حسب وعده وهو
يعد ويماطل ومن ثم أخذ يرشو الحكام المسلمين حتى رفت زعيم الحركة
الاصلاحية وسجنه وكان ذلك الزعيم راهباً يقال له حامد فلما سجن
خمدت نار الحركة واستراح كيرلس من مشاغلة الاساقفة له ولكن
أعماله المذمومة زادت عن الحد وأخيراً اجتمع أربعة عشر أسقفاً يداً
واحدة سنة ١٢٣٩ واعترضوا على تلك الفعال والتصرفات الذميمة التي
وصلت بالكنيسة الى أسفل دركات الهوان وبعد مداولات شديدة بينه
وبينهم اضطروه الى عقد مجلس مقدس في كاتدرائية المعلقة للنظر في
مطالب الاصلاح . فصرح لهم بعقد المجمع فاجتمع الاساقفة في الكنيسة
وأقروا على جملة امور عظيمة بشأن اصلاح الكنيسة وكانت تلك
القرارات أشبه بقانون كنائسي عظيم وبعد أن وفوه حقه من التنقيح
والتحوير قدموه الى البطريرك ليوقع عليه ليكون قانوناً يرجع اليه وثابتا
يحفظ في الكنيسة عليه يتضمن الامور التي ينبغي الجري عليها والاقرار
بطبيعة واحدة للمسيح وقد استخرج نبيل المؤرخ الفرنساوي خلاصة
ذلك الكتاب في تاريخه نذكرها هنا للقراء —

من الآن فصاعداً لا يجوز ترقية أحد رجال الاكليرس الى وظيفة

أسقف دون أن يكون حائز الصفات الشخصية التي توهله لتلك الوظيفة
ودون أن يكون حائزا الكفاءة العلمية التامة ودون رضاء الشعب والرأي
العام عنه وبدون انتخاب قانوني

«٢» وان سيامة القس وترقية الاساقفة يتم بواسطة البطريرك مجاناً أي
بدون مقابل نقدي لذلك العمل «٣» وانه محظور على القضاة الاكليريكيين
قطعياً قبول الهدايا لاية علة كانت ومن يتجارى منهم على مخالفة ذلك
جزاؤه الحرم والقطع من الكنيسة «٤» وانه يلزم تعيين لجنة من الاساقفة
ذوي الخبرة والدراية التامة لمساعدة البطريرك في عمل مختصر للقوانين
الكنائسية وخصوصاً المختصة منها بالعشاء الرباني والزيجة والوصايا «٥» وانه
يلزم نشر وتوزيع نسخ ذلك القرار في جميع انحاء القطر المصري وان
كل القضايا الاكليريكية تحل في المستقبل طبقاً لهذا القرار «٦» يلزم
عقد مجمع مقدس من الاساقفة سنوياً في الاسبوع الثالث بعد عيد
العنصرة «عيد الخماسين» «٧» وان التقاليد المختصة بالكنيسة القبطية يجب
المحافظة عليها بكل دقة «٨» وان الختان يلزم اجراؤه قبل العماد الا في
حالة الضرورة القصوى التي توجب تأخيره بعد العماد . «٩» وانه لا
يلزم ترقية من كان أسيرا أو رقيقاً الى درجة الكهنوت ويستثنى من ذلك
اثيوبيا «الحبشة» والنوبة «السودان» فان هذه المادة تخفف فيهما
اكراما لخاطر الذين يستحقون الترشيح لدرجة الكهنوت . «١٠» وان
أولاد الامهات الغير متوجات ممنوع ترقيتهم ونسلهم أيضاً لدرجة

الكهنوت بل يستمرون علمانيين • (١١) وانه يلزم بقاء مطران دمياط في
منصبه • (١٢) لا يصرح للبطريرك ولا لاي كان من اساقفته ان يرسم
احداً لدرجة كهنوتية خارج حدود ابرشيته • (١٣) وانه لا يحرم البطريرك
احد المؤمنين في ابرشية غير تابعة له ادارياً قبل ان يحذره وينصحه
بواسطة اسقف تلك الابرشية الذي لم ير فائدة من النصح والارشاد فهو
وحده الذي ينطق بحرمه وقطعه فان رفض الاسقف اجراء ذلك فللبطريرك
الحق في اجراء ما تخوله له سلطته معه

(١٤) هذه القاعدة مرعية الاجراء في الحل كما هي في الحروم (١٥)
وان الكنائس البطريركية التي اخذ البطريرك ادارتها يلزم ان ترد ثانيا الى
اساقفة ابرشياتها • (١٦) وان ضرائب الصوامع والاديرة التي يدفعها
الرهبان للبطريرك يلزم ان تكون بطرق عادلة غير جائرة ولا يعتريها شيء
من الاعتساف — ١٧ — لا يجوز للبطريرك ان يجبر اسقفا على رسم من يكون
لائقاً لدرجة الكهنوت بدون ارادة ذلك الفرد • — ١٨ — ليس للبطريرك
حق في المطالبة بالهدايا والنذور التي يقدمها الشعب للكنائس المختلفة
التي في دائرة ابرشيته في الاعياد والمواسم . ما لم يكن ذلك برضى اسقف
الابرشية قبل تكريسه تلك الهدايا والنذور واستبدالها بالمعاش (الرف)
المعتاد ارساله لابرشية الاسكندرية — ١٩ — لا يلزم قبول شكوى من
الرهبان على بعضهم بكثرة وان الذي ينظر في تلك الشكاوي والدعاوي
ويحكم فيها ينبغي ان يكون من غير العلمانيين • — ٢٠ — لا يلزم

حرم أي اسقف كان لعلة بسيطة أو قبل انه يرسل له ثلاث انذارات من
البطريرك نفسه مصحوبة بالنصح والارشاد الاول والثاني يكونان رسمياً
بالكتابة والثالث شفاهياً • (٢١) ينبغي اعتبار رؤساء الاديرة رؤساء
كهنة فيسمح لاي منهم ان ينطق بالحل للكاهن الذي يكون قائماً بالخدمة
في الكنيسة وان كان اقل منه مرتبة ومصرح له ان يتناول العشاء الرباني
حالا وراء الكاهن الذي قدسه على المذبح • (٢٢) ممنوع قطعياً على
كل مؤمن تابع للكنيسة المصرية القبطية الوطنية أن يحضر الخدمة
الربانية في الاعياد في كنيسة خارج ابرشيته والا عرض نفسه لعقاب
الحروم •

وبعد ان قرأ كيرلس القانون المذكور رفض ان يوقع عليه باسمه
وتعلل بعلل لم ترق في عيون الاساقفة الذين اتحدوا عليه وصاروا يعارضونه
بثبات غريب واخيرا هددوه قائلين انه ان لم يوقع على القرار يلتزمون
ان يمتنعوا عن تناول القربان المقدس معه فلما راهم مصرين على ذلك اضطر
ان يمضي على ذلك القانون وعلى ذلك عملوا (١) مختصراً للقوانين الكنائسية
كما قالوا ووزعوه كما ارادوا على كل الابروشيات وهو عبارة عن كتيب
لطيف يحتوي على تسعة عشر قسما في خمسة فصول • قسم منها مخصص
للعماد وسبعة اقسام للزيجة وقسم للوصايا وثمانية لتقسيم الميراث واثنان

(١) ان الذي عمل ذلك المختصر للقوانين الكنائسية هو رجل قبطي لاهوتي
عظيم اسمه صافي الفضيل الملقب بابن العسال

للكهنوت .

وبعد انعقاد ذلك المجمع المقدس بقليل انتهت سلطة الملك العادل الثاني على مصر اذ اغتصب اخوه منه الخلافة . وذلك انه لما بايع الاسلام الملك العادل (الثاني على مصر بعد ابيه الملك الكامل اقاموا من يدعي الامير يونس المعروف بالملك الجواد اميراً على سوريا وكان الملك الصالح شقيق الملك العادل (الثاني) اميرا على مابين النهرين فلكي يختلس ملك مصر من اخيه تبادل الامارة مع الامير يونس فهذا اخذ امارة مابين النهرين واتى الملك الصالح بذلك اميراً على سوريا فلما شعر الملك العادل بذلك أو جس خيفة من اخيه فسار بجيشه على امل ان يصده في الطريق فما عتم الى ان وصل بلبيس حتى رأى نفسه مقيداً في قبضة امرائه فخلعوه عن الخلافة وكان ذلك يوم الجمعة ٨ ذي الحجه سنة ٦٣٧ هـ بدسائس اخيه الملك الصالح الذي استقدموه بعد ئذ اميراً على مصر وبايعوه بالخلافة فدخل القاهرة في موكب عظيم بين اصوات الترحاب والتهليل والدعاء وبذلك انتهت سلطة الملك العادل (الثاني) وكانت مدة خلافته سنتين فقط

وفي اثناء ذلك ثار بعض رعاع الاسلام بوقاحتهم المعتادة وحصلت فوضى في الاحكام وكان للاقباط الحظ الاوفر من مصائب تلك الثورة اما كيرلس بطريركهم فاتخذ تلك الثورة فرصة سانحة واجتهد بان حاز رضا الملك الصالح مختلس ملك اخيه وصار يتحبب اليه حتى

استماله وعلى اثر ذلك حنث بكل يمين وقسم كان قد حلفه نحو اصلاح الكنيسة ونكث عهوده بالمرة مع الشعب والاكليروس وعاد الى سابق فعاله المعيبة وخصاله الذميمة ولم يجد من يصده . ولو كانت فعاله قاصرة على طمعه الاشعبي في جمع المال أو الطموح الى العظمة لهان ولكنه عمل مفاسد ومظالم متنوعة حتى ان رجال الحكومة شرعوا في ايقاعه تحت سلطة القانون لمحاكمته كباقي افراد الرعية . ولكن لم يتحد اسقفان في شهادة واحدة ضده امام المحكمة الاسلامية كما وانه لم يعترف أي احد من الاساقفة بحق الحكومة في التسلط على البطريرك والقضاء عليه وقالوا ان ذلك من اختصاصاتهم مع شعبهم وحدهم . وبعد ئذ عقدوا مجلساً فيما بينهم بحضور كبار واعيان الشعب القبطي واقروا على ان يطلبوا من البطريرك مرة اخرى ان يلاحظ شرائع وناموس الكنيسة ويقوم بتأدية الاصلاح الذي وعد به ولم يتم فاجابهم كيرلس بالازدراء والاحتقار المر وفي الحقيقة كانت جميع مراكز رجال الاكليروس الذين رقاهم الى درجات اعلى مما كانوا فيها بواسطة المال لا تطاق لما اعتراها من فساد النظام لانه بالنسبة لما ظهر وشاع من سؤ سلوكه وتصرفه قد اعتراهم الخجل الشديد مما شاع عليهم ايضاً ولم يعد في وسعهم ان يرشوه مرة اخرى لنوال منصب كهنوتي ارفع غير ان واحداً من العلمانيين حملته الغيرة على اصلاح كنيسته فاجتهد مع البطريرك حتى اقنعه ان يوقع على قانون اصلاح اخر من مآله تعيين كاهن طاهر الذمة اميناً لحصر وضبط ايرادات الكنيسة

والاوقاف التي كان البطريرك يحصلها ويصرفها لمنافعه الخصوصية والزمه
ايضاً ان يرسم اسقفين لابرشيتين بدون اخذ رسوم وكان كيرلس
تاركا هذين المركزين خاليين حتى يرسم عليهما من يدفع له الرسوم ويحصر
حق رسامة الاساقفة لنفسه . والزامه ايضاً بتعيين ناظرين لمدرستي
القاهرة وبابليون . وان يصرح للاديرة بالبقاء تحت سلطة الاساقفة
الذين تكون الاديرة في دائرة ابرشيتهم

ولما عرض ذلك المصلح القانون المذكور على المجمع الاكليركي لم
يصادقوا عليه نظرا لعدم احتوائه على مايضمن الاصلاح الحقيقي وارفضت
الجلسة ولم تتوفق الى نتيجة مرضية وفي سنة ١٢٤٠ مسيحية استاء احد
اصحاب كيرلس وتضجر جداً من بخله عليه فخان عهده معه ووشى به الى أمير
القاهرة (اشبه بالمحافظ بالان) فقبض ذلك الامير عليه والقاه في السجن
واجتهد ايضاً ان يجعل اساقفته يشهدون عليه او يقيموا البراهين على
المتهم التي نسبت اليه فابي اولئك الاساقفة ذلك . ولكنهم عقدوا
جلسة مع الامير ليتداولوا سراً في امره وكان وقتئذ الملك الصالح مشغولاً
في حروبه باسيا . وبعد المداولة اقر تسعة منهم بصحة التهم المنسوبة
للبطريرك . ولكنهم قبل أن يطلبوا محاكمته عرضوا عليه أن يسامحوه عن
خطاياه ويحلوه منها بشرط ان يوقع على شروط اصلاح كالتي امضاها السنة
الماضية فالتزم كيرلس بقبول هذا الشرط ووقع على قانون الاصلاح
ونجا من الشر الذي كان محدقاً به ولكنه سار في الخطة التي كان سائراً فيها

اولاً بالضبط فضاق ذرع الاساقفة من ذلك السلوك الممقوت وعيل
صبرهم من كثرة وعده باصلاح حاله واستقامة سيرته وعدم قيامه بوعده
فالتزم الاساقفة ان يجتمعوا سنة ١٢٤١ مسيحية واقروا على خلعه من
الكرسي البطريركي ورفع العار عن كنيستهم واخطروا امير القاهرة
بذلك فقال لهم الامير وكان يحب الاقباط حباً كثيراً وهل خلع البطريرك
جائز في شرائعكم فاعترفوا له انه غير جائز الا برضى البطريرك نفسه واقراره
على قبوله طوعاً واختياراً وانه لا يجوز انعقاد مجمع مقدس للاقرار على
خلعه بدون ان يكون البطريرك رئيساً لذلك المجمع ثم قالوا للامير انه
حصل مايماثل ذلك مع احد باباوات رومية اذ كان غير حسن السيرة
والسلوك فالتزم كطلب اساقفته ان يعقد مجمعاً منهم واشترك معهم في الحكم
على نفسه بالعزل من الكرسي البابوي ولكننا لانعتقد البتة بان كيرلس
يتشبه بنخوة بابا روميه ويحكم على نفسه بالخلع من ذلك المنصب الذي صرف
نحو ثلاثين سنة يدس الدسائس ويرشو بالدراهم ويبذل النفس في الحصول
عليه وحينئذ شرع الامير يخاطب السلطان الصالح في شانه ففرضت عليه
الحكومة غرامة مالية رابية تاديباً له . ولكن بما ان الملتوي ملتو ولا
يلين الغصن اذا صار خشبا بقي كيرلس على غواياته واعماله الشريرة وكانت
كل نتائج تلك الفعال الذميمة لاتقع الا على رأس شعبه المسكين . ولكن
رأت العناية الالهية الا ان ترحم ذلك الشعب البائس بعد ذلك الشقاء العظيم
فاستلم الله روح كيرلس البطريرك المرذول ومات في شهر فبراير سنة ١٢٤٣

مسيحية وراح غير مأسوف عليه فتنفس الاقباط الصعداء وكانت السنتهم جميعاً تلهج بالشكر لله على خلاصهم منه

ويصعب على الكاتب ان يأتي على وصف مقدار الضرر الذي اصاب الكنيسة القبطية من داود سواء كان في مدة العشرين سنة التي قضاها في الدسائس والرشوة لينال الكرسي البابوي بلا استحقاق وتسبب في ترك الكنيسة بدون بطريرك طول هذه المدة أو بعد ان ارتقى الكرسي الذي تصبو اليه نفسه وصار بطريركا وحكم الكنيسة مدة ثمانية سنوات سامها في خلالها صنوف المذلة والاحتقار واوصلها الى اسفل الدركات ورماها في اوطاء حفرة من الذل والعار وصارت موضع سخرية واحتقار في عيون المسلمين وذلك بعد ان نهب مالها بكلتا يديه . وكانت الاساقفة في عراك وخصام دائمين معه في القاهرة على الاهمال العظيم والشرور المختلفة التي بابرشياتهم . وصار لقب البطريرك الذي كان في السنة المصريين الحقيقيين والاقباط المستقيمين موضع المهابة والوقار مضغة في الافواه وكيفما كانت غلطات البطاركة الذين تقدموه فان اعمال هذه السلسلة العظيمة من بعد ماري مرقص الى يوحنا السادس واعمال اساقفتهم كانت مشابهة لاعمال الملوك العظام . فاصبح اسم البطريرك من ايام داود المسمى كيرلس فصاعداً لا يذكر الا مصحوباً بالهزء والاحتقار والخيانة . ولسوء حظ الكنيسة القبطية انه من بعد ايام البطريرك بنيامين لغاية يوحنا السادس لم يتمتع احد البطاركة بالحرية التامة التي تمكن من خدمة كنيسة المسيح مادياً

وادبياً وترقية شؤونها كما في ايام الحرية العظيمة والسلام التام الذي كان على يد كيرلس (داود) الذي خلف يوحنا السادس على عهد السلطان الكامل ولو كان الاقباط وقتئذ ذوي طالع سعيد لكان وجد من يصلح ان يكون بطريركاً حقيقياً مخلصاً يرفع كنيسته وشعبه الى ذرى المجد بمساعدة ذلك الملك الذي كان يمالئ المسيحيين ويعضدهم

ولم يقم احد من عهد ماري مرقص البشير من البطاركة على الكنيسة القبطية وعكف على الاهمال وعدم المبالاة بالرعية بهذه الصورة حتى عرض نفسه للانتقاد نظير داود الذي حط من مقامه ومن سمعة الكنيسة ولم نسمع في اشد ازمنة الاضطهاد واقساها ان اسقفاً قبطياً اعتنق الديانة المحمدية كما سمعنا في ايام داود . الا ما رواه التاريخ في زمن كيرلس الثالث حينما كانت حالة الكنيسة غير مرضية . حتى انه مع سماح الحكام للمسيحيين بالعيشة بالسلام اعتنق ذلك الاسقف المغرور الديانة الاسلامية

مات كيرلس (داود) وترك الكنيسة في حالة فوضى شديدة مختلة الاحكام فاسدة النظام حتى لم يعد في وسع الشعب مساعدة الاساقفة على اتخاذ الوسائل اللازمة لانتخاب بطريرك جديد فظل الكرسي البطريركي خالياً سبعة اعوام كاملة ممن يجلس عليه كان الاساقفة في خلالها يديرون شؤون الكنيسة كل في ابرشيته . ويتبين من شواهد عديدة ان الاقباط انما سكتوا كل تلك المدة الطويلة عن انتخاب خلف للبطريرك المتوفي واتحد معهم الاساقفة على هذا السكوت انتظاراً لوفاة اثنين من

اعوان كيرلس لرداءة اخلاقهما . وذلك كي يستريحوا من المظالم ويقوموا
الى انتخاب رجل عظيم يصلح للكرسي البطريركي فيعيد ما أفسدته ايدي
داود وكانت البلاد المصرية جميعاً في ذلك العصر على احسن حال
في سلام تام . ولكي نظهر الفرق العظيم بين زمن الخصام
والحرب والحالة الوسطى بينهما نأتي هنا على خلاصة ما قاله ابن سعيد
– ١ – الرحالة المغربي الشهير عن حالة مصر في زمن السلم عند زيارته
لها بين سنة ١٢٤٠ وسنة ١٢٤٩ مسيحية حيث قال — ولما كنت مقيما
في مدينة القاهرة تاقت نفسي الى رؤية مدينة الفسطاط فزرتها مع صديق
رقيق الجانب فلما بدأنا المسير رأيت عند باب زويلة عدداً كثيراً من
الحمير المعدة لركوب الذين يقصدون زيارة الفسطاط ولم يسبق لي رؤية
حمير كثيرة بهذا المقدار . ثم ركب مرشدي الذي أشرت اليه حماراً
وأشار عليّ بركوب آخر مثله . فلما ركبته شعرت بخجل لعدم تعودي
على ذلك وليست هذه الطريقة من ضمن عوائدنا التي ببلاد المغرب
فأخبرني صاحبي أن ركوب الحمير ليس عيباً ولا عاراً على الذوات
والأعيان . وقد وثقت بكلام المرشد لما لاحظت ان الفقهاء وباقي
الذوات والمتشحين بالملابس الثمينة وأصحاب المناصب العالية يفعلون
كذلك — فركبت وبعد أن جلست بلطف على ظهر الحمار همز الولد
الحمّار حماره فأسرع بي ركضاً فأثار غبار الارض على وجهي حتى كاد يتلف

(١) أخذنا ترجمة ابن سعيد من تأليف جناب كورت بك

بصري ويلوث ملابسي فقاسيت تعباً هائلاً . ومن جهلي بركوب الحمير
وعدم تعودي على ذلك قاسيت من التعب أشده فنزلت عنه وأثرت
المشي على الركوب وحاسبت الحمّار على اجرته وقلت له — كل ما اريده
منك أن تسمح لي بالمشي باقي المسافة على قدميّ فأخذ اجرته وانصرف
عني ومشيت أنا وحدي حتى وصلت الفسطاط فاذا بالمسافة بينها وبين
القاهرة تبلغ ميلين . ولما اقتربت من المدينة اعتراني الحزن والكآبة .
اذ رأيت أسواراً مسودة وخرائب متشتتة وحفراً كثيرة التراب والاقذار
وحارات متفرقة على جانبيها منازل حقيرة مبنية بالطوب الاسود (هو
الطوب اللبن) وكثيراً من شجر الغاب وجزوع النخل طبقات بعضها
فوق بعضها وحول الابواب تراب كثيف يؤلم الزائر فظللت ماشياً وانا
اتعثر مما اجد وزادني ضيقاً زحام الناس وكثرة البضائع وقرب المياه
المحمولة على ظهور الجمال ولم يعد في امكاني ان احتمل اكثر وما زلت
سائراً حتى بلغت الجامع فلاحظت ان أمر ضيق الشوارع المحاطة به
بضد ما تكلمت به عن حالة جامع اشبيليا (في اسبانيا) والجامع
المراكشي في مراكش فدخلت ذلك الجامع (١) وهو الشهير في المدينة
فرأيته جامعاً عظيماً وحجارته منقوشة ومبنية على النسق العربي القديم
وليس فيه حلية ولا زخرف ولا نقوش في الحصر التي تكسو جزءاً من
اسواره وتفرش ارضه ورأيت الناس رجالاً ونساءً على السواء يمرون

(١) هو جامع عمرو بن العاص

عليها ويدوسونها باقدامهم ويعبرون عليها من باب الى آخر اختصاراً طريق المقصود . والباعة يبيعون في ساحته كل أنواع النقل والمكسرات كالبندق واللوز والجوز وغيره وكذلك باعة الفطير والبسكويت والناس تشتري منهم في وسط الجامع غير مراعين له حرمة لما تأصل فيهم من رديء العادات ثم رأيت كثيراً من الاولاد يحومون كالجراد في كل أطراف الجامع وفي يدهم قلل مياه يسقون منها الذين يأكلون نظير اخذ شيء بسيط يسدون به جوعهم . ورأيت بقايا الطعام وفضلاته متناثرة في صحن الجامع وزواياه كأن الذين يأكلون يكسلون عن تنظيف موضعهم ثم رفعت نظري الى فوق فرأيت العنكبوت يغشي سقف الجامع وزواياه وحيطانه جميعها ورأيت الاطفال يلعبون ويمرحون في ساحته كانه ميدان ألعاب وعلى الحيطان كتابات ونقوش بالفحم والبوية سطرتها أيدي الجهلة والعوام . ومع كل ذلك التشويه فان الجامع فخيم البناء حسن المنظر لا يمالك كل من رآه عن الشهادة بعظمته وهو مما لا يشابهه فيه جامع اشبيليا (في اسبانيا) مع ان في وسط هذا الاخير حديقة لم توجد في جامع عمرو لان الناظر الى جامع عمرو يشعر بمهابة ووقار عظيمين لا يمكن التعبير عنها . والنفس لا تتأثر الا من أثر الفخامة الظاهر الذي يبعثه مغناطيس النظر المتصل بخلايا العقل المتحدة بالحواس النفسية والنظر لا يتأثر مغناطيسياً الا باعجابه بالغرائب . ولكني عرفت بعدئذ ان سر ذلك التأثير النفساني هو لان الصحابة قدس الله سرهم وقفوا في ساحته

اثناء بنائه وقد سررت كثيرا لما رأيت عليه دوائر كثيرة متفرقة في جوانبه وكثيراً من جماعة المطالعين ملتفين حول المشائخ الذين يدرسون القرآن الشريف وأصول الدين الاسلامي الحنيف مع نحو وصرف اللغة العربية وزاد سروري لما علمت ان كل استاذ منفرد بتلامذته الملتفين حوله كالتفاف السوار على المعصم في نقطة متباعدة عن الاستاذ الآخر . وهكذا رأيتهم اكواماً اكواماً في صحن الجامع ثم سألت عن مصدر اجور أولئك الاساتذة ومنبع معيشتهم فقيل لي ان ذلك يأتي من الصدقات الخيرية والتكايا وغير ذلك . ولكن قيل لي ايضاً ان جمع تلك الصدقات صعب جداً ولا يتم الا بعد كل تأثير عظيم من أئمة الدين على عقول المتصدقين

ثم خرجت مع رفيقي من الجامع ووصلنا الى شاطيء النيل فرأيت رصيفه وهو مرفأ الفسطاط قذراً وسخاً يعلوه الغبار وليس عليه أثر من النظافة بالمرة وليس طويلاً جداً ولا مستقيماً في هندسته وليس مبنياً بالحجارة من جهة المياه التي تنبسط على الارض بأمواجها ومع ذلك فهو مزدحم بالمراكب والقوارب المختلفة الراسية عليه من جميع انحاء الارض . اما عن نهر النيل نفسه فحقاً انه نهر عظيم ولم أر نهراً نظيره مزدحماً بمراكب الميرة والارزاق والنهر ضيق في تلك النقطة لان فيه جزيرة يدعوها المصريون جزيرة الروضة وهي التي بنى عليها سلطان كل أرض مصر الحالي قلعته العظيمة تجاه مدينة الفسطاط وجمال اسوارها وحيطانها الشاهقة العلو المبنية بالجص مما يجعل لها منظراً مبهجاً من جهة الشاطيء

والسلطان الذي بناها هو السلطان الحالي الملك الصالح ثاني انجال السلطان الكامل المشهور بحب النصارى . وذكر ابن حوقل في تاريخه ان الجسر المبني على النيل ليصل الفسطاط بالجزيرة ليس طويلاً جداً وعلى الجانب الآخر من الجزيرة وهو شاطئها الغربي المعروف بشاطيء الجيزة جسر آخر يوصل الى بحر الجيزه . ولكن الناس يعبرون النهر الى شاطيء الجيزه أو شاطيء الفسطاط هم ومواشيهم بواسطة القوارب لان ذينك الجسرين مخصصان لمرور السلطان وحاشيته وخواص القوم لوقوعهما امام القلعة ولا يتجاسر أحد ان يمر وهو راكب حصاناً على الجسر الكائن بين الجزيرة والفسطاط بدون ان يؤدي واجبات التعظيم والاحترام لمسكن السلطان . وقد مضينا تلك الليلة في غرفة عالية مبنية على سطح أحد المنازل بجانب النيل

ولم أذق بلساني طول حياتي ماء أحلى من ماء نهر النيل ولم ار قط اناساً اكثر تادباً من سكان الفسطاط حتى انهم اكثر أدباً من اخوانهم سكان القاهرة التي تبعد عنهم نحو ميلين . وخلاصة القول ان سكان الفسطاط فى اعظم درجات الرقة والآدب في احوالهم العمومية ولكن تحت تلك المظاهر السطحية يختفي كثير من العوائد الذميمة منها المداهنة والتمليق وعدم الاعتناء بشؤون الاخرين وقلة مراعاة الصداقة القديمة مع الناس وعدم الثبات في المباحث الاجتماعية وقتاً طويلاً وغير ذلك كثير مما يطول شرحه . اما البضائع الواردة الى الفسطاط عن طريق

اسكندريه وبحر الحجاز (أي البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر) فكثيرة جداً تفوق الوصف . لان هذه المينا هي المرفاء الوحيد للبلاد المصرية التي تجتمع فيها كل الارزاق وليس في القاهرة . ومن مرفاء الفسطاط تتصدر الارزاق الى جميع انحاء القطر . ورأيت في الفسطاط معامل السكر والصابون ومعامل اخرى كثيرة مثلها فالفسطاط اذاً مدينة صناعية تجارية عظيمة اما القاهرة فبنيت لغرض عسكري شيئاً فشيئاً . ففيها القشلاقات العظيمة . والاستعدادات الحربية فيها اعظم منظرا من التي بالفسطاط وتمتاز القاهرة ايضاً عن الفسطاط بالصناعة الدقيقة ففيها اصحاب الانوال ونساجو الاقمشة القطنية والحريرية وفيها الصياغون وغيرهم من ذوي الصنائع الملوكية الفاخرة . وفي الفسطاط كثير من آثار الخرائب والدمار بعكس القاهرة فانها احسن منها تنظيما وعمراناً واكثر منها سكاناً وعلى ظني ان السكان لم تزدحم فيها الا لان السلطان حول مسكنه من الفسطاط اليها واتخذها مقراً له . ولكنه لغاية يومنا هذا (أي في سنة ١٢٤٥ مسيحية) لم تزل ايات وروح الاصلاح والتنظيم تنمو اكثر فاكثر في الفسطاط لاقترابها من الجزيرة الصلاحية (جزيرة الروضة) ونقل اليها كثير من جيوش السلطان ليكونوا على مقربة من تأدية واجباتهم وتعظيمهم له واستخدم السلطان كثيرا من جنوده في بناء الاسوار الطويلة والقصور العظيمة التي تسر كل من رآها



الفصل الثامن والخمسون

القديس لويس في مصر

سنة ١٢٤٥ مسيحية و ٩٦١ للشهدا و٦٤٣ للهجره

لما ثبت قدم الملك الصالح في مصر وخلا له الجو بعد أن أهلك الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه وولى المخلصين اليه مكانهم وعزل الملك الجواد يونس من امارته وطرده من مصر اغتاظ منه يونس فالتجأ الى الصليبيين فقبلوه لانه كان ذا ثروة واسعة فاغتنموا تلك الفرصة للاتحاد بواسطته مع امراء سورية على اخذ اورشليم وعسقلان في نظير محاربتهم الملك الصالح في مصر

وكان الافرنج قد خجلوا لكثرة فشلهم امام الجيوش الاسلامية فعزموا في سنة ١٢٤٥ مسيحية على تأليف حملة قوية للاغارة على المسلمين وكانت هذه هي الحملة السابعة من نوعها واقروا على أن الذي يترأس هذه الحملة هو ملك فرنسا لويس التاسع فتألفت هذه الحملة من خمسين الف مقاتل واتوا بكثير من الاسلحة والذخائر وباسطول عظيم ومراكب كثيرة تحمل الميرة والذخيرة واختار الملك لويس لتلك الحملة امهر واشهر قواد اوربا في الفنون العسكرية وتأهبوا للهجوم على مصر

وكان الملك الصالح مشغولاً في محاربة امراء سوريا الذين اتحدوا مع رجال الصليبيين هناك على سلخ سوريا من يده فبعد ان ارسل اليهم

الخوارزميين وهزموهم واسترجعوا منهم غزة وبيت المقدس ودمشق كل ذلك رغماً عن النجدات التي ارسلها من مصر . ولكن امير حمص بقي يدافع دفاعاً شديداً ولم يخضع كباقي الامراء فضجر الملك الصالح من طول المحاربات والتزم ان يسير بنفسه لقيادة جنده بعد ان ظل سنتين كاملتين في ارسال النجدات . فقام سلطان مصر — المعروف بسلطان بابيلون — ومعه جند عظيم سنة ١٢٤٨ مسيحية لقهر أمير حمص — فوصل الى دمشق ولكن فاجأه هناك مرض ثقيل وهو ناسور في اليته انفتح وعسر برؤه واصيب بقرح في صدره فلزم الفراش فلما علم وهو مريض بعزم الصليبيين في اوربا على مهاجمة مصر بقيادة القديس لويس التاسع ملك فرنسا . وعرف بقرب قدومهم الى الديار المصرية لم يسعه الا مبارحة دمشق في الحال فسار في محفة ووصل الى مصر ونزل في اشمون طناح في محرم سنة ٦٤٧ هـ الموافقه سنة ١٢٤٩ مسيحية . ثم امر وهو على فراشه بجمع كثير من الميرة والذخيرة والآت القتال في مدينة دمياط خوفاً من ان يقع فيها ماوقع على عهد أبيه من أنواع الحصار الشديد . ثم جمع كثيرين من عربان بني كنانة وجعلهم وراء متاريس المدينة التي عهد بقيادة حاميتها المنظمة من جيشه الى الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ . وفي ٢٠ صفر من سنة ٦٤٧ هـ وصلت اساطيل الصليبيين الى دمياط فانزل الملك لويس جنوده وعسكر على شاطئ البحر وقبل أن يتقدم الى ضرب المدينه بعث كتاباً الى الملك الصالح هذا نصه «باسم الاب والابن والروح

القدس الا له الواحد امين

(اما بعد . فانه لم يخف عليك اني امين الامة العيسوية كما انك انت أيضاً أمين الامة المحمدية وانت تعرف اهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار . وها قد أبدينا لك ما فيه الكفاية وبذلنا لك النصح الى النهاية . فلو حلفت لي بأغلظ الاقسام وادخلت عليّ القسوس والرهبان . وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا اليك وقاتلك في اعز البقاع اليك . فاما ان تكون البلاد ليّ واما ان تكون البلاد لك وقد عرفتك وحذرتك من عساكر تملاء السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء) فلما قرأ هذا الكتاب على الملك الصالح وقد اشتد المرض بكى ثم امر القاضي بهأ الدين بكتابة رده فكتب يقول

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه اجمعين . أما بعد . فانه وصل الينا كتابك الذي تهددنا فيه بكثرة جيوشك وعدد ابطالك . فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الا قام بدله افراد ولا بغى علينا باغ الا اهلكناه ولو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا حصونكم وسواحلكم وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لعضضت اصابعك غيظاً وندماً وذات قدمك في يوم أوله لنا وآخره عليك وسيعلم الذين ظلموا أي

منقلب ينقلبون . فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه أول سورة النحل (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وتكون على آخر سورة (ص) (ولتعلمن نبأه بعد حين) ونعود الى قول الله تعالى وهو اصدق القائلين . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله ولي الصابرين . وقول الحكماء ان الباغي له مصرع . وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام)

ثم قرأ القاضي بهاء الدين زهير بن محمد هذا الكتاب على السلطان وهو في فراشه فشكره على كتابته وختمه وبعث به الى الملك لويس . وفي اليوم التالي حصلت مناوشة بسيطة بين الافرنج وحامية المدينة قتل فيها بعض امراء المسلمين . وقد شاع بين جنود المسلمين وقوادها ان السلطان الصالح حضر من سوريا وهو مريض في حالة الموت فاشتغلت الجنود في من يكون خليفة له حسب العادة ولم يلتفتوا الى الدفاع عن البلاد كما ينبغي الا القليلين منهم وكان من وراء ذلك ان قتل اولئك الامراء في تلك المناوشة البسيطة وعدم معارضة الجيوش الاسلامية الجيوش سنت لويس عند نزولهم من البحر الى البر . ولما أنس الامير فخر الدين قائد حامية دمياط فتور الجيش فر مساء تلك الليلة وتبعه اعراب بني كنانه فتبعهم الصليبيون ليلاً وهزموهم ولحقوا بجنود السلطان في اشمون . وهكذا تركت الحامية المدينة للاعداء بغير مقاومة فدخلوها بأمان واستولوا على كل ما فيها من المؤن والذخائر والعدد الحربية التي كان جمعها الملك الصالح احتياطاً للحصار الذي كان ينتظره وكان

دخولهم مدينة دمياط في يوم ٢٩ يونيو سنة ١٢٤٩ مسيحية الموافق ٢٢ صفر سنة ٦٤٧ هجرية فكان ذلك خسارة على السلطان لا تعوض فاستشاط غضباً وجمع رؤساء بني كنانة والامير فخر الدين قائد الحامية وعنفهم تعنيفاً شديداً على تركهم المدينة بدون اذنه فاحتج هؤلاء بهروب القائد وهذا لم يمكنه اقامة برهان معقول على هربه فعقد الكامل مجلساً عسكرياً وحكم على أربعة وخمسين من امراء بني كنانة بالاعدام وعاقب القائد فخر الدين بما يستحق من التوبيخ وأمر الملك الصالح امراءه بحشد الجنود وعسكر في مدينة المنصورة يوم ٢٤ صفر وحصن تلك المدينة تحصيناً عظيماً ليصد الافرنج عن القدوم اليها من طريق النيل . ولكن لشدة تأثره وحزنه الشديد على خسارته العظيمة في دمياط اشتد عليه المرض فأصيب بحمى شديدة فتوفاه الله في ١٤ شعبان سنة ٦٤٧ هـ الموافق أوائل نوفمبر سنة ١٢٤٩ م وعمره أربعون سنة وكانت تلك الخسارة الحربية في دمياط محققة لما كان ينتظره رجال جيشه فاشتغلوا في التفكير في من يخلفه

اما الصليبيون فبقوا في دمياط أربعة أشهر ولم يتقدموا الى داخلية البلاد كما هي عادتهم عند كل فتح وهم لو تقدموا لاكتسحوا المنصورة وما يليها ولكنهم لبثوا يتخاصمون على اقتسام الارض ويشربون كؤوس الفسق والخلاعة اما لويس التاسع فاذا كان ملكاً صالحاً لم يكن فيه من القوة والبطش ما يكفي لردع جيوشه عن غيها بل صرف همة الى زيارة الكنائس وتأييد الانشقاق الذي أوجدته الكنيسة اللاتينية سنة ١٢١٩ أي قبل

ذلك الوقت بثلاثين سنة وهو اقامتها بطريرك كاثوليكي جديد على مدينة دمياط لان نقولا الذي كان بطريركاً للكنيسة اليونانية المصرية وهو صاحب الخطاب المشهور لبابا رومية المدعو هورونيوس قد مات في نفس السنة التي مات فيها كيرلس البطريرك المرذول . ومع انه خلفه بطريرك يدعي غريغوري بالاسم الا أنه لم يكن يعرف شيئاً عما عمله سلفه ولذلك لم يحتج على مشروعات الصليبيين في كنيسته التي أصبحت شبه منشقة

وحضر الكونت پواتيير شقيق القديس لويس في شهر نوفمبر من أوروبا واتحد مع معسكر الصليبيين وعقد مجلساً مع أخيه الملك ليتشاوروا في الزحف على داخلية بلاد مصر ومعرفة ماذا كان أفضل لهم ان يسيروا عن طريق الاسكندرية أو بابليون (القاهرة) فاشار الكونت باغلبية الاصوات بتفضيل الهجوم من جهة القاهرة فصادق على ذلك الملك والذين معه وتأهبوا للمسير

وكان من جملة جواري الملك الصالح جارية بيضاء محبوبة اليه جداً وهي أرمنية الاصل تدعى شجرة الدرّ وهي والدة غياث الدين توران شاه الابن «١» الوحيد للسلطان الصالح الذي رزق به منها لانه لم يرزق من نسائه الاخرى سوى فتيات . وكانت شجرة الدر عارفة بأمور

(١) يقول المقريزي في تاريخه أن توارن شاه لم يكن ابن السلطان الصالح حقيقة بل هو ابن احدى نسائه

الحكومة وسياستها اذ شاع ان الملك الصالح عهد اليها بادارة البلاد عدة سنوات مدة غيابه في حروب سوريا . فلما ذاقت حلاوة الملك وتوفى الملك الصالح كتمت خبر وفاته . وصارت تصدر الاوامر باسمه ثم تواطأت مع الامير فخر الدين ورئيس الخصيان جمال الدين محسن على مبايعة ابنها غياث الدين الذي كان وقتئذ في سوريا ولم يسمع بعد بوفاة أبيه . فنجحت في ذلك وتم لها ما أرادت وذلك انها وقفت خطيبة في وسط الامراء والاعيان تقول ان السلطان الملك الصالح يأمركم ان تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين توران شاه . وقد عين الملك الامير فخر الدين اتابكا لادارة الاحكام) . فلم يعد في وسع الامراء والاعيان الا مبايعته. ثم أرسلت شجرة الدر هذه الاوامر من المنصورة الى القاهرة فبايعه من فيها من القواد وأعيان السلطنة وأرسلت الرسائل بختم السلطان الملك الصالح الى جميع أنحاء المملكة . وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لم يزل حياً لما اعتادوه من مشاركة شجرة الدر له في اصدار الاحكام والاوامر . ولكن لما علموا باستقدام الملك المعظم غياث الدين بسرعة الى القاهرة خامرهم الريب في ذلك

كل ذلك تم والصليبيون باقين في دمياط لا عمل لهم غير التلذذ بالشهوات والملاهي في حين كان المماليك والامراء المصريون يواصلون المساعي في انتخاب خليفة لهم بعد وفاة السلطان الصالح . وبعد ان فازت شجرة الدر بأمنيتها صارت تدبر المملكة بالاتحاد مع الامير فخر الدين

ورئيس الخصيان جمال الدين محسن . وصارت تصدر الاوامر بتقوية الجيش وحصون الدفاع حتى يصل ابنها من سوريا

ولما كانت الكسرات المتوالية التي لحقت بالصليبيين في كل حملة جردوها على مصر قد علمتهم الحكمة زحفوا من دمياط الى داخلية البلاد بكل حذر في شهر فبراير سنة ١٢٥٠ مسيحية فوصلوا الى المنصورة وحاربوها بشدة وادهشوا المسلمين بقوة بأسهم حيث قتلوا منهم مقتلة عظيمة وكان المسلمون تحت قيادة الامير فخر الدين يحاربون ببسالة كلية وساعدته الايات المماليك فقهروا الصليبيين وكان بحر اشمون فاصلاً بين الجيشين فلم يستطع الصليبيون عبوره الى المنصورة اذ لم يكونوا يعرفون طريقا غير طريق النيل فأتاهم بعض خونة المسلمين ودلوهم على طريق أخرى يسهل منها الوصول اليها. فسارت من فرسانهم سرية وهاجمت المنصورة بغتة وكان الامير فخر الدين في الحمام فلما علم بقدوم الافرنج الى المحلة اندهش ونادي في رجاله وخرج للدفاع فأدركه بعضهم وقتله وكادت الدائرة تدور على المسلمين وانتهت الموقعة بخسارة كبيرة من الفريقين بحيث لم يعد أحدهما بعدها قادراً ان يستأنف القتال. وظل الجيشان يتناوشان حتى وصل الملك الصغير طوران شاه من سوريا فتشدد به عزم المسلمين وهاجموا الافرنج في البر والبحر حتى هزموهم وأسروا منهم ٣٢ مركباً

فتضعضع الصليبيون بعد ذلك وأضحوا في حالة غير راضية وقد ذكر المؤرخ جوتفيل ما أصابهم يومئذ فقال انهم بعد هذه الكسرة أرسلوا

يطلبون مؤناً وذخائر من دمياط فلم يلب أحد طلبهم ومن ثم علموا ان المسلمين أخذوا قواربهم ومراكبهم الراسية في النهر عند دمياط ونقلوها براً الى البر وأنزلوها ثانية الى النهر بين دمياط والمنصورة . وأهلكوا حامية الذخائر والمؤن التي كانت قادمة من دمياط لنجدة الملك لويس الذي لما عرف كل ذلك أرسل الى الملك طوران شاه يطلب منه عقد هدنة وبعد ذلك يصطلحان على ان ينسحب من مصر بعد ان يخلي دمياط مقابل أخذ بيت المقدس وضواحيه فلم يقبل المصريون ولا ملكهم بذلك فعزم القديس لويس على التقهقر الى دمياط وكان ذلك في ٢ محرم سنة ٦٤٧ هـ فتبعهم المسلمون وأدركوهم غربي فرسكور وانقضوا عليهم كالبواشق وقتلوا منهم ثلاثين ألفاً حتى امتلأ النيل بجثتهم . ثم أسروا الملك لويس التاسع وحاشيته وضباطه وكبار جيشه وكانوا قد فروا مع ملكهم الى منية أبي عبد الله وذبح المسلمون منهم المئين ذبح الاغنام لانهم أبوا ان يعتنقوا الاسلام وقطعوا رؤوس بعضهم لهذا الغرض عينه . قال المقريزي في تاريخه ان الذين هلكوا من الفرنسا وبين مائة الف نفر . وهدد المسلمون الملك لويس وأشراف جنده بالعذاب والموت اذا لم يقبلوا الشروط التي اشترطها عليهم طوران شاه في مقابل اطلاق سراحهم . فلم يقبل الملك لويس بذلك لانه علم انه لا يستطيع ان يقوم بها تماماً . فلما رأى المسلمون انهم لم ينجحوا في ذلك استبدلوها بشروط أخرى أخف منها ما آلها قبول فكا لهم بفدية معقولة . وكانت ملكة فرنسا مقيمة في دمياط وقد وضعت

غلاماً بعد ان سمعت بأسر زوجها القديس لويس بيوم أو اثنين فلما استبدل الملك المعظم طوران شاه حكم القتل بالغرامة المالية البالغ قدرها مليون بيزانتا ذهبياً أو ٥٠٠ الف بنتو ذهباً عن أشراف الجيش والتخلي عن مدينة دمياط فدية عن القديس لويس نفسه قبل ملك فرنسا تلك الشروط فورا وأرسل الى زوجته في دمياط لتفديه بالمال فاندهش السلطان توران من ذلك كثيرا لانه لم يكن يتوقع من لويس الا المراوغة كما هي عادة أهل الشرق في انهم يخلفون الوعود ويطيلون اجل المفاوضات في كل مسائل البيع والشراء والفدية والفكاك ونحوها . غير ان الملك لويس لم يدفع كل ذلك المبلغ بل طلب ان يدفع ٤٠٠ الف بيزانت ذهباً والباقي يبادل به الاسرى الذين عنده فقبل السلطان بذلك واستلم مائة الف بيزانت واشترط ان يأخذ الثلثمائة الف قبل مبارحة الصليبيين لدمياط وعينوا يوم الخروج منها . غير انه قامت في تلك الاثناء ثورة في الجيش المصري فغيرت الاحوال لان ايالات المماليك ساءها الاعتراف بطوران شاه ملكا وكان معظم الجيش المصري مؤلفاً منها وانما فعلوا ذلك بدعوى انه ينبغي ان تؤول الخلافة الى الاقوى . على ان اولئك الارقاء الذين لا يعلم لهم أصل أو فرع ولا يعرفون شيئاً من أمور الدنيا سوى المعسكر الذي يقيمون فيه لم يكن يحق لهم ان يطالبوا بالعرش المصري الذي لا يفقهون له معنى . ولكن شجرة الدر بقوة حكمتها وحسن سياستها وبشدة تأثيرها أطفأت نار تلك الثورات والفتن وتغلبت على الجنود

المتمردة قبل ان يشتد لهيبها بل حتى قبل وصول ابنها طوران شاه من سوريا . وبعد وصوله واستلامه مقاليد الاحكام هاج المماليك سخطاً عليه ولم يستطع أحد ان يكبح جماحهم وقد روى بعض المؤرخين ان سبب الخصام انما كان على اقتسام الاموال التي أخذها طوران شاه من الافرنج وذهب آخرون الى انه نجم عن عزله أصحاب النفوذ منهم وتولية آخرين ممن جاؤا بمعيته من بين النهرين اذ كان يثق بهم . وكتب سيور دي جرانڤيل المؤرخ الفرنساوي الذي كان معاصرا لطوران شاه يصف تاريخ أواخر حياة ذلك الملك الذي هو آخر سلالة السلطان صلاح الدين . وبعد ان وصف الاستحكامات العظيمة التي بناها السلطان على شاطيء نهر النيل بفرسكور توقعاً للحصار وقت حربه مع الصليبيين وتكلم عن ابراجها الخشبية الثلاثة المكسوة بالقماش التي كان يطلع عليها السلطان ويرى من علوها قوة الاعداء من بعد . وبعد ان ذكر كثيراً عن الضجيج الذي كان يسمع من خارج السرادق عند ما كان السلطان ينادم كبار أمرائه — ابتدأ يتكلم عن أخريات أيامه فقال — ان السلطان الصغير النشيط لما اشتم رائحة مؤامرة المماليك عليه هرب في غاية محرم سنة ٦٤٨ هـ الى البرج الذي بناه في فارسكور مع ثلاثة من اخصائه وهم أئمة الدين وكان ذلك البرج مبنياً من خشب فيه غرف ثلاث وهو قائم فوق سطح سرادقه كما تقدم فاجتمع رجال الحرس وعددهم خمسمائة فارس واحاطوا بالبرج ونادوا عليه ان ينزل فاجابهم بالطاعة بشرط ان لايقربوا منه فقالوا انك لست

في حصن دمياط ولا بد من نزولك بالقوة ثم سلطوا النار على البرج فاشعلته واحرقته ولم أر ناراً زائدة الاشتعال مثل ناره فلما أخذت تتقد في جوانب البرج أسرع السلطان وهرب الى النهر عن طريق دمياط فتركه رجال الحرس وقطعوا عليه الطريق بسيوفهم فاراد ان يلقي نفسه الى النهر فهرع اليه أحدهم وطعنه بحربة بين ضلوعه فألقى بنفسه الى الماء والحربة مرشوقة في بدنه فغاصوا وراءه في الماء وانتشلوه وذبحوه بقرب القارب الذي كنا فيه . ثم تقدم أحد الفرسان المدعو فارس الدين عقطاي وشطر الجثة شطرين بسيفه وأخرج قلبه با كفه وقطعه أربا وذهب الى الملك لويس التاسع الذي لم يكن قد فارق مصر بعد ويداه ملطختان بالدماء وقال له — ماعساك ياملك الفرنسيس ان تكافئني به نظير قتل عدوك الذي لو عاش لما أبقى على حياتك . أما القديس لويس فنظر اليه شزرا ولم يجبه بكلمة اهـ

وبعد ذلك جاء المماليك الذين تآمروا عليه وحزوا رأسه وأخذوها وأسرعوا فقبضوا على أمراء الفرنسيس وأشرافهم وسجنوهم فعاد أولئك التعساء يتوقعون الذبح عند الصباح . وكان ذلك على وشك الوقوع لولا ان المماليك لم يتفقوا على قتلهم لان فريقاً منهم قرر ان يذبحوا اما الفريق الآخر فعارض وفضل ان يفدوا بالمال . وأخيراً فاز الحزب الاخير وكان فوزه من حسن حظ الاسرى فأطلقوا سراحهم عند الصباح وسمحوا لهم بالرجوع الى دمياط مقابل دفع باقي الثلاثمائة الف بيزانت

التي وعدوا بدفعها للملك طوران شاه الذي قتل شر قتلة وبموته انقرضت الدولة الايوبيه لانه آخر من حكم من تلك العائلة وكان ذلك أيضاً نهاية الحملة الصليبية السابعة أو الفصل السابع من الرواية التي مثلوها في الديار المصرية. ولما قتل الملك المعظم طوران شاه اختلفت الاحزاب في من منهم يكون خليفة له وصار كل واحد من المماليك يرشح نفسه للسلطنة أو يحاول القبض على الاحكام والاستبداد بالسلطة فتفشت الفوضى وكاد الامر يفضي الى حرب داخلية . فتداركت شجرة الدر الامر بحكمتها واتخذت ذلك التنافر وسيلة الى تسنم عرش الخلافة وما زالت بحسن سياستها تتبصر في الامر حتى أدركت ان حزب المماليك أعز جانباً من سواه ولانها كانت من جنسيتهم وافقتهم وقربتهم وكانت هي أول من استلم زمام الاحكام من النساء في الاسلام باقرار الجميع وذلك انها تواطئت مع أيبك عز الدين وهو أقوى امراء المماليك وأعظمهم بأساً ونفوذاً وكانت بينهما علاقات ودية من أيام الملك الصالح وكان من المتآمرين سرا على قتل ابنها طوران شاه فتمكنت بذلك التواطيء من مبايعة جميع الاعيان لها ولقبت نفسها بعصمة الدين ام خليل ونودي بها ملكة على مصر في ١٠ صفر سنه ٦٤٨ هـ . وكانت توقع على الاوراق بامضاء (ام خليل) ونقشت اسمها على النقود هكذا (المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين) . واذا كان أمراء المماليك حائزين صفات الشجاعة الادبية مخلصين للعائلة الحاكمة وذوي شهامة

عربية وفروسيه زائدة أصلحوا شؤون مصر فاعتزت على يدهم غير انهم لم يكونوا ذوي حكمة ودهاء ولذلك مقتهم المسلمون فلم يبق نفوذهم في مصر الا ثلاث شهور فقط . وانتخبت شجرة الدر أعظم الامراء المماليك ايبك عز الدين وعينته أتابكا لها (أي رئيس الوزراء) وهو كما تقدم صاحب اليد الطولى في اعتلائها الى عرش السلطنة المصرية . وفي ذلك الوقت القصير التفتت الى متابعة الحرب مع الفرنساويين فلما طردتهم من البلاد أصلحت نظام الحكومة وخفضت الضرائب عن عاتق الاهالي ثم تحببت الى أرباب الدولة ووجهاء البلاد وجذبت قلوبهم اليها فرضوا عنها وخلعت عليهم الخلع الثمينة وأنعمت عليهم بالرتب والمناصب العالية . لكن لسوء حظها حالت عوائد الاسلام دون مطامعها في العظمة ودوام ملكها اذ لما سمع أهالي سوريا وبغداد بارتقائها الى سرير المملكة المصرية خرجوا عن طاعتها وقابلوا صنيع امراء مصر الذين انتخبوها بكل سذاجة ودهشة وغيظ وحنق وكتبوا الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في أمر هذه الملكة . فكتب الى امراء مصر وسوريا يقول « اذا لم يكن بينكم رجل يصلح للسلطنة المصرية اقدم اليكم فأقيم عليكم من يحكم فيكم اما قرأتم ماقاله النبي صلعم عليهن «الويل للامه التي تحكمها امرأة» فاعملوا بحديثه ان كنتم مؤمنين »

فلما وصلت تلك الفتوى الى دمشق ثار أهلها وشقوا عصا الطاعة على شجرة الدر وبايعوا الملك ناصر يوسف الايوبي سلطان حلب وبعثتها

باقي المستعمرات المصرية في سوريا فقتلوا كل من كان موالياً لشجرة الدر واستمسك أيضاً امراء مصر بهذه الفتوى فجبروا الملكة التي كانوا حلفوا لها يمين الطاعة بالتنازل عن الملك وحصل خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر بسبب ذلك فانتهز عز الدين ايبك وهو نصير شجرة الدر واتابكها هذا الانقسام وتحول عن صداقتها وصار يستميل الافكار اليه فلما استقالت شجرة الدر انتخبه الامراء سلطاناً على مصر وبويع سنة ٦٤٨ هـ ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالحي وتزوج في الحال بشجرة الدر فاحسن بذلك صنعاً لانه باقترانه بها عزز مركزه واجتذب اليه رجال حزبها وكان انتقال الملك من شجرة الدر الى عز الدين اسماً لا فعلاً لانها لما كانت هي الملكة كانت تدبر الامور بمشورته فلما اصبح هو الملك وقد تزوجها فاصبح الامر بيدها كما كان من ذي قبل. وبعد ذلك انقسم المماليك الى حزبين احدهما حزب المعزين نسبة الى الملك المعز ايبك والآخر حزب الصالحيين نسبة للملك الصالح نجم الدين. وتنازع الحزبان النفوذ ففاز حزب الصالحيين وارغموا الملك المعز ايبك ان يبايع حفيد السلطان الكامل. وهو فتى دون الثامنة وكان اسمه موسى مظفر الدين بن يوسف وكان ملكاً على اليمن فرأى المعز ايبك ان الحكمة تقضي عليه الخضوع لمطالب الحزب الاقوى فبايعه مع القوم في ٥ جمادى اول ولقبوه بالملك الاشرف وتعين المعز ايبك اتابكا له فبقيت مقاليد الاحكام بيده وما كان الاشرف الا ملكاً بالاسم ولم يربح هذا الغلام

المسكين من ذلك العرش الوهمي الا موته موتاً شنيعاً اذ قبض عليه المعز ايبك والقاه في سجن مظلم في القلعة فمات فيه تعيساً بعد ان حكم بالاسم سنة وشهراً وكان يخطب له وللمعز ايبك معاً في الجوامع وهو من الغرابة بمكان . وكان الملك الاشرف آخر من حكم من سلالة الدولة الايوبية وبموته انقرضت تلك العائلة تماماً وسيأتي في الفصل القادم بيان اسباب القبض على الاشرف.

الفصل التاسع والخمسون

مصير ملكة مسلمة

سنة ١٢٥٠ مسيحية و٩٦٦ هجرية و٦٤٩ للشهداء

كان المسلمون من ترك وعرب اعظم تجار الرقيق في العالم من عهد ما قضى خلفاء محمد علي تمدن الشرق القديم. وكانت تجارة الرقيق معروفة من بدء عصر التاريخ وكان معظمه من اسرى الحروب الذين كانوا يباعون كالسلع او كالانعام فكان اولئك الارقاء يخدمون الخدمة المنزلية. وقد كان الرقيق معروفاً من عهد قديم فورد في التوراة ذكر جارية ابرهيم الخليل وغير ذلك كثير من الشواهد التي تدل على وجود الرق والنخاسة . وكانت مسألة الاسترقاق في تلك العصور الاولى عبارة عن سيادة احد الموالي على العبد فيكون العبد مسؤولاً لمولاه وواقعاً تحت طائلة عقابه في حالة عدم الخضوع له وكان للعبد بمقتضى قوانين

بعض الشعوب القديمة حقوق مرعية لدى سيده ومالكه ولم يكن ينكر تلك الحقوق الا السادة الظلمة العتاة . وكان للعبد عند العبرانيين الحق الصراح في ان يطلب العتق من سيده بعد ان يقضي في خدمته سبع سنوات غير ان عتقه كان يتوقف على حسن سلوكه لا على مرام سيده . اما الرق في الاسلام فهو ان يكون العبد بمنزلة متاع او ملك فلم يكن يعتبر عندهم الا نظير حيوان خلق لقضاء الاعمال وحمل الاثقال

وقد اصبح من المؤكد ان متاجرة العرب بالرقيق كانت سبباً في هدم صروح الممالك المسيحية في السودان والقضاء على قوتها الادبية وتصييرها لقمة سائغة لافواه المسلمين ونتج عن تجارة الاتراك بالرقيق وجود تلك المظالم الفظيعة التي حلت بمصر وجعلت البلاد تنوء بثقل المظالم كل تلك القرون الماضية وبسبب اولئك المماليك سقطت الدولة الفاطمية من عالي مجدها الى الدرك الاسفل ذلك لان القوتين اللتين تتألف منهما قوة الحكومة واعني بهما جيش الاتراك الاحرار وجيش العبيد السود كانتا في شجار دائم وخصام عنيف ولما رأى السلطان صلاح الدين الايوبي اباء الاتراك والعرب كليهما الخضوع للقوة التأديبية النظامية التي كان يرى ضرورتها وقتئذ لتأليف جيش حقيقي منظم يرفع شأن مصر ويرهب الاعداء اضطر ان يزيد في عدد جيوش السودانيين . ولما لم يمكنه ان يجند منهم العدد الكافي الذي يلزم لاتمام اغراضه من غير ان يفتح السودان ويستخدم رجاله الاشداء وحيث انه رأى ان دون ذلك صعوبة

كبرى عمد الى الحيلة بان اتفق مع تجار الرقيق الذين يقطنون الاقاليم الجبلية الكائنة في شمال وشرقي اوروبا بان يشتري منهم كل الاولاد الذين يليقون للخدمة العسكرية ممن يختطفونهم باساليب الخداع او يشترونهم من السلبة فاجتمع لدى صلاح الدين خلق كثير من الرقيق الابيض مرنهم على الجندية ودربهم في الديانة الاسلامية فشبوا يجهلون والديهم ومواطنهم وكان كل ما طبعوا عليه هو الطاعة للقائد الذي يتولى قيادتهم وسار خلفاء صلاح الدين على تلك الخطة فاصبح كل الجيش المصري من ذلك الرقيق الاوروبي . وكانوا ينقسمون الى آلايات وكل آلاي يمتاز عن الآخر بعلامة مخصوصة في لباس كل جندي منه . ولم تكن الآلايات تخضع لناموس او قانون ولم تعرف الا الطاعة لاميرها الذي كان في بادىء الامر تركياً او عربياً من عائلة عريقة في الحسب والنسب وبعد ذلك كان المماليك انفسهم يتولون انتخاب الامير . وكان اخر من اكثر من ايجاد المماليك في مصر الملك الصالح فانه اشترى منهم كثيرين للخدمة وجعل منهم الفاً لخدمته وكان من مماليكه امراء الدولة والحجاب ولهم علامات خصوصية على ثيابهم واسلحتهم فبعضهم كانت لهم علامة الورد والبعض الاخر اشكال من الطيور وكانوا يتمنطقون بمناطق جميلة مختلفة الالوان فلما كثروا في البلاد المصرية اصبحت مصالح الدولة في يد الامراء منهم وأمنع الحصون في قبضة الجيش الذي يتألف منهم شعروا بالقوة التي لهم واصبحوا طامعين في الاحكام ولما ضاقت بهم القلاع

والحصون ابتنوا بأمر الملك الصالح حصوناً وثكنات جديدة نخبة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضه قرب المقياس. وبما أن النيل هنالك يتفرع الى فرعين على جانبي الجزيرة فقد زادهذا المركز الطبيعي الجميل الثكنات [illegible] وأصبحت تلك الثكنات المركز الحربي لمماليك [illegible] قائمة على جزيرة في النهر أو (البحر) كما كانت تدعى هذه النقطة من النيل لعظم اتساعها سمي أولئك المماليك بالمماليك البحرية . ومنها اسم دولتهم التي تمتاز عن الدوله الاخرى المعروفة بدولة المماليك الشراكسة وكانت سطوة المماليك البحرية تزداد اكثر فأكثر حتى طمعوا بخلع السلطان وتولي ادارة مصر مكانه وكان ماتم من أمرهم بسعيهم في قتل الملك المعظم كما تقدم في الفصل السابق

ولم يهدأ لهم بال حتى تبوأ عميدهم عرش الخلافة المصرية وهو أيبك عز الدين زوج شجرة الدر التي تنازلت عن الملك له اضطراراً كما تقدم وأصبح سلطان مصر الجديد مملوكاً تركياً يسير في كل اموره بمشورة زوجته فأحسن ادارة البلاد المصرية بارشادها . أما سلطان دمشق بسوريا الذي كان من عائلة صلاح الدين ويدعى ناصر الدين يوسف فانه ابى الاعتراف به سلطاناً على مصر وقال ان لافرق بين ان يحكم مصر امرأة وبين أن يحكمها مملوك تركي ونهض للاخذ بثار الملك المعظم فاتفق مع امراء العائلة الايوبية على الفتك بالمماليك وفاوض القديس لويس التاسع ملك فرنسا وعقد معه معاهده حبية وكان لويس وقتئذ مقيما

في عكا بعد مبارحته البلاد المصرية . وخلاصة تلك المعاهدة انه يقوم معه لمحاربة المماليك بمصر ويرد له مقابل تلك المساعدة بيت القدس . ولما صادق الطرفان على تلك المعاهدة ارسل ملك الفرنسيس راهباً الى ناصر الدين يوسف سلطان دمشق ليوقع على المعاهدة باسم الملك فلما تم له ذلك ارسل الى مماليك مصر مندوباً يطلب منهم التعويض عن نكث المعاهدة التي عقدوها مؤخراً مع الصليبيين

ولما لاحظ أيبك عز الدين سلطان مصر ان المعاهدة التي تمت بين سلطان دمشق والفرنساويين تأتي بالوبال عليه وعلى المماليك ولما كان الصالح لهم أن يتفقوا مع الصليبيين على سلطان دمشق اسرع الى عرقلة تلك المعاهدة وتمكن بدهائه من استمالة الصليبيين اليه ثانياً وجدد المعاهدة بينهم وبينه وحل هو محل سلطان دمشق وكانت شروط المعاهدة بينه وبين الفرنساويين هو ان يجيب كل مطالبهم وأهم تلك المطالب التي اقترحها القديس لويس هي

أولاً — التنازل عن نصف الفدية المالية وقدرها مائتان الف دينار كان تعهد الصليبيون بدفعها بمقتضى معاهدة المنصورة

ثانياً — ان يرد المماليك للصليبيين النصف الاول من تلك الفدية التي دفعه القديس لويس في اسره بعد واقعة فرسكور

ثالثاً — اعادة الاسرى المسيحيين الى عكا

رابعاً — اعادة كل الاولاد الذين وقعوا اسرى في الحرب الاخيرة

واجبرهم المسلمون على اعتناق الديانة الاسلامية

خامساً — ازال رؤوس الصليبيين التي كانت معلقة على متاريس واسوار القاهرة ودفنها بالاحترام والوقار فقبل المماليك البحرية بكل تلك الشروط وكتب السلطان أيبك عز الدين للملك فرنسيس بقبولها وتنفيذها واهداه فوق ذلك فيلاً جميلا وكان هذا اول فيل ارسل لفرنسا وأول فيل رآه الفرنساويون في بلادهم ووعده ايضاً انه اذا تغلب على سلطان دمشق يعيد بيت المقدس للصليبيين . وبهذا استراح بال أيبك والمماليك وزالت مخاوفهم من تعصب الفرنساويين واتراك دمشق عليهم . ولما علم سلطان دمشق بذلك ارسل عشرين الف مقاتل لتحول دون اتحاد جيوش المصريين مع جيوش الصليبيين على محاربته فعثرت تلك القوة بالجنود المصرية في غزة قبل ان تنضم الى جنود الصليبيين فأثخنوهم وارجعوهم الى الصالحية

فعاد السلطان ايبك وشدد عزيمته بنجدة الفارس اقطاي صاحب الضربة الاخيرة في مقتل طوران شاه وانقضوا على السوريين فاعادوهم على اعقابهم الى سوريا مخذولين . فتشددوا هناك واعادوا الكرة على مصر بعدد كبير تحت قيادة حاكم دمشق شمس الدين لولو وسار سلطان دمشق نفسه مع هذه الحمله فالتقوا بالمماليك تحت قيادة ايبك والفارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ هـ في العباسية وتقاتل الفريقان فانهزم المماليك وتعقبهم السوريون لكن لم يتقهقر ايبك واقطاي الى مصر

بل عرجا على سوريا بفرسانهم فالتقيا بشمس الدين لولو فقتلاه وشتتا رجاله ثم هاجما سلطان دمشق في معسكره وكان معه شرذمة قليلة من الجند لان جيشه تعقب جنود المماليك الى مصر فاضطر الى الفرار بنفسه ولما لم يدركاه عادا الى مصر وكانت قد دخلت الجنود السورية في القاهره فرأيا أهاليها المصريين قد انتهزوا فرصة دخول الجنود السورية الى بلادهم وظنوا ان النصر لسلطان دمشق فشمتوا بالمماليك وزعموا انهم تخلصوا من نيرهم وبايعوا ناصر الدين سلطان دمشق وخطبوا له في الجوامع ولكن ما عتم ان انجلت الحقيقة للمصريين وعلموا ان النصر للمماليك فابطلوا المبايعة . ولما رأى ناصر الدين عجزه عن مقاومة المماليك صالحهم واعطاهم غزة واورشليم واتفق معهم على محاربة الصليبيين وكان ربحه من كل هذه الحرب والتدابير فساد معاهدة الصليبيين مع المماليك عليه

وخاف المماليك من رجوع الصليبيين الى مصر عن طريق دمياط فخربوها وابتدأوا بهدم اسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨هـ فمحوا آثارها بالكلية واما المدينه الباقية للآن فمبنية على انقاض تلك القاهرة ومصر العتيقة وبعدئذ بقليل لما رأى ان الفارس اقطاي اصبح معظماً من المصريين لبسالته في الحروب خاف مزاحمته له في الملك فخدعه وقتله غدراً وهو داخل سراي القلعة بعد ان قفل ابوابها ولما جاء اعوانه يسألون عنه ظناً منهم ان السلطان ايبك قتله رمى لهم رأسه من أعلى سور

القلعة . فارتاعوا لمقتله وفروا الى سوريا وسجن ايبك من بقي منهم . ولما تخلص من طائفة الصالحيين اعوان اقطاي (١) وهم اقوى حزب معادل قبض على الملك الاشرف الحديث السن خوفاً من مزاحمته له في الملك والقاه في سجن مظلم فمات فيه تعيساً بعد ان حكم ١٣ شهراً وهو آخر من حكم مصر من الايوبيين

وكان احد نظار دواوين الحكومة المصرية وقتئذ رجلاً قبطياً يدعى شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي كان قد تظاهر بالاسلام من ايام الملك الكامل وكان كاتباً بسيطاً ارتقى بجده حتى صار طبيباً للسلطان الايوبي الخامس ثم تدرج من الطب الى السياسة فاصبح مشهورا بالطب والسياسة معاً وبمهارته في الفنون السياسية صار ناظراً لاحدى نظارات الحكومة فلما اصبح وزيراً فرض الضرائب على الموسرين واصحاب العقاقير ورتب مكوساً وضمانات دعيت حقوقاً ومعاملات وهو

(١) كتب المقريزي في تاريخه عند مقتل الفارس اقطاي وعن فرار اعوانه قصة غريبة قال —

لما عظم الفارس أقطاي في عيون المصريين لما اظهره من الشجاعة والاقدام في حربه الاخيرة مع السوريين لقبه اعوانه بالملك واقترن باخت المنصور سلطان حماة واسكنها فى قلعة مصر لاتصال نسبها بالعائلة الملوكية . فخاف ايبك من انتشار نفوذ اقطاى وخشي منازعته الملك فسعى للتخلص منه وكان اقطاي زعيما لحزب المماليك الصالحيين فعززه رجال حزبه واشركوه في الملك مع الملك الاشرف فرقى كثيرين منهم . ولما قتل ايبك الفارس اقطاي داخل القلعة خشي الوقوع في

اول قبطي ولي الوزارة على عهد الاسلام فلما ظل حافظاً مركزه بحسن سياسته مال اليه الملك ايبك عز الدين فرقاه الى رياسة الوزاره واصبح صدره الاعظم . وظن ايبك انه خلاله الجو بعد تخلصه من الامراء الصالحيين ولم يدر ان زوجته شجرة الدر واقفه له بالمرصاد ولا يعلم ان

شر اعماله فقفل أبوابها وأبواب المدينة ولبث يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى تجمهر الامراء الصالحيون اعوان اقطاي تحت رئاسة بيبرس وطلبوا زعيمهم ظناً منهم ان الملك ايبك أسره في القلعة فألقى اليهم رأسه من فوق سور القلعة فلما علموا بقتله ارتعدت فرائصهم وهموا الى الفرار من باب القراطين الى سوريا وكانوا اثنى عشر مملوكة وكانت طريقة فرارهم مستغربة جدا ذلك انهم قصدوا الفرار الى سوريا من طريق صحراء تيه بني اسرائيل فتاهوا هم أيضاً في قفار تلك الصحراء الشاسعة وبعد طوافهم خمسة أيام لايعلمون الى اين مصيرهم رأوا من بعد باعد مدينة فتبعوها ومشوا اليوم الخامس بتمامه نحوها وفي صباح اليوم السادس وصلوا تلك المدينة ودخلوها فوجدوها قفراء خالية من السكان ومنازلها مبنية بالرخام الاخضر الصلد والرمال التي قذفتها الرياح تملأ شوارعها الساكنة وبيوتها الخاوية ووجدوا بعض ملابس في احدى دكاكين تلك الشوارع فلما لمسوها ذابت في أيديهم وتحولت الى تراب ووجدوا في تلك الدكان تسعة قطع ذهب مرسوم عليها بالحفر شكل غزال وسيوف عبرانية فاخذوا تلك القطع ثم حفروا في الارض فانفجر امامهم نبع ماء عذب قراح فكان ذلك عندهم اثمن وأعظم شيء عثروا عليه وقتئذ لكونهم قضوا ستة أيام في حالة الظماء الشديد فشربوا من ذلك الينبوع ورطبوا أجسادهم منه وبعد ما استراحوا بقية اليوم السادس رحلوا عنها ليلاً فلما أصبح اليوم السابع لقوا جماعة من البدو فدلوهم على جهة الكرك حيث استبدلوا من أهاليها التسع قطع ذهبية التى وجدوها في مدينة الرخام الاخضر نقودا فلما

كان وقوفها له كذلك بسبب غضبها من قساوته وسؤ سياسته معها فتعاديا وهجرته زمناً طويلاً وصارت تعرقل كثيراً من مقاصده ولم يجسر على مقاومتها . فضاق صدره من هذا التقييد والسلطان في يده وصار يبحث على اية طريقة يتخلص بها من قيودها ومع علمه ان مكايد النساء عظيمه واشد من حيل الرجال فقد ادعى انها عاقراً . واقتنى عليها سراري اخريات فولدت له احداهن ولداً سماه نور علي فلم تعبأ شجرة الدر بذلك ولكنه بلغها بعدئذ انه سيقترن بابنة ملك الدين لولو ملك الموصل فاشتعل قلبها غيرة لعلمها ان تلك الضره الجديدة من بنات الملوك وخافت ان تحل محلها في العظمه لانها تأكدت بالطبع ضياع مجدها وانها لا تكون في المستقبل الزوجه الوحيده المعززه لمن كانت السبب في ارتقائه عرش السلطنة المصرية وقد زادها يأساً عدم ولادتها وطول زمن عقمها وارتزاقه بمولود جديد من احدى محظياته كما تقدم وعتقه تلك المحظيه وجعلها حره اكراماً لخاطر مولودها . وبسبب عقم شجرة الدر لاحظت انها ملتزمه بحسب الشرع الاسلامي ان تصرح له بالزواج عليها ليرتزق بالاولاد

شاهدوا نقود تلك الجهة استغربوها وا كد احدهم انها مضروبه من زمن موسى النبي والح على اصحابها بضرورة تعريفه من اين اتت تلك النقود واخبر المماليك هولاء القوم بامر المدينه الصحراويه ثم اتضح للمماليك التائهين ان اهل الكرك هم يهود عبرانيون و يعلمون عن وجود تلك المدينه من تقاليدهم الدينية ثم قال لهم اليهود ان هذه المدينه بناها بنو اسرائيل مدة تيههم اربعين سنه في البريه كما جاء في التوراة

من غيرها . ولكن تمادى ايبك في تعظيم محظيته الحره بعد ولادتها فاراد ان يحتفل بولادتها احتفالاً ملوكياً وكان ينتظر ان يكون ذلك الاحتفال لشجرة الدر زوجته الحلاله وليس لضرتها التي سلبت حقوقها الملوكيه بمجرد مجيء المولود في عهد قريب

فلم يكن في وسع شجرة الدر تحمل تلك الاحوال ورؤية تحويل العظمه والمجد الى ضرتها . فطفح كأس غيظها وعلا لهيب غضبها وحنقها على ايبك عز الدين وقصدت التنكيل به

فدبرت طريقة لقتله وذلك انه في ٢٣ ربيع اول سنة ٦٥٥ هجريه امرت خمسة من الخصيان البيض ان يخنقوه . فترصدوا له في ذلك اليوم ووثبوا عليه وهو في الحمام وبعض المؤرخين يقول انه بينما كان ماراً بالدهليز السري الى باب الحريم وخنقوه بعمامتـه فارتاح لهيب قلبها بموته واستقدمت في الحال اثنين من الامراء وهما اكبر الامراء المماليك شأناً بعد ايبك وهما جمال الدين عضو غدى وعز الدين الحلبي وقالت لهما انه مات مصروعاً وطلعتهما على جثته وهي ملقاة على الارض واشاعت ذلك الخبر على الناس وفي انحاء البلاد وقد وهبت نفسها في الحال هي والمملكه ليد هذين الاميرين واتت لهما بخاتم الملك لانهما لم تجسر على تولي الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فرفضا بغلاظة قبول ذلك الشرف المخطر

وفي الصباح احتاط المماليك حرس ايبك بقصره وطلبوا الانتقام

من قاتله وكان سن ابنه نور الدين علي خمسة عشر سنه فبايعه الامراء المماليك ولقبوه بالملك المنصور وكان اول عمل قام به هو الانتقام لوالدته التي ترملت بقتل والده واستعد للاخذ بثار والده من قاتليه . فقبض على الملكة شجرة الدر التعيسة وسلمها لنساء بلاطه وامرهم بتعذيبها فانقضوا عليها كالوحوش وطفقوا يضربونها على رأسها بالقباقيب الخشبية حتى أماتوها والقوا جثتها في القفار التي تحت القلعه فاكلت الكلاب نصفها ولحق الناس النصف الآخر فدفنوه بالقرب من مدفن السيده نفيسه

واتفق في ذلك الحين اما سنة ١٢٥٧ او سنة ١٢٥٨ مسيحيه ان سقطت احدى المسلات العظيمه الى الارض ولم يزل اثر تلك المسله باقياً للان عند مدينة هليو بوليس القديمة في صحراء الجبل وتلك الجهة معروفه بعين شمس الآن بخط المطريه

ويغلب على الظن ان تلك المسلات العظيمه من صنع المصريين القدماء وعلاوة على متانة بناءها فانها كانت مبطنه من الخارج بطبقه معدنيه سميكه لانه قيل انهم استخرجوا من تلك المسله الساقطه مائتان قنطاراً من النحاس الاحمر ويقول المقريزي في تاريخه انهم وجدوا في قمة تلك المسله عشرة الآف قطعة من الذهب الخالص

ولو ان الاقباط لم يتمتعوا بدواعي الراحة والاطمئنان أثناء العشرة سنين الاخيره بعد وفاة كيرلس المرذول لان البلاد عانت متاعب جمة من كثرة تولي الملوك وسرعة قتلهم كما تقدم الا انهم لم يقعوا تحت

اضطهاد رسمي من حكام البلاد لان المماليك كان همهم محصور في نوال الملك ودس الدسائس بشأنه ولم يلتفتوا للاضطهاد الديني وفي اول احكام الملكه شجرة الدر توصلوا لانتخاب بطريرك جديد ليشغل الكرسي المرقسي بعد خلوه سبعة سنوات

فالبطريرك الذي انتخبوه بعد كيرلس المرذول هو رجل يدعى اثناسيوس تم انتخابه سنة ١٢٥٠ مسيحية واول ماتربع على كرسي الخلافه الرسوليه بذل مافي وسعه لاصلاح ما افسده سلفه . والحقيقة التي لاريب فيها انه شدد وضغط على الاساقفة الذين ارتقوا لتلك الوظيفة الكهنوتية بقوة المال كما كان مذهب كيرلس الوحيد ولم يكن ارتقاؤهم باستحقاق فعاملهم بقساوة عظيمه فمن الاقباط من استصوب تلك الصرامه ومنهم من استهجنها وعلى كل فان امر الحجر وهجر الايمان اصبح متوالياً بين هؤلاء الاساقفة والاقباط

ولما قتل ايبك وتولى ابنه نور الدين بدله صادق الامراء على تعيين شرف الدين هبة الله القبطي وصياً عليه ورئيساً لوزرائه كما كان مع أبيه وذلك الرجل اسمه القبطي الاصلي تادرس فأصبح تادرس رئيساً للنظار واتابكا أي وصي الملك ونائبه ومهر داره وطبيبه الخاص . فاظهر كفاءة تامة لهذا المركز العظيم وذلك المنصب السامي من وجهيه السياسية والطبية . ولما كان قد هجر ديانته المسيحية حباً في العلى وتوصل بذلك لهذا المنصب السامي كان من مبدأه التظاهر بحب المسلمين وكراهته للنصارى

وتعزيزاً لمركزه ومبدأه قد ضغط على اخوانه الاقباط وضاعف الضرائب عليهم وفرض على أشخاصهم مكوساً سنويه ولكن فعله هذا كان خفيا بطرق سياسية ولم يظهر ضغطه عليهم علنية

ولما كان المماليك لايهتمون بالسلام وتنظيم الحكومة في البلاد وكانوا دائما في مشاحنات فيما بينهم قامت بعد ذلك الحين بسنة ثورة عظيمة. فظهر شرف الدين (تادرس) في خلال تلك الثورة أكثر اخلاصاً لسيده الارضي الملك نور الدين أكثر من سيده الروحاني البطريرك فبذل جهده للدفاع عن الملك ولكن كان كل سعيه بلا جدوى فان احزابا من المماليك تآمرت على قلب عرش نور الدين فقبضوا على شرف الدين (تادرس) وسجنوه ثم صلبوه على باب القلعة ولاخلاصه في خدمة الملك أقاموا بدله سيف الدين قطوز وهو رئيس حزب الصالحيين زعماء الفارس اقطاي الذين كانوا فروا بعد مقتلة لسوريا. وكان استلام قطوز لمركز تادرس سلما للغدر بالملك نور الدين علي اذ أنه لما تربع في دست الصدارة العظمى استقدم اليه أعوانه المماليك الصالحيين من سوريا وعقد معهم مجلساً أقروا فيه بعدم لياقة الملك نور الدين علي للاحكام بالنسبة لصغر سنه فخلعوه في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٣ هـ بعد ان حكم سنتين وبايعوا سيف الدين قطوز بدله. فقبض على نور الدين وأمر بقتله.

وكان سيف الدين شريف الاصل من عائلة ملوكية ولقب بالملك المظفر ولما استوى على عرش الملك أمر بردم مصب النيل عند دمياط

ليمنع دخول مراكب الاعداء فيه. وفي خلال ذلك وافاه رسول تتري من قبل هولاكو ملك المغول بكتاب هذا نصه (من ملك الملوك الحاكم من الغرب الى الشرق أعظم الخانات هولاكو خان ملك المغول حفيد جنكيز خان القائد التتري المهول فاتح الفتوحات الغريبة صاحب الجيوش المديدة المستولي على مدينتي الموصل وحلب الفاتح لمدينة بغداد عنوة «سنة ٦٥٦ هـ» قاتل الخليفة المستعصم بالله العباسي الذي سقطت بموته الدولة العباسية ببغداد فتح دمشق وجميع السواحل البحرية — الى أهل مصر — اما بعد فيا أهل مصر لاتلقوا بأنفسكم الى التهلكة بأقدامكم لمحاربتي فان فعلتم فانتم المخذولون فاقتدوا بغيركم من سكان حلب والموصل وسائر البلاد التي فتحتها فاسكنوا حتى أدخل بلادكم وأنتم آمنين

فارتاع قطوز وارتجف من قراءة هذا الكتاب ولكن شدده مشيروه ورجال جيوشه لانهم كانوا لم يزالوا ثملين بخمرة النصر على الصليبيين فجند جيشاً عظيما واستقدم اليه عربان البلاد كلها وشجعهم بتفريقه عليهم مع جيشه ستمائة الف دينار جمعها من زيادة الضرائب على نفوس المصريين وأملاكهم وعقارهم وسار من القاهرة يقود ذلك الجيش بنفسه لملاقاة ذلك الفاتح التتري المهول وكان ذلك في آخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ. وقبل ان يلتحم الجيشان بالطريق بلغ هولاكو خبر موت ابيه فترك قيادة جيشه لسيده كتبوغا فقام الحرب بين الطرفين وانجلت الموقعة بقتل كتبوغا وهلاك جيشه البالغ نحو عشرة آلاف من نخبة الفرسان وغنم المصريون

من تلك الموقعه مايغني كل الشرق وهو أثمن مانهبه هولا كو من فتوحاته ولو لم يمت والد هولا كو ما كان قد ترجح النصر للمصريين ولكن مصائب قوم عند قوم فوائد . فعاد الملك المظفر (قطوز) ظافرا بجيشه انى القاهرة ولكن داهمته المنية قبل ان يهنأ بالسعادة . وذلك ان بعض رفاقه تآمروا لقتله فانتهزوا فرصة اختلاءه وراء أرنب كان يصيده في الصحراء اثناء رجوعه حيث كان مغرما بالصيد وتقدم اليه أحد امرائه المدعو ركن الدين بيبرس البندقداري وتظاهر كانه يصافحه بعد عودته من الصيد فأمسكه بأحدى يديه بحجة تقبيلها وطعنه بيده الاخرى في قلبه فسقط صريعاً يتخبط بدمه على الارض وكان ذلك يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ ومات قطوز بعد ان حكم ١١ شهرا و١٣ يوماً . فلما بلغ الخبر لاتابك قال (من منكم ضربه الضربة الاولى) قال بيبرس أنا هو — قال الاتابك — أنت الحاكم بدله . فبويع بيبرس في الحال ولقب بالملك القاهر وتشأم من ذلك اللقب فابدله بالملك الظاهر — وكانت القابه أيضا روح الدين — وبيبرس البندقداري (نسبة لسيده المدعو علاء الدين بندقدار) وابو الفتوح — والعكي — . وكان هذا الملك أول سلطان مملوك يستحق الاعتبار . وهو خامس مملوك غير شجرة الدر اختلس الملك ونال قوة عظمى . ارتقى بيبرس الاوربي الاصل الطويل القامة الحسن الطلعة أزرق العينين عرش السلطنة المصرية سنة ١٢٦٠ مسيحية (٦٥٨ هـ) وقد أظهر كفائته للاحكام ودل على حبه لرعيته فابطل

الضرائب الباهظة التي ضربها سلفه منها جباية دينار على كل انسان واخذ ثلث الشركات الاهلية التي كان يجمع منها ٦٠٠٠ دينار سنويا بحجة تصقيع الاملاك وتقويمها . وعدل الضرائب الاعتيادية بطريقة عادلة

واستقبل نجل خليفة بغداد وأكرم وفادته عند التجاءه الى القاهرة بعد ان قتل التتر أبيه الظاهر بامر الله . وأعاد الحج من مصر الى مكة بعد ان قد كانت اهملت هذه العادة من مصر مدة اثنى عشر سنة ولما رفض حاكم مكة قبول دخول المصريين للحج وزيارة النبي قام الظاهر بيبرس بجيوشه مسرعا الى تلك المدينة وقتل ذلك الحاكم ووضع يده على كل تلك البلاد المحمدية المقدسة وادخلها تحت حيازة المملكة المصرية وعاد للقاهرة ظافراً بعد أن زار الكعبه وكساها وكان طريق المصريين للحج أن يركبوا النيل من مصر العتيقه حتى يصلوا البحر الاحمر فيعبروته ومنه يصلون الى مكة. اما السلطان بيبرس فسار اليها براً بجيشه عن طريق العريش فسوريا

وفي سنة ١٢٦٢ مسيحية سنة ٦٦٠ هـ أي سنة قدوم نجل الخليفة العباسي ومن معه الى مصر حل بها مجاعة فظيعة ففتح بيبرس مخازنه واهرائه وصار يقيت الآف من الجياع يومياً ولم يكتف بذلك بل اسرع لاستجلاب الاقوات من الخارج وانقذ بلاده في الحال من ذلك الخطر المهلك

وبعد زوال المجاعة احتفل بختان نجله باحتفال عظيم — وتصدق في

سبيل الله وشكراً له لمناسبة هذا الختان بان قام بنفقة ختن ستمائة خمسة واربعين
طفلاً من اولاد الفقراء وامر بختنهم في يوم ختن ابنه وكساهم بملابس
جديدة وعمل لهم موكباً واحتفالا عظيما وكان حضور نجل الخليفة العباسي
في هذا الاحتفال مما زاده مجداً وبهاء

ولما كان بيبرس مسلماً (١) حقيقيا لم يكن ينتظر منه العطف والميل
للاقباط — ولكن لا يعلم أن كان ذلك لدواع سياسية أو لمكانته من الدين
الاسلامي وبخلاف ذلك فانه كان شديد الاحتياج للمال لكثرة حروبه في سوريا
وفي ذلك الوقت توفى البطريرك أثناسيوس . وكان يوجد اثنان احدهما
يدعي يوحنا والآخر غبريال مترشحان للانتخاب للكرسي المرقسي وعدد
اصوات منتخبيهم في المجمع المقدس كانت متسارية . ولكن اقر الاساقفة

(١) أن بيبرس كان مسلماً تقياً شديد الكره للموبقات ودواعي الفساد فمنع
صنع البيره وقفل معاملها في جميع انحاء مصر وحرم بيعها تحريماً قطعياً وفعل ذلك
في كل انواع الخمور واراق الموجود منها في الحانات وابطل المنكرات ومنع
الفواحش في مصر والشام وسائر مملكته وحذر النساء من التعرض للبغا ونفى
وحبس بعضهن حتى يتزوجون . وكتب بذلك امراً عمومياً يتلى على المنابر وكان
عنده طواشياً اسمه شجاع الدين عنبر وهو من اخص امرائه فلما علم انه يشرب
الخمر شنقه تحت قلعة الجبل . وكان في ذلك الحين اول عهدا كتشاف البن وشرب
القهوة في بلاد اليمن ولم تدخل القهوة لبلاد الغرب الا بعد ذلك بثلاثة قرون
فكثير من المسلمين المتعبدين في مصر وغيرها كانوا يحرمون ذوقها ولمسها ووضعوا
البن في مصاف انواع الخمور

في الهيكليه بتميز غبريال على يوحنا فعمد الاخير الى رشوة الحكام المسلمين
ليعضدوه في امر انتخابه بطريركاً ولما كانت حالة الكنيسة في ذلك الوقت
في فتور ولم يكن الاساقفة المتنخبين (بكسر الخاء) ذوي غيرة ووطنية
صادقة للكنيسة لم يعارضوا في مشروع يوحنا وانتخبوه بطريركاً واحتفلوا
بتدشينه وحكم الكنيسة نحو سبعة سنوات . ولكن المال الذي دفعه
يوحنا للحكام المسلمين نظير نواله ذلك المركز لم يكن كافياً ولم يسد مطامعهم

واتفق حصول حريقة عظيمة خربت معظم المدينة فاتخذوا المسلمون
هذه الحادثة علة لاتهام الاقباط انهم المتسببون في حرق المدينة فالزموهم
بدفع خمسين الف دينار فدفع الاقباط هذا المبلغ العظيم باسم اصلاح المدينة
والحقيقة أن الحكومة صرفت ذلك المال على الحروب التي كان يقيمها بيبرس
طول مدة حكمه

ولما كان الظاهر بيبرس غائباً في سوريا لمحاربة التتر تجارى اساقفة
الاقباط على عزل البطريرك يوحنا واقاموا بدله غبريال بطريركا على
الكنيسة لانه يستحق ذلك المركز نظرا لكفائته الشرعية وأحقيته
بذلك المنصب عن يوحنا بناء على قرارهم في مجلس الانتخاب الاولي . ولما
رجع بيبرس بعد ذلك بسنتين من سوريا رفع يوحنا مظلمته اليه واستأنف
طلب مساعدته وكان عضد يوحنا الوحيد الاقوى هو المال — فاقامه
بيبرس بطريركاً كما كان بالرغم عن معارضة الكنيسة والاساقفة . ولكن
توفى غبريال سريعاً بعد اقالته وخلا الجو ليوحنا حتى مات . ولكن

الكنيسة القبطية رتبت اسم غبريال في جدول اسماء بطاركتها قبل اسم يوحنا اعترافاً منها بما يستحقه غبريال من التعظيم اكثر من يوحنا وذلك نظرا لافضلية الاول عن الثاني في المزايا والانتخاب الشرعي القانوني .

ولما رجع بيبرس من سوريا ظافراً منصوراً قوبل باعظم مظاهر العظمة والجلال بالقاهرة فزينوا له المدينة كلها باجمل زينة وفرشوها بالبساط والسجاجيد وساروا به في موكب حافل عظيم جداً أيد السلام في جميع انحاء القطر السوري بعد أن حارب التتر النازلين فيه وبدد شملهم وصارت في حكمه كل مدن بر الاناضول والبلاد التي كانت تحت حيازة الصليبيين وبلاد المسلمين العباسيين فاصبحت مملكته عظيمة جداً اذ بعد أن دوخ النوبة وبرقه وعمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببيت المقدس صارت سلطنته تشتمل على مصر والنوبة وبرقه وسائر سوريا وبر الاناضول ومعظم جزيرة العرب . فصاحب تلك الفتوحات العظيمة ليس بعزيز عليه أن يقام له مثل ذلك الاحتفال بالقاهرة

وفي مدة بطريركية يوحنا ارسل امبراطور الحبشة اليه يطلب منه رسم مطران جديد لمملكته وظهر ليوحنا من خلال مطالعته كتاب[1] الامبراطور أن والده (أي والد الامبراطور) قد استقدم اساقفة يونانيين من سوريا وانه يرغب اعادة تتبع بلاده تحت سلطة الكنيسة المصرية الدينية

وبذلت الكنيسة اليونانية حديثاً كل مساعيها لبسط نفوذها في مصر كما فعلت في الحبشة . اذ في السنين الاولى من حكم السلطان بيبرس أرسل له امبراطور القسطنطينية وفداً يطلب منه التصريح بانتخاب بطريرك للكنيسة اليونانية في مصر حيث كانت وقتئذ بلا بطريرك فأجاب بيبرس هذا الملتمس وانتخبوا رجلاً أصله طبيب عيون وأرسلوه الى القسطنطينية لسيامته بطريركا . ولكن لا يُعلم شيء في التاريخ عن هذا الرجل حتى ان اسمه اختلف في تدوينه الكتاب والمؤرخون اذ كل مؤرخ كتب اسمه بخلاف ما كتب الآخر

وفي ختام القرن الثالث عشر للمسيح وفي الغالب في زمن حكم الملك

---

(١) هذه صورة كتاب امبراطور الحبشة الى البطريرك يوحنا

من النجاشي الاكبر ملك ملوك اتيوبيا . ملك صهيون واسرائيل الجالس على عرش يهوذا أو سليمان . الى قداسة الاب الاقدس البابا يوحنا بطريرك الكرسي الاسكندري الذي احييه بالتجله والوقار اللائقان بخليفة ماري مرقس البشير وانيانوس .

اما بعد فالتمس اصغائكم الى كلامي واجابة طلبي . وهو اني ارغب أن تمدوني بمطران صالح ليعلمني وامتي منه كل ماهو حسن ونافع . واتوسل اليك ايها الاب أن تتبع وصية النبي داود التي وجهها اليك في مزاميره الآية (يا ابني لاتترك خيرافك تقع بين مخالب الذئب) فاننا نكره المطارنة السوريين المقيمين في الحبشة الان كرها شديدا ومن عهد دخول النصرانية الى بلادنا ونحن متبعين وخاضعون لناموس البطريكخانه المصرية . ولم نتعود معاناة الالام زمنا مديدا من ممارسة هولاء الغرباء شؤون وظيفتهم الاسقفية بيننا ولو لم يتمتعوا بممارسة مهنتهم امانا تحت حماية والدنا الذى لم يحميهم الا لعدم وجود مطران امامه من لدنك .

بيبرس وقع حادث يستدل منه على مقدار احترام وتبجيل الاحباش لبطريرك الاقباط بمصر

وتفصيل الخبر – ان تاجراً مصرياً كان قد أرسل مبلغاً وافرا من المال لعميله في الحبشة واتفق ان هذا العميل مات فارتبك ذلك التاجر ولم يعرف الواسطة التي يتوصل بها لاسترداد ماله . فالتجأ الى السلطان وهذا حوله على بطريرك الاقباط . فبث الرجل مظلمته للبطريرك الذي يغلب على الظن انه (يوحنا السابع) فتأثر البطريرك لأمر ذلك الرجل ووعده بمساعدته ثم كتب له كتاباً لامبراطور الحبشة يرجوه فيه

لكنت أنزلتهم الى الحضيض وطردتهم من بلادي فالان ايها الاب الصالح اتوسل اليك أن لا تسمح بخراب مملكتي التي تحت سلطتك وارسل لنا مطراناً صالحاً مدشناً ببركتك ويدك الطاهرة حتى أن الرب سيدنا يسوع المسيح يستمطر غيث بركاته القدوسه عليك . افتكر في القديس مار مرقس البشير وعاملنا بمبدأه فلا تتركنا للذئاب ولا تعاقبنا لاجل خطايانا . انتخب لنا مطراناً يمثلك في القداسة . أو أن كان هذا الامر ليس في يدك فاستأذن من سلطان مصر بذلك . ولما تمنحنا هذا الطلب تنال منا كل ماهو مرغوب لك . ولا نخف من ان اولئك الاساقفة السوريون سيستمرون في ممارسة مهنتهم بين ظهرنينا . وها نحن بين يديك اطوع لك من ظلك فان امرت بطردهم طردناهم وان شئت ابقاهم فالامر امرك ابقيناهم ولكننا نشعر بعدم رضاك على تصرفنا معهم وسير بعضنا تحت مشورتهم الدينية . ولكن نرجو قداستكم التكرم والتنازل بالصفح عن خطأنا واغفر لنا خطايانا . وايضاً سامح ابناء وطننا العزيز ولتحل علينا نعمتك وبركاتك في الحياة والموت

ان يبذل جهده لارجاع المال لصاحبه

ولما أشيع في بلاد الحبشة ان كتاباً وصل من قداسة البطريرك بمصر اجتمع كل حكام الاقاليم وهرولوا للاستعداد لاستقبال الكتاب . والذي كان يحمل الكتاب اركبه الاحباش هو وأتباعه على ظهور الخيل . وكان سكان وحكام البلاد الحبشية التي مر عليها ذلك الوفد بالجواب يكرمونهم ويضيفونهم ليلاً بمنازلهم ويقيمون لهم ولائم عظيمة حتى وصلوا عاصمة البلاد حيث استقبلهم فيها الملك نفسه بكل مظاهر العظمة والجلال وفي يوم الاحد احتشد القوم من امبراطورهم لفقيرهم في الكنيسة الكاتدرائية الكبرى وقرأ عليهم المطران جواب البطريرك واثناء قراءته الجواب كان الامبراطور واقفاً متخشعاً عاري الرأس صاغياً بوقار لكل حرف منه . وبعد قراءته اصدر امره في الحال باستحضار المال المطلوب للتاجر وسلمه الامبراطور بيده لمندوب البطريرك الذي جاء يحمل الكتاب وفوق ذلك حمله بالهدايا الثمينة وعاد ذلك المندوب ومن معه الى مصر مودعاً من الاحباش بمثل ما قوبل به من الحفاوة والاكرام

وبينما كانت افكار السلطان بيبرس وأنظاره متجهة نحو حروبه وفتوحاته في سوريا وآسيا الصغرى (الاناضول) تصرف ملك النوبة تصرفاً غير حميد بارشاد بعض رجاله الغير مخلصين وذلك انه اقدم على غزو اقليم اصوان وقام رجال جيشه بتلفيات وأضرار عظيمة في ذلك الاقليم فاستجلب بذلك التصرف نظر المماليك اليه . وقام امير قوص في

الحال للانتقام والاخذ بالثار وجرد حملة قوية وغزا بلاد النوبة وتوغل فيها حتى وصل لجهة اقليم دنقله وصار ينهب البلاد التي يفتحها ويمر عليها في طريقه واسر جملة اشراف نوبيين وبينهم والي اقليم نوبيا الشمالي . ولما رجع بيبرس الى القاهرة بعد أن فتح ارمينيا وقرض الباطنيين وغلب التتر قدم له امراءه هولاء الاشراف الاسرى علامة للظفر وتذكاراً لنصره بافتتاح النوبة . فعاملهم بيبرس بالقساوة الوحشية المعروفة عن المماليك حيث امر بقطع جسم كل واحد الى شطرين

وهكذا جاء تصرف داود ملك النوبة وبالاً عليه وعلى رجاله . ويظهر أن ذلك الملك كان غير محبوب من شعبه حتى انه في سنة ١٢٧٥ مسيحية (٦٧٤ هـ) قام شيكندر (١) ابن اخيه الذي كان ولي عهده ووارثه في الملك كاحكام النظامات النوبية والتجاء الى حكومة السلطان بيبرس وخان اعانه ونسبه وخان وطنه ايضاً وبلاده للمسلمين وبالطبع سر بيبرس لهذا التقدم وهذه الفرصة المناسبة وارسل جيشاً عظيماً تحت قيادة اثنين من كبار امرائه الفتح النوبة وكان ذلك الغزو بحجة تاييد حقوق الوراثة الى شيكندر في الظاهر ولكن الحقيقة كان الغرض منه ضم بلاد النوبة الى المملكة المصرية . فقابل النوبيون الجيوش المصرية الفاتحة وحاربوها بشجاعة عظيمة لكنهم هزموا اخيرا وتقدم الامراء المصريون بالجيش في انحاء داخلية البلاد وصاروا يقتلون ويأسرون كل من قابلهم في طريقهم والتزم

(١) يحتمل ان هذا الاسم تحريف اسكندر

والي الاقليم الجنوبي انه يخضع ويعترف بشيكندر ملكاً عليه بدل داود وسمح له بادارة حكومة البلاد . وكان داود قد جهز نفسه بجيش عظيم واتى لمقاومة الفاتحين فهزموه واسروا امه واخواته وفر هو من امام العدو ونجا بنفسه . ونودي بشيكندر ملكا لبلاد النوبة بدل داود بشرط خضوعه للشروط الاتية

اولا — أن يتنازل لسلطان مصر عن اقليم نوبيا الشمالي (وهذا الاقليم هو ربع بلاد النوبة والقسم الاعظم خصوبة في كل المملكة النوبية)

ثانياً — أن يعيد تقديم الجزية القديمة وهي اربعماية عبدا وهذه الجزية كانت قد تخلصت منها النوبة منذ اكثر من قرنين وكانت النوبة ترسل سنوياً لسلطان مصر المسلم عوض اوليك العبيد ثلاثة افيال وثلاثة ظرافات . وخمسة نمور مخططة ومائة هجين ومائة ثور

ثالثاً — أن يطلق كل الاسرى الذين اخذهم داود عند حملته حديثاً على اقليم اصوان

رابعاً — أن يرسل لسلطان مصر كل اموال وذخائر ومواشي الملك داود والاشراف الذين ماتوا في الحرب

خامساً — ان يقبل تأسيس وكالة سياسية في دنقله عاصمة البلاد ويقيم فيها النواب المسلمين عن حكومة مصر لمراقبة جمع الجزيه المستحقه للسلطان

سادساً — ان تهدم الكنيسه التي بناها داود السيء السياسة بقوة الرجال المسلمين الذين اسرهم بحملته على اصوان . واخذ الامراء كل

العطايا التي وهبها لها السلطان بعد بنائها وتقدر بثلاثة عشر الف دينار ومن ذلك الحين صار سقوط الممالك المسيحية في السودان الشغل الشاغل والمسئلة الوحيدة في ذلك العصر . كما ان جمع الرقيق للجزية المصرية أوجد الفوضى وفساد نظام الحكومة النوبية واسس الخصومات والحروب المستديمة بين قبائل النوبة ومقاطعاتها ولذا تعسر ايجاد حكومة قوية منظمه في السودان وابتدأت الممالك السودانية تسقط الواحده بعد الآخرى وكان سكان السودان معظمهم اقباطاً مسيحيون ولولا تلك النخاسة وجمع الرقيق الامر الذي كان سوساً ينخر في عظام تلك الممالك لكان ينتظر أن تتحد تلك الممالك المسيحية السودانية ضد المسلمين عوضاً عن ذلك السقوط الابدي لان وقوع القسم الشمالي من النوبة وهو اغنى واخصب اقليم في السودان في يد المسلمين المصريين مما أذهب كل امل بقيام تلك المملكة ثانياً سيما لعدم امكان اخراج المسلمين الذين توغلوا في داخلية البلاد . ولما وضع امراء بيبرس يدهم على ذلك الاقليم السوداني الجديد عاملوا اهاليه كعادتهم مع اهالي كل بلاد يفتحونها وهو انهم خيروهم بين اعتناق الاسلام أو دفع الجزية أو تجرع كأس الحمام فاختار الاهالي اخف الثلاث ويلات وهو دفع الجزية وصار كل ذكر يدفع ضريبة عن نفسه ديناراً واحدا كل سنة . ولم يحتل الجيش المصري مدينة دنقله الا سبعة عشر يوماً فقط اذ بعد أن اتم الامراء المعاهدة مع شيكنده ملك النوبة الجديد عادوا بجيشهم الى مصر تحت قيادة الامير اق سنقر

الفرغني سنة ٦٧٤هـ

وفي السنة التالية ترأس بيبرس حملة قوية وقام لسوريا وحارب برقه وافتتحها وأتفق عودة التتر الى بعض مناوشات على حدود سوريا بقصد افتتاحها فسار بيبرس بنفسه الى حمص لتأديبهم فمات في طريقه شهيد خرافاته

وكيفية ذلك انه اتفق خسوف القمر خسوفاً تاماً وكان عامة المصريين والذين يصدقون الخرافات يعتقدون أن ذلك الخسوف دليل على موت امير كبير أو حاكم أو ملك أو سلطان وكان بيبرس يعتقد مثل اعتقادهم . فتوهم أن هذا الحادث يدل على قرب موته ولكنه قال في نفسه (يجب عليّ أن اميت من اخشى أن يتولى الحكم بعدي ممن ليسوا على دعواي) فلم يجد امامه الا اميراً صغيراً هو داود ناصر الدين حفيد طوران شاه آخر سلطان كردي من سلالة الايوبيين فظن أن هذا الامير الصغير سيسمه فقصد أن يقلب ذلك التكهن ويغدر به ومهد التدابير ضد ذلك الشاب التعيس ليموت هو بدله مع انه بريء ولم يوجد اقل برهان أو بينة تدل على انه يقصد قتل بيبرس . فامر بيبرس باستدعائه ولما حضر امامه جالسه ثم ملأ له كأساً من السم الذي كان قد جهزه وامره أن يشربه فشربه المسكين بلا خوف ولا ارتياب وبدون تردد ثم خرج بيبرس من الغرفة وفي اثناء غيابه قليلاً اتفق أن احد خدامه الذي لا يعلم بسر الامر ولا بما فعله سيده ملأ هذا الكأس من مشروب سيده وكان لم يزل اثر السم في الكأس . فعاد السلطان ودخل الى الغرفة ثانياً ولكنه

كان مضطرباً ومتوعكاً من حمى اصابته فتناول ذلك الكأس وشربه ولم يدر أنه
الكأس الذي سقى فيه السم لذلك الشاب المسكين واثر السم الذي كان في الكأس
كان كافياً لقتله فسقط الاثنان صريعى الجهل . ومات الامير ناصر الدين
وبعد ساعة مات السلطان بيبرس وهكذا راح الاميران قتيلي الخرافات
قبحها الله ما أضعف حجتها وما اشد وطأتها

وكانت وفاة الملك الظاهر بيبرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ هـ بعد أن
حكم ١٧ سنة وشهرين وعشرة ايام وترك ثلاثة ذكور وسبع بنات وارشد
اولاده السعيد محمد برقه خان وهو الذي ورثه في الملك وسلامش
والمسعود خضر . وعلاوة على فتوحات بيبرس العظيمة في سوريا
والسودان والاناضول وبحيث جزيرة العرب فانه قام باصلاحات عديدة
مهمة في مصر وسوريا لم تزل آثارها للآن تشهد بذلك اجيالا عديدة منها في
مصر ترميم وتقوية حصون دمياط ورشيد واسكندرية والقاهرة وبناء
الاهراء والاشوان العظيمة للغلال في القاهرة وبناء وترميم القناطر والجسور
وتقوية قناطر شبرا منت بالجيزة وترميم منارة رشيد وبناء قناطر السباع
الممتده من فم الخليج الى القلعة وفي طرف تلك القناطر من جهة فم الخليج
السبع سواقي وهي سواق قديمة كان غرضه منها رفع المياه من النيل ليجري
في قناة فوق القناطر حتى يصل القلعة فيروي من فيها وعلى اطراف تلك
القناطر آثار تماثيل حجرية بشكل السباع ولذا دعيت القناطر بهذا
الاسم .

وحفر خليج (١) اسكندريه القديم وبحر اشمون طناح وطهر الترع
والخلجان . ورمم واعاد بناء جوامع كثيره مشهوره وبني ايضا جامعاً
جديداً في غاية الاتساع والفخامه في شمال القاهره في الميدان العظيم
الذى في طريق العباسيه ولم يزل للآن هذا الطريق يدعى الداهر او
الظاهر نسبة الي لقب السلطان بيبرس العظيم . ولما احتل الفرنساويون مصر
حولوه الي قلعه من نحو مائة سنه وبعد مبارحة الفرنساويين للبلاد استعملته
الحكومه المحليه مركزاً عسكرياً والآن يستعمل مخزناً لادارة المأكولات
والملبوسات المختصة بالجيش الانكليزى واربعة حيطانه الباقيه الآن هي من
بناية الظاهر بيبرس ويوجد كثير من النقوش الجميله لم تزل ظاهرة في
شبابيكه . ولكن ذلك البناء الفخيم فقدت صبغته الدينيه من زمن مديد
. وجدد بيبرس ايضا الجامع الازهر واعاد الخطبه فيه . وبنى بلدة السعيديه
بمديرية الشرقيه وكان محباً لركوب الخيل ومغرماً بالرياضة البدنيه والتمرينات
العسكريه ويقضي فيها معظم يومه وبنى لذلك ميداناً مخصوصاً بين منزل
القلعه وقبة النصر وكانت نفقاته مما يغنمه في حروبه بدون ان يثقل على
الاهالى بدرهم

وقد اسس بيبرس مملكته على دعائم قويه واصبح عرشه ثابتا

(١) قيل ان السلطان ذاته كان يساعد الفعلة هو وكل امرائه تشجيعا وتنشيطا
لهم في العمل واعطى لهم مثالا حسنا في خدمة الوطن وعدم تعاظمه في مايؤول الى
الفلاح والنجاح وذلك انه حمل مقطف تراب بيديه على مرأى من كل الواقفين
مثل الاجير الحقير حباً في نفع وطنه وبلاده

لا ينازعه عليه احداً من المماليك ولذا آل الملك بعده الى ابنه برقه خان
ولما مات بيبرس خاف الامراء من طمع الاعداء فحملوه سرا الى دمشق
واشاعوا انه مريض وبعدئذ نقلوه للقاهرة في هودج ورحل معه جيشه
لمصر ودفنوه في القلعه وبايعوا اكبر اولاده ناصر الدين برقه خان ولكنه بسبب
تقلبات الظروف لم يدم الاخلاص لعرش انجال الظاهر اذ في بحر ثلاث
سنوات قتل ولداه اللذين لم ينالا الا لقب سلطان بالاسم وملك
احد الامرا المماليك المدعو سيف الدين قلاوون الالفي عرش مصر
من بعدهما

الفصل الستون

فتح السودان مرتين

(سنة ١٢٨١ مسيحية و٩٩٧ للهجره و٦٨١ للشهداء)

بعد أن تولى برقه خان ابن بيبرس زمام السلطنه قام والي دمشق
وادعي الملك لنفسه فقام برقه خان لاخضاعه فلما وصل بجيشه ونزل
بالقصر الابلق الذي بناه ابوه الظاهر بيبرس اتضح له أن الثورة قامت
بتدابير من امرائه فلما عاد لمصر واراد معاقبتهم امتنعوا بالقلعة فتكاثروا
عليه وحاصروه ولما هموا بقتله منعهم الخليفة العباسي الحاكم بامر الله فخلعوه
في ربيع اول سنة ٦٧٨ هـ بعد أن حكم مدة سنتين وثلاثة اشهر وحبسوه
في القلعه ولما عزموا على قتله علم بذلك فسقط من على ظهر جواده ومات

فبايعوا اخاه سلامش وكان سنه سبع سنوات ولقبوه بالملك العادل
وعين سيف الدين قلاوون الالفي وصيا عليه

فطمحت نفس ذلك الوصي الى الملك واراد خلع ذلك الملك الصغير
وقد تمكن من تنفيذ بغيته ونفاه بقلعة الكرك واستقل بالاحكام فبايعه
الامراء ولقبوه بالملك المنصور . وكان ذلك السلطان الجديد مملوكاً
كباقي المماليك لا يعلم له اصل ولا بلد واطلق عليه لقب الالفي لانه لما
كان مملوكا اشتراه سلطان مصر بالف دينار والتزم كعادة السلاطين
الذين تقدموه أن يحارب لتأييد سلطته وحقوقه في سوريا ولكن اخمد
الثورة التي قامت ضده بلا تعب كثير وبعد اخمادها في سنة ١٢٨٢
مسيحية (٦٨٢ هـ) تفرغ للتداخل في شؤون مصر والسودان ولكن
كان ذلك التداخل في الاعمال لسوء حظ اهالي القطرين . وكان الاقباط
في مدة حكم برقه خان (١) يتألمون من قساوة الاحكام والمعاملة الغير عادلة
على أن قلاوون وان كان قد عدل الضرائب على رعيته واتبع مبداء المساواة

(١) في سنة ٦٧٨ هجرية رفت كل الموظفين الاقباط في ديوان الحربية وتعين
بدلهم من المسلمين وكانت مسألة رفت الموظفين الاقباط كلهم صفقة واحدة من
مراكز الحكومة يتكرر وقوعها مع كثير من الحكام المسلمين . ولكن دواعي
الظروف كانت تلجئ اولئك الحكام أن يعيدوا هؤلاء الاقباط لوظائفهم ثانياً
أن عاجلا أو أجلا واتفق أنه يوم صدور الامر برفت الاقباط من ديوان الحربية
سقط بناء دير الخندق فى ضواحي القاهرة فخرج خلق كثير من رعاع المسلمين
ليكملوا هدمه

بين الاقباط والمسلمين . الا انه اسرع في استئناف التقييدات والمضايقات السخيفه على الاقباط وكانت عادة هؤلاء القوم البؤساء أن يقعوا تحت نير الاضطهاد من المسلمين كل ماغاب السلطان في الحروب مع انه لم يكن احد يستطيع من الحكام أن ينظر في شؤون البلاد الادارية الا الموظفين الدائمين من الاقباط والمسيحيين على وجه العموم اذ لم يكن في رجال الاتراك أو العرب الكفاءة التامة للقيام بهذه المهام ولما استقر المقام في مصر لقلاوون ولم تشغله الحروب الخارجية وتفرغ لشؤون مصر الداخلة كما تقدم تصرف فيها تصرفاً سيئاً اوجب سخط كل المصريين عليه من مسلمين واقباط فاراد ذلك السلطان المملوك كما هي عادة امثاله ان يعطي درساً مؤلماً لرعيته نظير ذلك السخط فاطلق سراح جيشه من المماليك في مدينة القاهرة فعاثوا فيها فساداً ونهباً وقتلا مدة ثلاثة شهور ولم يتخذ الوسايط اللازمة لتمييز البريء من المذنب في هذا الشعب المسكين فاصبحت الشوارع انهارا تجري فيها الدماء بدل الماء وازدحمت بجثث الرجال والنساء والاطفال واخيرا تعاون علماء المسلمين وتشجعوا على مقابلة السلطان وحذروه بالمواعظ والنواهي الدينيه وانذروه بالعقاب الالهي فنجحوا في سعيهم ولم يكتفوا باقناعه بحقن تلك الدمأ البريئة بل توصلوا ايضاً الى حمل السلطان قلاوون على التكفير عن ذنوبه فتعهد لهم بان يبني مسجدا وبيمارستانا عظيما (اي مستشفى يقيم فيه المتوهون الذين لا يبرأون) وندم ندماً لامزيد عليه على عسفه واستبداده ولم يبق من

تلك الابنية الى الآن الا القبر وبنى ابنه الجامع الذي يشغل جزءاً عظيما من ذلك القبر . ثم أهمل ذلك المستشفى ولم يبق منه الا بعض خرائب واطلال متداعية للسقوط . فآثار السلطان قلاوون الباقيه الى يومنا هذا هي جامعه الشهير وفيه مقامه وكلاهما دخل في بنأ البيمارستان كما تقدم ويراه الذي يمر من شارع النحاسين بالقاهره بعد ان يبارح خان الخليلي . ومع تمادي الايام وتعاقب السنين فان ابنيته لم تزل قوية العماد تجلي فيها العظمه والقوة . ولعوام النسأ المسلمات اعتقاد في هذا الجامع بانه يبرئ الاسقام فيحتشدن امامه يوم السبت باطفالهن قصد الشفأ من الامراض فبعضهن يضعن الطفل المريض تحت المحراب ويصلين وبعضهن يمسحن جدار المحراب بالليمون او ما يشابهه ويلحسنه وغير ذلك من الخزعبلات والخرافات

ولحسن حظ البلاد المصريه تحولت اميال قلاوون من الاهتمام بامر حكومة البلاد الى مشغولية اخرى من جنسها . ذلك ان المماليك وقتئذ كانوا يلبسون لباس الزينة بما يناسب جمالهم وهيئتهم فامر قلاوون سنة ٦٨٣ هـ بتغيير ملابسهم وكانت مشغوليته في هذا الامر طول السنه سبباً لراحة البلاد مدة من الزمن وقد منعهم هولاء المماليك من استعمال الذهب والتزين بالوشي وعن استعمال الضفاير الطويله التي كانو يجعلونها في اكياس من حرير وجعل لباسهم قاصراً على شكل اللباس الحربي ثم زاد عدداً كثيراً منهم في الجيش ولكن كل المماليك الذين اشتراهم لهذا القصد كانوا من

الشراكسة لانه كان يعتقد انهم يصلحون للجنديه فجند منهم ١٢ ألف وجعل منهم
بطانته وجيشه وذلك لعدم ثقته باخلاص المماليك البحرية وكان ذلك سبباً
لخروج السلطة من يد نسله مثل ما حصل للملك الصالح الايوبي ثم حاصر حصن
مرقد مدة ٣٣ يوما حتي سلم وفي سنة ٦٨٤ هـ فتح قلعة الكرك وقبض على
سلامش ثاني انجال بيبرس لانه كان يحاول الاستقلال عن مصر وسجنه
في سجن مظلم ظل فيه حتي مات قلاوون

ولما ارتاح قلاوون من تنظيم داخليته اخذ يسعي في تشكيل وزارة مخلصة
له فصار يعزل ويولي كثيراً من الوزراء حتى ان المؤرخين المعاصرين له لم
يتمكنوا من حصر اسمائهم وأخيراً أقر على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥
هـ وفي سنة ١٢٨٦ مسيحيه (٦٨٥هـ) ارسل الملك عدود الذي كان يحكم اقصى
جنوب السودان وفداً الى سلطان مصر يشكو له من تابعه الملك شكندر
سلطان النوبه الجديد ولكنه لم يبين السبب الحقيقي في هذه الشكوى وفي
الغالب ان تلك الشكوي كانت ناتجة من أغارة وغزو شكندر للمملكة
الجنوبية للحصول على الرقيق حتى يتمكن من تسديد الجزيه السنويه
المطلوبة للسلطان المطلق وهو سلطان مصر الذي سر لهذا الخبر واتخذه
فرصة سانحه فأرسل مع سفراء الملك عدود ضابطا بصفته سفيرا وجاسوساً
وسافر الجميع على هذه الصورة وكان الملك شكندر مترقباً عودة ذلك
الجاسوس من الجنوب . ولو ان حرس ذلك الضابط والجاسوس المصري
داروا به في طريق عودتهم الى الشمال دورة كبيره حتى لا يمروا بطريق

دنقله مقر الملك شكندر ولكنهم مع ذلك التي القبض عليهم جميعا واحضروهم
في دنقله . فامر شكندر باعدامهم في الحال ولكن اشراف حكومته
ومشيريه عارضوا في ذلك معارضة شديدة واقروا على اعتباره مختل
الشعور اذا اصر على ذلك الامر وافهموه ان السلطان قلاوون لا يهمه موت
رعايا الملك عدود ولكن قتل سفيره المسلم يتخذه حجة عظيمه لشن الغاره
على بلاد النوبه التي هي مطمح انظاره

فلما أصر شكندر على عناده وصمم على تنفيذ امره خلعوه وولوا بدله
شمامون ملكاً عليهم وسمحوا للجاسوس المصري وحرسه ان يسافروا
بامان الى مصر . ولكن ذلك لم يحول غرض قلاوون ولم يثن عزمه عن
فتح النوبه فجند جيشاً عظيماً وارسله ليغزوها ولما علم شمامون بذلك اتبع
خطه واحده في حركاته الحربيه وذلك انه كتب الى نائبه في الاقليم الشمالي
انه عند قدوم الجيوش الاسلاميه لا يقف في وجهها بل يخلى لها البلاد
ويترك قليلاً من الجند طعمة للاسلام وبهذه الطريقة دخل المماليك المصريون
بلاد السودان بلا حرب حتى وصلوا الى دنقله حيث كان ينتظرهم شمامون
للقتال فوقعت معركة بينهم وبينه هزم في آخرها ثم ولى الفرار الى الصحراء
في اقصى السودان فاختار المماليك ابن اخته واقاموه ملكاً على النوبه تحت
شرط ان يكون خاضعا لسلطان مصر ثم عادوا الى مصر يحملون غنيمة
عظيمه من قطعان الغنم والمواشي

ولم يكد يبارح المماليك حدود البلاد السودانيه حتى عاد شمامون واستقبله

رعاياه بفرح عظيم وطرد ابن اخيه الملك الجديد الذي تعهد بالخضوع
لسلطان مصر واقصاه الى خارج البلاد مع الحاميه المصريه التي
تركها الامرأ المماليك في دنقله . فلما سمع قلاوون برجوع شمامون الذي
لم يكن منتظراً هاج هياجا شديداً وجهز حملة قوية لقهر بلاد النوبه
وضربها ضربة قاضية . فجمع كل ما لديه من الرديف (وهو لقب يطلق
على جزء من الجيش المصري .) ورجال هذا النوع هم من الملكيين وليسو
تحت السلاح . وهولاء الرجال من المسلمين ويمتازون عن المماليك بطول
زمن وجودهم في مصر حتى تجنسو بالجنسيه المصريه واطلقوا على انفسهم
لقب المصريين

فبعد ان جمع قلاوون هولاء القوم استأجر معهم اربعين الف
متطوعاً من قبائل العرب الضاربة في الاقاليم الشماليه وضم الى ذلك
جيشه المنظم الذي يتألف من المصريين والمماليك والسودانيين وسار ذلك
الجيش الخليط العرمرم زاحفا مرة اخرى لفتح بلاد السودان فوصلوا
دنقله واقاموا فيها ملكاً جديداً اخذوه معهم من القاهره حيث كان سجيناً
فيها وهو ابن اخت داود ملك النوبه الاسبق السيء السياسه وكان هذا
الملك الجديد احد امرأ ومشيري الملك داود فسقط اسيرا في يد المسلمين
بسقوط عرش داود وظل سجينا في مصر حتى اتاح له الدهر ان يعتلي
على عرش الملك فلما اقامه المسلمون ملكاً على دنقله . استحلفوه على
الطاعه والخضوع لسلطان مصر في وسط كنيسة دنقله الكبرى وتركوا

حامية بتلك المدينه وعادوا الى القاهرة بعد ستة شهور . فلما بارحوا
الحدود عاد شمامون فظهر بدنقلة ثانياً وخضعت البلاد في الحال لامره
وطردوا الحاميه المصريه الى حدود مصر الجنوبيه ولم يترك شمامون هذه
المرة ملك النوبيين الاسمي يتمتع بحياته بل قتله . فلم يقو قلاوون على
تجنيد حملة ثالثه للنوبه ضد ذلك الملك المسيحي السوداني فحكم شمامون
على مملكة النوبه بسلام حتى مات

واوصى قلاوون بولاية العهد لابنه علي ولقبه بالملك الصالح الثالث واخذ
يدربه على الاحكام ولكن خانه الدهر فتوفي عليا بحمى شديده سنة ٢٨٧
هـ فحزن ابوه عليه حزنا عظيما وكثرت هواجسه وكره الملك والاحكام
ولم يعش بعد ذلك طويلا . وقد اراد ان يسلي نفسه فعزم على تسيير حمله
قوية لافتتاح طرابلس الشام وكانت في حوزة الصليبيين منذ مائة وثمانين سنه
لم ينازعهم احد عليها ففتحها واعتراه جنون في اثناء الحرب بسبب حزنه
على ابنه فلما اتم جيشه فتح طرابلس امر بذبح كل سكانها وهدم جميع
ابنيتها وخربها عن اخرها ثم اعاد بناءها وترك فيها حامية مصرية وهذه
الحمله كانت آخر كبائره وعاد بعدها بجيشه الى القاهرة حيث جاء وراءه
قبل وفاته بقليل وفد من قبل اراغون الفونس ملك الصليبيين وعقدوا معه
معاهده في ربيع الاول سنة ٦٨٧هـ

ولكن ذلك الانتصار لم يؤثر على عواطفه وظل حزيناً كئيباً حتى
قضى نحبه يوم السبت ٦ ذي القعده سنة ٨٨٦ فدفنوه في بيمارستانه ولا

بزال مقامه هناك حتى اليوم وكانت مدة حكمه ١١ سنه و٣ شهور و٦ أيام

وبويع بعده ابنه الكبير صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف وبعد استلامه الملك بسنة اي سنة ١٢٩١ مسيحية (٦٩٠ هـ) جرد حملة قوية ضد الصليبيين واخذ منهم مدينة عكا التي كانت الحصن الوحيد الباقي بيد الصليبيين فحصنوه تحصيناً عظيما ولكنه لم يقو على هجمات المسلمين فهزموه ودخلوا المدينة وقتلوا ونهبوا كل سكانها وعاد صلاح الدين الى مصر ومعه علامة النصر وهي مدخل احدى كنائس عكا الكبرى وهو موجود الى يومنا هذا بشارع النحاسين بالقاهرة وموضوع في مدخل جامع لاخيه نصر بن قلاوون وقد بنى هذا السلطان في مدة حكمه القصيرة السوق المشهور بخان الخليلي في السكة الجديدة بالقاهرة الذي يتهافت السواحون على مشاهدته وهو مبني في موضع مدافن الخلفاء الفاطميين وبنى الغوري القسم العلوي منه كما يستدل من الكتابة التي على مدخله

ولما عاد الى القاهره نفى سلامش للقسطنطينية لما عزي اليه من القلاقل ثم سار ففتح ارمينيا ونهبها واخذ مدينة ارضروم

وبعودته الى القاهرة ثانياً بعد ذلك النصر قام اضطهاد عظيم على الاقباط الذين اظهروا من آيات الصبر على المكاره اقل كثيراً مما ظهر منهم في اي عصر من تاريخهم ولكن مهما كان مقدار خطأهم بالاجمال

في العصور التي تقدمت فان اضطهاد[illegible]رجت قوى بسالتهم الكامنه الى الظاهر وتمسكوا بتلك البسالة حتى يومنا هذا بالرغم عن ضعفهم والدليل على ذلك رسمهم (١) اشارة الصليب بالوشم في اجسامهم لكي يظهروا بكل قواهم عدم انكار ديانتهم المسيحية

ولكن من ابتداء عهد البطريرك كيرلس الثالث (داود المرذول) اعتري اخلاق المسيحيين المصريين صنوف التلف والفساد السريع اذ اصبحت حوادث الجحود وترك الايمان كثيرة متتابعة بعد أن كانت نادرة الوقوع حتي صار الاقباط الموظفين في دوائر الحكومة جميعاً من المسيحيين بالاسم كما تدل على ذلك حالتهم الراهنة في هذه الايام وقد أساؤا استعمال السلطة المعطاة لهم كما سترى من اسباب هذا الاضطهاد

نشأ ذلك الاضطهاد بسبب مشاجرة وقعت في احد شوارع القاهرة وسببها أن قبطياً كان موظفاً بوظيفة قهرمان عند احد كبار الامراء المماليك وكان راكباً وقابضاً على رجل مسلم مديون لسيده الامير وكان هذا المديون ماشياً على الارض على مقربة من القهرمان القبطي وهو مكتوف اليدين الى ظهره وبينما هما سائران بهذه الحالة والناس مجتمعة حولهما طول

(١) هذا الرسم أو بالحري الوشم لا يستعمل عند الاقباط في سن الطفولية بل عند ما يكبر الابن ويصير عارفاً هذا الوشم ويقبله برضائه يسمح له والديه بذلك . وعند الاقباط ايضاً حديث قديم مؤداه ان البلاد المصرية ستتخلص يوما من نير الاسلام بواسطة قوة مسيحيي الجنوب (الحبشه) وان هذه العلامه أي وشم الصليب على اجسادهم سيكون واسطة تميزهم من المسلمين امام الفاتحين

الطريق يتفرجون على ذلك المسلم الذي صار اسير القبطي حتى وصلا أمام جامع ابن طولون فاحتشد حولهما خلق كثير من المسلمين واخذ كل واحد منهم يطلب من القهرمان(١) أن يطلق سبيل ذلك الاسير فلم يجب طلبهم

فما كان منهم الا ان التفوا حوله وجذبوه من أعلى جواده والقوه على الارض وانقذوا الاسير المسلم من بين يديه واطلقوا سبيله . ولحسن حظ هذا القهرمان أن هذه الواقعة جرت له بالقرب من بيت سيده الامير فانتهز هذه الفرصة وارسل خادمه للامير ليبادر الى انقاذه من ايدي المعتدين عليه فخرج الامير في الحال بشرذمة من مماليكه وعبيده وحرسه فخلصوا قهرمان الامير من ايدي ذلك الجمع المحتشد بعد أن فرقوا شملهم ضربا بالعصي. فصاح هؤلاء القوم (هذا ليس في شرع الاسلام ! هذا ليس في شرع الاسلام !) ثم اسرعوا ركضاً ووقفوا تحت القلعه يصيحون قائلين (الله ينصر السلطان ! الله ينصر السلطان !) فسمع السلطان ضجيجهم وارسل يستطلع حقيقة خبرهم فابلغوه ما كان من غطرسة وتشامخ القهرمان القبطي وهو يقود مديون سيده الامير الى آخر ما تم في هذا الشأن

فكتب السلطان صلاح الدين خليل في الحال الى الامير عين الغزال وهو سيد القهرمان القبطي يقول (كيف تسمح لرجالك أن يعاملوا المسلمين

(١) القهرمان لقب وظيفة عند الشرقيين هي بمثابة نائب أو مدبر أو امين الخزينة أو وكيل الخرج

بهذه المعامله اكراماً لخاطر رجل نصراني) فرد عين الغزال على السلطان يعتذر بعدم معرفة هذه الحادثه وانه عند وقوعها كان مشغولاً في ديوانه فارسل السلطان في الحال يبحث عن كل الذين في سراي عين الغزال وامر رجاله ان يستحضروا كل الاقباط امامه واستقدم ايضاً رئيس وزرائه الامير بدر الدين بيدر والامير سنجر الشجاي محافظ القاهره وامرهما ان يستحضرا امامه كل المسيحيين ليأمر بقتلهم ولم يخرج الاميران من حضرة السلطان قبل ان حرضاه على تنفيذ ذلك العزم وحملاه على اصدار الامر النهائي بذلك واطلق رجال الحكومه المنادين في القاهره ومصر القديمه بانه لا يسوغ منذ الان ان يبقى مسيحي او اسرائيلي في خدمة الامراء وامر السلطان امراءه ان يجبروا من بقي في خدمتهم من النصاري واليهود على اعتناق الدين الاسلامي فمن قبل من وكلائهم (قهرماناتهم) المسيحين هذا الشرط يبقى في مركزه ومن يرفض تقطع رأسه في الحال وامر ايضاً الحاكم الامير بدر النائب ان يعامل موظفي الحكومه الاقباط هذه المعامله.

ولما صدر الامر بالقبض على الاقباط لقتلهم أمام السلطان اختفى كثير منهم في الكهوف والمغارات ولكن المسلمين كانوا يهجمون عليهم في منازلهم قبل هروبهم فيسوقونهم للقلعه بعد نهب ما في بيوتهم ولما عم امر النهب والسلب كل بيوت المسيحيين واليهود على السواء ولم يبق بيت واحد لم تصل اليه ايدي السالبين اخذوا يسبون النساء وقتل المسلمون بايديهم خلقاً كثيراً من الاقباط قبل وصولهم لموضع القتل امام السلطان فاستا

الحاكم بدر النائب من هذا التصرف الجائر فصعد للسلطان في القلعه ولاطفه
واثر عليه حتى أستصدر منه امراً اذاعه في مصر ومؤداه ان كل من ينهب
بيت مسيحي لا بد من اعدامه شنقاً امام ذلك البيت وقد قبض علي كثيرين
من زعانف المسلمين الذين تمادوا في السلب والنهب وامر بضربهم وجلدهم
بالسياط وداروا بهم في المدينه ليكونوا عبرة لغيرهم وبهذا الحزم وهذه المروءه
التي اتاها ذلك الامير كف السلب والنهب ولكن بعد ان كانت قد نهبت
كنيسة المعلقه في مصر العتيقه (بابلون) وقتل عدد عظيم من الاقباط البؤساء

ثم استحضر الحاكم عددا عظيما من قهرمانات (وكلاء) السلطان والامراء
واوقفهم امام السلطان على بعد منه - فامر السلطان الشجر والامير جندار
ان يأخذا موظفي الاقباط وينزلا بهم الى سوق الخيل تحت القلعه ويحفرا
لهم حفرة عميقه ويلقونهم فيها احياً ويشعلوا النار في تلك الحفره . فأتي
رئيس الوزرأ الامير بدر الدين يتشفع لهم امام السلطان واخذ يتضرع
اليه ليصدر عفوه فلم يقبل السلطان توسلاته وقال (انا لا اود ان أبقي ديوانا
مسيحياً في حكومتي) على انه لم يخرج الامير من حضرة السلطان الا بعد
ان ابدل ذلك الحكم بحكم آخر وهو ان كل من يعتنق منهم الديانه الاسلاميه
ويعفي عنه ويبقى في وظيفته ومن رفض منهم الاسلام فتقطع رأسه فقبل
السلطان بذلك

ومن ثم خرج الامير ومعه هولاء القوم وذهب بهم الى بيت محافظ
القاهره (مسكنه الرسمي)وصفهم امامه ووقف يخطب بينهم فقال (اعلموا

ياقوم اني لم يمكني التشفع لكم امام جلالة السلطان وطلب العفو عنكم منه الا
على شرط واحد وهو هذا ان من يفضل منكم ديانته على الدين الاسلامي
القويم فعقابه الموت الزؤام . ومن منكم يفضل الاسلام على دين النصارى
فيخلع عليه جلالة السلطان حلة شرف وينال محظوظيته ويعيش في عز ونعيم مقيم)

ولما فرغ الامير من هذا الخطاب تقدم المكين بن الشكاي احد رؤساء
الحكومه وكاتم اسرارها من الاقباط وقال يامولاي اي رجل مناذو
منصب عال يفضل الموت عن اعتناق الدين القويم ؟ فقسماً بالله — ان
الديانة التي يلزمنا ان نموت ونفني لاجلها — لم يكتب الله عليها سلامه !!
فاخبرونا — انت وجلالة السلطان — اية ديانه تريدون ان ننتخبها

فتبسم بدر الدين وقال ياحضرة الفاضل وأية ديانه يلزم ان ننتخبها غير
الديانه الاسلاميه؟

وفي الحال دخل رجال التسجيل الشرعي وسجلوا اسماءهم باعتناقهم
الديانه الاسلاميه وحرروا صك الشهادة باسلامهم فاخذها بدر الدين وتوجه
في الحال الى السلطان ومعه هولاء المستسلمين فخلع عليهم السلطان حلل الشرف
الثمينه وخرجوا الى ديوان الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن سيلوس
فطلب احد الموجودين عند الوزير من المكين ابن شكاي ان يأخذ رقعة من
الورق وامره ان يكتب عليها هكذا (سيدنا القاضي — اكتب على هذه
الورقه حجة اسلامي) — فاجابه القاضي قائلا يابني ليس لنا ان نبت في هذا
الامر) فلم يخرجوا من ديوان الوزير حتى المسأ فحضر الحاجب وقادهم جميعاً

الى ديوان المحافظة حيث كان كل قضاة الاسلام مجتمعين - فوقف هولاء
الروساء الاقباط امام القضاة وجددوا اعترافهم باعتناق الدين الاسلامي
وهكذا تغيرت الاحوال وبعد الذل والهوان اصبحوا باعتناقهم الاسلام
في احترام ووقار واخذوا يهينون المسلمين ويحتقرونهم بعد ان تربعوا في دست
وظائفهم الاولى فضغطوا عليهم بشدة الى درجة لم تكن الديانه المسيحية
تسمح لهم باتباعها (١) لانهم لما كانوا من المسيحيين لم يكونوا يتجاسروا ان
يضغطوا على أحد من المسلمين اما وهم الان من المسلمين فقد اطلق لهم العنان
واصبحوا احرارا في كل ما يفعلون

ووقع السلطان صلاح الدين في ما وقع فيه من تقدمه من السلاطين
المماليك بعد الحوادث المتقدمه بقليل اذ ان احدى نساءه تواطأت مع مملوك
له يدعى بيدرا فقتلاه بخنجر في شهر محرم سنة ٣٢٦ ه بعد أن حكم ٣
سنوات وشهرين و٤ أيام وذلك على أمل ان يخلفه ذلك الامير القاتل
في ملكه

فبويع بيدرا ولقب بالملك القاهر ولكن مماليك قلاوون اخذوا بثار
سلطانهم فقتلوا بيدرا في اليوم الثاني ولم يتمتع بلقب سلطان الا يوما واحدا
وبايعوا بعده اخو الملك الاشرف المدعو محمد وهو ثاني انجال قلاوون وكان
سنه تسع سنوات ولقبوه بالملك الناصر على ان يكون سلطانهم الاسمي
فقط نظرا لصغر سنه وسلموا مقاليد الاحكام الى وصي عليه منهم يدعي زين

(١) نقلا عن المقريزي (ترجمة مالان المورخ الفرنساوي)

الدين كتبوغا الملقب بالمنصوري لانه كان من مماليك الملك المنصور قلاوون
ولما ولي الاحكام تاقت نفسه الى الاستقلال بالسلطنه فقتل اهم خصم له وهو
احد المماليك الذي كان وزيرا واسمه علم الدين سنقر وخلع الملك الناصر
الطفل وسجنه في قلعة الكرك وخلاله الجو فنادي بنفسه سلطانا وكانت مدة
حكم الملك الصغير سنة واحده فقط

اغتصب كتبوغا الملك فبايعوه في محرم سنة ٤٩٦ ه ولقب بالملك العادل
مثل لقب سلامش ابن بيبرس الاول واستوزر فخر الدين ولكن تراكمت
المصائب على البلاد في بحر السنتين اللتين حكم مصر فيهما حيث تفشي الطاعون
والقحط على ايامه واهلك خلقا كثيرا من السكان واحتلت البلاد طائفة الاويراتيه
فأحدثت مشاكل كثيره في مصر وتكاثرت في البلاد ووقعت مخاصمات
بينهم وبين الامرا كانت سببا في خلع الملك العادل كتبوغا في صفر سنة ٦٩٦ه
وبويع بعده مملوك اخر مثله يدعى حسام الدين لاجين المنصوري ولقب بالملك
المنصوري مثل سيده قلاوون وكان من اصل جرماني فقتل زعماء طائفة
الاويراتيه وبدد شمل الباقين منهم ونفى كتبوغا الى البلاد السوريه واستولى
على ربع الاقطاعات التي كانت مخصصه للجند وهي تحت تصرف الامراء
فحقدوا عليه وقتلوه في ١١ ربيع اخر سنة ٨٩٦ ه ولم يحكم الا مدة سنتين
مثل كتبوغا

وظل كرسي السلطنه خاليا نحو اربعين يوما لما وقع بين المماليك من التخاصم
والتحاسد على الملك فتمكن احد المماليك المدعو الامير سيف الدين طقجي

من دعوة الناس الى حزبه فبايعوه ولقبوه بالملك القاهر مثل بيدرا فكان حظه مثله تماما اذ قتله الامرأ بعد ان تمتع بالملك يوما واحدا كما فعلوا مع سميه ثم اتحد المماليك واقروا على استدعأ الملك الناصر من منفاه وكان قد بلغ عمره ١٥ سنة فارسلوا اليه وفدا في قلعة الكرك وكانت امه معه فلم تسمح بسفره مع الوفد خوفا من ان المماليك ربما كانو يقصدون اغتيال حياته تحت هذه الخدعة فاكدوا لها صدق دعوتهم وجثوا امام ابنها وبايعوه فتأكدت من اخلاصهم فجاؤوا به الى القاهره وقد اراد احزاب لاجين ان يقتلوه فهددهم الامراء والزموهم بمبايعته فبايعوه وحكم نصر ابن فلاوون مرة ثانية على مصر فلما استتب له الملك حارب التتر ثانية في سوريا سنة ٧٠٠هـ وبعد ان ضربهم ضربة قاضية عاد ظافرا ودخل القاهره من باب النصر باحتفال عظيم

وعلى اثر عودته رأى ان قبائل العربان في مصر قد شقوا عصا الطاعة فجرد عليهم جيشه وهزمهم واغتنم منهم خمسة الاف فرس ومائة الف رأس من الغنم و٣٠ الف من البقر والجاموس غير الاسلحه والمعدات الكثيره

نظره عمومية

وفي أثناء حكم الملك الناصر ابن فلاوون للمرة الثانية ذاقت البلاد عذابا اليما وصادفتها ظروف مرة بسبب معاكسة الطبيعه من جهة وضغط الاحكام الظالمه من جهة اخرى (١) . ومما حدث من هذا القبيل . ان اثناسيوس بطريرك

(١) في اول سنة من حكم الملك الناصر ثاني مره هطل مطر غزير جدا من سفح جبل المقطم فخرب القبور وملأها بالماء

الكنيسه اليونانيه في مصر هجر مركزه وهرب للقسطنطنية ويوحنا بطريرك الاقباط توفي في السنة التي اختلس فيها كتبوغا عرش الملك واسلفه على الكرازه المرقسية ثيودوسيوس والذى نعرفه من امره أنه كان فرنجيا وربما كان من سلالة اسرى الفرنسيس الذين أخذوا ايام غزو سنت لويس ملك فرنسا وفي مدة الست سنوات التي قضاها على الكرسي المرقسي ارتاح الاقباط فيها من اضطهاد المسلمين ولكن خبأ لهم الدهر اياما اردأ وظروفا انحس مما مر عليهم بكثير فمن المصايب الطبيعية انه تفشى الطاعون البقري(١) والادمي والقحط والزلازل(٢) ومات مئات من السكان والوف من الماشية وقد عزى الملك الناصر ابن فلاوون حلول المصائب وتراكم الارزأ على بلاده في اول سني حكمه الثاني الى المسيحيين من سكان مملكته لتصرفهم الغير مرضي ولكن هذه حجة واهية وربما كان يقصد بذلك تشاؤمه من وجودهم في سلطنته كما وسوس اليه قاضي قضاة الاسلام الذي كان ابن احد المسيحيين وقد ترك دينه واعتنق الاسلام فارتقي لهذا المنصب وكان يكره الديانه المسيحيه

(١) في تلك السنة أزدادت وطأة طاعون المواشي في مصر فلم يبق منها الا العشرات والدليل على ذلك ان احد اهالي اشمو[ن] طا كان يملك الف وواحد وعشرين رأس من الماشية لم يبق له منها الا ثمانية عشر فقط

(٢) حدثت في الشرق زارلة قوية سنة ١٣٠٢ مسيحيه خربت معظم بلاد سوريا ومصر وفاضت مياه الابار والانهر على سطح الارض وغرق خلق كثير . وسقط سيل جارف ومطر غزير من سفح جبل المقطم فخرب القبور وامتلأت بالمياه وغرقت كل المنازل التي تحت الجبل بمن فيها

كرهاشديداً فكان يحمل على المسيحيين ودينهم ولا يترك فرصة للايقاع

وبالاجمال فان اول سني الحكم الثاني للملك الناصر كانت اشأم وا

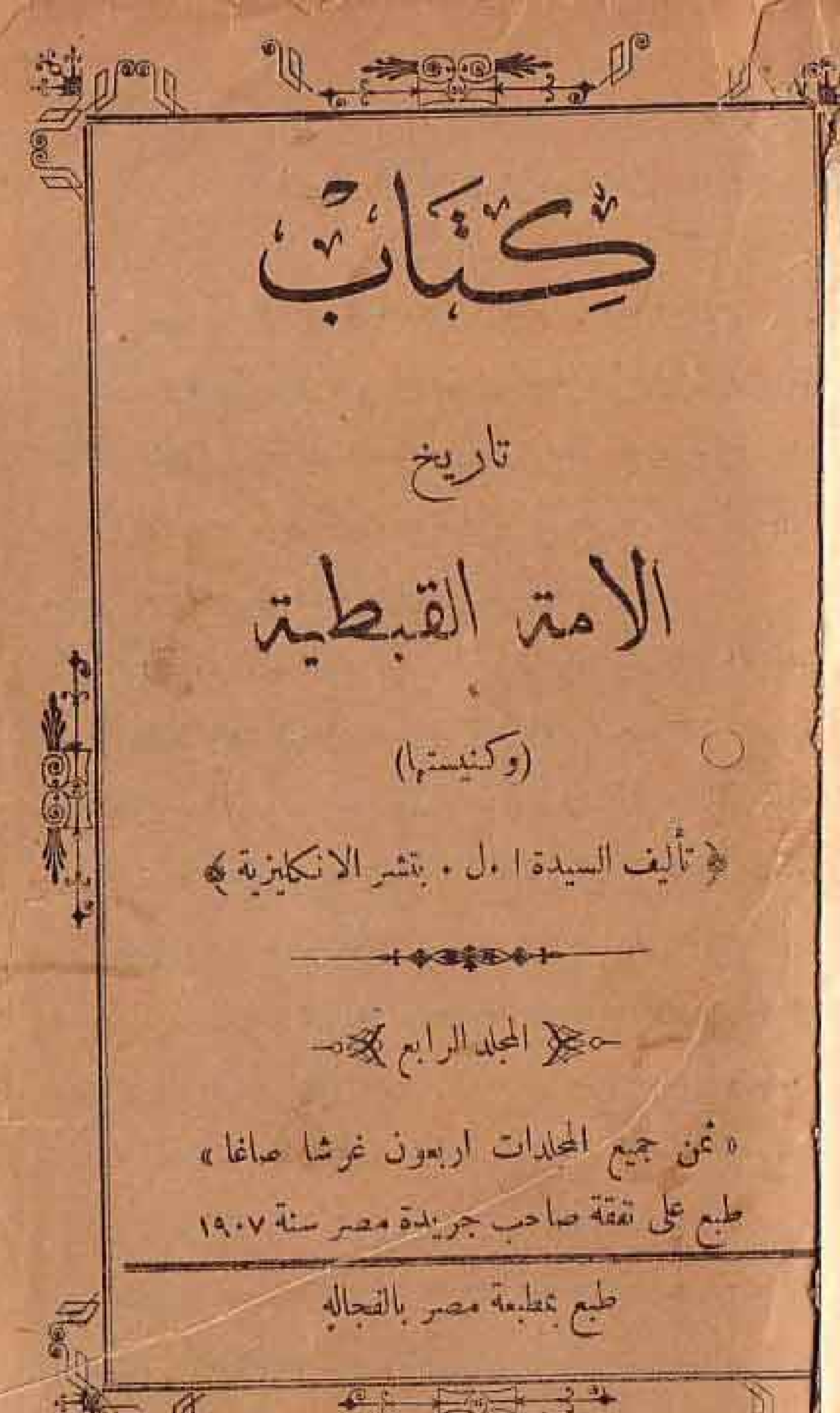
السنين بل واكثرها حزناً وويلاً من كل السنين التي تقدمتها في تاريخ الكنيسة

القبطيه المصريه

وسترى في فاتحة فصول الجزء الرابع ما مر على الاقباط وكن

من صنوف العذاب والخراب

تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع



كتاب

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

تأليف السيدة ا ل . بتشر الانكليزية

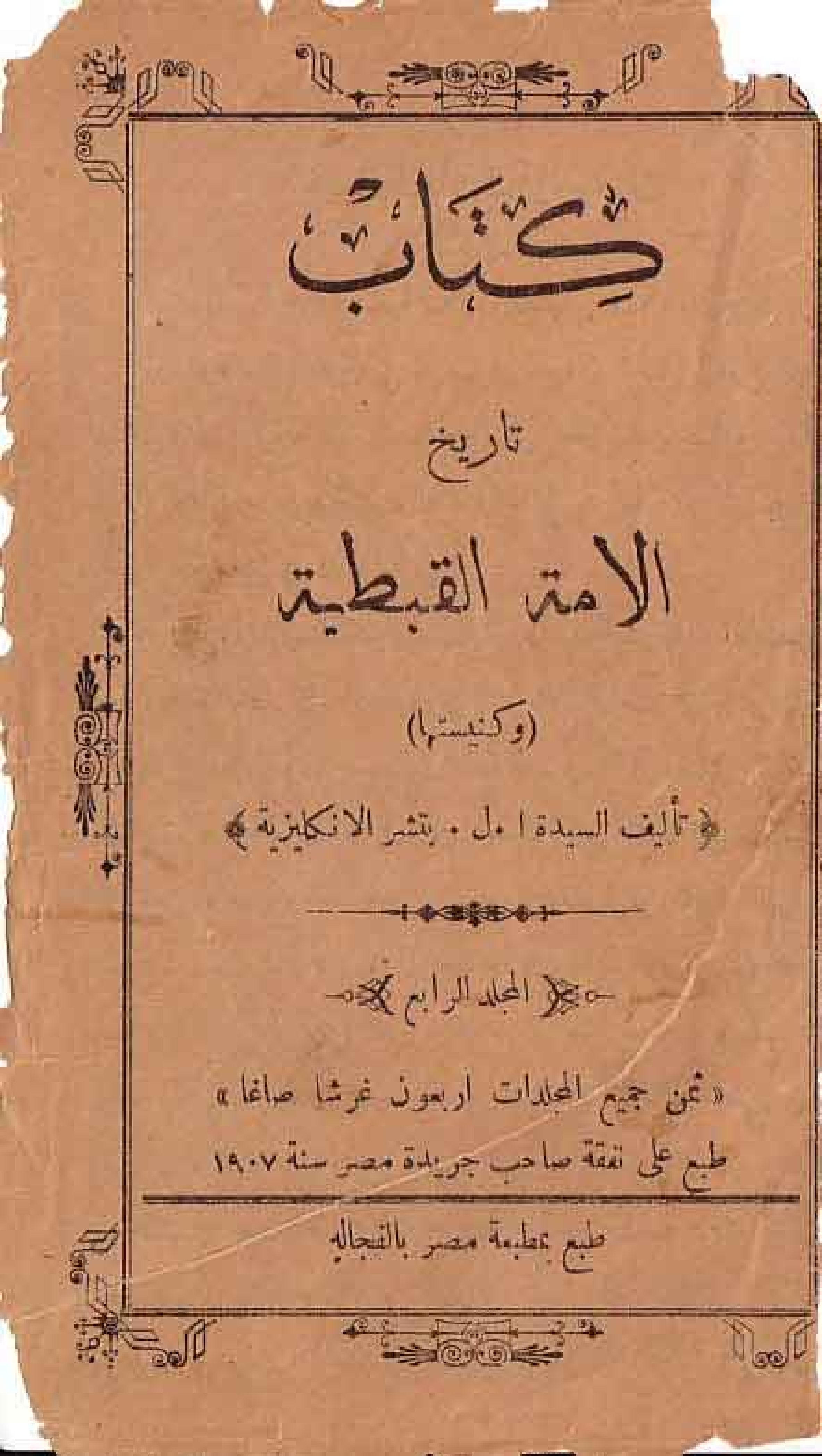
المجلد الرابع

«ثمن جميع المجلدات اربعون غرشا صاغا»

طبع على نفقة صاحب جريدة مصر سنة ١٩٠٧

طبع بمطبعة مصر بالفجالة


Shero4jesus@gmail.com



كتاب

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

﴿ تأليف السيدة ا . ل . بتشر الانكليزية ﴾

﴿ المجلد الرابع ﴾

« ثمن جميع المجلدات اربعون غرشا صاغا »

طبع على نفقة صاحب جريدة مصر سنة ١٩٠٧

طبع بمطبعة مصر بالفجاله

الفصل الحادي والستون

تخريب الكنائس وهدمها

سنة ١٣٠٠ مسيحية و١٠١٦ للشهدا و٧٠٠ للهجرة

أن الوقائع التاريخية التي جرت في غضون الجيل الثامن للهجرة الموافق الجيل الرابع عشر للمسيحيين هى اعظم شاهد صادق يدلنا على عظم الاضطهاد الشديد الذي عاناه الاقباط على يد الحكام المسلمين الذين تعاقبوا حكم مصر في ذلك الجيل

ولو أن المؤرخين المسلمين قد اثبتوا واكدوا أن تلك الاضطهادات قد جلبها الاقباط على انفسهم اي انهم كانوا السبب في وقوعها عليهم وقد جارى المؤرخون المسيحيون اخوانهم في اثبات ذلك بلا بحث في الحوادث والوقائع للحصول الى الحقائق التاريخة كما هي عادة اغلب المؤرخين الافرنج فقد كانوا يستعملون كلمات نيبل المؤرخ الفرنساوى (حدث بسبب خطأهم) الا اني قد فحصت تلك الوقائع التاريخية فحصاً دقيقاً في تاريخ المقريزي الذي يعتبر اصدق مؤرخ مسلم وبعض كتب تاريخية اسلامية اخرى توجه هذه التهمة الى الاقباط فاتضح لي بعد التمعن أن اولئك المؤرخين لم يكونوا على ثقة تامه من اثباتها . فالحقيقة التي تجلت لي بعد البحث والمقارنه التاريخية في اسباب ذلك الاضطهاد العظيم هي أن الاقباط كانوا يشكون من الغطرسة والقساوة التي كانت تقع عليهم ويقولون انه مادامت الحكومة الاسلامية لاتستغنى عنهم في

دوائرها فيجب ان يعيش هؤلاء الموظفون احراراً وليس ارقاء تحت سلطة الحكام المسلمين واعتقدوا ان هذا الاحتجاج لاشك فيه ولذلك كانوا يرفضون الرضوخ للمعاملة المؤثرة ويعترضون على الاوامر القاسية التى كان المسلمون في الازمنة السالفة يجبرونهم على اتباعها بقصد اذلالهم ومضايقتهم فلبسوا العمامة البيضاء بدل السوداء التى قد كان حرم عليهم تغييرها لتكون شعاراً مميزاً لهم وتمكن كبار موظفى الحكومة منهم بالسير في الشوارع على ظهور الخيل ووراء الواحد منهم كثير من مقدمي العرائض يطلبون قضاء المصالح العموميه والخصوصيه . فلما آنس المسلمون هذا الخروج عن المألوف من الاقباط ولاحظوا تنفسهم الصعداء من تلقاء انفسهم ونالوا حريتهم بأيديهم عقدوا النية على اتخاذ الوسائط العقوبة لاذلالهم فاقر كبار المسلمين على طلب هدم كل الكنايس المسيحية وتنفيذ كل مواد قانون العقوبات الصارمة على جميع افراد الاقباط . وقدموا هذين الطلبين لمحافظ القاهرة فانكر عليهم تنفيذ الطلب الاول وهو هدم الكنائس ولكنه لم يجسر على رفض الطلب الثاني . فاستقدم في الحال البطريرك يوحنا الثامن وكبار اعيان الاقباط واليهود واخبرهم انه لايكون مسئولا عن العواقب الوخيمة التي تحل بهم اذا كانوا لايرضخون للقوانين والشرايع التي طلب منه تنفيذها

فكتب في الحال البطريرك يوحنا الثامن الى جميع الابروشيات يحضهم ويدعوهم الى التشديد على الشعب القبطي بلبس عمامة وحزام زرقاوين وان

لا ر كبوا الخيل والبغال مطلقاً ومن يخالف هذه الاوامر يحرم من عضوية الكنيسة وانه لا بد من الرضوخ لاوامر القوة الحاكمة

فلم يقتنع المسلمون بذلك بل هدموا بعض الكنائس بالقاهرة كانت مشيدة حديثاً ثم طلبوا من البطريرك انه يغلق كل الكنائس الباقية بلا تخريب فابى البطريرك تنفيذ هذا الطلب فلم يلحوا عليه بالتنفيذ واهمل ذلك قليلا ولكن في اثناء هذه الفترة قام هياج وشغب شديدين بين المسلمين

واعقب ذلك هدم وتخريب كل الكنائس . فلم تعد وقتئذ حكمة البطريرك ولا قوة سياسته السلمية بالتأثير في اطفأ نيران هذا التعصب ولا تهدية تلك العاصفة الشديدة

ثم عمد الحكام المسلمون ثانياً لرفت كل الموظفين الاقباط من دوائر الحكومه . وقام بعد ذلك جماعة الاوباش والرعاع من المسلمين يزدرون ويستهزئون بالاقباط ويرجمون المارين منهم في الطريق العمومي ويتحرشون بمن يركب حماراً صغيراً (وهي الركوبة الوحيده التي صرح للاقباط بركوبها) ويطرحونه أرضاً بحالة وحشيه ويمثلون به أفظع تمثيل . وكانت المشاغب والاضطهادات فكانت على اشدها في مدينتي الاسكندريه والفيوم ووقعت اضطهادات وتعذيبات عموميه عظيمه على اقباط هاتين المدينتين واستفحل امرها حتى لم يكن في وسع الحكومه منعه أو تحاشيه . وحرّم الاسلام على الاقباط الاحتفال بعيد النيل (١) الذي قد حل أوانه

(١) أمر السلطان بابطال عيد النيل المذكور بحجة افراط الاقباط في شرب

وقتئذ (ويعرف عند الاقباط بعيد الشهيد) وصارت ارواح وأملاك الاقباط واليهود على السوأ في جميع انحأ الديار المصريه تحت خطر الهلاك في ساعة واحدة . هكذا كانت أحوال مصر مدة ثلاث سنوات حتى اتفق مجيء وفد الى الديار المصريه من قبل ملك بارسلونه يحمل فدية اسيراً من عيته كان قد أخذه سلطان مصر في حرب (والاغلب في حرب سوريا) فانذعر اعضأ ذلك الوفد وارتعدت فرائصهم مما شاهدوه من اضطهاد الاقباط وسوء الحاله العموميه في مصر فهزتهم نخوة المرؤة والعاطفه الدينيه والتمسوا من السلطان أن يسمح باعادة فتح الكنائس لذويها ومقابل ذلك يقدمون له مبالغ مالية عظيمة بصفة هديه علاوه على الفديه التي يقدمونها له عن اسيرهم . فقبل السلطان منهم هداياهم وتسامح في فتح بعض الكنائس وتخفيف الضغط عن الاقباط . ولكن المقريزي ذكر في تاريخه بان السلطان لم يسمح الا بفتح كنيستين فقط . ثم أثبت أيضاً ان السلطان بعد ان اعتق الاسير البارشلوني واطلقه ليرحل مع اصحابه عاد فأمر

الخمر اثنأ هذا العيد وذلك لان الاقباط كانوا يحتفلون في ٨ بشنس من كل سنه باقامة هذا العيد في ناحية شبرا بجوار النيل ويسمونه (عيد الشهيد) زعماً منهم ونقلا عن أباءهم الفراعنه أن النيل لايفي الا اذا ألقوا فيه تابوتاً من خشب فيه أصبع من أصابع أباءهم المائتين فكانوا يجتمعون من سائر القرى القريبه على اختلاف درجاتهم ويكثرون من الغنأ والترتيل وشرب المسكر فكانوا ينفقون مبالغ فاحشه في هذا السبيل وكان فلاحو شبرا يعتمدون على وفاء مال الاطيان مما يبيعونه من الخمر ايام هذا العيد

بمدئذ باقتفاء اثرهم في الطريق والقبض عليهم فلحقتهم رجال السلطان واوقفوهم ونهبوا ما كان معهم واسترجعوا ما أعطاهم السلطان واخذوا الاسير ثانياً وألقوه في السجن مكبلا بالسلاسل الحديديه . وفي سنة ١٣٠١ مسيحيه بينما كان الاضطهاد على اشده في بحر الثلاث سنوات المذكوره تمرد سكان الصعيد من المسلمين وعصوا وتذمروا من حكم المماليك وكان هؤلاء المسلمون من سلالة العرب الذين كانوا ضاربين في تلك الاقاليم القبليه وقد رحلوا اليها من بلاد العرب . فأرسل السلطان كثيرين من المماليك الامرا لقمع تلك الثورة في الصعيد فادى هؤلاء المماليك مأموريتهم بحالة وحشيه وقلوب قاسية لاتلين ولا ترحم ان اعملوا السيف في اعناق معظم السكان حتى امتلا الفضاء بالجثث وقبض هؤلاء المماليك على محتة عشر الفاً من اصحاب الاراضي ووضعوا ايديهم على أراضيهم واموالهم . وراح في هذه المذابح كل من المسلم والقبطي والبريء والمذنب وفي بعض الاقسام لم يبق رجل واحد على قيد الحياة ماعدا النسا والاطفال الذين اخذهم الامرا أسرى أرقاً وفي السنة التاليه أعقب ذلك الخراب والهلاك زلزلة عظيمه زادت في انحطاط البلاد وعم بسبب ذلك الخراب . وقد خربت هذه الزلزله بلادا كثيرة أخصها مدينة قوص التي دمرت عن آخرها . وأما اربع مدن العاصمه (مصر والقاهره ومصر القديمة وبابليون) فلم يصبها شيء من الزلزلة لان يد الاعداء قد سبقت الزلزلة فخربتها واهلكت من فيها

وشعر السلطان الشاب بتعاسة حالته في مملكته . اذ تحقق تمدئذ

بالتدريج شيئا فشيئاً ان اضطهاده للاقباط وشدة ضغطه عليهم لم تأت الا بالوبال وسوء الحال وتعميم الفوضى . وفضلاعن صيرورة الاحكام المدنية الى الفوضى والارتباك فانه رأي مع كل ذلك عدم رضا رعاياه المسلمين عنه ولم يعرف كيف يرضيهم ولاسيما الامرا المماليك الذين كان يخافهم ويخشاهم كثيرا والظاهر ان الحوادث الطبيعيه من زلازل وقحط وطاعون وغيره . اثرت في اخلاق المصريين فجعلتهم عديمي الثبات فانقسموا احزابا ضد بعضهم ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر السلطان الشاب وهذا ماكان يتوقعه منهم كما تقدم

ففي سنة ١٣٠٩ مسيحيه لما زادت متاعبه من كثرة الشكاوي والمنازعات وشعر بسؤ المصير ورأى انه لا يقوي على دفع هذه الويلات وخاف على حياته من الهلاك فتظاهر بالرغبة في الحج الى بيت الله الحرام وزيارة المقام النبوي فسار مع بطانته الى الكرك تاركا الملك وما فيه الى المماليك وكان له في الكرك ثروة عظيمة تبلغ نحو سبعة وعشرين الف دينار ومليون وسبعماية الف درهم فاستولى عليها وحصن المدينة ثم ارسل ختمه السلطاني الى مماليك مصر واخبرهم بتنازله عن الملك وفوضهم في انتخاب من يريدونه وتوليته سلطاناً عليهم في مصر . فوصل اليهم كتابه في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ هجرية فبايعو الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (بيبرس الثاني وهو احد مماليك الملك المنصور بن قلاوون ويؤيد ذلك انهم وجدوا بين اسلحته سيفا منقوشا عليه اسمه ومشفوعا بلقب

(المنصوري والسيفي) وبعد ان بايعوه لقبوه بالمظفر

وفي اواخر السنة المذكورة كان قد اتفق صاحب قبرص مع الصليبيين لغزو دمياط بحراً فخاف بيبرس الثاني من غزو الافرنج لبلاده ودخولهم القاهرة فاتفق مع الامراء المماليك على اقامة سد عظيم يمتد من دمياط للقاهرة حتى يتعذر وصول الافرنج ايام الفيضان في النيل الى دمياط . فجمع في الحال ثلاثين الف رجل وستمائة رأس من البقر لحمل الاثقال وادوات البناء وانتهى من بناء هذا الجسر العظيم بعد شهر واحد فكان طوله من دمياط الى قليوب وعرضه اربع قصبات من اعلاه وسته من اسفل ومشي فوق عرضه ستة من الخيل جنبا لجنب . ومن اثار بيبرس الثاني جامعه المشهور بالقاهرة باسم جامع جانشكير في الجملية لا يزال يصلي فيه الناس الى الان وهو على شكلا جامع السلطان حسن

ثم عاد الملك الناصر وتاقت نفسه الى الملك والعظم والنفس البشرية ميالة بطبيعتها الى العلى فوبخ نفسه وندم على استقالته وتخليه عن مملكته لاحد مماليكه فعمد الى اتخاذ الوسائط اللازمة للحصول على العرش المصري للمدة الثالثة ففي شعبان سنة ٧٠٩ هـ بارح الكرك بعد ان اقام فيها احد مماليكه المدعو ارغون وسار لى دمشق اولا فرحب به اهلها بصفته السلطان الاصلي الحقيقي ثم بايعوه عليهم فجند بواسطة امرائها جيشا عظيما وسار به الى مصر . وبوصوله اليها كان لحسن حظه ان احد زعماء المماليك في مصر المدعو برلك قد نبذ طاعة بيبرس فلما علم بقدوم

فلما علم بقدوم الناصر اسرع لملاقاته بالترحاب . اما بيبرس فخاف على نفسه ولم ير سبيلا لنجاته من الخطر الا بالهروب فاشهر استقالته في الليلة الاولى من شهر شوال بعد ان اسرع فجمع كل الاموال التي في خزينة القلعه والتي يقال انها تبلغ نحو ٣٠٠ الف دينار كان اغلبها مجموعا من نهب الاقباط الذي وقع أخيراً وكثيراً من الجمال والخيل وهم هارباً الى مصر العليا على امل الاستيلاء عليها فوقف في طريقه خارج القاهره جمع عظيم من اسافل القوم واوسعوه رجما وشتما فصار يرشقهم بما معه من النقود وسار حتى وصل الى اخميم . وفي اليوم الثاني من مبارحته القاهره دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي ثالث مرة تولى عليها وكان ذلك اليوم عيد رمضان فصار العيد عيدان وفي الحال اقتفى أثر بيبرس الهارب ومن معه وقبض عليهم واسترجع الاموال التي مع بيبرس ثم قتله

وكان سن الملك الناصر وقتئذ خمسة وعشرين سنة صرف ١٦ منها في مقاساة الاهوال من المماليك حتى عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يثبت قدمه في السلطنه وظل باقي ايام حكمه نحو ثلاثين سنة وبعضهم يقول ثلاثة وثلاثين حتى توفى لكنه أظهر في هذه الدفعه اختلافا عظيما في الاحكام والنشاط اكثر من المرتين الاولى والثانيه. وعلمه الاختبار ان يحامي عن الاقباط بكل قواه ويحميهم من نهب واستبداد المماليك والتعصب الديني من مواطنيهم المسلمين. واشتغل نفسه في عمل اصلاحات عموميه عظيمه وفي تمهيد تأسيس حكومة منظمه لتلك البلاد المختلة النظام

ولكن نية السلطان الحسنة وميله لذلك وان كانا قد اثرا في ايجاد الاصلاحات
ولكنه كان في غالب الاحيان لا يمكنه ان يتغلب على اطفاء نار التعصب
العام التي تأجج من كل صوب فبعد عشرة سنوات من اعتلائه العرش
في هذه الدفعه الاخيره اي سنة (١٣٢٠ هـ) وقعت فظائع عظيمه ساقت
الاقباط قهرا بعامل تأثير رد الفعل الطبيعي لمقابلة الشر بمثله بقصد الدفاع
عن انفسهم .

ومن المعلوم ان معظم النار من مستصغر الشرر فان السلطان الناصر
اراد ان يبني رصيفا على شاطئ النيل لتحصين منظر ميدانه(١) ومما يحسن
ملاحظته واثباته ان شاطئ النيل سنة ١٣٢٠ هـ لم يكن كما هو الآن لان
النهر قد تحول مجراه كثيرا لجهة الغرب ومحل مجراه القديم ملآن بمنازل
القاهره الحديثه بل هو القاهره المتوسطه نفسها لانه بعد ان تحول مجرى
النيل كما تقدم اقام الناس المنازل في الحال بعد ان جفت الارض على المجرى
القديم . وفي عصر الناصر ابن قلاوون كون طمي النيل جزيرة حديثه
ما بين القاهره وبولاق فبني عليها الناس في الحال مسجدا وطاحونه وكثيرا
من المنازل بحدائق فيحا حتى اصبحت منتزها لسكان الفسطاط . وقيل
انه في سني الفيضان كانت تغمر تلك الجزيرة بالماء وتتحول شوارعها

(١) معنى لفظة ميدان هنا اي محل لتعليم الركوب فيه ولكنه اسم على غير
مسمى لان التعبير على غير الواقع فان هذا الميدان كان عبارة عن متسع عظيم امام
احد قصور السلطان الشاهقه اعتاد ان ينزل فيه يوميا من القلعه .

الى ترع وكان السكان ينتقلون فيها بالقوارب اما فرع النيل الشرقي الذي
يطفو ماؤه على مدينة الفسطاط فكان دائما فسيح الشواطئ وعند ما
ينقضي زمن الفيضان تنشف شواطيئه حالا . والعصر الثامن من
التاريخ الهجري مملوء بالادلة التي تثبت خبر تكون جزائر نيلية جديده
كثيرة العدد اصبحت بتوالي السنين جزأ من شاطئ القاهره الشرقي
وينبئنا تاريخ ذلك العصر ايضا عن النفقات الباهظه التي كان ينفقها حكام
مصر المسلمين بقصد التسلط على سير النيل الطبيعي ومحاولة منعه تغيير
مجراه فكانت تروح اتعابهم ادراج الرياح والبقعه التي خصص السلطان
فيها بناء جسره كانت ملأى بالسكان مع انها اشبه ببوغاز لم ينشف تماما
بعد الفيضان وعلى قطعة ارض قديمة مرتفعة كانت قد شيدت كنيسة
الظهري . واتفق أن السلطان الناصر اراد حفر مجرى مياه من النيل
ليدخل فيه الماء لوسط الجزيرة واتفق في هندسة ذلك المجرى أن الكنيسة
لمعترضه في طريقه فاما أن تهدم واما ان تظل قائمة في وسط المجرى والماء
حولها . ولو تركت هكذا منفردة في الجزيره وحدها وسط المجرى تكون
في شكل ظاهر يستلفت الانظار وهذا يعتبر عيباً في نظر المسلمين لانه
لا يصح في اعتقادهم ان تكون كنيسة للنصارى ظاهرة بهذه الكيفية
ولما أشاروا على السلطان بضرورة ازالتها من موضعها صعب عليه ذلك ولم
يصدر امراً بهدمها بل امر فقط بالحفر حولها بالقرب من جدرانها حتى
تسقط من نفسها عند ما يختل الجدار فلما حفروا حولها واصبحت الكنيسة

معلقة في الهواء بقيت مع ذلك ثابتة في موقعها ولم تسقط وعندئذ تذمر
الفعله المسلمون وازداد هياجهم وتأججت نار التعصب في قلوبهم في جميع
انحاء القطر بحالة شديده مزعجة لانهم راؤا أن السلطان يلاطف الاقباط
ويحامي عنهم ويحافظ عليهم فانتهز المتعصبون من المسلمين هذه الفرصه
فاوقعوا بالاقباط اهوالا عظيمه ولكن لم تعلم كيفية وقوعها ولا من
الذي دبرها بل انفجرت براكين ذلك التعصب وطار لهيبه في الفضاء فجأة
واليك البيان: في يوم جمعه من ايام شهر يونيو الشهير بشدة قيظه في مصر
أعطيت اشارة في ساعة صلاة الظهر وقت اجتماع (المؤمنين) في المساجد
في كل من مدن القاهرة والاسكندرية ودمنهور واسيوط ومنفلوط
وقوص واصوان وخمسة مدن اخرى من اشهر مدن القطر . وبعد انتهاء الصلاة
قام درويش يظهر انه ليس مصريا وخرج في وسط الجمع المحتشد بغتة
في جامع القلعه وتقدم الى الامام عند المنبر وصرخ باعلا صوته وهو
يرتجف ويتكهرب كأنه قد نزل عليه وحي من السماء فأخذ يصيح الله اكبر —
الله اكبر — يااخواني المؤمنون — فلنتقدم ونهدم كنائس النصارى

ومما يحسن ملاحظته هنا ان المسلمين كانوا لا يحتاجون الى من
يكرر عليهم هذه الدعوى — وفي اللحظة التي انتهى فيها ذلك الدرويش
من دعوته سمع في الحال صراخ هائل في ثلاثة اماكن في القاهره . في
جهة الحفر امام كنيسة الظهري . وفي جامع القلعه — وفي كلية الازهر
العظيم بل واول كنيسة هدمت كنيسة الظهري التي كانت معرضة لنظر

المتعصبين التي لم يترك فيها حجر على حجر وقد سرقوا كل الاشياء الثمينه
فيها ثم ركضوا الى كنيسة ماري مينا في حي الحمرا وهذه الكنيسة كانت
منذ زمن مديد موضع الاحترام لدى الاقباط عموما وكانوا يرسلون
اليها نذوراً من جميع انحاء البلاد المصريه حتى اصبحت خزينتها في ذلك
الوقت اغنى خزائن المملكه المصريه على الاطلاق ليس فقط لكثرة الاموال
بل ولكثرة الامتعه الجميله والاواني الثمينه الفاخره وغير ذلك من الاشغال
الفنيه الغريبه وكانت محاطه بشبه مستعمره يسكنها الاقباط الزاهدين في
العالم في مساكن متفرقه حول الكنيسة

فتسلق أولئك الرعاع المتعصبون جدران تلك المنازل وفي مسافة
ساعة واحده كانوا قد هدموها عن آخرها وضربوا ساكنيها المساكين
ونهبوا ما يمتلكونه ولم يمكنهم الدفاع عن انفسهم ولما كان اهم اغراضهم
السلب والنهب اكثر من الهدم لم يكملوا هدم تلك المباني بل تركوها
زاحفين على كنيسة العذارى بقرب الساقيه التي كانت مجاورة لهذه الكنيسة
ويسكن على مقربة منها عدد كبير من الرهبان والراهبات . فكسر المتعصبون
الابواب ودخلوها هاجمين واخرجوا منها ما يزيد عن ٦٠ راهبة قد كن
التجأن اليها هاربات من هذه الوحوش فنزعوا ثيابهن عن اجسادهن
وسلبوا كل ما وجدوه معهن وما هو داخل الكنيسة من الاشياء الثمينة
ثم اشعلوا فيها النار واشعلوها أيضا في كنيسة اخرى بقربها ولما لم تنطف
نار التعصب بعد زحفوا من القاهره الى جهة الجنوب قاصدين بابليون

ولكن كانت قد سبقتهم اخبارهم الى بابليون فلما علم الاقباط بذلك اسرعوا
الى غلق بوابات الحصن القديم وكان داخل سوره ستة كنائس واستعد
الاقباط داخل الحصن للدفاع عن انفسهم وكنائسهم وكانت في اثناء
ذلك قد وصلت الاخبار للسلطان الناصر وعلم بما اتاه اولئك الثائرون
وعن وجود عصابة أخرى كانت تنوي هدم كنائس الموسكي وحارة
الزويله فارسل السلطان في الحال لتحقيق هذا الخبر ومعرفة الاسباب
التي دعت لذلك فلما عرف حقيقة الامر قام في الحال بنفسه مع رجاله
ليمنع هذه الاخطار ويوقف المشاغبين والثائرين عند حدهم . ثم اتاه نباء
بان قصر الشمع (اسم اطلقه العرب على حصن الرومان في بابليون)
محاصر بالثائرين والاقباط داخله يجاهدون في الدفاع عن انفسهم ولكنهم
لا يثبتون في دفاعهم ما لم تلحقهم نجدة قوية

فاصدر السلطان امره باعداد هذه النجدة فركب في الحال الامير
اوجامش واخذ معه اربعة من الامرا وفرقة راكبة واسرعوا الى بابليون
ثم تقدم قائد الفرقة وسبق الامير اوجامش واجتهد ان يبدد شمل
المحاصرين ولكنه صد حالا اذ اخذ الثائرون يرجمونه بالحجاره حتى تقهقر
وعاد الى جنوده

وكان الامير أوجامش قد وصل فرأى المتعصبون شارعين في حرق
البوابة التي بذلوا كل قوتهم في كسرها فلم يمكنهم ذلك فلما رأي الامير
هذا الامر اشهر سيفه في يده امام جنوده وصاح على قائد الجنود بالهجوم

على الثائرين ففي الحال تفرق الثائرون وفروا هاربين من حول ذلك
السور . وانتهز الامير أوجامش هذه الفرصه فاعلن بصوت عال ان من
يبقى في هذه البقعه بعد ساعة من الزمن يعرض نفسه للموت العاجل

فتفرق الجمع على اعقابهم باسرع ما يمكن وبذلك سلمت كنائس
الحصن من العبث والتدمير وعلاوه على ذلك فان أوجامش ظل في هذا
المكان حتى صلاة العشاء خوفا من ان هولاء الثائرين يعودون الى هجومهم
على الحصن . ولما عاد الى القاهره في المساء اصدر اوامر صارمه لقائد الحرس
ليسهر طول الليل برجاله حول الدير وترك معه خمسون جنديا للحرس
ولكن الامير (الماز) الذي يظهر انه لم تصدر له اوامر تخول له حق قمع
هذه الثوره وحماية الكنائس وجد ان الذين امرهم الامير اوجامش بالبقاء
للحراسه قد ناموا كلهم فاسرع مهرولا واخبر السلطان بذلك

ثم أمر السلطان الناصر بالقبض حالا على ذلك الدرويش الذي نادى
على المصلين في جامع القلعة يدعوهم لتخريب الكنائس فقيل له انه غير
موجود . وكانت الشوارع ملآى من الذين تجاروا على نهب الاقباط وهدم
كنائسهم . ولما استدعت الحكومة رؤساء العصابات والمتهمين في هذا
الجرم الفظيع وشرعت في التحقيق معهم قالو أن السلطان نفسه هو الذي
امر بهدم وحرق الكنائس ولم يمكن الحكومة ان تثبت التهمة على احدهم
ولكن الذي قاله هولاء الطغاه لا يصح تصديقه واسناده الى السلطان
الناصر ومن ثم أخذت ترد كل يوم على السلطان خطابات من الاقاليم

المصرية تنبئ بحدوث ثورات مثل ثورة القاهرة تهدم وتحرق فيها الكنائس القبطية . فاغتاظ السلطان غيظاً شديداً وسخط على رجال حكومته وامر بوجوب معاقبة زعماء الثورة عقاباً صارماً . فلما رأى الامراء اصراره على تنفيذ هذا الامر اجتهدوا بكل صعوبة في التأثير عليه وارجاعه عن عزمه واوضحوا له ان في الامر سراً عجيباً لا دخل فيه لبني البشر لانه لم يكن لاحد ما حتى ولا للسلطان نفسه أن يحقق من الفاعل والمتسبب الاصلي في هذه الثورات مع شدة رغبة السلطان في الوقوف على معرفته . وبذلك التأثير امكنهم أن يقنعوا السلطان بان يعتقد أن يد الله هي التي ارادت معاقبة الاقباط نظراً لما ابدوه من الغطرسه فخرب الله كنائسهم (١) فهذه الاحوال المحزنة لم يمكن الاقباط احتمالها . واصبحوا حانقين متذمرين لعدم انصافهم من هؤلاء الاعداء وخيف أن يكون بعض ظن

(١) أن الكنائس التي هدمت وحرقت وامكن حصرها هي : — في القاهرة كنيسة الظهري وكنيسة داخل اسوار القلعة في المحل المدعو خرائب التتر وكنيسة في حي الحمرا وكنيسة العذاري بقرب السبع سواقي وكنيسة ماري مينا وكنيسة حارسي اليهود وكنيسة في حي الاروام وكنيسة جهة الحرية وكنيستين في حارة الزويله وكنيسة قرب مخزن اللوا وكنيسة في الخندق واربع كنائس في اسكندريه وكنيستان في دمنهور واربع كنائس في مديرية الغربية وثلاثة كنائس في مديرية الشرقية وستة كنائس في مديرية البهنسا وثمانية كنائس في مديرية أسيوط ومنفلوط واحدى عشر كنيسة في مدن اسيوط واصوان والمنيا وكنيسة في اطفيح وتسعة كنائس في الفسطاط ودير البغل وعدد عظيم لا يمكن حصره من الكنائس والاديره .

المسلمين حقيقة من تدبر مكيدة بواسطة رهبان دير طره المعروف بدير البغل انتقاما لانفسهم من مضطهديهم

وبعد مضي شهر من تاريخ تخريب الكنائس وهدمها واذا بنار شبت فجأة واخذت تحرق البيوت في عدة نواحي من مدن القاهرة والفسطاط . ودامت النار مستعرة من يوم السبت لغاية يوم الاحد مساء وكل ما اراد الناس أن يطفئوها في جهة تظهر في جهة اخرى واتفق في ذلك الحين ان قامت زوبعة شديده ساعدت النار على التدمير والتخريب فكانت هذه النار تقلب البيوت على اعقابها وتهوي بها الى الارض والرياح تقلب القوارب والمراكب في البحر وهكذا تعاهد الريح مع النار على اتلاف المدينة . ثم تلبد هواء المدينة كله من الدخان حتى اصبح كضباب كثيف وطلع الدراويش واولياء المسلمين على مآذن المساجد كلها يصرخون ويصيحون طالبين من الله أن ينقذهم من هذا المصاب . وجاء مساء ليلة الاثنين والهواء لم يزل يحمل اصوات الصياح والعويل والنار تزداد التهاباً بحالة وحشية مريعة وفي صباح يوم الثلاث امر السلطان بغلق كل بوابات المدينه وامر باحضار جميع السقائين ليحضروا المياه بالقرب ويساعدوا في اطفاء الحريق ثم أمر النجارين والبنائين أن يهدموا البيوت القريبه من النار قبل أن تصل اليها ليحصروها في نقطة واحده . وهكذا لم يبق احد مهما كانت درجته ورتبته الا اخذ يساعد بنفسه في انقاذ البلاد من النار وامتلاء الشارع العظيم الذي يبتدي من باب الزويله بالماء حتى اصبح

اشبه بنهر عظيم . ثم خمدت النار ولكن كان كل يوم يظهر حريق
جديد مع سهر وتيقظ رجال الحكومة واخيراً اعلن السلطان أن سكان
كل ناحية يلزم أن يضعوا زيراً أو برميلا من الماء في كل شارع من جيبهم
الخاص ليكون الماء جاهزاً عند الضرورة فارتفعت اثمان الازيار والبراميل الى
درجة عظيمه . ثم ظهرت في الحال غاغة عظيمة وتصفيق حاد في الشوارع
وصياح هائل من المسلمين قائلين أن النصارى هم سبب حرق المدينة
واخيرا في يوم الجمعة شهر (يوليو) قبض على راهبين خارجين من كلية
القاهرة بعد أن ظهرت النار في جدران تلك الكلية وتأكد المسلمون أن
هذين الراهبين هما اللذان اشعلا النار وابلغ السلطان الامر عند
القبض عليهما فامر في الحال بتعذيبهما وما كاد أن ينزل الامير بهذا الامر
من القلعة الا ورأى المسلمين المحتشدين قد قبضوا على راهب آخر
وجدوه في جامع الظاهر يحمل على ظهره عدة اكياس من النفط والزفت
ولما طرح على الارض لتعذيبه امام الامير اقر انه اعطى هذه الاكياس
ليضع واحداً منها في جامع الظاهر

واقر ايضا الراهبان الاخران اثناء تعذيبهم انهما من دير البغل وانهما
هما اللذان أحرقا كلية القاهر . فلما رفع الامر الى القاضي كريم الدين
الذي التهمت منزله النار ونجا بنفسه اقترح استدعاء بطريرك الاقباط لانه
لابد أن يكون عالما بسر ما اتاه شعبه من هذه الامور المنكرة ولا بد
انهم استشاروه في كل امر . وكان البطريرك وقتئذ يوحنا التاسع الذي

اخلف يوحنا الثامن بعد بضعة اشهر فاحضره رجال الحكومة الى القاضي
في ظلام الليل تحرسه فرقة من الجند خوفا من أن يصيبه اذى من ايدي
هولاء القوم الثائرين . ولما جأوا بالثلاث رهبان امامه وسألهم عما فعلوه
اقروا ثانياً امام القاضي كريم الدين انهم عملوا ذلك نكاية بالمسلمين الظالمين
الذين حرقوا كنائسهم فلما سمع البطريرك ذلك أذرفت عيناه الدموع
واوضح للقاضي انه يوجد بعض الاقباط قد حملهم التعصب الديني أن ينتقموا
لانفسهم من رعاع المسلمين الذين هدموا كنائسهم . فصرح القاضي كريم
الدين (١) للبطريرك أن يعود لمركزه بكل احترام وخرج معه فاستحضر
له بغلاً وامر بعض رجاله أن يسيروا في حراسته حتى يصل الى البطريكخانة
ولكن جماعة الاوباش المتوحشين الذين كانوا يملأون الشوارع عرفوه
واحاطوا به وكادوا يمزقونه اربا لو لم يسر بجانبه ضابط الحرس حتى
ابعده عنهم ووصل الى مقره بسلام وفي صباح اليوم الثاني بينما كان القاضي
خارجا من منزله كعادته ومتوجها الى القلعة احتاط به ايضا كثيرون من
هولاء الاوباش وهم يصيحون حوله ويتهمونه بالكفر لتعرضه لحماية
النصارى الكفار الذين حرقوا منازل المؤمنين (المسلمين) فلم يخف منهم
كريم الدين بل تشجع وسار تواً فقدم تقريراً للسلطان فحواه انه يوجد
بعض من جهلاء الاقباط هم الذين ينسب اليهم هذا التعدي الفظيع فامر

(١) أن كريم الدين هذا هو قبطي الاصل وعائلته قبطية منذ جيل تقريباً قبل
أن يعتنق الاسلام

السلطان باستمرار تعذيب الرهبان المسجونين تعذيباً اشد من الاول بدرجة قاسية جداً لكي يعترفوا ويدلوا على اسماء بعض اغنياء الاقباط او ذوي النفوذ فيهم فيقبض عليهم في الحال ولكن الرهبان وهم في اشد درجات العذاب ظلوا مثابرين على اعترافهم الاول امام البطريرك والقاضي واثبتوا أن اصل المؤامره مدبرة بواسطة اربعة عشر راهبا من رهبان دير البغل تعهد ثمانية منهم بحرق القاهرة وستة بحرق الفسطاط . اما بابليون فاقروا بعدم مسها بسؤ وسبب ذلك ان تلك المدينة القديمة كان كل سكانها من الاقباط في تلك الايام كما هو الغالب في هذه الايام . ولما اعترف الرهبان في هذه الدفعه بان زعماء هذه الفظائع هم رهبان دير البغل ارسل المسلمون رسلا كثيرة في الحال الى دير البغل ليخرجوا كل الرهبان الذين يجدونهم فيه ويأتون بهم اسرى الى القاهره فاتوا في الحال بكل من وجدوه في دير البغل وحرقوا منهم اربعة احياء في وسط الجمع الذي كان محتشداً حولهم

ومن اللحظه التي اعترف بها اولئك الرهبان باخوانهم المتآمرين اشتد هياج المسلمين في القاهره والفسطاط لدرجة شديده جداً تفوق الجنون وتحمسوا حماسا هائلا ولم يعد احد يبالي باوامر الحكومه ولا يرهب قانونها . وصاروا كل ما يقابلون قبطيا في الطرق يذبحونه ويأخذون ماله بلا خوف ولا محاسبه من الضمير . ثم كروا جميعا مهرولين الى السلطان يحتجون عليه لتساهله مع الاقباط ومنحهم آيات العز والسلام

من مدة عشر سنوات وفي ذات يوم في الصباح بينما كان نازلا من القلعه الى الميدان رأى الشوارع محتشده بالوف من الاوباش والثائرين كموج البحر وهم يصيحون عليه باعلا صوتهم قائلين — الله ينصر الاسلام فلم يبال بهم السلطان واستمر في طريقه ولكن ما كاد ان يصل الميدان حتى اخبره قائد الحرس انهم قبضوا على اثنين من الاقباط وهم يحرقون منزلا فامر السلطان بحرقهما احياء في الحال امام الجمع المحتشد وبينما هم يحرقون الرجلين حسب امر السلطان واذا بالقاضي كريم الدين مر بملابسه الرسميه من مكان الحريق فبصر به جماعة الاوباش فاوسعوه رجما بالحجاره فركض من امامهم ليختفي عن نظرهم فاقتفوا اثره حتى دخل ميدان السلطان فشاهد السلطان الجمع العظيم الثائر خلف القاضي فسأله عن السبب فابلغه ما كان من امر رجمه بالحجاره فاغتاظ السلطان غيظا شديداً واصدر امره للامراء لتحقيق هذا الحادثه . فقال الامير سيف الدين بضرورة ارسال رسول يسأل الثائرين عما يريدون وقال الامير جمال الدين انه من المعلوم ان مسألة كراهة الموظفين الاقباط كانت في اواخر المسائل المطروحه امام نظرنا ولا لزوم الآن لاتخاذ وسائط شديده ضدهم ويكتفي الآن في عقابهم بعزلهم حالا من جميع وظائف الحكومه فلم يصادف هذان الاقتراحان قبولا لدى السلطان فامر رئيس بلاطه ان يستصحب معه اربعة من الامراء وعدداً من المماليك ويطوفوا القاهره من اول الميدان حتي باب الزويله ومنها الى باب النصر ويبددوا شمل

الثائرين ويضربونهم ضربة قاضيه ولا يدعون احدا يقف في وجههم وامر أيضا قائد الحرس ان يحافظ على باب اللوق وشواطي النهر ويقبض على كل هارب من هذه النواحي بلا استثناء ويحضره الى القلعه ثم قال متحمسا (وحياة رأسي اذا لم تستحضر لي كل من رجم القاضي كريم الدين بالحجاره فاني ساقطع رأسك بدلهم !!)

فخرج الامراء من حضرة السلطان . ولما كانوا في الحقيقة ميالين لما يفعله الثوار والمشاغبين وراضين سراً عن تصرفاتهم المقوته تمددوا الامهال والابطاء في اتمام مأموريتهم حتى يكون ذلك التأخير فرصة سانحة لهولاء الثائرين فيهربون ويتفرقون كل الى سبيله فكان ذلك التدبير العجيب حسنا في بابه فانه ما كاد الامراء يسيرون للتجول في البلد حتى تشتت المحتشدون بانتظام واختفوا في الحال ولم يبق نفر واحد منهم باقيا ليقبض عليه رجال السلطان حتى ولا خدام اولئك المتحمسين لان الاخبار كانت قد انتشرت فيما بينهم كالبرق فهرب الناس عدواً كالارانب وقفلت بوابات كل الاسواق ووصل الطوافون الى بوابة النصر دون ان يقبضوا على فردواحد بينما كان قائد الحرس من الجهة الاخري يطوف بولاق وشواطئ النهر وقد قبض على كثير من الشحاذين والملاحين (عساكر البحر) وكثير من عابري الطريق فاوقع هذا الصنيع رعباً شديداً في الاهالي لدرجة انهم صاروا يلقون بانفسهم في النيل الذي كان وقتئذ عميقا فيسبحون فيه ويهربون الى بر الجيزه وقبل غروب الشمس كان قد وقع

من اولئك البؤساء الذين لم يمكنهم الهروب في يد قائد الحرس ما ينوف عددهم عن مائتي شخص فاحضروهم امام السلطان . فلم يقل السلطان ناصر ابن قلاوون كلمة بشأنهم ولم يحقق اذا كانوا مظلومين أو ابرياء بل أمر في الحال بتقسيمهم الى ثلاثة اقسام . قسم يعلق على المشنقة . وقسم يقطع افراده الى شطرين . والثالث تقطع اياديه . فصاحوا جميعا واخذوا يولولون وينوحون متضرعين للسلطان قائلين ان لا شأن لهم في رجم القاضي كريم الدين بالحجاره

فبكي الامراء وتضرعوا للسلطان ليعفو عن هولاء القوم الابرياء وكانت نتيجة هذا التوسل ان رجع السلطان عن امره الاول ولكنه امر قائد حرسه ان ينصب المشانق على شكل خط مستقيم يبتدئ من باب الزويله لغاية سوق الخيل ويعلق صباح اليوم الثاني على كل مشنقة واحدا من هولاء الاسرى التعسأ الذين اخذو عرضا من الطريق وسيقوا للموت ظلما بطريقة وحشية وكان ألامراء الذين مروا امامهم غير قادرين على التمالك عن البكا والتحسر . ولما علم القاضي كريم الدين بان الشارع الذي سيمر منه مكتظا بالجثث البشريه بسببه لم يمكنه المرور تخلصاً من رؤية هذا المنظر المريع فغير طريقه الى القلعه ومر من شارع آخر

وفي صباح اليوم الثاني صعد السلطان على المنبر وامر باحضار قسم آخر من اولئك التعساء الذين تصيدهم قائد الحرس فلما مثلوا امامه أمر أن تقطع ايادي وارجل ثلاثة منهم . ولما رأى الامراء أن غضب السلطان

في ازدياد خافوا أن يمسهم بضرر فلم يمكنهم أن يتعرضوا للدفاع عنهم واتفق من محاسن الصدف وصول القاضي كريم الدين فرفع عمامته وتقدم راكعا امام السلطان على الارض يتضرع اليه ملتمساً العفو عن هولاء التعساء الذين يعتقد انهم ابرياء ولم يقترفوا اثماً . فقبل السلطان رجاءه ومنحه ارواح هولاء الاسرى بشرط أن يرسلوا للاشغال الشاقه في اعماله الاصلاحية على شاطئ النيل . ثم امر ايضاً بانزال جثث المشنوقين . ولكنه ما كاد ينزل السلطان من فوق المنبر حتى حدث فزع وانزعاج عظيم لشبوب الحريق في المنازل وقيل أن جامع احمد ابن طولون والقلعة نفسها كان يتهددها خطر الحريق وفي صباح اليوم الثاني قبضوا على ثلاثة من الاقباط من اعضاء لجنة مؤامرة الرهبان السرية

ودام منظر الحريق المرعب في القاهرة مدة اسبوع حتى جنت الناس من شدة الرعب واخذ السلطان يبذل كل قواه في تهدئة الخواطر واطفاء الحرائق . وصار الاقباط يختفون تحت الارض خوفاً على حياتهم واصبح المسلمون والاقباط معاً يذهبون فريسة لغضب السلطان وهياج الاوباش وفي يوم السبت من الاسبوع الثاني كان الخطب على أشده ولما نزل السلطان من القلعة الى الميدان رأى خلقا كثيراً من الرعاع والاوباش يزيدون عن العشرة الآف نفس قد احتاطوا به وجميعهم يحملون قطعة قماش زرقاء عليها رسم صليب ابيض ولما صار السلطان في وسطهم صاحوا جميعاً بصوت واحد — فلتمحي كل الاديان ما عدا الاسلام !! — الله

ينصر محمد !! فيا ائمة الاسلام وقادة لوائه ساعدونا على الكفار ! — لا ترحموا النصارى ! —

فرأى السلطان نفسه على شفا جرف هار من ثوره عمومية كبيرة وعلم ان ما أمر به من تعذيب المتآمرين على حرق المدينة وحرقهم احياً لم يطف ظمأ الثائرين من المسلمين المشتاقين لشرب دماً الاقباط فضاق ذرعه وخمدت شجاعته ورجع الى الميدان ومن هناك ارسل رئيس بلاطه يعلن الجمع المحتشد من المسلمين انهم احرار في قتل كل قبطي يجدونه وينهبون امواله !! فلما سمع القوم هذا الاعلان هزوا الفضاء بضجيج صياحهم واخذوا يحمدون السلطان لتصريحه لهم بما يريدون واخذوا يتراكضون كالبرق لتنفيذ هذا الامر

ولنترك القارئ الكريم الآن يتصور هذا الخطب الجسيم الذي يشيب لهوله الولدان وتلك المذابح الهائلة التي تقشعر منها الابدان

فاصبح الاقباط بالاجمال كاغنام تساق بالالوف الى المجزر . وذكر المؤرخون المسلمون ذلك الحادث في تواريخهم ومؤلفاتهم على وجه العموم ولم يشيروا اليه الا تلميحاً ولكنهم ذكروا بالتفصيل العذابات التي توقعت على الاقباط الذين بقوا احياء ونجوا من الذبح وهذه العذابات كانت من نوع التعذيب الذي وقع عليهم في العصور السالفة وهي تمييز الوان ملابسهم عن ملابس المسلمين بطريقة أجبارية وتعليق اجراس في اعناقهم عند دخولهم الى الحمام حتى يحاذر المسلمون الذين يكونون فيه لئلا يتدنسون

منهم ولا يجوز لقبطي الاستخدام في أي محل عمومي أو في دائرة أحد الامراء أو في أية وظيفة من وظائف الحكومة في الاقاليم . وكل قبطي يظهر لابسا عمامة بيضاء أو راكباً فرساً أو بغلا يسوغ ذبحه بيد أول مسلم يراه أو يقابله في الطريق وتصبح امواله غنيمة لقاتله والذي كان يسمح لهم بركوبه هو الحمار فقط على شرط أن يركبوه بالعكس . وبينما كان السلطان جالساً في ديوانه يجهز هذه القوانين كان القتل والنهب مستمراً على اشده حتى مل المتعصبون القاتلون الذبح وعافت نفوسهم مناظر الدماء وابتدأ ضميرهم الميت يحيا ويوخزهم فخافوا شر العاقبة وافاقوا من سكرهم فكفوا يدهم عن القتل بعد أن تأكدوا انهم نفذوا اوامر السلطان بحرارة اشد مما يجب وقالوا بعد ئذ انه من الضروري أن حكومتنا الاسلامية تؤمن علينا ثانية وطلبوا منها عفواً عاماً عن كل ما فعلوه مع الاقباط وفي صباح اليوم الثاني ظهر هياج وأخذ المسلمون يحتشدون وقصدوا سلطانهم ليشكروه وكانوا يصفقون مبتهجين . وقيل أن السلطان لما رآهم كذلك تبسم ضاحكا عليهم فرحا بخلاصه من شرهم !!

ولكن ذلك السكون لم يدم طويلا بل انه في الليلة التالية تأججت النيران ثانياً في القاهرة وانتشرت بسرعة هائلة في انحاء المدينة حتى خيف على القلعة ذاتها من الاحتراق وظل الاقباط مختبئين داخل منازلهم أياماً طويلة وظلت الكنائس مقفلة مدة سنة ونصف حتى أرسل امبراطور البيزانطيوم (اليونان) وملك اسبانيا وفوداً لحكومة مصر يتضرعون

اليها لاتخاذ الوسائط التى تمنع تعذيب الاقباط اخوانهم في الدين . لانهم خافوا أن يكون عدد عظيم منهم قد اعتنق الاسلام في تلك الظروف المدلهمة . اما البطريرك فلم يصبه ضرر وظل عائشاً مدة كل تلك الاضطهادات التي حلت بشعبه وعاش بعد ذلك خمسة عشر سنة . اما اثناسيوس الثالث بطريرك الكنيسة الملكيه فلم يجسر على المجئ لزيارة ابرشيته فى الديار المصرية وقت تلك المحن وظل كل تلك المدة فى القسطنطينية منهمكا في المشاكل التي كانت قائمة بين الامبراطور والاكليروس فى تلك المدينة واخيراً طرده الامبراطور من القسطنطينية فكان يخشى الحضور الى القطر المصري فنزل فى جزيرة امبوعا ومنها توجه الى اليونان حيث طرح هناك فى السجن

وكان ذلك الرجل كباقي رجال الاكليروس المصريين مكبا على مطالعة الطب فشفى سجانه وكان ذلك سببا فى خلاصه ولا نعرف اذا كان قد رجع الى مصر بعد ذلك ام لا

اما قانون العقوبات المختص بالاقباط فى ذلك الحين فلم يكن يسري مفعوله على اليهود ولكنه يظهر أنهم نالوا نصيبهم من الامان وتخلصوا من عذابات الاقباط . وذكر المقريزي حكاية فى تاريخية وقعت بين يهودي وقبطي وهو انه كان لاحد الاقباط مبلغاً طائلاً من المال على احد اليهود فلما رفت القبطي من وظيفته فى الحكومة اصبح محتاجاً لماله لينفقه فتوجه الى منزل القبطي على غير ارادته وصار يتوسل اليه أن يرد له ما عنده من

الدين . فما كان من اليهودي الا أن اعطى اشارة الازعاج والاضطراب
من مداينه متظاهراً انه كان يقصد ايقاع الضرر به ففي الحال أجتمع
جمع كثير من المسلمين ليقبضوا على القبطي ويقتلوه فاسرع القبطي المسكين
واختفى داخل منزل اليهودي وتضرع الى زوجته أن تحافظ عليه من
يد القاتلين فحن قلبها عليه وخبأته تلك الليلة بشرط أن يتنازل عن الدين
الذي له على زوجها

وقبل أن تسمح له هي وزوجها بالخروج من منزلها اجبروه أن يكتب
لهم صك مخالصه بدينه

ولما تناقص الاضطهاد سنة ١٣٢٥ مسيحية وصل للسلطان الناصر
خطاب من امبراطور الحبشه بضرورة اعادة بناء الكنائس التي هدمها
المسلمون وحسن معاملة الاقباط والا اضطر أن يهدم كل مساجد المسلمين
في مملكته ويحجز مجرى النيل عن مصر فضحك الناصر من هذا التهديد
وطرد وفده دون أن يرد على خطابه فعادوا من حيث اتوا ولا ينبئنا
التاريخ بعد ذلك ماذا تم لمساجد المسلمين فى الحبشه اما النيل فيظهر انه
لم يحجز مجراه

وفي سنة ١٣٢٧ مسيحية ثار المسلمون على الاقباط ثورة كبيرة
وهدموا كنيسة القديسه بربارة . وكانت حجة المسلمين فى هدم هذه
الكنيسة أن الاقباط لما استأذنوا السلطان فى اعادة بنائها كبروا امساحتها
ولم يتم بناء الكنيسة بعد هدمها ولم تزل آثارها باقية وراء قصر الشمع

مصر القديمة . وفى تلك السنة مات بطريرك الاقباط يوحنا التاسع وأخلفه
بنيامين الثاني

وصرف السلطان الناصر ابن قلاوون باقي ايام حكمه فى الاصلاحات(١)
الداخلية فابطل الضرائب الظالمة وهي ما كان يؤخذ من الرجل زكاة عن
ماله ولو فقد منه ذلك المال فاذا مات الرجل يؤخذ من ورثته وغير ذلك
من اشكال الضرائب التي لا محل لتفصيلها هنا وبذل كل قواه فى تشييد
المباني الفخيمة . وفي سنة ٧١٧ هـ بنى جسراً بين بولاق وميت سيرج
لحجز مياه النيل عند الفيضان لان الارض كانت واطيه فعند الفيضان
كانت تجري المياه حتى نقطة قسم الازبكيه الآن وبعد بناء ذلك الجسر
كفت المياه وتكونت هناك جزيره دعوها جزيرة بولاق ثم اتصلت بالبر
وصارت مرسى للسفن ولا تزال باقية الى اليوم حيث يوجد قسم بولاق
ولكثرة مبانيه وعماراته جدد تقريبا مدينة القاهره وكان الفضل
في ايجاد عدة مدارس وكليات ومساجد ينسب اليه . وكذلك انشاء عدة

(١) كان الاقباط ايام السلطان الناصر يقيمون احتفالا في ٨ بشنس من كل
سنة يسمونه عيد الشهيد على ضواحي النيل عند شبرا توارثا عن اجدادهم الذين
كانوا يعتقدون ان النيل لا يفي الا اذا القوا فيه تابوتا من الخشب فيه اصبع من
اصابع ابائهم المائتين فكانوا يجتمعون على أختلاف درجاتهم من القرى الى تلك
النقطة ويكثرون من الغناء والسكر واللعب وينفقون مبالغ عظيمة في هذا الاحتفال
وكان فلاحو شبرا يعتمدون في وفاء خراجهم على مايكتسبونه من بيع الخمر فابطل
الملك الناصر هذه العادة ولم يعد أحد يستعملها الى الآن

اسبله عموميه وفي سنة ٧١٨هـ بنى جامعاً في القلعه دعاه الجامع الناصري
وكان يصلي فيه مع حاشيته وبنى بجانبه جامع محمد علي المدعو الجامع العتيق
وتستعمله الحكومة المصرية في هذه الايام مخزنا للمهمات العسكريه ولكنها
اخلته اخيراً وعرضته لفرجة السائحين ويرى الناظر على يساره جامع محمد
علي في القلعه

وكانت مدة حكمه الاخيره كلها سكون وسلام ولم يخرج من مصر
الا لزيارة الحج مرتين وتزوج بابنة ازبك خان ملك التتر سنة ٧٢٠ هـ
ومن ضمن اصلاحاته العظيمه انه نزح الخليج الناصري سنة ٧٢٧ هـ وكان
معدا للملاحة وقتئذ ويوصل الاسكندريه بالنيل وكان على وشك التلف
قبل تطهيره وسنة ٧٢٨ هـ أنشأ سبعة جسور سنة ٧٢٩ هـ وشاد مرصداً في
الميدان وقصراً على انقاض قصر الاشرف انتهى منه سنة ٧٣٤ هـ وبنى
جسور شبين سنة ٧٣٥ هـ . وجامع عظيم بجانب جامع ابيه في شارع
النحاسين لم يزل معروفا باسمه للآن يرى الناظر عند الدخول
اليه اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف ابن قلاوون اتي بها
من عكا تذكاراً لانتصاراته هناك . وفي الجامع كتابة تدل على ان
الذي بناه هو السلطان محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي
سنة ٦٩٨ هـ والمقريزي يقول ان بناءه كان في سنة ٧٠٣ هـ وان
الملك العادل كتبوغا هو الذي شاد اساسه ولكنه معروف للآن
باسم الملك الناصر .

وحفر الناصر ترعة اخرى بين الخانكه وسرياقوس وقوى شواطي
النيل وشاد داراً كبيره تدعى دار العدل وعيونا كثيرة ومدارس عاليـة
واتم البيمارستان الذي كان قد شرع ابوه في بنيانه واوقف له اموالا ولما
كانت اميال المماليك الامرآء متجهة للسلب والنهب فيظهر انهم كانوا غير
راضين عن حكومة الناصر ونظامها فاصبح في عينيهم حقيرا ولما ادرك
حقيقة اميالهم بحسن ذكائه دبر لهم امراً يشغلهم به عنه فاخذ يرسلهم
حملات متتابعه لمحاربة النوبه وسلبها

وهذه كانت عادة سلاطين مصر في معاملة من ينازعونهم العرش
فيشغلوهم عنهم بمحاربة السودان فلما وصل المماليك الى النوبه وحاربوها
وارغموا سلطانها للخضوع عادوا الى مصر فرجع النوبيون الى طاعة ملكهم
الذي رفض ثانيا ان يقسم يمين الطاعه والخضوع لسلطان مصر .

ولكن من الاسف ان كل روابط المسيحيه والوطنيه السودانيه
انحلت وتلاشت سريعا بسبب دوام اختلال الاحكام وفسادها الناتج من
تجارة الرقيق القهريه وغزو المسلمين المتتابع للبلاد النوبيـه بسبب قيام
مدعي نوبي جديد يطالب بالعرش وكان الناصر شديد الولع بتربية الخيل
حتى قيل انه في بضع سنين من مدة حكمه كان يأتي الى اصطبلاته سنويا
نحو ثلاث الاف جواد وفي سنة ١٣٣٧ م (٧٣٨هـ) فجع بفقد احب انجاله
اليه وهو الامير اندق ولم يبرأ الناصر من المرض الذى اصابه حزنا على
وفاة ابنه المذكور وظل بدائه حزينا حتى توفى في ٢١ ذى الحجه سنة ٧٤١هـ

الموافق ٦ يناير سنة ١٣٤١ وفاضت روحه وهو بمفرده ودفن حالا في الليل بغير احتفال وكان عمره ٥٧ سنة ومدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة اشهر وبموته ماتت مشروعات عظيمه كان يجتهد في اتمامها وكان المماليك بعد مماته يتشاجرون كالطيور الجارحه عند وقوعها على الجثث الباليه لكي يعيدوا احكام الفوضى والفساد التي قضى عشرون سنه في ازالتها(١) ومحوها وتوفى الناصر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعده الواحد بعد الاخر الا ان تنصيبهم وخلعهم كانا بيد احزاب متضاربه من المماليك الامرآء فكانوا لا يستقرون على حال ولذلك كانت مدة حكمهم قصيرة كما ترى

وكان اولاد الناصر كلهم قاصرون عند وفاة ابيهم الا واحد منهم وهو ارشدهم الامير سيف الدين ابو بكر فسمح الامرآء بمبايعته فاعتلى عرش ابيه ولقب بالملك المنصور ولكن بعد اربعين يوما من حكمه عزله الامرآء المماليك ونفوه الى قوص في مصر العليا وظل هناك حتى توفي سنة ٧٤٢ هـ وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء أبيه واهانوهن ونهبوا متاعهن .

ثم اخذوا منهن طفلا من اولاد الناصر في السادسه من عمره اسمه علاء الدين قوجوق فبايعوه عليهم سلطانا بهزء وسخريه ولقبوه بالملك

(١) كان الناصر قبل وفاته يسيء الظن في كل واحد من الامرآء والكتاب والمورخون المعاصرون له يؤكدون انه سم على الاقل مائة وخمسين شخصا واستولى على اموالهم وذلك لاعتقاده انهم يتآمرون على قتله

الاشرف . وبعد خمسة اشهر خلعوه وسجنوه في القلعه حتى توفى فيها .

وهكذا تعاقبت اولاد الناصر الثمانيه عرش الملك بالاسم فقط مدة تختلف ما بين اربعين يوما وثلاث سنين . ولم يسمح لهم الامرآء بالتمتع بالحريه في حكمهم بل ظلوا يتشاجرون فيما بينهم وتركت حكومة مصر ليد حكامها وموظفيها الدائمين من مسلمين واقباط فكان ذلك احسن فرصة ارتاح فيها الناس وكل الثمانية اولاد خلعوا من الملك ما عدا الرابع منهم الذي دام حكمه اكثر من ثلاث سنوات ثم مات موتا طبيعيا. واما السبعة الباقين فخلعهم المماليك عنوة ونفوا اثنين منهم وطرحوا واحداً فى السجن كما تقدم وسجنوا ثلاثة واليك تفصيل ذلك بالايجاز

بعد ان خلع الاشرف ثاني انجاله وسجن فى القلعه بايعوا اخاه الثالث شهاب الدين احمد بعد ان استقدمه المماليك من الكرك ولقبوه بالملك الناصر (الثاني) وخلعوه فى ١٢ محرم سنة ٧٤٣ هـ ونفوه للكرك ثانيا . وبايعوا الاخ الرابع عماد الدين اسماعيل ولقبوه بالملك الصالح وهذا الذي تقدمت الاشاره اليه بانه بقي ثلاث سنوات فاعاد منصب الوزاره سنة ٧٤٤ هـ الذي كان قد الغاه ابوه وقتل اخاه شهاب الدين احمد سنة ٧٤٥ هـ وهو المنفي فى الكرك وانتهت سلطته بموته فى ٤ ربيع آخر سنة ٧٤٦ بعد ان حكم ثلاث سنوات وشهرين وبضعة ايام. وبايعوا اخاه الخامس زين الدين شعبان . ولقب بالملك الكامل ولكن اعماله كانت ناقصه فكرهته الرعيه وعزل فى جماد الاولى سنة ٧٤٥هـ بعد ان حكم سنه وبضعة

أشهر وبويع اخوه السادس زين الدين حاجي ولقب بالملك الظافر (الثالث) وكان اكثر استبداداً من سلفه فذبح في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ هـ بعد ان حكم سنة وثلاثة اشهر

وبويع بعده اخوه السابع ناصر الدين حسن سنة ١٣٤٧ مسيحيه (سنة ٧٤٨ هـ) ولقب بالملك الناصر (الثالث) فحكم اكثر من ثلاث سنوات ثم خلع وسجن فى القلعه ومما يروي عنه انه كان يسير سير ابيه ويقلده فى الاحكام فلم يحكم تلك المده القصيره الا وداهمه المماليك بالخلع وفى اوائل حكمه سنة ١٣٤٨ مسيحيه اصيبت مصر والبلاد الاروبيه بوباء فتاك نسميه فى بلاد الانكليز (الموت الاسود) وكانت نسبة الوفيات به فى مصر هائلة ومفزعه جداً فكانت افراد العائلات تنقرض عن آخرها ويستولى المماليك ونائب السلطان على مخلفاتها من اموال وعقار وغيرها ويقول المقريزي انه مات فى مصر وحدها خمسة عشر الف نفسا فى يوم واحد ومعدل الوفيات التي حصلت بسبب الكوليرا التي داهمت القطر المصري سنة ١٨٨٣ كان نحو ثلثمائة نفس يوميا فى القاهره . ولم نزل نعتقد حتى الآن بالاختبار ان (الموت الاسود) كان اشد فتكا بالناس من كل الاوبئة التي زارت مصر بعده لان موت الف نفس يوميا فى مدينة واحده وهو متوسط الوفيات كان امرا غريبا وكان البطريرك بطرس الذي اخلف بنيامين سنة ١٣٤٠ مسيحيه قد توفى فى تلك السنة وانتخب الاساقفه بدله مرقص الرابع . وفي ايام حكم احد اولاد الناصر ابن

قلاوون زار مصر يوحنا موند فيل . فكتب في تقريره عن تلك الزياره يقول انه مكث في مصر مدة طويلة وكان السلطان يتحبب له ويوده كثيراً وعزم على تزويجه بابنة احد الامراء اذا اعتنق الدين الاسلامي . وكتب السيد يوحنا هذا كتابات مهمة عن مصر ولكنها كانت ممتزجه ببعض عبارات خرافيه فمن ذلك قوله ان سلطان مصر سافر الى اوربا مع اربعة من اشرافه متنكرين على هيئة تجار وكانوا يتكلمون الفرنساويه جيداً وقال ايضا ان السلطان أخبره بأن الصليبين اضاعوا املاكهم بمصر وسوريا لكثرة شرورهم وخطاياهم وقال له السلطان مرة اننا نعتقد انكم لو كنتم تعبدون الله بايمان لكان الله ساعدكم في فتوحاتكم واذا كانت يد الله معكم لا يقوى أحد على الوقوف امامكم ونحن نعلم جيدا من اخبار نبواتنا وحديثنا الشريف أن المسيحيين سيأخذون هذه الاراضي منا ثانيا (يعني بها مصر) عند ما يعبدون الله بايمان واخلاص .



الفصل الثاني والستون

اطول ازمنة الاضطهاد

سنة ١٣٥١ مسيحيه و١٠٦٧ للشهداء و٧٥٢ للهجره

وخلع الملك الناصر (الثالث) سابع انجال الناصر ابن قلاوون في

غرة رجب سنة ٧٥٢ هـ الموافق ١٣٥١ مسيحيه وسجن في القلعه وبويع
بدله اخوه الثامن صالح صلاح الدين ولقب بالملك الصالح (الثاني) تحت
وصاية وزيره الامير شيخون العمري الذي نسب اليه جامع شيخون في
الصليبه بالقاهره وبقى الصالح ثلاث سنوات وثلاثة اشهر واربعة عشر
يوما على عرش السلطنه المصريه ولم يحدث في عهده شيئا يستحق الذكر

وفي سنة ١٣٥٣ مسيحيه (٧٥٤ هـ) دهم القطر المصري طاعونا
ذريعا وانتشر في انحاء البلاد وكان في القاهره على اشده فمات به بين
المصريين الحاكم بامر الله الملك الصالح لان هولاء السلاطين المسلمين
كانوا دائما يتخذون القاهره مقرا لهم ·

فبويع بدله عمه المعتضد بالله ويظهر انه كان ذو تأثير شديد على
رعيته لان البلاد اضحت بعد موته في اضطراب عظيم وفي اثناء مدة
انتشار الوباء اتي رجل قبطي من الارياف الى القاهره واخذ ينادي
علنا في الطرق محذرا الناس من تماديهم في المفاسد والشرور التي جلبت
على بلادهم الوباء المهلك فقبض عليه في الحال واحضر امام قاضي الاسلام
وبسؤاله قال انه يريد ان يقنع العالم الاسلامي بخطاياه وخطائه في ترك
الديانة المسيحية وعدم اتباعها وانه مستعد أن يموت شهيدا في سبيل
تأييد مبادئه بين المسلمين فامر القاضي بتعذيبه مدة اسبوع وبعدئذ امر
بقطع رأسه وحرق جثته

وبعد هذا الحادث بمدة قليله وقع حادث آخر وهو ان المسلمين

في بلد من بلاد الارياف شكوا احد الاقباط لقاضي البلد بدعوى أن
جد ذلك القبطي كان متبعا الدين الاسلامي فيجب على زعمهم ان اولاده
واحفاده يكونون من المسلمين وليس من النصارى فوافقهم القاضي على
هذه الدعوى وذلك الزعم وامر القبطي ان يعتنق الاسلام في الحال
فرفض الرجل فالقاه في اعماق السجون واصبح لامناص له من التعذيب
والموت ولما كان اقباط ذلك الاقليم الذي وقعت فيه هذه الحادثة كثيرون
ولعلمهم وثقتهم بان حاكم البلد الاداري ميالا لهم شفوقا عليهم · فطمعا
بمحاباته لهم واعتقادهم بتغاضيه عما يفعلون قاموا ليلا الى السجن الذي زج
فيه اخيهم في الايمان واخرجوه عنوة فلما علم المسلمون صباح اليوم الثاني
بما حدث هاجوا وماجوا واسرعوا الى قفل حوانيتهم وهرولوا جميعا
الى القاضي يتذمرون من عدم تنفيذ اغراضهم وتطرف جماعة الاوباش
فقصدوا القبض على الحاكم وقتله فاستدعي حرسه فحضر منهم عدد كبير
وحملوه على اكتافهم وهربوا به خارج المدينة وظل تحت رحمة رعاع بلده
الذين قبضوا بعد ذلك على كل قبطي في البلد لم يمكنه الهروب مع اخوانه
وعذبوهم عذابا اليما ثم هجموا على الكنيسة بتوحش وفظاظه وحرقوا
صلبانها وايقوناتها واخذوا حجارتها فبنوا بها جامعا امام النقطه التي
كانت قائمة فيها الكنيسة · وبعدئذ صوبوا سهام تعصبهم الوحشي الى
قبور الاقباط فنبشوها واستخرجوا منها جثث الموتي وحرقوها ·
ووقفت حركة الاعمال واصبحت المدينه في غاية الفوضى والارتباك

فكتب حاكم المدينة الى الخليفه في القاهره يشكو من تصرف قاضي البلدة واعماله المهيجة ضد الاقباط الامر الذي كان سببا في ضياع خمسمايه الف درهم من مال الحكومة على الاقل وكان الاقباط من الجهة الاخرى قد رفعوا شكواهم للامير حسام بالقاهرة مما حصل لهم من قاضي الاسلام وطلبوا اعادة بنا كنيستهم. فاستقدمت الحكومة الحاكم والقاضي الى القاهرة وحققت معهما الحادثة امام اربعة من حكام القاهرة والوزير وكثير من كبار رؤساء الحكومة . واسفرت النتيجه عن توبيخ القاضي الشرعي في المدينة التي حدثت فيها هذه الحادثة ولكن الاربعة حكام الذين حضروا المحكمة كانوا من حزب القاضي ومن المعادين للاقباط ولو أن الامير حسام وامير الوجه البحري قد دافعا دفاعا شديداً عن حاكم البلد الذي تعرض لحماية الاقباط الا انهما وقفا على الحياد لان نائب الملك الأمير شيخون كان تحت سلطة حاكم الدين شيخ جامعه الذي الهب نار الغضب في قلوب اعضاء تلك (المحكمة) التي عقدت لمقاضاة القاضي الشرعي بخطبة القاها على مسامعهم باللغة التركيه أوضح فيها انه مهما كانت ظروف تلك الحادثة فانه لا يصح الانتصار لمسيحي ضد مسلم وفي ختامها أخذ يوبخ الامير حسام قائلا انه اضاع حقوق الجامعة الاخويه الاسلامية بتعرضه للدفاع عن الاقباط وأن هذا العمل يعتبر كفر والحاد وأخيراً عقدت لجنة تحكيم من الحاضرين واقرت بعزل حاكم وقاضي مدينة (نهريريا) التي حدثت فيها هذه الواقعة وعدم التعويض على الاقباط

في خسارة كنيستهم وفي الحقيقة ان المسلمين كانوا يغيرون غيرة مره من الاقباط لارتفاع شأنهم وقتئذ وتقدمهم في العلوم والمعارف واتساع ثروتهم فلم يسع المسلمون كتمان حقدهم وعوامل غيرتهم من ذلك التفضيل بل انفجر الحقد من صدورهم كالبراكين وحدث اضطهاد عظيم ضد الاقباط

ذكرنا في الفصل السابق أن ناصر ابن قلاوون كان في اثناء العشرين سنة الاخيرة من حكمه يميل للاقباط ويظهر لهم الموده وظلوا متمتعين بتلك المزيه حتى في نفس زمن حكم البلاد الاهلي حيث كانت قد سقطت مصر في ايدي المماليك الجهلاء الذين ارادوا أن يحكموها بانفسهم فاوصلوها الى حالة الارتباك والاضطراب الذي لا يرجى بعده اصلاح وفي ذلك الوقت اسلم كثيرون من الاقباط واخصهم اثنان بعد اعتناقهما الدين الاسلامي ترقيا حتى وصلا الى درجة الوزاره فاوجدا اضطرابا في حكومة البلاد بكثرة مشاجراتهم . الا أن معظم الاقباط ظلوا ثابتين في معتقدهم المسيحي وهولاء ارتكانا على وظائفهم الرسمية قد تجاسروا على أحتقار وازدرا القوانين التي تصدر ضدهم وصاروا يساوون انفسهم بالمسلمين في شؤون الاجتماع وسريان القوانين والامتيازات أن لم يميزوا انفسهم عنهم فصار المسلمون ينظرون اليهم بعين ملؤها الغيظ والحنق سيما لما يرونه من تقدمهم الادبي والمادي. وكثيرون من الاقباط الذين كانوا من المسيحيين فقط بالاسم سلكوا طريقاً رديا في الغطرسة والسلب والطمع ومن ذلك يتضح أن الداعي لقيام المسلمين عليهم واضطهادهم هو طموحهم لمساواة

انفسهم بالمسلمين فكان ذلك اعظم ذنب لهم في اعين المسلمين

ويقول المؤرخ المسلم العظيم وقد نتج من ذلك أن انفجرت نار الحقد من قلوب المسلمين فاتفق أن سكرتيراً مسيحياً مر امام جامع الازهر بالقاهرة راكبا جواده ولابسا شرائط أو عقالا ابيض على رأسه وامامه السياس يطردون الناس من امامه ويوسعون الطريق ويمنعون الزحام ومن ورائه عدد كبير من العبيد يلبسون الحلل الثمينه ويركبون الجياد المطهمة

فلما رآه المسلمون على هذه الابهه أخذتهم الغيرة والحنق الشديد فوثبوا عليه كما يثب الاسد على فريسته وانزلوه عن ظهر جواده واوسعوه ضربا حتى كاد يموت فالتف حوله خلق عظيم وتعرض بعضهم لحمايته وتمكنوا من انقاذه من بين ايدي هولاء الوحوش بعد تعب عظيم ثم تقابل جمع عظيم بالامير طاز واخبروه بما كان وتحادثوا معه بشأن الاقباط فوعدهم بان يعدل بينهم وبين هولاء المسيحيين فلم يكتفوا بذلك بل كتبوا مذكره طويله ورفعوها للسلطان الملك الصالح وطلبوا ان تقرأ على ألاقباط امام الملك بحضور الامرأ المماليك والقضاة الشرعيين وباقي رجال الحكومة . واهم ما في تلك المذكره الشكوى من سير الاقباط وتطرفهم في الحريه فعقدت جلسة لهذا الغرض وصدر الامر في الحال باستدعا بطريرك الاقباط ورؤسا دينهم وحاخام باشي اليهود وشيوخهم والامرأ والقضاة المسلمون للمثول بين يدي السلطان فلما حضروا جميعا قام

القاضي علاء الدين على ابن فضل الله وقرأ شروط معاهدة بين المسلمين والاقباط وبعد أن فرغ من قرأتها وافق الجميع على شروطها وصدقوا عليها وتلا القاضي على الحاضرين كل الفعال التي اتاها الاقباط ضد ارادة المسلمين ولذا تقرر قطع علاقتهم ببلاط السلطان ودوائر الحكومة وحرمانهم قطعياً من الاستخدام بدوائر الامرآء ولو اعتنقوا الدين الاسلامي ولا يجبر احد منهم على اعتناق الاسلام . وكتبت صورة ذلك القرار لكل حكام الاقاليم

وكانت نتيجة ذلك القرار ان ابتدأ المسلمون بالتسلط على الاقباط البؤسأ وصاروا يتعقبون خطواتهم ويتعرضون لهم في الشوارع ويمزقون لباسهم ويضربونهم بقساوة شديدة وبلغ تماديهم في القساوه والاضطهاد ان صاروا يلقون عليهم النار المشتعلة فاضطر الاقباط المساكين أن يختبئوا في منازلهم . ولما آنس عامة القوم من المسلمين انه لا حرج عليهم في نكاية الاقباط واصبح اضطهادهم عاماً مألوفا لم يتأخر اولئك الاوباش من اتباع نصائح محرضيهم فاخذوا يهدمون كل بيوت الاقباط الكائنة امام بيوت المسلمين فسأت حال الاقباط جداً واصبحوا في حالة يرثى لها وظلوا زمناً طويلا لا يظهرون في الطرق ولم يعد ينظر احد منهم أو من اليهود في الشوارع كأنهم انقرضوا جميعا

ولم يقتنع المسلمون بما اتوه من اذلال الاقباط بالطرق المتقدمه بل قدموا أيضا مذكره لدار العدلية (نظارة الحقانيه) في يوم الاثنين

الموافق ١٤ رجب سنة ٧٥٥ هجريه ادعوا فيها أن الاقباط عادوا الى الحياة من جديد وابتدأوا باعادة بناء كنائسهم المهدومه وتكبير حجمها واجتمع وراء المقدمين لتلك المذكره خلق كثير من المسلمين في القلعه تحت سراي السلطان واخذوا يتضرعون اليه بان ينصرهم على النصارى . فامر السلطان الملك الصالح الامير علاء الدين علي ابن الكوراني والي القاهره ليركب مع الحجاب ويتوجه لتحقيق الامر . ولكن لم ينتظر القوم خروج الوالي بل اسرعوا وسبقوه فهدموا كنيسة امام جسر الاسود وكنيسة في شارع المعصره في مصر العتيقه وكنيسة الفهادين داخل حدود القاهره ودير نهيا في الجيزه وكنيسة بجهه بولاق الدكرور ونهبوا مقتنيات كل الكنائس التي هدموها واخذوا كل ما فيها من الاموال والاواني الفضيه والذهبيه ولم يتركوا شيئا فيها حتي الخشب الدقيق الصنعه وبلاط الرخام المرمر الجميل ثم هجموا على باقي كنائس مصر وكانوا على وشك هدم كنيسة البندقيين في القاهره . ولما ركب الوالي وسار بينهم وحاول أن يمنعهم عن هدمها ويخرجهم منها اخذوا يزيدون قحة ورعونة وحدة وتهورا ورفضوا الرضوخ لامر الوالي

وبعدئذ كتب الملك الصالح قرارا ارسل لكل اقاليم القطر المصري وبلاد سوريا بعدم استخدام النصارى واليهود في دوائر الحكومه حتى ولو اعتنقوا الاسلام . ولكن من يعتنق الاسلام لا يسمح له بالرجوع الى بيته أو الى حضن عائلته الا اذا اعتنق ايضا افراد تلك العائلة الدين الاسلامي

واذا اعتنق اي مسيحي الاسلام يكلف جبراً بتأدية فرض الخمسة صلوات يوميا وحفلة ايام الجمع في المساجد وباقي اماكن العباده الاسلامية . واذا مات مسيحي فيتعهد المسلمون بتقسيم تركته على وارثيه اذا كان له ورثة والا تضاف امواله وممتلكاته الى خزينة الحكومة والزموا البطريرك التصديق على ذلك وتلي هذا المنشور علنا في قصر السلطان وفي يوم الجمعه — ١٦ جماد الثاني قرئ أيضا في احتفال عظيم

وآخر شهر رجب هدموا كنيسة شبرا واخذوا منها اصابع احد الشهداء كان محفوظاً في صندوق صغير واحضروه الى الملك الصالح فامر بحرقه امامه على قلعة الجبل وذر رماده في النهر لكي لا يأخذه النصارى

وفي ذلك الوقت جاءت الاخبار تترى بان كثيرين من اقباط الصعيد (الوجه القبلي) والشواطي البحريه (في الوجه البحرى) اعتنقوا الديانه الاسلاميه وهم قائمون بدراسة القرآن وأن اغلب الكنائس المسيحيه قد هدمت وبنيت مكانها الجوامع الاسلاميه وأنه قد اسلم من بلدة قليوب وحدها اكثر من اربعمائة وخمسون قبطيا في يوم واحد . وفي اثناء ذلك كان قد مهد مزارعو البلاد الاقباط السبيل لانفسهم بطرق ووسائط عديده لاستخدامهم في الدوائر الرسميه ودواوين الحكومة واخذوا يتزاوجون مع المسلمين كي يتمموا رغائبهم باختلاط الاجناس ولذا فان اغلب سكان القطر المصري الآن هم ذرية ذلك الخليط الجنسي من الاقباط والمسلمين .

ورفع المسلمون الى الملك الصالح تقارير مفصله بعد ذلك بما للنصارى
من الاملاك الموقوفه للاديره فاحال السلطان تلك التقارير على ديوان
الاحباس الذي بعد أن اجرى احصاء دقيقا عن كل الاراضي وجد اوقافا
تحت ادارة الكنيسه القبطيه تبلغ نحو ١٠٢٥ فدانا وبعض المؤرخين يقول
٢٥ الف فدان كلها موقوفه للكنائس والاديره ومن الاطيان الجيده
فعرضها الملك الصالح على الامير شيخون والامير صرغتمش والامير طاز
الذين كان في يدهم تدبير الدوله فانعموا بها على الامراء زيادة على اقطاعاتهم
وفي اثناء ذلك الاضطهاد القوا القبض على البطريرك مرقص في
السجن وعذبوه عذابا شديداً. فعلم بذلك ملك النوبيا المسيحي فالقى القبض
على كل التجار المسلمين في مملكته ورهنهم اسرى حتى يطلق سراح البطريرك
فالتزم المسلمون في مصر ان يتركوا البطريرك دون أن يضروه عند سماعهم
ذلك الخبر

وفي منتصف زمن ذلك الاضطهاد كان بين المرشحين للوزاره
وزيران قبطيان مرتدان وعند اسلامهما دعيا انفسهما موافق الدين وعلم
الدين فتنازعا الوزاره وانضمت الى كل منهما احزاب ونشاء هذا النزاع
بسبب دسيسة من شقيق الملك الصالح ناصر الدين حسن الذي كان
مسجونا طمعا في خلعه واعتلاء عرش ابيه مكانه وكان الساعد الاكبر
لناصر الدين في غرس بذور هذه الدسيسه الامير تاج الدين بعد أن
اتفق معه الناصر على توليته الوزاره مكافأة له اذا نجح في ذلك واخذ العرش

من اخيه فنجح الامير تاج الدين في دسيسته وانتهى الامر بخلع الملك
الصالح في ٢٢ شوال سنة ٧٥٥ هـ وفاز الناصر بمراده اذ بعد أن خلع اخوه
أخرج من السجن وبويع بدله وبقي على العرش المصري ست سنوات
وسبعة اشهر وبضعة ايام وعند اعتلائه العرش ولي الامير تاج الدين
الوزاره مكافأة له كما وعده وبعد ذلك قتله الامراء بمكيدة دبروها بالاتفاق
مع ابن اخيه البالغ من العمر ١٤ سنة وكان قتله في ٩ جمادي الاول سنة
٧٦٢ هـ الموافق ١٣٦١ مسيحية

ومن آثاره الباقيه للآن جامعه المشهور في القاهرة المعروف بجامع
السلطان حسن امام قلعة الجبل وهو من اجمل مساجد القاهرة واتقنها
بناه الملك الناصر في ثلاث سنوات ويقول المؤرخون انه كان ينفق عليه
حوالي ستماية جنيه يوميا وقيل انه اتى بحجارته الكبيرة من انقاض
الاهرام وعليه نقوش وكتابات كوفيه وعربيه زادته جمالا

ولما قتل السلطان حسن بويع مكانه ذلك الشاب ابن اخيه الذي
تآمر على قتله وكان يدعى محمد ابن الملك المظفر حاجي ولقب بالملك المنصور
بعد مبايعته وظل حاكما بالاسم فقط وكان ذلك من صالح المماليك لانهم
رأوا أن هذه احسن وسيلة تمكنهم من التسلط على البلاد وبعد سنتين من
حكمه أي في منتصف شعبان سنة ٧٦٤ هـ خلعه الامراء اكراما لابن عمه
وهو شاب من عائلة قلاوون اسمه شعبان ابن حسن عمره عشر سنوات
فبويع ولقب بالملك الاشرف (الثالث) . وظل على العرش حتى بلغ

وطأة من المجاعة وذلك أنه سطت عصابة على يلبغا العمري نائب السلطان بتدبير الامراء المماليك فقتله حراسه في قصره وقطعوه اربا وهموا يريدون قتل السلطان ايضا فردهم بعد حرب هائلة قتل فيها زعيمهم فولي امير اخر اسمه الجاي اليوسفي بوظيفة نائب السلطان وكان هذا النائب الجديد طماعا محبا للشهرة والفخفخه فتقرب من السلطان الشاب وتزوج بوالدته فنال منها ثروة عظيمة فقويت شوكته وكثرت اعوانه وطمع في السلطه فقتل زوجته المذكورة وتواطأ مع قاتلي سلفه على قتل السلطان الملك الاشرف ولكنه لما كان مماليكه من المخلصين له فقد التفوا حوله ودافعوا عنه وانقذوه من قاتليه بعد أن قتلوا رئيس المؤامره ونجي السلطان هذه المره ايضا من يد اعدائه بعد أن قتل مماليكه كثيرين منهم واقتفوا اثر من بقي منهم حتى اغرقوهم في النيل . ولما كان في ذلك الحين في عنفوان شبابه وكفؤا لحكم بلاده حكماً فعلياً بإرادته وآنس منه الامراء ميلا لحفظ حقوقه الشرعية المهضومه وحصر السلطه في شخصه لتنفيذ رغائبه الاصلاحية تذمروا عليه واضمروا له السؤ فدبروا له عدة مكائد ودسائس ولكنها لم تفلح واخيرا اخلى لهم الجو وترك لهم البلاد يعملون فيها ما يريدون وقصد الحج في مكة المكرمة ولكنهم لم يطمئنوا تماما فكمنوا له في مضيق العقبة عند عودته بعد زيارته الحرمين فقتلوا حاشيته اما هو فلم يقفوا له على اثر فظنوا انه قتل مع من قتلوا من حاشيته فعادوا الى القاهرة وعرضوا العرش المصري على الخليفة المتوكل بالله الذي

تولى الخلافه بعد المعتضد بالله سنة ٧٦٣هـ وفوضوا اليه مبايعة من يشاء . لان الخلفاء بعد أن فروا من سوريا واتخذوا القاهرة مقراً لهم قبل ذلك الحين بمائة سنة كانت لهم منذ مهاجرتهم سلطة روحية دينية محترمة نافذة المفعول على العالم الاسلامي كله ولو انها ليست مؤثرة اداريا . ولما رأى المتوكل ذلك حاذر كثيراً من المخاطره بمركزه اذا سلم بمطالب الامراء فكتب اليهم يقول (اختاروا من بينكم من تشاؤن وانا اصادق على ذلك) وفي هذا الوقت علم الامراء أن السلطان الاشرف الذي افتكروا انه مات رجع للقاهرة وكان مختبئاً بمنزل احد اصحابه فاسرعوا في الحال وهجموا على ذلك البيت وخنقوا الاشرف قبل أن يغيثه احد أو ينقذه من ايديهم وكان ذلك في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ هـ

وبايعوا بدله ابنه الصغير علاء الدين علي وكان عمره وقتئذ ٧ سنوات وكانت حداثته الشفيع الوحيد لاعتلائه العرش ففرح بالعرش لحداثته ولم يدر انه مدفنه ولقبوه بالملك المنصور السادس وعينوا له وصياً يدعى الامير لاين بك ثم ابدلوه بالامير قرطاى واخيراً قبض الامير برقوق على هذا المركز العظيم وحفظه لنفسه لان هذه الوظيفة غاية ما كانت ترمي اليه مقاصده وما تتطلع اليه نفسه

وكان والد برقوق صبي من المسيحيين (المماليك) اشتراه تجار الرقيق من بلاد الشركس ليبيعوه في اسواق مصر فاشتراه الامير يلبغا سنة ١٣٦٤ مسيحيه والزمه بترك الديانة المسيحيه واعتناق الدين الاسلامي

كما هي العادة في معاملة باقي المماليك وكان له ابن يدعى برقوق ادهش
الامير يلبغا بجماله وذكائه ونشاطه فارسله لدار التعليم المصريه فبرع في
الفقه وسائر العلوم الاسلاميه فرقاه الى درجة أمير وكان برقوق عند
قتل سيد والده الامير يلبغا ذو كفاءة وامتياز بمهارته وحذاقته بين كل
مماليك يلبغا فزجه قاتلو يلبغا في السجن مع اخص اصحابه المدعو بركه
بعدان شتت باقي حرس يلبغا . فتوصل برقوق بعدئذ بمهارته أن يخلص
نفسه من قيود السجن فهرب منه وخدم عند منجك حاكم دمشق حتى
استدعاه ثانيا الملك الاشرف الى مصر قبل قتله وعينه قائد فرقةمن المماليك
وبعد قتل السلطان الملك الاشرف ظل برقوق يخدم ابن الاشرف علاء
الدين الطفل بامانة واخلاص لما اسداه اليه والده من المعروف وظل
بوظيفة نائب ووصي للسلطان الطفل لان هذه كانت اجل رغائبه
كما تقدم

وكانت ماجريات الاحوال في النوبة (السودان) من زمن سائرة
من ردئ الى اردأ لكثرة تداخل سلاطين مصر في امورها وعدم اتفاقهم
مع امرائهم في مصر وكثرة تقاطعهم فانهم كانوا دائما يتفقون ويتكاتفون
معاً لبذر بزور الحروب الاهليه وانتشار تجارة الرقيق في السودان

وحدث ان احد ملوك النوبه الصالحين الذي صرف اغلب مدة حكمه
في محاربة مزاحميه في الملك ومدعي العرش تمكن بمساعدة حكومة مصر
وتعضيدها فعقد اتحالفا مع قبيلة عظيمه تعرف بقبيلة اولاد كنز وتعاهدوا

مع اشراف قبيلة نوبيه اخرى عظيمة البأس واشهرت القبيلتان معاً حرباً
ضد جميع المسلمين وقطعوا كل الطريق ما بين اصوان وسواكن فقام يلبغا
نائب السلطان من مصر يقود حمله عظيمه من المسلمين قاصداً السودان
لقهر اوليك القوم متظاهراً بالمودة الى الملك الحاكم في النوبه فتمكنوا
بهذه الخدعه أن انقضوا عليهم فجأة وقامت معركه هائله انجلت عن هلاك
قبيلة اولاد كنز عن اخرها وخراب مدينة دنقلا فلم يبق من سكانها
أحد على قيد الحياه على ان الفظائع القاسيه الوحشيه التي اتاها المماليك
في حملتهم هذه هيجت الدم في عروق سكان اقليم اصوان فاحدثوا ثورة
هائلة اخمدها المماليك بهذه الطريقه الوحشيه البربريه أيضاً

ولما كان برقوق بوظيفة نائب السلطان علي بن شعبان الطفل كان
حاكم اصوان أميراً جباراً عاتياً فاق بقساوته ووحشيته عن كل امثاله
من المسلمين خصوصا في معاملة من يقع تحت يده من افراد قبيلة اولاد
كنز فانه كان يمثل به اشنع تمثيل . وارسل للسلطان الطفل اثني عشر رأسا
من رؤوس هولاء المقتولين بعد تعذيبهم ومائتي اسير احيا من جهة الكنوز
مكبلين بالسلاسل بصفة هديه وبما أن الضغط والمقاومه يظهر ان القوة الكامنه
كما هو الناموس الطبيعي الذي لا مرد له لم يستطع اولاد كنز السكوت على
تلك الفظائع البربريه فقاموا اخيراً دفعة واحده ضد الامير حاكم أصوان
ونزلوا على مدينة أصوان يسلبون وينهبون ما فيها وتسلطوا على كل اقليم
أصوان ودام نفوذهم عدة سنوات كان فيها هذا الاقليم كأنه ليس من

اقاليم المملكه المصريه .

ولكن قبل قيام أولاد كنز لهذا الغزو كان السلطان الطفل قدتوفى في ربيع أول سنة ٧٨٣ هبعد أن حكم أربع سنوات واربعة اشهر خدمه في خلالها الامير برقوق اصدق خدمه . وبويع بدله أخبه زين الدين حاجي وكان عمره ست سنوات ولقب بالملك الصالح (الثالث) وبقي على الاريكه المصريه نحو سنتين ويقول بعض المؤرخين سنة ونصف فقط ثم سئم برقوق من أخفاء مقاصده وطمعه في الملك فخلعه ونفاه في ٢٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ واستلم مقاليدالمملكه المصريه رسميا بدله في سنة ١٣٨٢ مسيحيه (٧٨٤ هـ) برضى الامرأ والخليفه المتوكل بالله والوزراء والعلماء

وكان الصالح الثالث آخر من حكم من مصر سلالة قلاوون رأس دولة المماليك الاولى المسماة بالبحرية او التركمانيه حيث حكمت مصر نحو ماية سنة وثلاثين سنة كان اولها امرأة وآخرها صبي وقامت بعدها دولة المماليك الثانيه المعروفه بالمماليك الشراكسه التي ابتدأ حكمها برقوق كما سيجيء في الفصل التالي وجلس برقوق على العرش المصري ولقب بالملك الظاهر وفي ابتدأ حكمه سمع بمجيء تيمورلنك الفاتح التتري الشهير على حدود سوريا لاجل افتتاحها فحشد جيشا عظيماً من مصر وسافر الى سوريا فاوقف تيمورلنك عند حده ولم يكد يرجع بعد نصرته الى مصر وكان قد قضى نحو ثلاث سنوات على عرشها حتى ظهر له عدو داخلي يزعزع اركان ذلك العرش اذ علم أن الخليفة المتوكل بالله كان يدعو الامراء ويدس

الدسائس لخلعه فاتفق برقوق مع المشايخ والائمه والعلماء على خلع ذلك الخليفة فخلعه وسجن في القلعة سنة ٧٧٨ هـ واعلن العالم الاسلامي بخلعه فبايعوا شخصا آخر اسمه عمر اخا ابراهيم ولقب بالواثق بالله فلم يعش الا سنة ثم توفي سنة ٧٧٨ هـ فنصب برقوق بدله ابا يحيي ذكريا عمر ابن الخليفه المستنصر بالله ولكنه لم ينل الحظوى في عيني برقوق فخلعه في جماد اول سنة ٧٩١ هـ اكراما لخاطر المتوكل ثم ندم برقوق على خلعه فاخرجوه من السجن واراد اعادته الى الخلافه ورد شرفه اليه ولكن المتوكل لم يسامح برقوق على خلعه من الخلافه ولم ينس هذه الاساءة فلم يقبل بدعوته الى الخلافة . فتواطأ مع مناطش احد الامراء على خلع برقوق فخلعاه بموافقة بقية الامراء ومستشاري الدوله بعد أن حكم ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام ثم سجنوه في قلعة الكرك

وفي ٦ جماد آخر سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ مسيحية) استقدموا السلطان حاجي آخر رجال المماليك البحريه الذي كان قد خلعه برقوق وبايعوه وابدلوا اسمه بالملك المنصور بدل الملك الصالح ولكن لم يتمتع بارتقاء العرش للمرة الثانية الا ثمانية اشهر فقط وحدث من الامور الغريبة في اثناء هذه المدة القصيرة بمدينة القاهرة ما يستحق النشر في بطون التاريخ عن نهاية حكم دولة المماليك اليحرية في مصر

وتحرير الخبر انه كان قدمضى في ذلك الحين نحو ستة وثلاثين سنة من عهد قيام الاضطهاد الشديدضد الاقباط الذي اضطر عدداً عظيماً الى

أن يتركوا ديانتهم المسيحية وقل عدد الثابتين في ايمانهم وكانت في ذلك الحين تحدث ثورات منشاؤها التعصب ضد الاقباط ومع أن الحكومة كانت وقتئذ تحذر من وقوع هذا التعصب وتقاومه فان مضايقة الاقباط من السلمين كانت دائمة مستمرة

ويبعد عن الظن بان الاقباط الذين اسلموا في سنة ١٣٥٥ مسيحيه كانت لهم يد في تحريك هذه الثورة ضد اخوانهم الاصليين سنة ١٣٨٦ لان عدداً كثيراً من هولاء المرتدين كانوا تحت نير وضغط المسلمين كباقي الاقباط المسيحيين

ولم يذكر التاريخ أن المسلمين اظهروا سرورهم ورضائهم من هولاء الاقباط المرتدين الا واحد منهم وهو (الجاحد) ميخائيل شعبان فان هذا الرجل كتب المسلمون كثيرا عن مركزه الاداري السامي الذي ارتقى اليه بعد ارتداده بثلاث سنوات . ولما اعلن اسلامه طار المسلمون به فرحا والبسوه حلة ثمينه واركبوه بغلا من بغال السلطان وداروا به في موكب عظيم حول المدينه ثم كافأوه بذلك المركز الخطير السامي في الحكومة

ومن عهد جلوس البطريرك متي على الكرسي المرقسي سنة ١٣٧٥ مسيحيه ظهر الشعور الديني والحماس الوطني بين الاقباط ورجع كثير من المرتدين الى ديانتهم المسيحيه الاصليه

وفي سنة ١٣٨٩ مسيحية دخل القاهره جمع عظيم من الرجال والنساء وصاروا يصيحون باعلا صوتهم قائلين (نحن نصارى نحن نصارى)

وانهم تركوا ديانة الانبياء الكذبة وانهم لم يتركوا دينهم الاصلي الا خوفا من اضطهادهم . وكان غرضهم من هذا الاعتراف العلني أن يكفروا عن خطاياهم السابقه ويتطوعوا للاستشهاد

فاحتاط بهم المسلمون وحاولوا ارجاعهم الى الاسلام ولكن ذهب سعيهم سدى وصاحوا جميعا بصوت واحد قائلين قد اتينا الى هنا لنكفر عن خطايانا ونقدم ارواحنا لتكون قربانا على مذبح فادينا يسوع المسيح فتنال منه المغفرة

فلما أعيت المسلمين الحيلة قصدوا ارهابهم بالتعذيب فابتدأوا بتعذيب الرجال [illegible]فوا الكثيرين كقطيع الغنم الى الميدان العظيم تحت نوافذ مدرسة الصالح وابتدأوا بقطع رؤوسهم الواحد بعد الآخر . فلم يؤثر ذلك المنظر الفظيع على ثبات النساء في عزمهن وابدين الاصرار حتى الموت فامر احد القضاة الحاضرين احد الحراس أن يسوقوا النسوة بلا امهال الى سفح الجبل تحت القلعه ويقطعوا رؤوسهن . فنفذ هذا الامر على ان الكثيرين من الناس حتى من المسلمين انفسهم لاموا ذلك القاضي على اعدام اولئك النسوة البائسات

ولم يقتصر ذلك الاضطهاد الفظيع على اقباط القاهرة فقط بل تناول ايضا الخارجين عنها . اذ أنه بعد تلك المذبحه العظيمه ببضعة ايام قبضوا على راهب وصاحبه وثلاثة نساء وقطعوا رؤوسهم وحرقوهم وكان ذنب الاول وعظه ضد الدين الاسلامي والثانيين لوقوفهم امامه وتشجيعه لينال

نخر الاستشهاد . وفي آخر تلك السنه المشؤومه قبض المسلمون على بطريرك الاقباط وحاخام اليهود والقوهما في السجن وفرضوا على البطريرك فدية مايئة الف درهم والحاخام خمسين الف . الا ان قساوة الامير منطش والخليفة المتوكل اللذان كان في يدهما القوة والسيطره على السلطان الشاب لم تكن قاصره على الاقباط فقط بل على جميع المصريين فادي ذلك الى تذكر الناس أحكام برقوق العادله . فلم تمض سنة عليه في سجنه حتى أستقدموه باجماع الاراء .

فعاد وتربع على عرش الدولة المصريه في ٤ صفر سنة ٧٩٢ هـ وتعلم برقوق هذه المره ان يستأثر بالملك وكان اول عمله مذبحة عموميه حيث بادر حالا الى الملك المنصور وقتله هو وكل من كان على دعوته من أحزابه تخلصا من دسائسهم . ثم اصلح خارجية البلاد ووطد الامن في انحاءها ولعدم ثقته بمقاصد احزاب الخلفا تداخل بينهم واخذ يسير غورهم ويفرق بينهم حتى لا يتحدوا على خلعه



الفصل الثالث والستون

المماليك الشراكسه

سنة ١٣٩٠ مسيحيه و١١٠٦ للشهدا و٧٩٢ هـ

جلس الملك الظاهر برقوق اول سلاطين دولة المماليك الشراكسه

للمره الثانية على العرش المصري سنة ١٣٩٠ و٧٩٢ هـ وظل هذه المره عشر سنوات وفي سنة ٧٩٤ هـ اهداه قرا يوسف امير الدوله الماديه مدينة تبريز فرد له برقوق هذا الجميل بهدية ثمينه وفوضه بفتح ما يستطيع من البلدن على شرط ان يكون واليا عليها ولكنه اتى بعد ذلك بسنة دون ان يفتح شيئا ومعه احداعوانه فارين الى القاهرة من وجه تيمورلنك لانه ظهر في ذلك الوقت قائدان عظيمان مسلمان كانا يجاهدان في اوربا واسيا لينالا السيادة في هاتين القارتين . وكان احدهما تيمورلنك القائد التتري الشهير والثاني بايزيد ابن مراد رابع سلاطين عائلة الدولة العثمانية التركيه الظافره وهي التي كان قد قارب وقتئذ صبحها البزوغ وسميت بالعثمانيه نسبة لاول سلاطينها عثمان الملقب بالغازي لانه غزا آيالات المملكه الرومانيه الشرقيه . وقبل مجي قرا يوسف وصاحبه الى القاهره كانا قد طلبا من عمانوئيل أمبراطور القسطنطينية وقتئذ ان يؤمنهما لخاف منهما لانه كان في ريب من نجاته من يد بايزيد الفاتح التركي العظيم لانه تهدد القسطنطينية بدخولها واوشك ان يكون الحاكم المطلق في العالم الشرقي كله لو لم يفاجئه القائد التتري بجيشه من الوزراء فاوقفه عن مقاصده واصبحت اسيا ترتعد بين يدى فاتحين عظيمين شديدي البأس فلما تلاطمت امواج قوتهما هناك اهتزت لها افريقيا واضطربت مصر من قوة دوي تلاطمهما

وبعث كل منهما وفداً الى سلطان مصر وكانت مطالب الوفدين من

برقوق تختلف عن بعضها اذ طلب وفد تيمورلنك الى برقوق بخشونة
وفظاظة ان يخضع له فى الحال وأن يسلم له قرا يوسف وصاحبه احمد
ابن عويس الملتجئان اليه اما وفد بايزيد فطلب الى برقوق أن يتعاهد
معهم سلميا . وأن يقرهم الخليفه رسميا على سلطنة الاناضول

فطيب برقوق خاطر وفد تيمورلنك ولاطفهم فازدادوا فجورا فامر
بقتلهم . واجاب طلبات وفد بايزيد وعقد المحالفه معه

فشق على تيمورلنك قتل سفرائه لانشغاله وقتئذ في تجريد حملة
مهمة لفتح الهند مما اخره عن الانتقام لهم ويقول بعض المؤرخين أنه
ساق جيشه للانتقام من مصر فمر بالرها وحلب وفتحها في طريقه لكنه
قبل وصوله الى حدود مصر توقف لغرض في نفسه لاجل تمهيد افتتاح
مصر بطريقه اخرى

على أن برقوق كان دائما متيقظا نخاف عاقبة قتل سفراء تيمورلنك
فحصن البلاد واكثر من الجند والسلاح واستعد للهجوم والدفاع وتأهب
لمجيء العدو وكان يتحين الفرص لاصلاح حال مملكته فنظم الحكومة بكيفية
دات على مقدرته في تكوين الحكومات المنظمه على طرق امتن من
حكومة القوات الاستبداديه التي حكم بها مصر رجال دولتى المماليك
البحريه والشركسيه

وقلل ضرائب الحبوب والغى ديوان العوائد التى كانت تؤخذ على
الاثمار والفواكه الوارده بميناء بولاق الدكرور وكان يهب المساعدات للعلم

والعلماء المسلمين ويجعلهم تحت رعايته ويتصدق كثيراً على الفقراء
وبنى مدرسة كلية دعاها المدرسة الظاهريه نسبة له ومدينة القاهرة
مديونة له بأثرين من آثارها العظيمة اولهما جامع يعرف الى الان بجامع
السلطان برقوق وكان قد بناه ليجعله قبر ابنته وهو بجوار جامع الملك
الناصر في شارع النحاسين . وثانيهما مقام لعائلته في النقطة المعروفة بقبور
الخلفاء وكان بين مشاهير رجال العلم والادب في ايامه المؤرخ المعروف
بتميق كتاباته التاريخية الحقيقية وهو اشهر مؤرخي الاسلام على الاطلاق
المعروف باسم المقريزي وكان هذا المؤرخ من سلالة العرب الاصلية وقد
صرف اغلب اوقاته في الدرس والمطالعة في احوال شؤون جميع الامم
فتضلع من علم التاريخ وكان لمصر الحظ الاوفر من كتاباته حيث وصف
احوالها وصفاً وافياً

ولد هذا المؤرخ العظيم في مدينة القاهرة سنة ١٣٦٤ مسيحية
وكانت محبته وميله الطبيعي الى طلب العلم السبب الاكبر في انتصاره على
صعوبة البحث في المواضيع التاريخية وادق الحقائق الدينية وتاريخ
سلسلة الشعوب والقبائل وكان يتوق لتلقي العلم والاطلاع على الحقائق
التاريخية من الاقباط واليهود مما يدل على انه فطر على الميل المجرد
لاكتساب العلم بلا مراعاة للتعصب الديني كما كان شأن غيره من المسلمين.
ولو أن تاريخه عن الاقباط تشم منه رائحة الكراهه من مسلم يتظاهر في
كتاباته باحتقار تلك الكراهة لهولاء القوم ولكنه على كل حال اعترف عند

تدون الحقائق التاريخية بذكاء الشعب القبطي

وذكر بعض تفصيلات مهمة عن الاضطهادات التي قاساها الاقباط البؤساء

وكتب كثيراً في علم الفقه والتاريخ واللاهوت ووصف البلدان واسهب في وصف حكم القاهرة الاهلي . وكان ذو سلطة رسمية على جامع عمرو القديم في الفسطاط وجامع الحاكم في القاهرة واحد معلمي كلية معاوية وقد شغل وظيفة قاضي مدة من الزمن

ولما ارتقى برقوق سنة ١٣٩٠ على العرش المصري كان المقريزي في مقتبل العمر لايتجاوز السنة السادسة والعشرين ولا بد أن يكون قد مدحه عند عودته للسلطنه في المرة الثانية ورحب برجوع البلاد الى حكم رجل عاقل مفكر ارقى كثيراً من اولئك المماليك الذين حكموا البلاد بالسلب والحرب والاضطهاد

وكان برقوق ميالا لتقاليد عشيرته كباقي المماليك الامراء فصرف مبالغ وافرة في شراء المماليك (الصبيان) الاوروباويين وجمع منها آلايات في خدمته الخصوصية يركن اليها عند الحاجة . وكان له ولع خاص في اقتناء الاسلحة والخيول استعدادا للحرب . ونظم الجيش المصري بطريقة جديدة اكسبته قوة ومنعة فبعد ان كان فرقا تشتغل كل فرقة منه تحت قيادة امير من الامرأ فتنهب وتسلب البلاد التى تحل بها . جمع هذه الفرق تحت سلطة واحدة وهي قوة الحكومة الرئيسية التي رتبها كما يأتي :

اولا — (اتابك العساكر) وهو قائد عام للجيوش المصرية

ثانيا — (رأس نوبة الامرأ) وهو رئيس الامرأ

ثالثا — (امير الدلوه) وهو رئيس الطوبجيه

رابعا — (امير المجلس) وهو الرئيس الاكبر للبلاط

خامسا — (امير الباخور) وهو رئيس السواري

سادسا — (دوادار) وهو حامل ختم السلطان وقاضي العدليه

سابعا — (رأس النوبه الثاني) وهو رئيس الامرأ الثاني

ثامنا — (صاحب الحجاب) وهو اشبه برئيس التشريفات

تاسعا — (النائب) وهو محافظ القاهرة

وتتكون من هولاء التسعة روؤسا حكومة رئيسية عليا خاصة وقد القى السلطان برقوق في يدهم مقاليد الحل والربط . وكانت كيفية حكمهم انهم يجتمعون بالخليفه والامرأ والقضاة وحكام المدينه ويشاورهم في الشؤون التي يعرضها عليهم السلطان وهو صاحب السلطة في تنصيبهم او عزلهم — فهم بهذه الكيفية اشبه بمجلس تشريعي اعلى — وقد اعطى برقوق السلطة لهذا المجلس في انتخاب سلطان جديد في المستقبل اذا وقع تنافس وتزاحم على تولي الملك

وفي سنة ١٤٠٣ مسيحية (٨٠٦ هـ) حلت بمصر مجاعة شديدة ويقول المقريزي في كتابه عن تلك المجاعة انه تصادف وقوع احدي بناته في مرض وقد اشترى لها كتكوتين دفع ثمنهما اربعة وسبعين قطعة من الفضة

ولم يحدث اضطهاد وحقيقي للاقباط في مدة حكم برقوق للمرة الثانية الا دفعه واحده

وتفصيل ذلك أن احد الامراء لشدة تعصبه تعهد بهدم كنيسة قبطية كان الاقباط يشتغلون فيها بعمل خمر التقديس المعروف عندهم بالاباركه . فسرق ذلك الامير ٤٠ الف جره من الخمر المذكور وامر بكسرها امام باب زويله في الميدان الذي تحت القلعه وسكب الخمر احتراماً لناموس الديانه الاسلاميه التي تحرم شرب الخمر

واقترح في المجلس الاعلى اضطهاد الاقباط . ولكن برقوق كان أعقل من أن يصادق على مشروع كهذا يعتبر خرقا لمبداء الحكومة الدستوريه وامر بقتل رجل اعلن اعتناقه الدين الاسلامي بعد ترك دينه المسيحي

وبينما كان مشتغلاً بتنفيذ مشروعاته اصيب بداء النقطه ومات في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ وهو في الستين من عمره فأسف عليه المصريون اسفاً شديداً لعدله ويقظته ورفقه بهم

وبعد وفاته بايعوا ابنه البكر فرج زين الدين الملقب بابي السعادة وكان عمره ستة وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر وتمت مبايعته بلا جدال ولا نزاع وفي اول حكمه قام لقمع الثوره التي أثارها الاتابك يطمش وتنم الفرساني حاكم سوريا بتواطؤه مع بلبغا السالمي حاكم حلب فهزمهما وقتلهما مع اعوانهما ولكنه لم يكد ينجو من هذه النازله حتى داهمه ما هو اشد وطأة واصعب مراسا لان تيمورلنك الفاتح التتري الشهير

بعد أن انتهى من حروبه وانتصاراته في الهند وبغداد وسيواس وملاطيه سنة ٨٠٣ هـ اعاد فتح حلب وحمص بعد حرب شديدة فخاف فرج وفر الى مصر فجمع رجال حكومته واستعد للدفاع عن البلاد وفي اثناء ذلك كان تيمورلنك يحارب مع بايزيد التركي بعد فتح حلب فسكن روع فرج لاشتغال تيمورلنك عنه ولكن ماليث أن سمع بانتصار تيمورلنك على بايزيد في الاناصول واسره سنة ٨٠٤ هـ في واقعة انقره التي كانت القاضيه على القوات العثمانية . فخارت قوى فرج وقنط من الفرح وبينما هو في حيرته جاءه وفد من قبل تيمورلنك ومعهم فيل هندي لفرج وقد اخبروه أن مطلب قائدهم العظيم من سلطان مصر هو أن يعترف بالخضوع له وبنفوذ سلطنة التتر على مصر ويبعث اليه باحمد ابن عويس وقرأ يوسف اللذان كانا محتميان عند والده برقوق ورفض تسليمهما للوفد الاول الذى قتل افراده من مدة عشر سنوات . فلم يسع فرج الا الاذعان لقضاء الله والتزم بامضاء فرمان سيادة التتر على مصر واقر انه قائم بحكم مصر بالنيابه عن التتر فاشترى سلامة البلاد بهذا الاعتراف واصبحت مصر في حوزة التتر . ولكن ابي فرج أن يسلم احمد وقرأ يوسف وقال انهما احتميا به وبوالده وحقوق الضيافه تمنعه من تسليمهما لعدوهما فيكون هو الجاني عليهما ولكنه وعد بسجنهما وسجنهما بالقلعه ارضاء لتيمورلنك وفي سنة ٨٠٦ هـ شرقت مصر لبطوء الفيضان في النيل فهلك في مدينة قوص وحدها ١٧ الف نفس ومدينة اسيوط ١١ الفا وغير ذلك في مدن اخرى

وفي ١٧ شعبان من السنة التالية ادرك تيمور القضاء المبرم في اوترار وتنازع أبناءه على سلطنة ابيهم فاغتنم فرج تلك الفرصه للتخلص من سلطة التتر وافرج عن ضيفيه المسجونين فمادا لبلادهما وتأهب لاسترجاع سوريا الا ان المماليك الامرأ بعد وفاة تيمورلنك بسنتين ضيقوا عليه في قصره لانهم حسبوا خضوعه للتتر خيانه وجبنا وايقنوا بعدم صلاحيته للملك فخلعوه وتنازل لهم هو ايضا عنه حفظا لحياته وذلك في ١٦ ربيع اول سنة ٨٠٨ هـ بعد أن حكم ٦ سنوات وخمسة اشهر و١١ يوم. وبايعوا اخيه عز الدين عبدالعزيز

ثم خرج فرج من قصره واختفى في مكان غير معلوم ولم يمكنهم معرفته فظنوه قتل ولكن لم يمض شهران على تولية اخيه حتى ظهرت للمماليك خيبة ظنهم بعبد العزيز فملوا منه وندموا على اسقاط فرج فلما سمع بذلك ظهر من مكمنه ففرح به الناس ورجال الدولة واسترجع السلطنه ثانياً في جماد آخر سنة ٨٠٨ هـ ونفى اخوه عبدالعزيز الى اسكندرية فعاش فيها اشهراً قليلة حتى توفى في ٧ ربيع آخر سنة ٨٠٩ هـ ولكن بعد أن عاد فرج الى منصبه ثانية ظل غير قادر على استرجاع شهرته التي افقدها بقبوله شروط تيمورلنك القاسية. ولكنه عزا دمشق وغيرها من مدن سوريا واهتم براحة الرعية فساد الامن واطمأنت القلوب واكتسب بذلك اعادة ثقة الناس به الا انه صادفته بعد ذلك باربع سنوات ثورة دينية ذهبت بحياته

وتفصيل ذلك انه في سنة ٨١٣ هـ قام أحد مماليك الظاهر برقوق وأخذ يدس الدسائس ليتوصل لان يكون سلطانا لمصر وهذا المملوك هو ابا نصر الملقب بالشيخ المحمودي الظاهري وكان الملك الظاهر برقوق قد عتقه ورقاه الى رتبة امير ووعده بوظيفة عسكرية سامية. وكانت دسائسه انه استعان بالخليفة المستعين بالله الذي تولى الخلافه بدل المتوكل. وكان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وهروب الخليفة منها واحتمائه عند بيبرس في القاهرة قد فقدوا كل سلطتهم السياسية وصارت الرعيه لا تعيرهم الا في حد السلطة الدينية التي كان لهم حق الرئاسة العليا بها على جميع العالم الشرقي وكما اصبح البابا في الايام الحاضرة في سلطته الدينية على العالم الغربي. وكان المسلمون يلقبون الخلفاء بائمة الدين. فقام الامير الشيخ المحمودى بجداء المعهود وقال للخليفة المستعين بالله انه بحيله سياسية عظيمة يمكنه أن يعيد اليه السلطة الزمنية تماما ويسترجع اليه قوة الخلافة السابقه واغراه بقوله (أن الناس ميالون اليك بكليتهم ومستعدون لمبايعتكم والخضوع لاوامركم) ولما كانت انفس البشريه مياله بالطبع لحب السلطة والسيادة تحركت تلك الاميال في قلب الخليفة ووافق الشيخ المحمودي على ما اقترحه عليه. واتفقا على تدبير تلك الدسيسه اثناء وجود السلطان فرج في دمشق. فاوقد الشيخ المحمود شرار الثورة في الخفاء باسم الخليفة المستعين بالله ثم اتفق مع الخليفة على استقدام السلطان من دمشق لكي يخمد تلك الثورة

ويطفئ نارها فلم يوافقها الامراء على استقدامه فانفذا اليه يطلبان منه التنازل عن الملك فاجاب أن جوابه على ذلك هو حد السيف وارتاب ايضاً الامراء في امر الثورة وقالوا أن الواضع لجرائمها هما المحمودي والخليفة ولا سيما بعد أن دوى صدى لعنة وحروم الخليفة الاعظم في انحاء المملكة ولكن لما كان للتأثير الديني في النفوس شأن عظيم اعرض الناس عن مساعدة الامراء وازعنوا لاعلان الخليفة عن خلع فرج اذا صدر خطاً شريفا بتوقيعه فجاء تأثيره على الناس اقوى من حد السيف وهذا نصه (انا نصرح بخلع فرج عن سلطنة مصر وسوريا والسلطان الحقيقي عليهما الآن هو الخليفة سلالة النبي صلم ونائبه فطوبى لمن ازعن له وويل لمن اعرض عنه والسلام)

فهذا القرار الموجز اوجدنا تأثيراً غريباً ولما داروا به بين الجيوش اعرضوا عن السلطان فرج وقابل العلم الاسلامي ذلك النبأ باندهاش وصاروا مضطرين قهراً للخضوع لسلطة الخليفة الزمنية . ولما لم يبق نصير للسلطان فرج حاول الفرار فلم يفلح اذ قبض عليه المماليك وقادوه امام الخليفة فانتحل له الخليفة ذنبا يستوجب المحاكمة فقال انه لكثرة ما انفقه في محاربة التتر اضطر أن يفرض ضرائب فوق العادة على الاهالي فساء حالهم ورفعوا اليه (أي الى الخليفة) ومجلس الائمه والفقهاء عرائض الشكوى بانه خرب البلاد وافلس الاهالي واعظم من ذلك انه تمرد على الخليفة ظل الله على الارض فكان ذلك ذريعة للحكم على فرج بالاعدام

فقتلوه في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ الموافق ٧ مايو سنة ١٤١٢ مسيحية خارج اسوار دمشق وتركوا جثته ملقاة على الارض وبعد مقتل فرج اصبحت السلطه الروحية والزمنيه بيد الخليفة المستعين بالله فاخذوه باحتفال مهيب بين التراتيل والاناشيد الاسلامية وداروا به في وسط القاهرة حتى وصلوا الى قصر السلطان في القلعة فبايعه هناك الشعب والامراء وقواد الجيوش وحلفوا له يمين الطاعة ولقبوه بالملك العادل . فلما استلم مقاليد الاحكام وظف الشيخ المحمودي رئيسا لشوراه ولقبه بالوزير الاعظم وهذا غاية ماناله بعد جهاده في تدبير الفتن والدسائس واسترجاع السلطة الزمنية للخليفه .

واول شيء قام به هولاء المحمسون للخليفه الديني أهلاك الاقباط واليهود معا . فتعين ثلاثة عمال من كبار الموظفين المسلمين ليقوموا باحصاء عدد هولاء العنصرين وحصر منابع ثروتهما وانشأ بامر الخليفه بالعماره الملاصقه لجامع الحاكم مكتب تسجيل مخصوص لهذا الغرض يقيدون فيه اسماء مواليد ووفيات هذين العنصرين ثم قسموا اليهود والاقباط الى ثلاثة طبقات فيدفع اكبار اغنياؤهم كل فرد عن نفسه اربعة دنانير جزية سنوية والطبقة الثانية دينارين من الطبقة الثالثه وهم الفقراء دينارا واحدا .

وحكم الخليفه نحو ثلاث سنوات تقريباً ولو أنه ضايق الاقباط واليهود ولكنه اصلح احوال المسلمين وابطل رزائلهم وتعنتهم وعاقب المتدين منهم ليعيد الامن ويظهر لياقته لمركزه وانصف المظلومين وبذل

العطاء فاحبه الاهالي ولكنه ضغطه على المعتدين قلل من شهرته واوجب
اعراض المماليك عنه .

اما الشيخ المحمودى فكان فى اعتقاده انه لم يقم بتلك الثوره خدمة
للخليفه بل لاغراضه التي لم ينلها ورأى أنه خرج المعمعه بصفقة المغبون
واصبح آله في يد الخليفه فاضمر له الشر وعزم على خلعه ولكنه استعمل
الحزم والتأني واغتنام الفرص خوفا من فشله في سياسته فوطد علاقاته
مع الامرأ واقنعهم بطريق البساطه والاخلاص بضعف الخليفه وخموله
فضلا عن كونه ليس مصريا فاستمال قلوبهم واشتد ازره بهم وقويت
شوكته ثم شكي للخليفه من منصبه فولاه نيابة الملك في ٨ ربيع اول من
تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ مآربه ثم كثرت احزابه واعوانه
واصبحت ازمة البلاد في قبضة يده فطلب من الخليفه أن يمنحه لقب ملك
ويشاركه في السلطنه فاجابه الى طلبه خوفا من نفوذه ولقبه بالملك المؤيد
ولكنه لم يقنع بذلك فاراد اتمام بغيته والانفراد بالسلطة فحجر على الخليفه
وحبسه في قصره . وكان الخليفه قد احسن بزيادة نفوذ المحمودي والخطر
المحدق به منه واستعمل سلاحه الديني الذي كان سببا لاعطائه السلطة
الزمنية ولكنه وجد هذا السلاح غير ماضي بل عديم التأثير بالمره فاصدر
حكما بخلع الشيخ المحمودي بخطه الشريف كما فعل عند خلع السلطان فرج
ولكن هذه الحيل السياسية الممتزجة بالدين لم تفلح فهزأ الشيخ المحمودي
والامرأ بذلك الحرم وقبضوا على الخليفه وخلعوه بحجة انه تمرد على

رفيقه في السلطنه (الشيخ المحمودي) وسجنوه ثم نفوه الى الاسكندريه
سنة ٨١٨ هـ

واقاموا اخاه داود خليفه مكانه ولقبوه بالامام المعتضد بالله وانيط
بالرئاسة الدينية فقط كما كان اخوه قبل نجاح المحمودي في دسائسه

اما المحمودي فخلا له الجو وتربع على عرش السلطنة المصرية وسعى
في اكتساب ثقة الاهالي واتبع خطة الخليفه المستعين فانصف المظلوم
وساعد الفقير فامنت الرعيه وسعدت البلاد وبقي ذلك الحكم العادل نحو
ثمان سنوات وخمسة اشهر

وذكر المؤرخون المسلمون اسم الملك المؤيد (المحمودي) مقرونا
بالحسنات وكان معاشرا للمقريزي فرافقه الى دمشق مع الحمله التي قامت
لمحاربة فرج وكان المقريزي يتقلب في عدة وظائف مهمة في حكم الملك
المؤيد . ولكنه مع كل ما ذكره المؤرخون عن حسناته فانهم لم ينسوا
تدوين اخبار مضايقته وضغطه على الاقباط حيث صرح لمماليكه باضطهادهم
ومعاملتهم بالقسوه . وقائد الحرس الذي كانت وظيفته قاصرة على تلقي
اوامر السلطان اغتصب من الاقباط مبالغ عظيمه من المال فضلا عن
ضريبة الخمر التي فرضه عليهم ليفرق على جنده وكانت تلال وخرائب
بابليون عبارة عن مخازن ومستودعات لتجار الخمر الاقباط لانه بابليون
كانت وقتئذ لم تزل آهله بالسكان الاقباط . فامر قائد الحرس جنوده أن
يحتلوا ذلك الحي كانه مدينة اجنبيه وصرح لجنوده بنهب الخمر اللازمة لهم

الجيل الذين جحدوا ايمانهم كان المساعد لهم على ذلك الظروف حيث كانت كنيستهم واقعه تحت وتصرف البطريرك كيرلس الممقوت واعماله الشريره . ولو أن أبناء الاقباط الذين كانوا على عهد البطريرك متى وغبريال تعلموا الترفع من ذلك السلوك الرديء

واختفى باقي كبار الموظفين الاقباط في منازلهم حتى يتضح للمسلمين أن حكومتهم لا تستغني عنهم . ثم ارتد بعد ذلك بعضهم لشدة المضايقه والاضطهاد وخصوصا ليسهل عليهم بعد اعتناقهم الاسلام أن ينتقموا لانفسهم من مضطهديهم .

وفي تلك السنة شرقت رأس ماري مرقس كاروز الديار المصريه من الاسكندرية في مركب ايطالية فكانت اعظم مصيبة حلت باقباط مصر وفي ذلك الوقت فجعت البلاد المصرية بارزاء كثيرة توالت عليها وهي القحط والمجاعه والوبأ قام المؤيد بالحج الى قبر برقوق فتوجه بنفسه في مقدمة الحجاج الذين كانوا يحملون القرآن وقام اليهود باحتفالات عظيمة دينية وكذلك الاقباط حيث اشترك جميع سكان البلاد المصرية بالصلوات والتضرع الى الله سبحانه وتعالى بان ينقذهم من شر هذا الطاعون .

وبنى الشيخ المحمودي (المؤيد) في مدة حكمه جامعا جميلا يدعى جامع المؤيد بالقرب من باب زويله وتوفى في ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ وبعد وفاته عادت القلاقل وجرت الفظائع الدمويه تزاحما على العرش فتولى بعده ثلاثة سلاطين وخلعوا في خلال سنة واحدة اولهم نجل المحمودي

شهاب الدين احمد الملقب بالملك مظفر وثانيهم هو المظفر سيف الدين تتر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفى في شهر الحجه وبويع ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وهو ثالث من حكم في خلال هذه السنة فخلعه وصيه سيف الدين برس باى بعد أن حكم اربعة شهور وكان برس باي مملوكا رفعه سيده الملك الظاهر تتر الى رتبة الامراء فنجح في تأسيس الملك لنفسه ورفع مقامه وبقي محافظا على مركزه بحسن سياسته فظل قابضا على العرش حتى الممات

الفصل الرابع والستون

الفتح العثماني

سنة ١٤٢٢ مسيحية و ١١٣٨ للشهداء و ٨٢٥ للهجره

اعتلى برس باي عرش الدوله المصريه في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ هـ الموافق سنة ١٤٢٢ مسيحية ولقب بالملك الاشرف . واصله مملوكاً كما تقدم فلما احبه سيده الملك الظاهر تترفوق عن باقي مماليكه اعتقه ورقاه وجعله وصيا على ابنه

واستبشر الناس خيراً به لانه في أول سني حكمه تزايد وفاء النيل فغمر البلاد بخيرات عميمه وكثر محصول الغلال والحبوب فشبع الفقراء واتخذوا ذلك فالا حسنا بتولي سلطانهم الجديد وقد صدق فالهم اذ تمتعت مصر بسلام وهناء داخلي مدة السنتين الاوليتين من حكمه لانه كان

كالشيخ المحمودي حكيما رحيما برعيته وقد رمم عدة مدن ومبان وشاد في القاهرة جملة آثار جميلة منها جامع الاشرفية بسوق العطارين بناه سنة ٨٢٦ هـ . ووطد دعائم سلطانه بحسن سياسته

ولما كان دوام الحال من المحال عادت الثورات المعتاده في سوريا ففي سنة ٨٢٧ هـ ثار الامير بنيق النجاشي والي دمشق فقام وضربه ضربة أخمدت انفاسه وخمدت الثورة في الحال وكان ذلك بمساعدة أمير زنجي اسمه عبد الرحمن فولاه برس باي بعدمعاقبة الثائرين على سوريا بدل النجاشي مكافأة له وهذه الثوره كانت أول وآخر ما حدث من القلاقل المصريه في أيامه ومما يستحق الاعتبار نجاح برس باي الباهر في حملاته الصغيرة المتتابعه ضد الافرنج فقد تغلب عليهم واخضع جزيرة قبرص لسلطته وارغم ملكها يوحنا لوسينيان الثالث بالخضوع له وجعله من اتباعه وولاه سلطنته المصريه بعد أن فرض عليه الجزيه . فقبل بذلك واصبحت قبرص مستعمره مصريه في ذلك الوقت

وبعدئذ طلب ملك قبرص من مولاه برس باي سلطان مصر أن يؤجر له فرقة من مماليكه المسلمين ليحارب الامراء المسيحيين لشجاعتهم وبأسهم في الحروب لان شهرة هولاء المماليك المسلمين كانت قدطبقت الافاق ولا سيما في اوربا وقد أرسل الملك المذكور قائد فرسانه سفيرا ليبلغ الحكومة المصرية هذا الطلب ويرجو السلطان اجابته — وكانت قد كثرت الطلبات على برس باي بطلب هؤلاء المماليك وانهالت عليه

الاموال لاجل استخدامهم في الحروب اضعاف ماتعهد به مع الملك يوحنا الثالث الذي لما رأى ذلك أعلن احتماءه تحت لواء خصم برس باي وهو مراد الثاني سلطان العثمانيين فان هذا الاخير بعد أن فشل اخذ يقوي مركزه شيئا فشيئا حتى أصبح خطراً على السلطنة المسيحية في اوربا والسلطنه الاسلاميه في مصر والشام . ولكن برس باي عمل بدهائه على عقد عدة معاهدات سلمية مع السلطان مراد ابن محمد تدل على عظيم شوكة برس باي فالتزم السلطان مراد أن يخابر برس باي بطرق سلميه بشأن ملك قبرص ويتوسط له بالعفو عنه لعصيانه واعلان احتمائه بالعثمانيين ثم ارسل سفيراً برسالة الى الحكومة المصريه يطلب فيها عدم مخاطرة السلطان برس باي بارسال مماليكه لملك قبرص كما وعده ففي الحال اصدر برس باي امره لسفير ملك قبرص بالرجوع لبلاده دون أجابة طلبه ثم ارسل المماليك (ولم يذكر التاريخ اذا كان برس باي رد المال لملك قبرص ام لا)

وفي سنة ١٤٢٧ مسيحية (٨٣٠ هـ) توفى البطريرك غبريال وظل الكرسي البابوي خاليا عدة شهور وكان يسوس ادارة الكنيسة راهب من دير طره يدعى ميخائيل ويقول المقريزي أن ذلك الرجل انتخب بطريركا على الاقباط ثم خلع الا ان اسمه لم يدرج في كشف بطاركة الاقباط . ولا شك انه كان لذلك الراهب حزب قوي من الاقباط يعضده في الانتخاب لانهم كانوا ميالين بحسب تقاليدهم القديمة لانتخاب

بطاركتهم من الرهبان ولكن اغلبية الاصوات فازت بانتخاب من يدعى
يوحنا (ابو الفرج) . وكان مشهوراً ومحبوبا عند قومه وكان يشغل وظيفة
كاهن اول لمدرسة قبطية عظيمة في المكس

ويقول المقريزي انه في سنة ١٤٢٩ (٨٣٢ هـ) اكتشفت دسيسة
غريبة . وهي وجود معاهده سرية بين الافرنج (الصليبيين) وامبراطور
الحبشة لاشهار حرب دينية مقدسة لمحو الديانة الاسلامية من العالم
وكيفية ذلك أن يزحف امبراطور الحبشة برجاله على مصر وسوريا براً
من الجنوب والافرنج بحراً من الشمال . وكان السفير والنائب عن الحبشة
في اوربا الذي تمت على يده تلك المخابرات تاجر مسيحي سافر من
الحبشة بطريق السودان ومصر ثم سافر منها بحراً الى اوربا وكان متنكراً
في طريقه مدعياً انه رجل مسلم وتمت مخابراته السياسية بنجاح عظيم
وتقرر أن تلبس الجنود في ذلك الحرب الصليبي لباسا مطرزاً فيه شكل
الصليب ومنقوشاً عليه بحروف ذهبية اسم الهاتي (١) وبعدا تمام المخابرات
وعودة ذلك السفير العظيم الى بلاده وصل الى الاسكندرية فخانه احد
عبيده فقبض عليه قبل أن ينزل الى البر وجاءوا به امام السلطان برس باي
ومعه راهبان حبشيان وعدد عظيم من تلك الملابس العسكرية المطرزة التي
اتفق مع الافرنج عليها كما تقدم
فعقد قضاة مصر جلسة لمحاكمة ذلك التعيس وحكموا عليه بالاعدام .

(١) احد القاب امبراطور الحبشة

ولكن قبل اعدامه اركبوه جملاً وساروا به بين تهليل وتكبير في شوارع
بولاق والقاهرة والفسطاط ومشي امام الجمل احد المسلمين كان يصرخ
باعلا صوته (هكذا يعامل كل من يقدم سلاحاً لاعدائنا)
ثم قطعوا رأسه بالقرب من كلية الصالح امام جمع عظيم

اما امبراطور الحبشة فخارت عزائمه لعدم عودة سفيره اليه

وتوفى الملك الاشرف برس باي يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة
٨٤١ هـ (١٤٣٨ مسيحية) في السنة الستين من عمره بعد أن حكم ١٧ سنة
و٨ اشهر و٦ ايام وهو ما لم يتمتع به احد من السلاطين المماليك . وكانت
مصر في ايامه سعيدة خارجا وداخلا . ويقول المؤرخون انه كان اجدر
الملوك الشراكسة بالمدح لعلو همته وتدربه على ادارة الاحكام وفي عهده
كانت الحكومة المصرية على غاية النظام فأمن الناس على ارواحهم ولاسيما
العلماء كالمقريزي الذي كان لم يزل على قيد الحياة طول مدة حكمه فحماه
من اعدائه وشجعه في اعماله الادبية وقيل أن في مدة حكمه انيرت
شوارع القاهرة بالمصابيح ليلا وخليت من المتشردين وقطاع الطرق
والوقائع الدموية وعم الامن في كل ارجائها ومما يذكر لبرس باي مقرونا
بالثناء ويدل على سمو مداركه انه ابدل جميع التذللات والتعطفات التي
كانت تقدم للسلطان بتقبيل اليد فقط

وبويع بعده ابنه جمال الدين يوسف الملقب بابي المحاسن ولقب بالملك
العزيز ولكنه لم يبق على عرشه اكثر من ثلاثة شهور حيث تمرد

الامرأ المماليك عليه كعادتهم عند تولي ملك ضعيف وتخاصمه ايضا مع
سيف الدين جقمق اتابك جيشه فانتهي الخصام بعزل جمال الدين ومبايعة
جقمق بدله في ١٩ ربيع اول سنة ٨٤٢ ﻫ وكان جقمق اذ ذاك في التاسعة
والستين من عمره ولقب بالملك الظاهر ومع جهاده العظيم للحصول على
العرش المصري فانه قد نال مبتغاه لحسن حظ البلاد دون حدوث وقائع
حربية أو قلاقل داخلية

وبعد ارتقائه على العرش المصري سنة ١٤٣٦ مسيحية عقد مجمع
فلورنس المشهور وكانت نتيجة انعقاده عودة اتحاد كنيستي اليونان والرومان
ولكن لم يلبث ذلك الاتحاد الا قليلا ثم عادا الى الانشقاق . وكانت
الكنيسة المصرية ايضا قد ارسلت نائبا عنها لحضور ذلك المجمع يدعى
يوحنا وهو رئيس دير انبا انطونيوس المشهور ولكنه وصل الى فلورنس
متأخراً بعد أن خرج مندوبو الكنيسة اليونانية من المجمع فتحصل يوحنا
هذا على قرار من اعضاء المجمع بقبول كنيسته المصرية ضمن ذلك
الاتحاد العظيم في جلسة المجمع القادمة . ولكن رفضت الكنيسة اليونانية
شروط الاتحاد التي صادق عليها مندوبيها في مجمع فلورنس . وظهر بعد ذلك
في مصر ان السعي لذلك الاتحاد الكنائسي لم يكن له تأثير يذكر ولم يهتم
له الاقباط كثيراً مع انه يوجد روح الشعور الرقيق بين الكنائس (١)

(١) يقول مؤرخو الرومان الكاثوليك أن ذلك الاتحاد الوقتي كان
المقصود منه عودة خضوع الكنيسة القبطية الى سلطة بابا روميه (كما كانت خاضعة

وفي سنة ١٤٥٠ مسيحية دهم مصر وباء هائل

وفي سنة ٨٤٦ ﻫ توفى الامام المعتضد بالله فبايعوا أخاه بالرغم ولقبوه
المستكفي بالله وكان صديقا لجقمق وتوفى سنة ٨٥٤ ﻫ وكان تقيا فتخاصم
الاعيان على حمل نعشه وكان جقمق ضمن من حملوه فبويع اخوه خليفه
بدله ولقب بالقايم بامر الله فسلك هذا الخليفه غير مسلك سابقيه فبغضه
السلطان جقمق وخاف من دسائسه سيما انه كان قد بلغ الثمانين من عمره
ولم تعد له مقدرة على مقاومة دسائس الخليفه فتنازل عن الملك لابنه
فخر الدين عثمان سنة ١٤٥٣ مسيحيه (٨٥٧ ﻫ) ثم توفى في ٢٩ صفر من تلك السنة
وهي السنة التي اضمحلت وتلاشت فيها الامبراطوريه اليونانيه للبيزانطيين
وفتح فيها السلطان العثماني محمد الثاني ابن مراد مدينة القسطنطينية وهي
حصن المسيحيين المنيع القديم

وبعد مبايعة فخر الدين عثمان وتلقيبه بالملك المنصور قام الخليفه

له من قبل) ولكني اقول انها لو كانت خاضعة له من قبل كما يقولون لما كان
يعين بطريركاً خاصاً له في ابروشية الاسكندرية ذاتها التي فيها البطريرك القبطي
مما يثبت صحة الانفصال وعدم الخضوع ومع ذلك فانه لم يكن الغرض من قبول
الكنيستين اليونانية والقبطية بالدخول في مجمع فلورنس الخضوع للبابا بل مجرد
المصالحة والمسامحة بين الكنائس الشرقية والغربية ولم يحط ذلك السعي الا لما رأى
رجال الكنيسة اليونانية والكنيسة القبطية ادعاءات بابا رومية الغربية وطلبه السلطة العليا
لنفسه فكان هذا سبب رفض اليونان والاقباط شروط ذلك المجمع وانكارها لما
عرضت عليهم وادركوا سوء القصد من ذلك الاتحاد

بدسائسه التي كان يخشاها جقمق طمعا بالسلطه الزمنيه فالف حزبا من
الامرأ وحملهم على عصيان فخر الدين فانتشبت ثورة بسبب ذلك انتهت
بخلع فخر الدين في أول ربيع آخر سنة ٨٥٧ هـ بعد أن حكم شهراً ويوما
واحداً ولكن تنحت بعد ذلك الاحزاب عن نصرة الخليفة فخابت مساعيه
وبايعوا مملوكا حسنا اسمه ابو النصر فحكم مصر ثمان سنوات وقد قال
الخليفه في نفسه أن هذا السلطان اقرب الى اللحد منه الى العرش فلننتظر
وفاته ولما انتظر ست سنوات ولم يمت عمد الى الدسائس فعلم به السلطان
فوبخه وامر بخلعه فقال له الخليفه (من اين لك ان تخلع الخلفأ ولهم وحدهم
أن يولوا ويعزلوا) فاجابه بالنفي الى الاسكندريه فظل فيها حتى مات.
وفي أول سني حكم ابو النصر توفي بطريرك الاقباط واخلفه رجلا يدعى
متى لم يعرف عنه الا القليل في التاريخ . ثم وصل ابو النصر سفيرا من
قبل ملك الحبش يوصيه خيراً بكنيسة الاقباط المصريه لانه كان يضطهدها
وهذا دليل كبير على أن احوال البلاد كانت في ايامه في تعاسة وفساد
وقد ظهر بعد البحث أن المماليك الامراء اوقدوا النيران عده مرات
في احياء مختلفة من المدن المصريه ولا سيما الاحياء التي يسكنها المسيحيون
واليهود ليكون لهم فرصة للسلب والنهب . وتوفى ابو النصر يوم الخميس
١٥ جماد أول سنة ٨٦٥ هـ بعد أن حكم ثماني سنوات وشهرين و١٦ يوما

وتولى بعده ابنه شهاب الدين احمد الملقب بابي الفتح ولقبوه بعد
مبايعته بالملك المؤيد ولكنه لم يحكم الا اربعة شهور فقط بالاسم وعزل

في ١٨ رمضان من تلك السنة

فبويع بدلا منه مملوك يوناني الاصل وهو احد مماليك برس باي
كان قد رقاه الى اعلا مراتب مماليكه . وكان يدعى سيف الدين خوش
قدم فلما اعطى العرش سنة ١٤٦ مسيحية (سنة ٨٢٥ هـ) لم تظهر منه
تلك الغطرسة التي كان يبديها من سبقوه وتولوا على العرش من المماليك
الشراكسه الاتراك فاكتسب محبة المصريين لانه نظم الحكومة وكان
وديعا متواضعا وحكيما باراً حليما محبا لرعيته ساهراً على راحتهم محبا للاداب
اليونانية ومحافظا عليها وكان يلقب بالرومي ولا يستوزر الا من يأنس فيهم
النزاهة والنشاط وكان هذا سبب ازدياد محبة المصريين واخلاصهم له ويقول
المؤرخون انه افضل من حكم مصر من سلاطين الاسلام ولما كان السلطان
صاحب البلاد حكيما بهذا المقدار وهو رأس الامة وامامها فلذلك اقتدى
به رجال حكومته فساد الامن في البلاد وحكم خوش قدم ست سنوات
ونصف دعاها المصريون بالايام الذهبية لان بلادهم لم تحلم بمثلها من قبل
ومن العجيب انه حتى في خلال هذه الايام السعيدة انتهز الامراء المماليك
فرصة سانحة فاوسعوا البلاد سلباً ونهباً في الاحياء المسيحية في مصر القديمة
ولما اشتهر انتظام الاحكام في مدته اخذ السائحون الاوربيون يفدون الى
الديار المصرية بلا خوف لزيارة الاماكن المقدسة ولا سيما بساتين البلسم
بالمطرية وهليوبوليس وبعد ذلك بزمن قليل زارها ايضا بعض السياح
الالمانيين سنة ١٤٨٣ مذ كان قايت باي على العرش المصري وقال السياح

أن السلطان قفل في وجوههم النبع المقدس والشجرة اللتان كانتا في قصره القائم في هليو بوليس (عين شمس) وسمح لهم فقط بزيارة النقط المقدسة وقالوا في كتاباتهم عن تلك السياحة أن اشهر واهم المناظر في حديقة ذلك القصر حمام جميل يمكن لثلاثمائة شخص الاستحمام فيه في آن واحد وفي الغالب انه يشبه الحمام الموجود الان في حدائق قصر شبرا

وفي سنة ١٤٦٦ مسيحية توفى البطريرك متى واخلفه على الكرسي المرقسي البطريرك غبريال السادس

وفي تلك السنة ايضاً اي في عشرة ربيع اول سنة ٨٧٢ هـ توفى السلطان خوش قدم وسنه ستون سنة فبكاه المصريون جميعا واسفوا على موته كثيراً واخلفه مملوكان آخران ولكنهما خلعا بعد زمن يسير . اولهما ابو سعيد بلباوي الذي لقبوه بعد مبايعته بالملك الظاهر فكان على عكس سلفه اذ استعمل الاستبداد واعاد الاحكام الفوضوية الى عهدها الاول ولما سأت حال البلاد كرهه الناس فلم يمض ٦٦ يوماً على مبايعته حتى خلعوه في ١٧ جماد اولى من تلك السنة وبايعوا بدله الامير ابا سعيد تمر بوغا الملقب بالظاهري ولقبوه بالملك الاشرف فسلك خطة سلفه وكان عاتيا مستبداً فكان حظه كحظه وخلعوه بعد شهرين من مبايعته واخيراً رشحوا للعرش مملوكا من مماليك السلطان جقمق لا يعرف له اصل ولا حسب ويدعى قايت باي الذي يعتبر اشهر سلاطين مصر من المماليك وله قبر معدود من اشهر الآثار العربية الباقية الى الآن ارتقى قايت باي

العرش المصري سنة ١٤٦٨ مسيحية وظل جالسا على ذلك العرش نحو ثلاثين سنة مع أن البلاد كانت وقتئذ في اضطراب بسبب مصادرة العثمانيين لها ولكنه لعلو همته وحسن سجاياه ظل قابضا على ازمة الاحزاب فثبت في مركزه واصبحت البلاد في اطمئنان وقد صرف اغلب أيامه في صد هجمات العثمانيين التي كانت آخذة في الازدياد حتى كادت تقلب عرش المماليك وتمحو أثر حكومتهم ولكن الستة سنوات الاولى من حكم قايت باي مرت على مصر وهي في سلام تام . وفي ايام الحروب العظيمة الطويلة ضد العثمانيين لم تضطرب البلاد الا قليلا لان رحي الحرب كانت قائمة في سوريا وآسيا الصغرى

واسباب وقوع الحروب مع العثمانيين انه كان قد وصله خبر انتصار محمد الثاني سلطان العثمانيين على ملك الفرس المدعو اوزون وكانت توجد وقتئذ محالفة بين الفرس والمصريين وقد رأى قايت باي بذكائه ان ذلك التحالف سيستفز غيرة العثمانيين لفتح سوريا فاحترس لذلك وارسل حملة عظيمة على حدود سوريا ولكن العثمانيين لم يهتموا بفتحها كما توهم لانهم كانوا يهتمون بفتح البلاد المسيحية ولكن ذلك لم يقلل من خوف قايت باي من العثمانيين لانه كان شديد الحذر وبصيراً بالعواقب فضلا عما يعلمه من بأس العثمانيين فاراد أن يخلي نفسه من مسؤولية ضياع السلطنة المصرية وذهابها الى يد الاجانب ونسبة الاهمال اليه في ذلك ولو أن عدوه اشد منه مراسا فاضطر أن يتنازل عن الملك للامراء المماليك فادركوا سر

سياسته ولم يقبلوا منه ذلك التنازل واجبروه على البقاء على العرش لشدة احتياجهم اليه واستعانتهم بمواهبه العالية في مثل تلك الظروف الحرجة ولكنه لم يكد يقبل بالبقاء في منصبه حتى بلغه نبأ انتصار العثمانيين على النصارى وعزمهم على فتح سوريا فتحقق ظنه لكنه قبل أن يخرج محمد الثاني سلطان العثمانيين من الاناضول ادركته المنية فتخاصم ابناؤه على الملك والهاهم ذلك عند فتح سوريا فكانت مصائب قوم عند قوم فوائد لان قايت باي انتهز فرصة هذا الاختلاف واذحب راجعا بجيشه الى مصر

ثم تحارب ولدا السلطان العثماني بعد الخصام فانهزم احدهما المدعو جم والتجأ الى قايتباي بمصر فاكرمه ولكن خاف من هجوم اخيه بيازيد على مصر للانتقام منه فاستعد للهجوم بدل أن ينتظر دور الدفاع فقطع طريق الحج على الاتراك واسر وفداً قادما من الهند بمهمة سياسية للسلطان بيازيد وفتح ادرنه وترسوس اللتين كانتا في حوزة بيازيد وكان بيازيد ينتظر وقوع فرصة لفتح البلاد المصرية فكانت اعمال قايت باي هذه ضالته المنشودة ولكنه استعمل الحزم في مهاجمة المصريين فطلب من قايت باي تعويضا عن الخسائر فكان جوابه مهاجمة الجيوش العثمانية فقاومه مقاومة شديدة فتقهقر امامه الى غلاطيه فعزز قايت باي جيشه بخمسة الاف رجل وهجم على العثمانيين على غرة في مضايق الجبال وذبح منهم عددا كبيراً وتحصن من بقي منهم في ترسوس وادرنه فارسل اليهم

قايت باي اشهر قواده الامير الازبكي فسار لنجدته وطرد العثمانيين من تينك المدينتين . فشق على بيازيد ضياعهما واتفذ قوة عظيمة بقيادة صهره احمد ابن امير بوسنا واصله البانيا اعتنق الاسلام . ولما التحمت قوته بقوة الازبكي هجم احمد هجمة قوية ولكن رجاله لم يثبتوا في الهجوم ففازت عليهم الجنود المصرية ووقع احمد اسيراً في يد الازبكي فعاد به الى القاهرة ظافرا وبنى جامعه المشهور المعروف بجامع الازبكية تذكارا لانتصاراته على العثمانيين في سوريا ولقبت باسمه كل الارض الفضاء التي حول الجامع ولو أن هذا الجامع اندثر الان الا أن ذلك الخط المتسع العظيم لم يزل معروفا بخط الازبكية الى الآن وهو من اشهر نقط القاهرة الحديثة

ولم يعان الاقباط اضطهادات مقصودة في مدة حكم قايتباي وكانت الحكومة تستخدم منهم كثيرين في اشغال الهندسة المعمارية لبنا الجوامع والمدارس الكلية في القاهره واعظم المباني المعمارية التي تمت في ايام قايت باي بالقاهرة كانت من وضع هؤلاء المهندسين الاقباط . وجلس على كرسي الكرازه المرقسيه في حكم قايت باي بطريركان لأن البطريرك غبريال كان قد توفى سنة ١٤٧٥ مسيحيه واخلفه البطريرك ميخائيل السادس واخلف هذا الاخير سنة ١٤٨١ مسيحية البطريرك يوحنا الثاني عشر ولكن لم يعلم عن هذين البطريركين (١) الاخيرين في التاريخ الا شيئاً قليلا

(١) سنة ١٤٨٤ مسيحيه ذبح كل رهبان ديري انطونيوس وبولوس وظلت

اما السلطان بيازيد فاستشاط غضبا من انكسار صهره فارسل حملة قوية بقيادة من يدعى علي باشا لمحاربة المصريين فعبرت الحمله البوسفور في ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ هـ فاوجس قايت باي خيفة فعمد لمصالحة بيازيد بواسطة صهره احمد فرفض بيازيد ذلك بتاتاو سار بجيشه والتقى بالمصريين في أدرنه وترسوس واخذ هاتان المدينتان منهم بعد حرب هائلة ثم سار لارمنيا الصغرى فخضعها واخذحا كمها اسيراً وارسله لمصر بدل صهره احمد

فارسل قايت باي الامير الازبكي ثانيا لاسترجاع آدنه وترسوس من العثمانيين فقام ذلك القائد الباسل وضرب العثمانيين فغلبوه أولا ثم تقوى وغلبهم ثانيا واسترجع المدينتين منهم وعاد ظافراً للقاهرة مرة أخرى فخلع عليه قايت باي خلعا ثمينة

ثم عرض قايت باي شروط الصلح مع العثمانيين في فرصة انتصاره عليهم فهدده بيازيد انه ان لم يتنازل له عن أدنه وترسوس بالتي هي أحسن سيدعو كل الخاضعين لآل عثمان تحت لوائه في جهاد عام ويفتح مصر فتحا مبينا

فرضي قايت باي باهون الخسارتين وتنازل عن المدينتين.

وفي سنة ٨٩٦ هـ ـ ١٤٩١ مسيحيه دخلت تينك المدينتان

الصوامع (الاديره) مهجورة نحو ثمانين سنة .

وفي ذلك الحين اندثر القسم الاعظم من المكتبه القديمه واخذ عرب الباديه يستعملون مجلداتها الثمينه وقودا !!

في حوزة العثمانيين فتصالحوا مع المصريين . وعاش قايت باي خمسة سنوات في سلامة تامه بعد مصالحة العثمانيين وتوفي في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ ١٤٩٦ مسيحية بعد ان حكم ٢٩ سنه و٤ شهور و٢٠ يوماً فبكاه المصريون لعدالة حكمه ومن آثاره جامعه المعروف باسمه الى هذا اليوم في القاهره خارج القرافه مع انه قد اهمل اهمالا كليا وهو بالقرب من جامع ابن طولون الذي هو اقدم منه كثيرا وفي هذا الجامع يوجد مقامه وهو مثال لما بقي من مدافن المماليك في تلك الجهة ولقايت باي جامعا آخر في جزيرة الروضة يشاهد الى الآن هناك

وبايعوا بعده ابنه ابو السعاده محمد ولقب بالملك الناصر ولكنه كان رجلا وحشيا ظالما احمقا ديدنه الانغماس في اللذات البهيمية ولو كلفه ذلك الى ارتكاب شر الآثام وقد مضى ستة شهور في حكمه بهذه الكيفية اذ كانت خاتمة نصيبه في الملك لان توحشه عم الجميع حتى المماليك الغشم سلخ احد مماليكه حيا فهاج عليه هؤلاء المماليك وخلعوه وبايعوا بدله احد مماليك ابيه المدعو قنسو الملقب (بابي الخمساية) لانه في الاصل ابتيع بخمساية دينار وهذا الاخير بعد أن امضى ستة شهور في جهاد عظيم في تنظيم الاعمال عجز عن ذلك والتزم بالتنازل عند الملك اختياراً . فاعدوا نجل قايت باي ثانية ولكنه لم يبق في السلطنة الا ٨ شهر ونصف ثم ذبحه المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤ الموافق يناير سنة ١٤٩٩ ؛ واخلفه ثلاثة سلاطين بالتوالي في مدد قصيره جداً اولهم عم قنسو ابو خمساية

واسمه قونسو الثاني الملقب بابي سعيد ولقبوه بالملك الظاهر ولم يقبل هذا المنصب الا بالرغم عنه ثم خلعوه بعد عشرين شهراً وبضعة ايام . واخلفه ثانيهم قنسو الثالث جان بلد ولقبوه بالملك الاشرف وخلع في ١٨ جماد آخر سنة ٩٠٦ بعد أن حكم سبعة شهور . وثالثهم سيف الدين طومان باي من مماليك قايت باي فحكم ثلاثة شهور ثم قتله الامرأ بعد أن اختبأ اربعين يوما ومن ذلك يظهر أن الامرأ المماليك بعد وفاة قايت باي لم يبالوا باي محذور وبعد قتل طومان ثالث هؤلاء السلاطين في ذي القعده سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١ مسيحية) صمم اولئك المصريون القائلين على حصر الاحكام في يدهم . فاجتمع المماليك والاعيان وفوضوا كبار مشايخ الاسلام لينتخبوا لهم سلطانا واصبح الشعور العام في مصر وسوريا نحو هذا الغرض قويا جداً حتى ان المماليك اصبحوا غير قادرين للتعرض الى ذلك فاجتمعوا معا وصاروا يتداولون فيما بينهم وبين كبار مشايخهم وانتظروا من تقع عليه القرعه من اهل اللياقة ليحكم عليهم

اما المشايخ فانهم لم يتجاسروا ايضا على ابداء اي اقتراح واخيراً انتخبوا مملوكا عجوزاً من مماليك قايت باي وهو الامير قنسو الرابع الملقب بالغوري وكان رجلاً عفيفا تقيا مخلصا محترما من الناس ولم يكن له نصيب في ما يتخاصم عليه باقي الامرأ ولا في ما كانوا يدسونه من الدسائس بل انه منذ اعتقه سيده وصار حرا عاش عيشة السكينة والهدوء واظهر احترامه وشفقته لكل من يلجأون اليه

ولما وقع عليه الانتخاب اندهش الامرأ لهذه الصدفه ووقع لديه هذا الامر موقع الانذهال ورفض في الحال قبول ذلك المنصب وقال للمنتخبيه (بكسر الخاء) انه تعود أن يكون مأموراً لا آمراً ومحكوماً لا حاكماً . ولكنهم اجمعوا أن صدق نيته واخلاصه وثقة الناس به جعلتهم أن لا يقبلوا سلطانا عليهم سواه فلم ير بداً من الرضوخ لصوت الشعب وقبل السلطنة على شرط أن يقسموا له انهم اذا لم ترضيهم حكومته لا يقاومونه بالعصيان أو القتل بل يسره اذا جأوه يوما والزموه بالاستقاله من منصبه فيستقيل منه حالا ويعود الى معيشة السكينة والهدو كما كان اولا

جلس قنسو الغوري الرابع على العرش المصري في غرة شوال سنة ٩٠٦ هـ ١٥٠١ مسيحية ولقبوه بالملك الاشرف وظل على عرشه مدة ١٥ عاما واول ما استلم مقاليد الاحكام اخلص في الحكم واصدر اوامر نظامية صارمة نفذت حتى على الامرآء فاطمأنت البلاد وعم الامن وقام باصلاحات عمومية مهمة في مصر فابتنى المدارس والمساجد في القاهرة منها مدرسة وجامع ينسبان اليه وهما مدرسة وجامع الغوريه في اول شارع الغوريه بالسكة الجديدة . ومدرسة في شرق الشارع والي جنوبه مدفن فيه مقام بعض عائلته والى الغرب الجامع وهو اعظم مشاهد القاهرة البديعة المنظر في ذلك الشارع والى الشمال سبيل جميل . ولكن لكي يقوم بتلك الاعمال المهمة ولكي يقوم بنفقات الاستعدادات الحربية التي كانت ضرورية وقتئذ

دفاعا عن البلاد التزم بتحميل البلاد ضرائب ثقيله وكان معظم ذلك الحمل
الثقيل واقعا على الاقباط كالمعتاد

ووقع الغوري في عداء مع عدو اوربي جديد وهم البرتغاليون الذين
لما استولوا على بلاد الهند اضروا بالعلاقات التجارية بينها وبين مصر
وكانو ايضا يتداخلون وقتئذ في شؤون الحبشة (١) فالتزم بتسيير اسطول
حربي عظيم في البحر الاحمر ليهدد البرتغاليين ويحمي تجارة بلاده ويمنع
التعرض لها . ففي سنة ١٥٠٨ مسيحية انتصر عليهم في واقعة خارج شواطئ
بلوخستان . ولكن في السنة التالية تغلبوا عليه وطردوه باسطوله الى مصر
فعاد وكل مراكبه الحربية محطمة . فلم يثن ذلك عزمه بل جدد اسطوله
وعاد به الى الهند قاصداً فتحها ولكنه شعر بعد ذلك بخطر يتهدد بلاده
فالتزم بالعودة للدفاع عنها . وذلك انه في سنة ١٥١٢ مسيحية (٩١٨ ه)
لما كان نجلي السلطان بايزيد العثماني متخاصمين وقد تقاتلا مع بعضهما
واخذا يتنازعان على عرش ابيهما بعد موته فالذي قهر منهما جاء الى مصر
ودخل في حمى الغوري وطلب مساعدته ولما كان السلطان المصري طبعا
عالما بالخطر الذي يهدد به بلاده سلاطين العثمانيين الذين كان طمعهم في الفتح
وقوتهم آخذتان في الازدياد التزم بمقابلة كركور اللاجئ اليه بالترحاب
والصداقه العظيمه ورضى مساعدته على اخيه الذي كان وقتئذ سلطانا على

(١) سنة ١٥٠٢ مسيحية زار بطرس الشهيد سلطان مصر الغوري في مهمة
ارسله بها اليه فرد يناند وايزابلا حاكي اراجون .

عرشه بالقسطنطينية بلقب السلطان سليم الاول فامد الغوري كركور
بعشرين بارجه حربيه يهجم بها على القسطنطينية ولكن لسؤ الحظ قد
اشتبكت هذه العمارة المصرية في طريقها الى القسطنطينية في حرب اسطول
الصليبيين بقيادة الامير القديس يوحنا فهزم الاسطول المصري وراحت
كل قطعه غنيمة باردة للصليبيين في البحر الابيض المتوسط

ولم تقتصر الخسارة المصريه على ذلك بل أن خبر عزمها على فتح
القسطنطينيه قد أتصل بمسامع السلطان سليم الاول فاستوجب ذلك
سخطه واثارة غضبه على مصر . وهكذا قد جلبت مساعي الغورى عداوة
خصمه المره وعزمه على فتح البلاد المصريه والسورية من حيث كان
يقصد سحقه ولكن تأكد أن الظروف القهريه قد حولت مساعيه الى
ضرر وخطأ فاسرع الى تدارك ذلك الشر فعقد محالفه مع الملك اسماعيل
شاه الفرس الذي كان واقعا في حرب عظيمه مع سلطان العثمانيين الباسل .
ولما قامت الجيوش المتحدة المصريه والعجميه لمحاربة العثمانيين لم تبال
الجيوش العثمانية بكثرتها فضربتهم ضربة قوية تفرقوا على اثرها أيدي
سبا فعمد قنسو الغوري لمخابرة السلطان سليم في أمر الصلح طالبا قبول
أى شروط يعرضها عليه الا أن خضوع الغوري جاء متأخراً لانه لما
وصل أعضاء الوفد الطالب لهذا الصلح لدى السلطان سليم خروا ساجدين
امامه وعرضوا عليه طلب مولاهم . فحنق عليهم واحتقرهم ورفض طلب
الصلح وقال لهم (لقد فات الاوان فارجعوا وقولوا لسلطانكم ان القدم

لا تغتر بحجر واحد مرتين وها أنا ذاهب لزيارته في القاهرة فليستعد للدفاع أن كان قادراً عليه)

فعادوا واخبروا الغوري بذلك فجمع اليه كل الايات المماليك وباقي جيوشه كلها وسار لملاقاة الجيوش العثمانيه قبل وصولها حدود سوريا فتقابل بهم في مرج دابق قرب حلب فانتشب الحرب انتشابا شديداً واظهر فيها الغوري بسالة واقداما عظيمين الا أن الرجا بفوز المصريين النهائي كان مقطوعا ليس فقط بسبب أن الجيوش العثمانيه كانت كلها من رجال الانكشاريه البواسل فقط بل لان الجيش العثماني كانت متوفرة لديه أحسن المعدات الحربيه الحديثة بينما كان الجيش المصري مؤلفا من ارقاء اورباويين الذين اشتراهم العثمانيون وربوهم للغرض الحربي فقط

فكان العثمانيون يستعملون البارود المخترع حديثا في المواقع فيرشون المصريين رشاً ويحصدونهم حصداً وكان سلاح المصريين الحراب والرماح والسيوف فقط فلما ضربت المدافع الجناح الايمن والايسر من الجيش المصري الذي كان يقوده المماليك الامراء ضربة مريعه اوقعت الرعب في قلوبهم وبددت شملهم فسلم قائدا الجناحين للعثمانيين وكان الغوري نفسه قائداً لقلب الجيش فعمل حركة يريد منها لم شعث جيشه ولما حول شكيمة جواده سقط من فوقه لشدة الزحام فسحق تحت سنابك خيل المماليك الراكبه وذلك في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ بعد أن حكم ١٥ سنة وتسعة أشهر و٢٥ يوما . وبموت الغوري اصبحت دولة المماليك على

وشك الاضمحلال . وكان الغوري قبل مبارحته القاهرة هذه المرة قد استخلف عليها ابن أخيه طومان باي الثاني فلما اتصل خبر موته بالامراء في القاهرة اسرعوا بمبايعة طومان باي ولقبوه ايضا بالملك الاشرف وكان باسلا مقداما

فلما رجعت جيوش عمه منهزمه الى القاهره جدد حملة قوية لمحاربة العثمانيين الذين كانوا قد وقفوا للاستراحة في سوريا فظن طومان باي أن الرمال المتراكمة هناك تحول دون وصولهم الى مصر فزاد نشاطا وحزما في اعداد تلك الحملة ولكنه ظل اشهراً يقلب نظام الجيش ليمده لذلك العمل العظيم فانه كان عارفا بعجزه وبضرورة موته في الحرب ولو أن هذا الاعتقاد المحزن كان مجهولا

ولكنه لم يكد يتم استعداداته حتى خاب ظنه حيث ورد كتاب من السلطان سليم هذا نصه :

(من السلطان سليم خان ابن السلطان بيازيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان الخ الى طومان باي الشركسي — الحمد لله رب العالمين الخ . أما بعد فقد تمت ارادتنا الشاهانيه وهلك اسماعيل شاه العجم الهرطوقي اما قنسو الكافر الذي حملته القحه على مناوأة حجاجنا الى بيت الله الحرام فقد نال جزاءه منا . ولم يبق لدينا الا أن نتخلص منك فانك جار عدو لنا والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك اذا شئت اكتساب رحمتنا السلطانية اخطب لنا في جوامع مصر

واضرب النقود باسمنا وتعالى الى اعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والا......الخ)

فلما رأى طومان باي ما يحويه هذا الكتاب من التهديد حنق واصر على المقاتلة وفضل الموت في ساحة الحرب عن التسليم فقوى حصون دمياط والحدود السوريه وكان قد اشترى ثمانين مدفعا من فينيسيا ولكن المماليك لم يكونوا يستطيعون استعمالها فكانت الجيوش العثمانية اقوى من الجيوش المصرية بكثير

وسار طومان باي بكل رجاله وعدده لملاقاة العثمانيين وعسكر عند الصالحيه . اما السلطان سليم فسار من مرج دابق وافتتح في طريقه غزه والعريش ولما علم بوجود الجيوش المصرية في الصالحية وتأهبهم للدفاع حتي الموت عرج في طريقه عند الصالحية ووصل الخانكة قرب القاهرة وقام بجيشه لمهاجمتهم من الخلف فالتقى الجيشان عند بركة الحج يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ مسيحية و٢٩ ذي الحجه سنة ٩٢٢ هـ ووقعت بينهما معركه هائلة اظهر فيها المصريون بسالة شديدة ولما كانوا لا يعرفون البارود ولا المدافع كما تقدم كان قوص النصر معقوداً للعثمانيين وهلك المماليك الامراء عن آخرهم وفر الباقون للقاهرة مع قائدهم طومان باي الذي جمع اليه كثيرا من العربان بعد ان ارضاهم بالمال وتعاهد معهم على طرد العثمانيين . ولكن قبل وصولهم كان السلطان سليم قد عسكر في جزيرة الروضة وحصنها حتى ان كل من يهجم عليها لا يعود الا بالخسارة .

فلما هجم طومان باي مع العرب على السلطان سليم هجمة اليأس رده خاسراً . فعاد للقاهرة وحصنها على نية الحصار وزاد في استحكامات القلعة واقام طابية في كل شارع وفي كل منزل واعطى السلاح لكل من يقدر على حمله للدفاع عن الوطن ولكن رغما عن كل هذه الاستعدادات التى اظهرها طومان باي وامراؤه ومحاربة المماليك مستميتين دخلها العثمانيون عنوة وامعنوا فيها وفي الفسطاط وبابليون قتلا ونهبا وحرقا وبعد استلام القلعة ذبح كل المماليك الذين فيها اما طومان باي الذي لم يصادفه الموت الذي كان يتمناه في ميدان القتال تمكن من الفرار حيث عبر النيل وحده في قارب الى بر الجيزه ثم سار منها قاصداً الاسكندرية حيث كان يؤمل أن يقوم ثانياً منها بجيش يحارب به جماعة العثمانيين ولكنه سقط في ايدي قبائل العربان الرحل فقبضوا عليه وباعوه للسلطان سليم . وكانت تظهر على السلطان سليم امارات الغلظة والقساوة والتجرد من الشهامة والشرف فلما رأى السلطان سليم عدوه الباسل مغلولا تحت قدميه في حالة القنوط واليأس عطف عليه وفك قيوده وعامله باللطف والاكرام ووضعه في سجن صحي واذن له بالحضور في المؤتمرات التي كان يعقدها السلطان سليم للمداوله في امر تنظيم البلاد وبعد أن درس منه ما تعلق بمحصول البلاد وخراجها وحكومتها ولما تأكد من عدم الاحتياج لمشورته أمر حرسه أن يشنقوه خارج المدينة فعلقوه تحت رواق باب زويله بكلاب من حديد في ١٩ ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ . وهكذا كانت آخرة السلطان

الاخير من دولة المماليك الشراكسة وبقتله انتهت تلك الدولة بعد أن تسلط مماليكها على مصر نحو ١٣٩ سنة ومن ذلك الحين اصبحت المملكة المصرية تحت احكام استبدادية بشكل جديد اردأ كثيراً من استبداد المماليك لانه وأن كان السلاطين المماليك كان اغلبهم غشوما مستبدا الا انه كان على الاقل له صالح في البلاد التي اغتصبوا حكمها

ومن ذلك الحين اصبحت مصر آيالة عثمانيه كبرى وصارت فريسة لحكام تعاقبوا الحكم عليها وكان هم كل منهم السعي في ما يعود لنفعه الشخصي وسواء عليه اذا خربت البلاد أو عمرت قبل استدعائهم للقسطنطنية الامر الذى لا مناص منه وقبل أن تضيع منهم رعوية السلطان بينما أن قوة البلاد الحقيقية كانت تؤول شيئاً فشيئاً الى البكوات من المماليك الظالمين.



الفصل الخامس والستون

من ردئ الى اردأ

سنة ١٥١٧ مسيحيه و ١٣٣٣ للشهدا و٩٢٣ للهجره

وأمر السلطان سليم بدفن طومان باي قرب قبر عمه قنسو الغوري وبعد مضي ثلاثة ايام على دفنه دخل السلطان سليم عاصمة الديار المصرية ظافراً في غاية ربيع أول سنة ٩٢٠ هـ الموافق ابريل سنة ١٥١٧ مسيحية وظل فيها حتى حضر المماليك الامراء وقدموا له يمين الخضوع والطاعه وبعد ذلك سار الى الاسكندريه في فرقة من جيشه لوضع الحماية عليها اما أهلها فكانوا كعادتهم لا يهمهم تغيير الحكام فلم يخف سليم من عدم تسليمهم . أما الاقباط ففرحوا بدخول العثمانيين لبلادهم وانقاذهم من ايدي المماليك الظالمين ولكن يوجد بينهم قليل منهم كان ينظر الى العواقب نظراً بعيداً ويعرف أن وضع النير العثماني يتبعه ضغط اثقل مما هو حاصل وقتئذ خضعت عاصمة القطر المصري للسلطان سليم دون أن تحتاج لضربة واحدة ثم عاد سليم للقاهرة لتأسيس نظام الحكومة الجديد بنفسه قبل أن يرجع الى القسطنطينية

وابتدأ نظاماته بعمل استبدادي ليضمن لنفسه خضوع المسلمين التام والاخلاص له . وكان الخلفاء العباسيون لا يزالون في القاهرة تحت حماية السلاطين المماليك يمارسون مهنة الافتاء الدينيه بين العالم الاسلامي كله ولو أن سلطتهم غير محدوده بكيفية تشبه تمام الشبه حالة بابا رومية

الحاكم على كل العالم الكاثوليكي الروماني ولكن كان من مبدأ السلطان سليم عدم وجود رئيس ديني او زمني سواه وقد رأى ان سلطته لاتؤيد الا اذا قبض على السلطه الدينيه ايضا وكان الخليفه اذ ذاك المتوكل على الله (الثالث) الخليفه الثامن عشر من الدوله العباسيه الثانيه وكان تحت تصرف السلطان سليم فاجبره على التنازل له عن سلطته وكل حقوق وظيفته وقد تم ذلك فعلا ونودي بين الناس انه من الآن فصاعداً اصبح السلطان سليم العثماني الخليفه الديني ونائب النبي الكريم على الارض وسيد البلاد الوحيد وصاحب السلطة الروحيه والزمنيه على كل العالم الاسلامي . ومن ذلك الحين انتقلت الخلافه الدينيه من الدوله العباسيه التي آخرها الخليفه المتنازل الى الدوله العثمانيه التي كان أول خلفاءها السلطان سليم الاول

وكان يوجد رجل من اعوان قنسو اسمه خير بك كان اول من سلم للعثمانيين وخان وطنه لما آنس ضعفا في جانب جيش بلاده في واقعة مرج دابق العظيمة فظل السلطان سليم حافظا هذا الجميل حتى اذا توطدت اقدامه في مصر عينه واليا عليها من قبله بصفة نائب السلطان أو بحسب اصطلاحات العثمانيين الرسمية (باشا مصر) ولكن لاحتراس السلطان سليم السياسي ولكونه كان يود تأييد سلطته دائما في مصر خاف أن يترك اميراً مثل خير بك في هذا المركز وربما تتوق نفسه الى العظمة فيسعى في الاستقلال . فاخذ يفكر في طريقة تكفيه موؤنة هذا الخطر فعمد الى تأسيس ثلاث قوات في مصر تراقب بعضها الاولى (الباشا) وهو الحاكم

الاكبر ويكون نائبا عن جلالة السلطان ويبلغ الاوامر السلطانية التي تصدر له من الاستانة الى رجال الحكومة والشعب مع مراقبة تنفيذها ولا يكون للباشا سلطة على الجيش ولا يقدر أن يعمل شيئا بدون رضى وتصديق مجلس خاص يتشكل من الاغوات (ضباط الجيش) وهو مجلس شورى الباشا ولهذا المجلس الحق في ايقاف تنفيذ اي أمر يصدره الباشا وان يستأنفوا اوامر الباشا عند الاقتضاء في الاستانة للبت فيها ولهذا المجلس العسكري الشوروي الحق في خلع الباشا من مركزه اذا ظهر لاعضائه وجه الشبهة والخيانة منه . والقوة الثانية (الجيش) حيث جعل السلطان سليم جيشه المحتل لمصر ١٢ الف جندي ٦ الاف من السواري و٦ الاف بياده وجعل مقر ذلك الجيش في القاهرة والمراكز الرئيسية في القطر وقسمه الى ستة (الآيات) جعلها كلها تحت قيادة قائد عام جعل مقره القلعة فكان فيها اشبه بأسير من اسرى الحكومة مسلوب في حريته الشخصية لان السلطان حرم عليه الخروج من القلعة مهما كانت الاسباب وتنقسم تلك الالايات الى

(١) آلالايات المتفرقة وهم نخبة الحرس السلطاني

(٢) آلايات الجاويشية وهم من صف ضباط جيش السلطان وقد عهد اليهم جباية الخراج

(٣) الآيات الهجانه

(٤) آلايات التفقجيه وهم حاملو البنادق

(٥) آلايات الانكشارية وهم نخبة القبائل الخاصة للعثمانيين

(٦) آلايات العزب

وعلى كل الاي ضابط يلقب (بلاغا) ومعه الكخيا والباش اختيار والدفتر دار والخزندار والروزنامجي والقوة الثالثة (المماليك) وهم بقايا دولتي المماليك المنقرضين والغرض من وجودهم حفظ الموازنه بين الباشا وآلالايات لانهم في الاصل كانوا خصما للفريقين . وغرضهم الانتصار للضعيف من القوي المستبد . وكان اول قائد عام لجيش الاحتلال العثماني على مصر احد كبار قواد السلطان سليم واسمه خير الدين فجعل هذا القائد فرقة من الستة فرق تحت امره الخصوصي وجعل افرادها من المماليك المصريين ولكن السلطان سليمان ابن السلطان سليم ألف له على تلك القوة فرقة مركبة من المماليك الامرأ ايضا وهم الذين قبلوا الخدمة في بلادهم تحت اوامر السلطان العثماني . وانتخب السلطان سليم اثني عشر من المماليك الامراء الذين نجوا بحياتهم بسبب خضوعهم للسلطان الفاتح واعطى كل منهم لقب بك وقسم القطر المصري الى اثني عشر (مديرية) وعين هولاء البكوات المماليك مديرين على تلك المديريات ويلقب بالسنجق ولا يعين ولا يعزل السنجق الا بمصادقة مجلس شوري الباشا المتقدم ذكره

فهذه الترتيبات الدقيقة التي تدل على ذكاء السلطان سليم وسمو أدراكه قد نجحت وافادت فعلا وقد كان غرضه من وضعها أستبقاء السلطه له في مصر مع بعده عنها في الاستانة ولكنه رأى في ذلك صالحه ولم يراع صالح

البلاد التي فتحها لان هذه الترتيبات لم تكن في حد ذاتها آيلة لسعادة البلاد لانه لا يخفى أن تقاطع المصالح واختلافها وجعلها تحت اوامر كثير من الرؤساء والحاكمين يقود طبعا الى وجود القلاقل والمتاعب في البلاد فجميع السكان من مسلمين واقباط شعروا بصيرورتهم وانتقالهم من ردئ الي ارداء واتضح لهم اخيراً أن القوة الحربية وان كانت لم تتحد مع بعضها بحسب نظامها ولكنها قد اتحدت على الاضرار بالمصريين واصبح الاقباط ايضاء يتألمون من شكل الاستبداد والمظالم الجديدة وعدم اتباع مبداء العدالة . والى ذلك الحين لم تمت الفنون والصنائع اليدوية في مصر وفضلا عما كان يعضدها به السلاطين المماليك فان السلطان الاجنبي (سليم الاول) قد نشطها وشجعها كثيرا كما هى الطبيعة الغريزية في الاتراك واغلب الصنائع العظيمة التي تشاهد الي الآن في المساجد والكنائس المصرية يتصل تاريخ وجودها بالنصف الاخير من القرن الثالث عشر وكل القرن الرابع عشر وهي المدة التي حكمت فيها دولة المماليك الامراء على مصر

وكان السلاطين الامراء يضطهدون الاقباط بلا رحمة ولا شفقة كل ما اوغر المسلمون صدورهم عليهم ولكن اصحاب الحرف والفنون من الاقباط وعلماؤهم والمهندسين المعماريين والمصورين والمذهبين والمزخرفين والكتاب وعلماء التشريع وحفاري الخشب والمطرزين ونساجي الحرير وبالاختصار كل من اشتهر في اية حرفة أو صنعة كانوا معافين من الاضطهاد وخطأهم محتمل ومن يعتنق الاسلام منهم ينشط اكثر ويكافأ

مكافأة عظيمة وفي زمن الفتح العثماني اعتنق الاسلام كثير من ارباب
تلك الصنائع من الاقباط ولكن السلطان سليم ما كان يهمه ذلك وما كان
يميز بين المصري المسلم والمصري القبطي . وقد اصدر امره بارسال عدد
عظيم من اشهر ارباب الفنون والصنايع المصرية بلا تمييز في الجنس
والمذهب الى القسطنطينية . وكانت اوامره شاملة عامة وكانت تنفذ بلا
شفقة ولا رأفة حتى أن شعراه من المسلمين قالوا انه بسبب جمع هولاء
الصناع لديه قد أمات في مصر اكثر من خمسين محل صناعي

وفرض السلطان سليم جزية سنوية ثابتة على مصر وقدرها ستمائة
الف غرش علاوة على الغنيمة التي اخذها معه الى القسطنطنية وهي الف
حمل جمل من الذهب والفضة بخلاف الهدايا والاسلاب الاخرى كما
روى احد المؤرخين المسلمين

وعاش السلطان سليم ثلاث سنوات فقط بعد فتح مصر وكان قبل
وفاته قد رسم الخطه التي تتبع في ادارة مصر وبعض مشروعات اخرى
توفى قبل ابرازها الى حيز الوجود فتولى تنفيذها ابنه السلطان سليمان
الذي لما تولى العرش العثماني سنة ٩٢٦ ﻫ كان عمره ٢٦ سنة ولبث حاكما
نحو نصف قرن وقد انشأ ديوانين آخرين بدل الديوان الواحد الذي انشاه
ابوه عرف بالديوان الكبير والديوان الصغير ورئيسها الباشا الذي جعل
مركزه في القلعة تحت ملاحظة قومندانها الاغا وتقرر أن يجدد انتخاب
هذا الباشا سنويا ومن شأن الديوان الكبير أن ينظر الاشغال العمومية التي

لا تتعلق بالباب العالي اما الديوان الصغير فينظر في الحوادث اليومية
والادارة الثانوية

وخصص السلطان سليمان البكوات المماليك الذين اقامهم ابوه واضاف
اليهم ١٢ بيكا آخرين للاعمال التي فوق العادة فصاروا اربعة وعشرين بيكا
وانشأ ايضا فرقة عسكرية سابعة من المماليك ولكنه احدث تغييراً عظيما
في اقطاع الاراضي المصرية لانه لما عجز عن ايجاد طريقة لاحصاء الاراضي
المصرية وثروتها رأى أن يحل تلك الصعوبة باقرار صريح واصدر فرماناً
صرح فيه بانه المالك الحر الوحيد (١) لجميع الاراضي المصرية ثم فرق
كل الاراضي المصرية على شكل اقطاعات على مزارعين كثيرين كان
يدعوهم بالملتزمين الذين لهم الحق بمنحها للفلاحين الذين كانوا يحرثون تلك
الاراضي ويتمتعون بخيراتها ويورثونها لاعقابهم ولكن ليس لهم حق
التصرف فيها وكانوا يدفعون خراجها للملتزمين فاذا مات الفلاح بلاوارث
تعود الارض للملتزم واذا مات الملتزم تعود الارض للسلطان وكان

(١) يقول المؤرخون الغربيون وبالاخص كاتب انكليزي في المصر الحديث أن السلطان سليمان الثاني يعتبر مثال العظمة في المسلمين الحاكمين على المسيحيين ومع ذلك فان ذلك الكاتب الانكليزي الذي كان يحامي ويدافع عنه قال أن السلطان سليمان الثاني لم يقدم على عادة قتل الاخوة كالذين تقدموه من السلاطين لانه لم يكن له اخ يذبحه وقول ذلك الكاتب ايضا أن هذا السلطان كان يأمر بذبح اي احد بدون محاكمة ولكن مع كل ذلك كان من احسن سلاطين الترك المسلمين

الملتزمون يدفعون للسلطان في مقابل هذا الالتزام خراجا سنويا اقل بكثير مما يجمعونه من الفلاحين الذين يعطونهم الارض لزرعها وحفظ السلطان لنفسه الحق في استرجاع الارض من الملتزمين اذا كانوا لا يدفعون له اموالا توافقه

ومن هذا يظهر انه كانت تعطى جوائز على السرقة وعدم الامانة باختلاف انواعها بين رجال الحكومة لانه بالطبع لا يستطيع الملتزمون دفع الاموال التي ترضي السلطان الا اذا كانوا قد جمعوا اضعافها من الفلاحين بطرق مختلفة

فكان هم الموظفين الوحيد في خدمة الحكومة جمع الاموال والاثراء في مدة خدمتهم القصيرة وهذا المبداء كان معمولا به من أول الباشا الذي يجوز خلعه في اي يوم واسترجاعه للاستانة الى اصغر موظف في الحكومة وهو جابي الضرائب

ومن وقت فتح السلطان سليم لمصر حتى غزوة نابوليون اي منذ ٢٨١ سنة حكم مصر في هذه المدة نحو ١١٩ باشا كانوا يتغيرون بالتوالي من (الاستانة) خلاف الثورات التي كانت تظهر في خلال تلك المدة وتتلاشي في وقت قريب . واحيانا كان الباشا يعود لمصر ثانيا من الاستانه بعد عزله بسنة أو اثنين وبالاجمال فان كل البشاوات الذين حكموا مصر كانوا غرباً وليسوا من المصريين فكانوا بعد قدومهم من الاستانة يعتبرون ذلك نفيا فيحكمونها بغير اخلاص والذي كان يخفف

عليهم مرارة هذا النفي والغربة كانوا يجدون في هذا المركز طريقاً سهلا لسرعة الاثراء وجمع الاموال

ولما رأى السلطان أن الباشاوات بطول اقامتهم في مصر يستبدون فيها وينزعون بها الى الاستقلال ويتمردون عليه صمم على تقصير مدة اقامة هولاء الولاة في مصر

وفي سنة ٩٤٥ هـ عهدت بشوية مصر الى داود باشا وهو تاسع من حكمها من الباشاوات فبقي فيها نحو ١١ سنة و٨ شهور لان السلطان كان يثق به لاستقامته وكرم اخلاقه وكان محباً للعلماء معضداً لهم ولعاً بمطالعة الكتب العلميه وخصوصاً العربية وانتهز فرصة وجوده والياً في مصر فجعلها كعبة يحج اليها الشرق كله للاستقاء من ينابيع علومها وفنونها . ولم تكن مصر تصل الى مثل هذه الحالة الا نادراً في مدة تتراوح بين قرن أو نصف قرن . وبعض المؤرخين يقولون أن متوسط المده التي اقامها داود باشا واليا على مصر كانت لا تزيد عن سنتين وقد يكون سعيداً اذا عزلته الدولة من الولاية بعد تلك المدة القصيرة فيخرج منها بثروة كبيرة يكون قد جمعها بطرق غير محلله واذا اتصل خبر ثروته بمسامع السلطان سليمان يهيج فيه حب الطمع والجشع فيختلق له ذنبا ويأمر بقتله ويستولى على كل ثروته

وثالث باشا تولى على مصر من ابتدأ الفتح العثماني هو احمد باشا واحيانا يقول المؤرخون أن اسمه سليمان باشا وقد مالت نفسه للاستقلال

فاحدث ثورة في البلاد توصله الى غرضه ولكونه كان عدواً لابراهيم باشا الصدر الاعظم الذي ارسل سرا سنة ٩٣٠ هـ الى امراء القاهرة ليقتلوا احمد باشا فبلغه امر هذه المؤامرة السرية فقبض على المحررات الرسمية وحرقها كلها ويقول بعض المؤرخين انه احرق كل الدفتر خانه المصرية وسجلاتها لهذا الغرض وحرقت المحررات الواردة من الاستانة بقتله قبل أن تصل لاصحابها واخبر امرأ القاهرة أن تلك الاوراق أوامر وارده من جلالة السلطان بقتلهم فابوا الامتثال لذلك دون الاطلاع عليها فقتلهم قسرا ولما تأكد من انقراض كل خصومه نادى باستقلاله وامر أن يخطب له في المساجد وتضرب النقود باسمه ثم تمادى في العسف والفجور واختلاس اموال الناس فهاجوا عليه وبينما هو في الحمام خرج اثنان من امرائه بعد كسر باب السجن الذي كان قد سجنهما فيه وبيدهما العلم العثماني يستنصران الناس بفعل احمد باشا انه سيقتل في الحمام فهرب من سقفه والتجأ عند احد كبار العرب بالشرقية فادركوه هناك وقطعوا رأسه وعلقوه على باب زويله ثم نقل للاستانة سنة ٩٣١ هـ

ويظهر أن سلاطين آل عثمان كانوا يميلون الى الكنيسة اليونانية في مصر اكثر من الكنيسه القبطية الوطنية المصرية ولذلك كان بطاركة اليونان لايخشون الاقامة في مصر وفي زمن الفتح العثماني كان البطريرك القبطي وقتئذ يوحنا الثاني عشر والبطريرك اليوناني مرقس الثالث . لكن لم يعرف في التاريخ عنه شيئا ولا عن الذي اخلفهما وهما يوحنا

الثالث عشر وفيلوثاؤس أو ثاوفيلوس

وفي ذلك الحين انقطعت العلاقات بين الحبشة وامها الكنيسة المصرية بالنسبة لما كان ينتج عنها غالبا من الثورات العظيمة فحرض ذوو الاغراض والغايات جلالة امبراطور الحبشة واغروه على قبول مطران على الحبشة من البرتغاليين المقيمين في بلاده وذلك المطران كان يدعى يوآس برمودز وقد سافر فعلا ذلك الرجل الى رومه ليرسمه البابا ويعينه في هذه الوظيفة ولما وصل اليها رسمه البابا مطرانا للحبشة وبطريركا للكرسي الاسكندري - وهو عمل عدواني عظيم -

ومع كل ذلك فقد انكرت الكنيستان القبطيه واليونانية في مصر (١) هذا الاعتداء

وقيل ان الذي اخلف البطريرك يوحنا الثالث عشر سنة ١٥٢٦ مسيحية البطريرك غبريال السابع على انه لم يزل هناك شك في اثبات مدة حكم يوحنا الثالث عشر حتى ان بعض الكتاب ينكرون حقيقة وجوده بالمرة . ومع ذلك فان اسمه ذكر بكشف اسماء البطاركة عند الاقباط ولو فرضنا عدم وجوده جدلا فاننا نرى فاصلا بين مدتي حكم يوحنا الثاني عشر وغبريال السابع وهو ثمانية وثمانين

(١) وهذا العمل هو في الحقيقه من التدابير التي تستخدمها السلطة الدينيه الرومانيه لايجاد سلطة دائمة على الكنيسة القبطيه في مصر ولم يكن اصحاب هذا المبدأ يألون جهدا في تنفيذه من وقت مجمع فلورنس حتى هذا اليوم

سنة (١) وهذا مما يحملنا على عدم التصديق بعدم وجود بطريرك للاقباط طول هذه المدة مع اعتبار أن البطريرك الذي ينتخب بحسب القانون الكنائسي القبطي لابد أن يكون في مقتبل العمر وان كان لا يقل سنه غالباً عن خمسين سنة . ومن هذا يتضح أن الذي كان جالسا على الكرسي المرقسي في عصر داود باشا هو يوحنا الثالث عشر

وقد جاء في تاريخ الكنيسة القبطية أن داود باشا حكم مصر بالعدل وخصص زمنا كبيرا من وقته لجمع مكتبة جميلة وكان الناس في مدة حكمه في بحبوحة السعادة والامن

وبعد أن توفى داود باشا سنة ٩٥٦ هـ اخذت البلاد تنتقل من رديء الى ارداء وزادت طرق السلب والنهب حتى وصلت الى درجة مريعة وقطعت الطرق وهجرت الشوارع القديمة . وآخر من تولى مصر في ايام السلطان سليمان محمود باشا وكان اردأ ممن تقدمه من البشاوات وجاء من الاستانة بموكب عظيم وعند مروره من الاسكندرية الى القاهرة كانت تقدم له الهدايا العظيمة وكان في انتظاره بالقاهرة حاكم الصعيد محمد ابن عمر في ذهبية جمع فيها انواع الهدايا ومبلغ ٥٠ الف دينار فاخذ الباشا منه كل ذلك وامر بخنقه ثم خنق ايضاً القاضي لانه لم يقابله عند مجيئه واستمر على هذا الاستبداد الفظيع حتى قتل كل اعيان القاهرة

(١) يوحنا الثاني عشر رسم بطريركا سنة ١٤٨١ مسيحية وغبريال السابع توفي سنة ١٥٦٩ مسيحية

وكان لا يمر في الشوارع الا مصحوبا برئيس الجلادين فاذا اراد قتل احد اشار الى هذا الرئيس فيزهق روحه في الحال وزاد طمعه وجشعه الى درجة عظيمة فلما توفى الامير ابراهيم الدفتردار الذي كان اميراً للحج استولى على كل ماله ومماليكه وجواريه وكان مقدار هذا المال مائة الف دينار ضمه الى ما يرسله سنويا مع الهدايا للسلطان ووزرائه ليستميلهم اليه ولكنه لم ينتفع من هذه الرشوة حيث تربص له احد القتلة كان قد استأجره الناس لقتله ليستريحوا من ظلمه فتربص له بينما كان ماراً في ركبه مع رئيس الجلادين وصوب اليه رصاصة القته صريعا يتخبط في دمائه على الارض وكان ذلك يوم الاربع ٣٠ جماد اول سنة ٩٧٥ هـ وكان القاتل مختبئا وراء حائط البستان الذي كان داخلا اليه بموكبه فقبض حراسه على اثنين من فلاحي البستان وقطعوا رأسيهما في الحال ظنا منهما انهما من القاتلين . اما القاتل الحقيقي فهرب ولم تقف له الحكومة على اثر . وكان الناس ينتظرون وقوع ثورة أو هياج بعد قتله فاسرع التجار بقفل دكاكينهم . ولكن الامراء المدبرين لقتله خوفا من أن يفتضح امرهم ويقعوا في مسئولية عظيمة اخذوا يهدئون خواطر الشعب ويؤكدون لهم بعدم قيام ثورة أو هياج ولم تتجه انظار اي احد للاخذ بثار ذلك الظالم المقتول . وكان السلطان سليمان الثاني قد توفى قبل ذلك بعام واحد وعمره ٧٤ سنة وحكم ٤٨ سنة وتولى بعده ابنه سليم الثاني في ٩ ربيع اول سنة ٩٧٥ فنقل السلطان سليم الثاني سنان باشا والي حلب الى مصر بدل محمود

باشا المقتول واستقبل المصريون واليهم الجديد بترحاب عظيم وبعد وصوله
بتسعة اشهر انفذه السلطان لمحاربة اليمن فسار اليها مع جماعة من امراء مصر
يوم ٥ شوال سنة ٩٧٦ هـ

واقام بدله اسكندر باشا الشركسي حتى عاد بعد سنتين ظافراً
منتصراً ورأى البلاد هادئة في سلام بفضل همة اسكندر باشا الذي رفع
الضرائب عن الفقراء والعلماء فاستلم سيتان باشا الاحكام منه ثانيا في اول
صفر سنة ٩٧٩ فايد النظام واعاد حفر ترعة الاسكندرية وبنى حمامات
وشارع جديد ومسجد في بولاق يعرف باسمه الى الآن واستدعاه السلطان
في ذي الحجة سنة ٩٨٠ هـ بعد أن حكم مصر ثماني سنوات كانت كلها هناً
وسلاما واخلفه حسين باشا وكان كثير اللطف والدعة فكثرت اللصوص
في ايامه وكانت مظالم البكوات المماليك لم يزل اثرها باقيا في البلاد وفي
ايامه توفى السلطان سليم الثاني في ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد أن حكم ٨ سنين
و٥ شهور و١٩ يوما

وقد زاد السلب والنهب في مصر في السنتين الاخيرتين من حكم
السلطان سليم الثاني الى درجه لا تطاق ولا تحتمل

وكانت البلاد السودانية في ذلك الوقت قد تلاشت واصبحت
تئن تحت مظالم اعراب يتاجرون في الرقيق لا يخضعون للحكومات
ويسكنون في الصحارى والجبال وفى ذلك الحين اكتسحت قبيلة سوداء
المملكة الجنوبية وانتخب رجالها من بينهم سلطانا عليهم وجعلوا مدينة سنار

باسمه ملكهم

وفي مدة حكم السلطان سليم الاول وحفيده سليم الثاني كانت المملكة
الحبشية مضطربة تنتابها الحروب الاهلية والدينية . ولما يئس امبراطورها
من الانتصار على اعدائه المسلمين بلا مساعدة من الاورباويين تحالف مع
البرتوغاليين لينصروه على المسلمين باجرة غالية وهو ان يقبل بطريرك
كنيسته مرسوما من قبل بابا رومية بدلا من بابا الاسكندرية . ثم توفي
داود واخلفه ابنه اقلاديوس على العرش الحبشي وكان سنه اذ ذاك ثمانية
عشر سنة فقط فسار على خطة ابيه واستمر متحالفا مع البرتوغاليين حتى
انكسرت كل القوات الاسلامية التي يقودها الحاكم المسلم (العادل) وتبدد
شملها فلما رأى اقلاديوس أن بلاده طهرت من الاعداء واصبحت في
سلام وكان يعامل برمودز البطريرك الروماني بكل تجلة واحترام رفض
الاعتراف بسيادة بابا رومية في ممالكه وارسل وفداً الى البطريرك القبطي
غبريال السابع ليبلغه عن لسانه انه (اي البطريرك) رئيسه الروحي
الوحيد ويلتمس منه أن يرسل له مطرانا جديداً . فوصل الوفد وقام
بمأموريته وفي الحال رسم البطريرك كاهنا يدعي يوسف وارسله مطرانا
للحبشة فقابله الامبراطور وجميع الاحباش بالفرح والتهليل ومزيد
الترحاب والاجلال اما برمودز البطريرك الروماني فلما رأى ذلك وتأكد
من خيبته في اغراء الحبشة وضمها الى الكنيسة اللاتينية فارق تلك البلاد
راضيا من الغنيمة بالاياب وعاد الى البرتوغال حيث كتب تقريراً مفصلا

عما تم له ورآه عن عهد رحلته الى الحبشة حتى عودته منها

وكان وقتئذ القديس اغناطيوس لويولا مقيما في رومية فاتقدت نار الغيرة في قلبه واستاء من هذا الخذلان المعيب والخيبة المخجلة وكان يعتقد انه من الممكن الانتصار على الاحباش وجذبهم الى حضن الكنيسة اللاتينية ومسح العار الذي وقع لهم فتوسل الى البابا أن يرسله الى الحبشة ولكن البابا رفض طلبه لسببين اولهما عدم امكانه الاستغناء عنه وخوفه من تجرؤ الاحباش على قتله وثانيهما خوفه من أن هذه الغيرة الحارة تفقد فطنته وحزمه وتعقله فيجلب على نفسه مالا تحمد عقباه

ثم رأى البابا أن يرسم آخراً من اكليروس الكنيسة اللاتينيه بطريركا للحبشة بدل برمودز فاختار رجلا يدعي نونو باريتو وكاهنين آخرين يكونان بوظيفة معاونين له في خدمته الكهنوتية وسافر هولاء الثلاثة الى جوا فاقام فيها باريتو واستمر الاثنان في السفر حتي وصلا الحبشه فاستقبلهما الامبراطور اقلوديوس بكل لطف لاعتبارهما بمنزلة ضيوف غرباء وبعد أن اكرم مثواهما افهمهما بكل رقة وتأدب أنه يرفض قطعيا الاعتراف بسلطة بابا رومية عليه وعلى شعبه وبلاده وأنه لا يخضع الا لكرسي مارى مرقس الانجيلي • وقد سمح الامبراطور لهذين الزائرين بالبقاء في بلاده ولشدة غيرة الشعب الحبشي على كنيسته الوطنيه وتمسكه بعبادته الارثوذكسية لم يضل ولم يحد عن معتقده بتأثير ذينك الرسولين

اما الامبراطور اقلوديوس فقد تفرغ لترميم واعادة بناء كنائسه

التي خربها المسلمون في الحرب الاخيرة ولقب أحد كنائسه العظيمة التي بناها (بجبل الذهب) لعظمة بنائها وجمال زخارفها

وبعد أن ترك المسلمون البلاد بعد انكسارهم الاخير عادوا ثانيا لغزو الحبشة فاضطر ان يقوم الامبراطور اقلوديوس بنفسه لصدهم عن بلاده كما فعل المرة الاولى ولكن خانته الظروف في هذه الدفعه لان الاحباش الاغبياء الذين كانوا معه اندهشوا من كثرة عدد المسلمين وفروا هاربين من أول وهلة فبقى اقلوديوس وحده في ميدان القتال ومعه فقط عشرون من السواري وثمانية عشر جنديا برتوغاليا من حاملي البنادق فاحتاط بهم المسلمون وبعد أن جاهدوا جهاد الابطال وباعوا حياتهم رخيصة في ميدان القتال قتلهم المسلمون عن آخرهم بعد أن قتلوا كثيرين من المسلمين وبقى الامبراطور وحده ومعه ٢٠ جريحا • ولكن بالرغم عن بسالته وشجاعته التي تحرك لها عواطف العدو الشريف اعجابا قطعوا رأسه وعلقوها لتكون موضوع الهزء والسخريه بين المسلمين مدة ثلاث سنوات حتى قيض الله تاجرا ارمنيا فافتداها ودفنها باحترام ووقار في مدينة انطاكية

وقد اخلف اقلوديوس على العرش الحبشي اخوه مينا او منياس فلم يظهر تلك الدعة ورقة المعاملة التى كان يظهرها أخوه للكاهنين الرومانيين اللذين اصبحا في عزلة وانفراد لا يعرفهما احد ولا يلتفت اليهما فرد من افراد الشعب فاورثهما ذلك مزيد السخط والاستياء ومن ثم أخذا يغريان احد كبار اشراف الاحباش فارتد عن ايمانه واتحد معهما ثم تقدم مع

المسلمين محالفة ضد امبراطوره المسيحي فاضطر حينئذ الامبراطور منياس
للقيام بجيشه لتأديب هؤلاء العصاة وحلفائهم من المسلمين فهزمهم شر
هزيمة ولكن توفى بعد ذلك وفي الغالب ان وفاته كانت بسبب الجروح
التي اصابته في الحرب وقبل وفاته ترك العرش لابنه سجود وكان صبيا
يناهز اثني عشر سنة من عمره

ويحسن بنا ان نقول هنا بان بابا روميه استاء من تصرف رسوليه
ولو انه لا يعلم اذا كان هذا الاستياء قبل او بعد الانهزام فاسرع وارسل
مندوبا الى غبريال البطريرك القبطي فاستقبل البطريرك ذلك السفير
البابوي وهو يسوعي يدعي كريستوفر رودريكو بكل لطف واكرام ولما فاتحه
برغبة البابا بانضمام الكنيسة القبطية للكنيسة اللاتينية رفض ذلك بكل
ثبات رفضا باتا وابى الا المحافظة على عقائد كنيسته الوطنية المستقلة .
فطلب السفير منه رجاء لامبراطور الحبشة بالنسبة لنفوذه عنده كي لا
يمس الرسولين الموجودين هناك بضرر فكتب له ما اراد وسمح امبراطور
الاحباش ثانيا لهذين الكاهنين بالاقامه في بلاده بعد مسامحتهما عما فعلاه
مع والده ولكن لما اشتهر سوء سيرهما لدى جميع الاحباش سخطوا عليهما
فلم ينجحوا في رد احد منهم عن عقيدته فقدما تقريراً للبابا يقولان فيه ان
الحبشه لا ترتدعن ايمانها الا بقوة السيف فلما علم بذلك ملك البرتوغال طلب
من البابا بيوس ان يعيد رجاله فاستدعاهم الى بلادهم وعلى ذلك انتهت اعمال
لارساليه الدينيه البرتوغاليه في الحبشه

الفصل السادس والستون

تأثير الاصلاح في مصر

سنة ١٥٧٤ مسيحية و ١٢٩٠ للشهدا و٩٨٢ هجرية

وفي ١٠ رمضان سنة ٩٨٢هـ بويع مرادخان ابن السلطان سليم الثاني
ولقب (مراد الثالث) فعين رجلا يدعي مسيح باشا الخادم والياعلى مصر
بدلا من حسين باشا الذي لم يحكمها الا سنة وتسعة اشهر وكان مسيح
باشا هذا خزنداراً (ناظر الماليه) عند السلطان الثاني فحكم مصر خمس
سنوات وخمسة اشهر ونصف وكان اول اهتمامه بها ايقاف تيار الناهبين
واللصوص الذين كان يقتلهم بلا شفقة ولا رحمة حتى بلغ عدد من قتله
من المجرمين عشرة الاف شخص أو يزيدون . وقد استراحت الرعية
واطمأنت قلوبها على اموالها وممتلكاتها من الفاسدين الظالمين وقد اشتهر
هذا الوالي بالعدل والذكاء ولو أنه كان يرى دائما عبوسا . ومما يذكر له
بالاطراء والاعجاب والنزاهة والتقى انه عوضا من أن يستعمل مصر
التعيسة كغيره سلما يتسلق منه الى جمع الثروة الخصوصية كان يرفض
الرشاوي والهدايا التي كانت تقدم اليه بلا حصر فضلا من أنه شاد عدة
مساجد بالقاهرة لم يبق منها الا واحد يوجد الآن بقرب المقابر المعروفة
باسمه وان كان قد بناه باسم الشيخ نور الدين القرافي ووهبه له ملكا حراً
وخصص له مالا للاتفاق عليه وقد امر مسيح رجال الحكومة أن
يستهلوا الكتابات الرسمية دائما بهذه العبارة (الحمد لله والصلاة والسلام

على نبينا وآله وصحبه ان المؤمنين اخوة فاحفظوا السلام بين اخوتكم
واتقوا الله)

وفي سنة ٩٨٨ هـ عزل مسيح باشا واخلفه حسن باشا الخادم ناظر
مالية السلطان مراد الثالث الذي ما وطأت قدمه مصر حتى عادت الى ما
كانت عليه من الفوضى وسؤ الحال لانه وجه همته لجمع المال من أي
طريق كان وبحالة مخجلة اوجبت تداخل السلطان نفسه واستدعت صراخ
المصريين والشكوى من كثرة الرشاوي والهدايا والحجر على الممتلكات
والتعديات الخ فاستدعاه السلطان بعد أن حكم مصر سنتين وعشرة اشهر
كانت كلها شقاء وعناء وعند خروجه من القاهرة سار مختفيا تحت ستار
الظلام بأن خرج من باب المقابر لئلا ينتقم منه الاهالي وأخلفه سنة ٩٩١ هـ
ابراهيم باشا وامره السلطان أن يتحرى ويستطلع المظالم والاختلاسات
التي اتاها سلفه حسن باشا فعين مندوبا في جامع السلطان فرج ابن برقوق
ليستقبل تشكيات المتظلمين من حسن باشا وحدد ميعاداً لقبول التشكيات
من ١٠ رجب سنة ٩٩١ هـ الى غاية رمضان من تلك السنة فتقدمت في
ظرف تلك المدة مظالم لا تحصى ولم ينج من سرقاته واختلاساته حتى عمال
وموظفي الحكومة الذين كانوا معه وتحت ادارته وياليته اقتصر على ذلك
بل تعدى ايضا على اموال السلطان نفسه فان ابراهيم باشا اثبت انه سرق
من الشون العمومية ١٠٠٤٤٢ اردب قمح وباعها واخذ قيمتها لنفسه فلما
قدم ابرهيم باشا تقريراً ضافيا بكل ما تقدم الى السلطان امر باعدام حسن

باشا خنقا في الحال واستولى على كل امواله وممتلكاته التي جمعها من غير
الطرق المشروعة اما ابراهيم باشا فقد بدأ بعد ذلك بالتجوال في كل
بلاد القطر المصري وهي عادة لم تكن مألوفة من قبل ولم يسبقه اليها ملك
أو وال على مصر . وكان غرضه من هذه السياحة أن يتحقق بنفسه احوال
البلاد واحوال اهلها ويقف على اغراضهم ومراميهم ليتمكن من
اصلاحها ونشر العدل بينهم . ولقد وصل في تجواله الى صحراء مصر
الجنوبية وتوغل فيها حتى أم مناجم الزمرد الشهيرة عند كثير من المؤرخين
«بابآ رامرود» فرسم بعضها رسما دقيقا يستطيع به الوقوف على كلياتها
وجزئياتها وان كانت مهجورة من نحو ٢٠٠ سنة على الاقل . وقد رجع هذا
الوالي المجتهد الى عاصمة البلاد وفي فكره آراء كثيرة عن طرق الاصلاح
المرجو وبعض احجار جميلة من تلك المناجم الواسعة الغنيه لكنه ما بدأ
بأعماله ومشروعاته التي ترقى القطر وأهله حتى استدعاه السلطان الى
الاستانه فسافر اليها عام ٩٩٢ هجريه وترك البلاد بين أيدي بعض الحكام
الذين تركوا اللصوص والاشقياء ينهبون ويسرقون ويعتدون على عباد
الله دون ذنب ولا جريرة ثم اصيبت البلاد فوق ذلك بزلزلة قوية هدمت
كثيرا من منازلها ومعابدها واوقعت الرعب والهلع في نفوس الساكنين
وبعد اشهر قليلة عين سفان باشا الثاني خلفا لابراهيم باشا على مصر فاساء
التصرف كما استاء الاهالي الذين اضطروا من ظلمه وفساد حكمه الى رفع
شكواهم للسلطان . غير ان هذه الشكوي ما كادت تصل الى الاستانة

الا وسنان باشا هاربا على وجهه من مصر والشرق بعد أن حكم مدة عامين واخلفه في سنة ٩٩٤ هجريه عويس باشا وكان صارم الاحكام قاسيا غليظا فبغضته الجنود وهجمت عليه في الديوان يوم ٢٨ شوال سنة ٩٩٧هـ الموافق لعام ١٥٨٤ مسيحية واهانته اهانة شديدة قامت على اثرها ثورة عظيمة بين امراء المماليك وولاة الحكومة العثمانية استمرت ١٠ سنوات خربت فيها البلاد وهرب كثيراً من اهلها كما اختفى كثيرون في بطن الارض .

ولما ان هدأت الثورة عين حافظ باشا احمد الخادم واليا على مصر عام ٩٩٧ هـ وكان كثير الحب للعلم وذويه وحاذقا حازما ورؤوفا شفوقا بالاهالي وخاصة الفقراء منهم الذين احبوه ومالوا اليه وفي اثناء حكمه اي في ١٧ رمضان سنة ١٠٠٣هـ تولى الخلافة السلطان محمد الثالث فولى على مصر فورط باشا وهذا الرجل من اهل الذكاء اشتهر بلطفه ودعته وحبه للعلم وللفقراء كسلفه الا ان مدة حكمه لم تطل سوى سنة واحدة وثمانية ايام واخلفه السيد محمد باشا في شوال سنة ١٠٠٤ وكان ايضا كسابقيه في الاخلاق والاداب فاعاد بناء الجامع الازهر ورتب الطعام لفقرائه من طلبة العلم ورمم المشهد الحسيني ومع دعته واجتهاده بحفظ النظام والامن وفض المشاكل فقد بلى بثورة عسكرية عظيمة نشبت في كل بلاد القطر عام ١٠٠٦ هـ وازدادت سعيراً وهيجا كما ازداد العصاة جرأة والثوار جسارة فاجتمعوا في القاهرة وارادوا ان يبطشوا به ان لم يسلمهم بعض ضباطه لقتلهم فهرب منهم عند قائد الجيوش بالقلعة فانتهزوا فرصة هروبه وقتلوا

بعض القضاة والقواد ثم جالوا في المدينة سلبا ونهبا وقتلا حتى جعلوا منهم في كل منزل اثرا لا يمحي من اذهان سكانه ونال الاقباط طبعا في هذه الثورة فوق ما نال اخوانهم المسلمون من ضروب الاعتداء والسلب والنهب كما قتل كثير من الامراء وغيرهم مما لا متسع لذكره في هذا الكتاب

وفي ١٧ ذي الحجة سنة ١٠٠٦ هـ تولى خضر باشا ولاية مصر بعد السيد محمد باشا وكان شديداً اراد ان يستعمل سلطته للاضرار بالناس فامر اولا بقطع رواتب الفقراء والعلماء كما قلل المرتب للجند من الطعام فهاج هؤلاء عليه هياجا عظيما وهموا بقتله في ٢ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ فلم يتمكنوا من الوصول اليه لكنهم تلاقوا بحاجبه وارادوا قتله فاستعطفهم واعطاهم ما شاؤا من المطالب وقد حدث في اثناء ذلك أن بابا رومية عاد لاتخاذ المساعي والوسائل التي توصله لاعتراف الكنيسة القبطية بسلطته عليها فارسل بعض رجاله الى مصر فاجتمعوا بالبطريرك يوحنا الرابع عشر الذي عقد لهم مجمعا من الاساقفة في بابيلون ليسمعوا آراءهم في هذه المسألة لكن لما اجتمع الاساقفة سمعوا آراء النواب حتى هاجوا وعارضوا معارضة شديدة كما رفضوا اقتراحات البابا رفضا باتا الا أن البطريرك القبطي (١) كان طاعنا في السن وميالا لتضحية استقلال كنيسته فاعلن

(١) ان البطريرك يوحنا الرابع عشر كان يعتقد انه اذا خضع لسلطة البابا تحت شروط سهله ومطالب مقبولة يضمن بذلك حماية الاقباط تحت رعاية راع قوي البأس فيأمن غائلة الاضطهادات الاسلامية

الاساقفة بان القوانين الخاصة بقبول الاقتراحات قد تمت ودونت مرتكنا في ذلك الاعلان على نفوذه الديني وتأثيره الشخصي . وما هي الاساعة أو اكثر حتى توفى هذا البطريرك فجأة (١) وانحل المجلس مرتبكا بلا عمل يذكر وبدون ان يرى هذه القوانين التي لم يوقع عليها احد اما مندوبو البابا فقد قبضت عليهم الحكومة بحجة انهم جواسيس غرباء والقتهم في اعماق السجون فعز ذلك على الاقباط وهم مطبوعون على الكرم الطبيعي وهموا لانقاذ اولئك المسجونين فقدم بعض اغنيائهم مبلغ خمسة الاف قطعة من الذهب فدية لهم فلبت الحكومة نداءهم واجابت ملتمسهم واخرجت المسجونين من سجنها حالا حيث عادوا بعدها الى بلادهم (٢) وابلغوا الامر الى البابا وبكل ما حصل لهم وحدث اولا وآخرا فاسرع هذا ورد مقدار الفدية الى الاقباط شاكرا لهم حسن عواطفهم وجميل شعورهم

(١) يقول المؤرخون الرومانيون الكاثوليك ان البطريرك مات مسموما ولكن لم تظهر ادلة ولا قرائن تاريخية تؤيد ذلك

(٢) يقول بارونيوس المؤرخ الروماني ان الذي اخلف البطريرك يوحنا الرابع عشر بعد موته فجأة قد اكمل المشروع الذى اسسه سلفه بشأن الخضوع لسلطة رومية مؤكدا روايته هذه بالكتاب الذي نقله في كتابه بهذا الشأن واسنده للبطريرك غبريال الثامن وقال فيه ان الاتفاق والاتحاد المذكور قبلته الكنيسة القبطية المصرية في يناير سنة ١٥٩٥ . ولكن ظهر بعدئذ ان بارونيوس كان مغشوشا فيما اثبت وان كل كتاباته كانت غير حقيقية

اما حالة الديار المصرية في ذلك الحين فقد كانت سيئة للغاية أن لم نقل انها كانت على غاية الفوضى حيث وقعت البلاد تحت نير المظالم والمتاعب لسوء تصرف الولاة الذين حكموها . وقد كانت الثورات التي تقع طبعاً عقب تلك الاحوال تنتهي اما بقتل الوالي أو بارجاعه الى الاستانة العلية وكذلك بايقاع افراد الطبقة الصغرى من السكان سيما الاقباط منهم في مصائب عظيمة . وبعد أن خمدت الثورة التي ثارت في عهد السيد محمد باشا وصدرت له الاوامر بترك منصبه أخلفه علي باشا السلحدار سنة ١٦٠٢ مسيحية وكان بطلا محبا للقتال سفاكا للدماء ميالا الى الجند استعمل القساوة الفائقة في معاملة المصريين حتى قال عنه المؤرخون المسلمون انفسهم انه كان لا يخرج مرة في موكبه الا ويقتل عشرة الاف نفس تحت اقدام جواده بتهم باطلة فازداد خوف الناس منه وزادت تعاسة البلاد في ذلك الحين بوقوع مجاعة هائلة وعقب تلك المجاعة اعظم وافظع الاوبئة فتكا

وكان رجل يسكن بقرب احدى بوابات المدينة قد اخبر شمس الدين المؤرخ انه رأى اكثر من ثلاثمائة جثة خرجت امامه من البوابه في يوم واحد . واخيراً لما كثرت الوفيات امر الباشا بابطال عمل الاحتفالات الخاصة بدفن الموتى (المشهد) ثم خاف على نفسه من العدوى فهرب من القاهرة مستخلفا عليها احد الامراء المدعو بيري بك وهذا توفى بعد ذلك بقليل فلم يرجع علي باشا السلحدار ليعين وكيلا آخر له فاجتمع السناجق

واتخبوا الامير عثمان بك ليقوم مقامه فبقي عثمان بك حتى عين الباب العالي خلفا للي باشا وكان سبب الابطاء في تعيين هذا الخلف من الاستانة وفاة السلطان محمد الثالث في ١٦ رجب سنة ١٠١٢ ه

وفي تلك السنة (أواخر سنة ١٦٠٢ مسيحية) مات البطريركان القبطي واليوناني ولكن لم يعلم اذ كان سبب وفاتهما الطاعون او انهما ماتا موتا طبيعيا لان ذلك غير مثبوت في التاريخ ويحتمل ان غبريال الثامن بطريرك الاقباط هو الذي مات بالطاعون ولكن مليتيوس بيغا بطريرك اليونان لم يمت به لانه يظهر ان الطاعون لم يكن هكذا شديداً في الاسكندرية حيث يقيم مليتيوس بيغا من وقت قدومه للقطر المصري وقد كان غريبا عن مصر كباقي من تقدمه من بطاركة الكنيسة الملكية اليونانية في مصر حيث ولد في جزيرة كريت ثم ارتقى في وظائف الكهنوت حتى اتى مصر بصفته نقيب نائب عن كنيسة القسطنطينية في مصر وبطريركا للاسكندرية . وتفصيل ذلك انه أتى الى الاسكندرية سنة ١٥٧٤ مسيحية طالبا للعلم والمذاكرة ثم رسمه البطريرك سيلفستر كاهنا وهو الذي تقدمه فنجح في وظيفته الكهنوتية وفاق على اقرانه في الاسكندرية ثم ارسل الى كريت ليستدعي ولدا قريبا له وذلك الولد هو الذي صار بعدئذ البطريرك كيرلس لوقار . ولما حضر كيرلس للاسكندرية لم يتم تعليمه فيها فارسله قريبه الى فينسيا حيث امضى بضعة سنوات وعاد الى الاسكندرية وقت انتخاب قريبه مليتيوس بطريركا للاسكندرية بدل سيلفستر . وفي المدة التي كان فيها الكرسي

البطريركي اليوناني خاليا أي من بعد وفاة سيلفستر الى انتخاب مليتيوس كان مجتمع القسطنطينية معقودا سنة ١٥٩١ واقر على انشاء بطريركية جديدة مستقلة بمدينة موسكو عاصمة روسيا وبينما كان مليتيوس بيغا رئيسا على الكنيسة اليونانية في الديار المصرية كان قريبه كيرلس لوقار يتجول بضعة سنين في اوروبا . وفعلا زار ايطاليا وجنيفه وهولانده ويقال انه زار انكلترا ايضا ولكن الدليل على زيارته لانكلترا مما يقبل الريب وقد اندهش كثيراً من مظاهر التقوى والايمان الحار والعبادة الحقيقية التي رآها في تلك الممالك التي كانت تخطو في سبيل الاصلاح ولما كان مثل باقي اعضاء الكنيسة اليونانية الوطنية فقد عارض كثيرا في مزاعم وادعاآت رومية وكان يشعر ان كنيسته تحتاج حقيقة للاصلاح بخلاف اقرانه من رجال الاكليروس وما تعلمه ورآه في سياحته اثر في ايمانه تأثيرا عميقا لكنه مع ذلك عاد للاسكندريه صادقا في ايمانه وحبه لكنيسته وبعد ذلك بقليل رسمه قريبه مليتيوس بيغا كاهنا واخذه معه الى القسطنطينية وبعد ان بقي هناك مدة سنة ارسلوه في مأمورية صعبة الى بولاندا فلم ينجح فيها ولما عاد منها ارسلوه الى كريت ثم عاد منها ثانيا للقسطنطينية وانتهز فرصة قدومه للقسطنطينية هذه الدفعة فاصطحب مع المسيو فون هاجا وطلب منه ان يرجع معتقدات وتعاليم كلفنوس .(١)

(١) مذهب ديني اوجده احد اللاهوتيين يوحنا كلفن عاش من سنة ١٥٠٩ الى سنة ١٥٦٤ مسيحية ؛

هذا هو الرجل الذي أنتخب ليخلف ملتيوس بيغا البطريرك اليوناني الاسكندري بعد ان توفي عقب المجاعة والطاعون اللذين حلا بمصر سنة ١٦٠٢ ولم يعارض في انتخابه احد ولكن ثروته العظيمة التي انفقها على كنيسته ومعارفه العالية أزالا الظنون الناشئة عن فتوره في الايمان الارثوذكسي ولما عين سار على خطة تخالف من تقدمه من بطاركة اليونان لان هؤلاء كانوا يمضون اغلب ايامهم خارج القطر اما هو فاستوطن في مصر وترأس كنيسته عشرة سنوات واجتهد كثيرا في اصلاح المفاسد ومع كل ذلك ظل مخلصا لكنيسة اجداده

ويقول السائح الانكليزي ساندس الذي زار مصر سنة ١٦١١ مسيحيه انه اندهش كثيراً من تعاليمه وآدابه السامية ويقول ايضا ان كيرلس هذا كان له فكر صائب واعتقاد تام باهمية تعاليم الكنيسه الوطنيه الانكليزيه التي سارت في سبيل الاصلاح دون ان تعمل على خراب نفسها كما عملت الكنائس الاخري ويعتقد ان نقطة الاختلاف والفرق بين الكنيسه الانكليزية والكنائس الشرقيه ليست بذات اهمية ولكنه لسوء الحظ لم يظهر استعداداً لمد يد الصداقه المسيحية الي الكنيسه القبطيه التي كان يري طول زمن تألمها بسبب مظالم المسلمين

لانه من عهد الفتح العثماني كانت الكنيسه اليونانيه في مصر محبوبه من رجال الدوله العثمانيه ونوابها في مصر وقد تحسنت احوال الكنيسه بسبب ذلك تحسنا يذكر . اما الكنيسه القبطيه الوطنية فكانت بعكس

ذلك قد وصلت الى اسفل دركات الانحطاط واصبح الاقباط اذلاء ومستعبدين . يحتقرهم المسلمون ويقولون انهم كفار ويهزأ بهم الاروام (اليونان) ويقولون عنهم انهم هراطقة وكان العنصران ينظران اليهم بعين الحسد ويغار منهم المسلمون لانهم يفوقونهم في العلم والاستقامه والامانه التي تجعلهم يمتازون عنهم في دوائر الحكومه حينما احتكروا كل وظائفها — ولان المسلمين واليونان يعرفون ان الاقباط هم سكان مصر الاصليون القدماء ويغار منهم اليونان لان مطالبهم العظيمه تعتبرها الحكومه بانها مطالب الكنيسه الوطنيه . ولا يعذر كيرلس بطريرك اليونان ولا يخلو من المؤاخذه في تجنبه استعمال كل وسائل التودد والصداقه مع بطاركة الاقباط (الذين عاصره اثنين منهم) ولا يعذر ايضا لعناده ورفضه كل الحقائق الواضحه المختصة بالاقباط(١) واحتقاره لهم وتشامخه وغطرسته

(١) كتب في احدي رسائله لاحد أصحابه ممن تابعي مذهب كلفن يقول ان الاقباط واليعقوبيين هما طائفتان دينيتان مختلفتان ووصف اليعقوبيين قائلا انهم من تابعي نستور (نستوريون) أي تابعي مذهب نستور . والحقيقه انه اظهر جهلا عظيما فيما يختص بالاقباط حتي ان بتلر المؤرخ يشك في وجود تلك الرساله التي كتبت بهذا المعنى لانه لا يصح وقوع جهل كهذا من بطريرك اليونان الاسكندرى . ومع ذلك فانه حتى في عصرنا الحاضر الذي يقولون عنه عصر النور يقع يوميا كثيراً من مثل ذلك الخطأ بجهل بعض رجال كنيستنا الانكليزيه الذين يحكمون

بسبب جهلهم المعارف والعادات الاوروبية . ومع ذلك فان قسوس كنيسته ما
عدا الذين تعلموا في الخارج كانوا لا يقلون جهلا بالعالم الغربي والعلوم
بانواعها عن قسوس الكنيسه القبطية وحالة كهنة الكنيستين كانت في اسفل
دركات الانحطاط . وفي خلال ذلك كانت المخابرات جارية بين بابا روميه
وبطاركة الاقباط الذين يخلفون بعضهم بعضا بالتتابع . وكتب البابا
غريغوري الثالث عشر الى البطريرك القبطي يوحنا الرابع عشر يدعوه
الي الاعتراف بالسلطه الرومانية فأرسل يوحنا رده الى البابا سكستوس
الخامس الذي اخلف غريغوري وكان مثل رد البطريرك غبريال الثامن
للبابا كليمن الثامن وهو الرفض مع اللطف والرقة التي جعلت بابا رومية
يظن مدة طويله انه نجح في مساعيه — وهكذا كتب بارونيوس المؤرخ
في تاريخه عن رضى الاقباط بالاعتراف بالسلطه البابويه — ولما جلس
البطريرك مرقس الخامس على الكرسي المرقسي دارت المخابرات ثانيا بينه
وبين البابا . وكان اعتقاد الرومانيين الى هذا اليوم ان الكنيسة القبطية
كانت قد خضعت للسلطة الرومانية لو لم يكن الباشا والى مصر عزل
البطريرك مرقس فجأة ولكن الحقيقة التي لاريب فيها ان الكنيسة
القبطية مع وقوعها في اشد احوال الهول والتعاسة ظلت متمسكة
باستقلالها القديم الى الآن ولو انها كانت راغبة في الاشتراك في السنين

الآن ارض مصر نفسها وهم مسؤلون بصفتهم مسيحيين عن الحالة
التي يتخذونها نحو الكنيسه القبطيه

التقدمة مع الكنيسه الرومانية واليونانية كما حصل بين الكنائس اليونانية
والكنائس الانكليزيه فانها لم تكن تصرح لاى بابا غريب أو نائب بابا
من أية درجة أو أمة كانت ان يتصدى للقيام بوظيفة التشريع فيها بل
بقيت كما هي الكنيسه القبطيه المصريه الوطنيه المستقله .

وفي سنة ١٦٠٤ وجهت الكنيسه القبطية نظرها نحو مشروعات واعمال
الارساليات الرومانية الكاثوليكيه في الحبشة . وقبل ذلك الوقت باربع
سنوات سافر الى الحبشه يسوعياً يدعى بيدوفيز ولما وصل الى مصوع سجنه
الاحباش هناك ولكنهم اطلقوا سبيله بعدئذ وسمحوا له بالاقامة بين
ظهرانيهم فعاش مدة معتزلا بمدينة فريمونا من اعمال الحبشه واقتطع
لدرس اللغة الحبشيه فبرع فيها حتى قيل عنه انه كان يقرأ ويكتب فيها
بطريقة أصح وامتن من الحبشي الاصلي فاتصلت شهرة ذلك العالم الى
بلاط الامبراطور زارنجل الذي خلف سجود على العرش الحبشي فأرسل
له واستقدمه ليظهر براعته امامه في اللغة الحبشيه وشيئا من معارفه
ومواهبه العلميه . فطار بيز فرحا لهذه الدعوة وتمثل امام الامبراطور فاخذ
يناقش الكهنة الوطنيين بلغتهم في المواضيع العلمية حتى تغلب عليهم ببراهينه
وفصاحته وسمح له الامبراطور ان يلقي موعظة امام الحاضرين . فالقى موعظة
جميله أثر بها على الامبراطور فمال الى اعتناق المذهب الكاثوليكي الروماني
واقتدي به كثيرون من رجال بلاطه وحكومته فأدي ذلك الى قيام الشعب
الحبشي على الامبراطور دفاعا عن ايمان كنيستهم الوطنيه الاصلية وارضاء

لخاطر المطران القبطي وقامت حرب اهلية ذبح فيها الامبراطور من أول معركة وهزم اعوانه وبعد قتله اصبح يطالب بالعرش الحبشي اثنان احدهما من العائلة الملوكية والآخر من الثابتين على المذهب الاصلي القديم وبعد نزاع وجهاد بين الطرفين وقع الانتخاب على شنوده الذي يسميه المؤرخون سوسيانوس والذي كان يسمى ايضا سلتام سجود وارتقى الى العرش الحبشي

وبعد ان هدأت الاحوال سمح الاحباش الى اليسوعي بيز بالبقاء في بلادهم. ولما كان يسوعياً حقيقياً وعالماً ماهراً — وكان ذا حماس شديد على مذهبه ولا يتحول عن غرضه مهما حالت دونه العوائق فانه أخذ يجتهد في التأثير على هذا الامبراطور الجديد واستمالته لمذهبه وبسببه هذا اوقع البلاد ثانيا في حرب اهلية .

وذاع وقتئذ ان وفداً سافر من الحبشة الى ايطاليا ليعلن للبابا خضوع شنوده امبراطور الحبشه ودخول المملكة الحبشية تحت سلطة الكنيسة الرومانية . فاعلن ثانيا المطران القبطي حروما صادقا على الذين يتمسكون بالعقيدة الكاثوليكيه وهاج الشعب الحبشي ثانيا فاشهر السيف في وجه الامبراطور دفاعا عن دينه واستقلاله القديم ولكن الامبراطور انتصر على الشعب هذه المرة . ومن ثم اخذ الهياج يزداد شيئا فشيئا حتى تمرد كل الشعب الحبشي واشهروا العصيان ضد الحكومه واصبحت البلاد في حرب اهلية هائلة . فسحق الامبراطور شنوده رؤساء العصاة الواحد بعد الاخر واذاع علنا ارتداده واعتناقه المذهب الكاثوليكي الروماني . اما بير روبيز

اليسوعي مصدر تلك المصائب فقد مات بعد ذلك سنة ١٦٢٣ مسيحيه . ويعتقد الانسان بلا شك انه بمساعيه الغير شريفه نجح في تخريب المملكه الحبشية المسيحية التي اكرمته واضافته فاقام حربا اهليه فيما بين اهلها وامبراطورها

الفصل السابع والستون

مصر في القرن السابع عشر

سنة ١٦٠٣ مسيحية و١٣١٩ للشهدا و ١٠١٢ للهجره ولما توفى السلطان محمد الثالث بويع بدله ابنه احمد الاول ابن محمد . فولى على مصر في الحال واليا يدعي ابراهيم باشا فاراد ابطال زيادة مرتبات الجند فتمرد عليه رجال الجيش وكان ذلك سببا لقتله فانه بعد توليته ببضعة اشهر تآمروا عليه وانتهزوا فرصة خروجه بحرسه قاصدا شبرا بطرفي النيل فارادوا الفتك به ولما استشعر بالامر التجأ الى قلعة الدولاب بتلك الجهة ولكنه اشار عليه السياجق بالهروب من طريق النيل فلم يقبل فاحاط الجنود الثائرون بالقلعة وارسلوا منهم ١٥ ليأتوا برأس الباشا فلما مثلوا امامه وبأيديهم السيوف أنتهرهم قائلا ألم تأخذوا مرتباتكم والهدايا التي جاءتني منذ توليتي (فماذا تريدون اذا) قالوا نطلب رأسك ثم ضربوه على رأسه ووجهه وقطعوا رأسه ورأس أمير آخر انتهرهم على ذلك وعلقوا الرأسين على باب زويله

وكان ذلك يوم ٢٩ ربيع آخر سنة ١٠١٣ هـ . وولي على مصر بعده موقتا عثمان ولكنه لم يقبل البقاءفولوا القاضي عسكر مصطفى افندي . ولما علم الباب العالي بقتل ابراهيم باشا أرسل بدله الوزير محمد باشا الكروجي مزودا باوامر صارمه الى السناجق بقمع الثورة وتحقيق اسبابها والقبض على القاتلين فلم يقبل السناجق تنفيذ هذه الاوامر فتوسط الامراء بينهم وبين الباشا الذي وعدهم انهم اذا سلموا اليه القاتلين يعفو عن ذنبهم

فسلموا القاتلين للباشا فامر بقطع اعناقهم امامه في الحال ولكنه لم يبر بوعده للسناجق بخصوص العفو عنهم وبعض المؤرخين يقولون انه عفا عنهم والنتيجة انه لما رأى الناس انه في خلال السبعة شهور التي ولي فيها واليا على مصر قتل من الامراء والبكوات المشاغبين والمحركين للثورات نحو مايتي نفس فاوجد ذلك الرعب في قلوب من يتوقون للثورات والمشاغبات وقل عدد القاتلين وبعد ان حكم سبعة أشهر وتسعة أيام تولى بدله الوزير حسن باشا وكان أقل حزما من سلفه. وفي ٧ صفر سنه ١٠١٦ هـ تولى بعده الوزير محمد باشا وكان حكيما حازما.

وفي اواخر شوال من السنة الثالثه (ينار سنة ١٦٠٩ مسيحية) ثار عليه العساكر لشروعه في الغاء الضرائب الغير عادلة وقد اشتهر بانه ليس له اعدا في البلاد الا هولاء الجنود الذين أرادأن يمنعهم عن السلب والنهب ولما اكتسب محبة الناس له لما اوجده بينهم من النظام وتوطيد دعائم الراحة والسلام حكم مصر نحو أربع سنوات وأربعة أشهر و١٢ يوم واستعفى

من نفسه بلا ضغط ولا اكراه . فلما أمضى نحو سنتين حاكما على مصر ورأى رجال الجيش قد اصبحوا وليس لهم غير مرتباتهم فقط فلا يستطيعون جمع ضرائب غير قانونية لاجل التفرغ الى ملاذهم ولو شقي الفلاحون التعساء سوءا كانوا من المسلمين والاقباط وهذا هو سبب تمردهم وعصيانهم. فتحالف كبار الجيش من الامراء والبكوات في اجتماع عقدوه في برج السيد احمد البدوي على قلب السيادة العثمانيه وارجاع البلاد الى حالتها القديمة حيث كان المماليك فوق القانون فانتخبوا واحدا منهم وجعلوه سلطانا عليهم وآخر جعلوه وزيرا . ثم قسموا مصر الى اقاليم التزم كل واحد منهم أقليما وأستمروا في السلب والنهب .ولكنه كان يوجد بينهم بعض من المماليك ورجال الانكشاريه المخلصين الذين رفضوا الوقوف في وجه الباشا الحاكم العادل فاجتمع معهم الباشا وتشاور واياهم ومع السناجق والجاويشية للتوصل الى مايجب اتخاذه ضد هؤلاء العصاة فاتفق الجميع على القيام لمحاربتهم فساروا بقيادة الباشا في ٩ ذي الحجه سنة ١٠١٧ هـ ومعهم ستة مدافع وبعض قبائل من العرب في الليلة التالية عسكروا في بركة الحج وفي الصباح التالي هاجموا العصاه في الخانكاه وضيقوا عليهم باطلاق النيران فلما رأى الامراء العصاة انهم سيهزمون لا محالة سلموا انفسهم واخذ عليهم الباشا عهدا بتسليم سلطانهم وزعمائهم وهو يضمن لهم حياتهم في مقابل ذلك . فسلموا اليه بعض رفقائهم وعددهم نحو ٢٣٧٧ من ضباطهم فقتلهم الباشا حالا وبذلك تخلصت الاقاليم من

عبث العصاة ثم اسر الباقين وذبح كثيرا منهم فلما رأى القاضي عسكر تزايد المذابح يوميا نصح للباشا ان يتبع سياسة احكم من ذلك وهي ان ينفي كل من يقبض عليه من العصاة بدل قتلهم فقبل الباشا هذه النصيحة وكبل نحو ٣٠٠ مملوكا بالسلاسل الحديدية وارسلهم على الجمال الى السويس ومن هناك وضعوا في مركب وارسلوا الى اليمن . ولما ارتاح محمد باشا من الثورات صرف باقي مدة حكمه فى تخفيف الاثقال عن عاتق المصريين فاصلح ادارة المالية وخفض بنفسه النفقات التي كانت تدفع من خزينتها فابطل منها مبلغا عظيما كانت تدفعه الحكومة معاشا يتمتع به الكسالى من ذوات وكبار المسلمين وابطل طريقة المماليك الشراكسية في جمع الضرائب ونفذ القوانين التى اصدرها السلطان سليمان بشأنها سنة ٩٣٢ هـ ونظم المكوس واذا كانت بعض الاراضي لا تأتي بأيراد عظيم تنازل لصاحبها عن الحكومة ضرائبها .

ولما أقيل وبارح القطر المصري انهالت عليه الانعامات والمكافآت مما لم يصادفه احد من اسلافه وتولى بعده محمد باشا الصوفي وكان عفيفا لا يقبل الرشوة محبا للعلم والادب ورعا حليما لم يأت ظلما . على الاطلاق

وفي سنة ١٠٢٢ هـ (١٦١٣ مسيحية) ارسل الصدر الاعظم عشرة الاف رجلا من الانكشارية الى اليمن لاخماد ثورة فيها كطلب حاكمها فنزل هؤلاء الجنود بمصر لانها طريقهم الى اليمن وكان مع قائد الفرقة المذكورة

امر شاهاني الى محمد باشا الصوفي والي مصر ليمد رجال تلك الفرقة بالنقود ويقوم بكل لوازمها من المؤونة وغيرها ويسهل لها وسائط النقل من الاسكندرية للسويس . فرأى الانكشارية ان بلاد مصر جميلة وتلذ الاقامة فيها فادعوا أنهم جاؤا للاقامة بها وانكروا امر رحلتهم ولم يذعنوا للباشا الوالي بالسفر الى اليمن واحتلوا عنوة القسم الذي كانوا فيه من القاهرة بما في ذلك باب النصر وباب الفتوح وطردوا اصحاب البيوت الكائنة في ذلك القسم واقاموا بها وشرعوا في اقامة المتاريس حول ذلك القسم وقفلوا باب النصر وأقاموا المدافع في برجيه . فالتزم الوالي الباشا أتقاء لذلك الخطر اتخاذ الوسائط السياسية في محاصرتهم في نقطتهم بكل مالديه من العساكر والمدافع ولكنه لم يكد يضيق عليهم الحصار حتى تمكن احد ضباط جيشه الامير عابدين بك من الدخول الى حصنهم من مدخل سهريج مدرسة الجانبلاطية فذعروا وظنوا ان جنودا تتبعهم من ذلك المدخل فخافوا وسلموا في الحال ولكن لم يعاقبهم الباشا على هذا التمرد بل فرق عليهم نحو ثمانين كيسا من النقود وطلب منهم القيام الى مهمتهم في اليمن

وبعد ذلك اعتزل الصوفي وتقاعد في قبة العادلية بمصر حتى أتى خلفه من الاستانة احمد باشا دفتر دار مصر سابقا الذي لما دخل الى القاهرة بموكبه رجمه احد الناس بحجر من فوق سطح فكسر الهلال الذي فوق عمامته ولم يصب بضرر فقتل الفاعل في مكانه وبعد ذلك بثلاثة سنوات

اي سنة ١٠٢٥ هـ وصل الوالي امرا من السلطان ليضم مائة جندي الى
حملته المرسله عن طريق مصر لمحاربة الفرس فارسلهم تحت قيادة صالح بك
امير الحج ومروا بالمديريات ولم يشعر الاهالي بمرورهم مع انه لم يكن
يتيسر قبل ذلك مرور مائة رجل بعزبه او قرية مالم يسلبوها وينهبوها
وينسب ذلك لنفوذ الباشا الوالي ولما اوجده من النظام والعدل في صرف
رواتب الجيش في مواعيدها ويقال انه عند ماودع الباشا هذه الفرقة
فرق على كل واحد من رجالها ٢٠ دينارا وقد التقت بالجيوش العثمانية
عند الخانكة

وبعد مضي سنتين تقريبا تمزقت احشاء مصر والقسطنطينية بسبب
عزل السلاطين والولاة والثورات الداخلية التى تخللت ذلك .

ففي يوم الاربع ٢٣ ذي القعده سنة ١٠٢٦ هـ توفي السلطان احمد
الاول وأخلفه أخوه مصطفى الاول ولما جلس على اريكة العرش العثماني
عزل احمد باشا والي مصر المتقدم ذكره بعد ان حكمها مدة سنتين وعشرة
اشهر و١٢ يوما ولم يقتل في اثناء ذلك الا عشرة من المصريين فقط لان
أفعالهم كانت تستوجب القتل وما عدا ذلك فانه لم يكن يعاقب احدا الا
بعد الفحص والتحقيق الدقيق . وتولى بعده مصطفى باشا لفقى .

ثم عزل السلطان مصطفى بعد ثلاثة اشهر وثمانية ايام في ٣ ربيع اول سنة
١٠٢٧ وانتخب بدله ابن اخيه ابو النصر عثمان فعزل مصطفى باشا والي
مصر لانه كان سببا في حدوث ثورة عسكرية في ٧ شوال سنة ١٠٢٧ هـ

قتل فيها كثير من الامراء وغيرهم واضطر الباقون الى الفرار وتولى مكانه
جعفر باشا ولكن مدة حكمه لم تدم اكثر من خمسة اشهر ونصف وفي
اثناء المدة التي حكم فيها مصر كان معضدا العلم ومكرما العلماء ويريح العباد
ولكن حدثت في ايامه مصائب عظيمة للبلاد من طاعون ومجاعة وغيرها
وكان هو سببا في موت بطريرك الاقباط كما سترى في سياق هذا الفصل
وكان المماليك مدة حكم احمد باشا ومصطفى باشا يسلبون وينهبون ولا
يكفون عن الذبح وقطع الطرق ويستخفون بقوة الولاة اتباعا لطبعهم
الاستبدادي .

وفي سنة ١٦١٦ مسيحية عاد كيرلس لوقار بطريرك اليونان الى
مصر بعد غيابه في اوروبا زمنا وكانت سياحاته في اوروبا قد اثرت عليه
وزادت في ميله الى مبادئ كلفن اللاهوتية وفي الحقيقة أنه بسبب ذلك
كانت العلائق بينه وبين رئيسه بطريرك القسطنطينية على غير ما يرام
ولكن تم الصلح بينهما قبل أن يرجع كيرلس الى مصر . وكانت اول اعماله
في مصر بعد عودته من سياحته انه جمع اساقفة كنيسته وعقد مجمعا منهم
تحت رئاسته واصدر حروما ضد الارساليات الكاثوليكية الرومانية التي
قد تأسست وتفشت في البلاد

ولم يمض وقت طويل بعد جلوسه على كرسي البطريركيه في الاسكندرية
حتى علموا ان قسوس كنيسته جميعا في الديار المصريه جاهلون اغبياء لا يدرون
شيئا في شؤون وظيفتهم الكهنوتيه وغير كفوء لتلك الوظائف بالمرة مثل

قسوس الاقباط الذين كان يحتقرهم كثيراً بعكس اولئك الدخلاء الكاثوليك الذين كانوا قد تعلموا العلوم اللاهوتيه حتى أثروا بمواعظهم البليغة على الشعب المصري فاستأ البطريرك كيرلس وخشي عاقبة ذلك وهذا ماجعله أن يبادر الى عقد مجمعه ليحرمهم كما تقدم القول

ثم قدم طلبا الى رئيس اساقفة كنتربري بانكلترا عن يد سفير انكلترا في القسطنطينية يستمد رائيه في أمر جهل قسوسه فاشار عليه رئيس اساقفة كنتربري ان يرسل الى انكلترا كاهنا من الشبان وهو يتعهد بتعليمه اللاهوت ويؤهله لان يكون الساعد الايمن له في مصر . ويحسن بنا هنا أن نأتي على كتاب كيرلس الى رئيس الاساقفة ورد هذا الاخير عليه لما في ذلك من الفائدة واللذة :

خطاب البطريرك الى رئيس اساقفة كنتربري الكلي القداسه والاحترام — مولاي السيد رئيس اساقفة كنتربري — (متروبوليت) مطران ورئيس اساقفة عموم انكلترا — الذي يستحق عظيم الاحترام من داعيكم — اما بعد — فلي الثقة بان كتابي هذا يصل الى يدكم الطاهرة بانكلترا بكل احترام ووقار يليق بمقامكم السامي .

اني كيرلس بنعمة الله بابا وبطريرك كنيسة مدينة الاسكندرية العظيمه وقاضيها الشرعى العام . بعد ان اتمنى لغبطتكم كمال الصحه لفائدة ونمو القطيع المعهود اليكم من الرب رعايته اتشرف بابلاغ مقامكم الرفيع منذ عودتي بنعمة الرب يسوع الى بلاد مصر وتمتعنا بعونه تعالى بمزايا

السلام الذي اوجدته في كنيستي — أراني مشتاقاً للتبروء من الوعد الذي قدمته لقداستكم بخطاباتي السالفة وضميري يشعر بان المسيح لا يسر بمشاهدة سلام تام في كنيسة اخرى بدرجة اتم مما في كنيستي ما دمنا قد نزعنا بنعمه الايمان المعلن لنا كل اسباب الشقاق والخصام من عهد ما الجم المسلمين (الذين يعتبرون الد اعداء المسيحية واشد المعارضين لمبادئها) السنة اولئك الذين يحركون عوامل ذلك الشقاق وتلك المخاصمات (١) الذين بسببهم قد وقعنا في تجارب كثيرة مختلفة وتضايقنا كثيراً : ومع كل ذلك فاننا اكراماً لاسم الفادي الحبيب يسوع الذي نطق به بكل ورع وخشوع والذي نحمل معنا علامته دائماً . نشعر مسرورين بتلك الآلامات النفسية متحملين كل ذلك الغيظ والضيق بكل ثبات وعلاوة على ذلك فاننا اذا ادت الحالة لوقوعنا تحت العذابات والقصاصات الاليمة فنقبله بكل انشراح معتقدين أنه بهذه التجارب قد يتجلى ايماننا ويظهر اكثر فاكثر ويعلن فينا مجد الله

اذاً لا نخاف من تلك التجارب بل نخاف من اولئك الكلاب اولئك العملة الغشاشون — اولئك المراؤون المنافقون — الذين يقولون غير ما يضمرون — الذين ادت بهم وقاحتهم لمهاجمة الله نفسه اذا كانوا يريدون باية طريقة تأييد مظالم بابا رومية

فاولئك الجواسيس يزعجوننا الآن ويغشوننا لبساطتنا ويستعملون

(١) يقصد بهذا التلميح الارساليات الكاثوليكية الرومانية في مصر

وسائط والآت كثيرة لجذبنا تحت سلطتهم مرتكنين بالاخص على مظاهر براعتهم في العلم والمشاكل التي يوجدونها – بينما نحن نشتغل في امر احتياجنا لرجال متعلمين يقدرون أن يقفوا في وجه اولئك المدعين الكاذبين لاننا بسبب خطايانا قد اصبحنا احقر كل الشعوب وبانقلاب الممالك قد فقدنا الفنون الحرة

وبعد طول التأمل والتفكر في هذا الموضوع وصلت الى نتيجة مرضية للافكار وهو فتح باب المواصلات بيني وبين محبتكم الطاهرة طالبا مشورتكم ومساعدتكم

وبينما انا في هواجسي هذه هبطت علي اعظم تعزية من قداستكم حيث تشيرون علينا بامر جلالة ملككم العظيم أن نرسل احد مواطنينا ليدرس اللاهوت بين ظهرانيكم وتحت رعايتكم المقدسة

فها هو اذاً قادم لغبطتكم شاب يوناني الجنس حائز لوظيفة قسيس من وظائف الاكليروس وعارفا بالآداب اليونانية وهو ابن احد اعضاء كنيستنا الاسكندريين . شريف الاصل . ذكي الفؤاد وعلى تمام الاستعداد لتلقي العلوم اللاهوتية العالية . ولنا الثقة في أن الارتقاء الذي سيتحصل عليه يأتي بالفائدة المطلوبة ولا يجعلنا نندم على ما صرفه من الوقت هذا اذا كانت النعمة الالهية تحل عليه من السماء واذا شملته رعاية قداستكم ومساعدة يدكم الطاهرة

هذا وبمناسبة قول قداستكم أن هذا المشروع مقبول لدي صاحب

العظمة والجلالة الملك جامز الاول المتوج على عرش انكلترا ايده الله . يجب علينا تقديم خالص امتناننا ومزيد تشكراتنا القلبية لشفقته هذه التي تقرب شبهاً من شفقة ومحبة الملك السماوي . فبهذا القبول قد اقر بنا وكان اشبه بملاك يرسله الله سبحانه وتعالى من السماء مزوداً باعظم عطايا نعمته وبعنايته سبحانه وتعالى الخصوصية له قد اسند اليه رعاية تلك المملكة العظيمة النامية . وقبل الختام نلتمس من قداستكم أن تنوبوا عنا في ابلاغ تحياتنا مقرونة باعظم واجبات الاحترام والوقار والخضوع والعبودية الجسدية الى جلالة هذا الملك الشفوق الكريم الذي يتمنى له من كل قلوبنا حياة سعيدة وعمرا مديدا ونتوسل من تقواه الغريزية العظيمة أن يسمح بفيض احسانه العميم على عبده القادم للتعليم

وفي الختام اذا كان ينقص في كتابي هذا شيئا فيما يختص بالتعليم فهذا يمكن تداركه بواسطة فطنتكم التي اقامها الله فيكم وارسلها كمصباح مضئ في مكان سام حتى يمكنكم ليس فقط تعزية مواطنيكم البريطانيين بل ايضا كل ابناء جنسنا من اليونانيين

اني احييكم واستودعكم الله ايها الآب الطاهر واطلب منه سبحانه وتعالى أن يهبكم عمرا طويلا سعيدا وان يعطيكم القوة الجسدية ليمكنكم تحمل متاعب الشعب والكنيسة التي عهد اليكم العناية بها

تحريرا بالقطر المصري في اول مايو سنة ١٦١٦ شرقي (اي سنة ١٦١٧)

فوصل مستروفانس القسيس اليوناني بامان الى انكلترا واستقبله

الملك والمطران استقبالا حسنا وأدخل في جامعة اوكسفورد

وهذه صورة رد المطران على البطريرك اليوناني

من جورج أبوت بنعمة العناية الالهية رئيس اساقفة كنتربري ومطران سائر بلاد انكلترا ورئيس اساقفتها — الى الكلي القداسة السيد والاخ كيرلس بابا وبطريرك الاسكندرية وقاضيها المسكوني العام دام بصحته في المسيح

أما بعد فانه توجد اشياء كثيرة تشهد بالشعور المشترك والاتفاق الحلو اللذان يتمتع بهما أعضاء كنيسة المسيح العامه . ولكني في هذا الوقت اشعر بهما اكثر من المعتاد خصوصاً لتمكني من معانقة اخوتكم بين ذراعي مع عدم سبوق رؤيتكم وجهاً لوجه ومع بعدكم عني بمسافات طويلة ارضية وبحرية . وذلك لان وحدة الايمان تربط كل منا الواحد بالآخر . وعهد المحبة يوصلنا في شخص واحد وفي روح شخصية واحده حتي بذلك نمجد المسيح يسوع وبذلك نستنشق الحياة . ونهنيكم من صميم الفؤاد على السلام الذي تتمتع به كنيستكم التي كما تقولون ليست مضطربة بالانشقاق والشغب والفتن الداخلية . هذا ما نهنيكم بتمتعكم به في وسط الاعداء الالداء الحاملين على اسم المسيح طبقاً للنبوة الملوكيه بشأن المسيح الملك — . (لتكن حاكما في وسط اعدائك) وأيضا نلتمس بركة تقواك على عطايا الرب الكثيرة المنسكبه بغزاره على الكنيسة البريطانية ويليق بنا في هذا المقام أن نوضح لكم ما قاله قديسكم المعظم

يوحنا ذهبي الفم عن جزيرتنا (ستسمعون الناس يتفلسفون من الكتاب المقدس بالسنة غريبة ولكن بايمان مألوف يستعملون لغة المتبربرين . ويعترفون بايمان القديسين) لان شعبنا المخصص لعبادة المسيح دائما مصطحب بنور الانجيل الساطع ويطفي ظمأه بغزارة من مجاري مائه الحي القراح بلا خوف ولا وجل وهذه النعم الربانية اللذيذة لا يمكن الحصول عليها في الكنائس الواقعة تحت نير بابا رومية .

أما فيما يختص بتثقيف وتعليم شعبنا فانه يختلف عن الكنائس الاخرى التي طهرت من ادران البابوية . فاننا متمسكين باقدم شكل من القواعد الاكليريكية فنطلب من الله الذي يعطي شعبه كل شيء حسن أن يحفظهم لنا الى الابد . ولو اننا بعد فساد آداب عقولنا وبالنسبة لخطايانا وبالاخص لكفرنا بالنعمة ونكراننا للجميل قد استحقينا بان ينقل شمعداننا الذهبي من محله ونحن انفسنا قد حرمنا من نور الكتاب المقدس على اننا لا ننسب النعم التي نتمتع بها لاستحقاقنا اياها فاننا في الحقيقة لا نستحقها . ولكن اولا الشفقة والمحبة الالهية وثانيا بالنسبة للمحبة الوحيدة التى ينتخبها الرب لاعلان مجده بواسطتها . فان جلالة مليكنا المعظم جامز الاول الوارث للتاج والرئاسة الدينية من الملكه اليصابات التي نتذكر اسمها مقرونا بالتقوى يعززهما بشرائعه ويضيئها بقدوته الحسنة لان جلالته عرف بانه غيور على سماع المباحث المقدسة وضيف على مائدة الرب وبالاخص في الولائم الاكثر خشوعاً

وهو يتناقش على علم في اعظم اسرار المدارس اللاهوتية العويصة مع أعظم الاساقفة المتعلمين وقد الف أيضا وكتب كثيرا وأحسن كتاباته الدقيقة في علم اللاهوت . وكان مبدأ كتاباته تثبيت الايمان وهدم الاغلاط اللاهوتية وبالاخص الرومانية منها . وعليه فاني اهنيك من كل قلبي للمحبة التامة التى نلتموها من ملك هذه صفاته فانه بعد أن اطلع على الخطابات المرسله الي من قداستكم يهدي غبطتكم تحياته ويتكلم عنكم بكل ثناء وشكر . ولكي ابرهن لقداستكم على صدق نيته قد امرني باستقبال مرسلكم المدعو متروفانس وغمره بكل تعطف ولطف واني سالاطفه واعززه واعتبره وديعة عندي وعنوان محبتكم لي . كما واني بكل امتنان سامده بكل ماهو ضروري ولازم له . وها الآن قد وضعته في مدرسة يونانية صغيرة في حديقة تدير النفوس. حيث يترعرع فيها بين ظهرانينا وفي وقت قريب يثمر ثمراً شهياً .

وفي جامعة اوكسفورد العظيمة التي بها اعظم مكتبة فاخرة وسبعة عشر كلية ويتعلم بها كثيرون من مختلفي الاجناس والعناصر على نفقة المملكة العمومية ادخلنا مرسلكم متروفانس للتعليم وعند ما يستكمل تعليمه ويثمر ثمرا جيدا ويصبح قادرا على خدمة كنيستكم

ولي الان فقط ايها الاخ الكلي القداسة بان اتوسل من غبطتكم وتقواكم مواصلة صلواتكم للرب عن الكنيسة البريطانية كما نحن نصلي أيضا كذلك عن الكنيسة اليونانيه حتى تكون صلواتنا بقوة العناية الالهية

سورا منيعا لكنيستكم معززة بالمحبة والسلام ولكي تحرر من اعمال اولئك الجواسيس الحدثين الذين يقاومون بخياناتهم حرية المسيحيين ومنهم اولئك الرهبان الكاذبون الذين يجب تجنبهم وعلى الاخص الخارجين حديثا الان من دولاب الفخراني الذين ينتحلون لانفسهم اسم المخلص (١) بغير استحقاق الذين يعترفون بانهم يسعون وراء السلام وهم يحملون كل شيء في اضطراب وارتباك ويدعون انهم يطلبون الحقيقة وهم دعاة المغالطة والمواربة وقد يعمدون في الغالب الى الحنث وخيانة العهد . فنسأل راعي الغنم العظيم ان يحفظ قطيعه من أولئك الثعالب والذئاب الخاطفة كما نسأله ايضا ان يحفظ تقواكم وقداستكم في سلام وفي نعيم وغبطة الى الابد

ولسوء حظ الكنيسة اليونانية في مصر اتفق ان رجلا هولانديا يدعى داوود ليليودي وهلم شديد التمسك بتعاليم كالفينس اتى مصر وصرف زمنا طويلا سائحا في انحائها . واختلط مع كيرلس بطريرك اليونان وبقوة عارضته تمكن من التأثير الشديد عليه وكانت نتيجة هذا التأثير ان جعله يجنح شيئا فشيئا عن تعاليم كنيسته حتى شرد كثيرا عن جادة الايمان الارثوذكسي وأصبح يعتقد ان وظيفته الرئاسة الادارية فقط على تلك الكنيسة اليونانية المصرية . وفي سنة ١٦١٨ مسيحيه ارسل خطابا مملوءه الشكر العظيم لمطران اسيلانزو الذي كان قد ترك الاعتراف بالمبادئ الكاثوليكية واذاع الحياد عن الكنيسة الرومانيه

(١) يقصد بذلك اليسوعيين

والميل الى الكنيسة الانكليزية وكان سبب تشكرات كيرلس له انه ارسل له نسخة من كتابه المعروف في ذلك الحين باسم (الجمهور المسيحي)

ونحن نلخص هنا من كتاب الشكر المذكور ما يظهر أمياله العقلية نحو الكنيستين الرومانيه والمصرية :—

ففي جملة ما قاله بهذا الصدد انه عند ما جاؤا لي بخطابك العزيز كنت مريضا وملازما لفراشي . ولكني تجلدت وقرأته فلما عرفت ما هو الكتاب وما هي مواضيعه ومن هو المؤلف له . أمرت باحضاره اليّ فمسكته بيدي ولم اكف عن مطالعته حتى حضر الطبيب واوقفني عن المطالعة . وبعد ان تقدم وجس نبضي . ناولته الكتاب لانه تابع بدينه الى الكنيسة الرومانية . فماذا تظنه قال لي ؟— انه قال — هل تريد قداستكم ان تسمع رأيي في هذا الكتاب ؟ قلت نعم — قال لا يوجد شيء في هذا الكتاب الا تهمة الرومانيين عامة برفض قبول وظيفة الكردينال العظيمة التي كنت انت مشتاقا اليها والتي كانت سببا في سقوطك وترك مذهبك !

واذا كانت اطاعة الانسان لاخلاص قلبه وحرية ضميره لانه لا يستطيع قبول اوهام ومطامع وضلالات البابا الروماني يعتبر كافرا باعانه فمن فكري انه من الخطأ المبين مع المشهور عن فطنة قداستكم وحذركم واحتياطكم ان تطاوعوا اشارة بارونيوس وتغتروا بتلك الحيلة الاسكندرانية وتتوهموا ان ذلك الوفد الاسكندري هو سفارة أو (١) وفد حقيقي

(١) قيل ان الوفد المذكور أرسل من مصر لمدينة رومة في عصر البطريرك غبريال الثامن

مع ان الحقيقة انه لم يكن الا خدعة رجل قبطي قد توجه لرومية واتخذ لنفسه صفة مندوب من قبل بطريرك الاسكندرية .

وقبل اكتشاف حيلته كان المتملقون الى كليمنت يكتبون ويخطبون بعجائب وغرائب هذا السفير ويخيلون للسامعين كأن الوقت قد حان حيث اصبحت الدنيا باجمعها في قبضة بابا رومية . ولكن عند تولية بولس واكتشاف الخدعة الزموا صاحبها ذلك العميد المدعي ان يهرب سرا من رومية لئلا تظهر حيلته علنا فتسوء العاقبة فهرب وكر راجعا الى مصر .. وكانت هذه الحادثة مثل الحادثة التاريخية التي ساقصها على قداستك بخصوص الاساقفة الروسيين لاني شاهدتها بنفسي حيث كنت نائبا عن بابوي الاسكندرية في بلاد بولاندا من اعمال روسيا وكان مرافقا لي وزميلي قاصد بابوي في القسطنطينية وكان حاضرا معي بين كل الشعب الروسي في مجلس برزسك الذي كان مجتمعا ضد اولئك الاساقفة الروسيين الذين توجهوا الى رومية ... اخاف أن يكون ذلك ضياعا للوقت وضجرا على قداستكم لانكم لا تحتملون بالنسبة لمرضكم أن تسمعوا سرد حيل ومكر الرومانيين ومكائدهم .

لقد مضى عصر كنا فيه مفتونين مرتبكي العقل قبل أن نفهم المعنى الحقيقي لكلمة الله . ومع اننا لم نتداول ولم نتخابر ونتشارك مع بابا رومية ولم نصرح ولا نعتقد بما اتخذه لنفسه وهو تلقيبه نفسه رئيس الكنيسة مثلا . ومع ذلك فاننا نصدق ان قواعد وعقائد الاعتراف الروماني هي

حقيقية ما عدا في بعض مواضيع في اوقات قليلة قد تختلف فيها الكنيسة اليونانية عن الكنيسة اللاتينية . ولقد بغضنا مبداء وقانون اصلاح الكنائس المغاير لايماننا . والحقيقة التي لا ريب فيه اننا لم نعرف ما هو الذي بغضناه ولكن لما اراد الرب الرحيم أن ينورنا ويفهمنا غلطنا الاول ابتدأنا نتصور ونتأمل انه كان من الواجب علينا قبول الاصلاح . وكما انه من الواجب على الوطني الحر أن يحامي ويدافع عن الحق اذا قام شغب أو فتنة في البلاد . فهكذا انا اكثر من ذلك افتكر انه من الواجب على كل مسيحي حقيقي أن لا يوارب أو يتصنع الرأي في المواضيع التي تختص بخلاص النفس بل عليه أن يعتنق بكل صداقة وصفاء نية أن المذهب الموافق لكلمة الله . فما الواجب علي اذا ان اعمله تحقيقا لمبدائي

لما كنت قد تحصلت بواسطة محبة الاخوان على بعض كتابات من علماء الدين المسيحي التي لا يمكن أن يجدها الشرق مطلقا . قد استمديت بواسطة مساعدة الروح القدس وتمكنت في مدة ثلاث سنوات من مقارنة مبادئ الكنيستين اليونانية واللاتينية مع المبادئ التي تم فيها الاصلاح(١) وذلك باني تركت الوالدين وارشاد الآباء الروحانيين واتخذت لي مرشدا الكتاب المقدس ونسبة وقياس الايمان فقط . حتى امكنني اخيرا بنعمة الله أن اكتسب حقيقة راهنة وهو أن مبدأ الاصلاحيين هو الاكثر موافقة للحق والاكثر انطباقاً على مبداء المسيح فاعتنقته .

---

(١) يعني بها الكنيسة الانكليزية

ومن ثم صرت لا يمكني أن أتحمل بأن اسمع تفاسير وتأويلات التقاليد التي وضعها بني البشر تلائم وتوازي قوة الكتاب المقدس . لانه من المستحيل أن نقدر نعبر عن مقدار فساد وضرر عبادة الصور والايقونات في مثل الظروف الحاضره . والله شاهد علي بأني اندب متأسفا على حالة الشرق الحاضره وارثي لها لعدم تمكني من اتخاذ الوسائط اللازمة التي يمكن بها شفاء ذلك الجرح القبيح المخجل . واني لا افتكر ولا أظن بان الايقونات لا بد من محوها والقضاء عليها فانها ما دامت لا تعبد ولا يسجد لها الشعب فانها لا تسبب ضررا . ولكني امقت واشمئز من عبادة الاوثان التي يأتيها اولئك العابدين العميان ولو اني لاحظت في بعض الاحيان اثناء صلواتي الخصوصية لله أن الصليب قد يؤثر ويساعد عقلي ويصور امامه سريعا قوة وشكل الآلام التي قاساها المسيح على ذلك الرسم الخشبي الذي هو عبارة خطين مستقيمين متقاطعين ولكني ارى العوام — لا أقول العقلاء ذوي الافكار الصائبة — قد حادوا عن العبادة الروحية الحقيقية والتوحيد الواجب اداهما لله وحده فقط . وعندي أنه من الافضل أن الناس جميعا يمتنعوا ويكفوا عن خطية عظيمة مهلكة كهذه عوضا عن أن يسيروا بالحياد والمخالفة لناموس الرب لئلا يصدمون في صخرة الذنوب والآثام التي لا تغتفر ويقضون على ذواتهم بالهلاك الابدي

واما مسألة الاستغاثة بالقديسين وطلب الشفاعة منهم فانه مغى

زمن مديد من عمري قبل أن اشاهد القوم يكشفون مجد الرب يسوع المسيح فعارضت بشده ذلك المعتقد في كتابين الفتهما ضد تعاليم العالم ماركوس فوكسيا الذي هو من بلاد تراذسيلفانيا . الذي الف رداً على كتابي. والان اطلب من الله أن يكون شاهدا علي عند ما اقول انه بدرس احوال الشعب المسيحي التابع للكنيستين اللاتينية واليونانية يصيبني الم داخلي شديد عند ما اسمع بامر استمداد الناس معونة القديسين في أغلب الظروف تاركين يسوع المسيح فيخسرون بذلك نفوسهم اه

وكان البطريرك كيرلس ميالا لمبادىء الكنيسة الانكليزية ولكن بتأثير صاحبه المسيو دي ولهلم عليه جعله يميل أيضا لتعاليم كلفنيوس واصبح في يأس من اصلاح كنيسته ورجع حالا عن عزمه وممارسته ذلك الاصلاح الذي كان قد شرع فيه وعزم عليه . ولاشك أن الشعب المتعبد لتلك الكنيسة اصبح يعتقد بان ذلك البطريرك هرطوقيا اجنبيا وقد ضاعت الامال والفرص في ايجاد حياة جديدة للكنيسة اليونانية في مصر .

ولم تكن الكنيسة القبطية أيضا في ذلك الحين اصلح حالا من الكنيسة اليونانية اذ ظهر فيها وتفشت هرطقة جديدة بعد أن كانت تمارس فقط بطريقة غير منظوره . وقد انحطت آداب الاقباط المصريين كثيرا بسبب اختلاطهم الاجتماعي بالمسلمين فكان الاساقفة في اغلب الاحيان يرون انفسهم مضطرين لمقاومة امور التسري واتخاذ زوجات غير شرعيات

على طرق مختلفة . وفي أول ما ظهر هذا العيب الاجتماعي العظيم بين الاقباط قام أحد اساقفة دمياط واعلن على رؤوس الاشهاد بان تعدد الزوجات ليس محرما في العهد الجديد وان ممارسته واتباعه افضل من الزنا والسفاح واخذ يخطب بين الاقباط مصرحا لهم بأخذ اكثر من زوجة

ولما لاحظ البطريرك مرقس الخامس ان هذا الاسقف تمادي في غيه ولم يوبخه ضميره اصدر امراً بحرومه ولو كان هذا الاسقف عندما رأى نفسه قد اصبح مشلولا احتج احتجاجا بسيطا في هذا الحكم واجتهد الدفاع عن نفسه بابداء ارائه التي تعزز مبدأه الذي يخطب به بين قومه فانه كان يمكن اعتباره صالحا حقيقيا وان ضميره يبطن الاخلاص لقومه ولو انه غلط غلطا فاضحا في الواسطه التي اتخذها لتنفيذ الغاية الصالحه التي يضمرها وكانت الغايه تبرر الواسطه . ولكنه اتخذ مسلكا مقابل ذلك الحكم حرم نفسه به من التمتع باستمالة عقل البطريرك لقبول مبادئه وارائه ذلك انه اتى البيت من غير بابه واستعمل نفوذه مع نفوذ بعض الاقباط الذين يشغلون مراكز سامية في الحكومه لينتقم من البطريرك فرفعوا الامر الى الحاكم المسلم وهو جعفر باشا الذي فرح لهذا الامر واتخذه فرصة سانحة يذل بها الاقباط . فدعي البطريرك مرقس امامه وامر بضربه ضربا شديداً مؤلما حتى توفى بعد قليل من تأثير ذلك العذاب .

وعلاوة على احوال البؤس والتعاسة التي وصلت حالة مصر اليها في ذلك الحين زارها ايضا الطاعون واشتدت وطأته بينها فصار يحصد السكان

بالمشرات في شتاء تلك السنه وقد هرب من البلاد بين الهاربين المسيودي ولهلم وقبل مفارقته مصر اهدي كيرلس بطريرك اليونان كرثان برسم الارض بصفة تذكار ولما مات مرقص اصبحت الكنيسة القبطيه بلا رئيس . اما كيرلس فانه لم يهرب من البلاد فأنه يتصرف فه الحكي عنه أفقد بقية سلطانه على كنيسته في هذه الظروف . وقد حسبوا ان الذين ماتوا بالطاعون لغاية ربيع تلك السنة وهي سنة ١٦١٦ اربعماية الف نفس ماعدا الذين في زوايا المدينة وقال أيضا ان كل شوارع تلك المدينة المتسعة الانحاء كانت ملآى بجثث الموتى يتخيل للناظر أنه لم يبق احد حيا وقال ذلك البطريرك عن نفسه أني ظليت حابسا نفسي في منزلي في وسط ذلك الخطر العظيم وكنت اعطي الاوامر من النافذة لرجال الكنيسة فيما يختص بترحيل جثث الموتى من المسيحيين وبنعمة الرب أني حي للآن . وقال شمس الدين أنه عمل أحصاء عن الذين ماتوا بالطاعون من أصحاب الدكاكين والجالسين في الاسواق فبلغ نحو سماية خمسة وثلاثين ألف نفس ماعدا الذين ماتوا في المحلات الاخرى .

وفي أثناء ذلك انتخب الاقباط بطريركا جديدا لهم وهو يوحنا الخامس عشر الملقب بالملواني فحكم الكنيسة تسعة سنوات ولا نعلم شيئا عن أعماله في خلال هذه المدة .

ثم خلع في ذلك الوقت جعفر باشا الذي عذب البطريرك السابق حتى الموت وتولى بعده مصطفى باشا وذلك بعد زوال الطاعون بسنة واحدة فكان هذا الوالي ظاتيا عابثا وكانت فاتحة أعماله أنه قبض على مصطفى بك

البقلجي زعيم الثورة التي نشأت أيام مصطفى باشا القفلي وأعدمه فارتاح منه الناس . ثم أضطهد التجار أضطهاداً عنيفاً وانتشر ظلمه فشكاه الناس الى السلطان فعزله وولى بدله حسين باشا فابطل كل الضرائب الظالمة التي كان قد فرضها سلفه على التجار والناس بلا حق . وفي أيامه أرتفع النيل أرتفاعا عظيما فوق العاده وطغي على الارض فسبب اضراراً جسيمة للبلاد بدل النفع الذي كانوا ينتظرونه بعد الطاعون . فيئس الناس وأصبحوا في ضيق عظيم وعقب ذلك مجاعة عظيمة ولكنها لم تكن شديدة الوطأة . ثم عزل حسين باشا واستقدم الى الاستانه وقبل وصول حسين باشا الى الاستانه كان قد خلع السلطان عثمان الثاني يوم الخميس في ٨ رجب سنة ١٠٣١ هـ الموافق ١٦٢١ مسيحية وبويع مصطفى الاول الذي كان سلطان قبله . فوصل حسين باشا مسرورا وتقرب من السلطان الجديد وقوي حزبه فتعين صدرا اعظم

وكان السلطان الثاني قد ارسل قبل عزله محمد باشا واليا على مصر بدل حسين باشا المعزول فنفر منه المصريون خوفا من ان يأتي معهم ما كان يأتيه من الاستبداد مذ كان واليا في الروماللي ولكنه لحسن حظ المصريين اسرع حسين باشا الصدر الاعظم وعزله بامر السلطان بعد توليته على مصر بشهرين ونصف وولى بدله ابراهيم باشا الذى بقى واليا على مصر مدة سنه حاز في اثناءها ثقة المصريين به ولكن حدث في ايامه غلاء شديد في المأكولات . ثم عزل ابراهيم باشا ولما جاءه الامر بالعزل سافر الى

الاسكندريه بطريق النيل بخلاف عادة الولاة المعزولين الذين كانوا يسافرون
برا . وتولى مكانه مصطفى باشا في ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ ه فابلغه كتبة
الديوان ان ابراهيم باشا اخذ مبلغا عظيما من خزينة الحكومه فارسل وراءه
بعض الجاويشيه والجنود فادركوه على النيل في منتصف الطريق الى
الاسكندريه فهددهم بالقتل ان لم يتركوه فخافوا على انفسهم وعادوا الى
القاهره بخفي حنين فارسل الوالي ثانيا صالح بك بشرذمه من الجنود فادركه
وقد نزل البحر من الاسكندرية فامره بالنزول الى البر ثانيا وبارجاع
الاموال التي معه فقال له انه متوجه الى الاستانة وأن كان عليه ديون
يدفعها للسلطان نفسه هناك ثم نشر شراع سفينته فاطلق عليه صالح بك
المدافع من طابية منارة الاسكندرية فلم يبال بها ولما وصل الى الاستانة
وجد السلطان مصطفى الاول قد خلع وتولى مكانه السلطان مراد الرابع بن
احمد فلم يتعرض أحد لقضية ابراهيم باشا وفاز بامنية من الاموال المصرية

وفي سنة ١٦٢١ مسيحيه أي في المده التي بين حكم السلطان مصطفى
الاول للمره الثانية والسلطان مصطفى الرابع كان قد نفض البطريرك
اليوناني كيرلس لوقار غبار مصر من قدميه وارتقى بطريركا للقسطنطنية
واخلفه على كرسي الاسكندريه البطريرك جراسموس وكان هذا أيضاً
من أهالي كريت مثل البطريرك كيرلس ولكنه انضم بثبات الى الكنيسة
الشرقية ولم يكن ملأ لتعاليم كلفنيوس . ولما وصل كيرلس الى القسطنطنية
انهمك في مشاحنات ومجادلات شديدة مع اليسوعيين الذين كانوا

يشتغلون باجتهاد عظيم في اغراء اعضاء كنيسته في تلك المدينة العظمى
على الانضمام الى المذهب الكاثوليكي فاصدر دسقلية كهنوتية نبه فيها ابناء
كنيسته المؤمنين بالرجوع الى حضن كنيستهم وعدم الاعتراف بانضمامهم
للكنيسة اللاتينية . ولكنه اخطأ بعدم احتراسه من قوة عدوه واستهانته
بها فعزم اليسوعيون على اتخاذ كل الوسائط لعزله وقدموا رشوة للوزير
المسلم في السلطنه العثمانية وطلبوا منه أن ينفي كيرلس هذا لجزيرة رودس
لاسباب يلفقونها له حسب رواية المؤرخ (كريسولولوس) وانتخبوا
بطريركا بدله مطران ادرنة بوسائط غير قانونية وبغير استحقاق .
فادى ذلك الى خلاف شخصي بين البابا وملك انكلترا فكتب البابا
اوربان الثامن يشكر (يعني السفير الفرنساوي في القسطنطينية بنجاح
اليسوعيين في سياستهم وكتب جامز الاول ملك انكلترا الى السفير
الانكليزي يأمره باجراء اللازم نحو ارجاع كيرلس لوكار الى مركزه مهما
كلفه ذلك من المساعي والمصاريف . فاشتغل الخصمان كل من ناحية ضد
الآخر وانتهى الفوز اخيراً لسفير انكلترا فرجع كيرلس لوكار لمركزه كما
كان . ولما لم يعد في وسع اليسوعيين احتمال خذلانهم أستمروا في مشاجراتهم
وكانت نتيجة تلك المشاجرة فوز احد الفريقين الذي كانت رشوته اهم من
الآخر . ويمكن قرأة ذلك التاريخ المحزن بتفصيل وايضاح اكبر في
كتاب نيل المؤرخ الفرنساوي المشهور ولكنا نلخص نتيجة هذا الموضوع
هنا فنقول . انه من عهد ما انقطعت علاقة كيرلس بمصر بعد أن نقل

من بطريركيتها في نوفمبر سنة ١٦٢١ مسيحية كان اليونان واليسوعيون
يتسابقون في بذل الاموال بصفة رشوة للحكام المسلمين الذين راؤا في
ذلك فرصة عظيمة لنفعهم وبابًا مهما يدر عليهم رزقًا جيلا سنويا

ولما يئس اليسوعيون من مسابقة اليونان عزموا على بذل جهدهم مع
الحكام المسلمين ليس للحصول على امنية تنحي كيرلس فقط بل على موته —
وقد تم لهم ما تمنوا وقتل المسلمون كيرلس في قارب صغير غدرا وابتعدوا
به عن اليابسة في وسط الماء لئلا تبذل المساعي في انقاذه من الموت

أما تلميذه متروفانس الذي صرف عليه رئيس اساقفة كنتربري
مدة خمس سنوات للتعليم في جامعة أوكسفورد فانه لم يخرج
من هذه الجامعة العظيمة بانكلترا متحصلا على الشهادة العلمية اللاهوتية
التي كانوا ينتظرونها ويتضح لك ذلك باجلى بيان من كتاب رئيس
الاساقفة الاتي :

كريشوبولوس متروفانس اليوناني قد اتجه في سفره قريبا من هنا
قاصداً فرنسا أو هولاندا وقال انه سيقوم من هنالك برا الى القسطنطينيه .
واقول اني ربيته مدة خمس سنوات في جامعة اوكسفورد العظيمة بانكلترا
وكنت اصرف عليه بسخاء في المأكل والملابس والكتب وباقي لوازم
المعيشة . حتى بلغ مقدار ما صرفته عليه منذ مجيئه الى انكلترا حتى قيامه
منها نحو الثلاثماية جنيه انكليزي وكان منشرحا دائمًا مدة وجوده في تلك
الجامعة . وفي عيد مار ميخائيل الماضي ارسلته الى لامبث واعطيت التعليمات

اللازمة لركوبه في مركب جيد واوصيت بتسهيل كل وسائط الراحة له
في الطريق . ولكن قد اشار عليه بعضهم اشارة ليست في محلها وهي
أن يذهب الى مركز الحكومة في نيوماركت ليقابل الملك قبل سفره من
بلاده فتوجه وقابله جلالة الملك ببشاشة . ولكن لاح له أن يطلب
مكافأة مالية من الملك ليتمكن من مشترى بعض كتب مهمة يحمله معها
الى بطريركه . والوسائط التي عمد الى اتخاذها لنوال غرضه الذي يصعب
على الانسان تصديقه هو . أن يعمل له اولا نيشان نيت (وهو لقب
من القاب الشرف) . ثم لقب بارونت وبعد ئذ يتخذ الوسائط اللازمة
لكي يمنحه الملك امتياز الترشح لنوال راتب كليريكي كبير وقد وعده
بعض الكاذبين الذين يشترون وظائف الكنيسة بالدراهم أن يشتري منه
هذين الامتيازين بمبلغ وافر من المال . فارسلت له قسيس كنيستي لاقناعه
بالعدول عن مثل هذه السفاسف . واستعملت معه طرق التوبيخ
والتأنيب لاني اعتقد أن هذه التصرفات لا تليق برجال الدين

ومع كل ذلك اشتريت له بعض كتب مهمة تأليف اعظم المؤلفين اليونان
ومن ضمنها مؤلف كريسوستوم وهو ثمانية اجزاء واعطيته ايضا كتبا
اخرى لاتينية وانكليزية تستحق الاعتبار اعتقد انها هدية تليق أن تهدى
مني الى سيادة بطريرك القسطنطينية . وبعد عيد مار ميخائيل الماضي
اسكنته في منزلي واجلسته على مائدتي وكسوته بافخر الملابس وخولته
كل وسائط الراحة وكنت اريد أن ارجعه معززاً محترما الى اوكسفورد .

ولكنه بالاسف التف حول بعض اليونانيين المتشردين والدجالين الذين
تعبنا معهم كثيرا ومع كل فلم يمكني الحجر عليه داخل حظيرتي بل تركته
في صحبتهم فصرف وقته ودراهمه هبأ منثورا

كتب لي كتابا على شكل رسالة قال لي فيها انه يفضل أن يفقد كتبه
ويسجن ويضحي حياته من أن يرجع الى وطنه وانه يرغب أن يعرف
كل حقائق الديانة المسيحية . فاستنتجت من ذلك انه اصبح شحاذا
ومتسولا شقيا فاعطيته عشرة جنيهات في حقيبته وقبل قيامي للسفر الى
مدينة كرويدون باسبوعين طردته من حضرتي ولكني اوصيت السير
بول بيندرز بالاعتناء به ولقد سمعت قبلا عن سفالة ذلك الشخص فصرت
غير قادر على التصديق بان انسان كهذا نال نصيبا من التعليم والتربيه يمكن
أن يصبح بعد سنين كثيرة مجرداً من الذكاء والعقل وكل مزية حسنة من
مزايا الانسانية . ولكن قد نال نصيبه وتعلمت بسببه أن لا اعامل احداً
معاملة حسنة يكون من الذين على شاكلته

ولقد جئت بهذا موجزا ابلغكم عن سؤ سلوك ذلك الشخص .
ولو اني اعد ذلك تصرفاً معيباً ومنافيا للادب ولكن اكراما لخاطر
البطريرك فاني لست متذمرا ولا حاقدا عليه

تحريرا بمدينة كرويدون في ١٢ اغسطس سنة ١٦٢٢

ومع كل ذلك فانه لما رجع متروفانس الى القسطنطينية سنة ١٦٢٦
قابله كيرلس البطريرك بكل ترحاب بعد أن سمع عنه ما تقدم وبعد أن

اقنعه متروفانس ببراهين جلية عن اسباب تأخره اربع سنوات في طريقه
من انكلترا الى القسطنطينية

وبعد ذلك بعشر سنوات لما رجع جراسيموس الى الدير وترك
مركزه في الاسكندرية عين متروفانس بدله بطريركا لليونان في كرسي
الاسكندرية ولكن لم يلبث في وظيفته اكثر من سنتين فقط

وفي خلال النصف الاول من ذلك القرن ارسل بابا روميه وفدا
كاثوليكيا الى الحبشة فاحدث رجال ذلك الوفد القلاقل الدينية ثانيا في
تلك البلاد حتى اوقعها في اهوال ومصائب الحرب الاهلية والذي امكنهم
التأثير عليه وادخاله للمذهب الكاثوليكي هو الملك فقط وقد الزموه أن
يعترف بالمذهب الكاثوليكي الروماني رسميا حتى ساعة موته . أما الاهالي
الاحباش فحملوا السلاح في وجه ملكهم وقاموا يدافعون عن معتقد
كنيستهم الاصلية الوطنية ودام الحرب على اشده بين الملك والشعب
مدة ست سنوات متوالية وبعد ذلك مات الملك واخلفه ابنه على العرش
وفي الحال امر باضطهاد شيعة البابا واعاد المعتقد الاصلي وارسل الى
بطريرك الاقباط في مصر ليرسل له مطرانا . وسمح بعدئذ للمرسلين
الرومانيين أن يقيموا في البلاد على شرط أن لا يتعرضوا لمعتقد اهلها
ولكنه لما عرف بعدئذ انهم ساعون في استحضار الجيوش البرتوغالية
ليؤسسوا المذهب الكاثوليكي في البلاد بقوة السيف امرهم الملك فاسيليداس
بكل ثبات وتعقل أن يبارحوا بلاده . فعوضا عن أن يطيعوا امره

عمدوا الى الحيل فاتفقوا مع احد نبلاء الاحباش الذي كان عاصياً وقائماً في وجه سلطانه ولكنه بعد أن اتحد معهم باعهم كالعبيد الى الاتراك الذين يجوبون البلاد فقدم رئيسهم مبلغا من المال فدية عن نفسه للاتراك اما الباقون فقد عفى عنهم الملك فاسيليداس وخلصهم من ايدي الاتراك ولكنهم وقعوا فريسة في مخالب رعاع الاحباش الذين كانوا ناقمين عليهم ومن ثم صرح فاسيليداس بدخول المرسلين الكاثوليك فحضر تسعة من صعاليك الرهبان الفرنسيسكان واجتهدوا في نشر مذهبهم فقتلهم الاحباش وراحوا ضحية غيرتهم على مذهبهم

وبسبب ذلك لم تهدأ الحبشة من حروبها الداخلية مدة قرن من الزمن . وهكذا كانت مساعي باباوات روميا الدائمة التي كانوا يبذلونها لبسط سلطتهم الدينية على ذلك الشعب الحبشي تذهب سدى مع بساطة هذا الشعب وجهله

وبعد تولية مصطفى باشا على مصر بثلاثة اشهر عزل وتولى مكانه علي باشا فطلب منه رجال الجيش أن يعطيهم المكافئات التي تصرف عند تولية كل وال جديد وهي عادة متبعة في الجيش العثماني من قديم الزمان فامتنع بحجة انه لم تمض مدة على الوالي السابق فاصروا على طلبهم وقام جدال بينه وبينهم فاتحدوا جميعا على اعادة مصطفى باشا ثانيا . فاستكتب مصطفى باشا المعزول لما رأى حزب الجيش معه علماء ومشايخ القاهرة شهادة بتثبيته وبعثها للسلطان . وتشاجر الاهالي والجند مع علي باشا في

الاسكندرية فثاروا عليه وطردوه في قارب من مينا الاسكندرية الى الاستانه .

وفي ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٣ هـ وصلت حمامه الى القاهرة وفي عنقها كتاب ينبئ بوصول مندوب من الاستانه بامر سلطاني وبعد ايام وصل وجمع السناجق وكبار الحكومة والامراء والبس مصطفى باشا خلعة مرسلة له من السلطان واعاده للسلطه ثانيا بموجب فرمان سلطاني

وفي السنة التالية زاد النيل حتى بلغ ٢٤ ذراعا فخاف الناس من الغرق لكنه عاد فهبط بسرعة . وفي اوائل ربيع اول سنة ١٠٣٥ انتشر طاعون فتاك في مصر واخذ يتناقص في شهر شعبان من تلك السنة وانقضى في اوائل رمضان ومات بسببه ٣٠٠٠٠٠ نسمة فاغتنم مصطفى باشا فرصة موت الناس واخذ يختلس اموالهم فاقام نفسه وارثا لكل من مات من الاغنياء فشكاه الورثه الاصليون للاستانه فعزله الباب العالي وولى مكانه بيرم باشا فلما اتى مصر الزم مصطفى باشا بدفع الاموال التي اختلسها فباع كل ما يمتلكه وسددها وعاد للاستانه سنة ١٠٣٧ هـ فحكم عليه بالاعدام .

وكان عزل وتولية الباشوات بارادة الجيش والامراء بمصر مخالف للنظام الذي وضعه السلطان سليم الفاتح وكانت موافقة الباب العالي لطلبهم سببا في حصول تحوير في القواعد الاساسية التي وضعها ذلك السلطان

وكان بيرم باشا محبا للعلم وجمع الاموال ولم يتمرد الجند في ايامه

بل ارتاحت مصر من المشاغب

وبعد ئذ دعاه الباب العالي وعينه وزيرا للمره الثالثة وتولى بعده الوزير محمد باشا فساس البلاد بحكمة وكان محبا للعزلة والانفراد ولما سمع بثورات قبائل البدو في اليمن تعهد للسلطان باخضاعها فصرح له السلطان بذلك فعين قنسويك امير الحج المصري قائدا للجيش الذي اعده لذلك ويبلغ عدده نحو ٣٠ الف مقاتل ولكن بعد أن قبض قنسويك اموال الحملة توقف عن السفر وترك الجيش ينهب الناس ويقطع الطرق وكان من ضمن فرق الجيش فرقه من الروملي قائدها جعفر اغا فاخمد الثوره والزم قنسويك بالسير الى اليمن في محرم سنة ١٠٣٩ هـ فسار اليها وانتصر في الحرب . وفي ١٩ شعبان اغرق القسم الاعظم من مكه تيار ماء فهدم جميع بناء الكعبه ولم يبق الا جدرانها الايمن فابلغ محمد باشا الخبر الى السلطان فامر بترميمها

وفي سنة ١٠٤٠ هـ لم يبلغ النيل في شهر توت الا ١٦ ذراعا فامر محمد باشا بفتح الخليج لري الاراضي ثم استدعاه السلطان للاستانه وعينه وزيراً في الديوان الشاهاني مكافأة له على حسن ادارته . وتولى بدله على مصر الوزير موسى باشا فوثق الاهالي به لكنه اضاع هذه الثقة بعد ئذ لانه بوصوله الى مصر اخذ في الاختلاس والاستبداد فقتل اكبر رجال مصر بغير حق لمصادرة ثروتهم

وفي شهر شعبان من تلك السنة امره السلطان بتجهيز حملة لمحاربة

الفرس فجمع ضرائب فاحشة من المصريين باسم اعانة حربية ثم اوعزالي قيطاس بك قائد الحملة بان يدعى أن مصر لا تسمح ماليتها بنفقات هذه الحملة فنصحه قيطاس باتباع الاستقامة فلم يعتبر موسى باشا بقوله بل خاف منه لاطلاعه على تصرفاته الممقوته فاستدعاه في القلعة في عيد الاضحى يوم الاربع ٩ الحجة وامر اربعين رجلا بقتله فقتلوه . فابلغ الاميران كنعان بك وعلي بك الخبر للجوش والسناجق والامراء والقضاة فاجتمعوا في جامع السلطان حسن واقروا على خلع موسى باشا وعينوا بدله موقتا حسن بك ثم كتبوا للسلطان بما كان وطلبوا بصوت واحد خلع موسى باشا فاجاب طلبهم وولى عليهم خليل باشا في ربيع اول سنة ١٠٤١

وهكذا فانه في مدة حكم السلطان مراد الرابع (من سنة ١٦٢٣ مسيحية لسنة ١٦٤٠ حكم مصر باسمه ثمانية باشوات كانوا يضربون جميعهم على نغمة واحدة في استعمال السلب والقتل والنهب واحداث الثوارت ولكن احسن هؤلاء الولاة جميعا خليل باشا واردأهم سيرة حسين باشا كما سيجيء . اما خليل باشا فانه عند وصوله الى مصر لم يجمع من اموال الضرائب القانونية ووضع حداً لتمرد الجنود وحسن حالتهم . وضيق الخناق على قاطعي الطرق والسالبين الذين يوقعون البلاد في اخطار مختلفة . وفي مقابل ذلك صدرت ارادة السلطان بعزله قبل مضي سنتين على حكمه بعد مصادرة املاكه ونفيه ولم يسمح له السلطان الا باثنين من عبيده يرافقانه في منفاه وكان حسين باشا عند مجيئه الى

مصر قد استحضر معه عدداً عظيما من الدروز فاطلق لهم الحرية في البلاد فملأوا فيها فساداً واوجدوا الرعب والفزع في قلوب الاهالي وليس من يردعهم ولم يكن وقتئذ في البلاد قانون يعامل به المجرمون أو مقترفو الاثام بل أن ارادة الباشا الوالي هي التي كانت نافذة بلا مسؤلية . وعلاوه على كل ما تقدم من مظالم حسين باشا فانه كان يصادر التجارة ويربك سوقها ويزيف المسكوكات وفي مدة حكمه (سنتين) في مصر تسبب في اعدام ١٢٠٠٠ نفس بلا محاكمة (هذا عدا الذين قتلوا بيده شخصياً) .
وتولى مصر بعده باشا آخر كان ظالما مكث في مصر ثلاث سنوات كرس نفسه في خلالها لمناكسة التجارة المصرية وفرض ضريبة فادحة على نساجي الحرير فخرب معاملهم وامات صناعتهم وكان يوجد في ذلك الوقت نحو سبعة عشر الفا من نساجي الحرير في ثلاث مدن فقط وهي القاهرة وامبابة والجيزه واغلب هؤلاء النساجين كانوا اقباط (١)

(١) ذكر شمس الدين المؤرخ في الفصل الثاني عشر والثالث عشر من مؤلفه ما يلذ ذكره عن الصنائع والمحصولات المصرية في ذلك الحين —
ان حدائق البلسم المصرية الفائقة الشهرة قد محيت آثارها الآن — وان البلسم الذي كان يستعمله الاطباء والكيماويون صار يجلب من الحجاز وأعدمت صناعة الاقمشة الكتانية والقطنية الجميله التي كانت تعمل في اسيوط ولكنه كان لم يزل يصنع منها مقدار عظيم في مدينة الفيوم . اما الانواع والاشكال الجيدة منها ومن اصناف التطريز فكانت تصنع في مدينة اخميم . وابطل زراعة الكروم في بعض الاقاليم . ومع ذلك فان بلاد مصر كانت ولم تزل مشهورة بعسلها

وفي ذلك الحين توفى البطريرك الخامس عشر انبا يوحنا وأخلفه على الكرسي المرقسي البطريرك متى الثالث وفي اثنا ذلك قد تغير البطريرك اليوناني مرتين اذ اخلف جراسيموس متروفانس الذي تعلم في انكلترا ثم توفى هذا سنة ١٦٣٨ مسيحية واخلفه بطريرك يدعى نيسفورس
وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ توفي السلطان مراد الرابع. فتنفس المصريون الصعداء وظنوا انهم يتخلصون من استبداد واليهم محمد باشا. ولكن لما بويع السلطان ابراهيم بن احمد اخو السلطان مراد الرابع استبدل محمد باشا والي مصر ثم أمر باعادته ثانيا فزاد ظلما وفتكا بالناس ولم يبق ولم يذر ثم استبدله السلطان بمصطفى باشا البستانجي وهو اول وال في عهد

وقال شمس الدين ان الضرائب المصرية التي ضربت على البلاد سنة ١٠٣٥ ه (١٦٢٥ مسيحية) بلغت نحو ثمانية عشر الف دينار وكان يرسل من هذا المبلغ فقط ستة الاف دينار جزية للقسطنطينة والباقي يحفظ في خزينة الحكومة المصرية للصرف منه على مكة والمدينه والجيوش وهذا المبلغ العظيم الذي يؤخذ من سكان البلاد سنويا بخلاف الدخل الخصوصي الذي يأخذه بلبرمكة مصر (أي والي مصر) لنفسه
وقال شمس الدين مما يجب ملاحظته هنا ان مصاريف الاشغال العموميه الاصلاحات والتنظيمات أو أي شيء يختص براحة الاهالي العمومية كانت خارجة عن هذا المبلغ . وهذا يدل على ان سكان مصر كانوا في حالة البؤس والشقاء تحت احكام ولاة الدولة العليه لان كل ما يتحصل من الضرائب المحصولات يحبس اغلبه في خزائنهم الخصوصية

السلطان ابراهيم . فاستمرت المظالم ايضاً على عهده لانه ترك الاحكام بيد كاتبه المستبد . فازدادت احوال السلب والنهب الى درجة عظيمة حتى اصبحت المدن مهجورة من الاهالي خوفا من اللصوص لانه بالكاد ما كانت تمر ليلة دون حصول حادثتي سرقة او سطو في القاهرة نفسها. واذا اتفق القبض على احد اللصوص واوتي به الى رئيس الضابطة يعطي اللص بعض ما سرقه بصفة بقشيش لهذا الرئيس فلا تغيب الشمس عليه وهو في السجن وهكذا كان الحال مع حكام الاقاليم فتواردت الشكاوي للباشا الذي لم يكن يتداخل في الاحكام مطلقا فامر بعزل رئيس الضابطة وعين بدله كنعان بك فسجن عدداً كبيرا من اللصوص ثم تجرأ ذلك الكاتب على بيع الحبوب التي في مخازن الحكومة واخذ ثمنها فتمرد رجالي الجيش فرفت الباشا ذلك الكاتب بالرغم عنه ولكن اعاده ثانيا بتعضيد احزبه

ثم استقال مصطفى باشا وتولى بدله الوزير مقصود باشا الذي كان واليا لاباربكر فقبض على ذلك الكاتب العاني والكخيا وجلدهما واجبرهما على ارجاع مايتي كيس من النقود لخزينة الحكومة ومن عهد ان فتح العثمانيون الديار المصرية والطاعون يزورها على التوالي بلا انقطاع بحالة شديدة[1] ففي ايام مقصود باشا قاست مصر عذابا اليما من الطاعون

(١) يمكن ان يعبر عن الطاعون المصري بأنه (حمى الجوع) لانه دائماً ينتشر في البلاد بعد حصول مجاعة فيها أو بعد طول زمن الغلاء وقلة المحصول ومما يجب ملاحظته انه قلما كان يهلك به في ذلك الحين أحد من الاغنياء والذين يغذون أجسامهم جيدا

الذي فتكه كان اشد وطأة من الطاعون الذي تفشى في ايام علي باشا وجعفر باشا . فظهر اولا في اوائل شعبان سنة ١٠٥٢ هـ (نوفمبر ١٦٤٢ مسيحية) في بولاق وبعد ذلك بشهرين ظهر في القاهرة واستمر على اشده يفتك بالشيوخ والشبان والاولاد من ابتداء ذي القعدة سنة ١٠٥٢ هـ لغاية صفر سنة ١٠٥٣ هـ (مايو سنة ١٦٤٢م) ثم اخذ يتناقص شيئا فشيئا وقد اهلك سكان نحو مائة وثلاثين بلدا في الديار المصرية عن آخرهم . وقال شمس الدين المؤرخ ان الجثث كانت تنقل بالعشرات مرة واحدة ويمر في الشارع الواحد ثلاثين واربعين جنازة كل ساعة او اقل من ساعة وقال انه في بحر الثلاث شهور دفن نحو ثمانماية الف جثة في القاهرة وحدها وكانت الموتى تدفن دون الصلاة عليها في المساجد والكنائس ولكن لو فرضنا ان شمس الدين كان يقصد بقوله في مصر فقط اعني الدائرة التي يدخل فيها بابيلون والفسطاط ومصر والقاهرة فانه ايضا عدد عظيم وفيه مبالغة كبيرة لان كل سكان هذه الاحياء في الوقت الحاضر اقل من ستماية الف نفس

فلما رأى مقصود باشا ما الم بمصر من الخراب بذل جهده في اصلاح هذا الحال فالغى الضرائب الغير قانونية واعطى حقوق الوراثة لاصحابها الشرعيين مع دفع شيء من الشركة للحكومة وضرب على ايدي اللصوص يد من حديد فاطمأنت قلوب الناس وبالنسبة للشدائد العظيمه والمصائب والنكبات العديده التي حلت بالبلاد في خلال الستين سنة الماضية ساق

سوء الحظ عدد عظيم من المصريين وجلهم من المسيحيين الاقباط الذين كانوا دائما اتعس من الجميع اذ وقعوا اسرى في ايدي الحكومة وكان عدد عظيم من الاسرى والارقاء المسيحيين دائما يساقون الى الحروب التي يقيها السلاطين. فيشتغلون في الاشغال الشاقة التي توجدها الحكومة. وبينما كان مقصود باشا مضطرداً خطة الاصلاح اعترضه وقوع ثورة عظيمة. ففي يناير سنة ١٦٤٤ مسيحية الموافق ٢٠ ذي القعدة سنة ١٠٥٣ هـ بينما كان هولاء الاسرى يشتغلون في بناء المراكب في الاسكندرية اراد حاكم الاسكندرية انزال مركب جديدة ثم صفها الى الماء فدعى هولاء الاسرى وعددهم نحو سمّاية نفس وامر برفع السلاسل الحديدية التي كانوا مكبلين بها لانه لايمكن تسخيرهم في الاشغال وهم مكبلون بالحديد ثم امرهم بانزال هذه المركب في البحر فاتحد نحو مائة وخمسون منهم وفي الغالب انهم من الاوربيين وانقلبوا على رؤسائهم من المسلمين الذين لم يعد في وسعهم مقاومتهم وفتحوا باب الترسانه بالقوة وحملوا الاسلحة وخرجوا الى وسط مدينة الاسكندرية وطفقوا ينهبون ما يحتاجون اليه من الحوانيت والمخازن والبيوت ولما ملأوا جعبة مطامعهم عادوا الى المينا واستلموا المراكب الراسية بها واقلعوا فيها دون أن يفقدوا رجلا واحدا منهم لانهم فعلوا كل ذلك والمسلمون في مساجدهم وقد هرب باقي السمّاية اسير الى داخلية البلاد قبل أن يجتمع احد من رجال الحكومة لاتخاذ الاجراءات اللازمة ضدهم . وكادت هذه الحادثة تؤدي الى انتقام المسلمين المقيمين في الديار المصرية لو لم

يشتغل بالهم ويتجه التفاتهم مع الحكومة لما هو اشد واعظم خطارة وهو سرعة تمرد جيوش المماليك بعد ذلك الحادث لان افراد هذه الجيوش كانوا قد خف عنهم الضغط اكثر من سنة ولكن كان تخفيف ذلك الضغط لاجل مسمى . ففي يوم الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٥٤ تآمر السناجق على عزل مقصود باشا لانه طلب منهم تسديد الثلث الاول المعتاد دفعه للخزينة من الاقطاعات الحربيه وذلك رغبة في تسديد رواتب العساكر في شهر رمضان . فرفضوا ذلك وطلبوا عزل المأمورين من انصار فاجاب الباشا طلبهم فلم يقتنعوا بل اشتكوه لاستانه فسأله الباب العالي عن سبب عدم ابلاغ الحضرة الشاهانية بالثورة العسكرية في مصر فاجاب أن الحقيقة انها لم تكن ثورة بل هي اختلافات عادية فامره الباب العالي بمعاقبة المعتدين . فاراد الفتك بالامير ماماي بك والامير علي بك والامير شعبان بك الدفتردار فلم تسمح له الظروف بذلك

وفي ٢٢ ذي الحجة سنة ١٠٥٤ ورد فرمان بعزل مقصود باشا وتولية شعبان باشا موقتاً فازعن للامر وسلمه الاحكام فاطلع السناجق الباب العالي على حقيقة ما حصل من مقصود باشا فانفذ اليهم ايوب باشا احد مأموري السرايات الشاهانية وكان رجلا مستقيما فسادت الراحة في ايامه. ثم استقال وتدروش وعكف على العبادة في احد معابد الرومللي فتولى بدله الوزير محمد باشا بن حيدر مدة سنتين ونصف ولم يحسن الادارة فارتبكت الاحوال

وفي ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ ثار الانكشاريه في مصر وطلبوا قتل ذلك الوالي فخاف من هذا العزم واستشار قنسو بك فراعى قنسو بك صالحه الشخصي واشار على الوالي بكتابة تقرير سري الى السلطان ينسب فيه سبب الثورة واختلاس الخزينة الى رضوان بك وعلي بك وكان يقصد قنسو بك أن يتوصل بذلك الى الحلول محلهما مع صاحبه ماماي بك

فعلم رضوان بك بذلك وكتب تقريراً يناقض تقرير الوالي وقد وصل الى الاستانة قبله فورد الرد من الاستانة بتفريض رضوان بك وعلي بك للنظر في هذه القضية ووصل الوالي فرمان بذلك في ٢١ جماد اول سنة ١٠٥٧ هـ فامر رضوان بك بقتل قنسو بك وماماي بك في القلعة . ثم ظهرت دسائس مصطفى كتخيا الملقب بالششنير لانه لم يتعين سنجاً بدل قنسو بك ثم اصدر الوالي امره لعلي بك بالرجوع الى حكومته بجرجا واراد أن يفتك بزميله رضوان بدسيسه في القلعه فابى حضور الوليمة التى اعدها له الباشا هناك فغضب عليه الباشا فخرج من القاهرة ومعه ٢٠٠ مقاتل واتحد مع علي بك بجرجا فارسل ورآءهما الباشا نحو الفين من الجنود وخمسماية من الانكشاريه . ثم ما أمر الباب العالي بتثبيت رضوان بك وعلي بك في منصبيهما فاضطر الباشا الى استحضارهما للقاهرة واعاد اليهما الرتب والنياشين وصالحهما مع مصطفى كتخيا

وفي ٦ القعده سنة ١٠٥٧ هـ شاع في القاهرة خبر تولية الوزير مصطفى على مصر بدل محمد بن حيدر وفي ٢٦ منه وردت بالاخبار باعادة

محمد باشا ثانياً على مصر وفي ١٧ رجب سنة ١٠٥٨ هـ توفى السلطان ابراهيم وتولى مكانه السلطان محمد الرابع

وبلغت هذه الاخبار مصر في اوائل رمضان متضمنة عزل محمد باشا وتولية الوزير احمد باشا . فحدثت في ايامه فتنة اخرى من جيوش المماليك وهكذا كانت تتكرر الثورات سنة بعد أخرى مدة القرن السابع عشر . فكانوا دائماً يتملصون من اتباع القانون والنظام فيطوفون الشوارع سالبين ناهبين ويقع معظم الضرر من ذلك على الاقباط البؤساء المجردين من أي سلاح أو واسطة للدفاع عن انفسهم . وكانت الحكومة في ذلك الحين تضيق على الصنايع وتفرض عليها الضرائب والمكوس الفادحه حتى اندثرت . وكان البكوات العسكريون الحاكمين في الاقاليم يعيثون فساداً في تلك الاقاليم التي هي تحت ادارتهم ويأتون المظالم الفظيعة لا يخافون مسئولية في افعالهم بالنظر لتوالي تغيير الباشوات من الولاة فكانوا لا يتمكنون من النظر اليهم لقصر مدة حكمهم وكان هؤلاء البكوات ادنياء النفس يحينون تلك الفرص لسلب الاهالي ويبذلون جهدهم في ذلك ليتمتعوا بما يسلبونه بعد عزلهم من مناصبهم .

وفي سنة ١٦٥٠ مسيحية (١٠٦٠ هجرية) ازدادت القلاقل لان النيل كان واطئاً ولم يرتفع اكثر من ١٦ ذراعاً فلم يرو من أرض الصعيد الا ثلثها اما الوجه البحري فلم يرو شيء منه تقريباً فحدثت بسبب ذلك مجاعة فانتهز احمد باشا هذه الفرصة لزيادة الضرائب مع انه لم يكن يرسل

منها الى السلطان بصفة جزية سنوية الا الثلثين ويعتذر بقلة المتحصل منها في مصر . ولسوء نيته كان يرسل الاموال مع رضوان بك لحمل الباب العالي على الشك بامانته فيتغير خاطر السلطان عليه وامعانا لمكيرته كان يكتب للسلطان يشكو من تصرفه ويطلب تجريده من امارة الحج وتقليدها لعلي بك الذي هو صديق رضوان ولكنه لم يعلم بدسائس الباشا التي كان غرضه منها ايقاع الضغائن بين الصديقين فيحل عرى اتحادهما لكنه لم يكد يتم مراده حتى وصله خبر عزله يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ هـ .

وكانت ذلك نتيجة دسيسة وقد زادت قوة اتحاد الاميرين وكان كل منهما يتنازل لصاحبه عن امارة الحج فاعجب بهما المصريون واحبوهما وبعد عزل الباشا حبس في القلعة فلم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ عظيمة وتولى مكانه الوزير عبد الرحمن باشا فسلك في خطوات سلفه في الدسائس فخلع في اول شوال سنة ١٠٦٢ وسجن وهين مثل سلفه وعين بدله محمد باشا في ٥ شوال من تلك السنة لكنه لم يدخل القاهرة الا في ٨ محرم سنة ١٠٦٣ هـ

ونعود الآن فنقول انه في سنة ١٦٦٠ مسيحية الموافق ١٠٧١ للهجرة توفي بطريرك الاقباط وأخلفه البطريرك متى الرابع وفي عصر هذا البطريرك حضر مصر الراهب الدومينيكي ڤانسليب وهذا الرجل هو اول اجنبي أتى مصر منذ فتحها العرب وصادف متاعب عظيمة في سبيل الوقوف على حقيقة تاريخ الكنيسة القبطية المصرية معرفة تامة . وبصفته

من رجال ارسالية رومانيه فطبعا يكون من الصعب عليه أن يحصل على المعلومات اللازمة له بايه كيفية كانت عن الكنيسة القبطية وتكون تلك المعلومات قريبة على نوع ما من الحقيقة وكتابه الذي ألفه عن الكنيسة القبطية ليس هو قيمة عظيمة ولو انه يلذ القارئ باعتبار الظروف التي كتب فيها . ومن مطالعته يتضح انه قد سقط في الغلط الذي وقع فيه كل من يكتب عن الاقباط حيث قال انهم يجهلون لغتهم . ويعزز قوله بانه تناقش بهذه اللغة مع آخر واعظم واحد تكلم القبطية في اسيوط

وانا اقول انه وان كانت هذه اللغة ميتة في ايامنا الحاضرة الا انها تشغل قسما عظيما من وقت التعليم لدى القبطي الحسن التربية كما أن اللاتيني أو اليوناني مما يهم له المتعلم الانكليزي . وفضلا عن ذلك لا يمكني أن اعرف واثبت اذا كان يوجد عصر لا تمارس فيه هذه اللغة وتدرس بانتظام في المدارس القبطية كما هو مثبوت في هذه الايام

ولم يزل يوجد كتاب باللغة القبطية كتبه رجل قبطي من مدينة ممفيس حوالي منتصف القرن السابع عشر وهذا الرجل هو المشهور في التاريخ باسم ابو ذقن . ولو انني لا اعلم عن تاريخه الا القليل ولكن يظهر جليا أنه كان رجلا سامي الآداب والاخلاق ولذا اشتهر كتابه بمنتهى الرقة والاعتدال في الحجة ولو أن الكتاب قاصر على ايضاح الاختلافات في الطقوس والقوانين الدينية بين الكنيسة القبطية المصرية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وقد قال في كتابه أن اعضاء الكنيسة القبطية

مشهورون في كل ممالك العالم بلقب ممتاز وهو (مسيحيو الحزام)

ولكن يظهر انه لا يعرف أن اصل هذا اللقب هو باسباب القوانين التي كان يسنها المسلمون القدماء على كل المسيحيين القاطنين بالديار المصرية وهو انهم كانوا يكلفونهم جبرا بان يلبسوا حزاما يشدونه على وسطهم ليكون ذلك علامة التحقير والخضوع

وقال في كتابه ان الاقباط الذين كانوا يخدمون عند الاسلام في مصر كانو دائما يتمتعون بالامان على انفسهم واموالهم واولادهم وبكل انواع التساهل وكانوا يعاملون تماما مثل اليونان والبابويين واثبت في كتابه ايضاحا مختصرا عن كيفية ادارة شؤون الكنيسة بواسطة البطريرك القبطي واساقفته وبعد ذلك دخل في ايضاح ماطقوسها ونظام خدمة الصلاة في الكنائس وقد فهمنا انه في عصر ابو ذقن كما في ايامنا الحاضرة تعد النعمة الالهية (المسحه بالدهن) احد الاسرار الدينية العظيمة وكذلك الاعتراف وقد صارا في الكنيسة القبطية في درجة عظيمة من سوء الاستعمال وان هذه الفرائض لا تمارس الا في حالة رغبة احد المرضى او عند طلب احد الخطاة الاعتراف بالتوبة . والعماد لا يزال الى الان يمارس في حوض او صهريج كبير يسمونه المعمودية وهو يوضع دائما في آخر الزوايا الغربية من الكنائس . وعند العماد يأخذ الكاهن الطفل من امه عريانا ويغطسه ثلاثا في ذلك الحوض ثم يلبسه مع الخشوع والصلاة التي يتلوها حزاما خصوصيا يقولون عنه (الزنار) وبعد ثلاثة ايام ترفع

والدة الطفل هذا الزنار او تقطعه وترميه واحتفال الغطاس لم يزل يمارس كالطريقة القديمة . والشمامسة يلزم ان يصوموا اربعين يوما قبل ان يرسمهم البطريرك لهذه الرتبة الكهنوتية ويدفع له كل واحد منهم ثلاثة جنيهات اجرة سيامته ويلبسهم البطريرك ايضا زنارا اثناء الاحتفال امام باب الهيكل في الكنيسة . والكاهن الذي يقوم بهذه الخدمة يرفض في بادىء الامر قبول اجرة الرسم الديني بحجة انه غير مستحق ثم يرضى بقبولها بعد ان يأمره البطريرك ويبين ايضا ابو ذقن في كتابه كيفية الاحتفال والعوايد التي تمارس في الزواج التي لم تزل متبعة في الكنائس الى الان ولو انه يغلب في هذه الايام اقامة الاحتفال بالاكليل في منزل العريس . ولا شك انه اصل الغرض من اقامة الاكليل في منزل العريس ليكون في مأمن عظيم داخل منزله ويتوقى اعتداء بعض المسلمين عليه

ويقول ابو ذقن ان مدة الحداد على الميت عند الاقباط اربعين يوما يوزع اهله فيها الصدقات على الفقراء ويقيمون القداديس في الكنائس استجلابا لرحمة الله على روحه وقد لاحظ ابو ذقن ان الاقباط اكثر زهدا وتنسكا من رهبان الاوروباويين اذ قد لا تسمح لهم كنيستهم ورجالها باكل اللحم الا في ايام عيدي الكنيسة العظيمين وهما عيد الميلاد وعيد القيامة ويشهد لهم ابو ذقن انهم لا يميلون للكسل ابدا . ويقول انه يوجد في المدن المتمدنة أديرة للنساء بقرب الكنائس ولا تسمح الكنيسة لفرد قبطي ان

يصوم[١] يكون سنه دون السادسة عشر . وذكر ابو ذقن انه عند ما
يريد احد الاقباط ان يحج الى اورشليم يلتزم ان يدفع جزيتين للاول
الاولى عندما ينوي السفر وقيمتها ثمانية ريالات والثانيه وقيمتها اربعة
يدفعها غالبا عند دخوله المدينة المقدسة ويقول ايضا انه عند ما يريد
بعضهم ان يحج داخل بلاده بزيارة أحد الهياكل والمقامات المصرية
المقدسة فيتبعون عادتهم القديمة وهو انهم يقدمون عند ذلك المقام
حيوانات بصفة قربان فيذبحونها ويأكلون لحمها ولاحظ ابو ذقن ان
الهياكل والمقامات المصرية التي للاقباط ليست الا مقامات شهدائهم لانه
لم يوجد قديسون بالديار المصرية الا من ابتداء تاريخ استشهاد الاقباط
في ايام ديوقلوتيوس او ما قبلها بقليل

وقال ابو ذقن انه اذا كان يتفق ان كاهنا يكون موجودا ضمن ضيوف
وزائري احد الاقباط في وليمة فالعادة ان يبتدىء الكاهن اولا فيمد يده
على المائدة ويأخذ خبزا ويكسر منه ويعطي كل واحد من الحاضرين قطعة
على سبيل البركه قبل الابتدا في الاكل . وقد اثبت ايضا ابو ذقن ان
الاقباط المصريين من قديم الزمان الى الان يحسنون صناعة الصياغة
والمجوهرات وصنع الاحذية والحدادة والخياطة والحفر على الخشب
(الاويمه) والهندسة المعاريه . ويعلمون اولادهم في مدارسهم فقط القراءة

(١) الكنيسة تسمح في هذه الايام للاولاد والبنات الذين دون سن
السادسة عشر بالصيام فيتلفون صحتهم

والكتابة والجغرافية واللغة العربية واللغة القبطية ومعرفة الكتاب المقدس .
ويعتقد ابو ذقن ان تعليم اولاد الاوروباويين ارقى من تعليم اولاد الاقباط .
ولكن من ابتداء القرن السابع عشر فصاعداً لم تكن تربية الاولاد
الاقباط رؤية . ويحتمل ان كتاب ابو ذقن الاصلي مدفوعان بين كتب
مكتبة اوكسفور بانكلترا ولكننا لا نعلم من الذي احضره من مصر اليها
وقد ترجم هذا الكتاب الجليل الى اللغة اللاتينية في اوكسفور سنة ١٦٧٥
مسيحية ثم ترجمه من اللاتينية الى الانكليزية السير ا . سدلير سنة ١٦٩٣
مسيحية

وبعد تولية الوزير محمد باشا الذي وصل مصر سنة ١٠٦٣ كما تقدم
القول عزل وما زالت الولاة تتوالى على مصر ولا شيء من اعمالهم
واحوالهم يستحق الذكر وفي اخر الامر تحول النفوذ الى ايدي البكوات
المماليك اما الباشوات فاذا تولوا مصر وقدموا اليها لا يكون ديدنهم الا
اكتساب الثروة باية طريقة لانهم يعلمون انه لا بد من عزلهم وقلما عزل
احدهم ولم يكن السجن مأواه

وفي مايو سنة ١٦٩٤ مسيحية (١١٠٥ هـ) ثارت في القاهرة زوبعة
شديدة حتى خيل للسكان ان الآخرة قد دنت[١] فاقلقت جامع ابن طولون
وهدمت كثيراً من البيوت عن آخرها وكان الغبار يتطاير كسحب كثيفة

١ ان المطر كان نادرا جدا في مصر مدة القرن السابع عشر ويقول الثورى
انه لم ير نقطة مطر واحدة هطلت في بلاد مصر مدة اقامته ثلاث سنوات متتابعة

يحجب ضوء السماء . ومثل هذه العواطف الشديدة نادرة الحصول في مصر والظروف التي جعلت فيها وقع اكثر تأثيرها على المسلمين لانها حدثت اثناء تأديتهم صلاة الجمعة في رمضان وفي هذه السنة ايضا لم يرتفع النيل كعادته فحدث غلاء عظيم في البلاد كما هي العادة ولم يكن الاهالي مستعدين لاتقاء ذلك الخطر وزادت المجاعة عدة شهور رداءة وتفاقما فالفت ذلك نظر البكوات المماليك وكان هياج الشعب قد الفت أيضا نظر الامراء فاوقفهم قليلا عما هم فيه من المخاصمات مع بعضهم فابتدأوا ينظرون في أحوال الشعب الهائج وتجمع أوباش القوم الذين قتلهم الجوع حول القلعه واخذوا يصرخون طالبين الخبز ولما لم يلتفت احد لصياحهم اخذوا يقذفون الحجاره على حصون القلعه وامر الحاكم جنوده فطردوهم فركضوا الى المدينه وقصدوا مخازن الحكومة قبل أن يلحقهم رجالها ويحمونها منه ثم تمكنوا من طردهم من مخازن الغلال وابطلوا الهياج موقتا ولكن ذلك لم يدم طويلا واستمرت المجاعة واخذت تزداد ازدياداً هائلا حتى بلغت الحالة انهم اخذوا يقتاتون من جثث الموتى

ومن سنة ١٠٦٣ للهجره لغاية سنة ١١١٩ هـ توالى الحكم على مصر عدة باشوات لا يسع المقام ذكر اعمالهم بالتفصيل والباشا الذي وصل اليها في ايام هذه المجاعة وهو المدعو اسماعيل آلمته عواطف الشفقة والحزن والتأثر على ذلك الشعب الذي يموت جوعا في حالة بؤس وتعاسة فاجبر الامراء بان يتكفل كل واحد منهم باطعام بعض الفقراء يوميا حتى لا

يموتوا جوعا. وجعل نفسه قدوة صالحة ومثالا حسنا فكان يوزع تعيينات من الخبز والخضار مرتين في اليوم على الفقراء طول مدة المجاعة

ثم أعقب هذه المجاعة الطاعون كالعادة فكان الناس يموتون في الشوارع ويتراكمون فوق بعضهم اكواما . وكان ذلك الباشا الذي يختلف من اسلافه اختلافاً بينا في طيبة القلب والشفقة على الشعب يشتغل في دفن الموتى تحت ملاحظته وقد الزم الامراء بان يقتدوا به في هذا العمل . وبعد أن أفاقت البلاد من المجاعة والطاعون اقام احتفالا ووليمة عظيمة لمناسبة ختان ابنه ثم امر أن يختن عدد عظيم من اولاد الفقراء (١) تذكاراً لذلك اليوم ووزع عليهم جميعا ملابس جديدة على نفقته الخاصة

وفي السنة الاخيرة من القرن السابع عشر مات المؤرخ العظيم المعروف بشمس الدين «أو نور الايمان» وكان من اشهر العلماء في مصر وقد الف عدة كتب اخرى خلاف كتاب تاريخ مصر الذي هو في غاية الاهمية لصحة الحوادث التي دونها فيه عن القرن الذي كان معاصراً له

وفي ٣ محرم سنة ١٠٩٩ هـ اقبل السلطان محمد الرابع

---

(١) يقول الجبرتي انه عدد اولاد الذين اختتنوا واكتسوا على حساب الباشا ٢٣٣٦ ويقول المسيو مابيه الذي كتب في تاريخه ايضاحات عظيمة عن اعياد وولائم ولاة مصر ان عدد الاولاد . . . ٥٠٠

الفصل التاسع والستون

استبداد البكوات المماليك

سنة ١٧١٠ مسيحية و١٤٣٣ للشهدأ و١١٢٨ الهجره

وبعد تسع سنوات تقريبا من تولية السلطان مصطفى الثاني اقيل وتوفى في السجن سنة ١١١٩ ﻫ وبويع اخوه احمد خان وهو احمد الثالث وكانت مدة حكمه على المملكة العثمانية نحو عشرين سنة حصلت في اثنائها ثورات عديدة في مصر انتهت كما قلنا في اول الفصل السابع بتحويل سلطة الباشوات ونفوذهم الى البكوات المماليك . وقد تولى على مصر من سنة ١٠٦٣ الى سنة ١١١٩ ﻫ اثنان وعشرون واليا لم نذكرهم هنا لعدم اهميتهم وفي السنة الاخيرة من ايام السلطان احمد خان تولى على مصر حسن باشا وكانت وظيفة شيخ البلد في القاهرة مسنودة الى قاسم عيواظ بك . الذي كان برأس طائفة القاسمية كما كان ذو الفقار بك برأس الطائفة الفقريه كما تقدم الايضاح في الفصل السابق

وقد كانت هاتان الطائفتان قبل تولى حسن باشا في وفاق تام فلما تولى الاحكام خشي اتحادهما فعمد الى الدسائس والقى بينهما الشقاق فحصلت بينهما مواقع سيأتي بيانها بالتفصيل في هذا الفصل

وفي سنة ١٧١٠ مسيحية نشبت الحروب بين روسيا وتركيا فصدر امر من السلطان باخذ بعض الجنود التركية المحتلة لمصر فتخلصت هذه

البلاد وارتاحت من مضايقة واستبداد ثلاثة الآف جندي تركي كانوا يمتصون دم حياتها . غير أن الذين بقوا منهم في القاهرة استمروا يقاومون المخاصمات والمعارك حتى ازداد الشر والضيق في البلاد كثيراً وقضت الحالة الى قيام حرب اهلية في البلاد فنزل حاكم الصعيد بجيوشه الى القاهرة ليشترك في تلك الحرب الشعواء وبقيت بقعة الارض الواسعة الواقعة بين القلعة وجامع السلطان حسن ميدانا لهذه الحروب حتى تحول ذلك الجامع الى حصن حربي فسيح كما تحول ايضا جامعا ابن طولون والمؤيد الى حصون حربية اخرى . وبالجملة استعملت اهم واجمل الجوامع في القاهرة يومئذ الى معامل وحصون لجيوش الامرأ

وقد انتهت هذه الحرب بانهزام حاكم الصعيد الذي كان يقصده الوالي ثم اتحد الامرأ مع بعضهم وخلعوا الوالي المذكور حتى خلى لهم الجو وصاروا يلعبون ويمرحون . غير أن اعداء الامراء عمدوا الى اطلاق النيران على منازل كثيرين منهم فاندلع لسان اللهيب وتطاير شراره الى حوانيت ومنازل الاهالي الذين لم يكن لهم ادنى دخل في تلك الحروب والثورات فكان من وراء ذلك حرق قسم عظيم من مدينة القاهرة امامه لم يحرق من منازل الاهلين المساكين فقد نهبه عساكر الامراء بحالة فظيعة وحتى لقد رؤي الاهالي يسرعون الى الهرب من المدينة تاركين منازلهم وامتعتهم لهؤلاء الجنود اللصوص السالبين والذين بقوا في المدينة على رجاء حماية ممتلكاتهم وقعوا في يد عدو اشد ظلما واستبداد من

العساكر ذلك أن قبيلة البدو التي احضرها الامرأ القاسمية ليضربوا
برجالها اعضاء حزب الفقارية انتشرت داخل القاهرة وصارت تسرق
وتنهب كل شيء يقع تحت ايديها ثم قطعت مجرى الماء عن المدينة رغبة في ان
يموت كل من فيها عطشا

ولم تقتصر اضرار هولاء البدو وعراكهم على مدينة القاهرة وحدها
بل تعدتها الى الضواحي والى كل قرية اخرى كان ينتدبهم اليها روساء
الحزبين المحكي عنهما وقد الحقوا بمدينة اخميم على الخصوص خراباً تاماً
من افعالهم الوحشية وقتلوا كثيرين من اهاليها وكان جل سكانها في ذلك
الوقت من المسيحيين كما كان ذلك لسوء الحظ من اهم الاسباب التي
اوجبت هجومهم عليها مع أن سكانها لم يقع منهم أي ذنب يوأخذون
عليه . وقد حصلت وقائع كثيرة بين طائفتي القاسمية والفقارية دامت
ثمانين يوما كانوا يخرجون في خلالها من القاهرة الى مكان يعرف بقبة العرب
ويأخذون في الكفاح من شروق الشمس الى غروبها ثم يعودون الى
القاهرة فيصرفون الليل هادئين في بيوتهم ويعودون في الصباح ثانية
الى القتال واخيراً وقعت بين الطرفين معركة شديدة بقرب القصر العيني
قتل فيها قاسم عيواظ بك . لان حاكم الصعيد الذي كان يقود فرقة الفقارية
عمد الى حيلة بان اوجد كمينا يصطاد بواسطته عيواظ ذلك انه اختفى وراء حائط
قنطرة كانوا يحاربون بقربها ثم تظاهر بالهروب السريع فنزل عيواظ الى تحت
قباب القنطرة وهو لا يعلم بوجود الكمين فيها فانقض عليه وقتله . وقد

أسف عليه الناس وبكوه بكاءهم على حاكم عادل أو أب حنون بار وحتى لم
يبق صديق ولا عدو الا وبكاه لانه كان فضلا عن حكمته وعدله ذا عفة
وشجاعة كما كان باسلا ابي النفس . وقدموا ابنه اسماعيل بك شيخا للبلدة . كانه
وصادق الباشا على ذلك لظنه أن اسماعيل لصغر سنه (لانه كان في العشرين
من عمره) يكون آلة في يده يديرها كيف شاء . وكان اسماعيل هذا
مشهوراً بالجمال والشجاعة وقد انتخبه القاسميون زعيما عليهم ايضا بدلا عن
ابيه وعقدوا هدنه مع الفقارية مدة ثلاثة ايام . فتكدر ذو الفقار بك من
ذلك لانه كان ينتظر أن يأخذ منصب شياخة البلدة وعادت بعد ذلك
الخصومات والعداوة بين رجال الحزبين كما تجددت المنازعات بدرجة
اشد من الاولى ودامت هكذا حتى هزمت طائفة الفقارية وبقي اسماعيل
الشاب سيداً على البلاد المصرية وكان عاقلا حكيما كوالده عارفا وجوه
الربح والحق فسعى الى الوفاق مع الطائفة الفقارية فاتحدت الطائفتان
جميعا على الباشا الذي كان اسماعيل من جهة اخرى يظهر له الطاعة
والرضوخ ظاهراً بصفته رئيساً له ولكنه كان يسعى سرا الى خلعه فكتب
عنه الى الاستانة ففاز بعزله وجاء باشا جديد غيره ثم أبدل هذا باخر ثم
باخر جاءوا وراء بعضهم من القسطنطينية في مدة ثلاث عشر سنة واسماعيل
باقيا في منصبه مكتسباً ثقة الرعية حتى أصبح في مقام حاكم البلاد
الحقيقي وكان الناس يحبونه بدرجة تقرب من العبادة . وقد عين اصحابه
حكاما على الاقاليم المختلفة واسند الى بعضهم اهم وظائف الحكومة في

القاهرة . ثم عم العدل على كل الناس بالسواء وطهر ضواحي البلاد من البدو السالبين . وكانت هذه هي المرة الاولى التي ذاق فيها المصريون لذة الامن العام والراحة بعد زوال استقلالهم . وقد كان حتى في ايام الوالي اسماعيل الذي بطش بيده القوية على المفسدين يستحيل على سيدة من المخدرات أن تسير لوحدها خارج العاصمة بدون حرس قوي حولها .

وفي يوم شم النسيم في السنة التي تقدمت سنة قتله خرج جماعة من النساء كما هي العادة في مثل ذلك اليوم راكبات حميراً وذاهبات للرياضة خارج المدينة فلما ان وصلن الى كوبري فوق الترعة التي كانت واقعة شمالي القاهرة احتاط بهن خدم المماليك وكانوا سكارى ومدججين بالسلاح ومزقوا النقاب من على وجوههن وسلبوا ما كان عليهن من الحلي والمصوغات برضى وتسليم الضابط المكلف بحفظ الامن في تلك النقطة ثم تركوهن لحراسة هذا الضابط الامين وعساكره وهؤلاء جردوهن من سائر ملابسهن وتركوهن عاريات بالمرة وعرضة للمارين مما صيرهن يتوسلن لكل عابر سبيل أن يشفق عليهن ويعطيهن شيئاً يكتسين به حتى يرجعن الى بيوتهن

ولما ان فحصت هذه المسألة اتضح ان اولئك النساء لم يكن قبطيات ولا يهوديات حتى يأتي معهن هؤلاء المستبدين ذلك العمل الفظيع بل اتضح انهن نساء مسلمات وزوجات رجال من طبقة عالية ، ومن عائلات عظيمة . ويقول مؤرخ هذه الحادثة انهن رفعن في صباح اليوم الثاني شكواهن الى الباشا طالبات تعويض ما فقد منهن من ملابس والماس

ومجوهرات ومصوغات عظيمة . فامر الباشا باحضار الضابط والرجلين اللذين اشتركا معه في هذه الجريمة وهددوهم بالقتل فاعترفوا بما فعلوا وايدوا شكوى السيدات بكل معانيها لكنهم دفاعا عن انفسهم قالوا انهم لم يفعلوا ذلك الا اطاعة لامر الضابط رئيسهم الذي لا يسعهم مخالفته . وقد كان بعض سكان الحي الذي وقعت فيه الحادثة المؤلمة مشاهدين لكل ما تم فيها ولكنه كان غير ممكن لهم الاعتراف بالشهادة خوفاً من بطش المعتدين ولكنهم لما وقعوا تحت المحاكمة شهدوا بما تم فاضطر الوالي الى نفي الضابط الى ابو قير بعد ان الزمه بدفع غرامة كبيرة ثم اصدر بعد ذلك امراً عاما يقضي بمعاقبة كل من يعتدي على النساء اللواتي يسرن بلا حراس في الطريق عقاباً صارماً وامر كذلك بانه لا يجوز لاية امرأة كانت ان تخرج خارج بوابة المدينة ولا تركب حماراً — !

وبالاجمال فان اسماعيل بك بذل جهده في ايقاف تيار تلك المسالب والسرقات العلنية المخجلة التي كان يرتكبها اتباع الرؤساء العسكريين وفي اغلب الحوادث كان يرغم السارقون والناهبون برد ما سلبوه الى اصحابه

ومما يحكى عنه انه كان يأدب في ليالي رمضان مأدبة ليلية يجتمع فيها العلماء والفقهاء والمشايخ لقرأة القران وكان وقت غروب الشمس يفتح منزله لكل قاصد وفقير لمناولة طعام الافطار على حسابه . وبمثل هذه الشجاعة الادبية كان يقوي اصحابه ومعارفه على ترك القاهرة وزيارة

الذين عينهم حكاما على الاقاليم لافتقاد احوالهم وبذلك تمكن من توطيد دعائم الامن مع انه قبل ايامه ما كان يقدر احد من الامراء على الذهاب الى خارج القاهرة بمفرده ما لم يكن معه جيشا جرارا والا داهمه القتل لا محالة . وقد كان جميع المماليك الامراء لا يموتون الا قتلا بطرق مختلفة ونادرا من كان يبقى منهم حتى يدركه الموت الطبيعي وكان حظ اسماعيل هذا مثل حظ من تقدمه من البكوات المماليك . فانه بعد ان ظل في منصبه ستة عشر سنة تقلب في اثنائها على مصر جملة باشوات من الولاة كانوا يشغلون مراكزهم بالاسم فقط وكانت قلعة الجبل سجنا لهم وكان لحسن سياسته ماذا جماعة الفقاريين عن كل حركة مضرة لتظاهره انه على وفاق معهم فلم يعط لهم فرصة يحدون فيها عليه الا انه ارتكب خطأ واحدا ادى الى قتله . ذلك ان ذي الفقار من رجال الطائفة الفقارية كان له عقار كاف لنفقات عائلته فاختلسه منه احد المماليك القاسمية الذين يرأسهم اسماعيل بك فتظلم ذو الفقار الى اسماعيل بك بصفته شيخا للبلد فلم يصغ لظلامته وامر بابقاء العقار مع مملوكه فشق ذلك على ذي الفقار ورفع دعواه الى زعيم الفقارية ويقال له شركس بك وكان خصما لاسماعيل يكرهه كرها طبيعيا فسار الى الباشا الوالي وشكى له تصرف اسماعيل وكان في قلب الباشا حزازات حسد منه فوافقه على الايقاع به ثم قال له ليس لك وسيلة افضل من ان تكلف احد المماليك التابعين لك بقتل اسماعيل وانا اعده بان يكون له جميع ما يتركه من المال والنساء مكافأة

لاتمامه .

فعين شركس بك اول يوم يجتمع فيه الديوان لاتمام هذه النية السوداء وامر مملوكه ذا الفقار باتمامها ففي اليوم المعين سار ذو الفقار ودخل الديوان وكان جالسا فيه اسماعيل بك وتقدم اليه وقبل يده قائلا «ارجوك أن تأمر بارجاع عقاري الي» فاجابه اسماعيل بك منتهراً (سننظر في طلبك) فالح عليه فانتهره فاستل خنجراً ماضيا وبقر به بطنه فتدفقت امعاؤه ومات لساعته في وسط الديوان وحينئذ هجم رجال الباشا على كل من وجد هناك من رجال اسماعيل وقتلوهم عن اخرهم ولم ينج منهم الا الذي اسرع بالعدو . وهكذا كان انتهاء حكم اسماعيل بك سنة ١١٣٦ هـ سنة ١٧٢٣ مسيحية ومات وعمره ثلاثين سنة ونقلت جثته الى بيته ثم دفنت بجانب جثة ابيه بجوار باب اللوق . وترك اسماعيل بك بنتا وولدين من زوجات مختلفات ولم يقم هولاء الاولاد بذكرى ابيهم اكثر من بضعة اشهر . وبنى اسماعيل بك جامعين احدهما بدسوق وهو المعروف بجامع سيدي ابراهيم الدسوقي والآخر بمليج وهو المعروف بجامع سيدي علي ورمم جامع الازهر في القاهرة . وترأس قافلة الحج المصري ستة مرات الى مكة وكانت سنة موته سنة حداد عظيم عند جميع المصريين

وفي السنة التي مات فيها اسماعيل قامت ثورة فكرية عظيمة في القاهرة نشأت عن خطبة القاها رجل مسلم تركي الاصل من دعاة

الاصلاح في جامع المؤيد على جمهور من الاهالي دعام الي ذلك وكانت خطبته تتضمن ذم المفاسد والمصائب التي شوهت الدين الاسلامي ثم انتقد باسهاب كبير طريقة عبادة الاولياء والمشايخ واعتقاد العامة واكثر الناس بانهم يأتون بعجائب ومعجزات بعد موتهم فاندهش علماء ومشايخ الازهر لهذه التصريحات والانتقادات الغريبة في بابها واستأوا من ذلك الخطيب واصدروا امراً دينيا وزعوه على الناس ينكرون فيه اقوال هذا الخطيب ويفندون ارائه وتعاليمه ويثبتون أن الاولياء والمشايخ يظهرون العجائب بعد موتهم ثم طلبوا من الحكومة معاقبة ذلك الرجل الذي يتعرض للمعتقدات .

فاخذ احد المسلمين صورة من ذلك الامر واعطاه لذلك المصلح اثناء خطابته مرة اخرى فقال انه يود مناقشة العلماء ومباحثتهم امام القاضي الاكبر وطلب من سامعيه تعضيده . فصاح الجمع المحتشد لسماعه يؤكدون اخلاصهم له وتعضيدهم لافكاره ونزل من على منبر الخطابة فاحتاط به نحو الف رجل من المسلمين وتوجه مهرولا بضجة كبيرة الى بيت القاضي . فلما علم القاضي بمجيء ذلك الجيش الى منزله ارتعب كثيراً واجتهد أن يمهل مقابلتهم ثم رفض استقبالهم فتكدر من ذلك الجمع وقصد الاوباش تكدير صفو الأمن غير أن القاضي هرب منهم واختفى في محل النساء

وفي يوم الثلاثاء التالي ليوم هذا الحادث اجتمع خلق عظيم اكثر من الذين اجتمعوا في المرة الاولى ليسمعوا هذا الخطيب في الجامع لكن لم

يحضر فذاع بين المجتمعين أن القاضي الاكبر منعه عن الخطابة بالقوة — فكر الجميع مهرولين كالسيل الجارف الى المحكمة الشرعية وقبضوا على القاضي فانكر مسلوبيته بتشيخهم الخطيب بالمرة فلم يقتنعوا بذلك واخذوا القاضي بالقوة حتى اوقفوه امام الباشا الوالي فامر بقطع رأسه ثم اصدر امرا يعد فيه هؤلاء المتجمهرين بعدم التعرض لما يرغبونه وبذلك انقذوا الشيخ الخطيب من تقيد حريته وحملوه منتصرا على ايديهم وساروا به في هتاف عظيم الى جامع المؤيد وهناك وزعت اعلانات مهيجة . وفي الاثنا كان الوالي ارسل الى رؤساء حزبي الفقارية والقاسمية يخبرهما بان القوم الرعاع المحتشدين حول الشيخ الخطيب قد سبوه واهانوه وانه لذلك يريد يترك البلاد لهم

ولما كان الامراء يميلون بطبيعتهم الى المعارك والقتال انتهزوا هذه الفرصة وجمع كل منهم رجال حزبه وحملوا السلاح وساروا ليقبضوا على الخطيب ويبطشوا بسامعيه . ولكن خبر قيامهم كان سبقهم الى جامع المؤيد فلما وصلوه لم يجدوا فيه احدا فطافوا المدينة كلها وصاروا يجلدون ويضربون بالعصا كل من يجدونه في طريقهم ويقبضون عليه . ويقول الجبرتي — : وبهذه الكيفية انتهى الاختبال والهياج وهدأت البلد اما الخطيب فاختفى وبعضهم يقول انه قتل والبعض الاخر يقول انه هجر البلاد

وفي يونيو سنة ١٧٣٤ تنبأ احد السحرة الاقباط بان العالم سينقضي بعد يومين من اعلان هذا النبأ . ففي الحال انتشرت نبوته هذه بين الناس

وصدقها كل المسلمين المصريين . وانتشر هذا الخبر في القاهرة بسرعة عجيبة يندر حصولها عند الشرقيين (١) واتصل خبرها كذلك لسائر الاقاليم المصرية . وكان كل واحد يودع صاحبه وقريبه وحبيبه قبل مفارقة العالم ويستعد لمقابلة الخطب الجسيم . واخذ الفقراء يهرولون جماعات جماعات الي شواطيء النيل ليغتسلوا فيه ويطهرون انفسهم من خطاياهم بمائه . والبعض يجتمعون في احتفالات خصوصية للوداع ببعضهم . واخرون يطوفون في الحقول تاركين منازلهم ووقع البعض في حالة رعب وفزع عظيمين لحد الجنون وبعضهم انقطعوا للتوبة والصلاة . اما المشايخ والامراء المماليك ولو انهم شاركوا الاهالي في رعبهم الا انهم اجتهدوا بان يبرهنوا للشعب على فساد الرواية ويحرضوه على الرجوع الى اشغاله اليومية الاعتيادية . ولكن نصائحهم ذهبت ادراج الرياح بلا فائدة لان الشعب الذي كان تقريبا كمصاب بالجنون قال الامراء والمشايخ النبوة حقيقة لا ريب فيها لان الاقباط واليهود قالوا بها ومن يقدر يقول ان هؤلاء القوم يخطئون في اقوالهم ونبواتهم سيما ان اسرار النبوة والفلك والتنجيم محصورة فيهم ؟ . ثم اوردوا حوادث النبوات القبطية التي تمت على ايامهم . (والمؤرخ المسلم لم يثبت لنا ما هي هذه النبوات القبطية التي تمت) .

(١) كانت الاخبار في قديم الايام تنتشر سريعاً بواسطة الحمام الزاجل . والموضوع الذي يلذ البحث فيه معرفة كيف كانت تستعمل ابراج الحمام المصرية في ذلك الحين لهذا الغرض

واخيراً قبضوا على الرجل الذي نطق بهذه النبوه وجاؤا به امام احد الامراء . فلم ينكر ولم يجحد ما قاله وقال (اطرحوني في السجن حتى يوم الجمعة وان لم يتم ماقلته فاذبحوني) وبناً على ذلك الاصرار ازداد الرعب واليأس عند جميع الناس . قاربت شمس اليوم الاخير على الغروب ولم تظهر اقل علامة تدل على قرب الساعة . واذا باحد العلماء المسلمين من اصحاب المدارك السامية والعقول الراجحة قام وقال — أن الاقباط قد اخطأوا في تنجيمهم سابقا فلماذا لا نضيف خطأهم هذه المرة ايضاً الى خطأهم السابق — ثم أخذ يذيع بين جماهير الناس بوسائط كثيرة أن السيد البدوي وسيدي ابراهيم الدسوقي الامام الشافعي قد توسلوا لله جل جلاله هم وباقي الاولياء الصالحين بمنع هذه النقمة عن العباد رحمة بهم وشفقة عليهم فاجاب الله سبحانه وتعالى صلواتهم وقبل تضرعاتهم ورضي بتأجيل قلب الارض وما عليها الى اجل غير مسمى . أخذ الناس يهنئون بعضهم بعضا ويشكرون الله قائلين نحن الآن ما زلنا احياً فنسأل الله أن يجعل هذا التأجيل نافعا لدينا

وقد وضعت هذه الحادثة في ايام البطريرك يوحنا السابع عشر الذي لخلف بطرس السادس سنة ١٧٢٧ ثم اخلف يوحنا البطريرك مرقس السابع عشر

وبعد وفاة اسماعيل بك رجعت البلاد لحالة الفوضى الاصلية حيث اختل الامن العام وكثرت القلاقل والمحاربات بين البكوات المماليك

واحزابهم . فتولى شركس بك مشيخة البلد واخذ ذو الفقار بك الذي قتل اسماعيل جميع ممتلكاته ونسائه كوعد الباشا له فقويت شوكته واصبح عظيما يشار اليه بالبنان وزاد اعوانه من المماليك والاعيان فخافه شركس بك واراد أن يعمل به ما عمل باسماعيل فدبر له دسيسة فعلم بها ذو الفقار وجمع رجاله وهجم على شركس بك وقامت معركة عظيمة لم يثبت فيها شركس بك ربع ساعة وفر الى الصعيد فأخذ ذو الفقار مركزه برضى الباشا ولكن اصبح عدوا للبكوات وخصوصا رجلا يدعى ابي دفيه ثم جمع شركس بك اعوانه ورجع معهم الى القاهرة فارسل ذو الفقار بك عثمان كاشف احد كبار قواده لمقابلته فهزم شركس بك وطرده الى بلاد البربر . ولما غل ذو الفقار بخمرة النصر عمد الى قتل كثير من البكوات في القاهرة ولم يبق منهم الا رئيس الشرطه ورئيس الانكشارية فبعثا الى شركس بك واتحدا معه على محاربة ذو الفقار فلما اتى شركس بك لمحاربة عثمان القائد تمكن هذا الاخير من التغلب عليه ثم غرقه في النيل واتي عثمان برأسه ورأس شريكه مصطفى القرد وارسلها لذي الفقار بك الذي لم يهنأ بذلك النصر لانه قتل بعد قتل عدو شركس بيومين بمكيدة اعدت له بمساعي البكوات في القاهرة . وذلك انهم البسوا واحداً منهم دفيه وجاؤا به امام ذي الفقار وقالوا له هذا ابو دفيه قد اوقعه الله في ايدينا وكان الرجل يحمل تحت دفيته غدارتين ناريين فلما وقف بين يديه اطلقهما عليه دفعة واحدة فسقط ذو الفقار مضرجا بدمائه في وسط ديوانه

سنة ١١٤٢ هجرية فلما علم عثمان بك قائده بما اصابه اسرع الى الاخذ بثاره فدخل القاهرة وجعل يفتك بكل من يصادفه في طريقه فخاف الجميع . من استفحال الشر بين الامراء وقتل بعضهم البعض . وكان لهولاء الامراء عادة رديئة في الانتقام من بعضهم وهو أن يدعو احدهم الذين يريد الغدر بهم الى وليمة يقيمها في منزله متظاهراً بالمودة لهم ثم يعطي اشارة لرجاله وخدمه فيقوموا عليهم ويذبحوهم ذبح الاغنام وهم في ضيافته آمنين . وقد وقعت حادثة محزنة من هذا النوع في سنة ١٧٣٦ مسيحية وذلك ان الدفتردار دعي الى منزله احد عشر اميراً وذبحهم بهذه الصورة الفظيعة لان احدهم الذى كان رئيسا لطائفة الفقارية رفض ان يرقي مملوكا من القاسميين لرتبة سنجق وقد هرب من تلك المذبحة الهائلة اعظم امير قادر وقوي وهو عثمان بك الذي كان قائدا لرجال ذي الفقار . واخيراً خاف القاتلون ان يأتي عليهم اعوان الامراء المقتولين ويأخذون بثارهم منهم فالتجأوا الى جامع السلطان حسن فلم يسمح لهم احد بالدخول فيه غير انهم تغلبوا على الذين منعوهم بواسطة حرق الباب ودخلوا الجامع وتحصنوا فيه فنشأ عن ذلك قيام معارك دموية هائلة استمرت لسوء الحظ طول القرن الثامن عشر حيث تحولت الجوامع ثانيا الى حصون ومعاقل حربية وكانت منازل المقاتلين تنهب وتسلب علنا واصبحت الشوارع ملآنة بجثث القتلى . ومما يحسن ذكره ان محمد بك احد البكوات الذين كان يترقبهم عثمان بك رأى منصب مشيخة البلد خاليا بعد قتل ذي الفقار فطمع فيه

وتعاهد مع صاحبه صالح كاشف على قتل كل من بقى من البكوات
زملاءه فادب لهم محمد بك مأدبة فاخرة ودعاهم اليها فلبوا دعوته وهم غير
حاسبين للشر حسابا غير انهم لما علموا بمكيدته قاوموه حتى تغلبوا عليه
وقتلوه وقد هرب صاحبه الى القسطنطينية بعد ان شاهد رؤوس البكوات
ملقاة على الطريق امام الجامع الحسيني . ثم خلع الباشا الوالي كما هي
العادة عند حصول القلاقل الكثيرة واعقب خلعه فترة سلام قصيرة
وكأنما الشقاء كان حايقا لهذه البلاد المنكودة الحظ فانها ما كادت ترتاح
قليلا من حروب وويلات ومذابح هولاء البكوات حتى اصيب بضربة
اشد وطأة من استبداد المماليك وهو الوبأ الذي انتشب في حول البلاد
وعرضها ويعرف بطاعون الكي وقد انتشر انتشارا سريعا وفتك بالناس
فتكا زريعا حتى مات في يوم واحد في منزل واحد لاحد الامرأ ١٢٣ نفسا
وكانت الجثث تنقل الى المدافن والخلوات ليلا

وفي ذلك الحين الذي كان فيه الامن العام مستتب نوعا اتى المسيو
ريكارد بوكوك الى مصر وكانت الامتيازات الاجنبيه موجودة فيها
وقتئذ فكانت هذه الامتيازات نافعه في جعل الاوروباويين الوافدين اليها
يتمتعون بالامن والضمانه على حياتهم وارزاقهم اكثر من سكان البلاد
الاصليين البؤساء لان هذه الامتيازات التى منحها الباب العالي للاجانب
جعلت المصريين يتأكدون بان قتل احدهم يؤول الى خطر عظيم فكانوا
يقابلونهم ويكلمونهم بكلمات رقيقة واصبح هولاء الاجانب انفسهم في

ارتياح من هذه الحالة ولا سيما لالتجاء المصريين اليهم في احوال كثيرة .
وفي ذلك الحين جاء ايضاً الي مصر فردريك نوردرن من ضباط البحرية
الداغاركية ليسوح في مصر ويكتب عنها ما يراه ولكن كتابه الذي
الفه عنها غير مفيد لانه لم يصف حالة الحكام الاتراك كما هي وتجنب
شرح حالة التعاسة التي كانت عليها البلاد المصريه لتقلبه في ارائه وميله
الى التخلص من ذكر هذه الحقائق مع انه ساح في اعالي النيل لغاية محل
وجود بوكوك والف بعض مجلدات املا في الرجوع اليها بعد عودته
والظاهر انه في طول مدة اقامته في وادي النيل لم يتعلم شيئاً عن البلاد
اكثر مما يعلمه عنها أي سائح اوروبي بسيط في هذه الايام لا يقيم
فيها اكثر من اسبوعين . اما مؤلفات بوكوك فكانت ذات قيمة حقيقية
ولو انه اخذ كل معلوماته عن سائر ما يختص بالاقباط من المترجمين
الاميين الجهال أو من المرسلين الكاثوليك الذين كانوا يكرهون الاقباط
الارثوذكس كثيراً كما فعل غيره من السائحين الذين لم يتعبوا انفسهم
في استقراء الحقائق . وقد ساعد على نقل كل رواية غير صحيحة عن
الاقباط تاخر القوم انفسهم عن الاجتماع بالسائحين وعدم اعتنائهم بكتابة
تاريخهم بانفسهم ولكن هذا غالباً نشاء عن تعلقهم فقط بتاريخ كنيستهم
الوطنية وتاريخ بطاركتهم. وقد وصل الدكتور بوكوك الى الاسكندرية
من اوروبا في سنة ١٧٣٧ وحال نزوله الى البر توجه تواً لزيارة البطريرك
اليوناني كوسماس الذي كان مقيما في رشيد وكان البطريرك القبطي في ذلك

الوقت يوحنا السابع عشر. وقد استصحب الدكتور بوكوك في سياحته هذه احد الرهبان الفرنسيسكان الكاثوليك الذين كانت ارساليتهم منتشرة على طول النيل تحت حماية انكلترا. وقد زار المحكمة الكبرى فقالوا له انه يوجد فيها خمسمائة من الاقباط ومحل اثري وجد فيه بقايا هيكل عظيم. وبعد أن مكث في القاهرة اياماً زار الفيوم ثم سافر الى الانحاء القبلية بطريق النيل وكان الدير الابيض والدير الاحمر من اشهر اديرة الاقباط في ذلك الوقت وهما الموجود بقاياهما الآن بقرب مدينة سوهاج احدهما دير انبا شنوده والاخر دير انبا بشوي

ومن الكنائس الجميلة التي كانت موجودة في ذلك الوقت كنيسة ارمنت العظيمة فان عظمتها وجمالها اثر كثيراً على نظر هذا السائح لانها كانت تعد من اعظم واقدم الكنائس المصرية. وكانت البلاد في راحة نوعا من القلاقل اثناء الشهور القليلة التي اقامها هذا السائح في مصر فلم يشاهد لحسن حظه شيئاً من محاربة المماليك لبعضهم غير انه لاحظ أن قتل النفوس البريئة بالسم كان مستعملاً بين طبقات الاتراك بطريقة مألوفة وكان لابد من تنفيذ اوامر أي تركي كان مهما كان فيها من الاضرار العامة والخطاء المعيب. ومما لاحظه هذا الزائر في الاقباط انه وجد معظمهم يعرفون القراءة والكتابة الامر الذي لم يجد مثيلاً له عند غيرهم من باقي سكان مصر ومما قاله عنهم في مؤلفاته أن الانكشارية الاتراك كانوا يحصلون ضريبة عن الانفس من الاقباط وقد زاد التضيق

عليهم في امر هذه الضريبة بواسطة تركي من الاستانة بذل رشاوي ثقيلة للسلطان حتى اشترى امتيازها لنفسه وجاء الى مصر واخذ يضايق الاقباط المساكين فيها ويضغط عليهم في تحصيلها منهم بطرق كثيرة جائرة اكثر مما كان يفعل رجال الانكشارية. وقد عاد بوكوك من مصر بعد ذلك وساح ايضاً في اورشليم وقبرص وانتهى امره اخيراً بتعينه اسقفاً على مدينة ميث

وكان قد عزل السلطان احمد الثالث في جمادي الاولى سنة ١١٤٣ هجرية (١٧٣٠ مسيحية) وبويع بدله ابن اخيه محمود بن مصطفى خان وهو السلطان الرابع والعشرون من بني عثمان ويلقبه بمحمود الاول وبقي على العرش العثماني خمسة وعشرين سنة وكان ولاة مصر في ايامه كاسلافهم بلا عمل وكل الاحكام وامور الحل والعقد بيد شيخ البلد واعوانه وليس من يستطيع معارضتهم فيها

وبعد أن قتل ذو الفقار بك كما تقدم تولى مكانه عثمان بك قائده وهذا رقى كثيرين من المماليك اتباعه الى رتبة البكاوات بدل الذين قتلوا وكان عثمان بك هذا اقوى رجل تقلد وظيفة شيخ البلد من سنة ١٧٣٦ مسيحية لسنة ١٧٤٣ واهم ما يذكر له من الفضائل انه ما كان يقبل الرشوه مطلقاً وكان عادلاً حازماً واما باقي صفاته فكانت مثل صفات الذين سلفوا من اقرانه فكان صارماً منتقماً قاتلاً عديم الرحمة ولكنه لم يكن مثل اقرانه بل لما كثرت انتقاماته وشعر بشدة مضايقة الناس منه ومنها تمكن

من الهروب (١) الى سوريا ومنها الى القسطنطينية فاستقبله السلطان

(١) ان السبب في هروب عثمان بك ذي الفقار نشأ عن توقعه الشر من اثنين من المماليك هما ابراهيم بك واسماعيل رضوان بك لان ثروتهما كانت قد نمت بسرعة واتحدا مع بعضهما على السراء والضراء. فلما رأى اسماعيل انهما طامعين في وظيفته جمع اليه ثلاثة احزاب احدهم حزب ابراهيم بك القطامس وفيه ثلاثة من البكاوات والثاني حزب علي بك الدمياطي وفيه اثنين منهم والثالث حزب علي كخيا الطويل حيث شاور زعماء هذه الاحزاب في الامر فاقروا على قتل ابراهيم بك كخيا الانكشاريه ورضوان بك فبلغ احمد السكري أحد مماليك ابراهيم بك خبر هذا التواطؤ فدبر مكيدة يقتل بها عثمان بك فترصدوا له في القلعة غير انه شعر بالمكيدة فوثب بجواده الى داخل القلعة فلم يظفروا به وبعدئذ هرب الى سوريا ومنها قصد الاستانة كما تقدم الايضاح في غير هذا المكان

وبعد خروج عثمان بك من مصر صفا الجو لابراهيم بك ورضوان بك فقتلا جميع رجال الاحزاب المتآمرة عليهما وطلب من الوالي كيور احمد باشا السماح بقتل باقي البكوات فبذلوا الاموال في سبيل ذلك وكان لهم ما ارادوا وقتلوا علي بك الدمياطي بيد وكيله في وسط الديوان . ثم أمروا بقفل جميع منافذ القلعة على جميع من فيها من البكوات المنوي قتلهم وأوقفوا الجنود على بابي الانكشارية والعزب وبوشر في الذبح وأول من قتل في هذه المؤامرة خليل بك احد انصار الدمياطي ومحمد بك من انصار القطامس وكثيرين غيرهم ولم يبق من مناظري ابراهيم بك كخيا ورضوان بك الا ابراهيم القطامس وعلي كخيا الطويل فالاول مات حزناً بعد قليل والثاني ترك الديار تنعق من بناها فخلى لهما الجو وتولى ابراهيم كخيا مشيخة البلد ورضوان بك امارة الحج وصارا يتبادلان هذين المنصبين سنوياً وكل منهما يستعمل مركزه في جمع الثروة بعد القتل والفتك والنفي ووضعا يدهما على

بالاحترام وعينه والياً على بروحه وسعى أن يحفظ له ممتلكاته وامواله في مصر فلم يفلح لانها كانت قد نهبت كالعادة ولبث في بروحه حتى مات فيها

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية جاء باشا والياً على مصر اسمه محمد اليدقصي وهذا قصد اصلاح مصر ادبياً فابتدأ باصدار امره بعدم شرب الدخان وكان يرسل ضابطه ثلاث مرات في اليوم يطوف الشوارع بالجنود وكل من يجده يدخن سكاره يعاقبه باشد العقاب . ولكن استدعى الى الاستانة بعد سنتين ولم يثبت التاريخ انه اتى باي عمل اصلاحي يذكر.

ثم قام ايضاً شيخ من العلماء وقصد أن يصلح اخلاق مواطنيه فسار يخطب امام الامراء ويبين لهم شرورهم فادى ذلك الى اتفاق خدام الامراء على ذبحه نظير هذا التوبيخ والتأنيب لكنه تمكن من الهرب ثم عدل عن

كل ممتلكات الاغنياء بالقاهرة واستولى ابراهيم كخيا على اموال ثمانين بيتاً من بيوت القاهرة بخلاف محصولات البلاد والقرى والجمارك والمخازن والحوانيت حيث لم يبق ولم يذر

واستدعى كيور احمد باشا الى الاستانة وولي حكومة قبرص وجاء القاهرة والي آخر سنة ١١٥٦ هجرية فاحتقره ابراهيم كخيا ولكنه اغتنم فرصة غياب هذا في الحج بمكة وتواطأ مع حسين الخشاب على مكيدة ضد ابراهيم ورضوان ويكافئه الباشا بمنح مشيخة البلد له فلما عاد ابراهيم نجح الخشاب بالقبض عليه وعلى رضوان وسجنهما في القلعة فولاه الباشا مشيخة البلد لكنه لم يهنأ بها اذ قام اعوان ابراهيم كخيا واخرجوه مع رضوان بك من السجن وهموا بقتل الخشاب فهرب الى ابريم من أعمال النوبيا أما الباشا فاستدعاه السلطان وعاقبه عقاباً شديداً انتهى بموته

خطة تانيب وتوبيخ الامراء ولذا فانه مات موتاً عادياً ونجى من القتل . ومما يذكر عن تاريخ تلك الايام المظلمة أن جميع المماليك الاتراك كانوا لا يعرفون غير الخيانة التي يبدونها في كل امر تستدعيه مصالحهم المختلفة ومآربهم المتنوعة وما كان يوجد شيء يمنعهم عن ارتكاب هذه الدنايا ومن الغريب انهم كانوا يتعاهدون على ارتكابها بواسطة القسم مع أن القسم يجب اتيانه لمنع الشر لا للمساعدة على ايجاده

وفي سنة ١٧٤٥ مسيحية وصل الى الوالي محمد راغب باشا تعليمات سرية من السلطان بقتل القطامس والدمياطي واعوانهما وهما اقوى المماليك بأساً فعمد الباشا الى مكيدة لقتلهم فدعاهم دعوة عمومية الى الديوان وكانت العادة أن لا يخرج امير أو بك من منزله بغير سلاح استعداداً للطوارىء واتقاً لمثل هذه الخيانات التي كانت مالوفة في تلك الايام (١)

(١) كان الامراء يحبون راغب باشا لانه عرف كيف يعامل شيخ البلد فاحبته الرعية فصرف بينهم سنتين في سلام واجمع البكوات على استبقائه بينهم طويلا . وبينما هم في ذلك ورد للباشا خط شريف من السلطان بقطع دابر البكوات وشيخ البلد فارتبك الباشا وظن ان الباب العالي مشتبه بتصرفه من وشاية الاعداء ثم خاف ان يقتل البكوات بدون ذنب واخيرا قرر في ذهنه افضلية قتلهم فتواطأ مع رجاله ان يقتلوهم أول ما يجتمعون في مجلسه ففعلوا لكن ثلاثة من البكوات وفي جملتهم شيخ البلد تمكنوا من الهرب بعد جهاد شديد فلما احتجوا على هذا العمل الفظيع ولا سيما لعدم وجود داعي لذلك اضطر الباشا ان يطلعهم على فرمان السلطان السري الصادر له بقتلهم فعدلوا عن الانتقام منه وطلبوا من الباب العالي ابداله

وعند اول اجتماعهم لتلك الدعوة المشؤمة قتل منهم اولاً ثلاثة ولكن الباقين دافعوا عن انفسهم وتمكنوا من الهرب من القلعة واستدعوا اعوانهم وقامت حرب اهلية هائلة انتهت بموت كثيرين من الامراء وهروب اخرين منهم الى الصعيد . وفي سنة ١٤٧٨ مسيحية جاء القاهرة والي آخر يدعى احمد باشا وكان كثير الانهماك بالدرس والمطالعة فاراد معرفة مقدار قوة العلماء المصريين ظناً انه يستفاد منهم فجمع حوله كل جهابذة العلماء ومشائخ الازهر فوجد انهم تقريباً لا يعرفون شيئاً مما كان يتصوره وانهم يقتلون اوقاتهم في درس احوال اللغة العربية والفقه ونحو ذلك من المسائل البسيطة جداً فاخر عنده احدهم الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر مدة طويلة حتى يقف على حقيقة معلوماته ومعارفه لئلا يكون مخطئاً في حكمه الاول عليه ولكنه بعد طول الاختبار وجد معارفه قليلة كالباقين . وقد أخذ الباشا بعد ذلك يبحث ويفتش عن العلماء المصريين الذين كان يسمع عنهم كثيراً حينما كان في تركيا فمكر عليه شيخ الجامع الازهر ولم يذكر له ما كان يجب أن يعرفه وهو أن البقية القليلة الباقية من العلوم المصرية القديمة التي كان يود معرفة شيئاً عنها ليس من يرشده عنها غير الاقباط . وقد بذل الباشا جهده في البحث عن عالم مسلم تكون معارفه تناسب على الاقل متوسط الدرجة العلمية التي يطلبها فوجد اخيراً شخصاً يدعى الشيخ حسن حبشي الاصل وهو والد المؤرخ الشهير المعروف بالجبرتي وكان هذا الرجل مدرساً لعلم الفلك في الجامع الازهر

وفي اثناء النصف الاول من القرن الثامن عشر كان الاقباط عائشون بسلام لان المسلمين كانوا مشغولين في قتال بعضهم بعضاً . ولم ترجع الفنون والصنائع القبطية الى سابق شأنها من الرواج التقدم من عهد الفتح العثماني لمصر حيث اخذت في الانسحاق والاضمحلال من ذلك الوقت شيئاً فشيئاً بسبب توالى المصائب والمحن على الاقباط خصوصاً والمصريين عموماً ونشاء عن ذلك زيادة استبداد الضيق على الاقباط المسيحيين وعلى الذين اسلموا منهم ايضاً وخاصة من زيادة استمرار السلب وتوالى هجوم العربان وعساكر الامراء على منازل الاهالي وسلب كل مايوجد فيها حتى انه لم يبق في القاهرة قبطي أو يهودي عنده شيئاً يستحق السرقة ولم يسرق منه

وفي سنة ١٧٣٣ مسيحية (١١٤٦ هـ) تلقى حاكم كل قسم من الحكام المعروفين بالكشاق امراً بناء على فرمان من السلطان يقضي بتوقيع ضريبة مالية على كل قبطي أو يهودي ساكناً في دائرة قسمه . وكانت الضريبة التي تؤخذ من هؤلاء البؤساء تقسم الى ثلاثة درجات فالدرجة الاولى هي تحصيل ٤٢٠ بارة عن كل نفس والدرجة الثانية ٢٧٠ بارة والثالثة ١٠٠ بارة (١)

(١) مقادير النقود المصرية كانت تتغير كثيرا في ايام السلاطين العثمانيين ولذا يتعذر تعيين القيمة التي توازيها بالنسبة للعملة الانكليزية ويقول بوكوك انه في (سنة ١٧٣٧ مسيحية) كان الكيس المصري يساوي ٢٥٠٠٠ مدين والمدين يساوي اثنين بنس ونصف أي غرش صاغ

ومن بعد حادثة استشهاد الاب كليمانت القسيس الفرنساوي لم يمت احد بامر الحكومة بسبب دينه ولم يصدر امر رسمي بهدم الكنائس . وفضلا عن ذلك فقد كانت الحكومة مضطرة جداً لاستخدام الاقباط في مصالحها بالنسبة لاماناتهم ومعارفهم الممتازة بينما كان الجهل وعدم الاستقامة في السيرة متفشياً بين المسلمين

وكان للمرسلين الكاثوليك سنة ١٧٣١ مسيحية تسعة مراكز جنوب القاهره وهي في اثينو واسيوط وابو تيج وصدفا واخميم وجرجا والاقصر واصوان وحتى في دير النوبة وقد علمنا من التاريخ انه في تلك السنة ارسل البابا كليمان الثاني عشر لرؤساء هولاء الارساليات أن يبذلوا ما في وسعهم لحض الاقباط على ارسال اولادهم الى رومية لتعليمها فيها فلم يقبل الاقباط بذلك ولم تمكن اصحاب تلك الارساليات الا من ابعاث ابناء الروم الكاثوليك للدرس في رومية رغماً عن طرق التهديد والوعيد التي استعملوها مع الاقباط الاصليين لهذا الغرض بلافائدة . وفي تلك الايام قدم الى الديار المصرية جماعة من سواحين الفرنسويين والانكليز فوصلت الباخرة التي تقلهم الى داخل النيل . ولما رست بهم عند اسينا خرج السواحون منها لمشاهدة خرائب تلك المدينة القديمة فاسرع الاقباط الكاثوليك الذين الذين كانوا فيها فقدموا انفسهم للمرسل المقيم هناك وخدموا في كنيسته

وكتب البابا كليمان الثاني عشر المذكور الى بطريرك الاقباط السابع

عشر عن يد الكردنبال بلوجا واحد المرسلين الكاثوليك اللذان كانا عندهما وسائط خصوصية لمخاطبة بطريرك الاقباط باسم البابا بان يوجه همته ويعلم ما فيه تقديم نفسه وكنيسته للخضوع الى الكنيسة البابوية ولكن هذه المخابرات انتهت بلا ثمرة كما حصل مراراً قبل ذلك . ولما اخلف كليمان على العرش البابوي البابا بنديكت الرابع عشر انكر كل قول عن اتحاد الاقباط مع كنيسة روميا وعوضاً عن استئناف المخابرة مع بطريرك الاقباط لترغيبه في الانضمام لكنيسة رومية عين مطراناً كاثوليكياً على مصر يكون له حق السلطة الدينية فيها وذلك في سنة ١٧٤١

وكان هذا المطران قبطي الاصل يدعى اثناثيوس ومقيماً في اورشليم فبعد تعينه ظل مقيماً في القدس وعين له نائباً عاماً في مصر وارسل له البابا بنديكت سنة ١٧٤٥ مسيحية تعليمات مستفيضة فيما يجب عليه اتباعه لجذب الاقباط الارثوذكس للمعتقد الكاثوليكي وفي ذلك الحين كان يوجد شاب قبطي ارثذكسي اسمه روفائيل الطوخي من اهالي جرجا كان اخذه الكاثوليك بالقوة حينما كان صغيراً وارسلوه لدرس اللاهوت في رومية فعينه البابا بعد اتمام دراسته اسقفاً على ارسينوه ولكن يظهر انه لم يتمكن من الاقامة فيها طويلاً (١)

(١) يظهر انه في السنين الاخيرة من القرن الثامن عشر قد نجح الكاثوليك الرومانيين وانتصروا مرة بعد طول ذلك الجهاد مع الاقباط ذلك انه امكنهم ادخال اسقف جرجا القبطي الى مذهب الكنيسة الرومانية ولكن لهرطقته حرم من الكنيسة القبطية وحتى الاسلام حكموا عليه بالعقاب ففر هارباً الى رومية وعاش فيها حتى سنة ١٨٠٧

لان البابا اراد الانتفاع بحسن معارفه فطلبه ثانية الى رومية ليساعد في بعض تأليف دينية باللغة القبطية من ضمنها اجرومية تلك اللغة وتنقيح كتب الطقوس الكنائسية وقد ترجم ايضاً عدة كتب يونانية ولاتينية الى اللغة القبطية والعربية

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية ارسل امبراطور الحبشة وفداً لبطريرك الاقباط يطلب تعيين مطراناً لتلك المملكة بدل المطران خريستو دولس الذي توفى . وهذا الوفد كان مؤلفاً من ثلاثة اعضاء احدهم قبطي الاصل اسمه جرجس والاثنان الاخران حبشيان احدهما اسمه تاوضروس والآخر اسمه ليكانيوس وكانت المواني المصرية وكل الشواطىء البحرية في ذلك الحين في يد الحكام المسلمين ولم تكن الحبشة قد اكتشفت موانيها القديمة بعد فقبض حاكم مصوع المسلم على هؤلاء الثلاثة رجال اعضاء الوفد وسجنهم واخذ منهم نصف النقود التي كانت مرسلة معهم الى مصر ثم هددهم بالقتل . فاختفى احدهم وهو جرجس القبطي ولكن لم يذكر التاريخ أن كان قتل أو تمكن من الهرب بالحيلة . اما ليكانيوس الحبشي فاطاع الحاكم المسلم واعتنق الاسلام ولكن الاب تاوضروس الكاهن الحبشي اطلق سبيله بعد أن فدا نفسه بالمال وواصل سفره لاجل اتمام مأموريته حتى وصل القاهرة وظل بها الى أن حصل على رسامة مطراناً لبلاده سنة ١٧٤٥ ولما قصد هذا المطران السفر الى الحبشة مع الكاهن الحبشي المشار اليه صادف في مصوع ما صادف الوفد الحبشي

من قبله حيث القاهم الحاكم في السجن غير أن الاب تاوضروس عمد الى
حيلة نجى بها صاحبه المطران الجديد من يد الحاكم وتمكن من السفر
ومن الغريب أن الحاكم لم يقتل ذلك الكاهن لهذه الخدعة لكن حجزه
للفديه فلما وصلت الفديه للحاكم اطلق سبيله وسافر الى بلاده سالماً

وفي ذلك الحين كان المرسلون الكاثوليك قد ثبتت اقدامهم في
مصر وتوطدت دعائم ارسالياتهم فيها ولو انهم لم يفلحوا في اغواء الاقباط
الاصليين على اتباع مذاهبهم ولكن كثيرون من السوريين المستوطنين
في مصر وبعض ابناء الكنيسة اليونانية انضم اليهم وبذلك اصبح لهم
كنائس خصوصية كثيرة في بعض المدن المصرية وكان يتردد اليها ايضاً
بعض الذين لم يتبعوا مذهبهم وكان امثال هؤلاء يعتبرون على كل حال
مرتدين عن مذهبهم الاصلي.

على أن السلطان سمع بزيادة النفوذ الاوروبي بمصر باسباب هذه
الارساليات الاتينية فقلق وتضجر من جراء ذلك وارسل فرماناً الى
بطريرك الكنيسة اليونانية يأمره فيه بان يحذر كل عضو من اعضاء
كنيسته بعدم التوجه الى تلك الاماكن الاوروبية والصلاة فيها والا
يصير مجازاتهم بدفع غرامة قدرها الف كيس فجمع السوريون هذا المبلغ
ودفعوه للسلطان واستمروا على الذهاب الى الكنيسة اللاتينية. وقد
انتهز احد امراء المماليك هذه الفرصة وقبض على اربعة من المرسلين
اللاتينين وسجنهم ولم يفرج عنهم الا بعد أن دفعوا فدية مالية عن انفسهم

وكان محرما على الاقباط الارثوذكس زيارة بيت المقدس من أجيال
كثيرة وكان هذا الحرمان موجباً الحزن الدائم عند الاتقياء والمتعبدين
منهم. ولكن في سنة ١٧٥٣ مسيحية (١١٦٦ هجرية) عزم كبارهم على
استئناف السعي وبذل الجهد في طلب التصريح لهم بهذه الامنية واضطروا
لدفع مبالغ طائلة بصفة رشوة أملا في ادراكها. وكان لاحد كبار الامراء
المماليك سكرتيراً قبطياً له نفوذ كبير عنده فهذا أخذ على نفسه القيام
بالمساعي الموصلة الى ذلك بالنيابة عن بني قومه. فخابر أولا شيخ الجامع
الازهر في الامر فقبل الشيخ النظر فيه مبدأياً على شرط ان يأخذ
رشوه قدرها الف دينار (٧٠٠ جنيه انكليزي) لكي يصدر فتوى تبيح
للاقباط الحج الى بيت المقدس باورشليم والعودة منه بسلام وامان
وان لا يعترضهم مسلم بسؤ على الاطلاق. فاعطاه الاقباط هذا المبلغ
وفعلاً أصدر الفتوى بذلك ففرحوا بها واستعدوا للحج بابتهاج عظيم
جداً وخصصوا نقطة يجتمعون فيها بجوار الصحراء الشرقية الملاصقة
للقاهرة حتى يسافروا منها بطريق البر واعدوا الجمال اللازمة لذلك مع
التختروانات المعدة لنقل النساء والاطفال وكان يصل الى هذه النقطة
مئات مئات من الاقباط يومياً بقصد السفر وقد حضر لوداعهم كثيرون
من الاقارب والاصدقاء ومعهم كثير من الهدايا الثمينة للقبر المقدس وقد
استأجروا كثيرين من العربان لحراستهم في الطريق وانتشرت أخبار هذا
الحج في جميع انحاء القطر المصري فتذمر المسلمون من ذلك كثيرا. وأصبح

الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر وقد رأى نفسه مضطهداً
ومكروهاً من جميع المسلمين بأسباب تلك الفتوى تم افتضح السر الذي حمله
على اصدارها فقام كبار المسلمين وعنفونه بشدة علي الرشوة التي اخذها اجرة
لذلك فانكر امرها بتاتاً مع انه اخذ من الاقباط مبالغ أخرى أيضاً
بقشيش عند نهاية فراغه من كتابة الفتوى علاوة على المبلغ الذي اخذه أولا
ثمناً لها . على انه لما تحقق ان الانكار لم يجديه نفعاً فكر في طريقة أخرى
يسترجع بها شرفه . فدعى طلبة الأزهر جميعا وكثيراً من اوباش المسلمين
وخطب فيهم محرضاً اياهم على ضرورة الانقضاض علي الاقباط المتاهبين
لزياره بيت المقدس ومنعهم عن ذلك بكل وسيلة ممكنة . فأخذ التعصب
والحماس من الطلبة والعامة مأخذاً كبيراً وقبل ان يتم شيخ الازهر خطبته
اسرعوا بالذهاب الى المكان الذي كان الاقباط المساكين موجودين فيه
وكانوا على غير علم بما هناك من الشر فانقض عليهم هؤلاء المتعصبين
كالوحوش الضارية بينما كانوا قائمين بتجهيز امتعة السفر واعملوا فيهم
السيف والنار حتى مزقوهم شر ممزق ونهبوا كلما كان معهم من مال ومتاع
وتركوهم على اسوء حالات البؤس والشقاء . وقد بذل اكابر الاقباط
وأصحاب النفوذ منهم كل مساعيهم لاستخلاص ما فقد منهم فراحت
اتعابهم والاموال التي دفعوها في سبيل ذلك ادراج الرياح

الفصل الثامن والستون

المسيو دى مايبه في مصر

سنة ١٦٩٤ ميلادية و١١٠٦هجرية و١٤١٠ للشهداء

وفي اواخر القرن السابع عشر توفى السلطان احمد خان كما تقدم
وبويع بدله على العرش العثماني ابن اخيه السلطان مصطفى خان الملقب
بمصطفى الثاني وهو ابن السلطان محمد الرابع وكان الباشا الوالي على مصر
في ذلك الحين رجل يدعى اسماعيل . وفي ايام هذا السلطان حصلت
ثورات عديدة بمصر انتهت بتحويل سلطة الباشوات الى البكوات المماليك
وأصبح الباشوات يقيمون في القلعة دائماً كأنهم في سجن ولا يهمهم الا
كسب الاموال ثم ابتدأت السلطة تسقط شيئاً فشيئاً حتى اصبحت في
ايدي شيخ البلد وهو لقب كان يطلقه الاهالي على محافظ القاهرة .
وانقسم البكوات المماليك وقتئذ الى حزبين كبيرين هما حزب القاسمية
وحزب الفقارية وكان شيخ البلد ينتخب عادة من احد افراد هاتان
العائلتان وكان هذان الحزبان لا ينفكان يضاد احدهما الاخر ويحاول
كل منهما اكتساب النفوذ له واذلال الآخر وكان كل الامراء
والبكوات في مصر سواء كانوا يشغلون مراكز مهمة في الجيش أم لا
يتحيزون لاحد هذان الحزبان وكان اهالي مصر يقاسون العذاب وتقع
على رؤوسهم مصائب نتيجة عداء الحزبين كما كان جميع سكان المملكة


Shero4jesus@yahoo.com
شيرو

البيزانطينية في آخر ايامها يقاسون الاهوال مع كل حزب من حزبيها اللذان كانا يعرفان بالحزب السياسي الاخضر والحزب الازرق . وكان شعار الحزبان المصريان اللذان نحن بصددهما من القماش الابيض والاحمر (١) ويقول الجبرتي أن هذان اللونان قد أثرا في شعور اصحاب كل حزب تأثيراً شديداً حتى اصبح اصحاب كل حزب يكره لون علم الحزب الاخر الى درجة لا تطاق حتى انهم ما كانوا يسمحون لاهل منازلهم باستعمال لون علم الخصم حتى ولا في الادوات المطبخية عندهم . وكبرت مسألة الاحزاب في نفوس المصريين حتى وصلت الى طبقات العمال واصحاب الصنايع الذين انقسموا ايضاً على بعضهم الى حزبين حزب يقال له حزب السعديين والآخر حزب الحرميين وصاراً يتحاربان مع بعضهما وحمل الحزب الاول منهما علم الفقارية الابيض والحزب الاخر علم القاسميه الاحمر . وابتدأ العراك اولاً ما بين قاسم بك الذي كان شيخ البلد وقتئذ (أو محافظ القاهرة) وذو الفقار بك الذي كان مزاحماً له على اخذ هذا المركز منه وكانا كلاهما من الشركس ومن نسل رجل من امراء المماليك

(١) كان علم الفقارية ابيض اللون وخزاريقه برمانه وعلم القاسميه احمر وخزاريقه بجلبه . وكان لكل من هاتين الطائفتين صفات مختصه بها فالفقارية كانت توصف بالكثرة والكرم والقاسمية بكثرة المال والبخل وبعضهم يقول أن هذين الحزبين ينسبان الى قاسم بك الدفتردار وذوى الفقار بك الكبير سنة ١٠٥٠ هـ

المشهورين يدعى سودون كان عاتياً في عهد السلطان سليم الفاتح وحجر على نفسه داخل منزله وظل فيه كمسجوناً باقي ايامه على ما رواه المؤرخون كي لا يعترف بالسلطان المشار اليه حاكما على مصر . وفي اثناء السنين الاخيرة من القرن السابع عشر كان العراك والخصام قائما على اشده بين رجال هذين الحزبين وانتهى بمذابح وسرقات ونهب واحوال يطول شرحها يراها القاريء بالتطويل في تاريخ الجبرتي .

وفي اواخر القرن السابع عشر كثر وفود الارساليات الدينية والتجارية من اوروبا الى مصر حتى اضطر الحال الى تعيين نائب عن اوروبا في العالم المصري . ولو أن هؤلاء النزلاء الاحرار الاوربيين قليلون لكنهم في الحقيقة اقوياء الجانب بقوة وتأثير الشروط الدولية حتى امكنهم التمتع بالضمان التام بين المسلمين على اموالهم وحياتهم الذي لم يكن يتمتع به احد من المصريين انفسهم فكان هذا الامتياز سبباً لرواج تجارة الاورباويين وصناعتهم رواجاً عظيماً في مصر كما وان الفرمانات التي عبرنا عنها بالاختصار بقولنا شروط دولية تحتوي على معاهدات عظيمة الشأن معقودة بين سلاطين آل عثمان وبين ملوك دول اوربا الكبرى . واول معاهدة من هذا النوع تمت ما بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر وان المعاهدة بين المملكة الفرنساوية تمت في سنة ١٥٣٥ مسيحية

ولما اصبحت مصر جزءاً من المملكة العثمانية حوالي القرن السادس عشر كانت كل تلك المعاهدات وما تم بعدها تسري على مصر وهي البلاد

الجديدة التي ضمت الى الاملاك التركية . وقبل ايجاد هذه الامتيازات كان من المستحيل قطعياً على أي تاجر اجنبي أو ارسالية دينية أن تعيش في بلاد مصر . وفقط في عصرنا هذا اصبحت تلك الامتيازات الدولية شديدة الوطأة ومبتذلة كثيراً وسبباً في تاخير نجاح البلاد المصرية

وفي اوائل القرن السادس عشر عينت كل من فرنسا وانكلترا قنصلاجنرالاً يمثلها في القاهرة وكتب المسيو دي مايه وكيل فرنسا السياسي الذي اتى مصر سنة ١٦٩٢ مسيحية كتاباً عظيماً عن احوال مصر في اواخر القرن السابع عشر واول القرن الثامن عشر للتاريخ المسيحي . لان هذا الوكيل السياسي تعين في السنة الثلاثين من عمره نائباً عن جلالة الملك لويس في مصر اكثر من ستة عشر سنة اجتهد فيها أن يعرف عوائد واخلاق المصريين لانه كان يسر بذلك كما انه اجهد نفسه في تعليم اللغة العربية مع أن اللغة التركية كانت اللغة الرسمية التي تخاطب بها الطبقات العالية من المصريين اما العربية فكانت لغة عديمة الاهمية . ويتضح لنا من كتابة المسيو دي مايه المشار اليه انه مدن القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط اي ثغور البلاد المصرية اذلم تكن محصنه في ذلك الحين بل كانت عرضة وفريسة لاي فاتح يأتيها . وقال ان البلدة الوحيدة التي لم تزل محاطه باسوارها هي المنصورة كذا كثير من بوابات مدينة القاهرة كانت باقية على عهدها لكن الاسوار التي بينها لا يعتد بها لانها كانت مهدمة واشبه بحصون خربة . وقد قدر سكان القاهرة في ايامه بنحو ٥٠٠،٠٠٠ نفس وقال انه

لا يظن أن عدد سكان مصر لا يزيد عن ٤،٠٠٠،٠٠٠ نفس وكانت حدود الديار المصرية وتمتد في جنوب مدينة ابريم حيث كانت الحامية العسكرية هناك عبارة عن خمسة وعشرين أو ثلاثين عسكرياً وكان لثغر الاسكندرية مرفأين احدهما مخصص لدخول المراكب المسيحية واما المرفأ الثاني الذي كانوا يسمونه الميناء الجديدة فكان مهدماً خرباً . ثم تكلم باستغراب عظيم عن بقايا مدينة الاسكندرية القديمة خصوصاً عن بقايا الاعمدة الجميلة التي كان لم يزل كثيراً منها قائماً بقرب الجامع الذي كان اصله كنيسة القديس اثناسيوس ثم قال أن البحر الابيض المتوسط هناك اخذ في النزول عن الارض بسرعة غريبة جداً حتى انه لاحظ أن المنزل الذي نزل فيه عند قدومه الى مصر سنة ١٦٩٢ مسيحية كان بينه وبين مياه البحر ثلاثون خطوة فقط فلما زاره سنة ١٧١٨ وجده يبعد عن البحر بنحو سبعين خطوة وقد بنيت منازل اخرى في الارض الخالية التي وجدت بينه وبين البحر

وقال انه بخلاف المسلة التي رآها منتصبة بجهة عين شمس رأى هناك ابو الهول مغطى بالرمال وقد كسرته ايدي الناس الذين ينبشون الارض بقصد أخذ الكنوز المدفونة وتقول أن اصل حجمه يماثل حجم ابي الهول القائم بجوار اهرام الجيزة ومنحوتاً في صخر (حجر) واحد مثله . وقال أن احدى المسلات كانت لم تزل قائمة بجهة المطرية ولكن اشجار البلسم المشهورة في تلك الجهة قد هلكت بالكلية

وواضح انه من منذ ثلاثمائة سنة مضت كانت بقايا واثار القصور والمباني القديمة تشاهد اكثر من هذه الايام ولكنها صارت تهدم يومياً حتى ضاعت عن النظر

وقال المسيو دي مايه أن احد رجال الانكشارية اشترى يوماً قطعة ارض متسعة لينشيء فيها حديقة وبينما كان يهدم ربية صغيرة في تلك الارض لمساواتها بارض الحديقة اكتشف تحتها خمسة اعمدة اثرية جميلة جداً كل عامود من حجر واحد . غير أن هذا الانكشاري كان يجهل قيمة هذه الاعمدة الثمينة فلما وجدها ثقيلة اخذ يكسرها ويبيع قطعها لاستعمالها في الطواحين مع انها اجمل واثمن الاعمدة المصرية التي اكتشفت الى الآن ورغماً عن تكسيرها وضياع رسومها الجميلة كان التجار الاورباويين يشترون القطعة منها بمائتي ريال وتمنى كثيرون من امراء اوربا أن يشتروا هذه باثمان عالية جداً لكي يتمكنوا من تصليحها واعادة نصبها ثانياً . وقال مايه انه بعد ذلك التزم جلالة الملك أن يعجل بشراء ونقل العامود العظيم الذي كان في الاسكندرية ويدعى عامود بومبي قبل أن يكون نصيبه ما حل بهذه الاعمدة الجميلة التي عبثت بها ايدي الاتراك المتبربرين

ومن تلاوة ما كتبه المسيو دي مايه يتضح أن الحكومة في ذلك الوقت ما كانت تسمح حتى لقنصل فرنسا الجنرال أن يتوجه برجاله الى اهرام الجيزه أو اهرام سقارة لمشاهدتها الا بكل صعوبة وكانت الطريقة لنيل الاذن بذلك هو أن يكتب اولاً القنصل اخطاراً لاحد البكوات المماليك

ليرسل له هذا عادة رجالاً من قبله لحراسة القنصل والمحافظة عليه من الاشرار . ولما زار المسيو دي مايه هذه الجهات يومئذ شاهد اثار حفر كثيرة جداً في الارض الواقعة بين سقارة والجيزة حفرها العامة من المصريين والعربان للعثور على الكنوز . على أن هؤلاء العامة كانوا يعدمون لسوء الحظ كل ما يجدونه من الاثار بخلاف الذهب الذي كان هو جل مبتغاهم من الحفر مع انهم كانوا يستخرجون اثاراً اثمن منه بكثير ولكن لجهلهم المطبق كانوا يعدمونها سريعاً . وقد شاهد اشياء كثيرة منقوشة بالكتابات والرسوم الهروغليفية البديعة وموميات متنوعة كان المصريون يحضرونها امامه من سقارة الى القاهرة ويكسرونها على زعم انهم يجدون كنوزاً ذهبية مخبوءة في داخلها . وقد كتب جنابه بدقة واعتناء عظيمين بين الفرق بين المصريين والاتراك بالنسبة لاعتبار تلك الاثار في نظر الجنسين فقال أن المصريين وخصوصاً الاقباط كانوا يميلون جداً للمحافظة على الاثار القديمة ويعتبرون العبث بها انتهاكاً لحرمة تلك الاشياء النفيسة . وقد استعمل جنابه نفوذ مركزه الرسمي وتحصل ايضاً على مساعدات كبيرة من الاقباط في المحافظة على تلك الاثار وقد شهد للاقباط بانه كان في مقدرتهم انقاذها من ايدي المسلمين التي تعبث بها على الدوام. قال وقد اضطرت الظروف مرة احد الاقباط ان يبيع تمثالا قديماً كان موجوداً عند عائلته من نحو ثمانمائة سنة وكانت الظروف التي اضطرته للمبيع قهرية جداً يتوقف عليها حفظ حياته من العدم ومع ذلك

فقد ظهر عليه عند المبيع من الحزن والندم ما لا يوصف ومما دل على عفة نفس
ذلك القبطي وشهامته فلذلك لم يجد من يتشكى من عمله هذا للحكومة
التركية ولم يدفع لها شيئاً نظير هذا المبيع . وكان هذا التمثال عبارة عن
امرأة رأسها وقدميها من صنف حجر المحك الاسود وجسمها موضوع
على قاعدة جميلة من الحجر الاخضر القديم الممتزج باللون الابيض وكله
مصنوع صنعاً متقناً في غاية الجمال ارتفاعه خمسة اقدام وخمسة قراريط .
وصاحبه القبطي اليائس قد اقسم يميناً على الانجيل امام المسيو دي مايه
بان هذا التمثال تحصل عليه احد اجداده حينما كان مستخدماً مع الحاكم
الذي فتح احد اهرام الجيزة ووجده بداخله وكان هذا الحاكم (وهو
غالباً الافضل امير الجيوش) قد امر بتكسيره في الحال ولكن سكرتيره
القبطي الذي رآه يقرب من تمثال مريم العذراء وعلم انه من صنع اسلافه
تضرع الى مولاه المسلم بان يعطيه اياه نظير جعل من المال يدفعه فداء عنه
فسمح له باخذه ودفع فديته مائة مجر (١) من ذهب واخذه في منزله وبقي
فيه من ذلك الحين يتوارثه الاولاد والاحفاد ويحفظ به الابن بعد الوالد
كتركة عزيزة مكرمة حتى وصل الى ذلك اليائس الذي قضت عليه
الظروف ببيعه بعد أن اصبح وجود هذا التمثال عنده مهدداً لحياته وحياة
عائلته فاشتراه منه ذلك الوزير الاجنبي كما ذكر

ويتضح من كتابة المسيو دي مايه انه كان يوجد في ذلك العهد

(١) المجر كان في ذلك الحين يساوي خمسة واربعين غرشاً صاغاً مصرياً

بالبلاد المصرية شيء كثير من النواويس والتوابيت المنحوتة من حجر
الجرانيت او الرخام الجميل وعليها كثير من الكتابة الهيروغليفية
المتقنة وكان كل تابوت عبارة عن قطعة واحدة محكمة الصنع وعدد كبير
منها مطروح في طرقات واحياء القاهرة المختلفة عرضة للمارة وبعضها
مستعمل بصفة احواض للماء في الطرق العمومية ومنها تابوت جميل استعمل
اولاً بصفة حوض عمومي وسمي (بحوض العاشقين) واخر استعمل بصفة
مسقى للخيل في منزل احد الضباط الانكشارية

وقد تكلم المسيو دي مايه بالايضاح التام عن انواع الاثمار والفاكهة
التي كانت توجد بمصر في ذلك الوقت فاذا هي مثل ما يوجد منها في هذه
الايام تماماً ما عدا قصب السكر فانه لم يذكر عنه شيئاً وقد قال مؤكداً
أن النخله الجيدة كانت تعطي محصولاً لصاحبها يوازي قيمة عشرة ليرات
انكليزية . ثم تكلم عن الحيوانات المختلفة التي كانت توجد ايضاً في البلاد
المصرية فقال أن القط كان لم يزل محبوباً جداً عند المصريين ووصف القط
المصري بان يستحق المحبة مع انه لا يحب التقطط . واثبت أن القطط
المصرية في سنة ١٧٠٠ لم تكن تمتاز فقط بمهارتها العظيمة في صيد الجرذان
ولكن كان لها شكل جميل المنظر جداً لان شعرها كان مخططاً ومرقطاً
كالنمور وما كان يخلو وجودها من اقفاص (رسلان خانه الملوكي) أي محل
الوحوش الذي يشبه حديقة الحيوانات في هذه الايام . ومن المضحكات
قوله (أن تلك القطط كانت لم تزل تقيم في المساكن والمستشفيات لاجل

صيد الجرذان) . وكان التمساح يوجد بكثرة بالقرب من الجيزه ولكن يندر وجوده في الدلتا وقد قتل احد الاهالي قبل مجيئه الى مصر ببضع سنوات حيواناً بحرياً عند دمياط من الحيوانات المعروفة بجاموسة البحر

امضي المسيو دي مايه زمناً ليس بالقصير يفكر في مشروع ايصال البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر الذي تم بعد ذلك بواسطة انشاء قنال السوس . وقد ظهر له سهولة انفاذ هذا المشروع العظيم ولكنه افتكر بان النفقات تزيد عن المنفعة بكثير فعدل عنه . وقد بحث ايضا عن التجارة المصريه الاجنبية وقال انها محيت بالمره من سوء ادارة الاتراك ولم تجد في البلاد تجارة تذكر الا تجارة الرقيق التي كانت لها الحظ الاوفر في الرواج والانتشار حيث كانت تركيا وبعض البلاد الاوربية ايضا تاخذ اللازم لها من العبيد بواسطة البلاد المصريه حتى نشأ عن ذلك صيرورة السودان خرابا بلقعا خاليا من السكان واصبحت قفارا بعد ما كانت عامرة بالحرث والغرس وكان العربان يصطادون السكان باساليب شتى ويأتون بها للبيع في الاسواق المصرية وكانت كل وسائط النقل محصورة في الابل . قال وكان الاتراك يجلبون الى مصر اشخاصا كثيرين من الرقيق الابيض الاوروباوي يأتي به التجار من الاقاليم التركيه . واقل ثمن كانت تباع به الرأس الواحدة من الرقيق الابيض بمائتي ريال فاكثر ورأى المسيو دي مايه بنفسه بنات صغيرة تباع الواحدة منهن بسعر ثمانماية وتسعماية جنيه انكليزي وكان الطلب كثيراً في مصر على الاولاد الجميلة التي

يتشرب بياض وجوههم بالحمار ليربيهم الحكام المسلمين بصفة مماليك لهم وكان نادراً جداً جلب البنات والاولاد من الجنس التركي بل كان التجار يجلبونهم من اولاد المسيحيين ويدعون انهم اتراك فيشب هؤلاء الصبية على المبادىء الاسلامية وقل ما كانوا يخجلون من الرق ولا يعدونه عاراً عند بلوغهم سن الرشد بل بالعكس كانوا يفتخرون بانهم اتوا البلاد عبيداً ارقاً فاصبحوا اشرافاً وسادة فيها بينما اولاد العرب الاحرار أو الاهالي المصريين الذين تحصر فيهم فقط بعض المعارف والعلوم الضرورية كانوا مهانين وينظر اليهم بعين الاحتقار ولو كانوا مسلمين

وكان الاقباط دائماً اقل جهلا واكثر معرفة من جميع انواع المصريين . ولكن المسيو دي مايه الكاثوليكي الشديد التعصب لمذهبه لم ينصفهم تماماً بوصف ما كانوا عليه من حسن الصفات وسعة الاختبار بل كان يعاكسهم في حريتهم الدينية ولا يبدي معهم اقل تساهل في شيء باعتبار انهم تابعون لكنيسة منشقة ومهرطقة في عرفه . وقد كتب يشكو بحدة وغل قائلا انه لا يوجد في كل الدنيا شعب عنيد وصلب في خطائه وتمسكه بعبادته القديمة مثل هولاء الاقباط المنشقين فان اعظم وامهر واحزق المبشرين الكاثوليك كانوا يشتغلون فيما بينهم سنين عديدة بلا فائدة ولا نتيجة تذكر !! ولكنه مع ذلك اعترف صريحاً بان الاقباط كانوا يستقبلون اولئك المبشرين بكل ادب ويحترمون غيرتهم وخدمتهم ويقابلون شفقتهم عليهم بالشكر والامتنان ومع ذلك كله

كان يستحيل بالمرة زحزحت اقل واحد منهم عن ترك مذهبه أو تغيير معتقده مطلقاً ولذلك تعزز على جميع المبشرين الكاثوليك جذب قبطي واحد للمذهب الكاثوليكي رغماً عما بذلوه في ذلك من المساعي الهائلة قال المسيو دي مايه أن هولاء المسلمين المبشرين قصدوا مرة مباشرة توزيع صدقات على فقراء الاقباط حتى يستميلوهم الى سماع تعاليمهم فاوجدوا لهم محلا وجمعوا عدداً كبيراً من الفقراء والبائسين واخذوا يوزعون عليهم الصدقات ثم يباشرون الوعظ بينهم حباً في جذبهم الى المعتقد الكاثوليكي بلا نتيجة وتصادف تعيين رئيس جديد للارسالية الكاثولكية بمصر فامر بمنع الصدقات عن هؤلاء الفقراء فامتنعوا عن المجيء لسماع الوعظ فلما ارسلوا يطلبونهم الى سماع الوعظ امتنعوا وقالوا (مفيش فلوس — مفيش كنيسة —) وبذلك لم يبق مع اولئك المبشرين الكاثوليك بصفة دائمة غير نفر قليل جداً ولم يعتنق مذهبهم غير الذين اخذوهم من والديهم وهم اطفال من اولاد الفقراء وربوهم من منذ نشأتهم على المذهب الكاثوليكي وبدون هذه الواسطة ما كان يمكنهم تحويل قبطي واحد عن معتقده الاصلي الارثذوكسي . ومن الغريب أن المسيو دي مايه ورفقا في المعتقد لم يوجهوا فكرهم للطرق التي كان يمكنهم النجاح فيها من هذا القبيل لانهم لو فكروا في الاهتمام بالوعظ بين المسلمين كان يمكن لهم النجاح اكثر من نجاحهم مع الاقباط اخوانهم في الدين ؛ ومن المعلوم أن الغرض الحقيقي من ارسال الارساليات المشيخية والرومانية الى مصر في هذه

الايام مبني على ايصال التعاليم المسيحية الى المسلمين للدين وليس لمعاكسة الاقباط في معتقدهم بصرف النظر عن أن مدارس هولاء المرسلين ملآنه من الاقباط أو المسيحيين المصريين وهولاء لايدخلونها الا بطريقة الترغيب التي تفوق كل الطرق واهمها التعليم المجاني . واما في عصر المسيو دي مايه فان هذه طريقة ما كانت تؤثر على الاقباط ولا تحملهم مطلقاً على ترك كنيستهم الاصلية

وخلاصة ما يؤخذ من اقوال المسيو دي مايه أن الارساليات الدينية قد جربت كل الوسائط في اغرا الاقباط على اعتناق المذهب الكاثوليكي وكلها ذهبت ادراج الرياح . واخيراً تأكد اصحابها انه لا توجد غير طريقة واحدة تمكنهم من النجاح في هذا العمل وهي انهم يتحايلون على على اولاد الفقراء وياخذونهم منذ طفوليتهم ويفصلونهم عن قومهم انفصالاً تاماً ويربونهم على مذهبهم وذكر المسيو دي مايه أن بعضاً من هولاء الاطفال ارسلتهم احدي الارساليات وهم حديثي السن الى روميه فتعلموا هناك سنيناً طويلة وشقوا على المذهب الكاثوليكي ولكن عند عودتهم الى وطنهم ادركوا غلطهم وعادوا ثانية الى كنيستهم الارثوذكسية واستعملوا العلوم التي حصلوا عليها في رومية في تحسين حالتهم اللاهوتية وافادوا بها كنيستهم وقال ايضاً أن الاقباط علاوة على تعصبهم لمذهبهم فانهم يكرهوننا حتى انهم يستعملون جملة في آخر شتائمهم أو سبابهم بقولهم في اخر الشتيمة (يا افرنجي) واذا تباحث معهم — في موضوع اعتقادهم

بوجود طبيعتين لسيدنا يسوع المسيح يستحيل عليك تفهيمهم الحقيقة .
فان سألتهم قائلا « اما كان سيدنا يسوع المسيح انسان تام ؟ » يجيبونك
« نعم » . ومع كل ذلك لا يمكن لاي شيء في الوجود أن يغويهم ويغريهم
على الاعتقاد بوجود طبيعتين للرب يسوع

وقد اظهر هذا القنصل تألماً كثيراً من عدم سهولة الحصول على
الاطفال الاقباط منذ ولادتهم حتى يمكن تربيتهم على المعتقد الكاثوليكي
فقال ولو أن هولاء الاقباط على العموم بؤساء وفقراء ومضغوط عليهم
ومضطهدين من الحكام المسلمين لاجل دينهم ومع ذلك يستحيل اغواؤهم
على التفريط في اولادهم ثم قال انه في سنة ١٦٩٩ مسيحية وصلني امر من
جلالة امبراطور فرنسا بانتخاب ثلاثة من اولاد الاقباط وارسالهم حالاً
الى فرنسا لكي يتعلموا فيها وشددت عليّ حكومة جلالة الامبراطور
بضرورة انتخاب هؤلاء الاولاد من العائلات الطيبة وشرح بعد ذلك الطرق
التي بذلها في طلب تنفيذ هذا الامر والحصول على الاولاد المطلوبين
وكيف وسط في ذلك جميع الدوائر الرسمية واصحاب المقامات العالية وانتهى
بقوله انه قد استحال على اغراء اقل قبطي من عائلة طيبة على التفريط في
ابنه لهذا الامر النافع لمستقبله وبعد الجهد الشديد والسعي المتواصل بضع سنوات
لم يمكنه الحصول على ولد واحد من عائلة بائسة ومن افقر الناس وكانت
نتيجة تلك المساعي فراغ كل مدارس المرسلين من اولاد الاقباط
حتى أن الذين في فقر مدقع منهم انقطعوا عن المجيء لاخذ الصدقات

والاحسانات كالعادة خشية من اخذ اولادهم بغير رضائهم وهكذا الذين
كانوا يتضورون جوعاً تنحوا بالمرة عن التردد على المرسلين لهذا الامر
عينه وختم المسيو دي مايه كلامه في هذا الموضوع باستغرابه الكامل
من هذا الرفض قائلا انه بموجب هذه الحقائق نعرف كيف تؤكد لبابا
رومية عدم صحة القول الذي قيل له بكل جرأة وعلى غير صحة أن بطريرك
الاقباط سمح للمرسلين الايطاليين باخذ اولاد من الاقباط لتعليمهم
في رومية

وكان البطريرك القبطي في المدة التي مكثها المسيو دي مايه في مصر
الانبا يوحنا السادس عشر ومن الواضح انه لم يعترف باعمال ووجود
المرسلين الاطاليين في مصر بل كان يفرض عدم وجودهم بالمرة في البلاد
كما كانوا لا يعترفون به ايضا (١) . ويقول المسيو دي مايه انه عقد مخابرة
رسمية بينه وبين البطريرك يوحنا بشأن المعمودية التي ادهش امرها ذلك
الوكيل السياسي الفرنساوي واشار في مخابرته بضرورة تأجيل عماد الطفل

---

(١) يوحنا السادس عشر الملقب بيوحنا الطوخي هو الذي اعاد استعمال
الرسامة والتدشين بزيت الميرون المقدس الذي كان قد بطل استعماله من مدة ٢٠٠
سنة . ويقول نبيل المؤرخ اعتماداً على تقرير برناتي الى سوكريوس ان هذا البطريرك
هو الذي اصدر امرا بان اولاد الاقباط يلزم عمادهم في اليوم الثامن من ولادتهم
بدل اليوم الاربعين . ولكن ذلك يخالف ما كتبه دي مايه عن هذا الموضوع
بعد أن قابل البطريرك بنفسه وتباحث معه عنه

حتى تشفى والدته من النفاس وتستطيع حضور الاحتفال بتعميده في الكنيسة . وقد كان من النادر أن يمارس امر العماد مرتين في السنة كالقاعده القديمة اذ كان يحتفل بالعماد احتفالات عظيمة جداً في كل الكنائس . ولم يبال البطريرك بغيظ وغضب قنصل جنرال فرنسا بل دافع عن عوائد كنيسته وكتب له صريحاً بايضاح يقول « اعتقد أن هذا الطقس الديني لا يمارس بالاعتبار والتقديس التام في الكنيسة الرومانية لانه لا يوافق الطريقة الجارية بين الكاثوليك الرومانيين الذين يمارسون العماد في المنازل الخصوصية عوضاً عن الكنائس » غير أن هذا السفير الفرنساوي اظهر ذات الحقد والغضب في قوله من أن الختان ايضاً قاعدة عامة عند الاقباط ثم تكلم عن عوائد الاحتفالات الغريبة عند الاقباط وهي التي لم يكن لها ذكر في تواريخ اخرى غير تاريخه فقال توجد في اقليم البهنسا الكائن على مسيرة يومين من القاهرة قرية يسميها العرب هناك بير الجرنوس (أو ابار النبوة) وللاقباط في ذلك المكان بئر مقدسة ومن تلك البئر يستطيعون أن يتنبأوا بعلو فيضان النيل سنوياً انه ذلك في ليلة معلومة من كل سنة يجتمع حولها كثير من الاقباط ويقيمون سرادقا عظيما فوق هذه البئر ثم يأتي شيخ القرية اوحاكمها وحوله خلق لا يحصى لهم عدد ويساعد في اقامة معالم الاحتفال ثم يؤتى بحبل قطني متقن الصنع معقود في نقط متوازية منه خيط ابيض وازرق ثم يدلونه في البئر حتى يمس طرفه الماء وبعده توضع مائدة على فوهة البئر يقيم عليها الاسقف

قداسا حبريا عظيماً ثم ترفع المائدة من فوق البئر ويفحص الحبل المدلى فيها فمقدار ارتفاع الماء الذي غطى الحبل يعتقدون تماماً انه هو مقدار منسوب ارتفاع النيل في تلك السنة اي انه اذا كان ماء البئر غطى مقدار ١٦ ذراعاً من طول الحبل فان ارتفاع النيل يكون ١٦ ذراعاً الخ

وبالرغم عن تحامل المسيو دي مايه على الاقباط واجحافه بهم لم يستطع أن يخفي اعجابه العظيم بمهارتهم في الاشغال . وقال ان من بين اديرتهم التي لا تحصى يوجد دير يبعد عن القاهرة مسافة سبعة أو ثمانية اميال داخله ثلاث كنائس قديمة مبنية الواحدة امام الاخرى وبها ترميمات جميلة جداً حتي أن الناظر اليها لا يعتقد الا أنها كنائس جديدة [1] والرهبان في تلك الكنائس يرتلون مزامير داوود النبي ليلاً ونهاراً دون انقطاع ولكن الذي يستحق الاعجاب هو نقطة تبعد عن ذلك الدير بمسافة قصيرة في الجبل على مقربة من خرائب صومعة قديمة هناك . وتلك النقطة هي منتزه من اجمل وازهى المتنزهات في العالم اجمع كما وان هناك مغارة منحوتة يميناً داخل الجبل عمقها من عشرين الى ثلاثين قدماً وعرضها اكثر من ٢٠٠ خطوه والخطوة خمسة اقدام وطولها من الغرب الى الشرق يزيد عن ثلثماية خطوة وهذه المغارة العظيمة المنحوتة في وسط الصخر الصلب بلا اعمدة ترفع سقفها ويرى داخلها مشاهد البحر الاحمر

---

(١) يقول المسيو دي مايه انه راى هذه الكنائس بنفسه ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها انه لم يبارح جنوب سقاره

ويمكن لمائتي راهب أن يمشوا معاً داخلها بسهولة وفي اشد ايام قيظ الصيف الشديد يكون الهواء داخل هذا الدهليز العظيم بارداً لطيفاً ومستحباً جداً

وقد حدثت مشاغبات في عهد هذا البطريرك ببلاد الحبشة اوجدها المرسلون الكاثوليك هناك واضطرت البطريرك أن يرسم مطرانين لتلك البلاد لان اولئك الرومانيين الكاثوليك قد اوجدوا بمساعيهم الفاسدة متاعب عظيمة وقلاقل جمة بين الشعب والامبراطور ليقيموا حرباً اهلية غير انه ما جاءت سنة ١٦٨٠ حتى كان للاقباط ثلاثة مطارنة في الحبشة اولهم الاب خرستودوس وقد شلحه ملك الحبشة بسبب كاهن يدعى شنوده وثانيهم الاخ شنوده الذي لم تكن قد تمت رسامته اصوليا في مصر وهذا قد شاع اطاعة لمطالب الاب مرقص الذي لم يكن تحصل على رسامة رسمية من مصر حتى سنة ١٦٩٢ مسيحية . اما فرنسا فارسلت ثلاثة وفود الى الديار الحبشية لينصبوا شباك المكائد رغم الكنيسة الوطنية الحبشية في ايام البطريرك المذكور الذي توفى سنة ١٧١٨ وكانت الارسالية الاخيرة في سنة ١٧٠٦ بعد أن حرض الملك لويس التاسع عشر اليسوعيين على ارسال طبيب يدعي دي رول الى تلك البلاد بطريق السودان ليدرس الطريق التي ينوون اختراقها في سيرهم اليها . فلما وصل دي رول [1] الى السودان اسره السودانيون ثلاثة

(١) من مطالعة كتاب امبراطور الحبشة الاتي يعلم بالتفصيل ما تم من امر

ثم قتلوه امام ملك سنار الصغير الحقير الذي يظهر انه كان ذو سيادة ونفوذ غير ثابت على ممالك السودان الجنوبية لان الممالك السودانية الشمالية كانت قد خربت من مدة وتسلط عليها عدد كثير من زعماء المسلمين واغلبهم من العرب تجار الرقيق الذين اوجدوا مظالم وفظائع في هذه المملكة

الطبيب دي رول فانه عند قدومه الى سنار حجز بها ثم أرسل رسولا لتحقيق ارادة الامبراطور في أمر هذا الطبيب وقد وصل دي رول تعليمات سرية من مقتضاها أنه اذا كان قادماً بصفة سائح للاعمال الخيرية فلا بأس من السماح له بدخول الحبشة . وأما اذا كان من اليسوعيين فلا بد من منعه المجيء الى الحبشة بكل الوسائط الممكنة مهما كانت الحالة . والكتاب الاتي مأخوذ من مجموعة المسيو دي ساسي العربية : —

من السلطان تكلا هيمانوت ابن السلطان آدم سجويد ابن السلطان علاف سجويد . كتب هذا المكتوب الملك الكلي الاحترام والامبراطور الكلي العظمة والجلال سيد الشعوب . ظل العناية الالهية بين رجاله . الكلي المجد والعزة بن الملوك والسلاطين الذي يؤمن ويعترف بديانة يسوع . الكلي القوة والجبروت بين الملوك المسيحيين . حامي حمى الايمان الذي تحت حمايته حدود الاسكندرية الذي جعل أساس العدل متساوياً بين المسلمين والنصارى . الذي من نسل داوود النبي وابنه الملك سليمان ملك اسرائيل الذي عليه وضع الرب الاله طريق الخلاص . السلطان تكلا هيمانوت ابن السلطان آدم سجويد ابن السلطان علاف سجويد . فليدم شخصه مقدساً الى الابد . ولتدم مملكته السامية محفوظة في العز والعظمة الى الى الابد . وليدم رجالها وجيشها الذي لا يقهر امين

الى رفيع المقام عظيم الاحترام العالم السامي المسيو دي رول الفرنسي —

وقد اعتنق ملك سنار الديانة الاسلامية . بالرغم عن ذلك قد بقيت جماعات كثيرة من المسيحيين منتشرة في كل ارجاء السودان ولها عدة كنائس أيضاً ونفوذها الاسمي يومئذ كان متصلاً تقريباً الى حدود مصر الجنوبيه كما يتضح لك ذلك من الحادثة الاتية :— . عند ما قتل الدكتور دي رول المتقدم ذكره قد اصدر المسيو دي مايه فرماناً رسمياً في القاهرة يأمر كل الرعايا الفرنساويين النازلين في الديار المصرية أن يطردوا كل بربري أو أي رجل آخر في خدمتهم يكون من رعايا ملك سنار وان يطردونهم من بيوتهم في ظرف ثلاثة ايام وان لا يستخدموا مثل

السوري الاتي الينا في قلبنا كما يأتي بشخصه فليحفظه الله من كل عارض ويرفعه لاعلى الدرجات امين . أما بعد فان ترجمانك المدعو الياس الذي ارسلته الينا قد وصل الى بلاطنا وكان وصوله موافقاً لدينا وسمحنا له بالدخول امامنا . وقد علمنا منه انك مرسل لنا من قبل أخينا ملك فرنسا وانك حجزت في سنار . فبناء على ذلك اني اكتب الان الى السلطان بادي الذكركي لا يحجز عليك ويسمح لك بالمجيء الى هنا . وان لا يهينك بل يعاملك بالشرف والاحترام وان لا يزعجك ولا يتعبك بل يعاملك بالحسنى والاعتبار انت وجميع من معك لانه يوجد مشابهة بينك وبيننا في الدين والايمان مثل رسولك الياس السوري . جميع الحاضرين معك بصفتهم سفراء أو تجار من قبل أخينا ملك فرنسا أو نائبه في مدينة القاهرة هكذا شددت على سلطان سنار أن يعامل كل الذين برفقتك المتحدين معنا في ذات المذهب والعقيدة وبذات النواميس وبذات الايمان . لاننا نحب الدخول في عقود الصداقة والاتحاد وفي مبادلة المباحثة مع الجميع وفقط نتجنب الذين

هؤلاء القوم عندهم ومن يخالف هذا الامر يصير الزامه بدفع غرامة مالية قدرها ثلاثماية جنيه . وكان البرابرة في تلك الايام كما في ايامنا هذه يعتبرون أحسن الناس موافقة للخدمة المنزلية في بلاد مصر ولذلك وقع ضرر ذلك الامر الصارم الذي اصدره المسيو دي مايه على رعايا ملك فرنسا وليس على رعايا ملك سنار ولكن ظل أمر المسيو دي مايه هذا معمولا به في مصر ومتبعاً بين الفرنساويين فيها مدة ماية سنة

وقد وصف المسيو دي مايه بالتطويل الظروف التي اوجبت ارتداد ثم استشهاد الاب كليمنت ركوليه القس القنصلي الفرنساوي في القاهرة الامر الذي اثر تأثيراً عظيما على الناس وقتئذ . فقال ان ابناء جلدته اتهموه بسوء التصرف في الاموال المخصصة للاعمال الخيرية والصدقات فالتزم ان يهرب ويلتجيء لقوة الحكومة التركية في القلعة ثم ابلغ

يعترفون بعقيدة ويتبعون ناموساً ضد ناموسنا وعقيدتنا مثل يوسف (١) ومن في معيته الذين طردناهم حالا من البلاد عند مجيئهم لاننا لا نحب دخول مثل هؤلاء القوم في بلادنا ولا نسمح لهم يتعدون حدود سنار كي لا يتمكنون من ايجاد النزاع والفوضى بيننا . أما عنك فقد سمحنا لك بالقدوم الينا ونؤكد لك بهذا انك سترى ترحيباً واستقبالا عظيمان فكن اذن في طمان ولا تخف والعبارة الاتية مكتوبة في ذيل الكتاب عند الامضاء :— يسوع ابن مريم — آدم سجويد ابن علاف سجويد من نسل سليمان ابن داوود ملك اسرائيل

---

(١) يقصد بذلك المرسل اليسوعي الاب يوسف برندنت الذى كان ارسل للحبشة لتغيير عقيدة أهلها وقتل قبل وصوله غندار عاصمتها

الحكام عزمه على اعتناق الديانة الاسلامية وكان ذلك في ٢٣ ابريل
سنة ١٧٠٣ . فكتب المسيو دي مايه جواباً لذلك الاب شديد اللهجة
ينصحه فيه بالرجوع الى صوابه ويرجوه العودة الى حضن السفارة
الفرنساوية وأكد له انه سيعاقب الذين سبوه واتهموه وافتروا عليه
واستحلفه بكل عزيز ومقدس عنده ان يرجع قبل ان ينتهز المسلمون
فرصتهم ويحتفلوا باسلامه . وقال له يمكنك ان تعتذر بانك كنت سكراناً
في طلبك الاسلام وانك ما كنت تعي ما تقول واقترح عليه انه يمكنه
ايضا ان يتداخل في تخليصه من ايديهم اذا تمسك بذلك العذر

فرد عليه القسيس جواباً وجيزاً غير مقنع . ومع ذلك في يوم ٢٥
ابريل سنة ١٧٠٣ احضروه امام الباشا الوالي الذي سأله اذا اراد أن يكون
كما كان نصرانياً . ولكن المسلمون ما كانوا يسمحون لمثله أن يرجع
عن عزمه فامسكوه في ٢٨ منه وختنوه بالقوة واوجدوه في غرف مفروشة
بالرياش الفاخرة وعينوا العبيد لحراسته وخدمته واكدوا له انهم سيزوجونه
باجمل النساء طراً ولكنه لم يقبل ذلك ولما رأوه أنه القى بالعمامة التي
اتوا بها اليه على الارض بكل عنف وظل مصمما على عدم اسلامه اخذوه
وضربوه ضرباً مبرحاً حتى صار اقرب الى الموت منه الى الحياة ثم طرحوه
في السجن . فاجتهد المسيو دي مايه غاية جهده في انقاذه من ايدي
المسلمين ولم يفلح وفي يوم ٨ مايو وصله جواب من ذلك القسيس يرجوه
فيه أن يتركه حتى يكفر عن غلطته بالاستشهاد . وقد اقترح احد كبار

المسلمين المتعصبين وجوب تقطيع ذلك القسيس ارباً ارباً . وان يفصل أعضاء
جسمه مثل يده أو ارجله في ظرف ربع ساعة عن جسده وهكذا يعذب
حتى يموت . ولكن الاوروباويين كانت قد قويت شوكتهم في البلاد
واصبحوا لا يسمحون لاحد أن يعمل مثل هذا الصنيع مع احد ابناء
جنسهم . ولو لم يكن الباشا يخاف قيام اوباش المسلمين عليه لكان عفى عن
موته . على أنهم قطعوا راس هذا الاب يوم ١٧ مايو سنة ١٧٠٣ وسلموا
جثته الى المسيو دي مايه السفير الفرنساوي فدفنها باحترام في مقبرة
الخندق . ويقول المسيو دى مايه انه لهذه المناسبة وصلته تعزيات حاره
واشترك معه في الحزن كل رجال الكنيسة اليونانية والقبطية وامرت
الكنيستين شعبيهما بالصوم ثلاثة ايام تكريماً لذلك الشهيد

وكانت علاقة المسيو دي مايه مع الاتراك اكثر وداداً وصداقة مما
كانت مع الاقباط . ولكنه لم يستطع أن يخفي اعتقاده من أن الاتراك هم الذين
عليهم وحدهم تقع مسئولية خراب وشقاء البلاد . فانهم من الباشا الوالي فما
دونه الى اصغر موظف في خدمة الحكومة لا يهمهم الا جمع الثروة والاموال
باية طريقة كانت على حساب الحكومة سواء خربت البلاد أو عمرت .
ولا يراعون في ذلك حقاً او عدلاً أو امانة أو رحمة . ولم يكن يسمح الباب
العالي في الاستانة لوالي مصر أن يقيم فيها اكثر من سنة مالم يقدم رشوة
عظيمة للسلطان وكثيرون من الولاة افلحوا في مساعيهم بهذه الطريقة وتمتعوا
ببقائهم ولاة على مصر اربعة سنوات . وكان الوالي يجتهد أن يجمع لنفسه

من الثروة اكثر من الجزية السنوية التي تدفع للسلطان . ويقول المسيو
دي مايه ببساطه : وعلاوة على كل ذلك فانه اذ تفشى وبأ في البلاد مدة
السنة التي يكون الوالي حاكما فيها . ففي بحر الثلاثة أو الاربعة اشهر التي
يبقاها عادة الطاعون في البلاد يكون الباشا قد جمع في اثنائها ثروة عظيمة .
فاذا اتفق ومات جابي اموال الحكومة في احدى البلاد يبيع الباشا وظيفته
لمن يقدم رشوة اكثر من غيره حتى انه في غالب الاحيان كانت تباع هذه
الوظيفة في ظرف اسبوع لثلاثة أو اربعة من الطالبين بالنسبة لسرعة وفاة
الذين يشترونها بالتعاقب بسبب تفشي الطاعون

ويقول المسيو دي مايه أيضاً ان الخمس القوات التي دون الوالي (سناجق)
(القوة الحربية العظيمة) كانوا دائماً يفترسون الشعب ويمتصون دماءه. ولم يكن
وقتئذ يوجد أي واحد من الاهالي له ثروة خصوصية ولو فرضنا ووجد احد
له ثروة قليلة كان يتعين عليه أن يستميت للدفاع عنها سجنا وبخلاف ذلك
لا يمكنه حماية عمله واشغاله وثروته الخصوصية بدون أن يضع نفسه تحت حماية
اصحاب هؤلاء القوات الخمسة الذين كانوا يلقبون بالتسلسل هكذا: الاغوات
المصطفين. والعساف. والسباهي. والباشجاويش. والانكشاريه. واذا اتفق
أن احداً من الاهالي استأنف شكواه لمن اختاره من هؤلاء القوات
من حادث وقع معه أو سرقة حصلت له فكان لا ينال هذه الا بثمن غال
فان ذلك العظيم لا يكتفي بثمن الحماية الاولى بل يطلب منه أموالاً
أخرى بحجة صرفها في تحقيق قضيته الجديدة ومعاقبة عدوه . وعلاوة على

ذلك فاذا مات ذلك المسكين المحتمي بعظمة ذلك العاتي فيكون لحاميه الحق
في وضع يده على كل متروكاته من مال وعقار ولا يترك لارملته وايتامه
الا جزءاً قليلاً من تركته . وكان لهؤلاء الطغاة حيلاً كثيرة
يسلبون بها أموالا من الفرنساويين نظير تجاهلهم بالعلاقات التي كانت
توجد بينهم وبين بعض النساء الوطنيات كما يقول المسيو دي مايه

ولكن عملهم هذا أصبح عبئاً ثقيلا على الفرنساويين حتى ان أصحاب
المصارف المالية منهم هجر كل علاقة مع النساء . ولم يكن يوجد موظفاً تركياً
من اكبر الى اصغر واحد يقبل صرف اقل شيء من ثروته التي جمعها
بطرق غير محللة على ما يرقي البلاد المصرية ويزيد في اتساع نطاق تجارتها
واشغالها العمومية . مع انهم كانوا يرسلون سنوياً مبالغ عظيمة لمدينة مكة
وللسلطان في القسطنطينية. ولذا فان الاراضي كانت تقل مساحة المزروع
منها سنويا . أما تطهير الترع ومجاري النيل فكانت مهجورة وان كانت ترمم
فلا يرممونها الا بالسخرة القهرية واعمال الطرق والشوارع الخ فكانت
شيئا غير معروف بالمرة والخمسة قوات المذكورة كانت تعيش من سلب
ونهب الاهالي . ومع كل مظالمهم فما كانوا يحامون عن المصريين اذا هجم
عليهم العرب البدو وداروا فيهم سلباً ونهباً وكان اكبر العلماء ورؤساء
الدين من المسلمين معرضين ايضا كغيرهم لهذه التعديات الظالمة. وفي سنة ١٧٠٩
مسيحية وقعت حادثة عظيمة جرت فيها الدماء انهارا مدة يومين داخل
الجامع الازهر لاختلاف الاراء في من يليق تعيينه لوظيفة شيخ لذلك

الجامع وكان كل من الطرفين المتخاصمين يحمل البنادق والاسلحة وكسروا
أبواب وقناديل الجامع قطعاً صغيرة وجرح وقتل كثير من الطابة وفي
آخر اليوم الثاني أحضر محافظ القاهرة قوة عسكرية طردت العصبتين
المتحاربتين واخرج جثث الموتى من الجامع ونفى أحد الشيوخ الذي
اتضح انه زعيم الثورة وسجن ايضا اثنى عشر شخصاً الذين كان لهم
اليد في اقامة ذلك الحرب داخل الجامع

الفصل التاسع والستون

استبداد البكوات المماليك

نشبت الحرب اظفارها في سنة ١٧١٠ بين الدولة العلية وروسيا فصدرت
ارادة سلطانية بسحب الجنود التركية من مصر وترك نحو ثلاثة الاف
منهم لتائيد الاحتلال التركي بهذه العساكر التي كانت مكروهة جداً عند
المصريين . وقد نشاء عن سفر اكثر هذه الجنود ازدياد عصابات السلب
والنهب في القاهرة وضواحيها وزيادة الشغب بين الاهالي وتمردهم على
الحكومة وخاصة بالنظر لفساد الاحكام ومظالم الحكام حتى نشبت في
البلاد حرب اهلية من نفسها السنة التالية . فنزح حاكم الصعيد بجيوشه الى
القاهرة ليشترك في هذة الحرب . ووقعت معركه هائله بينه وبين الثائرين

في الفضاء الكائن بين القلعه وجامع السلطان حسن وتحول هذا الجامع
الى طابيه وحصن تحصيناً منيعاً . وتحول أيضاً جامعا طولون والمؤيد
الى حصون . ومما يؤسف عليه أن اعظم وافخر الجوامع في القاهرة تحولت
في تلك الايام السوداء الى معاقل وحصون للحروب والكفاح بدل جعلها
اماكن عباده وصلاح

غير أن حاكم الصعيد لم يفلح في قمع الثورة فدارت الدائرة عليه فهزمت
جيوشه وجيوش الباشا الوالي الذى كان امراء القاهرة يريدون خلعه وقد
لعبوا بمصالح البلاد يومئذ الاعيباً كثيرة محزنة . فمن ذلك انهم اطلقوا النار
على منازل باقي الامراء خصومهم فامتد لهيبها الى منازل السكان
المسالمين ودكاكينهم وهكذا احرقوا جزءاً عظيماً من القاهرة وباقي المنازل
التي سلمت من الحريق نهبها وسلبها عساكر الامراء . فصار كل من
السكان يجتهد في الهرب من المدينة بحياته فتركت مرسحاً للشقاء اياماً
كثيرة لعبت فيها ايدي الجند . والذين تجلدوا وبقوا في المدينة بقصد
حماية ممتلكاتهم سقطوا في مخالب اعداء اخرين قاهرين جبارين هم العربان البدو
الذين استدعاهم الامراء الفقاريون لاعادة سلطتهم حيث انتشر هولاء البدو
في انحاء المدينة وصاروا يسرقون كل ماتصل اليه ايديهم ويقطعون مجاري
المياه عن السكان حتى صيروهم على وشك الموت من شدة الظماء

ومع استدعاء البدو الى داخلية البلاد لم يبطل النزاع والخصام من بين
الاهالي والامراء في القاهرة فقط كما ولم يمكن صد غارات البدو عن

سلب أي بلد يمرون عليها فقد نهبوا مدناً كثيرة وسلبوا جميع ممتلكات اهلها خصوصاً مدينة اخميم فانهم اوصلوها للخراب التام وقتلوا معظم سكانها . وقد كانت كل مدينة مسيحية تقريباً معرضة للخراب اكثر من غيرها وهذا هو السبب في قتل اكثر سكان اخميم وخراب غيرها من المدن الاخرى التي كانت مأهولة بالاقباط بهذا الشكل المريع . وفي اواخر ايام الفتنة وقعت معركة حربية كبرى قرب قصر النيل قتل فيها الامير عواظ (١) رئيس حزب الامرأ القاسميين . وكيفية قتله أن حاكم الصعيد الذي كان يقود الجيوش لمحاربة الامراء وضع كمنا خلف دعامة قنطرة القناة الكبرى ثم تظاهر بالانهزام والهروب من امام عساكر الامراء فتبعته فخرج الكمين من محله واسخن فيها قتلا وصوب حاكم الصعيد قوسا على عواظ بك فخر في الحال قتيلا . فانتخب حزب القاسميين ابنه اسماعيل رئيسا عليهم في الحال وكان صبيا في السادسة عشرة من عمره ومشهوراً بجماله وشجاعته . وعندئذ عقدوا هدنه مع حاكم الصعيد لمدة ثلاثة ايام . وبعدها عادت الخصومات فتجددت بين الامراء بدرجة اشد من الاولى ودامت كذلك الى أن تبدد شمل حزب الامراء الفقاريه وتلاشت قواهم بالكلية واصبح الشاب اسماعيل ابن عواظ سيد البلاد

١ صحة هذا الاسم وهجائته عواض ولكن اصبح يلفظ عواظ اخذا عن اللغة التركية وقد ترجمه احد المترجمين السوريين لاحد الانكليز هوارد فغير معناه

المصرية والمتصرف فيها بامره . ثم عينت الدولة العلية والياً جديداً من قبلها على مصر ، اصبحت العادة يومئذ أن تعيين الولاة من القسطنطينية يتم مرة في كل ثلاث عشرة سنة وكان تعيينهم رسمياً فقط بينما كانت اعمال البلاد في يد اسماعيل بك حاكمها الفعلي . وقد عين اسماعيل بك المشار اليه جميع اصحابه حكاماً على اقاليم مختلفة واعطاهم الوظائف العليا في القاهرة واتبع العدل ولكنه كان قاسيا مع الرعايا على السواء وطهر ضواحي المدن والبلدان من البدو الضاربين حولها . ولم يشعر مصريو ذلك الحين بزمن ساد فيه الامن والطمأنينه كعصر اسماعيل بك . ومع كل ذلك ما كانت يده القوية وسلطته النافذة تساعدانه على تمكين السيدات المخدرات من السير في الطريق بدون خرس قوي حولهن . وقبل قتل اسماعيل بك بسنة خرج جماعة منهن في يوم شم النسيم كالعادة للنزهة في ضواحي العاصمة راكبات حميراً فقبل وصولهن الى كبري شبرا احتاط بهن جماعة من المماليك وهم بحالة سكر وعربده وسلبوهن حليهن بعد تمزيق نقابهن . وقد وقع كل ذلك على مرأى من الضابط المعين للمحافظة على الامن في تلك الجهة ولكنه بقي ساكناً حتى جردهن هولاء المماليك القساة من جميع ملابسهن ولم يتركوا لهن ما يسترن به عورتهن ثم جاء اليهن هذا الضابط مظهراً استعداده لحراستهن من كل تعد مع انهن كن في حالة لا تطاق من الضيق والخجل حتى انهن بقين مدة يتوسلن للمارة لاعطائهن ولو قطع خرق بالية تستر عورتهن حتى يرجعن الى منازلهن . فتامل ؟؟

ومن التحقيق الذي صار في هذه المسئلة اتضح أن اولئك السيدات
لم يكنَّ يهوديات ولا مسيحيات كما كان يتصور الناهبون بل اتضح انهن
من العائلات الشريفة وزوجات لرجال من الطبقة العليا من المسلمين .
قال المؤرخ تفصيلاً لهذه الحادثة . انه لما ذهبت السيدات المشار اليهن ثاني
يوم الحادثة لرفع مظلمتهن للباشا الوالي وطلبن منه رد ما فقدنه من مجوهرات
والماس وغيره بمقتضى كشف قدم له منهن استحضر الباشا الضابط
وعسكريين من رجاله الذين كانوا في نقطة الحادثة وهددهما بالعذاب البدني
أن لم يعترفا صريحا بما تم . تخوفا من العقاب الصارم اقرا بجميع ماحصل بالتمام .
وقالا دفاعا عن انفسيهما أن اشتراكهما في الجريمة كان من قبيل الطاعة
لضابطهما والرضوخ لاوامره العسكرية وعززا اقوالهما بان اهالي الناحية
كانوا . شاهدين السلب ولم يجسر احدهم على المداخلة ولكنهم لما عرفوا
أن السيدات من الطبقات العليا اظهروا استعدادهم للشهادة . فقبل الباشا
عذر العسكريين بعد اعترافهما بالحقيقة وسامحهما اما رئيسهما الضابط فنفاه
الى ابو قير بعد أن استقطع جزءاً عظيما من راتبه بصفة عقاب له .

على أثر هذه الحادثة اصدر الباشا الوالي منشوراً اذاعه في جميع
انحاء المدينة بمعاقبة كل من يتعدى على النساء اللواتي يسرن في الطرق
العمومية وحدهن عقابا صارما وحذر النساء كذلك من الخروج الى خارج
بوابات المدينة ومنعهن ايضا من ركوب الحمير (كذا)

وقد بذل اسماعيل بك قصاري جهده في وضع حد لعصابات السلب

والتلصص التي كان ياتيها اتباع الرؤساء العسكريين وكثيراً ما كان يرد الاشياء
المسروقة والمنهوبة الى اصحابها بعد استخلاصها منهم

وفي شهر رمضان كان يدع باب منزله مفتوحا بعد غروب الشمس
لكل من يريد دخوله لتناول طعام الافطار فيه ابتغاء مرضاة الله . وكان
يدهش الناس بشجاعته في ترك القاهرة وذهابه لزيارة اصحابه ذوي
الوظائف المختلفة في الاقاليم . مع أنه لم يكن أي امير قبله يتجاسر على
مبارحة القاهرة دون أن يكون معه جيش عظيم خوفاً من القتل غدراً .
وفي الواقع أن كل المماليك الامراء كان نصيبهم القتل المتتابع بطرق مختلفة ولم
ينج من ذلك ايضاً اسماعيل بك اذ قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر قتله
غدراً الامير ذو الفقار رئيس حزب الامراء الفقارية . فتوفى عن ابنة
وبعد وفاته ولد له ولدان من زوجتين ولكنهما لم يعيشا ذكرا حميدا
لابيهما اكثر من بضعة اشهر . ومن اعمال اسماعيل بك انه بنى جامعين
كبيرين احدهما جامع سيدي ابراهيم بدسوق والثاني جامع سيدي علي
بمليج ورمم جامع الازهر بالقاهرة وقاد بنفسه قافلة الحج ست مرات الى
مكة وكانت سنة قتله أي سنة ١٧٢٣ افرنكية حزناً وطنياً عند جميع المصريين .
وفي سنة قتله قام رجل تركي يخطب بين المسلمين لاصلاح العقائد الاسلامية
وتنقية الدين الاسلامي من العقائد الدخيلة المحيطة بالدين فاوجد شعوراً
عظيماً للاصلاح الديني والتف حوله خلق كثير وصار يسمع خطبه الوف
من المسلمين في جامع المؤيد . وكان يفند في خطبه العوائد الذميمة التي

الصقت في العبادة والديانة الاسلامية ويطعن على الخصوص في عبادة المشايخ وشفاعتهم ويقيم الادلة الساطعة على أن اثار أو بقايا المشايخ والاولياء لاتأتي بالعجائب البتة . فانزعج مشايخ الاسلام في الازهر لخطب هذا الرجل واصدروا منشوراً دينيا في الحال يحرمون فيه اتباع مبادي ذلك الزعيم الخطيب واكدوا مثبتين في منشورهم أن المشايخ و لاولياء بمكنهم اتيان العجائب بعد موتهم . وطلبوا من الحكومة معاقبة ذلك الخطيب .

فاحضر بعضهم صورة من هذا المنشور للخطيب المصلح بينما كان يخطب في الجامع . فلما اطلع عليه قال معلنا سامعيه انه يمكنه أن يقنع العلماء ويتغلب عليهم بالبرهان الساطع امام قاضي الاسلام الاكبر وطلب من سامعيه أن يكونوا في جانبه فتحمس القوم وتجمهروا صائحين بالاخلاص له تخرج من الجامع وحوله ماينوف عن الف نفس وكروا مهرولين بشغب عظيم الى بيت القاضي . فاجتهد القاضي أن يعاطيهم وهو في حالة خوف وفزع عظيمين على امل انه يصرفهم اخيراً ولكنه ما كاد يظهر الانحراف عن ميلهم حتى اهانه الرعاع وكادوا يعدمونه الحياة لو لم يتخلص منهم بكل صعوبة وهرب الى محل حريمه

وفي يوم الثلاثاء التالي اجتمع الخلق اكثر من المرة الاولى في جامع المؤيد ليسمعوا خطيبهم فلم يجدوه وذاع فيما بينهم خبر مؤداه أن القاضي منعه عن الخطابة بالقوة فهاج المحتشدون وجاءهم من الاوباش وقصدوا المحكمة

الشرعية وقبضوا على القاضي بالقوة فانكر بالكلية معرفته بامر شيخهم فجروه الى الباشا الوالي الذي يظهر انه خاف أيضا وانذهل من هيجانهم فامضى لهم امراً بالتصريح لهم بما يرغبون اتباعه فحملوا شيخهم الخطيب على اعناقهم وخرجوا به منتصرين مهللين الى جامع المؤيد حيث القى عليهم خطبة حادة ومهيجة جدا . وفي هذه الاثناء كان الوالي الباشا قد ارسل الى كبار امراء الفقارية والقاسمية يخبرهم بان الاهالي اهانوه وانه سيترك البلاد ويعود للقسطنطينية

وما كان الامراء يتوانون عن التداخل في المشاجرات المماثلة لهذه بحجة قمعها والضرب على المتخاصمين فدعوا رجالهم لحمل السلاح وساروا للقبض على الخطيب وسامعيه الذين قد وصلهم خبر قدوم الامراء قبل تحركهم اليهم فلما وصل الامراء ومن معهم لم يجدوا أحداً في الجامع فزحفوا نحو قلب المدينة وهم يضربون بالعصي ويقبضون على كل من يجدونه في طرقهم وبهذا انتهت الفوضى وساد النظام كما يقول الجبرتي . واختفى الخطيب المصلح بعد هذا وقال بعضهم انه قتل وأخرون انه هرب من الديار المصرية .

وفي أوائل سنة ١٧٣٤ مسيحية تنبأ أحد العرافين الاقباط واسمه غير معروف بان العالم سينقضي بعد يومين فانتشرت نبوته كالبرق بين الناس مسلمين ومسيحيين . وانتشار هذه النبوة في القاهرة كان بقوة عظيمة وبسرعة فائقة قلما تعرف عند الشرقيين (١) وايضا انتشرت في

(٢) يظهر أن أذاعة الاخبار كانت تمارس في قديم الايام بواسطة حمام الزاجل.

كل الاقاليم ولم يبق حديث للناس الا هذه النبوة وانقلاب الدنيا وصار كل واحد يودع جاره ويستعد لمقابلة الانقلاب الرهيب وتقاطر الفقراء الى شواطىء النيل يغتسلون بمياهه ليطهروا انفسهم . وبعضهم يقيم الولائم والاعياد والمسرات وداعا للعالم وبعضهم يتركون منازلهم ويطوفون هائمين في الحقول وبعضهم يوقعون انفسهم في ازعاج لدرجة الجنون وبعضهم يمارسون التوبة عن خطاياهم ويصلون . أما الشيوخ والامراء ولو ان بعضهم بلا شك جارى القوم في رعبهم فانهم اجتهدوا بان يرجعوا الناس الى صوابهم ويحرضوهم الى العودة الى ممارسة صوالحهم واشغالهم اليومية كالمعتاد ويؤكدون لهم ان تلك النبوة كاذبة بلا مراء فلم ينجحوا وذهبت مساعيهم ادراج الرياح . وما كان جواب الناس لهم وهم في غاية الاندهاش الا ان النبوة حقيقية بدليل انها صادرة عن اليهود والاقباط. وكان المسلمون معتقدون بنوع أخص ان الاقباط لايخطئون في نبؤاتهم لانهم يذكرون الظواهر الفلكية قبل حدوثها . ولهذا كان العامة لايترددون في خوف هذا النبوة بل يأتون بالادلة على صدقها من نبوات الاقباط في سالف الازمان . ولكن المؤرخ لم يذكر نوع هذه النبوات التي أوردوها . وأخيراً قبضوا على الرجل القبطي الذي نطق بالنبوة وجاءوا به امام أحد الامراء فابى انكار ماقاله والرجوع عما اذاعه وقال للامير القني في السجن لغاية يوم الجمعة فاذا لم يتم ماتنبأت به في ذلك اليوم أي يوم الجمعة يمكنك ان تذبحني

فزاد هذا الاصرار في ازعاج الناس وتولاهم اليأس لدرجة شديدة في ساعة واحدة. فلما جاء يوم الجمعه كان جميع الناس في انتظار الساعة الاخيرة كل لحظة من ذلك اليوم ولما دنت ساعة غروب شمس ذلك النهار ولم تظهر آية علامة من السماء تدل على الانقلاب حلت على أحد العلماء روح الحذق والفطنة فقال - ان النصارى قد سبقوا واخطأوا غير مرة فلماذا لا نضيف لهم خيبة نبوتهم هذه المرة الى خيباتهم السابقة ثم قال بخشوع ان ارواح سيدي احمد البدوي وسيدي ابراهيم الدسوقي اشهر الاولياء الاطهار توسطت في تأخير خراب العالم فاجاب الله شفاعتهم وقبل بتأجيل يوم الاخرة الى أجل غير مسمى . فطمن الناس بعضهم بعضاً وباركوا انفسهم بمزيد الشكر والامتنان قائلين لبعضهم (أيها الاخوة انا لم نزل احياء) أراد الله ان يكون ذلك الحادث تجربة نافعة لنا

وكانت هذه الحادثة على ايام البطريرك انبا يوحنا السابع عشر الذي اخلف انبا بطرس السادس سنة ١٧٢٧ الذي اخلف انبا مرقس السابع .

وبعد وفاة اسماعيل بك انتكست البلاد فعادت الى حالتها الاولى من عدم استتباب الامن والسلب والنهب . والامير ذو الفقار الذي قتل اسماعيل قد ذبح هو أيضاً بعده ببضع سنين وما كان يمر شهر تقريباً الا وتسمع ان أميراً قتل أميراً أخر . وكيفية قتل الامراء بعضهم بعضاً انه كانت عندهم العادة ان يدعو الامير صاحبه الامير الاخر الذي يريد الغدر به الى وليمة هو واتباعه في منزله وبمجرد حضورهم للضيافة يعطي صاحب الدار علامة

لخدامه فيقومون حالاً بذبح الضيوف وزعيمهم . وقد حصلت حادثة محزنة من هذا النوع لا بأس من تخصيصها بالذكر هنا لهذه المناسبة : —

ذلك انه في سنة ١٧٣٦ مسيحيه قد أمر الدفتردار بذبح أحد عشر من كبار المماليك الامراء في ساحة منزله بعد دعوتهم الى وليمة على مثل ماتقدم — وسبب تمثيله بهم ذلك التمثيل المريع ان كبير المقتولين كان في ذلك الحين زعيم الامراء الفقاريين وقد رفض ترقية أحد الامراء القاسميين الى وظيفة سنجق . ولكن عثمان بك ذو الفقار وهو من اقوياء المماليك الذي كان مدعواً لوليمة الدفتردار ضمن الاحد عشر مملوكا المقصود الغدر بهم قد تمكن من الهروب بنفسه من ايدي القاتلين الذين لما رأوا ان هذا المملوك أفلت من ايديهم خافوا ان يعود للانتقام حالا منهم بعد جمع رجاله فهربوا خائفين واختفوا في جامع السلطان حسن فأبى رجال الجامع قبولهم. فتمكنوا من الدخول بوسيلة أخرى وهي انهم اشعلوا النار في باب الجامع حتى احترق ودخلوا الجامع واختفوا فيه فكانت هذه الحادثة كلها اساساً لمعارك دموية عظيمة دامت بلا انقطاع طول القرن الثامن عشر فالتزم الامراء باعادة تحويل الجوامع الى حصون وطوابي حربية ومنازل خصومهم كانت تنهب وتسلب على الدوام وكانت الشوارع دائماً ملآنة بجثث القتلى . وعلى أثر ذلك عزل الباشا الوالي من قبل تركيا وعقب خلعه تخلل هذه الحالة مدة قصيرة ساد فيها السلام في القاهرة نوعاً الا انه في ردهة هذا السلام ضربت بالوباء وشتد لدرجة انه مات به ١١٣ شخصاً

من بيت واحد لاحد الامراء وكانت الجثث تنقل ركاماً للدفن ليلا

وفي اثناء ذلك كان قد حضر ريتشارد بوكوك الى الديار المصرية . والامتيازات الاجنبية جعلت البلاد في حالة أمن للسائحين الاوروباويين أكثر منها للمصريين التعساء نفسهم. لان المصريين وقتئذ ولاسيما الامراء المماليك كانوا على علم تام بان قتل شخص واحد من رعايا الدول الاوروباوية قد يكون خطراً عظيما على القاتل فضلاعن عدم الفائدة من قتله . فكانوا يفضلون مقابلتهم بعذب الكلم . وكان المصريون يطربون عند ما يعلمون سهولة الغش والاحتيال على هؤلاء الاوروباويين في كل المواضيع والاحوال التي لايلاحظونها أو يعرفونها شخصياً . وفي ذلك الحين أرسلت الحكومة الهولاندية أحد قبودانات بحريتها للسياحة في الديار المصرية ليقدم تقريراً عن تلك البلاد الى حكومته فحضر وكتب عن مصر كتاباً تاريخيا لكنه ليس ذا قيمة تاريخية تذكر . اذ عرف الضباط الترك في الحكومة المصرية وقتئذ ان الاهالي أرعبوه وصرفوا فكره عن أي قصد غير لائق يجوز ان يحدثه ولو انه سار في النيل الى ان وصل للنقطة الموجود فيها بوكوك. وقد ألف عند عودته بعض اجزاء عن تاريخ رحلته الى صعيد مصر. فيظهر انه لم يعلم ولم يدرس شيئاً عن البلاد اكثر مما يدرسه سائح هذه الايام عنها في بحر اسبوعين . أما الكتاب الذي ألفه الدكتور بوكوك عن أحوال مصر فانه ذو قيمة حقيقية . ولو أن أغلب كتابته فيما يختص بالاقباط وما هو في دائرة معلوماتهم كان يكتب بناء على أساس

الطريقة المعتادة الضرة بالمؤلفين والمؤلفات وهي ارتكانه في معرفة أحوال
الاقباط على المترجمين المسلمين أو المبشرين الكاثوليك الذين يكرهون
الاقباط ولا يسامحونهم لاخلاصهم لكنيستهم وبطريركهم الوطني . ولما
وصل الدكتور بوكوك الى مينا الاسكندرية من أوروبا سنة ١٧٣٧
جعل أول وجهته زيارة كوسماس بطريرك اليونان في رشيد. وكان وقتئذ
على كرسي الكرازة المرقسية البطريرك يوحنا السابع عشر . ولكنه في
طول مدة سياحته في داخلية القطر كان دائماً يتصاحب ويجتمع مع المسلمين
والكاثوليك الفرنسيسكانيين الذين كانت ارسالياتهم ومراكزهم الدينية
على طول نهر النيل تحت الحماية البريطانية .وزار مدينة المحلة الكبرى
التي قالوا له أن فيها خمسماية نفس من الاقباط .ثم شاهد بقايا الهيكل العظيم
هناك . ثم عاد للقاهرة ومكث بها يوماً ثم سافر الى الفيوم وبعدئذ سافر الى
اعالي النيل . وفي عصره كان الديران الابيض والاحمر بجوار سوهاج لا
يزالان معروفان عند الاقباط باسم دير انباشنوده ودير انبا بشوي. ولما
وصل الى ارمنت تعجب مندهشا غاية الاندهاش من مشاهدة بقايا
الكنيسة النفيسة التي كانت هناك وهي من اقدم الكنائس المصرية . ولو
انه اثناء اقامته في الديار المصرية كانت حالتها هادئة ولم تقع فيها معارك ولا
محاربات بين المماليك فانه لاحظ أنه عادة القتل بالسم كانت متأصلة كثيراً
بين كل جميع طبقات الاتراك وكانت عادة مألوفة جداً يصعب كتابة أي
ملاحظة تاريخية عليها وكانت لفظة (تركي) ليست ذات معنى ولا أهمية

حتى بين الاتراك انفسهم . ولاحظ أيضاً ان كل الاقباط كانوا يعرفون
القراءة والكتابة أما باقي انواع الاهالي من الامم الاخرى فقلما رأى
واحداً منهم يعرف القراءة والكتابة .وذكر في تاريخه ان رجال الترك
الانكشارية كان يعهد اليهم جباية ضريبة الانفس من المسيحيين الوطنيين
فقط (الاقباط) وهذه الامة التعيسة قد وقعت في حالة اردأ من ذلك
وهو أن احد كبار الاتراك في القسطنطينية تمكن بواسطة دفع رشاو
ثقيلة للسلطان من الحصول على هذا الامتياز ولما ناله صار يحصل من
هؤلاء الاقباط البؤساء اضعاف ما كان يحصله منهم الانكشارية . وساح
الدكتور بوكوك أيضاً في اوروشليم وقبرص ومضى الايام الاخيرة من
حياته بوظيفة اسقف ميث

ومن سنة ١٧٣٦ الى سنة ١٧٤٣ مسيحية كان اقوي رجل في النفوذ
في البلاد المصرية هو عثمان بك ذو الفقار . والفضيلة الوحيدة التي تدون
له في التاريخ بالمدح انه ما كان يقبل الرشوة أو يميل اليها على الاطلاق .
وأما باقي اعماله فكانت مثل باقي أعمال مواطنيه — وهي ميله للانتقام
والخيانة وعدم الرحمة والعفة

ولما لم يعد يتحمل الشعب خصومة مظالمه القاسية لم يقتلوه بل
نفوه الى القسطنطينية فاستقبله السلطان بالاحترام وبذل مساعيه لاعادة
ممتلكاته واملاكه وامتعته التي بمنزله في مصر اليه بعد أن سلبت كما هي
العادة في ما يتم لمثله عند قتله لكن لم تفلح هذه المساعي السلطانية

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية عرض أحد الباشوات المدعو محمد اليدقسي مشروع اصلاح للديار المصرية فابتدأ اصلاحه بمنع شرب الدخان منعاً قطعياً عند الاهالي . فكان يرسل ضباطه بعساكرهم ثلاث مرات يومياً يطوفون في الشوارع في القاهرة وكل من يجدونه يدخن يعاقبونه عقاباً صارماً . فاستدعاه السلطان بعدئذ بسنتين قبل انه لم يفلح بايجاد اصلاح يذكر غير ابطال شرب الدخان . وبعدئذ قام شيخ من العلماء واجتهد في اصلاح حال مواطنيه فصار يخطب فيما بينهم بحضور بعض الامراء ويبين لهم شرورهم وينهيهم عن الخطايا ويبين للناس الشرور التي يأتيها الامراء فحنق هؤلاء عليه وسلطوا عليه اتباعهم لقتله . فهرب وامتنع بعدئذ عن الخطابة ضد الامراء حتى مات موتاً طبيعياً

وأعظم نقطة تاريخية مؤثرة في ذلك الحين هي الخيانات الدموية العظيمة التي تعودها الاتراك لخدمة مآربهم . ويظهر انه ما كان يوجد اي عهد أو قسم يمنعهم من اتيان هذه الفعال الذميمة . مع ان اليمين أو القسم أو العهد بالوطنية العمومية هو الرابط الوحيد الذي يوقف ويمنع اي شخص انكليزي الجنس من ارتكاب اي جريمة ضد ابن جنسه

وفي سنة ١٧٤٥ مسيحيه تلقى محمد رغيب الباشا لوالي وقتئذ على مصر من قبل تركيا تعليمات سرية من السلطان بضرورة القضاء على عائلات القاطمي والدمياطي وهما من اشد المماليك قوة وبطشاً. فسعى الباشا سراً في تنفيذ هذه التعليمات ودبر مذبحة عظيمة لكل البكوات المماليك من

تلك العشائر عند دعوتهم الى اجتماع عمومي في ديوانه بحجة النظر في شؤون البلاد . فلما دعاهم لم يجب هذه الدعوة بك أو أمير بدون ان يكون مسلحاً أو غير مستعد لدفع اي غدر أو جناية مما كان جارياً في تلك الايام . وبالرغم عن هذا فانهم لم يحضروا الى الديوان حتى قطعت رقاب ثلاثة منهم أما باقيهم فدافعوا كل عن نفسه وتمكنوا من الهروب من القلعة وجمعوا اتباعهم وكروا راجعين للقلعة وقامت على أثر ذلك حرب اهلية أخرى انتهت بقتل عدة امراء وهروب الآخرين الى الصعيد . وفي سنة ١٧٤٨ تولى على مصر باشا آخر اسمه احمد ولما حضر للقاهرة اقتصر على خدمة العلم وعزم على الاستفادة بزيادة العلوم باجتماعه بالعلماء المصريين فاحاط نفسه بكل المشايخ وعلماء الكليات فاتضح له انهم لا يعرفون من العلم شيئاً وانهم اضاعوا وقتهم فقط في العلوم النحوية والحيل والخداع اللاهوتية . فهجر كل هؤلاء المشايخ والعلماء وصرفهم من حضرته وحجز عنده فقط الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر وقتئذ ليجربه اذ ربما كان نظره فيه غير صحيح وحكمه عليه بجهله كباقي المشايخ قبل التجربة قد يكون خطأ . فما ظل هذا الشيخ في صحبة الباشا مدة من الزمن اختبره فيها تماما وجده لا يقل جهلا عن الذين طردهم وصار الباشا يطلب بعدئذ مكرراً من هذا الشيخ رئيس الجامع الازهر قائلاً أين اذاً العلماء المصريون الذين كنت اسمع عنهم كثيراً في تركيا . فكان الشيخ يضن عليه بتفهيمه ان الشيء القليل من العلوم والمعارف الباقية لذلك الحين في

مصر يمكن معرفتها من الاقباط . واجتهد الشيخ في البحث بلطف ولو عن رجل مسلم واحد تناسب معارفه مطالب الباشا التركي وأخيراً عثر رئيس الجامع الازهر على رجل يدعى الشيخ حسن وهو من أصل حبشي والد المؤرخ المسلم الشهير الشيخ الجبرتي والمعلم لعلم الفلك في الجامع الازهر فارشد الباشا الوالي عنه .

وفي اثناء النصف الاول من ذلك القرن كان الاقباط متروكين في حالة سلام منهم وعليهم بينما كان المسلمون في حالة مخاصمات شديدة فيما بينهم . ولم تستيقظ فنونهم اي (الاقباط) وصنائعهم من رقادها الطويل بعد تلك الصدمة العظيمة التي اصابهم بها الفاتح العثماني حينما سحقهم وكاد يمحيهم من الوجود بواسطة الخطف والسلب والنهب المتواصل ضدهم

وقد تألم الاقباط كثيراً ايضاً من اخوانهم الاقباط المسلمين بسبب سطو البدو الدائم عليهم وبسبب جيوش الامراء الطوافة في البلاد . ولم يكن يسلم من الاذى في القاهرة اي رجل يمتلك اي شيء بسيط يستحق السلب سواء كان هذا الرجل يهودياً او قبطياً

وفي سنة ١٧٣٣ م (١١٤٦ للهجرة) كان لكاشف كل اقليم بناً على فرمان صادر له من السلطان الحق في فرض ضريبة مالية عن كل نفس قبطية أو يهودية من سكان اقليمه . فقسم كشاف الاقاليم الاقباط واليهود الى ثلاث درجات بطريقة موجبة للاسف بنسبة الوسائط التي يتخذونها

معهم في ارغامهم بالدفع . ففرضوا على الطبقة الاولى دفع ٤٢٠ بارة عن كل نفس . وعن الطبقة الثانية ٢٧٠ بارة وعن الثالثة ١٠٠ بارة عن كل نفس (١) .

ولكن من عهد قتل الاب كليمانت لم تعد الحكومة تعرض مسيحياً للقتل بسبب دينه ولم تصدر اوامر بهدم الكنائس . وعلاوة على ذلك فان المسيحيين (الاقباط) اصبحوا بالتدريج لازمين للحكومة بحيث لا تستغني عنهم في وظائفها وذلك بالنسبة للجهل المتزايد وعدم الامانة بين بعض الطبقات من المسلمين .

وفي سنة ١٧٣١ مسيحية كان للمرسلين الكاثوليك تسعة مراكز جنوبي القاهرة وهي :— في اتينو وفي اسيوط وابو تيج وصدفا واخميم وجرجا والاقصر واصوان وحتى في دير النوبية . لاننا علمنا انه في تلك السنة ارسل البابا كليمانت الثاني عشر أوامر مشدده لرؤساء تلك الاماكن الكاثوليكية كي يبذلوا كل مساعيهم للحصول على اولاد من الاقباط وارسالهم للتعليم الديني في رومه . فالاولاد الذين امكن لهؤلاء الوكلاء الدينيين ارسالهم للتعليم في روميه كانوا من والدين كاثوليكيين ولم يتمكنوا مطلقاً من الحصول على ابن أي رجل قبطي من الكنيسة الوطنية سواء كان

(١) قيمة العملة المصرية كانت تتغير بحسب تغيير سلاطين آل عثمان ولذا يصعب جداً تعيين قيمة هذه المبالغ بالعملة الانكليزية . وقال بوكوك في تاريخه عن مصر انه في سنة وجوده فيها (سنة ١٧٣٧) كان الكيس في مصر يساوي ٢٥٠٠٠ ... ميدي والميدي يظهر انه يساوي ٢ ونصف بنس اي ٥ مليم

بطريق الاغراء أو التهديد ولم يقبل أي قبطي اصلي بالتسليم في ابنه بتأثير
تلك الاغراآت الفارغة . وقد علمنا بمحادثة مسير اولئك الاولاد عند
ترحيلهم لرومية ذلك انه كان معهم في السفينة الراكبين فيها في طريقهم الى
القاهرة من الوجه القبلي بعض من السياح الفرنساويين والانكليز في
النيل فلما وصلت السفينة الى مدينة انسينا قيل أن السياح المذكورين نزلوا
يتفرجون على خرائبها القديمة فاسرع الاقباط الكاثوليك المتوجهين الى
رومية وقدموا أنفسهم للمرسل الكاثوليكي في تلك المدينة وقتئذ وحضروا
الصلاة معه في كنيسته

وكتب البابا المذكور الى البطريرك القبطي يوحنا السابع عشر بواسطة
الكردينال بلوجا ومرسل اخر لهما السلطة في مخابرة البطريرك القبطي
باسم البابا — اذا امكنه يحسن به تسهيل الطرق اللازمة للخضوع هو
وكنيسته لكنيسة رومية فكانت نتيجة تلك المخابرات بلا ثمرة كالمعتاد

ولما جلس نبديكت الرابع عشر على الكرسي البابوي بعد كليمانت —
انكر كل دعوى باعتراف الكنيسة الرومانية بوجود اتحاد مع الكنيسة
القبطية . وعوضاً عن أن يراسل بطريرك الاقباط رأساً عين مطراناً كاثوليكياً
(وهو الاول من نوعه) واعطى له حق التشريع في الديار المصرية . واصل
ذلك المطران قبطي اسمه اثناسيوس وكان تعيينه سنة ١٧٤١ واتخذ اورشليم
مقراً له واستمر فيها ومنها عين كاهنا يدعى يسطس ماراغليك بصفة نائب
عنه في الديار المصرية . وقد ارسل البابا بنديكت سنة ١٧٤٥ م لهذا النائب

تعليمات طويلة طالبا اتباعها وتنفيذها . وكان في ذلك الحين رفائيل الطوخي
من اهالي مديرية الجيزة الذي كان أخذه الكاثوليك صبياً وعلموه في
روميه قد أتم دراسته الدينية فعينه البابا أسقفاً لمدينة أرسينو حيث يظهر
انه لم يسمح له البابا بالاقامة طويلا فيها (١) لانه بالنسبة الى معارفه العظيمة
قد استدعاه البابا الى رومه ليساعد في تأليف بعض كتب مختلفة باللغة
القبطية من ضمنها اجرومية في اللغة القبطية وكتب طقوسية للخدمة
الكنائسية . وفضلا عن هذا فقد ترجم عدة كتب يونانية ولاتينية الى
اللغتين القبطية والعربية .

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية أرسل ملك الحبشة الى بطريرك الاقباط
يطلب منه رسم مطران جديد للاحباش بدل انبا خريستودولس الذي
توفي . وكان الوفد الذي عزم على السفر الى مصر حاملا طلب ملك الحبش
مؤلفاً من ثلاثة رجال . أحدهم مصري الاصل اسمه جرجس واثنان
حبشيان أحدهما اسمه ليكانيوس والاخر كاهن اسمه ثيودورس

وفي ذلك الحين كانت سواحل البحر الاحمر كلها في أيدي المسلمين
ولم تكن الحبشة قد استرجعت بعد أي ميناء من موانيها القديمة على ذلك

(١) في السنين الاخيرة من القرن الثامن عشر كان الكاثوليك قد تمكنوا
من الانتصار قليلاً في أعمالهم اذ امكنهم اغراء اسقف جرجا القبطي لاعتناق
المذهب الكاثوليكي . فأصبح هذا الاسقف في حالة اضطهاد شديدة ليس من
الاقباط فقط بل ومن المسلمين ايضاً فالتزم بالهروب الى روميه وأقام فيها حتى
مات سنة ١٨٠٧

البحر . فلما وصل الوفد الى مصوع قبض عليهم حاكمها المسلم وسجنهم وأخذ منهم عنوة نصف أموالهم التي كانت معهم لينفقوا منها في سفرهم الى مصر وهددهم بالموت أو اعتناق الاسلام . فاختفى جرجس المصري ولا يعرف للان ما اذا كان قد قتل أو دبر طريقة هرب بها ونجا من السجن . أما ليكانيوس فبعد عذاب شديد سلم أخيراً بمطالب الحاكم واعتنق الاسلام . اما تيودوروس الكاهن الحبشي فهو الوحيد الذي اطلق الحال سبيله لان الحبشة كانت قد شعرت بما وقع لوفدها فدفعت عنه فدية للحاكم المسلم واستمر في سفره حتى وصل القاهرة سالما وحده. ولما ابلغ الخبر للبطريرك القبطي لم يتمكن هذا من ارسال مطران جديد للحبشة الا في سنة ١٧٤٥ . ولما وصل المطران الجديد للحبشة مع الكاهن الحبشي وقع له ما وقع للوفد عند مجيئه فطرحا في السجن . ولكن تيودوروس الحبشي اجتهد في اختراع حيلة يهرب بها زميله المطران وقد تمكن فعلا من تهريبه ولكنه وقع هو في خطر الموت لاتيانه ذلك الامر على ان المقادير شاءت ان تنجيه اذ بينما كان الاستعداد جارياً لقتله ادركته فدية من ملك الحبشة فتركه حاكم مصوع ووصل الحبشة سالما .

وكانت قدم الكاثوليك قد ثبتت جيداً ذلك الحين في البلاد المصرية. ولو انهم لم يغروا كثيراً من ابناء الكنيسة القبطية للدخول في مذهبهم لكن قد تبعهم كثيرون من السوريين المقيمين في مصر وغيرهم من ابناء الكنيسة اليونانية وكانت لهم كنائس كثيرة خاصة بهم امتلات بالذين لم

يتبعوهم من قبل ولكنهم كانوا بلا شك يحسبون مرتدين عن مذهبهم الاصلي .

فلما سمع السلطان بتزايد النفوذ الاوربي في البلاد المصرية بواسطة تلك الكنائس اللاتينية جزع وقلق باله . فأمر بطريرك الكنيسة اليونانية في مصر بأن يمنع اعضاء كنيسته من الصلاة في كنائس اللاتينيين وفرض على ابناء الكنيسة اليونانية ضريبة مالية قدرها الف كيس بالتضامن اذا خالفوا ذلك الامر . فما كان من السوريين الا انهم دفعوا هذه الضريبة للسلطان واستمروا على صلواتهم في كنائس الكاثوليك . واتخذ احد امراء المصريين هذه المناسبة فرصة سانحة لمآربه فسجن أربعة من مبشري اللاتينيين وفرض عليهم دفع مبلغ عظيم من المال بصفة فدية لهم اذا أرادوا الخروج من القطر المصري

وقد كان الاقباط ممنوعين عن الحج الى أورشليم من عدة قرون فكان هذا المنع مصدر حزن دائم للمتدينين منهم . في سنة ١٧٥٣ م (١١٦٦ للهجرة) عزم الاقباط على تجديد المساعي في هذا السبيل واجتهدوا للحصول على غرضهم بالرشوة مهما كلفهم ذلك من المال . ومن كبار الاقباط الذين كانوا يسعون في ذلك سكرتير احد كبار الامراء فهذا تعهد بالمخابرة مع ذوى الشأن بالنيابة عن امته . وبمساعيه اقتنع شيخ الجامع الازهر بالاذن للاقباط بالحج الى أورشليم مقابل اخذ رشوة قدرها الف دينار (٧٠٠ جنيه انكليزي) اذ أصدر فتوى شرعية صرح بها للاقباط ان يحجوا ويعودوا وهم في امن وسلام بدون ان يتعرض لهم احد من

المسلمين. صدرت هذه الفتوى وبلغ الامر الى الاقباط فطار فؤادهم فرحاً
وهموا بالتجهيز للحج باسرع من البرق. واتفقوا فيما بينهم على ان نقطة
المقابلة التي يجتمعون فيها للمسير معاً في قافلة واحدة للحج تكون في شرقي
مدينة القاهرة. فكانت هذه النقطة تغص بمئات من الاقباط يومياً.
وجهزوا العطايا والنذور التي سيقدمونها عند القبر المقدس واعدوا
التختروانات لحمل النساء والاطفال واجروا لهم حرساً من البدو لمرافقتهم
في الطريق. فانتشر خبر حج الاقباط في جميع الانحاء فاستقبله جميع
المسلمين بعين الحق والاحتقار وحنقوا على الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ
الجامع الازهر لتصريحه لهم فلما رأى هذا نفسه مهاناً من المسلمين للفتوى التي
اصدرها بذلك سلك طريق الرقة والملاطفة معهم فلم يفلح ونحوه على
الرشوة التي اخذها فأنكر في بادىء الامر اخذه للرشوة ولو انه في
الواقع اخذ علاوة على مبلغ الرشوة المتفق عليه مبلغاً آخر بصفة (بقشيش)
ازام. فلما رأى ان انكاره للرشوة غير مقبول اتخذ له وسائط اخرى
لاعادة كرامته بين المسلمين. فاستدعى طلبة الازهر وجمع خلقاً عظيماً من
الاوباش وهيجهم تحريض ديني على الاقباط الحجاج وانتهى تحريضه بامره
اياهم بأن ينقضوا على قوافل الاقباط السائرين آمنين في طريقهم الى الحج.
ولم يحتج هؤلاء الاوباش طبعاً الى تكرار القول او الاشارة بل قام جمع هائل
منهم مسلح بالعصي والحجارة وساروا حتى انقضوا فجأة على الاقباط فضربوهم
بالنبابيت والحجارة وسلبوا مؤونتهم وذخائرهم وكل ما معهم وسبوا

نساءهم. ولم تنفع بعدئذ مساعي كبار الاقباط في رد المسلوب والمنهوب
او اخذ تعويض بل ذهبت كل النفقات العظيمة التي انفقها الاقباط
هباءً منثوراً

الفصل السبعون

علي بك الكبير

سنة ١٧٥٥ مسيحية ١٤٧١ للشهداء و١١٦٨ للهجرة

كان الامير الذي خرج له بأس عظيم من عصابات القاتلين وهو
علي بك الكبير واحد معتوقي احد الامراء الكبار وبعد موت سيده
قتلاً بالطريقة المعتادة كان هو نفسه في خطر الموت الى امد غير قصير.
وقد جمع ثروة طائلة حينما كان في حيازة سيده المتوفي صرفها في شراء
المماليك أو اسرى الحروب ليحصن بهم نفسه وقت الهجوم عليه من
الاعداء. فلما آن الوقت الذي حان هجموا عليه فعلاً وبعد معركة دموية هائلة
في شوارع القاهرة هزم علي بك وفر هارباً الى الصعيد مع بعض
البكوات المماليك الذين اعتصبوا معه. وبعد أن جمع من الصعيد قوة من
الرجال تستحق الذكر نزل ثانياً الى القاهرة وهزم الامراء خصومه في
معركة دموية عظيمة وظل يطاردهم حتى اوصلهم الى طنطا
وبوصولهم لهذه المدينة لم يكونوا في أمن لان قوة علي بك كانت

قد ازدادت فهاجمت طنطا ايضاً ببطش شديد . وقد حفر اثنين من
الامراء الخنادق حول المدينة تحصيناً لها ومنعاً لهجوم الاعداء عليها غير
أن احد هذين الاميرين قتل والتجأ الامير الثاني الى الجامع الاحمدي
مختبئاً فيه فلما انهكه الجوع واصبح على وشك الهلاك سلم نفسه للاعداء
فذبحوه بعد ذلك بقليل .

ومن ذلك الحين انفرد علي بك بتولي الحكم على القطر المصري
واستبد فيه مدة عشرة سنوات غير انه لم تحدث في تلك المدة قلاقل
تذكر الا في سنتي ١٧٦٣ و١٧٦٥ حيث قامت ضد الامير المذكور فتنة
عامة ادت الى نفيه بضعة اشهر وكانت مدة حكمه كلها رعب وفزع حيث
أن جيوشه لم تكن مخلصة له والبكوات المماليك الاخرين كانوا مقاومين
له من جهة اخرى ونشاء عن ذلك أن الناس كانوا يذبحون بالعشرين
أو الثلاثين دفعة واحدة من الذين كان هذا الامير يشك في اخلاصهم له
أو يسيء الظن في سلوكهم والخوف منهم على هلاكه ولذلك حذر على غيره
من الامراء مشترى المماليك الاصاغر الذين كان البكوات يأخذون منهم
رجال حروبهم ثم وضع يده على كل ممتلكات الذين نفاهم أو قتلهم واستخدم
طبيباً من اتباع الكنيسة اليونانية ليدس السم لخصم له لم يتمكن من
الهجوم عليه وقتله علناً لكن حيلته هذه لم تفلح ايضاً .

وكان كل رجل غني سواء كان مسلما أو قبطيا معرضا في ذلك الوقت
المظلم للهلاك والتعذيب والسجن حتى يسلم كل ما يملكه الى الحاكم .

ونذكر من الذين نالهم الحيف كاتبا يهوديا في جمرك بولاق مات تحت
العصا والكرباج بعد ما دفع ٤٠٠٠٠ قطعة ذهبية فدية عن نفسه . وفي
سنة ١٧٧٠ فرض ضريبة خصوصية على جميع سكان القطر المصري على
السواء بخلاف الضرائب الاخرى الموجودة والتي ما انزل الله بها من
سلطان والتي كان الناس يئنون منها ويتأوهون حيث اضطرت كل قرية
أن تدفع ٢٠٠ ريال . ولم يقتنع الاقباط من المسلمين بما كان يدفعه اخوانهم
الاقباط من المسيحيين بل الزموهم بدفع ١٠٠٠٠٠ « ماية الف » ريال
زيادة على هذه الضريبة واليهود ٤٠٠٠٠ ريال . ورأى علي بك أن مدير
الضربخانة المصرية الرجل المسلم قد جمع ثروة طائلة فنفاه واستولى على
جميع ما يمتلكه حتى ملابسه واسلحته وكتبه

واجتهد السلطان اكثر من مرة أن يغتال حياة ذلك الامير القوي
فارسل في عام ١٧٦٨ امراً الى والي مصر حينئذ يطلب منه فيه رأس علي
بك فشعر جواسيس علي بك بذلك وحذروه فلم يتخذ فقط الحذر بل
ارسل فريقاً كمن لسفير السلطان القادم من الاستانة وقتله في مكمن
واخذ منه ذلك الفرمان السلطاني وفي اليوم التالي عقد مجلساً من المماليك
البكوات وقرأ عليهم هذا الفرمان ثم قال لهم واني اؤكد لكم اني اذا قتلت
كما شاء السلطان لحدثت مذبحة عامة تقتلون فيها جميعاً ولهذا يجب عليكم
أن لا تعترفوا قطعياً بسيادة السلطان الحالي بل انتخبوا سلطاناً غيره منكم
كما كان في العهد السابق . فأمنوا جميعاً على اقواله وبعدها استدعى

الوالي وامر في الحال أن يترك الديار المصرية فسافر الوالي حالا واعلن
علي بك استقلال الديار المصرية تحت سلطته . وفعل كذلك رجال سوريا
مع واليهم التركي واعلنوا استقلالهم مثل علي بك وكان سلطان تركيا وقتئذ
مشغولاً في حربه مع الروسيا فلم يتمكن من اتخاذ الوسائط القوية ضد
سوريا ومصر . ولكنه ارسل يأمر والي دمشق بتجنيد الجيوش اللازمة
لقمع العصاة في سوريا فنفذ ما امر به ولكن قام ضده الشيخ الظاهر
الذي كان حاكما على عكا وقتئذ ومعه ٢٥٠٠٠ الف مقاتل علاوه على
ستة الآف ارسلهم الى شمال سوريا فضرب والي دمشق وقهره . اما علي
بك فقد جرد جيوشه ضد قبائل البدو الهواره الذين غزوا صعيد مصر
وتسلطوا عليه وكانوا اسياداً لكل المنطقة الواقعة ما بين اسيوط واصوان
بضع سنوات فقهرهم علي بك واخضعهم لسلطته وبذلك اصبحت مصر
كلها من الشمال الى الجنوب خاضعة تحت سيادته ولم يكتف بذلك بل
قام وهجم فجأة على رجل كان زعيماً للبدو في الجهة الغربية لشواطيء النيل
وقتله هو وزعماءه البالغين اربعين شخصاً . وبذلك انتهى كل ما كان يخشى منه
علي بك . وبالرغم عن معاملته الشديدة للاقباط وقسوته عليهم فان الرجل
الذي كان يثق باخلاصه ويعتمد عليه كان قبطياً يدعى المعلم رزق رقاه من
وظيفة سكرتير الضربخانة المصرية الى مدير حساباتها . وقد كان المعلم
رزق هذا على شيء من العلم وخصوصا علم الفلك الذي مهر فيه واصبح
من رجاله المعدودين . وقد جاءت خبرته هذه فرصة عظيمة للمستر بروس

السائح الانكليزي الشهير الذي اخترق افريقيا الى بلاد الحبشه . ذلك أن
بروس المذكور لما أن وصل الى ميناء الاسكندرية عام ١٧٦٨ اصدر المعلم
رزق الاوامر اللازمة بعدم التعرض له في طريقه وبان يدخل كل ما
يحمله مجانا بدون رسوم عليه فسر الرجل بهذا الجميل الذي اعتبره من
حسن حظه ولما وصل القاهرة ارسل هدايا نفيسه للمعلم رزق الذي لم
يقبل تلك الهدايا بل ردها مع رسول وزوده بمثلها واعطاه خطاباً لطيفاً
للمستر بروس يرجوه فيه أن يزوره بعد أن يستريح من عناء السفر
ليستعمل الآلة الفلكية لاغراضه العلمية وقد تحصل له ايضاً على براءة
حماية من علي بك بعدم التعرض له مطلقاً طول اقامته بالديار المصرية
كما انه بتوصية منه تمكن ان يقضي ايامه في حصن بابليون حيث خصص
له البطريرك بضع غرف تحت امرته في ذلك الحصن وبعد أن اقام بضع ايام
هناك ابتدأ في سياحته فسافر الى الصعيد في باخرة نيلية . فلما أن وصل
من اصوان الى الاقصر اتجه نحو القصير وسار عن طريق البحر الاحمر
الى بلاد الحبشة ثم عاد من الحبشة الى مصر براً بان سار في مجاهل افريقيا
حتى وصل الى اراضي السودان التي كانت في ذلك الحين مهجورة وغير
مأهولة وفي حالة انحطاط شديد كما كانت كذلك دائماً . أي بعد ان قامت
دولة زنجيه اسلاميه وسحقت الدولة المسيحية التي كانت تحكم البلاد من الجنوب.
وبعد ان بسط ولاة ذلك الملك الزنجي مؤسس تلك الدولة وبسطوا نفوذهم
على جميع الاقطار السودانية من سنار . وقد صادف ذلك السائح العظيم عقبات

شديدة في طريقه من حيث احتقار الاحباش له وعدم اهتمامهم بامره وعبهته فضلا عما ناله من الذم الشديد والقدح الذي ما بعده من مزيد ومع كل ما لاقاه فقد وقع هو ايضاً في خطأ فوق المؤمل من نبوغه ويظهر ان ذلك الخطأ لم يلاحظه عليه احد وهي انه لم يكتشف ابداً محل الكنيسة القبطية الاصلي في بلاد الحبشة

ومع أن بطريرك الاقباط كان يزوده دائماً بجوابات التوصية التي لا يستطيع بدونها السير قدماً واحداً في سياحته وهو آمناً على حياته . ومع انه كان يتكلم باخلاص ويشكر الذين ساعدوه واظهروا له العطف من ابناء تلك الكنيسة فان ما كتبه في تاريخه كله كان على الكنيسة اليونانية لانه كان يعتقد أن مرقس بطريرك الكنيسة اليونانية الارثوذكسية هو الذي تتبعه كل الديار المصرية وبلاد الحبشة ويظهر انه لم يسبق له المعرفة بان هذا البطريرك قبرصي بدليل انه لم يقض الا زمناً قصيراً من حياته الى هذه الديار المصرية

وما وصل المستر بروس من سياحته هذه الطويلة الى مصر حتى كان علي بك الكبير قد سقط من شامخ عظمته التي اقترف عدة جرائم عظيمة في سبيل الوصول اليها . على أن سقوط علي بك وهلاكه لم يرجع الى مساعي سلطان تركيا الذي كان استعد علي بك لمحاربته بعد ما بنى القلاع والاستحكامات الحربية في الاسكندرية ودمياط ولا الى انتقام احد الامراء البكوات الذين شتتهم هنا وهناك ونفاهم بل يرجع الى ما اصابه

من خيانة احد مماليكه الاخصاء المسمى محمود ابو الذهب (١) الذي كان اشتراه صغيراً ورباه مع عبيده ولما أن اشتد ساعده اعتقه ورقاه مع امثاله فشب على اخلاق سيده وطباعه كثير النزوع الى العلاء ميالا الى الخيانة . وقد رقي اولا الى وظيفة سنجق ثم عينه علي بك قائدا للجيش الذي انتصر به مراراً في سوريا والحجاز ودفعه هذا النصر وهو في سوريا الى تأليف مؤامرة من الضباط الذين اتحدوا معه على عصيان مولاه علي بك وبدلا من أن يسير مع معسكر الجيش للحرب انقطع في الطريق ورجع ثانياً الى مصر ورفض العودة الى ميدان القتال . فلما أن رأى علي بك خيانة ابو الذهب ولاحظ أن الجيش كله في جانبه لم يتجاسر لمعاقبته علناً بل أصر على قتله غدراً بان امر بمحاصرة منزله ليلاً فلما شعر بذلك ابو الذهب خرج سريعاً في مقدمة اتباعه واخترق صفوف المحاصرين وفر هارباً الى الصعيد حيث اتحد في الحال مع البكوات وجيوشهم الناقين على علي بك الذي ارسل وراءه تجريده عسكريه لمطاردته لكن رجالها جميعا خانوه واتحدوا مع رجال محمود ابو الذهب الذي كان يرشي الناس باليمين والشمال من بضع سنين ولم يعد منهم الى القاهرة الا نفر قليل من الذين ثبتوا على الولاء له واخبروه بما كان من امر رفقائهم . فجرد

---

١ دعي ابو الذهب لانه لما رقاه مولاه علي بك الكبير لوظيفة سنجق كانت عطاياه وانعاماته للشعب الذي يهنئه بالعملة الذهبية بعكس اقرانه الذين كانوا ينعمون على الناس بالفضة وظل طول حياته ينعم بالذهب

حملة عسكريه اخرى وظل يجند الجيوش ويرسل وراء ابو الذهب تجريده بعد الاخرى بقيادة قائد يدعى علي بك ليقابل ابو الذهب ويصالحه اما علي بك نفسه فتحصن مع باقي جيوشه عند دير البساتين الذي اخذه من الاقباط وجعله حصنا حربياً ثم بنى المعاقل والحصون والطوابي من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطيء النيل حتى اخر سفح المقطم ووضع المدافع الكبيرة في ذلك الخط الحربي العظيم بين تلك الحصون العظمية ولكن مع كل تلك الاستعدادات والاستحكامات الحربية فان ابو الذهب نزل لمحاربته وتغلب عليه وهزم جيوشه التي خانته اغلبها وانضمت الى جيوش ابو الذهب فلما راى علي بك ذلك خامره اليأس وتيقن أن اخرته قد دنت . فلما جاء الليل هجر مركزه بعد أن اسرع في جمع ذخائره وكنوزه وممتلكاته الخصوصية وامواله وفر هارباً من القاهرة الى سوريا فحل ابو الذهب دون أن يضطر لعمل حربي أو لرفع سلاح لان الاهالي وباقي الامراء والمماليك كانوا من اعوانه كما تقدم ولكن مع سنوح هذه الفرصة لابو الذهب وامتلاكه البلاد المصرية بهذه السهولة فان اول اعماله كانت سلب وحرق دير البساتين الذي كان متخذه علي بك خصمه ملجأ له . ثم دخل القاهرة دخول الفاتح القاهر وسار يقطع رأس كل رجل يشتبه في ولائه لعلي بك وامر بجمع كل العمله التي ضربها المعلم رزق من ايدي الجمهور وضرب خلافها باسمه . وبعد أن استقر على اريكته كتب لسلطان تركيا انه خلص البلاد من علي بك واكد له انه

سيظل حاكماً لها وخاضعا لسيادته وعبر عن ميله واستعداده لقبول والٍ جديد على مصر من قبل الباب العالي . ثم امر بعض البكوات المماليك بكتابة جواب لعلي بك في سوريا يرجونه فيه الرجوع الى مصر واكدوا له بأنهم يخونون محمد ابو الذهب وينضمون معه حالما يعود . اما علي بك فقد تجددت له قواه الحربيه في اثناء ذلك بواسطة مصدرين عظيمين وهو في سوريا اولهما انه اقام المخابرات بينه وبين دولة روسيا (ولا يخفى أن الروسيين هم الاعداء الالداء الطبيعيين للاتراك العثمانيين) فافرضته روسيا قوة الحرب والطوبجيه « المدافع وما يختص بها » ثم الذخائر الحربية وثلاثة الآف من العساكر الالبانيين . وثانيهما انه عقد محالفة جديدة مع الشيخ الظاهر والي عكا كما أن احد قواده قام بتجريدة حربية واعاد افتتاح طبريه ومدينتين على شاطيء سوريا بخلاف يافا وغزه والرمله وليدا وعاد منتصراً لعلي بك الذي تنازل عن هذه البلاد بعد افتتاحها الى الشيخ الظاهر والي عكا .

فلما وصل الى علي بك ذلك البلاغ والدعوة الكاذبة من المماليك المصريين حول حالا وجهة جيوشه الى مصر وسار بهم حتى وصل الى الصالحيه وهناك التقى بجيوش ابو الذهب فانتصر علي بك في اول معركة قامت بين الجيشين ولكن مماليكه الخائنين ظهر منهم نوع التراخي فلم يثق بحربهم وحدهم مع جيوش ابو الذهب الذي لما انس من نفسه انهزاما في المعركه الاولى وقف بين جيوشه المصرية يخطب متحمساً

ويحرضهم على الاستقتال في الحرب استقتالا وحماساً دينياً لانه كان يقول
لهم أن الله لا يسمح لعلي بك الذي هجر الدين الاسلامي ودخل في محالفة
مع النصارى الكفار أن ينتصر عليهم وعلاوة على هذه الخطب الحماسيه
الدينية فانه تمكن بواسطة الدسائس والخدع والرشوه مع ابراهيم بك
ومراد بك المساعدين العظيمين لعلي بك واتحد معهما على عصيان سيدهما
والانقلاب عليه وقت الحرب والانضمام مع الجيوش المصرية . فعلاوه على
الرشوه العظيمة التي اخذها مراد بك من ابو الذهب اشترط عليه ايضاً
انه اذا خان علي بك وانضم معه يعطيه الست نفيسه زوجة علي بك وهي
امرأة شركسية الاصل بارعة في الجمال . فقبل ابو الذهب بهذا الشرط
ولما التحم الفريقان في الحرب خان البيكان علي بك وانقلبا عليه بانضمامهما
الى صفوف ابو الذهب فلما راى جيش علي بك ما كان من امر مراد
بك وابراهيم تقهقر وهرب ولكن استمر عشرة من المماليك الذين ظلوا
على الولاء لعلي بك في الدفاع معه باستقتال عظيم حتى تغلب عليهم رجال
ابو الذهب وذبحوهم عن اخرهم وجرح علي بك ايضاً جرحاً مميتاً فحملوه
الى القاهرة حيث توفى فيها بعد سبعة ايام . وقيل أن ابو الذهب اوصى
الاطباء الذين ارسلهم لعيادته أن لا يشفوا علي بك من جرحه

مات علي بك الكبير بعد تلك الاعمال الحربية والسياسية العظيمة
ومن عظيم اعماله الاصلاحية المباني العظيمة الكثيرة العدد التي شيدها
في البلاد المصرية من العشرة سنوات حكم فيها . واخص اعماله من هذا

النوع في بولاق حيث شيد سوراً عظيماً وسوقاً كبيراً جاء منظر
ذلك السوق رديئاً لانه حال بين مناظر الحدائق الغناء التي كانت هناك
ويقول الجبرتي انه من اقبح المباني التي شيدت . وفي النصف الاخير
من ذلك العصر شيد الامير عبد الرحمن عمارات كثيرة عظيمة اذ قد
بنى ورمم ثمانية عشر جامعاً كبيراً في القاهرة . منها جامع المغربلين وجامع
السيده السطوحيه قرب باب الفتوح وجامع سيدنا الحسين وجامع السيده
زينب ولكن هذا لم يتم بناؤه الا بعد وفاة علي بك والامير عبد الرحمن
ببضع سنوات . ثم جامع السيده سكينه . واخر يدعى جامع السيده عيشه .
وجامع ابو السعود الجارحي وجامع الشريفين الكردي وجامع الشيخ
الحنفي وثلاث جوامع اخرى لم يتبين اسمها في التاريخ ضمن الجوامع
الجديده التي تشيدت . وشيد ايضاً الامير عبد الرحمن كثيراً من المدارس
والسبل « محال عمومية للشرب » هذا ما عدا الجسور والكباري
والمنازل الخصوصية .

ولكن كل هذه الاعمال العظيمة لم تشفع له لدى الجبرتي المؤرخ
العظيم الذي وصمه بوصمة البخل الشديد الذي لا يطاق وهي الخله التي
جعلته يجمع كثيراً من الاموال بطريقة غير شرعية وهو كان المخلص الوحيد
لعلي بك الكبير ولكن علي بك لما راى نفسه قوي الجانب وفي امن
من بطش اعدائه ومن معاكسة حزب عبد الرحمن له قابل اخلاصه
بالنفي الى الحجاز . ولكن عاد فاستدعاه من الحجاز سنة ١٧٧٦ م حيث

كان قد طال عليه مدة النفي واصبح رجلاً عجوزاً فتوفى بعد عودته للقاهرة ببضعة ايام .

ولما استتبت الاحكام والبلاد في يد محمد بك ابو الذهب استدعى كثيراً من الامراء المماليك الذين كان نفاهم علي بك وصرح لهم بالعودة لحالتهم القديمة واعطاهم امتيازاتهم التي كانت قد سلبت منهم . ولكن لم يتمتع بالقوة العظمى التي كان تتوق نفسه اليها في البلاد من بضع سنين . وفي سنة ١٧٧٥ م غزا سوريا التي كان معظمها باقياً تحت يد الشيخ الظاهر . فهجم على يافا واخذها عنوة وذبح سكانها كالغنم عن اخرهم يهودياً ومسلماً ومسيحياً على السواء وسبا النساء واعطاهن فريسة باردة لعساكره ووزع عليهم ايضاً الاطفال كرقيق . فهالت هذه الفعال الدموية المفزعة كل البلاد السورية . فترك الشيخ الظاهر مدينة عكا بعد أن امر السكان باتخاذ الوسائط والشروط التي يمكنهم اتخاذها مع ابو الذهب وليس عكا فقط التي سلمت لجيوش ابو الذهب الفاتحة بل سلمت له ايضاً كل المدن الاخرى بدون مقاومة بالكلية . فارسل ابو الذهب الى رجاله في القاهرة يأمرهم بتزيين القاهرة وانارتها بالانوار احتفاً به لانتصاراته في الشام . ولكنهم بعد أن اقاموا الزينات الباهرة تلقوا اخباراً بانه مات في الشام واعتقد المصريون عقب وفاته بان موته كان لشدة فرحه بنجاحه وانتصاراته .

مات محمد بك ابو الذهب وترك مصر في يد ثلاثة من كبار المماليك

البكوات لانه من عهد أن صارت البلاد في يده الى أن مات كان الباشوات (الولاة) يحضرون ويؤبون من ولي القسطنطينية بدون سلطة ولا نفوذ لانهم لم يكونوا الا عبارة عن العوبة في يد المماليك يمثلون بها عظمة السلطان العثماني ويجعلونه راضياً عن البلاد بسلطته الاسمية وجزيته السنوية . اما المماليك الثلاثة الذين تولوا البلاد فهم اسماعيل بك الذي عهد له حكم البلاد المصرية مدة غياب ابو الذهب في فتوحاته السورية . ثم ابراهيم بك محافظ القاهرة ثم برادبك الذي ارتقى الى وظيفة القائد العام للجيوش المصرية على اثر وفاة ابو الذهب وكل هولاء البكوات كانوا من خدام وعبيد علي بك الكبير وخانوا سيدهم كما تقدم واصل المملوك الاول اسماعيل بك غير معروف اما الاثنان الاخران فمن اصل شركسي .

ولم يمض وقت طويل على هولاء الثلاثة الا وقام النزاع والخصام بينهم فانشقوا على بعضهم بان اتحد مراد وابراهيم ضد اسماعيل بك وبعد مناوشات ومعارك حربية بينهم كانت نتيجة تلك المعارك وقوع التعاسة والشقاء بطرق متعدده لا تحصى على الاهالي الابرياء . ثم قامت معركه هائله هزم فيها اسماعيل وخلا الجو للاميرين الجركسيين . فهجر اسماعيل البلاد ولكنه عاد اليها بعد بضعة شهور بعد أن جدد قواه وهجم على اعدائه فما اكتسب الا انهزاماً ساحقاً في الصحراء الواقعة على مقربة من حلوان . ثم هرب واختفى في احدى المغاور الكائنة في سفح المقطم

وظل مختبئا فيها ثلاثة ايام اما اعداؤه مراد وابراهيم فنهبا بيته وجميع ممتلكاته وقتلا جميع من في بيته وظلا ينهبان ويسلبان من الاهالي في طول البلاد وعرضها مهزأين بقوة السلطان بدليل انهما قدما اليه التقارير الضافية يثبتون فيها أن الاموال التي تستحق لمصر من الباب العالي تزيد عن الجزية السنوية التي تدفعها له وفي المدة بين عامي ١٧٧٧ و ١٧٨٠ م كانت الحكومة الفرنساوية ارسلت المسيو سونيني للسياحة في البلاد المصرية وكان الغرض من بعثته هو اختبار حالة البلاد العلمية والسياسية لان الحكومة الفرنساوية كانت تفكر وقتئذ في الحملة التي ارسلتها بعدئذ بقيادة قائدها العظيم نابوليون بونابرت . ولو أن المستر سونيني كان بلا شك من فطاحل العلماء الا انه عدم خبرة وحالة اخلاقه الشخصية لاتؤهلانه للسياحة والبحث في مصر وفضلاً عن ذلك فانه كان يصدق كل شيء يقال له ولو كان الكلام مما لا يقبل التصديق سيما ما يكون ضد المصريين وعلى الخصوص الاقباط منهم . وكان ذو تحزب شديد ومغرض جداً للمماليك الظالمين المستبدين . ولو انه التزم أن يكتب في تقاريره أن هؤلاء المماليك هم المسؤلون عن خراب وتعاسة البلاد . وصرف معظم اقامته في مدينة رشيد التي كانت المدينة الوحيدة التي تمتع فيها الاوروبيون بحرية اكثر من كل بلد اخرى في مصر . اما في القاهرة فبالكد ما استطاع أن يظهر نفسه خارج بوابة حي الفرنساويين بالنسبة لحالة المدينة المزعجة المرتبكة ثم قام في حملة من رشيد الى وادي النطرون . وبعدها قام في حملة

اخرى من القاهرة الى الصعيد مسلحاً بخطاب من مراد بك . (١) وهو متنكر بصفة طبيب فبكل صعوبة بهذه الحيلة امكنه أن يواصل سيره حتى مدينة الاقصر على امل ورجاء أن يصل الى الحبشة عن طريق السودان . ولكن لما انتشبت حرب اهلية في الصعيد التزم أن يعود الى القاهرة . وذكر في تاريخه أن كل الاوروباويين في القاهرة يستخدمون البرابرة في منازلهم ما عدا الفرنساويين الذين حذرت عليهم حكومة فرنسا ذلك من عهد ما قتل المسيو دي رول سنة ١٧٠٦ م .

ولما راى السلطان عبد الحميد الذي ارتقى العرش العثماني سنة ١٧٨٤ م أن الجزيه الماليه حتى لم تسدد له من مصر القائم بامرها مراد بك قصد المداخلة في الامر والنظر في هذا التقصير . وما كان يعتني أو يلتفت الى مضايقة مصر العمرانية أو مركز نائبه على مصر الذي اصبح صفرا بل كل عنايته والتفاته هو للحصول على الجزية المالية ولذلك عزم على محاربة

(١) ذكر المسيو سونيني في تاريخه عن مصر انه بعد أن طرد اسماعيل بك منفيا احب مراد بك أن يقتل احد اصحاب اسماعيل كان قد التجأ متحصناً في القلعه فاستحضر مهندساً انكليزياً اسمه روبنيسون وطلب منه أن يحرق له القلعه فابى المهندس الانكليزي ذلك وتحجج في اعتذاره أن مثل هذا العمل يحتاج لمهاريس (آلات ساحقة) وبومب ولا يمكنه استجلاب هذه الادوات من جهة اقرب من مدينة البندقيه . فمراد بك عوضاً عن يقطع رأس هذا المهندس كما كان يظن المسيو سونيني اطلق سبيله واعطاه الف سكوين والسكوين قطعة عملة ذهبية على عصر جمهورية البندقية تساوي خمسة واربعين غرش صاغ مصري

مصر وضربها .

ففي سنة ١٧٨٦م [1] (١٢٠٠) هـ واذا بالجيوش التركيه وصلت الى الاسكندريه بقيادة حسن باشا فلما شعر بها الاميران مراد وابرهيم بك هما الى صدها فقامت بين الفريقين معركة دموية هائلة دارت فيها الدائرة على المملوكين الذين فرا الى الصعيد وترك حسن باشا سائراً بجيشه الى القاهرة بدون مقاومة [2] فتسليم وخضوع الاهالي الابرياء بكل ارتياح لم يخلصهم بالاسف من بواعث البؤس والتعاسة التي حاقت بهم بطرق مختلفة من جنود الجيوش التركية التي كانت تترك كل بلد تمر عليها خراباً

(١) في اوائل سنة ١٧٨٦ كان الباب العظيم لجامع السلطان حسن قد تم بناه وافتتح باحتفال ديني عظيم وهدمت الدكاكين والحائط التي كانت بنيت امامه وقد كان هذا الباب مبنياً من منذ خمسين سنة ولكن لما قتل الاحدى عشر اميرا من طائفة الفقارية سنة ١٧٣٦م قد حرق القاتلين باب هذا الجامع العظيم ليختبئوا فيه من اعين المنتقمين

(٢) لما علمت الحكومة الروسية أن سلطان الدولة العلية قاصد ارسال حملة حربية الى مصر اوعزت الى قنصلها في الاسكندرية بتعليمات سرية أن تحدث محالفة مع البكوات المماليك ضد الدولة العلية . ففي الحال ابتدأ القنصل بفتح المخابرات بين مراد بك وابراهيم بك في هذا الصدد ولكن هذان المملوكان رفضا كل مداخلة اوروباوية ظناً منهما انهما كفؤاً لمقاومة الدولة العلية وحدهما بعد أن يتما استعداداتهما الحربية لكن لما وصل حسن باشا التركي بجيوشه الى الاسكندرية فجأة كانه قد سبق السيف العزل

تقدما في طريقها الى القاهرة وكان الفلاحون سعداء الحظ في تلك البلاد لانهم هم الذين تمكنون من الهروب قبل وصول الجيش التركي الى بلادهم راضين بالنجاة بانفسهم مقابل ترك محصولاتهم وممتلكاتهم وزراعاتهم ضحية لتلك الجنود

وقد دخل حسن باشا بجيشه الى القاهرة في اول اغسطس سنة ١٧٨٦م وكانت اول اعماله مصادرة كل ممتلكات المملوكين العاصيين وبيع كل شيء لهما في المزاد العمومي حتى نساؤهما الخصوصية ثم ارسل وراءهما حملة تركية الى الصعيد . وبعد وقوع مذابح دموية عظيمة من الجانبين وخراب الصعيد كله هربا الى السودان . وعادة الحملة التركية الى القاهرة

وقد مكث حسن باشا محتلا البلاد بجنوده مدة سنة اعاد في اثنائها اسماعيل بك الى قوته الاصلية وجعله شيخ البلد . ثم حاكم عدد عظيم من المماليك المشهورين بكثرة المشاغبة في البلاد . وبذا تمتعت القاهرة بالامن في شوارعها طول مدة اقامته فيها . لكن هذه البلاد التعيسة الحظ لم تتقدم للامام الا قليلا جداً بعد هذا النظام الذي اتاه حسن باشا . فقد حل بالبلاد وتفشى طاعون المواشي بوطئه عظيمة اذ قد نفق به كل مواشي القطر المصري تقريباً وقد زاد الحكام الطين بله على الاهالي اذ عوضاً عن أن يخففوا الضرائب مراعاة لمثل هذه الظروف قد زادوها اكثر مما كانت

وقد تألم الاقباط كثيراً وذلك كما هي العادة اذ دائماً يكون لهم القسط الاوفر من كل مصيبة تحل بالبلاد . فانه مع مشاركتهم اخوانهم المسلمين في مصايب طاعون المواشي فان حسن باشا القائد التركي اوجد لهم طريقة اضطهاد منتظمه . وانهم بعد وفاة ابو الذهب قد انقضى فصل راحتهم وهناؤهم واول ما امر به حسن باشا هو اعادة كل القوانين الخبيثة المفسدة القديمة وتنفيذها عليهم كما كانت في العصور الاولى وكان يترقب لهم بل ويبحث عن طريق ينتحل فيه سبباً لمضايقتهم وسلبهم ونهبهم . وانزل كبار الاقباط الذين ارتقوا للمناصب العالية في عصر علي بك الكبير الى وظائف صغرى جداً واضاع قوتهم ونفوذهم . ونهب منازلهم ومنازل اولادهم . واغتصب ممتلكاتهم وهدم (١) عماراتهم . وعلاوه على بعث انواع الاضطهادات القديمة من قبرها لم يكتف حسن باشا بذلك بل اوجد لهم اهانات كثيرة . منها انه اطلق منادين في الشوارع انه لا يجوز لاي قبطي أو يهودي أن يركب دابة على الاطلاق ولا يقتني له عبداً أو جاريه

(١) لم ينج من هذا الاضطهاد الا المعلم ابراهيم الجوهري الذي سن باشكاتب المالية لانه بذكاه جعل نفسه من العموم ومحترماً في عيني المسلمين والاقباط معاً . ولما كانت احكام البلاد في يد ابراهيم بك ارتقى ثانياً الى درجة عظيمة من المقام وبتأثيره الادبي على الحكام المسلمين تمكن من السماح للبطريرك باعادة بناء الكنائس والاديرة واوهب كثير من اراضيه وامواله للكنيسة القبطية ولما توفى مشي في جنازه ابراهيم بك احتراماً له .

ومن ذلك الحين فصاعداً لا يجوز أن يسمى احد من هذين العنصرين باسم من اسماء الانبياء أو الرسل المذكورين في التوراة وكل من يكون اسمه من هذا القبيل يلزم تغييره في الحال . فغير الاقباط الذين لهم معاملة مع المسلمين اسماءهم باخرى . ومن ذلك الحين صار الاقباط يسمون انفسهم امام المسلمين الذين يعاشرونهم ويعاملونهم باسماء ويعرفون فيما بينهم باسماء اخرى . واما الان فاسم القبطي الاصلي اصبح علماً فقط للعائلة واعظم الاقباط اتخذوا اسماء والقابا تركيه

وقد نفذ حسن باشا بقوة بطشه هذا الامر في ايام قليلة فقط وصار يغتصب كل الجوار والعبيد الذين عند الاقباط اذ صرح لعساكره ان يهجموا على منازلهم ويطردوا بالقوة الى خارجه كل جارية او عبد يجدونه فيه ـ ولا بد ان يكون ذلك درساً طبيعياً خاصاً للاقباط ـ وجمع حسن باشا كل هذا الرقيق في فرقة عظيمة وساقهم الى القلعة حيث عرضهم للمزاد العمومي. واشترى العساكر اغلب هذا الرقيق وجعلوا القلعة سوقاً للرقيق يبيعون فيه العبد او الجارية بثمن فادح لكل من يطلب المشترى .

ثم امر حسن باشا بحصر عدد الاقباط وعدد بيوتهم وكل ممتلكاتهم وفرض عليهم ضريبة ٥٠٠ كيس نقدية يدفعونها للحكومة وزاد عليهم ضريبة الانفس مضاعفه اذ الشخص القبطي الذي كان يدفع ضريبة ديناراً عن نفسه (لا فرق بين رجل وامرأة كبير او صغير) الزمه ان

بدفع دينارين ثم الاقباط الذين كانوا مستخدمين في دوائر كل من مراد بك وابراهيم بك وهما الاميران العاصيان اللذان حضر لتأديبهما قد زاد عليهما الضريبة ضعفاً آخراً. لانه في ذلك الحين كان ذا ثروة واسعة وكل دائرة من دوائر كبار الاسلام لا يستخدم في ديوانه وحصر اشغاله وحساباته الا الاقباط لما هو مشهور عنهم من الاجتهاد والذكاء والامانة ولذلك بلغت ضريبة الاقباط الذي كانوا مستخدمين في دائرتي مراد وابراهيم ٧٥٠٠٠ خمسة وسبعين الف ريال وكان ذلك في زمن البطريرك يوحنا الثامن عشر. الذي لم ينج هو من اضطهاد حسن باشا اذ أمر هذا القائد بضبط خزينته واخذ امواله. ولكن لحسن حظ البطريرك ان السلطان ارسل في خريف سنة ١٧٨٧م [١] يستدعي حسن باشا من مصر ليقود حملة عسكرية في الحرب بين روسيا والدولة العلية. فقام حسن باشا لاوربا وترك البلاد في يد اسماعيل بك بدون منازع له ولا معارض. لان عبدي باشا الوالي الجديد من قبل الدولة العليا كان وجوده كعدمه. وكانت

(١) في أوائل هذه السنة وقع الاقباط أيضاً في مصائب عظيمة جديدة. وذلك انه تصادف مرور عبدي باشا والي الدولة مع اسماعيل بك في حي من أحيا المدينة تصادف انه لم يمر فيه من قبل فسأل اسماعيل بك وهو راكب بجانبه ما اسم هذا الحي فما كاد اسماعيل بك يجاوبه بأن اغلب هذا الحي مأهول بالمسيحيين الا واصدر عبدي باشا امره بهدم بيوت هذا الحي في الحال فتدارك كبار الاقباط الامر قبل تنفيذ الهدم ووعدوا بدفع ٣٥٠٠٠ خمسة وثلاثين الف ريال دفع السوريون منهم سبعة عشر الفاً والباقي دفعه الاقباط

قوة اسماعيل بك في الحقيقة محصورة جداً في حد معلوم لان الاميرين مراد وابرهيم كانا لا زالان عاصيين [١] وواضعين يدهما على صعيد مصر لغاية شمال المنيا

وظلت احوال الضيقات والمرائر والشدائد العظيمة تتوارد بضعة سنين. اذ يقول الجبرتي ان في ذلك الوقت. كان دولاب الاعمال وحركة الاشغال العمومية واقفة بالمرة وكنا نشعر بتعاسة اكثر مما رأينا طول ايام حياتنا. من ذلك ان الطرق تخربت وما كان يوجد نقطة واحدة في أمن من السلب والنهب والبطش بالمارة اذ لو لم تقع تلك المصائب بواسطة الامراء المماليك يمارسها العرب البدو. وهكذا كانت الحال في جميع انحاء القطر اذ لم يكن احد يأمن على حياته او ممتلكاته. وحتى قافلة الحج الى مكة لم تنج من رجال الخطف والنهب. وكان اسماعيل بك يجتهد عبثاً في تقوية مركزه باستجلاب الجنود الالبانية والرومليه من بلاد الدولة العليه فان هذه الجنود الغريبه كانت تزيد بزور جديدة في الشقاق والنزاع بين الالايات المختلفه في الجيش

(١) يقول الجبرتي في تاريخه انه في سنة ١٧٨٩ وصل لتركيا سفير هندي من قبل السلطان حيدر الهندي يطلب من سلطان العثمانيين مساعدته في حربه ضد الانكليز في الهند فقال له السلطان عبدالحميد ان يذهب الى مصر ويطلب رجال القرعة منها. ويقول الجبرتي لما حضر هذا السفير الى مصر وصار يجمع الذين يريدون التجند معه لم يتبعه كثيرون من المصريين كما كان ينتظر

وفي اوائل ربيع سنه ١٧٩١ م (١٢٠٥ هـ) اصيبت البلاد بوباء عظيم لانه كان كثير الوقوع في هذه البلاد التعيسه في بحر العصرين السابع عشر والثامن عشر. وقد مات اسماعيل بك بالوباء بين الالوف الذين ماتوا به. فبموته خلى الجو لرجوع الاميرين مراد وابراهيم الى القاهرة وكان قد اختلف الامراء الباقين بالقاهرة فيما بينهم على من يخلف اسماعيل في امارة البلاد. فدخل الاميران مراد وابراهيم القاهرة في يونيو أو يوليو من تلك السنه واعترف بهم الباقون والشعب انهما اسياد البلد الاصليين واصبحا حاكمي البلاد ثم رأيا ان عائلتيهما هلكتا وممتلكاتهما قد بيعت ووضعا ايدهما على ممتلكات الامراء الذين ماتوا بالوبأ وتزوجا بارملاتهم وحازا عبيدهم وجواريهم. وأمرا الجنود السوريين والالبانيين الذين استحضرهم اسماعيل ان يغادروا البلاد حالاً في ظرف ثلاثة ايام.

وفي تلك السنة ايضاً لم يرتفع فيضان النيل لدرجة تذكر بالمرة فعجز محصول البلاد عجزاً عظيما وكان ذلك زيادة تعاسة وشقاء للاهالي. فصار مراد بك وابراهيم بك يطوفان شوارع المدينة ويقبضون على التجار الذين يبيعون الغلال باسعار فاحشة للاهالي تخفيفاً لاحوال المجاعة فلم يجد ذلك نفعاً لانه بعد أن يذهب الاميران الى سبيلهما من امام التاجر يعود لبيع الحبوب باسعار فاحشه جداً. اما الاميران فقد خزن لانفسهما اشوانا ملآنه بالغلال من الوجه القبلي لكن كانت هذه الغلال مخزونة في منازلهم ولا يفرطون للبيع أو للتصديق منها للاهالي الذين يموتون

جوعاً. ولذلك يقول الجبرتي سادت في طول البلاد وعرضها احوال الظلم والاستبداد وعدم العدل.

وفي سنة ١٧٩٣ هجم العرب مرة ثانية على قافلة الحج وقتلوا اغلب الحجاج ونهبوا ما يمتلكون. فقامت ثورة عامة من المصريين على الاميرين لانهما لم يقوما بايقاف ذلك العدأ فانقلب عليهما المصريون عموماً مسلحين وغير مسلحين ولم يتمكن الاميران من الخلاص من هذه الثورة الا بعد أن استكتبا كبار مشايخ الاسلام باتمام اصلاح طريق الحج وتامينه على الحجاج ووضع حد لتلك السرقات والنهب والسلب ويرسلا المرتبات المعتاده الى مكه حتى لا يعد للعرب سبيلا للاعتدى على الحجاج. ولكن بالاسف لم يدم العمل بهذا القرار الا مدة شهر فقط وعاد بعده السلب والنهب اكثر مما كان اولا. وكانت حالة مصر الاجتماعية في نهاية القرن الثامن عشر اردأ من كل حالاتها في القرون التي تقدمت هذا القرن من بعد الفتح الروماني. اذ اندثرت صناعتها وكسدت تجارتها وانتكست حالتها الى حالة الهمج والبربرية التي ذهبت بتمدن السودان وذهبت ايضاً بارض مصر الخصبه وتمدن مصر التاريخي ولكن بفضل الاوربا ويين الذين كانوا فيها وقتئذ وبفضل تعضيدهم بالامتيازات الدولية التي لدولهم تمكنوا من استبقاء شرارة الحياة التجارية الضعيفه التي كانت باقيه لمصر لانهم لم يكونوا غير مرتاحين لتلك الحالة الآيلة الى الدمار. وان الفرنساويين الذين كانوا وقتئذ يحلمون بغزو وفتح بلاد كل العالم نسوا أن الفرصه قد لاحت

والوقت قد دنى في احتلال مصر

الفصل الحادي والسبعون

دخول الفرنساويين

سنة ١٧٩٨ مسيحية و١٥١٤ للشهدا و ١٢١٣ للهجرة

وصل بونابرت العظيم الى مرفأ الاسكندرية في اول يوليو سنة ١٧٩٨ بسبعة وثلاثين الفاً من رجاله ولما رسى بدراعته خارج المرفأ أرسل قارباً لداخل المينا يستقدم فيه القنصل الفرنساوي للمداولة معه قبل الابتداء في اعماله الحربية . فلما ذهب اليه القنصل اخبره انه في ٢٨ يونيو اي قبل وصوله بيومين كان الانكليز تحت قيادة نلسن هنا في مياه الاسكندرية يبحثون على أسطول الفرنساويين . ولما وجدوا انه لم يشعر بهم احد في الاسكندرية اقلعوا مسافرين ثاناً للبحث على الفرنساويين في بحر الروم . ومع ذلك مدة وقوف الاسطول الانكليزي في مياه الاسكندريه كان تمكن الاميرال نلسون في الاسكندرية من مقابلة السيد محمد كريم محافظ القاهرة وحذره من الخطر القادم المحدق به من الفرنساويين . ولكن حكام مصر المسلمين لارتكانهم واتكالهم وهي

الخلة المتولدة فيهم من الجهل بتقدير الاحوال والظروف قد رفضوا كل محالفه او مساعده من جانب الانكليز

اذ قال محافظ القاهرة ومن كان حاضراً معه في الاسكندرية من الحكام المسلمين للاميرال نلسون ان البلاد ملك السلطان فلا يمكن للفرنساويين أو غيرهم أن يمسوها بشيء . فما كان من الاميرال الانكليزي الا انه انسحب من الاسكندرية باسطوله . ثم ارسل السيد محمد كريم الى القاهرة يخبر رجالها بما كان . فقوبل هذا الخبر هناك بذات الاحتقار وعدم التصديق الذي قوبل به في الاسكندرية . وصار الامراء يتباهون متزين بعظمتهم الفارغة جهراً امام الناس قائلين ان كل الاوروباويين عموماً لا يمكنهم الوقوف امامهم لحظة واحدة في ميدان القتال وان واجهوهم في معركة لا يكون نصيبهم الا السحق فقط تحت حوافر خيولهم (خيول الامراء)

وبعد سفر نلسون بثلاثة ايام ظهر الاسطول الفرنساوي في مينا الاسكندرية لاعين الناظرين . فاندهش حاكم الاسكندرية وأرسل رسالة مستعجلة مخالفة المعنى كثيراً الى مراد بك بالقاهرة يقول له فيها (مولاي : ان الاسطول الذي اقترب لنا تماما اراه كثير العدد جداً وغير ممكن معرفة اول بوارجه الحربية من اخرها فاستحلفك بالله ونبيه أن ترسل لنا بعض رجال من جيشك .)

فلما وصلت هذه الرسالة الى مراد بك ركب وتوجه تواً الى منزل

زميله ابرهيم بك (وهو مستشفى القصر العيني الآن) واخبره بما كان فعقدا مجلساً منهما ومن رجال الحكومة . فصرفوا وقتاً طويلاً في لوم واتهام بعضهم بعضاً في اهمالهم لوصول الخطر لهذه الدرجة واخيراً اتفقوا على ان مراد بك يقود جيشه ويسير به متجهاً نحو الاسكندرية على شاطىء النيل الايسر ليقابل جيش الفرنساويين وابرهيم بك يحتل بولاق بجيشه ويحتفظ معه قوة عظيمة للدفاع عن القاهره اما ابو بكر باشا الطرابلسي والي الدولة العلية ارسل رسولاً سريعاً الى القسطنطينية يطلب المدد .

وفي اثناء ذلك كان مركز جميع المسيحيين في القاهرة اورباويين ووطنيين حرجاً جداً وحياتهم في غاية الخطر . وذلك لان المسلمين اجتمعوا في ديوان الحاكم وقرروا ان اول الوسائط التي يتخذونها عند اقتراب الفرنساويين هي قتل كل مسيحي في القاهرة في مذبحة عمومية . وقليل من المسلمين الذين كانوا يعرفون سوء عاقبة هذه السياسة وصعوبة هذا العمل الفظيع في مثل هذه الظروف ولكن كان الامير ابرهيم بك اكثر تودداً للمسيحيين من زميله مراد . فوعد بالاستمرار على حمايتهم وحافظت زوجته على كثير من العائلات الاورباوية . اما الاقباط فكان المسلمون يسبونهم ويلعنونهم كل يوم بطريقة علنية ويهددونهم بالذبح والنهب في اول فرصة . ثم هجم المسلمون على كنائسهم واديرتهم ومنازلهم بالسلاح ويقول الجبرتي انه بكلمة واحدة من الحاكم المسلم اصبحت كل البلاد المصرية في لحظة واحدة مرسحاً للسرقات والمذابح بعد ولا يحصى

ونزل بونابرت بجيوشه الى البر في الاسكندرية بدون ادنى مقاومة ولا كفاح . وتسلقت جنوده في الحال اسوار الطوابي المتهدمة وحصنتها تحصيناً تاماً جعلتها امنع من العقاب .

اما الحكام المسلمون فظلوا داخل تلك الطوابي يقذفون النيران من فتحاتها مدة قليلة ولكنهم سلموا للفرنساويين بعد ظهر ذلك اليوم بلا شرط ولا قيد وتركوا امرهم للمنتصرين عليهم يفعلون بهم ما ارادوا لكنهم ما فعلوا بهم الا خيراً .

اما السيد محمد كريم فسلم نفسه لبونابرت بعد أن تيقن بفشله وخذلانه فعينه حاكماً اهلياً للمدينة تحت امرة القائد كليبر الذي تركه بونابرت مع ثلاثة آلاف محارب بصفة حامية للاسكندرية . وتأسس في الحال مجلس بلدية مؤلف من بعض الاعيان وكبار التجار وانزلت المطابع من السفن الى البر وجهزت لطبع الاعلانات والمنشورات والقوانين والاوامر باللغة العربية وهي التي كان يصدرها نابوليون بونابرت مدة اقامته في القطر المصري . وكان معنى تلك المنشورات تقريباً من معنى واحد وملخصها الحض على مساعدة المصريين المهضومي الحقوق كي يتنفسوا الصعداء وتحريض الطبقة الواطية من المصريين للقيام بمساعدة منقذيهم (الفرنساويين) من الاستبداد وجور المماليك . وبهذه المنشورات أيضاً تأكيدات عظيمة بان الفرنساويين هم في الحقيقة ونفس الامر مسلمون حقيقيون وبها ايضاً تهديدات بالعقاب الصارم الذي

يقع على من تظهر عليه اقل مخالفة أو معارضه [١] . وقد تكلم بالتفصيل التام عن هذه المنشورات الثلاث المؤرخون العظام الذين كتبوا عن الاحتلال الفرنساوى لمصر وهم المستر ريم في كتابه (مصر الفرنساوية) وعبد الرحمن الجبرتي في كتابه (تاريخ مصر في عصر الفتح العثماني) والمستر باتون في تاريخه (تاريخ الثورة المصرية)

وقد برح بونابرت مدينة الاسكندرية في ٧ يوليو من تلك السنة زاحفاً بجيشه الى الرحمانيه وقد تعب رجال جيشه جداً من العطش وشدة الحرارة طول ذلك اليوم — ولما وصل الرحمانيه ارسل الجنرال دوجوامع اورطة من الجيش الى رشيد لحماية الاوربيين هناك الذين كانوا في خطر عظيم . وبعد وصول الجنرال المذكور لرشيد ونجاحه في مأموريته استأنف بونابرت السير بجيشه زاحفاً الى القاهرة فكانوا كلما مروا على قرية وجدوها خربة خالية من السكان الذين كانوا بمجرد شعورهم باقتراب

(١) من اعظم غلطات نابوليون في السياسة اعلانه عن نفسه انه مسلم ومصادقته للمسلمين بمجرد وصوله للديار المصرية — فانه لم يصدقه أي فرد من المسلمين في اعترافاته بالاسلام بل ادى هذا الاعتراف الى أن المسلمين مزجوا رعبهم من الفرنساويين بنوع من الاحتقار — وكان هذا الاعتراف بالاسلام من نابوليون نازعاً ثقة المسلمين خاصة في كل ما يختص بالفرنساويين وهادماً كل الثقة والامانة في عموم الافرنج وهذا الاعتقاد من المسلمين كان لنا اول مساعد ذو قيمة عظيمة في معاملتنا للشرقيين ومن اعظم زلات نابوليون ايضاً الزامه كل الخاضعين له بلبس الوردة الحريرية المثلثة الالوان .

الفرنساويين يحملون كل ما يمكنهم حمله من ذخائرهم ويهربون هائمين على وجوههم وقد صادف جيش بونابرت صعوبات والآم قاسية جداً لشدة احتياجه للمؤونة .

وتقابل الفرنساويون عند شبرابيس بمراد بك ومعه ٤٠٠٠ من المماليك الراكبين ووقعت بين الطرفين موقعه هائلة انتهت بانهزام مراد بك وانسحب متقهقراً نحو القاهرة تاركا مدافعه وذخائره الحربية في طريقه . وانتقى له موقعاً في امبابه وحصنه جيداً عند ضفة النيل وجاء ابراهيم بك امامه في الضفة الاخرى من النيل عند بولاق وبنى له حصناً حربياً منيعاً ومكثا ينتظران العدو وصده عن الدخول للمدينة .

وفي ٢١ يوليو وصل الجيش الفرنساوي الى امبابه وابتدأت المعركة العظمى في ذات اليوم بين الفرنساويين والمصريين وكانت تلك المعركة الهائلة هي القاضيه على حظ مصر — وقد ابلى المماليك في هذه المعركه بلاء حسناً ولكن رجال جيشهم كانوا غير محصورين داخل النظام العسكري بل كانوا يحاربون كأنهم في جهاد بدون اتباع تعليمات قوادهم وبالاجمال فان محارباتهم كانت غير منتظمة كالاحوال الحربية من بدأ اشتباكهم مع الفرنساويين — وبعد اشتداد المعركة بين الطرفين بضع ساعات هرب مراد بك متقهقراً وتبعه من معه من المماليك ووقف بضع ثوان امام قصره في الجيزه حيث تمكن من اخذ امواله وذخائره وكنوزه وهرب الى الوجه القبلي مسرعاً بدون انتظام . لانه علم أن المماليك الذين تركهم في

وجه الفرنساويين في اعقابه قد وقعوا في مذبحة عظيمة وكثيراً منهم اغرقهم الفرنساويين في النيل ولكن اغلبهم ذبحوا كالاغنام في وسط المعركة . ولما سمع ابراهيم بك بضياع كل شيء ترك حصنه في بولاق وفر هارباً مع بكر باشا الى القاهرة .

وكان الرعب قد اخذ ماخذه في قلوب جميع سكان القاهرة وهرب من يقدر على الهروب الى الوجه القبلي وتضاعفت اجر دواب النقل التي يؤجرها القوم في حمل اموالهم وذخائرهم . وفي يوم السبت كان طيار الفارين والهاربين جارفاً جداً ولكن مع الاسف ما كاد يصل اولئك المنكودي الحظ الى بوابات المدينة الا وصادرهم العرب البدو وانقضوا عليهم انقضاض الباشق على العصفور بايعاز من ابراهيم بك الذي استدعاهم لهذا الغرض بل كانوا يسلبون الاموال والذخائر والكنوز من اصحابها ويمزقون ملابس النساء ويصيرونهن عرايا بعد مس كرامة معظمهن وكان يقع ذلك حتى لنساء الطبقات العليا من المصريين وكل من يبدو منه ادنى علامة للمعارضة أو المقاومة رجلاً كان أو امرأة ذبح ذبحا اما الذي يمكنه أن يعود ثانياً الى منزله داخل المدينة فانه يعد نفسه سعيداً بنجاته من ايدي اولئك السالبين . ويقول الجبرتي (في كل تاريخ مصر لم ير السكان ليلة اوعب واكثر هولاً وفزعاً من تلك الليلة . ومن ترتعد فرائصه لسماعه بتلك الاهوال فكم تكون احواله متى شاهدها)

دخل الفرنساويون القاهرة يوم الاثنين واتخذ بونابرت له مركزاً في القصر الذي كان بناه حديثاً احد الامراء في الازبكية . واشتغل بونابرت في هذا المركز بتأسيس ديوان لحكومة القاهرة مثل الديوان الذي اسسه في الاسكندريه . وعين الجنرال ديبوي رئيس الديوان بصفة محافظ للقاهرة . وعين الجنرال بوسلين مديراً عاماً للمالية المصرية . وكان رجال ذلك الديوان مؤلفين من اثنين من كبار المشايخ من سلالة عربية مصرية وثلاث مماليك انتخبهم هذان الشيخان واثنين افرنج من مستوطني الديار المصرية قديماً . وكانت اول اوامر بونابرت لهذا الديوان فرض تحصيل ......ه خمسماية الف ريال من الاهالي لسد حاجيات الجيش الفرنساوي — وقد سمح لرجال جيشه بنهب منازل المماليك اما جميع المصريين الذين كانوا يخافون أن يسلبو كالمماليك كانوا يتحصلون على بارآت الحماية من بونابرت ويعلقونها على ابواب منازلهم فلا تمسها ايدي السالبين . اما الامن العام فكان عظيم جداً بدرجة لم تشاهدها مصر من اجيال مضت . وفرض بونابرت غرامات وعقابات صارمة على الاهالي الذين لا يكنسون ويرشون الشوارع ويضيئون القناديل على ابواب منازلهم . ورفع كل البوابات الخشبية الكبيرة التي كانت مستعملة من مدة جيل أو اثنين لتغلق على كل شارع أو حارة فتجعله مستقلا عن باقي شوارع المدينة — وهو حذر عظيم من الاهالي وقت حكم المماليك — وقصد بونابرت من رفع هذه البوابات هو أن ينفذ الشوارع على

بعضها فيتمكن بذلك رجال الطوافه من الحامية الفرنساوية من اختراق كل الشوارع ليلا حفظاً للامن وتعين المسيو م. سامويل برنارد ناظراً للضربخانة المصرية واستمر صك النقود على الطريقة القديمة العاديه وعليها طغرآء السلطان العثماني الحاكم .

وبعدئذ ارسل بونابرت القوة اللازمة من جيشه للبحث على ابرهيم بك الذى هرب من امامه بمن معه من المماليك الى الوجه البحري . فاشتبكت القوتان في معركة هائلة كان النصر فيها حليف الطرفين وان كان كل منهما يطلب النصر لنفسه واخيراً فر ابرهيم بك في اغسطس الى سوريا والتجأ الى الجزار في عكا

واتفق انه في اول اغسطس رجع الاميرال نلسون الى الشواطىء المصرية مقتفياً اثر الفرنساويين — والقت بوارجه الحربية مراسيها بالقرب من خليج ابو قير — حيث كان راسيا الاسطول الفرنساوي

وفي غروب شمس ذلك اليوم ابتدأت معركة ابو قير البحرية الشهيرة وظلت حتى ظهر اليوم الثاني من اغسطس الى ان انتصر نلسون على الفرنساويين بعد ان حطم كل بوارجهم الحربية ولم يبق منها الا اربعة اصبحت اسيرة للاسطول الانكليزي

ووقع خبر انهزام الاسطول الفرنساوي وتحطيمه كالصاعقة على كل فرنساوي في مصر . وبذل بونابرت جهده ليخفف من اهمية الامر على عقول الاهالي ولما علم بان احد السوريين الذي تجرأ على قول الحقيقة عن

الاسطول عاقبه عقاباً صارماً — ولكن شعر المسلمون وعلموا رويداً رويداً بحقيقة الامر وقبل مضي شهرين على ذلك اقاموا ثورة هائلة في القاهرة . وفي الواقع ان فضائل الفرنساويين كانت ضد اميال المصريين بقدر ما كانت رذائلهم . ولذا اجتهد المصريون باغرأ وتحريض كل طبقات الامة في جميع انحاء القطر ضد الفرنساويين — اما المماليك فكانوا طبعا اعداءهم الالداء — كذا العرب والمسلمون المصريون استقبحوا امر اسلام الفرنساويين الكاذب — وتذمروا جداً من النواهي والمحذورات البيروقراطية المقضية التى لا يمكن لفرنساوي ان يحكم بخلافها — وسخطوا على الاوامر والتعليمات الصحية التي قضت بتفتيش المنازل الخصوصية حتى اماكن الحريم — وزادهم سخطا وحنقا امر الترخيص للجنود الفرنساوية بهتك اعراض النساء الوطنيات (١)

اما الاقباط فلم يستقبحوا فقط اعتراف الفرنساويين الكاذب بالاسلام بل ايضاً لم يفشوا ضمائرهم باعتقادهم امكان بقاء امة عظيمة كالامة الفرنساوية بلا ديانه بالمرة كما كانت هذه حالة الفرنساويين تلك الايام . وكان الاقباط يلقبون الفاتحين بالقوة الكاثوليكية

---

(١) لم يدهش المصري اعجاباً في وقتنا الحاضر اكثر من كيفية سلوك جنودنا الاحتلالية في هذا الامر — وهو تقريباً الامر الوحيد الذي لاجله جميع سكان القطر المصري يمدحون الانكليز حتى انهم يقولون (انهم حتى لا يثقون بالعسكري المسلم المستقيم ثقتهم بالعسكري الانكليزي)

الرومانية وهي القوة التي كانت تجتهد دائما بضياع بلادهم ووطنيتهم.
اما سبب الثورة التي قامت ضد الفرنساويين في ٢٢ اكتوبر سنة ١٧٩٨ فكان الداعي فرض جزية على المنازل بالقاهرة بامر نابوليون . ذلك أن مشايخ وعلماء الازهر كلفوا تلاميذهم بدعوة جميع المسلمين الى الجامع الازهر — فلما اجتمعوا كلهم وخطب العلماء في وسطهم خطب التحريض هبوا جميعا في ثورة عامة وكان اول هجومهم على منزل الجنرال كفارلي — ثم اقاموا المتاريس والحواجز في الشوارع وصار يقبضون على كل الفرنساويين المارين في الشوارع ومن ضمنهم اربعة من اعضاء المجلس العلمي الفرنساوي وحكومة بونابرت وذبحوهم جميعا عن اخرهم وبالمثل ذبحوا كثيراً من الاقباط — بهذه الطريقة — ولكن اولئك المسلمون الجهلاء الاوباش ما امكنهم التحفظ على الروابي والمتاريس الحربية التي ملأت المدينة من الشمال والشرق فانهم في اليوم الثاني صاروا يتفضون تحت المدافع الفرنساوية وصدرت الاوامر للمشايخ يطلبون منهم ارشاد الثائرين للخضوع فقابل اولئك الثائرين تلك الاوامر بالاحتقار فصدرت اوامر بونابرت بالابتداء في اطلاق القنابل

وبعد اطلاق القنابل بشدة بضع ساعات خصوصا على الجامع الازهر واحياء سيدنا الحسين تنازل عناد الشيوخ وسلموا . فدخل الفرنساويين المدينة وهدموا المعاقل والحصون والمتاريس واحتلوا الجامع الازهر وادخلوا فيه خيولهم وجعلوه كالاصطبل بل كسروا القناديل

ومحوا الايات القرآنية المنقوشة على جدران الجامع وقبضوا على كثيرين من العوام والخواص وقطعوا رؤوس كثيرين من الطبقات الوسطى وكتب بونابرت نفسه في خطاب خصوصي للجنرال رينيه انه في تلك الظروف كان كل ليلة يقطع ثلاثين راساً من اجسامها ارهابا لباقي الثائرين

وكان الجنرال ديسيه قد قام بامر بونابرت في فرقة من الجيش مقتفياً اثر مراد بك في النيل حيث كان مقيما عند الفيوم يجدد قوته الحربية فوقعت بينهما اول معركة في ٨ اكتوبر عند جهة يقال لها سدمنت الجبل بقرب مدينة بني سويف انتهت بانهزام مراد بك انهزاماً تاماً وخسر الفرنساويين ٤٠٠ قتيل وجريح . واحتل الجنرال ديسيه اقليم الفيوم وترك فيه حامية من رجاله وكر وراء مراد بك مقتفيا اثره في صعيد النيل الى أن عثر به ووقعت بينهما معركة شديدة في ٢٣ يناير سنة ١٧٩٩ هزم فيها ايضاً مراد شر هزيمة وفر هارباً ووراه الفرنساويون يطاردونه الى أن احتلوا حدود مدينة اصوان فاستمر مراد في هروبه الى أن دخل بلاد النوبة فاكتفى الفرنساويون بمطاردته لهذه النقطة ولم يتوغلوا وراءه في النوبة ولو انهم احتلوا جزيرة انس الوجود وحصنوا اصوان وعند عودتهم الى القاهرة قابلهم احد البكوات المماليك الهائمين في عرض البلاد مع كثير من من اتباعه ووقعت بين الطرفين عدة مناوشات عنيفة في مدينة طيبة (الاقصر)

وفي اثناء ذلك كان الفرنساويون مطمئنين بالمرة على ثبات مركزهم بمصر الا أن الانكليز سدوا عليهم الطريق باحتلالهم جميع الشواطي المصرية فمنعوا بذلك اي مدد يأتيهم من بلادهم وعلاوة على ذلك فان الاتراك كان يستعدون لاعادة مصر لقبضتهم بواسطة الزحف عليها من طريق سوريا فعزم بونابرت مبدئياً أن يكون بجانبهم

وحوالي اخر يناير سنة ١٧٩٩ غادر بونابرت الديار المصرية عن طريق العريش ومعه ١٥ الف جندي ولما سار الى العريش ضرب اهلها فسلموا له بعد مقاومة بضع ايام واعاد حامية المماليك الذين كانوا فيها الى القاهرة ووصلوا تلك العاصمة اسرى وتفرج عليهم كل اهلها . ثم ظل نابوليون سائراً في طريقه الى يافا فهجم عليها وامتلكها في ٥ مارس سنة ١٧٩٩ فاختبأ من حاميتها ٤٠٠٠ محارب في خان بها ثم عرضوا تسليم انفسهم اليه على شرط حفظ حياتهم والا يستمروا في المحاربة دفاعاً عن انفسهم حتى يموتوا في ساحة الوغى — فقبل الفرنساويون هذا الشرط وقدموا الاربعة الاف رجل اسرى الى بونابرت فرفض امضاء هذا الشرط الذي قبل به اركان حربه مع تفهيمهم له أنهم قبلوا ذلك الشرط تجنباً من اجراء مذبحة بلا فايدة وبعد يومين امر بونابرت بذبح الاسرى المذكورين فذبح رجاله الاربعة الاف اسيراً ذبح الانعام فكانت مجزرة هائلة تقشعر منها الابدان على شاطيء البحر . وكان هذا العمل الفظيع مشوهاً لتاريخ بونابرت بين جميع الشعوب

وقد هدم بونابرت بعمله هذا الفظيع كل اساطير نجاحه في سوريا لان كل مسلم في بلاد سوريا سمع بحادثة يافا هذه صار يفضل أن يحارب مستقتلاً ويموت في ساحة الحرب عن أن يسلم نفسه للفرنساويين وعلاوة على ذلك فان الاربعة آلاف جثة التي تركها بونابرت على شاطيء البحر بدون دفن قد انتنت وافسدت الهواء فسببت انتشار الطاعون انتشاراً هائلا اكتسح عدد عظيم من رجال الجيش الفرنساوي .

وسار بونابرت الى عكة قاصداً فتحها بمن سلم من رجال جيشه من الطاعون — ولكن صار في شدة الاندهاش لما وصلها ورأى في مياهها اسطولا انكليزيا مستعداً للدفاع عنها . فابتدأ في محاصرتها يوم ١٨ مارس سنة ١٧٩٩ ولكن ذهبت كل تدبيراته في اخذها ادراج الرياح لان السير سدني سميث ومن معه من الضباط الانكليز بذلوا كل جهدهم في الدفاع عن المدينة . ثم تقدم الجنرال سدني سميث قائداً بنفسه الجيوش الانكليزية واشتبك مع الفرنساويين وبعد نزال قليل خلص المدينة من ايديهم بعد أن استمروا في محاصرتها مدة شهر تقريباً وقد هجم الفرنساويون فجأة عليها في اليومين الاخرين من الحصار فخسروا مالا يقل عن ٧٠٠ رجل . فايقن بونابرت بذلك أن حملته على سوريه عادت بالفشل وصمم على العودة الى مصر — فارسل جواباً الى ديوان القاهرة الذي اسسه اعلن به انه لم يترك حجراً على حجر — لكن رجال القاهرة كانوا على علم تام باحوال بونابرت وما جرى له حتى أن مؤرخهم المشهور عبد الرحمن الجبرتي

ضحك كثيراً على جواب بونابرت وعدد ستة عشر سبباً كان يمكن لبونابرت أن ينتحلها عذراً لتقهقره من عكا لو كان توخى قول الحق في جوابه للمصريين

تقهقر الجيش الفرنساوي بانتظام الى يافا لكنه صادف في طريقه صعوبات هائلة — لان يافا كانت ملآنة بالطاعون وزاد عدد المرضى والجرحى حتى اصبح من المستحيل على بونابرت ايجاد وسائط لنقلهم معه — واخيراً فرز عدداً عظيماً من الغير القادرين على المشي منهم وشحنهم في قوارب وامرهم بالسفر الى دمياط بحراً — وسار هو ومن معه براً الى العريش ولكن اولئك الذين تركهم في البحر لما لم يكن عندهم من الماء والمؤونة ما يكفيهم ولعدم وجود البحارة القادرين على تسيير القوارب بحراً اضطرهم اليأس أن يتجهوا نحو بواخر الاسطول الانكليزي الذي كان راجعاً ايضاً من عكا الى مصر مقتفياً اثر بونابرت . فاستقبل السير سدني سميث هولاء البؤساء بكل رقة وحنو وانزلهم في بواخره الحربية على الرحب والسعة وامدهم بكل ما كانوا في حاجة اليه وارسلهم بالحرس اللازم الى دمياط

اما المرضى الذين تركهم بونابرت في يافا فقد امتلات بهم المستشفيات وقد كتبت عليهم التعاسة والشقاء . ذلك انه لما اقترب الترك بجيوشهم كانوا ولا يزالون غير قادرين على المسير فلاضطرار نابوليون الى التقدم السريع الى مصر امر رئيس اطباء الجيش ان يسم كل الجرحى ليموتو

او يخلص منهم ويفر مسرعاً الى مصر فابى الحكيمباشي تنفيذ هذا الامر بالكلية والى الآن لم يثبت لنا التاريخ ان كان مساعد الحكيمباشي نفذ امر بونابرت وسم الجرحى الفرنساويين أو ان الاتراك ذبحوهم عن اخرهم ثاني يوم وصولهم الى يافا

وفي ١٤ يونيو دخل بونابرت القاهرة دخول الفاتح القاهر وعمل لنفسه موكباً عظيماً — بالموسيقى والاعلام — وذكر الجبرتي في تاريخه ان الجنود الفرنساويين كانوا جميعاً في غاية التعب والخوار ووجوههم يعلوها الاصفرار وهو ما تؤيده القرائن كلها

ولما دخل بونابرت القاهرة كان مراد بك قادماً اليها من الصعيد ايضاً بعد أن الف جيشاً عظيماً وقسمه الى قسمين احدهما على شاطيء النيل الشرقي والاخر على الشاطيء الغربي . بينما كانت قوات انكلترا والدولة العلية قادمة بحراً للهجوم على الفرنساويين في مصر . فأسرع بونابرت واشتبك في معركة كبرى مع المماليك وانتصر عليهم . وقد كان مراد بك عازماً على ضم جيشه الذي على شاطيء النيل الشرقي الى جيش ابراهيم بك في سوريا — فجاء انتصار نابوليون ضربة قاضية ووقع في يد الفرنساويين ٧٠٠ جمل محملة بالذخائر وكنوز المماليك الذين تفرقوا بعد هذه المعركة شذر مذر في كل جهة من البلاد .

اما القسم الثاني من جيش مراد بك الذى كان يقوده بنفسه على الشاطيء الغربي من النيل قاصداً الوصول به الى شاطيء البحر عند الاسكندرية ولكنه

لما عرف أن قوة عظيمة من الفرنساويين كامنة له في الطريق عدل عن عزمه وعاد بجيشه الى الجيزة حيث هجم عليه نابوليون نفسه بقوة من رجاله وهزمه شر هزيمة فاضطر ان يفر هاربا ثاني مرة الى الصعيد .

وفي ١٥ يوليو سنة ١٧٩٩ سمع نابوليون باقتراب الاسطول العثماني من ابو تير فقام في الحال بجيشه لملاقاته ووصل الاسكندرية في ٢٣ منه فوجد الجيش العثماني قد نزل من المراكب الى البر . وكان السير سدني سميث مرافقاً للعثمانيين باسطوله وقد نصحهم بكل انواع النصح أن يحصنوا مركزهم جيداً ضد الجيش الفرنساوي القادم بسرعة من القاهرة فلم يسمعوا نصحه فاضطر الى ارسال بعضا من جنوده ليعززوا هذا التحصين ويكونوا مثالا للجنود العثمانية فلم يات ذلك بفائدة ولم يمكنه بهذا الصنيع أن يتغلب على جمود وفتور همة العثمانيين . فلما وصل الفرنساويون بدأ الاتراك بالاهتمام لتحصين موقفهم ولكن قد سبق السيف العزل واشتبك الفرنساويون معهم حالا في معركة هائلة كان النصر فيها حليف نابوليون حيث هزم العثمانيين شر هزيمة واستولى على معداتهم وزخائرهم ومدافعهم وهرب كثير من الاتراك عوماً في البحر ولجأوا الى المدرعات البريطانية . اما الترك الذين كانوا داخل طابية الاسكندرية فرفضوا التسليم للفرنساويين وصرفوا وقتهم في الدفاع وبعد محاربة سبعة ايام باطلاقه المدافع خرجت الحامية من الطابية بلا سلاح وسلمت للفرنساويين وطلبت منهم الرحمة . فاسر نابوليون الفين

منها وأسكرته خمرة هذا النصر ولكنه مع الاسف لم يدم طويلاً حيث لحقه الخذلان في اليوم نفسه كما نرى .

ذلك ان نابوليون كان قد سمع اخباراً غير حميدة عن الجمهورية الفرنساوية في نشأتها الحديثة واراد الوقوف على اخبار اكيدة يعلم منها الحقيقة ويطمئن بها على بلاده . وقد قال المسيو ريم المؤرخ ان نابوليون اتفق مع السير سدني سميث على مبادلة الاسرى . وهذه هي عبارة هذا المؤرخ الفرنساوي القلة على سوء تصرف نابوليون وتسرعه في الحكم على الامور قبل فحصها قال :

« لم يكتف السير سدني سميث الانكليزي بقبول طلب نابوليون فقط بمبادلة الاسرى بل اكرم مثوى الضباط الفرنساويين الذين اتوا له حاملين اقتراح مولاهم نابوليون وعاملهم بكل رقة وعطف وعرض عليهم ان يأخذوا كل الجرائد والمراسلات المتأخرة التي صادرها اثناء ورودها للقائد العظيم بونابرت من فرنسا لانه قال لهم انه واثق ان لا الضباط ولا خواص الفرنساويين في الجيش الفرنساوي يحزنون أو يستأون باستلامهم انباء واخبار وطنهم الذين مضى عليهم زمنا طويلا وهم متغربون عنه . قال المسيو ريم امكننا في مثل هذه الظروف ان نقول بان بونابرت تسرع في قبول تقدمة كان يرجو أخذها ؟ أو من الضروري القول بان عدونا أخفى لنا خدعة حربية تحت طبقة شفقته وهي التظاهر بالعطف على رجالنا واظهار حسن نيته ؟ لماذا رغب الجنرال سدني سميث اذاً في ايصال

اخبار اوربا لنا لو لم يكن قد سبق له العلم بمهاجمة فرنسا المشؤومة . وهو لم يمني نفسه بالسرور الخبيث والانشراح الحقدي بحزننا وما يجب ان نشعر به من الاسف نحو حالة بلادنا فقط بل عرف ايضا علاوة على ما تقدم ان تلك الجرائد التي يقدمها لبونابرت ستهيج اعصابه وتوجد عنده رغبة شديدة نحو سرعة ايابه لاغاثة وطنه وبهذه الرغبة الفجائية يعتبر بونابرت نفسه سعيداً بمبارحة مصر حالا ولو بشروط صلح وتسليم »

« فيالها من سعادة لسيدني سميث حيث تمكن بدهائه بواسطة هذه الخدعة من اكتساب ما بذلت انكلترا كثيراً من القرابين والذبائح بلا جدوى لاكتسابه! اذ لو فرضنا وهجر بونابرت جيشه وخرج بمفرده لمقابلة سدني سميث لكان هذا الاخير أخذه اسيراً ومتى وقع بونابرت اسيراً فلا ريب ان الفرنساويين كانوا يغادرون الديار المصرية في الحال » . انتهى

والتعليق على هذه الحادثة لا حاجة اليه الآن لكن يمكن يقال بان الجنرال الانكليزي سيدني سميث لم يكن يتوقع تاويل وتفسير بشاشته ورقته البسيطة للفرنساويين بهذا النمط . اما الجنرال الفرنساوي فعمل ما كان ينتظره مواطنيه منه تماماً

وعلى اثر هذه الحادثة عزم نابوليون على ترك جيشه في مصر والرجوع الى اوربا لكي يمثل على مرسحها حركاته العسكرية واعماله المألوفة . وقد كان متالماً من كل شيء عمله في رحلته الى الشرق اولا لفشله في

سوريا ثانياً لحالة الحكومة الاصلحية التي اسسها في مصر على بطيء ولم تكن على ذوقه في النهاية . ثم عدل عن ذلك ورجع الى القاهرة ودخلها دخول الفاتح القاهر ثانية . وفي الحال تخابر سراً مع الجنرالين برتييه وبوريين والاميرال جانتيوم واطلعهم على نواياه ثم امر الاميرال برتييه المذكور أن يجهز الاربع البوارج الحربية الباقية من جميع الاسطول الفرنساوي الذي اعدمه الانكليز دون أن يشعر بذلك الاميرال الانكليزي . ثم افهم عامله الجنرال كليبر بانه متوجها الى رشيد وعين له يوم ٢٤ اغسطس لمقابلته هناك . وبينما هو يخدع الجنرال المذكور بهذه الوعود الكاذبة كتب ايضاً الى الاميرال جونتيوم بانه سيبارح الديار المصرية يوم ٢٢ اغسطس لانه قد سمع بان اخر بارجة حربية انكليزية بارحت مياه الاسكندرية يوم ١٧ منه وهذا كل ما كان بونابرت ينتظره لمبارحة مصر .

غادر نابوليون بونابرت القاهرة في ١٨ اغسطس سنة ١٧٩٩ الى الاسكندرية ومنها ابحر الى فرنسا . وذاع امره للجيش المعسكر بقرب رشيد فاستعد كليبر بجيشه لذلك الرحيل . ولكنه لما وصل الى رشيد عرف بالخدعة التي عملها معه نابوليون وبمجرد وصوله اليها وصله خطاباً من نابوليون يخبره فيه بانه عهد اليه بالقيادة العامة في مصر نيابة عنه ومنحه ايضاً سلطة ابرام الصلح مع سلطان تركيا اذا كان يرى ذلك مناسباً . اما كليبر فغضب جداً من هذا الامر الذي اتاه معه نابوليون وحنق

حنقاً عظيماً ورجع في الحال الى القاهرة واصدر اعلاناً للجيش في ٢٦ ستمبر سنة ١٧٩٩ يعلن فيه سفر نابوليون الى فرنسا بدون ما يخبر احداً بذلك وان قوة الجيش الفرنساوي صار تخفيضها الى نصفها وان اعداء الفرنساويين اصبحوا ثلاث قوات عظمى وهي تركيا وانكلترا وروسيا وليس المماليك المصريين واشار الى الحالة التي اصبح عليها الجيش الفرنساوي وخاصة من قلة وجود الكساوي . ومع أن بونابرت كان قد حصل الضرائب من الاهالي سلفاً فانه ترك نقصاً في ميزانية الجيش نحو اثني عشر مليوناً من الفرنكات .

وكان لم يزل لمراد بك قوة حربية عظيمة في الصعيد واخذت جيوش الاتراك ترد من سوريا بطريق البر علاوة على الاسطول العظيم الذي ارسلوه لدمياط . فلما راى كليبر حرج موقفه في وسط هذه الصعوبات الهائلة اعلن عزمه على مفاتحة السلطان في عقد الصلح معه

وقد هجم الجيش العثماني اول مرة على دمياط فرده الجنرال كليبر على اعقابه ولكنه عرف أن موقفه اصبح صعبا ولا رجاء له بالنجاح فابتداء بمخابرات الصلح في شهر نوفمبر اولاً على ظهر بارجة السير سدني سميث وبعد ئذ استئناف المخابرات مع الصدر الاعظم الذي كان حضر مع الجيوش التركية وعسكر بها في جهة العريش . على أن هذه المخابرات لم تنجح لان الاتراك كانوا بدؤا بالهجوم على العريش وظهر أن النصر سيكون حليفاً لهم خصوصا لتمرد جنود الفرنساويون على ضباطهم في تلك

الجهة وتمنعهم عن محاربة الاتراك

على انه رغماً عن ذلك كله قد نجحت مخابرات الصلح على نوع ما وامضيت معاهدة بذلك في العريش يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ تقضي بان يسمح الانكليز والعثمانيين للجيوش الفرنساوية باخلاء الديار المصرية مع المحافظة على شرفهم العسكري ومجدهم الحربي

ففرح المصريون بذلك فرحا عظيما وفرضوا على سكان القاهرة ضريبة تقدرها ثلاثة الآف كيس من الجنيهات دفعوها بسرعة ونشاط وابتهاج على سبيل المساعدة للفرنساويين لاجل سرعة رحيلهم من مصر

وفي اثناء ذلك وصلت رسالة الى الجنرال كليبر من الاميرال كيث القائد العام للاسطول البريطاني في البحر الابيض التوسط بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٠٠ يقول فيها انه تلقى من لندن اوامر صارمة من جلالة ملك انكلترا نفسه تقضي عليه بان لا يسمح للفرنسويين بمغادرة مصر قبل أن يسلموا سلاحهم وبوارجهم ومهماتهم الحربية التي لهم في مينا الاسكندرية .

فاضطرب كل من السير سدني سميث وكليبر لانقلاب الحالة لهذه الدرجة وكتب سميث يحتج على اذلال واهانة الجيش الفرنساوي بهذه الحالة التي لا يستحقها . اما كليبر فرفض رفضا باتا أن يخلي مصر بهذه الشروط . ولما ضغط عليه الصدر الاعظم بسرعة الانسحاب من القاهرة لان الوقت المعين لذلك بموجب معاهدة العريش قد انقضى . التزم أن

يستعد للقتال . وكان قد ضاعف قوة جيشه بانضمام الحامية الفرنساوية التي كانت في صعيد مصر اليه وفي ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ اشتبك مع الترك في معركة هائلة عند عين شمس بضواحي القاهرة دارت فيها الدائرة على الاتراك فانهزموا امام الفرنساويين شر هزيمة وفروا من وجه كليبر فتبعهم واخذ يطاردهم بشدة حتى اوصلهم الى الصالحية . غير انه في اثناء ذلك قامت ثورة اخرى ضد الفرنساويين في القاهرة — ذلك أن ناصف باشا القائد العام للجيش العثماني تظاهر بالهروب من امام الفرنساويين وتركهم يطاردون الصدر الاعظم ودار هو من خلفهم ورجع الى القاهرة فدخلها فاتحاً باسم السلطان وابتداء عمله فيها بذبح جميع الاقباط ونهب كل الاحياء المسيحية واستفحل شر التعصب الاسلامي بحالة فظيعة في جميع انحاء القاهرة حتى صار الاتراك والمسلمين يبحثون عن كل مسيحي فيذبحونه بلا شفقة ولا رحمة وكانوا يذبحون كل الرجال ويفضحون النساء ثم يجلدوهن عرايا ويقطعون روس الاطفال امامهن . ودامت هذه الحالة الفظيعة مدة يومين كاملين قبل أن يرجع الفرنساويون من مطاردة الصدر الاعظم وقبل أن تصل الى اهالي القاهرة انباء انتصارهم في هليو بوليس (عين شمس) فلما علم المسيحيون من الاقباط والسوريين بعودة الفرنساويون اخذوا يفرون من المدينة ويلتجئون اليهم بواسطة تسلق الحيطان ونحو ذلك وكان الفرنساويين قد قطعوا طرق الدخول الى القاهرة من جهة النيل . اما ناصف باشا فلما رأى بان لا قدرة له على

مقاومتهم ولا الوقوف امامهم قد اخلى القاهرة لهم ولكن المتعصبون من المسلمين قاموا عليه ومنعوه من ذلك ولما كان عددهم مؤلفاً من اكثر سكان القاهرة فلم يعد في وسعه مخالفتهم

على أن الفرنساويين احتلوا بولاق عنوة واداروا فيها السلب والذبح ومنها قصدوا القاهرة وعملوا فيها الالغام تحت ابوابها التي كانت مقفلة حتى نسفوا بعضها ودخلوا منها الى المدينة ظافرين منتصرين . ويقول الجبرتي في تاريخه أن تلك الليلة كانت اتعس وارعب الليالي التي مرت على سكان القاهرة في ذلك العصر لان الفرنساويين لم يكتفوا بالذبح والسلب والنهب بل كانوا يحملون مشاعل ملآنة بالزيت والاسبرتو ويشعلون بواسطتها كل شيء يصادفونه في طريقهم

وعلى اثر ذلك امر الجنرال كليبر باقامة زينة فاخرة في القاهرة مدة ثلاثة ايام احتفالا بدخوله اليها منتصراً على الاتراك وبمجرد دخوله امر بجمع غرامة (١) من اهالي هذه المدينة التعيسة قدرها ١٢ مليون فرنك بصفة عقاب لهم . ثم عقد محالفة مع مراد بك زعيم المماليك الذين كان جل مجيء الفرنساويين الى مصر لقصد ابادتهم من ارضها . وبموجب

---

(١) وعهد كليبر جمع هذه الغرامة الى احد اعيان الاقباط المدعو يعقوب الذي كان ثابتاً وحافظاً مركزه ضد ناصف باشا مدة ثلاثة ايام فى منزله . وقد ذكر الجبرتي في تاريخه حالة الفقر المدقع الذي وقع فيه المسلمون بسبب هذه الغرامة بكيفية تتألم منها عواطف القارئ

تلك المعاهدة تصرح لمراد بك أن يبقى متسلطاً على بلاد الصعيد على شرط أن يمد الفرنساويين بكل مساعدة تلزم لهم ضد الاتراك

بقي الفرنساويون وجيوشهم متروكين في الديار المصرية بعد رحيل بونابرت عنها تحت قيادة قائد واحد بات في حرج وزاد موقفهم صعوبة في ظرف آخر ثم ساءت احوال ذلك القائد واصبحت ظروفه خطرة محفوفة بالهلاك وقد دخلت فعلا في دور الهلاك الحقيقي واليك البيان

في يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ كان الجنرال كليبر يتمشى بعد الانتهاء من مائدة الفطور في حديقة الجنرال داماس فانقض عليه فجأة احد المسلمين المتعصبين في لباس الانكشارية وقتله فآلت القيادة العامة بعد ذلك للجنرال مينو الذي اعتنق الاسلام كما فعل قبله كثيرون من الفرنساويين امثاله استجلاباً لرضاء المسلمين واقترن بابنة احد سكان القاهرة من الطبقة الواطية

واول شيء عمله الجنرال مينو هو انه فصل الجنرالين لامس وداماس من خدمة الجيش الفرنساوي وكانا معارضان له في اعماله ثم رفت كل المسيحيين الموظفين في ديوان القاهرة الذي انشأه بونابرت من وطنيين واجانب وسلم كل الاعمال لجماعة من المسلمين استبدوا بها كثيراً ثم جعل الاحوال الشخصية المتعلقة بالميراث والزواج ونحوه خاضعة لمنطوق الشريعة الاسلامية

وفي ٢٣ فبراير سنة ١٨٠١ لما راى الاتراك فشلهم وعجزهم التام عن

اخراج الفرنساويين من الديار المصرية — جاء بغتة اسطول انكليزي يحمل خمسة عشر الف محارب والقى مرساه في خليج ابو قير . ولكن كان عدد هؤلاء الجنود من الانكليز اقل بكثير عن عدد جنود الفرنساويين لان الذين خرجوا منهم بواسطة الانكليز بعدئذ كانوا ٢٤٠٠٠ جندياً وكان الجيش الفرنساوي قد امتاز على الجيش الانكليزي بمعرفة احوال ومواقع البلاد المصرية واعتياده على طقسها

وقد نزل الخمسة عشر الف جندي انكليزي الى البر بالرغم عن معارضة الجنرال فرايانت قائد الحامية الفرنساوية بالاسكندرية واستمدوا لمقاتلة الفرنساويين وساروا متجهين الى الاسكندرية وهناك اشتبك الفريقان في معركة هائلة دامت عدة ايام الى أن وصلت النجدة من القاهرة الى الحامية الفرنساوية ففازت هذه وخسر الانكليز ١١٠٠ رجلاً . ولكنهم بالرغم عن هذه الخسارة العظيمة ظلوا ثابتين في مراكزهم حتى اتتهم النجدة من انكلترا

وعند وصول المدد للجيش الفرنساوي من القاهرة بقيادة الجنرال مينو اشتبك هذا الاخير مع الانكليز ايضاً في معركة دموية هائلة كان الظفر فيها الى الانكليز فتقهقرت الحامية الفرنساوية الى الاسكندرية بعد خسارة ١٧٠٠ رجل

على انه قد جرح في هذه الموقعة قائد الجنود الانكليزية الجنرال السير رالف اركروبي وابت عليه شهامته التخلف عن القتال لاجل هذا

الجرح بل استمر في حومة الوغى حتى انتهت المعركة فاصابه من ذلك ضرراً كبيراً بسبب استمرار نزيف الدم من جراحه بحالة تعزر شفائها وتوفى على الاثر فحزن عليه الانكليز حزناً عظيماً . وعهدوا بالقيادة العامة على جنودهم الى الجنرال هنتشن وقد وصلته نجدة جديدة قدرها ستة الاف محارباً من الاتراك والارناؤوط وكان يرأس احد فرق الارناؤوط ضابطاً تركيا بسيطاً ساعدته الاقدار بعد ذلك وصار والياً على مصر هو المرحوم محمد علي باشا الشهير

وقد استمر القتال سجالاً بين الفرنساويين من جهة والانكليز والاتراك من جهة اخرى الى يوم ١٩ ابريل من تلك السنة وفيه سلمت حامية رشيد الفرنساوية سلاحها الى الجيش الانكليزي والتركي — وقد قطعت هذه الجيوش خط الرجعة على الجنرال مينو الفرنساوي الذي كان معسكراً في الاسكندرية بواسطة هدم الجسر الضيق الذى كان قائماً بين ابو قير وبين اراضي بحيرة مريوط القديمة (وهي الاراضي التي لا تزال مغمورة بالمياه الى الآن) فاضطر الفرنساويون على اثر ذلك الى ترك مركزهم في الرحمانية ووصلت اخبار انكسارهم مبالغاً فيها الى القاهرة فنشاء عن ذلك حصول هياج شديد اوجب الفرنساويين الى عمل منشورات الى سكانها التعساء يؤكدون لهم فيها أن الجنرال مينو سيرجع الى القاهرة قريباً مكللا بالظفر على الانكليز الذين مات منهم كثيرون بالدوسنتاريا والرمد والجوع والعطش وان كثيرون منهم فروا من

معسكرهم والتجأوا الى معسكر الفرنساويين الذين انسحبوا من دمياط بخدعة حربية ليغشوا الانجليز ويهلكوهم عن اخرهم

وفي ذلك الوقت كان الاضطهاد على الاقباط عظيماً وفي كل يوم يقتل منهم خلق كثير ولكنهم كانوا يقابلون المصائب بالصبر وكان الفناء محدقاً بهم من كل جانب فسلموا امورهم لله وعولوا على أن يقاتلوا في سبيل حفظ عرضهم ودينهم الى اخر نقطة من حياتهم . اما يعقوب احد اعيانهم الذي كان يعتبر عميدهم في ذلك الحين وهو الذي ذكرنا خبر تحصنه في منزله ثلاثة ايام ثابتاً للدفاع ضد هجمات المسلمين وقت مذبحة ناصف باشا . قد وجه كل همته في هذه الظروف الحرجة ايضاً للدفاع عن جميع اخوانه الاقباط الموجودين في القاهرة فاشتغل زمنا طويلا في تدريبهم على مقاومة أي هجوم يقع عليهم حتى يمكنهم المدافعة عن ارواحهم وممتلكاتهم ثم جند منهم فرقة عظيمة ودربهم على الحركات العسكرية وسلحهم بطريقة منظمة حسب نظام الجيش الفرنساوي نفسه وكان معظم الذين انتخبهم لهذا الغرض من اقباط الوجه القبلي وكان الجميع خاضعين لاوامر يعقوب ويقبلون تعليماته الخاصة بالدفاع عن بني جنسهم بكل فرح وابتهاج . وابتدأ يعقوب بهدم كثيراً من البيوت التي تخربت في الحوادث الاخيرة في الاحياء التي كان يقطنها الاقباط (١) وبنى

(١) هجر الاقباط حيهم بعد ذلك الحين . وهوالموجود الان بكلوت بك وكان من ضواحي القاهرة. ولم يبق من الاحياء القبطية القديمة غيراماكنهم في حارتي الروم وزويلة

من انقاض تلك الخرائب سوراً عالياً منيعاً حول الحي الذي جمع فيه كل الاقباط اخيراً وشيد فوقه الابراج القوية من داخل هذا السور وعمل للسور بوابتين عظيمين ورتب جنديين قبطيين يقفا بالتوالي على كل باب والسلاح على اكتافهما بصفة حراساً يمنعون كل غريب من الدخول ووضع لذلك نظاماً عسكرياً حسب النظام العسكري الفرنساوي كما شهد الجبرتي بذلك وقد نشأ عن هذه المساعي العظيمة والاجرآت الكبيرة التي قام بها ذلك البطل المقدام الجنرال يعقوب ان الامة القبطية قد نجت من مذبحة فظيعة تشيب من هولها الاطفال وقعت عند احتلال الاتراك للقاهرة ثانية . وقد تخرب ذلك الحي الذي استعمله يعقوب كحصن أو طابية حربية بعد تلك الايام بقليل ثم هجره الاقباط لما سمحت لهم الظروف بالخروج منه بعد اطمئنانهم على حياتهم . ويعقوب نفسه لم يعد في وسعه الاقامة في تلك الحصون بعد خروج الفرنساويين من مصر ورجوع الامر والنهي في البلاد للاتراك وحدهم فاضطر الى ترك الديار المصرية وخرج مع الجيش الفرنساوي ومعه اكثر رجال فرقته القبطية ولم يعد في وسعه الرجوع لارض اجداده خوفاً من الاستبداد فمات في فرنسا بعد مهاجرته اليها ببضع سنوات . ومن دواعي التعاسة التي توالت على مدينة القاهرة في تلك الايام انتشار الطاعون فيها بدرجة مريعة جداً مات بسببه يومئذ خمسمائة رجل من الحامية الفرنساوية وكانت وطأة الطاعون في الصعيد اكثر منها في القاهرة وافنى هذا الداء القتال خلائقاً

كثيرة وخرب بلاداً برمتها خليت من السكان بالمرة . ومن جملة الذين ذهبوا ضحية ذلك الوباء القتال مراد بك زعيم المماليك مات به في بني سويف فالتزم ابرهيم بك وكيله ان يسلم مقاليد اموره الى الجنرال هتشنسون الفرنساوي لانه كان شيخاً هرماً ولا قدرة له على المحاربة

وفي ١٠ يونيه سنة ١٨٠١ اصدر الفرنساويون منشوراً لجميع سكان القطر المصري هذه صورته

(ليكن معلوماً لدى جميع سكان هذه الديار ان القطر المصري اصبح من جملة املاك الدولة الفرنساوية . فضعوا هذا الامر نصب أعينكم وآمنوا به اتقاء لرؤوسكم كما تؤمنون بوحدانية الله . فلا تغرون ولا تغشون انفسكم بالفاتحين القادمين فانه ليس في مقدرتهم شيئاً يأتونه ضدكم ولا ضد الفرنساويين فاولئك الانكليز هم لصوص كافرين وليس في وسعهم اتيان اي عمل غير بذر بذور الشقاق والخصام بين الشعوب وبعضها والعمل على تهييج كل امة ضد الاخرى)

وفي ١٦ يونيه حاصر القاهرة الجيش المتحد من الانكليز والترك والمماليك . وبينما هو يتأهب للهجوم على القاهرة في يوم ٢٢ منه اخذ قائد الجنود الفرنساوية في فتح باب المخابرة مع قواده في امر الصلح وقد اوقفت هذه المخابرات اهوال وفظائع كثيرة كان لا بد من حصولها لو بدىء في القتال وفي ٢٦ منه انتهت المفاوضات وامضيت معاهدة بين الطرفين مفادها ان الجيش الفرنساوي يخلي مدينة القاهرة

ويبرح الديار المصرية كلها عن طريق رشيد . وما انقضى يوم ١٠ يوليو حتى اصبحت القاهرة خالية من الجيش الفرنساوي وقد حل محله الجيش الانكليزي ولما كانت الاوامر المعطاة الى الجنرال هتشنسون تقضي عليه بطرد الفرنساويين من القطر المصري بدون تعرض لمسألة ضمه الى انكلترا فلذلك قد التزم ان يسلم مدينة القاهرة الى الاتراك وسار بجيشه الى رشيد حتى يلاحظ نزول الفرنساويين منها الى البحر ويطمئن على مبارحتهم البلاد المصرية

وصل رشيد فباشر سفرية ١١ الف من العساكر الفرنساوية وثلاثة الآف من الملكيين التابعين لهم حيث انزلهم بنفسه في المراكب البحرية في تلك الميناء على أن بعض افراد الفرنساويين رغبوا البقاء من انفسهم في البلاد المصرية وتظاهروا باعتناق الدين الاسلامي حتى تطيب لهم الاقامة فراى الجنرال هتشنسن بانه لا خوف من تخلف هولاء الافراد في الديار المصرية فتركهم لشأنهم وسافر الى الاسكندرية حيث حاصر باقي الجيش الفرنساوي الذي كان لا يزال معسكراً فيها وقد كان عند هذا الجيش الوقت الكافي الذي تمكن فيه من الاستعداد لمقاتلة الانكليز ومنعهم عن محاصرتهم ولكن الجنرال مينو تكاسل عن ذلك كثيراً حتى ضايقه الانكليز والزموه بان يمضي معهم عهداً في ٢٩ اغسطس من تلك السنة يقضي باخلاء الاسكندرية ومبارحة الديار المصرية حالاً

واراد الانكليز ضبط المجموعات العلمية والرسومات والتآليف التي اتمها اعضاء اللجنة العلمية الفرنساوية في القطر المصري وهي اللجنة التي اسسها نابوليون في القاهرة عقب احتلاله لها . ولكنهم عدلوا عن ذلك اجابة لرجاء وتوسلات العلماء الفرنساويين التي قدموها بطلب اعفاء مؤلفاتهم وذخائرهم العلمية من أن تلحق بها المصادرات الحربية

ومما لا ريب فيه أن مباحث ومجهودات اللجنة العلمية الفرنساوية التي رافقت حملة نابوليون العسكرية قد اتت بفوائد عظيمة باهرة جداً هي في الحقيقة اهم بكثير من عمل الحملة الفرنساوية نفسها التي لم تستفد منها فرنسا ولا مصر الا الخسائر الجمة والمتاعب الكبيرة والتعاسة الكبرى بلا فائدة . بينما الكتاب والعلماء الذين درسوا وبحثوا ورسموا وجمعوا والفوا اثناء تلك الحملة قد قدموا للعالم خدمات جليلة ومؤلفات نافعة هي اهم واعظم ما يقرأ في تاريخ مصر . وما عدى ذلك لا يشاهد الانسان الآن من اثار احتلال الفرنساوي لمصر الذي دام من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١ غير طواحين الهوا الباقية انقاضها الى اليوم على تلال القاهرة وبعض كتابات منقوشة على الحجر ترى هنا وهناك على صخور النيل وشيء قليل من اثار قنابل المدافع ظاهرة الى الآن على جدران بعض الجوامع الكبرى في القاهرة

ولم يكن الانكليز يتوقعون خروج الفرنساويين من مصر بهذه السهولة ولذلك كانوا مستعدين لهم بقوة عسكرية كبرى من الجيوش

الهندية تبلغ ٦٠٠٠ هندياً بقيادة الجنرال برد علاوة على الجيش الانكليزي نفسه الذي كان على اهبة السفر الى مصر عند اول اشارة

اما الجنرال برد المذكور فقد جاء الى حدود مصر بالجيش الهندي بطريق البحر الاحمر ونزل في ميناء القصير وسار براً من القصير الى قنا ومن قنا سار محاذياً للنيل الى الوجه البحري وكان سكان الوجه القبلي يهللون به اثناء مروره عليهم غير انه وصل الى القاهرة متأخراً حيث تصادف وصولها اليها حال انسحاب الجيش الفرنساوي منها فاضطر هذا الجيش الهندي أن يعسكر بجزيرة الروضة عدة اسابيع ثم سافر بعد ذلك بحراً عن طريق رشيد

وقد صادف الاقباط الشدائد والاهوال اثناء الاحتلال الفرنساوي بما لا يمكن التعبير عنه . فان الفرنساويين بالرغم عن اعتناق كثيرين منهم الديانة الاسلامية قد استخدموا كثيراً من الاقباط في مصالح البلاد العالية وساووا بينهم وبين المسلمين في كل شيء الامر الذي اوجد الحقد والغيظ والكراهة الشديدة عند المسلمين ضد الاقباط (حتى أن الجبرتي وهو في مقام المؤرخ لم يتمالك عن اظهار حقده وسخطه كما تراه مسطراً في تاريخه ولا سيما حينما يرى الاقباط يركبون الخيل ويحملون السلاح مثل المسلمين) ومن الغريب أن الاقباط كانوا دائماً اول المضطهدين سواء وقت الاضطرابات والثورات التي حصلت في بدء الاحتلال الفرنساوي أو في الثورات التي قامت ضد الفرنساويين عند احتلالهم للبلاد أو في

وقت خروجهم منها . وعند مبارحتهم مصر عمّ السلب والنهب والقتل فيهم بدرجة لا تطاق حتى أن مساكنهم كلها تقريباً عمها الدمار والخراب والذين سلموا منهم من الموت بعد خروج الفرنساويين بنوا لهم منازلا جديدة وكنيسة جديدة بدل الذي تخرب لهم

وكان البطريرك القبطي على عهد الحملة الفرنساوية الانبا مرقس الثامن وهو من اهالي طموه بمديرية الجيزة وكان قد انتظم في سلك الرهبنة بدير انبا انطونيوس وانتخب بطريركا بالقرعة الهيكلية وبارتقاءه للعرش البطريركي غير الاساقفة اسمه الاصلي من يوحنا الى مرقس حسب عادة الكنيسة القبطية . ونأتي هنا بفلذة من اعماله نقلا عن المصادر القبطية الاصلية . فقد ذكر المستر بتلر المؤرخ الانكليزي أن الشعب القبطي في ايامه قاسى من الضيقات والاحزان والبلايا والنوائب والنكبات والمصائب والشدائد مالا يحصى وحصل كل ذلك بنوع خصوصي في السنتين اللتين عقبتا ارتقائه الى الكرسي البطريركي ووجد مذكوراً في تاريخه العبارة الاتية « أن خلقاً كثيرون من بلاد الافرنج يقال لهم الفرنساويون اتوا وامتلكوا مصر فقام ضدهم سكان القاهرة فكانت الحروب سجالا بين الطرفين مدة ثلاثة ايام فالتزم البطريرك بتغيير محل اقامته من حارة الروم الى الازبكية . ثم أتي وزير من بلاد تركيا مصحوباً بجماعة من الشعب الانكليزي وطردوا الفرنساويين من مصر. وتألم الشعب القبطي كثيراً على يد الفرنساويين فتخرب كثير من الاحياء القبطية واصبحت

خالية خاوية كالصحراء وهدمت وخربت كنائس عديدة وقاسى البطريرك
ذاته مصائب عديدة وهي التي الجأته لتغيير اقامته من حارة الروم الى
الازبكية حيث بنى بطركخانة عظيمة وكنيسة كبرى دعاها كنيسة ماري
مرقس الانجيلي وهو اول بطريرك سكن الازبكية وكان دائماً مشغولاً
ومهتماً في بنا وترميم الكنائس والاديرة التي تخربت وكان دائماً متيقظاً
وساهراً على الوعظ والتبشير بين شعبه ويبذل اقصى جهده في تعليمهم
اللاهوت وطريق الصلاح ليلا ونهاراً وقد رسم عدداً عظيما من الاساقفة
ولما تنيح مطران الحبشة ووصله وفد مؤلف من اعيان ورهبان وكهنة
تلك البلاد حاملا اليه جواب من امبراطور الحبشة يرجوه فيه تعين
مطران جديد لتلك البلاد اجاب طلبهم ورسم لهم مطراناً جديداً باحتفال
عظيم وأرسله مع الوفد الى الحبشه مزوداً بالدعوات والبركات وكثيراً
من الكتب والمواعظ المشتمل اغلبها على مبادىء العقيدة الارثوذكسيه
الصحيحه لانه سمع بهرطقه كثير من الاحباش » انتهى

اما بطريرك الاسكندريه اليوناني الذي كان معاصراً للاحتلال
الفرنساوي فهو بارتنيوس من اهالي بلدة باتموس من اعمال اليونان
وغالباً انه هرب من الديار المصريه اثناء ذلك الاحتلال حيث لم يعثر له
على اي عمل في التاريخ يثبت وجوده فيها في ذلك الحين .

اما نائب بابا روميه وقتئذ فكان الاب متى . ومما يحسن ذكره هنا أن
حالة الكاثوليك واليونان لم تكن يومئذ باحسن من حالة الاقباط الاصليين

الفصل الثاني والسبعون

محمد علي باشا

سنة ١٨٠٢ مسيحية و١٥١٨ للشهداء و١٢١٧ للهجرة

بعد انسحاب الفرنساويين استلم يوسف باشا الصدر الاعظم زمام
الاحكام في القاهرة باسم جلالة السلطان بمساعدة الجنرال هتشنسون
وكان حسين قبطان باشا اميرال الاسطول العثماني لا يزال في ابي قير
والاسكندرية .

ولم يترك الاتراك فرصه اعادة امتلاكهم للبلاد المصرية بدون القيام
فيها كعادتهم بتقديم مذبحة دموية علامة امتلاكهم أو رجوعهم الى
التسلط على كل قطر قبل رحيل الانكليز من مصر حصلت مذبحتين
احداهما في الاسكندرية واخرى في الجيزة وهاتان المذبحتان قللتا عدد
المماليك البكوات . ذلك أن يوسف باشا دبر لهم مكيدة مع زميله حسين
قبطان باشا فاتفق الاول أن يهجم عليهم في الجيزة ويقتلهم واتفق الثاني
على أن يدعو الاخرين في وليمة بابي قير باسم الجنرال هتشنسون الانكليزي
لانه لو كانت الدعوى من غير الجنرال المذكور لما اجيبت . وقال قبطان
باشا في دعوته ان غرضه من الاجتماع بهم في معسكره المفاوضه معهم فيما
يجب اتخاذه من الوسائل لاصلاح حالة البلاد فاجابوا دعوته وهم في ريبة

من مقاصده على انهم لم يكونوا يستطيعون رفض الدعوه خشية من ارتياب العثمانيين والانكليز في مقاصدهم . فلما وصلوا ابا قير رحب بهم حسين قبطان باشا ودعاهم الى النزول معه في قاربه الخصوصي ليسيروا معاً الى الجنرال هتشنسون الانكليزي بحجة المفاوضه معه على ظهر دراعته في بعض الشؤون فركبوا حتى صاروا على مسافة من البرجأ قارب صغير من جهة الدوارع وقال من فيه انه لديهم تحرير باسم قبطان باشا من جلالة السلطان ومخابرات اخرى مهمه وكان ذلك حيلة دبرها الباشا الذي ركب حالا ذلك القارب الصغير وسار به وبقي المماليك وحدهم فارتعبوا واذا بمدافع العثمانيين تنصب عليهم فعرفوا المكيدة ثم ابتدأ ملاحون القارب بالذبح فيهم . فالتزموا أن يلتجئوا بالانكليز لوثوقهم بهم اكثر من الاتراك الذين نكصوا بعهدهم وقد ذبح منهم الاتراك سبعة والباقين اصيبوا بجراح كبيرة والقوا بانفسهم في البحر وعاموا حتى وصلوا الى المراكب الانكليزية لان البر كان بعيداً . ويقول الجبرتي ان الانكليز اغتاظوا وحنقوا جداً على هذا الصنيع فدخلوا الاسكندرية وطردوا كل الاتراك منها ثم قفلوا كل بواباتها واشغلوا حصونها برجالهم ودعوا الاتراك للخروج لمحاربتهم فكان جواب الاتراك انه لم يسبق لهم مخاصمة مع الانكليز فلا يريدون محاربتهم وظلوا ساكنين في خيامهم . وقال الجبرتي ايضاً مثبتاً باندهاش واعجاب ان الانكليز ليس فقط اعتنوا بالبكوات المجروحين ومنهم عثمان بك البرديسي بل ايضاً دفنوا المذبوحين باحتفال

عسكري واحترام عظيم كانهم من عظماء الانكليز

اما المكيدة التي عملها يوسف باشا بمماليك القاهرة فانه ارسل فرقة تهاجمهم في الجيزة فوثب عليهم جنود الاتراك وقتلوا منهم عدداً كثيراً وحرقوا بيوتهم فالتجأ كبارهم الى الانكليز فحموهم رغماً عن اصرار يوسف باشا على طلبهم . وقد ادهش المصريون واعجبهم كثرة اعتدال الانكليز وحسن صنيعهم وخلوص نيتهم . وقد قال الجبرتي مستفهماً لماذا يتركون البلاد للسلطان بعد وقوعها في قبضة ايديهم يأخذوها لانفسهم حالاً . واثبت الجبرتي ايضاً نتيجة مباحثه دارت بين المسلمين في هذا الموضوع فقال : انهم انتهوا في بحثهم على ان الله سبحانه وتعالى اكراماً للدين الاسلامي قد غطى على بصيرة الانكليز واعماهم عن النظر الى صالحهم الخصوصي حتى اهملوا انتهاز تلك الفرصة السانحة .

وقد وقع المسيحيون وعلى الخصوص الاقباط في آلام مرعبة هائلة من جرأ تعصب الاتراك وذلك ان الجنود التركيه ابتدأت ان تتسلط عليهم فتفرقت في احيائهم وصارت تنهب وتسلب وتفتك فيهم كل آونة واخرى .

وقتل يوسف باشا ثلاثة من اكابر الاقباط بحجة انهم كانوا يساعدون الفرنساويين على الاتراك واخذت كل اموالهم وممتلكاتهم وبعد ذلك بقليل امر ايضاً بقطع رأس المعلم ملطي القبطي الذي كان رئيساً لديوان الحقانية ايام الفرنسيس فالتزم كل من يقدر على الفرار منهم ان يهرب من

القاهرة ويختفي من وجه الاتراك . وبعد ذلك أيضا اخذ الاتراك
شيئاً فشيئاً يطلبون مبالغ طائلة من هذه الطائفة النصف مائة بصفة غرامه
أو فدية عن انفسهم وبعد مبارحة الانكليز للمياه المصريه اصبحت احوال
البلاد رديئة جداً وتاريخ الجبرتي ملآن وجه بعد وجه بتفصيل اهوال
مظالم واستبداد الاتراك وقبائح وكبائر وفواحش جنودهم التي ارتكبوها
ضد الاقباط خصوصا والمسيحيين عموما بدون رادع ولا قصاص .

وبعد انسحاب الجنود الانكليزية بسبعة اسابيع بقت البلاد تتنازع
في يد العثمانيين فرأى يوسف باشا الصدر الاعظم الذي كان في القاهرة
ضرورة تولية والي عثماني على مصر فعين كخيا حسين قبطان باشا وهو شاب
من مماليكه المقيمين بالقاهرة اسمه خسرو اناضولي الاصل ولما كبر
تحرر وارتقاه حتى صار باشا ثم كتب الصدر الاعظم للسلطان يطلب
التصديق على تعينه فجاء الفرمان المؤذن بذلك .

وتولى خسرو باشا على مصر في ١٢ جماد اول سنة ١٢١٦ هـ ولم يكن
للباب العالي سلطة في مصر الى على اسكندرية والقاهرة وكانت باقي البلاد
في يد من بقي من المماليك فناهضهم خسرو باشا فلم ينجح ولم يكن ليستطيع
دفع مرتبات الجنود فثاروا في ٢ مايو سنة ١٨٠٣ م واحاطوا بخازنداره
وحبسوه في بيته فاطلق عليهم خسرو باشا المدافع فتداخل طاهر باشا
اركان حربه فاتهمه خسر باشا باتحاده مع العصاه فاغتاظ طاهر وانضم الى
جانب العصاة حقيقة وهدم الاسوار فخاف خسرو باشا وهرب بحاشيته

نحو المنصورة وجمع طاهر باشا القضاة وارباب الديوان فاقروه على مصر
بدل خسرو باشا موقتا حتى يصادق السلطان .

وفي ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ م لاقى طاهر من الجيش ما لاقاه خسرو
وذلك ان اثنين من الاغوات في الجيش وهما موسى واسماعيل تشكيا اليه
من تاخير الرواتب فجردا سيفهما وقطعا راسه والقياه من الشباك
وحرقوا سرايته . فاصبحت مصر بغير والي .

وفي هذه الفرصة امكن لذلك الرجل العظيم المغفور له محمد علي باشا
رأس العائلة الخديوية اظهار ما اختص به من البسالة والاقدام وما جمله
الله فيه من الفضائل التي قدر له أن يبثها في هذا القطر السعيد

ولد هذا الرجل العظيم في مدينة قوله من اعمال مكدونيه غربي
الروملي . ومن الحقائق المدهشة عن هذا الرجل هي انه ولد من اصل حر
أي ليس من الرقيق كاصل المماليك الا انه اصبح الحاكم الاعظم في بلاد
لم يحكمها الا الرقيق والمماليك من عدة اجيال . وقد اشتهر هذا الرجل نفسه
بمهارته في الحروب بفرقته الالبانيه التي كان جندوها ايضاً كلهم من اصل
مكدوني مثله وكانوا يحبونه جداً ويتعبدون له طول حياته . وقد لاحظ
بفكره الثاقب أن طريق العظمة والسلطان مفتوحان تحت قدميه فابتدأ
سيره في ذلك الطريق باتحاده مع المماليك الباقين في مصر وكانوا انفسهم
اقل كرهاً في نظر المصريين من الاتراك . فتمكن محمد علي بمساعدة
المماليك أن يأخذ مدينة دمياط وقبض على خسرو باشا اسيراً في ١٤ ربيع

اول سنة ١٢١٨ هـ وأتى به الى القاهرة وسجنه في القلعة . فلما بلغ الباب العالي ذلك ارسل والياً جديداً وهو علي باشا الجزايرلي (الطرابلسي) ولكن في سنة ١٨٠٤ هجم عليه المماليك وذبحوه اثناء عودته الى سوريا .

وفي خلال ذلك عاد رئيس المماليك محمد بك الالفي من انكلترا وكان سافر اليها يطلب مساعدة دولتها وترأس المماليك واصبح ذا حزب قوى ضد محمد علي لان الالفي كان يطمح في ولاية البلاد . فالتزم القائد محمد علي أن يهاجمه فجأة قبل أن يتمكن هذا الخصم من تدابير مكيدة خطره ضده فالتزم الالفي بالهروب الى الصعيد والتجأ بالبدو .

وفي هذه الفرصة طلب قنصل انكلترا مقابلة ابراهيم بك احد المماليك وعثمان بك البرديسي زعيمهم الثاني وقال لهما انه لا يود البقاء بعد الان في هذه البلاد التي يحكمها رجال لا يعرفون يتصرفون بشؤونها وعملهم منحصر في قتل بعضهم بعضاً بمكايد وحيل لا تشكر . ثم انسحب حالاً وبارح الديار المصرية قاصداً انكلترا واراد القنصل الفرنساوي أن يفعل مثله فالحوا عليه البقاء . وفي غضون ذلك فرض القائد محمد علي على الاقباط غرامة قدرها مايتان الف ريال كي يتمكن أن يصرف منها مرتبات جيوشه وامر أن خمسين الفا منها يدفعها المعلم غالي وكيل دايرة الالفي وهو قبطي كاثوليكي وثلاثين الفا يدفعها ورثة فيكتور وكيل دايرة عثمان بك البرديسي الذي مات وقتئذ وهو ايضاً قبطي كاثوليكي والباقي يدفعه

الاقباط الارثوذكس الاصليين

وبعد ذلك اصبح القائد محمد علي وقدقويت شوكته لا يحترم ولا يبالي بكل الذين لا يهمهم في البلاد الا صالحهم الشخصي ولا يخاف تاثيرهم فهجم فجأة على سراي اكبر مخالفيه وهو عثمان بك البرديسي وهو شركسي واصله مملوك مراد بك فالتزم البرديسي أن يدافع متقهقراً بمماليكه وهرب الى الصحراء في جنح الليل لعدم امكانه مقاومة قوة محمد علي العظمى ثم استدعى محمد علي احمد باشا خورشد محافظ الاسكندرية واقره واليا على مصر بمصادقة المشايخ والعلماء في القاهرة الذين وافقوا دعوة محمد علي وجعلوا ايضا محمد علي قائمقاماً له وصادق السلطان على ذلك في ٢٢ محرم سنة ١٢١٩ هـ (مارس سنة ١٨٠٤ م) ومن دهاء محمد علي انه جعل كل الاموال الازمة لاصلاح البلاد على الاهالي في عهدة خورشد باشا حتى يقع العيب عليه اذا اساء الناس في تحصيلها اما هو فوقف متحببا للشعب وسار معهم جنبا لجنب ينتقد معهم احوال المظالم والمغارم التي كان الباشا يامر بها .

وفي ١٤ مايو سنة ١٨٠٥ كانت كل تدابيره ومشروعاته قد افادت في وصوله الى مبتغاه واصبح في ذلك الحين ذا بشاشة ودهاء محبوبا من الاهالي والمشايخ والعلماء حتى وساروا يتوسلون اليه بان يستلم مقاليد حكومة البلاد لانهم ملوا من معاملة خورشد باشا . غير أن محمد علي تظاهر بالامتناع وعدم الرغبة في ذلك فالحوا عليه هم ورجال الجيش ايضاً وقالوا له لا

نرضى الا بك حاكما علينا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير فقبل رجاهم
فاحضروا له كركاً وعليه قفطان وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي
والبساه اياه وبعثوا الى خورشد باشا يعلمونه بعزله . ولكن لم يكن
خورشد باشا مثل الذين تقدموا من الولاة سريع الانقياد لاوامر المصريين
بل ظل ثابتاً واظهر العناد وقال (اني مولى من طرف السلطان
واقبض راتبي من خزينة جلالته فلا أعزل بامر الفلاحين ولا ازل من
القلعه الا بامر من السلطنه) ثم حصن نفسه في القلعة واستعد للدفاع

ولما كان محمد على قد وضع أساس مشروعه على قواعد متينة لم
يخف من تهديدات جورشد باشا لان تركيا كانت بعيدة عنه ومصر
كلها كانت في جانبه فاستعد لمحاصرة الباشا في القلعة ونصب حولها
المدافع وكتب الطرفان الى الاستانه يشتكيان وكان العلماء والمشائخ
والاهالي والجندفي جانب محمدعلي . اوفي هذا الاثناء أطلق مدافعه من
سفح المقطم على القلعة والقلعة أطلقت مدافعها على المدينة فدام ١١
حصار القلعة حتى يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ ووصل في يوم
ربيع أول سنة ١٢٢٠ هـ الفرمان السلطاني فقرأه في بين محمد
على العلماء والمشائخ والاعيان وكان بعنوان محمد على باشا والي
جدة (١) سابقا ووالي مصر حالا وكان مضمون الفرمان السلطاني تولية

(١) لان السلطان فى ٢٠ صفر سنة ١٢٢٠ اى قبل توليته على مصر بشهر كان أرسل
له خط شريف بتوليته على جده وألبسه خورشد باشا الفروة والقاووق المختصان بهذه الرتبة

محمد علي على ولاية مصر من ابتداء ٢٠ ربيع اول (٢١ يوليو سنة ١٨٠٥)
حيث رضي بذلك اهالي مصر وعلماؤها وجيشها وان احمد خورشد باشا
معزول عن مصر وانه يتوجه الى الاسكندرية ثم الى القسطنطينية

ولما كان محمد علي على جانب وافر من حسن التدبير والسياسة
والعقل الراجح عرف انه بهذا التعيين لم يصل الى اعلى ما تصبو اليه نفسه
ولكنه تأكد ان لاجل الوصول الى ذلك لا بد له من اتباع سياسة
الحذر والتأني مع الشجاعة والاقدام . ولسوء الحظ كانت وسائط حذره
من اعدائه هي الطريقة العامة التي يتخذها كل الشرقيين . ومعنى هذه
الوسائط هي الخيانة والغدر ويعقبهما مذبحة عامة .

وكان المماليك منتشرين في البلاد وخصوصا في الصعيد حيث يقيم
زعيمها الالفي والبرديسي وقد التف حولهما جمهور من المماليك
وتعاهدا مع قبائل عظيمة من البدو . ولما علم الالفي بتولية محمد على باشا
على مصر تخابر مع خورشد باشا الذي كان لم يزل في القاهرة ان يتحد
معه على عزل محمدعلى باشا ويعيده واليا ثانيا على مصر ويخضع هو (الالفي)
لسلطة الدوله العلية ويضرب بسيفها . ومن جهة اخرى خابر دولة انكلترا
ووعدها انها اذا عضدت مشروعه يكون مستعدا ان يسلمها القطر
المصري فعرقل قنصل فرنسا مسعاه واخذ يخابر محمد على في امر الصلح

اما محمد على فاخذ في تدبير مكيدة له ومن معه وذلك انه
اوحى لاحد رجاله ان يكتب لزعيمي المماليك ان محمد على باشا قد رضي

عصالحهما وانه يعطيهما رشوة طائلة اذا قدما الى مصر واوعز ايضاً الى
عامله الذي كتب ذلك انه عند مجيئهم يدخلهم المدينة في اليوم الذي يكون
فيه محمد على واتباعه مشغولين باحتفال جبر الخليج. ولكي يخفي حيلته ولا
يجعلهم يفهمونها اشار عليهم بضرورة دورانهم حول المدينة ودخولهم من
باب النصر حتى يضطروا الى المرور قرب القلعة في طريقهم من
منتصف القاهرة الى الحارة المعوجة التي اصبحت الان شارع محمد على
المشهور.

فقبل المماليك وزعماؤها دعوة محمد على وفرحوا بالرشوة ولكنهم
لم يعلموا انهم وقعوا في المصيدة. ووضع محمد على مكامن من رجاله
الالبانيين المخلصين في الطريق وامرهم بالاستعداد لاى اشارة وحالما دخل
المماليك في تلك الحارة المعوجه الضيقة انقض عليهم اولئك الالبانيين
وأطلقوا عليهم الرصاص بلا رحمه

فطلب بعض قواد المماليك ان يسلموا على شرط ان يحفظوا حياتهم
من الموت فتركوهم ولكنهم ذبحوهم كلهم ثاني يوم ما عدا اثنين او ثلاثة
دفعوا فدية هائلة عن انفسهم ليؤجلوا ذبحهم. وبعد ذلك أرسل محمد
على باشا الى بلده واستقدم عائلته منها الى البلاد المصرية واستعد على توطيد
اقدامه فيها. ونجح محمد على في السنتين التاليتين لذلك في احباط مساعي
الباب العالي التي توجهت الى خلعه وتمكن بوسائط اخرى تحت ستار
التهديد وبواسطه رشاوي علنيه ايضاً من الحصول على فرمان من السلطان

بتثبيته على ولايه مصر في نوفمبر سنه ١٨٠٩ على شرط انه لا يتعرض
للمماليك الذين صدر عفو السلطان عنهم. وفي تلك السنه مات عثمان بك
البرديسى ومحمد الالفي موتا طبيعيا فخلا الجو لمحمد علي. ولو ان الانكليز
ارسلوا حمله الى مصر سنه ١٨٠٧ بحجه ان تثبيت محمد على عليها يخل
بنفوذها ولكنهم لما وجدوه قوي السلطه ويعتمد عليه فى حفظ
الموازنه بين الاتراك والمماليك بنظام انسحبوا بعد ان احتلوا مدينه
الاسكندريه شهرا

ومن ذلك الحين حتى سنه ١٨٤٧ اخذت قوى عقله في انحطاط
فآلت حكومة مصر الى ابنه ابرهيم باشا. ومحمد علي لم يحكم فقط على
مصر بل ملكها لانه من سنة ١٨٠٧ الى سنة ١٨١٠ م قام باعادة تمثيل حوادث
السلب والنهب بافظع معانيها فاتا السلطان سليمان الثاني منه واعد له
مكائداً لكنه تمكن بوسائط عظيمه بسبب من التفرد بالملك حيث الغا
حجج املاك الاراضي وصادر اصحابها بطرق اخرى مكنته من امتلاك كل
الاراضي المصرية لنفسه واعلن من ذلك الحين فصاعداً انه المالك
الوحيد لكل الاراضي المصرية وان كل حقوق الملكيه والاقطاعيه
تمنح بواسطته فجأت اليه التظلمات والاستعطافات والصراخ من كل
طبقات المصريين في كل بلد واقليم فلم يعبأ بها محمد علي وظل ثابت الجأش
معتمداً على جيشه الهائل من رجال الارناؤط. فالتزم المصريون البؤساء أن
يخضعوا كعادتهم لتلك المظالم الهائلة حيث لم يكن في وسعهم مقاومة

تلك القوة الهائلة (١)

الا انه كان لم يزل في البلاد كثير من المماليك القدماء وكان عددهم كافياً لجعل محمد علي يشعر انه للآن لم يصبح الحاكم المطلق والسيد المتصرف في كل شيء وفي كل نفس في البلاد فعزم على تطهير البلاد من هذه البقية ايضاً حتى لا يقف شيء منها في طريقه .

وفي شهر فبراير سنة ١٨١١ امر بجمع جيوشه لتوديع ابنه طوسون باشا الذي كان مسافراً الى بحيث جزيرة العرب لقمع ثورة الوهابيين الذين كان استفحل امرهم فيها ضد الداولة العلية وكانت حملة طوسون باشا هذه مؤلفة من ٤٠٠٠ محارب اعدها له والده وتعين يوم الجمعة لوداعها ووداع قائدها الى قبة العزب . ولذلك اجتمع لهذا الغرض جمهور الوجهاء والاعيان وفي جملتهم المماليك بملابسهم الفاخرة . وكان ترتيب الاحتفال يقضي بان يسير الجميع بانتظام الى القلعة وامامهم طوسون باشا لكي يلبسه والده الكسوة العسكرية هناك علامة على القاء القيادة العامة اليه في تلك الحملة وقد رافقه عدد عظيم من الجند في هذا الاحتفال

ولما احتشد جمهور الناس في القلعة يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ اول مارس سنة ١٨١١ م وكان محمد علي باشا منتظراً هناك فاستقبل الجميع

(١) قد وهب محمد علي باشا مقداراً عظيما من تلك الممتلكات المغتصبه الى اتباعه الاتراك ولكن بقي كثيرا منها لنفسه واراضي الدومين والدايرة السنية هي جزؤ من تلك الاراضي المغتصبه من الفلاحين المصريين

في سرايته بكل ترحاب وقدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجميع وبينهم المماليك وجاءت الساعة امر محمد علي باشا بسير الموكب فسار ونزل من القلعة من المنزل الضيق الموصل لباب العزب الذي كان اصلحه محمد علي ببناء سلالم له . وكان المماليك يكتنفهم الفرسان والمشاة في اخر الموكب فلما اقتربوا من باب العزب من ابواب القلعة في مضيق بين هذا والحوش العالي غلق الجنود الالبانيين (الارناؤوط) ابواب القلعة فجأة باوامر محمد علي باشا وهجم الالبانيون على المماليك وصاروا يذبحونهم والجيوش المنظمه تصب عليهم نار المدافع والرصاص فهلك جميعهم ما عدا اثنين أو ثلاثة فرنساوي الاصل وصاروا مماليكا بعد أن اسلموا ايام الحملة الفرنساوية بسبب عدم حضورهم هذا الاحتفال لدواعي مختلفة

وكان عدد المماليك الذين هلكوا في هذه الحادثة اربعمائة وستين ونجا منهم ايضا مملوكان احدهما احمد بك زوج عديله هانم بنت ابراهيم بك الكبير والثاني امين بك الذي هرب من تلك المصيده الجهنميه لما علم بالمكيدة وكان سبب هروبه حادث (١) غريب ولم يكن هولاء كل ضحايا محمد علي من المماليك فقط بل نودى في المدنية بامر محمد علي وفي سائر البلاد أن كل من يظفر باحد المماليك في أي محل يقبض عليه ويقتله

(١) المتداول على الالسنة أن أمين بك هذا كان داخل القلعة فعند ما حصلت المعركة وسمع قصف المدافع همز جواده فوثب به من فوق السور الى جهة الميدان فقتل جواده وسلم هو

ايما بجده ففي بضعة ايام بعد ذلك الامر بلغ عدد المقتولين من الامراء المماليك ما ينوف عن الالف وكان بعضهم أيضاً يأتي عن عسكه من المماليك الى كخيا بك فيقتلهم ثم نهبت بيوت المماليك المقتولين في مصر وسلبت امتعتهم واعطيت نساءهم للعساكر التركية الذين اطلقت لهم السراح في سلب ونهب بيوت هولاء المماليك . ومن ذلك الحين اصبح الناس قلما يسمعون باسم مملوك في مصر (١) وكان محمد علي دائماً شديد الحذر بعيد النظر فنزل ثاني يوم من القلعة وامر بايقاف القتال والنهب ومنع الالبانيين من قتل المماليك الذين يجدونهم بل صاروا يجمعونهم

(١) غير الذين قتلوا هرب كثير منهم الى جنوب مصر وسكن جزء منهم في مديرية اسيوط و بعض منهم تعاطى تجارة الرقيق في السودان والبعض اقام في بلاد أخرى في الصعيد وامتلكوها وحولوها الى معاقل وحصون يأوى فيها اللصوص وقطاع الطرق . وفي سنة ١٨١٢ م سقط جماعة من المماليك ونهبوا دير الاباب وحرقوا ماية رق عليها كتابات اثرية قديمة كانت بقايا المكتبة القديمة لهذا الدير ولكن ٩٠ في الماية من المماليك ماتوا بحوادث ووقائع قبل أن يبلغوا الخامسة والثلاثين من العمر حتى في ايام عظمة سلطانهم في مصر وكانت ممتلكاتهم وبيوتهم وحريمهم وجوارهم وعبيدهم أن لم يمتلكها قاتلوهم فانها كانت تباع وتضاف أثمانها لخزينة الحكومة والقليل من نسل اولئك الذين كانت سيرة حياتهم حميدة وشريفة اطلق عليهم المصريون لقب عبد اللاوي (أي لايصلحون لشيء) واصبحوا لا فرق بينهم والمسلمين المصريين

ويسوقونهم كالغنم الى الذبح في القلعة . وبعد نجاح الالبانيين نجاحاً تاماً في حملتهم الشاقه على الوهابيين اظهروا امارات التعب . فقبض محمد علي على قوادهم ونفاهم حالاً من بلاد مصر وسمح لهم باخذ ما نهبوه في حملتهم . ثم نظم محمد علي باشا جيشه على النسق الاوروبي وعين له الضباط الكثيرين من الفرنساويين لتدريب الجنود واعتنق بعض من هؤلاء الضباط الفرنساويين الديانة الاسلامية واسس مدرسة عسكرية في الخنكه وايضاً مدرسة للطوبجيه في القاهرة ومعامل تسبك المدافع واصطناع جميع حاجيات الجند بمناظرة المهندسين والمرشدين من الفرنساويين . وقد كان محمد علي باشا رجلا ذا مقدرة وقوة على القيادة ولا يشوب ارادته ومقدرته أي مانع ديني أو مبدأ اخر يعوق اغراضه فكان غير متعصباً بل الذي جعله نصب عينيه في حياته أن يكون سيد الديار المصرية ولذا قد بذل كل جهده في القضاء على كل شيء يقف في طريقه الذي يوصله لتلك الامنيه المبتغاه وكان من جل رغائبه أن يكون سيداً عادلاً طيباً ويفعل احسن ما يفعل لتحسين البلاد التي وضع فيها قدميه وبتلك المزايا يمتاز محمد علي ويختلف كثيراً عن الحكام المسلمين الظالمين الذين حكموا مصر قبله ولكن مما يحسن ملاحظته انه لم يأت احد هؤلاء الحكام ما اتاه محمد علي من الاستبداد في سبيل تأييد ملكه . وقد اعتنق الاسلام مثلما اعتنق كثير من كبار المستبدين في العالم الديانه المسيحية لانه عرف ان اعتناق الاسلام امراً لازما بالطبع وبحسب مقتضيات السياسة لتنفيد مآربه

ولكن على الاجمال لم يكن مقيد نفسه بالاعتقاد في اي ديانه واذا كان
يقف في طريقه رجل أو عشيرة باكملها فما كان عمله معهم الا كنسهم
بساطه من طريقه اما بطريقة الغدر أو بهجوم علني أو خلافه بحسب
ما تقتضيه الظروف . وكان طبعه أن ينتخب احسن الناس امانة
واستقامة لخدمته لا يلاحظ في ذلك دين أو وطنية أو جنسيه وبهذا
المبدأ أحاط نفسه بكثير من الاوروباويين المسيحيين لانه شاهد ولاحظ
بلا خلاف انهم اكثر نشاطا واجتهاداً واحسن تعليما وهمة فلذا كان
يركن اليهم ويثق بهم اكثر من المسلمين . والغى وابطل كل
القوانين الاستبداديه والاضطهاديه التي كانت موضوعه ضدهم وكان
يعاقب عقوبه صارمه كل الذين يشتم منهم رائحه القيام بثورة التعصب
الديني وفي ذلك الحين كان ينتخب بقدر امكانه نوابغ الارمن أو الكاثوليك
أو بعض الاوروباويين المسيحيين من اجناس مختلفه ويجعلهم في خدمته
لانه لاحظ بفكره الثاقب وبعيد نظره للمستقبل انه لو استخدم الاقباط
الوطنيين في وظائفه ولو أن فيهم الكفاءة الا انه حاذر وقوع خطر في المستقبل
منهم اذا قوية شوكتهم وازداد نفوذهم في البلاد التي لا ينسون انهم اصحابها
الاصليين . ولكن كان ناظر ماليته الحقيقي هو المعلم غالي الذي كان
وكيل دائرة الامير محمد بك الالفي وقد نهب بيت المعلم غالي وسلب ما
فيه في تلك الايام . وكان محمد على باشا دائما يصغى لوشي الوشاة الذين
اتهموا المعلم غالي في ذنب كاذب وذلك طمعاً باموالـه التي يريدون اخذها

منه فاصدر محمد على باشا امره سنة ١٨٢١ بقتله وبعضهم يقول ان المعلم
غالي جلب على نفسه هذه المصيبة لانه ارسل للسلطان تقريراً حقيقياً عن
المالية المصرية . ويقول البعض الاخر انه لسبب عدم طاعته للاوامر التي
صدرت له بتحصيل ضرائب من بعض القرى بالقوة وبغير طرق قانونيا
محللة . ولكن مهما كانت الاسباب ومهما كان ذنبه فانه كان سبباً في
تخلص محمد علي منه وقد كان قتله امام ابراهيم بك بن محمد علي وطوسيا
بك بن المعلم غالي نفسه بدون ادنى محاكمة أو اثبات ذنب .

وكان وزير خارجيته بوغوص بك وهو مسيحي ارمني الاصل ثم
اخلفه ارتين وهو من جنسه ايضاً . ونظم بحريته مثل جيشه البري
بواسطة رجال من الفرنساويين من اهل الفن . وكان الانكليز هم رجال
الدولة الوحيدة التي كان محمد علي يخاف سطوتها فكان يستخدم منهم
القليل جداً بقدر الامكان ولكن بحكم الضرورة التزم أن يرسل
لانكلترا يطلب كثيراً من مهندسيها لاستخدامهم في اعماله .

وبعد أن سحق محمد علي قوة الوهابيين في بلاد العرب واسس
قوته في مصر على اساس متين لا يمكن هدمه حول دفة انظاره
الى السودان .

ومن عهد سقوط الممالك المسيحية في السودان في النصف الاخير
من القرن الخامس عشر لم توجد حكومة منظمة في القسم الاعظم من
السودان الكائن بين وادي حلفا وحدود الجبشة الشمالية الغربيه . وادعى

ملوك سنار الصغار العبيد جنساً والمسلمون ديناً السلطة الاسمية على النوبه
من ابتداء القرن السادس عشر ولكن حقيقة الحال التي لا ريب فيها أن
السودان كانت في ايدي جماعة من العرب تجار الرقيق الذين عاشوا في
تلك البلاد على السلب والنهب بين سكان السودان المستقلين الذين كان
بينهم قليل من المسيحيين .

ولو أن محمد علي باشا كان بلا دين ولا يعتقد بالاديان الا انه كان
يعرف انها ذات اهمية عظمى في السياسة وتمكين من اعتماد مشروع
حملته وتحسينها في اعين رعاياه المسلمين بان ارسل ثلاثة من علماء الاسلام
مع الحملة واعطاهم التعليمات اللازمة ليس فقط ليجتهدوا ويؤثروا بتبشيرهم
ووعظهم على السودانيين ليعتنقوا الاسلام بل لتفهيمهم وجعلهم يعتقدون
أن الطاعة العمياء في الامور الزمنية والروحية هي بلا شك فرضاً واجب
القيام به للخليفة امير المؤمنين

وفي يونيو سنة ١٨٢٠ م (شعبان سنة ١٢٢٥ هـ) بارحت الحملة
القاهرة في النيل وهي خمسة الآف جندي نظامي ومعهم بعض العربان
وثمانية مدافع وركبت في اسطول مؤلف من ثلاثة الاف مركب صغيره
وقائدها اسماعيل باشا احد اولاد انجال محمد علي باشا وقامت على البر قوة
خيالة لتلحق بتلك الحملة عند اصوان . وصادفت الحملة صعوبات قليلة في
طريقها حتى وصلت دنقله وبربر وشندي بعد أن قطعت في النيل الشلال
الاول فالثاني فالثالث حتى السادس وقد اخضعت كل ما مرت به من

القرى والبلدان بدون مقاومة الى أن وصلت اخيراً الى سنار حيث
وجدت اثار التمدن القديم الذي زرع الانباط (١) المصريون بذوره في
تلك البلاد وانشأوا فيها كثيراً من الفنون والصنائع والمعامل بقدر
ما امكنهم .

ولما وصلت حملة اسماعيل باشا الى سنار وجدت الخصام قائماً كما هي
عادة الشرقيين بين اخوين يتنازعان على عرش السودان فبددت شملهما جنود
الحملة بدون صعوبة . ثم جاء اسماعيل باشا بملك من السودانيين كان مخلوعا
ومسجونا واقامه على العرش بصفة نائب في حكم البلاد عن محمد علي باشا
وبذا انتهت مأمورية ضم البلاد السودانيه الى مملكة محمد علي المصرية .

---

(١) المعروف عند الناس عامة ان الكنيسه المسيحيه القديمه محيت
من السودان قبل القرن التاسع عشر ولو ان البلاد وقعت في تعاسة عظيمه وصارت
الديانه المسيحيه لا تمارس فيها الاسراً فانه بقي فيها بعض من الاتقياء المسيحيين في
بعض الاقاليم السودانيه يتحملون عسف المسلمين حتى عصرنا هذا . ولما ذهب
الجنرال غوردون الى الخرطوم سنة ١٨٨٥ وجد باقيا فيها اسقف قبطي من الكنيسه
المصريه وكان في ابروشيته سبعة كنائس ودير للراهبات وبعث الجنرال غوردون
الاسقف بامان الى القاهره قبل سقوط مدينة الخرطوم في ايدي الدراويش وبعد
ذلك اعتزل الاسقف الخدمة الدينية ولا يعلم ماذا تم لكنائسه واقباطه على
عهد المهدى .

اما اسقف الخرطوم فمات في ربيع سنة ١٨٩٧ مسيحية اثناء تأليفنا
هذا التاريخ

ودام السودان معتبراً اسمياً جزءاً من املاك مصر حتى سنة ١٨٨٦م
ولكنها لم تكن ملكاً مقيداً أو سائداً فيه السلام ولو انه كان يمكن لمصر ان
تنشيء فيه حكومة منظمة

ولكن ما اصاب اسماعيل باشا القائد الذي نجح في فتحها اظهر
حقيقة ضعف قوة مصر على السودانيين . وتفصيل ذلك انه اثناء رجوع
اسماعيل باشا بجنده عبر النيل الى شندي في البر الشرقي وتعرض لملك
شندي لتقصيره جباية الاموال فاستدعي اسماعيل باشا هذا الملك واسمه نمر
وقال له (عليك ان تأتيني قبل خمسة ايام بملء قاربي هذا من الذهب والفين
من العساكر) فاستعطفه الملك ليتنازل عن القدر فقبل منه اسماعيل باشا
عشرين الف ريال فضه عوضاً عن الذهب فاجابه على ما أراد لكن التمس
تطويل الاجل . فضربه اسماعيل باشا بالسيف على وجهه قائلا (لا .
ان كنت لا تدفع المبلغ فوراً ليس لك غير الخازوق جزاء) فسكت نمر
واضمر الشر وصمم على الانتقام وطيب خاطر الباشا ووعده باتمام ما
يريد وفي تلك الليلة صار يرسل التبن الجاف احمالاً الى معسكر اسماعيل
باشا علفاً للجمال انما جعله حول المعسكر كانه يريد اشعاله . وفي المساء
جاء نمر ومعه جماعة من الاهالي ينفخون بالزمار ويرقصون رقص
السودانيين المعروف فطرب اسماعيل باشا وضباطه من منظرهم وزاد
عدد المتفرجين من الاهالي حتى اصبح كل أهل المدينة هناك فامرهم
ملكهم نمر بالهجوم فهجموا على اسماعيل باشا ورجاله بغتة واشعلوا النار

في التبن فمات اسماعيل باشا وكثيراً ممن كانوا معه بين قتل وحرق وفي
اليوم التالي اتموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة . فاغتاظ أحمد بك
الدفتردار الذي جاء من مصر عقب ذلك بمدد وأقسم ان ينتقم لاسماعيل
باشا بقتل عشرين الفاً من السودانيين فحارب الملك نمر وهزمه وصار يقتل
في السودانيين ويتفنن في اساليب القتل حتى أنفذ قسمه بتمام قتل العشرين
الفاً وبذا تم افتتاح السودان

وكان ضعف الدولة العليه المتزايد واشتغالها باحوال اليونان جعلت
السلطان غير قادر على التداخل في شؤون نائبه الشديد البأس محمد على
باشا في مصر . وكان اليونانيون بعد ان عاشوا زمناً تحت نير الاتراك
واستعبادهم مثل المصريين قد افاقوا وقاموا يتمثلون بالمصريين وهبوا في
وجه الدولة طلباً للاستقلال .

وذلك المثال لم يتجاسر المصريون على القيام بمثله [1] . واتخذ محمد على
باشا حرب اليونان مع الدولة العليه فرصة سانحة لاشغال معظم جيشه
الذي كان بلا عمل بعد الحمله السودانيه فارسله لمساعدة السلطان في

---

(١) ولو ان عرابي باشا دبر سياسته بالارتكان على كثير من الانكليز.
فانه لم يكن الاشجاعا عسكريا مقداما كالشكل الذي كان يوجد منه كثيرون
لسوء الحظ في البلاد المصرية اثناء الالف سنة الاخيرة ولو نجح في ثورته
لوقعت البلاد في اعظم التعاسة ولم تقم في مصر قبل عرابى ثورة اهليه عامة
عظيمة مثل ثورته من عهد القرن التاسع للميلاد

جروبه وهو اشغل نفسه في اصلاح مصر التي جعلها ملكه الخاص ،
وكان يرغب في تحسينها رغبة طبيعية . وكان حاد الذكاء فبالرغم عن غلطاته
المرعبة التي قاده جهله بارتكابها فان احوال مصر الماديه تحسنت تحسيناً
بيناً على ايامه . واصبحت في عز ورخاء . لانه اعاد زراعة القطن واحيا
كثيراً من الصنائع بعد موتها تحت نير احكام الاتراك المسمه . وحفر
كثيراً من الترع الجديدة واخصها ترعة المحموديه باسكندرية . وانشاء
المستشفيات ومدارس طبيه بتعليمات وارشادات الفرنساويين . وايضاً
صرف مبالغ طائلة في ايجاد فاوريقات ومعامل للصناعه . وقد هدم الهياكل
المصرية القديمة في انحاء البلاد ليبني المعامل التي لم تستعمل كلها ابداً .
واوجد الامن في ربوع البلاد المصرية . وانشاء للمدن والبنادر بوليسا
منظما لحمايتها وملاحظتها وهذا أول شكل من نوعه رأته البلاد المصرية
بعد اجيال طويلة . وبالنسبة لاجتهاده ونشاطه عادت طرق قوافل
التجارة والبريد ثانيا بين مصر وبلاد الهند وبلاد الشرق الاخرى في
اسيا وعلاوة على كل ذلك فانه أوجد مطبعة كبرى عظيمة في بولاق
فكانت تطبع وتنشر الكتب المترجمة من اللغات الاجنبيه الى العربية
وتبيعها باثمان بخسه جداً كي تنتشر العلوم والمعارف بين المصريين . ثم
اهتم بالحالة العلميه فشكل مجلسا للمعارف العمومية . فتح مدارس كثيرة
لتعليم شبان القطر وكان يرسل بعضاً منهم الى أوربا لتتميم دروسهم على
مثل الارساليات العلميه فى هذه الايام وغرس كثيراً من البساتين

والاشجار في الجيزة وشبرا واوجد حديقة الازبكية ومصلحة الصحة
وقسم القطر الى مديريات

ومع كل هذا النجاح فان محمد على كان لم يزل مثابراً في السير الى
آخر غرضه المقصود وهو الاستقلال التام بالاسم والفعل . وفي سنة
١٨٣١ م رأى ان الوقت قد حان لتتميم هذه الامنيه . وقد كان وقتئذ
الباب العالي مشغولا في ثورات استقلال السرب وبوسنيا واليونان سراً
وسياسيا كل من فرنسا وانكلترا وروسيا . فانتحل محمد على حجة ركيكه
لفتح سوريا .

ففي نوفمبر سنه ١٨٣١ م ارسل ابنه ابراهيم باشا يقود حمله
بريه وبحريه فوصل سوريا وأخذ غزه ويافا بدون مقاومه أما عكا
فدافعت دفاعا هائلا مدة ستة شهور واخيراً سلمت فى ٢٧ مايو سنة
١٨٣٢ ثم سار ابراهيم باشا الى دمشق فاخضعها ولم تدافع الا يسيراً وبارحها
الى حمص حيث كانت الجنود العثمانية تنتظره لرده عن فتح سوريا تحت
قيادة محمد باشا والى طرابلس فعسكر ابراهيم باشا فى حمص يوم ٨ يوليو
سنة ١٨٣٢ م فهجم عليه محمد باشا فقهره ابراهيم باشا واستولى على
حمص فخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها
ووقعت كل سوريا في قبضته . ولكنه لم يقف عند هذا الحد من
النصر العجيب

بل لما تشكى والي طرابلس امر انكساره للباب العالي خاف هذا

سطوة ابراهيم باشا وارسل رشيد باشا بستة الاف من الجيوش العثمانية لايقافه عند حده . وكان مع ابراهيم باشا ثلاثة الآف من الجنود المصرية فقط فسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في دسمبر سنة ١٨٣٢ م في كونيه جنوبي اسيا الصغرى وبعد حرب هائلة تغلب ابراهيم باشا على الجنود العثمانية مع انها ضعف جنوده وتقهقرت بقائدها رشيد باشا فاخترق ابراهيم باشا اسيا الصغرى وتهدد القسطنطينية بالفتح نخافت الدول العظمى التي لاتريد أن تنظر وجود دولة اسلامية جديدة مصرية قوية تقوم على انقاض الدولة العثمانية القديمة فتداخلوا في الامر وفي مقدمتهم روسيا فانفذت الى مصر البرنس موارفيف لمخاطبة محمد علي بايقاف جيشه المنتصر عن التقدم الى القسطنطينيه وهددته بالحرب أن لم يذعن فبعث الى ابنه ابراهيم باشا أن يتوقف عن المسير الى الاستانة . ثم عقدت معاهدة الصلح بين محمد علي باشا والسلطان بمساعي الدول من مقتضاها أن تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا يكون حاكماً عليها وجابياً لخراج اذنه . وتم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعده سنة ١٢٤٦ هـ (١٤ مايو سنة ١٨٣٣) ويدعي وفاق كوتاهيا .

فعاد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وتنظيمها على النسق الذي اتبعه ابوه في مصر وجعل عاصمة ملكه انطاكيه وابتنى فيها قصراً وقشلاقات وتساهل تساهلاً تاماً مع الدروز والمارونيين وسائر ملل

النصارى وصار يستخدم منهم من يليق لخدمته في مستعمرة ابيه محمد علي متخذاً خطة ابيه لا يبالي بالوطنية أو الدين . ولم يضغط الا على اليهود فقط ولكن لم يضطهدهم اضطهاداً علنيا بل لم يرفع عنهم دواعي الانحطاط (١) والضعف ولم يدافع عنهم المصائب والمضايقات التي كان المسلمون يقومون بها ضدهم وكان ابراهيم باشا سائراً بكل حكمة ودراية خشية سوء العقبى ومع ذلك لم ينج من ثوره قام بها جماعة من جبال نابلس اطفأ نارها محمد علي نفسه . وذلك بانه اوجد للمسلمين الثائرين عذراً قاموا بسببه في فواحش وكبائر هائلة ضد اليهود وكان مسيحيو الناصره وبيت لحم واورشليم سياخذون نصيبهم من بلايا هولاء الثائرين لولا انهم دافعوا عن انفسهم حتى جاءتهم النجده من مصر بامر محمد علي باشا

وفي سنة ١٨٣٥ م اصاب مصر كوليرا دامت عدة اشهر واثرت تأثيراً مرعبا في اهلها . وكان يوجد طبيب فرنساوي يدعى كلوت (وهو كلوت بك) الذي سمي باسمه احد شوارع محمد علي الجديدة وهذا الطبيب اثار ايات الاعجاب به في نفس محمد علي باشا لتصرفه العظيم بتخفيف وطأة الكوليرا عن الاهالي فانعم عليه بلقب بك

---

(١) قيل أن مسلمي دمشق شكوا الى ابراهيم باشا من أن قباحة المسيحيين قد زادت عن الحد حتى أنهم صاروا يظهرون في الشوارع راكبين الخيل فنصح ابرهيم باشا المتذمرين بكل هدوء ورزانه قائلا اذا كنتم تريدون الظهور ارفع واعظم من النصارى فاركبوا الجمال (فتكونوا اعلى منهم مقاماً)

وبين الكثيرين من الزائرين الاوروباويين لبلاد مصر التي كانت اكثر
امناً واكثر باعثاً لسرورهم مما كانت لاهلها انفسهم كما لم تزل
للآن هو ؟؟ المستر لاند التلميذ الطائر الشهرة . هذا الف كتاباً دعاه
(المصريون الحديثون) على ان عنوانه الحقيقي يصح ان يكون (سكان
القاهرة الحديثون) وهو لذيذ جدا يستحق أن يقرأه كل واحد .
واهميته تنحصر في وصف المسلمين القاهريين الذين عرفهم المؤلف واقام
بين ظهرانيهم في سنة ١٨٢٥ م . وفي فترة اخرى من سنة ١٨٣٣ الى سنة
١٨٣٥ م وتعرف بهم تمام المعرفة . اما الاقباط فكانوا ينظرون اليه بعين
الظن والريب . ماعدا واحد منهم فقط اجتهد كثيراً أن يتعرف
به ويكتسب صداقته بالرغم عن مخالفة ابناء جنسه ومع ذلك
لم يتمكن المستر لاند من المحادثة معه . ومن الغريب ان جل قصد هذا
الزائر كان الحصول على بعض معلومات عند الاقباط يثبتها في كتابه وبكل
تعب تحصل على بعض مواضيع طفيفة وبالاسف كانت كلها غير صحيحة

ومن سنة ١٨٣٨ الى ٣٩ زار محمد علي باشا بنفسه بلاد السودان ليتأكد
حقيقة من وجود مناجم الذهب التي قالوا لها عنها وترك القاهرة تحت
عناية حفيده عباس باشا وفي أثناء غيابه انتهز السلطان الفرصة لاثارة
الحرب عليه بمصر فلما عاد محمد على باشا الى مصر ذعر من استعدادات
الباب العالي فكتب الى ابنه ابراهيم باشا يستحثه للاستعداد للدفاع فحشد
ابراهيم باشا جنوده لدفع الجنود العثمانية القادمه براً

وكان الفيكونت بونسونبى سفير انكلترا في الاستانة قد نصح
للسلطان بالعدول عن ذلك المشروع المهلك فجاء نصحه عبثا وتهجم السلطان
على خراب نفسه . فسار الجند العثماني والتقى بالجيوش المصرية وحصلت
مواقع شديدة بين الجيشين في نزيب انتهت بانهزام العثمانيين انهزاماً تاماً
وتقهقرهم الى مرعش . واتفق في اثناء ذلك وفاة ساكن الجنان السلطان
محمود خان الذي لم يسمع نصيحة سفير انكلترا في ٢٦ ربيع اخر سنة ١٢٥٤
ه « ٣٠ يونيو سنة ١٨٣٩ م » قبل بلاغه خبر انهزام جيشه . فتولى الخلافة
بعده ابنه السلطان عبد المجيد وفي ذات اليوم الذى نودي به سلطاناً في
القسطنطينية سار الاسطول العثماني الذى كان جهزه ابوه بقيادة فوزي باشا
بعد اطلاق مدافع التحية والتعظيم للسلطان الجديد وزين المراكب
وحول دفة وجهته الى الاسكندرية حيث تعاهد هذا الاميرال الخائن
بتسليم الاسطول ليد محمد علي باشا وكانت هذه التصرفات سرية لم يطلع
عليها مطلقا الكبتن ووكر القائد البحري الانكليزي الذي كان مرافقا
الاسطول العثماني . فعند وصول الجميع للاسكندرية استقبلهم محمد علي
باشا كاصدقاء فلما ادرك الكابتن الانكليزي الامر الذي كان مخيما على
مخيلته كالظلام أبى العوده على اسطول العثمانيين وعزم على الرجوع وحده
ثانياً الى القسطنطينية .

والتزم محمد علي باشا من ذلك الحين أن يعمل حسابا لوجود مانع
جديد قوي اكثر تعرضاً للوقوف في سبيل مشروعه ونوال قيمة ما

تطمح اليه نفسه وهذا الحاجز الجديد الذي يعترضه هو اقوى من كل ما تقدم من الموانع التي اعترضته في سبيله — ونعني بهذا المانع — معارضة كل الدول العظمى له وعرقلة مسيره وعلى الخصوص دولة انكلترا

وان جئنا هنا بالحقائق التي اثرت على الدول الاورباوية العظمى وجعلتها تنوي على ايقاف محمد على عند حده لاحتاج الحال لشرح طويل ممل . فنقول الآن هنا ان محمد علي باشا لم يقتصر على ما اكتسبه من امتلاك مصر والسودان بل من الواضح ان نفسه كانت تطمح الى اعمال أحسن من ذلك فكان يحلم بالفتح العام ويخضع مملكة بعد مملكة بجيشه الذي وان كان صغيراً لكنه احسن من جنود الجيوش التركية المتوحشة التي لا تعمل شيئاً في الحرب الا الضرر .

فلما انست الدول الاورباوية المتحدة عزم محمدعلي باشا على هذا المشروع اجتهدت في وضع حد لمشروعاته ومطامعه في الفتح واتحدت على تنفيذ ذلك الحد فاوفدت الحكومة البريطانية الكولونيل هودج ليبلغ قرار الدول الى محمد علي باشا .

وحوالي اخر سنة ١٨٣٩ م نزل الكولونيل هودج في الاسكندرية واستعمل كل لطف ورقة في مخاطبته مع محمد علي سياسيا ليوصله الى الامر المراد اخباره به بالتدريج فلم تأت هذه السياسة بفائدة والتزم الكولونيل بتبليغ محمد على باشا رسميا في يناير سنة ١٨٤٠ م انه جاء نائبا عن انكلترا ليخبره بان دولته وباقي الدول الاورباوية العظمى لا توافقه

على اتمام مشروعاته وطمعه في الفتوحات ولا تسمح له القيام بهما . وقال له السفير ان شاء فليحصر فتوحاته في قارة افريقيا كلها فقط ويبني له في تلك القارة مملكة عظيمة تشرح خاطره وتسد مطامعه فلا تعارضه الدولة في ذلك أما في اوربا واسيا وكل ما يختص بهما فلا تسمح له الدول بذلك مطلقا

وكان محمد على باشا مثل كثير من الحكام والقواد الشرقيين فانه لم يعترف باهمية الامر الذي بلغ اليه تحت ستار لطيف ورقيق المخابرة وكان معتزاً بقوته لانه كان لديه اذ ذاك نحو ١٤٦ الفاً من الجنود النظامية و٢٢ الفاً من الباشبوزق منها ١٣٠ الفاً تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا في سوريا والباقون متفرقون في الحجاز وسنار وجزيرة كندي ومصر عدا تلامذة المدارس الحربية الذين في مصر

ولم يصدق محمد على باشا ان انكلترا كانت تخابره في ذلك جدياً فتخابر مع السفير عن « حقوقه » فجلبت نتيجة هذه المخابرة مذكرة شديدة من حكومة انكلترا انه ليس له « حقوق » الا التي يعطيها له السلطان ورضيت الدولة بها شرطا انه يمكن سحبها في أي وقت . فبعد ان اطلعه السفير الانكليزي الكولونيل هوردج على كل تلك الاقتراحات رأى منه رفضاً تاماً بعد طول المخابرات فالتزم بقطع المخابرات مع مصر في شهر مارس سنة ١٨٤٠ م

وفي ١٥ يوليو سنه ١٨٤٠ م (٢٤ جماد اول سنة ١٢٥٥ ه) عقدت

معاهدة في لندن وامضيت من كل دول انكلترا والنمسا وروسيا والمانيا
والدولة العلية مقتضاها ان مصر تعتبر جزءا من أملاك الدولة العلية وان
محمد علي باشا يكون من الولاة التابعين لهذه الدولة وان يعطيه جلالة
السلطان ولاية مصر وراثية لنسله بشرط ان يكون لجلالته الحق المطلق
في ان يختار من عائلة محمد على من يريد لتوليتها وان تضمن له الدول المذكورة
هذا الامتياز وعلاوة على ذلك يستمر مالكاً طول حياته ولاية عكا
وجنوب سوريا وفي هذه المعاهدة انه ان لم يقبل محمد علي بنودها
وشروطها في بحر عشرة ايام من تاريخ وصولها الى مسامعه تسحب منه
ولاية عكا وجنوب سوريا وبعد عشرين يوما تعتبر كل حقوقه ساقطة
ايضا في مصر وسوريا.

وفي اغسطس سنة ١٨٤٠ قام رفعت باشا سفير الدولة العلية حاملا
هذه المعاهدة وعقد مجلسا في مصر مع محمد على باشا وابلغه كل بنودها
ومعانيها. وجاء ثاني يوم قناصل الدول الكبرى المذكورة وانتظروا التصديق
على شروط وبنود معاهدتهم. فاتكل محمد على باشا على مساعدة فرنسا له
ولو انه لم يعارض ويرفض كثيراً من بنود تلك المعاهدة ولكنه استعمل
المحاولة والمراوغة والتمهل وغرضه من ذلك وجود وقت يتبصر فيه.
وبعد انتهاء العشرين يوما سأله قناصل الدول لاعطاء اخر قرار فطلب
التاجيل لوقت اخر ولم يكن يظن ان الدول تقدر ان تنفذ
ما قالته في معاهدتها من التهديد. ولكنه عرف حالاً ان الامر حقيقة

وان الشروط لاغش فيها اذ رأى قبل انتهاء السنة كل سوريا في يد الجيوش
العثمانية والقائد العام عليهم السير تشارلس سميث الانكليزي. ورأى ايضا
الاساطيل الانكليزية والنمساوية والعثمانية حاصرت كل الشواطيء السورية
والمصرية وهرب ابنه ابراهيم باشا الذي في سورية الى الجبل. وتنحت
فرنسا عن التداخل الذي كان ينتظره محمد على باشا منها. وفي ٢١ نوفمبر
سنة ١٨٤٠ وصل الاسكندرية الكومندور نابير وبعد قليل ارسل عدة
خطابات رسمية لمحمد على باشا أوضح له فيها صريحا ان الدول تسمح للباشا
ببقائه في مصر اذا أسرع بالخضوع وقبول شروط المعاهدة بلا
امهال. ففهم محمد على جيداً معنى تلك الملحوظات التي تعرضها عليه انكلترا.
وامضى بسرور على اتفاقية مبدئية عقدت بينه وبين نابير وقنصل انكلترا
في ٢٧ نوفمبر مضمونها ارجاع الاسطول العثماني الذي أخذه بالغش من
الاميرال فيرزي باشا العثماني واخلاء سوريا على شرط ان الدولة
الانكليزية تضمن بقاءه في مصر. فلم يسر الباب العالى ولا الاميرال
الانكليزي ولا السير تشارلس سميث من هذه الاتفاقية واتبعوا باب
العدل وقالوا ان نابير تعدي العدل في شروطه. ولكن انكلترا رضيت
بها وتنفذت. وفي ٤ فبراير سنة ١٨٤١ م سحب محمد على باشا جنوده
من سوريا وبلاد العرب وخانيه. وفي ١٣ منه الموافق ٢١ ذي الحجة
سنة ١٢٥٦ هـ ارسل له جلالة السلطان خطاً شريفاً بتثبيته على مصر مع
حقوق الوراثة لاعقابه. ثم صدر ايضاً فرمان اخر يثبت ولايته على نوبيا

ودارفور وكردفان وسنار واصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان . فقنع محمد على باشا بما قسم له من البلدان وعكف الى اصلاحها داخليا وعمل على ارضاء جلالة السلطان فانفذ اليه ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية . وبعد ذلك الحين مرت على مصر ست وخمسون سنة يحكمها امراء من سلالة ذلك النادر المقدام والفاتح [1] الهمام محمد على باشا المقدوني

وظل محمد على متكدرا من تلك الحوادث اثني عشر سنة . حتي قبل موته باثني عشر شهراً اصبح غير قادر على الاحكام . ويظهر ان نجمه السعيد وحظه العظيم ابتدأ ان يهجره بعد سنة ١٨٤٠م

وفي سنة ١٨٤٣م زار مصر طاعون المواشي بدرجة مرعبة واصبح من المتعذر جداً الحصول على البهايم لعمليه حرث الارض فالتزم محمد على باشا باستخدام خيول الجيش في الزراعة . وكان يرى بعض الاحيان الجمل والحمار مربوطان معاً في المحراث وفي كثير من القرى كان الفلاحون يلقون انفسهم في المحراث ويجرونه بدل البهايم . وفي تلك السنة دام

(١) واثناء كل الحوادث المتقدمة اجتهد محمد على في فتح وتسهيل الطريق الموصل للهند من داخل البلاد المصرية كما كان قبلا . وكان هذا الصنيع الذي يشف عن بعد نظره في السياسه باعثا لايجاد علائق المحبة العظيمة بينه وبين انكلترا وصك تجار بومباي مداليه شرف له باسمه مكتوب عليها ايات التكريم والمدح والثناء

فيضان النيل طويلا على الارض وبتأخير نزول المياه ضاعت الفرصة على الفلاحين لتجهيز ارضهم للزراعة . وقيل انه هلك بهذا الطاعون مائتان الف ثور . وفي السنة التالية خربت مصر أيضاً بطاعون الجراد وانتشرت الكوليرا أيضاً في فصلي الشتاء والربيع واصبح في مصر اربعة اعداء اشداء هم طاعون المواشي والجراد والكوليرا وزيادة الفيضان

اما السودان فلم يكن قد ضم بعد الى مملكة مصر الان احمد باشا الذي ولاه محمد علي باشا على السودان وهو من المماليك لم يكن الا تاجراً عظيماً في الرقيق بدرجة هائلة وكان يعضده جيش منظم لجلب الرقيق والاتجار به فضلا عن استخدام نفوذه الرسمي في ذلك

وكان محمد علي باشا غير عالم بشيء من ذلك لان رجال حكومته لم يطلعوه على حقيقة الامر خوفاً من تأثير الكدر عليه حيث كان قد طعن في السن وأثرت على صحته نتائج الحوادث المتقدمة ولا سيما ضغط الدول عليه التي اهبطت مساعيه حتى مل من مباشرة الاحكام ولذلك كانت ترفع اليه التقارير الخاصة باحوال البلاد منقحة وملطفة ومحذوفاً منها كلما يحدث الكدر

وكان حاكم السودان يفتح جميع المراسلات التي ترد على الخرطوم ويحرقها بما فيها مراسلات الاوروباويين والتجار وكان اهل السودان في ضيق شديد من استمرار تعدي الحكام والعساكر على خفض أطفالهم

منهم وتصديرهم للمتاجرة بهم كالاغنام والسلع ولم يكن من يرثى لشكواهم ويغيثهم من هذا الكرب غير السائحين الاوروباويين الذين لا يعرفون المحاباه ولا تحزب لجانب من الطرفين .

وقد نشأ عن هذه الاحوال وعن تسخير عدد عظيم من الفلاحين البؤساء في الاشغال العمومية ان سكان القطر المصري كلهم اصبحوا يئنون تحت انياب الفقر سنة اكثر من سنة وايضاً وصلت البلاد المصرية الى حالة تعاسة هائله واصبحت مديونة بينما كانت الاموال تبذر تبذيراً بلا فائدة على المعامل الصناعية والقصور والمنازل التي يبنيها الاوروباويون في اكبر المدن المصرية فتضايقت البلاد حتى كثرت مهاجرة الناس سنة ١٢٥٩ هـ (سنة ١٨٤٤ م) لتعذر دفع الرسوم المطلوبة منهم والحاح الحكومة في طلبها بكل واسطة واذا خلت قرية من اهلها اضافت الحكومة رسوما على القرية الاخرى بجانبها فكثر اللغط في البلاد كل ذلك من سوء تصرف العمال . فرأى ابراهيم باشا ان اخفاء تلك الاحوال عن ابيه ربما يؤول الى خراب البلاد فأخذ على نفسه تبليغه ذلك فكلف شقيقته في ٢٥ يونيه سنة ١٨٤٤ م ان تبلغ الامر اباها بطريقة لطيفة وغير رسمية (خوفاً على صحته) ما وصلت اليه البلاد من العسر واشتداد الازمة المالية اشتداداً هائلا وقتئذ فلما ان بلغته اشتعل محمد علي غيظاً فخاف وزراؤه المسيحيون والتزموا تبليغه نتيجة الحال رسميا يائسين . ولكن محمد علي في ذلك الوقت لم يكن كما كان في اول نشأته وذلك

بسبب كبر سنه وتوالي المصائب عليه بعد ان افل نجم فتوحاته فان عقله ضعف فحمل هذا البلاغ على مكيدة اعدوها له فبرح سرايه في الاسكندرية واقام عند صهره محرم بك بجانب الترعة المحمودية وصار يقسم مصرحا بانه محاط بقوم خائنين ولذلك فهو مستعد للتخلي عن الحكومة والذهاب الى مكة فحاول ابناه سعيد باشا وابراهيم باشا مخاطبته واقناعه بالحقيقة فلم يصغ لجاه سامي باشا اعز اصدقائه فلم يقتنع الا بما سبق اليه فهمه وقال ان مصائب بلادي ما نتجت الا من خائنين دسوا السم في الدسم فاستنتج من اعماله انه اصيب بنقص في عقله ثم سافر محمد علي باشا مع طبيبه الى القاهرة فعرض الناس الولاية على ابنه ابراهيم فأجابه انه لا يقبلها طالما كان ابوه حيا . ولما وصل محمد علي باشا القاهرة عاد الى صوابه وروعه وفطن لنفسه فجمع رجال حكومته ووبخهم على اخفاء تظلمات الاهالي عنه ثم تداخل ابراهيم باشا في الامر وصرف المشكل

وفي سنة ١٨٤٦ م وصلت محمد علي باشا دعوة رسميه للذهاب لتقديم فروض العبودية لجلالة السلطان الاعظم في الاستانة فعرف محمد علي باشا ان هذه الدعوة معناها طلب تقديم رشاو وهدايا هائلة للسلطان ورجاله .

فوصل الاستانة في ١٩ يوليو سنة ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا باشا وتشرف بالمثول بين يدي امير المؤمنين فرحب به ولما اراد تقبيل لاعتاب الشاهانيه امسكه واجلسه بجانبه ومكث معه ساعة يتحادثان ثم

انصرف شاكراً وزار عدوه القديم خسرو باشا وتصافيا وفي ١٧ اغسطس سنة ١٨٤٦ م برح الاستانة الى قوله مسقط راسه فأنشأ فيها المدارس لتعليم الفقراء وملاجىء للضعفاء والمساكين ثم برحها قاصداً الاسكندرية فقوبل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليه المهنئون افواجاً وكان يقابلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تتلالأ كالشمس. وكان ابنه ابراهيم باشا قد اصيب ايضاً بانحراف في صحته فسار الى اوربا ترويحا للنفس فصادف ترحاباعظيما في سائر الممالك الاورباويه ولاسيما فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في اواخر صيف سنة ١٨٤٦ وتقابل مع ابيه وهنأ بعضهما بسلامة الوصول الى الوطن بعد سياحتهما.

وكانت آخر مشروعات محمد علي باشا الاصلاحية الخطيرة في آخر حياته هي القناطر الخيرية التي وان يكن اصل فكرة تشيدها ينسب الى قريحة وذكاء احد المهندسين الفرنساويين لكن هذه الفكرة ظلت في عالم الخيال ولم تجد طريقا لظهورها في عالم الوجود الا بعد خمسين سنة بواسطه ذكاء احد المهندسين الانكليز الذي عرض مشروعه على محمد علي وابان له عظيم فائدته للري فاقر محمد علي باشا على مباشرة العمل وقام بوضع الحجر الاول منها سنه ١٨٤٧ م باحتفال عظيم جدا وحوالى آخر هذه السنه اصبحت صحته وابنه في انحطاط. وفي يونيه سنة ١٨٤٨ م زاد ضعفه كثيرا وازدادت فيه ظواهر التخريف والبله فلم يكن بد من انتقال عنان الاحكام الى ابنه ابرهيم الذى بعد

تثبيته في الولايه بفرمان سلطاني راجعه المرض واشتد عليه بغتة ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م وبعد وفاته باحدى عشرة ساعة دفن بجوار الامام الشافعي (مدفن العائلة الخديوية) جنوبي القاهرة كل ذلك وابوه محمد علي باشا في الاسكندرية وقد اخذ منه المرض مأخذا عظيما وما زال يهزل جسدا وعقلا حتي توفى في ٢ اغسطس سنة ١٨٤٩ م. ولم يستغرب الناس موته لانه ظل ينازع طويلا. وفي ٣ منه تقاطر الاعيان والقناصل الى سراي رأس التين لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم فاذا به في قاعه الاستقبال موضوعا في نعش تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن وعلى رأسه طربوشه الجهادي الاحمر التونسي وحوله ٢٢ من العلماء بالملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام محزنة فعزى الناس سعيد باشا اكبر عائلته الذى نقله الى القاهرة ودفنه في جامع القلعة.

وهكذا مات محمد علي بعد ان وضع الاساسات المتينة الكافلة لضمان اعضاء عائلته من غوائل الموت المعتاد حصولها في الاقطار الشرقية.

وكان عباس باشا حفيد محمد علي غائبا في مكة فاستقدم حالا لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ دسمبر سنة ١٨٤٩م بعد ان قضى فروض الحج واخلف عمه ابرهيم باشا على الاريكة المصرية بدون حدوث اي صوت معارض لانه اكبر ابناء العائلة وجاءه الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذنا بذلك.

الفصل الثالث والسبعون

الاحتلال الانكليزي

سنة ١٨٥٤ مسيحية و ١٥٧٠ للشهداء و ١٢٧٠ للهجرة

ان تاريخ الديار المصرية في الخمسين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر حسن جدا ولذا فاننا نثبت حوادثه هنا بفصل قصير ونسرد الحوادث حتى نصل بالقارىء الى الاحتلال الانكليزي للبلاد فنقول

ارتقى عباس باشا الاريكة المصرية وهو ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا . ولحسن حظ مصر لم تطل مدة حكمه عليها الا ست سنوات . وكانت أخلاقه الخصوصية وصفاته رديئة فتقهقر نفوذه في البلاد وتوفي في وسط عائلته (١) في شوال سنة ١٢٧٠ هـ الموافق يوليو سنة ١٨٥٤ م .

واخلفه على الولاية سعيد باشا ابن محمد علي باشا وكان يشبه عباس من أكثر الوجوه . وابتدأت البلاد تتنازل بالتتابع الى درجات الفقر المدقع تحت أحكام سعيد باشا وخلفه الاكثر عظمه والذي لا يقف في وجه اغراضه علة الا وهو اسماعيل باشا لانهما سارا بحسب الغريزة الشرقية

(١) كانت قساوة واستبداد عباس باشا شديدة على نسائه خصوصاً . فانه خاط بيده فم احدى جواريه عندما رآها تشرب الدخان وتركها مخيطة الفم تتخبط من الالم والجوع حتى ماتت ببطء .

الحقيقية بان ابتدأت أعمالهما من الطرف المخالف ولم يكن لاي منهما ميل للاختلاط بالرعايا المصريين والعطف عليهم سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ولم يكن لهما أي ميل لصالح الفقراء من الرعايا الذين كانوا يساقون للاعمال الشاقه تسخيراً في انجاز الاشغال . والاعمال العظيمة التي أثارت تعجب الاوروباويين ووصلت نتيجة الضرائب الفادحه على الاهالي الى درجة هائلة جداً جعلت الفلاحين المصريين جميعاً مديونين لجماعة اليونان الذين يقرضونهم أموالهم بفوايظ فاحشة وكان يقترضها الفلاحون لتسديد طلبات ومطامع الحكومة التي كانت تعد كأنها بلا خديوي

الا انه الى سعيد باشا تنسب كل شؤون التمدن الحديث الذي انتشر في القطر المصري بعد ان كان متخرباً . وينسب الى سعيد باشا الذي قام بنشر ذلك التمدن بارشاد الفرنساويين كأنه هدم الهياكل القديمة ليبني بانقاضها في المعامل الصناعية فأوجد دار الآثار المصرية (الانتيكخانة) ودور الحفر والبحث على الآثار في تانيس وسايس وطيميس وكينوبوليس وبو استيس (تل بسطه بالزقازيق) واتريبيس وهليوبولس (عين شمس) وممفيس وسقاره وأبيدوس ودندره وطيبه وادفو . وفي أيامه أيضاً أنشئت السكة الحديدية بين مصر والاسكندرية وبين الاولى والسويس وكان فساد الاحكام في السودان مستمراً وتجارة الرقيق منتشرة في مصر باوسع معانيها وفي ايام سعيد واسماعيل هرع كثير من الاوروباويين الى البلاد المصرية وخصوصاً اليونان والتليان والفرنساويين وتوطنوا فيها .

وهم الذين تمتعوا حقيقة بالادارة المصرية التي لم يستفد منها المصريون الا القليل . أما الاقباط فكان مصرحاً لهم التمتع بالحرية والتساهل وهي المزايا التي منحهم اياها محمد علي وتساووا بالمسلمين من بعض الوجوه حيث من منذ الفتح العربي الديار المصرية سنة ٦٤٢ مسيحية لم يكن مصرحاً لاي مسيحي مصري من الحاكم المسلم ان يحمل سلاحاً وذلك عقب انتهاء الثورة القبطية العظيمة التى حدثت في القرن التاسع عشر وجعلت من المستحيل على أي قبطي التمكن من حمل السلاح .وكانت الضرائب الخصوصية التي يدفعونها علاوة على الاضطهادات والاختلاسات الغير القانونية التي تقع عليهم سبباً شدد عضلات جماعات الجنود الاجنبية للحرب لانهم منعوا من الاندماج في سلك العسكرية في جيوش الاحتلال المختلفة التى حلت بمصر وكانوا ميالين لهذا المنع ليعيشوا بهدؤ وسكينة وان خالفوا روح اجدادهم الحربية التى كانت غريزية منهم بالرغم عن هذا المنع وميلهم اليه وقد ظهرت تلك الروح باجلى مظاهرها في القائد يعقوب القبطي الذي تولى قسما كبيراً من الجيش في عهد الفرنساويين. الا ان مع ذلك كله نقول بكل اسف ان الاقباط كانوا على مثال الانكليز في عهدهم القديم من حيث هروبهم من الخدمة العسكرية طالما وجدوا تحت قيادة معلمين من المسلمين حتى لا يحاربوا ضد امتهم القبطية . لان الجيوش الاسلامية في مصر كثيراً ما كانت تساق لتعذيب الاقباط الغير المسلحين اكثر مما كانت تساق في حرب

علنيه قانونيه ضد عدو اعتيادي . ولكن لما اصدر سعيد باشا امره ان كل المصريين بدون تمييز في الدين يكونوا تحت طلبات العسكرية فاستعمل المسلمون هذا القانون آلة لاضطهاد المسيحيين فقبضوا في اسيوط على كل الذكور في اغلب البيوت القبطية وساقوهم للعسكريه ولم يتركوا ولا واحدا منهم لاعالة النساء والاطفال ولما انتظم الاقباط في سلك العسكرية اتخذ المسلمون منهم خطه عموميه لاضطهادهم وتعذيبهم ليجبروهم على تغيير دينهم . ولم يكن لهم رجاء ولا في الارتقاء في وظائف الجيش على عهد شعبه كما هم فاقدين ايضاً هذا الرجاء في الجيش المصري الجديد هذه الايام (١) ولذلك فان ذلك القانون الذي اصدره سعيد باشا جاء ضربة هائلة وسبب التعاسة والشقاء على الاقباط حتى التزم بطريركهم كيرلس الرابع الملقب (بابى الاصلاح القبطي) ورفع تظلمات شعبه الى الانكليز (٢) فاجبر سعيد باشا برفع تلك المظالم عن الاقباط ليس بواسطة حكومة انكلترا بل بتأثير بعض رجال الانكليز الذين كان يحتشمهم ويخشى بأسهم ويحافظ على عدم تكديرهم .

(١) ولو ان الضباط الانكليز لا يعلمون هذه الحقيقة الا انه يظهر انها معلومه جيدا عند كل المصريين وانه مهما كانت ضرورة استخدام القبطي في الجيش فانه امر ترقيته فيه لا يتعدى درجة معلومه

(٢) ان قنصل جنرال فرنسا المسيو ساباتيه عرض على البطريرك استخدام نفوذه الفرنساوي في مساعدة الاقباط على شرط ان البطريرك يصدر امرا لامبراطور الحبشة بدخول اليسوعيين واقامتهم في تلك البلاد

وبذلك التزم سعيد باشا باعفاء الاقباط من الخدمة العسكرية ولكن لم يترك هذا الصنيع هبأ للبطريرك بل كتم غيظه منه واتخذ الوسائط اللازمة لسمه بامر الحكومة ومات البطريرك المسكين مسموما نظير جهاده في سبيل راحة شعبه . وبعد موته صارت الحكومة تطرد مئات من الاقباط الموظفين في مصالحها .

وكان عباس باشا الغى المدارس الحربية التي انشأها محمد علي باشا فاخذ سعيد باشا تلاميذها الباقين منها واستخدمهم في جيشه وخرب الكتبخانة التي كان ابتدأ محمد على بجمع الكتب فيها واباده

وفي ايامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فاخمدها وبنى قلعة عند القناطر الخيرية سماها القلعة السعيدية سنة ١٢٧١ هـ وأدى فريضة الحج. وولى البرنس حليم باشا حكمداراً على السودان وزار سوريا سنة ١٨٥٩ م (١٢٧١ هـ) وكان اثناء مروره في شوارع بيروت ينثر الذهب على الناس

وفي سنة ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولي الخلافة بعده السلطان عبد العزيز وفي يوم السبت ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩ هـ أو ١٧ يناير سنة ١٨٦٣ م توفى سعيد باشا في الاسكندرية ونقل الى مدفن العائلة في القاهرة واخلفه اسماعيل باشا وهو ثاني أبناء المرحوم ابراهيم باشا بن محمد على باشا وكان اسماعيل باشا بارعاً في العلوم متقنا

فن الهندسة والرسم . واليه ينسب خصوصا ذلك الحمل الثقيل من الديون الباطلة التي تخرب أعظم مملكة تكون أقل ثروة طبيعية مثل القطر المصري ومع ذلك فان تلك الديون الهائلة انزلت بمصر الى حضيض الافلاس المدقع بالرغم عن ثروتها الطبيعية .

وكان اسماعيل باشا فيه روح الميل الى تعظيم نفسه ورفع مقامه الى مصاف السلاطين والملوك كاميال جده الاكبر محمد على ان هذا كان قليل الاشتغال والتاعب بوساوس ووشايات الاعداء بسائر أنواعها عن ذلك . ان حبه للشهرة والعظمة كان سبباً لتحسين مصر الاقتصادية والادبية فانه مد سكة حديد أخرى في انحاء الدلتا وحفر كثيراً من الترع وأنشأ مصلحة البوسطة وأنشأ السلوك التلغرافية والمدارس وأوجد الامن والضمان على الارواح والممتلكات ما عدا حوادث القتل والنهب التي كانت تحدث في سبيل صوالحه الشخصية . وكان معظم مصروفاته الخصوصية تقريباً على الحريم الذين بلغ عددهن نحو الف امرأة اسكنهن [1] في قصور مختلفة صرف على بنائها من الاموال التي كان يقترضها

وكانت الحرب الاميريكية في تلك الايام سبباً في جلب السعادة والرخاء العظيم على مصر عدة سنوات . فكثرت الطلبات على القطن

(١) معظم هؤلاء النسوة البائسات هلكن جوعا عند ما عزل اسماعيل عن الاريكة المصرية لو لم يتداركهن نجله توفيق باحساناته .

المصري في تلك السنين بلا حد وكان المزارعون المصريون يقبضون عنها
أثماناً عظيمة توهموا انها ستدوم الى الابد ولكن حصل رد فعل لتلك
المطالب وكانت النتيجة خراب كثير من المزارعين وكثير منهم سقطوا
بلا رجاء في قوة أيدي المداينين اليونان الذين أقرضوهم الاموال بالربا
الفاحش

وأحسن شيء جميل ونافع وثمين (للمصريين) وآخر صنيع نافع فى
أيام حكم اسماعيل هو قناة السويس. فكانت تلك القناة نصراً عظيما
للفرنساويين وأعظم عمل موافق لصالح الانكليز. ولكن فائدتها
للمصريين يداخلها الريب والشك واشترى اسماعيل هذه القناة من عالم
الوجود بحياة الالوف من رعاياه المصريين لانه لم يصرف عليها فقط
آخر فلس جمعه من الفلاحين التعساء بل اقترض على اثمانها أموالا طائلة
من كل قطر يقبل اقراضه. ولما أصبح من الواضح انه ان لم يتخذ لحاملي
سندات دين اسماعيل الوسائط القوية لصيانة أموالهم لما ردّت اليهم
الاموال ولا أرباحها فحكموا على دول أوروبا العظمى بالتداخل في شؤون
اسماعيل المالية. فجاءت وفود مالية مختلفة للمراقبة والتفتيش على نظارة
المالية فاظهر اسماعيل باشا المقاومة والعند لاولئك المراقبين الماليين

وشرع المالي الالماني العظيم بمفاتحته رسميا وله الفضل الاول في

ابتداء المخابرة وعقد المجالس القضائية وأخيراً أصدرت المحاكم الاهلية (١)
قراراتها لصالح الحكومة الالمانية التي كانت تطالب مصر بمبالغ عظيمة
من ديونها. فانكر اسماعيل باشا هذه الاحكام ورفض دفع الاموال
المطلوبة. فاتخذ البرنس بسمارك السياسي الداهية الالماني العظيم عند
اسماعيل هذا سببا لاقالته من الاريكة الخديوية. اما فرنسا وانكلترا
رفضتا التداخل والدولة العلية كانت أضعف من ان تفعل ما فعلته المانيا
ولا تقوى على عزله. وفي ١٩ يوليو سنة ١٨٧٩ م وصله تنبيه رسمي
بالاستقالة وبعد ان كظم اسماعيل غيظه وحنقه خمسة أيام كان في اثنائها
الاوروباويون القاطنين في القاهرة يترددون في حقيقة الخبر واذا به قد
انتشر في القاهرة خبراً مفاده ان اسماعيل باشا سلم عرشه المصري واعتزل
الملك ويوم ٢٦ يونيو نزل هذا الحاكم المعزول من القلعة وولي مكانه
ابنه محمد توفيق باشا

وكان توفيق باشا الوحيد في حسن الاخلاق من بين حكام الدول
الاسلامية "المختلفة" الذين حكموا مصر وكان الناس لا يفهمون اخلاقه
مدة حياته حتى مماته ولم ينل من انصافهم له الا القليل. وكان
يصعب على الاوروباويين وشعبه الاعتقاد بوجود اي واحد مخالف لتعاليمه

(١) كانت هذه المحاكم في الحقيقة احسن ما نفحت به مصر من النفع العظيم
ايام حكم اسماعيل والمصريون مدينون بالشكر والثناء لمؤسسها ناظر النظار المسيحي
المعروف لهم وهو نوبار باشا

ومبادئه. وكان من طبعه الاقتصاد والاعتكاف عن مخالطة الغير فاعتبر الناس ذلك منه بلادة او غباوة وتمهله بالضرب بصرامة للدفاع عن صوالحه الشخصيه اوضمان نفسه اعتبروه كذلك ضعفا فيه وليس تأن منه ورزانة وسعيه واجتهاده المخلص لاشتغاله جيداً مع العناصر المتضادة والمتناقضة حوله لصالح بلاده في غالب الاحيان كما نسبوه لعدم الاخلاص. وكان توفيق مسلما تقيا. ولكن قلبه كان خاليا من كل عوامل التعصب والحماس الديني وهذه العوامل اصبحت جزءا عظيما من دستور الاسلام. وخاطر بنفسه بين ابناء دينه نحو (الدوسة) وبعض مفاسد وبدع اخرى لا تليق من الدين الاسلامى. وكان مقتصراً على زوجة واحدة التي كانت له خير رفيق ومعين. ولكنه كان يظهر العطف والشفقة على مئات النساء البؤساء اللواتي تركهن ابيه وكان يبذل ما في وسعه لراحتهن

ولما ارسل اسماعيل يستدعيه امامه في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ ظن مع كل من في القصر انه سيسمه كما هي العادة ليتخلص منه حيث كانت الدول واضعة نظرها عليه. وكان طيب القلب. حسن السريرة. فكانت زوجته تتضرع اليه بدموع غزيرة. تمسكه ليهرب حيث كانت توجد الفرصة ولا يقدم نفسه للموت. وقيل انها ركضت وراءه بملابسها المنزلية

(١) طبقا للشريعة الاسلامية القديمة القاضية بان الذكر الارشد في العائلة هو الذي يرث الولاية المصرية فتوفيق باشا لم يكن الوارث طبقا للشريعة. وقد رشى اسماعيل الباب العالى لأخذ امتياز حصر الخديوية المصرية في اكبر ابنائه الذي لم تكن علاقاته معه على ما يرام.

لتمنعه عن الخروج فلم تتمكن من ذلك لان توفيق خرج مسرعا بدون تمهل لاعتقاده بلا شك انه يؤدي الواجب عليه. وبعد ذلك ببضع سنوات رفض بتاتا دعوة الاديرال الانكليزي له ليسرع ويلتجيء في باخرته الحربية (سنة ١٨٨٢) مع انه يعرف جيداً انه لا يوجد فرد واحد من رجاله يثق ويعتمد عليه. وكان ينتظر في ذلك اليوم ان رجال جيشه العصاه الثائرون سيقتلونه. واثناء أيام الثورة المفزعة المرعبة التي أعقبت ضرب الاسكندرية بالمدافع كان توفيق يخرج تقريبا بمفرده لاعادة الطمأنينة والامانة بين الاهالي الثائرين والمضروبين. ولم ينجُ بحياته من خطر الهلاك الا لحسن حظه في تعرفه بأحد الشبان الانكليز الذى كان أبيه موظفا في الحكومة المصرية واسرع هذا الشاب في الحال وأوقف طلق المدفع الذي كان سيذهب بحياة توفيق.

وموته الذي جاء بغير أوانه سنة ١٨٩٢ جعل ترك الانكليز لبلاده أدبيا من المستحيل. وبالكد لم يكن يوجد فرق عظيم بين جنازتين رسميتين مثل الفرق الذي بين جنازة توفيق وجنازة أبيه اسماعيل التي اتبعته بعد زمن يسير. ذلك لان جنازة توفيق لم تكن منتظرة بالمرة كما كان يعتقد الكل. فلما توفي فجأة لم يكن وقت كاف يمكن الحكومة من القيام بالاجرآت اللازمة للاحتفال بتشييعه. ولكن لما ذاع خبر موته فزع وهرع كل الشعب المصري على اختلاف أجناسه وأديانه وعليه علائم الحزن والاسف وازدحم الخلق في كل الشوارع واصطفوا فيها

صفوفا متواصلة بكثرة هائلة وهم ساكتون صامتون واذا أطلق ولداً صوته كانوا يسكتونه كان الجميع على رؤوسهم الطير حتى اقترب المشهد فسرى صوت حزن عام كسريان التيار الكهربائي بين جميع القوم المحتشدين . ولم يبق ولا واحد في القاهرة الا وخرج لرؤية المشهد والموظفون والتجار تركوا حوانيتهم والملاحون تركوا مراكبهم ليشاهدوا تلك الجنازة الوطنية . وبعض الانكليز الذين شاهدوا النعش بحزن مغطيا غطاً بسيطا ومحمولا بين ذلك الشعب المتكاثف كانهم رأوا كل ما كانوا يحبوا ان يروه من المشاهد الرسمية الدينية التي كانت تقام من زمن مديد في مصر . وكانوا يظنون انه لا يوجد شيء يوقظ سكان القاهرة المختلفي الاجناس الذين ليس لديهم الا شقشقة اللسان . فلما أنسوا الحزن على هؤلاء القوم عرفوا خطأهم فيما كان يظنون .

ولما مات اسماعيل وانتشرت الاخبار في القاهرة انه سيرجع اليها ثانيا ليدفن في مدافن العائلة الخديوية فالدهشة والرعب اللذان ساد بين معظم السكان الوطنيين كانت مما توجب الضحك والسخرية . وأول ما ابتدأوا بعجونهم هو انهم أبوا ألا يعتقدوا بان اسماعيل ليس ميتا بل حيا وصاروا ينوحون ويقولون ان الانكليز يعملون حيلة في ارجاعه ثم صاروا يقولون للانكليز (قد وعدتم ان اسماعيل لا يرجع مصر طول ايام حياته — ثم بالطبع هو مات — ليرجع ثانية بجنازته) هل اتخذتم الوسائط اللازمة ؟ هل ارسلتم الاطباء لانكليز لفتح النعش قبل نزوله

على البركه وتأكدتم أن اسماعيل فيه ؟ كلا لم تفعلوا ذلك — سوف ترون . أن اسماعيل راجع بجنازته بصفته ميتا ولكنه لما يرى نفسه انه في وسط البلاد فانه يكشف الخدعه ويقوم في الحال ويقبض على البلاد بيد من حديد — فماذا نعمل اذاً ؟ واصبح كل واحد يعرف ما الذي سيحدث قبيل ذلك وكل الذي كان يعتقد هذا الاعتقاد كان يترك مشاهدة الجناز الرسمي وحتى الذين أجبروا على حضوره انسحبوا من المشهد بحيل في نقط مختلفه على طول الطريق . فما وصل المشهد شارع محمد علي حتى كنت ترى الذين يتبعونه ليس الا جماعة الاوباش يعملون غاغة بلا فائدة الذين كانوا يظهر اما انهم غير مكترثين به أو اعداء له . ثم اسرعوا بدفنه في جامع الرفاعي الغير متمم البناء . ففرح كل المصريين لما صدقوا أن جثته حقيقية دفنت وان الخوف من قوة ضرره انتهى

ونرجع لتاريخ توفيق فنقول أن فضائله التي كان متحليا بها هي التي جلبت الخطر على عرشه . فعرابي العاصي كان قد سقط مع اصحابه في ذلك الحين الى درجات الذل والهوان باسباب نبذ طاعته وفساد سلوكه وانحرافه عن جادة الحق ايام اسماعيل . ولكن عاد اسماعيل فاحبه في اواخر حكمه ورقاه الى رتبة اميرالاي في الجيش واقسم يمينا مغلظا بين يدي اسماعيل انه سيكون في جانبه وتحت امره حتى الممات . وبعد ذلك القسم بثمانية واربعين ساعة توجه عرابي ليقدم فروض العبودية الى توفيق خديوي مصر الجديد الذي لما ارتقى على الاريكة الخديوية المصرية بذل جهده في

تفهيم الناس انه يعفو عن كل واحد له ذنب في الماضي . وبعد العفو يكون له حظا وافراً في المستقبل اذا احسن السلوك . فربما كان عرابي يقنع بذلك العفو وتلك الترقية ولا ينزع الى الثوره . ولكن ابت الظروف الا أن تجعل البكوات والبشوات الاتراك الذين تعودوا دائما الاذراء بالاخطار ووضع اساسات التحمس للقتال والضغط على الطبقات الواطيه من الاهالي وهم خلوا من القصاص هالهم أن يروا توفيق قد عزم بالخلاص على التعاون والاتحاد بمستشارية الاوروباويين على تجديد البلاد المصرية في الفلاح والنظام كانها مولدة ثانيه فعزموا على اتخاذ عرابي آله لقلب العرش الخديوي والدولة حتى يتخلصوا كما يعتقدون من المراقبة الاوروباوية . وساعدهم على غرضهم هذا مساعدة عظيمة بمساعي ذات معنى مهمه لبعض السواحين الانكليز الذين كانوا يعتقدون حقيقة أن عرابي هو زعيم وقائد حزب وطني مهم فاظهروا في الحال علنا ما ينوونه . ولكن بالنسبة لقلة فطنتهم وفقد رويتهم وسلوكهم ببصيرة قاصرة جعلوا الثوار يعتقدوا أن انكلترا وفرنسا لا تتداخلان في الامر كما وان الحكومة لا تقوى على تشتيت وتبديد ذلك التأثير

ففي شتاء سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ اصبح المركز حرجا وتزايد حراجه يوما بعد الاخر حتى اصبحت الجنود الوطنية في حالة غطرسة ووقاحة وتهديد متزايد وايام عدم الامن على الارواح والاموال قد عادت كما كانت قديما وتعرضوا للسيدات الانكليزيات فصار لا تسلم واحدة منهن من

سبها علنيا . واضحت حكايات القيام بمذبحة عامة في النصارى منتشره في البلاد وبعد بضعة اسابيع جاءتنا تعليمات من الوكالة البريطانية بان كل واحدة وواحد منا يحبس نفسه في صندوق صغير ويأخذ معه ضرورياته وان يستعد الجميع معا للدفاع عن انفسهم ساعة الخطر في أي لحظة .

ولكن في شهري ابريل ومايو لم يقم العصاة بامر مضر علنيا كما كانوا يشيعون وابتدأ الناس يفتكرون في أن الثورة ستكون قاصرة على الخطب التهديدية والاقوال عوضا عن الافعال ورجع اغلب السكان الى بيوتهم في فصل الصيف كالمعتاد .

اما الذين بقوا على الثورة ولم يفشوا بتلك الاقوال وقاموا بتلك الثورة والمذابح الهائلة في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ التي لم تمثل بابشع معانيها في ذاكرة كل واحد للآن فلا لزوم لتكرار سرد تفاصيلها المؤلمة والمحزنة . اما توفيق باشا فسافر من القاهرة الى الاسكندرية ولو انه لم يتاخر للتعرض في قمع تلك الثورة والضرب على ايدي القائمين بها لكن لم يقدر ان يفعل شيئاً لانه لم يجد احداً من رجال حكومته في حزبه بل رأى الجميع من حزب الثائرين وكان تقريباً منفرداً . وقد كان عنده سبباً جيدا في الاعتقاد بان انكلترا وفرنسا ستتركانه للاقدار ونصيبه في نتائج تلك الثورة . فمال الى التصديق بانكار اشتراك عرابي في جريمة المذبحة وصار يعتقد فيه انه الشخص الوحيد الذي فيه القوة الكافية لحسم الثورة واعادة النظام وكان يعرف من جهة اخرى أن السلطان كان يعضد

عرابي والثوار وحقيقة ذلك فانه في ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٢ انعم السلطان
على عرابي بالنيشان المجيدي الاكبر . وفي اثناء ذلك كان الاوروباويون
يمرون هاجرين البلاد المصرية بالالوف وكانت المراكب البحرية تقلع
مسرعة من اقرب الموانى المصرية مملوءة بالمهاجرين بدرجة الازدحام الهائل
الذي لا يوصف . وكانت قطارات سكة الحديد تقوم من داخلية البلاد
الى الاسكندرية وبورسعيد مملوءة بالناس الموضوعين فوق بعضهم حتى سقوف
العربيات. ووصل الاسكندرية في يوم ١٥ يونيو فقط اربعة الاف مهاجر. اما
التجارة فكسدت بالكلية وبدأت البنوك بترحيل اشغالها وموظفيها الى
المراكب الحربية التي كانت تقلع وعليها امم عظيمة من كل الاجناس
الاوروباوية وصار رفت ٣٠ر٠٠٠ من الاهالي من خدامانهم الاهلية
والاميرية وتركوا بائسين بلامعين يتضورون جوعا في الاسكندرية . وما
الاهالي فقط الذين يهربون من وجه الدهماء بل ايضا كان كبار العرب
والعائلات التركية يسرعون بمبارحة البلاد ويبتعدون عن الثائرين. فانذعر
عرابي من تلك الاحوال وادرك بعد فوات الوقت الغلط الذي وقع منه
واجتهد في جعل الاسكندرية في مركز ضرر عظيم ضد البواخر الحربية
الاوروباوية . فعرض رجال الاسطول الانكليزي على الخديوي
أن ينزل ويلتجىء في احدى بواخر الاسطول فابى بقوله انه لا يقدر أن
يترك الباقين معه على الاخلاص له (ولو أن الجيش المصري كان
كله ضده) كما وانه لا يود أن يهرب وينجو بنفسه ويترك مصر تهاجمها

قوة اجنبيه فيترك للقتل في أي لحظة بيد رجال جيشه الثائرين
ولكن عطف عليه الانكليز ورجع اليه ثانيا السير وكلاند كولفين يوم
١٠ يوليو ورجاه أن يجيب طلبه وينزل معه الى البحر .

وبعد محاولة الحصول على مساعدة فرنسا بلا فائدة تداخلت انكلترا
وحدها في الامر في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وظلت طول ذلك اليوم
تطلق مدافعها على طوابي الاسكندرية وما عتم المساء حتى خمدت تلك
الطوابي وصارت غير قادرة على المقاومة . ولسوء الحظ لم تنزل
الجنود الانكليزية الى البر بعد ذلك لامتلاك المدينة ونتج من هذا
التأخير انه بعد يومين قلبت تلك المدينة التعيسة الى ديوان أبالسه أو مجمع
شياطين بواسطة الجنود المتمردين الذين أبوا اطاعة أمر الانسحاب من
الطوابي وبواسطة السفلة والرعاع من الاهالي . وغصت الشوارع من
هؤلاء الاوباش الهائجين وهم يصرخون قائلين (نذبح النصارى ! نذبح
النصارى !) وصاروا ينهبون كل شيء يصل تحت أيديهم واطلقوا
النيران في المنازل فعم أجيج واشتعال النار في جميع انحاء المدينة .
واحترقت نقطة المنشية الكبرى وتخربت عن آخرها ما عدا الكنيسة
الانكليزية وأغلب البيوت التي في الشوارع الاوروباوية الكبرى . ولما
التزمت القوات البريطانية للنزول الى البر يومي ١٣ و١٤ يوليو سنة
١٨٨٢ ـ كانت مدينة الاسكندرية في حاله مرعبة ومذعرة مما
ولكن من بعد نزول الجنود البريطانية اليها لم تعد تتدهور الى حالة

أشنع مما كانت فيها بل أخذت في التحسين . وفي أغسطس من تلك السنة احتل الاسطول الانكليزي قناة السويس لئلا يردمها الثائرين ويسدونها ووصلت في الحال نجدة بريه مسرعة من انكلترا للمساعدة على الهجوم . وبعد عدة مناوشات بين العرابيين والانكليز كان عرابي يرسل الى القاهرة أحسن أخبارها السارة . وأخر معركة فاصلة بين الانكليز والثائرين كانت في التل الكبير في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ اذ بدد الانكليز شمل كل المصريين المحاربين وهرب عرابي الى بلبيس حيث ركب قطاراً وسافر به الى القاهرة في مساء تلك الليلة ولما وصلها أخذ يدبر وينظم طريقة في تخريب وقتل وسلب كل المدينة ولكن قبل ان يبتدىء العمل الفظيع في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ خيب الانكليز تدابيره ورحموا المدينة وأهاليها بسرعة الحاقهم به لانه بعد ان انقضت المعركة في يوم ١٣ سبتمبر وفر عرابي أسرع القائد الانكليزي بتجهيز فرقه خيالة صغيره تحت قيادة الجنرال دراري لو وأرسلها في ذات اليوم بعد المعركة لمتابعة عرابي فقطع رجالها خمسة وستين ميلا على ظهور الخيل ودخلوا القاهرة الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي أي يوم ١٤ منه وفي الحال طلب الجنرال دراري من حامية العباسية التسليم وهي حامية قوية مؤلفه من ٦٠٠٠ مقاتل فسلمت للانكليز بدون شرط عند أول اشارة . ولكن كانت حامية مصرية أخرى في القلعة يربو عددها نحو أربعة آلاف رجل فارسل الجنرال دراري الكولونيل واطسون

في كتيبتين من فرقة فرسان الحرس الرابعة ليأخذ القلعة حالا . ولكن عندما أوقف رجال الكتيبتين الانكليزيتين الجمة الخيول كان قد حان الغروب وأظلمت الطريق امامهم فلم تنثن عزيمتهم لاهمية ماعهد اليهم انجازه فتشجعوا وقاموا في الحال لانجاز الامر وساروا حتى وصلوا بوابات القلعة وأرسلوا الى القائد المصري الذي فيها يطلبون منه اخلاها من جنوده حالا بعد ان يسلموا سلاحهم للجنود الانكليزية فاصطف كل الجنود البياده المصرية في صفوف وألقوا سلاحهم وساروا عزل خارجين من بوابات القلعة امام قبضة من الجنود الانكليزية وحالما خرج آخر واحد من المصريين وتفرقوا جميعا أسرع الانكليز ودخلوا القلعة وأغلقوا بواباتها عليهم . وقد علمت من جواب كتبه لي أحد أصحابي الذي كان مرافقاً لذلك الركب الانكليزي الشهير (قال فيه انه ما كان على الانكليز ان يفعلوا الا ان يظلوا منتصبين على خيولهم صامتين حتى مرّ آخر عسكري مصري امامهم وبعدئذ ترجلوا وضجعوا على الارض مثل أكوام الحطب) . ولكن كان باقيا على الانكليز ان يأخذوا جبل المقطم وهو المتسلط على القلعة

ولما اختبر الكولونيل واطسون حالة الجنود المصرية تشجع ولم يعد يخشى بأسهم فأرسل أحد الضباط المصريين الذي كان يرشد الانكليز عن كل شيء وكلفه ان يتوجه لحامية المقطم ويكلف قائدها ليسير بجنوده الى قصر النيل ويسلموا سلاحهم هناك فذهب الضابط المصري وعاد

بعد ساعتين ومعه مفاتيح الحصن وأخبر الكولونيل واطسن ان أوامره تنفذت

وكان عرابي اثناء هذين اليومين مشغولا في ارسال الرسائل البرقية الى محمود سامي والقارىء يجد ترجمة تلك الرسائل في تأليف المستر رويل عن غزوة الانكليز لمصر فهي كتابة تلذ قرأتها جداً خصوصاً سؤاله عن وجود جيشه الذي تركه في التل الكبير لانه اختفى بالمرة . وفي الحقيقة ذلك لأن جيش التل الكبير لم يكن الا مجموع فلاحين بؤساء أجبروا على ترك مزارعهم وحمل السلاح في خلق قادمين ليس لهم معهم فائدة ولاهم من تابعي دينهم فبعد كسرتهم في المركة تفرقوا أيدي سبا وبعد قليل رجع الفلاح الى بيته في قريته وكانوا يرصعون الطريق بملابسهم ومهماتهم الحربية التي كانوا يتزيون بها كي لايعرفهم أحد انهم جنود . أما الجنود الذين كانوا في كفر الدوار وأبو قير ورشيد فسلموا أيضاً بدون حرب . وعبد العال الذي كان متحصناً في دمياط امتنع في باديء الامر عن التسليم ولكنه لما سمع ان الانكليز قادمين لضربه سلم في الحال

وفي ١٧ ستمبر سنة ١٨٨٢ أمضى الخديوي علي أمر عال يقضى بانحلال الجيش وتفريقه لان أغلبه كان قد رجع ثانياً لساحات القتال .

واحتل الانكليز كل المراكز العسكرية التى هجرها المصريون وقبضوا على زمام البلاد وظلوا فيها حتي اليوم.

ولا يمكنا ان نتكلم في هذا الكتاب عن كل الاسباب التي حملت

انكلترا ان تحتل الديار المصرية أو تبقى فيها لانه خارج عن موضوعنا وانما نقول بوجه الاجمال ان المعروف عند كل الناس ان اسراع الانكليز في دخول مصر ليس فقط انقذ القاهرة من الخراب والاوروباويين من الخطر الهائل الذى كان محدقاً بهم بل أيضاً جاء سداً حصيناً لمنع وقوع اضطهاد عام ضد الاقباط الذين كان أغلبهم يعرفون حرج موقفهم امام المسلمين وكان يستعد كثيرون منهم للاستشهاد الاكيد الذي كان سيحل بهم لو نجح عرابي في مساعيه قبل ان يدركه الانكليز حتى انه بعد الحوادث العرابية بزمن زار أحد السياح الانكليز الكنائس القبطية التي في وادي النطرون فوجد فيها صورة صلاة شكر لله باللغة العربية كان الاقباط يتلونها في الكنائس تذكاراً لله على مجيء الانكليز .

وتقريباً كل طبقات المصريين الذين يحدثون عنا يكرهوننا ويودون التخلص منا لاسباب لا يمكن لنا ايضاحها . ولكن تلك الاسباب لا تخجل أي انكليزي على الاطلاق مع علمهم ايضاً ان كثيراً من جماعات المصريين الذين كانوا يشتغلون أشغالا شاقه وهم ساكتون لايتجاسرون على تقديم الشكر للانكليز سواء كانوا مسلمين أو اقباطا — وان تجاسروا للشكر لايشكرون — ومثلهم في ذلك مثل الخوف الخرافي الذى يقود كثيراً من الاوروباويين ان يتجنبوا كل شعور مؤثر ويهيج لغيرتهم الوطنية

ومع ذلك فالحقائق واضحة تنطق شاهده لنفسها لان من يقلب الكتب يجد فيها مايدل على ذلك كله . ذلك لان الشرقيين ذوي ذاكره

قاصره . والجيل الذي تخرج هذه الايام من المدارس الحديثة النمط لا يعرفون شيئاً عن الايام الماضية في بلادهم — كقوة الضرائب الفادحة التي كان الحكام المستبدون يفرضونها على الفلاح المسكين الذي كان يجد ويتعب طول السنة ويصرف ثمرة أتعابه لدفع ضرائب كعدمها . لا يعرف أبناء هذا الجيل الاشغال الجبرية بلا أجرة التي كان يسخر فيها أجدادهم — لا يعرفون الضرب بالكرباج يميناً وشمالاً الذي كان يستعمله الحكام في الناس حتى من باب مجرد المزاح والهزل — لا يعرفون ان المحصولات كانت تخزن وتلقى على الارض حتى تتلف عن آخرها من نفسها لعدم وجود المال اللازم عند الفلاح ليقدم منه رشوة لمعاون الحكومه ليأتي ويجري شؤون وظيفته لتثمينها — لا يعرفون ان حتى ماء الحياة كان لا يعطى الا للغني والفقير يترك حتى يموت عطشاً كما كان في سنة ١٨٧٩ . لا يعرفون ان كل هذه المظالم القديمة قد خيم عليها العدل في هذه الايام . ولكن لا يقدر المصريون أهمية تلك المزايا والاصلاحات العظيمة التي أتاها الانكليز في بلادهم قبل الاوان حيث ان المثل الانكليزي يقول اذا كان يلزم ثلاثة أجيال لايجاد رجل حقيقي فلا شك انه لا يلزم اقل من ذلك لايجاد أمة حقيقية



الفصل الرابع والسبعون

الكنيسة القبطية في القرن التاسع عشر

سنة ١٨٠٩ مسيحية و١٥٢٥ للشهداء و١٢٢٤ للهجرة

كانت حالة الكنيسة القبطية في بدء القرن التاسع عشر في اسفل درجات الانحطاط سواء أن كان في عدد شعبها أو في الظروف والمصائب التي حلت بها . ومن اول فتوحات مصر المتتابعة بواسطة كثير من الحكام المسلمين لغاية فتح الفرنساويين لها والاقباط البؤساء مسيحيو الكنيسة الوطنية المصرية هم اول من يقع على رؤوسهم مساويء الفاتحين والمصائب التي ترافق وتعقب كل فتح . وعلاوه على الفقر المتزايد في الممالك العثمانية فان الاضطهاد الديني المزمن يزيد الرعايا العثمانيين تعاسة على تعاسة وعلى الخصوص اقباط مصر الذين ولو انهم كانوا طول حياتهم على أيام السلاطين المماليك عائشين عرضة للسلب والنهب والاضطهاد يومياً طبقاً لامزجه واميال مضطهديهم المسلمين فانهم على الاقل كانوا يستخدمون في التحريرات الفنيه العظيمة الفائدة التي كانوا يمارسونها . فكان المسلمون يستخدمونهم في بناء الجوامع الجميلة التي تعتبر اعظم مثال لصناعة النقش الحجري الشرقيه وفي كثير من الاحيان كانوا يستخدمونهم في تصوير خطوط اليد التي يوجد منها الآن مجموعات كثيرة معروضة في الكتبخانة

الخديوية ولا ننكر بلا شك أن المسلمين كانوا يميزون القبطي المسلم دائما عندما توجد ظروف التمييز والتفضيل عن القبطي المسيحي لان الاول اعتنق الاسلام والثاني باق مصر على اعتقاده فالمسلمون كانوا يستخدمون الاقباط المسيحيين اكثر من الاقباط المسلمين . ولكن اغلب الاقباط الذين أضاعوا دينهم المسيحي يظهر انهم ايضاً أضاعوا معه المعارف الصناعية والفنيه التي ينبذها دينهم الاسلامي الجديد وينهي عن ممارستها ويحرمها . الا أن صناعة الاويمه (النقش على الخشب) والنقش على النحاس والترصيع كانت لم تزل تستخدم بنسبة قليلة في المنازل الخصوصية . لكن صناعة النقش والرسم (التصوير) ماتت بالكلية وبعد فتح العثمانيين لمصر ما كان يوجد الا قليل من المباني العمومية المهمة ذات النقوش الثمينة كما ولا يوجد أيضاً أي كتابة يدوية على الحجارة مثل تلك الكتابات الجميلة التي كان يكتبها الصناع المصريون من القرن الثاني عشر الى الخامس عشر مذ كان يدفع لهم أجور عظيمة توازى قيمة اتعابهم . ومنظر منزل أو اثنين من المنازل الخصوصية في القرن السادس والسابع عشر يدل على ان ذلك الاثر الذي عاش زمنا طويلا من أجمل صناعة بني الانسان التى كانت في الاجيال الغابرة كثيرة الوجود أو هي من العادات في الديار المصرية . وحتى لما أصبحت دولة محمد علي المقدوني هي الحاكمة للبلاد الآن لم تلاحظ صد طيار عوامل تحقير ومحو الاثار المعمارية العظيمة بل أيضا عجلت في اخلا السبيل لذلك الطيار حتى يسرع

في ازالتها . والذوق الفرنساوي بارداً معانيه ساد الآن في البلاد وأصبحت مبانيها وصنايعها على النسق الحديث . وقلت الرغبة والاميال عن ذي قبل لطلب الحرف والصنايع اليدوية الفنية التى برع فيها الاقباط براعة عظيمة . وأصبح الناس لا ينظرون بعين العظمة والوقار الا المهارة صناعة أسلاف الاقباط وهم المصريون القدماء ولذا صار الاقباط يتدهورون في درجات الهبوط حتى أفقدوا تلك المزية العظيمة من أيديهم بالمرة وأصبحوا لا يصلحون الا كتبه في مصالح الحكومة . وفي زمن ارتقاء محمد علي على الاريكة المصرية كان تعداد الاقباط المصريين قليل جداً اذ لما أراد محمد علي ان يحصر تعدادهم وجدهم ١٥٠٠٠٠ نفس فقط لكن عمال التعداد نسوا حاره من القاهرة لم يحصروها وهذا أقل عدد وصل اليه الاقباط بعد ان كانوا يعدون بعشرات الملايين في مصر والسودان . ولم يوصلهم لدرجة التلاشي من الوجود تقريبا الا تلك الاضطهادات الدينية العظيمة التى أتاها معهم الاسلام منذ الفتح الاسلامي . الا انه في سنة ١٨٥٥ قد أحصاهم البطريرك فوجد عددهم لا يقل ولا يزيد عن مايتان وسبعة عشر الف نفس (٢١٧٠٠٠) بينما كان كل تعداد سكان القطر المصري في ذلك الحين خمسة ملايين من النفوس . وقد تلاحظ انهم تحسنوا تحسيناً بيناً من ابتداء أيام محمد علي باشا فصاعداً . وبالرغم عن غبنهم وخسارتهم وشبوب وانفجار الاضطهادات التى كانت تقع عليهم كل آونه وأخرى فانهم كانوا ثابتين في خطة التحسين المضطرده .

وبينما كانت الكنيسة القبطية الوطنية في احط درجات الموت اوائل القرن التاسع عشر فان الكنيسة اليونانية (الملكية) كانت اردأ منها بكثير. وقد كانت على وشك الفناء في القرن الثامن عشر . ويوجد كثير من اسماء البطاركة الذين تعاقبوا رئاستها ولكن لم يشتهر من سلسلة تلك الاسماء الا واحداً فقط وهو البطريرك فموثيل الذي ترأسها سنة ٦٧١ مسيحية اما الباقون فكانوا كلهم من الاجانب ولم يقم منهم في مصر الا القليل جداً ولم يكن لهم اساقفة بل عدد قليل من الكهنة ولكن بعد جلوس محمد علي على العرش المصري ابتدأت روح الحياة تتحرك في عروقهم كالاقباط . لان بطريركهم هيروثيوس الذي قام بين ظهرانيهم على خلاف عادة اسلافه كان على جانب عظيم من التقوى والجهاد في خدمة امته التي كان عددها نحو خمسة الاف نسمة وكانت ميالة اليه ومحبة له. كان وقد تولى هذا البطريرك رئاسة الكنيسة اليونانية عام ١٨٢٥ فاحسن الصلات مع الكنيسة القبطية حتى انه لما توفى عام ١٨٤٦ وشيعت جنازته باحتفال عظيم جدا كان رجال الاكليروس القبطي جميعا من ضمن مشيعيه. وعلى اثر وفاته حدث شقاق ونزاع عظيمين بين هيئات الاكليروس في القسطنطينية الذين كان يعضدهم حزب قوي في الديار المصرية وحزب اخر من الملكيين المصريين (المصريين الذين يتبعون الكنيسة اليونانية) الذي وان كان قليلا لكنه كان عظيما ومحترماً ولم يكن منشأ هذا النزاع الا الاختلاف على من يجب تعيينه بطريركا في مصر بدل المتوفي . الا

أن ذلك النزاع اوقع الطائفة اليونانية في حالة الارتباك والاختبال وكان الجالس على عرش ماري مرقس الانجيلي طول مدة النصف الاول من القرن التاسع عشر هو البطريرك بطرس السابع الذي أخلف البطريرك مرقس سنة ١٨٠٩ ولم يمت بطرس الا في سنة ١٨٥٤ مسيحية وكانت مدة جلوسه أطول من كل مدد البطاركة الذين تقدموه في التاريخ . وقد كان ذلك الرجل سامي الاخلاق واسع العقل كثير الانشراح والسرور من التحسين العظيم الجديد الذي تم على أيامه . كثير الرغبة باخلاص ليرفع كنيسته وشعبه من وهدة الانحطاط . ولكن مشروعات المرسلين الكاثوليك الذين قاموا في القرن الثامن عشر أخيراً التدبير طريقة لتأسيس كنيسة متحدة حقيقية في مصر كانت تحتوي بالاخص على المسيحيين الملكيين . لكنها تجرأت أيضا على سحب واغراء كثير من شعب الكنيسة القبطية الى حظيرتها فدعى ذلك الى ايجاد سوء المظنة عند انبا بطرس بطريرك الاقباط في النفوذ والتيار الغربي

ولكن حصل اثناء ذلك ان شعباً غريبا قام لتعضيد الكنيسة القبطية [1] المصرية حتى تتقدم وتنموا بدلا من ان يزداد ضعفها بواسطة المساعي التي قام بها الكاثوليك لتبديد أعضائها واغرائهم على الدخول في المذهب الكاثوليكي وقد بدأ تلك المساعي العظيمة جناب المحترم المستر

(١) قام الانكليز قبل هذه المرة ببذل المساعي لمساعدة الكنيسة اليونانية (الملكية) ولم يلتفتوا للكنيسة القبطية الوطنية بالمرة

هنري تاتام الانكليزي الذي وجه التفاته خصوصا في اثناء بحثه على الكتابات اليدوية القديمة التى كانت كلها من صنعهم فكتب الى المحتشم المستر هولي رئيس الاساقفة بانكلترا يحضه على القيام بواجب الكنيسة الانكليزية نحو الكنيسة القبطية القديمة التعيسة وابتدأت المخابرات بينهما سنة ١٨٣٦ مسيحية ودامت متواصلة بضع سنوات. وكانت شركة التورات قبل ذلك قد طبعت أربعة أناجيل باللغتين العربية والقبطية قامت شركة طبع الكتب المقدسة بطبع ترجمات عربية من التفاسير المصرية القديمة.

ولم يكن المستر تاتام أول من هام ولذ له البحث في الكتابة اليدويه المصرية القديمة ولو انه أول رجل انكليزي حض الكنيسة الوطنية الانكليزية للمجيء وأخذ بيد الكنيسة الوطنية القبطية المصرية المداسة تحت الاقدام ومساعدتها. وفي سنة ١٨٣٣ م جاء أيضاً المستر كرزون الى الشرق للبحث على الكتابات اليدوية القديمة وزار أكثرواهم الصوامع والاديره المصرية (١). ولسوء الحظ فانه كان مجبوراً مثل باقي

(١) وجد المستر كرزون في دير وادي النطرون تلك المصابيح الزجاجية الجميلة لم تزل معلقة في الكنائس وهى المعروفة عند العموم انها من صناعة العرب وقاصرة على تزيين الجوامع فقط الآن مع ان العرب نقلوا تلك الرسوم البديعة عن اشكال ورسوم القناديل التي كان يصنعها الاقباط وخصوصاً أجمل أشكالها ما كان يستعمل عندهم للكنائس واللوازم الدينية ولكن المستر كرزون رأى ان كل المعامل القديمة التي كانت تصنع فيها تلك القناديل في وادي النطرون قد اندثرت بالكلية من زمن طويل وتلاشت الاعوذجات التي نقل منها العرب شكل قناديلهم.

السواحين الذين تقدموا ان يأخذ كل معلوماته بواسطة مترجمين من المسلمين اكثروا من اجتماعهم بالسواحين حتى صار الاقباط يسيئون فيهم الظن. ولكن ملحوظاته الشخصية عما رآه والاتفاقات الغريبة التي صادفها والمملوءة بكثير من الفائدة واللذة وعلى الخصوص بعد عدة اكتشافات كان المستر تاتام قادراً على الحصول على كثير من الكتابات اليدوية الثمينة من الاديرة القبطية. وكانت زيارة المستر تاتام الديار المصرية من سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٣٩ م وصادفته مشاق واتعاب عظيمة جداً حتى تمكن من معرفة ودرس بعض الشيء عن الكنيسة القبطية وايجاد أصحاب له واصدقاء من أبنائها. وقد جاء مصر أيضا عام ١٨٣٠ المستر ليدر موفدا من قبل جمعية التبشير فأوجد الصلات الحبيه بينه وبين الاقباط وتمكن بذلك من ان يعضد ويفيد المستر تاتام وجناب رئيس الاساقفة بانكلترا فوائداً جمة وقد زار المستر تاتام أديرة وادي النطرون وتحصل على تصريح بأخذ كثير من الكتابات اليدوية الثمينة منها. ومن ضمن ما أخذه كتابة الثالوث الاقدس بخط البطريرك كيرلس الاكبر الذي نسخها في سنة ٦١١ م فيكون مضى عليها الآن (سنة ١٨٩٧ م) ١٢٨٦ سنة فهي من الآثار القبطية العظيمة وأيضاً وجد أكثر من ثلثمائة قطعة من الخطوط اليدويه السورية القديمة غاية في الجمال ومكتوبة على رقوق الغزال بخلاف عدد عظيم من الكتب المهمة المهملة والمفقود منها أوراق كثيرة. وهذه الآثار التي لا تقدر قيمتها هي

الاثر الباقي للمكتبة القبطية القديمة التي كانت بدير السوريان ثم حملت بعدئذ الى دار الاثار البريطانية

وبعد ان وصل المستر تاتام الى انكلترا في مارس سنة ١٨٤٠ م قدم الى سيادة رئيس الاساقفة مذكرة عظيمة ومهمة للغاية مبينا فيها حال الكنيسة القبطية المصرية بالاختصار وذيل تلك المذكرة بالالحاح بحرارة على الكنيسة البريطانية طالبا منها مساعدة تلك الكنيسة التعيسة وأسهب في أقواله حتى أبان ان هذه المساعدة يمكن اتخاذها فرصة سانحة للتأثير على المصريين الاقباط

وزار مصر أيضا قسيس انكليزي آخر يدعى ت . جرعشو في شتاء سنة ١٨٣٩ - ١٨٤٠ تصادق مع كثيرين من أعضاء الكنيسة القبطية المصرية. وكانت نتيجة هذه الصداقة انه كتب الى رئيس أساقفة انكلترا يحضه على مساعدة هذه الكنيسة المصرية. وفعلا عرض عليه رسميا عن ايجاد كلية لشبان الاقباط الذين يرغبون تعليم اللاهوت للاندماج في سلك الاكليروس ويصبحون قسوسا متعلمين ينفعون كنيستهم القبطيه . وقد أنشئت فعلا تلك الكلية وظلت فاتحة أبوابها للطلاب عدة سنوات بادارة المستر ليدر لكن بعدئذ همدت عزيمته ووهنت شجاعته لما آنس الضعف في هذا المشروع وكان نجاحه قليلا ولسوء الحظ أبطل الكلية وغلقها سنة ١٨٤٨ م . مع ان البذور التى بذرها المستر ليدر في بضع سنوات قد أثمرت حتى في نسل الذين يتعلمون فيها . ولو كان يعلم المستر ليدر

له لو لم يتم رسامة قسيس واحد من تلاميذ مدرسته لكنها أخرجت فقط بعد تمادي الوقت البطريرك العظيم المعروف كيرلس (بأبي الاصلاح) الذي كان من تلاميذها لربما كان تشجع وواظب على عمله ولم يعطل المدرسة .

ومما يحسن ذكره ان الكنيسة القبطية مع ما مرّ عليها من الايام المظلمة السوداء على أشدها لم تهمل أبداً تعليم أبنائها . فقد كان لها في كل ابرشيه مدرسة يتعلم فيها أبناؤها الكتابة والقراءة ولكنها أهملت البنات من عدة أجيال وتركتهن يلتقطن حسب رغبتهن من ثمرات التعليم كل ما يعثرن عليه كالعصفور الذي يلتقط الحبوب التى تصادفه عفواً حينما يسعى طالباً غذاءه لان الكنيسة لم تضع لهن طريقة تعليم منتظمة في المنازل أو في المدارس . ولكن قد لاحظ البطريرك المشهور كيرلس أبو الاصلاح الذي أخلف البطريرك بطرس سنة ١٨٥٤ رداءة هذه الحالة وعرف ما ينتج من المساويء فأسس مدرستين منتظمتين الاولى للبنات والاخرى للبنين وقد كان التعليم فيهما عظيما والعلوم التى تدرس من أرقى ما يدرس من نوعها في المدارس العالية والراقية

وقد كان الانبا كيرلس المعروف بأبي الاصلاح قبل ان يتولى السدة البطريركية رئيساً منذ سنوات لدير أنبا انطونيوس الشهير وعند دعوته من الدير ليشغل العرش البابوي ابتهج به الشعب القبطي لدرجة فوق التصديق ولما علم أقرانه الذين كانوا يدرسون معه ان له رغبة في

اصلاح الكنيسة صاروا يلغطون بتعيينه حتى لما اجتمع مجمع الاساقفه في القاهرة لانتخاب بطريرك وقد نقص عدده ١٢٥ عضواً عن المعتاد لم يسمعوا الا اسم كيرلس في فم كل قبطي لانتخابه بطريركا . ثم ان هؤلاء الاساقفة بالنسبة لكبر سنهم وجبنهم غالبا قد ترددوا في تزكية وتسليم قوة عظمى ليد شاب غيور مثل كيرلس الذي تربى تربية أجنبية وقد أشيع وتأكد الناس انهم كانوا على عزم لانتخاب راهب أبله جاهل راح اسمه عن ذاكرتي الآن فثار عليهم الشعب ثورة حقيقية واستصحب معه جماعة من الاحباش المتسلحين وأسرعوا جميعا الى الكنيسة الكاتدرائية حيث كان الاساقفة مجتمعين بها لاجراء الانتخاب فهجموا عليهم وأبطلوا الانتخاب بالقوة الجبرية فما كان من هؤلاء الاساقفة الشيوخ المساكين العقول الا انهم هربوا من الكنيسة ثم التزموا ان يرضخوا ويقبلوا صوت نواب الشعب وبعده تم الاتفاق بين الطرفين (الاساقفة والعلمانيين) بطريقة تحكيم غريبة : —

وهي انه يصير تأجيل انتخاب البطريرك ويصير تدشين كيرلس مطرانا لبابيلون (القاهرة) على شرط انه اذا أظهر كفاءة تامة في وظيفة الاسقفية ينتخب بطريركا . ولكن كانت مواد هذا التحكيم الغريبة غير أصولية بالمرة لانه طبقا لمواد القوانين الكنائسية القبطية لا يجوز تحليل أو تأويل تلك المواد التي منها عدم جواز انتخاب أسقف لوظيفة البطريركية ولكن بالرغم عن ذلك فقد قام الاساقفة بمعاهدتهم مع الشعب بكل أمانة وانتخبوا كيرلس على العرش البابوي الخالي حتى قبل ان ينتهي

وقت التجربة .

غير انه من الاسف لم تدم رئاسة كيرلس الكهنوتية الا سبع سنوات صرف اثنين منها في الحبشة والباقية في مصر الا انه مع هذا الزمن القصير قد افتتح حركة الاصلاح العظيمة بنفسه ولم تقف هذه الحركة بعدئذ بل تقوت وانتشرت بقوة حية حتى استلمها أبناء الجيل الحاضر ذلك عدا عن المدارس التي شيدها بجوار الكنيسة الكاتدرائية التي أعاد بناءها كلها مرة ثانية لانها كانت بلا قباب تستحق الذكر بالنسبة لسرعة تشييدها في بادىء الامر لتخريب وتهديم حي الاقباط القديم أيام عودة الترك للبلاد ثانياً سنة ١٨٠٢ مسيحية وخصوصاً وانه تم بناؤها على نفقة أحد الاعيان الاقباط الكرماء على عهد البطريرك مرقس الثامن .

وقد كان كيرلس أبو الاصلاح عالماً بأصول دينه فلما ان ارتقى العرش البابوي رأى شعبه واقعاً في خطية عبادة الاصنام وذلك لسجودهم الايقونات التي يعتبرونها مقدسة ومرصوصة على جدران الكاتدرائية القديمة فعند ماشيد الكاتدرائية الجديدة لم يسمح بنقل تلك الايقونات اليها بل جمعها كلها ووضعها على بعضها وحرقها باحتفال كبير امام جمع عظيم من الناس . ووقف في وسط الجمع المحتشد من رعيته وخطب فيهم مبينا سبب هذا الحريق . ولما أن انتهى من وعظه أشار بيده الى كوم الحريق وقال (انظروا لهذه الصور الخشبية التي تعودتم احترامها لدرجة العبادة —

ها هي صارت رماداً لا تنفعكم ولا تضركم ! فالله وحده هو الذي يستحق العبادة والسجود) ولا يسعنا اظهار الاسف الشديد على عمل كيرلس هذا لانه قد اندثر شيئاً عظيماً من الآثار الفنية الجميلة العظيمة الصنع في سبيل درسه [1] العظيم الذي ألقاه على شعبه ولكن فن التصوير أصبح تقريباً معدوماً بالكلية في مصر من عهد الفتح العثماني حتى ان الصور التي رسمت لكاتدرائية البطريرك مرقس الثامن التي حرقها كيرلس كما تقدم كانت تدل على غشم المصور وأردأ صنعا من الصور التي كانت موضوعه على جدران الكاتدرائية التي جدد بناءها كيرلس المصلح . والدليل على ذلك انها لو كانت صور جميلة الصنع حقيقة لما سمح كيرلس مطلقا بحرقها ونقول بالاجمال عن هذا الموضوع ان الاقباط في ذلك العصر لم يكونوا قد فقدوا شعور جمالهم حتى في أيام جهلهم لم يحرموا تقريبا من شعورهم التاريخي بالكلية والبرهان الحسي لذلك والذي يستحق الذكر البناء العظيم

(١) والامر الغريب الذي نستنتجه من هذه الحادثة ان الاقباط الذين كانوا في عهد البطريرك كيرلس كانوا مداومين على تأدية ذات الاحترام الزائد لصورهم المقدسة كأبناء الكنيسة اليونانية . مع ان الاقباط في كل العصور الماضيه لم يظهروا أي دليل أو برهان لاعتقادهم باية فائدة من عبادة الايقونات . وأبناء الكنيسة القبطية هذه الايام لا يلتفتون للصور المعلقة على جدران كنائسهم اكثر مما نلتفت نحن للصور التي في الزجاج الملون على شبابيك منازلنا الانكليزية مع ان صور العباده في المنازل القبطية اندر منها في منازلنا

الذي شيده نخله بك الباراتي في الحصن الروماني (قصر الشمع) وهذا النبيل هو علماني تقي من أبناء الكنيسة الوطنية (القبطية) تعهد بتجديد كاتدرائية بابيلونه القديمة المشهورة باسم كنيسة المعلقة ونحوها [2] أيضاً على نفقته الخصوصية . وكان يحفظ جيداً على كل قطعة قديمة الصنع جميلة المنظر وبقي حارسا عليها حتى انه بعد اتمام البناء صار ينقلها بكل حذر ويوضعها في المحل المعد لها . وبعد ان تم البناء والترتيب صار يتعذر جداً على الناظر بعد امعان النظر والتفحص الدقيق ان يميز بين الكنيسة الجديدة والقديمة . غير اننا لما نتذكر أعمال التخريب والتوحش الذي كنا مخطئين فيه بانكلترا عند ابتداء تجديد الكنائس ونعتقد ان كنيسة المعلقة هي أول مثال من نوعه في التجديد لا نقدر ان نعجب بانفسنا ومع ذلك فان علماء الآثار الانكليز بالكد يشهدون شهادة حسنة لنخله بك الذي صرف ٦٠٠٠ ستة آلاف جنيه من ماله الخاص على ذلك التجديد

(٢) أغلب الكنائس القبطية تجددت منذ دخول الانكليز في البلاد الا ان ابتدأ العمل في التجديد كان قبل دخولهم أي من ابتدا سنة ١٨٨٩ م . ومما يحسن ذكره بالاسف أن أعظم خسارة حلت بالاقباط كانت بسبب أحد السياح الانكليز . اذ قدم مائة جنيه انكليزي بصفة رشوة لاحد الرهبان الادنياء ليسمح له أن يسرق بعض أبواب الكنائس الجميلة المقدسة المشغولة بالاويمة من خشب أرزلبنان ويأخذها معه الى باريس وقد تم ذلك . وبعدئذ صار بيعها الى المتحف البريطاني وموجودة فيه الى الآن

وهو مبلغ عظيم لم يوقعه فيه الا ضعف معارفه في التاريخ .

وكان السبب في كل هذه النفقات الباهظة أيضا انه أتم ترميم طابية حصن تراجان التي تخرب نصفها تقريباً وقد كانت هذه الطابية أهم حصن تخفي الاقباط وراءه أثمن شيء لديهم حتى يحفظوه في مأمن من الاعداء . ولم يكن للكنيسة مدخل مناسب لها بل كان الانسان يصل اليها من داخل برباء ذات ممرات ضيقة تنفذ من البوابة الصغيرة الموجود على مقربة من الزاوية الشمالية الشرقية من الحصن . والتزم نخله بك ان يهدم كل ما في طريق السلالم الجديدة وكل ما في أقرب نقطة من السور القديم وفتح له مدخلاً جديداً من البناء الروماني الصلد الذي يبلغ عرضه نحو ثمانية أقدام ولم يكن هذا فقط أردأ ما فعل . فان أحد البرجين العظمين المتاخين لمدخل الحصن الجنوبي القديم قد هدمه حتى لايعترض اقامة حائط جديد كما ان البرج الثاني كاد يلاقي نصيبه لولم يكن حظه سعيداً وتحولت انظار نخله بك عنه . ولما سمع اللورد كرومر بما هو جار في حصن الرومانيين أصدر أمره الذي لا يحلم أحد في مصر بنقضه أو المجادلة فيه . فلم يقدر أحد بعدئذ ان يمس حجراً واحداً من بقايا ذلك الحصن الروماني .

ومن ذلك الحين أصبحت الاثار القبطية تحت عناية لجنة حفظ الاثار العربية مما سر غالب الاقباط من حيثية حماية كنائسهم وحفظها من تطرق الخلل أو يد السالبين اليها . وفوق ذلك فقد صادق البطريرك أيضاً على عدم التصريح لاجراء اصلاحات أو ترميمات أو اعادة أبنية

قديمة دون موافقة اثنين من أعضاء لجنة حفظ الاثار تنتخبهما اللجنة لهذا الغرض . وحقيقي ان البطريرك التمس من اللورد كرومر ان يوجه عنايته لهذا الامر وان يصدر منشوراً ينهي فيه السياح ان لا يغيروا أو يرشوا خفراء وحراس الكنائس كي يسهلوا لهم السبيل في سلب بعض الذخائر الفنيه القديمة التي لم يزل موجود بعضها في الكنائس فالتزم اللورد ان يعترف للبطريرك الحالي ان سلطته لا تسري على السياح الذين يعتبرون الآن أساس الخطر الحقيقي الذي يحدق بآثار الكنائس القبطية .

وقررت جمعية التبشير الانكليزية ان العمل الذي أسسته الكنيسة البريطانية في مصر في سنة ١٨٤٨ م قد هجرته في السنة التالية لتوليه البطريرك كيرلس الرابع على العرش البطريركي وحلت محلها في ذلك العمل الكنيسة الامريكية بواسطة جمعية التبشير المشيخية التي كانت مثابرة على عملها قبل ذلك الوقت بزمن طويل ولكن هذه الجمعية الاخيرة قد حذت حذو جمعية التبشير الانكليزية ومع ان مبدأ عمل الجمعيتين في هذه البلاد هو لبث روح الديانة المسيحية بين المسلمين وليس للتبشير بين الاقباط فانهما كانتا كباقي الارساليات الدينية التي لهذه البلاد فلا تجد الا صعوبة وبطئا شديداً في نجاحها مع المسلمين فلم تيأس وتترك عملها بل كانت تجتهد في تلمذة تلاميذها من أبناء الكنيسة القبطية والحقيقة التي لا ريب فيها ان هذه الكنيسة تستقبح جداً وتنكر على تلك الارساليات عملها .

وكنيسة المبشرين الانكليز الحديثة التي أنشأت في مصر سنة ١٨٨٤ مسيحية لا يستقبحها الاقباط لان الكنيسة القبطيه تعترف ان كنيسة انكلترا هي كنيسة أسقفية حقيقية ورسلها لا يقودون أبناء الكنيسة القبطيه الى الهرطقه ولا يلمونهم الاعتراف بعظمة بابا روميه الذي تحتج عليه الكنيسة القبطيه بنزعة راسخه من منذ أكثر من أربعة عشر جيلا ولكن مع ممنونية الاقباط وشكرهم الزائد الى المشيخيين الاميركان لالطافهم نحوهم والاساءة المرضيه التي يلاقونها منهم — فانهم أي الاقباط يحزنون حزناً شديداً من أعماق قلوبهم لانتشار مذهب المشيخيين بين الخائنين والمنشقين من الاقباط

ولا بد ان يكون دائما منبع أسف شديد عند أعضاء الكنيسة الانكليزية الذين عهد اليهم العمل في أول الامر وبتقصيرهم وانحرافهم عن جادة الصواب قد أنجز العمل عن يد أعضاء كنيسة أخرى التي يقضي عليها دستورها بان نجاحها يتوقف على ضرر الكنيسة الوطنية المصرية بمقدار الضرر الذي يصيبها فيما اذا خزلت في اتمام مأموريتها — فنحن الذين وضعنا يدنا على المحراث ونظرنا الى الوراء أصبحنا آخر الشعوب ذوي الحقوق في انتقاد طرق الغيورين من الرجال والسيدات الذين قاموا بعبء الحمل الثقيل وحرارة شمس النهار في وسط كروم الرب

واجتهد البطريرك كيرلس بتقريب الاعتراف بالثلاث كنائس في مصر بين شعبه وهي الكنيسة القبطية والكنيسة اليونانية

والانكليزية . ولكن مساعيه هذه قد الفتت سوء المظنه به عند الحكام المسلمين في مصر فاعتبروا ذلك المشروع خيانة منه وخروجاً عليهم فدبروا طريقه لاعدامه فتوفي مسموماً . وبعد وفاته أصيبت مصر بحركة اصلاح لم اتصل اليه حتى الآن

وخلفه الانبا دمتريوس على السده البطريركيه الذي كان رجلا صالحا وعادلاً ولكنه لم يكن كفؤاً للقيام باعمال ومشروعات سلفه حتى انضم في عهده كثيرون من الاقباط الذين كانوا يرغبون في زيادة التعبد والجنوح الى الحياة السياسية الراقيه الى الكنيسة المشيخيه الاميركيه اما باقي ابناء الكنيسه القبطيه الوطنيه الذين تربوا على معرفة زهاء ومجد كنيستهم الاصليه وطقوسها الاسقفية فوقعوا في يأس عظيم . وهذا العمل حدا البطريرك ان يحرم الكنيسة الهرطوقيه (الاميركيه المشيخيه) التي كانت قد أسست لها دعائم ثابتة في الديار المصرية وعلى الخصوص في الوجه القبلي . ولكن ذلك لم يرق في عيني الطبقة المتعلمه من الاقباط العلمانيين لان الحرم في نظرهم لا يعتبر عمل ديني عظيم جادت به كنيستهم ولا هو من النجاح والفائدة على شيء البته (١)

(١) وفي سنة ١٨٦١ مسيحية التي ارتقى فيها الانبا دمتريوس على العرش البطريركي انشأت مس هواتلي مدارسها المشهورة في القاهرة بالفجاله . وكان قصدها من فتح هذه المدارس هو جذب ابناء المسلمين الى الديانة المسيحية ولم تكن تقصد ذلك مع الاقباط ولو انها تصدت كثيراً في ذلك للسوريين المسيحيين

ولما توفي الانبا ديمتريوس تشاور الشعب القبطي فيما بينه واقر قبل ان ينتخب بطريركا جديداً ان يطلب منه اعتماد مشروع سنه لاصلاح الكنيسة . وقد اجتهد كردينالات رومه ليقيدوا باباهم المقبل بمثل ما فعل الاقباط وبذات النتيجة التي توصلوا اليها هؤلاء .

وقد بني الشعب القبطي عمله هذا مع البطريرك على أساس مادة في القانون الكنائسي الذي تمشى عليه الكنيسة القبطيه كما روي ذلك ابن العسال الذي عاش في القرن الثالث عشر ونص هذه المادة في القانون المذكور هي : —

يجب على البطريرك ان يشاور علماء واتقياء رجال شعبه من الاكليروس والعلمانيين (وعلى الخصوص الاشخاص الملتفين حول الملك الحاكم) جمعاً وانفراديا في كل الشؤون الهامه المختصه بالشعب والكنيسة وما يقررون عليه يجب تدوينه)

فاعتماداً على ما ذكر قد وضع نخبة الاقباط مشروعا المقصود منه تأسيس مجلس ملي في ابرشيه مكون من فرعين اكليريكي والثاني علماني ويكون هذا المجلس تحت رئاسة أسقف الابرشيه وينتخب أعضاؤه كل خمس سنوات من الحائزين على حقوق الانتخاب واعتمدوا هذا المشروع بامضاء وموافقة مطران الاسكندرية ووكيل الكرازه المرقسيه والقائم مقام البطريرك وقتئذ لخلو الكرسي البطريركي .

وقد صادق جميع الاساقفه على هذا المشروع ولكن الشعب لم يره

الدواء الشافي للاصلاح المنشود فتفاوض أحد الاعيان مع سعادة بطرس باشا غالي وهذا استصدر دكريتو خديوي بتأسيس هذا المجلس بصفه قانونية رسميه . وبعد جدال واختبارات كثيرة مدة سنتين في شؤون الاصلاح انتخبوا انبا كيرلس الخامس البطريرك الحالي سنة ١٨٧٥ مسيحيه الذي تعهد عند تبوئه العرش المرقسي ان يوافق ويؤيد كل القرارات التي أقرها الشعب قبل انتخابه .

وفعلا ظل البطريرك والمجلس الملي يعملان بيد واحدة واتفاق تام في اصلاح الكنيسة والشؤون المليه الى درجه كانت من نتائجها انشاء المدرسة الاكليريكيه في القاهرة ووضعها تحت رئاسة المتنيح الايغومانوس فيلوثاؤوس رئيس الكنيسة الكاتدرائية المرقسيه بالقاهرة لانه كان رجلا نادر المثال في كفاءته العلمية والشخصية . ثم تصادف عقب هذا الوفاق بين الشعب والبطريرك حصول نفور بين الطرفين الجأ البطريرك الى عدم الصبر والتأفف من احتمال قوة سلطة أخرى تعمل بجانبه لم يخضع لها أو يحتملها أحدا من أسلافه . فلما رأى نفسه غير مقتنع بنتائج أعمال وتعاليم المجلس أصدر أمره بغلق المدرسة الاكليريكية وكان من وراء ذلك اهمال الكهنة والقسوس بدون تعليم لاهوتي يؤهلهم لحفظ مراكزهم الكهنوتية ويعظم شأنهم في نظر الشعب الذي أصبح متنوراً عن ذي قبل بعد فوات أزمنة الاضطهادات . ولما لاحظ أعضاء المجلس الملي ان نصائحهم لايلتفت اليها وغير مرعيه انقطعوا عن

الاجتماع — وتركوا الحبل على غاربه لانبا كيرلس فحكم الكنيسة والشعب بالطريقة القديمة لغاية سنة ١٨٨٣ م حيث ظهرت عثرات وفضائح ادارية ممتزجة بشطط في امتيازات الكنيسة أدت الى هياج الشعور العام عند الاقباط . وفي ذلك كان قد نما جيل من الشبان الذين تعلم أغلبهم في مدارس الاميركان أو الكاثوليك (اليسوعيين والفرير) ولو انه كان أيضا عدد عظيم من شبان الاقباط المتعلمين ثابتا في اعانه بكنيسته الاصلية التي تربى آباؤهم في احضانها الا انه نما فيهم أيضا الروح بعدم الميل لحالتها العامة . فصخب كل شبان الطائفة عليها وصاحوا طالبين اعادة انتخاب اعضاء المجلس الملي فسلم البطريرك بمطالبهم وأعيدت الانتخابات وفتحت الجلسات وأقرت جملة قرارات . ولكن أبى البطريرك الا انكارها فظلت حبراً على ورق .

وفي سنة ١٨٩٠ اسس بعض صغار الشبان جمعية منهم غرضها اصلاح حال الكنيسة وسموها (جمعية التوفيق القبطية الخيرية) ولفظة توفيق ليس قصدهم تيمنا فقط باسم الخديوي توفيق الذي كان يحبه المسلمون والمسيحيون على السواء بل هي كلمة عربية معناها تمهيد الطريق . وابتدأت هذه الجمعية عملها بنشر نبذات ونشرات باللغة العربية الغرض منها استنهاض الرأي العام بين جميع الاقباط الذين يعرفون القراءة والكتابة — وقد ترجم مؤلفو هذه النشرات بعضها الى اللغة الانكليزية فكانت جميعها تستحق المطالعة والامعان . فكبرت الجمعية وكبر عملها

بسرعة عظيمة وأثرت تأثيراً حسنا في الشعب حتى خافها البطريرك وبطانته من طائفة الاكليروس الذين كانوا يرتعدون خوفاً من تغيير الحالة التي هم عليها فبذلوا والبطريرك اقصى جهدهم لحل تلك الجمعية . ولما كان اعضاؤها كباقي الشبان والرجال المتوقدين حرارة وغيرة على ملتهم تحصر قواهم هذه في حدود اختباراتهم العلمية والعالمية قد صدرت منهم بعض غلطات بطريق الاتفاق اتخذها رجال الاكليروس فرصة سانحة فكبروها وهللوا بها واولوها الى مقاصد سيئة . فوشى بهم البطريرك عند الحكومة بتأويل اغراضهم الى خيانة الوطن والخروج على الحكومة . وغرض البطريرك من تلك الوشاية هو غالباً تبرئة نفسه من عمل رجال الجمعية خوفاً على حياته وخوفا من أن يصادفه ما صادف البطريرك الاسبق كيرلس ابي الاصلاح كما تقدم . لانه ولو أن الاحتلال الانكليزي في هذه الديار قد يحول دون حصول ثورة عامة أو اضطهاد ديني ولكن لا يمكنه الضرب على ايدي من يهيجون الشعب المضطرب بوسائط سرية . واسس البطريرك ايضاً جمعية اخرى ضد جمعية التوفيق وسماها جمعية الحق (الارثوذكس) ومن ثم ابتدأت العلاقات في الفتور بين البطريرك وجمعية التوفيق .

وفي ربيع سنة ١٨٩١ قام الاقباط بمظاهرة عظيمة في القاهرة حضرها مندوبون من جميع طوائف الاقباط الساكنين ببلاد القطر المصري . وقام الخطباء يخطبون في جموعهم المحتشدة واخيراً اقروا على

انتداب وفد يقابل البطريرك ويطلب منه بالحاح ضرورة اجتماع المجلس الملي وايجاد الاصلاح المطلوب والالتفات لصوت الشعب

والبطريرك كيرلس الخامس يشبه في طباعه بابا روميه اذ يعتقد الاثنان بعدم ضرورة المجالس الملية. فلما مثل وفد الشعب امام ذلك الشيخ ذرفت عيناه بالدموع وكر خارجاً من الغرفة. فاقر الشعب على عقد اجتماع عام في ساحة البطريكخانة. فكتب البطريرك لسعادة محافظ القاهرة يخطره بما كان وطلب قوة من البوليس للمحافظة عليه وحفظ النظام. وبعدئذ عقد مجمعا مقدسا من تلقاء نفسه (مجمع اساقفة) حضره جميع اساقفة البلاد ورؤساء الاديرة ورؤساء الكنائس الكبرى. ولما تم اجتماعهم قدم لهم ورقة ليوقعوا عليها ولم يمكننا معرفة موضوعها ولكننا نظن انه طلب فيها منهم مساعدته ضد طالبي الاصلاح. ولو أن اغلب الاساقفة اصلهم رهبان ويجهلون القراءة والكتابة فان بعضهم قد ختم تلك الورقة المقدمة لهم بدون قراءة ما بها الآن بعض القسوس المتعلمين وذوي الدراية قد رفضوا المصادقة عليها. وفي مقدمة اولئك القسوس كان ابونا فيلوثاؤس رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى المشهور بين الاقباط بسعة علمه ودرايته. وابونا بطرس ايغومانوس [1] كنيسة الفجالة. وابونا يوسف ايغومانوس

(١) ويدعون الاقباط ايضاً القمص. وتقريباً كل اسمائهم اليونانية محرفة وبالكد يعرف الانسان معنى كلمة منها ولفظة قمص معناها بالانكليزية يضاهي قسيس اكبر أو رئيس ولكن لفظة قمص ويغومانوس عند الاقباط تستعمل ايضا كرئيس الدير

بابيلون وأبونا بشوي ايغومانوس كنيسة حارة الزويله وابونا عبد الملاك ايغومانوس كنيسة ابو سيفين. وقد اصدر البطريرك التعليمات اللازمة للقسوس ورؤساء الكنائس لقراءة تلك الورقة أو المنشور بصوت جهوري على الشعب بعد الصلاة في جميع الكنائس. وبعدئذ استصحب البطريرك لفيفاً من الاساقفة وتوجه لمفاوضة الخديوي توفيق باشا في امره الذي حقق المسألة القبطية بكل حذافيرها ونصح البطريرك بكل احترام بان يسلم لارادة ومطالب الشعب وبين له انه هو نفسه واقع في مثل هذه التجربه.

وقيل أن الجناب الخديوي قال له (قبل احتلال الانجليز لهذه الديار حكمت شعبي بمجرد ارادتي واميالي ولم يكن لواحد ان يسألني أو يحاسبني على ما اعمل. لانى كنت اعد من الظلم أن يقاد الحاكم لسلطة تراقبه. اما اليوم فقد تيقنت أن طريقة الاحكام الجديدة وهي طريقة الشورى صالحة لامتي وعليه تراني لا اقاوم هذه الطريقة مطلقا بل اجتهدت في تعليمها وخضعت للذين يريدون مساعدتي لحكم امتي بطريقة توافقها فاذهب انت اذاً وافعل مثلي

ولسوء الحظ توفى توفيق باشا بعد ذلك بقليل جداً. فاستأنف زعماء الاصلاح قضيتهم ضد بطريركهم في عهد سمو الخديوي المعظم عباس باشا حلمي الثاني وطلبوا من الحكومة اصدار قرار وزاري لاعادة انتخاب المجلس الملي. فكان لهم ما تمنوا ولكن لم يحضر البطريرك وقت الانتخاب بل تم تحت رئاسة محافظ القاهرة غير أن الاحوال ازدادت اشكالا وتعقيداً وصارت في حالة مميته ومشينة للطرفين لان الغرض الاصلي من

الاصلاح اصبح قائما مظلما وقت الجهاد مع اليد العليا أي البطريرك وما
وجه الابهام الا التجاء الحزبين الاكليركي والملي الى سلطة الحكومة
الاسلامية وهو الامر المخالف تمام المخالفة لنص شريعة العهد الجديد
(الانجيل) وكان من الذين يميلون الى حزب الاصلاح من رجال
الاكليروس انبا اثناسيوس اسقف صنبو فحرمه البطريرك فنزل الى القاهرة
يستسمحه فوجد باب البطريركخانة مغلوقا في وجهه بامر البطريرك الذي
بعد ما امر بذلك سافر الى الاسكندرية . واخيراً تغلب حزب
الاصلاح ونجح رجاله في نفي البطريرك الى دير وادي النطرون ونفي انبا
يوحنا مطران اسكندرية الى دير ماري بولص في البرية . ولكن بعد
ذلك عاد في الحال زعماء الاصلاح وتأكدوا أن تصرفهم هذا حرك
العواطف الدينية في الشعب وحولت امياله عن حزبهم

اما انبا اثناسيوس مطران اسكندرية المحروم الذي كان من حزب
الاصلاح وليس من الذين استحقوا النفي مع البطريرك فقد استدعاه
الحزب المذكور ليكون نائب البطريرك مدة نفيه . ومع فساد وبطلان
حكم الحروم الذي اوقعه عليه البطريرك ومخالفته للاصول الكنائسية فانه
تحمله على نية التخلص والتبريء منه بالطريقة القانونية . وبحكمته واعتداله
تمكن بارجاع حزب الاصلاح الى الصراط المستقيم . وقسم رجال المجلس الملي
انفسهم الى اربعة لجان . الاولى للنظر في شؤون المدارس وما يؤدي الى
تقدمها والثانية لحصر ايرادات الاوقاف والنظر في ما يرقي حالة الكنائس

ونظامها . والثالثة لفحص حالة الكنائس واستئصال عيوبها الشائنة .
والرابعة للنظر في حال رجال الاكليروس وترقية احوالهم الدينية والعلمية
والادبية — ولكن تصرفهم نحو البطريرك والخوف من حرومه قد
ازعج مجموع الشعب حتى تنحى مبتعدا عن حزب الاصلاح وحتى عن
الكنائس فاصبحت لا يدخلها الا نفر قليل للصلاة . واجتهد انبا اثناسيوس
وبذل كل الوسائط الممكنة لحمل البطريرك لرفع الحروم عنه فلم يفلح فعزم
على عدم الاعتراف بذلك الحروم . وساعدته فضائله الشخصية لاسترجاع
ثقة الشعب به ونجح في ذلك نجاحا باهراً ولكن بعد ذلك بقليل كان
رياض باشا قد انتخب رئيساً للوزارة المصرية . فكان ينظر لكل علامات
النهوض الحيوي بين الاقباط بعين ملؤها النفور التام . فبذل جهده في
تأسيس متاعب كثيرة لهم واخيراً تمكن حزب الكنيسة القديمة من
الاتحاد مع حزب الاصلاح بان اقوم طريق الواجب سلوكه هو الخضوع
لبطريركهم بارجاعه ثانياً من منفاه . فتنازل انبا اثناسيوس بكل هدوء عن
وكالته للبطريركية . وعاد البطريرك من منفاه ودخل القاهرة في احتفال
باهر عظيم جداً كدخول القادة الفاتحين . اذ تهافت المسلمون والاقباط
من جميع انحاء البلاد لاستقباله والترحيب به بالموسيقى وهم يهللون
ويكبرون وحل الاقباط جياد المركبة التي نقلته الى الديار البطريركية
وجروها بانفسهم تعظيما له اما الازدحام فكان شديداً جداً في الطرق
والمنازل والاشجار وعلى اعمدة مصابيح الشارع الموصل للدار

البطريركية حتى وقفت حركة الانتقال العمومية بالكلية في ذلك الشارع .

وبالجملة قد كانت المظاهرة مؤثرة جدا وتدل على الاخلاص التام المتأصل في قلب الشعب القبطي نحو بطريركه . ولكن بقدر ذلك الشعور تتأسف لعدم اتخاذ كيرلس فرصة انتصاره هذا في استعمال الحكمة مع شعبه . لان اول ماظهر منه بعد رجوعه عدم اتخاذه عادة الشريفي النفوس في مسامحة المخطئين اليهم ومصالحة من يعملون معهم لاصلاح شؤون الامة . لانه لم يتمكن رجال السلام بحمله على مصالحة ومسامحة انبا اثناسيوس وباقي رجال الاكليروس الذين كانوا في حزب الاصلاح الا بكل صعوبة شديدة جداً . وبعد ذلك أبى الاعتراف بالمجلس الملي كما ولم يسمح له بتكملة اعماله الاصلاحية التى كان قد ابتدأ فيها بان أقر ان تكوينه غير قانوني وحقيقة كان ذلك ثم جدد رابطة مع رجال الحكومة الامر المخالف لنص الانجيل . وقد قبل النيشان المجيدى الاكبر من سلطان تركيا الذي أنعم به عليه بعد رجوعه نظير مساعيه التى اتخذها في احباط وهدم مساعي حزب الاصلاح وقتل روح النهضة الحيوية في شعبه قبل نموها في مهدها . ثم حل المجلس الملي . وانتخب أربعة من رجال هذا المجلس دعاهم اللجنة الملية تنظر معه في شؤون الطائفة لحين تجديد انتخاب مجلس اكليريكي بدلها . وأعاد افتتاح المدرسة الاكليريكيه الا انه وضعها تحت ادارة قوم لايليقون بالمره لادارتها فسادت الفضائح والغلطات

الاكليريكية القديمة على مثل ما كانت قبلاً بدون ان يستطيع احد التعرض لها

ويسرنا القول انه بعد عودة كيرلس من النفى ببضع سنوات تغيرت أحوال الكنيسة المصريه الى أحسن من ذي قبل . فان البطريرك وحزب الاصلاح لاحظا ان كنيسة المسيح لا يمكن المحافظة عليها ولا اصلاحها بدون اشراك روح المسيح في ذلك وظهرت رغبة كل من الطرفين الى السلام . وكان نتيجة ذلك الفكر ان مدرسي المدرسة الاكليريكية الغير اللائقين للتعليم فيها تغيروا بآخرين من ذوي الكفاءة والعقول الراجحة القابلة للنور الجديد نور الاصلاح والارتقاء الديني والادبي ثم صرح البطريرك لنفر قليل من طلاب هذه المدرسة للتبشير والوعظ في الكنائس . وبذلك أمل الشعب ان يخلق من هؤلاء الواعظين فريقا جديداً ينشيء من طبقة قسوس أكثر تنوراً في مهنتهم من الجيل السابق وبالطبع لايمكن اجراء أو حصول اصلاحات اكثر مما تقدم في عصر ذلك البطريرك الشيخ الهلوع . لانه يخاف من جهة من اتهامه بمواطئته مع الانجليز ومن جهة أخرى من الاميال الهرطوقية التى نمت في عقول الجيل المرتقى الذي تعلم في مدارس الامريكان وانحرف بجهل لاحتقار كنيسته الاصليه .

ومما يجب ذكره قليلا في هذا المقام المساعي الانجليزية التى بذلت في مساعدة الكنيسة القبطية فنقول .

بعد احتلال الجنود الانكليزيه لمصر تأسست حالا جمعية (زيادة انتشار المسيحية في مصر) . ولكن تعقدت أعمالها منذ أول افتتاحها لانها رفضت الاعتراف بان الكنيسة القبطية هي الكنيسة المصرية الرسمية . ومن الغريب انها سعت لدى بطريرك الاقباط لمعاونتها بينما كانت تنكر عليه حقوقه الرسمية وارثوذكسيته التي هي عقيدته حتى ان أحد كبار خطبائها اتخذ في أول اجتماعاتها فرصة القائه خطبه دينيه ليعلن من ان الجمعية ترفض كل هرطقه تؤدى الى هلاك النفس عند الاقباط ومع كل فقد تمكنت هذه الجمعية في بدء أمرها من التأثير بعملها في البلاد قليلا ولو أن كلا الحزبين في الكنيسة القبطية المصرية كانا ينظران اليها بعين المقت والكراهة . (١) وأخيراً يمكني القول انه يوجد في مصر حقل

(١) نوضح هنا تعاليم الكنيسة القبطية الحقيقية في هذا الموضوع مأخوذة من كتابهم التعليم المسيحي : —

سؤال — هل هو (المخلص في تجسده) ينفصل عن الاب والروح القدس ؟

جواب — معاذ الله أنه ينسب اليه اي انفصال أو انتقال لانه (اي المخلص) كلمة الله الازلية الغير محدودة الذي لا يقدر بانصاف ان يصير منفصلا عن الله وروحه . و بتنازله اي قبوله ولو انه ازلي ان يظهر على الارض في شكل بشري كي يخلص الانسان خليقته وينيله بتجسده مركز النعيم العظيم في مملكته السماوية . ومع ذلك لم ينفصل ابداً عن الاب والروح القدس

سؤال — ما معنى قولك هو وحد نفسه ؟

جواب — معناه. ان ابن الله اخذ ناسوته (اي الجسد والروح) وجعلها

مقسم الا رجاء للعمل وحياة في شديد الحاجة للمساعدة ولكن لا تتمكن من السير في ذلك العمل الا اذا عمدت الى اظهار الحقائق كما هي مع أطراحك ظهرياً لكل تحامل حتي تحكم على الاشياء قبل فحصها وينتقد انها مازالت من عوائد القرن الخامس النافذة على القرن العشرين

ويتبع البطريركية القبطية ثلاثة عشر ابرشيه ستة منها في رتبة المطرانيه .

ويوجد بها ٨٣٧ قسيساً أو كاهنا و٣٧٥ كنيسه الآن وباضافة كنائس القاهرة واسكندريه اليها يصير المجموع ٤١٨ كنيسه قبطيه في الديار

واحداً — شخصي واتحاد مادتي . بلا او فوق الامتزاج . والاختلال او التعقيد ولا استحالة (اي بلا تحول لجوهر اخر) ولا انفصال وبهذا الاتحاد الحقيقي للمادة صار شخصاً واحداً . ومادة ممتازة بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وعمل واحد : — وهو الابن الوحيد المتجسد

سؤال — ما هو المثال التقريبي لهذا الاتحاد المقدس ؟

جواب — هو اتحاد النفس المتكلمة مع الجسد البشري لان النفس هي مادة روحية طاهرة اما الجسد فمادة ترابية محسوسة . وبهذا الاتحاد المتبادل . بدون امتزاج (اختلاط) او استحالة صاروا شخصا واحداً ومادة واحدة وطبيعة واحدة واتحاد النفس والجسد في كل انسان هو اعظم مثال وبرهان حسي لاتحاد اللاهوت الازلي مع الناسوت في شخص المسيح الاله وفي وحدة المادة.

المصريه وبخلاف هذه ايضا الصوامع والاديرة المهمه وثلاثه اديرة للراهبات (١)

﴿ انتهى الفصل ويليه الفصل الخامس والسبعون وهو آخر الكتاب ﴾

(١) عنوان بطريرك الكنيسة المصرية التام هو:— البابا الكلي القداسة بطريرك الاسكندرية وجميع الديار المصرية وبلاد النوبة والحبشة والخمس مدن الغربية وجميع الكرازة المرقسية

الكنيسة المصرية يقال لها عند الاقباط (الكنيسة) والاجانب يسمونها الكنيسة القبطية. ويسمى الاقباط الكنيسة اليونانية (كنيسة الاروام) والكنيسة الرومانية يسمونها (كنيسة الكاثوليك) اي الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية. والكنيسة البريطانية يسمونها (الكنيسة الانجليزية او الانجليكانية). واما الكنيسة المشيخية وكل المنشقين منها او الشيعيين فمعروفة عند الاقباط بالاصطلاح العام (كنيسة البرتستانت).

الفصل الخامس والسبعون

العوائد والمعيشة الاجتماعية

سنة ١٨٩٧ مسيحية وسنه ١٦١٣ للشهداء و ١٣١٥ للهجرة

تمتع الاقباط بانتشار الحرية والتعليم في السنين الاخيرة فكان ذلك سبباً لنسخ كثير من عوائدهم الدخيله عليهم التي اقتبسوها من أبناء الشعوب الغريبة التى تغلبت على بلادهم في أزمنة الاضطهادات الدينية وحلت عليهم من احتلال المسلمين بينهم ولقد كنت ترى القبطي منذ عشرين سنة مضت يخجل كالمسلم ان يراه أحد الناس سائراً في الطريق مع زوجته أو احدى قريباته اما اليوم فترى شبان الاقباط قد عادوا الى سابق عاداتهم وعرفوا ان المرأة المصرية يجب ان تتمتع بحريتها كما كانت في عصر الفراعنة والعصر المسيحى الاول وانه يجب ان تعامل وتحترم على مثيل أختها الغربيه ولذا أصبحوا ميالين لنبذ تلك العوائد الرديئة التي اقتبسوها من المسلمين ظهرياً ومن سوء الحظ ان تلك الحركة الاصلاحية قد نجحت بين الاقباط كثيراً وسيستمرون مثابرين عليها على مهل وحكمة حتى تتوصل المرأة المصرية الى بلوغ مركزها الاصلي والحقيقي فى الهيئة الاجتماعية. وجل ما توجه اليه المرأة القبطية اهتمامها اليوم هو تقليد أختها الانكليزية في الطريق المستقيم وفي حرية الفكر

وفي ضبط مركزها الادبي واقتفاء أثرها في الازياء والملابس المعتدلة اللطيفة البعيدة عن كل ضروب الزينة والفخفخة . على انه كان ينتظر ان تخرج عن الحد في حريتها فلا تسير مع زوجها أو أخيها أو أي حارس لها ولا تتقيد بأي قيد من قيود زوجها بل ولا تسلط عليه نفوذها تقليداً النساء بعض الطوائف المحيطين بها لانها لحسن الحظ أظهرت الحكمة والرزانه فلم تجنح الى الخروج عن الحد المطلوب للحريه . وهو عكس ما حصل لرجالها من حيثية تصوره انه يحبس جسده داخل الزي الاوروبي الغير الصحي والغير اللائق قطعيا لطقس بلاده وتطرفه في الحرية وبذلك يكون قد اقتبس التمدن الاوروبي بأكمله .

وهناك عوائد كثيرة بين الاقباط ولكنها قديمة اتصلت بهم مع الزمان من مصر الوثنية وما تبقى منها فقدوا أو جدوها بأنفسهم ومنها تلك العادة المقوتة الموجودة غالباً عند كل الشعوب وهي عادة الحزن على الاموات تلك العادة الوثنيه التي تأخر درجها في كفنها الى هذا الحين . ذلك انه ما تكاد الروح تفارق جسد الانسان حتى يهرع أهله لاستئجار الندابات اللواتي يلبين الطلب في الحال ويحضرن الى منزل المتوفي بالطارت ويحتلن مخادع النساء ويبتدئن بتمثيل منظر من أفظع وأرعب المناظر ويرثون بألفاظ مثيرة ومهيجة للحواس والعواطف . ويجلس في الطريق امام منزل المتوفي أقاربه الحزانى من الرجال أو يجلسون في زاويه احدى غرف الطبقة الارضية من المنزل مكتئبين ساكنين صامتين كأن على

رؤوسهم الطير يستقبلون وفود المعزيين الذين عند دخولهم يضعون يدهم في ايدي اصحاب المتوفي فقط بدون كلام ثم يجلسون باحترام صامتين والعادة الوحيدة التي يختلفون فيها عن عادة اسلافهم انهم يصرفون الوقت كله في التدخين . اما في الحريم فتكون جثة المتوفي مطروحة على الارض ومغطاة بشال ومزدحمة حولها نساء عائلته لابسات افخر ما عندهن من الملبوسات (١) ويهيجن بعضهن بالتصويت والولولة لدرجة الجنون والاختبال العقلي . ويحللن جدايل شعورهن ويقطعنها ويلطمن خدودهن بشدة بايديهن المصبوغة بالنيلة ويصوتن باعلى قوة في حنجرتهن مع الندابات اللواتي يضفن عنصراً آخراً من الاصوات بصوت طاراتهن (٢) فيتكون ضجة مفزعة مختلفة بين اصوات النساء وضرب الطارات .

واحياناً تسقط احدى المولولات مغشيا عليها من شدة خوار قوتها . وبالرغم عن ذلك يستمر هذا المنظر المرعب المفزع حتى تحمل الجثة الى المدفن . ونساء الطبقة الاخيرة يخرجن وراء الجثة في صوات وعويل

---

(١) نساء عائلة المتوفي يلبسن افخر الملابس الغالية الثمينة المفتوحة الالوان مدة الثلاثة الايام الاولى من تاريخ الوفاة وفي اليوم الرابع يلبسن ثياب الحداد الاعتيادية ويداومن على لبسها مدة سنة وتلبس ارملة المتوفي الثياب السوداء مدة سبع سنوات حداداً على زوجها

(٢) الطار هو طبلة هندية تستعمل في الهند والممالك الشرقية وتعرف باللغة الهندية باسم (تام تام)

هائل الى أن تصل القبر وفي غالب الاحيان يتحمسون بنوع من الرقص المحزن الوحشي حول الجثة عند القبر بينما يكون الرجال جالسين متأثرين بتصبير حول حجارة القبر . ولكن هذه العادة نادر حدوثها الآن وينتظر درجها في خبر كان بالكلية . لان الكنيسة وحتى الحكومة طالما اجتهدتا بالتداخل في منع وابطال هذه المناظر المعيبة من الجنازات ولكن بالاسف ليس عندهما القوة الكافية للتأثير على أي اصلاح حقيقي دون أن ينضج الرأي العام في الاصلاح ويساعد الكنيسه والحكومة في ابطال هذه العيوب الرديئه

اما الاحتفال بالجناز في الطريق فعلى العموم يكون بالترتيب الآتي :—
في مقدم الاحتفال يمشي القندلفت (خادم الكنيسة) حاملاً صليباً (١) كبيراً من الفضة ثم الشمامسة المرتلين حاملين الاعلام ثم الكهنة ثم النعش وخلفه عائلة الفقيد في وسط جمع كثير من المعزين .

وموتى الاقباط يدفنون دائماً في اكفان . ولكن هذه الاكفان تصنع الان على شكل (٢) الاكفان الاورباوية الاعتيادية . وتقرأ صلاة

(١) لم يسمح المسلمون للاقباط باستعمال صلبانهم في الطريق لمثل هذه الظروف الا من مدة ثلاثين سنة فقط

(٢) ما زال سكان الوجه القبلي يدفنون موتاهم بملابسهم واغلب حلاهم وادوات زينتهم . وقد ابطلت هذه العادة في القاهرة الا انهم غالباً لا ينزعون حلي او ادات الزينة من المتوفي قبل دفنه .

الموتى على الجثة في الكنيسة قبل حملها الى المقبرة للدفن . واهل المتوفي يصومون طول الوقت ما بين الوفاة والدفن . وبعد ذلك يعدهم اصحابهم حالاً بالطعام ويستمرون على ذلك الى اليوم الثاني . ويستمر النساء في الدور الاعلى من المنزل والرجال في الدور الارضي يستقبلون المعزين من اصحابهم ولكن عند النساء يستمر البكاء والنحيب مدة الثلاثة ايام . المغنيات المأجورات (المعددات) ينشدن نشيداً مؤلماً في مدح الرجال ويسمى عندهن (تعديدا)

وفي اليوم الثالث يأتي الكاهن ليعزي العائلة فتتحد معه في الصلاة ثم يرش كل الغرف بالمياه المقدسة التي صلى عليها والنساء يسمين هذا الاحتفال (الذي هو في الغالب تقاليد قديمة) احتفال صرف روح الفقيد من المنزل على اعتقاد انها تكون هائمة فيه حتى ذلك الحين وفوق ذلك كله فلا زال كثير من الاقباط يعتقدون كاجدادهم ان الروح تبقى هائمة مدة أربعين يوما قبل القرار بالحكم على مقرها الاخير . وانها توزن في ميزان بمعرفة الملاك ميخائيل الذي ينوب في هذه المأمورية عن السيد المسيح وما بقاء الروح مدة أربعين يوما في انتظار المقاضاة الا شكل المطهر الذي يعتقد فيه الاقباط اعتقاد الكاثوليك . ثم هناك فريق من الاقباط يعتقد ان الارواح تخرج من عالم الغيب (مقر الاموات أو مساكن الارواح في السماء) وتظل هائمة مدة أربعين يوما في انتظار حكم الدنيا النهائي بعد الصيام الكبير . وتوجد خرافة قبطية قديمة أيضا تدل

على اعتقاد بعضهم في مطهر ليس من نوع مطهر الكنيسة الكاثوليكية ومؤداها ان الملاك ميخائيل تكون له السلطة التامة في يوم واحد من أيام السنة يفتح فيه أبواب المطهر ويخرج منه كثير من الارواح المتألمة ويحمل منها على قدر استطاعته ويطير بها على أجنحته بسلام .

انتهينا من سرد عوائد المآتم والاحزان ونبتديء الآن بسرد عوائد الزواج والافراح فنقول :—

احتفالات الزيجة عند الاقباط تعتبر في الحقيقة من اعظم واجمل الافراح المستعارة من الشعوب الاخرى . ولسوء الحظ نقول ان تأثير العوائد الاسلامية حتى في مثل هذه الشعائر قد أخذت عند الاقباط مأخذها فكانوا الى وقت قريب يعتقدون ان من الخطأ الفاضح السماح لشاب بمشاهدة خطيبته التي سيعقد زواجه عليها حتى ولا يسمحون بوجود تعارف شخصي بينهما بالمرة كما ولم يكن لاحدهما صوت أو رأي أو ابداء اي فكر بالمرة في امر زواجهما بل وفي غالب الاحيان كانت تعقد صيغة الزيجة قبل بلوغ الزوج والزوجة سن الزواج لانهم كانوا يعتقدون ان الولد يليق للزواج في سن الخامسة عشر والبنت في سن الثانية عشر . ثم تحول رأي الاقباط العام عن هذه العادة بتأثير نواهي الكنيسة ونصائحها فاقلعوا عنها وصاروا لا يسمحون اليوم بالزواج الا عند بلوغ الشاب السنة العشرين من عمره والفتاة السادسة عشرة . ولا يعقد الكاهن صيغة الزيجة الا بعد حصوله على رخصة من البطريرك أومن أحد الاساقفة

وفي سنة ١٨٩٥ اصدر البطريرك منشوراً عمومياً لكل رجال اكليروسه يذكرهم فيه بالقوانين الكنائسية المحتمة بعدم قبول عقد الزيجة قبل أن يرى الخطيبان بعضهما بعضاً ويتعاشرا زمناً ما يقف فيه كل منهما على اخلاق وصفات الاخر ثم قبل البدء في عقد الاكليل يجب على الكاهن ان يدعو اهالي العروسين ليتحقق ويتأكد أن كان الخطيبان قد عرفا بعضهما معرفة تامة ويسأل كلا من العريس والعروس على انفراد أن كانوا راضيين بالاقتران من عدمه . وعند تمهيد طريق الزيجة يرسل الفتى للفتاة بواسطة الكاهن خاتماً من الذهب أو الماس بصفة هدية يقال لها (الشبكة) . ثم يعين الكاهن يوم الاحتفال بالخطوبة ويقال له عندهم (جابنيوت) ففي عصر ذلك اليوم (نهار جابنيوت) يذهب الخطيب مصحوباً بعدد من اقاربه واصحابه وواحد القسوس الى بيت العروس حيث يكون اقاربها ايضاً مجتمعين في منزلها لاستقبال العريس وآله وبعد أن يتكامل عدد المدعوين يقفوا جميعاً مع الكاهن ويتلون الصلاة الربانية . ثم يلقي القس خطبة أو موعظة حسب ما يناسب المقام ينوه فيها عادة الى خطوبة رفقه لاسحق

ثم يجلس الجميع ويتناقشون في تدوين الشروط المدنية (محضر الزيجه) ثم يدفع العريس مهر العروس ثم يتفقون فيدونون في المحضر اليوم الذي يعين لعقد الزيجة . ويختلف المهر بحسب مقدرة العريس المالية انما المهر يكون عادة متراوحاً ما بين العشرين والماية جنيه ووالد العروسة

عادة يدفع ضعف المهر ويصرف كل هذا المبلغ في شراء حلي وملبوسات واجر خياطات . وبعد أن يقدم آل العروس المرطبات والحلوى للحاضرين يهنئون العريس على الاقتران القادم المبارك وينصرفون .

واذا كان اليوم الذي يتعين لعقد الزيجة بعد زمن طويل من تاريخ الخطوبة يلتزم العريس أن يرسل لعروسه المنتخبه من وقت لآخر الهدايا (نفقة) من زهور وفواكه . واذا تصادف قبل تاريخ عقد الزيجة عيد الميلاد أو الفصح مثلا يرسل لها العريس فستانا وكمية كبيرة من الكعك والحلويات ولكنه لا يزورها بشخصه ولا يراسلها الا ماندر

وأكليل الزواج يعقد في ليالي السبت والاحد ولكن محرم في الصيام الكبير وفي كل صيامات الكنيسة اللهم ان لم تقض بذلك ظروف استثنائية في غاية الاهمية — فأول ليالي الفرح ليلة السبت ويقال لها ليلة العروسة (ليلة الحناء) وفي بحر ذلك اليوم تخرج العروسه الى الحمام مع بعض صاحباتها وأهلها . وفي المساء يلبسونها أفخر الملابس وتجلس لاستقبال المهنئين والمهنئات من جميع أهلها وأقاربها وصاحباتها ثم يخضبون يديها ورجليها بالحناء مثل المسلمين . ثم يجلس الجميع الى وليمة العشاء وبعده يصرفون الليل في سماع المغنيات أو المغنيين الذين يؤجرونهم لغرض الانشراح وتسلية النفس . لان العاده عند الشرقيين انه تكون المظاهر فوق الطاقة والكرم فوق المجهود أي ان تعمل كل ما في وسعك لتسلية ضيوفك بنفسك فوق الهمة التي تبذلها لتزيين بيتك بالزهورات والبيارق

والاعلام ولا نار تهليلا بالثريات التي تصف على شكل جميل . غير ان النساء يكن منفصلات عن الرجال مثل المسلمين . وفي الغالب لا يدخل المدعوون الى البيت بالمرة بل يقام لهم سرادق عظيم في حديقة المنزل لاستقبالهم وهذه السرادقات وما يتبعها من أدوات الاطعمة والمقاعد والخيم تجهز بواسطة مقاولين يسمونهم (بالفراشين) اما العشاء فيقدم على الطريقة الشرقيه الاعتيادية توضع الاطعمة على صينيه من المعدن مستديرة وكبيرة ليجلس حولها عشرة رجال بالراحة يعطى لكل منهم فوطه وملعقه ورغيف من الخبز — ولكن لا تعطي سكاكين ولا شوك غالبا كما انه يحتم على الجميع ان يغسلوا أيديهم قبل تناول الطعام كعادة المسلمين ثم يأكلون بأصابعهم بعد ان يمد أعظمهم مقاماً يده أولا واذا حضر قس على المائدة فله الافضيلة في مد يده للطعام أولا دون جميع الجالسين مهما كان بينهم من كبير المقام . ويبتديء بالفاظ البركه والنعمة ثم يأخذ رغيفاً من الخبز ويباركه ويقطعه الى قطع صغيرة يوزعها على الحاضرين معه . ثم يحضر الفراشون موائداً اخرى بقدر ما يسع المكان يجلس عليها عشرة ضيوف كما تقدم . وهكذا يتعشى كل الضيوف بتجديد هذه الموائد . وفي أول ليالي الفرح (ليلة العروس) يختفي فيها العريس بعد ان يرسل اثنين أو ثلاثة من أقرب الناس اليه يحملون باقة من الزهور وشمعة كبيرة يشترط ان تكون طول العروسة . وتوقد هذه الشمعة في غرفة نوم العروسة طول الليل حتى الصباح

وفي ليلة الاحد يقال لها (ليلة العريس) يذهب الشبين (أصدق صديق للعريس) مصحوباً باثنين أو بثلاثة من أقرب أهل العريس ليحضر العروسه بالحرس اللازم في احتفال كبير الى بيت زوجها . ومن بضع سنين مضت كان الاقباط لا يتجاسرون على السير في الطرق بمثل هـذا الاحتفال الا ليـلا فكان أكثر تأثيراً للابتهاج من السـير بـنهاراً . اذ كان يتقدم الاحتفال جوقة الموسيقي ثم جمع كبير من حاملي المشاعل فكثير من الشبان يحمل كل منهم شمعه في وسط باقه من الزهور ثم صفوف أخرى تحمل المباخر الموقـدة التي يتصاعد منها البخور ثم حملة القماقم المملوءة بالروائح العطرية سائرين باتجاه نحو العروس السائرة على قدميها والمتكئة على ذراعي اثنين من أقرب المقربين اليها ومحتشد حولها جمع كثير من السيدات وخلفهن الخادمات

أما الآن فتنقل العروس ومن معها من السيدات في عربات مقفلة (كوبيل) ويحرسها الشبين وأعوانه ويتقدم العربات جوقة الموسيقى اما مركبة العرس فتغطى بشال من الكشمير أو بسجاده غالية الثمن

وبوصول هذا الموكب لبيت العريس يذبحون خروفا أو عجلا على عتبـة البيت ويفرقون لحمه على الفقراء وقـد ورثوا هذه العادة من المصريين القدماء — ثم يحمل الشبين العروس ويطلع الى مخدع الحريم وعند ما يبارح الموكب منزل العروس وعند دخولها بيت العريس يرشها النساء بالملح وأحيانا بالورد اعتقاداً منهن بطرد تأثير العين الشريره

(الحسد) عنها . وبعد الانتهاء من الاكليل يرتاح القوم قليلا من الزمن يأخذون في اثنائه شيئا من المرطبات والملبس والحلوى .

وقد كانت العادة أن يعقد الاكليل في الكنائس . ولكن في ايام الاضطهاد وهجوم المتعصبين على الاقباط اصبحت مثل هذه الاحتفالات خطره فصارت العادة الآن من زمن طويل أن تقام هذه الشعائر في منزل العريس . فيجهزون التجهيزات اللازمة ويتمون احتفال الاكليل بكل احترام حيث يضع الكاهن المعين طاوله في وسط اكبر غرفة في البيت ويضع عليها الانجيل المقدس مقفول مختوم [١] في علبة من الفضه ويرص حوله ستة صلبان من الفضه الملصوق في كل منها ثلاث شمعات ليكون نورها رمزاً عن الثالوث المقدس . ثم يضع مقعدين امام المائدة لجلوس العريس والعروس عليها براحـة وما عداهما من الحاضرين يظل واقفاً على قدميه طول وقت الاكليل . ثم يلبس العريس في غرفة اخرى حلة عرسه (برنس الاكليل) وهو عبارة عن قلنسوه

---

(١) بعض هذه الكتب المقدسة لم تفتح من ار مائة سنة ومن المؤكد ان هذه العلب الفضية تحتوي على نسخ من الانجيل المقدس ذات قيمة اثرية عظيمة مختوم عليها لعدم امكان استعمالها . وهي طريقة لطيفة جدا في وضع الانجيل المقدس في علب من الفضة التي يمكن تنظيفها لهذا الغرض ويحسن بنا اذا اقتفينا اثر الاقباط في هذا الامر ونضع الانجيل المقدس الخاص بمعابدنا الملية داخل علب فضية

أو عبايه من حرير ابيض غالية الثمن كثيرة التطريز تغطي جسمه كله حتى راسه وهذه البرانس هي ملك الكنيسة ويعيرها الكاهن للعريس في مثل هذه الظروف كالتيجان . وبعد ان يلبس العريس هذا البرنس من الرأس الى القدم مع أن عادة عدم كشف الراس محترمة عند جميع الشعوب المسيحية . فانه يشوه أيضا منظر هذه الحلة البيضاء بسبب لبس الطربوش الاحمر الغير اللائق على راسه تحت طرف البرنس . اما العروس فتتزين بلبس حلة حريرية بيضاء ويقنع وجهها بنقاب حرير رفيع جداً على مثال العروس الانكليزية الا انني في بعض الاحيان نظرت عروس قبطية لابسة فستان عرسها من حرير احمر على مثال المسلمين .

وكان من الواجب أن تجلس العروس على يمين العريس قبل كل شيء الا أن الافكار والمعتقدات الاسلامية قد أثرت جداً في العوائد المصرية حيث يتفق كثيراً أن يقام عقد الزيجة لعروس قبطية وعرشها امام مائدة الاكليل خاليا منها أي أن يجلس العريس على كرسيه فقط اما العروس الصغيرة المسكينة فتظل من وراء باب غرفة اخرى وتتفرج على كيفية عقد زواجها . ولا يخرجونها من سجنها الا لما تحل جمل القول ورسوم الطقوس التي لا يمكن للقسيس اجراؤها بدون حضورها — فعند خروجها لغرفة الاكليل لا يصحبها أحد مطلقا من السيدات القبطيات وفي بعض الاحيان يكون الزوج متنوراً متثقفا يحجز زوجته بجانبه بعد الاكليل ويقدمها لاصحابه من الانكليز الذين يتصادف حضورهم .

وطقوس الاكليل عند الاقباط مثل طقوسنا ولكن عادة تتويج العروس والعريس (أي اللذان لم يسبق لهما زواج) وتغطية رؤوسهما بوشاح مطرز رمزاً عن اتحادهما في خيمة واحدة كرفقه واسحق لم تزل متبعة عن اقباط مصر وينتظر استمرار اتباعها [1] وبعد الانتهاء من حفلة الاكليل ينتظر الضيوف حتى طعام العشاء ثم يصرفون بقية الليل في سماع المغنين والالحان اما صاحب المنزل فيفتح ابوابه لمناسبة فرحه الى المدعوين وغيرهم أي انه لا يرفض ضيافة أي فرد سواء كان غريبا أو قريبا حيث يعد ذلك من آيات الشرف . وكثيراً من المسلمين الذين يشتغلون تراجمة للسواحين يتكلون على هذه العادة ويدعون كثيرين من السواحين الى ليلة عرس بدون انتظار دعوة من صاحب الفرح لثقتهم التامة انه مهما كانت احساسات صاحب الفرح الداخلية لا بد وان يستقبل ضيوفه السواحين الغير المدعوين بكل تجله واكرام . والقاعدة المطردة عند كل السواحين الذين يلبون دعوة ترجمانه المتطفل يكونون على جهل تام من معرفة ما اذا كان صاحب الفرح مسلما أو مسيحيا فتصرفهم هذا مما يدعو صاحب الفرح للشك في الاعتقاد بسمو تربية وتمدن الاورباويين

(١) الطلاق نادراً جداً عند الاقباط وغير مسموح به الا لعلة الزنا ففي هذه الحالة يسمح الاسقف او البطريرك لمن لم يظهر عليه الخطية من احدهما ان يتزوج ثانيا ولكن الطقوس الدينية تختلف قليلاً في الزواج الثاني الذي لا يحرف منه التتويج ويكون كزواج رمل او ارمله

الذين يزورون مصر . فيدخل اولئك السواحين الى سرادقات الافراح او صالونات المنزل في وسط الحضور بذات ملابسهم الحقيرة المملوءة بالاتربة من شدة جولانهم في المدينة طول النهار ثم يجولون هنا وهناك وسط المنزل كانهم يتفرجون على معرض صور شمعية ويبدون ملاحظات وانتقادات بصوت عال يدل على سوء التربيه دون ملاحظة ان اغلب المحترمين من الرجال الوطنيين الحاضرين يفهمون اللغات الانكليزية والفرنساوية وغيرها ولانهم لسوء الحظ لا يمكنهم دائماً التمييز بين (الانكليزي والامريكاني) وبالاختصار فانهم بذلك يسببون كسوفا واشمئزازاً عند الانكليز الذين يتصادف وجودهم في الاحتفال من اوله بدعوة من اهل الفرح وحتى ان السواحين الذين لا يذهبون الى الافراح الا بعد طلب دعوة حضور اليهم فانهم يأتون امورا مكدرة لا تليق بهم ولا يجب ان يسلكوها عند وجودهم في اية حفلة وطنية كانت لان اعمالهم هذه يتسبب عنها ان ابناء البيوت العالية من المسلمين قرروا فيما بينهم عدم دعوة السواحين الاوربا ويين قطعيا في احتفالاتهم

لنرجع بعد ذلك الى يوم الاثنين وهو ثالث ايام العرس عند الاقباط ويعرف عندهم (بنهار الصباحية) يحضر فيه اقرب المقربين للعروسين ويصرفون معظم اليوم في بيت العريس حيث تقابل العروس كل منهم شخصيا ليعطيها هدية بقدر مقامه وتختلف قيمة الهدية من خاتم الماس الى نقود وغالباً تكون قيمة الهدية من النقود من جنيه انكليزي الى

عشرة جنيهات وتعرف هذه الهدية عنهم (بالنقطة) وكل من يمنح العروس هذه النقطة تقدم له بيدها منديل حرير مطرز من شغل يدها كما ان اصحاب العائلة ايضا يقدمون لها هدايا تستعمل في وليمة الفرح

على ان الاقباط ميالون الى الذريه جداً وتظهر علامات البشر عليهم والفرح حينما يولد لهم ابن او ابنة ويزداد سرورهم على الاخص اذا كان المولود ذكراً ولقد تبقى الوالدة والمولود في غرفتهما مدة اسبوع بعد الولادة مهما كانت العائلة في حالة الفقر حيث تتطوع لخدمتها كثيرات من صاحباتها وقريباتها ثم في اليوم السابع (السبوع) يقرون على الاسم الذي اختاروه للطفل بواسطه اجتماع جلسة من افراد العائلة . واذا كان المولود هو البكر قدم اهل الوالدة مائدة الغذاء لجميع صاحباتها . ثم يبتدأون بوضع الطفل التعيس في جملة تجارب واختبارات . فاول عذابه ومضايقته ان يدقوا هونا من نحاس اصفر قرب اذانه الى ان تكاد تشق . ثم يهزونه في غربال ولقد يستحب الانسان اطفال الاقباط للطفهم ودقتهم ومنتهى الجاذبية التي تكون فيهم واحسن الاطفال طبعا وجمالا طفلا قبطيا رأيته في الشهر الخامس من عمره له شعر كثيف لطيف وعينان لامعتان زرقاويتان ويهدر ويقرقر ويبقبق (يناغي) بانشراح طول النهار مع انه يتنقل من يد بنت الى اخرى بطريقة يعجبها الطفل الانكليزي امام ذلك الطفل فتاة مسكينة لا يتجاوز عمرها الخامسة عشرة ولكني افرح بان اقول انها المتزوجة الوحيدة في وسط اربع او خمس من صاحباتها واقرانها اللواتي من

سنها او اكبر منها قليلا .

وبعد ان يتم ازعاج الطفل المسكين في اليوم السابع من عمره بتلك الوسائط الخرافية . تلبس امه ثوبا ابيض وتأخذه على ذراعيها وتدور به في كل غرف المنزل في شكل موكب . ويؤلف هذا الموكب من اولاد المدعوين بان يمسك هؤلاء الاولاد الشمع في ايديهم واحياناً المباخر ويمشون صفين امام الوالدة ويرتلون غناء الولادة وحولهم جميع المدعوين . اما والد ووالدة الام الصغيرة فيملأان كعكا يقال له (كماجه) ويوزع جزء من هذا الكعك مع بعض حلويات وفواكه ناشفة الى كل العائلات التي لها صلة تعارف بالعروسة والعريس . ثم بعد هذا يحضرون في مساء اليوم المذكور قارورة ماء فارغة ويكسونها بالحرير ويزينونها بالحلي والجواهر وتوضع في طشت من النحاس مسطح وتلصق ثلاث شمعات في حافته على ابعاد متساوية وتسمى كل شمعة باسم ينتخبه احد اعضاء العائلة ثم يوقد هذا الشمع والشمعة التي لا تذوب الا في النهاية بعد الشمعتين الاخيرتين يسمون الطفل باسمها . ثم يضع كل من الضيوف الحاضرين شيئاً من النقود في الطشت ومجموع هذه النقود تعطى للوالدة علاوة على ما يعطيه لها والدها .

وطبقاً لقوانين الكنيسة المصرية القبطية يجب تعميد الولد حينما يبلغ اليوم الاربعين من عمره والفتاة حينما تبلغ اليوم الثلاثين ولكن لسوء الحظ فان المنفذين لهذا القانون قليلون جدا حيث كثيراً ما يترك الاطفال

بلا عماد حتى الشهر الخامس أو السادس . وتمارس رسوم التعميد في الكنائس ان لم يكن الطفل على وشك الموت فيعمد في البيت . ويتم هذا التعميد بواسطة تغطيس الطفل ثلاث مرات في حوض مملوء بالماء البارد الرائق المرشوش بقليل من الزيت الذي يقال له زيت المعمودية ولا يشدون الطفل الان بالزنار أو الحزام الذي كان يستعمل بصفة علامة يميز بها المسيحي المصري (القبطي) من سواه .

ويتخذ في الكنيسة المصرية مثل كنيسة روما الاشبينية (الكفالة) واسطة لتأسيس علاقة مادية وروحية بين الكفيل وعائلة المولود ولذا خطر على الاقباط أن لا يتزوجوا ببنات اشبينه أو اشبينته طالما يعتبرون كاخوة لهم واخوات

وبعد تغطيس الطفل ثلاث مرات في المعمودية يمسح بالزيت المقدس (الميرون) ويقدم لتناول السر الالهي . ومن عوائد الاقباط أن يسموا الطفل وقت المعمودية باسم آخر خلاف الاسم الذي اختير له في اسبوع الميلاد وانتخاب الاسم الجديد يكون على العموم على اسم قديس يكون عيده في ذلك اليوم الذي يعمد فيه أن لم يفضل والديه تسميته باسم قديس محبوب عندهم . وفي الغالب اسم جرجس ومريم عام عند كل الاقباط

على ان كثيرا من الاقباط المستخدمين في دوائر الحكومة يتخذون اسماً ثالثاً خلاف الاسم المسيحي ويستعملونه لقباً اعتياديا وفي الغالب هذا الاسم الثالث لا يكون مسيحياً فيصبح الشخص غير معروف بين الناس

لا بهذا الاسم الاخير اما اسماؤه المسيحية فتستعمل فقط في الاحتفالات والرسوم الكنائسية ولذا فان الطفل الذي يعمد باسم مرقس يصير معروفا عند كل الناس باسم (اسكندر) . أو الصبي الذي يعمد باسم باسيلي يرسل للمدرسة باسم (زكي) الخ . وبعض الاسماء اليونانية القديمة قد تحرفت وتغيرت تغييراً غريباً من عهد ما ابتدأ الاقباط يفقدون استعمال لغتهم الاصلية فاسم فيلوثاؤس تحرف الى العربية باسم عبد المسيح . واسم فيكتور اصبح الآن بقطر . واسم تيودوروس اصبح تادرس الخ

والختان متبع على العموم عند الاقباط خصوصاً في الارياف . ولكن لا يوجد شيء يميز الاقباط من المسلمين عند مظاهرتهم المقرونة بالاختتان — كما ولا يوجد عند الاقباط ما يثبت أن اتباع الختان هو تنفيذ لطقس ديني . بل هو فقط احتياط صحي يتبع وقت ما يجب اتباعه . ويتبع ايضاً الاقباط العادة القديمة المتعلقة بتضحية خروف او كبش عند ما يريدون وضع حجر الاساس الاول في بناء عمارة عظيمة وهكذا يفعلون أيضاً على عتبة البيت الجديد بعد تمام بنائه

واكثر الاقباط مواظبة على حضور الصلاة في الكنائس رجالهم اما النساء اذا ذهبن فانهن يقضين الوقت في محادثة بعضهن بعضاً بغوغاء وضوضاء بدلا من الانتباه للصلاة . ولا شك انه لا يوجد علاج شاف لهذا المبادىء المعيبة الا اذا سمحوا للسيدات بالجلوس في وسط الكنيسة عوضاً عن نفيهن في اروقة مقامة في اعلى الكنيسة

وعالية علوا يستحيل عليهن أن ينظرن منه أو يسمعن ماذا يحصل أو ماذا يقال في دار الكنيسة ومن الواضح أنه قبل اشتداد خوف الاقباط من المسلمين كان النساء يجلسن منفصلات عن الرجال كما هو جار الآن في كثير من الكنائس الانكليزية وان كان الانكليز وسيداتهن يجلسون في ساحة واحدة بلا ادنى حجاب ولا حاجز بين الفريقين على اني وجدت في كنيسة قبطية قديمة اربعة حواجز يقف خلف الاول المترشحون للتعميد ثم تقف النساء وبين هؤلاء واولئك يجلس الرجال ثم القسوس فصدر الهيكل وخلفه معابد يحتوي كل منها على مذبح لا يستعمل الا بعضه الآن

والقاعدة المتبعة في الكنيسة المصرية هي نفس المتبع في الكنيسة البريطانية من ضرورة تناول النوعين من الاسرار المقدسة وان تناولها الاقباط ثلاث مرات في السنة منها مرة في عيد الفصح . ويتناولها الانكليز مرات عديدة غير أن عدم الاعتناء والاهمال الشديدين هما اللذان يمنعان غالبا ابناء الكنيسة من تناول الاسرار المقدسة في المواعيد المقررة لها حتى اصبح اعضاء الكنيسة المصرية على الغالب لا يتناولون الاسرار الا في كل سنة مرة . ومن الغريب انهم يقولون أن مرة واحدة تكفي في الصيام الكبير . ويستعمل الاقباط في الاسرار المقدسة خمرا خصوصيا معتقا يقال له (ابار كه) ويضعونه لهذا الغرض داخل الكنائس . اما كيفية استخراجه فهي انهم ينقعون الزبيب في الماء ثم يهرسونه هرسا ثم يكررون عصيره حتى يصير رائقاً وبعد ئذ يتركونه في اوعية حتى

يختمر . وقد اصبحت هذه العادة ضرورية جداً بالنسبة لكثرة
الاضطهادات المريعة . وفي القرن التاسع والقرن الحادي عشر (انظر
الفصل الحادي والاربعين من الجزء الثاني والفصل السابع والاربعين من
الجزء الثالث) قد خربت كروم العنب واصبح استخراج الخمر أو جلبه
من الخارج من الامور المحرمة قطعياً على الاقباط . وقد كان غرض
المسلمين من ذلك التضييق هو انهم يعطلون على الاقباط ممارسة اسرارهم
المقدسة . وقد نجح المسلمون تدريجا في استئصال زراعة الكرم
بالكلية من البلاد ومنع جلب العنب من الخارج . فصار
الاقباط يلتزمون في جلب الزبيب من الخارج ويعملون منه الخمر
الذي يرغبونه داخل الكنيسة بطريقة سرية . اما الآن فقد الغيت بالطبع
هذه التحذيرات التي تستوجب عمل الاباركه من الزبيب. غير ان الاقباط
استمروا في اتباع عادة استعملت في اول ابتدائهن بواسطة بعض رجال
الاكليروس المتحمسين لكي يفسدوا الاسرار المقدسة. اما عن ملبوسات
وترتيبات الكنيسة القبطية فانا لا نكتب عنها شيئاً لان المستر بتلر
كتب عنها في كتابه (الكنائس القبطية) بغاية الاعتناء والتفصيل .
وضمنها بعض التعبيرات التي يعير بها الاقباط جماعة من الغربيين الجهلاء
الذين يحكمون على الامور قبل فحصها ويجب على الاقباط ان يحتجوا عليها
احتجاجا شديدا ليوقفوهم عند حدهم وعند اسناد الوساخة والفوضى اليهم

في بيوتهم وفي كنائسهم (١) ثم ان كنائسهم على الغالب غير نظيفة
وناقصة كثيرا من النظام بوجه عام مع وجود خادم خصوصي
مؤجر لتنظيفها وترتيبها وقد لا ادري في هذا المقام ان من مائة سنة
تقريبا كانت كنائسنا في انكلترا على حالة كنائس الاقباط الان .
وامامي الان تأليف عجوز انكليزية تصف فيه الوساخة والقذورات
وعدم النظام في الكنائس الانكليزية مما ينطبق وصفها على حالة الكنائس
القبطية في هذه الايام غير اني اتمنى كثيرا ان لا اسمع عن الكنائس
القبطية شكاوي من قبيل ما سمعته من ان النساء يستعملن اوراق كتب
الصلاة لتزيين رؤوس اولادهن الذين يجلسون معهم . وقد ابتدأ الاقباط
ان يستيقظوا من سباتهم ويقوموا الاصلاح كنائسهم وانا مؤملون كثيراً
ان يجيء اليوم القريب الذين يعرفون فيه كيفية المحافظة على
كنائسهم وابقائها على الدوام النظيفة

والكنائس القبطية كغيرها تقدم لها الهدايا والنذور من ابنائها حسب
طريقة الكنيسة الانكليزية . وتكون التقدمات عموما صغيرة ولكن
البطريرك المصري (القبطي) له سلطة وقوة كالسلطة التي يستعملها السماسرة

(١) ان العدل يلزمني ان اذكر شيئا من اعذار الاقباط فاقول ان القاهرة كائنة على
شاطيء نهر غزير لا ينقطع ماؤه . ولكن احياء الفقراء فيها يألمون لقلة المياه . لان
من اعمال اسماعيل باشا الخبيثة ايام حكمه انه ترك المدينة في قبضة شركة اجنبية
واحدة هي شركة المياه التي يتألم منها السكان كثيراً

الا كلير يكون في انكلترا . فبارادته ومشيئته يعين ناظراً او امين الخزينة لكل ابرشية . فهذا الموظف يجمع كل الاموال المستحقة للكنيسة وايجارات الوقف الخ ويسلمها للبطريرك الذي يدفع ماهية معينة للكاهن المخصص لهذه الوظيفة ويصرف الزائد من النقود على لوازمات الكنيسة بحسب ما يراه ضروريا. وقد قامت منازعات وخصومات ما بين البطريرك وحزب الاصلاح بسبب رغبة الاخير في استلام زمام ايرادات الكنيسة وتأييد رغبته بادلة أهمها انه لا يجوز لاي شخص واحد حتى ولا البطريرك نفسه ان يتولى ادارة ايرادات الكنيسة تحت تصرفه الشخصي المحض دون ان يقدم حساباً عن ذلك لعموم الشعب ومنها انتخاب مجلس علماني (مجلس ملي) لاستشارته في توزيع الايرادات بالطرق اللائقة لها بحسب احتياجات الكنيسة والشعب ومنها وجوب صرف أغلب الايرادات في سبيل التعليم . أما البطريرك فانه واقف حجر عثرة في سبيل مطالب هذا الحزب متمسك بحقوقه الشرعية مثل باباوات روميه ويقول ان فكره اكثر عدلا من فكرهم . ولكن قد اتفق الرأي العام القبطي على انه ولو ان البطريرك الحالي غير حكيم ومفرط في ايرادات الكنيسة تحت ايدي رجال الاكليروس فانه امين وغير محب للذات في التصرف لما هو مؤتمن عليه . وينتظر الاقباط انه بمجرد خلو الكرسي البطريركي منه يرجعون حالا الى عوائد المسيحية القديمة بان ينتخبوا لبطريركهم الجديد رجلا يكون كاهنا متعلما متزوجا محنكا في التجارب والاختبار بدلا عن رجل

قديس جاهل من رهبان وادي النطرون يصبح بطريركا عليهم

والحق يقال انه مع وجود فقر كثير عند الاقباط الا انه لا يوجد في الحقيقة نوع الاحتياج او الشحاذة بينهم الا القليل لان ذوي الاحسان منهم لا يجهلون حالة ابنائهم المحتاجين . حتى ان المثريين منهم او اصحاب الرواتب العالية يعتقدون بالبداهة الطبيعية ان من الضروري مساعدة اقربائهم الذين لا يسألون ما عدا تلك الجهة التي يقطنها الاقباط عند الحصن الروماني (بمصر القديمة) حيث علمهم السياح درسا شريراً بكثرة هباتهم عليهم فاتخذوا الشحاذة مهنة في تلك الجهة النيلية اما في سائر البلاد وفي كل مكان يغمر فيه السياح الاهالي بهباتهم فقلما تجد قبطيا واحداً خرج اليهم اومد يده ليطلب كسرة خبز او درهم من اي كان وانما كثيرا ما رأيت ان بعض الاولاد الاقباط يطلبون كتبا من السياح ولا يطلبون منهم نقودا ولما سحت لاخر مرة عام ١٨٩٤ في اعالي النيل رايت صياح الناس والاولاد علي وعلى باقي السياح طالبين البقشيش ثم احتاطوا بنا بشكل لا يطاق وبالبحث والملاحظة لم اجد بينهم قبطياً ثم لما اتجهت الى الاحياء القبطية في اسنا واصون لاحظت ادبا كثيراً وسكونا عظيما ولم اسمع قبطيا واحداً يطلب بقشيشا على مثال احوال المسلمين البحته التي أصبحت عندهم عادة . وفضلاً عن ذلك فان كل الاقباط تربوا على احتراف بعض الحرف والصنايع اليدوية أو التجارة التي تغني فقراءهم عن عيشة الكسل وعلى الاعتماد عدم الشحاذة وذلك بعد أن يخزلوا من الاستخدام في دوائر

الحكومة . من النادر حينما تجد الاقباط يشتغلون خدمة في المنازل أن
لم يقبل عليها واحد منهم ببساطة وسذاجة وليس عند الاقباط الذكاء
اللازم لعمل أي شيء اخر خلاف ما تقدم .

ومنذ سنة ١٨٨٤ قد تحرر الاقباط من كل المضعفات القضائية
ولم يبق من ظلمهم وشكواهم الحقيقية الا مواظبتهم على موالاتهم للمسلمين
علنا بواسطة اغلب كبار الموظفين الانكليز أو الاتراك لانه تقريبا كل
الموظفين الكبار الذين يختلط معهم الانكليز من الحزب الذي تسر
افئدته كثيراً من الحط على الاقباط . فضلا عن يعلمونهم دائما في اظهار
الاقباط بمظهر غير محبوب ومقبول لا يدفعوا الانكليز الى مديد الاذى ضد
الاقباط بكل بساطة وسذاجة — أي أن الانكليزي يقتنع بذلك كقاعدة
عمومية — أن لم ير ضرورة امتحان القبطي شخصيا — فيتكلم عنه بحسب
اختباره اياه ونادراً لما يتفق للانكليزي أن يتخذ براهينه للقبطي على اساس
الانجيل وللمسلم على اساس اخر اوطىء كثيراً من البراهين التي يستعملها
لنفسه . وقد تكلمت كثيراً على الصعوبات والعثرات الملقاة في طريق
ترقية الاقباط في الجيش ومثلها تقريبا في كل دوائر الحكومة . وفي
الحقيقة أن انكليزيا عظيما أتى مصر « أعني به لورد كرومر » على تصميم
النية على أن لا يستخدم في المصالح الاميرية الا المسلمين « باعتقاده
ان المسلمين أصحاب الاكثرية من المصريين الحقيقيين » ونفذ غرضه بقدر
امكانه ويظهر انه من عهد محمد علي الى الآن لم يتعين قبطي في وظيفة مدير أو

وكيل مديرية ولو انه ارقى من المسلم واذكى واشد دهاء وولاء . ولكن على
كل حال هذه مصاعب صغيرة يكابدها شعب عظيم تألم شديد الالم اكثر من الف
سنة ومعظم الاقباط ممتنون من الحماية التي يتمتعون بها في عصر جلالة
ملكتنا فيكتوريا ؟

انتهى بحمده تعالى الجزء الرابع وهو خاتمة أجزاء الكتاب

في اول نوفمبر سنة ١٩١٠ ميلادية

خاتمة اضافيه

بقلم صاحب جريدة مصر الذي تولى ترجمة وطبع هذا التاريخ

قد تم ولله الحمد ترجمة وطبع هذا التاريخ النفيس الذي هو تاريخ
اقدم الحوادث لاقدم الامم وهو التاريخ الثابت المحقق لجميع حوادث
مصر السياسية والاجتماعية والملية ايضا التي وقعت فيها من اول ايامها
الى الاحتلال الانكليزي مقترنا ايضا بتواريخ جميع بلاد الشرق في تلك
الحقبة الطويلة من الدهر وفيه الايضاح الوافي لاشهر الحوادث التي
وقعت ايضا في بلاد الغرب اثناء تلك الاجيال الطويلة وكان لها اتصال
او علاقة ببلاد الشرق

فهو من هذا القبيل تاريخ عام لاهم الحوادث التي وقعت في
العالم كله في الازمنة القديمة والحديثة وتاريخ خاص لذلك الشعب النشيط
العجيب الذي نشأ منذ اول عمران المسكونة بالجنس البشري وقطن هذه

البقعة الشمالية من قارة افريقيا على ضفتي النيل حيث لعب ادواراً مهمة فيها وفي سائر الممالك والبلدان المجاورة له عادت بالرقي العجيب والتقدم الغريب على جميع سكانها كما عادت عليه بالفلاح والنجاح قروناً طويلة بل هو الشعب الذي انار الدجى بمصابيح العلم والهدى في العالم كله كما تدل على ذلك اثار رقية الباقيه الى اليوم تناطح السحاب رغماً عن اعتداء جميع امم وقبائل الارض عليه وعليها حديثاً . ذلك الرقى الذي قال عنه اشهر علماء اوربا في هذا العصر هذه العبارة المأثورة (اننا لو افتخرنا مهما افتخرنا بعلوم واختراعات اوربا الحديثة نقف مبهوتين امام ما كان للمصريين القدماء من ذلك مما تظهره اثارهم العجيبة كل يوم)

فهذا الشعب هو الشعب القبطي الذي لبث من عصر الرومانيين الى الان عرضة لاضطهادات ونكبات وويلات لا حد لها ولا نهاية ورغماً عما عملت فيه السيوف والنيران في كل تلك الازمان من الفظائع التي افنت قواه وانقصت عدده الى ما دون العشر بقي الى اليوم وهو شعب قوي امين لله والناس وثابت على مبادئه القويمة الاصلية لا تزعزعه عنها اي كارثة ولا يثني عزيمته اي اضطهاد مهما طال زمانه وتعددت انواعه

ولا شك ان حضرة السيدة الفاضلة والكاتبة المجيدة البارعة المسز ا . بتشر التي قضت عدة اعوام تعاني المشاق والاوصاب في جمع هذا التاريخ الذي عجز عنه جميع الاقباط انفسهم لجديرة بالشكر الوافر والحمد المتواصل من جمهور مجموعهم وافرادهم بل من المصريين اجمعين على هذه

الخدمة الجليلة التي خلدت لها اعظم ذكر لا يمحى مدى الدهر

هذا ومن الذين لهم الفضل الاكبر على ترجمة هذا الكتاب الجليل الى العربيه سعادة مرقص بك سميكه والمرحوم الطيب الذكر رفله بك جرجس والذين باشروا الترجمة بالذات هما حضرتي الفاضلين اسكندر افندي تادرس من مزارعي السودان الان ونسيم افندي فهمي احد موظفي ادارة سكة الحديد فقد ترجم اولهما الجزئين الاول والثاني وثانيهما الثالث والرابع وتحملا في ذلك اتعاباً تذكر لهما بالشكر الوافر والثناء العاطر . ولا يفوتنا هنا ان نشير الى القراء التشجيع العظيم الذي لقيناه اثناء مباشرة ترجمة وطبع هذا الكتاب على نفقتنا الخصوصية من عميد الامة القبطية المرحوم الخالد الذكر بطرس باشا غالي بعد ان علم بما تكبدناه في ذلك من الاتعاب الجمة والنفقات الكثيرة خصوصاً بعد احتراق ما كان ترجم وطبع منه واضطرارنا الى تكرار ذلك بنفقات جديدة فقد كتب الينا من الاسكندرية رحمه الله كتاباً رقيقاً بخط يده الكريمة يتضمن ارق العبارات واجلها يمتدح منا هذا العمل ويثني علينا لاجله اطيب الثناء مما دل على ما كان له من الاهتمام بكليات الامور وجزئياتها طيب الله ثراه

هذا وبما ان هذا التاريخ يقف عند بداءة ايام الاحتلال الانكليزي لمصر ولا يشتمل لايام التي تليها ونظراً للحوادث الكثيرة التي وقعت في هذه الفترة وهي ليست بقصيرة قد اخترنا الله في وضع جزء تاريخي مخصوص لها حسب ما لدينا من المعلومات التامة عنها وبالله المستعان وله الحمد على نعمائه في كل حين وكل ان (تادرس شنوده المنقبادي)



تاريخ الامة القبطية و كنيستها

المجلد الاول

صحيفة

المجلد الثاني

صحيفة

المجلد الثالث

صحيفة

المجلد الرابع

صحيفة